

دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

حقة مضيئة في تاريخ مصر

القديس أثناسيوس الرسولي

البابا العشرون

(296 - 373م)

سيرته، دفاعه عن الإيمان ضد الأريوسيين، لاهوته

الأب متى المسكين

كتاب: القديس أثناسيوس الرسولي - البابا العشرون
سيرته، دفاعه عن الإيمان ضد الأريوسيين، لاهوته
المؤلف: الأب متى المسكين
الطبعة:

مطبعة دير القديس أنبا مقار - وادي النطرون.

صندوق بريد 2780 القاهرة.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:

رقم الإيداع الدولي:

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف.

صورة القديس أثناسيوس الرسولي
هذه الصفحة سوف توضع بالتصوير

القديس أثناسيوس الرسولي

296 - 373م

ذكصولوجيتان للقديس أثناسيوس الرسولي
عن مخطوطات قبطية قديمة
(نشرها المتنيح العالم القبطي الأستاذ يسى عبد المسيح)

nacioc > pi`ctulloc `nte;ekklhcia>؛ahw pini]; ao
;kripic ettajrhout> `ntepina\; `norqodo[oc.
~MPX?C?> pipatriarxhc ؛I-PIMANECWOU ETEN|T> ~NTEPIIO|
ettaihout> aqanacioc pipatriarxhc.
twb\> pasc? `niwt `ndikeoc> akllqanacioc piapoctolikoc> `ntex.

المحتويات

♦♦♦♦♦

الباب الأول: القسم التاريخي

مقدّمة شخصية القديس أنثاسيوس التاريخية.....
سيرة القديس أنثاسيوس
نص المخطوطة التي تروي طرفاً من سيرة أنثاسيوس
الفصل الأول: طفولة القديس أنثاسيوس حتى زمان اعتلائه كرسي الإسكندرية
ميلاده والمدينة التي تربّى فيها
عادات رسولية
والد القديس أنثاسيوس وأثره في حياة أنثاسيوس
بقية أخباره مع عائلته
أنثاسيوس سكرتير البابا ألكسندروس
دراسات أنثاسيوس المدنية والروحية
ذخيرة الآباء تُضاف لرصيد أنثاسيوس
أنطونيوس الكبير في حياة أنثاسيوس
مؤلفات أنثاسيوس قبل رسامته أسقفًا
أنثاسيوس وصراعه مع الأريوسيين (قبل مجمع نيقية سنة 319 - 325م)
أنثاسيوس في مجمع نيقية: سنة 325م
العودة المنتصرة وآلام في الأفق
الفصل الثاني: تقديم أنثاسيوس أسقفًا على الإسكندرية وجهاده حتى منفاه الأول ..
ألقاب القديس أنثاسيوس التي كان يُخاطب بها
الأيام الأولى في أسقفية البابا أنثاسيوس
الأريوسيون أيضاً ينظّمون صفوفهم، استعداداً للمقاومة
الميليتيون يتحدون مع الأريوسيين تحت إغراءات ووعد
الأعداء غير المباشرين يمثلون خطراً ليس بقليل
بداية تحرُّك الأريوسيين، ورسم الخطة ضد أنثاسيوس
عملية كماشة للإطباق على أنثاسيوس
والآن جاء دور أنثاسيوس
محاولة تحقيق المرحلة الأول
محاولة تحقيق المرحلة الثانية
الميليتيون يدخلون المعركة بوجه سافر
يوسابيوس يستعد لملاقات أنثاسيوس في نيقوميديا
القديس أنثاسيوس يتعوّق في العودة إلى الإسكندرية

مزيد من الاتهامات والافتراءات التي لا علاقة لها بالإيمان أو العقيدة

أولاً: موضوع إسخيراتس

ثانياً: موضوع أرسانيوس

احتجاج أثناسيوس لدى الإمبراطور وإلغاء اقتراح مجمع قيصرية

جمع الوثائق:

- الوثيقة الأولى: بخصوص ادعاء إسخيراتس

خطاب إسخيراتس إلى أثناسيوس يعترف فيه بجريمته

- الوثيقة الثانية: بخصوص أرسانيوس المقتول كذباً

رفع التقرير مع الوثائق إلى الإمبراطور، وإيقاف إجراءات المحاكمة

الإمبراطور قسطنطين يعتذر للبابا أثناسيوس ويمتدح حكمته

اعتراف الأسقف أرسانيوس المقتول "كذباً":

وأخيراً يوحنا أركاف ينسحب

مجمع صور: (يوليو - سبتمبر سنة 335م)

+ الغيوم تتكاثف بشدة وبسرعة، مهاترات أكثر منها محاكمات

+ بداية تُنبئ بالنهاية

+ في المجمع

+ ملاحظة

+ أثناسيوس يقلع سرّاً لرفع دعواه إلى الإمبراطور

+ اختلاق مؤامرة جديدة أتت بنتيجتها فوراً

+ النفي الحزين إلى تريف

+ حقيقة نفي تريف من الوجهة الكنسية

+ نيّة الإمبراطور قسطنطين من جهة نفي القديس أثناسيوس

تعليق القديس أثناسيوس على هذا الخطاب مؤيداً ما جاء به

الفصل الثالث: جهاد البابا أثناسيوس حتى منفاه الثاني

الحوادث التي جرت أثناء وجود أثناسيوس في تريف ببلاد الغال

مدة النفي في تريف

حالة البابا أثناسيوس وهو في المنفى بمدينة تريف

الحوادث التي جرت بينما كان البابا أثناسيوس في تريف

قرارات مجمع صور في غيبة أثناسيوس

تدشين كنيسة القبر المقدّس وقبول أريوس في الشركة

مجمع أورشليم وقصة قبول أريوس، على أساس خداعه السابق للإمبراطور
قسطنطين.....
إرسال أريوس إلى الإسكندرية وطرده منها.....
الإشارة الأولى.....
الإشارة الثانية.....
عودة أريوس إلى القسطنطينية وموته هناك:.....
دموع ألكسندر وصومه وصلاته تُسمع لدى الله.....
وصول خبر موت أريوس إلى أثناسيوس وهو في المنفى.....
وقفه قصيرة.....
احتجاج شعب الإسكندرية.....
موت الإمبراطور قسطنطين، وعودة أثناسيوس إلى الإسكندرية.....
وصية الإمبراطور الأخيرة بالنسبة للقديس أثناسيوس.....
محاولات يوسابيوس المستميتة لنشر الأريوسية في غيبة أثناسيوس.....
عودة أثناسيوس.....
الإسكندرية تستقبل البابا أثناسيوس.....
الأريوسيون يثيرون الشغب ويخطّون لمؤامرة جديدة.....
القديس أنطونيوس ينزل من الجبل إلى الإسكندرية لمعاونة أثناسيوس.....
الاضطهاد الأول على يد الإمبراطور قسطنطيوس بتدبير الأريوسيين.....
اليوسابيون يدبّرون الخطط مع الإمبراطور قسطنطيوس في الخفاء.....
تحركات الأريوسيين.....
أول خطوة في المؤامرة، تعيين بستوس بدلاً من أثناسيوس أسقفاً على
الإسكندرية.....
يوسابيوس يستخدم عنصر المفاجأة والإرهاب في مؤامره الجديدة.....
أثناسيوس يعتكف ويكتب خطابه العام.....
ما جرى في روما، والنفي الثاني بسنينه الطويلة.....
أعمال أثناسيوس في الفترة الأولى من النفي الثاني.....
الحوادث التي جرت في الإسكندرية في غياب البابا أثناسيوس.....
الخطابات الفصحية:.....
+ تحديد الفصح لسنة 340 م.....
+ تحديد الفصح لسنة 341 م.....

- + تحديد الفصح لسنة 342م
- + تحديد الفصح لسنة 343م
- + تحديد الفصح لسنة 344م
- + تحديد الفصح لسنة 345م
- + تحديد الفصح لسنة 346م
- اضطهاد غريغوريوس الكبادوكي لعائلة أثناسيوس
- القديس أنطونيوس يشعر بمسئولته تجاه الكنيسة في غيبة رئيسها
- القديس باخوميوس يرسل وفداً للاستفسار عن حال الكنيسة في غيبة رئيسها .
- ملاحظة هامة
- مجمع روما: خريف سنة 340م
- وقع خطاب يوليوس على اليوسابين
- مجمع أنطاكية المشهور بمجمع التدشين
- بعثة الأريوسيين إلى الإمبراطور قسطانس في الغرب
- مقابلة أثناسيوس للإمبراطور قسطانس وفكرة عقد مجمع عام (خريف سنة 342م):
- مجمع سرديكا (صوفيا) صيف عام 343م
- حرومات مجمع سرديكا
- حرومات مجمع فيليبوبوليس الأريوسية
- الأثار المباشرة التي ترثبت على مجمع سرديكا
- محاولة شيطانية للإيقاع بشرف أساقفة قسطانس، فكانت هي النهاية
- الإمبراطور قسطنطيوس يجوز انتفاضة إيمانية وأخلاقية
- الإمبراطور قسطنطيوس يتوَدّد إلى أثناسيوس ويرجو مقابلته قبل موت غريغوريوس الكبادوكي
- الخطابات الثلاثة التي أرسلها الإمبراطور قسطنطيوس إلى أثناسيوس:
- + الخطاب الأول
- + الخطاب الثاني
- + الخطاب الثالث
- وداع الأصدقاء وخطاب يوليوس الطيب القلب المملوء رقة
- تعليقنا على رسالة يوليوس أسقف روما لكنيسة الإسكندرية
- أثناسيوس يقابل الإمبراطور قسطنطيوس

العودة إلى الإسكندرية: 24 بابة - 21 أكتوبر سنة 346م

رهبان باخوميوس يهنئون أثناسيوس بالعودة حاملين له رسالة من القديس
أنطونيوس

الفصل الرابع: جهاد أثناسيوس حتى النفي الثالث
.....

فترة هدوء وسلام طويلة

الحلقة الذهبية في حياة أثناسيوس 346م - 356م

+ المرحلة الأولى 346-351م

+ المرحلة الأولى 351-356م

نهضة رعائية عامة وشعبية في كل النواحي الروحية

+ أولاً: نشاط متزايد جداً في الخروج من العالم لتقبل الحياة الرهبانية بالنسبة
للفتيات والشبان

+ ثانياً: إقبال الأسر على أعمال النسك والتدقيق في الحياة

+ ثالثاً: دخول المتزوجين في تنافس مع النساك والرهبان

+ رابعاً: تكوين منظمات شعبية لخدمة الأرامل والأيتام من جهة الأعواز
الجسدية

+ خامساً: تكوين اجتماعات روحية في البيوت في حدود الأسرة للصلاة
والتسبيح والشكر

+ سادساً: نشاط الخدمة داخل الكنائس

+ سابعاً: نشاط ملحوظ في الوعظ والنشرات الدورية لإقناع المرتدين

القديس أثناسيوس والحياة الرهبانية (في الفترة من سنة 346م - 356م)

أثناسيوس يرسم أساقفة على الكراسي الشاغرة من الرهبان

أثر ارتباط الأساقفة الرهبان بأديرتهم وزملائهم الرهبان

تطهير الأقاليم والأديرة من الأريوسية

نموذج لرسائل الأساقفة

نموذج لخطابات الرهبان

تكاثر عدد المؤمنين في الإسكندرية بصورة سريعة، وقصة كنيسة سيزار

تأليف أثناسيوس في هذه الفترة:

(1) "الدفاع عن مجمع نيقية"

(2) "على أفكار ديونيسيوس"

(3) "الدفاع ضد الأريوسيين"

مدرسة الإسكندرية اللاهوتية
العوامل التي أدت إلى تجدد الاضطرابات للمرة الثالثة
الموقف المتأرجح في كنيسة أورشليم في ذلك الوقت
موت قسطانس
موت ماجننتيوس وبداية الاضطهاد العلني ضد أثناسيوس
مجمع في آرل وآخر في ميلان ضد أثناسيوس
مجريات الحوادث بالتدقيق
أولاً: بعثة أثناسيوس السلامية إلى قسطنطيوس برئاسة سيرابيون
ثانياً: بعثة قسطنطيوس الخبيثة لدعوة أثناسيوس لمقابلة الإمبراطور في ميلان

(أ) ثورة ماجننتيوس الطاغية وسلوانس المرتد عن الإيمان والقضاء عليهما
(ب) تمرد اليهود في فلسطين
(ج) ذبح غالوس قيصر
مجمع آرل وقصة اضطهاد أثناسيوس الثاني، على يد الإمبراطور قسطنطيوس .
حنث أورساكيوس وفالنس
حنث الإمبراطور في أقسام
مجمعا آرل وميلان: (353-355م)

قسطنطيوس يبدأ الاضطهاد من بعيد استعداداً للانقضاء على الإسكندرية

قسطنطيوس يباشر الاضطهاد بنفسه وهو في آرل وميلان (353-355م):
أساقفة الغرب يلقنون الإمبراطور درساً في شجاعة الإيمان
نتيجة مجعي آرل سنة 353م وميلان سنة 355م
أساقفة الغرب الأرثوذكس يواجهون النفي فينشرون هناك معرفة الحق
قضية ليباريوس أسقف روما
استمرار اضطهاد ليباريوس أسقف روما حتى زلّ في النهاية صاغراً ووقع
على وثيقة الأريوسيبي

ليبريوس في أعلى حالة من الوعي الإيماني، وعبثاً يحاول الخصي
ليبيوس ينتفض نفضة الشرف ويرفض الهدايا والإمبراطور يثور
حتى روما لم تقلت من مصائب الأريوسيين للضغط على ليبريوس
ليبريوس أمام الامبراطور: قوة هائلة ورباطة جأش منعدمة النظير حبذا لو

استمرت ولكن للأسف

ليبريوس يتجه إلى المنفى مثل باقي أساقفة الغرب
أثناسيوس يلتمس العذر لسقوط ليباريوس وتوقيعه بالحرم على أثناسيوس والشركة
مع الأريوسيين
رواية المؤرخ ثيودوريت عن الحوار التاريخي المنقطع النظير بين ليباريوس
والإمبراطور
بين ليبريوس والإمبراطور قسطنطين
أثناسيوس يلتمس العذر لسقوط هوسبيوس أيضاً
الإمبراطور ينفى جميع أساقفة الأرثوذكس في الغرب والشرق ويلتفت صوت
الإسكندرية حيث يبقياثناسيوس وحده ليوأجه الاضطهاد الثاني من يد قسطنطيوس ...
الإمبراطور قسطنطيوس
ليباريوس أسقف روما
الأسقف إبيكتاتوس يتدخل

الفصل الخامس: بداية المعركة السافرة ضد أثناسيوس قصة الاضطهاد في الإسكندرية واقتحام الكنائس وقتل المؤمنين واختفاء أثناسيوس في البراري ودخوله المنفى الثالث الطويل

تمهيد
بداية المعركة السافرة ضد أثناسيوس
إحكام خطة الانتفاضة
+ إمبراطور جبان
+ أثناسيوس يستغل ضعف الإمبراطور
+ السلطات تصطنع الحكمة وتدبر الخطة مع رسل الإمبراطور
+ انخداع الشعب وقبوله الأمان المزيف
+ الهجوم الغادر على قوم يؤدون الصلاة داخل الكنيسة
أثناسيوس يستغل تناقضات الإمبراطور أقصى استغلال
مصير القديس العظيم أثناسيوس
الفضائع التي حدثت للكنائس والأساقفة بعد اختفاء أثناسيوس
+ بخصوص اضطهاد الكهنة والشمامسة يقول أثناسيوس
+ بخصوص اضطهاد الأساقفة التابعين لأثناسيوس في مصر وليبيا يقول
أثناسيوس
الإمبراطور يقدم جورج الكبادوكي "الأقدس" الأسقف اللص المغتصب لشعب

- الإسكندرية
الإمبراطور يُرسل إلى أثيوبيا يحذّر من قبول أثناسيوس وليستدعي فرومنتيوس
لإعادة تعليمه
- الإمبراطور يسلم الكنائس في مصر رسمياً إلى الأريوسيين
- (أ) دخول المغتصب جورج الكبادوكي إلى الإسكندرية
- (ب) هرب جورج الدخيل المغتصب
- (ج) قتل جورج الدخيل بلا رحمة
- أثناسيوس في منفاه الاختياري الثالث، مؤلفاته ودفاعه أثناء ترحاله
- أعمال أثناسيوس خلال فترة منفاه الثالث، وهي عبارة عن كتاباته
- 1 - كتاب الدفاع لدى قسطنطين
- 2 - الخطاب إلى الأساقفة في مصر وليبيا
- 3 - كتاب سيرة القديس أنبا أنطونيوس
- 4 - كتاب دفاعه عن هروبه
- 5 - خطابات إلى لوسيفر:
- + الخطاب الأول
- + الخطاب الثاني
- 6 - خطابات إلى الرهبان المصريين:
- + خطاب رقم 53
- + خطاب رقم 52
- + خطاب رقم 54
- 7 - تاريخ الأريوسية أو الرسائل إلى الرهبان
- 8 - كتاب "أربع مقالات ضد الأريوسيين"
- 9 - خمسة رسائل عقائدية لسيرايبون أسقف تمي
- مقدونيوس أسقف القسطنطينية وتعاليمه عن الروح القدس
- خطاب أثناسيوس عن الروح القدس
- 10 - كتاب المجامع
- العالم المسيحي في غياب أثناسيوس غرباً وشرقاً: أحزاب، مجامع، قوانين، دسائس
قتل ونفي
- أولاً: بعد مجمع أريمنم وسلوقيا
- مجمع أريمنم

ملاحظة هامة

عشرون من الأساقفة يحملون توصيات المجمع إلى الإمبراطور
رد الإمبراطور على رسالة الأساقفة
رد أساقفة مجمع أريمنم على الإمبراطور
رحيل الأساقفة بدون إذن الإمبراطور
الإمبراطور يختلق الاتهام للأساقفة بسبب رحيلهم
أورساكيوس ورفقاؤه يحصلون من الإمبراطور على تفويضات فوق العادة
الزمن الحقيقي لنفي ليبريوس
فيلكس يخلف ليبريوس في الحال
مجمع سلوقيا في إيشوريا في الشرق
أكاكيوس أسقف قيصرية يضع قانوناً جديداً للإيمان في مجمع سلوقيا
ثانياً: مجمع القسطنطينية (ديسمبر 359-360م)
العالم كله يئن ويتوجع ويتعجب كيف (ولماذا) وجد نفسه قد صار كله أريوسياً؟
عودة مؤقتة من النفي، موت قسطنطيوس وظهور أثناسيوس في الإسكندرية
الفصل السادس: الجهاد حتى المنفى الرابع والخامس

مجمع الإسكندرية صيف 362
1 - مشكلة أساقفة مجمع أريمنم الذين يريدون العودة إلى الإيمان المستقيم
2 - مشكلة انقسامات أنطاكية
3 - اصطلاح الهيوستاسيس (الأفنوم)
4 - بخصوص التجسّد
5 - بخصوص الروح القدس
أثناسيوس في النفي الرابع والخامس [21 فبراير 362م - أول فبراير سنة 366م]

كيف عاد أثناسيوس من منفاه بناءً على رؤيا
قصة الراهبين ثيودوروس وبامون بخصوص عودة أثناسيوس مع تحقيقاتها
وتفريعاتها
ثورة أنطاكية وموت يوليانوس الجاحد
يوليانوس الجاحد في أنطاكية وأورشليم
موت يوليانوس الجاحد بسهم في جنبه في 26 يونيو سنة 363م
تعيين الإمبراطور جوفيان

الأمر بعودة الأساقفة المنفيين وخطاب خاص لأثناسيوس
أثناسيوس يعود إلى الإسكندرية فوراً
أثناسيوس يسافر إلى أنطاكية
أعمال أثناسيوس في أنطاكية
لماذا تأخر أثناسيوس في أنطاكية
الأريوسيون يلحون
موت الإمبراطور جوفيان المفاجئ
تنصيب فالانتينيان امبراطوراً على الغرب وتعيين أخيه فالنس على الشرق
بدء الاضطهاد على أيام فالنس
اضطهاد فالنس لأثناسيوس والنفي الخامس والأخير [5 مايو سنة 365-أول فبراير
سنة 366م]
سنين أثناسيوس السلامية الأخيرة [أول فبراير سنة 366م-2 مايو سنة 373م] ..
حادثن صغيران
مجمع الإسكندرية سنة 369م
بقية أعمال القديس أثناسيوس الأخيرة
قصة سيداريوس
صداقة باسيلوس أسقف قيصرية
تبادل الاحترامات
نشاط حتى النفس الأخير
رسالتان ضد أبوليناريوس أسقف اللاذقية
مديح بأوصاف أثناسيوس للعلماء
عظة ومديح للقديس غريغوريوس النزينزي يمدح أثناسيوس الكبير

الباب الثاني: القسم اللاهوتي

صراع أثناسيوس اللاهوتي ضد الهرطقة الأريوسية مع عرض مختصر للأصول
اللاهوتية قبل قيام الأريوسيين
مقدمة: شخصية القديس أثناسيوس الروحية واللاهوتية
أولاً: علاقته الشخصية بالمسيح
ثانياً: تمسُّكه بوسائل النعمة
ثالثاً: تمسُّكه الشديد بالتقليد الكنسي

رابعاً: اتصاله المستمر بالأوساط الرهبانية

خامساً: إدراكه الواضح لحدود العقل في المعرفة اللاهوتية

سادساً: إدراكه أن علاقتنا بالمسيح هي علاقة كيانية أي علاقة ثبات متبادل ..

سابعاً: روحه الكنسية العالية جداً

الفصل الأول: أساس الفكر اللاهوتي العام في الكنيسة قبل قيام الأريوسية

الصراع اللاهوتي ضد الأريوسية كيف ابتدأ وكيف انتهى

مقدمة

أساس الفكر اللاهوتي العام في الكنيسة قبل قيام الأريوسية

أولاً: ذخيرة الإيمان بالمسيح كقوة فعّالة بحسب التقليد الرسولي، وليس هو برنامج

فلسفة

الكنيسة اعتمدت في شرحها للإيمان على حقيقة الخلاص الذي تعيشه

ثانياً: لاهوت المسيح وصلة الابن بالآب في الكنيسة قبل أريوس

1 - تسمية المسيح "بالابن" عند الآباء

مخاطر التحليل المنطقي لتفسير علاقة الابن بالآب،

2 - استخدام لقب "اللوغس" (الكلمة) كمقابل للقب الابن، عند آباء ما قبل نيقية

.....

3 - الاصطلاحان الحارسان لمفهوم الوحدة الإلهية

أولاً: "في الله TMn qeù"

ثانياً: "من الله TMk qeoà"

4 - الاصطلاحات اللاهوتية التي استخدمها الآباء لشرح العقيدة

(أ) طبيعة

(ب) الشخص

(ج) الجوهر

(د) الأفتنوم

5 - الصفات الذاتية الخاصة بعلاقة الابن بالآب والابن بالخليقة

(أ) علاقة الابن بالآب

+ مولود غير مخلوق

+ وحيد الجنس

(ب) علاقة الابن بالخليقة: البكر

6 - الفارق الكبير والخطير بين وحيد الجنس: والبكر:

7 - "الهوموؤوسوسوس" - واحد مع الأب في الجوهر -

ملخص الفصل الأول

الفصل الثاني: ظهور أريوس وبدعته

أولاً: العوامل والظروف التي ساعدت على انتشار بدعة أريوس

ثانياً: الهرطقة الأريوسية المبادئ اللاهوتية التي قامت عليها

ملخص الفصل الثاني

الفصل الثالث مضمون العقيدة التي قام عليها دفاع أثناسيوس

ملخص الفصل الثالث

الفصل الرابع: فكرة عن المنهج اللاهوتي العام للقديس أثناسيوس

أولاً: أسلوبه العام

ثانياً: الاتجاهات المدرسية للاهوت أثناسيوس

أهم المبادئ الخلاصية التي يقوم عليها لاهوت أثناسيوس

ملخص الفصل الرابع

الفصل الخامس: الإنسان والخلاص في اللاهوت عند أثناسيوس

أولاً: أسس التقليد الأبائي التي يقوم عليها الخلاص

ثانياً: أساس لاهوت الخلاص عند أثناسيوس

حالة الإنسان الأولى وما آلت إليه وما أعوزها - في إطار معنى الخلاص - .

ثالثاً: موت المسيح على الصليب عند أثناسيوس في إطار معنى الخلاص

رابعاً: نتيجة غلبة الموت والفساد التي أكملها المسيح لحسابنا - في إطار معنى

الخلاص -

خامساً: التبني، وعقيدة وحدة المؤمنين في جسد المسيح - في إطار معنى

الخلاص -

ملخص الفصل الخامس: الإنسان والخلاص في اللاهوت عند أثناسيوس

الفصل السادس: النظرة إلى المسيح كإنسان

أولاً: أثناسيوس والمواقف السلبية التي للأريوسيين من جهة بشرية المسيح ...

ثانياً: موقع العذراء من التجسد وبالتالي من بشرية المسيح

ملخص الفصل السادس

الفصل السابع: معرفة الله في ذاته، ومعرفة الله في الخليقة

أولاً: معرفة الله في ذاته، ومعرفة الله في الخليقة

ثانياً: أثناسيوس والخلق

ملخص الفصل السابع

الفصل الثامن: استعلان الثالوث ووحداية الله على مستوى المعرفة عند

أثناسيوس

أولاً: تجسّد الكلمة كان واسطة لمعرفة الله، أي لاستعلان الأب والابن والروح القدس

ثانياً: المعرفة الكاملة المتبادلة بين الأب والابن

ثالثاً: الابن، "الكلمة" بتجسّده أعلن الأب، وس يظل يعلنه إلى الأبد

رابعاً: العلاقة بين النور وبهاء (شعاع) النور كأساس لإدراك حقيقة الله

خامساً: الأب يعلن الابن (اللوغس)

ملخص الفصل الثامن

الفصل التاسع: الإيمان والشهادة للمسيح كفعالين متلازمين مع المعرفة عند القديس

أثناسيوس

أولاً: الإيمان الصحيح يقود للمعرفة الصحيحة

الإيمان فعل نعمة ممتد لمزيد من المعرفة والاستعلان

صلاة الإيمان المستقيم هي الفعّالة فقط

الإيمان الصحيح يأتي مع التعليم الصحيح ليبلغ فعل التقديس بالنعمة

الإيمان الصحيح بالمسيح، في مفهوم أثناسيوس، هو من داخل الثالوث

الإيمان، بالإضافة إلى أنه نعمة، فهو يعتمد على حالة أو تدبير النفس الداخلي

الإيمان بالمسيح فعّال، ولكن إيمان البرهان والعقل هو بدون فعل

الإيمان بالمسيح هو الذي يعلن لنا الثالوث، ويؤهلنا للاتحاد بالثالوث

الإيمان بالمسيح عند أثناسيوس يعني العبادة، حيث تتحوّل المعرفة إلى خلاص وحياة أبدية

الإيمان الصحيح عند أثناسيوس، لا يقوم على فهم شخصي، ولا على

ما هو المقصود من قانون الإيمان عند أثناسيوس؟

علاقة قانون الإيمان والفكر الكنسي بالتقوى والاستقامة والصلاح عند أثناسيوس

.....

ثانياً: الشهادة (الاعتراف) بالمسيح وعلاقة ذلك بمعرفة الله أو استعلانه

ملخص الفصل التاسع

الفصل العاشر: الروح القدس وكمال استعلان الثالوث عند القديس أثناسيوس .

ماهية الروح القدس كأقنوم إلهي في الثالوث المتساوي

تعاليم العهد القديم من نحو الروح القدس التي ورثها الرسل الأوائل

أولاً: من خلال أسفار العهد القديم العبرية وتعاليم الربيين
ثانياً: من خلال الأسفار القانونية الثانية المدعوة بالأبوكريفا - Duetero-
canonical
ثالثاً: بداية العصر المسيحي
رابعاً: عصر الرسل
1 - إعلان الروح القدس عن نفسه عملياً للرسل
2 - استعلان الرسل للروح القدس لاهوتياً
أ - الروح القدس يلد (يخلق ثانية) الإنسان ويتبناه لله
ب - الروح القدس يحررنا ويتدرج بنا في الكمال المسيحي بالاستنارة
ج - الروح القدس يوحد المؤمنين في جسد المسيح
د - الروح القدس يوزع المواهب على المؤمنين
هـ - الروح القدس يضطلع بحفظ الوديعة الصالحة أي التقليد السليم في الكنيسة
بالإيمان
و - الروح القدس بعد أن يستودع مواهبه في قلوب المؤمنين الساكن فيهم ينتظر منهم
الإعمال الصالحة
ح - الروح القدس يظل يشهد للمسيح في الكنيسة من داخل المؤمنين
ط - التنكر لشركة الروح القدس والازدراء بها، تنكر للاهوت المسيح شخصياً
.....
خامساً عصر ما بعد الرسل
القرن الرابع ... قرن المتاعب والتصفيات
القديس أثناسيوس الرسولي وإرساء القواعد الثابتة للاهوت الروح القدس
ووحدة الثالوث
مسحة المسيح بالروح القدس وقت العماد والنعمة التي نلناها من هذه المسحة
مفهوم التجديف على الروح القدس كما يراه القديس أثناسيوس
النعمة عند القديس أثناسيوس
ملخص الفصل العاشر
فهارس الكتاب:
فهرس حياة القديس أثناسيوس الرسولي
الفترات التي نُفي فيها أثناسيوس والفترات التي قضاها في الكرسي
فهرس المجامع التي انعقدت في حياة أثناسيوس الرسولي

جدول للأبطرة وأساقفة الكراسي الرئيسية والمجامع التي عُقدت في حياة أثناسيوس
ولاية وحكّام مصر وهي تحت الاحتلال الروماني أثناء حياة أثناسيوس
فهرس بأسماء الشخصيات التي ورد ذكرها في سيرة القديس أثناسيوس
فهرس بأسماء البلاد
فهرس موضوعي للقسم اللاهوتي من الكتاب
التعبيرات اللاهوتية
الخرائط

Bibliography

مقدّمة

شخصية القديس أثناسيوس التاريخية

الكنيسة القبطية سبّاقة على كل الكنائس في عالم الروحيات؛ فإنجيل القديس مرقس - كاروز الديار المصرية - أول إنجيل دوّن على الورق، وفي عاصمتها الإسكندرية قامت أول مدرسة لاهوتية تعليمية في العالم، قادهما أعظم اللاهوتيين على مدى خمسة قرون فأغنت الدنيا بمؤلّفاتهما.

وفي صحاريها الجرداء شرقاً وغرباً تكوّنت منذ القرن الثالث أولى جماعات رهبانية منظمّة ذات قوانين أخذت عنها جميع أقطار الدنيا. فمصر أمّلت على العالم مبادئ النسك والعبادة بحسب الخبرة الإنجيلية.

وفي أول مجمع مسكوني جمع أساقفة العالم الثلاثمائة والثمانية عشر، ليحدّد نصّاً حرفياً ملزماً لقانون الإيمان الرسولي، ترأس الجماعة أسقف الإسكندرية البابا ألكسندروس وعن يمينه شماسه أثناسيوس وبقية أساقفة مصر العلماء، ليقودوا الجلسات ويحكموا الخناق على المرتدّين عن الإيمان، وهكذا أمّلت الإسكندرية نص أول قانون للإيمان على كل كنائس الدنيا، لا يزال إلى الآن يتلوه كل مسيحي مهما كانت عقيدته: "نؤمن بالله واحد". ولولا أن مصر كانت تحت الاحتلال الروماني لانعقد المجمع في الإسكندرية بلا نزاع.

وعلى مدى خمسين عاماً من مجمع نيقية، ظلّت مصر تضطلع بدورها الفريد في الحفاظ على مقررات هذا المجمع، ضد الأساقفة الذين ارتدوا عن الإيمان النيقاوي وانحازوا واحداً فواحداً للأريوسية تحت بطش الأباطرة؛ أمّا مصر فقد اضطلعت بمسئوليتها، وقدمت الفدية كعادتها من صعيد مصر، رجلاً اختارته العناية الإلهية منذ الدهور، فتّى من تراب وادي النيل، سليل الفراعنة حقّاً حسب الجسد، أمّا بحسب

الروح والإيمان فهو سليل الرسل وربيب المسيح نفسه، أثناسيوس الذي رفع رأس مصر وأنجز المهمة العظمى كما أرادها الله، وحفظ الإيمان المسلم مرةً للقديسين، بنجاح أذهل ولا يزال يُذهل كل مؤرّخي الدنيا، فقد صار على مدى خمسين سنة كل أساقفة الغرب والشرق، ووقف وحيداً بعد أن خذله كل من ادّعوا القوة والجرأة حتى أساقفة روما، حتى هوسبيوس أسقف قرطبة الذي كان يوماً ما أكبر المناصرين للإيمان القويم في مجمع نيقية. هؤلاء وكل الأساقفة في كل أوروبا والشرق وبلا استثناء ارتدوا عن الإيمان ووقّعوا على هرطقة أريوس، كما أرادها الأباطرة الملحدون.

وهكذا باتت كنائس العالم كله أريوسية، شرقاً وغرباً. وفي هذا الوطيس لم يكن أمر الوقوف في وجه أساقفة الدنيا وإيقاع الحرم عليهم جميعاً من أسقف واحد، هو أثناسيوس، أمراً سهلاً، فكم بالحري إذا عرفنا أن أربعة أباطرة على التوالي، من أعتى الطغاة، كانوا على نفس إيمان أريوس يناصرون علناً أساقفتهم بكل عنف، وبجيوش جرّدها للإيقاع بأثناسيوس. وبعد أن أُعيوا من مطاردته بدون جدوى، أعلنوا - ويا للذلة! - عن مكافأة لمن يأتي برأس أثناسيوس!! ولكن عاش أثناسيوس برغم أنف جيوش روما والقسطنطينية، وخُذلت الأساقفة والأباطرة خذلاناً مهيناً، وانتصر الإيمان القويم على يد ابن النيل، وعادت الكنائس برمتها وبأساقفتها، وعاد الأباطرة بعدئذ لحظيرة الإيمان القويم كما أملاه أثناسيوس حرفاً حرفاً، إنها معجزة بركات الله لمصر! ...

ولكن لينتبه القارئ، فالنصرة في حرب الإيمان ليست مسألة سيوف أو منطق كلام، بل إيمان وإنجيل وتقليد وتقوى، والتقوى صدق والتزام بنص الإنجيل، عملاً وسلوكاً، لتأتي بعد ذلك الكلمة فعّالة نيرة، والحجة ملهمة رادعة، والحرم قاطعاً بسيف السماء لا بسلطان الناس.

وكانت هذه أول مرة في تاريخ المسيحية والإنجيل، يُرفع فيها الإيمان العام إلى مستوى الفحص والبرهان، وبالتالي إلى مستوى التقنين. لقد استغرق فحص الإيمان على يد 318 أسقفاً في مجمع نيقية ثلاثة شهور من يونيو إلى أغسطس سنة

325(1)، بعدها ظل أنثاسيوس وحده يدافع عن مقررات هذا المجمع ويدعمها بأبحاث مستفيضة وبكل الآيات الممكنة من كافة الأسفار المقدسة حسب التقليد الذي استلمه، وذلك على مدى خمسين سنة. وأمّا أبحاثه هذه فباقية تحت أيدينا حتى اليوم، تروي كيف حطّم هذا العملاق اللاهوتي وحده هرطقة أريوس التي كادت أن تحل محل قانون مجمع نيقية، بعد أن وقّع عليها أساقفة العالم وناصرها أربعة أباطرة على التوالي.

والسؤال الذي يلح هو: لماذا أنثاسيوس ولماذا مصر بالذات التي أهّلت لتضطلع بهذه المهمة العظيمة دون كل دول العالم المسيحي آنذاك؟

والجواب هو: أن أنثاسيوس لم يأت من فراغ، فمصر بمزاجها الروحاني حفظت التقليد الرسولي من جهة الإيمان بالمسيح منذ القرون الأولى بصورة عملية وبإيمان حيّ ملتهب، ومارس شعب مصر، من أقصى الشمال حتى أقصى الجنوب، جوهر الإيمان المسيحي بسر الفداء والحب والأغابي (ولائم المحبة) بصورة تفوق كافة أرجاء العالم. فمصر كانت ولا تزال تعيش المسيح كل يوم فادياً ومخلصاً ومصالحاً، فأدركت بحسّ لاهوتي بارع تغلغل وجدان شعبها أعماق سر الفداء والخلاص والمصالحة. وكان الشعب - كل الشعب - يمارس ولائم المحبة في البيوت كولائم مصالحة مكتسبة من سر الاتحاد الذي يبداً في الإفخارستيا، وظل الشعب يتزاحم على الكنائس ويمارس سهرات السبت كل أسبوع حتى مطلع فجر الأحد بالتسبيح استعداداً للاتحاد بالمسيح في الأسرار (سر الشركة) - واستمرت هذه الطقوس حيّة حتى نهاية القرن الخامس(2)، في حين توقف طقس الأغابي والسهر وضعف مفهوم طقس الإفخارستيا الحي في كنائس فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى وكل الغرب منذ القرن الأول.

فبينما كان تجسّد المسيح يُدرّس في مدرسة أنطاكية - فلسفياً على مستوى الفلسفة العقلية والمنطق - كطبيعتين منفصلتين حلت الواحدة في الأخرى، كانت كنائس مصر بشعبها الإلهي ومدرستها اللاهوتية تتعاطى المسيح وتعلّمه بأن واحد إليها

(1) D.C.A., p. 1389; Schwartz, *Zur Geshicht des Athanas.*, 1904, p. 398, cited by Kelly: *Earl. Christ. Creeds*, p. 211

(2) انظر كتاب: "الإفخارستيا والقداس" للمؤلف صفحة 238.

متجسداً واحداً متحداً في سر الإفخارستيا، كترياق عدم الموت، أو دواء الخلود، يتناوله المؤمنون بتهليل كإيمان وشهادة لاتحاد غير مفترق، في وحدانية مطلقة بين اللاهوت والناسوت!

وهكذا شبَّ أثناسيوس يرضع التعليم اللاهوتي من فم أبيه الكاهن، ويحس بكيان الله الواحد بالعبادة اليومية، فكبر وله مع المسيح علاقة حب تأصلت على سر الفداء والخلص الذي أكمله المسيح له بدمه الإلهي: «أحبني وأسلم نفسه لأجلي.» (غل 20:2)

لقد عاصر أثناسيوس، وهو صبي ابن أربع عشرة سنة، أهوال اضطهادات الإمبراطور مكسيمين الثاني (312م). لقد انطبعت في ذاكرته اعترافات معلّميه العظام أمثال فيلياس الشهيد أسقف تميّ وهو يشهد بلاهوت المصلوب بيقين وإصرار أمام معدّبيه، واعترافات بابا الإسكندرية نفسه القديس بطرس الشهيد وهو يعترف والسيف على رقبتة: “إن الذي بطبيعته إله صار بطبيعة البشر” (3). لقد أضفت هذه الصور والشهادات الحية إلى منابع التقليد المتعدّدة التي استقاها أثناسيوس، ما رفع حرارة إيمانه ودفاعه إلى مستوى الشهداء فعلاً، وجعلت من تعليم أثناسيوس اللاهوتي امتداداً حياً لصراخ دماء هؤلاء الأبطال، وهي تهتف بحق المسيح وتشهد للاهوته. لقد صدق العالم “نياندر” حينما قال عن أثناسيوس: [إن القلب هو الذي يصنع اللاهوتي Pectus Theologum Facit].

وبينما من منطلق مدرسة أنطاكية (سوريا وآسيا الصغرى) أكثر مدارس الدين عقلانية منذ العصور الأولى، تعلّم أريوس ونسطور وغيرهما من هراطقة ذلك العصر: ودرسوا الدين كفلسفة يندرج تحتها كل التعليم اللاهوتي كمواضيع نقاش وتحليل، حيث الرجوع فيها دائماً إلى الرمز والسريّة، والنقد الصريح للكتاب المقدّس، على غرار فلسفة الإغريق والغنوسية، حيث إن مدارس آسيا الصغرى وأنطاكية لم تكن خاضعة للكنيسة، وغير ملتزمة بتقليد موروث للإيمان أو لشرح الكتاب المقدّس، بل كانت تحت إدارة فلاسفة أحرار!

(3) St. Pet. of Alex., *on Ruth*; Socrat. IV. 48; Athanas., *Orat.* iii. 41, 51; Apollin. 1. 7; cited by D.C.B., pp. 180 f.

نقول: إنه بينما تعلّم أريوس في مدرسة أنطاكية هكذا، نرى أثناسيوس ربيب مدرسة الإسكندرية اللاهوتية الفريدة التي كانت تحت إدارة البطارقة مباشرة، وكانت هي المنبع الوحيد للتعليم في الكنيسة بالنسبة للمؤمنين والداخلين في الإيمان، وكان منها يتخرّج البطارقة، فكانت خزانة التقليد الرسولي وأداة الحفاظ على التعليم الصحيح. ويكفي لكي ندرك مقدار صرامة الضبط والربط اللاهوتي الذي كان يمارسه البطارقة على مستوى التعليم والتلقين في مدرسة الإسكندرية ما حدث لأوريجانوس، أعظم فلاسفة عصره وإمام الدارسين والشارحين للكتاب المقدّس، إذ لم تعفهِ مكانته العلمية من الطرد من عمادة المدرسة والنفي من الإسكندرية برمتها، عندما استنشر بطريك الإسكندرية جنوح هذا العميد الفيلسوف عن حدود التقليد الرسولي في الشرح والتفسير!

لذلك كان صراع أثناسيوس صراعاً روحياً ومدرسياً بآن واحد، يقوم على أساس إيماني بلاهوت المسيح والعقيدة بالتالوث من واقع التقوى والشعور بالإخلاص للفادي. من أجل هذا لم يكن في العالم كله مَنْ يختاره الله ليضع عليه هذه المهمة الخطيرة - وهي الدفاع عن الخلاص الذي وهبه الله للبشرية بترسيخ حقيقة ابنه الوحيد الكلمة المتجسّد - غير مصر مخزن التقليد الرسولي. ومن كل مصر اختار الله أثناسيوس الذي عاش الفداء بتقوى، وأحب المسيح، وعشق التالوث، وعاصر الشهداء. فكان صراعه مع الأريوسية صراع النور مع الظلمة، والحياة مع اللاحياة.

ومن أجل هذا أيضاً كان يتحتم أن تتوج الأريوسية بهذا السقوط، وتندثر معها فلسفة مدرسة أنطاكية بلاهوتها العقلاني الملقق ومنهجها الفلسفي القائم على تعالي فكر الإنسان فوق تنازل الله في سر التجسّد بحسب صلاحه. لقد تعالي أريوس عن محبة الله الأب التي أعلنها لنا في المسيح، كلمته الذاتي الأزلي، ابنه الذي بذله من أجلنا أجمعين لكي نحيا، فتواترت عن الأريوسية حقيقة الخلاص وحقيقة الله برمتها، ففقدت الانتقال من الموت إلى الحياة، وخرجت من الكنيسة خروج آدم من الفردوس.

ولقد خلف أثناسيوس وراءه بعد صراعه اللاهوتي الطويل الأمد هذا، مؤلفات تُعتبر من أغنى ما ورثته البشرية من قواعد وتفسيرات راسخة وشاملة للاهوت الأرثوذكسي، نعرض منها هذا المنهج في شرح أهمية التجسّد وحتميته لخلاص الإنسان:

أولاً: لقد أكمل الله تجديد خلقه الإنسان على أساس النتيجة الحتمية التي أكملها الله في ابنه بالتجسد، فباتحاد اللاهوت بالإنسوت في المسيح، أدخل الله - حسب مسرته - الطبيعة البشرية التي كانت واقعة تحت الفساد والموت إلى دائرة عدم الفساد بلاهوته الذي انتهى إلى تجديد جبلتنا، ولكن ليس بلا ثمن بل بذبيحة ابنه على الصليب، مقدماً جسده كفارة عن كل خطايا البشرية ليخلص من الموت والفساد كل مَنْ يؤمن به. وهكذا ربط أثناسيوس بين خلاصنا (من الفساد والموت بتجديد جبلتنا) وبين حقيقة التجسد رباطاً أبدياً. فالتجسد الإلهي أنتج بالضرورة خلاصاً وتجديداً لجبلتنا.

ثانياً: كما ربط أثناسيوس بين تجسد المسيح "كلمة الله" وبين الارتقاء الفائق الذي صار للإنسان لمعرفة الله في ذاته. وهذه النتيجة هي غاية في الأهمية والخطورة ولا محيص عنها على الإطلاق لإدراك حقيقة الله. فبظهور اللاهوت متكلاً وعاملاً وشارحاً ومفسراً لكيان الله في ذاته بإنسان هو يسوع المسيح الذي هو نفسه كلمة الله: «كلمنا ... في ابنه» (عب 1:2) - صار اللاهوت، أي الله الذي كان غير مدرك، مدركاً في المسيح، والذي كان غير مقرب إليه، قريباً ومنظوراً وملموساً من جهة ذاته وفكره وعلاقته بالإنسان والكون: «الذي رأي فقد رأى الأب» (يو 9:14)، فاجتث من ذهن أضعف الناس أي وهم من جهة اختفاء الآلهة وسريتها وتعددتها، وهدم المسيح كل أعمال الشيطان بقوته وكلمته الإلهية أمام عين كل إنسان!

ثالثاً: وبعكس أريوس وكل الأنطاكيين الذين جعلوا المعرفة - المجردة - أساس الصلة بالله - في حدود الفهم والتعبير!! نجد أثناسيوس يضع ليس مجرد المعرفة المجردة بل الاتحاد بالطبيعة الإلهية، أي الشركة في اللاهوت بالتبني، أساس الإيمان والعبادة والخلاص والحياة الأبدية: [لأن ابن الله صار جسداً لنصير نحن أبناء الله فيه].

وهذه الشركة «أمين هو الله الذي به دُعيتم إلى شركة ابنه يسوع المسيح ربنا» (1كو 9:1)، المنبثقة من سر التجسد، جعلها أثناسيوس أساساً جديداً لعلاقة الله بالإنسان، وهذه الشركة دشنها المسيح على الصليب بموته عنا جميعاً ليكون لنا بدمه دخول مجاني ثابت إلى الله، وبتحادنا بجسده وبدمه تصير لنا إقامة دائمة واتحاد

وميراث في الله. وهكذا من هذه النتائج الباهرة التي نلناها من واقع سر التجسّد الإلهي، يكون أثناسيوس قد قدّم - وهو في سن الثالثة والعشرين - جواباً عن «لماذا ظهر الله في الجسد؟»، من واقع الإنجيل، بعمق لم يبلغه لاهوتي آخر في العالم. ومن هذا العمق نفهم لماذا تسبّب أثناسيوس على النزاع الأريوسي منذ أول لحظة حيث حسمه بالقانون في مجمع نيقية، ثم صرعه بالشرح والبرهان ويقين الإيمان في معاقل القسطنطينية ومدن آسيا الصغرى وإيطاليا وأوروبا بكل مجامعها التي حفلت بمئات الأساقفة المخادعين والأباطرة المخدوعين.



والآن قد يؤخذ علينا أننا نكيل المديح لأثناسيوس لأنه زميل مواطنه وابن نيلنا وترابنا وزعيم عقيدتنا الأرثوذكسية، لذلك يليق بنا الآن أن نعرض لآراء مؤرّخين أجانب قدامى ومُحدثين، حول شخصية أثناسيوس التي سحرتهم.

يقول فيليب شاف Philip Schaff المؤرّخ الكنسي (1819-1893) في كتابه: "تاريخ الكنيسة المسيحية" - الجزء الثالث، صفحة 885 ما يلي:

[أثناسيوس هو المركز الذي كانت تدور حوله الكنيسة والتعليم اللاهوتي في العصر النيقاوي، وقد لُقّب بالكبير، كما لُقّب الإمبراطور قسطنطين نفسه الذي كان يعاصره. ولكن الأول كان عن جدارة - فكراً وأخلاقاً - جدارة تمحّصت بالاضطهاد والآلام التي تحملها على مدى السنين في مقاومة أخطاء فظيعة ومقاومة حكومة الإمبراطور. وما القول المشهور "إن أثناسيوس صار وحده ضد العالم لما صار العالم كله ضده" إلا تعبيراً جيداً يشرح بقوة حيده المتفرّدة الجريئة الحرة وأمانته التي لا تهتز إزاء قناعاته، وهذا بحد ذاته يشكّل معارضة خطيرة لا رد عليها ضد القاعدة الكاثوليكية بخصوص مبدأ السلطة: أن "كل ما يؤمن به الجميع في كل مكان وفي كل زمان يكون هو الحق، Quod semper, quod ubique, quod ab omnibus creditum est".

ميرهنأ بسلوكة، هذا أن الحق ليس قط دائماً في جانب الأغلبية! بل غالباً ما يكون غير مقبول ولا مألوف لدى جمهور الناس. فأثناسيوس بمفرده في وقت من الأوقات - وهو تحت الحرم من مجمع أساقفة معلّن بفرمان إمبراطور - كان وحده الحامل للحق!!

لذلك دُعِيَ فيما بعد: “أبو الأرثوذكسية ذ r t ¼ pat j e r j a j . . . r q o d o x . . . ”
وهكذا صار مصير أثناسيوس وأموره الشخصية متشابكة ومرتبطة بمصير
منجزات مجمع نيقية، حتى إن اصطلاح نيقية واسم أثناسيوس أصبحا في
التاريخ قيمتين متعادلتين، إلى الدرجة التي فيها كانت إحباطات ونفي
أثناسيوس هي بعينها تُحسب إحباطات لمجمع نيقية بكليته (318 أسقفاً)، ثم
عودة أثناسيوس من النفي واستعادة كرسيه كانت هي بآن واحد انتصاراً
لأرثوذكسية مجمع نيقية!! هذا إلى خمس مرّات!! (على مدى أكثر من عشرين
عاماً، وهذا التآرجح كان بعينه قائماً في مصير الكنيسة كلها)!!

وكان أثناسيوس مثل باقي أعظم أشخاص التاريخ: - داود النبي، بولس
الرسول، نابليون - كان قصير القامة، منحنياً قليلاً، يبدو وقد أضناه الجهد
وأرهقته الأصوام، بالإضافة إلى الضيقات، ولكنه كان بهيّ الطلعة بعينين
ثاقبتين، مظهره الشخصي ينمُّ عن قوة جبّارة حتى وعلى أعدائه، نشاطه فذ
وثّاب سريع التحرك، وكأن قوة خفية تدفعه في الوقت المناسب، لا يهاب، له
رؤية عميقة للمستقبل تكاد تكون نبوية، مما جعل أعباءه يعتقدون بأنه كانت
تؤازره قوة إلهية.

دعاه المؤرّخ الأسقف ثيودوريت (393-460) وهو قريب من زمن
أثناسيوس، دعاه: “المنبر الأعظم”. ودعاه يوحنا الدمشقي: “حجر الزاوية في
كنيسة الله” ...

وأثناسيوس، على كل حال، واحد من أنقى وأجلّ الشخصيات ذات الوفاق
العظيم في تاريخ الكنيسة. وهذا هو الآن حكم التاريخ المأخوذ به بصفة عامة].
ثم يعود “فيليب شاف” ويستطرد:

[لقد تحمّل أثناسيوس الاضطهاد، ولكنه لم يضطهد أحداً قط!!]

وسار على القانون الروحي القائل بأن الأرثوذكسية عليها أن تشرح
الإيمان بالإقناع وليس بالقوة. لذلك ليس بين كافة الشرقيين من يتمنّع باحترام
وتقدير عالٍ جداً في الكنيسة الغربية مثل أثناسيوس(4). ولقد ساعد على ذلك

(4) للأسف نلاحظ في كثير من كتب اللاهوتيين المحدثين الكاثوليك محاولة عجيبة لطمس معالم
الأسماء القبطية الكبيرة ومنهم أثناسيوس الكبير وكيرلس الكبير.

فرصة تغرُّبه في تريف على أعلى حدود فرنسا مع ألمانيا، وكذلك في روما، وأيضاً تمكُّنه من اللغة اللاتينية، كما أنه نقل الرهبنة (القبضية) إلى الغرب، ولكن فوق هذا وذاك فإن دفاعه عن أسس الإيمان المسيحي هو الذي منحه هذا الصيت بالدرجة الأولى. حتى صار اسم أثناسيوس لا ينفصل عن الصراع الذي انتهى بانتصار الإيمان بالثالوث.

وأثناسيوس كمؤلف يمتاز بعمقه اللاهوتي وبصيرته، وله مهارة في الحوار ومنطق مرعد، وقد أثبت تفوقاً وانتصاراً عقلياً على خصومه. وقد كان يتتبعهم في مخابئ أفكارهم ويدهمهم ويهتك حججهم وضعفاتهم دون أن يفقد الرؤية نحو هدفه، إذ يعود كل مرة إلى نقطة الصراع بقوة ومنطق جديد. ولكن ظروفه العاصفة التي كان يكتب فيها منعه من أن ينمق عملاً منهجياً كبيراً، فكتاباته كلها تقريباً جاءت وليدة ظروفها وأغلبها مكتوب في المنفى.]

المؤرخ جيبون (1737-1794):

يلزم للقارئ أن يعرف أن جيبون كان لا يؤمن بالمسيحية، بل وكان لاذع النقد لكل رجالها، ولكنه وقف مبهوراً أمام تاريخ أثناسيوس وشخصيته الفريدة الفذة، ولم يكن أمامه بدٌّ - كما يقول شاف - من أن يدفع له ضريبة الإعجاب.

يقول جيبون:

[قلّ أن تواتينا فرصة المتابعة والفحص التاريخي ما واتانا مع حياة أثناسيوس، سواء كنا نلاحقه في نشاطه الحركي أو في انطلاقة تأملاته الرؤيوية، حين نكتشف مقدار ما يمكن لإنسان بمفرده وبفكره وحده - أن يحدثه من أثر وما يمكن أن يتجاوزه من عراقيل ومعاثر، وهو ينطلق نحو هدفه الموضوعي بتشبُّث وإصرار. إن اسم أثناسيوس الخالد لن ينفصل عن العقيدة الجامعة للإيمان بالثالوث، الذي أوقف نفسه في الدفاع عنها كل لحظة من لحظات حياته وبكل طاقته الفكرية ومن كل كيانه!!

وفي وسط كل أعاصير الاضطهاد ظلّ رئيس أساقفة الإسكندرية هذا يعمل في صبر، غير عابئ بالشهرة، غير مكترث بتأمين حياته، ... مُظهراً تسامياً في أخلاقياته وتفوقاً في قدراته التي أهّلته ليكون أفضل من أبناء قسطنطين

المنحلّين لإدارة حكومة المملكة الرومانية.[5]

أمّا المؤرّخ الدكتور باور (1882-1809م) Bruno Bauer - مُلحد - فيحدّد صفات أثناسيوس هكذا:

[إن موهبة أثناسيوس من جهة رؤيته في فحص اللاهوت العفائدي، وكيف يستجلي الصحيح منها ويملك زمامه بدقة متناهية وبوضوح، كانت في الحقيقة مواهب بلغت من العظمة مبلغاً أهّله أن يقف على رأس كل جماعة اللاهوتيين ليدير ذلك الصراع اللاهوتي.

كما أن التقوى التي كان يدافع بها عن القيمة الأرثوذكسية وعن أهمية العقيدة التي كانت موضوع النزاع، هذه التقوى هي التي جعلت اسمه من أجلّ الأسماء وأكثرها وقاراً في الكنيسة، ... وإنها لشهادة قوية تدعّم عظمة طهارة سيرته تلك التي قدّمتها الجماعة التي كانت متعلّقة به في أنطاكية إذ ظلوا أمناء له، ملتصقين بتعاليمه بعاطفة رقيقة حتى نهاية النزاع.[6]

العالم نياندر (1850-1789) يهودي متنصّر عالم لاهوتي ومؤرّخ كنسي بارع: [لم تأت سنة 330 حتى صار أثناسيوس الشخصية المتفوّقة والذائعة الصيت في الكنيسة، بل ورأساً وروحاً أيضاً للجماعة التي انحازت إلى مفهوم وحدة الجوهر - بين الأب والابن - فهو الذي منذ البداية قاد البابا ألكسندروس أباه، قبل انعقاد مجمع نيقية، لعدم قبول أو عودة أريوس(7). وبعد ذلك أثبت أثناسيوس وجوده في مجمع نيقية بغيرته وحدّة بصيرته التي دافع بها عن عقيدة وحدة الجوهر، حتى صرع الأريوسيين؛ واستمر أثناسيوس بنفس قوته وحدّته، وعلى مدى نصف قرن، يتتبع حركاتهم بصلابة وثبات لا يثنني، مقابلاً في ذلك شتى صنوف الاضطهادات والمقاومات والآلام - ولم يأبه إطلاقاً بتهديد الإمبراطور - مع أنه هو ومصر كلها كانت تحت الاحتلال!!]

(5) *The Decline and Fall of the Roman Empire*, ch. XXI.

(6) *Vorlesungen über die Dogmengeschichte*, vol. 1, ii, p. 41, cited by Schaff, *op. cit.*, III, p. 889.

(7) *Athanas., C. Arian.*, 6.

العالم دين ستانلي(8) (1815-1881): مؤرّخ أنجليكاني ذائع الصيت:

[نحن نصوّر أثناسيوس كما نتصوّر النجم في السماء، ولكن من العسير أن نحصل على حقيقة أبعاده(9). إن الصفات التي أذهلت كل معاصريه بشدة كانت حضور مواهبه وسرعة تحوّلها. وفي إحدى قصائد أكسفورد قصيدة عن أثناسيوس بعنوان “القيثارة الرسولية”، تقول:

“أثناسيوس صاحب القلب الملكي،

المدثر بوشاح بولس المبارك”.

إنه توجد مشابهة بين ليونة أثناسيوس وأخلاق بولس المتعدّدة الجوانب الذي كان يفتخر أنه “جعل نفسه كل شيء لكل أحد”، الأمر الذي لم يحدث قبل أثناسيوس ولا حدث من بعده، حتى جاء أغسطينوس ليحاكيه.

وأثناسيوس يُحسب أكبر لاهوتيي زمانه، وأيضاً لكل العصور والأجيال. ولهذا حاز على لقب “الكبير” من كل العالم وعلى المدى.

وقد ذاع قول “الأبوت قزماس” في القرن السادس:

“إذا قابلت جملة لأثناسيوس ولم يكن لديك ورقة، فاكتبها حالاً على ثوبك”.

وكصورة توضّح مدى تهافت الغرب والشرق عليه، ما حدث لجسده، فقد نقلوه إلى القسطنطينية ثم إلى البندقية بايطاليا ثم إلى فرنسا ثم إلى أسبانيا(10).

لقد كان يعتني بأسلوبه في المحاجاة عن دراية وقصد لكي يستميل انتباه لاهوتيي الغرب أكثر من تدقيقه في التنميق الأدبي أو المنطقي للغة؛ فترك بتوافق أفكاره انطباعاً عميقاً على المسيحية الغربية برمتها حتى إلى اليوم، حينما يُتلى بما يسمّى “قانون أثناسيوس” (لم تثبت صحة نسبته حتى الآن للقديس أثناسيوس).

وبالاختصار، فإن أثناسيوس هو أبو الأرثوذكسية بكل معنى، فقد أثرى الكنيسة أكثر مما ورثته في أعمالها في الماضي أو حتى من منطوق قانونها الأرثوذكسي الأساسي. فهو المحسوب أنه مُنشئ الأرثوذكسية بحق، إذ يلزم

(8) Dean Stanely, *Lectures on the Hist. of East. Church.*

(9) *Op. cit.*, pp. 44 f.

(10) *Acta Sancta.*, May 2, 1. 35.

أن نعرف أن قبل أثناسيوس، بل وقبل مجمع نيقية الذي اشترك فيه، كان التعليم الأرثوذكسي كقانون متكامل غير معروف ... إن كتابه عن "تجسد الكلمة" يمتد بصلاحياته ليغطي ما بعد زمانه ويصبح (حتى اليوم) صالحاً لاستخدامات لاهوتية متعدّدة - ليكون في النهاية واحداً من أفضل البراهين على "الحق" [11]

جواتكن (12): صاحب كتاب تاريخ الأريوسية 1882م:

[كان أثناسيوس يحكم مصر كلها من المنفى!!]

وخطاباً وراء خطاب كتب أثناسيوس من منفاه الذي كان محوطاً بالكتمان والذي كان لا يرقى إلى معرفته أحد، حيث كانت الأيدي المخلصة والأمنية تحمل رسائله هذه بصورة سرّية، إلى أبعد حدود البلاد. وقد عُثر في حفائر طيبة (الأقصر) على كتابات له على مقابر الفراعنة في مغارة تل القرنة (13) وهي عبارة عن رسالة منه.

أمّا هذا الأسقف العظيم حقّاً، والذي لم يكن أعظم منه أحد قط، فقد وقف وحيداً يدافع عن مجمع نيقية. لقد حاول الإمبراطور قسطنطيوس أن ينتقم منه، ولكن كلفه ذلك أن ارتجّت الإمبراطورية كلها من حوله حتى إلى أساسها. وحتى ذلك الزلزال المروع الذي أصاب منطقة الأديريانوبل، فلم يكن في نظر الإمبراطور من الخطورة والعنف بمثل ما أحدثه أثناسيوس بهروبه من وجه الإمبراطور علانية!

وجاء من بعده الإمبراطور يوليانس الوثني الجاحد، ونظر ولم يكد يصدّق عينيه، كيف كان أثناسيوس كملك يحكم مصر!! بل ويعمّد السيدات (الشريفات) الوثنيات - المعتبرات أنهنّ تحت حماية الإمبراطور - الأمر الذي أثار كوامن أفضع غيظه ... فاجتهد ولم يكلّ، حتى نجح في نفيه أيضاً، ولكن بالرغم من كل ذلك ظلّ أثناسيوس بهدوء كما هو، يعمل بلا هوادة].

(11) Dean Stanely, *op. cit.*, pp. 229-237.

(12) هذا المؤرّخ الإنجليزي لا يُجاري في نقد أثناسيوس (عن غير صحة).

(13) Boeckh 8607 (Quoted by Fialon: *St. Athanas.*: 133) is a letter of Athanas. from the ruins of Thebes.

وأخيراً؛ لقد اجتهدنا في هذا الكتاب أن نقدّم دراسة متكاملة بقدر الإمكان لشخصية القديس أثناسيوس الذي لقبه المؤرّخون بالرسولي - بسبب جهاده المظفر لحفظ الإيمان الرسولي كاملاً ونقياً من أية شائبة.

وقد قدّمنا الجزء الأول فيما يخص سيرته أو حياته، التي هي في حد ذاتها تشكّل تاريخاً كاملاً للكنيسة المصرية على مدى أكثر من خمسين سنة، وهي نفسها وبدون أي مبالغة تشكّل تاريخ الكنيسة كلها وفي جميع أنحاء العالم، في أصعب مرحلة إيمانية عبرت عليها على مدى ألفي سنة، حيث قاد أثناسيوس حركة الصراع، في البداية، ضد أريوس، وبعد ذلك ضد الأساقفة الأريوسيين الذين خرجوا عن الإيمان الرسولي بغواية هذا المبتدع الخطير، والذين ظلّ عددهم يتزايد بصورة مرعبة حتى شمل جميع كنائس العالم.

ويذكر التاريخ أنه في لحظة وقف أثناسيوس وحده بإيمانه الرسولي يصارع أساقفة الدنيا بأسرها، وقد صاروا جميعاً أريوسيين، حتى قيل القول المشهور: "إن العالم كله صار أريوسياً".

أمّا الجزء الثاني، فقد خصصناه لعرض ما يمكن أن يكون أساساً للمبادئ اللاهوتية التي دافع عنها أثناسيوس، والتي كان يقوم عليها الإيمان الرسولي الذي استلمه كما يقول هو من الآباء والرسول، دون أن يضيف على أصوله شيئاً، بل اكتفى أن يكون شارحاً ومدافعاً له حتى الموت.

لقد كتب أثناسيوس قانون الإيمان، وسجّل تاريخاً للكنيسة وشرح وثائق التقليد الرسولي بمداد قلبه وريشة روحه الخفّاق. أثناسيوس كان يكتب ما رآه وما سمعه من فم الحكمة ذاتها التي أعطته صولجان الفطنة، ليبيدّ أقنعة الظلمة ليستعلن الله حاضراً في الكون ومتكلماً في إنسان.

اللاهوت كان يتدفّق من قلب أثناسيوس جديداً منعشاً في كل لحظة، مع أنه "الأزلي" و"القديم الأيام"!! فجاء تعليم أثناسيوس اللاهوتي يتحدّى العقول المربوطة بفلسفات الشعوب المنقرضة، بل ويتحدّى الزمان وعقل كل إنسان، إذ لا يمكن تصنيفه مع التاريخ، فلا هو تاريخ الماضي ولا تاريخ الحاضر ولا المستقبل، بل

لاهوت الكائن الذي كان والذي يأتي، الأول والآخر، البداية والنهاية معاً. لذلك كان أسلوب أثناسيوس أكثر من واثق، ومن خلف مواقف العنف كانت تشع كلماته بالنصرة الأكيدة، وتنبض بفرح الرائي الذي يرى الحق وهو في سبيله لتبديد الظلمة المعاكسة التي مآلها حتماً إلى زوال... أمّا كلمات السخط والغضب التي فاه بها أثناسيوس وهو في وطيس المعركة، والتي يعثرُ فيها بعض السُدج من العلماء المحدثين الآن، فلم تكن عند أثناسيوس إلا لهيب الغضبة الإلهية الذي «يميت المنافق بنفخة شفتيه.» (إش 4:11)

إن التعليم اللاهوتي لأثناسيوس لا يندرج تحت مفهوم المعارف والعلوم التي يستزید منها الإنسان لمعرفة أكثر أو لتفاقة أفضل. فقد انصهرت كلمات أثناسيوس في الحق نفسه الصادر من «اللُّوغس»، شعاع النور الأزلي، كلمة الله الخالق المحيي الفعّال، وصارت مدّرجاً لارتقاء الإنسان في هذا النور فوق ذاته وفوق كيانه وفوق كل مدرّكاته لبلوغ ذات المصدر المحيي والالتحام بالكلمة الأزلي، لا في مفهوم المعرفة المجرّدة، بل في إدراك سرّ الخلق والدخول في صميم الحق والحرية والقداسة، التي منها ومن أجلها خلق الإنسان وإليها يسعى ويلتحم، التي هي كمال الغبطة والحب والسلام في الله، لكي يصير الله الكلّ في الكل، كالنور الذي يبتلع كل الظلال.

الأب متى المسكين

دير القديس أنبا مقار - المغارة المجاورة لمغارة

القديس أنبا مقار

أسبوع الألام سنة 1980م

{رجاء من المؤلّف}

نرجو من القارئ قبل أن يبدأ بقراءة الكتاب أن يطّلع على الخرائط لكي يتعرّف مبدئياً على أسماء البلاد القديمة وموقعها من صفحة 715 إلى صفحة 741 ثم يعود إلى هذه الخرائط من حين لآخر حتى تنسجم الحوادث مع المواقع أولاً بأول فيترسّخ في الذهن مجرى التاريخ.

علماً بأن اهتمامنا بعمل ملخّص في نهايات الفصول، وتدقيقنا في تقديم الفهارس الموضّحة للتواريخ في نهاية الكتاب هو لمزيد من الاستفادة بأقصى قدر مستطاع.

{اعتراف بالفضل}

يشكر المؤلف ويعترف بفضل جميع الآباء الرهبان الذين قاموا بجمع وطبع
الكتاب بمطبعة الدير والآباء الذين ساهموا في عمل الفهارس ومقدّمة الجزء
اللاهوتي.



سيرة القديس أثناسيوس

المصادر التي اعتمدنا عليها في سرد سيرة هذا القديس العظيم تنقسم كالآتي:

- 1 - "مذكراته الخاصة" وهي مدونة في المجموعة المسماة: "آباء نيقية وما بعد نيقية"، الجزء الرابع من المجموعة الثانية:
 - (أ) دفاعه المسمى "الدفاع الكبير ضد الأريوسيين".
 - (ب) نشرتان دوريتان بهذا الخصوص.
 - (ج) دفاعه لدى قسطنطينوس.
 - (د) دفاعه فيما يختص بهروبه.
 - (هـ) رسائله لسيرابيون أسقف تمي.
 - (و) رسالة إلى الرهبان وهي التي تُعتبر سرداً لتاريخ الحركة الأريوسية.
- 2 - مقتطفات من أقوال الآباء المعاصرين للبابا أثناسيوس مثل هيلاري أسقف بواتيه، وباسيليوس الكبير، وغريغوريوس النزينزي، وإبيفانيوس أسقف قبرص.
- 3 - خطابات أثناسيوس الفصحية، أجزاء من مدونات تاريخية تشبه السنكسار مترجمة باللغة اللاتينية عن أصل يوناني آخر، كُتبت في الإسكندرية سنة 385م. وقد اكتشفها العالم مافاي Maffei سنة 1742م في مكتبة فيرونا، وتُعتبر ذات قيمة تاريخية كبيرة - إذا تغاضينا عن بعض الأخطاء الواردة فيها.
- 4 - كتابات المؤرخين الكنسيين الذين جاءوا بعد أثناسيوس واهتموا بتسجيل تاريخه أمثال:
 - (أ) سالبيسيوس ساويروس، روفينوس، سقراطيس، سوزومين، وثيودوريت.
 - (ب) تحقيقات العالم مونفوكن في ثلاثة مجلدات، وتعتبر من بكور الدراسات الخاصة بالقديس أثناسيوس وهي معتمدة لدى المحققين المحدثين، صدرت سنة 1698.
 - (ج) تحقيقات المؤرخ تيمون Tillemont، وهي تشمل دراسة متسعة لحياة

القديس أنثاسيوس في المجلد الثامن مع تعليقات وملاحظات كثيرة،
صدرت سنة 1712.

(د) دراسات كيف Cave، وهي تجميع شامل لحياة القديس أنثاسيوس في
مجموعته المشهورة "حياة الآباء"، صدرت سنة 1698. ومعظمها
وارد في قاموس سير الآباء لـ "سميث" و "والاس".

(هـ) دراسات موللر Mhler عن "أنثاسيوس الكبير"، صدرت سنة 1827،
وهي عرض لأعمال القديس اللاهوتية أكثر منها تاريخاً لحياته، وتحتل
موقعاً حسناً لدى المؤرخين. وقد جننا بمقتطفات كثيرة منها.

(و) دراسات البندكتيين وملحقاتها في مجموعة ميني وتعتبر المصدر
الأساسي لتاريخ القديس أنثاسيوس. وقد وردت ضمن سرد أخبار حياة
أنثاسيوس في القاموس المذكور آنفاً.

(ز) دراسات العالم الكاردينال نيومان في كتابه: "الأريوسية في القرن
الرابع"، صدر سنة 1833.

(ح) دراسات هيفيلله في كتابه: "تاريخ المجامع"، الجزء الأول والثاني،
صدر سنة 1855.

(ط) دراسات العالم جواتكن في كتابه النقدي: "عن الأريوسية"، صدر
1900. وهو أغنى بحث صدر عن أكبر مجموعة مراجع معظمها
باللغة الألمانية (ما يقرب من خمسين مرجعاً).

(ي) دراسات تاريخية مكثفة للعالم جون ماسون نيل في كتابه عن تاريخ
الكنيسة المقدسة صدر سنة 1847.

(ك) دراسات مختصرة للعالم "شاف" في كتابه عن تاريخ الكنيسة
المسيحية، صدر سنة 1910.



ملاحظة هامة:

وقد عثرت شخصياً على ورقة مخطوطة في أرضية المكتبة القديمة بحصن دير
القديس أنبا مقار تحت التراب برقم 199 (أ، ب) من أصل مخطوط يحوي أخباراً

تاريخية باللغة العربية وبخط يشير إلى أن المخطوطة ترقى إلى القرن الحادي عشر/ الثاني عشر، وربما أول ترجمة عربية لأصل قبطي، لأنها تحوي كلمات تفسيرية باليونانية والقبطية على الهوامش بخط حسن. وتعتبر هذه الورقة الفريدة من جهة تاريخ حياة القديس أناسيوس ذات قيمة بالغة لأنها تلقي أضواءً متعدّدة على نشأة القديس أناسيوس ومصريته الصميمة، والمدينة التي تربّى فيها صغيراً، ومهنة والده، وغيره أناسيوس الإلهية منذ طفولته المبكرة، ورجاحة عقله، وتهذيبه الكنسي في بكور شبابه. وسوف نعرض لهذا كله في بداية سيرته.

هنا صورة الورقة
المخطوطة التي
وُجِدَت في أرضية
مكتبة الدير

هنا صورة الورقة
المخطوطة التي
وجدت في أرضية
مكتبة الدير

الفصل الأول
طفولة أثناسيوس حتى زمان اعتلائه
كرسي الإسكندرية
(328-296م)

ميلاده والمدينة التي تربى فيها(14):

لقد عاش أثناسيوس وتربى طيلة فترة صباه في صعيد مصر، كما جاء على لسانه شخصياً، وبالذات في مدينة أخميم؛ وذلك كما ثبت في مخطوطة اكتشفت في دير أنبا مقار. ولقد تعلم كيف يحارب حروب الرب منذ صباه كما جاء على لسان القديس باسيليوس الكبير في خطابه رقم 82.

المعتقد أن أثناسيوس وُلِدَ سنة 296م أو ربما بعد ذلك بقليل، أمّا المدينة التي وُلِدَ وتربى فيها فيظن العلماء أنها الإسكندرية اعتماداً على إشارة(15) وردت في رسالة الإمبراطور قنسطنطيوس فكتور سنة 345م للقديس أثناسيوس وهو في منفاه يأمره بالعودة إلى “الإسكندرية وطنه”، ولكن للأسف لا يمكن أن تُعتبر هذه إشارة إلى أنه وُلِدَ وتربى في الإسكندرية.

ولكن برجعنا إلى الجزء من المخطوط الذي عثرنا عليه في أرضية مكتبة دير القديس أنبا مقار برقم 199 (ب) نقرأ الآتي:

[والضرورة تدعوني - يا إخوتي المحبين للمسيح - لكي أظهر لكم بقية الذين كانوا منه في مصر لكي الذين يسمعوهم يمجّدوا الله: كان هيكلًا في المدينة التي سبقنا أن نذكرها التي هي أخميم يدعوه مثروس pimiqroc. وفي أحد الأيام جاز القديس أثناسيوس لابس الله، وكانوا يمشوا أطفال صغار يعملوا في الصنعة معه، فقال لهم كلمة هكذا: ترى الرجال الذين بنوا هذا ما هو الذي في قلوبهم، فأجابوا أولئك الأطفال الصغار وقالوا إن أهل هذه المدينة الذين كانوا قبل هذه الأيام لم يكن لهم فهم بل كانوا يخدموا الأوثان وبنوا لهم هذه الهياكل. فقال لهم إيلياس الجديد أعني القديس أثناسيوس وهو يضحك: تعالوا نهدم هذا الهيكل، فقالوا له أولئك الأطفال: ألا تنظره ثابت بهذه الحجارة ومشيدَ fklwpize البنا بهذه الأعمال، ونحن فليس لنا آلة وناقصين جدًّا في قوتنا ولا نقدر نعمل هذا فقال لهم الرسولي أثناسيوس دانيال الجديد أنا أعرف صنعة في كورتي يعملوها معلمي البنين

(14) عاش أثناسيوس وتربى في صعيد مصر - انظر برهان هذه الحقيقة من أقوال القديس أثناسيوس، وهي واردة في كلام أنبا باخوم، سيرة أنبا باخوم، صفحة 43 و44.

(15) *Apologia contra Ar.*, 51, NPNF, vol. IV.

ويمسكوا الطوبة الذين يتأملوها في البنايان ...] انتهى (بخطئه).

ومن هذه القراءة نستدل أن أثناسيوس كان يعيش طفولته في كورة بجوار أخميم وكان يتردد على هذه المدينة الكبيرة مع رفاقه من الأطفال. وأنه في صبوته كان يتعلم صنعة حسب تقليد أهل مصر وربما كانت هذه الصنعة هي فن البناء.

كما يلزم أن ننتبه أن كاتب السيرة يفرق بين مرحلتين عاشهما القديس أثناسيوس:

مرحلة منهما كانت بلا شك في مدينة الإسكندرية وهي التي ربما استهل بها الكاتب سيرته، وهي الأهم بطبيعة الحال. وحياتة أخرى أقل أهمية في نظر الكاتب وهي الخاصة بطفولته قبل أن ينزح إلى الإسكندرية، والتي يقول عنها: [بقية التي كانوا منه في مصر]. وهنا يعتبر الكاتب أن مصر شيء وأن الإسكندرية شيء آخر، وذلك حسب التقسيم البيئي والمدني والجغرافي بل والكنسي أيضاً الذي كان في العصور الأولى، ولا تزال آثاره التقليدية باقية حتى الآن، إذ معروف أن أسقف الإسكندرية هو رئيس أساقفة مصر.

ويُستدل أيضاً بوضوح من هذه المخطوطة أن أثناسيوس كان مسيحياً منذ طفولته وكان كارهاً لعبادة الأوثان بغيرة شديدة وحماس يفوق قامته، وهنا يدعو كاتب السيرة بـ "إيليا الجديد" إشارة إلى غيرة إيليا الشديدة لعبادة الرب وحماسه الفائق الذي جعله يذبح أنبياء البعل(16).

عادات رسولية:

ثم إذ نعود إلى المخطوطة نقرأ أيضاً أموراً جديدة في حياة هذا القديس كانت ولا زالت مجهولة عند المؤرخين حتى هذا اليوم:

[... خائف من الذباب الصغير ولم يكونوا أوليك المتكبين يعلموا ما هي العلة في ذلك ... وهذا كان يصنعه ليكمل وصية الرسل الذي قالوها في القانون أن لا يمد أحداً يده ليأكل إلا إذا مد الكاهن يده أولاً ليرشم الموضوع للأكل وإن لم يكن هناك كاهناً يبارك، فبركة الرب تكون في بيت ذلك الإنسان ...] - (بخطئه) وهنا يعرض كاتب السيرة إلى عادة أثناسيوس وهو صغير في أنه كان عند غياب

الكاهن يرشم لنفسه الأكل الموضوع أمامه بحركة يديه على شكل الصليب قبل أن يأكل، فكان يظن الجلوس معه أنه كان يطرد الذباب. ومن هذه العبارات يستدل أن أثناسيوس كان يحفظ التقاليد الرسولي وقوانين الكنيسة المسلّمة بدقة منذ صباه، وهذا يتفق تماماً مع الصفات المعروفة عن القديس أثناسيوس وشدة تعلقه بالقوانين الكنسية كل أيام حياته.

والد القديس أثناسيوس وأثره في حياة أثناسيوس:

ثم نعود للمخطوطة لنقرأ أيضاً عن والد القديس أثناسيوس، وهي أمور غاية في الأهمية تُنشر لأول مرّة في التاريخ لتضع القديس أثناسيوس وعائلته في الموضوع الصحيح جداً والمناسب جداً:

[وكان يوماً مضى ليأخذ من السراير الكريمة في كنيسة صغيرة كانت في وسط المدينة بالقرب من بيت معلّمه ولم يجد في الكنيسة سوى قسيس واحد وهذا كان حدّاد في صنّعه فصنع الخدمة وحده، ومن بعد القديس رئيس الأساقفة مسك ذلك القس وقال له: أيها الإنسان العظيم أريد أن تصنع لي حلقة حديد (17)idoc بيدك وحدك ولا تدع أحداً من الناس يعمل معك فيها إلا أنت وحدك فأجابه القسيس قائلاً يا ابني أنا أرسمها لك لكن أحتاج إلى واحد ينفخ وآخر يطرق بالمطرقة فقال رئيس الأساقفة أيضاً: أعلّك تستطيع عمله بغير هؤلاء. فقال له: لا. فأجابه الكاهن الحقيقي أثناسيوس: فإذا كنت لا تقدر تكمل هذا الشكل الهيلواني (18)mpai doc \n\ulikon وحك فبأي نوع تتقدّم لخدمة السراير لتكمّلهم وحدك إذ تصنع الخدمة كلها بغير أحد من الناس يساعذك وإذا كان ملكاً يقدر يدبّر أعمال المملكة وحده فما هي الحاجة لهذه النفقات (19)niannwna الذي يعطيهم لجنده ... وهكذا لو أن الله كان يعرف أن واحداً وحده يقدر يكمل الخدمة فما كانت هي الحاجة أن يكرزوا هؤلاء كلهم. فقال القسيس: يا ابني أليس لك عمل وعمل لي أنا أيضاً هكذا لأن هؤلاء الأعمال هم للكهنة وحدهم ... فقال له رئيس الأساقفة: اغفر لي يا أبي تأمل ولا تصنع هذا

(17) كلمة idoc باليونانية تعني "مُحَمَّى بالنار".

(18) كلمة هيلولي أصلها اليوناني غih وتعني "المادة المظلمة".

(19) "أنونا" أصلها لاتيني وتعني "الجرابة السنوية".

العمل وحدك ليلا يغضب الرب عليك لأنني أنا أيضاً أبي هو كاهن وهو الذي علمني هذه الأعمال هكذا. فأجاب القسيس وقال له: الرب يعرف أنني قد ربحت بحديثك etekcuntixia (20) جداً يا ابني لعلك أنت أيضاً كاهن فقال له القديس أثناسيوس إذ كان ينطق بالحق: يا أبي إن كنت أنا كاهن فأنت تنظرني لكن شكلي هو هذا الذي تنظرني فيه. وحينئذ القسيس ربح جداً وصنع كل شيء قالهم له ...] (انتهى بخطئه)

ومن هذه القصة الشيقة نعلم الآتي:

- 1 - أن أثناسيوس كان يمارس التناول في شبابه قبل تكريسه.
- 2 - أنه كان يتعلم على يد معلم وفي منزله الخاص شأن العلماء في العصور الأولى وذلك في بلده أخميم في مراحل حياته الأولى، لأن كاتب السيرة يقول إن هذه الأخبار هي الخاصة به وهو في مصر تمييزاً عن الأعمال الأخرى التي له في الإسكندرية.
- 3 - عدم احتمال الشاب أثناسيوس أن تُجرى طقوس الكنيسة ناقصة، فالغيرة على الطقس والقانون الكنسي تتأجج في صدره منذ طفولته وتلاحقه على مدى حياته كلها.
- 4 - حكمة الشاب أثناسيوس - وهو لم يكن بعد كاهناً - تبرز بصورة رائعة في كيفية مواجهة كاهن خارج عن القانون الكنسي، بأدب جم، وباستخدام أسلوب الحوار والتشبيه والتطبيق المحكم الذي ظل معتمده في كل مناظراته واحتجاجاته اللاهوتية في أخطر المواقف كل أيام حياته.
- 5 - يلاحظ أن الكاهن المخطئ يخاطب أثناسيوس بما يتناسب مع سن أثناسيوس ومظهره (يا ابني)، وهذا يوضح أن أثناسيوس كان وقتئذ مجرد شاب صغير.
- 6 - كما نلاحظ مرة أخرى كيف يكون موقف أثناسيوس الشاب من نفس الكاهن عندما رفض أن يرضخ للنتيجة ويعترف بالخطأ بعد أن وصل به أثناسيوس إلى درجة الإقناع المنطقي، وبدأ يتحدث أثناسيوس [أليس لك عمل ولي أنا عمل ككاهن]، أو بما معناه ما شأنك أنت؟ ولماذا تتدخل في عمل الكهنة؟

(20) ونصحها suntecn...a سينتخنيا أي تبادل حديث الصنعة الواحدة. وهي مكونة من مقطعين، الأول nعs ومعناه مشترك، والثاني tecn...a أي "تكنيا" وهي الفن في الصنعة (تكنولوجيا).

هنا يترك أنثاسيوس الشاب المنطق والمحاكاة وي طرحهما جانباً وينطلق في مواجهة الكاهن الخاطئ المعاند، بأسلوبه الآخر الذي ما فتىء يستخدمه أيضاً كل أيام حياته، وهو رفع ضمير الخاطئ إلى مستوى المواجهة مع الله والوصية والقانون الكنسي بعد إخفاقه في قبول التعقل والحكمة والمنطق ... ولكنه يبدأ هذه المواجهة الصارمة بالجملة الرهبانية المشهورة: [اغفر لي يا أباي]. وهنا يبرز المستوى الأخلاقي لأنثاسيوس الشاب وتشبُّعه بروح التقوى والاتضاع كسند لازم في كل مواقف التصدي والدفاع!

7 - ينكشف لنا بصورة قاطعة، لها كل مبررات صدقها، أن والد أنثاسيوس كان كاهناً وكان يعيش حتى زمان هذه القصة. وهنا ندرك أن أباه كان هو بلا نزاع المصدر الذي كان يستقي منه أنثاسيوس كل تهذيبه الروحي والطقسي منذ طفولته المبكرة: [وهو الذي علّمني هذه الأعمال هكذا].

أخطأ بعض المؤرخين في ظنهم أن أنثاسيوس مات أبوه وهو طفل وتكفلت به أمه، والمحقق بصورة قاطعة أن أبوي أنثاسيوس كانا على قيد الحياة حتى بلوغ أنثاسيوس الستين من عمره ويزيد! وقد ذكر ذلك بوضوح في رسالته التي أرسلها عام 358م إلى لوسيفر أسقف كالاريس في جزيرة سردينيا (وهو معترف وعانى النفي أيضاً)، يقول فيها بغاية الوضوح: إن عيني لا تكف عن الدمع ولا روعي عن الأنين فيّ، لأننا لا نستطيع حتى افتقاد الإخوة، ولكن الله يشهد عليّ أنني بسبب اضطهادهم أصبحت لا أستطيع أن أرى (أفتقد) حتى والديّ اللذين لي، لأنه ما هو الذي أبقى عليه الأريوسيون؟ إنهم يراقبون الشوارع ويتحقّقون من كل إنسان يدخل أو يخرج المدينة (الإسكندرية)، يفتشون المراكب، يجولون في الصحراء، ويحاصرون البيوت ويحترشون بالإخوة حتى ألقوا راحة كل إنسان]. وهنا يصف أنثاسيوس اضطهاد الأريوسيين الذي أثاروه على الكنيسة أثناء معاناته النفي الثالث واختفائه الذي ظلّ فيه يتنقل من مدينة لمدينة ومن قرية لقرية ومن برية لبرية (من سنة 356-361م). ولكن نسمع عن حادثة تشير إلى موت أبيه بعد هذا الاضطهاد بست سنوات، وفي اضطهاد آخر يذكر فيها أنه ظلّ مختبئاً في مقبرة أبيه نحو أربعة

8 - ومن سؤال الكاهن بعد أن ارتدع وقَبِلَ التصحيح والتوجيه: [أَلَعَلَّكَ أَنْتِ أَيْضاً كَاهِنٌ؟] يتضح أن أثناسيوس لم يكن قد رُسم كاهناً بعد. ثم في رد أثناسيوس المبدع يتبيّن لنا مدى الإلهام: [إِذْ كَانَ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ] بخصوص النير الكهنوتي الذي كان أثناسيوس يحس أنه مزعم أن يوضع عليه لا محالة: [يَا أَبِي إِنْ كُنْتُ أَنَا كَاهِنٌ فَأَنْتِ تَنْظُرِي]، ومعناه أنك أنت الذي تراني كاهناً بالرؤيا أو بالنبوة ولكني أنا في حقيقتي الآن لست كاهناً: [لكن شكلي هو الذي تنظرنني فيه].



وهكذا نخرج من هذه الورقة الفريدة لهذا المخطوط الضائع بتاريخ جديد لحياة أثناسيوس يقلب كل أفكار العلماء وتخميناتهم، الذين منهم مَنْ قال إن أمه كانت رئيسة عبدة الأوثان، ومنهم مَنْ قال إن أثناسيوس نفسه كان وثنياً في صغره.

ولعلَّ الله يساعدنا ويجعلنا نعثر على بقية المخطوطة الفريدة، وهي لا شك راقدة الآن ضمن مدشوشات المخطوطات التي سُرقت من مكتبة دير القديس أنبا مقار واستقرت في إحدى مكتبات العالم تنتظر يوم ظهورها وعودتها.

بقية أخباره مع عائلته:

شهادة من القديس غريغوريوس النزينزي:

[لقد شَبَّ منذ البدء في الممارسات الدينية وسيرة التقوى وبعد دراسة مختصرة في الآداب والفلسفة، تلك الأمور التي ما كان ينبغي قط أن لا يكون متمهراً فيها قبل أن ينقدها!!!] (22)

أمّا بقية أخبار عائلة أثناسيوس فنعلم أن والده مات ودُفن بالإسكندرية بعد سنة 358م وأن قبره كان خارج المدينة (23). كذلك ومن كلمات أثناسيوس نفسه إلى قسطنطين الملك نعلم أن عائلته كانت فقيرة بعكس ما يكتبه بعض المؤرخين غير المدققين الذين يزعمون أنه كان من عائلة ثرية جداً. وهالك كلمات أثناسيوس:

(21) Socrat., E.H. IV, 13.

(22) Greg. Naz., Orat. 21. 6.

(23) Socrat., IV. 13.

[واحتج أثناسيوس لدى الإمبراطور قائلاً: كيف يكون إنسان فقير مثلي وبحالي الضعيف هذا ويصنع مثل هذه الأمور؟] (24)

ولقد وردت قصة عن أيام صبوة أثناسيوس بقلم المؤرخ روفينوس (25) وعنه تناقلها جميع المؤرخين والكتّاب، يقول فيها إن ألكسندروس بابا الإسكندرية التاسع عشر كان في يوم من الأيام مطلاً من نافذة البيت الذي يقطنه على البحر، فرأى صببية يلعبون على الشاطئ، فلما تحقّق من حركاتهم وجدهم يمثلون طقس العمد الذي تجريه الكنيسة؛ فأخذ يراقبهم بشغف وابتدأ يحس أن عملهم هذا أصبح له وضعه السرائري، فاستدعاهم وكان ذلك بحضرة بعض الإكليروس، ولما استجوبهم علم أن الصبي أثناسيوس كان هو الذي يقوم بدور الأسقف في العمد (والمعروف أنه في العصور الأولى للكنيسة كان الأسقف وحده هو المنوط بإجراء العمد من دون الكهنة)، وقام فعلاً بعماد بعض الأولاد رفقائه عن قصد وبكل مستلزمات الطقس، وهؤلاء لم يكونوا مسيحيين بعد؛ أمّا البابا ألكسندروس فلم يأخذ الموضوع ببساطة. وبعد مداولات مع الإكليروس اعتبر أن هذا العمد ساري المفعول وامتدح أثناسيوس واحتفظ به عنده، وأمر أن تُجرى لبقية الأولاد ما يلزمهم من الطقوس والتعاليم اللازمة لتكميل الطقس.

وقد حاول بعض المؤرخين التقليل من قيمة هذه القصة أمثال: “كيف” و “تيمون” والبندكتيين، ولكن المؤرخ “دين ستانلي” يرى في هذه القصة ما يرجح صدقها تماماً (26). أمّا بخصوص العقبة التاريخية التي تتصدى لهذه القصة إذ أن ألكسندروس صار أسقفاً على الإسكندرية عام 313م. وبهذا يكون أثناسيوس وقتئذ قد بلغ 17 سنة من عمره. فيرى جماعة البولاندست بعد أن تحقّقوا من نياحة أنبا بطرس الشهيد، أن هذا التاريخ (313م) متأخر جداً، والحقيقة أن ألكسندروس اعتلى الكرسي الإسكندري قبل ذلك التاريخ بكثير، مما يزكّي صدق هذه القصة، وأن أثناسيوس فعلاً لم يكن قد تجاوز آنذ دور الصبوة. ويؤكّد المؤرخ سوزومين (27) صدق هذه القصة

(24) *Apologia contra Ar.*, NPNF, vol. IV, 9.

(25) Ruf. 14.

(26) Dean Stanley, “*Lect. East*” p. 264.

(27) Soz. II, 17.

معتبراً إياها المدخل الذي بدأ منه القديس أنثاسيوس تدرجه في المراتب الكنسية حتى جلوسه على كرسي الأسقفية.

وفي كتابه عن "تجسّد الكلمة" يأتي القديس أنثاسيوس عفواً على ذكر تقبُّله العلوم اللاهوتية على أيدي معلّمين عانوا من اضطهاد مكسيمين الثاني الذي وقع سنة 311م (28). وهذا يعني أن أنثاسيوس بدأ دراساته اللاهوتية ربما في مدرسة الإسكندرية بعد نزوحه من أخميم وهو دون الخمسة عشر عاماً!! والمعروف أن أول كتابين ألفهما القديس أنثاسيوس وهما "ضد الوثنيين" و"تجسّد الكلمة" أكملهما قبل سنة 319م حيث كان عمره وقتئذ لم يتجاوز الثالثة والعشرين.

أنثاسيوس سكرتير البابا ألكسندروس:

وبدخول أنثاسيوس الشاب في خدمة البابا ألكسندروس كابن له وسكرتير يبدأ تاريخ أنثاسيوس الكنسي بصورة عميقة وسريعة للغاية، حيث كان وقتها البابا الإسكندري يترأس على مائة أسقف ينتشرون في كل أنحاء مصر وليبيا والخمس مدن الغربية، وحيث كان أسقف الإسكندرية يُلقَّب بـ "رئيس الأساقفة" (29) ويلقب "باباس" (30) (أي الأب العزيز) وذلك منذ أيام هيراكلاس البابا الثالث عشر (31).

ومعنى ذلك أن وظيفة سكرتير البابا الإسكندري كانت بحد ذاتها عملاً ضخماً للغاية منشعب المسئوليات. ويقول القديس كيرلس عمود الدين في خطابه لرهبان مصر إن أنثاسيوس كان يعيش مع البابا ألكسندروس (كابن مع أبيه) تحت سقف واحد (وكان محبوباً بسبب حلاوة صفاته) (32).

فكانت هذه الأيام من أحلى ذكريات أنثاسيوس، خصوصاً في أيامه العصبية إزاء المحن المتواترة التي عاناها على مدى حياته الطويلة.

دراسات أنثاسيوس المدنية والروحية:

ولكن لم تكن أيام أنثاسيوس في سكرتيرته للبابا ألكسندروس تنقضي في مجرد

(28) *De Incarn.* 36.

(29) Athanas., *Ap. c. Ar.* 71.

(30) Dionis., *On Heraclas* (Euseb., H.E. VII, 7).

(31) *Ibid.*

(32) Ruf. I. 1.

أعمال روثينية؛ بل ازدحمت إلى أقصى حد بجهاذه المتواصل في تحصيل العلوم ودراسة الفلسفة والبلاغة والشعر، فقد درس هوميروس وأفلاطون وأرسطو وديموستين(33). ونحن نعلم تماماً من كتابات أثناسيوس مقدار تحصيله لهذه العلوم واستخدامها في شرح وتوضيح أعماق الإنجيل(34)، وخصوصاً في مواقف الدفاع والمحاكاة ضد الفلاسفة. ويخبرنا المؤرخ سلبيسيوس ساويرس أن أثناسيوس درس القانون الروماني(35). ولكن الذي ينبغي أن ننتبه له جداً أن كل هذه العلوم غير الكنسية التي توفّر القديس أثناسيوس على تحصيلها لم تُصَب الكنيسة منها بأي سوء على الإطلاق، فلم نسمعه يوماً متعظماً بعلمه أو متكلاً على بلاغته أو منطقته، بل كان الله دائماً هو نوره وخلصه.

أمّا كل هذه الدراسات التي تلقّاها سواء بجهاذه الخاص أو على أيدي معلّمين خصوصيين أو في مدرسة الإسكندرية، فلم تكن إلاّ أمراً ثانوياً تماماً بالنسبة لشغف أثناسيوس أن يكون (كاتباً متعلّماً في ملكوت السموات). وتظهر غيرته النارية في حبه للكتاب المقدس وتوقيره المطلق لسلطانه في جميع كتاباته، وبالأخص في مؤلّفه (ضد الوثنيين: 1)، وفي عظته (9:1)، والرسالة إلى أساقفة مصر (4)، وفي دفاعه عن قانون نيقية (32)، وفي كتاباته عن مجعّي أرمينيا وسلوقية (6).

وعلى سبيل المثال لشغفه المطلق بالأسفار نقدّم مقتطفات من أقواله توضّح هذا الاتجاه:

1 - [وإني أعتقد أنه من اللائق أن أتقدّم إليكم كمُحب للمسيح متحدّثاً عن المسيح، وإني لوائق أنكم تضعون إيمانكم به ومعرفتكم له أعلى من كل شيء آخر مهما كان!
وإني أعتقد أن الأسفار المقدّسة الملهمة كفيّلة بحد ذاتها أن تعلن الحق].(36)

(يلاحظ أن أثناسيوس يكرّر هذه الحقيقة في جميع كتاباته).

(33) Athanas., *Orat.* IV, 29, quotation from *Odyss.* II, 3633-66.

(34) *Ibid.*

(35) Salpicus Severus, II, 36; *Soc.* I, 31.

(36) *Cont. Gent.* I.

2 - [ممن يستلم "مارقيون" و"المانيون" الإنجيل إن كانوا يرفضون قبول الناموس أي العهد القديم؟ ونحن نعلم أن العهد الجديد انبثق من العهد القديم ويشهد له! فإن هم أجازوا لأنفسهم أن يرفضوا العهد القديم، فكيف وممن يستلمون الجديد الذي هو أصلاً منه؟ وبولس يقول إنه رسول مفرز لإنجيل الله: «الذي سبق فوعد به بأنبيائه في الكتب المقدسة» (رو 1:2). وربنا نفسه يقول: «فتشوا الكتب لأنها هي التي تشهد لي» (يو 5:39). فكيف إذاً يمكنهم أن يعترفوا بالرب إن لم يفحصوا الأسفار (القديمة) أولاً التي كتبت عنه؟ ونحن نسمع من فيلبس أحد التلاميذ وهو يبشّر نثنائيل: «قد وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء: يسوع» (يو 1:45). لأن الرب الذي أعطى الناموس هو نفسه الذي وعد في الناموس أنه سوف يقيم أنبياء أيضاً ليكون الرب هو نفسه رب الناموس والأنبياء، فالذي ينكر الواحد ينكر الآخر عن اضطرار أيضاً.

... وإن الأسفار المقدسة لها كافية جداً لنا، لذلك فبالنسبة للذين لهم رغبة أن يعرفوا أكثر فيما يختص بهذه الأمور أنصحهم وأزكي لهم أن يقرأوا كلمة الله. [37]

وعلى هذا النمط تجري جميع كتابات أثناسيوس مزدحمة بالآيات من العهد القديم والعهد الجديد، إمّا بنصها الكتابي المحدد أو بروحها دون الالتزام بالحرف، بحيث لا يمكن أن يخلو سطر من سند كتابي.

نخيرة الآباء تُضاف لرصيد أثناسيوس:

غير أن مسرته العظمى كانت في الأبحاث اللاهوتية، فقد أوتي موهبتها في عمق لا يُجَارَى. وقد كانت قدرته فذة في تحويل كل فكر وكل ثقافة لتخدم فكرته اللاهوتية ويجمع كل شيء ليخدم غايته العظمى في إثبات حجته لمجد المسيح.

ولقد كانت حياة وتراث العلماء كليمنديس وأوريجانوس وثيوغنسطس والباباوات السابقين، وبالأخص استشهاد البابا بطرس خاتم الشهداء سنة 311م في ظروف الاضطهاد المرعبة التي رآها بعينيه، هي الينبوع الذي استقى منه أثناسيوس حتى

الشعب ونما عليه وترعرع وجدانه الروحي والإيماني واللاهوتي!! فأتناسيوس ابن علماء مصر وشهادتها بالحق وتلميذ المعترفين، وشريك آلام المسيح عن جدارة.

لقد ذاق أتناسيوس الموت مراراً تحت اضطهاد الوثنيين المرعب على يد مكسيمين Maximin الثاني. ولقد تعلقت روحه بمعلميه الذين بعد أن أكملوا له التعليم، أكملوا حياتهم بالشهادة وسفكت دماؤهم أمام عينيه! فأبى تعليم عن المسيح هذا الذي استقاه أتناسيوس على مستوى الشهادة وببرهان الحب الصادق للمسيح حتى الموت!

لقد كان أتناسيوس صبياً صغيراً عندما وصلتته أنباء استشهاد الأسقف الوقور فيلياس أسقف تمويس (تمي الأمديد)، الذي قبل التعذيب حتى لفظ نفسه الأخير دون أن يتزحزح قيد شعرة عن الشهادة بلاهوت المسيح المصلوب!! نعم، أيّ درس في اللاهوت يمكن أن يستقيه صبي بدأت تتفتح مداركه الروحية وقواه الإيمانية أعظم وأصدق من هذا الدرس؟ ثم أيّ درس يمكن أن يلقن لشاب صغير مؤهل من قبل الله أن يجلس على كرسي مار مرقس يوماً من الأيام أعظم من أن يستلم بالخبر وبالإيمان والعيان قصة استشهاد أب الكنيسة كلها ورئيس أبحارها بطرس خاتم الشهداء، وبعد السيف؟ ... لقد سلّم كل هؤلاء الشهداء، نعم سلّموا أرواحهم الشجاعة مع إيمانهم القويم للفتى أتناسيوس لكي يعلم وهو متيقن مما رأى وسمع ويشهد بجرأة وهو مدرك مسبقاً ماذا يمكن أن تكلفه الشهادة!

وإليك أيها القارئ العزيز مقتطفات قصيرة من رسالته إلى أساقفة مصر تكشف عن روح أتناسيوس الحقيقية في الإقناع والدفاع التي كانت على مستوى الاستشهاد دائماً وبالحق!!:

[ومن أجل هذا أهيب بكم أن تكونوا أمثلة للإخوة في كل مكان، أنتم الذين وُضِعَ تحت أيديكم اعتراف قد تحدّد بواسطة آباء نيقية الذين دافعوا عنه بأعظم غيرة وبتقّة في الرب، علّموهم أنها الآن معركة أماننا إزاء الحق في صراعه ضد الباطل، وأن مكاييد العدو وحيله كثيرة متعدّدة. ولكن برهان الشهداء لا يكون برفض التبخير للأصنام وحسب، وإنما برفض أيّة محاولة لإنكار الإيمان، إنما بشهادة ضمير صالح متوهّج.

فإبراهيم لم ينل الإكليل لأنه تألم بالموت ولكنه كان أميناً لله. وكذلك بقية القديسين الذين تكلم عنهم بولس: جدعون وباراق وشمشون ويفتاح وداود

وصموئيل والبقية، فإنهم لم يكملوا بسفك الدم إنما بالإيمان حُسبوا أبراراً
مكملين في المجد!!

أمّا إذا أردت أن أضيف إلى هؤلاء شهادة من بلدنا الذي نعيش فيه فأنتم تعلمون الطوباني ألكسندروس (312-328م) كيف ارتضى بسرور أن يُقاوم حتى الموت ضد هذه الهرطقة (أريوس)، وكم من المحن والمعاناة احتمل هذا الشيخ إلى أن انضم إلى آباءه في نهاية حياته؛ بل وكم من الآخرين أيضاً احتملوا العذاب والمشقة من أجل تعليمهم القويم ضد هذا الكفر والإلحاد. والآن هم يتنعمون بالمجد مع المسيح جزاء اعترافهم.

وعلينا أن نعتبر هذه الحقيقة: المعركة قائمة والاختبار أمامنا، فإمّا أن نحفظ الإيمان أو ننكره.

كما أنه علينا أن نجعل حفظ ما استلمناه على درجة من الاهتمام والإخلاص كغاية حياتنا، على أن يكون أساس تعليمنا هو الاعتراف الذي رُسم في نيقية مبتعدين عن كل ما هو مستحدث، معلّمين الشعب أن لا يلتفت إلى "الأرواح المضلة" [38]

أنطونيوس الكبير في حياة أثناسيوس:

ولكن لم تكن الينابيع التي استقى منها أثناسيوس لاهوتية إيمانية على مستوى الشهادة وسفك الدم وحسب؛ بل وامتدت أيضاً لتشمل أعماق ما في التراث الكنسي من روحيات ونسك، فقد تربّى أثناسيوس وهو بعد شاب على يدي أنطونيوس الكبير، أو كما يقول هو بفمه: [لقد رأيت أنطونيوس مراراً وتعلّمت منه لأنني لازمته زمناً طويلاً وسكبت ماءً على يديه (أي خدمته)] [39]. وهذا مما يرجّح جدّاً قصة حياته الموجودة بالمخطوطة المذكورة، لأن وجوده في الصعيد في فجر شبابه هيأ له الفرصة لكي يتعرّف على القديس أنطونيوس ويعيش بقربه ويخدمه.

وقد كانت هذه إحدى الاختبارات العظيمة في حياة أثناسيوس، والتي جعلت من إيمانه ولاهوته نوعاً من الجهاد النسكي على مستوى الحب الإلهي الذي اضطرم به

(38) *Ad. Episcop. Aegypt.* 21.

(39) *Vita Ant.* I.

قلبه، فهوّن عليه العذاب والنفي والتشريد، وجعل دفاعه عن الإيمان رسالة حب أكثر منها رسالة تعليم، وعمل فداء أكثر منه عمل واجب!

لقد كان أثناسيوس ناسكاً، لذلك لم يجد لنفسه أفضل من قلالي الرهبان ليقضي فيها معظم أوقات هروبه من وجه الأريوسيين، ملوكاً ورؤساء وأساقفة. كانت قلالي الرهبان في نظره حلوة كخيّام يعقوب، حسب قول أثناسيوس نفسه: [وهكذا صارت قلاليهم في الجبال كهياكل مقدّسة مكتنّزة بجماعة الأتقياء يرتّمون المزامير ويشغفون بالقراءة، يصومون ويصلّون فرحين برجاء الأمور العتيّدة ... فكان كل من يرى مثل هذا النظام الجميل بين الرهبان يرفع صوته ويقول: «ما أحسن مساكنك يا يعقوب، خيامك يا إسرائيل، كأودية ظليّلة، كجناّت على نهر، كخيّام أقامها الرب، كأرز على ماء»] (40)

وكان الراهب في نظر أثناسيوس، بما يقّده من بذل الذات وإنكارها والتضحية بكل أهوائه وشهوّاته، على مستوى الشهيد والمُعترف الذي بلغ إيمانه سفك الدم، وهذا ما يقوله أثناسيوس:

[وعندما توقّف الاضطهاد أخيراً وأكمل المغبوط الأسقف بطرس شهادته (25) فبراير سنة 311م)، انصرف أنطونيوس واعتزل ثانية في صومعته وبقي هناك، وكان كل يوم شهيداً أمام ضميره، مناضلاً في جهاد الإيمان، وصار نسكه أشد صرامة لأنه كان دائم الصوم.] (41)

وهكذا كان تأثير الرهبنة، وبالذات القديس أنطونيوس على نفسية القديس أثناسيوس، عميقاً غاية العمق، إذ ظلّ وجه أنطونيوس بوداعته وحركاته الهادئة وسلامة نفسه وهدوئه منطبعاً على ذهن أثناسيوس لا يفارقه، مما جعل حياة أنطونيوس أحد المصادر السريّة الهامة جدّاً التي ظلّت تنضح على أفكار وسلوك أثناسيوس كل أيام حياته! اسمعه وهو يصف أنطونيوس ولاحظ مقدار تأثره الشخصي:

[كان طيباً متواضع الروح ... كانت طلّعته تنم عن نعمة عظيمة وعجيّبة، وهذه النعمة أُعطيت له من المخلّص. ومع أنه لم يتميّز عن الباقيين في الطول أو العرض إلا أنه تميّز عنهم في رصانة الأخلاق وطهارة النفس، لأن نفسه كانت

(40) Ibid. 44.

(41) Ibid. 47.

قد خلت من كل شائبة فصارت هيئته الخارجية هادئة، وهكذا حصل من فرح نفسه على طلعة بهجة، وكانت تتبيّن حالة روحه من حركات جسمه ... كانت نفسه في سلام ولم يكن ذليل النفس أبداً إذ كان قلبه جزلاً. [42]

ولقد كان "النسك" هو إحدى المواهب التي زكّت أنثاسيوس لاعتلاء كرسي الأسقفية وهو بعد فتى دون الثلاثين! وهذه هي شهادة أساقفة مصر يصفون حفلة رسامته ويعدّون الأوصاف التي قدّمها الشعب تعزيراً لانتخابه:

[واجتمع كل شعب الكنيسة معاً كما بفكر واحد وجسد واحد، هاتفين بصراخ أن أنثاسيوس مستحق بالضرورة أن يكون أسقفاً على كنيستهم، وجعلوا هذا موضوعاً لصلواتهم العامة أمام المسيح، متوسّلين أن أوافق برجاء، ليلاً ونهاراً، وهم ملازمون الكنيسة لا يريدون أن يفارقوها ولا سمحوا لنا بالخروج منها، ونحن شهود لهذا كله وكل المدينة بل وكل الإقليم (مصر) أيضاً. لم يتكلم أحد بكلمة واحدة ضد أنثاسيوس، بل كانوا يلقّبونه بأعظم وأكرم الألقاب قائلين: إنه صالح، مسيحي، تقي، "ناسك" (بما يفهم الآن بكلمة راهب) أسقف حقيقي. [43]

كذلك نجد أن الاتجاه النسكي وممارسة البتولية وحياة العفة صارت خطأ أساسياً في كتابات أنثاسيوس، بدأت في أول كتاب له وهو "تجسّد الكلمة":

[وإن حججنا هذه التي نقدّمها لا تتبع من كلمات وحسب، ولكن لها شاهد حقيقي لصدقها وذلك بالممارسة والاختبار، والذي يريد أن يتحقّق من ذلك فليذهب ليرى برهان الحق في حياة عذارى المسيح (الراهبات)، وفي حياة هؤلاء الشبان الذين يمارسون حياة العفة المقدّسة (جماعات الرهبان). [44]

والذي يقرأ هذه الكلمات يتبيّن بلا شك أن القديس أنثاسيوس هو كاتب سيرة أنطونيوس الكبير.

(42) Ibid. 67.

(43) *Apologia contra Ar.*, 6.

(44) *De Incarn. Verb.* 48, 1,2.

مؤلفات أثناسيوس قبل رسامته أسقفاً:

بدأ النضوج الفكري والخصب الروحي مبكراً جداً في حياة أثناسيوس. ومعروف كما سبق وقلنا إنه أكمل كتابين من كتبه وهما: "ضد الوثنيين" و"تجسّد الكلمة" في سن مبكرة جداً حوالي سنة 318م. فهو لم يذكر فيهما أي شيء عن النزاع الأريوسي الذي انفجر عام 319م. أمّا هذان الكتابان فقد كتبهما لا كلاهوتي يشرح عقيدة بل كمؤمن يشهد لمخلصه، وكتبهما لمنفعة أحد الوثنيين بعد دخوله في الإيمان المسيحي، لذلك نجد الكتابين يكمل أحدهما الآخر. فالأول يدحض آراء الوثنيين والثاني يثبت الإيمان المسيحي. ويتضح فيهما الفكر اللاهوتي الخاص بمدرسة الإسكندرية الذي ورثه أثناسيوس عن أسلافه ثم عمّقه وأفاض عليه من روحه ومن تجربته الإيمانية، فزاده قوة وأصالة حتى صار أثناسيوس نفسه جزءاً لا يتجزأ في اللاهوت الإسكندري!

ويقول العالم موللر (45) وهو لاهوتي كاثوليكي روماني ذائع الصيت (1796-1838م)، ويعتبر في الرصانة العلمية اللاهوتية الثاني بعد "بوسويه"، في كتابه الذي ألفه عن حياة أثناسيوس (46):

[إن كتاب "تجسّد الكلمة" يُعتبر أول محاولة لشرح المسيحية وتقديم حياة المسيح بأسلوب علمي دقيق. حيث برز فيه فكر أثناسيوس العميق المرهف النابع من روح مسيحية رصينة واثقة وهو يوجّه كل شيء نحو شخصية الفادي، ويرسو بكل حقيقة لترتاح برفق على المسيح، فيظهر المسيح في النهاية يملأ كل شيء!!]

وينبغي أن لا يتوه عن بالنا أن الذي يقدم هذا التقريظ هو موللر أكبر عالم لاهوتي ومؤرّخ في زمانه، وأنه يقول عن الشاب أثناسيوس مؤلف كتاب "تجسّد الكلمة" الذي سنّه لم يكن يتجاوز الثالثة والعشرين ولم تكن له رتبة وقتئذ أكثر من شماس!! وهذا يعطينا فكرة عن مدى عظمة أثناسيوس الحقيقية!!

ثم بالتالي وانطلاقاً من هذه الحقيقة يمكننا أن ندرك مقدار المعونة الفذة التي

(45) John Adam Mhler (1796-1838), Great R. C.

(46) Life of Athanasius, 2 vols., 1827.

أنخرها الله للكنيسة وللشيخ الوقور البابا ألكسندروس في شخص هذا الشماس الشاب الملمم، الذي أبقاه الله لزمان الشدة وليصدَّ عن الكنيسة جنون أريوس، ذلك القس الليبي الحقود المتعظَّم، الذي قام ليطعن بابا الإسكندرية متهماً إيَّاه بالسابيلية فسقط هو فيما هو أخطر:

(1) في تجريد المسيح من الأزلية.

(2) ثم بالتالي إسقاط المسيح من خالق إلى مخلوق.

فنتصدَّى له أثناسيوس وظل يصارعه حتى أنهى عليه وعلى تعاليمه، ولكن كلَّفه ذلك جهاد العمر كله وسبع عشرة سنة منفياً خارج كرسيه، لم يهدأ فيها يوماً واحداً.

أثناسيوس وصراعه مع الأريوسيين

(قبل مجمع نيقية 319-325م):

إن تحالف الأريوسيين مع الميليتيين جعل من جماعتهم المتحالفة ثقلاً كبيراً جداً على الكنيسة في مصر. وينبغي أن ندرك طبيعة كل جماعة بمفردها:

فالميليتيون هم أتباع الأسقف ميليثس أسقف ليكوبوليس (أسيوط الآن)، وهذا لم يكن له بدعة أو هرطقة لاهوتية معيّنة، ولكنه كان ثائراً على الكنيسة أيام البابا بطرس بسبب عدم قبوله في شركتها، بعد أن سقط مع جماعة كبيرة في التبخير للأوثان في وقت الاضطهاد الذي أثاره دقلديانوس على الكنيسة سنة 303م. فلما قطعت الكنيسة من شركتها في مجمع خاص برئاسة البابا بطرس خاتم الشهداء، أثار قلقاً عظيماً فيها وتزعَّم جماعة اكليروس، منهم أساقفة وكهنة كثيرون، وقام هو برسامات متعدّدة من أساقفة وكهنة ورهبان حتى زادت شيعته جداً. وقد رُفِع أمرهم إلى المجمع المسكوني في نيقية، فاتخذ المجمع قراراً متخاذلاً بقبولهم في الكنيسة على أن يكونوا جميعاً خاضعين للبابا ألكسندروس وأن يُعطى لأساقفتهم الكراسي التي تشغر بنياحة أساقفتها الأصليين (الأرثوذكس) وبعد موافقة البابا ألكسندروس. أمّا ميليتس نفسه فاحتفظ له المجمع بلقب أسقف ولكن لم يصرِّح له المجمع بإيبارشية بعد إسقاطه من كرسيه. وقد ظلَّ ضعيفاً محدود السلطان حتى نال من يوسابيوس النيقوميدي التشجيع والمعونة والسلطان الإمبراطوري.

ولقد زادت وطأة الميليتيين وقويت شوكتهم جداً بعد رسامة القديس أثناسيوس سنة 328م. وذلك باتصالهم بالأسقف الأريوسي يوسابيوس أسقف نيقوميديّة (الذي وقَّع

على قانون نيقية كذباً وخداعاً، الذي كان صديقاً حميماً للإمبراطور قسطنطين، ويُظن أنه كان من عائلته، وهو الذي عمّده قبل موته، بل وكان صديقاً أيضاً للإمبراطور قنسطنطيوس. ويوسابيوس هذا هو الذي كان يدبّر جميع المؤامرات ضد أنثاسيوس، مستعيناً بقوة الدولة مستغلاً صداقة الأباطرة إلى أقصى حد، وقد استطاع أن ينقل نفسه بانتقال العاصمة من نيقوميديّة إلى القسطنطينية وظلّ فيها حتى مات سنة 342م. ويوسابيوس هو الذي استغل الميليتيين في مصر وضمّهم إلى صفوف الأريوسيين. أمّا سبب صداقة يوسابيوس النيقوميدي الشديدة لأريوس فيرجع إلى أنهما كانا معاً يتلقيان دروس اللاهوت في مدرسة "لوسيان" بأنطاكية.

ويُعتبر يوسابيوس هذا أنه هو المسئول الأول أمام الله والكنيسة في جميع العثرات والقلقل التي حدثت لها من جراء هرطقة أريوس. لأنه بواسطة يوسابيوس هذا استطاع أريوس وهو مجرد قسيس أن يفرض قضيته الفاسدة لتُسمع لدى الكنيسة كلها، مع أنه كان من الحق كل الحق أن يكتفى بفحص أمره محلياً وبواسطة رئيسه المباشر البابا ألكسندروس ويُحكم عليه ويُدان، ويكون حكم ألكسندروس نهائياً. ولكن تدخل يوسابيوس في إبطال حكم البابا ألكسندروس الذي اتخذ ضد أريوس في مجمع محلي بالإسكندرية سنة 321م، ثم بمحاولة يوسابيوس مرّة أخرى لدى الإمبراطور، نجح في رفع قضيته إلى مجمع مسكوني.

ولكن من المعروف أن البابا بطرس هو الذي رسم أريوس الليبي شماساً، ولكنه عاد بسرعة وأسقطه من رتبته، ثم جاء البابا أرخيلوس وأعادته إلى الشركة ورسمه قساً. وكان أريوس يطمع في أسقفية الإسكندرية فلمّا خذلوه ورُسم ألكسندروس، بدأ ينفث حقه وانتقامه علناً في الكنيسة (47).

وإن السر الأعظم الذي يكمن وراء هرطقة أريوس وكفره وعناده الشنيع يمكن أن نلخصه بكل قوة وكل اختصار في أن أريوس كان يملك معرفة دينية، ولكن لم يكن يملك أخلاقاً دينية. وقد وجد له صديقاً يماثله في كل شيء كان له نصيراً في كل شروره هو يوسابيوس النيقوميدي. ويقول عنه "جواتكن" المؤرّخ المشهور: "كان

(47) Theodoret, E. H., 1, 2.

يوسابيوس النيقوميدي غير عظيم في شيء ولا كان نير الفكر» (48). وصدق ما يقوله مار إسحق أسقف نينوى: «إن كل مَنْ يتعظّم بمعرفته يسقط في أحد شرّين: إمّا التجديف على الله أو في زنا نجس».

ولكن شكراً لله الذي كان قد أعد للكنيسة في هذا الوقت الحرج قديساً ابن قديس، أثناسيوس ربيب أنطونيوس، لكي يدافع لها عن المعرفة الدينية الصادقة والأخلاق الدينية الطاهرة، ويرسم أمامها قانون إيمانها الذي عاشت ولا تزال تعيش به حتى اليوم.

ومعروف أن النزاع الأريوسي عاصره أثناسيوس منذ أول لحظة، وهو شماس، متصدياً له ونازله، كما يقول المؤرّخ اللاهوتي دورنر (49): «بأسلحة بالغة الاكتمال والقدرة، فأثناسيوس كان قد تكامل في نضجه الروحي واللاهوتي، ومملك في قلبه وعقله كل الردود المفحمة على أسئلة أريوس التهكّمية، لأنه كان قد بلغ أوج إلهامه في الإحساس بالفادي وإدراكه ككلّ لا يتجزأ، وهذا الإلهام بالمسيح ككلّ ظلّ سلاحه الذي استطاع أن يحطّم به كل نظريات أريوس العقلية الفاسدة».

انحرف أريوس في تيار الأسلوب العقلي وأخضع الإنجيل لفكره، وأراد أن يحدّد صفات المسيح الجوهرية بنفس الأسلوب المنطقي الذي يحدّد به الأمور المنظورة الأخرى: [إن كان هناك أب وابن، فالأب يلزم أن يكون سابقاً للابن ... والنهائية فالابن منفصل عن جوهر الأب!].

ثم من جهة أزلية الابن، فإن أريوس يجدها لأنها تقف حجر عثرة أمام الأسلوب العقلي المغلق الذي يريد أن يحدّد بنفسه البدايات والنهائيات لكل ما يدخل تحت الفحص العقلي: [الأب خلق لنفسه ابناً من لا شيء كأداة يخلق بواسطتها العالم].

أثناسيوس يرد على الأسلوب العقلي المغلق بأسلوب عقلي منفتح على الله خاضعاً للأنهائيات وليس مخضعاً لها: [أنتم أيها الأريوسيون بكلامكم هذا تبرهنون على ضعف الخالق (الأب). إذ أنه

(48) Gwatkin, p. 38.

(49) Dorner, Isaak August (1809-1884): *Treatise on the Doctrine of the Person of Christ* (Eng. tr., 5 vols., 1861-1866).

يكون كأنه لا يملك القوة ليخلق الكون بنفسه فاضطر أن يخلق أداة خارجة عنه، كنجار يصنع لنفسه أولاً المنشار! وهل يمكن أن يكون شيء أكثر كفراً من ذلك؟

+ كذلك هل من اللائق أن نوازن ونقيس بين البنوة الإلهية بما يقابلها في الطبيعة البشرية؟ ... فتسألون (بتهكم) هل ممكن أن يكون للإنسان ابن قبل أن يلد؟ (يشير الأريوسيون بذلك إلى أن ابن الله خُلق من لاشيء وأنه كان في وقت ما غير موجود “غير أزلي”).

+ فإذا فرضنا (فرضاً جديلاً وهذا غير صحيح) أن الأب لا يكون له ابن قبل أن يلد، لكن السؤال هو وماذا يكون بعد أن يلد؟ هل يكون الابن كأنه غريب عن الأب كأنه من خارجه؟ أم يكون هو من ذاته ومساوٍ لطبيعته وطبق الأصل لصورته، حتى إن الأول (الأب) يُرى في الآخر (الابن) والآخر (الابن) يُرى في الأول (الأب)؟

+ فالآن إن كان لك ابن فهل أنت اشتريته من الخارج كبيت أو خلفه؟ أم تقول إن ابني هذا هو مني خاصة ومساوٍ لطبيعتي؟ مولود مني وليس صائراً لي من آخر حيث أنا أيضاً بكلّيتي فيه مع أنني باقٍ بنفسي ما هو أنا!!

+ والآن إذا رفعوا أماننا سؤال الزمن، فعليهم أن يقولوا ما هو الذي يمنع في خاصية الله من أن يكون دائماً أباً للابن (ديمومة الأبوة والبنوة في الله وأزليتها هي من أخص مميزات الطبيعة الإلهية).

فإذا سألوا امرأة في اعتبار الزمن (بالنسبة للولادة)، عليهم أن يسألوا الشمس فيما يختص بشعاعها (هل يمكن أن توجد الشمس بدون شعاع؟). كذلك عليهم أن يسألوا الينبوع بخصوص ما يتولد منه أو يخرج منه. فهذه الأمور - أي الشعاع الخارج من الشمس والنهر الخارج من الينبوع - نجدها ولو أنها نتاج لآخر غيرها، إلا أن وجودها قائم دائم وباستمرار (بدون أي فاصل زمني على الإطلاق) مع مصدرها الذي منه خرجت.

والآن إذا نظرنا إلى طبيعة الآباء هكذا (أي بنفس هذا الاعتبار)، نرى أنه يوجد فعلاً لهم مع أولادهم وجود طبيعي وديمومة، ... ألم يقل الكتاب إن لاوي

كان موجوداً في صلب أبيه “إبراهيم” (حينما تقبل إبراهيم البركة) وذلك قبل أن يولد لاوي بمئات السنين؟

فإذا كان الله في تصوّر الأريوسيين أقل من هذه الأمور، ألا يُحسب لهم هذا كُفراً وعلى المكشوف؟

... ومن هذا بالتالي يكون أن “الكلمة” باعتبار أنه من الله فهو يكون ذا وجودٍ مساوٍ دائمٍ معه، وبه أيضاً جعل الأب كل الأشياء التي كانت غير موجودة جعلها موجودة.

وهكذا، فكون الابن لم يوجد من لا شيء بل هو أزلي ومن الأب، أمرٌ مؤكّد بطبيعة الحال.

أمّا هؤلاء الهرطقة فسؤالهم الذي يقولونه للوالدين (بخصوص استحالة إمكانية القول بوجود ابن قيل أن يولد)، فهو في الحقيقة يكشف التواءهم وزيفانهم عن الحق، لأنه قد تحقّق أمامهم إمكانية ذلك حتى على المستوى الطبيعي، وها نحن قد وضعناهم موضع الخجل بالنسبة لموضوع الزمن أيضاً [50]

وبهذه الروح الواعية وبإحساسه المتكامل العميق بحقيقة المسيح ووجوده الأزلي مع الأب رافق أثناسيوس معلّمه البابا ألكسندروس، ميمّما شطر نيقية سنة 325م للدفاع ضد أريوس عن يقين الإيمان بالفادي الذي أحبّه. وكان أثناسيوس قد بلغ من عمره وقتئذ عامه التاسع والعشرين.

أثناسيوس في مجمع نيقية: سنة 325م

إن السؤال الذي طرحه الآباء في مجمع نيقية لم يكن فصلاً لفحوى معاني الأسفار المقدسة بحسب رؤيتهم، ولا كان في ذهنهم مسبقاً أنهم سيتجادلون عمّا تعنيه الأسفار من المعاني التي تنطبق وفكر الله نفسه، ولكن الذي كانوا يعنونونه جداً هو شيء مختلف عن هذا تماماً، وهو أن يشهدوا بما تسلموه!!!

وكانوا يدركون تماماً أنهم إنما هم شهود وليسوا مفسّرين!!

وكانوا يحملون عبء مسئولية شعروا تماماً أنها أُلقيت على عاتقهم ولا بد أن يتمموها، وهي أن يسلموا للمؤمنين هذا التراث الصالح الذي استلمته الكنيسة بحسب وصية الله!

وكانوا جدّ واعين أن حاجتهم العظمى ليست إلى العلم بل إلى الأمانة!!

وكان السؤال المطروح عليهم للإجابة عليه ليس هو ما كانوا يعتقدونه أنه أكثر احتمالاً أو ترجيحاً أو حتى يقيناً من الكتب المقدسة؛ بل ما هو الذي تعلموه الذي استؤمنوا عليه ليسلموه للآخرين. [51]

كان أثناسيوس في نيقية - بحد تعبير غريغوريوس النزينزي: "أعظم المرافقين للأساقفة" (52)، "مجاهداً أقصى ما يكون الجهد لحصر هذه الكارثة وضغطها في أقل حيز ممكن" (53). وسر نصره أثناسيوس في مجمع نيقية كان يكمن بصورة أساسية في ثقته بالمسيح الفادي الذي كان يدافع عنه، فكان أثناسيوس يملك الحقيقة لا في عقله ولا في لسانه فحسب، بل في قلبه، في شخص يسوع الذي كان يتكلّم فيه

(51) Athanasius, NPNF, 2nd ser., vol. IX, p. 2.

(52) Greg. Naz., *Orat.* 21.

(53) Ibid.

بروحه القدوس عند افتتاح فمه.

ويمكننا أن نتصوّرهُ، كما يصفه غريغوريوس أيضاً، بوجهه الملائكي وجسمه النحيف - الذي أصبح مربعاً لدى كل الخارجين عن الحق - وجبهته العريضة وعينيه اليقظتين، يرقب حركات الأريوسيين بنباهة وذكاء وحذر فائق، ليقطع عليهم كل طرق اللف والدوران والخداع والمؤامرة. وإليك ما ورد على قلمه في دفاعه عن قانون نيقية، حيث ترى في كلامه مستوى اليقظة التي يراقب بها هؤلاء الأساقفة الأريوسيين اللصوص:

[وعندما قال الأساقفة (الأرثوذكس) إن "الكلمة" يتحتم أن يوصف "بالقوة الحقيقية" و"صورة الأب في كل شيء مثله بلا تغيير"، "دائم"، "موجود فيه بلا انقسام"، "لم يكن الكلمة قط غير موجود بل دائم الوجود"، "أزلي مع الأب كشعاع النور للنور"؛ وإذا بيوساب (الذئب النيقوميدي) وجماعته وأتباعه عندما لم يجدوا مفرّاً من الاحتمال (لهذه الأقوال) إذ لم تكن لديهم الجرأة للاعتراض لأنهم صاروا في خزي بسبب الاحتجاج الذي صار ضدّهم، أخذوا يتهامسون الواحد مع الآخر ويغمزون بعيونهم.] (54)

وهنا أدرك القديس أثناسيوس أنه أمكنهم قبول كل هذه الأوصاف إذ وجدوها هي بعينها قد استخدمتها الأسفار في وصف علاقة الإنسان العادي بالنسبة لله في أماكن كثيرة. فما كان من الأساقفة الأرثوذكس، وبتوجيه من أثناسيوس، إلا أن أعادوا الصيغة مرة أخرى وأضافوا إليها صفة جديدة في وصف "الكلمة" وكانت معروفة سابقاً (55)، وكانت هي الضربة القاضية التي كشفت كل مؤامرة الأريوسيين وأوقعتهم في الفخ الذي نصبوه. أمّا هذه الصيغة فكانت: "وأنه واحد مع الأب في الجوهر" (56).

وكانت سرعة أثناسيوس في كشف نقط الخبث عند الأريوسيين يقابلها سرعة الرد وشدة الحجة واقتباس الآية، فكانت في الحقيقة قوة عظيمة لائقة بهذه المحنة العظيمة!!

(54) De Decr. 20.

(55) انظر شرح "الهوموؤوسبيوس" في الجزء الثاني من الكتاب.

(56) De Decr. 20. and ad Afr. 5.

ولم يكن أثناسيوس مجردَ محاجج بل كان يستطيع في نهاية كل المحاجاة أن يضع المبادئ التي كانت موضع المناظرة في صورة قانون واجب القبول والنفاذ. ولذلك انتهت جميع المباحث والحجج والمناظرات في مجمع نيقية إلى مبادئ إيجابية غاية في الرصانة اللاهوتية تنبع من الإنجيل وتصب فيه، أي أنها تأخذ قوتها من الآيات ثم تعود على الآيات نفسها بالتوضيح والتطبيق. فمثلاً:

1 - تأكّد لدى الكنيسة بصورة واضحة لاهوت المسيح في مواضع كثيرة من الأسفار المقدّسة.

2 - تأكّد لدى الكنيسة لاهوت المسيح بصورة واضحة في معنى كلمة "الابن الوحيد" (مونوجينيس).

3 - تأكّد لدى الكنيسة أن لاهوت المسيح ضرورة جوهرية لتكميل عمل الفداء بالتدبير الإلهي.

4 - تأكّد لدى الكنيسة لاهوت المسيح بشهادة التقليد كحق قائم ثابت محفور في وعي الكنيسة منذ البدء وعلى ممر العصور لا يمكن أن يزعه مبتدع.

وإن كان أثناسيوس قد التزم دائماً بالنصوص الإنجيلية لا يحيد عنها في وصف لاهوت الكلمة، وأضفى هذا الطابع بأكمله على كل مجمع نيقية حتى الخصوم أيضاً ألزمهم بقبول هذه القاعدة - وذلك عن قناعة تامة بأنه لا يمكن أن يوجد في لغة البشر خارجاً عن الإنجيل ما يمكن أن يعبر عن لاهوت المسيح تعبيراً كافياً يكون خالياً من مأخذ - إلا أنه وبالرغم من ذلك اضطر مع الآباء بسبب مكر والتواء الأريوسيين إلى تحديد التعبير اللاهوتي الجديد لقطع خط الرجعة على استخدامهم كل شيء، حتى الآيات، في الإخلال بلاهوت الابن:

[والمجلس (والإشارة هنا خفية لأثناسيوس نفسه) وهو برغبة في الإطاحة بأسلوب الأريوسيين في استخدامهم الجمل الكُفريّة، اتخذ عوضاً عن العبارات العادية، نفس كلمات الأسفار المقدّسة مؤكّداً أن "الابن مع الأب" وليس من لا شيء (كما يقولون) وهو "الكلمة" و"الحكمة" وليس خليقة ولا عملاً وإنما ابن حقيقي للأب.

ولكن يوسابيوس مع أتباعه وهم مساقون مع عنادهم غير المستقيم اعتبروا أن صفة الابن "من الله" هي له كما هي لنا نحن أيضاً (لأننا من الله) وكان

«كلمة الله» لا يختلف شيئاً عنًا، كالمكتوب. «يوجد إله واحد الذي منه كل شيء»، فانتبه الآباء لهم وأدركوا خبثهم ودهاءهم في تزكية كفرهم واضطروا أن يشرحوا بوضوح أكثر معنى القول: إن الكلمة هو «من الله» فكتبوا أنه «من جوهر الله moodع sion» وهذا حتى لا يستطيعوا أن يستخدموا كلمة «من الله» استخداماً مشتركاً بين «الابن» وبين الأشياء المخلوقة. [57]

هذا الاصطلاح homoousion الذي كان قد استُخدم سابقاً لكي يعبر عن الإيمان الصحيح بالمسيح كونه «ابن الله الحقيقي»، اختير في مجمع نيقية ليكون محكاً دقيقاً لمدى التزامهم بالآيات التي توضّح لاهوت المسيح.

والأمر الذي يجب أن ننتبه إليه هو أن خصوم أثناسيوس في المجمع وبعده كانوا مباحكين إلى أقصى حد حتى في استخدامهم الآيات، أمّا أثناسيوس فكان دائماً ومنذ شبابه يتكلم ويدافع ويبرهن ويستخدم الآيات بدافع واحد يملك عليه كل تفكيره وشعوره وحماسه، وهو إخلاصه الشديد للمسيح الذي يحبه، وغيرته الملهبة في تكريمه وتعظيمه تعظيماً لائقاً بلاهوته. فكل عبارات أثناسيوس اللاهوتية، وبالأخص homoousion أي «واحد مع الأب في الجوهر»، تتعدى الوضع النظري أو التحديد القانوني لتعبر عن حقيقة يراها أثناسيوس ويوقن بها ويجاهد حتى يراها الكل أيضاً ويوقنون بها!

وهذا يتضح من رسالته إلى أساقفة مصر: [إني أهيب بكم الذين وُضع تحت أيديكم اعتراف قد تحدّد في نيقية بعد أن دافع عنه الآباء بغيرة عظيمة وثقة في الرب]. [58]

العودة المنتصرة وآلام في الأفق:

لم يكن شيء في ذهن أثناسيوس وهو في طريقه إلى نيقية أقوى يقيناً من أن يسوع المسيح هو ابن الله متجسداً بكل معنى الكلمة وقوتها!!

وبالتالي لم يكن في ذهنه وهو عائد من نيقية أقوى تعبيراً عن لاهوت المسيح من اصطلاح moodع sion أي أن المسيح واحد مع الأب في الجوهر، إذ كان يعتبره

(57) De Decr. 19.

(58) Ad Episcopos Aegypti 21; NPNF, 2nd sei., vol. IV, p. 234.

أثناسيوس أنه هو الاصطلاح المركّز والمختصر الذي يضعنا في حالة الالتزام بعبادة المسيح عن استحقاق كلّي وبكل تقوى ووقار!!

وبهذه الروح كان أثناسيوس يرى أن أية معاناة في سبيل المنادة بهذا الإيمان والشهادة له هي جزء لا يتجزأ من العبادة بل من الأمانة بل من الحب. وكانت الألام والمعاناة بالفعل قريبة جداً من أثناسيوس، فنحن نعلم أن نياحة البابا ألكسندروس حدثت بعد خمسة شهور فقط من ختام جلسات نيقية، حيث بدأ بالفعل مشوار الجهاد الطويل الممزوج بالعذاب والألم الذي كان ينتظر أثناسيوس! ...

الفصل الثاني
تقديم أثناسيوس أسقفاً على الإسكندرية
وجهاده حتى منفاه الأول

[إن اسم أثناسيوس الخالد لا يمكن أن ينفصل أبداً عن عقيدة الثالوث التي كرس لها حياته وكل قدراته العقلية وكل كيانه ... وقد شهدت كل ولاية من ولايات الإمبراطورية الرومانية ما كان يتحلى به أثناسيوس من فضائل وما كان يعانيه من آلام في سبيل قضية وحدة الابن مع الآب في الجوهر التي أصبحت عمله الوحيد وهمة الوحيد.] المؤرخ جيبون(59)

كانت نياحة البابا ألكسندروس في 22 برمودة الموافق 17 أبريل، أي في موسم الصوم الفصحى سنة 328م. بعد أن أرسل أول خطاب فصحى دوري لجميع أساقفة العالم محدداً فيه ميعاد بدء الصوم وميعاد القيامة، وذلك بمقتضى التكليف الذي صدر من مجمع نيقية إلى الكرسي الإسكندري، باعتبار المصريين أقدر أساقفة العالم من جهة الحسابات الشمسية والقمرية.

ولكن لم تعبر نياحة هذا البابا القديس اللطيف الهادئ (بحسب وصف المؤرخ روفينوس)(60) دون إشارة إلهامية من الروح القدس بخصوص من سيخلفه على الكرسي، من أجل هذه المهمة السماوية الخطيرة التي بدأها الله على يديه ألا وهي الدفاع عن الإيمان الصحيح والشهادة للاهوت المسيح. فألكسندروس وهو في النزاع الأخير، وكل الإكليروس مجتمعون حوله يتباركون منه، بدأ ينادي بإلحاح: "أثناسيوس ... أثناسيوس". ولكن لأن أثناسيوس كان يخشى هذه اللحظة وما يمكن أن يكون وراءها من مسئولية، هرب. فلما كرر البابا نداءه: "أثناسيوس ... أثناسيوس"، ردّ عليه أحد الإكليروس من الواقفين وكان يُدعى أثناسيوس أيضاً، فاستنكر البابا رد هذا المدّعي، وبدأ ينادي أثناسيوس أيضاً. ولكن عندما تحقّق من عدم وجوده قال: "وهل تظن أن بهروبك يمكنك أن تفلت ... لا يمكن".

(59) اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية، الفصل 21. [مع ملاحظة أن المؤرخ جيبون لا يُعتبر مسيحياً، فهو يسخر من الكنيسة وكل رجال الكنيسة، ولم يترك شخصية إلاّ وفضح عوارها ما عدا القديس أثناسيوس الذي لم يتمالك إلاّ أن يشيد به في كل موضع يأتي فيه ذكره].

(60) Ruf., *Ec. Hist.* I, 1.

وقيل عن هذا البابا القديس إنه لم يقرأ الإنجيل في حياته قط وهو جالس، كما قيل إنه لم يأكل قط طعام إفطاره في أيام الصوم إلاّ بعد غروب الشمس. Bolland Act. SS., Feb. 26.

انقضى شهران إلا قليلاً بين نياحة ألكسندروس (17 أبريل سنة 328م) ورسامة أثناسيوس (8 يونيو سنة 328م)، بعد أن تبعاً لها الرأي العام بصورة ساحقة، فيما عدا قلة مغرضة من الأريوسيين والميليتيين، بتحريض من الأسقف يوسابيوس النيقوميدي - الذين تجرأوا ورسوموا أسقفاً من قبلهم كان مقطوعاً من الشركة اسمه "ثيؤناس"، كان سابقاً أسقفاً على منطقة مارمريكا، ولكن لم يستطيعوا تقديمه إزاء إجماع الرأي الهائل حول أثناسيوس، الذي ناهز المائة أسقف (94 أسقفاً مقابل 35 من الميليتيين) من الإسكندرية ومصر وليبيا(61)، بالرغم من الاعتراضات التي أبدت من جهة صغر سنه، إذ كان وقت رسامته قد قارب الثلاثين من عمره فقط وهو دون السن القانونية بحسب التقليد الكنسي.

وكانت تزكية جميع أساقفة الإسكندرية ومصر وطيبة وليبيا والخمس مدن، كما وصفناها في صفحة 58، تشهد بذلك. إذ يقرر هؤلاء الأساقفة في رسالتهم لإخوانهم أساقفة العالم:

[إنه قد أختير بأغلبيتنا العظمى على مرأى من جميع الشعب وباستحسانه، ونحن الذين أقمناه نشهد بذلك كشهود عيان، وتُعتبر شهادتنا أصدق من الذين لم يحضروا رسامته وجاءوا الآن لينشروا تقاريرهم المزيفة، وهوذا لا يزال يوسابيوس (أسقف نيقوميديا عاصمة الإمبراطورية) يجد أخطاءً في اختيار أثناسيوس أسقفاً، الذي هو نفسه ربما لم يتلقَ أية موافقة عند اختياره على الإطلاق، وحتى ولو كان قد حاز على موافقة فهو نفسه قد جعلها بلا أية قيمة.] (62)

ويعلّق على هذه الوثيقة التاريخية المؤرّخ جيبون بقوله: [ولا يمكن أن يُعقل أنهم يشهدون هكذا رسمياً لحادثة يمكن أن تكون مكذوبة.] (63)

ويقرّر أيضاً القديس غريغوريوس النزينزي: [إنه بأصوات الشعب كله وتشفّعاته

(61) a. Epiphan., *Haer.* 68.

b. Gwatkin, *op. cit.*, p. 66.

c. Church Quarterly Rev., XVI, p. 393.

(62) *Apologia contra Ar.*, 6.

(63) Gibbon, *D. & F.*, ch. 21.

- وليس بالعنف وإراقة الدماء التي سادت بعد ذلك - بل إنما في وقار رسولي وروحاني أقيم أثناسيوس على عرش مارمرقس.[(64)]

لم تكن أسقفية أثناسيوس على كرسي الإسكندرية شيئاً قليلاً، فكان يترأس وقتها على 129 أسقفاً من مصر وليبيا والخمس مدن، فوإن كانت الإسكندرية في ذلك الوقت وما قبله تعتبر الثانية (أي بعد روما) في الأهمية السياسية كمدينة، ولكن بالنسبة للدفاع عن الإيمان المسيحي بل وبالنسبة للمعرفة اللاهوتية عموماً والروحانية خصوصاً، كانت كنيسة الإسكندرية "أم كنائس العالم" وأسقفها عظيم الأساقفة بلا منازع، أو بحد تعبير القديس باسيليوس: "أسقف الأساقفة".

ولكن هذه المضادة المؤلمة: أن تكون الإسكندرية الثانية بعد روما، أو ربما الثالثة بعد القسطنطينية، في الأهمية السياسية ثم تكون هي بآن واحد الأولى والعظمى على المستوى اللاهوتي والعلمي والروحي معاً؛ هذا أنشأ صراعاً كان لا بد أن يكون بين الأساقفة الخاملين لهذه المدن السياسية المرموقة وبين أسقف ذائع الصيت لاهوتي عالم على أعلى مستوى روحاني يجلس على كرسي مدينة تحت الاحتلال والقهر السياسي! ... على أن هذه المضادة الحزينة المؤلمة ظلت قائمة لا في زمن أثناسيوس فحسب؛ بل وفي زمن البابا ثاوفيلس ثم البابا كيرلس الكبير، حتى انتهت بالبابا ديسقوروس الذي دفع ثمن القهر السياسي قهراً لاهوتياً وأدبياً (ملفّقاً) عندما رخصت المعايير اللاهوتية والأدبية، وانحنت في ذلة الاستجداء للمجد الدنيوي حينما ازداد تعظم السياسة و سطوتها وتغلغلها في الدين وارتداؤها أخيراً لباس الكهنوت! ...

ألقاب القديس أثناسيوس التي كان يُخاطب بها:

كان لقب القديس أثناسيوس المحبوب لدى كل المصريين هو "أبونا" ولكن في أعلى معنى للكلمة، وهذا يتضح من الحوار الآتي، وهو بين الدوق أرتيميوس المرسل من الإمبراطور للتفتيش على القديس أثناسيوس والقبض عليه سنة 359م. وبين رهبان دير بافو الذي كان يقيم فيه القديس باخوم مع أولاده. فعندما وصل هذا الدوق إلى الدير سائلاً عن البابا أثناسيوس جاوبه الرهبان هكذا: [وإن كان أثناسيوس هو أبونا بعد الله، إلا أننا لم نر وجهه حتى الآن].

وفي نفس هذا التاريخ بالذات أرسل القديس أنثاسيوس رسالة لكافة رهبان البراري كان عنوانها كالاتي: [أنثاسيوس رئيس أساقفة الإسكندرية إلى المتوحدين]. على أن اللقب الكنسي الذي كان يُذكر به في الكنيسة عامة كان لقب “بابا” أو “باباس”. وأول مَنْ أطلق عليه هذا اللقب هو هيراكلاس البابا الثالث عشر، وهو لقب روعي صرف يفيد معنى الأبوة العزيزة.

وقد قال عنه القديس غريغوريوس النزينزي: “إن رأس كنيسة الإسكندرية هو رأس العالم.” (65)

أمّا القديس باسيليوس الكبير فكان يعتبر القديس أنثاسيوس “أسقف الأساقفة”، وقد أرسل إليه مستغيثاً ليتدخل في مشكلة أنطاكية ويستميل إليه مناصرة الغرب، وخاطب أنثاسيوس بقوله: “إن حسم النزاع في مشكلة أسقف كنيسة أنطاكية منوط بك وحدك بوصفك أسقف الأساقفة”

الأيام الأولى في أسقفية البابا أنثاسيوس:

يلزمنا منذ الآن أن نعلم أن حياة القديس أنثاسيوس في أسقفية انقسمت بصورة واضحة جداً إلى فترات هدوء واستقرار، وفترات عنف ونفي. وسوف نوضحها في نهاية سيرته في جدول عام. أمّا الآن فنكتفي بالقول إن بداية أسقفية القديس أنثاسيوس كانت فترة هدوء واستقرار استمرت من 8 يونيو سنة 328م إلى 11 يوليو سنة 335م وهي فترة زمنية تبلغ سبع سنوات وشهراً واحداً وثلاثة أيام.

فأعمال القديس أنثاسيوس في هذه الفترة الهادئة قليلة، أو على وجه أصح لم يبلغنا عنها شيء يُذكر إلاّ خبرين، أولهما هذا الخبر الهام جداً وهو: اضطلاع أنثاسيوس برسامة فرومنتيوس أسقفًا على كرسي أكسوم في الحبشة أي أثيوبيا، وهذه كانت بداية تأسيس كنيسة رسمية على هذه الديار المباركة، والقصة كالاتي:

كان البابا أنثاسيوس يوماً جالساً وسط الأساقفة في مجمع ملتئم بالإسكندرية، عندما حضر شخص قال إنه قادم من بلاد أثيوبيا يتوسّل لمقابلة القديس أنثاسيوس في أمر هام، وأبلغ الرسول أن اسمه “فرومنتيوس”. وقص على القديس أنثاسيوس قصته هو وأخاه “إيديسيوس”؛ كيف أنهما مسيحيان وكيف كانا وهما شابان ضمن

رفقة قريب لهما يُدعى "ميروبيوس" وهو رجل فيلسوف، في رحلة إلى بلاد أثيوبيا. وفي العودة عندما رست السفينة في إحدى مواني البحر الأحمر في حدود أثيوبيا داهمها بعض القبائل المتوحّشة، ونجا "فرومنتيوس" وأخوه بأعجوبة، وبيعا كعبدين للملك، ولكن الملك أحبهما واستأمنهما على خدمته. وكان "إيديسيوس" ساقياً للملك وكان ذا إيمان طاهر ونفس صاحية.

وبعد موت الملك عيّنوا فرومنتيوس حارساً ورائداً لابنه، فانتهاز فرصة وظيفته وبدأ يشيّد أماكن للعبادة لزملائه المسيحيين المتغريبين في هذه البلاد للتجارة. كما بدأ ينشر التعاليم المسيحية بين المقربين إليهما من الشعب الأثيوبي. وقد تأثرت الملكة بأخلاقهما وتعاليمهما وقبلت الإيمان المسيحي هي وبعض أشراف المملكة. فلما استولى ابن الملك على الحكم سنة 328م استعفى فرومنتيوس وأخوه من خدمة الملك بالرغم من الإلحاحات الكثيرة التي قدّمها لهما الملك وأمه، وعادا مرّة أخرى إلى "العالم الروماني".

أمّا "إيديسيوس" فقد انطلق إلى صور حيث رُسم هناك قساً، وأمّا فرومنتيوس فقد رأى [أنه ليس من اللائق أن يُخفى عمل الرب هكذا]. ومن أجل هذا أسرع إلى الإسكندرية متوسّلاً لكي يقوم القديس أناسيوس بتعيين أسقف لكي يبني كنيسة لهذه الديار التي أحبها وعاش فيها.

فكان جواب البابا أناسيوس: [ومنّ ذا يكون أصلح منك لهذه المهمة؟]. وبعد موافقة الأساقفة المجتمعين رُسم فرومنتيوس أول أسقف إسكندري على أثيوبيا. وانطلق الأسقف فرومنتيوس عائداً إلى أثيوبيا حاملاً بركة الإنجيل، وأسّس كرسيه في أكسوم وخدم هناك خدمة محبوبة، لأن اسم فرومنتيوس ظل محبوباً في كل ديار أثيوبيا حتى هذا اليوم. وقد لقّبوه "أباً سلامة" بصفته "أول من فجر نور المسيح الباهر في أثيوبيا". وتعيّد له الكنيسة في 18 كيهك - 14 ديسمبر من كل عام.

أمّا هذه القصة الممتعة فقد نقلها إلينا المؤرّخ روفينوس إذ قد سمعها من فرومنتيوس بعد سنين كثيرة من بداية وقائعها، وقد تناقلها عن روفينوس كل من المؤرّخين سقراط وسوزومين (66).

أمّا من جهة تاريخ رسامة فرومنتيوس أسقفًا على أكسوم بأثيوبيا فقد كان مرجحًا إلى عهد قريب أن ذلك حدث في بداية خدمة البابا أثناسيوس - أي حوالي سنة 330م. ولكن قام حديثًا المؤرّخ أرشيبالد روبرتسون Archibald Robertson بتحقيق زمن هذه الرسامة فأخّرها كثيرًا جدًّا عن هذا التاريخ، إذ جعلها مرتبطة بقيام الإمبراطور قسطنطيوس وتعيين الأسقف الأريوسي الدخيل على الإسكندرية سنة 357م مستعينًا في ذلك بروح ونص الخطاب الذي أرسله الإمبراطور قسطنطيوس إلى بلاد الحبشة أي أثيوبيا “ضد فرومنتيوس أسقف أكسوم”، وقد وجّهه الإمبراطور إلى أمراء وحكام أكسوم عاصمة أثيوبيا هكذا:

[قسطنطيوس فيكتور مكسيموس أغسطس إلى إيزانس وسازانس ... أرسلوا سريعًا الأسقف فرومنتيوس إلى مصر عائدًا لمقابلة الأسقف جورج (الأسقف الأريوسي الدخيل على كرسي الإسكندرية) ... ليعيّن له مسؤولياته ... لأن هذا الأسقف فرومنتيوس قدّمه إلى هذه الرتبة أثناسيوس (هكذا بدون لقب) رجل متهم بعشرة آلاف جريمة ... وقد حُرّم من كرسيه ... وإن هو (فرومنتيوس) تأخّر عن طاعة هذا الأمر فهذا سيكون بيّنة على أنه متواطئ مع أثناسيوس الشرير، وهكذا يسيء إلى عبادة الله مختارًا طريق أثناسيوس الذي أصبح شرّه واضحًا ... وإن خوفنا شديد لئلاّ يعبر أثناسيوس إليكم ويُفسد شعبكم ... ولكني أثق أن فرومنتيوس سيعود إلى وطنه في الحال ... ليستلم النصائح من الكلي الوقار جورج (هكذا) ... وليحفظكم الله دائماً أيها الإخوة الجزيلي الاحترام.] (67)

ومن هذا الخطاب يبدو أن أخبار رسامة فرومنتيوس ووصوله إلى الحبشة حديثة العهد جدًّا ومناسبة للغة هذا الخطاب الذي يرتبط زمنه بزمن وصول الأسقف الأريوسي جورج إلى الإسكندرية في 24 فبراير سنة 357م.

كذلك يتضح من هذا الخطاب أن فرومنتيوس إسكندري المولد والجنسية من الجملة الواردة في الخطاب: [يعود إلى وطنه في الحال].

وعلى أي حال يُعتبر هذا الخطاب وثيقة بالغة الأهمية من جهة تاريخ تأسيس



أمّا الخبر الثاني في الفترة الهادئة من حياة القديس أنثاسيوس فهو بخصوص جولة رعائية كبيرة قام بها البابا أنثاسيوس في بكور خدمته سنة 329م. وصل فيها إلى حدود أسوان وقطع فيها كل صعيد مصر عبر مجرى النيل الصاعد، وكان يُدعى آنئذ إقليم طيبة أو طيبايد، حيث اتخذه كثير من أتباع أريوس وميليتس مراكز للتجمّع والمقاومة. أمّا غاية البابا أنثاسيوس العميقة التي كانت تجيش في قلبه من متابعة هؤلاء المنشقين في عقر دارهم فهو لا أن يُخضعهم بالعنف؛ بل أن يضمهم إلى الكنيسة بالحب والإقناع، كما يخبرنا القديس إبيفانيوس أسقف قبرس في تسجيلاته التاريخية(68).

وإليك أيها القارئ العزيز مقتطف من تاريخ حياة القديس أنبا باخوميوس يكشف لنا عبارات شائعة خبر هذه الرحلة البابوية النشيطة:

[وكان وقتئذ الأب الفاضل أنثاسيوس رئيس أساقفة مدينة الإسكندرية أول ما تقلّد الكرسي، ولمّا أزمع على المضي إلى بلد الصعيد الأعلى وإلى بلد “سين” أو “سينوس” وهي أسوان، ليفتقد البيع التي هناك ويوطّدها ويحكم أمورها، وكان طريقه على طبانسين (منطقة أديرة أنبا باخوم في إيبارشية دندرة)، وهي جزيرة في النيل، ولمّا وصل إلى دوناسا (دوفانيس)، خرج أبونا باخوميوس مع جماعة الإخوة في خلق كثير وجمع غفير واستقبله قبولاً حسناً بالصلوات الكثيرة والتسابيح والأضواء وبكل بشاشة وفرح لأجل حضور رئيس الأساقفة وراعيهم، وكان أنبا سيرابيون أسقف تنتيرون (دندرة) المقدم ذكره (كان أنبا باخوم يتردد على إيبارشيتيه ليعلمه شعبه ويعظهم) موجوداً، فتقدّم إلى رئيس الأساقفة وعرفه أن في بلدته المختصة بكرسيه رجلاً فاضلاً مباركاً والله عابداً وطلب منه أن يقدّمه قسيساً ويرسمه مقدّماً على سائر الأديرة والرهبان الذين في الصقع، ولمّا تحقّق الأب باخوميوس هذا الخبر اختفى من رئيس الأساقفة في وسط الجمع، فلما جلس أنبا أنثاسيوس والجمع العظيم الذي معه قال لأنبا

سيرابيون: بالحقيقة الرجل الذي قلت لي عنه الذي هو أنبا باخوميوس قد سمعت خبر إيمانه وأنا في الصعيد من قبل أن يضعوا عليّ اليد (69). ومن بعد ذلك قام وصلّى وقال لأولاده: سلّموا على أبيكم وقلوا له إنك وإن كنت قد اختفيت مني وهربت من الأشياء التي بسببها تكون الغيرة والحزن والحسد واخترت لك العلو الفاضل الدائم إلى الأبد مع المسيح، فربنا يعطيك مثل قلبك. وإن كنت قد هربت من العظمة الفارغة الوقتية الفانية فليس أنت فقط لا تشاء أن يكون لك هذا الأمر بل وأنا أيضاً أمُدّ يدي إلى العليّ الأبديّ إنني لا أعصب رئاستك ولا أكلفك على هذا الأمر، بل بمشيئة الله إذا عدت (من رحلتي) ليتني أكون مستحقاً أن أرى محبتك للإله.

ثم خرج من عندهم ومضى إلى الصعيد ومعه أساقفة كثيرون وجموع لا تُحصى، ومن بعد ذهابه خرج أبونا باخوميوس من الموضع الذي كان مختفياً فيه، وفي حال رجوع أنبا أنثاسيوس في المركب - وكان في زهرة النيل (أيام الفيضان) - أتى إليه أبونا باخوميوس لأخذ بركته لعلمه أنه وليّ الله وخادمه ولا سيما بسبب ما بلغه عنه من الصبر على صنوف الاضطهادات وما قاساه من التجارب التي كابدها لأجل نصرّة الإنجيل والإيمان القويم. [70]

ومن هذا الفصل نستطيع أن نوّكد:

أولاً: أن رحلة البابا أنثاسيوس الرعائية كانت فعلاً في بداية أسقفيته (أول ما تقلّد الكرسي).

ثانياً: أن القديس أنثاسيوس بلغ إلى حدود منطقة أسوان التي كانت مليئة بالكنائس، ويُقال إنه بلغ إلى حدود الحبشة.

ثالثاً: أن القديس أنثاسيوس مواطن صعيدي أصلاً وكان يعيش في الصعيد حتى إلى ما قبل رسامته بقليل: [وأنا في الصعيد قبل أن يضعوا عليّ اليد]. وهذا يؤكّد ما جاء في ورقة المخطوطة التي اكتشفتها حديثاً المذكورة صفحة

(69) واضح من هذه العبارة أن أنثاسيوس عاش في صعيد مصر قبل رسامته كاهناً.

(70) سيرة أنبا باخوميوس صفحة 43 و44 - والمعروف من حيث التحقيق العلمي أن سيرة أنبا

باخوميوس وثيقة غاية الدقة والأهمية التاريخية بحسب تحقيق العالم كروجر: Krüger, in Theol. Litzg.

رابعاً: أن أثناسيوس البابا استطاع فعلاً أن يضم صفوف أساقفته ويشجع كنائسه ورعاياه ويوطد إيمانهم، وعاد من هذه الرحلة أكثر إيماناً بقدرته في النضال الطويل.

والأريوسيون أيضاً ينظّمون صفوفهم، استعداداً للمقاومة:

لم يقبل أريوس ولا الأريوسيون هزيمة نيقية الماحقة، ولا ميليتس المتروبوليت المصري المنشق ارتضى بالحل الذي قرره مجمع الأساقفة بنيقية، وحاول الإمبراطور قسطنطين مرّة أخرى أن يجري السلام بينهم وبين الكنيسة راجباً أن يحصل على الأمن والسلام من وجهة نظره السياسية، وذلك بفرض حلول عادلة، ولكن إزاء مراوغتهم وعنادهم انقلب ضدهم جميعاً، وقرّر اتخاذ الإجراءات المدنية الرادعة بواسطة القوة العسكرية التي لم تعرف أيّة رحمة أو مهادنة مع المعارضين، فنفاهم جميعاً، ولكن للأسف عاد فعفى عنهم الواحد تلو الآخر.

ذهب أريوس إلى منفاه في إليريكون (المناطق الجبلية شمال اليونان - ألبانيا والبلقان الآن). والمعتقد عند بعض المؤرّخين أنه أُفرج عنه بعد سنة واحدة، ولكن يُظن أنه استمر هناك خمس أو ست سنوات بحسب تحقيق المؤرّخ جواتكن، خرج بعدها من المنفى ليستأنف نشاطه(71)، ولكن بعد أن استطاع أن يتلمذ في هذه النواحي أسقفين صاروا عماد الأريوسية بعد ذلك على مدى نصف قرن، وهما:

* الأسقف فالنس: Valense of Mursa

* والأسقف أورساكيوس: Ursacius of Belgrade

كما نشط في هذه المدة اثنان من أكبر أعوان أريوس رضعا منه مرارة حقه وجنونه:

* ثيوجينيس أسقف صور، خرج من منفاه أيضاً بعد سنة واحدة، وسكوندس أسقف برقة بشمال أفريقيا.

ولكن أصعب من هؤلاء جميعاً وأخطرهم في الحقد والمكائد والسلطان:

* الأسقف يوسابيوس ذئب نيقوميديا الذي خرج من منفاه بعد سنة واحدة ليبدأ

نشاطه على مستوى الإمبراطورية، كان أريوسياً، كان ميليتياً، وكان كل شيء يمكن أن يكون ضد مجمع نيقية ضد البابا أثناسيوس بالذات. وباختصار كان يوسابيوس النيقوميدي قوة مخربة في الكنيسة ليس بذي مبدأ ولا لاهوت بالرغم من تظاهره بذلك، يجمع حوله ويحرك من بعيد كل العناصر المقاومة للإيمان الأرثوذكسي في كافة نواحي الإمبراطورية، وبالأخص أساقفة آسيا الصغرى ونواحي فلسطين، عدو نيقية الذي لم يكف ساعة واحدة عن مقاومة كل مبادئ نيقية حتى مات. وكان البلاط الإمبراطوري هو مسرحه الذي يستمد منه أدواره وعملياته الإرهابية.

* ومن ضمن هذه الزمرة الأريوسية التي كانت ناشطة على المستوى السياسي وليس اللاهوتي: يوسابيوس أسقف قيصرية المؤرخ الكنسي المشهور، لم يكن أريوسياً بالمعنى اللاهوتي الكامل ولكنه أعطى لنفسه حرية الحركة بالفكر والكلمة وسط الأريوسيين، ممالأة لهم وللإمبراطور قسطنطين، فلم يخل فكره وعمله من الأريوسية.

الميليتيون يتحدون مع الأريوسيين تحت إغراءات ووعود:

وإن كان الميليتيون هم شيعة متروبوليت ليكوبوليس، وجملة عددهم 35 أسقفاً، احتلوا مراكز حساسة وخطيرة في القطر كله مع عدة مئات من الكهنة والرهبان(72)، ظلوا بعد مجمع نيقية محافظين في البداية على طاعتهم نوعاً ما على تقليد إيمانهم الأرثوذكسي، إلا أنهم بدأوا شيئاً فشيئاً يتحللون من طاعتهم للكنيسة ومن التقليد الإيماني، وأخيراً وقعوا في شرك الأريوسيين إذ انخدعوا بإغراءات يوسابيوس النيقوميدي ونظموا صفوفهم ضد البابا أثناسيوس متجدين مع الأريوسيين في معاهدة ذات منافع مشتركة، خصوصاً بعد موت ميليتوس وقيام خلفه "يوحنا أركاف" وهو أسقف غير قانوني إذ رسمه ميليتوس قبل أن يموت وعينه خلفاً له سنة 330م. وكان من أشد خصوم أثناسيوس عنفاً ودهاءاً.

وينبغي أن نلاحظ أن الميليتيين كحزب كنسي منشق ظل قائماً بنشاطه في الكنيسة حتى القرن الخامس(73). وقد حزن وبكى عليهم كثيراً إبيفانيوس أسقف قبرس، وهو

(72) *Apologia contra Ar.*, 71.

(73) Theodoret, *EH*, I, 9.

المؤرخ الوحيد الذي اعتنى جداً بسرد تاريخ انشقاقهم(74). انظر تعليق القديس أناسيوس عليهم حيث يكشف ترتيب المؤامرة بينهم وبين الأريوسيين، إذ كان على الأريوسيين أن يقدّموا التهم وعلى الميليتيين بصفتهم داخل الكنيسة (بأمر مجمع نيقية) أن يجلسوا ويحكموا على البابا أناسيوس: [لقد قسّموا المؤامرة بينهم، فالفريق الأول (الأريوسيون) أعطوا لأنفسهم الحق في تقديم الاتهامات ضدّي، والفريق الآخر (الميليتيون) كان عليهم أن يجلسوا ويحكموا في الموضوع.](75)

* ولكن ليس الجانب الكنسي فقط بزعامة الأريوسيين والميليتيين هو الذي كان موضع خطر ومصدر الصراع بالنسبة للقديس أناسيوس وبالتالي للأرثوذكسية كلها، بل الإمبراطور قسطنطين نفسه الذي لم يستطع أن يحفظ حزمه ويحترم كلمته في ضبط الخارجين على قوانين المجمع الذي ظلّ يفتخر به كل أيام حياته، ففي ظرف ثلاث سنين كان قد بدأ يتذبذب هو نفسه بين الأريوسية والمسيحية الحقّة وبدأ يسهّل للأريوسيين استعادة كراسيهم وسلطانهم، مشدوداً بفكرة وحدة الكنيسة وبالتالي وحدة الإمبراطورية وسلامتها، بالإضافة إلى شعور دفين بالحدق على البابا أناسيوس بسبب بروز شخصيته.

* بل وأخت الإمبراطور قسطنطين، وكانت تُدعى "قسطنطيا" وهي أرملة الأمير ليسينيوس الذي قتله قسطنطين، استغلّ إشبينها الكاهن يوستانيوس علاقته بها، وهو أريوسي، وأقنعها بأن تطلب من أخيها الإمبراطور أن يُفرج عن الأريوسيين ويعاملهم بلطف، وقد نجحت بالفعل في التأثير عليه تأثيراً جدياً لأنها كانت على فراش الموت سنة 328م(76).

* وعلى هذه الصورة أصبح الإمبراطور والبلاط الإمبراطوري كله غير مؤهّل على الإطلاق لأيّ مثلٍ عليا دينية أو أخلاقية أو حتى قضائية؛ بل مكاناً للوشايات الدنيئة واصطياد المواقف والمبارزة في الخفاء بواسطة جماعات ذات أهداف دنيئة(77). وكانت المصائب تُحاك والخطط والمؤامرات تُدبّر في نيقوميديا عاصمة

(74) Epiph., *Haer.* 68, 6.

(75) *Apologia contra Ar.*, 59, 71.

(76) *Soc. I.*, 25.

(77) Gwatkin, *op. cit.*, pp. 60, 100, 234.

الإمبراطورية لتظهر انفجاراتها في مصر وأنطاكية وكل المناطق الأخرى التي أظهرت ولاءها لإيمان نيقية.

الأعداء غير المباشرين يمثّلون خطراً ليس بقليل:

اليهود: لقد انتهر اليهود فرصة هذا النزاع الأريوسي وبدأوا يساعدون الأريوسيين ضد الكنيسة. وكان اليهود في الإسكندرية يمثّلون قطاعاً خطيراً مسلحاً بالمال والدهاء والجواسيس والخطط والحقد الذي لا يهدأ ضد المسيح، ولم يكن التعاطف بين اليهود والأريوسيين على مستوى الحقد والخسة في انتهاز الفرص لإضعاف المسيحيين فقط، بل وعلى مستوى الإيمان المشترك الذي يجحد ألوهية المسيح بالدرجة الأولى. وكان أثناسيوس هو الهدف المباشر الذي تركّزت عليه كل الخطط والمؤامرات (78). ومما جعل حماس اليهود في مشاركتهم للأريوسيين ضد البابا أثناسيوس يبلغ إلى درجة العداء السافر والمواجهة، علمهم أن هذا يزيدهم تقرباً من الإمبراطور ومن السلطات الحاكمة المحلية (79).

الوثنيون: وهؤلاء أيضاً شكّلوا عبئاً على البابا أثناسيوس لا يُستهان به، لأنهم كانوا خصماً رسمياً له وذلك من جهة العقيدة الوثنية التي كان البابا أثناسيوس قد كرّس نفسه لهدمها من الأساس، وبدأ يعمّد الراجعين منهم بالألوف، مما أثار حفيظتهم وجعلهم على نقطة الاشتعال، فكانوا دائماً كمية عداء خطيرة موضوعة موضع الاحتياط يمكن أن تتضمن لأية حركة ضد البابا أثناسيوس، علماً بأنهم كانوا يمثّلون أغلبية في الجيش وبين موظفي الدولة والفلاسفة وطبقة المتعلّمين والمتقّفين والتجّار وجزء كبير من الشعب والطبقة العاملة (80).

بداية تحرك الأريوسيين، ورسم الخطة ضد أثناسيوس:

كان في ذهن الأريوسيين معركة حقيقية جنّدوا لها كل أعوانهم في الخارج والداخل، وكان يوسابيوس أسقف نيقوميديا هو الرأس المدبّر والمحرّك. ففي ظرف

(78) *Epist. Encyclica*. 4.

(79) *Hist. Arian*. 71.

(80) Gwatkin, *op. cit.*, pp. 53-59.

سنة واحدة من رسامة البابا أثناسيوس كان يوسابيوس قد نجح في نيل العفو والرجوع من المنفى؛ بل وصار صديقاً حميماً للإمبراطور قسطنطين، وفي الحال لم يؤخّر جهده ولا لحظة واحدة منذ خروجه من المنفى في الهجوم على مجمع نيقية، لا علانية ولكن في شخص الأساقفة الذين أيّدوه وتصدّروه، وذلك علماً منه أن الإمبراطور قسطنطين بالرغم من تذبذبه بين الأريوسية والأرثوذكسية إلا أنه ظل أميناً لكل مقررات مجمع نيقية ككل وظل يدافع عنه ويؤيّد.

عملية كماشة للإطباق على أثناسيوس:

العجيب والمذهل للعقل أن يخطّط يوسابيوس النيقوميدي بهذا الذكاء والدهاء، فإنه لم يبدأ بأثناسيوس بل بدأ بأساقفة آسيا، حيث الموالون لمجمع نيقية بالحق كانوا قلة وكانوا ضعفاء، فابتدأ بأسقف مدينة أنطاكية وكان يدعى يوستاثيوس وكان أرثوذكسياً أميناً في عقيدته مخلصاً للمسيح لأقصى حد.

هذا عقدوا عليه مجعماً أريوسياً محلياً بأنطاكية ولقّوا عليه تهمة الجنوح إلى السابيلية في تعليمه، مع عدة تهم أخلاقية، وأنه أساء إلى سمعة الإمبراطور قسطنطين. فأسقطوه من كرسيه نهائياً بقوة البوليس المدني سنة 330م. وظل عائشاً بعيداً عن كرسيه حتى مات سنة 358م (81). ولكن الذي يُدهش له، أن الشعب لم يقبل بهذا الحكم وثار ثورة عارمة في وجه هؤلاء الملقّين ولم يقبل أي أسقف آخر يُرسم على مدينتهم طوال حياة يوستاثيوس، وظلّوا أمناء له إلى آخر نسمة!! بل وبعد أن مات ظلّوا في حداد وحزن عليه مدة ليست بقليلة (82).

أمّا لماذا وقع الاختيار على يوستاثيوس أسقف أنطاكية ليكون أول ضحية للأريوسيين، فلأنه كان أوفى الأصدقاء للقديس أثناسيوس، ليس هو فقط بل وكل شعبه، حتى أن أثناسيوس عند ذهابه لأنطاكية سنة 346م لم يقبل أن يشترك في الصلاة إلا مع شعب يوستاثيوس فقط مما أقام المدينة وأقعدتها (83).

أمّا الضحية الثانية فكانت يوتروبيوس أسقف أدريانوبل، وهو رجل كامل في

(81) Gwatkin, *op. cit.*, pp. 73, 74.

(82) *Hist. Arian.*, 4.

(83) *NPNF*, vol. IV, p. 481.

الإيمان وذلك بشهادة القديس أناسيوس - هذا أيضاً أسقطوه ونفوه. فلمَّا رأوا أنهم قد نجحوا في خطتهم وليس من يتصدَّى لهم، نشطوا بصورة جنونية في تليفق التهم والإطاحة بالأساقفة الأرثوذكسيين مؤيدي نيقية الواحد تلو الآخر!! يوفراتيون أسقف بالانيا، كيماتيوس أسقف بالتوس، كارتيروس أسقف انترادوس، اسكليباس أسقف غزة، كيريوس أسقف بيريا بإقليم سوريا، ديودوروس أسقف آسيا، دومينون أسقف سيرميم، هلانيكوس أسقف تريبوليس.

هؤلاء جميعاً لَقَّتْ ضدهم التهم وأسقطوا من كراسيهم بمجامع محلية أو حتى بمجرد استصدار خطاب من الإمبراطور!! وعُيِّن خلفاً لكل واحد منهم أسقف أريوسي موالٍ.

ثم انقضُّوا على أسقف آخر له وزنه العالي، وكان من المتصدِّين لكفر يوسابيوس النيقوميدي، وهو مارسيللوس أسقف إقليم غلاطية، هذا أحاطوا به بكل جراءة بالرغم من علوِّ مقامه وذبوع صيته.

وأخيراً واتتهم الفرصة والجرأة وانقضُّوا على بولس أسقف القسطنطينية واستطاعوا بمعونة الإمبراطور أن يسقطوه وينفوه عدة مرَّات إلى عدة مدن، حتى أنه في آخر منفي له مات في جبل القوقاز والسلسلة في يديه!!(84)

والآن جاء دور أناسيوس:

أُتخذت كل الوسائل من قريب ومن بعيد للبدء بإثارة الجو في مصر. اتصل يوسابيوس النيقوميدي بأتباعه الأريوسيين في مصر ونصحهم لكي يضمُّوا إلى صفوفهم الميليتيين، ووعدهم كثيراً بإجراءات كبيرة، وكانت الخطة التي رسمها يوسابيوس تنقسم إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: بذل كل الجهد باللين وباللطف وإلَّا فبالتهديد والعنف، لقبول أريوس في شركة الكنيسة في مصر، في هذا سيكون ليس نصره للأريوسيين فقط بل وردَّ شرف من الدرجة الأولى.

المرحلة الثانية: إسقاط القديس أناسيوس عن كرسيه، وهو العقبة الوحيدة المتبقية أمامهم، ثم نفيه، حتى يخلو الجو نهائياً للأريوسية كمنهج لاهوتي

ومبدأ فكري ورسالة تبشيرية للكنيسة في العالم كله!!

محاولة تحقيق المرحلة الأولى:

اتحد الأريوسيون بالفعل مع الميليتيين مبكراً جداً - حسب تحقيق المؤرخ سوزومين (85). وفي سنة 330م كان يوحنا أركاف بطل الموقف كله. وفي هذه السنة (والتاريخ هنا غير مقطوع به)، استطاع يوسابيوس النيقوميدي أن يأخذ أمراً من الإمبراطور بخروج أريوس من المنفى، بعد ادعاء توبته وكتابته قانون إيمانه بصيغة ملتوية جازت على الإمبراطور. وفي الحال أرسل يوسابيوس خطاباً مع رسول خاص إلى أثناسيوس يطلب منه برجاء أن يقبل أريوس وكل أعوانه في الشركة، أمّا شفاهاً فقد هدده يوسابيوس إذا لم يقبل رجاءه المكتوب. وقد نجح يوسابيوس فعلاً في إثبات قدرته على التهديد، لأنه عندما رفض أثناسيوس "رجاءه" وتهديده، إذا برسول من الإمبراطور وخطاب بتهديد شخصي من الإمبراطور نفسه أن يفتح القديس أثناسيوس الكنيسة لا لأريوس فقط بل ولكل من يريد أن يدخل الكنيسة بلا أي شرط.

وهنا ننبه ذهن القارئ حتى يستخلص من مجريات الأمور مقدار الصلة المريبة التي ظهرت هنا بين يوسابيوس والإمبراطور، والتي استخدمها الشيطان بذكاء أوفر لتعذيب الكنيسة والتنكيل بالإيمان في شخص البابا أثناسيوس.

وكان رفض القديس أثناسيوس القاطع لرجاء الإمبراطور وتهديده معاً، أول وأقوى ضربة قاصمة في وجه الشيطان: [إن هرطقة تقاوم المسيح لا يمكن أن يكون لها شركة مع الكنيسة الجامعة!].

وهنا فشلت المحاولة الأولى ليوسابيوس ...

ولكنه لم ييأس، إلا أنه غير أسلوبه السياسي وبدأ في أسلوب الانقضاض السافر.

محاولة تحقيق المرحلة الثانية:

وهنا في الحقيقة يبدأ تاريخ الصراع المرّ الذي جازه القديس أثناسيوس، أو بالحري الذي عاشه كل أيام حياته، فقد آل يوسابيوس النيقوميدي أن لا يذوق أثناسيوس يوماً من أيام الراحة طالما هو حيّ - وذلك بحسب تعبير المؤرخ

فمنذ بداية سنة 330م، والعواصف لم تفارق سماء القديس أثناسيوس حتى أشرقت الشمس فجأة على روحه في السماء بعد جهاد دام أكثر من أربعين سنة!!

أمّا اليد التي بدأ يستخدمها يوسابيوس في إثارة القلاقل والعواصف والمصائب في سماء مصر، فكانت هي يد الإمبراطور العظيم قسطنطين، الذي لم يكن عظيماً حقاً إلا في سرعة انفعاله وتذبذبه من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين، وقد استطاع يوسابيوس النيقوميدي أن يجعله لا يبالي كثيراً بألفاظ وعبارات العقيدة المستقيمة (87). وقد حسن وزخرف له العقيدة الأريوسية (88) حتى بدت لائقة له وجميلة بعد أن أخفى السم الذي فيها، كما فعلت الحية بحواء.

الميليتيون يدخلون المعركة بوجه سافر:

بترتيبات تمت في الخفاء، من صنع يوسابيوس والأعوان المتفقون على المؤامرة بين نيقوميديا ومصر، أبحر ثلاثة أساقفة ميليتيون سراً من الإسكندرية إلى عاصمة الإمبراطورية نيقوميديا، ومعهم عريضة اتهام ضد البابا أثناسيوس. أمّا هؤلاء الثعالب الثلاثة فهم: إيسيون أسقف أتريب، وإيدامون أسقف تانيس، وغالينيكوس أسقف بيلوزيوم (الفرما قديماً، شرق بورفؤاد، وتسمى الآن بالوظة). أمّا اتهاماتهم فيصفها القديس أثناسيوس بنفسه:

[فلما كتبت للإمبراطور وأقنعتُه أن هرطقة ضد المسيح لا يمكن أن يُسمح لها بشركة مع الكنيسة الجامعة، عاد يوسابيوس من اتجاه آخر مغتماً فرصة الاتفاق المبرم مع الميليتيين فكتب وأقنعتهم أن يخترعوا ادعاءات وتهماً ضدّي مثل التي حبكوها سابقاً ضد بطرس وأخيلاس وألكسندر (الباباوات السابقين)، وبعد البحث والمشورة إذ لم يجدوا شيئاً، اتفقوا معاً بنصيحة من يوسابيوس وأتباعه ودبروا أول اتهام بواسطة “إيسيون” و“إيدامون” و“غالينيكوس”، بخصوص ملابس الكتان الخاصة بالكهنة sticfrion (الاستيخارة) (89) مدعياً

(86) Hooker, *Eccl. pol.*, 42, 2.

(87) Socr., *Eccl. Hist.* 1, 7.

(88) Newman's *Arians*, c. 3, ch. 2.

(89) وهي “التونية” البيضاء التي يلبسها الكاهن في الخدمة.

أني وضعت قانوناً على المصريين يلزمهم بتقديمها كفريضة (وهذا معناه أن القديس أثناسيوس اغتصب حقاً من حقوق الحكومة الرومانية وحدها وهي فرض القوانين والضرائب). [90]

وبتدبير من العناية الإلهية كان يوجد في هذه اللحظة اثنان من الكهنة تابعين للقديس أثناسيوس هما: "أبيس" و"مكاروريوس"، هذان تقدّما للإمبراطور وفنّدا افتراء هؤلاء الأساقفة، فتحقّق الإمبراطور فعلاً من كذب هؤلاء وأدانهم. وكتب الإمبراطور للبابا أثناسيوس للحضور إلى نيقوميديا. وإليك كلام القديس أثناسيوس:

[ولكن كان بعض الكهنة الذين لي حاضرين "أبيس ومكاروريوس" وتحقّق الإمبراطور من الأمر فأدان الأساقفة، وكتب لي الإمبراطور بنفسه وأدان "إيسيون" (زعيم البعثة) وأمرني أن أحضر أمامه وكان خطابه كالاتي: (للأسف فقد هذا الخطاب). [91]

يوسابيوس يستعد لملاقاة أثناسيوس في نيقوميديا:

خاف يوسابيوس من حضور القديس أثناسيوس وعلم أن في ذلك خطراً عليه، فألح على الأساقفة الميليتيين الثلاثة بالبقاء في نيقوميديا ورتّب معهم اتهامات جديدة، ولفّقوا تهمة لمكاروريوس الكاهن الذي فضحهم أمام الإمبراطور. وإليك كلام القديس أثناسيوس:

[وإذ كان يوسابيوس منتبهاً لهذا الأمر (حضور القديس أثناسيوس) أقنع الأساقفة الثلاثة، فلمّا وصلت اتهموا مكاروريوس بكسر الكأس (سنروي هذه القصة بعد ذلك - ومؤدّاها أن مكاروريوس اقتحم كنيسة للميليتيين وضرب الكاهن المدعو "إسخيراس" وهو كاهن غير قانوني وكسر كأس الإفخارستيا - الكأس كان من الزجاج). أمّا بخصوص التهمة التي قدّموها ضديّ فكانت أفضع تهمة يمكن أن تكون وهي: أنني بصفتي عدواً للإمبراطور قد أرسلت كيساً من الذهب لأحد أعداء الإمبراطور (الثائرين عليه) ويدعى "فيلومينوس"، فسمع الإمبراطور لدفاعي في هذا الاتهام، وأدانهم - كما هي العادة - وطردهم من حضرته، وعندما عدت أرسل خطاباً إلى الشعب (المصري) يقول فيه: "بعد

(90) *Apologia contra Ar.* 60.

(91) *Ibid.*

مهاجمة عنيفة على الأساقفة المخادعين الملقين للتهمة والحاسدين الحاقدين على القديس أناسيوس والمفلقين للكنيسة والمحبة والإيمان) ... لقد استقبلت بفرح أسقفكم أناسيوس وتكلمت معه بخصوص هذه الأمور لأنني مقتنع أنه رجل الله، وينبغي أن تعلموا أنتم هذا وليس لي أنا أن أحكم فيها، وإني أرى أنه من اللائق أن أناسيوس الكلبي الاحترام يقدم لكم بنفسه تحياتي إليكم، وإني أعلم مقدار عنايته الرحيمة بكم التي هي حقاً تتفق مع الإيمان المملوءة سلاماً الذي أنا أيضاً أعترف به، كما أعلم أنه دائب العمل في إعلان معرفة الخلاص لكم وأنه قادر أن يعظكم كما يليق. ليت الله يحفظكم يا إخوتي المحبوبين” - هذا هو خطاب قسطنطين. [92]

ملاحظة هامة: على القارئ النبيه أن يدرك كيف أصبحت الاتهامات الموجهة ضد القديس أناسيوس خارجة عن مضمون الإيمان والعقيدة والمسيح نهائياً. ولماذا؟

يوسابيوس يعلم تماماً أن الإمبراطور يتمسك تمسكاً لا هوادة فيه بمجمع نيقية ككل، فأى اتهام للقديس أناسيوس بخصوص العقيدة أو الإيمان يعني مهاجمة صريحة وعلنية لمجمع نيقية. إذاً فينبغي عليه بحسب دهاء الشيطان أن يتجنب نهائياً أي مساس بالعقيدة، وليكتف بهذه التهم الصغيرة الحقيرة المخجلة، التي صارت بسبب جنونهم وشرهم ونميتهم سبب قلاقل وتمزق في الخدمة والرسالة والعبادة على مستوى العالم كله ومصر بصفة خاصة!! كما تسببت في جروح نافذة عميقة في نفس القديس أناسيوس!!

القديس أناسيوس يتعوق في العودة إلى الإسكندرية:

لقد وصل القديس أناسيوس إلى نيقوميديا في أواخر سنة 330م. ولكن بالرغم من نجاح زيارته وحفاوة الإمبراطور، إلا أن الأمور سارت ببطء بعد ذلك، إذ أقعده مرض طويل عن العودة إلى الوطن. فلماً تعافى، كان قد حلَّ الشتاء وبدأ موسم العواصف التي تعرقل الملاحة وتجعلها أحياناً مستحيلة، ومضى الوقت ثقيلاً مملاً. وبحسب التحقيق التاريخي كان قد اتفق العلماء على أن بقاءه في نيقوميديا قارب السنة، وكان معروفاً أنها المدة بين سنة 330م - 331م؛ ولكن التحقيق الحديث

يكشف من واقع الخطابات الفصحية (الخطابين الثالث والرابع) أنه حضر إلى الإسكندرية سنة 332م بعد أن عبر أكثر من نصف صوم الفصح المقدّس، وهذا ينكشف جدًّا من صيغة وزمن الخطاب الفصحي الرابع سنة 332م حيث اضطر أن يرسله من نيقوميديا بيد أحد الجنود بعد بدء الصوم بمدة طويلة، مع أنه كان يتحتم بحسب العادة أن يرسل الخطاب الفصحي قبل موسم الصوم بفترة مناسبة حتى يُعلم الشعب وأساقفة العالم كله موعد بدء الصوم!!

وإليك جانباً من هذا الخطاب الفصحي التاريخي:

[إني أرسل لكم يا أحبائي متأخراً وبعد فوات الوقت المعتاد، ولكني أتق أنكم ستعذرونني في التأخير بسبب رحلتي الطويلة، ولأنني قد امثُحت بمرض، وبسبب هذين السببين وأيضاً بسبب العواصف الشديدة التي حدثت على غير العادة فقد تأخّرت في الكتابة إليكم. ولكن بالرغم من رحلتي الطويلة ومرضي الخطير لم أنس أن أخطركم بموعد العيد بحسب واجبي، فلو أن زمن الخطاب أصبح متأخراً (عن ميعاد بدء الصوم) عن المعتاد وغير مناسب لهذا الإعلان، إلا أنه لا يزال يعتبر في حينه الحسن لأن أعداءنا قد صاروا في خزي ووقع عليهم اللوم من الكنيسة لأنهم اضطهدونا بلا سبب. إذًا، فلنسبح للرب تسبحة العيد بالمديح.] (93)

مزيد من الاتهامات والافتراءات التي لا علاقة لها بالإيمان أو العقيدة:

لم يهدأ يوسابيوس لأن شيطان الحقد كان قد أرضعه مرارة السخط الذي لا يمكن أن ينتهي إلا بنهاية العمر ... فمهما أصابه من هزائم أحياناً إلى حدّ الخزي إلا أنه لم يكف عن العداء لحظة واحدة: فعلى مدى سنة كان قد استطاع أن يحبك مع الميليتيين في مصر اتهامين جديدين على درجة من الخطورة يمكن أن يُدخِل القديس أنثاسيوس تحت الفحص والمسئولية الكنسية:

أولاً: موضوع إسخيراس:

إسخيراس هذا قس غير قانوني رسمه كودلوتوس الأسقف الميليتي لمدينة "سينوبوليس العلا" - وقد اجتمع في الإسكندرية مجمع سنة 324م برئاسة البابا

ألكسندروس وأوقف هذه الرسامة واعتبرها باطلة.

وبالرغم من ذلك فقد ظلَّ هذا الرجل المأجور في ممارسة الكهنوت في قريته التي تُدعى “إيرين” وهي في منطقة مريوط(94). وهذا أرسل له أنبا أثناسيوس كاهناً سكرتيراً من قبله يُدعى “مكارْيوس” ينذره أن لا يمارس خدمة الكهنوت بحسب أمر المجمع. ولكن إسخيراس التجأ إلى الميليتيين يحتمي فيهم، وهؤلاء استكتبوه عريضة ادَّعى فيها أن الكاهن مكارْيوس سكرتير البابا اقتحم كنيسته وكسر كأس الإفخارستيا (من زجاج) وحطَّم المائدة (من الخشب). وأرسلت العريضة مُمضاة إلى يوسابيوس في نيقوميديا، وهذا بدوره رفعها إلى الإمبراطور.

ثانياً: موضوع أرسانيوس:

أرسانيوس هذا أسقف ميليتي رُسم حديثاً بعد تسجيل الكشف بأسماء الأساقفة الميليتيين الخمسة والثلاثين، الذين قُدِّمت أسماؤهم سنة 327م بعد مجمع نيقية لقبولهم في الكنيسة، على شرط أن لا يُرسم بعد ذلك أي أسقف أو كاهن أو شماس جديد بمعرفة الميليتيين. إذاً فهو أسقف غير قانوني بالمرَّة. هذا كانوا قد أقاموه على مدينة تُدعى “إبسيله”. هذا المأجور كان قد أخذ من يد يوحنا أركاف - رأس شيعة الميليتيين بعد وفاة ميليتوس - رشوة كبيرة على أن يختبئ وسط الرهبان الميليتيين في الصعيد، ثم أشاعوا في كل مكان أن القديس أثناسيوس بسبب حقه على الميليتيين، قتل الأسقف أرسانيوس!! وقطَّع أعضاءه لأعمال السحر الخاصة التي يقوم بها، وللتدليل على صدق دعواهم احتفظوا بذراع ميت داخل صندوق خشبي وأخذوا يقيمون عليها مناحة على أنها إحدى بقايا جثته.

وفي الحال أرسل الميليتيون عريضة مُمضاة بحادثة أرسانيوس ومعها حادثة إسخيراس. وللأسف فقد صدَّق الإمبراطور على هاتين التهمتين وأرسل في الحال إلى إخ له (أو ربما ابن أخت) المدعو دالماتيوس أحد الحكام في الشرق، وهو من الضباط العظام في أنطاكية، ليقوم بتحقيق هذه التهم واقترح عقد مجمع في قيصرية و برئاسة يوسابيوس القيصري (المؤرِّخ الكنسي المشهور) على أن يلتئم المجمع في

سنة 334م(95). أمّا القديس أنثاسيوس فقدّم احتجاجه لدى الإمبراطور وأصرّ على عدم امتثاله أمام محكمة قاضيها معتبراً أنه متحيّز. فكان رفض القديس أنثاسيوس ذا وقع مرّ على نفسية المؤرّخ العجوز.

احتجاج أنثاسيوس لدى الإمبراطور والغاء اقتراح مجمع قيصرية

جمع الوثائق:

الوثيقة الأولى: بخصوص ادعاء إسخiras:

بمجرّد أن علم القديس أنثاسيوس بالمؤامرة التي دبّرها الميليتيون بخصوص إسخiras القس المزيّف وبخصوص أرسانيوس الأسقف غير القانوني المقتول كذباً والمختفي وسط الرهبان الميليتيين في الصعيد، بدأ البابا أنثاسيوس يستقصي هذه الأمور ويرتّب دفاعه. وإليك كلماته:

[وبعد هذه الحوادث (التي سافر من أجلها القديس أنثاسيوس إلى نيقوميديا وأبطل مؤامرة يوسابيوس مع الميليتيين ضدّه من جهة فرض ضريبة قماش التيل الأبيض)، لزم الميليتيون الهدوء قليلاً ولكنهم عادوا يدبّرون مكائد أخرى. فإن مريوط المعتبرة صاحبة للإسكندرية لم يستطع الميليتيون أن يبتئوا فيها انشقاقهم، وكانت كل الكنائس هناك محتفظة بحدودها الرسمية وكان الكهنة يسهرون على رعاياهم، وكان كل الشعب يعيش بسلام. ولكن ظهر شخص يُدعى إسخiras لم يكن من الإكليروس وكانوا قد رسموه خارجاً عن القانون، فلم يكن بذي اعتبار. هذا ابتداءً يضلّل شعب قريته معلناً نفسه أنه كاهن، وفي الحال أعلمني بذلك كاهن هذه الناحية عندما كنت أقوم بزياراتي لكنائس هذه النواحي، فأرسلت كاهني الخاص مكاريوس ليستدعيه للمحاكمة، فوجدوه مريضاً راقداً في قلايته فأخبروا أباه أن يمنع ابنه من التماذي في أعماله التي وصلت ضده إلى علم الكنيسة.

ولكنه لمّا تعافى من مرضه وابتدأ أقاربه وأصدقاؤه يمنعونه من التماذي في

خطته قام وهرب إلى الميليتيين، وهؤلاء اتصلوا ببيوسابوس وأتباعه وأخيراً دبّروا هذه المؤامرة أن مكاربيوس (كاهن البابا أثناسيوس الخصوصي) كسر الكأس (كأس الإفخارستيا)، وأضافوا إليها مسألة المدعو أرسانيوس الأسقف أني قتلته، وأخفوا هذا الأرسانيوس حتى يظهر أنه قد انتهى فعلاً عندما يبحث عنه الناس فلا يجدونه، واحتفظوا بذراع مبيتٍ توكيداً لادعائهم أنه قد تمزّق إلى قطع.

أمّا إسخيراس، فلمّا راجعه أصدقاؤه ولاموه جاء إليّ باكياً واعترف لي أنه لم يحصل له قط شيء من هذا الذي أخبروا به أن الكاهن مكاربيوس فعله. ولكن الميليتيين “أغروه برشوة لهذه الشهادة الزور” حتى يخترعوا هذه الوشاية، وكتب هذا الخطاب:

خطاب إسخيراس إلى أثناسيوس يعترف فيه بجريمته:

إلى البابا المطوّب أثناسيوس، يرسل إسخيراس دعاءه للرب بالصحة: لمّا جئت إليك يا سيّدي الأسقف طالباً أن أُقبل في الكنيسة راجعتني بملامة عمّا سبق أن قتلته وكأنتي تطاولت عليك في هذا بحرية إرادتي، ولذلك أقدم لك اعتذاري هذا مكتوباً ليكون تحت يدكم حتى تعلموا أنهم قد استخدموا العنف معي وقد ضربني إسحق وهيراكليديس وجماعتهم (96). وأني أعلن وأشهد الله على نفسي في هذا الأمر أن لا شيء صحيح على الإطلاق في كل ما قالوه عنكم واتهموكم به، فلا كأس انكسر ولا مائدة مقدّسة انقلبت، ولكنهم أجبروني بالقوة أن أدعي هذا. وهذا الدفاع عن نفسي أقدمه لكم مكتوباً طالباً أن أُقبل ضمن شعبكم سائلاً ومتوسّلاً لدى الرب أن يعطيكم الصحة. وإني أضع هذا أمامكم أيها الأسقف أثناسيوس في حضرة الكهنة أموناس هيراكليديس ... إلخ (وعدّتهم ثلاثة عشر كاهناً) [97]

ويلاحظ أن هذه الوثيقة الاعتذارية التي قدّمها إسخيراس صاحب مؤامرة الكأس المكسور كُتبت وقُدّمت للبابا أثناسيوس بعد عودته من نيقوميديا منتصراً، بعد إقناع

(96) ثلاثة أساقفة ميليتيون وهم: الأسقف إسحق على مدينة كليوباتريس (بالفيوم والآن هي سرسنة)، والأسقف إسحق (آخر) على مدينة لاتوبوليس (إسنا)، والأسقف هيراكليديس على نيقوس.

(97) *Apologia contra Ar.*, 63, 64.

الإمبراطور ببطلاتها وبعد أن تحقّق الإمبراطور من مكاريوس الكاهن نفسه بعدم صحتها. وبالرغم من ذلك عاد الإمبراطور وقبلها وجعلها إحدى الدعائم التي قام عليها الاتهام في محاكمات مجمع صور! ...

الوثيقة الثانية: بخصوص أرسانيوس المقتول كذباً:

ولمّا وصلت للقديس أثناسيوس الدعوى المرفوعة ضده من الميليتيين والمصدّق عليها ضده من الإمبراطور لحضور المحاكمة في أنطاكية بمعرفة "دالماتايوس"، قام البابا أثناسيوس في الحال بتقصّي بنود الاتهام. وإليك كلماته:

[فلمّا استلمت هذا الخطاب (الذي به الدعوى) ولو أنني لم أهتم كثيراً بالموضوع لأنني أعلم أن الأمر كله عارٍ من الحقيقة، ولكن لمّا وجدت الإمبراطور قد اهتمّ هكذا وانشغل بالموضوع كتبت(98) إلى زملائي في الخدمة (الأساقفة والكهنة) في مصر. وأرسلت شماساً، راغباً في تقصّي الحقائق عن أرسانيوس، لأنني لم أكن قد رأيت هذا الرجل منذ خمس أو ست سنوات، ... ووجدوا أرسانيوس في مخبئه - وجدوه في دير عند بلدة بتيمن سرقيس التابعة للعاصمة أنتيوبوليس على الشاطئ الشرقي للنيل - والذين كانوا مع أرسانيوس شهدوا بذلك وأنه كان مختبئاً لهذا الغرض حتى يحبكوا الادعاء بموته، أمّا الشخص الذي كان متولياً حراسته في مخبئه فكان يُدعى بنيس وهو كاهن هذا الدير. وهذا الكاهن بنيس أرسل خطاباً إلى يوحنا (أركاف) مؤدّاه هكذا(99):

□ ... بنيس كاهن دير بتيمن سرقيس بإقليم أنتيوبوليس يكتب إلى أخيه المحبوب يوحنا مرسلأ تحياته. أود أن تعلم أن أثناسيوس أرسل شماسه إلى الصعيد ليبحث عن أرسانيوس في كل مكان، وقد تصادف مقابلته أولاً مع الكاهن بيسيبيوس وسلوانس أخي إلياس وتابينا سيرامايوس وبول راهب إبسيله (مدينة شطب الآن). وهؤلاء اعترفوا له بأن أرسانيوس كان موجوداً

(98) كان القديس أثناسيوس في ذلك الوقت يستجم في إحدى قلاع أمونياكا بالمدن الخمس على شاطئ البحر وذلك سنة 332م.

(99) بطريقة لا نعلمها وقع في يد البابا أثناسيوس هذا الخطاب المُرسَل من رئيس الدير المدعو الكاهن بنيس إلى يوحنا أركاف رأس جماعة الميليتيين. وهنا تظهر براعة أثناسيوس وتدبير الله معه في كشف الحقائق في وقتها.

معنا بالفعل. فلما سمعنا بهذا وضعنا أرسانيوس في الحال في مركب أقلعت نحو الجنوب مع إلياس الراهب. وفجأة عاد إلينا هذا الشماس مع آخرين ودخلوا ديرنا باحثين عن أرسانيوس فلم يجدوه، لأنه كما قلت لك كنا قد أرسلناه جنوباً. ولكنهم قبضوا علينا أنا وإلياس الراهب وأبحروا بنا إلى الإسكندرية، وقدمونا أمام الدوق، ولمّا وجدت أنني غير قادر على الإنكار اعترفت بأنه حيٌّ وأنه لم يُقتل واعترف أيضاً كذلك الراهب الذي أخذه معي، ومن أجل هذا أردت أن أعرفك بهذه الأمور أيها الأب حتى لا ترتب اتهامك لأثناسيوس معتمداً على هذا، لأنني قلت إنه حيٌّ وأنه قد أُجري إخفاؤه بيننا، وكل هذا أصبح معروفاً في مصر ولم يعد الأمر سرّاً... (100)

وبعد ذلك وجدناه (أي أرسانيوس) للمرة الثانية مختبئاً في مدينة صور. والمدهش جداً أنه حتى بعد أن اكتشفوا (101) أمره هناك، لم يشأ أن يعترف أنه هو أرسانيوس حتى جرّموه وشهدوا عليه أمام "بول" أسقف صور (الذي كان يعرفه بنفسه منذ القديم). وأخيراً ومن شدة الخجل اعترف بغير إرادته. (102)

رفع التقرير مع الوثائق إلى الإمبراطور، وإيقاف إجراءات المحاكمة:

[فكتبت للإمبراطور بهذا أن أرسانيوس حيٌّ، وقد اكتُشف مخبأه. وذكّرته بموضوع إسخيراس وما كان قد سمعه سابقاً من كاهني مكاربيوس في نيقوميديا. فأوقف الإمبراطور كل إجراءات محاكمتي، وكتب شاجباً كل الاتهامات الموجّهة ضدّي حاكماً ببطلانها. وأرسل إلى يوسابيوس (أسقف قيصرية المؤرّخ الكنسي المشهور) وكل مرافقيه الذين قد صدر لهم الأمر بالتوجّه إلى الشرق لإجراء المواجهات معي أن يعودوا!] (103)

(100) Apologia contra Ar., 65, 67.

(101) بلغ مسامع خدام القنصل أرشيلوس، بينما كانوا في أحد الحانات أن أرسانيوس مختبئ في أحد البيوت فعملوا له كميناً.

(102) Apologia contra Ar., 65, 67.

(103) Ibid.

الإمبراطور قسطنطين يعتذر للبابا أثناسيوس ويمتدح حكمته:

[قسطنطين فيكتور مكسيموس، أغسطس، إلى البابا أثناسيوس: لقد قرأت خطابات "حكمتم"، وشعرت بدافع أن أكتب بالتالي إليكم لكي تتشددوا ... أمّا بخصوص هؤلاء الأشخاص المستحقين كل لعنة، وأقصد بذلك الميليتيين المتمردين الجاحدين الذين أثبتوا حماقتهم بأعمالهم المجنونة، الذين رفعوا هذا الشغب ولقّفوا هذه الفتنة بسبب حقدهم ليكشفوا بالأكثر جحودهم. أقول إن هذا يفيهم، فالذين ادّعوا عليه أنه دُبِح بالسيف ها هوذا موجود وحيّ بعد.

وفيما تمادى فيه هؤلاء الميليتيون من اتهامكم مؤكّدين أنكم تهجّمتم بعنف ووضاعة ومسكتم الكأس وكسرتموه في المكان المقدّس (الهيكل)، مع أنه لا صدق لهذا الاتهام ولا وجود لمثل هذا العنف وإن هذا كله مُلقَق ... أمور أصبحت حقيقتها واضحة أكثر من النور أنهم يخطّون مؤامرة ضد حكمتم. وبعد ذلك مَنْ ذا الذي يرضى أن يتبعهم بعد ذلك؟ (مع الأسف أنه هو نفسه بعد ذلك أجاز كل اتهاماتهم للمرّة الثالثة وأمر أن يُحقّق فيها في مجمع صور الآتي ذكره). هؤلاء الناس الذين لقّفوا مثل هذه التهم للإيذاء بالآخرين ... يتهمونكم بجرائم كاذبة ... وأخيراً أحب أن أضيف أنني أرغب في أن يُقرأ هذا الخطاب مراراً بواسطة "حكمتم" علناً حتى يصير معروفاً لجميع الناس، وبالأخص لكي يصل إلى آذان هؤلاء الناس الذين يعملون هذه الأمور ... وليعلموا أنهم إذا أثاروا شيئاً من هذا الشغب مرّة أخرى فسأحقّق بنفسي معهم وليس بعد بحسب القوانين الكنسية، ولكن بحسب القوانين المدنية ... لأنهم لصوص ليس إزاء الناس فقط بل وإزاء التعاليم الإلهية. ليت الله يحفظكم دائماً أيها الأخ المحبوب] (104)

اعتراف الأسقف أرسانيوس المقتول "كذبا":

وإزاء هذا الانتصار لم يجد أرسانيوس مفرّاً من كتابة اعتذار للبابا أثناسيوس يعترف فيه بكل شيء:

[إلى المطوّب البابا أثناسيوس، يكتب أرسانيوس أسقف على الذين كانوا "سابقاً" تحت ميليتيوس في مدينة الإيسيليين (إيسيله وهي مدينة "شطب")

(الآن) مع الكهنة والشمامسة يطلبون الصحة لكم من الرب. إذ أصبحت في غاية الاشتياق إلى السلام والاتحاد مع الكنيسة الجامعة التي تترأسونها بنعمة الله، راغباً في أن أخضع أنا نفسي ومَنْ معي لقانون الكنيسة بحسب التقليد القديم (تبادل خطابات الشركة) نكتب إليك أيها البابا العزيز والمحبوب، معلناً باسم الرب أننا لن نجري شركة في المستقبل مع الذين يستمرون في انشقاقهم وكل مَنْ هم ليسوا في سلام مع الكنيسة الجامعة، سواء كانوا أساقفة أو كهنة أو شمامسة ...]

وأخيراً يوحنا أركاف ينسحب:

[وليس أدل من انسحاب يوحنا أركاف دليلاً على نوع المؤامرات التي كانت تُحاك ضدنا، التي أصبح الإمبراطور قسطنطين المحبوب لدى الله والمطوّب الذكر شاهداً عليها بنفسه عندما أرسل يوحنا خطابات إلى الإمبراطور هكذا: ... لقد سررت غاية السرور بخطابتك، إذ علمت منها ما كنت أشتاق طويلاً أن أسمعه أنك تركت جانباً كل مشاعرك الصغيرة وأنت صرت في اتصال الشركة مع الكنيسة كما يليق بك، وأنت صرت في اتفاق كامل مع الكلّي الوقار الأسقف أثناسيوس ...](105)

ولكن ظلّت اعترافات أرسانيوس التي كتبها للقديس أثناسيوس مخفية لا يعلم بها خصوم أثناسيوس، وقد استخدمها القديس أثناسيوس في الوقت المناسب.

وهكذا ظهر وكأن الميليتيين انتهى أمرهم، ولكن للأسف لم ينتهوا لأنهم لم يكونوا هم أصحاب أية غنيمة من هذا كله ولا كانوا يتحرّكون بمشيئتهم بل برأي الأريوسيين يفكّرون وبتدبير الأريوسيين يتحرّكون، ومن أجل زعزعة الإيمان المسيحي يتحرّك هؤلاء وهؤلاء بيد الشيطان الذي تملّك على قلب يوسابيوس النيقوميدي!

ملاحظة هامة:

لا تسأم أيها القارئ العزيز من متابعة هذه الافتراءات والصغائر التي تهبط بمستوى التفكير إلى الحضيض، فالأمر ليس في حقيقته صغيراً أبداً ولا الافتراءات هينة في هدفها، إنها ضربات موجّهة بإحكام للشخص الوحيد في العالم الذي تبقى في

وجه الأريوسيين، أثناسيوس كان في هذه اللحظات هو اللسان الوحيد القادر أن يحكم على الأريوسيين، فلو استطاعوا أن يسكتوه بأية طريقة مهما كانت دنيئة (وسوف ترى كيف تبلغ الدناءة إلى مستوى الدناءة حقاً)، يكونون قد انتهوا نهائياً من كل خصومهم مرة واحدة، ويحكم أريوس العالم، ... أو بالحري الشيطان!! ...

مجمع صور

(يوليو - سبتمبر سنة 335م)

الغيوم تتكاثف بشدة وبسرعة، مهاترات أكثر منها محاكمات:

هنا نقدّم موجزاً للظروف المحزنة والعصيبة حقاً في تاريخ القديس البابا أثناسيوس؛ وبعد أن كشف كل هذه المؤامرات وفضح كل أساليبهم وأوقعهم في الفخاخ التي نصبوها وكتبوا بأيديهم اعترافات جرمهم وفشلهم واعتذروا، دخلوا الكنيسة ... ولكن ماذا تنفع الحجة في لسان الأعزل وأمامه سلطان الخبث يستمد قوته من سلطان الإمبراطور؟ لقد ضاعت كل جهود القديس أثناسيوس، ولمدة ثلاث أو أربع سنوات، في تعقّب خصومه والتدليل على جنونهم وشرّهم ونميتهم، ببراهين دامغة قال عنها نفس الإمبراطور قسطنطين: [أمور أصبحت حقيقتها واضحة أكثر من النور، إنهم يخطّون مؤامرة ضد حكمتكم ومن ذا الذي بعد ذلك يرضى أن يتبعهم؟]

ولكن لو علم هذا الإمبراطور أن المؤامرة كانت حقاً وبالفعل ضد الحكمة نفسها، ضد المسيح؛ لما استهان هكذا وسلّم سلطانه لينفّذ به الأريوسيون كل ما أرادوا.

بداية تُنبئ بالنهاية:

وإليك البيان من مذكرات البابا أثناسيوس نفسه:

[وهكذا وكان المؤامرة انتهت وكان الميليتيين قد ارتدوا يغطيهم الخجل، إلّا يوسابيوس النيقوميدي وأتباعه، لأن الأمر لم يكن يخصّ الميليتيين ولكن أريوس والأريوسيين، وهذا كان نصب أعينهم؛ وكان كل خوفهم هو إبطال حركة الميليتيين (في مصر) لأن هذا معناه أنه لن يتوفّر لهم بعد أشخاص يلعبون بواسطتهم الأدوار لكي بواسطتهم ينفذون بهرطقتهم إلى الداخل ... ومن أجل هذا بدأوا مرة أخرى يحرّكون الميليتيين، وأقنعوا الإمبراطور أن

يصدر أمره بعقد مجمع جديد في صور، وكان الكونت ديونيسيوس قد أنفذوه إلى هناك على وجه السرعة ووقروا الحماية العسكرية ليوسابيوس وأتباعه.

وأرسلوا الكاهن مكاربيوس (سكرتير البابا أثناسيوس) مقبوضاً عليه، والسلسلة في يده، إلى صور بصفته سجيناً تحت حراسة الجنود، وأرسل إليّ الإمبراطور أمراً لا يقبل الأخذ والردّ بمعنى أنه حتى ولو كنت غير راغب فلا بد عليّ أن أفلح. [106]

في المجمع:

اجتمع في هذا المجمع 150 أسقفاً، في 11 يوليو الموافق 17 أبيب سنة 335م، وكان للبابا أثناسيوس نسبة 1:2 من مجموع المقاعد، وبالتحديد كان أساقفة مصر خمسين ومن بينهم الأسقف المعترف بوثامون والأسقف المعترف بافنوتيسوس، وكانا عضوين سابقين في مجمع نيقية.

وبنظرة واحدة من القديس أثناسيوس لوجوههم أدرك أنه في وسط خصوم مائة بالمائة، معظمهم أريوسيون متحمسون لأريوس وخاضعون خضوعاً موجّهاً ليوسابيوس النيقوميدي.

ترأس المجمع يوسابيوس القيصري، ومن ورائه يوسابيوس النيقوميدي يوجّه ويحرّك، مع بعض أسماء أخرى معروفة مثل ثاركيسوس ومارس وثيوجينيس، باتروفيلوس وجورج المصري أصلاً أسقف لاوديكا، كما تصدر أيضاً أسقفان صغيران في السن والعقل، بحسب تعبير "جواتكن" المؤرّخ المشهور (107).

وقد أبدى الأساقفة المصريون سخطهم حال وصولهم المجمع ... لأنه لم تُتخذ الأصول في تقديمهم إلى المجمع بواسطة شمامسة كالمعتاد، وإنما بواسطة "مسجل الدعاوي والاتهامات" (حاجب المحكمة).

كما احتج القديس أثناسيوس على بعض الأساقفة أنهم غير أهل أن يكونوا قضاة له:

(106) Apol. C. Ar., 71.

(107) Gwatkin's note, p. 85; Hefele II:17.

[يتدخلون في قضية لم يشاهدوا شيئاً منها ولا فحصوها ولا حتى من أجلها اجتمعوا أصلاً(108) ... وأي مجمع للأساقفة هذا؟ أليست مهاجمات يوسابيوس وأتباعه ضدنا تتبع أصلاً من تحمُّسهم لأريوس المجنون ... ألم تُكتب دائماً ضدَّهم بصفتهم مفسِّرين لتعاليم أريوس، ألم يشهد جميع المعترفين (الذين تألموا وقت الاضطهاد) ضد الأسقف يوسابيوس القيصري في فلسطين أنه قدَّم ذبيحة للأوثان؟ ألم يُسقط البابا ألكسندروس “جورج” من كرسيه؟](109)

وقد قام الأسقف بوتامون - وهو قديس مصري معترف، فقدَّ إحدى عينيه وقت الاضطهاد - ووجَّه الكلام ليوسابيوس القيصري في وسط المجمع يسأله عمَّا حدث معه داخل السجن أثناء الاضطهاد؟ ثم يسأله كيف يجلس بعد ذلك قاضياً ليحاكم البابا أناسيوس!!!

وكان بوتامون زميلاً ليوسابيوس القيصري في السجن، مشيراً إلى حنثه وتقديمه ذبيحة للأوثان!(110)، وبذلك يُسقط حقه في جلوسه لرئاسة مجمع يحكم في الإيمان!! وإليك ملخصاً لوصف المؤرِّخ ثيودوريت لإحدى جلسات مجمع صور (كتاب 30:1):

[وفي الصباح الباكر حضر أناسيوس إلى المجمع، وفي هذا اليوم كانت أول قضية قُدِّمت (ضد أناسيوس) قضية امرأة فاسدة بدأت بوقاحة وتهوُّر وصوت عالٍ تقول إنها كانت قد نذرت بتوليبتها ولكن أناسيوس جاء إلى منزلها وأفسد عفتها، وبعدها انتهت من اتهامها تقدَّم أناسيوس وبجانبه شماسه المدعو تيموثاوس وهو يستحق المديح حقاً، فلما طلبت المحكمة من أناسيوس أن يرد الاتهام، صمَّت أناسيوس، وبدأ تيموثاوس يتكلَّم وكأنه هو أناسيوس وخاطب المرأة قائلاً: “وهل أنا تحدَّثت معك يا امرأة أبداً؟ وهل دخلت قط بيتك؟” فأجابت بوقاحة أكثر وصراخ وهي تشير إليه بإصبعها: “نعم أنت هو الذي سلبتني بتوليبتني وأفقدتني عفتي”، مع ألفاظ أخرى نابية مما يستخدمها النساء اللاتي فقدن حياءهن.

(108) اجتماع الأساقفة في صور جاء عرضاً ضمن اجتماع لهم لتدشين كنيسة القبر المقدَّس.

رقم الفصل غير ***** Ar. Contr. Apol. (109) ***** مكتوب

(110) Epiph., Haer. 68, 7.

وهكذا وقع مدبرو هذه المؤامرة في خزي، أمّا الأساقفة المطلعون على سر المؤامرة فأصابهم الخجل بصورة واضحة.

وبينما هم يُخرجون المرأة من المحكمة، وإذ بأثناسيوس يحتج أنه ليس من العدل أن يُخلّى سبيلها هكذا بل يتحتمّ أن تُسأل هذه المرأة عن الذي دبّر معها هذه المؤامرة؟ وهنا أخذ المُتهمون لأثناسيوس بالصياح - كعملية تغطية - أنه لا تزال جرائم أخرى أنكى وأشدّ وسوف يستحيل عليه مهما كانت مهارته أن يبرّئ نفسه منها. وسوف تشترك العين وليس الأذن فقط في التصديق على جريمته.

وفي الحال قدّموا صندوقاً خشبياً وفتحوه، وإذا به ذراع محنّطة، فصرخ الأساقفة (بافتعال كاذب) حتى أن البعض صدّق أن الاتهام حقيقي. ولكن كثيرين أدركوا المكيدة (بخصوص مقتل أرسانيوس وتقطيع جثته).

وبعد فترة وجيزة بدأ أثناسيوس (المتهم) يسأل قضاة هل يوجد أحدٌ بينهم كان قد رأى أرسانيوس؟ فأجاب كثيرون معاً أنهم يعرفونه جيداً. وفي الحال أمر أثناسيوس أتباعه أن يُحضروا أرسانيوس أمامهم. ثم سألهم: هل هذا هو أرسانيوس؟ الرجل الذي قتلته؟ هل هذا هو صاحب الجثة التي قطعوا ذراعها هؤلاء المشتكون عليّ؟ فلما اعترفوا اضطراراً أنه هو أرسانيوس بالفعل مدّ أثناسيوس يده ورفع عنه رداءه الخارجي وكشف عن كلتا ذراعيه اليمنى واليسرى (وبدأ يتهمّ على مشتكيه): لا تبحثوا عن موضوع الذراع الثالثة المقطوعة لأن الإنسان لم يُوهب من الخالق إلا ذراعين فقط!...

ولكن بدلاً من أن يخزي هؤلاء الأساقفة الملقّون، بدأوا يصيحون ويضجّون قائلين: هذا سحر، إن أثناسيوس ساحر!!

أمّا الأساقفة المدبّرون للعبة مع أرسانيوس المقتول كذباً، فهالهم الأمر وأخذوا يحرقون أسنانهم عليه يريدون قتله بالفعل! بل ويتمنون أن يقطّعه قطعاً قطعاً بأيديهم هم ...]

ملاحظة:

يلزم هنا أن نوضّح للقارئ كيف أتى أرسانيوس هكذا ليصبح شاهداً للقديس

أثناسيوس وليس شاهداً عليه باعتباره "جسم الجريمة" حسبما دبرها يوحنا أركاف: نعلم أن أرسانيوس انكشف أمره في الصعيد (انظر صفحة 90)، ثم انكشف أمره أيضاً في صور بواسطة أسقفها "بول"، وهنا يبدو أن أتباع البابا أثناسيوس قبضوا عليه وأرسلوه إلى أثناسيوس في الإسكندرية بمعرفة "بول" أسقف صور، فلمّا قابل أرسانيوس البابا أثناسيوس في الإسكندرية اعتذر وكتب في خطابه اعترافه بيده، وقبله أثناسيوس بالفعل في شركة الكنيسة سرّاً، ولكنه اتفق معه أن يظلّ مختفياً حتى زمان انعقاد المجمع في صور، وأن يحضر معه المجمع ويكشف أمامهم مؤامرة الميليتيين، فوافق. وهكذا حضر بالفعل وتمّ دوره الذي طلبه منه البابا أثناسيوس، ومعروف أن القديس أثناسيوس جعله بعد ذلك أسقفاً رسمياً على "إيسيلة" وهي مدينة "شطب" الآن.

والمعروف أيضاً أن الأسقف الميليتي يوحنا أركاف، وهو الذي دبر بكل جهد وإحكام مؤامرة أرسانيوس، كان حاضراً المجمع إلى وقت كشف فضيحة أرسانيوس وظهوره وسط المجمع وبعدها لم يستطع البقاء، إذ قد انسحب في الحال وأقلع إلى مصر مع لجنة تقصي الحقائق (اللجنة المزوّرة المغرّضة) الخاصة بقضية إسخيراس والتي عينها الخصوم، مع أنه بحسب القانون كان ينبغي أن تكون بالانتخاب.

أمّا بقية جلسات المجمع فبدأت تزداد عنفاً وتحدياً، وتبادلوا الاتهامات. أمّا أبرز الاتهامات التي وُجّهت لأثناسيوس فكانت طريقته العنيفة مع خصومه وقسوته في معاملة معارضيه الذين احتجوا على رسامته، فقد اتُّهم بضرب وسجن بعض الأساقفة الميليتيين الذين احتجوا على عدم قانونية رسامته، وأنه أسقط "غاللينيكوس" أسقف بيلوزيوم (الفرما قديماً، شرق بور فؤاد، تسمّى الآن بالوظة) عن كرسيه، لأنه ساند إسخيراس، وأنه أقام بدلاً منه مرقس بقوة الشرطة.

وقد حشدوا عدداً ضخماً من شهود الزور، ولكن أصعب ما كان على نفسية القديس البابا أثناسيوس هو سرعة تصديق الأساقفة لكل تهمة مهما كانت فظيعة وغير معقولة، مما جعله يفقد أي رجاء في سيادة القانون أو العدل.

وقد ضاعت كل احتجاجاته على تحيُّز القضاة، كما ضاعت كل احتجاجات الأساقفة المصريين لدى المجمع ولدى ديونيسيوس القنصل العام المسئول عن المحاكمات والعدل والنظام، كما ضاعت احتجاجات ونصائح الأسقف الوقور

ألكسندروس أسقف تسالونيكى للكونت ديونيسيوس وكشفه لخطوط التآمر الحادث بين الأريوسيين والميليتيين.

وللأسف كان صوت الأريوسيين أقوى وأكثر سلطاناً وسيادة من صوت الكونت ديونيسيوس (111).

أمّا بخصوص قضية إسخيراس التي شجعت فحصاً وتحقيقاً واقتنع الإمبراطور بكذبها وتسجّلت على إسخيراس اعترافاته وتوبته مكتوبة، فبالرغم من كل ذلك قدّمها الخصوم تحدياً لكل منطق وإمعاناً في الاستهزاء بالحقيقة والتنكيل بنفسية القديس أناسيوس الحساس. أمّا “الخص” الذي كان يسكنه إسخيراس في قريته الحغيرة “إيرين” على بركة مريوط فقد صوّروه للمجمع على أنه “بازيليكا” - على مستوى كاتدرائية - وأن أناسيوس اعتدى بنفسه على حرمة الكنيسة وكسر كأس الإفخارستيا وقلب المائدة المقدّسة الخشبية وأحرق الكتب الطقسية.

وقد ضربت بعرض الحائط كل إثباتات القديس أناسيوس وحججه الدامغة أن إسخيراس ليس كاهناً قانونياً، ولا توجد له كنيسة على الإطلاق في قرية “إيرين” ولا توجد كنائس للميليتيين في مريوط بالمرّة، وأنه كان مريضاً وراقداً في خصّه وقت أن ذهب الكاهن مكاريوس لمقابلته، وأنه لم يكن يوماً للرب (الأحد) وهو اليوم الوحيد الذي كانت تُقام فيه الذبيحة حسب التقليد الكنسي وقتئذ، وقد اعترف بخط يده أنه كذب وتواطأ مع الميليتيين وأقرّ بذنبه. نعم كل هذه الوقائع رفضها الأساقفة القضاة وارتأوا بحسب خبثهم في تدعيم الكذب وإتاحة فرصة لمزيد من الاتهامات والشغب، أن يرسلوا لجنة (مكوّنة من ستة من الأريوسيين والميليتيين ومعهم إسخيراس واستبقوا مكاريوس!!) لتقصّي الحقائق، يعيّنوا الخصوم بأنفسهم، مع أنه كان ينبغي أن تكون منتخبة. وضغطوا على الكونت ديونيسيوس فرضخ لأنه كان مالياً لهم بالرغم من عدم استحسانه لهذا الإجراء بسبب مقاومة البابا أناسيوس لشرعية الموضوع قانونياً، لأنه كان ممكناً أن يكتفي بأقوال كل من الكاهن مكاريوس وإسخيراس نفسه لأنهما كانا حاضرين أمام المجمع، خصوصاً وأن الموضوع كان قد مضى عليه عدة سنوات.

ولكن اللجنة ذهبت بخطابات توصية مغرصة، وفي الإسكندرية استقبلتها فرقة من الجند رافقتهم مع فيلارجيوس الوالي ومع جماعة من اليهود والوثنيين إلى مريوط حيث كان قد سبقهم إلى هناك سرّاً رسلاً من الميليتيين قبل قيام البعثة بأربعة أيام، واستحضروا عدة أساقفة وكهنة ورهبان من الميليتيين وتجمهروا هناك في قرية “إيرين” عند وصول اللجنة، حتى يثبتوا للجنة أن للميليتيين مكانة كبيرة وكنائس كثيرة هناك.

وهناك زوّروا الحقائق وأتوا بشهود زور من اليهود، ادّعوا أنهم جماعة من الموعوظين الجدد كانوا حاضرين في الكنيسة وقت القداس وأنهم شاهدوا كسر الكأس، وأقرّوا كل التهم الملقّقة، كل ذلك تحت التهديد لأن التحقيق كان يجري والجنود شاهرون السيوف ...

وفات على المحققين الملقّقين أنه بحسب قانون الكنيسة يستحيل إقامة الذبيحة المقدّسة والموعوظون موجودون، فكيف شاهد هؤلاء تحطيم الكأس وقلب المائدة؟(112)

وقد احتجّ أساقفة وقسوس إقليم مريوط بشدة وشجبوا هذا التحقيق واعتبروه باطلاً، لأن مكاريوس القس المتهم لم يحضر التحقيق، ولأنه لم يُسمح لهم بدخوله بل ظلّوا محبوسين حتى انتهوا من أخذ أقوال الشهود الذين سخّروهم لهذا الأمر، ولمّا خرجوا تركوا عليهم الجنود والوثنيين فأهانوهم بشدة، وكان اليوم يوماً من أيام الصوم. والخطاب الذي يحمل احتجاجهم جاء بتاريخ 10 توت الموافق 8 سبتمبر سنة 335م.

ولكن وقبل أن تصل هذه اللجنة إلى صور عائدة من الإسكندرية وقبل أن يقطعوا بعزل القديس أثناسيوس عن كرسيه، كان أثناسيوس قد ترك صور صاعداً إلى القسطنطينية ووصلها في 30 أكتوبر الموافق 2 هاتور سنة 335م:

[فلما رأينا أن الأمور تجري هكذا انسحبنا من وسطهم كما من وسط “جماعة خائنين” (113) لأن كل ما كان يحلو لهم كانوا يعملونه ...](114)

(112) *Apologia contra Ar.*, 11-14.

(113) إرميا 2:9.

(114) *Ibid.*, 84.

[فإسخيراس الذي لم يكن له أصلاً كنيسة ولا شعب يتبعه، فإنهم استطاعوا بعد ذلك أن يقنعوا الإمبراطور أن يرسل أمراً إلى الحارس القضائي في مصر أن تُبنى له كنيسة (على حساب خزينة الدولة) ... وأسرعوا في الحال وجعلوه أسقفًا أيضًا (وهذا ضد القانون الكنسي أن تصبح قرية مركزًا لأسقفية)].

وهذا هو نص خطاب الحارس القضائي بالإسكندرية إلى مأمور ضرائب منطقة مريوط (أمين خزينة الدولة):

[... فلافيوس هميريوس يرسل السلام إلى مأمور ضرائب مريوط. القس إسخيراس إذ قد تظلم لدى شفقة أسيادنا أصحاب الفخامة القياصرة لكي تُبنى له كنيسة في منطقة "إيرين" بلدة سيكونداروروس، وجلالتهم قد أمروا أن يجرى ذلك بأقصى سرعة، فيلزم أنه بمجرد أن يصلك هذا المكتوب بالمرسوم المقدس المرفق بكل احترام أعلاه الذي قد صار ترتيبه بمعرفتي، أن تسرع وتوقعه في دفتر السجلات حتى يصبح الأمر المقدس نافذ المفعول]. (115)

وبالرغم من أن التحقيق الذي أجرته لجنة تقصي "الحقائق" في مريوط ظلّ في طي الكتمان بسبب فضائح الغش الذي فيه، حيث سلّم ليوسابيوس رئيس المجمع حال وصول اللجنة إلى "صور"، وكان ذلك في غيبة البابا أثناسيوس الذي كان قد أُلغى إلى القسطنطينية - إلا أن نسخة منه وصلت ليد "يوليوس" أسقف روما، وهذا سلّمها بدوره لأثناسيوس سنة 339م بعد عودته من المنفى (116).

أثناسيوس يقلع سرًا ومعه أربعة أساقفة إلى القسطنطينية لرفع دعواه إلى الإمبراطور، وذلك في 30 أكتوبر سنة 335م ويمكث ثمانية أيام يتحين الفرصة لملاقاة الإمبراطور (117):

وهاك نص القصة بخط يده:

[فبينما هم منهمكون في تدبير المؤامرات والخطط، أفلعتُ واستعدتُ أمام الإمبراطور صورة من السلوك غير العادل الذي سلكه يوسابيوس وأعوانه، لأنه هو الذي أمر بتشكيل المجمع وترأسه مندوبه الكونت ديونيسيوس. فلما

تاريخ هذا الخطاب بحسب تحقيق المؤرخ "فيليب شاف" هو 337م. Ibid., 85 (115)

Ibid., 83. (116)

NPNF, vol. IV, p. 503. (117)

سمع الإمبراطور تقريرى، انفعَل (كالعادة) وكتب إلى الأساقفة المجتمعين
بصور كالآتى:

قسطنطين فيكتور مكسيموس أغسطس، إلى الأساقفة المجتمعين في صور:
لست أعلم ما هي القرارات التي وصلت إليها وسط هذه الضجة والشغب،
ولكن يبدو أن الحق قد انحرف بسبب هذه الفوضى والإخلال بالنظام ... إن
السبب الذي كتبت إليكم من أجله أدعوكم للحضور بهذه الرسالة ستعلمونه من
الآتى:

بينما أنا عائد متأخراً إلى مدينتنا السعيدة "القسطنطينية" ممطياً جوادي، إذا
فجأة يعترض طريقي الأسقف أثناسيوس ومن معه، ولأنى كنت لا أتوقع هذا
اندهشت جداً، الله الذي يعلم كل شيء هو شاهد لي إنى لم أستطع أن أعرف
عليه في بادئ الأمر، لولا أن المرافقين لي أعلموني من هو، كما أعلموني
أيضاً بأي ظلم كان يعانى. إلا أنى لم أدخل معه في أي حوار في ذلك الوقت
ولا سمحت له بالمقابلة، ولمّا ألحّ عليّ أن أستمع له كنت رافضاً، بل وأعطيت
أمراً أن يُستبعد من أمامي، ولكنه بجرأة متزايدة أصرّ في طلب هذا المعروف
الواحد أن أستدعيكم أمامي حتى يتسنى له فرصة أن يعرض عليّ شكواه في
حضوركم بخصوص المعاملة التي لاقاها.

وقد تراءى لي أن هذا الطلب معقول، وأن الوقت موافق، فأمرت بمسرتى
أن يُكتب هذا الخطاب إليكم حتى تحضروا جميعاً بكل أعضاء المجمع المنعقد
في صور وتسرعوا جميعاً إلى البلاط بلا أي تأخير ... [118]

اختلاق مؤامرة جديدة أتت بنتيجتها فوراً:

[وكان حكام القسطنطينية يقيسون عظمتهم بمقياس
الطاعة الذليلة التي فرضوها على شعبهم، ولم
يدركوا أن هذا الخلق السلبي يُضعف كل ملكات العقل
ويورثها الانحطاط.] (جيبون)

والكلام هنا أيضاً من مذكرات البابا القديس أثناسيوس:
[فلماً قرأ يوسابيوس وأعوانه هذا الخطاب وأحسوا بخطورة ما صنعوه، منعوا

بقية الأساقفة من الإقلاع واقتصروا الذهاب على أنفسهم فقط وهم يوسابيوس وثيؤجينيوس وباتروفيلوس ويوسابيوس الآخر وأرساكيوس وفالنس. وهناك لم يفتحوا سيرة الكأس ولا موضوع أرسانيوس - لأنه لم تكن لديهم الشجاعة أن يُقدِّموا على هذا - ولكنهم اخترعوا اتهاماً آخر يهيم الإمبراطور نفسه، فأعلنوا أمامه أن أثناسيوس هدَّد أنه يستطيع أن يمنع القمح الذي يُرسل من الإسكندرية إلى القسطنطينية. وكان الأساقفة أدامنتيوس وأنوبيوس وأغاتامون وأربيثيون وبيتر حاضرين وسمعوا هذا، وقد تحقَّق لديهم أن الإمبراطور صدَّق هذا بسبب الغضب الذي ظهر عليه، فبالرغم من أنه أرسل الخطاب السابق وأدان عدم عدالتهم، إلا أنه بمجرد أن سمع هذه التهمة تهيج. [119]

النفي الحزين إلى تريف:

[وبدل أن يعطيني فرصة ويسمع مني أرسلني بعيداً إلى الغال] (120) إلى مدينة تريف.

ومدينة تريف كانت عاصمة الغال (فرنسا) واسمها بالكامل أوجوستا تريفوروم، وتُختصر تريفري أو تريير أو تريفس، وهي على نهر الموزل على حدود ألمانيا. وأبحر القديس أثناسيوس إلى تريف في 10 أمشير الموافق 5 فبراير 336م (121).

حقيقة نفي تريف من الوجهة الكنسية:

أولاً: أمَّا هذا النفي فهو من الوجهة الكنسية إجراء لا يقع في دائرة الروح أو الإيمان عمومًا، إنما هو عمل إداري محض قام به إمبراطور منفعل لوشاية واحدة لا علاقة لها بالكنيسة أو الإيمان. وهو أيضًا عمل غير عادل وغير قانوني من الوجهة المدنية الصرف، لأنه لم يتم فيه أي تحقيق بخصوص هذه الوشاية الوحيدة التي قُدِّمت شفاهًا وبدون شهود من شخص لا علاقة له بمصر أو بالشئون الإدارية التي تخص الإمبراطور، فهو أسقف وليس ضابط مباحث.

(119) Ibid., 87.

(120) Ibid.

(121) NPNF, vol. IV, p. 503.

ثانياً: أمّا قرارات مجمع صور من جهة عزل أثناسيوس من كرسيه فقد طعن فيها كل أساقفة مصر، وهم الأعضاء الرسميون في المجمع ويبلغ عددهم أكثر من الثلث من مجموع الحاضرين، ولم تُفحص هذه الشكوى أو يُنظر إليها، كما طعن في إجراءات المجمع الأسقف الوقور ألكسندروس أسقف تسالونيكي ولم تُنظر شكواه.

وكانت الشكاوي متركزة على أساس أن الخصوم صاروا قضاة وصاروا محققين في لجنة تقصي الحقائق في مريوط، وهذا غير جائز، علماً بأن تشكيل المجمع من الوجهة الكنسية الشكلية جاء غير قانوني، لأن الأغلبية كانوا من الأريوسيين المحكوم عليهم في مجمع نيقية بالمروق من الإيمان المستقيم، ولم يتم قبولهم أو شركتهم في الكنيسة بعد.

على أن هذه الأحكام التي أصدرها المجمع قد تجاوزت كل حدود العقل والمنطق بالنسبة لمستوى الشكاوي والاتهامات. فالشكاوي انحصرت في مستوى كسر كأس وقلب مائدة قام بها كاهن، وقتل أسقف ظهر حياً في وسط المجمع، والأحكام بلغت في عنفها إلى عزل رئيس أساقفة من كرسيه!! وهكذا يبدو هذا الحكم تهورياً ومبالغاً فيه مبالغة تكشف عن النية التي على أساسها انعقد المجمع أصلاً. فقد وضعوا في ذهنهم الحكم قبل أن يفحصوا الاتهامات، وأيضاً لجهلهم وعدم رزانتهم لم يوفقوا في تليق الاتهامات التي تساوي الحكم الذي أصدره.

نية الإمبراطور قسطنطين من جهة نفي القديس أثناسيوس:

كثرت تكهنات المؤرخين بخصوص نية الإمبراطور قسطنطين في نفي أثناسيوس إلى تريف. وقد رأى معظمهم أنه اتخذ هذا الإجراء للحفاظ على حياة أثناسيوس من حقد خصومه، واستندوا في ذلك على خطاب قسطنطين الابن الذي أشار فيه إلى أن هذا كان إبعاداً لخير حياته وليس نفيًا للإيذاء به. وإليك نص الخطاب الذي أرسله قسطنطين قيصر ابن الإمبراطور قسطنطين الكبير إلى أهل الإسكندرية في مدينة تريف بحضور أثناسيوس، وذلك قبل عودة أثناسيوس إلى الوطن مباشرة في 17 يونيو سنة 337م(122)، والكلام هنا بقلم أثناسيوس نفسه:

[ولكن لما تذكر قسطنطين الابن المطوب، أعادني إلى الوطن متذكراً ما كان قد كتبه أبوه، وكتب هو أيضاً هذا:

قسطنطين قيصر، إلى شعب الكنيسة الجامعة لمدينة الإسكندرية. إنني أعتقد أنه لم يُقْت على ذهركم التقى أن أثناسيوس مفسر ناموس العبادة كان قد أرسل إلى الغال (فرنسا) مؤقتاً، وذلك عن قصد بسبب وحشية أعدائه المتعطّشين لسفك الدماء المتأصلين في عداوتهم، الذين تعقّبوه باضطهادهم إلى درجة المخاطرة للقضاء على حياته المقدّسة، وهكذا خلّص من مؤامرة لم يكن ممكناً علاجها بسبب سلوك هؤلاء الأشرار المتمردين. فلكي يجنبه (الإمبراطور) هذا كله، اقتلعه من بين فكيّ خصومه، وكلفه أن يقضي بعض الوقت تحت حكومتي، وهكذا كنّا نمده بكل احتياجاته بوفرة في هذه المدينة (تريف العاصمة) حيث عاش (في وسطنا). غير أنه بقداسته المشهورة كان في الحقيقة يعتمد على المعونة السمائية تماماً غير عابئ على الإطلاق بالضيق التي ألمّت به.

والآن وإذ أعلم أنه كان في عزم إرادة أبي الإمبراطور قسطنطين قيصر أن يعيد الأسقف أثناسيوس إلى مكانه وإليكم، أيها الأتقياء المحبوبون، ولكن وقد أخذ بغتة إلى نصيبه الذي هو نصيب كل بشر، وذهب إلى راحته قبل أن ينفذ هذه الرغبة، رأيت أنه من اللائق أن أحقق هذه النية التي كانت لأبي الإمبراطور صاحب الذكرى المقدّسة، هذه النية التي ورثتها أنا أيضاً منه.

وحينما يأتيكم ستعلمون منه بأي احترام كنا نعامله. وفي الحقيقة ليس هو أمر فائق كل ما قدّمته له بالنسبة لما تكونونه أنتم من شوق إليه، لأن رؤية هذا الإنسان العظيم حرّكت نفسي وحثّنتني أن أعمل هذا. فلتحفظكم العناية الإلهية أيها الإخوة المحبوبون.

كُتبت في تريفري 17 يونيو سنة 337م. [123]

تعليق القديس أثناسيوس على هذا الخطاب مؤيداً ما جاء به:

[هذا هو السبب الذي من أجله أرسلتُ إلى الغال (فرنسا)، فمن ذا الذي لا

يدرك - من ذلك - وبوضوح نيّة الإمبراطور؟ وروح يوسابيوس السفّاك مع أتباعه، وأن الإمبراطور عمل هذا ليوقف نشاط مؤامراتهم اليائسة. [124]

وهكذا طاش السهم الأول للأريوسيين في صور بعد أن أصاب منه جرحاً وليس مقتلاً؛ ثم يتبقّى له بعد ذلك أربعة أسهم، حتى يكمل خمسة جروح كخمسة جروح الرب!!

ولكن وبالرغم من هذا التسامح الذي بلغ إليه تفكير القديس أثناسيوس من جهة نيّة الإمبراطور، وبالرغم أيضاً من الكلمات المعسولة التي خاطب بها قسطنطين الثاني (الابن) شعب الإسكندرية عند عودة أسقفهم إليهم، فالحقيقة لديّ أنا، كمؤرّخ، هي غير ذلك تماماً.

أولاً: لأن أثناسيوس لم يكن في الوضع الذي يمكّنه أن ينتقد عمل الإمبراطور قسطنطين لا بالتلميح ولا بالتصريح، بل على العكس يتحمّم عليه أن يمتدحه لكي لا يعطي فرصة له أو لغيره، من بعده - وهم أولاده - أن ينظروا إليه كمقاوم لمشينة الإمبراطور الذي كان يتظاهر بالإيمان المستقيم، لأنه إذا صحّ ذلك فإنه يدعّم ادعاءات الأريوسيين.

ثانياً: لأنه لا يمكن أن نعتبر نفي أثناسيوس هو الوسيلة الوحيدة التي تبقّت أمام الإمبراطور لإنقاذه من أيدي يوسابيوس والحاquدين عليه ظلمًا، فمعلوم ما هي سلطة الإمبراطور، وكان عليه بالحري بل وبالدرجة الأولى أن يعاقب وينفي هؤلاء المفسدين والمشاغبين بعد أن ثبت لديه بالدليل القاطع ومن فمه هو نفسه أنهم أشرار.

ثالثاً: ولأن الإمبراطور أصدر أمرًا شفعه بالتوكيد والاستعجال الفوري أن ينتقل مجمع صور إلى القسطنطينية؛ ولكن يوسابيوس ضرب بأمر الإمبراطور عرض الحائط وسرّح معظم الأساقفة (125) إلى بلادهم، وأرسل بعضهم لتدشين كنيسة القيامة، ولم يذهب إلى الإمبراطور إلا ستة أساقفة فقط! فماذا كان موقف الإمبراطور إزاء هذا التحديّ والعصيان؟ علمًا بأنه صادق بنفسه على الظلم الذي لحق أثناسيوس في خطابه إلى أساقفة مجمع صور، كما صادق على هذا الظلم حاشيته أيضًا التي

(124) Ibid., 88.

(125) Moehler G.A., Ath., pref. (1840).

كانت راكبة معه عند ظهور أثناسيوس أمامه في الطريق مستعطفين أن يصغي إلى شكواه، وذلك باعتراف الإمبراطور نفسه في خطابه المذكور.

رابعاً: لأنه لا يزال يقف ضد نيّة الإمبراطور خطاب خطير يقدّم الدليل المادي القاطع أنه كان متحيزاً للأريوسيين، وأنه كان حاقداً على أثناسيوس بسبب ذبوع شهرته وتفوّق شخصيته، ولذلك كان يقصد تماماً معاقبة أثناسيوس بالنفي. وأمّا الإحساس الدفين بالتنافس بين شخصية البابا أثناسيوس وشخصية الإمبراطور قسطنطين فقد كشفه القديس غريغوريوس الثيولوجوس عندما عمل هذه المقارنة: [إن شخصية أثناسيوس حجت TMkle...yij شخصية قسطنطين]. (126)

أمّا هذا الدليل، فهو خطاب هام أرسله الإمبراطور إلى أهل الإسكندرية ردّاً على استعطافات كثيرة أرسلها له القديس أنطونيوس الكبير مع شعب الإسكندرية. وقد احتفظ لنا بمضمونه المؤرّخ سوزومين في سجلات تاريخه الكنسي:

[وقد رفع شعب الإسكندرية صوتهم عالياً محتجين على نفي أثناسيوس وقدّموا تشفعات من أجل عودته، وأنطونيوس الراهب المشهور كتب مراراً كثيرة إلى الإمبراطور يترجّاه أن لا يصدّق ادعاءات الميليتيين بل ويرفض كل اتهاماتهم باعتبارها مجرد مؤامرة. إلّا أن الإمبراطور لم يكن مقتنعاً بهذه الحجج، وكتب إلى الإسكندريين يتهمهم بالتهور والفوضى، وأمر الإكليروس والعداري أن يلزموا الهدوء، وأعلن أنه لن يغيّر رأيه ولن يستدعي أثناسيوس الذي وصفه بأنه مثير للشغب، كما حكم عليه قضاة الكنيسة (هكذا) بحق (هكذا).

وردّ على أنطونيوس أنه لا يستطيع أن يتجاوز القوانين التي أصدرها المجمع (في صور)، لأنه حتى وإن كان هناك قلة من الأساقفة (في مجمع صور) سلكوا بإرادة خبيثة وبرغبة في إرغام الآخرين، فإنه لا يُعقل ولا يُصدّق أن البقية، وهي الكثيرة، من الأساقفة الحكماء الممتازين (هكذا) تكون قد انسأقت أيضاً بمثل هذه الدوافع. وأضاف: إن أثناسيوس هذا متمرد غير مطيع ومتكبر وهو السبب في كل هذا النزاع والشغب.

(وهنا يضيف المؤرّخ سوزومين من عنده قائلاً): ولأن أعداء أثناسيوس

كانوا يعلمون أن الإمبراطور يمقت هذه الصفات بصورة خاصة، لذلك كانوا يتمادون بالأكثر في اتهامه أمامه بهذه الجرائم.[(127)]

هذا هو الشعور الحقيقي الذي كان يحمله الإمبراطور قسطنطين ضد أثناسيوس، وقد ظهر واضحاً تمام الوضوح الحقد والتحامل والبيغضة الشخصية التي لا تتركز على أسباب حقيقية. ومنه يتبين مقدار عمق وخطورة التيارات العدائية التي كانت تعصف بأثناسيوس والتي كان يحسها ويدركها تمام الإدراك، ويحاول جاهداً أن يحد من سطوتها وعنفها بالحجة والإقناع كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، ثم بالمواجهة والالتهام عندما يتلاعب خصومه بالحق والدليل؛ وأخيراً بهذا الأسلوب الفريد في تقييد عداة الإمبراطور وحفده وكأنه تلطف ورحمة!!

يا للمعاناة التي احتملها هذا القديس!! ويا للحزن الذي كان يملأ قلبه ويعصف بتفكيره حينما كان يحس أن الأريوسيين كسبوا الموقف، وأصبح الإيمان بلاهوت المسيح على مرمى مكشوف!!

ولكن، وفي آخر لحظة، سجّل التاريخ للإمبراطور قسطنطين على يد المؤرّخ ثيودوريت فضيلة الرجوع إلى الحق. فبينما هو على فراش الموت يلفظ أنفاسه الأخيرة، وعلى مسمع من يوسابيوس، أصدر أمره بعودة أثناسيوس الكبير (128)، وما ذلك إلا لأن الشعور بالموت ألغى الشعور بالحقد.

وفي ختام هذا الفصل من سيرة القديس أثناسيوس نرى كيف طاش السهم الأول للأريوسيين في مجمع صور بعد أن أصاب من القديس جرحاً وليس مقتلاً ... وبعد ذلك يتبقّى لهم أربعة سهام ليكمّلوا بها جروحاً خمسة في حياة هذا القديس كخمسة جروح الرب! يبقى بعدها أثناسيوس هو أثناسيوس، “الصخرة التي لم تقوَ عليها أبواب الجحيم” كقول القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات.

الفصل الثالث

(127) Soz., II, XXXI.

(128) Theodoret, I, XXX.

جهد البابا أثناسيوس حتى منفاه الثاني

[وهكذا بتدبير فائق الوصف أرسل الله أثناسيوس (وإن كان بصورة شكلية حزينة) إلى تريف على الحدود بين فرنسا وألمانيا لتكون أول وأقوى إرسالية تبشير بالروحانية الشرقية إلى كل أوروبا وإيطاليا، وقد حفرت خطوطها الأولى العميقة في المجال الرهباني حيث ألقى أثناسيوس أول بذرة لطقس الرهبنة في كل العالم الغربي، كما أرسى قواعد بعض تقاليد الليتورجيا الشرقية، كطقس السهر الليلي وبقية مميزات إفخارستية الإسكندرية، هذه التي ظلَّت حتى اليوم الخيط الذهبي الإلهي الذي لا يزال يلح على ضمائرنا بحتمية العودة إلى ألفة المحبة في وحدانية الإيمان والكلمة والكأس الواحد!]

المؤلف

الحوادث التي جرت أثناء وجود أثناسيوس في تريف ببلاد الغال(129)

مدة النفي في تريف:

كانت المدة التي قضاها القديس أثناسيوس في تريف مقر منفاه الأول بحسب تحقيق العلماء، ومن واقع تاريخ خطاباته الفصحية هي: من 8 فبراير سنة 336م - وهو تاريخ بدء تنفيذه أمر النفي - حتى 17 يونيو سنة 337م - وهو تاريخ صدور خطاب قسطنطيوس قيصر من تريف نفسها بعودة أثناسيوس إلى وطنه. أي أنه أمضى موسمين متتاليين لعيد الفصح في مدينة تريف بالمنفى على حدود ألمانيا، في الكاتدرائية التي كان يجلس على عرشها الأسقف الوقور ماكسيميانوس، ولم تكن آنذ قد تكامل بناؤها، فصلّى فيها أثناسيوس العيد قبل تدشينها. وهو يذكر هذه الأمور في دفاعه لدى قسطنطيوس (الفصل 15)(130). أمّا كاتدرائية تريف أو ترير الآن فهي التي كانت أصلاً قصرًا للإمبراطور. ولا يزال يوجد بجوارها الحمامات الرومانية الأثرية التي كانت ملحقة بالقصر(131).

ولكن يلزم التنبيه أن اختلاف المؤرخين في تحديد مدة منفي أثناسيوس يرجع إلى أن بعضهم يحسب مدة النفي منذ لحظة مغادرة أثناسيوس الإسكندرية في طريقه إلى مجمع صور في 17 أبيب - 11 يوليو سنة 335م. وبينما يحسب الآخرون نهاية النفي عند لحظة وصوله إلى الإسكندرية عائداً في نوفمبر سنة 337م - 27 هاتور. ولذلك نجد المؤرخ ثيودوريت مثلاً يعتبر مدة النفي سنتين وأربعة أشهر(132)، وهو في ذلك يأخذ بتقديرات سجلات التاريخ المعروف بـ"تاريخ أسيفالا Acephala"(133)

(129) بلاد الغال تشمل الآن فرنسا الحديثة وبلجيكا وسهل لمبارديا وجزيرة سردينيا. ومدينة تريف أو ترير هي على حدود ألمانيا الجنوبية مع فرنسا (الغال)، وهي المدينة النعيسة التي وُلد فيها وتربى كارل ماركس أبو الشيوعية الإلحادية في العالم.

(130) *Apologia ad Constant.* 15.

(131) NPNF, IV, xli.

(132) Theodoret, *H.E.*, ii, 1.

(133) مخطوطة اكتشفها المركز مافاي سنة 1738م باللغة اللاتينية في مكتبة فيرونا، وأصل المخطوطة باللغة اليونانية كُتبت بعد نياحة أنبا أثناسيوس وفي زمان باباوية ثاوفيلس البابا الـ 23 (في

الذي يحددها بالتدقيق بسنتين وأربعة أشهر وأحد عشر يوماً.

حالة البابا أثناسيوس وهو في المنفى بمدينة تريف:

حاول بعض المؤرخين التهوين من حالة النفي التي عاناها أثناسيوس، حتى أن بعضهم أخذ يمتدحها كفترة راحة وسلام وتأليف، والبعض الآخر رآها فرصة هامة لإنقاذ حياته، وبالغ آخرون في وصف الحفاوة والترحيب الذي استقبل به أثناسيوس في تريف.

ولكن نسي هؤلاء المؤرخون ما هي حقيقة المنفى بالنسبة لإنسان كارز ومعلم نشيط ورئيس أساقفة حرٍّ مثل القديس أثناسيوس. لذلك رأيت أن أنقل للقارئ صورة صادقة لما خطته أيام المنفى في ذاكرة أثناسيوس وما تركته من آلام ومرارة في نفسيته الحساسة، وذلك من واقع رسالته الفصحية التي بدأ بكتابتها في النفي، ويظن أنه أكملها بعد رجوعه في 30 برمهات سنة 338م. وهي الرسالة المعروفة بالرسالة العاشرة، وإليك مقتطفات منها:

[ولو أنني قد رحلت عنكم هذه المسافة الطويلة يا إخوة إلا أنني لم أنس العادة التي اعتدتها بينكم التي تُسلمت إلينا من الآباء(134) ... لأنه بالرغم من أنني تعوّقت بسبب هذه المحن التي بلا شك قد سمعتم عنها مع التجارب القاسية التي وضعت عليّ، وقد فصلتنا هذه المسافات الطويلة، وقد تعقبنا أعداء الحق في كل طريق ناصبين الفخاخ لكي يصطادوا أي خطاب منا إليكم بقصد أن يضيفوا باتهاماتهم الآماً أخرى على جروحنا. ولكن الله قوّانا وعزّانا في كل ضيقاتنا، فلم نخف البتة، حتى أننا ونحن في وسط هذه المكائد والمؤامرات تمسكنا بضرورة أن نرسل إليكم لنعرفكم عن ميعاد عيد القيامة الخلاصي حتى ولو كنا في أقصى الأرض.

كما أنني أوصيت كهنة الإسكندرية أن يقوموا بإطلاعكم على رسائلي التي

عداد باباوات الإسكندرية).

(134) منذ أيام البابا ديونيسيوس الكبير وعادة إرسال الخطابات الفصحية قائمة في مصر حيث توجد بقايا من خطابه، ولكن منذ مجمع نيقية صارت الإسكندرية مسئولة عن إعلان ميعاد الفصح لأساقفة العالم كله، وأصبح الخطاب الفصحي الذي يكتبه بابا الإسكندرية يُرسل أيضاً لروما وللأقطار النائية.

Euseb., *E.H.* vii. 20, *Ad Afros.* 2.

كنت أبعثها إليهم، ولو أنني أعلم مقدار الخوف الذي كان يحيط بهم من المقاومين ...

لقد احتملت ضيقات بهذا الوصف وهذه التجارب كلها التي ذكرتها لكم كما كتبت إليكم ...

ولكن ليس لكي أأحزنكم، أكتب إليكم هذا باختصار مذكراً إياكم بهذه الأمور، بل إنه ليس من اللائق للإنسان أن ينسى عندما يبلغ الراحة مقدار الألم والمعاناة التي كابدها في الضيقة، لئلا يفقد الفرصة على الشكر كشخص ينسى فيصير غير لائق للشركة الإلهية ... وما هو واجبنا الآن يا إخوتي بالنسبة لهذه الأمور إلا أن نقدّم الشكر والتسبيح لله الضابط الكل مبتدئين بالاعتراف بكلمات المزمور: «مبارك الله الذي لم يُسلمنا فريسة لأسنانهم» (مز 124:6). [135]

كذلك ظل يتعبه الأريوسيون دائماً أبداً حتى وفي منفاه في تريف وفي إيطاليا بعد ذلك، يرصدون حركاته وكلماته، واستطاعوا أن يقدّموا إلى قسطنطيوس إمبراطور الشرق وشاية خطيرة ملفّقة ضد أثناسيوس، إذ اتهموه أنه كان يتكلم ضدّه ويسببه علناً في جلساته مع أخيه الأكبر قسطنطين الثاني إمبراطور الغرب، ومع قسطانس أخيه الأصغر الذي تولّى إمبراطورية الغرب من بعده.

وإليك نفس كلمات الاتهام التي صدّقها قسطنطيوس وأخذ يوجّهها إلى ليبريوس أسقف روما بصفته صديق أثناسيوس والمدافع عنه، وسوف يشعر منها القارئ بمقدار التعبئة الحقودة التي امتلأ بها قلب الإمبراطور ضد أثناسيوس:

[لقد أساء هذا (أثناسيوس) إلى الجميع بلا استثناء، ولكن إساءته إليّ كانت أعمق من كل الإساءات، فهو لم يكتفِ بموت أخي الأكبر (قسطنطين الثاني)، بل لم يكف عن إثارة قسطانس المطوّب الذكر (خليفة قسطنطين الثاني على الغرب)، ولكنني بصبرٍ تحمّلت حدثهما معاً، المهيج وفريسته (أي أثناسيوس وقسطانس)، والآن إن كل الانتصارات حتى والتي انتصرتها ضد ماجننتيوس وسلوانس لا تساوي في نظري الآن طرد هذا الرجل الدنيء (أثناسيوس) وتجريده من سلطان

أمّا البابا القديس أثناسيوس فقدّم دفاعه عن هذه التهمة إلى قسطنطينوس في وقت لاحق (137) وفيه يقول:

[إلى تقواكم أرفع صوتي عالياً وواضحاً، ماداً يديّ، كما تعلّمت من الرسول لكي «أستشهد الله على نفسي» (2كو 1:23) أني لم أتكلّم رديّاً عليكم قط في حضرة أخيكم قسطنس صاحب العظمة. على أن أحاكم المتأصل في المسيحية لم يكن بالرجل الذي يوصف بالخفة، ولا كنت أنا أيضاً بمثل هذه الأخلاق حتى نتحد معاً على أمر مثل هذا، أو أتجرأ أن أوقع أخطأً بأخيه!! أو أتسفه بكلام رديء على إمبراطور في حضرة إمبراطور. فأنا لست بمختل العقل يا سيدي ولا نسيت قط القول الإلهي: «لا تلعن الملك أبداً حتى ولا في فكرك. ولا تسبّ غنياً حتى وإن كنت في مخدعك، لأن الطير في السماء يحمل صوتك وذو الجناح يخبر بالأمر» (جا 10:20).

على أني لم أخطّ قط بالمثل في حضرة أخيكم منفرداً، ولا هو تكلم معي في خلوة، بل كانوا يقدّمونني إليه مع أسقف المدينة التي يتصادف أن أكون فيها ومع آخرين أيضاً. ندخل إلى حضرته معاً ونخرج أيضاً معاً. وفرنوناتيان أسقف أكيلايا يشهد بذلك، والأب هوسيوس يشهد، كذلك أيضاً كرسبينوس أسقف بادوا ولوسيللوس أسقف فيرونا وديونيسيوس أسقف لايبس وفرنسنتيوس أسقف كمبانيا، ولو أن ماكسيمينس أسقف تريف (138) وبروتاسيوس أسقف ميلان قد تنيحاً، إلا أن أوجينوس رئيس القصر يمكن أن يشهد لي، لأنه كان دائماً يقف أمام الستارة ويسمع كل ما نتوسّل به لدى الإمبراطور وكل ما يجيب به ويمنحه لنا. [139]

الحوادث التي جرت بينما كان البابا أثناسيوس في تريف:

يقول بولس الرسول: «حتى أننا نحن أنفسنا نفتخر بكم في كنائس الله من أجل صبركم وإيمانكم في جميع اضطهاداتكم، والضيقات التي تحتملونها بيّنة على قضاء

(136) Theodoret., *Ec. H. II.*, 13.

(137) 24 فبراير سنة 357م.

(138) ماكسيمينس أسقف تريف اعتبرته الكنيسة الرومانية أحد قديسيها العظام.

(139) *Apolog. ad. constant.* 3.

الله العادل أنكم تُوهَّلون لملكوت الله الذي لأجله تتألَّمون أيضاً، إذ هو عادل عند الله أن الذين يضايقونكم يجازيهم ضيقاً...» (2تس 1: 4-6)

ينقل لنا المؤرِّخ إبيفانيوس أسقف قبرس صورة من الصور الرائعة لشخصية البابا أثناسيوس في إحدى مواقفه الحازمة مع الإمبراطور قسطنطين ناقلاً لنا آخر جملة نطقها أثناسيوس في وجه الإمبراطور قسطنطين بعد أن فقد كل أمل في العدالة على الأرض: «الرب يحكم بيني وبينك»!!، وذلك عندما أصدر الإمبراطور حكمه بالنفي رافضاً أن يصغي لدفاع أثناسيوس. نعم وقد حكم الرب، فلم يعيش الملك بعد ذلك طويلاً، وما عاشه فقد عاشه عليلاً...، أمّا أريوس فمات ميتة شنيعة، كل ذلك قبل أن يخرج أثناسيوس من منفاه الأول.

قرارات مجمع صور في غيبة أثناسيوس:

الوصف هنا للمؤرِّخ سوزومين:

[كان المجمع قد اتخذ قراره بإسقاط أثناسيوس من كرسيه منتهزاً فرصة غياب أثناسيوس في القسطنطينية، وأضافوا مطالبين بإبعاده من الإسكندرية بحجة خوفهم من إثارته للفتنة والاضطرابات، ضاربين بذلك على الوتر الحساس الذي يهيم قسطنطين.

وفي نفس الوقت أمر المجمع بإعادة يوحنا أسقف الميليتيين مع كل أعوانه إلى الشركة، وكأنهم كانوا قد أهينوا ظلماً. واستلم كل واحد منصبه الكهنوتي كما شاءوا. وكتب الأساقفة المجتمعون في مجمع صور خطابات إلى جميع أساقفة العالم بذلك، محدِّرينهم من قبول أثناسيوس في شركتهم، أو قبول أية خطابات منه أو إرسال خطابات إليه بصفته مقترفاً لجرائم سجَّلها عليه المجمع وأثبتوها كما شاءوا.

كما اعتبروا ذهابه إلى القسطنطينية هروباً من مواجهة الاتهامات وتحدياً لسلطة المجمع ومحاولة لإثارة الشغب داخل المجمع. كما اعتبروا امتناع أثناسيوس عن حضور مجمع قيصرية الذي كان الإمبراطور قد دعا الأساقفة إليه سابقاً، تحدياً لأوامر الرؤساء واحتقاراً للأساقفة الذين ظلوا هناك ينتظرون قدومه بلا جدوى.

كما سجّلوا عليه مخالفات داخل مجمع صور، منها عدم ردّه على كثير من الأسئلة والاتهامات التي كانت توجّه إليه، كما بدر منه كثير من الإهانات كان يوجّهها شخصياً لبعض الأساقفة الذين كانوا يوجّهون إليه الاتهامات. وأنه كذلك كان يرفض قبول أية محاكمة. [140]

وكل هذه القرارات اتخذت على عجل بعد سفر أثناسيوس إلى القسطنطينية بيوم واحد، وانفضّ المجمع بغاية السرعة واتجهوا جميعاً بتدبير يوسابيوس إلى أورشليم لتدشين كنيسة القبر المقدّس.

تدشين كنيسة القبر المقدّس وقبول أريوس في الشركة:

لمّا كُمل بناء الكنيسة الكبرى التي كان الإمبراطور قسطنطين قد أمر بإقامتها في مكان الجمجمة بأورشليم - والكلام هنا للمؤرّخ سوزومين (141) - كان ذلك في السنة الثلاثين من حكم قسطنطين سنة 335م.

وظل الإمبراطور يترقّب فرصة مواتية ليقوم بتدشين هذا "الهيكل الكبير"، فوجد في اجتماع الأساقفة في مدينة صور الفرصة المناسبة، وذلك باعتبار أن اجتماعهم معاً هو أنسب فرصة لتصفية الخلافات والأحقاد والوصول إلى حالة الصفاء اللازم للقيام بتدشين هذه الكنيسة الكبرى - فأرسل إليهم موظفه الخاص ماريانوس المختص بالكتابة المختزلة يأمرهم بالتوجّه إلى "أورشليم الجديدة" ليدشّنوا الكنيسة الكبرى على وجه السرعة.

وفعلاً قاموا بتدشين الكنيسة في 13 سبتمبر، ولا تزال الكنيسة اليونانية تعيّد رسمياً لتدشين كنيسة القيامة في هذا اليوم.

ولكن الأساقفة وغالبيتهم العظمى من الأريوسيين وجدوها أيضاً فرصة مناسبة بالأكثر فيما يختص بمصالحهم الشخصية أن يعيدوا أريوس وزميله أوزيوس إلى شركة الكنيسة. والكلام هنا أيضاً للمؤرّخ سوزومين (142) - فأخذتهم الغيرة أن يعقدوا مجمّعاً في أورشليم لهذا الغرض. كل هذا وأثناسيوس في منفاه طبعاً.

(140) Sozom. 11.25.

(141) Ibid., 11.26.

(142) Sozom. 11.27.

مجمع أورشليم وقصة قبول أريوس، على أساس خداعه السابق للإمبراطور قسطنطين:

كانت قسطنطينيا أخت الإمبراطور قد أوصت الإمبراطور خيراً بأريوس وهي على فراش الموت، وذلك بتأثير كاهنها الخاص الأريوسي المدعو يوستاثيوس.

وفعلاً أرسل الإمبراطور خطاباً إلى أريوس وهو في المنفى يستدعيه للحضور للتحقيق في مدى الظلم الذي أحاق به في مجمع نيقية - هكذا كما تصوّره الإمبراطور - ولما جاء أريوس كتب بخط يده بناءً على طلب الإمبراطور اعترافه، فجاء مشابهاً لاعتراف نيقية، ولكن في اختزال يتحاشى فيه كل التعبيرات الحاسمة. وكل ذلك كان بتدبير الأريوسيين في وقت سابق لمجمع صور بعدة سنوات (143).

فلما اجتمع أساقفة مجمع صور في أورشليم، وبعد أن قاموا بتدشين كنيسة القبر المقدّس، طرحوا قضية أريوس وزميله أوزيوس الشماس، فقبلهما المجمع وأدخلهما في شركة الكنيسة، وكتبوا خطاباً عاماً لكافة أساقفة العالم وللإسكندرية بنوع خاص، وقد أورد أثناسيوس نص هذا الخطاب في دفاعه ضد الأريوسيين (144)، وهو خطاب مملوء غشاً - بحد قول البابا أثناسيوس: حيث يقولون فيه بوقاحة سافرة: [إذ قد أنهينا على الحسد والحقد من كنيسة الله وطرّدنا من وسطنا كل المكر والخداع (يشيرون هنا إلى نفي البابا أثناسيوس وإسقاطه عن كرسيه) الذي تسبّب في تمزيق أعضاء الله من وقت لآخر (يشيرون إلى طرد أريوس كأنه تمزيق لأعضاء الله!!)، وهكذا تسنّى لنا بعقل مسالم قبول أريوس وزملائه الذين حُرّموا مدة طويلة من الكنيسة في وقت سابق بسبب الحسد والحقد اللذين هما عدوان لكل خير.] (145)

ومن كلام القديس أثناسيوس بعد ذلك يتضح تماماً أن كل هذا الإجراء الخطير الذي عملوه بالنسبة لقبول أريوس وأتباعه في شركة الكنيسة حدث أثناء غياب أثناسيوس في منفاه الأول بمدينة تريف، إذ يجري حديثه هكذا:

[وإن كل مَنْ يسمع هذه الأمور يتحقّق من خداعهم وخيانتهم، لأنهم لم يحترسوا أن يغطوا أعمالهم، فظهروا وكأنهم يعترفون بغير اختيارهم: لأنه إذا كنت أنا

(143) N.P.N.F., vol. IV, p. xI.

(144) *Apol. Cont. Ar.* 83,84.

(145) *Ibid.*

العائق الوحيد في قبول أريوس وأتباعه في الكنيسة، ثم حدث أن قبلوهم هم في أثناء غيابي بينما كنت أعاني من نتائج مؤامراتهم، فماذا يمكن أن نستنتج من هذا إلا أن كل ما عملوه (فيّ) كان بقصد الوصول إلى هدفهم هذا؟ وأن كل تصرفاتهم ضدّي مع قصة الكأس المكسور التي اختلقوها وقتل أرسانيوس كانت كلها لغرض واحد وحيد وهو إدخال هؤلاء الملحدين الكفرة إلى الكنيسة والحيلولة دون الحكم عليهم كهرطقة؟

وهذا بعينه هو ما كان الإمبراطور يطلبه مني سابقاً في خطاباته بتهديد، وبالرغم من ذلك لم يخجلوا أخيراً أن يكتبوا هكذا ويؤكدوا أن هؤلاء الأشخاص - أريوس وزملائه - هم أرتوذكس مع أنهم محرومون بواسطة مجمع مسكوني، ولذلك لمّا أرادوا أن يقولوا هذا ويعملوا - بدون خوف - اجتمعوا معاً "في زاوية" (أثناسيوس يريد أن يقول إن اجتماع أورشليم في نظره هو اجتماع جبان). وهناك طرحوا أرضاً، على قدر ما وانتهم قوتهم، مقررات مجمع نيقية العظيم. [146]

إرسال أريوس إلى الإسكندرية وطرده منها:

توجد إشارتان واضحتان غاية الوضوح، نعلم منهما أن أريوس انحدر إلى الإسكندرية بعد مجمع أورشليم (الذي أعقب مجمع صور) والذي حصل فيه أريوس على حلّ من الأساقفة الأريوسيين المجتمعين، هذا الحل الذي به قُبل في الشركة وأُرسل إلى الإسكندرية بموكب الظافرين وبحراسة مشدّدة من الجنود ليصول ويجول في مصر منتهزين فرصة غياب أثناسيوس في منفاه في تريف.

أمّا الإشارة الأولى فهي في كتابات أثناسيوس في الفصل الأول من تاريخ الأريوسية، وفيه يقول أثناسيوس متكلماً عن نفسه بصيغة الغائب حسب عاداته هكذا: [وفي الحال قبلوا أريوس وأتباعه في الشركة (في مجمع أورشليم) وضربوا بعرض الحائط كل الإدانات التي ثبتت عليهم مراراً وتكراراً، ولكنهم كالعادة استندوا في ادعائهم على السلطة الإمبراطورية، ولم يحتشموا أن يقولوا في خطاباتهم (لأساقفة العالم ومصر): "وبما أن أثناسيوس الذي يعاني من الحقد

قد أوقف، فعلينا الآن أن نقبل أريوس وأتباعه” ولكي يشيعوا الرعب في قلوب السامعين أضافوا: “وأن هذا هو أمر الإمبراطور”، بل ولم يخلجوا من قولهم: “إن أريوس وأتباعه يعترفون بالإيمان الأرثوذكسي” ...

فالرجل (أريوس) الذي وجدوه شريكاً لهم في كفرهم هذا الذي تلاحقه عشرة آلاف من الاتهامات الشنيعة من جهة الأمور التي اقترفها، وقد ثبتت عليه بالبراهين الواضحة، استحسونه وقبلوه ومدحوه وجعلوه صديقاً للإمبراطور، وكأن كفره قد صار له واسطة لهذا القبول، وبالادعاءات الخادعة المتعددة جداً استطاع أن يحصل على ثقة الولاة لكي يعمل كما يشاء.

أمّا (أثناسيوس) الذي فضح كفرهم، وبدأ يدافع عن حق المسيح بأمانة، فبالرغم من طهارة مسلكه في كل شيء، وهو لم يقصر أو يأنم بشهادة ضميره ولم يستطع أن يقف أمامه أي اتهام، هذا لفقوا عليه التهم وحبكوها ضده وأمسكوه حالاً وأرسلوه إلى المنفى بمجرد نطق إمبراطوري! وكأنه اقترف فعلاً هذه الجرائم التي اشتبهوا أن يضعوها عليه، أو كأنه مثل “نابوت اليزرعيلي” قد أهان الملك!! وفي أثناء ذلك بحثوا بأقصى سرعة عن (أريوس) الذي حامى عن كفرهم وأرسلوه ليملك على كنيسة غيره (أثناسيوس). وهناك (في الإسكندرية) حدث ما حدث من المصادرات والإهانات وكل أعمال القسوة ضد الذين رفضوا قبوله (كهنة الإسكندرية).

وهذا هو ما يتعجب له جداً أن الذي أرادته الشعب (أثناسيوس) وعلموا يقيناً أنه بلا لوم، يطرده الإمبراطور وينفيه بعيداً! أمّا الذي لا يريده الشعب ولا يعرفه، هذا يرسله إليهم من الأقطار البعيدة مع عساكر وخطابات توصية خاصة منه!

وهكذا وُضع على الشعب هذه الضرورة القاسية إمّا أن يبغضوا الإنسان الذي أحبوه (أثناسيوس) وهو معلّمهم وأبوهم في الصلاح والتقوى؛ ويرحبوا (بأريوس) الذي يبغضونه، بل ويستأنوا على أولادهم إنساناً لا يعلمون عن حياته وأخلاقه شيئاً، وإلاً فالعقاب يترصدهم إن هم خالفوا، فهذا هو أمر

الإشارة الثانية: وقد أوردها سقراط المؤرخ في كتابه الأول هكذا:

[وفي السنة الثلاثين من حكم قسطنطين (335م) عاد أريوس وأتباعه إلى الإسكندرية فأحدث اضطراباً في المدينة كلها، لأن شعب الإسكندرية كان في أشد حالات السخط بسبب عودة هذا الهرطقي العنيد الذي لا يريد أن ينصلح مع مشاييعه، وبسبب نفي القديس أثناسيوس أسقفهم.

فلما أخبروا الإمبراطور بموقف أريوس المتمرد أرسل يستدعيه إلى القسطنطينية ليعطي جواباً عن سبب هذه الفتنة التي أحدثها في الإسكندرية.]

وهكذا يتضح لنا مقدار اليقظة العنيدة التي كان يتحرك بها الأريوسيون في تدبير خطتهم، والتي كان القديس أثناسيوس يتتبعها في منفاه بمنتهى الحساسية والذكاء، فإسقاط أثناسيوس من كرسيه لم يكن هدفهم النهائي. لذلك بمجرد أن اتخذوا قرارهم بذلك في مجمع صور التأموا بغاية السرعة مرة أخرى في أورشليم وعقدوا مجمعهم بقصد واحد وحيد هو إعادة أريوس إلى الشركة. لأنه لو تم ذلك يكون قد اطمأنوا على أنفسهم وعلى عقيدتهم. ولكن إعادة أريوس إلى الشركة لا يكفي، فلا بد أن يمارس كهنوته في المدينة التابع لها. لذلك أرسلوه إلى الإسكندرية بأقصى سرعة بتدبير يوسابيوس النيقوميدي ورسائل خاصة من الإمبراطور وبحراسة مسلحة!!

ولكن شعب الإسكندرية فوّت عليهم الفرصة وقلب لهم كل المؤامرات والتدابير رأساً على عقب، فلم يجعلوا أريوس يهدأ يوماً واحداً، وأغلقوا أبواب الكنائس في وجهه، وصارت الإسكندرية في ثورة حقيقية، مما اضطر الوالي أن يسحبه من المدينة ويرتّب عودته في الحال إلى القسطنطينية. وهنا تتجلى عظمة هذا الشعب الذي استطاع أن يحمي الإيمان في غيبة أسقفه. وفي الواقع تعتبر هذه الواقعة الرائعة غاية في الأهمية، تسجّل لشعب مصر دوره الخاص في الحفاظ على الإيمان.

ويقص علينا المؤرخ سوزومين هذه القصة بمنتهى الاختصار هكذا:

[بعد مجمع أورشليم ذهب أريوس إلى مصر، ولكنه لم يستطع أن يحصل على إذن لكي يقيم الشركة مع كنيسة الإسكندرية، فعاد إلى القسطنطينية. فاجتمع في

القسطنطينية مع كل الذين تعاطفوا معه وكل زمرة يوساب النيقوميدي بقصد خبيث هو إقامة مجمع في القسطنطينية. فانبرى لهم ألكسندر الأسقف المسئول عن المدينة وجاهد بكل قواه لكي يبذّر مشورة إقامة هذا المجمع رافضاً علناً إقامة أي عهد مع أريوس. [148]

كما يقص علينا إبيفانيوس أسقف قبرس أن الأريوسيين نجحوا فعلاً في إقامة هذا المجمع:

[وفي سنة 336م عقد الأريوسيون مجمعاً في القسطنطينية حكموا فيه بوجوب اعتبار أريوس أرثوذكسياً وبغزل الأساقفة الذين يخالفون هذا الحكم.] [149]

عودة أريوس إلى القسطنطينية وموته هناك:

لقد استدعى الإمبراطور أريوس من الإسكندرية على عجل عندما سمع بالثورة التي قامت في المدينة بسببه، وهنا يبدو أن الإمبراطور راجع نفسه، فليس أثناسيوس بعد هو الذي يقاوم أريوس وأتباعه، وليس أثناسيوس الذي يثير الشعب ضد أريوس، فما هوذا الشعب بمفرده يؤدّي واجب الأمانة من نحو العقيدة التي عاشها من قبل نيقية وسيعيشها بعد نيقية، من قبل أثناسيوس ومن بعد أثناسيوس أيضاً. إذن، لم يكن أثناسيوس إلا ممثلاً لإيمان الشعب أي الكنيسة وحافظاً للعهد المقدّس الذي تسلّمته الكنيسة من الرسل والمسيح! ...

ولكن بالرغم من كل ذلك لم يكف يوسابيوس النيقوميدي عن محاولاته الشريرة لإعادة أريوس إلى الكنيسة بأية طريقة. فتوسّط لدى الإمبراطور ليتراءى أمامه أريوس مرّة أخرى ليدافع عن نفسه وعقيدته.

وإليك كلام أثناسيوس نفسه:

[وهكذا حينما استُدعي أريوس مبتدع الهرطقة وشريك وزميل يوسابيوس النيقوميدي للمثول أمام الإمبراطور، حسب رغبة يوسابيوس الخاصة، وطلب منه أن يعلن عن إيمانه كتابةً، فكتب المحتال إيمانه ولكنه أخفى منه العبارات الخاصة بكفره، وادّعى كالشيطان تمسّكه بالآيات التي في الإنجيل ذات

(148) Sozom., *Ec. H.*, II, 29.

(149) Epiphan., *Haer.* 97. 10.

الكلمات البسيطة كما هي مكتوبة. ولمّا استفسر منه قسطنطين المطوّب الذكر “وهل لديك أفكار أخرى تتمسّك بها في عقلك خلاف هذا؟ قل الحق ليكون شاهداً عليك!! والرب ينتقم منك إذا أقسمت كذباً”. أمّا هذا الرجل التعس فأقسم أنه لا يتمسّك بشيء آخر وأنه قط لم يتكلّم أو يفكر بخلاف ما قد كتبه الآن، ولكن حالما خرج سقط وكأنه يدفع ثمن جريمته: «وإذ سقط على وجهه انشقّ من الوسط فانسكبت أحشاؤه كلها.» (أع 18:1)

أمّا الموت بحد ذاته فهو النهاية المحتمة لكل بشر، ونحن لا نتشقى من ميت، مع أنه عدو، لأننا كلنا نموت أيضاً وربما بنفس الميتة. لكن نهاية أريوس لم تكن ميتة عادية بحسب ظروفها، لذلك فهي جديرة بأن تُحكى للعبارة. والقصة كالاتي:

كان يوسابيوس وأعوانه يهدّدون بأنهم سيدخلونه عنوة إلى الكنيسة، فقاومهم ألكسندر أسقف القسطنطينية، أمّا أريوس فقد اعتمد على القوة والعنف متكلّماً على مناصرة يوسابيوس، وكان اليوم سبتاً، وكان يتوقّع أن يدخل ليشتريك في يوم الأحد، فكانت هناك مشادة كبيرة بينهم، هؤلاء يهدّدون وهؤلاء مع ألكسندر يصلّون! ووقف الرب قاضياً في الأمر وحكم ضد الأثيم. فلم تغرب الشمس إلّا وأحسّ بحاجة الطبيعة تلجّ عليه، فذهب حيث سقط في المرحاض ميتاً، فحُرم من الشركة والحياة معاً.

وعندما سمع بذلك قسطنطين البار، في الحال أخذ بالدهش إذ كيف حلّ عليه العقاب بهذه النقمة السريعة بسبب القسم الذي قسمه حنثاً وزوراً. وقد صار معلوماً بالبرهان الإلهي لدى الجميع أن كل تهديدات يوسابيوس هي بلا قيمة، وقد ذهب رجاء أريوس باطلاً، كما أنه صار ظاهراً أن جنون أريوس قد انتهى به إلى القطع من الشركة لا بغم المجمع فقط بل وبواسطة مخلصنا الرب نفسه، فالكنيسة حرّمته هنا والرب حرّمه في السماء... [150]

دموع ألكسندر وصومه وصلاته تُسمع لدى الله:

وجدير بالذكر أن أثناسيوس لم يكن موجوداً في القسطنطينية بل كان في تريف

آنئذ، وهو إنما ينقل لنا شهادة رؤيا العيان بحسب قوله هكذا: [أنا لم أكن في القسطنطينية لمّا مات وإنما كان هناك مكاريوس القس وقد سمعت منه تفاصيل الحادث:]

... لمّا خرج أريوس من حضرة الإمبراطور، أراد يوسابيوس وأعوانه أن يدخلوا أريوس في الكنيسة بالقوة والعنف حسب عادتهم، فوقف أمامهم ألكسندر أسقف القسطنطينية المطوّب الذكر وقاومهم قائلاً: إن مبتدع هرطقة لا يمكن دخوله في الشركة، فهدّده يوسابيوس وأعوانه قائلين: كما استطعنا أن ندخله في حضرة الإمبراطور رغماً عن إرادتك هكذا سيكون غداً، فبالرغم عن إرادتك سوف يدخل أريوس معنا الشركة في الكنيسة، وكان هذا اليوم سبتاً. فلمّا سمع الأسقف ألكسندر هذا تضايقت نفسه إلى أقصى حد، ودخل الكنيسة ورفع يديه نحو الله معطياً الويل لنفسه، وانطرح في الهيكل على رصيف المذبح (كان يحيط بالمذبح درجة عريضة)(151) وصلّى وهو منبطح على وجهه. وكان مكاريوس (سكرتير أثناسيوس) حاضراً أيضاً وصلّى معه وسمع صلوات ألكسندر وهو يتوسّل من جهة أمرين: "إن كان أريوس سيدخل الشركة باكراً فاطلق عبدك ولا تُهلك البار مع الأثيم، أمّا إذا عزم أن تُبقي على كنيستك - وأنا أعلم أنك ستبقي عليها - فانظر إلى كلمات يوسابيوس وأتباعه ولا تسلّم ميراثك إلى الفساد والملامة، وانزع أريوس واقطعه لئلاً إن هو دخل الكنيسة دخلت هرطقته معه، وحينئذ سيحل الكفر محل التقوى".

ولمّا صلّى هكذا اعتكف الأسقف وهو في ضيق عظيم، وقد حدثت بعد ذلك أمور عجيبة وغير عادية. فبينما يوسابيوس يهدّد، كان ألكسندر يصلّي، أمّا أريوس وقد وثق جداً من يوسابيوس وزملائه فأخذ يتكلم بشراسة؛ ولكنه إذ أحس بحاجة الطبيعة انسحب. وفجأة وبحسب لغة الكتاب: «سقط على وجهه وانشقّ من الوسط وانسكبت أحشائه كلها». فمات في الحال وهو ساقط، وحُرم من الشركة والحياة كليهما. [152]

(151) مثل التي اكتشفت عام 1976 في آثار كنيسة القديس أنبا مقار حول المذبح الرئيسي بديره في شهييت.

(152) *Letters of Athanas. ad Serap. LIV.*

ويعطينا المؤرّخ سقراط وصفاً كاملاً لهذا المشهد المؤثّر:
[وكان ألكسندر أسقف القسطنطينية الذي خلف متروفانس رجلاً ذا تقوى صادقة، ... هذا لماً واجه هذه الأعمال دخلت نفسه في ضيقة وخصوصاً لماً هدّده يوسابيوس النيقوميدي بعنف أنه سيسقطه من كرسيه إن لم يقبل أريوس وكل شيعته في شركة الكنيسة.]

أمّا ألكسندر فلم يرعه التهديد بخلعه من كرسيه بقدر ما أرعبه الخوف على الخراب الذي سيحل بمبادئ الإيمان، الأمر الذي كان يسعى إليه هؤلاء الأريوسيون باجتهد، فاعتبر نفسه - إزاء هذا الموقف - أنه معيّن ليكون حارساً للعقيدة المسلّمة إليه بكل مقررات مجمع نيقية، فبدأ يجتهد بكل قوته ليمنع عن الإيمان أي تحريف أو إفساد. وعندما حصر نفسه في هذا الهدف اعتزل كل محاجة ومنطق وجعل الله ملجأه وكرّس نفسه للصوم المتواصل ولم يكف قط عن الصلاة. وأغلق على نفسه في الكنيسة المدعوّة "إيريني" وصعد على (رصيف) المذبح وانطرح على أرضه أمام المائدة المقدّسة وسكب دموعاً حارة بصلوات وبكاء، وبقي على هذا الحال عدة أيام وليالٍ متوالية ...][153]

وصول خبر موت أريوس إلى أثناسيوس وهو في المنفى:

يحتفظ لنا كتاب تاريخ البطارقة بجملة تفيد أن ألكسندر أسقف القسطنطينية أرسل في الحال إلى البابا أثناسيوس في تريف يخبره بموت أريوس هكذا: [نحن نمجّد الله ونعلمك أيها الأخ الحبيب أن أريوس مات ميتة شنيعة وانقطعت مقالته وتبدّدت شيعته.] [154]

أمّا المؤرّخ سقراط فيعطينا تفاصيل أكثر عن موت أريوس إذ يقول:
[كان الوقت يوم سبت، وكان أريوس يتوقع أن يجتمع بالكنيسة (دخوله الشركة) في اليوم الثاني، ولكن النعمة الإلهية أخذت حقها تجاه جرائمه، لأنه حالما خرج من قصر الإمبراطور تحيط به زمرة من شركاء يوسابيوس كحراس، صار يستعرض نفسه بعظمة وسط المدينة وهو يجتذب أنظار الشعب

(153) Socrate, *Ec. H.*, I. XXXVII.

(154) تاريخ البطارقة 13 - مكتبة البطريركية، صفحة 54 و55.

كله، فلماً اقترب من القصر المسمّى “محكمة قسطنطين” أخذته رعدة وفزع من الضمير فأصابه إسهال عنيف، فطلب مكاناً يقضي فيه حاجته، فاقتادوه إلى (مرحاض) خلف “المحكمة”، وفي الحال أفرغ أحشائه فخرجت أمعاؤه مع نزيف حاد وأصابه إغماء ومات. ولا يزال موقع هذه المصيبة يُرى إلى هذا اليوم في القسطنطينية ... وبسبب هذا الحادث المرعب امتلأ يوسابيوس النيقوميدي وكل شيعته من الخوف والرعب، وخرجت الأخبار بسرعة لتملأ المدينة كلها وفي كل العالم.[155]

وقفة قصيرة:

كنا نتوقع بعد هذا الذي حدث لأريوس والذي اندهش له الجميع لما فيه من إشارة واضحة إلى تدخّل الله المباشر لكشف خطورة أريوس وفساد عقيدته، وبالتالي إلى إظهار حق أثناسيوس واستقامة عقيدته، كنا نتوقّع أن يحصل عفو سريع لأثناسيوس. ولكن يظهر أن الأمر كان عند قسطنطين أو يوسابيوس ليس أمر إيمان وعقيدة وإله بقدر ما كان مصالح ذاتية وسياسية وأخلاق! ...

احتجاج شعب الإسكندرية:

ولماً سمع شعب الإسكندرية بموت أريوس، اعتبروا ذلك إشارة واضحة للمطالبة بأسقفهم، فرفعوا صوتهم عالياً لدى الإمبراطور وطالبوا بعودة أثناسيوس، وأرسل القديس أنطونيوس إلى الإمبراطور ملحاً في العفو عن أثناسيوس، ولكن عبثاً ذهبت كل محاولاتهم لدى البشر (انظر صفحة 81 أو 105)، لأن موت أريوس لم يكن يعني عند الإمبراطور أو عند يوسابيوس النيقوميدي ما كان يعنيه عند الله والكنيسة.

موت الإمبراطور قسطنطين، وعودة أثناسيوس إلى الإسكندرية:

الرواية هنا لسقراط المؤرّخ:

[مضى على حادث موت أريوس سنة كاملة كان بعدها قد بلغ قسطنطين الخامسة والستين من عمره، حيث انتابه المرض فترك القسطنطينية وسافر

إلى هيلينوبوليس (156) ليتطبب بمياهها الطبيعية الساخنة، ولكن ازدادت عليه علته فتركها وسافر إلى نيقوميديّة واستقر في إحدى ضواحيها حيث تقبّل هناك المعمودية المسيحية. وكتب وصيته وسلّمها ليد الكاهن الذي كان قد استدعى أريوس (157)، وأوصاه أن لا يسلمها ليد أحد آخر سوى ابنه قسطنطيوس الذي أعطاه الولاية على الإمبراطورية الشرقية (158).

ومات قسطنطين في قصره المعروف باسم "أشيريون Achyron" وحنطوا الجسد (وألبسوه الحلة الملوكية والتاج) واستودعوه تابوتاً من ذهب ... وشيّعوه إلى القسطنطينية ووضعوه على منصة عالية في ردهة القصر وأقاموا حوله الحراس وأولوه الكرامة اللائقة به التي كانت له وهو حي، ... إلى أن وصل قسطنطيوس من الشرق (وهو أكثر أبنائه قدرة وموهبة)، فأقاموا له قبراً إمبراطورياً داخل "كنيسة الرسل" التي كان قد أمر الإمبراطور ببنائها لهذا الغرض قبل موته، وقد عاش قسطنطين خمسة وستين عاماً أمضى منها واحداً وثلاثين سنة في الحكم ومات في 22 مايو سنة 337م - وكان موافقاً ليوم عيد العنصرة (الخمسين). [159]

وصية الإمبراطور الأخيرة بالنسبة للقديس أثناسيوس:

ترك لنا ثيودوريت المؤرّخ هذه اللمحة التاريخية المختصرة:

(156) وهي مدينة أسماها قسطنطين الملك على اسم أمه الملكة هيلانة وهي في إقليم بيثينية بأسيا الصغرى.

(157) وهو يوستاثيوس الكاهن الأريوسي أب اعتراف قسطنطيا أخت الإمبراطور، ولكن كثيرين يشكّون في صدق هذه الرواية. ويُقال أن يوسابيوس النيقوميدي نفسه الذي عمّد الإمبراطور هو الذي حفظ الوصية.

(158) قسّم قسطنطين مملكته وهو حي على أولاده الثلاثة وترك لهم وصية مكتوبة بذلك:

أ - قسطنطين الابن الأكبر ودُعي بـ قسطنطين الثاني، تولّى إقليم الغال (فرنسا الآن وبلجيكا ولمبارديا وسردينيا) وبريطانيا وأسبانيا وجزءاً من أفريقيا.

ب - قسطنطيوس وتولّى الإمبراطورية الشرقية وهي الجزء الأكبر من العالم آنئذ.

ج - وقسطانس وتولّى إقليم إلبيريكون وإيطاليا وبقية أفريقيا.

وللأسف قام قسطنطين الثاني سنة 340م على أخيه قسطانس في معركة أكويلا وتقابل الجيشان، ولكن جنرالات قسطنطين الثاني قاموا على إمبراطورهم وذبحوه فتولّى قسطانس إمبراطورية الغرب أيضاً -

انظر سوزومين 2:3.

(159) Socrat., *op. cit.*, I. 39,40.

[وأمر الإمبراطور أن يعود أثناسيوس الكبير إلى الإسكندرية. وأفصح عن تصميمه هذا في حضور يوسابيوس الذي حاول ما أمكن أن يثني الإمبراطور عن تصميمه هذا.] (160)

وهكذا وإلى آخر لحظة لم يكف يوسابيوس عن محاولاته الشريرة للتكيل بالقديس أثناسيوس، والحقيقة أن هذا الإنسان الشرير استطاع أن يثير أعصاب كل مؤرخ اضطلع بتاريخ سيرة أثناسيوس، حتى أن تيمون وبارونيوس وهما أهدأ من كتب في التاريخ لم يستطيعا أن يلقبا يوسابيوس النيقوميدي إلا بـ “المستشار الشرير الشيطان يوسابيوس”.

محاولات يوسابيوس المستميتة لنشر الأريوسية في غيبة أثناسيوس:

يعطينا المؤرخ سقراط لمحة تاريخية مبدعة عما كان يجري في الخفاء ضد أثناسيوس في قصر الإمبراطور الجديد، في وسط حاشيته بين الحريم والخصيان، ثم عند قسطنطين نفسه، ثم في أنحاء العاصمة والمدن المتاخمة، ثم في الإسكندرية بأكثر اجتهاد. وإليك هذا الفصل الخطير:

[بعد موت الإمبراطور قسطنطين قام يوسابيوس النيقوميدي مع زميله ثيوغنيس أسقف نيقية، بأعظم محاولة لمحو عقيدة الهوموؤوسيو (أي وحدة الجوهر في الابن والآب) من الوجود ونشر الأريوسية عوضاً عنها. وكان أملهم متعلقاً بعدم عودة أثناسيوس إلى الإسكندرية وإلا فالإخفاق سيحالفهم. فلما لم يتمكنوا من ذلك، طلبوا مساعدة الكاهن الذي استأمنه الإمبراطور سابقاً على عودة أريوس (يوستاثيوس الأريوسي) - وذلك لما كان لهذا الكاهن من قدرة ودهاء في معالجة الأمور داخل القصور) - أما كيف حدث ذلك فسنشرحه الآن كالاتي:

إن هذا الكاهن (يوستاثيوس) كان يحمل الوثيقة التي فيها نصت إرادة الإمبراطور المتوفي من نحو ابنه قسطنطيوس، فلما اطلع عليها وجد فيها ما كان يتمناه بشدة وهو أن إمبراطورية الشرق قد آلت إليه حسب رغبة والده. ولذلك أخذ يعامل هذا الكاهن باعتبار خاص، وحمله بالعطايا وأمر له بحرية

الدخول إلى القصر وإلى حضرته شخصياً.

وهو لم يؤخّر جهداً في استخدام هذا التصريح للتقرب من الإمبراطورة التي أصبحت معه في مودّة، وكذلك أيضاً صار مع خصيانها، وكان في القصر رئيساً للخصيان مكلف بغرفة نوم الإمبراطور، هذا استماله الكاهن إلى العقيدة الأريوسية فسهل من بعده بطبيعة الحال نشر الأريوسية بين كافة الخصيان، ومن بعدهم انتقل الأمر إلى الإمبراطورة أيضاً بتأثير الخصيان والكاهن. فصارت الإمبراطورة تتقبّل كل مذهب أريوس بسرور، ولم يدم الوقت طويلاً حتى قبل الإمبراطور أيضاً هذا الأمر، وهكذا انتشرت الأريوسية بالتدريج داخل القصر الإمبراطوري بأكمله في البلاط وبين الضباط والحراس.

واستمر هذا المد الأريوسي حتى غطى المدينة بكل شعبها. وصارت الأريوسية حديث أمناء القصر وموضوع مباحثات حتى مع النساء، وفي كل بيت في المدينة، وهكذا انتقلت هذه المصيبة بسرعة مذهلة إلى كل الولايات والمدن كالشرارة، تبدأ في الأول غير ملحوظة، وكأنها أمر غير ذي بال، ولكنها سرعان ما تثير في السامع روح اقتناع، وبسرعة يدخل المناقشة ويجادل ... وقد انتشرت هذه البلبلية في كل مدن الشرق، أمّا الغرب من إلليريكون وبقية الأقاليم الغربية من الإمبراطورية فظلت هادئة تماماً، لأنهم تمسكوا بعزم شديد أن لا يغيروا شيئاً من مقررات مجمع نيقية.

وبينما هذا الخطر ينمو ويزداد ويذهب من سيء إلى أسوأ، كان في نظر يوسابيوس النيقوميدي وأعوانه بمثابة خميرة شعبية تمثل لهم خطراً سعيدياً، لأنهم بهذا اعتقدوا أنهم قادرون الآن على تعيين أسقف آخر (غير أثناسيوس) على الإسكندرية، من الذين يتعاطفون معهم ويحملون أفكارهم.

ولكن عودة أثناسيوس في ذلك الوقت حطمت كل ظنونهم، خصوصاً وأنه عاد متشدداً بخطاب من أغسطس قسطنطين الثاني الذي يحمل اسم أبيه، موجّهاً إلى شعب الإسكندرية من تريف. [161]

عودة أثناسيوس:

بعد وفاة الإمبراطور قسطنطين الكبير، اتفق الإخوة الثلاثة قسطنطين الابن وقسطنطيوس وقسطانس، على تحديد موعد للمقابلة معاً في مدينة فيميناسيم Viminacium وهي مدينة مشهورة في إقليم موزيا على نهر الدانوب على الطريق الرئيسي نحو القسطنطينية، (وهي الآن مدينة باساروفيتز Passarovitz). وكان قسطنطين الابن إمبراطور الغرب قد أخذ موافقة أخيه الأصغر قسطنطيوس إمبراطور الشرق في استحضار أثناسيوس معه، وبالفعل أخذ أثناسيوس معه في رحلته إلى مدينة فيميناسيم.

ولمّا اجتمع الأباطرة الثلاثة وافقوا جميعاً على عودة أثناسيوس إلى كرسيه بالإسكندرية، وإليك أيها القارئ بعض التسجيلات بقلم القديس أثناسيوس نفسه، والتي تلقي أضواءً على اجتماع الأباطرة الثلاثة وعلى عودة أثناسيوس:

[وقد اتفق الإخوة الثلاثة قسطنطين وقسطنطيوس وقسطانس بعد موت أبيهم أن يعود الجميع (المنفيون من الأساقفة) إلى أوطانهم وإلى كنائسهم. وبينما هم يكتبون رسائل إلى بقية الكنائس التابعة لهم، كتبوا أيضاً فيما يختص بأثناسيوس.] (162)

وأيضاً نقرأ للقديس أثناسيوس فيما يختص بمقابلته لقسطنطيوس أثناء عودته من تريف، وهو يذكر قسطنطيوس بهذه المقابلة في معرض دفاعه ضد يوسابيوس والأريوسيين الذين اتهموه بأنه كان يشي في حق قسطنطيوس عند أخيه الأكبر قسطنطين وأخيه الأصغر قسطانس أثناء منفاه:

[وإني أتوسّل إليك عالماً أنك شخص ذو ذاكرة قوية مستعيداً إلى ذاكرتك الحديث الذي دار بيني وبينك عندما تفضّلتُم ووافقتُم على مقابلتي أولاً في مدينة فيميناسيم (163)، وبعدها في قيصرية كبادوكيا، وللمرة الثالثة في أنطاكية (164)، فهل تكلمت ردياً أمامك بخصوص يوسابيوس وأتباعه الذين

(162) *Hist. of Arians*. 8.

(163) وذلك في الاجتماع الثلاثي بين الأباطرة بعد موت أبيهم.

(164) وذلك قبل سفر قسطنطيوس إلى بلاد فارس للحرب. وهذه المقابلات الثلاث كانت أثناء عودة أثناسيوس من منفاه بتريف.

اضطهدوني؟ هل تقدّمت بأي اتهام لأيّ من الذين أساءوا إليّ؟ فإن كنت لم أتهم أحداً من الذين يحق لي فعلاً أن أتكلّم ضدّهم، فكيف أسلب حق إمبراطور في حضرة إمبراطور إلا إذا كنت مختل العقل! ...] (165)

ومن هذا يتبيّن أن أثناسيوس انحدر إلى الإسكندرية من تريف عابراً القارة الأوروبية على نهر الدانوب ماراً بالقسطنطينية (166)، ثم قيصرية الكبادوك، ثم أنطاكية.

الإسكندرية تستقبل البابا أثناسيوس:

وفي يوم 23 نوفمبر سنة 337م. رست مركب أثناسيوس في ميناء الإسكندرية بعد غيبة سنتين وأربعة أشهر وأحد عشر يوماً، واستقبلته المدينة بل ومصر كلها، لا كإنسان أت من المنفى بل كرسول أو كملاك انحدر من السماء بعد صراع مرير مع الشيطان.

وإليك أيها القارئ وصفٌ لأساقفة مصر عن استقبال البابا أثناسيوس في الإسكندرية يوم قدومه من تريف:

[فرح وتهليل في كل مكان، جماهير الشعب تجري معاً لتكون في الموضع الذي منه تراه بوضوح، الكنائس امتلأت بأصوات الفرحة والتسبيح، والشكر للرب في كل مكان وعلى كل لسان، الخدام وكل الإكليروس يتقاطرون لرؤياه ومشاعر البهجة والسعادة ملكت على قلوبهم، واعتبروا أن هذا اليوم هو أسعد أيام حياتهم، أمّا نحن الأساقفة فلا داعي أن نشرح ما لا يمكن شرحه من جهة السرور الذي عمّ في وسطنا، لأننا كما قلنا كنّا نحسب أنفسنا شركاء في الآلهة.] (167)

(165) *Apolog. Ad. Constant. 5.*

(166) ويُلاحظ أن فترة وجود أثناسيوس في القسطنطينية كانت مشحونة بتحديات الأريوسيين ضدّه، فقد شاهد بنفسه محاكمة أسقفها الأرثوذكسي بولس الذي أسقطوه من كرسيه ونفوه وعدّبوه وقتلوه خنقاً في منفاه بسبب موالاته لأثناسيوس ولمجمع نيقية. ويقول البابا أثناسيوس: [وكنتم حاضراً بنفسني أثناء

محاكمته] *Hist. Arian 7.*

(167) *Apolog. Cont. Arian., 7.*

الأريوسيون يثيرون الشعب ويخطّون لمؤامرة جديدة:

لم تخلُ فرحة الشعب والإكليروس بعودة أثناسيوس من إثارات مفتعلة من الأريوسيين الذين كانوا قد استعدوا هم أيضاً لملاقاته بالعداوة السافرة وتدبير المؤامرات. فالاتصالات بيوسابيوس النيقوميدي كانت قد توطّدت بصورة أقوى في غيبة أثناسيوس، وانتظمت الاتصالات بين الرئاسة الأريوسية في البلاط الإمبراطوري والأتباع في الإسكندرية، ودبروا الخطط معا في كيفية مقاتلة أثناسيوس عند رجوعه ليستخلصوا منها دعوى جديدة ضده. ومما زاد الموقف حرجاً أن الوالي في ذلك الوقت المدعو ثيئوذوروس، كان على وفاق كبير مع البابا أثناسيوس مما جعل بطشه بالأريوسيين المتمردين المثيرين للشغب فرصة لإثارة أحقاد يوسابيوس النيقوميدي وإضافة مزيد من الاتهامات بسبب الحوادث التي حدثت والتي بلغ بعضها إلى إراقة الدماء، مما اضطرَّ الإمبراطور بإلحاح يوسابيوس أن يرسل بسرعة إلى الإسكندرية ويستدعي ثيئوذوروس ويرسل عوضاً عنه الوالي فيلارجيوس الكبادوكي الذي حكم المدينة سابقاً (من سنة 335م - سنة 337م). وكان هذا عدواً متشدداً ضد أثناسيوس، وهو الذي أجرى تحقيقات بعثة مريوط الموفدة من قبل مجمع صور (168)، ولكنه كان محبوباً من الأريوسيين واليهود والوثنيين إلى درجة جنونية، لأنه كان بليغاً في خطبه شعبياً إلى أقصى حد (169)، وقد استُقبل في الإسكندرية عند عودته في أغسطس سنة 338م بمظاهرات شعبية وفرح من الأريوسيين فاق حدود استقبال الأباطرة (170)، وذلك نكايه في أثناسيوس، إذ قد حسبوا أن رجوع فيلارجيوس (الذي كان أيضاً بناءً على طلب من الأريوسيين في الإسكندرية) هو بمثابة نصره لهم!

وإليك تقرير واضح من المؤرخ سقراط:

[ولمّا وصل أثناسيوس إلى الإسكندرية استُقبل بترحاب فائق من شعب المدينة. إلا أن الكثير من الشعب وقد اعتنقوا الأريوسية اتحدوا معاً ودخلوا ضدّ أثناسيوس في تحدٍّ ومقاومات سافرة. وهكذا استطاعوا بذلك أن يثيروا في

(168) *Apolog. Cont. Arian.*, 14.

(169) *Tillem.* viii. 664.

(170) *Greg. Nazianz., Orat.* xxi. 28.

المدينة نوعاً من العصيان والثورة، وبذلك هيأوا ليوسابيوس (حسب الخطة الموضوعية) تقديم الاتهام ضد أثناسيوس لدى الإمبراطور أنه أخذ كنيسة الإسكندرية لحسابه الخاص بالرغم من الحكم الصادر ضده من أساقفة مجمع عام (مجمع صور)، وقد نجحوا في إثارة حفيظة الإمبراطور إلى أقصى حد وإلى الدرجة التي فيها أمر بنفيه من الإسكندرية.] (171)

أمّا المؤرّخ سوزومين فيعطينا صورة أوضح لبنود الاتهام التي قدّمها يوسابيوس ضدّ القديس أثناسيوس:

[أمّا الذين كانوا قد التحقوا بالأريوسية، فهؤلاء دُفعوا إلى أعمال الشغب لينزعوا السلام من المدينة، وبدأوا يثيرون نوعاً من العصيان واستأنفوا المؤامرات ضد أثناسيوس، وبذلك توفّر لأتباع يوسابيوس أن يقدّموا الاتهامات لدى الإمبراطور موضّحين (من واقع الحال) أن أثناسيوس شخص ثوري، يتحدّى قانون النفي مقاوماً لقوانين الكنيسة (مجمع صور) لأنه لم يأخذ موافقة الأساقفة (لكي يستعيد رئاسته الكهنوتية).] (172)

كذلك يوضّح لنا المؤرّخ ثيودوريت عن قرب صورة المؤامرة التي اضطلع بها الأريوسيون لدى الإمبراطور:

[ولمّا عاد أثناسيوس قبيل بالترحاب الفائق من الأغنياء والفقراء من مواطني المدن الكبرى ومن الأقاليم النائية. ولكن الذين اتبعوا جنون أريوس كانوا هم الوحيدون الذين شعروا بالمرارة بسبب عودة أثناسيوس. أمّا يوسابيوس النيقوميدي وثيوغنيس أسقف نيقية والذين على شاكلتهم فقد استعادوا نشاطهم السابق في تدبير المؤامرات وجاهدوا لكي يكسبوا تحيُّز الإمبراطور الصغير (قسطنطيوس) ضد أثناسيوس.] (173)

[وكانت عقلية قسطنطيوس كالقصبية التي تحركها الريح كيفما شاءت، وشيئاً فشيئاً شجّعوه لكي يعلن الحرب على مبادئ الإنجيل، وتراءى وكأنه يبكي على حال الكنائس التي صارت وكأنها في عاصفة، وأقنعوه أن ذلك حدث بسبب

(171) Socrat., *E. H.*, II. 3.

(172) Sozom., *op. cit.*, III. 2.

(173) Theodoret. *op. cit.*, II. 1.

الأشخاص (مجمع نيقية وأثناسيوس) الذين أدخلوا على قانون الاعتراف الإصطلاح "أوموؤسيوس" الذي لم يرد في الإنجيل "واحد مع الأب في الجوهر". وأن هذا هو السبب الأساسي في كل المنازعات القائمة بين الإكليروس والعلمانيين. وهكذا ابتدأ الإمبراطور يتحامل على أثناسيوس ويطعن فيه مع كل الذين يوافقونه في آرائه، وابتدأ يخطّط لإهلاكهم، وهكذا نجح يوسابيوس في استخدام الإمبراطور وضّمه إلى صفه مع ثيئوغنيس وثيريودوروس أسقف هيراكليا.

لأن هؤلاء الأساقفة رابطوا بجوار الإمبراطور، وأخذوا يتوافقون عليه باستمرار، مؤكّدين له أن عودة أثناسيوس من المنفى قد تسببت في شرور كثيرة وأثارت عاصفة لم تهز مصر وحدها بل امتدّت إلى فلسطين وفينيقيا (لبنان) والبلاد المجاورة. [174]

وهكذا تتضح لنا خطوات المؤامرة بصورتها الخفية والظاهرة وبنودها في الاتهام من واقع نجاح التخطيط، كالاتي:

- 1 - استمالة أكبر عدد من الشعب في الإسكندرية للأريوسية أثناء غياب أثناسيوس في المنفى، ودُفع في ذلك ما دُفع، مع وعود وأمان، مع اعتبار أن كل مَنْ يدخل الأريوسية يصير بالتالي من حزب الإمبراطور! ...
- 2 - إحكام الخطط بإقامة المظاهرات والشغب والتخريب والقتل عند عودة أثناسيوس بالاتفاق حتى مع اليهود والوثنيين، حتى يبدو أثناسيوس وكأنه سبب أساسي في الثورات والقتل وسفك الدماء، وأنه ليس على مستوى الزعامة القادرة على إعطاء الكنيسة حالة سلام. وبالتالي تكون مبادئه الإيمانية غير صحيحة كونها السبب في هذه النزاعات التي لا تنتهي وبالأخص اصطلاح "الهوموؤوسوس" الذي لم يرد في الأسفار المقدّسة!!
- 3 - وهذا البند هو الأساس - أن رجوع أثناسيوس من المنفى ليتقلّد رئاسة الكنيسة مخالف لقرارات مجمع مسكوني عام (صور)، لأن مجمع صور أسقطه عن كرسيه! فلا يجوز رجوعه إلى رئاسته إلاً بمجمع مسكوني آخر. ولا يكفي

مجرّد أمر إمبراطوري بذلك.

4 - أنه استولى لنفسه على القمح الممنوح سابقاً بواسطة الإمبراطور قسطنطين الكبير لفقراء مصر وليبيا. وقد صدق قسطنطيوس هذا الاتهام وأرسل له خطاباً معنفاً ومنتهماً سلوكه هذا.

والآن نعود للقديس البابا أثناسيوس لنرى ماذا كان شعوره وموقفه من هذه الاتهامات ومن موقف هذا الإمبراطور الذي نصب نفسه عدواً لأثناسيوس منذ اللحظة الأولى في حكمه.

مقتطفات من الخطاب الفصحي الحادي عشر سنة 339م - وفيه نحس بمقدار الهموم التي بدأت سريعاً تتكاثر على قلب أثناسيوس:

[والآن هلم نهلّل بأصوات التسبيح مع القديسين ولا ينبغي أن يخفق أحد من ذلك الواجب في مثل هذه الأمور، حاسبين كل التجارب والضيق التي يسوقها علينا حزب يوسابيوس في هذه الأيام بالذات كأنها لا شيء. (لقد ركّز يوسابيوس مؤامراته واضطهاداته في موسم هذا الفصح بصورة شديدة حتى يفوّت على أثناسيوس فرصة إقامة أول عيد بعد رجوعه). لأنه حتى في هذا الوقت (وقت الصوم وأسبوع الآلام والعيد) يريدون الإساءة إلينا وباتهاماتهم يحبكون الخطة لقتلي!! (وأنا) إنسان علته الوحيدة هي تقواه ومعينه الوحيد هو الله!

ولكن كخدام أمناء لله عالمين أنه هو خلاصنا في وقت الضيق، لأن الرب وعد سابقاً قائلاً: «طوبى لكم إذا طردوكم وعيروكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين، افرحوا وتهلّلوا لأن أجركم عظيم في السموات.» (مت 5:11 و12)

وأيضاً إنها كلمة الفادي نفسه أن الاضطهادات لا تقع على كل إنسان في هذا العالم إلاّ الذين عندهم مخافة مقدّسة لله فقط ... وبناءً على ذلك فإنه بقدر ما يحرق بنا الأعداء، بقدر ما ينبغي أن نكون في ملء حريتنا، وبقدر ما يهينوننا بقدر ما ينبغي أن نتحد معاً، وبقدر ما يجهدون أنفسهم لتعكير صفو عبادتنا وتقوانا بقدر ما ينبغي أن نعظ ونعلّم بذلك قائلين: «كل هذه جاء علينا وما لم نسيناك» (مز 17:44) ... فعلينا أن نحفظ العيد يا إخوة معيدين بسبب هذا لا

بالحزن والبكاء، كذلك لا ينبغي أن نلتحم مع الهراطقة في مثل هذه التجارب
الوقتية التي إنما أتت علينا بسبب تقوانا ...][175)

القديس أنطونيوس ينزل من الجبل إلى الإسكندرية، لمعونة أثناسيوس:
وإذ كان الأريوسيون قد ادعوا أن كثيرين من الرهبان بل والقديس أنطونيوس
نفسه يؤمن بكل ما يقولونه من جهة المسيح، أرسل بعض الأساقفة وأراخنة الشعب
يلحون عليه في الحضور، فاستجاب لدعوتهم ونزل من الجبل ودخل الإسكندرية
وهي في قمة اضطرابها! ... وظهر فجأة في وسط الشعب وفي الكنيسة بمظهره
المهيب وشهرته في القداسة وإتيان المعجزات، مما جذب إليه جموع الوثنيين
والمسيحيين على السواء يتلهفون لسماعه ورؤيته ويتزاحمون للمس ثوبه. أمّا
أنطونيوس فكان همه الوحيد أن يفضح الأريوسية كأردأ هرطقة خرجت ضد
الكنيسة، وقد أتم مهمته على مدى يومين، وغادر الإسكندرية في 3 مسرى الموافق
27 يوليو سنة 338م. وخرج من المدينة بصحبة القديس أثناسيوس ووسط جموع
المشييعين(176).

وإليك تقرير أثناسيوس نفسه كشاهد عيان ومسجل لأقوال أنطونيوس:
[ومرّة أيضاً ادعى الأريوسيون بتأكيد أن آراء أنطونيوس مثل آرائهم، فلم
يرتاح إلى ذلك وغضب عليهم، فلما دعاه الأساقفة وكافة الإخوة نزل من
الجبل، ولما دخل الإسكندرية فضح الأريوسيين قائلاً إن هرطقتهم هي آخر
الكل والسابقة لمجيء المسيح الكاذب. وعلم الشعب أن ابن الله ليس هو مخلوقاً
ولم يجيء إلى الوجود من عدم، ولكنه كان الكلمة والحكمة الأزلي من جوهر
الآب، لذلك هو كُفّر أن يُقال: “إنه كان يوجد وقت لم يكن فيه موجوداً” لأن
الكلمة كان دائماً مساوياً للآب في الوجود. ولهذا لا يكن لكم شركة مع
الأريوسيين الكفرة، لأنه ليست شركة بين النور والظلمة، وأنتم مسيحيون

(175) Athan., Lett. XI.

(176) هذا التاريخ تركه لنا أحد المؤرخين المجهولين الذي كتب تاريخ أثناسيوس بدقة وإسهاب
وترتيب يُدهش له، وذلك في نهاية القرن الرابع أي بعد نياحة أثناسيوس بفترة وجيزة جداً، وفي أيام
باباوية ثاوفيلس 23، وتعتبر هذه الوثيقة من أهم الوثائق التاريخية في تاريخ الكنيسة قاطبة، وهي تنطبق
على ما جاء في سيرة أنطونيوس بقلم أثناسيوس تمام الانطباق.

صالحون، وأمّا هم فلأنهم يقولون إن ابن الأب كلمة الله هو مخلوق لا يفترون شيئاً عن الوثنيين لأنهم يعبدون شيئاً مخلوقاً وليس الله الخالق.

وصدّقوني إن الخليقة نفسها في سخط عليهم لأنهم يحسبون الخالق سيد الكل الذي به كان كل شيء، مع الأشياء التي خلقت.

وتهلّل كل الشعب لمّا سمعوا أن الهرطقة التي هي ضد المسيح قد حرمها مثل هذا الإنسان. وكل شعب المدينة كان يتدافع ليرى أنطونيوس، حتى اليونانيون (الوثنيون) مع مَنْ يسمّونهم كهنتهم حضروا في كنيسة طالبيين هكذا: “نحن نسأل أن نرى رجل الله” لأنهم كانوا يدعونه هكذا. وحدث في ذلك المكان أن الرب طهرّ كثيرين من الذين عليهم شياطين وشفى مجانين. وكثير من اليونانيين (الوثنيين) سألوا حتى يُسمح لهم أن يلمسوا الشيخ فقط لأنهم كانوا يؤمنون أنهم ينتفعون.

ونوكّد لكم أن كثيرين صاروا مسيحيين في هذه الأيام القليلة (هنا يبدو أن أنطونيوس مكث في الإسكندرية أكثر من يومين؟) بما يساوي ما يراه الإنسان يحدث في سنة كاملة. وعندما ظن البعض أن الازدحام الكثير قد أزعجه وحاولوا أن يفضّوا الجموع عنه قال لهم بدون انزعاج إن هذا الجمع ليس هو بأكثر من الشياطين الذين صارهم في الجبل.

ولمّا كان يغادر المدينة (هنا أثناسيوس يذكر نفسه أنه كان حاضراً وشاهدًا وسامعًا ومسجلاً) كُنّا معه نهديه الطريق، وبينما نحن نقرب من الباب (باب المدينة المعروف “بباب الشرق”) وإذا بامرأة تصرخ خلفنا: “انتظر يا رجل الله فابنتي تتعدّب مصروعة بشيطان، انتظر أتوسّل إليك لئلا أنا أيضاً تصاب نفسي من الجري”. فلمّا سمعها الشيخ، وسألناه في ذلك، وقف بسرور. فلمّا اقتربت المرأة انطرحت الطفلة معافاة، لأن الروح النجس كان قد خرج منها. فباركت الأم الله ونحن كلنا قدّمنا الشكر، وأنطونيوس نفسه خرج أيضاً، وانطلق إلى الجبل وكأنه ذاهب إلى بيته الخاص! (177)

الاضطهاد الأول على يد الإمبراطور قسطنطيوس بتدبير الأريوسيين

اليوسابيون يدبرون الخطم مع الإمبراطور قسطنطيوس في الخفاء:

خلال عام 338م كان يوسابيوس النيقوميدي منهماكماً يجاهد لنقل نفسه من أسقفية نيقوميديا إلى أسقفية القسطنطينية(178)، لأن العاصمة كانت قد انتقلت رسمياً من نيقوميديا إلى القسطنطينية، وفي سبيل ذلك أطاح بأسقفها بولس بعد أن نفاه وعذبه في المنفى حتى مات مختنقاً بحسب تحقيق أثناسيوس نفسه(179). وبعد أن خلا له الجو نهائياً في القسطنطينية بدأ يحكم الخطة ضد أثناسيوس.

ولم تأتِ نهاية عام 338م إلا ويوسابيوس النيقوميدي كان قد نجح في إقناع الإمبراطور بعقد مجمع للأساقفة في أنطاكية بعيداً عن القسطنطينية، حتى يعطي المجمع صبغة كنسية بعيداً عن شبهة السلطة الحكومية، وفيه استصدر قراراً بعزل البابا أثناسيوس(180). وذلك بعد أن أقتنع الإمبراطور الجديد أن عودة الأساقفة من منفاهم سنة 337م، وبالأخص أثناسيوس، قد أضرت بقضية السلام في العالم وفي الكنيسة معاً، هذا فضلاً عن كونه عملاً غير قانوني من الوجهة الكنسية. لأنه كما أن النفي يحتاج إلى مجمع عام، كذلك العودة لاستئناف الرئاسة الكهنوتية يحتاج كذلك إلى مجمع عام. ولم يكن الإمبراطور يحتاج إلى اقتناع في ذلك الأمر، لأنه كان يضم الحقد والكراهية لأثناسيوس بسبب ذبوع شهرته وبأس سلطانه الشعبي، وبالأكثر بسبب الوشائيات الكثيرة التي كانت تتجدد كل يوم ضده.

ولكن يلاحظ أن يوسابيوس النيقوميدي كان في طلبه هذا يناقض نفسه بنفسه، لأنه هو شخصياً كان قد نُفي بأمر الإمبراطور قسطنطين، ثم عاد من منفاه وياشر سلطانه الكنسي بدون أمر عودة من مجمع!

كنا قد سبق وألمحنا إلى دور الوالي ثيودوروس في ضبط جماح الأريوسيين

(178) يلاحظ أنه سبق ونقل نفسه من أسقفية بيروت إلى أسقفية نيقوميديا.

(179) *Hist. Arian.* 7.

(180) N.P.N.F., vol. IV, p. 97.

المشاغبين عند عودة أثناسيوس من المنفى في 23 نوفمبر سنة 337م. الأمر الذي أثار حفيظة الأريوسيين والإمبراطور والإمبراطورة معاً، مما جعل الإمبراطور يسرع في استدعاء ثيودوروس ويرسل عوضاً عنه فيلارجيوس الوالي المستبد الذي كان يناصر أثناسيوس العدا، وهو الذي تولى - كما سبق وقلنا - حماية لجنة تقصي الحقائق التي عينها مجمع صور لبحث قضية إسخيراتس القس الأريوسي المزيف في ناحية مريوط - وقد استخدم فيلارجيوس كل سلطانه الحكومي لإثبات القضية ضد أثناسيوس باستخدام شهود زور واستعمال العنف. وبطبيعة الحال لم يأت فيلارجيوس في هذه المرة إلى الإسكندرية دون توصيات خاصة سواء من الإمبراطور أو يوسابيوس النيقوميدي لعمل كل ما يمكن عمله للإطاحة بأثناسيوس بعد جمع كل ما يمكن من التهم الكفيلة بزعة مركزه.

وبحضور فيلارجيوس في أغسطس سنة 338م (وهي أول السنة الحكومية في التقويم القبطي) بدأت القلاقل تزداد، وقدّم فيلارجيوس التهمة المناسبة التي طالما تمنّاها يوسابيوس، وهي أن أثناسيوس اختلس لنفسه كميات القمح الممنوحة من الإمبراطور للأرامل والفقراء في مصر وليبيا وباعها لحسابه وقبض الربح لنفسه.

أمّا بخصوص خطورة هذه التهمة فيعلمها أثناسيوس جيداً، وقد قال عنها هكذا: [ولم يكتفِ غريغوريوس بالدماء التي سكبها، بل أقنع زميله في الافتراس والتوحيش، فيلارجيوس الوالي، أن يرفع دعوى اتهام ضدي وكأنها بأسماء الشعب أمام الإمبراطور قسطنطيوس، تحمل اتهامات شنيعة لا يمكن أن ينتظر الإنسان منها النفي فقط بل عشرة آلاف من الميات.] (181)

وفي الحال أرسل الإمبراطور خطاباً (هذا الخطاب فقد ولم نعثر له على أثر) معنفاً سلوكه، كما أرسل يوسابيوس رسالة إلى يوليوس أسقف روما يعلنه فيه بعزل أثناسيوس معدداً الاتهامات المنسوبة إليه.

ولكن إزاء هذه التحديات، ولكي يرد أثناسيوس على يوليوس أسقف روما الذي كتب يستفسر عن صحة التهم المنسوبة لأثناسيوس، جمع أثناسيوس مجمه المحلي في الإسكندرية في أواخر سنة 338م وأوائل سنة 339م من جميع أساقفة مصر

والصعيد وليبيا والخمس مدن الغربية. وكان عدتهم مائة أسقف بتحديد أنثاسيوس نفسه هكذا:

[لأن أمر قضيتي لا يحتاج إلى مزيد من محاكمات، لأن حكماً صدر في هذا الأمر لا مرّة واحدة ولا مرتين بل مرّات كثيرة، فأولاً وقبل الكل فقد تمّ في بلدي في مجمع يضم مائة أسقف ...] (182)

وإليك مقتطف من خطاب الأساقفة المصريين مُرسلاً لأساقفة العالم كله، إثر تهديد قسطنطيوس الإمبراطور، كتبوه للدفاع عن أسقفهم أنثاسيوس، وفيه يفنّدون جميع التهم التي وجّهت ضد أنثاسيوس، ومن ضمنها يذكرون الاتهام بخصوص اختلاس أنثاسيوس قمح الأرامل:

[وإنه من الضروري أن تعلموا حقيقة التقرير الذي قُدّم ضد أنثاسيوس شريكنا في الخدمة الذي إذ تفحصونه جيّداً ترون مدى خبث هؤلاء الأشرار وتبيّنون نيّتهم التي بيّتها للحكم بقتله:

حدث أن وهب الإمبراطور قسطنطين الكبير كمية من القمح لإعالة عدد معيّن من الأرامل، جزء منهم في ليبيا وجزء في مصر، وهؤلاء جميعاً قد استلموا هذه الحصة بأكملها حتى هذه اللحظة، ولم يأخذ أنثاسيوس شيئاً من ذلك قط إلاّ تعبّه وجهاده (في توزيعها) ومساعدتهن.

والآن وبينما أصحاب هذه العطية لم يشتكوا بل يؤكّدون جميعاً أنهم قد حصلوا على نصيبهنّ، إذ نجد الشكوى تقول إن أنثاسيوس قد باع كل كمية القمح واستحوز على المكسب لنفسه. وقد كتب الإمبراطور بخصوص هذا الأمر غاضباً ومتهماً إيّاه بالتسبب في هذه الشكاوي التي قُدّمت في حقّه.

ومنّ هؤلاء أصحاب الشكاوي؟ أليسوا هم أنفسهم المتهمون باضطهاده الذين لم يحتشموا أن يضيفوا على ذلك اتهاماً آخر؟

ومنّ هم المسؤولون الحقيقيون عن الخطابات المُرسّلة من الإمبراطور؟ أليسوا هم الأريوسيون أنفسهم الذين أخذهم الحماس والغيرة ضد أنثاسيوس ولم يحتشموا قط أن يتكلّموا ويكتبوا كل شيء ممكن ضده؟

وليس من الصعب أن يدرك الإنسان نيّة هؤلاء في إثارة الشكوك هكذا من نحو الآخرين في هذا الموضوع، نعم فالعلة في تقديمهم لهذه الشكوى تظهر لنا غاية في الوضوح إذ أنهم يتحرّقون شوقاً - وإنما بصورة مغطّاة - لكي يستولوا هم على القمح الممنوح للكنيسة ويعطوه للأريوسيين. وهكذا يتضح من واقع الحال أساس الشكوك التي يفكّر فيها هؤلاء الذين لا يتورّعون عن اختلاق الاتهامات الموجبة لقتل أثناسيوس وذلك بإثارة أحقاد الإمبراطور لدفعه للتحامل عليه، ولا عن تدبير الاتهامات التي تمكّنهم من انتزاع قوت الفقراء المسلّم لإكليروس الكنيسة، وهذا كله في الواقع يهدف أن يربح الهراطقة الموقف كله. [183]

لقد تشجّع يوسابيوس بسلطة الإمبراطور واستطاع أن يرسل أعواناً له خصوصيين إلى الإسكندرية، ولكن ليسوا من مواطنيها، ليكونوا حلقة اتصال مع القسطنطينية بصفة مستمرة. وقد اختارهم من أعوانه الشامسة ومن أهل بلده، فصاروا مركزاً خطيراً لتدبير الخطط والمؤامرات والثورات. وقد تقوى حزب الأريوسيين على أيديهم جداً من أساقفة وكهنة ورهبان، حتى أتى وقت استطاعوا فيه بالفعل أن يستولوا على كافة السلطات في المدينة سواء المدنية منها أو الكنسية، وهي اللحظة التي فيها رأى أثناسيوس ضرورة مغادرة الإسكندرية قاصداً إلى روما، حيث صديقه أسقفها وحيث الإمبراطور قسطنطين الثاني وقسطانس أخوه، وهما من المعجبين بإيمانه ونشاطه، ليعرض عليهم جميعاً الخطورة المحدقة بالكنيسة وبالإيمان - وإليك مقتطفات توضّح هذه المراحل:

[وأكثر من هذا فقد أرسلوا شامسة لجماعة الأريوسيين المختلين الذين اشتركوا معهم في اجتماعاتهم علناً، وبدأوا يكتبون خطابات إليهم (أي إلى القسطنطينية) ويتلقّون الردود منهم، وهكذا أحدثوا بالفعل انشقاقاً في الكنيسة، وكانوا يواظبون معهم على الشركة (الصلاة والتناول)، وهؤلاء أرسلوا خطابات إلى كل مكان يمتدحون هرطقتهم ويدمّون الكنيسة. وكل هذا يمكنكم أن تلاحظوه من صيغة الخطابات التي أرسلوها إلى أسقف روما، بل وربما يكونون قد أرسلوا لكم أنتم أيضاً بذلك.

وهكذا تتركون أيها الأحباء أن هذه الأمور تستوجب النعمة والغضب، فهي في الحقيقة خطيرة وغريبة عن منهج المسيح ...

ونحن ندعوكم أن تقتصوا من أصحاب هذا الظلم مذكرين إياكم بقول الرسول: «اعزلوا الخبيث من بينكم». وبالحقيقة إن كل طرفهم خبيثة ولا تستحق شركتكم، فلا تلتفتوا إليهم مهما كتبوا إليكم ضد الأسقف أثناسيوس، لأن كل ما يخرج من تحت أيديهم هو كذب حتى ولو أمضوا خطاباتهم بأسماء أساقفة مصريين. [184]

أمّا النية المبيّنة لقتل أثناسيوس والتي أحكموا حلقاتها فيمكن أن يستشفها القارئ من هذه الفقرات:

[وكيف أن الذين كانوا يتباكون على كسر الكأس (الإفخارستيا) يطلبون الآن بنشاط كيف يقتلون الأسقف الذي يقيم به الأسرار؟ لأنهم لو كان في استطاعتهم الآن أن يقتلوه لقتلوه.]

أو كيف أن الذين كانوا يتباكون على كرسي الأسقف المغطى بالحرير لأنه انطرح على الأرض، يطلبون الآن بنشاط أن يحطّموا الأسقف الذي كان يجلس عليه؟ أليس ذلك لغرض واحد وهو أن يظل الكرسي بلا أسقف وأن يبقى الشعب محروماً من العقيدة الإلهية؟ [185]

[لقد جاهدوا ليجعلوا الإمبراطور يتحامل عليه، وكم مرّة هدّوه بالمجامع، وأخيراً وبعدما اجتمعوا في صور، وإلى هذا اليوم (186) (سنة 338م) لم يكفوا عن الكتابة ضدّه. [187]

[أيها الإخوة الأحباء (الأساقفة في كل أنحاء العالم) كنّا نود أن نقدّم لكم دفاعاً عن أخينا أثناسيوس بخصوص المؤامرات التي يحيكها يوسابيوس وأعوانه ضد أثناسيوس، ونشتكي إليكم من جهة العذابات التي جازها على أيدي هؤلاء

(184) *Apol. Cont. Ar.*, 19.

(185) *Ibid.*, 17.

(186) *N.P.N.F. IV*, xlii.

(187) *Apol. Cont. Ar.*, 6.

الناس. كُنَّا نود أن نشرح لكم كل اتهاماتهم الباطلة سواء التي كانت منذ البداية أو التي حدثت عند عودته إلى الإسكندرية (من منفاه بتريف). ولكن الظروف لم تكن تسمح آنئذ كما تعلمون. وأخيراً وبعد عودة أثناسيوس كُنَّا نظن أن الأريوسيين يكفون، وقد غطَّاهم الخجل بسبب افتضاح ظلمهم علناً، وإلى ذلك كنا متحكمين في أنفسنا وظللنا صامتين.

ولكن وبعد هذه العذابات المريعة التي عاناها، ونفيه في بلاد الغال واغترابه بعيداً جداً في هذه البلاد، وبعد أن ضيقَّ عليه الأعداء الخناق لقتله حتى أنه استطاع أن يفلت من أيديهم وشكاياتهم بصعوبة (ذهابه من صور إلى القسطنطينية) ... هذه الأحزان التي لو حدثت من أقسى الأعداء لاكتفوا بها وارعوا - إلا أنهم لم يكفوا ولم يحسوا بالخجل، وها هم إلى الآن يخطِّطون ضد الكنيسة وضد أثناسيوس بلا أي حياء. فبمجرد حصوله على العفو بدأوا بلا أي خوف يدبرون خططاً جديدة أكثر شناعة! ...

إزاء ذلك لم نستطع السكوت أبداً، ...

انظروا كيف لم يهدأوا قط عن الهمس في أذن الإمبراطور بالوشايات الجديدة والإيعاز بكتابة الخطابات (من مصر) التي تحوي الاتهامات الموجبة للموت!! كل ذلك للإنهاء على أثناسيوس وإهلاكه، وذلك لأنه عدو لكفرهم. وها هم قد كتبوا أخيراً إلى الإمبراطور ضدَّه متهمين إيَّاه بالمجزرة التي يدَّعون أنها حدثت (في الإسكندرية في يوم استقباله) وهي لم تحدث قط، وأخيراً يطالبون بدمه جزاء قتل ارتكبه وهو بريء كلية. [188]

تحركات الأريوسيين:

ولكن وبالرغم من كل هذه الدفوع والمحاماة عن أثناسيوس بكل وسائل المنطق والقانون، فإن الأريوسيين ويوسابيوس بالذات، لم يشغلوا أنفسهم بالمناظرات أو بالمحاجاة والإقناع المنطقي، لأنهم كانوا محصورين في هدف واحد معيَّن هو القضاء على أثناسيوس بأية طريقة مشروعة أو غير مشروعة، وبالتالي كانوا محصورين في تدبير خطط، أيّ خطط تتناسب مع الهدف الذي يجاهدون نحوه!!

أول خطوة في المؤامرة، تعيين بستوس بدلاً من أثناسيوس أسقفًا على الإسكندرية:

أمّا بستوس هذا، فيذكره أثناسيوس أنه قد تعيّن على الورق فقط بقرار من الإمبراطور وبياعاز من يوسابيوس، وذلك في شتاء سنة 338م، قبل أن يستقروا على تعيين مناوئ آخر أقوى وهو غريغوريوس الأريوسي الذي وصل بعد ذلك إلى الإسكندرية واغتصب الكرسي الرسولي بالفعل، وغريغوريوس هذا جاء إلى الإسكندرية وباشر سلطاته الحكومية على الكنيسة بالقوة في موسم الفصح لسنة 339م. ويتبيّن من هذا أن تعيين بستوس حدث سنة 338م، إلّا أنهم عدلوا عن إرساله إلى الإسكندرية بعد تعيينه بسبب احتجاج أثناسيوس السريع، الذي بمجرد أن علم بالقرار أرسل في الحال خطابات الاحتجاج لدى جميع أساقفة العالم، وإلى يوليوس أسقف روما على وجه الخصوص، وهؤلاء أسرعوا بالاستجابة وحرّموا بستوس الأريوسي وقطعوه من الشركة قبل وصوله إلى الإسكندرية. وهذا يتضح جدًّا من كلام أثناسيوس نفسه الذي يبدأ هكذا:

[وغريغوريوس هذا أريوسي، وقد أرسله لحساب الجماعة الأريوسية (بالإسكندرية)، لأن أحداً قط لم يطلبه إلّا هؤلاء الأريوسيون وخدمهم، وعليه، وكونه "أجيراً وغريباً"، استخدم السلطان الحكومي متسبباً في هذه المصائب المرعبة التي تتم عن قسوة تجاه الشعب والكنيسة وكأنها ليست كنيسة.

أمّا لماذا أرسلوا غريغوريوس، فلأن بستوس الذي عيّنه يوسابيوس وأتباعه على الأريوسيين، هذا قد تمّ حرّمه وقطعه من الشركة بالعدل جزاء كفره بواسطتكم يا أساقفة الكنيسة الجامعة، وهذا تعلمونه جميعكم مما كتبت إليكم بخصوصه. وما هم الآن وبنفس الطريقة قد أرسلوا غريغوريوس إليهم (أي إلى أريوسي الإسكندرية فقط، وهنا أيضاً يرفض أثناسيوس بإباء أرثوذكسي أن يقول إن غريغوريوس تعيّن على كرسي الإسكندرية عامة). [189]

ومعروف أن بستوس هذا لم يدخل الكنيسة قط، وذلك نعلمه من احتجاج الأساقفة

المصريين في خطابهم لأساقفة العالم:

[ونحن نشكركم من أجل تقواكم أيها الأعمام المحبوبون لأنكم حكمتم بالحرمان دائماً على الأريوسيين في خطاباتكم، ولم تعطوهم الفرصة إطلاقاً أن يدخلوا الكنيسة... أمّا الآن فهم يثيرون الرجال الأريوسيين المختلين ليقاوموا الكنيسة علناً، فبالرغم من أن كل الكنيسة الجامعة قد حرمتهم (سابقاً) إذ بهم يعيّنون أسقفاً عليهم (بستوس) ليشوشروا على الكنيسة ويزعجوها حتى يكسبوا لأنفسهم أعواناً لكفرهم في كل مكان.] (190)

ولكن المدهش حقاً أن يتعجّل يوسابيوس ويكوّن لجنة من مكاريوس القس الأريوسي واثنين من الشماسة الأريوسيين مارتيريوس وحزقيوس، ويرسلهم إلى يوليوس أسقف روما وينبئه بعزل أثناسيوس وبتعيين بستوس على كرسي الإسكندرية بدلاً من أثناسيوس، وذلك قبل أن يصل بستوس نفسه إلى الإسكندرية، وهذا نعلمه من خطاب يوليوس أسقف روما هكذا:

[وقبل أن يصل إليّ كهنة أثناسيوس، كتبوا (يوسابيوس وجماعته) إليّ ملحين بالسرعة في إرسال خطابات (تهنئة) لرجل يدعى بستوس على الإسكندرية، مع أنه في نفس الوقت (كما أعلم) كان أثناسيوس الأسقف هناك. فلما وصل كهنة الأسقف أثناسيوس، أبلغوني أن هذا الرجل بستوس أريوسي وأنه قد تمّ فيما سبق قطعه من الشركة بواسطة ألكسندر الأسقف ومجمع نيقية أيضاً، وأنه أجريت له رسامة على يد سكوندوس وهذا أيضاً بدوره كان المجمع الكبير في نيقية قد حرّمه كأريوسي، وهذه الحقائق لم يستطع مرتيريوس وأتباعه (رسل يوسابيوس الذين أرسلهم إلى أسقف روما لينبئه بعزل أثناسيوس ويحضه على إرسال خطابات تهنئة لبستوس) - أن يناقضوها، ولم يستطيعوا أن ينكروا أن بستوس هذا قد رسمه سكوندوس.

فانظروا الآن وقرّروا بعد هذا كله من يكون المستحق للملامة بالعدل؟ هل أنا؟ الذي لم يستطيعوا أن يحملوني على الإذعان لطلباتهم بأن أكتب لبستوس الأريوسي، أم هؤلاء الذين نصحوني أن أسيء إلى المجمع الكبير وأمتنهه بأن

أكتب لهؤلاء الكفرة وكأنهم رجال دين؟][191)

وهكذا استطاع أثناسيوس بسرعة حركته وذكائه أن يحبط مساعي يوسابيوس في روما ويكشف لدى يوليوس أسقفها خبث الأريوسيين ومؤامراتهم بغاية الوضوح وبصورة ملموسة، حتى أن يوليوس نفسه يقرّر أن بعثة يوسابيوس أصابها الخذلان والفشل إزاء وصول رسل أثناسيوس، فيقول يوليوس في خطابه:

[والأكثر من ذلك أن القس مكاريوس (رئيس بعثة يوسابيوس) الذي كان قد أرسله إلينا يوسابيوس مع مرتيريوس والباقيين، عندما سمع باعتراض كهنة أثناسيوس (الذين كشفوا فيه كل شيء) - غادر في الليل فجأة مع أنه كان مريضاً ومع أننا كنا نتوقع حضوره مع مرتيريوس وحزقيوس - في الصباح - مما جعلنا نعتقد أن رحيله كان بسبب افتضاح موضوع بستوس، لأنه من المستحيل أن تجيز الكنيسة الجامعة رسامة يقوم بها سكوندوس الأريوسي، باعتبار أن هذا يكون في الواقع امتهاناً للمجمع (نيقية) وللأساقفة الذين عقده، وتكون بمثابة رفض صريح للقرارات التي صاغوها في حضرة الله بكل اجتهاد وعناية، وكأنها بلا قيمة.][192)

وهنا يلزمنا أن ننبّه ذهن القارئ أن الأمور بدأت تجري في ميدانين معاً وفي نفس الوقت بسبب دهاء وخبث يوسابيوس.

أما الميدان الأول فهو في روما حيث تزعم يوليوس أسقفها، مدعماً بموافقة الإمبراطورين قسطانس وقسطنطين الثاني، تزعم حركة الدفاع عن أثناسيوس باقتناع شديد وغيره شديدة، إذ دعا الطرفين أثناسيوس ويوسابيوس وأتباعهما إلى مجمع مسكوني ترك لأثناسيوس حرية اختيار مكانه - فاختر روما - بل وإن بقية أعضاء بعثة يوسابيوس إلى روما (بعد هروب مكاريوس رئيسها) اشتركوا في فكرة عقد هذا المجمع وحبّذوها. وهذا لم يكن من اقتراحهم الخاص وإنما يوسابيوس وجماعته كانوا قد سبقوا وأرسلوا خطاباً اقترحوا على يوليوس بعقد مجمع يكون هو القاضي فيه إن كان هذا يرضيه. وإليك كلمات أثناسيوس في هذا الموضوع:

(191) *Apolog. Cont. Ar.*, 24.

(192) *Apol. Cont. Ar.* 24.

[ويوسابيوس وأتباعه كتبوا إلى يوليوس طانين أنهم يخيفونني بهذا - وطلبوا منه أن يدعو إلى مجمع يكون هو الحَكَم فيه إن كان هذا يرضيه.] (193)

فبدأ يوليوس بتعيين ميعاد الانعقاد وجعله في ديسمبر سنة 339م. ثم بادر بالتحضير له، وأرسل بالفعل إلى يوسابيوس يدعوه مع كل الأساقفة بواسطة كاهنين من طرفه هما هيلبيديوس وفيلوكسينوس الرومانيين.

أمَّا الميدان الثاني: فكان مسرحه في الإسكندرية، ولكن خطته كانت تُصنع في أنطاكية والقسطنطينية ويتزعمه يوسابيوس الذي لا يهدأ، إذ لمَّا علم بنيات يوليوس أسقف روما وتحقَّق من مكاريوس القس الأريوسي حال وصوله (هارباً من روما) بفشل مهمة البعثة التي أرسلها إلى روما لتثبيت بستوس على الإسكندرية، وعلم بانحياز يوليوس الصريح إلى موقف أثناسيوس، بدأ يخطِّط لمؤامرة جديدة اختار أن يكون عنصرها الأساسي المفاجأة والإرهاب. فدعا هو الآخر إلى مجمع في أنطاكية بمؤازرة قسطنطيوس، وذلك في الشتاء في سنة 339م.

هذا المجمع خلاف مجمع أنطاكية الثاني المسمَّى بمجمع التدشين الذي التأم في أنطاكية سنة 340-341م لتدشين الكنيسة المذهبة، والذي هدموا فيه من ناحية أخرى كل قرارات مجمع نيقية التي تخص الأوموسيوس وصاغوا فيه قانوناً آخر للإيمان، وكرروا حرم أثناسيوس وثبَّتوا تعيين غريغوريوس على الإسكندرية بدلاً من أثناسيوس.

أمَّا في المجمع الأول فقد اتُّخذت قرارات أريوسية محدَّدة بعزل أثناسيوس عن كرسيه وإقامة غريغوريوس الكبادوكي أسقفاً على كرسي الإسكندرية عوضاً عن أثناسيوس، وأرسل غريغوريوس بسرعة وفي سرية تامة إلى الإسكندرية، مدعماً بقوة عسكرية قوامها 500 فارس وبتوصيات من الإمبراطور.

وقد أسرع يوسابيوس في اتخاذ هذه القرارات قبل وصول رسولي يوليوس وهما الكاهنان هلبديوس وفيلوكسينوس لدعوة الأساقفة اليوسابين لحضور المجمع الذي دعا إليه يوليوس أسقف روما، والذي تحدَّد ميعاده في ديسمبر سنة 339م.

فلما وصل رسولا يوليوس إلى أنطاكية وهما هلبندوس وفيلوكسينوس الرومانيان، احتجزهما يوسابيوس عنده حتى إلى ما بعد زمان عقد مجمع يوليوس، فبقيا في أنطاكية حتى يناير سنة 340م. وغادرا أنطاكية ومعهما خطاب من يوسابيوس، كله مرواغة، اتهم فيه يوليوس بالتحيز ولامه على تصرفاته وقبوله أناسيوس في الشركة. ولكن يوليوس ردَّ عليه بخطاب مفحم فاضحاً فيه كل تصرفات يوسابيوس وهاجم الأريوسيين بعنف ووضوح مع حكمة ورزانة، وفند كل ادعاءات يوسابيوس واتهاماته وملاماته الكاذبة واطعاً عليه كل اللوم. وسوف نقدّم للقارئ مقتطفات من هذا الخطاب الهام في المكان المناسب.

والآن يمكننا أن نسير بالقارئ خطوة خطوة لنكشف دقائق ما حدث في كلا الميدانين في أنطاكية وفي روما. ولنبدأ بالإسكندرية أولاً.
أولاً: ما حدث في الإسكندرية: وحوادث هذه المرحلة تمت في موسم الصوم الكبير وأسبوع الآلام وعيد الفصح سنة 339م:
وإليك كلمات البابا أناسيوس:

[ولمّا رأى يوسابيوس وأتباعه اضمحلال هرطقتهم كتبوا إلى روما كما كتبوا إلى أباطرة الغرب قسطنطين وقسطانس متهمين أناسيوس، ولكن لمّا فندّ مبعوثو أناسيوس هذه الافتراءات وكشفوا حقيقتها، صاروا في خجل أمام الأباطرة وأمام يوليوس أسقف روما الذي كتب يدعو إلى مجمع يلزم أن ينعقد في المكان الذي نختاره نحن (أناسيوس يتكلم بصيغة الجمع)، حتى يستطيعوا أن يعرضوا اتهاماتهم التي صنعوها ولكي يستطيعوا أيضاً أن يدافعوا عن أنفسهم بحرية فيما يختص بالأمر التي هم أيضاً متهمون فيها! على أن الكهنة الذين أرسلوهم (كهنة يوسابيوس) لمّا رأوا أنفسهم قد افتضحوا ترجوا هم أيضاً أن يُقام هذا المجمع.

ولكن هؤلاء الأشخاص (اليوسابيين) الذين يُشك دائماً في سلوكهم، حينما رأوا أنهم لن يفوزوا بشيء أفضل من إقامة هذه المحاولة الكنسية، اتجهوا بجملتهم إلى قسطنطينوس وحده متباكين ومستغيثين به كحامي حمى هرطقتهم، فرأوا أن يكتبوا خطابات، ويرسلوا فيلارجيوس للمرة الثانية ليكون والياً على مصر لأنه قادر أن يقوم بعمليات الاضطهاد كما ينبغي وكما أثبت هو ذلك

سابقاً بجدارة، وبالأكثر لأنه هو نفسه زنديق ومارق عن الدين، كما فكروا أيضاً أن يرسلوا غريغوريوس ليكون أسقفاً على الإسكندرية، لأن هذا أيضاً يستطيع أن ينصر هرطقتهم.

وبناءً عليه، أرسل قسطنطيوس في الحال رسائله تحمل بداية اضطهاد جديد ضد الجميع، وذلك على يد فيلارجيوس الوالي يلزمه أحد خصيان الإمبراطور المدعو أراساكيوس، وبعدها أرسل غريغوريوس مدعماً بقوة عسكرية.[194]

يوسابيوس يستخدم عنصر المفاجأة والإرهاب في مؤامره الجديدة:

لقد تعلم يوسابيوس من فشله في تخطيط مؤامرة بستوس السابقة أن لا يستخدم بعد ذلك سياسة التمهيد للضرب، أو استخدام إشاعة الأخبار مسبقاً، أو مساندة الخطة بوسائل الإعلام والتوعية وإرسال الرسل والخطابات، كما فعل في إرساله لبعثته إلى يوليوس أسقف روما وإلى أباطرة الغرب، بل استنَّ أسلوباً جديداً في المؤامرة وهو السرية المطلقة والمباغنة والإرهاب، حتى وإذا لزم الأمر إلى سفك الدماء، في الصوم الكبير وفي أسبوع الآلام بالذات وأيضاً في يوم عيد الفصح!!

وإليك كلمات أثناسيوس نفسه:

[فبينما نحن مواظبون على اجتماعاتنا في سلام كالمعتاد، وبينما الشعب في ابتهاج بسبب اجتماعاتنا هذه يتقدمون بواسطة الأحاديث الإلهية، وبينما زملاؤنا في الخدمة في كل نواحي مصر وطيبة وليبيا في وئام ومحبة وسلام كلٌّ مع الآخر ومعنا، إذ فجأة يعلن والي مصر منشوراً يحمل صورة مرسوم بإعلان أن واحداً يسمّى غريغوريوس من كبادوكيا في طريقه إلينا من البلاط الإمبراطوري لكي يحل محلي.

وبمجرد إعلان هذا المنشور على الشعب صار الكل في ارتباك، لأن هذا الإجراء كان غريباً كلية ولأول مرة يُسمع به. وبناءً عليه أخذ الشعب يتجمع في الكنائس بصورة مستمرة لأنهم كانوا واثقين أنه لا هم أنفسهم ولا أي أسقف أو كاهن ولا أي واحد على وجه العموم اشتكى ضدي، إلا الأريوسيون فقط

كانوا يُحسبون في صفّه، كما أدركوا أنه (غريغوريوس) أريوسي وأن يوسابيوس هو الذي أرسله ليكون على الأريوسيين.[195]

ويعطينا ذلك المؤرّخ المجهول الذي كتب تاريخ أثناسيوس بالتفصيل بعد نياحته بقليل، في زمان باباوية ثاوفيلس الـ 23، تفصيلات قليلة إنما دقيقة عن كيفية الشروع في قتل أثناسيوس ودخول غريغوريوس الإسكندرية هكذا:

[وفي الثاني والعشرين من برمات الموافق 18 مارس سنة 339م، وفي يوم الأحد مساءً أخذ يبحث عنه المطاردون ويتعقبونه بالليل، وفي صباح اليوم التالي هرب أثناسيوس من كنيسة ثيوناس بعد أن عمّد كثيرين. وبعد أربعة أيام من هذا الحادث أي في 22 مارس، دخل غريغوريوس الكبادوكي مدينة الإسكندرية بوصفه الأسقف].[196]

[وبدخوله الإسكندرية (22 مارس سنة 339م)، بدأت الاعتداءات على الشعب وانتهاك الحرمات، فكان حدثاً جلب على المدينة شروراً جسيمة، وحاول الشعب أن يعتصم في الكنائس في اجتماعات دائمة لكي يصدّ كفر الأريوسيين ويمنعهم من الاختلاط بالمؤمنين، وفيلارجيوس الذي صار والياً على مصر له تاريخ سابق في مباشرة الاضطهاد على الكنيسة وعلى العذارى، وهو أيضاً كافر وزنديق، وهو من نفس المدينة التي منها جريجوري (غريغوريوس) الكبادوكي(197)، فهم أهل مواطنة واحدة. وغريغوريوس هذا هو أيضاً لا أخلاق له مملوء حقداً على الكنيسة، وقد استطاع أن يجمع في صفّه جماعة الوثنيين وجماعة اليهود وخصوصاً المتشرّدين منهم، وذلك بواسطة وعود كثيرة حققها لهم بالفعل فيما بعد، هؤلاء أثار حفيظتهم (ضد المسيحيين) وأرسلهم جماعات بسيوف وعصي ليقتموا الكنائس وليفتكوا بالشعب].[198]

(195) *Epist. Encyc.*, 2.

(196) *Fest. Index.*, N.P.N.F., IV, p. 503.

(197) هناك مثل قديم يقول إن هناك ثلاثة أصول للشر تبدأ بحرف "كبا" اليوناني، الكبادوكيين والكريتيين والكيليكين ولكن أشهرهم الكبادوكيون. غير أن هذا المثل القديم ألغاه آباء كبادوكيا العظام الثلاثة باسيليوس وغريغوريوس ويوحنا ذهبي الفم.

(198) *Epist. Encyc.*, 3.

[وقد جمع جماعة كبيرة من الرعاة وتجار المواشي وكثيراً من الشبان المتشردين من الإسكندرانيين وسلّحهم بالسيوف والعصي، واجتمعوا معاً وهجموا على كنيسة كيرينئوس فذبّحوا بعضاً وداسوا بعضاً، وضربوا بعضاً وألقوهم في السجن، ونفوا آخرين، وجروا النساء من شعورهن وألقوهن في السجن ... كل ذلك بدون أي سبب إنما لإجبار الشعب على الانضمام للأريوسيين وليخضعوا لغريغوريوس الذي أرسله الإمبراطور.] (199)

[الكنيسة والمعمودية المقدّسة أشعلوا فيهما النار وارتفعت أصوات الشعب بالصراخ والعيويل في كل المدينة ...

عرّوا العذارى وضربوهن بالسياط، وداسوا الرهبان، وبعضهم مات بالسيوف وبالعصي، وبعضهم جرح ... ونجّسوا المائدة المقدّسة ... وجدّفوا على المسيح وأحرقوا الكتب المقدّسة ... ودخل اليهود إلى المعمودية وخلعوا ملابسهم وصنعوا قباحت يخجل الإنسان أن يذكرها ... كل ذلك على مرأى ومسمع من الأساقفة "الأريوسيين".] (200)

[ولمّا حازت هذه الأعمال رضى غريغوريوس وأشبعته غريزة الحقد والنقمة فيه، أراد أن يجازي هؤلاء اليهود الوثنيين على ما أبدوه من شرور نحونا، فأعطاهم التصريح أن ينهبوا الكنيسة (كنيسة كيرينئوس)، وبمجرّد أن أعطاهم هذا التصريح بدأت أعمال النهب والسلب، كل ما وقع في أيديهم، فذخائر الكنيسة من الزيت والشمع والخمر نهبوا، وخلعوا أبواب الهيكل وقضبانه الحديدية ... ونزعوا الشمعدانات من الحائط ... وهجموا على الكهنة والعلمانيين (الذين يخدمون في الكنيسة) ومزّقوا لحمهم ... وكل هذه الأمور حدثت في الصوم الكبير (201) وعيد القيامة على الأبواب.

وفي يوم الجمعة الكبيرة (الموافق 13 أبريل سنة 339م) ذهب غريغوريوس هذا مع الوالي فيلارجيوس ودخل الكنائس (كمن يفنقدها)

(199) Ibid.

(200) Ibid.

(201) يلاحظ أن معظم الاضطهادات على أولاد الله وقعت في هذا الموسم، وعلى سبيل المثال اضطهاد يوستينا التي أخبر عنها أمبروسيوس، وكذلك اضطهاد يوحنا ذهبي الفم في القسطنطينية.

فاعتبره الشعب كمن يقتحم كنائسهم عنوة، وواجهوه باحتقار شديد وبغضة، فما كان منه إلا أن أوعز إلى الوالي أن يستخدم القوة، فجلد منهم في ساعة واحدة 34 بين عذراء وسيدة ورجال من علية القوم، وألقاهم في السجن. وبينهم كانت عذراء تحمل كتاب التسبحة أثناء ما كانوا يجلدونها علناً، فأمسكوا بالكتاب أيضاً ومزقوه قطعاً وألقوها في السجن.](202)

[وعندما عملوا كل هذا، لم يكفوا أيضاً بل فكروا كيف يعملون نفس الشيء في الكنيسة الأخرى (المسمّاة ثيوناس)(203) التي كنت دائماً أقضي فيها هذه الأيام، لأنهم كانوا يتحرّقون شوقاً كيف يمتدون بجنونهم إلى هذه الكنيسة أيضاً حتى أقع في أيديهم ويقتلونني، وهذا ما كان سينتهي إليه أمري حتماً لولا أن نعمة المسيح ساعدتني، حتى ولو بنجاتي أستطيع فقط أن أقصّ هذه الأمور التي اقترفوها.

لأنني لمّا رأيت جنونهم ضدّي بهذه الصورة غير المعقولة، ولمّا كنت حريصاً للغاية أن لا يُساء للكنيسة أو إلى عذارها متجنباً أن لا تراق دماء جديدة ولا ينزعج الشعب، سحبت نفسي من وسطهم متذكراً كلمة المخلص: «إذا طردوكم من مدينة فاهربوا إلى أخرى». لأنني رأيت من سلوكهم الشرير تجاه الكنيسة الأولى أنهم لن يؤخّروا جهداً في الضرر بالكنيسة الأخرى. وفي هذه الكنيسة أيضاً لم يوقّروا حتى يوم الرب الذي للعيد المقدّس (وقع في تلك السنة في يوم 20 برمودة سنة 339م)، لأنهم قبضوا على مَنْ في الكنيسة وسجنوهم في اليوم الذي نعيّد فيه لذكرى المناداة للمأسوين بالإطلاق من قيود الموت، الذي أكمله الرب بقيامته من الأموات، هذا بينما غريغوريوس وأتباعه وكانهم يحاربون ضد مخلصنا معتمدين في قوتهم على الوالي، وقلبوا يوم الفكك والحرية إلى بكاء وعويل لخدام المسيح.

وما كان أعظم سرور الوثنيين لهذا العمل لأنهم يبغضون هذا اليوم (عيد القيامة)، ولكن غريغوريوس إنما كان ينفذ أوامر يوسابيوس وأتباعه. وبأعمال

(202) *Epist. Encyc.*, 4.

(203) *Festal Index.*, N.P.N.F. IV, p. 503.

العنف هذه استولى الوالي على الكنائس وأعطاهم لغريغوريوس
وللأريوسيين مختلي العقل.][204)

وهكذا استخدم يوسابيوس عنصر السرية والمفاجأة والإرهاب ونجح!! ولكن إذ
يلحظ ذلك أثناسيوس الذكي يرد - في نفسه - على أسلوبهم هذا بثقته الكاملة في
الشعب، إذ هو صاحب النصيب الأعظم في هذه المعركة كلها.

[وبهذه الطريقة أرسلوا غريغوريوس إلى الإسكندرية وهم في حرص شديد
لئلا يصيبهم الخجل مرةً أخرى (كما في مؤامرة إرسال بستوس) إذا نحن
أسرعنا بالكتابة ضدّهم، لذلك استخدموا هذه المرة العنف والقوة ضدّي بصورة
غير عادية، حتى إذا ما تيسّر لهم الاستيلاء على الكنائس بسرعة يتخلّصون
من ريبة الشعب فيهم كونهم أريوسيين.

ولكنهم وفي ذلك أيضاً هم مخطئون! لأن ليس واحد من شعب الكنيسة
انضم إليهم إلا الهراطقة والمحرومون من الشركة بسبب إدانتهم بتهم مختلفة
والذين تظاهروا بالانضمام تحت إرغام وتهديد الوالي.

هذه هي مأساة يوسابيوس وأتباعه التي طالما خطّطوا لها منذ زمن بعيد، لقد
صمّموها ونجحوا في تنفيذها على أساس الاتهامات الكاذبة التي قدّموها
للإمبراطور ضدّي، ويا ليتهم اكتفوا بهذا وهدأوا، ولكنهم وبعد هذا كله يطلبون
نفسى!!][205)

أثناسيوس يعتكف ويكتب خطابه العام:

واضح من تتابع الحوادث كما يصفها القديس أثناسيوس أن غريغوريوس مع
فيلارجيوس الوالي بدأوا انتهاكاتهم للكنائس في أسبوع الآلام بصورة مركّزة،
وبدأوا بكنيسة “كيرينيوس” التي أحرقوا معموديتها ونهبوا ذخائرها ونجّسوا
هيكلها ومذابحها بواسطة اليهود والوثنيين، وكان ذلك في يوم الجمعة الكبيرة، ثم
اتجهوا لكنيسة “ثيوناس” التي كانت مقراً مناسباً للبابا أثناسيوس خصوصاً في أيام
الصوم واحتفالات الأعياد، وبدأوا بالقبض على الشعب في يوم العيد. ولكن

(204) *Epist. Encyc.*, 5.

(205) *Epist. Encyc.*, 6.

أثناسيوس نجا من هجومهم، لأنه كان قد أحسَّ بالخطة المرسومة لقتله التي بدأوا بتنفيذها بالفعل منذ قبل دخول غريغوريوس بأربعة أيام، ففي يوم 19 مارس غادر أثناسيوس كنيسة ثيوناس على أثر الأخبار السرية التي وردت إليه أن مطارديه سيهجمون على مقر سكنه ليلاً للقبض عليه بناءً على تعليمات الإمبراطور ويوسابيوس للوالي فيلارجيوس، وذلك قبل وصول غريغوريوس الكبادوكي الأسقف الدخيل حتى يتهيأ له الجو للاستيلاء على الكرسي الرسولي.

وقد أعادوا الكرة مرة أخرى بعد عيد القيامة على كنيسة ثيوناس نفسها لعلمهم أنه يقيم فيها بصفة اعتيادية في هذا الموسم. ولكنه كان قد غادرها أيضاً قبل هجومهم عليها.

ثم اعتكف أثناسيوس بضعة أيام بعد العيد (20 برمودة سنة 339م) وكتب رسالته العامة لجميع أساقفة العالم يصف فيها كل هذه الحوادث كما ذكرناها في مواضعها بالترتيب، وهو خطاب جامع يطلق فيه صيحة استغاثة يهز ضمير العالم المسيحي لما يتهدد الإيمان والكنائس في العالم وبالأخص كنيسة الإسكندرية، التي اعتبرها أثناسيوس بالنسبة له بمثابة زوجته الطاهرة العفيفة التي اقتناها بالأسقفية من عند الرب. معتبراً غريغوريوس الدخيل كمن اعتدى على امرأة ليست له وفضحها، مستعيراً - في ذلك التشبيه - بالواقعة الحقيقية التي جاءت في سفر القضاة بالعهد القديم.

والقارئ سيتعجب من حبه التشبيه ومن صدق الشعور ومن حرارة الغيرة التي كان قد ارتبط بها البابا أثناسيوس في علاقته السرية والإلهية بكنيسة الإسكندرية.

ثم يطلق أثناسيوس صيحته الإنجيلية في جميع أساقفة العالم باعتبارهم رؤساء أسباط الكنيسة، كمسؤولين مباشرة عمّا حدث لأخ لهم في امرأته العذراء العفيفة، كنيسة الإسكندرية، التي لا غش فيها، الأم المجاهدة حافظة الإيمان في المسكونة كلها! ...

وإليك أيها القارئ مقتطفات من هذا الخطاب الرائع:

[إلى شركائه في الخدمة في كل مكان، السادة المحبوبين، يرسل أثناسيوس تمنيات العافية في الرب.

إن ألامنا المريعة التي نعانيها قد صارت فوق الطاقة، ومن العسير أن نصفها لكم بما يناسبها من التعبير، ولكن لكي تدركوا بصورة واضحة طبيعة هذه الحوادث المريعة التي حدثت، رأيت أنه من الخير أن أذكركم بما يماثلها بما جاء في تاريخ الأسفار المقدسة:

لقد حدث لرجل لاوي أن أُسيء إليه في شخص زوجته، فلمَّا رأى الرجل عظم المصيبة التي تنجس بها - لأن امرأته كانت عبرانية (لا غش فيها) ومن سبط يهوذا - أفرغته الفضيحة التي اقترفت ضده، فما كان منه إلا أن قام بتقسيم جسد امرأته - كما يقص الكتاب المقدس في سفر القضاة - مرسلاً جزءاً لكل سبط في إسرائيل لكي يُعلم لدى الجميع أن إساءة مثل هذه لا يمكن أن تخصه وحده فقط، ولكنها تعم الجميع على السواء. فإن تعاطف الشعب معه فيما حلَّ به من آلام يقوموا ويثأروا له، وإن همو أهملوا النداء ولم يصنعوا، يتحمّلون اللعنة كونهم قد صاروا بالضرورة شركاء ومتهمين في ذات الجريمة!!

أمَّا الرسل الذين أرسلهم إلى كل مكان فقد أذاعوا الخبر كما حدث، وكل الذين رأوا وسمعوا الحادث قالوا إنه لم يحدث شيء قط مثل هذا منذ اليوم الذي خرج فيه إسرائيل من أرض مصر. وهكذا أخذت الغيرة كل سبط في إسرائيل وقاموا جميعاً معاً وكانهم قد اعتدوا عليهم وصاروا شركاء في الآلام، وجاءوا إلى المعتدين، وأقاموا حرباً أهلكوا فيها المتسببين في هذه الخطية وجعلوهم لعنة على كل فم.

على أن الشعب لمَّا اجتمع معاً لم يقيموا وزناً لرابطة الدم (لأن المعتدي والمعتدى عليه كانوا جميعاً من بني إسرائيل) ولكنهم وضعوا في اعتبارهم نوع الجريمة التي اقترفت.

وأنتم أيها الإخوة تعلمون التاريخ ودقائق الموضوع والظروف التي أوردتها الكتاب، لذلك أرى أن لا أقص عليكم أكثر من هذا لأنني إنما أكتب إلى أشخاص على علم بكل هذه الأمور، ولكنني مهتم بالأكثر أن أقدم لكم أيها الأتقياء ما يختص بأحوالنا التي هي أسوأ مما استشهدت به. وكل غايتي من تذكيركم بما حدث لنا في التاريخ قديماً هو أن تقارنوا ما حدث قديماً بما هو حادث لنا الآن،

ولكي تدركوا أن ما حدث أخيراً لنا يفوق ذلك الذي حدث قديماً في القسوة، فإن أدركتم هذا ينبغي بالتالي أن تمتثلوا من الغيظ بل من السخط، بما يفوق ما امتلأ به ذلك الشعب قديماً ضد هؤلاء المعتدين! ... لأن ما حدث لنا يفوق بالعقل كل ما حدث، ولأن مصيبة هذا اللاوي على أي حال صغيرة إذا قورنت بشناعة ما اقترف ضد الكنيسة الآن، لأنه لم يحدث مثل ذلك قط ولا سُمع به في كل العالم. لأن في أمر اللاوي لم يُصَب بسوء أكثر من امرأة واحدة ولم يتألم بالظلم أكثر من لاوي واحد، أمّا الآن فهي كنيسة بأكملها يُساء إليها، وكهنوتها يُهان، وما هو أشنع من الكل تُضطهد التقوى وتُطارد الاستقامة من الذين لا تقوى لهم ولا استقامة.

في أمر اللاوي تهيّجت الأسباب وامتلأت سخطاً من منظر قطعة من جثة وُضعت أمامهم لإمرأة انتُهكت، ولكن الآن أعضاء الكنيسة كلها ممزّقة بعضها عن بعض، وها نحن مرسلوها إليكم (في أشخاص الكهنة والأساقفة المرسلين) هنا وهناك، لكم ولغيركم، حاملين إليكم صورة الإهانات والإساءات التي حلّت بهم. عساكم تتحرّكون بالغيرة، أرجوكم، معتبرين أن هذه الإساءات إنما حدثت لكم كما لنا، وليس أقل، عسى كل واحد منكم يقدم معونة كمن يشعر في نفسه بنفس الألم، لئلاً بعد قليل تتلوّث الكنيسة في إيمانها، وقوانينها تُنتهك! لأن الكل في خطر إذا لم يتدارك الله الأمر بواسطةكم وبأيديكم يصلح ما فسد! ...

... أتوسّل إليكم لا تستهينوا بهذه الحوادث،

ولا تسمحوا أن تُداس كنيسة الإسكندرية العظيمة تحت أرجل الهرطقة!
[...](206)

وأمام هذه المصائب المرّة، وأثناسيوس يرى بعينه كيف استولى غريغوريوس الأريوسي على جميع كنائس الإسكندرية بقوة السلاح والجند كقوله هو هكذا: [وبأعمال العنف هذه استولى الوالي على الكنائس وأعطاهم لغريغوريوس وللأريوسيين مختلي العقل](207) وهكذا وبسقوط كنيسة الإسكندرية في أيدي

(206) *Epist. Encyc.*, 1,7.

(207) *Ibid*, 5.

الأريوسيين وهي معقل الأرثوذكسية الوحيد والأخير في كل الشرق آنئذ؛ دخلت الأرثوذكسية في مراحلها الخطيرة لأن كل إبيارشيات آسيا وفلسطين وشرق أوروبا كانت قد وقعت تحت قبضة الأريوسيين، أمّا الأساقفة الأرثوذكس فالأقوياء المجاهرون منهم كانوا في المنفى، والضعفاء كانوا مغلوبين على أمرهم لا يُسمع لهم صوت.

وهكذا التفت أثناسيوس فلم يجد أمامه إلا الاستغاثة بأباطرة وأساقفة الغرب، لأن الغرب كان لا يزال حتى هذه اللحظة بعيداً كل البعد عن الجدل الأريوسي، أو كما يقول جيبون المؤرّخ:

[كانت لغتهم الوطنية (اللاتينية والفرنسية والألمانية) جامدة لم تستطع أن تسعفهم بمصطلحات مناسبة تقابل المصطلحات اليونانية والكلمات الروحية العميقة التي كانت موضع تقديس من الإنجيل والكنيسة - بحيث تمكّنهم من جهة هذا الحوار أن يعبروا بلغتهم هذه عن أسرار الإيمان المسيحي ... لذلك وقد استقوا عقيدتهم من مصدر صحيح (مجمع نيقية) ومن ثم حافظوا في ثبات على المذهب الذي تقبلوه بسهولة، فلمّا اقترب وباء الأريوسية من حدودهم كان لديهم في ذلك الوقت ما يقيهم من شره وهو إيمانهم الشديد "بالأموؤوسيون" وحدة الجوهر مع الآب ...] (208)

وهكذا لم يجد أثناسيوس أمامه إلا الذهاب إلى روما خصوصاً وقد أرسل أسقفها يوليوس رسالة لأثناسيوس يدعوه لحضور المجمع الذي حضر له من جميع أساقفة العالم لفحص شكاوي يوسابيوس واتهاماته...

وإليك ما سجّله أثناسيوس من جهة ذهابه إلى روما في كتابه عن تاريخ الأريوسيين:

[وبعد عيد الفصح - وأثناسيوس قد بلغه أخبار هذه الأعمال في مبتدئها، أبحر إلى روما، عالماً مقدار جنون الأريوسيين، وكذلك من أجل المجمع الذي سبق أن تحدّد ميعاده (في صيف سنة 339م)، لأن يوليوس كتب رسائل بذلك

(208) جيبون: اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية، الجزء الأول، الفصل الحادي والعشرون: الأباطرة والجدل حول مذهب أريوس.

وإلى هنا نكون قد استكملنا تاريخ صراع أثناسيوس في الميدان الأول القسطنطينية / الإسكندرية.

ثانياً: ما جرى في روما، والنفي الثاني بسنيته الطويلة:

غادر أثناسيوس شاطئ الإسكندرية ميمماً شطر روما، ولم يكن يدري أنه هكذا ستطول غربته وبعده عن كنيسته المحبوبة، لأن في هذه المرّة طالت جدّاً غربته التي حسبت له بمثابة منفي إرادي مدة تسعين شهراً وثلاثة أيام!!

فبحسب التاريخ الدقيق المسمّى أسيفالوس (أي الذي بلا عنوان)، نعلم أن أثناسيوس رحل من الإسكندرية في يوم الاثنين 21 برمودة الموافق 16 أبريل سنة 339م، ولم يعد أثناسيوس إليها إلا في يوم 24 بابة الموافق 21 أكتوبر سنة 346م!! وهذه المدة الطويلة المحسوبة في تاريخه أنها مدة نفي تُقسّم حسب الأصول التاريخية إلى فترتين:

الفترة الأولى: ومدتها أربع سنوات (من سنة 339-343م) وتنتهي بمجمع سرديكا الذي استمر التحضير له وانعقاده وانصراف أساقفته مدة سنة أشهر.

الفترة الثانية: ثلاث سنوات وتنتهي بعودته إلى الإسكندرية في 21 أكتوبر سنة 346م.

أعمال أثناسيوس في الفترة الأولى من النفي الثاني:

وبعد عيد الفصح مباشرة وفي يوم الاثنين 16 أبريل غادر أثناسيوس الإسكندرية برفقة جماعة قليلة من الإكليروس (كهنة وأساقفة ورهبان)، ويضيف المؤرخ سقراط (210) اسم "أمونيوس باروتيس" (أي ذو الأذن الواحدة) (211) الراهب القديس الذي كان أصلاً من أديرة باخوم، وانتقل إلى برية نتريا تحت أبوة المعلم الكبير

(209) N.P.N.F., vol. IV, p. 503.

(210) Socrat., *op. cit.*, IV. 23.

(211) لَمَّا أَمْسَكَهُ بِالْقُوَّةِ لِيَرْسُمَهُ أَسْقَفًا، اسْتَأْذَنَ مِنْهُمْ قَلِيلاً وَدَخَلَ قَلَابِيْتَهُ وَقَطَعَ أُذُنَهُ الْيَمْنَى حَتَّى بَعْدَ التَّشَوُّهِ الْجَسَدِيِّ يَمْنَعُ نَفْسَهُ مِنْ اسْتِحْقَاقِ هَذِهِ الرَّتْبَةِ.

أمون، هذا كان أيضاً من الرفقة الذين رافقوا أثناسيوس في منفاه بروما، ومن أقوال هذا الراهب الناسك القديس أنه لم يعجبه شيء في روما إلاً كنيسة بطرس وبولس(212).

وهنا ينبغي أن نذكر أهمية هذه الرحلة التي دبرها الله للبابا أثناسيوس والرهبان الذين كانوا برفقته (أمونيوس وثيئوذوروس)(213) الذي كان معروفاً لدى السناتو) بالنسبة لروما والغرب عموماً، لأن منظر هؤلاء النساك وتقواهم ونسكهم وصلواتهم وعبادتهم التي لم ينقطعوا عن ممارستها في روما وكل المدن الكبرى في الغرب مثل أكويلا، وبادوا، وفيرونا، ولايبس، وكمبانيا، وتريف، وميلان(214)، بالإضافة إلى روما، كان لها أبلغ الأثر على الحياة الروحية عامة وعلى أفكار الشباب والشابات بصورة خاصة، لأنه معروف من تحقيقات القديس جيروم أن هذه الرحلة أثرت في كل الغرب ومهدت لأول مرة لقيام الرهبنة بصورتها المصرية الأصيلة وبطقسها الباخومي الذي بهر الفكر الغربي عموماً.

إذ يقول جيروم في رسالته المرقومة 127 ما مضمونه: “إن الرهبنة المصرية عُرفت لأول مرة في روما من زيارة أثناسيوس وبطرس خليفته”. أمّا تأثير القديس أنطونيوس فكان غير مباشر عن طريق كتابة سيرته بقلم القديس أثناسيوس الذي وضعه خصيصاً للأشخاص الذين تعلّقوا بالحياة الرهبانية هناك، وأرسلوا للبابا أثناسيوس بعد عودته إلى الإسكندرية يطلبون المزيد من حياة أنطونيوس الذي كان يقص لهم أخباره وهو في المنفى عندهم.

ومعروف أيضاً أن البابا أثناسيوس كان يمارس الخدمة في كنيسة روما وكل المدن الغربية الهامة مع أساقفتها، ومن هنا يلزم جداً التنبيه أن مميزات طقس الإفخارستيا بالليتورجيا القبطية في عصر أثناسيوس التقطته كنائس الغرب وتأثرت به روما إلى أقصى حد، بل واحتفظت روما بلامح ليتورجية أثناسيوس حتى اليوم، فيما يختص بموضوع “الإبيكليسيس Epiclesis”، أي “حلول الكلمة” على الخبز والخمر بدلاً من حلول الروح القدس الساري الآن.

(212) Socrat., *op. cit.*, IV., 23.

(213) Pallad., *Histo. Lausiaca*, *vita patr.* 1. 8.

(214) *Apol. Ad. Const.*, 3.

وبعد ثلاثة شهور من وصوله روما لحق به كثير من الأساقفة الأرثوذكس الذين كانوا قد رجعوا من منقاهم الأول سنة 337م. مثلما حدث لأثناسيوس، ولكن استطاع الأريوسيون بعد ذلك بسطان قسطنطيوس أن يعزلهم عن كراسيهم في مجمع أنطاكية مثلما حدث لأثناسيوس أيضاً، ومنهم بولس أسقف القسطنطينية واسكلباس أسقف غزة، ومارسيلوس أسقف أنقرة بإقليم غلاطية بآسيا الصغرى، ولوقيوس (لوسيوس) أسقف أدريونيل.

وبعد وصول البابا أثناسيوس ظهر في روما قس أريوسي مبعوثاً من غريغوريوس الكبادوكي الأسقف المغتصب للكرسي الرسولي الإسكندري، يُدعى كاريونس وهو مقطوع من الشركة على يد ألكسندروس البابا الـ 19. هذا اعترف أمام يوليوس أسقف روما مقراً بكل الاتهامات المتهم بها بستوس، ولمّا ناقشه يوليوس بخصوص أريوسية غريغوريوس أيضاً لم يستطع أن ينفي التهمة.

الحوادث التي جرت في الإسكندرية في غياب البابا أثناسيوس

الخطابات الفصحية(215):

تحديد الفصح لسنة 340م:

آخر خطاب فصحى كتبه البابا أثناسيوس في الإسكندرية كان لسنة 339م، لأنه بعد فصح هذه السنة أُلغى إلى روما. أمّا خطاب الفصح لسنة 340م فلم يكتبه البابا أثناسيوس، بل عوضاً عنه أرسل رسالة مختصرة إلى كهنة الإسكندرية حدّد فيها ميعاد الفصح الذي وقع في هذه السنة في 4 برمودة. وقد كلف القديس سيرابيون بالإعلان عن ميعاد الفصح، وسيرابيون هو أسقف مدينة تمويس أو تميّ (تمي الأمديد الآن)، وهو من تلاميذ القديس أنطونيوس أصلاً. وقد اتخذ أثناسيوس نائباً عنه في أثناء غيابه، فكان له بمثابة اليد اليمنى.

ولسوء حظ غريغوريوس الكبادوكي الأسقف الأريوسي المغتصب للكرسي أنه

تجرأً وأجهد نفسه ثم أعلن عن ميعاد الفصح في 27 برمهات، وحدد بدء الصوم بناءً على ذلك متقدماً أسبوعاً عن ميعاده. وصام بالفعل الأريوسيون قبل ميعاد الصوم بأسبوع كامل. أمّا الأرثوذكس فتركوهم على عماهم حتى إلى منتصف الصوم، ثم كشفوا لهم عن الخطأ، فأسقط الأريوسيون في فضيحة، واضطر غريغوريوس أن يصحح ميعاد الفصح في منتصف الصوم، فنقله إلى 4 برمودة. وبذلك صام الأريوسيون في هذه السنة أسبوعاً زائداً. وقد صغرت نفس غريغوريوس بسبب هذه العثرة، فلم يعد يتدخل في تحديد ميعاد الفصح بعد ذلك.

تحديد الفصح لسنة 341م:

لم يرسل البابا أثناسيوس خطاباً فصحياً لهذه السنة، وأغلب الظن أنه كلف سيرابيون أسقف تمويس بذلك.

تحديد الفصح لسنة 342م:

لم يرسل البابا أثناسيوس خطاباً فصحياً أيضاً، وأغلب الظن أنه كلف سيرابيون بذلك.

تحديد الفصح لسنة 343م:

تمت الموافقة في مجمع سرديكا وصدر قرار يجعل تحديد الفصح من اختصاص روما والإسكندرية، وذلك لمدة خمسين سنة قادمة. وفي هذه السنة كتب البابا أثناسيوس خطابه الفصحي العام كالمعتاد، وذكر فيه كل ما تم في مجع روما وسردিকা.

تحديد الفصح لسنة 344م:

كتب البابا أثناسيوس رسالة مختصرة من مدينة نيسا (أوناييس) بإقليم الصرب، أعلن فيها الفصح لكهنة مدينة الإسكندرية، ولكن لم يستطع أن يرسل خطابات لبقية الأقاليم.

تحديد الفصح لسنة 345م:

كتب البابا أثناسيوس رسالة مختصرة من أكويلا حيث أمضى الفصح هناك، وذلك لكهنة الإسكندرية معلناً ميعاد الفصح، ولكن لم يستطع أن يرسل لبقية الأقاليم.

تحديد الفصح لسنة 346م:

أرسل البابا أثناسيوس سطوراً قليلة لكهنة الإسكندرية معلناً عن ميعاد الفصح.

اضطهاد غريغوريوس الكبادوكي لعائلة أثناسيوس:

ويصف لنا القديس أثناسيوس نفسه هذه الحادثة هكذا:

[وغريغوريوس اضطهد عمه الأسقف (يتكلم عن نفسه) حتى إنه وبعد موتها لم يسمح بدفنها، وكان يمكن أن تُطرح بدون دفن، لولا أن الذين كانوا متولين حمل جسدها قاموا بالواجب، وهكذا أظهر حتى في مثل هذه الأمور سلوكه الرديء.] (216)

القديس أنطونيوس يشعر بمسئوليته تجاه الكنيسة في غيبة رئيسها:

ويورد القديس أثناسيوس ضمناً أثناء عرضه لأعمال العنف والجهالة التي قام بها غريغوريوس الأريوسي في الإسكندرية، حادثة تخص القديس أنطونيوس، وقد ذكرها في موضعين: الموضع الأول في تاريخ الأريوسية، والثاني في سيرة حياة أنبا أنطونيوس.

فيقول البابا أثناسيوس هكذا:

[وكان غريغوريوس يفتخر بالأكثر أنه صديق الحكام وليس الأساقفة والرهبان، وقد ظهر ذلك لما كتب إليه أبونا أنطونيوس من الجبل، ولكن إذ أن الإلهيات دائماً تكون مكروهة من الخطاة - اشماًز هذا من خطاب الرجل القديس، أما خطابات الإمبراطور أو القائد أو أي ضابط فإنه كان لا يتمالك نفسه من الفرح عندما تأتيه، ويكرم حاملها ويعطيهم الهدايا. ولكن لما أرسل إليه أنطونيوس فإنه جعل الدوق بالاكبيوس يبصق على الرسالة ويقذفها من يده، ولكن العدل الإلهي لم يتجاوز هذا؛ لأنه بينما الدوق على جواده في طريقه لأول محطة بعد الإسكندرية (وقد ذكرها أثناسيوس بالاسم Chaereau في كتابه عن حياة أنطونيوس، وهي على النيل على بعد مائة ميل من الإسكندرية شرقاً) وإذا بالحصان دار برأسه وعضه في فخذه وألقاه من على ظهره فمات بعد

ويضيف أنثاسيوس في وصف هذه الحادثة في كتابه "حياة أنطونيوس" هكذا: [وكان يوجد ضابط كبير (جنرال) يُدعى بالاكْيوس، هذا كان يضطهد المسيحيين بشدة بسبب ميله واعتباره الكثير للأريوسيين المكروهي الاسم. ولأن قساوة قلب هذا الرجل كانت كبيرة حتى أنه كان يضرب العذارى (الراهبات) ويجلد الرهبان، كتب إليه أنطونيوس هكذا: "إني أرى غضباً قادمًا عليك، فكفّ عن اضطهاد المسيحيين لئلاً يصادفك الغضب ويتملك عليك لأنه الآن قد صار قريباً منك".]

ولكن بالاكْيوس (بالاق) سخر من الرسالة وألقاها على الأرض وبصق عليها وأهان حاملها (من الرهبان طبعاً) قائلاً لهم: قولوا لأنطونيوس بما أنك تهتم بالرهبان، فلذلك سوف آتيك حالاً لأتعبك أنت أيضاً، ولم يمضِ خمسة أيام حتى وقع عليه غضب الله.] (218)

ومن هذا نستدل أن القديس أنطونيوس كان يشعر في غيبة القديس أنثاسيوس بمسئوليته الروحية بالنسبة للكنيسة والشعب والعذارى والرهبان، واستطاع أن يؤدي دوره في الحدود التي يحتم بها طقسه الرهباني، إذ بكل شجاعة روحية وغيره كنسية كتب ينبّه وينذر المخالفين لأوامر الله وتقليد الرسل، ولم يعتبر قط سلطانهم أو بطشهم، بل اعتبر فقط واجبه الإلهي الذي تحتمه الظروف والمسئولية الروحية، وذلك في غيبة أنثاسيوس رئيس الكنيسة والمسئول الأول عنها...

وبحسب التحقيق من واقع التاريخ الفصحي يلزم أن تكون رسالة أنطونيوس لبالاكيوس قد كُتبت في سنة 345م. لأنه ذكر فيها اسم الوالي نسطور. وهذا بدأت ولايته في سنة 344م. واستمرت حتى سنة 352م. ولكن لأن غريغوريوس الكبادوكي الأريوسي قد مات في 26 يونيو سنة 345م. والرسالة مذكور فيها اسم غريغوريوس أيضاً، لذلك تحدّد أن يكون تاريخ الرسالة بين سنة 344-345م.

(217) Ibid., 14.

(218) Vita. Ant., 86.

القديس باخوميوس يرسل وفداً للاستفسار عن حال الكنيسة في غيبة رئيسها:
نقدّم هنا وثيقة غاية في الدقة تكشف عن مدى اهتمام القديس باخوميوس بحال
الكنيسة وهمه وقلقه من جهة الاضطهاد الحاصل عليها، وصلاته ودعائه من أجل
عودة القديس أثناسيوس ونصرته. ويلاحظ في هذا التسجيل التاريخي أنه تمّ قبل
نياحة القديس باخوميوس مباشرة، ومعروف أن القديس باخوميوس تنيح في 14
بشنس (مايو) سنة 346م، أي قبل عودة البابا أثناسيوس بشهور قليلة:

[وفيما بعد رجع الأب زكاوس وتادرس من الإسكندرية في المركب الصغير،
وذلك أنه كان للكنونيون مركبان، الأكبر منهما كان برسم حمل الحصير
وبيعها في المدينة (الإسكندرية) (يُلاحظ هنا أن الحصير الذي يصنعه الرهبان
كان يصدر إلى الخارج، فكان يُحمل بالمراكب من أقصى الصعيد ليُباع لتجّار
الإسكندرية) ونقل ما يحتاجونه من الأمور الضرورية، والمركب الأصغر كان
برسم نقل الثياب لكسوتهم وغطائهم وما ضاهى ذلك. ولمّا سلّموا على الأب
وعلى جماعة الإخوة قال لهما الأب (باخوميوس): كيف سلامة الكنيسة؟
وذلك لأنه كان حزيناً لأجلها. لأن الأريوسية وزعيمهم غريغوريوس الكافر
(البطريك الدخيل) مثلهم كانوا وقتئذ قد وثبوا على الكنيسة عنوة
كالمصوص وأخذوها، وكان الأب يصلي من أجلها على الدوام، إذ كان في
قلبه وجعاً على شعب الله المظلوم ظلماً بيئاً، وقد غدّموا راعيهم الأب
أثناسيوس رأس الأساقفة الرجل المتوشح بالمسيح. فأجابوه قائلين: إن
الأمور بعد مضطربة وأحوال الأسقف والبيعة مختلة، فأجابهما قائلاً: ثقني بالله
الذي تسامح بأن تصير هذه الأشياء لامتحان المؤمنين أنه سينتقم.

ثم قصّ القديس باخوم عليهما الحزن الصائر له في كنيسة الملاطيين (دعاه
الأساقفة الملاطيون إلى كمين داخل كنيسة لهم وأهانوه وضربوه حتى قارب
الموت لولا أولاده الذين تكاثروا عليهم وحملوه وهرّبوا)، وكيف خلّصه الله من
القتل، وشكره الله على الدوام.

وقال: سبيلنا أن نصطبر على كل تجربة توافينا بحماسة نفس وشجاعة قلب،
لأن مفاجأة المحن أيّاً كانت لا تضرنا بل تنفعنا جدّاً إذا قبلناها بالشكر، لأنها
تكون لغسل الذنوب، فأما هؤلاء (الأريوسيون) الفاحصون عن أمورنا،

الناكثون العهد معنا، فهم كانوا آباءً وأخوة لنا، وعلى الرأي القديم كانوا مثلنا، فإن كان العدو قد زرع شره في أرضهم الآن، ونفخ في قلوب مركبهم ريحاً مكرهة، واستعملهم أداة لخبثه علينا ومضرة بنا، وابتعدوا عن الحق بعداً شاسعاً وعدلوا عن الناموس القويم وجنحوا عن الرأي المستقيم وخرجوا عن السور الحريز السليم، لكن عفو الله وغزير صلاحه يعمنا وإياهم متى طلبناه وعدنا إليه. وأمّا هذا الباباس أثناسيوس الفائق قدسه الذي قد حاربه العدو مدة زمان طويلة، فلسعيد هو حقاً ويقيناً ولن يستعلي عليه أعداؤه لأن الله حافظه وناصر إيمانه وسيتم فيه المكتوب القائل: “صوت يقوم عليك، ومعونة الرب توافي إليك، تقهر شائنيك وتسود على من يعاديك” [219]

ومن هذا السرد التاريخي المبدع يتكشف لنا كيف كان حال الكنيسة مضطرباً والأمور مختلة بسبب غيبة البابا أثناسيوس هذه المدة الطويلة. لأن هذا الكلام الذي قاله زكاوس وتادرس بخصوص الكنيسة أنها مضطربة ومختلة كان بعد مضي ست سنوات من مغادرة أثناسيوس لمصر.

أمّا بعثة باخوميوس هذه التي كانت بقيادة زكاوس وتادرس وهما أفضل رهبان أنبا باخوميوس وقتئذ، فكان لها قيمتها في الإسكندرية في وسط هذه المحن، لأنه يبدو أنها كانت بمثابة شهادة عن لسان باخوميوس وكافة الرهبان الباخوميين بخصوص الإيمان القويم وعدم الانحياز للميليتين أو الأريوسيين. وقد لمّح القديس باخوميوس عن قيمة كل من المحنة التي أصابته من الميليتين وهذه البعثة باعتبار أنها شهادة صادرة منه شخصياً. وذلك واضح من كلامه عندما استطرّد بعد الكلام السالف قائلاً:

[وبعد ذلك قال أبونا باخوميوس لتادرس: هوذا قد كمل اعتراف الشهادة التي قيل لي عنها (من قبل الرب) أنه قد بقي لك شهادة قليلة من قبل أن يفتقدك الرب. والآن على ما قد كان، فأنا أظن أن يوم افتقادي قد قرب. ومن بعد عيد الفصح المقدّس (وقع في هذه السنة في 4 برمودة) أطلق الله مرضاً في الإخوة

(219) سيرة باخوميوس مطبوعة، صفحة 137 و138. ويُلاحظ أن الناسخ يضيف من عنده جملة في آخر الكلام فيقول إنه: (كذلك صار، وعاد أثناسيوس الباباس بمجد ووقار). وهذه الجملة لم يقلها باخوميوس لأن باخوميوس مات قبل أن يعود أثناسيوس.

عامة، ومرضى في كل دير من الأديرة زهاء مائة أخ وأكثر، وكان الأب باخوميوس من جملتهم وساءت حالته... وأسلم روحه الطاهرة في الرابع عشر من بشنس سنة 358م (وصحتها سنة 346م) (220). (بعد عيد الفصح بأربعين يوماً أي ربما في عيد الصعود). وكان له من العمر سبعة وثمانون سنة وله منذ دخوله الرهينة 64 سنة. [221]

ملاحظة هامة:

لم يرد في الأخبار التي أوردها زكاوس وتادرس عن أمور البيعة في الإسكندرية أي إشارة عن موت غريغوريوس الكبادوكي الأسقف الدخيل الذي مات في 2 أبيب - 26 يونيو سنة 345م. مما يرجح أن موت غريغوريوس حدث بعد رحيلهم. وهذا يجعل تاريخ هذه الرحلة تتقدم سنة كاملة عن ميعادها، فتكون سنة 345م. وكذلك يلزم أن تكون نياحة باخوميوس قد تمت في هذه السنة أي في بشنس سنة 345م. لأنه تتيح بعد عودة زكاوس وتادرس من رحلة الإسكندرية مباشرة، وهذا هو الأرجح، ويكون باخوميوس بذلك قد تتيح قبل عودة أثناسيوس بسنة كاملة. ويشترك معي في هذا التعديل المؤرخ الألماني كروجر (222) إنما على إثباتات أخرى.



انتهى صيف سنة 339م (223)، ويوليوس أسقف روما والبابا أثناسيوس ينتظران عبثاً أي رد أو خبر من يوسابيوس وجماعة الأريوسيين بخصوص استجابتهم لحضور مجمع روما، الذي سبق وأن دعاهم إليه على يد رسولييه هلبينديوس وفيلوكسينوس، بل وقد أظهر هؤلاء الأريوسيون خيبتهم وتحديهم ليوليوس أسقف روما، عندما احتجزوا هذين الكاهنين الرومانيين حتى إلى يناير، كما يتضح من خطاب يوليوس نفسه، وذلك بقصد أن يفوتوا على يوليوس الميعاد (ديسمبر) الذي حدده لعقد المجمع، وبذلك تأجل ميعاد المجمع إلى خريف سنة 340م كما هو وارد في خطاب يوليوس أيضاً.

(220) Quasten, *Patrol.* III, p. 154.

(221) سيرة أنبا باخوميوس، مطبوع صفحة 138 و139.

(222) Kruger, *Theolog. Lizg.*, 1890. p. 600.

(223) يوليوس أرسل هلبينديوس وفيلوكسينوس في بداية الصيف (مايو).

وعاد مارتيريوس وحزقيوس في أوائل الربيع بخطاب من أساقفة الشرق وبه توقيعات القادة اليوسابين الذين اجتمعوا في أنطاكية في يناير سنة 340م. أمّا لهجة الخطاب فكانت تتم عن المشاكسة. فقد عَنفوا يوليوس بشدة على قبوله أنثاسيوس في الشركة ولاموه على لهجة خطابه التي بدت لهم على مستوى مَنْ يكتب باعتباره كأنه أكبر منهم، وأنه كتب لدعوة بعض الأساقفة بصفته الشخصية، وأنه حصر الدعوة في شخص يوسابيوس فقط.

ولشدة لهجة الخطاب وخروجه عن اللياقة احتفظ به يوليوس سرّاً مترجياً فوق ما يمكن أن يُرجى، لعل بعضاً منهم يحضر إلى روما وحينئذ يمكن أن يحفظ الخطاب نهائياً ولا يُعرض ولا يُقرأ لئلا يثير حفيظة الآخرين، ولكن عبثاً كان يوليوس يترجى في أشخاص تعاهدوا مع الحقد واتخذوا العنف والمراوغة أسلوباً للحياة!!

وقد اجتمع مجمع روما في خريف سنة 340م. وكلف يوليوس أسقف روما بكتابة خطاب ردّاً على الخطاب المشاكس الذي أرسله يوسابيوس وجماعته، فتولّى يوليوس كتابة الخطاب التاريخي الذي فنّد فيه كل ادعاءاتهم. وكما يقول أحد المؤرّخين إن يوليوس شرّح فيه خطاب يوسابيوس تشريحاً، إنما برزانه ووقار يثيران الإعجاب حقّاً، فبالرغم من الحدة الظاهرة فيه إلا أن روح المحبة لم تخونه قط ولا المنطق السليم!! بل يكاد الإنسان أن يقول إن طابع السياسة والرسميات فيه لم يؤثّر إطلاقاً في روح الاتضاع التي أمّلته ونمّفته.

وسوف نقدّم ترجمة كاملة لهذا الخطاب الذي يعتبر من أهم الوثائق التي كُتبت لنصرة أنثاسيوس وبقيت بحرفيتها وطلاوتها كما كُتبت. ويُلاحَظ أن يوليوس قبل أنثاسيوس، حال وصوله إلى روما، في الشركة معه، وانعكف البابا الإسكندري على ممارسة الخدمة والصلاة في الكنيسة، ولمّا انعقد المجمع صادق على قبول أنثاسيوس في الشركة.

مجمع روما خريف سنة 340م

وأخيراً، وبعد 18 شهراً من وصول أثناسيوس إلى روما، انعقد المجمع، وهذا علمناه من خطاب يوليوس إلى يوسابيوس وجماعته:

[وقد ظل أثناسيوس مقيماً هنا سنة وستة شهور مترقباً وصولكم ومن تختارونه للمجيء معكم. وبحضوره إلى هنا قد وضع كل إنسان موضع الخجل، لأنه لا يمكن أن يحضر بنفسه إلى هنا إلا لكونه واثقاً من قضيته! ولكنه أيضاً لم يأت من ذاته وإنما بدعوة منا في خطاب كما سبق وكتبت إليكم.] (224)

لأنه لما أعياي يوليوس من الانتظار بغير جدوى، قام بدعوة أساقفة كل إيطاليا إلى المجمع، فاجتمع أكثر من خمسين أسقفاً (225).

وطُرحَت قضية أثناسيوس أمام الأساقفة بكل الاتهامات، القديم منها والحديث، موضوع الكأس المكسور، وإسخيراس المُهان، والأسقف أرسانيوس المقتول كذباً وهو حيٌّ، واللجنة المريوطية لتقصّي الحقائق، المتحيزة، التي حققت ولفقت مع طرف واحد دون الآخر، واستخدمت السيوف المسلولة لإرهاب الشهود، وكذلك أعمال مجمع صور التهريجية وأحكامه الباطلة. ولم يجد المجلس أية صعوبة في فحص هذه الاتهامات بدقة قضائية تامة وتبرئة أثناسيوس من جميعها!

ثم عرض المجمع لعدم قانونية تعيين غريغوريوس الكبادوكي على كرسي الإسكندرية، واعتبروا هذا التعيين انتهاكاً لقانون مجمع نيقية ونقضاً لأحكامه. ثم برأ المجمع جميع الأساقفة الذين نفاهم الأريوسيون باعتبارهم أبرياءً من كافة التهم، وأعادهم إلى الشركة بكامل كرامتهم.

وإليك بعض التعليقات على مجمع روما بقلم أثناسيوس:

[فلما ذهبت إلى روما، وكتب يوليوس إلى يوسابيوس وأتباعه كما هو متَّبَع، وأرسل أيضاً اثنين من كهنته هلبيديوس وفيلوكسينوس. فهؤلاء (اليوسابيون)

(224) *Apolog. Contr. Ar.*, 29.

(225) *Ibid.*, I.

لَمَّا سَمِعُوا بِخَبَرِ وَصُولِي إِلَى رُومَا وَقَعُوا فِي حَيْرَةٍ وَارْتَبَاكَ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَتَوَقَّعُونَ ذَهَابِي إِلَى رُومَا، فَاسْتَعْفُوا رَافِضِينَ الْمَجِيءَ إِلَيَّ هَذَا الْمَجْمَعِ، وَأَعْطُوا أَعْذَاراً وَاهِيَةً لِامْتِنَاعِهِمْ؛ وَلَكِنَّهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ كَانُوا خَائِفِينَ لئَلَّا تَدُورَ الْأُمُورُ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا بِالضَّبْطِ مَا اعْتَرَفَ بِهِ أَوْرَسَاكِيُوسُ وَفَالَنْسُ (226).

وَبِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ، اجْتَمَعَ أَكْثَرُ مِنْ خَمْسِينَ أَسْقَفًا فِي رُومَا فِي الْكَنِيسَةِ الَّتِي تُدْعَى كَنِيسَةَ «الْكَاهِنِ فَيْتُو»، وَتَوَلَّوْا الدِّفَاعَ عَنِّي وَأَعْطَوْنِي التَّأْيِيدَ، تَأْيِيدَ الشَّرِكَةِ مَعَهُمْ وَتَأْيِيدَ الْمَحَبَّةِ.

وَمِنَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى أَفْصَحَ الْمَجْمَعُ عَنِ سَخَطِ بَالِغِ تَجَاهِ يُوْسَابِيُوسِ وَأَتْبَاعِهِ.

وَتَرَجَّيْتُ الْمَجْلِسَ يُولِيُوسَ لِكَيْ يَكْتُبَ خَطَابَاتٍ لِكُلِّ الَّذِينَ كَتَبُوا إِلَيْهِ لِتَكُونَ قَرَارَاتِ الْمَجْمَعِ مَعْرُوفَةً وَنَافِذَةً الْمَفْعُولِ - وَقَدْ كَتَبَ يُولِيُوسُ ذَلِكَ بِالْفِعْلِ بِنَاءً عَلَى تَوْصِيَّاتِ الْمَجْمَعِ وَأَرْسَلَ الْخَطَابَاتِ بِيَدِ الْكُونْتِ جَابِيَانُوسِ].

وَإِلَيْكَ أَيُّهَا الْقَارِئُ، نَصًّا لِخَطَابِ (227) يُولِيُوسِ أَسْقَفِ رُومَا الَّذِي كَتَبَهُ بِنَاءً عَلَى تَوْصِيَّاتِ مَجْمَعِ رُومَا:

[يُولِيُوسُ يَهْدِي التَّمَنِّيَّاتِ بِالْعَافِيَةِ فِي الرَّبِّ، إِلَى الْإِخْوَةِ الْأَعْزَاءِ الْمَحْبُوبِينَ دَانِيُوسَ، فَلَاسِيْلُوسَ، نَارْسِيْسُوسَ، يُوْسَابِيُوسَ، مَارِيْسَ، مَآكْدُونِيُوسَ، ثِيُوذُورُوسَ وَكُلِّ أَصْدِقَائِهِمُ الَّذِينَ سَبَقُوا وَكَتَبُوا إِلَيَّ مِنْ أَنْطَاكِيَةِ.

لَقَدْ قَرَأْتُ خَطَابَكُمْ الَّذِي بَعَثْتُمْ بِهِ إِلَيَّ مَعَ كَاهِنِي هَلْبِيذِيُوسِ وَفِيلُوكْسِيْنُوسِ، وَدُهْشْتُ لَمَّا وَجَدْتُ أَنَّهُ بَيْنَمَا كَتَبْتَ أَنَا إِلَيْكُمْ بِمَحَبَّةٍ وَإِعْزَازٍ صَادِقٍ، رَدَدْتُمْ أَنْتُمْ بِغَيْرِ لِيَاقَةٍ وَبِأَسْلُوبِ الْخِصَامِ، حَتَّى إِنْ كَبْرِيَاءَ وَعَجْرَفَةَ الْكَاتِبِ تُطَلُّ مِنْ الْخَطَابِ بَوْضُوحٍ. وَلَكِنْ مِثْلَ هَذِهِ الْمَشَاعِرِ لَا تَنْتَاسِبُ مَعَ الْإِيمَانِ الْمَسِيحِيِّ؛ لِأَنَّ مَا كُتِبَ بِأَسْلُوبِ الْمَحَبَّةِ يَنْبَغِي بِالْمِثْلِ أَنْ يُجَابَ عَلَيْهِ بِالْمَحَبَّةِ وَلَيْسَ بِالْخِصَامِ؟

(226) *Apol. Cont. Ar. 56.*

(227) لَقَدْ حَذَفْنَا بَعْضَ السُّطُورِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي يَعْمَدُ فِيهَا يُولِيُوسُ إِلَى التَّكْرَارِ كَمَا حَذَفْنَا فِقْرَةَ مِنَ الْخَطَابِ لَا تَخَصُ أَثْنَاسِيُوسَ.

ثم ألم يكن دليلاً لمحيتي أنني أرسلت كهنتي للمتألمين (أثناسيوس) تعاطفاً معهم، وللذين كتبوا إليّ (يوسابيوس وجماعته) أدعوهم للمجيء إلى هنا؟ حتى يتسنى طرح المواضيع المعقّفة لأناخذ حلها سريعاً، وتُرتّب كل الأمور بلياقة، وحينئذ لا يتعرّض إخوة لنا لمزيد من الألم، وتُعتقوا أنتم من الشكايات في حقكم؟

ولكن يبدو أن هذا شيء في طبيعكم مما دفعنا أن نستخلص حتى من محاولتكم للظهور بالإطراء علينا - شعوراً خفياً بالتهكم والاستخفاف لا تزال ترزح تحته نفوسكم، كما أفصحت عنه عباراتكم.

وحتى الكاهنان اللذان أرسلناهما إليكم، بينما كان ينبغي أن يعودا مسرورين، عادا مغمومين مما لقياه من معاملتكم.

وأنا نفسي لمّا قرأت خطابكم تفكّرت طويلاً ثم احتفظت به لنفسي، ظناً مني أنه بعد هذا كله ربما يحضر بعض منكم، وحينئذ لا تعود هناك ضرورة أن يظهر هذا الخطاب لئلاً إذا عُرض على المكشوف فإنه حتماً سيتسبب في تكدير الكثير من إخوتنا.

ولكن لمّا لم يحضر أحدٌ أصبح من المحتم أن يُعلن الخطاب، وأصارحكم أن الكل اندهشوا ولم يستطيعوا أن يصدّقوا قط أنكم أنتم الذين كتبتم هذا الخطاب، لأنه يعبر عن خصام وليس عن محبة.

والآن إن كان كاتب هذا الخطاب أراد أن يستعرض قدراته في اللغة، فهذه المهارات تتناسب بالتأكيد مع مواضيع أخرى. أمّا الأمور الكنسية فهي ليست ميداناً للبلاغة، وإنما تحتاج بالحقيقة إلى مراعاة القوانين الرسولية والحذر منتهى الحذر أن لا يحدث منها عثرة لأحد من الصغار في الكنيسة. لأنه بحسب الكلمة التي تتمسك بها الكنيسة: «خيرٌ للرجل أن يُعلّق في عنقه حجر رَحَى ويُلقى في البحر من أن يُعثر أحد هؤلاء الصغار».

ولكن إن كان مثل هذا الخطاب قد كُتب بسبب أن بعض الأشخاص منكم - ولا أقول كلكم - قد تكذّر بسبب صغر نفسه تجاه أحد آخر، فكان من الأفضل أن لا يستسلم بأي حال من الأحوال لمثل هذه المشاعر التي تنم عن الغضب،

وبالأقل لا يجعل الشمس تغرب على غيظه، وبالتأكيد لا يعطيها مكاناً يستعرضها فيه كتابة!!؟

ولكن ما الذي حدث هكذا ليكون سبباً في الغضب؟ أو بأي كيفية يمكن أن يكون خطابي إليكم قد تسبب في هذا؟ ألاني دعوتكم لتحضروا مجعاً؟ وأيضاً وعند هذا كان ينبغي أن تتقبلوا الدعوة بسرور! فالذين لهم ثقة بأعمالهم - أو كما يسمونها - قراراتهم، لا يلزمهم أن يغضبوا إن هم طُلب إليهم أن تُفحص قراراتهم هذه عند الآخرين، بل بالحري تكون لديهم الشجاعة على هذا، لأنهم يرون أن قراراتهم إنما صاغوها بالعدل، ولا يمكن أن يؤول فحصها إلى العكس!

وغير خافٍ عليكم أن الأساقفة الذين اجتمعوا في المجمع الكبير بنيقية، اتفقوا - ليس بدون مشيئة الله - أن قرارات أي مجمع ينبغي أن تُفحص أولاً عند اجتماع أي مجمع آخر، وذلك لغاية هي أن تكون الأحكام التي عمل بها أمام أعينهم باستمرار، حتى عندما تُعرض أية قضية لاحقة يكون فحصها بمنتهى الحذر، ويصبح الطرفان المختصان بها مقتنعين أن الحكم الذي يتلقيانه إنما يكون صادراً عن عدالة وليس عن عداوة يحملها القضاة لهم. فالآن إن كنتم غير راغبين أن تُجرى الأمور هكذا في قضيتكم، مع أنها أمور ثابتة منذ القدم وروعية وامتدحت في مجمع نيقية الكبير، فرفضكم هذا غير لائق، لأنه من غير المعقول أن عادة مرعية في الكنيسة وتثبتت في مجامع، يمكن لأفراد قلائل أن يلغوها أو يتجاهلوها.

ثم هناك سبب آخر يقطع الفرصة على إمكانية الغضب في هذا الأمر. فالأشخاص الذين أرسلتموهم ومعهم الخطابات، أقصد مكاربيوس القس ومرتيريوس وحزقيوس الشماسين، عندما وصلوا هنا ووجدوا أنهم غير قادرين على مواجهة حجج الكهنة الذين أرسلهم أثناسيوس، بل ولأنهم ارتبكوا وانكشفوا من كل جانب، ترجوني هم أنفسهم أن أدعو إلى مجمع يضم الجميع معاً، وأن أكتب إلى أثناسيوس أسقف الإسكندرية وإلى يوسابيوس وجماعته حتى تُجرى محاكمة عادلة في حضور كلا الطرفين، حتى يتسنى لهم أيضاً أن يبرهنوا على كل التهم التي أُقيمت ضد أثناسيوس.

لأن مرتيريوس وحزقيوس ناقضناهما نحن علناً، وواجههما كهنة أثناسيوس بثقة وثبات عظيم، وإن كنا نريد أن نقول الحق فمرتيريوس وحزقيوس أصابهما الفشل والخذلان الكامل، وهذا مما ساقهما إلى الرغبة في عقد مجمع. ولكن حتى ولو فرضنا أنهما لم يوافقا على عقد مجمع، وكنت أنا وحدي الشخص الذي أقترحه - معارضاً في ذلك الذين كتبوا إليّ - ولكن فقط من أجل إختوتنا الذين يشتكون من ظلم وقع عليهم، فهنا أيضاً وفي هذه الحالة يكون اقتراحي معقولاً وعادلاً، وموافقاً للكنيسة وأيضاً حسب مسرّة الله!

ولكن وإذ طلب مني الأشخاص (مرتيروس وحزقيوس) اللذين وثقتم أنتم فيهما، وأرسلتموهما (من طرف يوسابيوس وأتباعه)، لكي أدعو الإخوة معاً (في مجمع)، أصبح هذا في الواقع مناقضاً للهجوم الذي أبديتهموه عندما دعوتكم، في حين أنه كان ينبغي أن تُظهروا كل الاستعداد للحضور.

وكل هذه الاعتبارات توضّح أن إظهار هذا الغضب من جهة الأشخاص الذين أرادوا أن يعلنوا استيائهم هو نوع من النزق، أمّا رفض الآخرين الذين امتنعوا عن حضور المجمع، فهو غير مقبول بل ويثير الشكوك بحسب ظواهره.

وإن كان - كما كتبتم - أن كل مجمع له قوته التي لا تُنقض، وأن أي شخص صدر ضده حكم بسبب أمر ما يصير مرفوضاً، خصوصاً أن قضيته قد فُحصت بواسطة آخرين، فالآن افحصوا أيها الأحبة الأعزاء مَنْ هو الذي يهين قوة المجمع؟ وَمَنْ هم الذين استهانوا بأحكام القضاة السابقين؟

وإن كان ليس لنا الآن أن نسأل ونفتش فيما يختص بحالة كل واحد، لئلاً أبدو كمَنْ يضيّق الخناق على طرف معيّن، ولكنني أكتفي بهذه الحالة الأخيرة التي حدثت (قبول الأريوسيين في الشركة وتعيين غريغوريوس بدل أثناسيوس) التي كل مَنْ يسمعها يقشعر، فهي تكفي كبرهان يدل على غيرها مما لا أريد أن أخوض فيه.

فالأريوسيون الذين بسبب كفرهم وقعت عليهم أحكام الحرمان من الشركة، بواسطة ألكسندروس المطوّب الذكر، الأسقف السابق للإسكندرية؛ هؤلاء لم

ثُمَّع شركتهم فقط من الإخوة (الأساقفة) في كل مكان وحسب، ولكن أوقع عليهم الحرمان كل هيئة المجمع الكبير الذي اجتمع في نيقية. لأن الذنب الذي اقترفوه لم يكن ذنباً عادياً، ولا هم أخطأوا في حق إنسان، بل ضد ربنا يسوع المسيح نفسه ابن الله الحي. ولكن بالرغم من هذا، فإن هؤلاء الأشخاص الذين صادرهم كل العالم وصاروا وصمة عار في كل كنيسة، يُقال الآن أنهم قبلوهم في الشركة ثانية؟ هذا أمرٌ ما أظنكم تطيقون سماعه بغير سخط (المؤرخ: هيهات يا أسقف روما الطيب! فهم أريوسيون دماً ولحماً)! فمن من الطرفين إذن الذي يهين قوة المجمع؟ أليسوا أولئك الذين ألغوا أصوات الثلاثمائة والثمانية عشر (318 عضواً في مجمع نيقية) وقدموا الكفر على التقوى؟

إن هرطقة أريوس المجنون قد أُدينَت وحُكِمَ عليها ورُفضت من كل هيئة الأساقفة في كل مكان، أمّا الأسقفان أثناسيوس ومارسيلوس فلا يزال لهما أنصار كثيرون يدعمونهما قولاً وكتابة!! ... وفيما يختص بأثناسيوس، ففي “صور” لم يثبت عليه شيء قط؛ وفي “مريوط” حيث قيل إن التقارير كُتبت هناك ضدّه، لم يكن هو حاضراً، وأنتم تعلمون أيها الأحبة الأعزاء أن الإجراءات التي تتم من طرف واحد ليس لها أي وزن أو اعتبار (في القضاء) بل تحمل في ذاتها صورة الشك ضدّها!!

وعلى أي حال والأمور كما هي، فلكي نكون مدقّقين وغير متحيزين لصفّكم ولا للطرف الآخر، كتبنا ندعو هذا وذلك حتى تُفحص الأمور كلها في مجمع، حتى لا يُدان البريء ولا يُبرأ المُدان. فنحن إذن لسنا الطرف الذي يستهين بالمجمع بل هم الذين فجأة وبلا تعقّل، قبلوا الأريوسيين الذين أُدينوا إدانة جماعية. وهذا كان تحدياً لقرارات القضاة. وإن كان الجزء الأعظم من هؤلاء القضاة قد رحلوا وصاروا مع المسيح إلّا أن بعضهم لا يزال يعيش في حياة التجارب ساخطين على الذين استهانوا بأحكامهم.

كما أن الأمور التي حدثت بعد ذلك في الإسكندرية أخبرنا بها رجل يُدعى “كاربوتس”، كان قد قُطع من الشركة بواسطة ألكسندر بسبب الأريوسية، أرسله غريغوريوس مع آخرين محرومين أيضاً من الشركة بسبب نفس الهرطقة، على أني علمت أيضاً بالموضوع من الكاهن مكاربيوس والشماسين

مرتيريوس وحزقيوس. هؤلاء - وقبل أن يحضر كهنة أثناسيوس - استحثوني أن أرسل خطابات لوحد يُدعى بستوس في الإسكندرية، مع أنه في نفس الوقت كان الأسقف أثناسيوس هناك. فلما حضر كهنة أثناسيوس الأسقف، أخبروني أن بستوس أريوسي وأنه مقطوع من الشركة بواسطة الأسقف ألكسندروس ومن مجمع نيقية أيضاً، وأنه رُسم بعد ذلك بواسطة واحد يُدعى سكوندوس، كان المجمع الكبير قد قطعه من الشركة لكونه أريوسياً أيضاً، هذه الحقيقة لم يستطع مرتيريوس وزملاؤه أن يناقضوها، ولا استطاعوا أن ينكروا أن بستوس أخذ رسامته من سكوندوس.

الآن وبعد هذا، انظروا مَنْ يكون هو الملام بالعدل، هل أنا الذي لم يستطيعوا أن يحملوني على الكتابة لبستوس الأريوسي، أم هؤلاء الذين قَدّموا لي نصيحة لكي أهين المجمع الكبير فأخاطب الكفرة وكأنهم أتقياء؟

ثم وأكثر من هذا، لَمَّا سمع مكاريوس القس الذي أرسله يوسابيوس إلى هنا مع مرتيريوس والباقيين بالمقاومة التي أبدتها كهنة أثناسيوس، انصرف ليلاً بالرغم من مرضه، مع أننا كنا نتوقّع ظهوره (في الصباح) مع مرتيريوس وحزقيوس مما جعلنا نعتقد أن رحيله كان بسبب الخجل الذي أصابه بسبب افتضاح أمر بستوس. لأنه مستحيل أن تُقبل الرسامة التي أجراها سكوندوس الأريوسي من وجهة نظر الكنيسة الجامعة، لأن هذا يُحسب امتهاناً للمجمع وللأساقفة الذين عقده. إن كانت القرارات التي صاغوها في حضرة الله باجتهاد بالغ وعناية، تُنحى هكذا جانباً كأنها بلا قيمة.

فإن كان - كما كتبتم - أن قرارات كل المجامع يتحتم أن تكون لها نفس القوة، طبقاً للسابقة التي حدثت في حالة نوفاتيان وبولس السموساطي، فبالأولى جداً أن أحكام الثلاثمائة لا يُعمل بخلافها!! وبقيناً أنه لا يجوز لأفراد قلائل أن يلغوا مجعاً عاماً! لأن الأريوسيين هراطقة، وقد صدرت ضدّهم الأحكام (كبولس السموساطي ونوفاتيان) هذا مثل ذلك. لذلك وبعد هذه التصرفات الجريئة (قبول الأريوسيين في الشركة) مَنْ هو الذي يكون قد أشعل نار الفرقة؟ لأنكم في خطابكم تلوموننا أننا أشعلنا نار الفرقة! هل نحن؟ الذين تعاطفنا بكل شعورنا مع آلام الإخوة وتصرفنا في كل شيء بحسب القانون، أم

أولئك الذين بروح الخصام والنزاع وبمخالفة القانون طرحوا جانباً أحكام الثلاثمائة؟ وامتحنوا المجمع من كل ناحية؟ لأن الأريوسيين لم يُقبلوا فقط في الشركة بل وأساقفة منهم أيضاً صار شغلهم الشاغل الانتقال من مكان لمكان (يقصد هنا يوسابيوس الذي انتقل من أسقفية بريتوس إلى نيقوميديا ثم إلى القسطنطينية).

فالآن إن كنتم حقاً تؤمنون أن كل الأساقفة لهم نفس السلطان بالتساوي، وأنكم لا تعتبرونهم بمقتضى عظم مدنهم - كما تؤكّدون - فكان ينبغي أن الذي استؤمن على مدينة صغيرة أن يبقى في المكان الذي استؤدع إليه، وليس بازدياد للأمانة ينتقل إلى مكان آخر لم يوضع قط تحت سلطانه، محتقراً ما أعطاه له الله وناظراً بالأكثر إلى الاستحسان (المجد) الباطل الذي للناس.

كان ينبغي إذن أيها الأحباء الأعزاء أن تحضروا ولا تتمنّعوا حتى نصل إلى نهاية للموضوع، لأن هذا هو ما يتطلّبه التعقّل. ولكن ربما كان المانع من مجيئكم هو الميعاد الذي كان قد تحدّد لعقد المجمع، لأنكم في خطابكم تشكون أن المدة التي تبقيت بعد تحديد الميعاد قصيرة جداً؟(228)

ولكن هذا يا أحبّاء مجرد اعتذار لأن اليوم المحدد لو كان اقتطع شيئاً من فترة الرحلة لكانت الفترة المتبقية تعتبر فعلاً قصيرة. ولكن لأنه كان هناك نية لعدم المجيء ظهرت بحجز حتى كهنتي إلى شهر يناير، من هنا أصبح الأمر مجرد اعتذار وذلك بسبب عدم الوثوق من قضيتهم ذاتها، وإلاً - كما سبق وقلت - لكانوا أسرعوا في المجيء، غير مهتمين بطول الرحلة أو بقصرها، إن كانوا واثقين من عدالة ومعقولية قضيتهم.

ثم ربما كان أيضاً المانع من مجيئكم هو الظروف، لأنكم أيضاً تعلنون ذلك في خطابكم أنه ينبغي علينا أن نضع في الاعتبار حالة الشرق (بداية حرب الفرس)، فكان الواجب ألا نستحثكم هكذا للحضور! ولكن إن كنتم - كما تقولون - لم تحضروا بسبب هذه الظروف، ألم يكن من الواجب عليكم أنتم أن تضعوا هذه الظروف في اعتباركم مسبقاً وأن لا تصنعوا

(228) من بداية أول الصيف (مايو) حتى بداية الشتاء (ديسمبر).

هذا الانقسام وهذه الأحزان والويلات في الكنائس؟

ولكن، وبما أن الأمر قد وقع، فالأشخاص الذين تسببوا في هذه الأمور ليس لهم أن يلوموا الظروف، بل الملامة تقع عليهم من جهة تصميمهم على رفض حضور المجمع!

وأنا متعجب كيف استطعتم أن تكتبوا هذه الفقرة من خطابكم التي تقولون فيها: “إن ما كتبته كتبته بمفردي، وكتبته ليس لجميعكم وإنما ليوسابيوس وجماعته فقط؟” إن هذه الشكوى تكشف عن أن الأمر هو استعداد لالتقاط أخطاء أكثر منه اعتباراً للحق. فأنا لم أتلقَ خطابات ضد أثناسيوس إلا من مرتيريوس وحزقيوس وزملائهما، فكان عليّ بحكم الضرورة أن أكتب إلى الذين اشتكوا ضد أثناسيوس. وبناءً عليه، فإمّا كان على يوسابيوس وزملائه أن لا يكتبوا إليّ وحدهم من دونكم جميعاً؛ وإمّا أصبح عليكم أنتم الذين لم أكتب إليكم أن لا تغضبوا إن كنت كتبت فقط إلى الذين كتبوا إليّ.

فإذا كنتم ترون أنه كان من الواجب أن أوجه خطابي إليكم جميعاً، كان الواجب عليكم أنتم قبلاً أن تكتبوا معهم: فالآن بحسب العقل كتبت إلى الذين كتبوا إليّ يخبرونني بالأمور.

وإن كنتم تكذّرتم أيضاً بسبب أنني بمفردي كتبت لهم - (أي أن أسقف روما كتب يدعو بصفته الشخصية) - فمن المناسب بالأولى أن تغضبوا لأنهم كتبوا بمفردهم إليّ!

ولكن في هذا الأمر أيضاً يا أحماء، يوجد سبب حسن وليس بدون تعقل تمّ هذا، غير أنه يلزم أن تعلموا أنه بالرغم من أنني أنا الذي كتبت، إلا أن الآراء التي عرضتها لم تكن لي وحدي بل آراء أساقفة كل إيطاليا وكل النواحي هنا. وفي الواقع أنا الذي لم أجعلهم يكتبون جميعاً، لئلا يرى الآخرون أن المزيد من القوة هي في العدد.

وعلى أي حال فقد اجتمع جميع الأساقفة في اليوم المحدد واتفقوا على هذه الآراء التي كتبتها بالتالي إليكم لأخبركم بها؛ وهكذا أيها الأحماء الأعزاء، فبالرغم من أنني كتبت بمفردي إلا أنه يلزم أن تتأكدوا أن هذا هو رأي الكل،

وأي اعتذارات أكثر من هذا تصبح بلا أي معنى بل وضد العدل وتثير الشك الذي يزعجه بعضكم بسلوكه.

والآن وإن كان ما قلناه يكفي للتدليل على أننا لم نقبل أخوينا أثناسيوس ومرسيلوس، لا باستعجال ولا كأنه بغير وجه حق، غير أننا نجد من اللائق أن نعرض الأمر أمامكم باختصار:

كان يوسابيوس وأتباعه قد كتبوا في السابق ضد أثناسيوس وجماعته كما كتبتم أنتم الآن بعد ذلك، ولكن عدداً كبيراً من أساقفة مصر (مائة أسقف) والأقاليم الأخرى كتبوا لصالحه.

أمّا من جهة ما كتبتموه أنتم من خطابات ضد أثناسيوس، فهو أولاً يتعارض بعضه مع بعض، وثانياً إن ما كتبتموه في البداية لا يتفق مع ما كتبتموه أخيراً، بل وفي كثير من النقاط نجد أن الكتابات الأخيرة ترد على الكتابات الأولى، والكتابات الأولى توقع الكتابات الأخيرة في الاتهام! فهنا تعارض حادث في الخطابات ولا يوجد فيها أي إثبات يبرهن على صدق الوقائع المذكورة. لذلك وبالتالي إن كنتم تريدون أن نصدّق ما كتبتموه ضد أثناسيوس، فهذا إنما يتفق مع حقنا أن لا نرفض تصديق ما كتبه الآخرون لصالح أثناسيوس أيضاً! وبالأخص إذا أخذنا في الاعتبار أنكم تكتبون عن الأمور من بعيد، وأمّا هم فيكتبون من نفس الموقع، وأنهم عارفون بأثناسيوس وكل الحوادث الحادثة عندهم ومختبرون لسلوك هذا الإنسان يؤكّدون بإيجابية أنه كان فريسة للادعاءات والأكاذيب على طول المدى.

فمثلاً قيل في أول الأمر أن أسقفاً يدعى أرسانيوس قد أنهى أثناسيوس على حياته. ولكننا علمنا أخيراً أنه حيٌّ، وليس هذا فقط، بل وإنه على حُسن علاقة وصداقة مع أثناسيوس!

كذلك يؤكّد أثناسيوس أيضاً أن التقارير التي كُتبت في مريوط كانت من طرف واحد فقط، لأنه لا الكاهن مكاربيوس كان موجوداً، وهو الطرف المتهم، ولا أسقفه نفسه أي أثناسيوس، هذا علمناه ليس من فم أثناسيوس نفسه فقط بل ومن التقارير التي حملها إلينا مرتيريوس وحزقيوس، إذ لمّا قرأناها وجدنا أن

اسخيراس صاحب الاتهام كان حاضراً هناك، أمّا مكاربيوس وأثناسيوس فلم يكونا حاضرين، وحتى لمّا أراد كهنة أثناسيوس أن يرافقوهم لم يُسمح لهم! فالآن أيها الأعباء إذا كان التحقيق أريد له أن يسير بأمانة، كان يستلزم أن لا يكون صاحب الاتهام حاضراً وحده، ولكن كان يستدعي حتماً وبالضرورة أن يكون المتهم حاضراً أيضاً، خصوصاً وأن كلا الطرفين مكاربيوس وإسخيراس كانا في “صور” معاً قبل التحقيق، فكان يلزم أن لا يذهب صاحب الاتهام وحده إلى المريوطيين بل ومعه المتهم أيضاً، حتى إمّا تثبت التهمة عليه شخصياً وهو موجود، وإلاّ في حالة عدم ثبوت التهمة عليه يكون له الحق في إثبات بطلان الاتهام!

فالآن وإذ لم يكن سير الأمور كذلك، بل ذهب صاحب الاتهام وحده هناك، يرافقه جماعة طعن أثناسيوس في لياقتهم، أصبحت الإجراءات بحسب الشكل متلبّسة بالشك! ...

هذا وقد اشتكى أثناسيوس من جهة الأشخاص الذين أختيروا للذهاب إلى المريوطيين أنهم ذهبوا ضد رغبته، لأن ثيئوجونيوس وماريس وثيئوذوروس وأورسაკيوس وفالنس ومكدونيوس الذين أرسلوا، هم أصحاب سلوك مشكوك فيه، وهذا أوضحه ليس بتأكيدات من عنده فقط ولكن من خطاب ألكسندر الذي كان أسقفاً على تسالونيكي، الذي أرسل خطاباً إلى ديونيسيوس الكونت الذي تعيّن لرئاسة المجمع، والذي فيه أوضح بكل بيان أن هناك مؤامرة تُدبر على قدم وساق ضد أثناسيوس.

وقد قدّم لنا أثناسيوس أيضاً وثيقة أصيلة، كلها بخط يد صاحب الاتهام إسخيراس نفسه، التي فيها يستشهد الله العظيم على نفسه أنه ليس هناك أي كأس كُسر ولا مائدة قُلبت، ولكن الحقيقة أن بعض الأشخاص حرّضوه ليخترع هذه الاتهامات. والأكثر من ذلك أنه عندما وصل كهنة المريوطيين، هؤلاء أكّدوا بالفعل أن إسخيراس لم يكن كاهناً في الكنيسة الجامعة، وأن مكاربيوس الكاهن لم يقترف مثل هذه الإساءة التي اتهموه بها. وكذلك فإن الكهنة والشمامسة الذين حضروا إلينا شهدوا بتحقيق كامل في صالح أثناسيوس ومؤكّدين بإصرار أن شيئاً من كل هذه الأمور التي أقاموها ضد أثناسيوس لم

يكن صحيحاً أو صادقاً، ولكنه كان فريسة المؤامرات.

أمّا بخصوص موضوع رسامة أثناسيوس، فكل أساقفة مصر وليبيا كتبوا خطاباً (إلى الأساقفة في جميع أنحاء العالم) محتجين على هذا الادّعاء موضّحين أن رسامة أثناسيوس كانت قانونية وبمقتضى الأصول الكنسية الدقيقة، وأن كل ادعاءاتكم ضدّه كانت باطلة، فلا قتل اقترّف ولا أيّ كأس كُسر، بل كل هذا محض افتراء. وقد أوضح لنا أثناسيوس من التحقيقات التي تمّت من طرف واحد، وكُتبت في مريوط، أن أحد الموعوظين بسؤاله قال إنه كان موجوداً مع إسخيراس أثناء اقتحام مكاريوس الذي أرسله أثناسيوس للمكان! وآخرون بسؤالهم قال أحدهم إن إسخيراس كان موجوداً في غرفة صغيرة، والآخر قال إنه كان راقداً خلف الباب إذ كان مريضاً في هذا الوقت، أي عند مجيء مكاريوس هناك.

فمن هذه المحاضر المتعلّقة به تسوقنا مجريات الحوادث لهذا السؤال: كيف يتسنّى لرجل مريض راقد خلف الباب أن يقوم ويقود الخدمة والتقدمة؟ ثم كيف يمكن أن تكون هناك صعيدة تُقدّم في وجود موعوظين؟ لأنه إذا كان هناك موعوظون حاضرون، فهذا يعني أنه لم يكن وقت تقدمة صعيدة.

هذه التوضيحات أوضحها لنا الأسقف أثناسيوس كما سبق وقلت، الذي أوضح لنا من هذه التقارير أيضاً التأكيدات بأن إسخيراس لم يكن كاهناً في الكنيسة الجامعة إطلاقاً، ولم يظهر قط ككاهن وسط اجتماعات الكنيسة. لأن إسخيراس هذا لم يأت ذكر اسمه بين قسوس ميليتيوس المعزولين، حتى بين الكشوف التي تسجّلت بأسماء الميليتيين المنشقين الذين سمح لهم ألكسندر بالعودة بناء على صفح المجمع الكبير عنهم. وهذا بحد ذاته يعتبر أقوى حجة على كون إسخيراس ليس كاهناً حتى بين الميليتيين وإلا كان ذكر اسمه معهم.

وبجوار هذا قد أوضح أثناسيوس أن إسخيراس اتخذ الكذب وسيلة له في نواحٍ أخرى، فقد ادّعى أيضاً أن بعض الكتب أُحرقَت عندما اقتحم مكاريوس المكان - كما يقولون - ولكنه أُفحم بواسطة نفس الشهود الذين استحضرهم هو ليشهدوا له، الذين أثبتوا عليه الكذب.

والآن لمّا تكشّفت لنا هذه الأمور وظهر شهود كثيرون في صالحه، كما أثبت هو براءته أكثر فأكثر، فما الذي كان ينبغي علينا أن نعمله؟ وما الذي كان يتطلّبهُ منا قانون الكنيسة إلاّ أن نبرّئه وبالأكثر نقبله ونعامله كأستف كما عملنا؟

وأكثر من هذا، وبعد هذا كله، ها هو لا يزال مقيماً هنا سنة وستة أشهر مترقباً وصولكم وكل من تختارونه للمجيء، وبحضوره هذا يكون قد وضع كل واحد موضع الخجل لأنه كان لا يمكن أن يحضر إذا لم يكن واثقاً من قضيته، على أنه لم يأت من نفسه بل بدعوة منا في خطاب، كما كتبنا إليكم، ثم بعد ذلك كله لا زلتم تتذمّرون أننا تعدينا القوانين.

والآن انظروا من يكون منا الذي تعدّى القوانين؟ هل نحن الذين قبلنا هذا الإنسان بناءً على برهان براءته الواضح، أم أولئك الذين وهم في أنطاكية على بعد 36 محطاً يعيّنون رجلاً غريباً ليكون أسقفاً ويرسلونه إلى الإسكندرية بقوة عسكرية، الأمر الذي لم يحدث حتى عندما أرادوا أن ينفوا أثناسيوس إلى بلاد الغال، وهم لم يصنعوا ذلك آنذ لأنه لم تثبت إدانته في شيء، لذلك لمّا عاد وجد بطبيعة الحال كرسي كنيسته في انتظاره لم يشغله أحد.

وإلى الآن أنا لا أفهم تحت أي بند أو علة يمكن أن نضع هذه التصرفات التي حدثت؟

ففي المقام الأول - إن كان يلزم أن نتكلّم الحق - لم يكن من الصواب عندما كتبنا ندعو لعقد المجمع أن يشترك أي شخص في قراراته، وبالتالي لم يكن من المناسب أن مثل هذه التصرفات غير العادية تنسب أصلاً للكنيسة. لأنه أي قانون في الكنيسة أو أي تقليد رسولي يُجيز هذا: أن تكون كنيسة كالإسكندرية في سلام وأساقفة كثيرون في اتحاد مع أسقفها أثناسيوس، ثم يرسل إلى مدينتهم رجل مثل غريغوريوس، غريباً عن المدينة لم يعتمد فيها، غير معروف لديهم، لم يطلبه لا كهنة المدينة ولا أساقفتها ولا علمانيوها، يختارونه في أنطاكية ليرسل إلى الإسكندرية، يرافقه لا كهنة ولا شمامسة من الإسكندرية ولا أساقفة من مصر ولكن عساكر؟ هكذا أخبرونا الذين حضروا إلينا مشتكين مما حدث!!

وحتى ولو فرضنا أن أثناسيوس كان قد وُضع في موضع الاتهام كمجرم بواسطة المجمع، فهذا التعيين الذي حدث (تعيين غريغوريوس) ليس صحيحاً أيضاً ولا ينبغي أن يكون، لأنه غير جائز شرعاً وُضد القانون الكنسي، لأن أساقفة الكنيسة ذاتها هم الذين ينبغي أن يرسموا واحداً على هذه الكنيسة نفسها من نفس كهنتها ومن ذات الإكليروس الذي للكنيسة، وهكذا لا تُطرح جانباً القوانين المسلّمة من الرسل.

وأنا أسأل لو كانت هذه الإساءة قد اقترفت ضدّ أي واحد فيكم، أما كنتم تتعجّبون منها وتستنكرونها مطالبين بالعدالة ضد مرتكبي هذا التعدي على القوانين؟

أيها الأحباء الأعزاء، نحن نتكلّم بالصدق أمام الله معلنين أن هذا الإجراء لا هو ديني ولا قانوني ولا كنسي!

ثم أيضاً إن التقارير التي وردت بخصوص سلوك غريغوريوس أثناء دخوله المدينة تُظهر بوضوح الدوافع الأخلاقية وراء تعيينه. فبينما الوقت وقت سلام كما أخبرنا الذين أتوا من الإسكندرية، وأيضاً كما وصف الأساقفة الحال في خطابهم، وإذا بالنار تشتعل في الكنيسة، والعدارى يتعربن، والرهبان يُداسون تحت الأقدام، والكهنة وكثير من الشعب يُجلّدون ويُعدّبون، والأساقفة يُطرحون في السجن(229)، وجماعات من الشعب ينقلون من مكان لمكان، والأسرار المقدّسة - التي اتهموا مكاريوس سابقاً بخصوصها - اختطفها الوثنيون وألقوها على الأرض. وهذا كله ليجبروا بعض الناس على قبول غريغوريوس. أليس مثل هذا السلوك يُظهر بوضوح حقيقة أولئك الناس الذي يتعدّون القوانين؟

لأنه لو كان هذا التعيين (تعيين غريغوريوس) قانونياً لما احتاج غريغوريوس إلى استخدام أعمال غير قانونية ليجبر هؤلاء، على الخضوع له،

(229) هذه الأخبار حديثة، وقد أتى بها جماعة من الكهنة وصلوا إلى روما قبل انعقاد المجمع مباشرة. أمّا صرابامون وبوتامون فهما أسقفان معترفان من أساقفة مصر اللذين كانا أعضاء في مجمع نيقية، وقد حضرا مجمع صور للدفاع عن أثناسيوس، الأول عاني من المنفى، والثاني ضُرب حتى الموت على يد غريغوريوس (أنظر Hist. Arian. 12).

الذين يقاومونه بمقتضى القانون! وأنتم وبالرغم من كل هذا الذي حدث تكتبون قائلين إن كل شيء هادئ في الإسكندرية والسلام يعُمُّ مصر. والحقيقة تماماً عكس ذلك، إلا إذا كان السلام قد تغيّر معناه كلية عندكم وصار عكس ما هو، حتى إنكم تدعون هذه الأعمال سلاماً؟ ...

(نقتطع هنا من خطاب يوليوس بعض السطور الخاصة بموضوع الأسقف مارسيللوس وبعض البلاد الأخرى. لأننا إنما نركّز على تاريخ حياة أنثاسيوس بنوع خاص).

والآن وأنتم ذوّو أحشاء رحمة، انتبهوا لتصحّحوا - كما قلت لكم سابقاً - هذه المتناقضات التي اقترفت ضد القوانين. حتى يمكن لكل انحراف حدث أن يتصحّح بغيرتكم. ولا تكتبوا أي فضلت الشركة مع مارسيللوس وأنثاسيوس عليكم. لأن مثل هذه الشكوى لا تُفصح عن سلام بل تشير إلى الحسد والخصام بين الإخوة، ومن أجل هذا أنا كتبت ما كتبتة إليكم حتى تعلموا أننا تصرفنا ليس بدون عدل عندما قبلناهما في الشركة حتى ننهي على هذا النزاع - لأنكم لو كنتم حضرتم إلى هنا وأثبتتم هذه التهم ضدّهم ولم يستطيعوا هم أن يقيموا الدليل المعقول لبراءة قضيتهم، لكان يحق لكم أن تكتبوا ما كتبتموه. ولكن إذ نرى أننا تصرفنا بحسب القانون وليس بدون عدل - كما قلت سابقاً - في قبولنا الشركة معهم، فإني أتوسّل إليكم بحق المسيح ألا تتسبّبوا في تمزيق أعضاء المسيح إلى نصفين ولا تتركوا إلى المحاباة، ولكن جدّوا في إثر سلام الرب. لأنه ليس مقدّساً ولا عادلاً، أنه لكي نرضي مشاعر صغيرة لقلّة من الأشخاص، نطرح آخرين لا لوم عليهم، وبذلك نحزن الروح.

ولكن إذ كنتم تعتقدون أنكم قادرون أن تثبتوا شيئاً ضدّهم وتواجهوهم بالخطأ وجهاً لوجه، فليحضر منكم من يشاء، لأنهم هم أيضاً قد وعدوا أنهم على استعداد أن يقيموا الحجة على كل ما قدّموه من التقارير إلينا.

لذلك أرجو أن تعطونا رأياً في هذا أيها الأحياء الأعزاء حتى نستطيع أن نكتب إليهم وللأساقفة الذين سيجتمعون، حتى يمكن إدانة المتهمين في حضرة الجميع ولا يسود الارتباك على الكنيسة هكذا، ويكفي ما قد حدث، نعم يكفي بالتأكيد أن تصدر أوامر نفي للأساقفة في حضرة أساقفة، الأمر الذي لا يليق لي

أن أتكلّم عنه أكثر من ذلك، لئلاً أظهر كأني أُضيق الخناق على الذين حضروا في هذه المناسبات. ولكن إن كان ينبغي أن نقول الحق، فالأمور ما كان ينبغي أن تشط هكذا بعيداً، وما كان يليق أن يُسمح لمثل هذه المشاعر الصغيرة أن تصل إلى هذا الحضيض.

أيها الأحباء، إن قرارات الكنيسة لم تعد بعد بحسب الإنجيل ولكنها تميل فقط إلى النفي والموت. ولنفترض - كما تؤكّدون - أن هناك خطأً ثابتة على هؤلاء الأشخاص، فالأمر كان يقتضي أن لا تُدار هذه القضية ضدّهم بخلاف القانون، وإنما بمقتضى قانون الكنيسة. فكان ينبغي أن تُكتب عريضة وتُرسل لنا جميعاً، حتى يتسنى للجميع أن يصدروا حكماً عادلاً. لأن الذين كابدوا الألم هم أساقفة وكنايس ذات شهرة ليست عادية، فقد قادها الرسل وحكموا فيها بأشخاصهم.

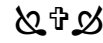
ولماذا لم تخبرونا بشيء فيما يختص بكنيسة الإسكندرية على الخصوص؟ أم تجهلون أن العادة جرت أن يُكتب لنا أولاً، وبعد ذلك يمكن أن نمرّر من هنا قراراً عادلاً. فإن كان أي شك مثل هذا قد استقر على الأسقف هناك (الإسكندرية)، كان يلزم أن تُرسل إشارة إلى الكنيسة هنا (روما)؛ لأنه بعدما أهملتم في أن تخبرونا وتصرفتم بمقتضى سلطانكم كما أردتم، الآن تريدون أن تحصلوا على موافقتنا فيما قررتموه، مع أننا لم نتهمه في شيء على الإطلاق. لم تكن قوانين بولس هكذا، ولا كانت هكذا تقاليد الآباء تسير؛ هذا إجراء مخالف وممارسة غريبة. أتوسّل إليكم ليكن استعدادكم للاحتمال معي. فما أكتبه أكتبه للصالح العام، لأن ما استلمناه من بطرس الرسول هذا أفيدكم به. على أي لم أكن أكتب لكم هذا لولا أنها أمور تقلقنا. فالأساقفة يُزعون من كراسيهم ويُطرحون في النفي بعيداً، وغيرهم من نواحي غريبة يحتلون أماكنهم، وآخرون بالغدر والخيانة هوجموا، والشعب يبكي ويكتئب من أجل الذين انتزعوا منهم بالقوة ...

أسألكم أن تكفّوا عن هذا، بل أن تعلنوا الأشخاص الذين يأتون هذه الأمور، تعلنوهم كتابة، حتى لا تُمتهن الكنيسة هكذا، ولا يعود أسقف أو كاهن يُهان، ولا يُرغم أحد على أن يعمل شيئاً لا يقره لئلاً نصير أضحوكة بين الوثنيين، بل

وفوق هذا لئلاً نثير غضب الله علينا.

لأن كل واحد منا سوف يعطي حساباً في يوم الدينونة عن الأشياء التي صنع في حياته. فليتنا جميعاً نكون مأسورين لفكر الله حتى تستعيد الكنائس أساقفتها الخصوصيين ونُسَرَّ بالأكثر في المسيح يسوع ربنا الذي به يليق المجد للآب إلى الأبد آمين.

إني أصلي أن تكونوا معافين في الرب أيها الإخوة الأعزاء المحبوبين والمشتاق جداً إليهم].



أمّا تعليقنا على ما جاء في هذا الخطاب التاريخي الحافل فهو كالآتي:

1 - إن عرض الحقائق التي جاءت في هذا الخطاب تكشف عن مدى الانسجام الذي حدث بين يوليوس وأثناسيوس، لأنها كلها من تلقين أثناسيوس وبأسلوبه التحقيقي الدقيق، وقد صاغها يوليوس في رزانة كأنها مسلمة من الرسل.

2 - استطاع البابا أثناسيوس أن يضم إليه يوليوس وكل أساقفة إيطاليا لا كمجرد أصوات تشهد لجانبه، ولكن كأشخاص تشرّبوا كل مفاهيم أثناسيوس وفكره التقليدي؛ وهذا يزداد وضوحاً وأهمية إزاء تكرار يوليوس بالتمسك بقوانين الرسل والكنيسة والتقليد، فكل هذا وغيره مما سبق أن قاله أثناسيوس في خطابه العام أو في دفاعه ضد الهرطقة تسجّل في خطاب يوليوس بألفاظ يوليوس وبحماسه وبغيرة رومانية تبدو مستقلة، وهي بذلك تكشف عن مدى التأثير الذي استطاع أثناسيوس أن يسكبه في الشعور واللاشعور الروماني، والغربي بوجه عام.

ونحن هنا لسنا بصدد التفاخر، ولكن نريد أن نكشف عن الخطوات الأولى التي انتقل بها التقليد الإسكندري الأرثوذكسي إلى روما والغرب من حيث الأمور الكنسية بوجه عام، والأسرار والتقاليد الطقسية والرهينة بوجه خاص.

وفي ذلك يقول المؤرّخ المشهور ميلمان: [إن نتائج هذه الزيارة التي قام بها أثناسيوس لروما أسفرت عن تشبّع مسيحية الفكر اللاتيني بأرثوذكسية

بل يقول هذا المؤرخ أيضاً: [إن الكنيسة اللاتينية تتلمذت له، ولكنها لم تستطع أن تمتص لاهوته كما ينبغي.] [231]

كما يقول روبرتسون: [ومن هذه الزيارة دخلت الرهينة إلى الغرب.] [232]

3 - إن مهاجمة اليوسابيين الحمقاء التي بلا مبرر ولا سند لها ضد يوليوس، كشفت ليوليوس عن مدى انحراف يوسابيوس وجماعته، وفتحت أذهان أساقفة الغرب وروما بوجه عام إلى خطورة هؤلاء القوم وإلى خبث وسائلهم وعنفهم الإجرامي ودسائسهم، وبالتالي كشفت عمّا في العقيدة الأريوسية من أخلاقيات منحطة، وبذلك فإن زيارة أثناسيوس لروما ولكل مدن الغرب تُعتبر أنها جاءت بمثابة تطعيم وافي مبكّر ضد الأريوسيين والأريوسية بوجه عام، حتى وإن ظهر فيما بعد أنها لم تأتِ بالتطعيم الكافي أو بالقدر الذي يعطي المناعة الكاملة.

4 - لم يتخذ يوليوس أي أسلوب يُستشف منه أنه يحكم الكنيسة بروح الخلافة الرسولية كبطرس، فلم يصدر حكماً شخصياً في الموضوع كله، مع أنه هو نفسه قال إن القضية برمتها لا تستوجب مجعاً عاماً ولا أخذ آراء، لأن أعمال الأريوسيين خارجة عن الروح الكنسية والقوانين والتقاليد بوجه عام - كذلك لم يرد يوليوس بالنفي على المبدأ الذي أكدّه أساقفة الشرق ليوليوس بخصوص السلطان المتساوي للأساقفة جميعاً، مهما كانت أهمية المدن التي يحكمون عليها. بل إن يوليوس رد على ذلك بالموافقة تقريباً مضيفاً إلى ذلك أنه لا يكتب ولا يقرّر من نفسه، وإنما ينقل رأي جميع أساقفة إيطاليا وتلك النواحي. ويؤكّد أن أي إجراء يمس الأساقفة لا يمكن أن يكون له أي وزن أو فاعلية إذا لم يأخذ موافقة إجماعية. ولم يقدّم نفسه في هذه الموافقة الإجماعية أو يجعل نفسه فوقها.

(230) Milman., *Hist. of Lat. Christ.*, vol. I, p. 78.

(231) Ibid.

(232) Vede Robertson`s, *Christ Hist.*, ii, 6.

5 - بخصوص علاقته الخاصة بكرسي الإسكندرية، يحاول يوليوس أن يستمد هذه العلاقة من تقاليد قديمة في الكنيسة، كمجرد علاقة مضمونها أن يؤخذ رأيه فقط فيما يختص بأي إجراء ضد أسقفها، وهنا أيضاً لا يريد يوليوس أن ينفي المبدأ الأول أن سلطان الأساقفة متساوٍ بين الأساقفة عموماً - دون النظر إلى عظم المدينة التي يحكم عليها أيٌّ منهم، ولكنه يريد أن يجعل من نفسه نصيراً قانونياً لأثناسيوس.

ويلاحظ أن يوليوس يتكلم في نهاية الخطاب عن كرسي وكنائس الأساقفة، بأنها كراسي وكنائس رسولية حكّمها الرسل بأنفسهم، ولم يميّزوا بين رسول ورسول، فبولس كبطرس كمرقس.

وقع خطاب يوليوس على اليوسابيين:

ما أن وصل خطاب يوليوس إلى أساقفة الشرق الذين سبقوا وكتبوا له حتى قرّروا أمرين:

الأول: انتهاز فرصة تدشين الكنيسة "المذهّبة" لعقد مجمع يُطرح فيه أمر يوليوس أسقف روما، والرد عليه بخطاب شديد.

الثاني: إرساله بعثة من قبَل مجمع أنطاكية إلى قسطنس إمبراطور الغرب، يشكون أثناسيوس ويوغرون صدره من جهته.

مجمع أنطاكية المشهور بمجمع التدشين

لمّا انتهى مجمع روما في نهاية سنة 340م، لأن المجمع عُقد في ديسمبر، وكلف المجمع يوليوس بكتابة خطاب لأساقفة الشرق الذي وصلهم في بداية سنة 341م، أثار الخطاب حفيظة اليوسابيين إلى درجة كبيرة وصمّموا على مناوأة يوليوس، وانتهزوا فرصة تكريس الكنيسة المذهبة بأنطاكية وعقدوا مجمعاً وجمعوا إليه سبعة وتسعين أسقفاً معظمهم من المتحفظين، ولكن ترأسه الأريوسيون. وكان يوسابيوس النيقوميدي حاضراً - ولكن لم يكن قد تبقى على نهاية حياته إلا بضعة شهور - أمّا يوسابيوس بامفيلْيوس القيصري، فكان قد مات منذ سنتين وخلفه أكايوس على قيصرية فلسطين وهو تلميذ يوسابيوس بامفيلْيوس، وترأس المجمع المدعو ديانْيوس أسقف قيصرية كبادوكيا.

ويقدّم لنا سقراط صورة للانفعال الذي قابل به المجمع خطاب يوليوس الذي برأ فيه أثناسيوس وبقية الأساقفة الذين اضطهدهم ونفاهم الأريوسيون:

[ولمّا اعتبر هؤلاء الأشخاص (الأساقفة الأريوسيون) أن توبيخات يوليوس أهانت كرامتهم، دعوا إلى مجمع في أنطاكية اجتمعوا معاً فيه وأملوا خطاباً رداً على خطابات يوليوس كتعبير عام عن الشعور الواحد المتضامن للمجمع بأكمله. فلم يكن من اختصاصه - كما قالوا - أن يقاضي قراراتهم بخصوص أيّ من الذين يريدون طرده من كنائسهم، بالمثل كما أنهم لم يعرضوا أنفسهم ضده عندما طُرد نوفاتس من الكنيسة. هذه الأمور أبلغها أساقفة الشرق إلى يوليوس أسقف روما.] (233)

أمّا سوزومين المؤرّخ فيعطينا صورة أكثر تفصيلاً:

[واجتمع الأساقفة (الشرقيون) في أنطاكية وصاغوا رداً على يوليوس نمّوه بحذق ومهارة قانونية فائقة، غير أنهم ملأوه بالتهكّم والتهديدات، واعترفوا في هذا الخطاب أن كنيسة روما تقلّدت بكرامة مسكونية، لأنها كانت مدرسة الرسل وصارت أم التقوى منذ البدء، غير أن الذين جلبوا لها العقيدة واستقروا فيها جاءوا من الشرق. ولكنهم أضافوا أن الدرجة التالية من الكرامة لا ينبغي

أن تكون من نصيبهم بسبب كونهم لم يحوزوا على مدن أكبر أو عدد أكثر في كنائسهم، لأنهم يفوقون الرومانيين في الفضيلة وفي القدرة على الفصل والحكم! ثم دعوا يوليوس لتقديم حساب عن قبوله أثناسيوس وأتباعه في الشركة، وأفصحوا له عن سخطهم ضده لأنه أهان مجمعهم وأبطل قوانينهم، وهاجموا أعماله باعتبارها غير عادلة ومتعارضة مع الحق الكنسي.

وبعد هذه التوبيخات والاحتجاجات بدأوا يهددون أنه إذا اعترف بعزل الأساقفة الذين طردوهم وبالأخرين الذين حلوا محلهم، فإنهم يعدونه بالسلام والزمانة، وإلا فإنهم سيعلمون مقاومتهم له علناً. [234]

وتكاد تكون صيغة هذا الخطاب مماثلة لصيغة الخطاب الذي سبق أن أرسلوه أيضاً ليوليوس ردًا على دعوته لعقد مجمع في روما. ويقول كل من سقراط وسوزومين أنه بعد انفضاض المجمع حدث زلزال مروّع في منطقة أنطاكية (235).

بعثة الأريوسيين إلى الإمبراطور قسطنس في الغرب:

وهنا نعطي الكلمة للقديس أثناسيوس نفسه حيث يصف التنام مجمع أنطاكية لثاني مرة بعد عدة شهور قليلة من انعقاد "مجمع أنطاكية التدشيني"، وذلك في خريف سنة 341م، بغرض إرسال بعثة وشاية لقسطنس إمبراطور الغرب:

[اجتمع تسعون أسقفًا تحت رعاية القنصلين مارسلينوس وبروبينوس في سنة 341م (236)، وكان قسطنطيوس اللاديني حاضرًا في هذا المجمع، وكما دبروا الأمور هكذا في أنطاكية وقت التدشين (الاجتماع الأول) رأوا أيضاً (في هذا الاجتماع) أن تركيباتهم لصيغ الإيمان لا تزال ناقصة فبدأوا مرة أخرى يصيغون منطوقاً آخر للإيمان، وهكذا لم يكفوا عن تقلبهم، وأرسلوا بعثة من الأساقفة نارسيوس ومارس وثيئوذوروس وماركوس إلى بلاد الغال (تريف)، مرسلين من قبل المجمع ليقدموا هذه الصيغة إلى قسطنس أغسطس

(234) Sozom., E.H., 3:8.

(235) Socrat., II.10, Sozom., III.6.

(236) هذا التاريخ محقق على التاريخ الروماني القديم الذي سجّله القديس أثناسيوس وبذلك يُعتبر مركز تحقيق هام في مجريات الحوادث.

ولكن يبدو أن الإمبراطور قسطانس نفسه هو الذي طلب هذه البعثة (بمقتضى توصيات من يوليوس أسقف روما)، وهذا يتبيّن لنا أكثر من تسجيلات المؤرّخ سوزومين:

[ولمّا أدرك يوليوس - أسقف روما - أن ما كتبه لذوي الكرامة الكهنوتية في الشرق أصبح بلا فائدة، أطلع الإمبراطور قسطانس على الأمر (قسطانس إمبراطور على كل الغرب بعد موت أخيه قسطنطين الثاني)، وبناءً على ذلك كتب قسطانس لأخيه قسطنطيوس يرجوه إرسال بعض الأساقفة من الشرق ليقدّموا الأسباب التي من أجلها أصدروا قانون عزل الأساقفة. وهؤلاء اختاروا ثلاثة أساقفة لهذا الغرض، وبالإسم: نارسيوس أسقف ايرينوبوليس في كيليكيا، وثيئوذور أسقف هيراكليا في تراس، ومارك أسقف أريثوسا بسوريا. وبوصولهم إلى إيطاليا (ومنها إلى تريف) جاهدوا ليبررو أعمالهم، ويقنعوا الإمبراطور أن الحكم الذي صدر من مجمع الشرق كان عادلاً، ولمّا طلب منهم أن يقدّموا منطوقاً مكتوباً لإيمانهم أخفوا الصيغة التي وضعوها في أنطاكية (وهكذا ينبغي أن يكون الإيمان وإلا فلا!!)، وقدّموا اعترافاً آخر مكتوباً (وهذا ما قرّره أثناسيوس أيضاً) (238). وكان هذا أيضاً مخالفاً لاعتراف نيقية. وأدرك قسطانس أنهم بغير حق تصيّدوا بول (أسقف القسطنطينية) وأثناسيوس (أسقف الإسكندرية) وأنهم عزلوهما من الشركة، لا بسبب اتهامات تخص السلوك كما هو ثابت في قرار العزل وإنما بسبب اختلاف العقيدة، وبذلك طردهم دون أن يعطيهم أي تصديق على صور الإيمان (التي أحضروها وحضروا من أجلها).] (239)

ويعطينا المؤرّخ هيلاري أسقف بواتييه السبب المباشر في انتباهة الإمبراطور قسطانس لغش هذه البعثة وخروجها عن الإيمان الصحيح، إذ يذكر أن مكسيمينوس أسقف تريف الرجل الصالح صديق أثناسيوس، كان حاضراً هذه المقابلة، وهو الذي

(237) *De Synod.*, 25.

(238) *Ibid.*

(239) *Sozom. E.H.*, III.10.

نَبّه الإمبراطور إلى خطورة مقاصد هذه البعثة(240).

كما يذكر المؤرّخ سوزومين أن مكسيمينوس أسقف تريف رفض السماح لأعضاء هذه البعثة في الاشتراك معه في الصلاة معتبراً إياهم مقطوعين من الشركة لأنهم أريوسيون، الأمر الذي انتقم له أساقفة الشرق بعد ذلك وحكموا بعزل مكسيمينوس وقطعه من الشركة(241).

مقابلة أثناسيوس للإمبراطور قسطنس وفكرة عقد مجمع عام (خريف سنة 342م):

يقول بعض المؤرّخين ومن ضمنهم ثيودوريت إن أثناسيوس ترجّى الإمبراطور قسطنس أن يدعو إلى مجمع عام يضم أساقفة الشرق والغرب، ولكن الحقيقة يعرضها أثناسيوس نفسه بمنتهى الوضوح في دفاعه لدى قسطنطيوس، باعتبار أنه استدعي لمقابلة الإمبراطور في ميلان عاصمة شمال إيطاليا، ليُعلمه الإمبراطور بنيته في عقد مجمع، الأمر الذي لم يشترك أثناسيوس في الاقتراح بشأنه:

[وأنا لم أكتب إلى أخيك (الإمبراطور قسطنس) إلاّ عندما كتب إليه يوسابيوس، وأتباعه سبقوا وكتبوا إليه يتهمونني، فكنت مضطراً وأنا مقيم في الإسكندرية آنئذ أن أدافع عن نفسي، ثم كتبت إليه مرّة أخرى عندما أرسلت إليه المجلّدات (a...pukt = طرد كتب) التي تحوي الأسفار المقدّسة، (وكان إقليم البهنسا مركز توزيع عالمي)، التي كان قد سبق وطلب مني أن أعدها له، وإنه يليق لي وأنا بصدد الدفاع عن نفسي أن أقول الحق "لتقواكم". إنه بعد مضي ثلاث سنوات منذ إقامته في روما كتب إليّ في السنة الرابعة (صيف سنة 342م) يأمرني بالمثل أمامه - وقد كان وقتها في ميلان - وأنا عندما استفسرت عن السبب - لأنني كنت أجهل ذلك والرب شاهد لي - علمت أن بعض الأساقفة ذهبوا إليه يترجّونه في الكتابة لكم راغبين أن يُعقد مجمع. وصدقني يا سيّدي أن هذا هو حقيقة الأمر وأنا لا أكذب. وبناءً عليه ذهبت إلى ميلان واستقبلت منه بلطف كثير لأنه تنازل لرؤيتي، وأخبروني أنه أرسل خطابات إليك يرجو فيها أن يدعو إلى مجمع. ولمّا كنت في المدينة (ميلان) أرسل إليّ لأذهب إلى الغال، لأن الأب هوسيوس كان سيذهب إلى هناك، حتى

(240) Hil., *Frag.* III. 27.

(241) Sozom., *E.H.*, III. 11.

نرحل معاً من هناك إلى سرديكا (صوفيا عاصمة بلغاريا الآن على نهر
الدايوب). [242]

وبخصوص المقابلة التي تمّت في ميلان، فيعتقد المؤرّخ جواتكن أنها تمت في
مايو سنة 342م. بحضور بروتاسيوس أسقف ميلان (243). أمّا رحلة البابا أناسيوس
من ميلان إلى تريف بفرنسا، فكانت في خريف عام 342م، وأمّا انتقال قسطانس
السريع من ميلان عاصمة شمال إيطاليا إلى تريف عاصمة فرنسا، فبسبب ثورة
الفرنسيين (الفرنك) التي أراد أن يخمدّها بنفسه، وبعدها رحل قسطانس إلى بريطانيا،
ولم يعد منها إلا قبيل ميعاد انعقاد مجمع سرديكا.

(242) *Apol. Ad Const.*, 14.

(243) *Gwatkin, op. cit.*, p. 122.

مجمع سرديكا (صوفيا) صيف عام 343م

أمّا سرديكا هذه، فهي “صوفيا” الآن عاصمة بلغاريا. وكانت تقع على الحدود الشرقية للإمبراطورية الغربية، وهي على نهر الدانوب، وفي مقابلها وفي تخوم إمبراطورية الشرق تقع مدينة فيلوبوليس. فإذا كانت آخر رحلة للبابا أثناسيوس هي التي قام بها من ميلان إلى تريف في خريف سنة 342م، فالمعروف أن أثناسيوس بقي في تريف إلى أن أمضى عيد الفصح هناك لسنة 343م. وأرسل خطابه الفصحي لهذه السنة إلى الإسكندرية ولكن هذا الخطاب فقد للأسف.

والآن نأتي إلى التسجيلات التي حفظها لنا التاريخ لكي نعيش مع البابا أثناسيوس هذه الفترة المملوءة بالأحزان والقلقل، والتي حتى اليوم لا يزال المؤرخون في حيرة من ثبت تواريخها.

أمّا أساقفة الغرب فبلغ عددهم 95، أمّا أثناسيوس ومارسيلوس واسكليباس فقد وصلوا بصحبة هوسيوس من تريف، أمّا بول أسقف القسطنطينية فكان غائباً وأُتاب عنه اسكليباس أسقف غزة، الذي كان قد عُزل من كرسيه منذ سبع سنوات.

أمّا الشرقيون فحضروا كجماعة واحدة متحدة، وقد انضم إليهم عشرة من أساقفة مصر الأريوسيين ومن ضمنهم اسخيراس، لأنهم رسموه أسقفاً، ومعهم ضابط - ومن بينهم فيلارجيوس - لحماية الأساقفة. ونزلوا في أحد قصور صوفيا (سرديكا) وكان عددهم حوالي 76 أسقفاً. والمعروف أن المجموع الكلي لأساقفة سرديكا كان حوالي 170 (أكثر أو أقل)، الغربيون اجتمعوا في سرديكا على الحدود بين الإمبراطوريتين، والشرقيون هربوا واجتمعوا في مدينة فيلوبوليس المقابلة لسردিকা داخل حدود إمبراطورية الشرق (لقسطنطيوس)، حيث كتبوا خطابات احتجاج شديدة اللهجة برفضهم دخول المجمع إذا دخله أثناسيوس وجماعته وباقي الأساقفة الذين حكموا عليهم زوراً وبهتاناً بالعزل والنفي، وإزاء إصرار الغالبية المطلقة على وجوب حضور المتهمين المعزولين ليدافعوا عن أنفسهم، انسحب الأساقفة الشرقيون وهربوا ليلاً بعد أن تركوا خطاباً بيد يوستاثيوس كاهن كنيسة سرديكا يعتذرون فيه أن الإمبراطور دعاهم للرجوع بمناسبة عودته منتصراً من حرب الفرس! بعد أن حرّموا في خطابهم كل الرؤوس من هوسيوس إلى يوليوس إلى أثناسيوس فما دون ...

وإليك كلام القديس أنثاسيوس فيما يختص بمجمع سردিকা:

[فلماً رأى الإمبراطور قسطنطيوس وقسطانس الاضطرابات الحادثة في الكنائس من جراء أعمال يوسابيوس وأتباعه وتدبير المؤامرات لتحطيم الكثيرين، أمروا أن يجتمع الأساقفة من الغرب والشرق، أن يجتمعوا معاً في سردিকা. وفي هذا الوقت مات يوسابيوس النيقوميدي.

واجتمع عدد كبير من جميع النواحي، وتوسمنا أن يوسابيوس وأتباعه سوف يخضعون للمحاكمة، ولكنهم وهم عالمون بما صنعت أيديهم ورأوا أن خصومهم قد حضروا إلى المجمع، خافوا. وبينما الكل أتى بنية طيبة إذا بهم يُحضرون معهم الكونت ميوزونيانوس (الذي كان سابقاً والياً على الشرق) والكونت حزقيوس (رئيس ضباط القصر)، كما جرت معهم العادة سابقاً حتى ينالوا أغراضهم بقوة سلطانهم.

ولكن لما اجتمع المجمع بدون ضباط على الإطلاق ولم يسمح حتى للعساكر بالحضور، بدأوا يرتكبون وبدأت أفكارهم تضطرب لأنهم رأوا أن أمر الأحكام التي يرغبون في الحصول عليها قد امتنع عليهم، إلا ما سيمليه الحق والتعقل فقط.

(ولماً أحجموا عن الحضور) بدأنا نتحدّاهم وبدأ الأساقفة يدعونهم - ملحين - للحضور قائلين لهم: لقد حضرتم للمحاكمة فلماذا تتسحبون، كان عليكم إمّا أن لا تحضروا كلية وإمّا وقد حضرتم فلا تختبئوا؛ لأنكم بسلوككم هذا تثبتون التهمة على أنفسكم. انظروا ها هو أنثاسيوس وجماعته قد حضروا، هؤلاء الذين اتهمتموهم غيابياً، فإذا كنتم تعتقدون أن لكم ضدّهم شيئاً فعليكم أن تتهموهم وجهاً لوجه، ولكن إن كنتم تدّعون أنكم لا تريدون ذلك مع أنكم بالحقيقة غير قادرين على ذلك، فأنتم تكشفون أنفسكم بوضوح أنكم مشاغبون ومدّعون، وهذا ما سيقرره المجمع عليكم. (فلماً سمعوا ذلك أُدينوا من جهة الضمير لأنهم كانوا يعلمون ما اقترفوه من مؤامرات وتلفيات ضدّنا). فاستحوا أن يظهروا ووضح أنهم مدانون.

أمّا المجمع "المقدّس" فقد أدان هروبهم غير المنزن والمشكوك فيه، وسمح أن نقدّم دفاعنا، فلماً سردنا وقائع سلوكهم ضدّنا وبرهناً على أقوالنا

بالحق وبالشهود وبأدلة أخرى امتلأ الأساقفة بالدهشة، ورأوا أن هروب خصومنا بسبب خوفهم من مواجهة المجمع كان أمراً واضحاً لئلاّ تصير إدانتهم أمام وجوههم، كما اعتقدوا أن هروبهم كان بسبب ظنهم أنهم بحضورهم من الشرق إلى المجمع ربما لا يجدون أثناسيوس وجماعته، فلمّا رأوهم واثقين من قضيتهم ومتحدّين المحاكمة هربوا.

وبناءً على ذلك قبلونا كأشخاص أسيء إلينا وأثّمنا باطلاً، وأكّدوا لنا أُخوتهم ومحبتهم.

وعزلوا أتباع يوسابيوس في الشر، الذين أصبحوا بلا حياء أكثر من يوسابيوس نفسه: وهم ثيئوذوروس أسقف هيراكليا، نارسيس أسقف نيرونيا، أكايوس أسقف قيصرية فلسطين، اسطفانوس أسقف أنطاكية، أرساكيوس وفالنس أسقف بانونيا، مينوфанنوس أسقف أفسس، وجورج أسقف لاوديكاء، وكتبوا لأساقفة العالم وإلى كرسي الأساقفة المشار إليهم هكذا:

المجمع المقدّس المجتمع في سرديكا بنعمة الله:

من روما وأسبانيا والغال وإيطاليا وكمبانيا وكلابريا وأبيوليا وأفريقيا وسردينيا وبانونيا وموسيا وداسيا ونوريكم وسيسيا وداردانيا ومكدونية وتسالّي وأخائية وأبيرس وتراس ورودوب وفلسطين وأرابيا (العرب) وكريت ومصر: (ويقول أثناسيوس إن عدد الأساقفة بلغ أكثر من 400 أسقفاً) (244)

إلى إخوتهم المحبوبين كهنة وشمامسة وكل كنيسة الله المقدّسة الكائنة بالإسكندرية، يرسلون تمنيات العافية في الرب.

لم تكن الأمور مجهولة لدينا ولكنها كانت معروفة جيداً وقبل أن تصلنا الخطابات المرسلة من الأتقياء الذين عندكم أن المدافعين عن هرطقة أريوس الكريهة كانوا يمارسون المؤامرات الخطيرة التي هي بالأكثر لهلاك أنفسهم دون المساس بالكنيسة...

لقد حاولوا جاهدين بالقوة والطغيان أن يباغتوا براءة أخينا وزميلنا الأسقف

(244) Athan., *Hist. Of Arians*, part IV & *Apol, Arian.*, 50. note 10.

أثناسيوس وسلوكوا تجاهه مسلماً بلا روية وبلا إيمان، وبلا أي نوع من العدالة، ومع أنهم لا يملكون الثقة في إجراءاتهم التي يتلاعبون بها ولا في تقاريرهم التي أجروها ضده، بل وكانوا يرون أنهم غير قادرين على تقديم أي دليل لما يخططون، فلما جاءوا إلى مدينة سرديكا أبدوا عدم رغبتهم في الاجتماع بالمجمع الذي يضم الأساقفة القديسين. ومن هنا صار واضحاً أن تصميم أخيناً وزميلنا الأسقف يوليوس كان تصميماً عادلاً، لأنه بعد حرص وتروٍّ ودقة، صمّم أنه لا ينبغي أن نتردد أبداً بخصوص إقامة الشركة مع أخيناً أثناسيوس، لأنه يملك شهادة تصديق من ثمانين أسقفاً، كما استطاع أن يخوض هذه الاحتجاجات المقبولة لصفه، كذلك وبواسطة كهنته ورسائله حطّم كل تخطيطات يوسابيوس وأتباعه الذين كل اعتمادهم كان على العنف دون المحاجاة القانونية.

لذلك صمّم جميع الأساقفة في جميع الأنحاء على إقامة الشركة مع أثناسيوس على أساس براءته (245) ...

على أننا أيها الإخوة الأعزاء نحتكم ونذكركم فوق كل شيء أن تحفظوا الإيمان الصحيح مع الكنيسة الجامعة. أنتم الذين جُزتم هذه التجارب القاسية المرعبة، لأنه ما أكثر الإهانات والإساءات التي عانتها الكنيسة الجامعة «ولكن الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص» ... [246]

أمّا بخصوص تعيين غريغوريوس على كرسي الإسكندرية فقد قرّر المجمع الآتي:

[أمّا بخصوص غريغوريوس الذي أرسلوه إلى الإسكندرية بواسطة الإمبراطور فقد أعلنوا أنه ليس أسقفاً على الإطلاق ولا ينبغي أن يُدعى مسيحياً. وأن جميع الرسامات التي أجراها في الإسكندرية باطلة وليست بذات فعل، والذين رسمهم لا تُذكر أسماؤهم في الكنيسة بسبب خروجهم على

(245) Hilar., *Fragm.*, III, 14.

(246) *Apol. Cont. Ar.*, 36-38 ff.

وقد حضر هوسبيوس أسقف قرطبة الأسباني، وكان قد بلغ سن الشيخوخة، وترأس المجمع وكان أول مَنْ وَقَعَ بِإمضائه وختم على قرارات المجمع، وذلك بحسب تحقيق وتسجيل البابا أثناسيوس نفسه، ومن بعده يوليوس بيد مندوبيه، ثم أرخيدامبيوس أسقف سرديكا. ولكن يحاول بعض المؤرخين المتأخرين أن يثبتوا أن ممثلي يوليوس كانوا هم أصحاب الأولوية.

ولكن الذي يقطع في الأمر، هو قول أثناسيوس في الموضوع: [ولكن هروبهم لم ينجح بحسب رغبتهم، لأن المجمع المقدس، الذي كان مترئساً عليه هوسبيوس الكبير، كتب إليهم قائلاً: إمّا أن تحضروا وتجاوبوا عن التهم الموجهة ضدكم بخصوص اتهاماتكم الكاذبة التي قدمتموها ضد الآخرين، وإلا فاعلموا أن المجمع سيحكم ضدكم كمدانين، معلناً براءة أثناسيوس من أي لوم.][248)

ومعروف أن مجمع سرديكا استمر منعقدًا كل شهر أغسطس وشهر سبتمبر، وفي نهاية المجمع أعلن الإمبراطور قسطنس قرارات المجمع وأرسلها بيد الأسقفين الجليلين إفراتس أسقف كابوا، وفنسنت أسقف كولونيا وهما على درجة "متروبوليت" إلى أخيه في أنطاكية. ولكن أخطر ما كان في خطاب قسطنس إلى أخيه هو العبارة المشهورة أنه في حالة رفض قسطنطيوس لعودة أثناسيوس إلى كرسيه يكون ذلك بمثابة Casus belli أي بمثابة إعلان حرب.

أمّا نص الفقرة الخاصة بعودة أثناسيوس كما جاءت في الخطاب فيوردها سقراط هكذا:

[أثناسيوس وبول موجودان هنا معي، وأنا مقتنع تماماً بعد الفحص أنهما مضطهدان بسبب تقواهما، فإذا تكفّلت أنت بإرجاعهما إلى كرسيهما وعاقبت الذين بدون وجه حق أساءوا إليهما، فإني أرسلهما إليك. أمّا إذا رفضت أن تعمل ذلك فتأكد أنني سأتي بنفسني وأعيدهما إلى كرسيهما (لاحظ أن بول هو

(247) *Hist. Ar.* 17.

(248) *Hist. of Arian.*, 16.

أسقف القسطنطينية عاصمة إمبراطورية قسطنطينوس) بالرغم من معارضتك.](249)

وانطلق الرسولان في الميعاد المناسب، وكان ذلك بعد اعتدال الطقس لإمكانية السفر، ويرجح أنهما وصلا في موسم الفصح وذلك في بداية ربيع سنة 344م.

حرومات مجمع سرديكا:

وقد وقع مجمع سرديكا الحرم والفصل من الكنيسة على أحد عشر أسقفاً أريوسياً، وكتبوا هكذا: “وكما فصلوا الإين عن الآب، هكذا استحقوا أن يُفصلوا من الكنيسة الجامعة”. ثم قام المجمع بتثبيت كل قوانين مجمع نيقية واتفقوا على أن تتبادل روما والإسكندرية مواعيد الفصح وثبَّتوها لمدة خمسين سنة.

حرومات مجمع فيليبوبوليس الأريوسية:

أمّا خطاب الأساقفة الشرقيين الذين حرّموا فيه هوسوس أسقف قرطبة ويوليوس أسقف روما وأثناسيوس أسقف الإسكندرية ومكسيمينوس أسقف تريف وبروتوجينيوس أسقف سرديكا فقد ختموه بصورة عقيدتهم الجديدة التي صاغوها على ثلاث مراحل في مجامع أنطاكية الثلاثة المتعاقبة سنة 339، سنة 340، سنة 341. وأرسلوا صوراً من خطابهم هذا إلى نواحي عديدة كما أرسلوه لجماعة الدوناتيين في أفريقيا(250).

وهكذا لوّثوا المسكونة كلها بأعمالهم وأفكارهم الشيطانية، التي قلبت الكنيسة منذ اليوم المشئوم الذي ظهر فيه اسم أريوس في الكنيسة، فإن كان الأشرار كالعُصافة التي تذيها الريح، إلّا أنها سريعة الانتشار تؤذي الأبصار وتطمس معالم الطريق وتسد أنفاس الأتقياء. وابن الأفعى لا يكون إلّا أفعواناً.

الآثار المباشرة التي ترتبت على مجمع سرديكا:

استطاع الأساقفة الشرقيون أن يبطلوا إلى حد ما النتائج التي وصل إليها المجمع من حيث إمكانية عودة الأساقفة المعزولين إلى كراسيهم.

(249) Socrates, *E.H.*, II, 22.

(250) Hefele., p. 171.

وقد استخدم الأريوسيون الإجراءات الحاسمة الشديدة في مظهرها التي اتخذها أساقفة الغرب وخصوصاً الحرم الذي أوقعوه على أحد عشر أسقفاً من رؤوس الأريوسيين المحركين للأحداث والمقربين من الإمبراطور قسطنطيوس، واستخدموا هذا لإثارة قسطنطيوس وتحريضه لمزيد من القسوة والبطش برجال أثناسيوس وبقيّة الأساقفة الأرثوذكس، إذ أصدر قسطنطيوس أوامره لولاية الإسكندرية بقتل أثناسيوس حال ظهوره في المدينة أو أيّ من كهنته المرافقين له، وقد ذكرهم بالاسم، إذا هم اقتربوا من الإسكندرية. وأصدر أمره بنفي خمسة من أئمة الإكليروس بالإسكندرية إلى أرمينيا.

[وربطوا لوقيوس أسقف أدريونيل بسلسلة من الحديد في رقبته وفي يديه وقادوه إلى المنفى حيث مات، أمّا بقيّة الشعب في أدريونيل الذين رفضوا الشركة مع الأريوسيين تطبيقاً لقرارات مجمع سرديكاء، فقد انتخبوا عشرة من أئمة الشعب واستصدروا أمراً من قسطنطيوس بذبحهم، وكان فيلارجيوس هو الوالي على هذه المنطقة، وقد قام بتنفيذ الإعدام واستودعوا جثثهم قبوراً بجوار المدينة يراها المسافرون على جانب الطريق.] (251)

أمّا ما جرى لشعب الإسكندرية فيصفه أثناسيوس، بناءً على التقارير التي وصلتته هكذا:

[أمّا في الإسكندرية فقد أرادوا أن يثبتوا هيبتهم ورعبهم كما فعل أبائهم في "تراس" (تراقيا)، فقد استصدروا أمراً مكتوباً أن تُحرس الموانئ وأبواب المدينة لئلاً يعود المنفيون بحسب قرار سرديكاء إلى كراسيهم، كما أرسلوا الأوامر إلى الولاية في الإسكندرية بخصوص أثناسيوس وبعض الكهنة وقد ذكروهم بالاسم، أنه إذا رأى الأسقف أو أيّ من الآخرين مقرباً من حدود المدينة يكون لهم السلطان لذبحهم، كل من يكتشفونه.] (252)

ثم يعود أثناسيوس أيضاً يصف حال بلبلة الشعب وهرب المختارين منهم إلى الصحاري والبراري:

(251) *History of Arians*, 18.

(252) *Ibid.* 19.

[وحتى بعد ذلك لم يهدأوا أبداً. فكما كان أبو هرطقة يوسابيوس كالأسد يجول زائراً يريد مَنْ يبتلعه، هكذا هؤلاء (الأيوسيون)، الذين تملّكوا الوظائف العامة، كانوا يتربصون بأي شخص يعيّرهم بهروبهم - الذي هربوه في سرديكا - أو أيّ من الذين يظهرون بغضتهم للهرطقة الأريوسية فإنهم كانوا يأمرّون بضربه بالسياط ويربطونه بالسلاسل وينفونه إلى أماكن بعيدة، وبذلك جعلوا من أنفسهم رعباً وفزعاً للناس وعلموهم المراءاة ودفعوا بالآخرين للهرب إلى الصحاري أفضل من أن يتعاملوا معهم.] (253)

محاولة شيطانية للإيقاع بشرف أساقفة قسطنس، فكانت هي النهاية:

يصف هنا أثناسيوس بنفسه هذه الواقعة المخجلة للغاية. ولكن مَنْ يريد التفاصيل أكثر فليراجع: "تاريخ الكنيسة لثيودوريت 2:7"، حيث يذكر هذه الواقعة بدقة بالغة مع كل الأسماء التي اشتركت فيها:

[معروف أن الإمبراطور قسطنس أرسل وفداً من قبله بناءً على توصيات المجمع المقدّس في سرديكا، قوامه أسقفان شيخان هما فنسنتيوس أسقف كابوا وهو متروبوليت منطقة كمبانيا، وأيوفراتس أسقف أجربينا وهو متروبوليت كل شمال فرنسا، حتى يستطيعا أن يحصلا على موافقة قسطنطيوس على قرارات المجمع بخصوص رجوع الأساقفة إلى كراسيهم، نظراً لأن قسطنطيوس هو في الأصل المتسبّب في نفيهم بعيداً عن كراسيهم. وقد كتب الإمبراطور النقي قسطنس موصياً أخاه من جهة هذين الأسقفين.

ولكن هؤلاء الرجال المحترمين، الذين كانوا دائماً على مستوى الأعمال القذرة والدينية، عندما رأوا هذين المندوبين في أنطاكية تشاوروا معاً في أمرهما، واهتدوا إلى مؤامرة جديدة - بل جريمة - قام اسطفانوس أسقف أنطاكية بتنفيذها بنفسه، إذ رأى أنه جدير بهذه المهمة، فقد استأجروا امرأة عاهرة عمومية - ونحن للعلم في موسم عيد القيامة المقدّس سنة 344م. - وعروها وأدخلوها بالليل في مسكن الأسقف إيوفراتس. وقد ظنّت العاهرة أنه شاب فراقتهم عن رضى. ولكن عندما أدخلوها ورأت الرجل نائماً وغير واعٍ

لما يحدث حوله وتطلّعت إليه فوجدته رجلاً شيخاً وبهيئة أسقف، صرخت في الحال بأعلى صوتها معلنة أنهم أدخلوها بالقوة، وحاولوا إسكاتهما وتفهمهما أن تلقّ التهمة معهم ضد الأسقف، ولكن عبثاً، فقد شاع الأمر في كل مكان، ولمّا لاح الصباح تدافعت المدينة كلها وجاء قوم من قصر الإمبراطور وهم في غاية الاضطراب منذهلين من الخبر الذي بلغهم أمرين أن لا يُترك هذا الأمر ليعبر بسكوت.

وأجري تحقيق في الأمر فقدم متولي قيادة هذه العاهرة بيانات عن الأشخاص الذين جاءوا إليه طالبين منه هذه العاهرة، ثم حقّقوا مع هؤلاء الأشخاص - وكانوا من الإكليروس - واستجوبوهم، فأرشدوا إلى اسطفانوس أسقف أنطاكية لأنهم كهنته!! وهكذا عزلوا اسطفانوس (الأريوسي) عن كرسيه.[254]

الإمبراطور قسطنطيوس يجوز انتفاضة إيمانية وأخلاقية:

أثرت جريمة اسطفانوس أسقف أنطاكية (بدرجة بطريك) في نفسية قسطنطيوس أيّما تأثير، إذ جعلته ينتفض (ولو إلى حين) انتفاضة جديدة في إيمانه وأخلاقه ويشعر بمدى الضلال والتضليل الأخلاقي الذي عاشه الأريوسيون وعاشوه فيه معهم! وأمر في الحال بعقد مجمع في أنطاكية، وهو المجمع الرابع لهؤلاء الأريوسيين، في نفس المدينة التي اتخذوها مركزاً لمؤامراتهم على الإيمان وعلى حفظة الإيمان سواء بسواء ... ويأتي هذا المجمع بعد ثلاث سنوات تماماً من مجمع أنطاكية المعروف بمجمع التدشين، وذلك بحسب تسجيل أثناسيوس، فلو علمنا أن مجمع التدشين كان في منتصف صيف سنة 341م. يصبح تحديد هذا المجمع بحسب تسجيلات أثناسيوس في منتصف سنة 344م وهذا ينطبق تماماً مع مجريات أزمنة الحوادث أمامنا حتى الآن. وقد حكم المجمع أول ما حكم، بعزل اسطفانوس عزلاً فاضحاً وأقيم عوضاً عنه لاونديوس الخصي، وهو رجل رزين هادئ محب للتعقل وإن كان لا يخلو إيمانه من تلوث الأريوسية(255).

(254) *Hist. of Arians.*, 20.

(255) Gwatkin, *op. cit.*, p. 125.

ولكن انتهب الأريوسيون فرصة التنام هذا المجمع وأخذوا يضيفون ويشرحون الأريوسية حتى تطابق ولو من جهة الشكل إيمان نيقية، ولكن عبثاً، إذ جاءت الصيغة مطوّلة إلى أقصى حد. ثم ذلّوها بحرمانات على الصيغ الأريوسية القديمة إمعاناً في التضليل. وجدّوا حرم مارسيلوس وفوتينوس.

وأرسل هذا المجمع الأخير المنعقد في أنطاكية بأمر قسطنطيوس وفداً إلى روما يحمل التلطيفات المناسبة لجريمة استفانوس مع صيغ العقيدة الجديدة. وكان الوفد مكوّناً من إيدوخوس أسقف جرمانيا ومعه ثلاثة آخرون. ولما وصلوا ميلان سنة 345م. وجدوا أساقفة الغرب مجتمعين في مجمع هناك (ميلان)، فطلب منهم أساقفة الغرب بادئ ذي بدء أن يعلنوا أولاً حرمهم للعقيدة الأريوسية فرفضوا وعادوا غاضبين.

الإمبراطور قسطنطيوس يتودّد إلى أثناسيوس

ويرجو مقابله قبل موت غريغوريوس الكبادوكي:

حينما تنهزم النفس البشرية إزاء اكتشاف خسنتها وضلالها، لا يسعها إلا أن تنظر بعين الإكبار والتعظيم إلى النفوس الأخرى التي لم تنحط إلى مستواها في الخسة والضلال ولم تجارها في أساليب الخداع والتفريط في الإيمان، فتتودّد إليها. ولكن سرعان ما يصرعها الكبرياء وتعود إلى أشد ما كانت عليه من الخسة والضلال. هذه كانت حال قسطنطيوس مع أثناسيوس.

ولنبداً الآن مرحلة التودّد. وإليك كلام أثناسيوس في الموضوع:

[والآن وقد أحسّ الإمبراطور قسطنطيوس بوخز الضمير عاد إلى نفسه، وقد استدلّ من سلوك الأريوسيين تجاه إيوفراتس أن هجومهم تجاه الآخرين كان على نفس المستوى والنوع. فأعطى أوامره أنّ كل الكهنة والشمامسة الذين سبق أن صدرت أوامر بنفيهم من الإسكندرية إلى أرمينيا، يعودون في الحال. ثم كتب إلى الإسكندرية مرسوماً علنياً (أغسطس سنة 344م) يأمر فيه بأن تكف كل أعمال العنف والاضطهاد إزاء كل الكهنة والعلمانيين الموالين لأثناسيوس.

وحدث أن مات غريغوريوس بعد مرض دام معه أربعة سنوات، في 26

يونيو سنة 345م بعد أن أرسل الإمبراطور إلى أثناسيوس بعشرة شهور خطابات مودة تحمل كل دلائل الإكرام ليس أقل من ثلاث مرات. (يلزم هنا أن يكون أول خطاب وصل أثناسيوس في أغسطس سنة 344م. وهذا هو المنطق السليم بمعنى أنه في الوقت الذي أرسل فيه الإمبراطور إلى الإسكندرية في أغسطس سنة 344م مرسوماً يوقف فيه كل العداء ضد أثناسيوس يكون هو نفسه الوقت الذي أرسل فيه أول خطاب إلى أثناسيوس وهو في أكويلا). وفي هذه الخطابات يدعو أثناسيوس أن يتشجع ويحضر لمقابلته.

ثم عاد وأرسل كاهناً وشماساً من قبله (إلى أكويلا) حتى يتشجع بالأكثر ويحضر لمقابلته. لأن الإمبراطور كان يظن أن ما حدث في الماضي قد أزعجني وجعلني لا أعتني بالعودة (هنا أثناسيوس يتكلم بصيغة المتكلم فجأة، ومن هنا يلزم جداً أن ننتبه أن أسلوبه في الكتابة هو أن يتكلم عن نفسه بصيغة الغائب دائماً إلا إذا اضطرراً اضطراراً أن يعبر عن نفسه بالتأكيد).

ثم وأكثر من هذا - أرسل إلى أخيه الإمبراطور قسطانس سنة 345م ليحتني على العودة، مؤكداً لأخيه أنه لا يزال سنة بأكملها وهو منتظر حضور أثناسيوس إليه، (هذا معناه الأكيد أنه سبق وأرسل خطاباً له منذ سنة كاملة)، وأنه لن يسمح بأي تغيير في الوضع أو بأي رسالة أخرى إذ أنه محتفظ بكنائس أثناسيوس (بعد موت غريغوريوس) لتكون لأسقفها. [256]

الخطابات الثلاثة التي أرسلها الإمبراطور قسطنطيوس إلى أثناسيوس:

ولأهمية هذه الخطابات ليس لنا فقط ولا للتاريخ وحسب، ولكن لأثناسيوس نفسه إذ جاءت بعد جروحه النازفة كضامات ملطفة في أوانها الحسن، رأيت أن أسجلها للقارئ لعلّه يلتقط فيها أنفاسه وهو يتابع هذا الأسقف الطريد على مدى هذه الحوادث الجسماء، وهذه الخطابات إن كانت تكشف عن الجانب الإنساني لهذا الإمبراطور المتقلب إلا أنه بعد أن نقضها بنفسه بعد ذلك، تُحسب عليه أنها لا تمثل شيئاً من طبيعته الفظة الجبابة، ولكنها الظروف هي التي كانت تكيف سلوك هذا الإمبراطور.

الخطاب الأول:

[أغسطس قسطنطيوس المنتصر إلى أثناسيوس
إن مراحمتنا المترأفة لم تعد تحتل وقوفكم وسط أمواج البحر المستوحشة
تلاطمون العواصف. وإن تقوانا لم تكِل أبداً عن ملاحظتكم عن قرب، لَمَّا
حُرمت من وطنكم، وجُرِّدت من كل ممتلكاتكم، وجُئتم تائهيين هكذا في البراري
المستوحشة. وبالرغم من أنني منذ مدة طويلة وأنا أُوجَل فكرة كتابة خطاب
إليكم أشرح فيه نية قلبي بخصوصك، لأنني كنت أترقّب ظهوركم أمامي
بمحض مسرتكم، طالباً خلاصك من الآلام التي تعانيها، ولكن يبدو أن الخوف
قد منعك من تتيم هذه الفكرة، لذلك أرسلنا لكم خطاباتنا المشددة لعزمكم
المملوءة من كرمنا، بغرض الإسراع للظهور أمام حضرتنا بلا خوف حتى
تحصل بسرور على كل رغباتك. ولكي إذا ما اخترتم لطفنا تعودون مطمئنين
إلى بلدكم. ولأجل هذا الأمر أرسل مترجياً سيدي وأخي أغسطس قسطنطس
المنتصر بخصوصك حتى يأذن لك بالحضور حتى تعود إلى بلادك بموافقتنا
جميعاً. اقبلوا هذا كعهد هبة منا.] (257)

الخطاب الثاني:

[ولو أننا أوضحنا لكم تماماً في خطاب سابق لكي لا تترددوا في الحضور إلى
البلاط، لأننا نرغب بشدة في عودتكم إلى الوطن، إلا أننا نضيف أيضاً إلى ذلك
خطابنا هذا لتقوية عزمكم، نستحثكم بلا أي خوف أو مظنة أن تستخدموا
وسائل مواصلاتنا الخاصة مسرعين إلينا حتى تنالوا ملء رغباتكم.] (258)

الخطاب الثالث:

[ولسرورنا بينما كنا في بلاد الرها (أوديسا) أننا صادفنا كهنة لك هناك، فرأينا
أن نرسل واحداً منهم إليك لكي تسرع إلى بلاطنا لكي تتشرّفوا برؤيتنا، وحينئذ
تتجهون مباشرة إلى الإسكندرية. ولكن وقد مضت مدة طويلة جداً منذ أن
تسلّمتم خطاباتنا ولم تحضروا إلى الآن، فنحن نسرع بتذكيركم أيضاً لكي
تحاول الآن جاهداً في الحضور إلينا سريعاً حتى تعود إلى بلادك وتنال تحقيق

(257) *Apolog. Cont. Arian*, 51.

(258) *Apolog. Cont. Arian*, 51.

صلواتك، وليكن في علمك أننا أرسلنا أخياس الشماس إليكم الذي منه يمكنكم أن تعلموا غرض نفسنا وهو أن تحصل على موضوع صلواتك. [259]

وداع الأصدقاء وخطاب يوليوس الطيب القلب المملوء رقة:

ولكن أثناسيوس لم يشأ أن يتوجّه إلى الإمبراطور قسطنطيوس والبدء في العودة إلى الإسكندرية، قبل أن يستودع من أصدقائه الأوفياء الذين ساندوه في محنته بكل ثقلهم، وهل ينسى يوليوس أسقف روما الوقور الذي أكرم وفادته كل أيام تعبه، الذي دعاه لمشاركة الأسرار الإلهية منذ أول يوم، الذي جمع كل أساقفته وأوقفهم إلى جانبه صفاً واحداً متراصاً، الذي تبنى قضيته وتبنى حججه وبراهينه ودفاعاته وختم عليها، وأخيراً عانى المهزأة من هؤلاء الأريوسيين وإهانة العزل من مجامعهم بسببه؟

أم ينسى قسطنس الذي أحبه واحترمه وأكرم وفادته ودعاه إلى مجالسه من مدينة إلى مدينة، وأخيراً وضع نفسه في أخرج المواقف لنصرة قضيته وضمأن عودته إلى كرسيه، بأن هدّد أخاه ليختار بين إعادة أثناسيوس أو إعلان الحرب!! جاعلاً قضية أثناسيوس على مستوى شرف التاج الذي يلبسه!!

وإليك كلمات أثناسيوس في الموضوع ونص الخطاب الذي أرسله يوليوس أسقف روما إلى أهل الإسكندرية الذي ظل في حوزة أثناسيوس:

[وهكذا كانت لهجة خطابات الإمبراطور التي حالما تسلّمتها، ذهبت إلى روما لأستودع الكنيسة ويوليوس أسقف روما، لأنني كنت في أكويلا عندما وصلني الخطاب الأخير - فوجدت الكنيسة (في روما) مملوءة بالفرح، وتهلّل الأسقف يوليوس معي لعودتي، وكتب إلى الكنيسة (في الإسكندرية). وبينما كنا نعبر على المدن خرج أساقفة تلك النواحي يشيعوننا بسلام، أمّا خطاب يوليوس فأنقله إليكم كالآتي بنصه (كتب في بداية سنة 346م):

من يوليوس إلى كهنة وشماسة وشعب الإسكندرية:

أهنتكم أيها الإخوة لأنكم الآن ترون بأعينكم ثمرة إيمانكم، لأن هذه هي حقيقة قضية أثناسيوس الأسقف الزميل التي يمكن أن يراها الآن كل واحد، الذي من أجل طهارة حياته ومن أجل صلواتكم أعاده الله إليكم مرّة ثانية. وهذا

بيّنة على أنكم كنتم بلا انقطاع تقدّمون لله تضرّعات نقية مملوءة بالمحبة عالمين بالمواعيد الإلهية والمحبة المؤدّية إليها. هذه التي تعلّمتوها من أخي، واثقين بكل تأكيد عن معرفة وإيمان صادق أن هذا الذي احتفظتم به حاضراً دائماً في قلوبكم بالتقوى لن ينفصل عنكم إلى الأبد.

وإني أعتقد أنه ليست هناك حاجة أن أستخدم عبارات كثيرة في الكتابة إليكم، لأن إيمانكم قد سبق وفاق كل ما يمكن أن أقوله لكم، وبهذا الإيمان نلتكم كل الرجاء المنتظر كثمرة لصلواتكم العامة.

ولهذا فإني أفرح أيضاً معكم لأنكم حفظتم أنفسكم بالإيمان غير منهزمين، كما إني بالمثل أفرح مع أخي أثناسيوس كونه وقد احتمل محناً هذا عددها لم يوجد في أي وقت ناسياً محبتكم وشوقكم نحوه. فبالرغم من أنه ظهر وكأنه قد انتزع منكم بالجسد إلى فترة، إلا أنه كان يحيا كحاضر معكم بالروح على الدوام.

وبالأكثر فإني مقتنع يا أحبائه أن كل تجربة عاناها لم تكن بدون مجد، إذ بها جاز إيمانكم وإيمانه الامتحان ثم استعلن للجميع. فلولا هذه الضيقات كلها التي عاناها، من كان يصدّق هذا التوقير وهذه المحبة وبهذا المستوى العالي من نحو أسقفكم الجليل، أو من كان يعرف أنه موهوب بهذه الفضائل الممتازة التي على أساسها قد يتنبّأت رجاؤه أيضاً في السموات؟ فهو بهذه الضيقات حصل على شهادة واعتراف حُسبا له بالمجد هنا في هذا الدهر وفي الآتي. وعندما جاز هذه المحن كلها المتعدّدة الأشكال في البر وفي البحر عابراً على كل دسائس الأريوسيين، كان يتعرّض دائماً للخطر بسبب الأحقاد، ولكنه كان يستهين بالموت عالماً أنه في حمى الله القدير والرب يسوع المسيح، واثقاً أنه ليس فقط سينجو من مؤامرات مضطهديه بل وإنه سيعود إليكم من أجل تعزيتكم ومعه شهادات انتصار، هي أصلاً من صنع ضميركم، التي بها صار معروفاً وممجّداً حتى وإلى أطراف الأرض! وإنه مستحق لهذا باستحقاق نقاوة حياته وحزم عزيمته، وتشبّثه الذي لا يتزعزع بالعقيدة الإلهية، هذه التي شهدتم أنتم لها وأثبتتموها له بتوقيركم وحبكم الذي لم يتزعزع.

فها هوذا يعود إليكم وهو أكثر تألقاً مما كان يوم غادركم!! لأن النار إن

كانت تجعل الذهب والفضة أكثر نقاوة بعد الاختبار، فكم بالحري ما يُقال بالنسبة لإنسان عظيم مثل هذا يليق به كل استحقاق، الذي بعد أن جاز النار بغلبة مرات عديدة وبمخاطر، يعود إليكم الآن وبرأته مُعلنة أمامه، ليس من جهتي بل والمجمع كله!

فالآن أيها الإخوة الأحباء استلموا أسقفكم أثناسيوس بكرامة وفرح إلهيين مع كل الذين رافقوه في الضيقات، وتهلّلوا لأنكم نلتُم رجاء صلواتكم، أنتم الذين كنتم بالطعام والشراب تعضدّونه وبالخطابات كنتم تساندونه، أمّا راعيكم هذا، فكان جائعاً دائماً وعطشاً إلى تقدّمكم الروحي.

وفي الحقيقة أنتم كنتم عزاء نفسه عندما كان متغرباً في الأرض البعيدة فصرتم إنعاشاً لروحه بعواطفكم الصادقة وهو في أعماق المحن والاضطهاد.

أمّا أنا فإنه يسعدني، حتى ولمجرد تصوّري فرحة كل واحد منكم عند عودته إليكم، وتحيات التقوى الصادرة من كل الشعب وأعياد اللّقاء المجيدة التي تنهياً لها الجماعات، وعجبي على تلك الصورة الكاملة لذلك اليوم الذي فيه يلتقي أخي هذا بكم مرّة أخرى، عند نهاية الضيقات كلها، عندما تلتحم القلوب جميعاً الملتاعة بالشوق للعودة المبتغاة بأحرّ ما تكون عليه تعبيرات الفرح. وإن هذا الشعور عينه ليمتد إلينا في أعلى درجاته، نحن الذين نعتبره بيّنة على فضل الله علينا أنه جعلنا أهلاً لهذا الامتياز أن نتعرّف على هذا الإنسان الجليل الشأن.

وإنه ليليق بنا أن نختم هذه الرسالة بصلاة:

ليت الله القادر على كل شيء وابنه ربنا ومخلّصنا يسوع المسيح يمدكم بهذه النعمة على الدوام، وهكذا يعوّضكم عن الإيمان العجيب الذي أظهرتموه بشهادة عجيبة فيما يختص بأسقفكم، بأن يجعل لكم وللذين معكم «ما لم تراه عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر ما أعده الله للذين يحبونه»، بالمسيح يسوع ربنا، الذي به المجد لله القادر على كل شيء إلى الأبد آمين. وإني أصلي لكي تتشددوا أيها الإخوة المحبون. [260]

انتهى خطاب يوليوس إلى أهل
الإسكندرية
كما سجّله أثناسيوس بنفسه

تعليقتنا على رسالة يوليوس أسقف روما لكنيسة الإسكندرية:

تعتبر هذه الرسالة من أهم الوثائق في تاريخ العلاقات بين أساقفة الإسكندرية وروما، وهي نموذج، أعلى نموذج، لما ينبغي أن تكون عليه الصلات بين الكنائس وبين رجال الدين عموماً وتمتاز هذه الرسالة بالعناصر الآتية:

(أ) الروح المسيحية تنطلق في هذه الرسالة لتعبّر عن المشاعر الإيمانية والإنسانية معاً في ألفة منقطعة النظير، فليست القناعة وحدها بصحة العقيدة والإيمان هي التي أمّلت هذه الرسالة، بل والمشاعر الإنسانية الصادقة التي قيّمت الظلم والعسف والجور الواقع على إنسان بريء. وما أحوج الكنيسة اليوم لهذا التناسق بين اللاهوت والإنسانية.

(ب) لقد نأى هذا الأسقف الطيب القلب في عبارات هذه الرسالة عن كل أساليب السياسة التي تتبع أصلاً من الإحساس بالذات وتعظيم الامتيازات العنصرية بأي وجه من وجوهها: فقد قرّظ أثناسيوس كشخص أفضل، وقرّظ شعب الإسكندرية كشعب أقدس باتضاع مذهل، وهو بذلك رفع نفسه دون أن يدري فوق كل مستوى بشري!!

(ج) لذلك نجد في هذه الرسالة أن هذا الأسقف يوليوس الجليل الشأن حقاً قد ترك روحه ومشاعره تتكلم عمّا تحسه وتؤمن به، في إخلاص وصدق وبساطة ملفتة جداً للنظر، فتكلم كلاماً إذا وُزن بموازين العزة والأنفة الرومانية، وُجد ناقصاً معيياً، ولكنه إذا وُزن بميزان المسيح لُوجد كاملاً كمال المسيح ذاته!!

أثناسيوس يقابل الإمبراطور قسطنطيوس:

وأخيراً وبعد هذه الإلحاحات سواء بالخطابات المباشرة لأثناسيوس، أو بإرسال وفود رسمية إليه، أو بترجيّ أخيه ليتوسّط في الأمر، سافر أثناسيوس مع وفد من الإكليروس المصري وقد كان مقيماً وقتها في أكويلا - ليقابل قسطنطيوس، وهو في أشد الريبة من نيات هذا الإمبراطور المتقلّب، ولأنه كان يشك في إمكانياته وحرية إرادته أكثر مما كان يشك في نيّاته، طلب منه أن يستوثق أولاً أساقفته ورجاله

ويستحضر ليحاججهم أثناسيوس ليكشف كذبهم أمام الإمبراطور حتى لا يعودوا إلى ما كانوا يعملون، ولكنه رفض وكأنه واثق من نفسه، مع أنه كان دون ذلك بكثير. وإليك كلام البابا أثناسيوس في الموضوع، ويلاحظ أن أثناسيوس يتكلم عن نفسه بصيغة الغائب دائماً:

[ولمّا ضغط عليه هكذا بكتاباتهِ وأرسل يستحثه ويشجّعه بواسطة كثيرين، لأنه جعل جماعة من أشرف الولاة الذين يثق فيهم أثناسيوس يكتبون إليه مثل بوليميوس وداتيانوس وبارديون وثالاسسوس وتوروس وفلورنتيوس، سلّم أثناسيوس الأمر كله لله الذي حرّك ضمير قسطنطيوس ليصنع هذا، وحضر إليه مع أصدقائه، وقد أصغى إليه الإمبراطور بكل قبول، وشيّعهُ إلى وطنه وإلى كنائسه، وكتب إلى الولاة في كل مكان، الذين سبق وأن أمرهم أن يحرسوا الطرق، بأن يعطوه الآن حرية المسير والعبور.

ولمّا اشتكى الأسقف (أثناسيوس هنا يتكلم عن نفسه) مما أصابه سابقاً من الآلام التي عاناها ومن الخطابات التي وجهها الإمبراطور ضده، متوسلاً إليه أن لا تعود الاتهامات الباطلة وتتجدد بواسطة أعدائه بعد رحيله قائلاً: "إن حسن في عينيك أرجوك أن تدعو هؤلاء الأشخاص لكي تكشف سلوكهم فيما يختص بنا، وهم لهم الحرية فيما يواجهوننا"، فلم يشأ الإمبراطور ذلك، ولكنه أمر أن كل ما كُتب من وشاية وافتراء في حقه يُمزق ويُلقى، مؤكداً أنه لن يصغي مرّة أخرى لمثل هذه الاتهامات وأن فكره ثابت ولن يتزحزح. وهو لم يقل هذا بمجرد الكلام فقط، وإنما ختم أقواله هذه بقسم مستشهداً بالله فيما قال وأقسم (ولكن للأسف فقد حنث في كل ما قال وكل ما أقسم) وشيّعهُ بكلام تشجيع، ولكي يثق في ذلك أرسل هذه الخطابات للأساقفة والولاة.] (261)

وقد حاول الإمبراطور بإيعاز من الأريوسيين أن يقطع من أثناسيوس كنيسة خاصة في الإسكندرية للأريوسيين، وكأنما قد عزّ على هؤلاء الشياطين أن يفقدوا الإسكندرية كلها مرّة واحدة، فحاولوا لتكون لهم بقية ليستأنفوا منها عملياتهم الشيطانية، ولكن كان رد أثناسيوس حاضراً وسريعاً بدرجة مذهلة مما أسكت

الإمبراطور وأنهى على هذه المحاولة الأخيرة اليائسة.

وإليك تسجيل، للمؤرخ سقراط، لهذا الحوار الخطير الذي جرى بين الإمبراطور والبابا أثناسيوس:

[وصل أثناسيوس إلى الشرق ومعه خطابات الدعوة الثلاثة، ولم يقابله الإمبراطور بعداء - (كالعادة) - إلا أنه بتحريض الأريوسيين حاول الإمبراطور أن يلفّ عليه ويخدعه قائلاً: "هوذا أنت تعود إلى كرسيك بمقتضى قرار المجمع وموافقتنا، ولكن وبما أن بعض الشعب في الإسكندرية يرفض أن يقيم الشركة معك، فاسمح أن يكون لهم كنيسة خاصة بهم في الإسكندرية".

وإزاء هذا الطلب أجاب أثناسيوس في الحال بقوله: "يا صاحب السلطان أنت لك القوة أن تأمر وتنفّذ أيضاً كما تشاء، وأنا أيضاً بناء على ذلك أستأذنك أن تمنحني من فضلك شيئاً". فأجاب الإمبراطور على الفور بالقبول، فاستطرد أثناسيوس في الحال أنه يرغب في أن يُمنح هو أيضاً نفس الشيء الذي طلبه الإمبراطور منه: أي أن في كل مدينة تُمنح كنيسة للذين يرفضون إقامة الشركة مع الأريوسيين! ولكن الأريوسيين سرعان ما لمحوا من غرض أثناسيوس الأذية والضرر الذي سيحيق بهم هم(262)، فأجلّوا طلبهم وانسحبوا معطين التصرف للإمبراطور.

وقد منح الإمبراطور لأثناسيوس وبول ومارسيلوس واسكلباس ولوقيوس العودة إلى كراسيهم، لأن هؤلاء جميعاً قبلهم مجمع سرديكا ... ولكن من جهة أثناسيوس كتب الإمبراطور خطابات توصية للأساقفة والكهنة والشعب لتصير مقابلاته بسرور، على أن تُسترد جميع الخطابات التي كانت تحمل أوامر ضده وتُلغى. [263]

ويضيف المؤرخ سوزومين أن الإمبراطور قسطنطيوس أمر بأن تكون رحلة

(262) ينبغي أن ينتبه القارئ جداً أن الحزب الأريوسي في جميع كنائس الشرق كان يمثل الأساقفة وبعض الكهنة وقلة قليلة من الشعب، أما غالبية الشعب الساقطة فظلت قويمة الرأي والإيمان (انظر: سوزومين 20:3).

أثناسيوس في العودة سريعة وعلى وسائل مواصلاته الخاصة(264).

ونحن لا نستطيع أن نعبر على هذه المحاولة المستميتة واليائسة من جهة الأريوسيين للحفاظ على وجودهم في الإسكندرية دون أن نشعر بأن الجانب الأريوسي لا يزال متحفزاً للحفاظ على وجوده في الإسكندرية بالذات، لأن في ذلك ضماناً لوجودهم في بقية أنحاء العالم كله! لأنهم يعلمون تماماً أن الإنهاء عليهم في الإسكندرية معناه الإنهاء عليهم جميعاً في جميع أنحاء العالم، مع أن الإسكندرية ليست عاصمة للإمبراطورية والشرق كالقسطنطينية أو أنطاكية، وذلك معناه الوحيد أن ثقل الإسكندرية اللاهوتي والفكري كان يوازن العالم كله، وهذا ما برهنته الحوادث السالفة جميعاً وما سوف تؤكده بشدة الحوادث القادمة أيضاً! ...

أمّا خضوع قسطنطيوس لاقتراح هؤلاء الأريوسيين حتى إلى آخر لحظة، فهو ينبئ بأنه لا تزال في أخلاق الرجل بقية من الخداع والتحيُّز وميل إلى الضلال.

العودة إلى الإسكندرية: 24 بابة - 21 أكتوبر سنة 346م:

ومن أنطاكية انحدر أثناسيوس جنوباً ماراً بسوريا وفلسطين ثم إلى مصر عن الطريق البري، لأن أثناسيوس لم يستخدم البحر في رحلات العودة، ويضيف "تاريخ أسفالوس" بحسب التحقيق على الخطابات الفصحية - أن جموعاً غفيرة من الشعب والرؤساء خرجوا لملاقاته في الطريق من فلسطين إلى الإسكندرية على بعد مائة ميل من الإسكندرية في المنطقة التي تُدعى Chaereau (وهذا الاسم وارد في كتاب حياة أنطونيوس بقلم أثناسيوس فصل 86).

وقد أفرد القديس غريغوريوس النزينزي في العظة رقم 21 وصفاً بليغاً لدخول أثناسيوس إلى الإسكندرية بعبارات المديح الكثير، وقد ارتأينا أن نكتفي بوصف أثناسيوس نفسه لأنه أكثر واقعية.

ويصف لنا أثناسيوس بنفسه دقائق هذه الرحلة المفرحة والمثيرة هكذا:
[وأخيراً وتحت هذه الظروف وبعد أن أخذوا الإذن بالمغادرة بدأت الرحلة، أمّا الأصدقاء الذين قابلونا ففرحوا إذ وجدوا صديقاً، أمّا الحزب الآخر فبعضهم انتابه الارتباك عند رؤيته (أثناسيوس يتكلم عن نفسه)، وآخرون لم توافهم

الشجاعة للظهور فاختموا، وآخرون ندموا واعتذروا عمّا كتبوه ضد الأسقف.
وهكذا كل أساقفة فلسطين استقبلوا أثناسيوس بسرور - ما عدا اثنين أو ثلاثة
من ذوي الأخلاق المشكوك فيها - وأقاموا الشركة معه معتذرين - كتابة - على
أساس أن ما سبق وكتبوه (ضد أثناسيوس) إنما قاموا به ليس بدافع من إرادتهم
وإنما بالإرغام. [265]

وفي موضع آخر يصف أثناسيوس مقدار حماس أساقفة فلسطين ويذكر أنهم
عقدوا مجمعاً في أورشليم برئاسة مكسيموس أسقفها لاستقباله بمنتهى الحرارة
وشيعوه بعد أن كتبوا رسالة رقيقة إلى أساقفة مصر، وإليك تسجيلات أثناسيوس في
هذا الموضوع:

[ولمّا مرت على سوريا(266) قابلت أساقفة فلسطين الذين عقدوا مجمعاً في
أورشليم استقبلوني فيه بحرارة قلبية وكتبوا هذا الخطاب إلى الكنيسة
(الإسكندرية) والأساقفة:

المجمع المقدّس المنعقد في أورشليم، إلى زملائنا في الخدمة في مصر
وليبيّا، وإلى كهنة وشمامسة وشعب الإسكندرية، الإخوة المحبوبين الذين
نشأتق إليهم جدّاً، يرسل تمنيات العافية في الرب.

لا نستطيع إلّا أن نقدّم الشكر اللائق إلى الله من أجل الأمور العجيبة التي
يعملها دائماً وبالأخص الآن من جهة كنيستكم بإرجاع راعيكم وسيدكم إليكم،
زميلنا في الخدمة أثناسيوس. لأنه من كان يصدّق أن عينيه ستريان ما قد صار
لكم الآن. حقّاً إن الله الذي يعتني هكذا بكنيستته، قد سمع صلواتكم ونظر إلى
دموعكم وأنيبكم واستجاب لتوسلاتكم ...] [267]

ويعود أثناسيوس ليستأنف وصف الرحلة من فلسطين إلى مصر:
[أمّا من جهة أساقفة مصر ونواحي ليبيّا وشعبيهما وشعب الإسكندرية، فلا

(265) *Hist. Arian.*, 25.

(266) وكان لاوندوس الخصي أسقفاً على أنطاكية، وهذا تحاشاه أثناسيوس ولم يشترك معه، ولكنه
اجتمع هناك مع جماعة يوستانيوس الأسقف القديم الذي عزله الأريوسيون قديماً (انظر صفحة 58)،
وكانوا يمثلون أغلبية الشعب، وأقاموا الشركة معاً في منزل خاص (انظر: سوزومين 20:3).

(267) *Apolog. Cont. Arian.*, 57.

داعي للاسترسال في الوصف، لأنهم تقاطروا جميعاً وقد تملكت عليهم فرحة لا يمكن التعبير عنها، ليس لأنهم استقبلوا أصدقاءهم أحياء، الأمر الذي لم يكونوا قط يتوقعونه، بل وبالأكثر لأنهم تخلصوا من الهراطقة الذين كانوا كالسفّاحين أو كالكلاب المسعورة نحوهم، ولذلك تعاطم سرورهم (باستجابة تقوية)، فكان الشعب يحمس بعضه البعض لمزيد من الفضيلة.

كم من عذارى نذرن أنفسهن للمسيح بعد أن كن يطلبن الزواج!
كم من شباب تغايروا بسبب رؤيتهم لنماذج الآخرين فخرجوا للحياة الرهبانية.

كم من آباء قد أقنعوا أولادهم، وكم من أولاد أقنعوا آباءهم لمزيد من النسك المسيحي.

كم من زوجات أقنعن أزواجهن، وأزواج أقنعوا زوجاتهم وتفرغوا للدخول في عهد الصلاة كما أوصى الرسول.

كم من أرامل كم من يتامى كانوا جياً عرايا وبحماس الشعب امتلأوا شبعاً واكتسوا.

وفي كلمة، كم كانت غيرة الشعب ومنافته في الفضيلة حتى لتكاد تظن أن كل عائلة وكل بيت قد صار كنيسة! من أجل صلاح الساكنين فيه والصلاة التي يرفعونها أمام الله.

أمّا في الكنائس فكانت هناك موجة سلام عميقة وعجيبة، والأساقفة كتبوا من كل ناحية - في العالم - لأثناسيوس، وأثناسيوس كتب لهم الرسائل السلامية كالمعتاد ...

ومنّ كان يرى هذه الأمور ولا يمتلئ عجباً، والسلام يرفرف على الكنائس!
منّ ذا الذي لا يتهلّل بسبب رؤيته لألفة الأساقفة واتفاقهم في كل مكان!
منّ ذا الذي يرى سرور الشعب في كل اجتماعاتهم ولا يعطي المجد لله!
كم من أعداء تابوا،

كم من أشخاص اعتذروا عما بدر منهم نحوه من ظلم أو اتهام بالزور!
كم من أشخاص كانوا معه في عداوة، فصاروا في تعاطف وحب!
كم من الأشخاص الذين انحازوا تحت الضغط والإرهاب جاءوا ليلاً وقدموا

توبتهم! معلنين حرمهم للهراطقة، متوسلين منه العفو لأنهم وإن كانوا قد انغمروا في المؤامرات والمكايد وظهروا كأنهم في انحياز شخصي للأريوسيين، إلا أنهم اعترفوا أن قلوبهم كانت دائماً في شركة صادقة معه ... صدقوني هذا صدق! (أثناسيوس في النهاية يكشف عن نفسه متكلاً بصيغة الحاضر). [268]

رهبان باخوميوس يهنئون أثناسيوس بالعودة حاملين له رسالة من القديس أنطونيوس:

لم يعيش باخوميوس لسمع خبر عودة أثناسيوس من منفاه الثاني، لأنه بحسب التحقيق التاريخي كانت نياحة القديس باخوميوس في 14 بشنس (9 مايو)، وكانت عودة أثناسيوس في 24 بابة (21 أكتوبر) من نفس السنة الميلادية 346م.

أمّا القديس أنطونيوس فكان يتبقي على نياحته عشر سنوات لأنه تنيح سنة 356م. وقصة إرسال أنطونيوس خطاب تحية وتهنئة للقديس أثناسيوس عند عودته من المنفى الثاني، وردت في سيرة القديس باخوميوس هكذا:

[وعرض فيما بعد من الأمور المباركة أن الأب الفائق قدسه أثناسيوس المتوشح بالمسيح رأس أساقفة الإسكندرية عاد من القسطنطينية (صحتها من أنطاكية) وتسلم كرسيه وصار الأكثرون يقصدونه للسلام عليه وللمفاوضة معه وأخذ صلاته وبركته.

ووافق ذلك أن إخوة من الدير "بافو" توجهوا وقتئذ إلى الإسكندرية في مركبهم الخصب لأسباب تختص بمصالح الدير، وفي حال مسيرهم وقد حصلوا عند الجبل الذي كان فيه الأب الكبير أنطونيوس تذاكره، وآثروا أن يبصروه ويأخذوا بركته، فخرجوا من المركب وصعدوا في الجبل وعندما اقتربوا من مغارته، اقتسر ذاته لأنه كان شيخاً هرمًا (95 سنة) ونهض للقائهم. ولما سلموا عليه سألهم عن أخبار الأب باخوميوس (كان قد تنيح منذ فترة قصيرة جدًا ولم يكن قد شاع الخبر بعد) فبكوا بشجوة كثيرة. حينئذ علم أنه قد انتقل إلى الرب، فقال لهم: لا تبكوا لأنكم كلكم بصلواته قد صرتم باخوميين

كثيرين. وبالحقيقة أقول لكم: إنه قد خدم الرب خدمة كبيرة في جمعه هذه الجماعات الوافرة وجعلهم على رأي واحد عابدين الإله، وسلك منهج الرسل واقتدى بهم، وصار مصباحاً منيراً ...

ولمّا عرف أن قصدهم المضي إلى الإسكندرية للسلام على أنبا أنثاسيوس ولأسباب آخر، كتب لهم كتاباً إلى المذكور رئيس الأساقفة يهنئه بقدومه معافى إلى كرسيه ويقول له عن الإخوة حاملين كتابه تأمل أولاد الإسرائيليين حقاً. ثم صلّى عليهم وباركهم وسرّح سبيلهم، ولمّا وصلوا إلى الإسكندرية قبلهم الأب أنثاسيوس الأسقف أحسن قبول وزاد في كرامتهم لا سيما لأجل كتاب المغبوط أنطونيوس لأنه كان عارفاً بفضيلته وسمو سيرته ولمّا قضوا أشغالهم عادوا إلى ديرهم. [269]

الفصل الرابع جهاد أثاسيوس حتى النفي الثالث

- (أ) فترة هدوء وسلام طويلة: الحلقة الذهبية في حياة أثاسيوس
(ب) بدء الاضطرابات للمرة الثالثة
(ج) فترة النفي الثالث
(د) العودة إلى الإسكندرية

فترة هدوء وسلام طويلة
من 24 بابة - 21 أكتوبر سنة 346 حتى 13 أمشير - 8 فبراير سنة 356م
تسع سنوات وثلاثة شهور وتسعة عشر يوماً

وتعتبر هذه الفترة السلامية أطول مدة قضاها أثناسيوس على كرسي الإسكندرية بدون اضطرابات أو قلائل، كما أنها جاءت في أنسب سن من حياته إذ كان قد بلغ آنذ الثامنة والأربعين من عمره المبارك. وكانت له فترة سعادة وغبطة روحية داخلية، لذلك سُميت بالحلقة الذهبية في سلسلة حياته.

الحلقة الذهبية في حياة أثناسيوس
346م - 356م

وتنقسم هذه الفترة إلى مرحلتين بسبب موت الإمبراطور قسطانس صديق أثناسيوس:

المرحلة الأولى: 346م - 351م. وتنتهي بموت قسطانس وتولي قسطنطيوس عرش الإمبراطوريتين معاً الغربية والشرقية، وذلك في يوم 28 سبتمبر سنة 351م في اليوم المعروف بيوم مورسا.

والمرحلة الثانية: 351م - 356م. وهي وإن كانت قد بدأت فيها حركات المقاومة، ولكن كانت تتميز بعمل إيجابي وتوطيد الحياة الروحية والكنسية بوجه عام وفي كل ربوع مصر، وبالأخص الأقاليم البعيدة وطيبة (الأقصر). ولذلك نستطيع أن نعتبر كل هذه المدة أي العشر سنوات كفترة واحدة هيأها الله للعمل والبناء والتعليم والرعاية.

نهضة رعائية عامة وشعبية في كل النواحي الروحية:

إن عودة أثناسيوس إلى كرسيه بعد غياب طال أمده (تسعون شهراً)، وبعد المعاناة القاسية التي عاناها كل من أثناسيوس والشعب تحت وطأة اضطهاد الأريوسيين والميليتيين، كانت بمثابة نجدة سماوية غير مرتقبة، جعلت الشعب في حالة تحفزٍ روحي شديد واستعداد إيجابي لكل دعوة روحية ولكل خدمة ولكل عمل يمكن أن

يعبر فيه الشعب عن امتنانه لله وحبه وخضوعه المطلق لراعيه الأمين، الذي قدّم حياته عنهم للموت مراراً. وأثناسيوس نفسه هو الذي يكشف لنا سبب إيجابية الانفعال الذي تملك على الشعب وظهر في صورة أعمال ونسك وجهادات وتقوى هكذا:
[وقد تملك عليهم فرحة لا يمكن التعبير عنها ليس لأنهم استقبلوا أصدقاءهم أحياء، الأمر الذي لم يكونوا يتوقعونه، بل وبالأكثر لأنهم تخلّصوا من الهراطة الذين كانوا كالسفّاحين أو كالكلاب المسعورة نحوهم. ولذلك تعاضم سرورهم، فكان الشعب يحمّس بعضه البعض لمزيد من الفضيلة.] (270)

ولقد أجمل لنا أثناسيوس كل الأعمال الإيجابية التي قام بها الشعب على كل مستوياته بعد عودته من المنفى الثاني، سواء التي قدّمها الشعب بتلقائية فرحته بعودة راعيه أو التي امتثل لها بناءً على توجيهات من البابا أثناسيوس نفسه. ويمكن تقسيمها بحسب التسلسل الذي اتبعه أثناسيوس كالآتي:

أولاً: نشاط متزايد جداً في الخروج من العالم

لتقبل الحياة الرهبانية بالنسبة للفتيات والشبان:

(أ) بالنسبة للشابات: “كم من عذارى نذرنا أنفسهن للمسيح بعد أن كنّ يطلبن الزواج”.

(ب) بالنسبة للشبان: “كم من شباب تغايروا بالغيرة الحسنة بسبب رؤيتهم لنماذج الآخرين، فخرجوا من العالم للحياة الرهبانية”.

ثانياً: إقبال الأسر على أعمال النسك والتدقيق في الحياة،

من صوم وصلاة وصدقة وحضور الاجتماعات الكنسية:

“كم من آباء أقنعوا أولادهم وكم من أولاد أقنعوا آباءهم لمزيد من النسك المسيحي”.

ثالثاً: دخول المتزوجين في تنافس مع النساك والرهبان، للقداسة بروح إنجيلية:

“كم من زوجات أقنعن أزواجهن وأزواج أقنعوا زوجاتهم وتفرّغوا للدخول في عهد الصلاة”.

رابعاً: تكوين منظمات شعبية بسبب انفعال المحبة الروحية العملية،
لخدمة الأرامل والأيتام من جهة الأعواز الجسدية:
“كم من أرامل وكم من أيتام كانوا جياعاً عرايا، وبحماس الشعب امتلأوا شبعاً
واكتسوا”.

خامساً: تكوين اجتماعات روحية في البيوت في حدود الأسرة
للصلاة والتسبيح والشكر، حتى صار كل بيت كأنه كنيسة:
“كانت غيرة الشعب ومنافته في الفضيلة شديدة حتى يكاد يُظن أن كل عائلة
وكل بيت قد صار كنيسة، بسبب صلاح الساكنين فيه والصلوات التي يرفعونها أمام
الله”.

“سرور وسط الشعب في كل اجتماعاتهم”.

سادساً: نشاط الخدمة داخل الكنائس والصلوات وعلاقات الأساقفة والكهنة
كان يعتمها السلام العميق، وهنا إشارة ضمنية إلى عمليات تنظيم وتوجيه من
أثناسيوس نفسه لابد شملت مجامع محلية واجتماعات وزيارات افتقاد:
“أمّا في الكنائس فكانت هناك موجة من السلام العجيب والعميق، والأساقفة كتبوا
من كل النواحي واستلموا من أثناسيوس الرسائل السلامية كالمعتاد”، “والسلام هكذا
كان يرفرف على الكنائس”.

“ألفة بين الأساقفة واتفاقهم في كل مكان”.

سابعاً: نشاط ملحوظ في الوعظ والنشرات الدورية لإقناع الأريوسيين
والميليتيين بالعودة إلى الكنيسة، وإظهار روح الصفا والقبول:
“كم من أعداء تابوا”.

“كم من أشخاص اعتذروا له عمّا بدر منهم نحوه من ظلم أو اتهام بالزور”.

“كم من أشخاص كانوا معه في عداوة فصاروا في تعاطف وحب”.

“كم من أشخاص انحازوا تحت الضغط والإرهاب جاءوا ليلاً وقدموا توبتهم”.

القديس أنثاسيوس والحياة الرهبانية (في الفترة من سنة 346م - 356م)

تعتبر هذه الفترة من أهم الفترات في تاريخ الكنيسة وفي تاريخ الحياة الرهبانية معاً، إذ توطدت فيها العلاقة بين الاثنين إلى درجة الالتحام الشديد، فبالرغم من أن الحياة الرهبانية ظلَّت حتى هذا التاريخ تؤدِّي خدماتها الروحية بتحفظ شديد، باعتبار الرهبة عزلة وانقطاعاً كلياً عن العالم، تستمد وجودها من عزلتها وتستمد نشاطها من صمتها، وتؤدِّي واجبها الإيماني والكنسي إزاء مشاكل الرؤساء ومحنة الكنيسة بالصلاة من على بُعد أو بزيارات خاطفة، إلا أنه لم يدم هذا التحفظ ولم يدم هذا الاستقلال بصورته الحاسمة هذه، وذلك بعد أن أدرك أنثاسيوس مركز الرهبة الهام والدور الخطير الذي قام به الرهبان في محنة الكنيسة أثناء اضطهاد الأريوسيين، وفي فترة نفيه الثاني بالذات التي دامت تسعين شهراً.

ولقد خرج أنثاسيوس من نفيه الثاني وله في ذهنه صورة للرهبنة وضحت معالمها من خلال هذه المحنة، استطاع أن يستوعبها وصمَّم أن يمتد بها لتؤدِّي أقصى ما يمكن من نشاطها تجاه الكنيسة عامة.

1 - فقد ثبت لديه بالدليل القاطع أن التجمُّعات الرهبانية في نتريا في أقصى الشمال بقيادة أمون، وفي وسط الوادي بقيادة أنطونيوس، وفي طبنسين في أقصى الجنوب بقيادة باخوم، كانت أثناء الحرب الأريوسية - حرب التضليل وزعزعة الإيمان ومسح التقليد - عبارة عن مراكز ثابتة وحصون لتجمُّع إيماني ضخم، كانت بمثابة رصيد ثابت للكنيسة على أعلى درجة من المعرفة الكنسية والإيمانية والاستنارة العملية لا يمكن أن تُقهر بأي حال من الأحوال!!

حاول الأريوسيون استخدام بعض الرهبان والأساقفة المنحازين لهم أن يقتحموا هذه الحصون المنيعة فباءت كل جهودهم بالفشل وذابت العناصر الدخيلة الضعيفة في وسط هذا البحر الخضم من الروحانية! (انظر خطاب أنثاسيوس للرهبان رقم 52، 53).

2 - كانت هذه التجمُّعات الرهبانية الثلاثة بمثابة نقط انطلاق فعَّالة لتغذية المناطق

الشعبية التي ضعف فيها الإيمان. إذ انطلق كثير من الرهبان لمساندة الكنائس في أثناء محنة الاضطهاد فكسروا حدة الموجة الأريوسية التي أعدَّ الأريوسيون لها وخطَّطوا بالسياسة والقوة العسكرية والتزييف الديني (انظر زيارة أنطونيوس نفسه للإسكندرية كنموذج أعلى لما قام به كثيرون من الرهبان).

3 - كما أدرك أنثاسيوس مقدار الأثر الروحي الذي ساند الكنيسة وسانده هو شخصياً في محنته بصلوات الرهبان ومجرّد ظهورهم في وسط الشعب بمنظرهم وسلوكهم الروحاني.

4 - لقد استعان أنثاسيوس بالرهبان في قضاء الكثير من المهام الخطيرة التي كانت على مستوى البذل للموت، فتكشّفت لديه الطبيعة الفدائية التي يكتسبها الرهبان في حياتهم.

5 - وفوق هذا كله كان أنثاسيوس يعتقد بإيمان جازم أن طقس البتولية وخاصة للعداري هو طقس ملائكي، كرامته في الكنيسة تفوق الوصف وله عمله السري لدرجة أنه كان يقول إن المدينة إذا كان يوجد فيها عذراء تقية متبتلة للمسيح، فإن الله يحفظ هذه المدينة بلا سوء بسبب هذه العذراء (انظر قوانين أنثاسيوس).

وانطلاقاً من هذه الأسباب والدوافع، بدأ أنثاسيوس يشجّع الحياة الرهبانية في مواضعه ومؤلفاته ويكتب مقالات عن النسك والرهبنة والبتولية بحماس شديد، حتى ألهب الروح النسكية عند الشبان والشابات، فبدأت موجة التكريس تأخذ اندفاعها وقوتها بصورة ملفتة للنظر جداً.

وإليك أيها القارئ نقدّم تسجيلاً من تاريخ حياة باخوميوس يثبت هذه الحقيقة بالدليل القاطع:

[واتصلت أخبار الأب باخوميوس برجل اسمه تادرس من ذوي مراتب الكنيسة العظمى بمدينة الإسكندرية، وكان فاضلاً في سيرته متقشفاً في عيشته يلزم النسك، ... مستقيم الديانة صحيح الأمانة لأنه كان قريباً وملازماً لينبوع الحياة الأب أنثاسيوس رئيس أساقفة الإسكندرية، ومنه سقى أرضه ورواها

وأتى بأثمار الفضائل. فقبله الأب في الحين بفرح كثير وأحصاه في جملة الإخوة، ورسم له المقام عند شيخ من القدماء الأفاضل يحسن اللغتين اليونانية والقبطية، لأن تادرس هذا كان لا يحسن إلا اليونانية، فكان الشيخ يعلمه القبطية ... وهذا كان بكر الإسكندرانيين في هذا الدير، لأنه قدم منهم جماعة واقتدوا بسيرته، من جملتهم أكسونيوس، وناون، والروميان فيرمي وروميلس والعجيب دومنوس الملقَّب بالأرمني وبقية القديسين الكواكب الزاهرة. بعضهم أدرك باخوميوس في حياته وبعضهم لم يدركه (قبل عام 346م. وبعد 346م). [271]

كذلك نقرأ في سيرة القديس أمونيوس الذي ترهَّب في أديرة الباخوميين على يدي تادرس تلميذ باخوم (15 مارس سنة 351م) بعد نياحة باخوم بست سنوات وأكمل رهبنته في نتريا، أنه تقبَّل الفكرة الرهبانية على أثر موعظة من عظات القديس أناسيوس، وكان عمره آنئذ 17 سنة (272).

ويخبرنا القديس جيروم أن أناسيوس عالج موضوع البتولية مرَّات كثيرة ولا تزال كثير من عظاته ومؤلفاته عن البتولية موجودة، بعضها تحقَّق بصفة مؤكَّدة أنها بقلم القديس أناسيوس أو من أقواله، وبعضها لا يزال العلماء متردِّدين في صحة نسبتها إليه (273).

ومن كتابات أناسيوس الموثوق بها نقرأ الكثير عن قوانين للعداري وصلوات لهن تُقال في مناسبات كثيرة وعلى الأغابي التي تصنعها العداري، وعمَّا يجب في سلوكهن وأكلهن ولبسهن وسهرهن.

كذلك من الاصطلاحات المأخوذة عن أناسيوس القول بأن الرهبنة هي: “طقس ملائكي” وأن “العداري هنَّ عرائس للمسيح” و“إنهن ختمن عقداً مع المسيح يدوم حتى الموت”، “يمارسن الصمت والقراءة في الأسفار المقدَّسة ويرتئن

(271) سيرة باخوميوس (مطبوع) صفحة 129 - 130.

(272) كتاب: “الرهبنة القبطية في عصر القديس أنبا مقار” للأب متى المسكين، صفحة 194 - 260.

(273) *Patrology*, Quastin, vol. III, pp. 45, 49.

المزامير ويعملن بأيديهن ولكن يعشن عيشة الفقر الإرادي» (274).

وقد عثر العالم لوفور في الدير الأبيض على مخطوطات فيها أجزاء من عظات القديس أنثاسيوس كان يستخدمها الأنبا شنودة في تثقيف الرهبان، وفيها يسمي أنثاسيوس الرهبنة أو البتولية «موهبة إلهية» ويسمياها: «غنى الكنيسة»، «عطية البذل المحفوظة لله»، «العدراء تعيش حياة غير مائنة في جسد مائنت» (275).

ومن خطاب أنثاسيوس لأمون أب رهبان إقليم نتريا نستطيع أن نكوّن فكرة غاية في الوضوح عن منهج أنثاسيوس الفكري بخصوص الزواج والبتولية، وعن تقييمه الفائق للحياة الرهبانية هكذا:

[لأنه يوجد طريقان في الحياة بخصوص هذا الأمر: واحد، الأكثر اعتدالاً والعادي، أقصد الزواج؛ والآخر ملائكي ولا يفوق عليه شيء، وهو البتولية. والآن إذا اختار الإنسان طريق العالم أي الزواج فلا يُلام، غير أنه لا يستطيع أن يحصل على مواهب كبيرة كالآخر، فهو سيحصل على ثمر بمقدار ثلاثين، ولكن إذا تقبّل الرجل الطريق المقدّس غير الأرضي، فبموازنته مع الأول - فهو وإن كان خشناً وشاقاً في تكميله، إلا أن ثماره أكثر وأعجب، لأن فيه تنمو الثمار الكاملة بمقدار المائة ... فقوي أيها الأب قطيعك الذين تحت تدبيرك، عظمهم بالكتابات الرسولية (الرسائل) وقُدّمهم بالإنجيل وأرشدتهم بالمزامير.] (276)

هكذا كان أنثاسيوس يعيش بروح أنطونيوس معلّمه الذي كان قد تلقى منه الروح النسكية في شبابه. وهكذا استمر أنثاسيوس يبيث هذه الروح عينها، روح النسك والرهبنة، في الشباب حتى صارت جموع الرهبان تعد بعشرات الألوف، في نتريا والقلالي وشيهيت وطيبة - أي في كل صعيد مصر - من منف حتى أسوان. وقد أحس أنثاسيوس أنه يمتّ إلى هذه الطغمة بصلة وثيقة فوضع نفسه على رأسها يهتم بها ويعتمد عليها، حتى صارت جزءاً لا يتجزأ من الكنيسة وسلاحاً من أقوى الأسلحة التي استخدمها ضد الأريوسيين.

(274) Ibid., pp. 46, 47.

(275) Ibid., p. 49.

(276) Athanas., Letter *xlvi*.

وقد كان لصداقة أثناسيوس برؤساء الجماعات الرهبانية سواء كان مع أمونيوس في نتريا أو أنطونيوس في بسبير أو باخوم في طبنسين، أثرٌ عميقٌ على توجيه الحياة الرهبانية وحفظها على مستوى النسك السليم وتطهيرها من الانحرافات الفكرية وإمدادها بالمعرفة اللاهوتية الصحيحة. وهذا واضح غاية الوضوح من الخطابات القليلة التي احتفظ لنا بها التاريخ سواء التي أرسلها لأمون رئيس نتريا أو لأمونيوس تلميذ تادرس الباخومي الذي عاش في نتريا أو لأورسيزيوس في طبنسين أو لجماعات الرهبان بدون ذكر أسماء، والمعروف أن رؤساء الجماعات كانوا يزورونه ويراسلونه على الدوام ويسألونه عن كل شيء حتى عن دقائق الأمور النسكية التي كان يصعب عليهم إعطاء تعليم قاطع بشأنها، كما حدث مع أمون عندما أرسل يسأله بشأن الاحتلام الليلي والأفكار والمناظر الليلية الخارجة عن حدود الطهارة التي كانت تعثر كثيراً من الرهبان.

ولم يكن اهتمام أثناسيوس بالحياة الرهبانية مقتصرًا على مصر فقط بل امتد حتى شمل كل إيطاليا وفرنسا وبقية النواحي الغربية. وما كتاب حياة أنطونيوس الذي كتبه أثناسيوس في أصله إلا رسالة من الرسائل التي كان يرد بها على استفسارات رؤساء الرهبانات التي أنشأها في الغرب أثناء نفيه الثاني الذي امتد إلى تسعين شهراً.

أثناسيوس يرسم أساقفة على الكراسي الشاغرة من الرهبان:

معروف أنه حتى إلى زمان أثناسيوس (منتصف القرن الرابع) كانت الصفة الغالبة في تعيين الأساقفة من العلمانيين ومن المتزوجين أيضاً، لأن الرهينة حتى إلى ذلك الحين كانت متحفظة أشد التحفظ ومنعزلة أشد العزلة وعازفة عن النزول إلى العالم حتى وبأية حجة فاضلة.

ولكن قد أصبح أثناسيوس ناسكاً ورئيس النسك وقد دفع بأولاد كثيرين لينخرطوا في الحياة الرهبانية متأثرين بعظاته وتعاليمه وسيرته النسكية، بدأ أثناسيوس يقنعهم ليرسم منهم أساقفة بالجملة على الكراسي التي شغرت بطرد الأريوسيين - عندما قويت يده وتشددت بعد عودته من النفي الثاني - وكان عددهم كبيراً جداً.

ومن الحوار الذي سنورده هنا بين أثناسيوس وأحد الرهبان الذين رسمهم أثناسيوس أساقفة، الذي أراد بعد فترة أن يترك الأسقفية ويعود إلى رهينته بسبب

اكتشافه خطورة الحياة وسط العالم، يتضح لنا حداثة فكرة إقامة الأساقفة من طغمة الرهبان في ذلك الوقت.

يقول أثناسيوس في خطابه للأسقف دراكونتيوس (كتبه سنة 354م):
[أسرع إذن أيها الحبيب ولا تتأخر ولا تبالي بهؤلاء الذين يعوقونك ... لأنك لست وحدك فقط الذي اختير من الرهبان ولا أنت وحدك فقط الذي كنت رئيساً على دير أو كنت محبوباً وحدك من الرهبان. فأنت تعلم "سيرابيون" (277).
هذا كان أيضاً راهباً وكان رئيساً على عدد كبير من الرهبان، وليس سيرابيون فقط فأنت تعلم أيضاً رهباناً كثيرين - صاروا أساقفة - أبوللوس كان أباً، وأغاثون، وأريستون، وتذكر أيضاً أمونيوس الذي سافر مع سيرابيون (أرسلهما أثناسيوس مع آخرين لمقابلة قسطنطيوس في ميلان سنة 353م) وأظنك سمعت أيضاً عن مويثس (مويس) الذي على أعلى الصعيد، ويمكنك أن تعرف أيضاً بول أسقف لاتوبوليس، وآخرون كثيرين، وهؤلاء لما اختيروا لم يستعفوا أو تخلوا ...

فلا تجعل الرهبان بعد ذلك يمنعوك، وكأنما أنت وحدك الذي اختير من بين الرهبان، ولا تقدم الأعذار لكي تثبت أنك ستخسر (في الأسقفية) أو تنحل، لأنك بالعكس يمكنك أن تنمو لو تمثلت ببولس واقتفيت أثر جهادات القديسين ... لا تصدق الذين يقولون لك إن عمل الأسقفية هو فرصة للخطية أو أنه يثير التجارب التي تؤدي إلى الخطية.] (278)

من هذا الحوار الشيق يتضح تماماً أن رسامة الأساقفة قد بدأت بالفعل في أيام أثناسيوس تأخذ طريقها من طغمة الرهبان، ولكن في حذر وخوف وتمنع بل ونكوص واستعفاء أحياناً. كما يظهر الرهبان هنا يشيرون على أخ لهم قد رسم بالفعل أسقفاً أن يترك الأسقفية ويعود إلى رهبانيته حفاظاً على خلاصه! ولا يصعب أن يدرك القارئ أن غالبية الأساقفة كانوا من العلمانيين وليس من طغمة الرهبان،

(277) المعتقد أن سيرابيون رسمه أثناسيوس أسقفاً على تمويس ربما في سنة 337-339م. ويعتقد أنه تنبَّح بعد سنة 368م. والمعروف بتحقيق أنه تلميذ لأنبا أنطونيوس. وقد ظلت علاقاته برهبان أنطونيوس قوية.

(278) *Letter of Athanas., ad. Dracontius.*

فالأمتلة التي قدّمها أنثاسيوس للرهبان الأساقفة تزيد عن سبعة قليلاً، في حين أن عدد الأساقفة آنذ كان يربو على المائة!

أثر ارتباط الأساقفة الرهبان بأديرتهم وزملائهم الرهبان:

ودون أن يدري أو يخطّط، استطاع أنثاسيوس أن يربط لأول مرّة المؤسسات الرهبانية بالكنيسة بهذه الرسامات الجديدة والكثيرة جدًّا - رباطاً قوياً ظل مستمراً حتى اليوم، وجعل من الأديرة ظهيراً صلباً للكنيسة. وكأنما بهذه الرسامات جنّد الأديرة والرهبان جميعاً لخدمة الكنيسة خصوصاً في الأوقات العصيبة التي كانت وشيكة الوقوع. فكل أسقف كان يشايحه دير، وكل دير كان يشايحه إقليمه، فلو علمنا أن الأديرة كانت في ذلك الزمان على أعلى مستوى من الألفة والمحبة والتعاون وتبادل الرهبان بعضهم مع بعض، لأدركنا مقدار الترابط والقوة الروحية التي آلت للكنيسة بهذا التدبير الجديد، وهذه هي القوة ذاتها التي خدمت أنثاسيوس في هروبه الثالث حيث صارت له الأديرة وجماعات الرهبان بمثابة أعوان وأهل وجنود فدائيين في صمت وإخلاص وحب وبذل حتى الموت!

تطهير الأقاليم والأديرة من الأريوسية:

لقد بذل أنثاسيوس في هذه السنوات العشر كل ما يستطيع لاقتلاع جذور الأريوسية التي كانت قد تغلّغت - أثناء غيابه - في كل الأقاليم حتى أقاصي الصعيد، فقام بكتابة الرسائل الخاصة للأساقفة المؤمنين، وفيها قدّم كل ما يمكن تقديمه من التوعية اللاهوتية والإنجيلية والتحذير من التهاون في مواجهة هذه الهرطقات الخطيرة، واصفاً إيّاها بأشنع الأوصاف حتى يربي في قلوب الأساقفة والكهنة والرهبان الجزع من سماع تعاليمها والحقد على مبتدعيها. وسوف نرى نموذجاً لهذه الرسائل احتفظه التاريخ لنا، ومنه ندرك مقدار التعب والجهد والمعاناة التي بذلها أنثاسيوس في كتابة هذه الرسائل وتوزيعها سرّاً، إذ كان محظوراً على الأسقف أن يسلمها لأحد أو ينسخها حتى لنفسه، ثم يعيدها كما هي إلى أنثاسيوس مرّة أخرى. وبسبب هذا فقد معظمها. كما أرسل خطابات تحذير لكل الأديرة حتى لا يقبلوا أريوسياً على وجه الإطلاق، كما حذرهم من إقامة الصلاة مع أي أريوسي أو حتى الصلاة عليه، وذلك لكي يحفظ للأديرة وحدتها وقوتها وسلامتها من الداخل. وقد احتفظ لنا التاريخ برسالتين عامتين أرسلهما أنثاسيوس لجميع الرهبان بالأديرة التي

يتجمّع حولها المتوحدون، ومنها ندرك دأب هذا الراعي الأمين الساهر على رعيته وكيف جاهد بحزن ودقة لمطاردة الأريوسيين في كل مكان.

نموذج لرسائل الأساقفة:

ملخّص رسالة أثناسيوس لسيرابيون:

[لقد كتبت إلى الرهبان ومرسل إلى قداستكم صورة منها، التي منها تعلم تاريخ الحوادث التي مررت بها، وكذلك فيما يختص بهذه الهرطقة (تاريخ الأريوسية) ... لا تدع أسئلة بخصوص هذه الأمور تثار بينكم بل ألقوها جانباً - كما سبق واتفقت معكم - ولا تعطِ فرصة لأحد أن يتصل بهذه الهرطقة بل سهّل التوبة أمام الذين انخدعوا فيما سبق. أمّا الذين أدانهم الرب، فمنّ يقدر أن يقبلهم؟ لأن كل من يتعاون مع من أدانته الله وقطعه يكون مداناً ومخالفاً بشدة بل ومُظهراً نفسه عدواً للمسيح!

يكفي هذا لإخجال الذين يثيرون المنازعات، لذلك أقرأ هذا أمام الذين أثاروا مثل هذه الأسئلة، كذلك أقرأ الذي سبق أن وجهته باختصار للرهبان ضد هذه الهرطقة، حتى يستطيع السامعون أن يحكموا بالكفر على الأريوسيين ويدركوا مدى شر هؤلاء المجانين.

لا تُجزأ إطلاقاً إعطاء أية نسخة من هذه الخطابات لأي إنسان ولا تنسخها حتى لنفسك، وقد أوصيت بهذا أيضاً بالنسبة للرهبان.

ولكن باعتبارك صديقاً ومخلصاً أرجو إذا كانت هناك أمور غامضة أو ناقصة فيما كتبت، أضفها ثم أعد الرسالة كلها لي في الحال!!

وسوف تدرك من الخطاب الذي كتبتة "للإخوة" أي معاناة ومشقة تكبّدتها في كتابته (ربما يكون هذا الخطاب هو "تاريخ الأريوسية" المدوّن بقلمه في 30 صفحة من الحجم الكبير، وهو 81 فصلاً؟) كما تدرك منه أيضاً أنه ليس مأموناً لمثل هذه الكتابات التي تخص شخصاً خاصاً (أثناسيوس نفسه) أن يُنسخ منها شيء - وخاصة أنها تشرح، على أعلى مستوى، العقائد الرئيسية. كذلك أيضاً لئلا الأمور التي وردت ناقصة في شرحها بسبب عجز أو بسبب غموض اللغة تسبب ضرراً للقارئ (أي إذا قرأها القارئ مباشرة بدون شرح

الأسقف سيرابيون، وغيره) - لأن غالبية الناس لا يقيّمون الإيمان نفسه أو يعتبرون نية وغرض الكاتب، ولكنهم إمّا بعوامل الحسد والحقد أو بروح الخصام والنزاع يفسّرون المكتوب كما تشاء أهواء نفوسهم بحسب فكرة معينة وضعوها سابقاً في أذهانهم وبمقتضاها يحرفون المعنى دائماً ليتوافق مع غرضهم. ولكن الرب يعطي الحق والإيمان الصحيح بيسوع المسيح أن يسود بين الجميع وخاصة بين الذين ستقرأ لهم هذا. أمين.] (279)

ومن هذا الخطاب ندرك الكثير من نفسية أثناسيوس ومن الظروف التي أحاطت بكتاباته، فيالحساسية هذا القديس أثناسيوس!! ويا لعمق إدراكه لنفوس الناس وخاصة الذين ناصبوه العداء مجّاناً، كم كلفته هذه الحساسية من آلام نفسية مرّة، وكم تسبب حذره الشديد من مهاجمة خصومه لكتاباته في أنه أحجم عن الاسترسال في الكتابة!

وما أعظم ما خسرت الكنيسة بسبب هذه السرية المحكمة التي فرضها على كيفية تداول خطابه وكتاباته وإعادتها إليه، خوفاً من مزيد من المهاجمة والمهاترة، لأنه إذ كان محظوراً على أي إنسان أن ينسخها حتى لنفسه أو يحتفظ بها بعد قراءتها بل يعيدها، لذلك تعرّضت الأصول التي كانت محفوظة لدى أثناسيوس نفسه للتلف والضياع، دون أن يكون منها نسخ احتياطية!

نموذج لخطابات الرهبان:

خطاب للرهبان: بنصه الكامل:

[إلى العائشين في الحياة الرهبانية في كل مكان المؤسسين على الإيمان بالله والمقدّسين في المسيح القائلين: «هوذا قد تركنا كل شيء وتبعناك».
الإخوة الأعزاء المحبوبون، المشتاق إليهم، تحية قلبية في الرب.

1 - استجابة لسؤالكم المخلص الذي طالما ألحتم عليّ به، قمت بكتابة تقرير مختصر عن المعاناة التي مررت بها شخصياً والتي جازتها الكنيسة، ناقضاً ومفنداً هذه الهرطقة الملعونة التي قام بها الأريوسيون المجانين وذلك على قدر استطاعتي، مبرهنناً كيف أنها غريبة كلية عن الحق.

وقد رأيت أنه من الضروري أن أستحضر أمام ذهنكم النقي مقدار ما كلفتني كتابة هذه الأمور من مشقة، وذلك لكي تدركوا مقدار الحق فيما قاله الرسول: «يا لعمق غنى الله في حكمته وعلمه»، ولكي تسمحوا بلطفكم أن تساندوا إنساناً ضعيفاً بالطبيعة مثلي!

لأنه بمقدار ما كنت أرغب في مزيد من الكتابة محاولاً أن أدفع نفسي دفعاً لفهم لاهوت الكلمة، بمقدار ما كانت المعرفة تنسحب مني بالأكثر! وبقدر ما كنت أتصوّر أنني قد أدركت، بقدر ما كنت أعود وأدرك أنني قد أخفقت.

وأكثر من هذا أيضاً أنني كنت أعجز عن أن أشرح بالكتابة حتى ما تراءى لنفسي أنني قد فهمته! فكنت أجد أن ما كتبت لا يتناسب حتى مع ظل الحقيقة الذي تراءى في إدراكي - ولو ناقصاً!

2 - فلو فحصنا ما قيل في سفر الجامعة: «أنا قلت أنني أصير حكيماً، ولكن الحكمة كانت بعيدة عني، فهذا الذي هو بعيد وعميق من ذا الذي يكتشفه» (جا 23:7 و24)، وما قيل في المزمور: «معرفةك عجيبة لي، هي عالية لا أستطيع أن أبلغها» (مز 6:139)، وما قاله سليمان: «إنه لمجد الله أخفى الأمر» (أم 2:25).

كم مرّة صمّمت أن أتوقّف عن الكتابة، صدّقوني عملت هذا. ولكن لئلاً أوجد مخيباً لآمالكم، وخوفاً من أن صمتي يؤول إلى كفر أولئك الذي يسألونكم الذين استسلموا للجدال، تحاملت على نفسي لكي أكتب باختصار هذا الذي أرسله الآن إليكم. (ربما فقد هذا المؤلف).

على أنه يلزم أن ندرك أن المعرفة الكاملة للحق هي بعيدة عنا بسبب عجز وقصور البشرية، إلا أنه ممكن كما قال الجامعة أن ندرك جنون الكفر، فإذا أدركنا ذلك نقول: «إنه أكثر مرارة من الموت.» (جا 26:7)

ولأنني أدركت ذلك فعلاً وتحققت منه، بدأت أكتب عالماً أنه بالنسبة للمؤمن يكون اكتشاف الكفر - في حد ذاته - كافياً لمعرفة كنه التقوى.

لأنه بالرغم من استحالة معرفة ما هو الله، إلا أنه من الممكن أن نقرّر

ما ليس هو الله. فنحن نعلم أنه ليس مثل البشر، وأنه ليس جائزاً أن يكون فيه أي شيء من الطبيعة المخلوقة. وهكذا أيضاً فيما يختص بابن الله. فبالرغم من أننا بعيديون جداً عن إدراكه، إلا أنه من الممكن والسهل أن ندين تصريحات الهرطقة فيما يختص به ونقول إن ابن الله ليس هو كما يقولون! ولا هو جائز أيضاً حتى أن نفنكر بأذهاننا بمثل هذا الذي يقولونه فيما يختص بلاهوته وبالأقل جداً أن ننطق هذا بشفاهاً.

وعلى هذا كتبت بقدر استطاعتي، وأنتم أيها الأعداء المحبوبون، عليكم أن تتقبلوا هذه المراسلات ليس أنها تحوي شرحاً كاملاً للاهوت الكلمة، بل كونها مجرد مناقضة وتفنيدي لكفر أعداء المسيح، على أنها تحوي أيضاً اقتراحات للوصول إلى إيمان تقي وصحيح بالمسيح بالنسبة للذين يرغبون في ذلك.

أمّا إذا كان في الكتابة قصور وعجز - وأظن أنها كلها قصور وعجز - فأرجو السماح من ضميركم النقي، فقط اقبلوا باتفاق، جرأتي في مقاصدي التي قدّمتها دفاعاً عن التقوى بحسن نيتي.

أمّا فيما يختص بالإدانة المطلقة التي صارت لهرطقة أريوس فيكفي أن تعلموا الحكم الذي اجراه الرب بموت أريوس الأمر الذي عرفتموه من آخرين. إذ بعد هذه الآية والعلامة من ذا الذي لا يقطع بأن هذه الهرطقة مكرهة لله، حتى ومهما كان لها من الأعوان؟

والآن، عندما تقرأون هذا التقرير، صلّوا من أجلي ثم أعيدوا هذه النسخة إليّ مرّة أخرى في الحال. ولا تسمحوا لأي إنسان أن ينسخ أية صورة منها، ولا حتى تنسخوها لأنفسكم. بل اكتفوا بقراءتها فقط، وأعيدوا قراءتها كما تشاءون. لأن ليس مأموناً لكتابات أشخاص أخصاء أن تقع في أيدي آخرين.

سلّموا على بعضكم البعض بالمحبة مع كل الذين يأتون إليكم في تقوى وإيمان. لأنه كما قال الرسول: «كل من لا يحب الرب ليكن محروماً».

نعمة ربنا يسوع المسيح مع جميعكم. أمين.] (280)

ومن هذا الخطاب الرقيق جداً نستطيع أن نلمح الأمور الآتية:

1 - تقدير أثناسيوس للحياة الرهبانية وللرهبان عموماً بصورة رزينة وكريمة للغاية. فهو يدعوهم أعضاء ومحبوبين وقديسين، ويخاطبهم بنفس الاصطلاحات التي يخاطب بها الأساقفة الزملاء، ويطلب صلواتهم بالحاح.

2 - يُلاحظ أنه لم يرسل هذا البحث اللاهوتي للأساقفة، ولكنه اعتنى جداً أن يقوم به خاصة للرهبان تقديراً منه لطلبهم ولحاجتهم أيضاً.

3 - من أغرب الأمور أن يستسمح البابا أثناسيوس جماعة الرهبان في قبول منهجه الفكري اللاهوتي في إطار من الألفاظ الرقيقة للغاية واصفاً نفسه **“بالشخص الضعيف بحسب الطبيعة”** وواصفاً عمله اللاهوتي أنه جاء **“بقدر استطاعته”**، وأنه يتوسل أن يقبلوه ويسندوا ضعفه! وأن يقبلوا عذره في أن لاهوت الكلمة أصعب من أن يُسجل في الفكر كاملاً، فكم بالحري يكون نقله من الفكر إلى القلم والورقة. ثم يصور لهم أن كل ما استطاع أن يتبينه من لاهوت الكلمة في فكره كان عبارة عن **ظل ناقص للحقيقة**، وحتى هذا الظل الناقص لم يستطع أن يسجله بالكتابة كما هو. لذلك فكر أن يتوقف عن الكتابة بسبب عجزه!

ومن هذا الاعتذار الرقيق واللطيف المنمق بالمنطق والحجة؛ المسنود بالاعتراف بالعجز إذ ينعت عمله كله بأنه مجرد **“اقتراحات”** جاءت **“عاجزة وناقصة من كل جهة”**، ندرك مقدار دقة أثناسيوس ولطفه وحلاوة نفسه وحساسيته الروحية الشديدة، خصوصاً وأنه يخاطب جماعة من الرهبان المتوحدين البسطاء الذين ليست لهم أية رتب كنسية.

4 - وأخيراً ندرك مقدار اهتمام أثناسيوس البالغ في أن تعود إليه مرة أخرى رسالته التي ضمّنها بحثه اللاهوتي، حيث يبدو هنا حذره الشديد وانتباه فكره الحاد الذي كان صفة مميزة لشخصيته، وذلك حتى يقطع على أعدائه الخط لمزيد من تصيد حججه وتحويلها إلى مهاترات.

ومن هذه الخطابات التي تحمل حججه وبراهينه وأبحاثه اللاهوتية ضد هرطقة أريوس، والتي أرسلها للأساقفة والرهبان في كل مكان يتضح لنا مقدار الجهد والسهر والمعاناة التي بذلها أنثاسيوس ليطهر البلاد من وباء الأريوسية.

ونتيجة لهذا الجهد المتواصل عشر سنوات، سوف نجد أثناء هجوم الأريوسيين عليه في فترة نفيه الثالث، أن الأريوسيين انحصروا فقط في مدينة الإسكندرية، وانحصرت بذلك مؤامراتهم وأعمالهم العنيفة في حدود هذه المدينة فقط، أمّا باقي البلاد فكان يتنقل فيها أنثاسيوس متخفياً بلا أي مقاومة.

تكاثر عدد المؤمنين في الإسكندرية بصورة سريعة، وقصة كنيسة سيزار

كان من نتيجة النشاط الروحي والخدمة الرعائية التي قام بها أثناسيوس، وملء الكراسي الشاغرة، ورسامة الكهنة في الكنائس التي كان قد احتلها الأريوسيون في هذه المدة، أن تكاثر عدد المؤمنين، وخاصة بسبب الهدوء و"السلام العميق" الذي كان يرفرف على الكنيسة، أمّا الدليل المادي على هذا النمو السريع والنشاط الروحي بين المؤمنين فنجدّه واضحاً في حادثة استخدام الكنيسة الجديدة المسماة "كنيسة سيزار"، أو كنيسة قيصر، أو القيصريّة، في عيد الفصح سنة 355م. وذلك قبل أن يتم بناؤها وقبل أن تُدشّن رسمياً.

والمعروف أن في زمان القديس أثناسيوس كان يوجد بمدينة الإسكندرية تسع كنائس، من ضمنها الكنيسة العظيمة التي بناها البابا ألكسندروس باسم ثيئوناس، وذلك بشهادة إبيفانيوس أسقف قبرص (281). ولكن القديس أثناسيوس يذكر، بالإضافة، كنيسة عاشرة لم يذكرها إبيفانيوس وهي كنيسة "كيرينيوس" (282).

أمّا قصة كنيسة سيزار فتبدأ هكذا:

كان قد أمر الإمبراطور قسطنطيوس ببناء كنيسة على نفقته الخاصة في زمان غريغوريوس الكبادوكي الدخيل، هذا الذي بدأ في بنائها، ولكن عاجلته المنية ولم يستطع أن يكملها، وذلك على أرض خاصة للإمبراطور وبجوار قصره في الإسكندرية حيث كان يوجد في هذا المكان في السابق بازيليكا باسم "هادريان" وتغيّر اسمها إلى ليسينيوس (283)، وعلى مكانها قام "السيزاريوم" وهو معبد رائع باسم أغسطس والذي فيه قامت أخيراً كنيسة سيزار في مدخل الميناء (284).

ويصف لنا أثناسيوس نفسه حادثة استخدام الجموع الهائلة لهذه الكنيسة الكبيرة قبل

(281) Epiph. Haer., 69. 2.

(282) Hist. of Arian. 10.

(283) Epiph., Haer. 69. 2.

(284) N.P.N.F., vol., IV, p. 243, note 6.

تكميل بنائها وتكريسها كالآتي:

[كان هذا في عيد الفصح لسنة 355م. والجموع التي احتشدت للعيد كان عددها كبيراً للغاية يفوق الحصر - كما يشتهي الملوك المسيحيون أن يروا ذلك دائماً في مدنهم - فلماً وجد الشعب أن الكنائس (العشر) قليلة جداً وأصغر من أن تسع هذه الأعداد، صار هرج كثير بين الشعب الذي رغب أن يُسمح له في أن يجتمع في هذه الكنيسة العظمى حتى يستطيعوا أن يقدموا صلواتهم ...](285)

[وصدقني يا سيدي والحق شاهد لي في هذا الأمر أيضاً أن من بين الجموع الهائلة التي احتشدت في موسم الصوم بسبب ضيق الأمكنة عانى عدد كبير من الأطفال وكذلك كثير جداً من الشيوخ رجالاً ونساءً من ازدحام الشعب مما اضطرنا لحملهم إلى بيوتهم، ولكن بعناية الله لم يمت أحد.] (286)

(ملاحظة: سوف نعود إلى ذكر هذه الحادثة بالتفصيل، فالذي دعانا إلى سردها باختصار هنا هو موضوع تكاثر المؤمنين بسبب رعاية القديس أنثاسيوس في هذه الفترة).

تأليف أنثاسيوس في هذه الفترة:

(1) "الدفاع عن مجمع نيقية":

ويلاحظ أنه لم يذكر في هذه الرسالة اسم يوسابيوس النيقوميدي مما يدل على أنه كتب هذا الدفاع بعد سنة 342م، وهي السنة التي مات فيها يوسابيوس النيقوميدي، ويرجع المؤرخون تاريخ كتابتها بين سنة 351-355م.

وقد كتب أنثاسيوس هذه الرسالة لشخص أعرته اعتراضات بعض الأريوسيين لاستخدام مجمع نيقية اصطلاحاً غير إنجيلي وهو "الأوموؤسيون".

وتعتبر هذه الرسالة ذات أهمية خاصة لأنها الأثر الوحيد المتبقي من أيام مجمع نيقية الذي يحمل لنا صورة لما جرى داخل المجمع من شاهد عيان. كذلك فإنها تحوي اقتباسات لاهوتية ذات أهمية تاريخية من آباء الإسكندرية السابقين لأنثاسيوس مثل البابا ديونيسيوس الكبير. وكذلك تحمل لنا هذه الرسالة شرحاً دقيقاً للغاية

(285) *Apol. ad. Constant.*, 14.

(286) *Ibid.*, 15.

للاصطلاح اللاهوتي الذي سجّله مجمع نيقية واصفاً الابن أنه “مولود غير مخلوق”.

(2) “على أفكار ديونيسيوس”:

كذلك تحمل لنا هذه الفترة الذهبية المؤلف المعروف باسم “على أفكار ديونيسيوس”، وهو دفاع عن وجهة نظر البابا ديونيسيوس الكبير، الذي أراد الأريوسيون أن يستخدموا بعض اصطلاحاته عن “ناسوت المسيح” التي كان يقاوم بها الهرطقة السابيليانية لكي يثبتوا بها آراءهم الأريوسية.

(3) “الدفاع ضد الأريوسيين”:

كما كتب أثناسيوس أيضاً في هذه الفترة “الدفاع ضد الأريوسيين” على أنه أضاف إليه بعد ذلك ما استجد بعد هذه الفترة.

ولكن بحسب تحقيق جماعة “البولانديست”، فإن هذا المؤلف التاريخي اللاهوتي بدأ بالفعل منذ سنة 342م، واستمرت الإضافات بحسب تتابع الحوادث.

مدرسة الإسكندرية اللاهوتية:

كانت المدرسة اللاهوتية تقوم بدورها الطبيعي في تثقيف الشعب ومساندة الدفاع عن الإيمان وسط كل هذه العواصف، وقد ألقى القديس أثناسيوس مسؤولية إدارتها في هذه الفترة على اللاهوتي الضرير ديديموس الذي طبقت شهرته الآفاق. فكان الثاني عشر في تعداد مديريها السابقين - بحسب تحقيق فيلبس الذي من صيدا الذي عاش في أوائل القرن الخامس. وقد وُلد ديديموس سنة 313م. وتنتج سنة 398م عن 85 عاماً، عاصر كل حياة أثناسيوس منذ توليه البابوية حتى نياحته.

لم يتردّد أثناسيوس في إسناد مسؤولية المدرسة اللاهوتية له كما يخبرنا روفينوس (287) بسبب ذكائه وقدرته على الإستيعاب ودقة ملاحظته وعلو حجته. وقد كان ديديموس آخر مشاهير معلميه، فقد أقفرت مدرسة الإسكندرية من بعده ولم تستعدّ مجدّها قط. وكان من أكثر تلاميذ ديديموس شهرة القديس جيروم وروفينوس. وقد أطنب جيروم كثيراً في مدح ديديموس (288) وأكّد علو شأنه في قدرته على التعليم ومقدار الأثر الذي تركه في لاهوت الغرب والشرق معاً. أمّا روفينوس

(287) Rufin., *Hist. Ecc.*, 2, 7.

(288) St. Jerome, *Epist* 50, 1; 84, 3 etc.

فيسميه: “النبي” و“الرجل الرسولي”(289).

والذي زكّي شهرة ديديموس ليس الذكاء والعلم وحسب بل تقواه ونسكه، فقد عاش عيشة النُسَاك، وقد زاره القديس أنطونيوس عدة مرّات في قلايته(290).

كما زاره باليديوس المؤرّخ الرهباني المشهور أربع مرّات على مدى عشر سنوات. ويُقال إن القديس أنطونيوس لمّا زاره أثناء وجوده في الإسكندرية لأول مرّة دفاعاً عن الإيمان المستقيم ضد الأريوسية، دخل قلاية ديديموس وطلب منه أن يصلّي ووقف يسمعه باتضاع(291). ثم جلسا وبدأ يسأله إن كان يحس بأسف على فقدان بصره (ديديموس فقد قوة الإبصار وهو في الرابعة من عمره إثر مرض أودى بعينه تماماً). فلمّا صمت ديديموس أعاد أنطونيوس السؤال عليه مرّة ثانية، فأجاب مضطراً وقال لأنطونيوس إنه يحس بحزن شديد بسبب هذه المحنة!! فأجاب أنطونيوس: “لا تكتئب يا صديقي بسبب فقدان موهبة يشاركنا فيها الذباب والبعوض، في حين أن الرب حباك بموهبة البصيرة الداخلية التي لا ينعم بها إلا القديسون”(292). وقد سمع هذه القصة جيروم بنفسه من فم ديديموس سنة 368م حينما زاره ومكث عنده شهراً كاملاً كما يخبرنا في مقدّمة شرحه لرسالة أفسس(293).

ويخبرنا المؤرّخ سوزومين أن تأثير ديديموس في إقناع الشعب بصحة تعاليم مجمع نيقية ضد الأريوسيين كانت لا تُضارَع، إذ استطاع أن يجعل كل مَنْ يسمعه قادراً أن يكوّن حكماً بنفسه في هذا الموضوع(294).

ويشهد لقدرة ديديموس في المعرفة والمحاكاة والإقناع كثيرون، وأهمهم إيسيدور البيلوزومي الذي كان يكتب له باعتباره “بحاثة مدقّقاً لا يمكن أن يفوته شيء”(295).

(289) Rufin. *Apol.*, in *Haer.* 2, 25.

(290) Pallad., *Hist. Lausiaca*, 4.

(291) Rosweyde, *Vit. Patr.*, 944, 539.

(292) Jerome, *Epist.* 68, *Socrate IV*: 29.

(293) *Ibid.*, *Eph.*

(294) Sozom. *III*. 15.

(295) *Isidore of Pelusium*, *Ep. I*, 331.

كما يشهد له ليبيانيوس(296) في إحدى رسائله التي أرسلها إلى الدوق سباستيان، وهو من الهراطقة المانيين الذين اضطهدوا الإسكندرانيين أثناء نفي أثناسيوس الرابع، يقول فيها:
[إذا لم تكن قد تعرّفت على ديديموس فأنت لم تعرف هذه المدينة العظمى الإسكندرية بعد، لأنه هو الذي يسكب عليها من تعاليمه لتثقيف الشعب ليل نهار].

وهذه الشهادة هي في غاية الأهمية بالنسبة لتأريخنا لأثناسيوس لأن هذا يوضّح مدى اهتمام أثناسيوس بتعليم الشعب ومدى توفيقه في اختيار ديديموس لهذه الرسالة الخطيرة في هذا الوقت الخطير.

وقد اشتهر ديديموس أيضاً في هذه الفترة بتأليفه، فقد كتب كتاباً عن الروح القدس، ترجمه جيروم إلى اللاتينية وقدمه بقوله:
[إن ديديموس له عينان كعيني عروس نشيد الأنشاد. وإن كان أمياً في التكلّم فليس في العلم، فهو في معرفته يحمل صفات الإنسان الرسولي، له فكرٌ نيرٌ وكلمات ذات بساطة].

أمّا مؤلفاته فهي كثيرة جدّاً، منها شرح إشعياء، وهوشع، وزكريا، وأيوب، وسفر الأمثال، والرسالة الأولى إلى كورنثوس، ورسالة غلاطية، وكل الرسائل الجامعة، وعلى النسخة العبرية للعهد القديم، وعلى موت الأطفال، وثلاثة كتب عن الثالوث، وتعليق على مؤلفات أوريجانوس، وضد المانيين. وغير ذلك الكثير جدّاً، وقد تأثّر تفكيره وأسلوبه كثيراً بالقدّيس أثناسيوس. وقد أعلن إيمانه بالثيوتوكس ورؤساء الملائكة وبشفاعة القديسين، ورفضه للحكم الألفي.

وتكلّم عن الإفخارستيا وحضور الرب الفعلي، وذلك في مؤلّفه الذي فسّر فيه سفر الأمثال.

ويقول بالليديوس إنه [فسّر العهد القديم والجديد كلمة كلمة!! وقد بذل اهتماماً كبيراً بالعقيدة وشرحها بدقة وحكمة، حتى إنه فاق على جميع القدامى في المعرفة].

وفي نهاية تعليق جيروم على مؤلفات ديديموس يقول:
[وكتب أخرى كثيرة، إذا أردنا أن نعدّها احتاج منا ذلك عملاً كاملاً بحد ذاته.] (297)

العوامل التي أدت إلى تجدد الاضطرابات للمرة الثالثة:

لم تكن فترة الهدوء والسلام العميق الذي رآه أثناسيوس واطمأن إليه في بداية هذه الحلقة الذهبية إلا مجرد فترة راحة لالتقاط الأنفاس فقط، لأن عوامل النزاع وجذور الأحقاد عند الأريوسيين لم تكن قد اقتلعت. فعلى ضفاف نهر الدانوب، وفي "سيرميم"، كانت بذرة الأريوسية قد تأصلت. وكان يرعاها وينفث فيها أسقف سيرميم نفسه ومن يتبعه حواليه. ولو أن علامات النزاع والفرقة كانت منذ البدء سمة من سمات تجتمع الأريوسيين، ولكن كان يربض هناك أورساكيوس وفالنس رأسا الحية اللذان اتحدا مع جرمينيوس أسقف سيرميم الذي خلف سكونديوس الذي طرده الإمبراطور بعد أن حاوره أساقفة الشرق وأصقوا به الخروج عن جادة الإيمان (298).

أمّا الغالبية العظمى من أساقفة الشرق الذين ظلوا أريوسيين فقد ظلوا حاقدين على أساقفة الغرب عامة، ما عدا كنيسة فلسطين التي انحازت إلى التحفظ الأرثوذكسي.

وقسطنطيوس نفسه لم يتخلّ عن مناصرته للأريوسية ضد أثناسيوس إلاّ تحت تهديد قسطنس أخيه وبدافع الخوف من موقف الفرس الذي كان لا يزال يندثر بالخطر، ثم يقظة ضمير مؤقتة زالت بمرور الزمن ... وحتى جبهات الشعب الأرثوذكسية بزعامة بعض الأساقفة الأرثوذكس والتي كانت أخطر ما يهدّد مركز الأساقفة الأريوسيين في الشرق، بدأت تذوب تحت ضغط السياسة الأريوسية وأساليب خداعهم ودهائهم (299).

أمّا في الإسكندرية فقد نجح أثناسيوس في هذه الفترة في تدعيم الأرثوذكسية بصورة لم يسبق لها مثيل، وبالرغم أن مصر كانت منعكفة على نفسها في ذلك الوقت

(297) Jerome., De Vir. ill., 109.

(298) ABBE Duchesne, *Earl. Hist. A ch.* pp. 196-201.

(299) Gwatkin., pp. 133 sqq.

تمسح جراحها، إلا أن بعض الخطوات قد أخذت في هذه الفترة للوحدة بين الأرثوذكس، فقد اتحد أساقفة فلسطين مع أساقفة قبرس واستعادوا شركتهم مع أثناسيوس، ولكن كان يلزم لبقاء هذا التعاون لبناء سلام واحد أن تبقى السياسة الإمبراطورية في اتزانها وهذا لم يتوفر (300).

أمّا داخل مصر فقد دانت له كافة الأسقفيات بالولاء وضعفت شوكة الأريوسية والميلينيين إلى أقصى حد. وكان الله بتدبيره الخفي أعطى هذه الفرصة لمصر وأثناسيوس على رأسها، حتى تجمع نفسها وتوحد جهودها لتتابع دفاعها بقوة وتماسك أمام أعنف مصادمة إيمانية عرفتها الكنيسة على وجه الأرض منذ اليوم الذي صُلب فيه ربنا! حيث وقفت مصر وحدها دون جميع أقطار العالم، ومن ورائها أثناسيوس بمفرده دون جميع أساقفة العالم، تشهد للاهوت المسيح وتحمّل في سبيل ذلك أعنف الضربات بعدما انهارت أكبر قوتين مساندتين لمصر ولأثناسيوس، بل قلّ للمسيح، وهما قوة الإمبراطور في الغرب إذ مات قسطنس، وقوة الكنيسة في الغرب عندما انحاز أسقف روما للأريوسيين وأمضى وختم ضد لاهوت المسيح بمحض إرادته وأقر حرمان أثناسيوس!! نفس الأمر الذي حدث مع هوسيو أسقف قرطبة بعد أن انهارت قواه الإيمانية فأمضى وختم ضد مجمع نيقية الذي ترأسه سابقاً.

وهذه هي اللحظة التي قال عنها كل مؤرخي الكنيسة أن العالم بدا كله أريوسياً مجدفاً على المسيح، ولولا مصر وحدها وأثناسيوس الذي أبقاه الله لهذه اللحظة ليحامي عن الإنجيل ضد العالم كله، لصار العالم كله أريوسياً... وقد قيلت هذه الجملة المشهورة *Athanasius contra mundum* أي عندما قالوا لأثناسيوس بنوع من اليأس "إن العالم كله أصبح ضدك"، فأجاب في قوة لا تُقهر: "وأثناسيوس ضد العالم!!"

الموقف المتأرجح في كنيسة أورشليم في ذلك الوقت:

لاحظنا كيف استقبل أساقفة أورشليم القديس أثناسيوس عند عودته من النفي الثاني ماراً عليهم في طريقه من أنطاكية إلى الإسكندرية، وكيف عقدوا مجمعاً أشادوا فيه بآرثوذكسية أثناسيوس، وكيف أرسلوا خطاباً إلى إكليروس وشعب الإسكندرية

يهنئونه بعودة أثناسيوس ... وهكذا بدا الجو في أورشليم متحفّظاً نوعاً ما منحازاً إلى الأرثوذكسية بقدرٍ ما، وكان ذلك في سنة 346م.

وظل الجو كذلك حتى سنة 348م عندما بدأ كيرلس الأورشليمي - قبل أن يُرسم أسقفاً - في تعليم الموعوظين. ومن مجموع عظاته التي ألقاها في السنتين التاليتين سنة 348م-350م قبل رسامته (لأنه رُسم أسقفاً سنة 350م)، يمكن بوضوح اكتشاف بداية ونمو ما يسمّى بالنصف أريوسية في أورشليم على يد هذا المعلم العملاق قبل أن يصير أسقفاً، إذ المعروف عنه أنه كان من جماعة الأوريجانيين ومن المقاومين لإيمان نيقية فيما يخص "الأوموؤسيوس" (301)، أي وحدة الابن مع الآب في الجوهر، وكان يستعيز عنها "بالمماثلة" فقط مستخدماً الألفاظ الإنجيلية.

موت قسطنس:

يعطينا المؤرّخ جيبون تاريخاً مختصراً لحكم قسطنس وموته هكذا:
[في سنة 340م انهزم قسطنطين الصغير (الثاني) في معركة أكويلا على يد أخيه قسطنس الذي أصبح حاكماً على الغرب، واضطر قسطنطيوس حاكم الشرق إلى مواجهة هجمات الفرس بقيادة سابور الثاني. وكان غزو الفرس لأرمينيا تهديداً لنمو المسيحية في الشرق، وانقلب النصر الذي أحرزه قسطنطيوس سابقاً في مدينة سنجار سنة 348م إلى هزيمة ساحقة نتيجة الإهمال والغفلة، وقاومت نصيبين الحصار ثلاث مرّات، وتمّ الصلح سنة 350م. ولكن في نفس هذا العام تمكّن أحد القواد في الغرب المدعو ماجننتيوس من قتل قسطنس وإزاحته عن العرش، ولكن تغلّب قسطنطيوس أخيراً سنة 351م على ماجننتيوس في مدينة مورسا في وادي نهر الساف وانتهى الأمر في سنة 353م بتولّي قسطنطيوس حكم الإمبراطورية كلها موحّدة شرقاً وغرباً.] (302)

مات قسطنس تحت الأقدام في فبراير سنة 350م وكان خبر موته صدمة أليمة لأثناسيوس، لدرجة أنه لم يحتمل الخبر عند حضور مبعوثي قسطنطيوس، فبكى.

(301) a- Cyril of Jerusal, *Cat.* V. 12.

b- Caspare IV, pp. 146-162.
(302) جيبون - الجزء الأول صفحة 353.

وكان أثناسيوس في البداية يتوجَّس خيفة من ماجننتيوس، ولكنه سرعان ما تحقَّق أن الخطر الأعظم لا يزال يكمن بالأكثر في حاشية قسطنطيوس ونصائحه من الأريوسيين.

فبمجرّد موت قسطانس نفى أساقفة الغرب الأريوسيون جدهم للأريوسية، الذي أرغموا عليه في مجمع سرديكا عندما كانوا تحت سلطان قسطانس، الذي كان موالياً لأثناسيوس ولأساقفة نيقية آنذاك، ولكن الآن وقد مات قسطانس لم يجدوا ما يمنعهم من خلع جلد الحمل والظهور مرّة أخرى على طبيعتهم الذنبية، وعلى رأس هؤلاء وقف الأسقفان فالنس وأورساكيوس وهما من أساقفة الغرب، وشاهدا الزور في قضية إسخيراس، وبدأ في تدبير المؤامرات.

وعندما نصَّب ماجننتيوس نفسه على إمبراطورية الغرب، ولعلمه بالعداوة القائمة بين قسطنطيوس وأثناسيوس، أسرع في طلب مساعدة مصر!

وفي نفس الوقت أرسل الإمبراطور قسطنطيوس وفداً من كل من كلنديوس وفالنس، وهما من رجاله، ليتأكّد من موقف مصر وبالأخص أسقفها!! فاستقبلها أثناسيوس بالبكاء على قسطانس! وبسبب خوفه من مهاجمة ماجننتيوس لإمبراطورية الشرق أيضاً، استدعى الكنيسة كلها وطلب من رعيته أن تصلّي بحرارة من أجل قسطنطيوس!! فكان رد الشعب بصوت واحد: [يا مسيح أرسل معونة لقسطنطيوس!!] (ونحن الآن في سنة 350م).

وإليك كلام أثناسيوس الذي كتبه في دفاعه لدى قسطنطيوس لما اتهمه بعد ذلك، زوراً وبتلفيق الأريوسيين، أنه راسل ماجننتيوس في ذلك الوقت وتعاهد معه ضد قسطنطيوس:

[كيف أكتب لإنسان لا أعرفه؟ اسأل كلنديوس وفالنس اللذين أرسلتهما إليّ، كيف قابلت كلنديوس وتطرّق الحديث إلى ذكر قسطانس صاحب الذكرى المطوّبة، كيف - وبلغه الكتاب - بللت ثيابي بالدموع (مز 6:6) عندما تذكّرت لطفه وحنانه وروحه المسيحية. اسألهم كيف كنت قلقاً ومضطرباً وخصوصاً لما وجدت فالنس قد حضر والوفد المرافق له عن طريق ليبيا إذ كنت خائفاً عليهم لئلاّ يبطش بهم ذلك الوحش لعلمي بقسوته، وهو لا يتورّع عن ذلك بالنسبة لكل الذين يحفظون الودّ للإمبراطور الراحل، والذين أعتبر نفسي

الأول بينهم.

فكيف بعد إدراكي لخطتهم وتدابيرهم هذه أن لا أصلي من أجل نعمتكم؟ وهل يمكن أن أتعاطف مع قاتل أخيكم؟ وأحمل البغضة لكم وأنتم أخوة وقد تأرتم لقتله؟ وهل أتذكر جريمته هو وأنسى عطفكم أنتم الذي أكدتموه بخطابكم ووعدتم أنكم تبقون على سماحتكم بعد موت أخيكم كما كنتم في حياته؟ كيف ألتفت ناحية القاتل. أفلا كنت أتذكر أن روح أخيكم المطوب الذكر تراني عندما صليت من أجل سلامتكم؟ ...

وإن شهودي على ذلك: الرب أولاً الذي سمع والذي سمح أن يعطيكم كل أجزاء المملكة معاً التي كانت لأبائكم، ثم ثانياً الأشخاص الذين حضروا هذه الظروف فيليبسييموس دوق مصر، وروفينوس واسطفانوس والكونت استريوس وبالليديوس وأنطيوخس وإيفاجريوس. لقد قلت (للشعب): هلم نصلي من أجل سلامة الإمبراطور الكثير التعب قسطنطيوس العظيم. فصرخ الشعب في الحال بصوت واحد: (يا مسيح أرسل معونة لقسطنطيوس)، وظلوا يرددون هذا مدة [303]

ومن هذا الكلام تتكشف أمامنا رقة أثناسيوس الذي لم يحتمل ذكرى صديق وفي له دون أن يذرف الدموع الكثيرة، ثم تتضح أيضاً شجاعته كونه لم يخجل من أن يذكر بكاءه!!

كذلك نلفت النظر كيف رفع أثناسيوس قضية تهديد الإمبراطور بالخطر إلى الكنيسة كلها لتكون موضع صلاة، وكيف استجاب الشعب بتلقائية تكشف عن مدى استجابة الشعب لمشاعر أسقفه.

وعندما شعر قسطنطيوس بحرج موقفه بعد موت قسطنانس ولخوفه من ماجنتيوس، أراد أن يضمن موقف أثناسيوس في جانبه، فأرسل بالفعل خطاباً لأثناسيوس يطمئنه فيه أنه سيظل وفياً له بعد موت أخيه الذي كان يحب أثناسيوس والذي كان السبب المباشر في رجوعه من النفي الثاني، وبالفعل فقد حافظ قسطنطيوس على وعده هذا ولكن ليس إلى النهاية، إذ بمجرد ما أن تغلب على

ماجننتيوس وقتله، بدأ يتنمر لأثناسيوس ويظهر له حقه الدفين الذي لم تخمه كل هذه المحن والسنين! ...

وإليك من كلام أثناسيوس خطاب قسطنطيوس المعسول: في ربيع سنة 350م:
[من قسطنطيوس المنتصر المعظم إلى أثناسيوس:

لا يخفى على تقواكم كيف كنت أصلي على الدوام أن يبقى النجاح حليفاً لأخي قسطانس في كل أعماله، وإنه ليسهل عليكم بسبب حكمتكم أن تقدروا عظم المحنة التي أصابتنى عندما بلغني أنه قد فُطع بواسطة خيانة هؤلاء الأندال.

والآن إذ يحاول بعض الأشخاص في هذا الوقت بالذات أن يزعجوك بالأكثر، وذلك بأن يضعوا أمامك هذه المأساة المبكية، رأيت أنه من الصالح أن أكتب لقسطنطيوس خطاباً لأستحثك كما يليق بأسقف أن تعلم الشعب أن يلتصق بالإيمان الثابت، وبحسب عادتكم أعطوا أنفسكم للصلاة مع شعبكم، لأن هذا موافق لمشيئتك، ورجبتنا أن تبقى دائماً أسقفاً في كل الظروف في مكانكم الخاص.

(وهنا يختلف خط الكاتب مما يشير إلى أنه بخط الإمبراطور نفسه) ولتحفظكم العناية الإلهية أيها المحبوب إلى سنين كثيرة. [304)

موت ماجننتيوس وبداية الاضطهاد العلني ضد أثناسيوس:

يقدم المؤرخ جيبون هذه الحقبة الزمنية بحسب وقائعها بترتيب تاريخي لا بأس به، رأينا أن نقدّمه للقارئ قبل أن نخوض في دقائق الهجوم الذي مارسه سيريانوس والي مصر على كنيسة ثيوناس للقبض على أثناسيوس:

[إن التابع (الأسقف أثناسيوس) الذي أجبر مليكه على المراءاة والتظاهر لا يمكن أن يتوقع منه تسامحاً مخلصاً قط، فعندما حلّ المصير المحزن بالإمبراطور قسطانس وحُرم أثناسيوس من هذا الظهير القوي الكريم، ونشبت

(304) *Apolog. Cont. Arian 23.*

توجد ترجمة أخرى لهذا الخطاب من اللاتينية إلى اليونانية ذكرها أثناسيوس في كتاب تاريخ الأريوسية، وباطلاعنا عليها اندهشنا لكثرة الفوارق اللفظية.

الحرب الأهلية بين قاتل قسطانس (ماجنتيوس) وقسطنطيوس التي شغلت الإمبراطورية كلها أكثر من ثلاث سنوات، أصبح الفريقان المتنازعان راغبين في كسب صداقة الأسقف أثناسيوس الذي كان يستطيع بقوة سلطانه الشخصي أن يقرّر المصير بالقرارات التي تصدرها ولاية لها أهميتها، وقد استقبل أثناسيوس سفراء الطاغية ماجنتيوس الذي قتل قسطانس وأتهم من جراء ذلك فيما بعد بأنه كان على اتصال سرّي به.

غير أن الإمبراطور قسطنطيوس أكد مراراً “لأبيه الروحي” أثناسيوس أنه أجلّ الأباء وأقربهم إلى قلبه؟! (هكذا) مؤكداً أنه بالرغم من الإشاعات الخبيثة الحقودة التي كان يروّجها أعداؤه فإنه قد ورث عن أخيه الراحل عواطفه نحو أثناسيوس كما ورث عرشه؟! (هكذا)

(غير أن أثناسيوس كان يدرك أن مخاوف الإمبراطور هي التي كانت تدفعه لمثل هذه المشاعر).

فبمجرد أن ظفر بالطاغية ماجنتيوس وقتله، اعتزم قسطنطيوس أمراً طالما كبتة في نفسه، وأخفاه، وهو الانتقام لما لحق بشخصه من تصاعر إزاء هذا الأسقف العنيد - وقد كان، فبعد أن تخلّص من ماجنتيوس (سنة 351م) وانتهى من كل مشاغله في الغرب التي استغرقت أكثر من سنة بعد ذلك (أغسطس سنة 353م)، وفي أول شتاء سنة 353م الذي أمضاه في آرل بعد انتصاره، أخذ يستغل الوقت في مناهضة عدوه (أثناسيوس) الذي أضمر له في نفسه كراهية أشد وأقسى من تلك التي كان يضمها لماجنتيوس طاغية إقليم الغال الذي قهره.]

مجمع في آرل وآخر في ميلان ضد أثناسيوس:

يقول المؤرّخ جيبون:

[إنه لو أن هذا الإمبراطور أوحى له مزاجه أن يقرّر قتل أعظم شخصية في الإمبراطورية مهما كان مقامه ونبله، لما تردّد وزراؤه من أنصار العنف السافر أو الظلم المستهتر في تنفيذ مثل هذا القرار. ولكن مقدار الصعوبة البالغة التي لقيها الإمبراطور في مجرد إدانة وعقاب الأسقف المحبوب

أثناسيوس وما كلفه ذلك من حذر وتمهّل، كل هذا أظهر للعالم أن حقوق الكنيسة قد أحييت في الحكومة الرومانية الشعور بالنظام واحترام الحريات!!

وبالرغم من أنه كان لدى الإمبراطور حكم من مجمع صور أيده أغلبية أساقفة الشرق بإنزال أثناسيوس من مقامه الأسقفي، إلا أن التأييد القوي الفعّال الذي لقيه أسقف مصر من جراء اتصاله بالكنيسة الغربية أجبر قسطنطيوس على إيقاف تنفيذ حكم مجمع صور حتى يحصل على موافقة أساقفة اللاتين. وانقضى عامان في تفاوض مع الكنيسة، نوقشت فيه قضية أثناسيوس حيث تولّى دفعها الإمبراطور بنفسه في مجمع آرل أولاً سنة 353م، ثم مجمع ميلان ثانياً سنة 355م الذي التأم فيه 300 أسقفًا، حيث تداعت نزاهة هذا العدد الضخم من الأساقفة شيئاً فشيئاً أمام ادعاءات وأكاذيب أنصار أريوس ومهارة الخصيان، ووسائل الإغراء والضغط التي مارسها الإمبراطور، الذي روى ظمأ حقه على حساب كرامته، وأفصح عن أهوائه الشخصية بالطريقة التي اتبعها في التأثير على أحاسيس رجال الدين، حتى التجأ إلى أسلوب إفساد الضمان ونجح، بعرضه الهدايا والكرامات والحصانات ثمناً للحصول على أصوات الأساقفة.] (يا للذلة)

وهنا ينقل إلينا جييون صراخ هيلاري أسقف بواتييه ضد هذه الخساسة الأخلاقية بقوله: [إننا نقاوم قسطنطيوس عدو المسيح، الذي يداعب البطون قبل أن يلهب الظهور بالسياط].

[غير أن أثناسيوس لم يعدم الأصدقاء الذين وقفوا بجانبه، الذين أثبت عليهم كبرياؤهم أو نقاوتهم أن يتنازلوا عن قضيتهم التي هي قضيتهم، فثبتوا في المناقشات العامة وفي أحاديثهم الخاصة مع الإمبراطور على الالتزام الأبدي بالدين والعدالة! وكانت تدفعهم إلى ذلك نخوة الرجولة والقداسة. فأعلنوا أنه لا الرجاء في حظوة صداقة الإمبراطور ولا الخوف من غضبه يمكن أن يرغمهم على الاشتراك في إدانة أخ غائب بريء، له احترامه!! وأكّدوا أن القرارات الباطلة غير القانونية التي أصدرها مجمع صور أصبحت في حكم الملغاة ضمناً بفعل المراسيم الإمبراطورية التي جاءت بعدها، والتي نصّت على إعادة كبير الأساقفة إلى كرسيه بالإسكندرية بصورة مشرفة مع سكوت أكثر أعدائه

على ذلك، بل وبإنكارهم أقوالهم السابقة عنه! ...

واستشهدوا بتأييد أساقفة مصر جميعاً لبراءته وما أقره مجمع روما ومجمع سرديكا (صوفيا) بمقتضى حكم الكنيسة اللاتينية غير المتحيّزة ... ولكن صوت الحق أسكته الأكثرية المغرضة التي باعت ضمائرهما!! وانتهت مجامع آرل وميلان بحكم اشترك فيه أساقفة الشرق والغرب معاً وعلى السواء بإدانة أثناسيوس أسقف الإسكندرية وعزله من منصبه!

أمّا الأساقفة الذين تغيّروا فوقّعوا في أماكنهم ...

أمّا الأساقفة الذين رفضوا التنازل عن آرائهم أو الخضوع للقرارات التي أصدرها مجمع آرل وميلان فقد أصدر الإمبراطور أمراً بنفيهم وهم: ليباريوس أسقف روما، هوسيوس أسقف قرطبة (أسبانيا)، بولينوس أسقف تريف، ديونيسيوس أسقف ميلان، يوسابيوس أسقف فرشيللي، لوسيفر أسقف كالباري، هيلاري أسقف بواتييه.

وقد حاول الإمبراطور بالإغراء ثم بالإرهاب أن يثني كلاً من أسقف روما وأسقف قرطبة، لِمَا يعلمه من تأثيرهما القوي على بقية أساقفة العالم، ولكن ظلّت محاولاته عديمة الجدوى فترة من الزمن ... إذ أعلن هوسيوس وكان قد ناهز المائة عام من عمره أنه على استعداد لتحمل الألام تحت حكم قسطنطيوس كما تحمّلها منذ سنتين عاماً تحت حكم جده مكسيميان!! أمّا أسقف روما فأكد في حضرة الإمبراطور أن أثناسيوس بريء!! وعندما حاول الإمبراطور وفي آخر لحظة أن يهبه مبلغاً كبيراً من المال وهو في طريقه إلى المنفى في بيرية Bera في ترافيا (وهي الآن الإقليم الذي يقع بين بلغاريا ورومانيا)، أعاد المال قائلاً للرسول الذي جاء به من بلاط ميلان: "إن الإمبراطور وخصيانه قد يكونون في حاجة إلى ذلك الذهب للإنفاق على جنودهم وأساقفتهم!!"

... ولكن وللأسف أثرت محنة الأسر ومحنة الشعور بالنفي على هذين الأسقفين بالذات: ليباريوس أسقف روما وهوسيوس أسقف قرطبة، وأرغمتها في نهاية الأمر على التحلّي عن موقفهما وعزمهما (بعد سنتين من الصمود)، فاشترى أسقف روما عودته بشتى صنوف الامتثال المشين وبتوقيع الحرم على

أثناسيوس، أمّا أسقف قرطبة وهو الشيخ المتداعي فقد استخدم معه الإمبراطور كل وسائل الإغراء والعنف حتى أكرهه على التوقيع بالموافقة على الشركة مع الأريوسيين فقط - (وهكذا سقط الغرب بكل كنائسه من الإيمان الأرثوذكسي وبقي أثناسيوس وحده يناضل ذلك الوحش الكاسر).

أمّا بقية الأساقفة المعارضين فظلّوا متمسّكين في ولاء لا يلين ولا يتزعزع بقضية أثناسيوس وبالحق الإلهي. ولكن دفعوا ثمناً لذلك مرارة النفي في ولايات نائية في صحراء بلاد العرب وليبيا وصعيد مصر، وجبال طوروس وقفار فريجية. ولكن كانت لهم هذه الصحاري والقفار أكثر راحة من المقام في مدينة مع أسقف أريوسي! ... وقد هالهم انهيار ليباريوس وتوقيعه الحرم على أثناسيوس (ولكن "العصمة" لله وحده!).

[وكان القصد الأساسي من نفي الأساقفة أصحاب المذهب المستقيم وإلحاق العار بهم أن يكون هذا كله خطوات تمهيدية للقضاء على أثناسيوس نفسه!]

[وكان قد انقضى 26 شهراً جاهد فيها البلاط الإمبراطوري كله سرّاً وبأخبث أنواع الحيل لخلع أثناسيوس من الإسكندرية وحرمانه من المنحة التي كان ينفق منها بسخاء على الشعب.

فلمّا تخلّت الكنيسة اللاتينية عن أسقف مصر وأقرّت إبعاده وأصبح بذلك محروماً من أي سند خارجي، أرسل قسطنطيوس اثنين من أمناء سرّه بتكليف شفوي أن يعلنه بأمر الإمبراطور بنفيه ويقوما بتنفيذ ذلك.

وبالرغم من أن الإمبراطور كانت لديه أحكام موقّعة من جميع الأساقفة بالحكم على أثناسيوس إلاّ أنه لم يعطِ رسله تفويضاً كتابياً بتنفيذ الحكم خوفاً مما قد ينشأ عن ذلك من الخطر في الإسكندرية إذا تعرّضت المدينة إلى دفاع الشعب بقوة السلاح عن براءة أبيهم الروحي.

وهذا الحرص الزائد من جانب الإمبراطور أتاح لأثناسيوس فرصة الادعاء بأنه وبكثير من الاحترام يشك في صحة هذا الأمر الشفوي الصادر بنفيه والذي يتنافى مع عدالة الإمبراطور الكريم ومع تصريحاته السابقة!

وإزاء ذلك فإن السلطات المدنية في المدينة وجدت نفسها عاجزة عن القيام

بمهمة إرغام الأسقف على التخلي عن كرسيه، واضطرت إلى عقد معاهدة مع زعماء شعب الإسكندرية اتفقت فيها على إيقاف كل الإجراءات العدوانية حتى تتأكد لهم مشيئة الإمبراطور بوضوح ...

وفي نفس الوقت صدرت الأوامر سرّاً إلى جيوش مصر العليا وليبيا بالتقدّم على عجل لمحاصرة ثم مباغته العاصمة التي كانت مشتتة بالحماس الديني، بل وقد درجت على ذلك دائماً! (حتى اليوم)!!

وكان موقع الإسكندرية بين البحر وبحيرة مريوط عاملاً سهلاً على الجيوش أن تقترب منها وتدخل قلب المدينة من جهة الغرب قبل أن تتخذ أية خطوات لغلاق الأبواب أو احتلال مراكز الدفاع الهامة.

وفي منتصف اليوم الثالث والعشرين من عقد المعاهدة الكاذبة، شنّ سيريانوس أمير مصر على رأس خمسة آلاف جندي من الجنود المسلّحين هجوماً فجائياً على كنيسة القديس ثيؤناس (305)، حيث كان أثناسيوس مع الشعب والإكليروس يؤدّون صلاة العشية ... [306]

وهنا يلزمنا أن نوضّح بعض النقاط التاريخية الهامة التي أغفلها جيبون.

وهذه النقاط بالتتابع الزمني يمكن ترتيبها كالآتي:

- 1 - بعثة ذات أغراض سلامية من أثناسيوس إلى قسطنطيوس برئاسة سيرابيون أسقف تمويس في 18 مايو سنة 353م.
- 2 - بعثة ذات أغراض خبيثة من قسطنطيوس إلى الإسكندرية لدعوة أثناسيوس للحضور إلى ميلان 23 مايو 353م.
- 3 - القضاء على ثورة ماجننتيوس في الغرب وإخماد الحرب الأهلية في نهاية أغسطس سنة 353م.
- 4 - وصول قسطنطيوس إلى مدينة آرل بفرنسا وبداية عقد مجمع آرل في شتاء سنة 353م.

(305) كنيسة ثيؤناس هي الآن مقام على أنقاضها الكنيسة الكاثوليكية المسماة كنيسة القديسة ريتا وهي بجوار باب 14 جمرک ميناء الإسكندرية.
(306) جيبون - الجزء الأول صفحة 645-653.

- 5 - استخدام أثناسيوس الكنيسة القبطية قبل تدشينها بدون أمر الإمبراطور في موسم الصوم والفصح سنة 354م، والخطاب الفصحي الذي يتنبأ فيه أثناسيوس بالآلام القادمة وتشجيع الشعب على الصبر والاحتمال.
- 6 - اجتماع مجمع ميلان الكبير في ربيع سنة 355م حسب رجاء ليباريوس أسقف روما.
- 7 - وصول ديوجنيتس مبعوث الإمبراطور بدون رسائل مكتوبة لمحاولة خلع أثناسيوس من كرسيه ونفيه باستخدام السلطة الحكومية وذلك في أواخر يوليو سنة 355م. وإزاء عجزه وفشله التام بسبب مقاومة الشعب بصلابة، غادر الإسكندرية في ديسمبر سنة 355م.
- 8 - وصول الجنرال سيريانوس مع أحد أمناء سر الإمبراطور المدعو إيلاوريوس ودخولهما الإسكندرية في 5 يناير سنة 356م بأوامر شفوية لنفي أثناسيوس.
- 9 - شعب الإسكندرية وأراخنة الشعب والإكليروس يهددون بإعلان العصيان واستخدام السلاح، ويجبرون سيريانوس بحضور الوالي على توقيع معاهدة عدم اعتداء، والقسم بحياة الإمبراطور، حتى تصل أوامر صريحة من الإمبراطور وذلك في 18 يناير سنة 356م.
- 10 - هجوم الجيش بقوة قوامها 5 آلاف جندي على الإسكندرية واقتحام أبواب كنيسة ثيؤوناس في مساء الخميس قرب منتصف الليل 8 فبراير سنة 356م بقيادة جورجونيوس رئيس البوليس وسيريانوس الجنرال وإيلاوريوس، ونجاة أثناسيوس.
- 11 - دخول جورج (جورجيوس) الكبادوكي (مغتصب كرسي الإسكندرية) إلى المدينة في موسم صوم الفصح سنة 356م.
- 12 - الهجوم على الكنيسة الكبرى (القيصرية) ورجم الشعب المجتمع بالحجارة وضربهم بالعصي بواسطة الرعاع، وذلك في سهرة الخميس 13 يونيو سنة 356م بقيادة هيراكليوس وكثافرونيوس الوالي الجديد (بعد وصوله بثلاثة أيام) ومعهم فوستينوس الجنرال العام.
- 13 - تسليم جميع الكنائس ليد الأريوسيين في يوم السبت 15 يونيو سنة 356م.
- 14 - امتداد أعمال العنف إلى أكثر من 90 مدينة أسقفية من مدائن مصر على

مجريات الحوادث بالتدقيق

أولاً: بعثة أثناسيوس السلامية إلى قسطنطيوس برئاسة سيرابيون:

عندما بلغ أثناسيوس أخبار الانتصار الذي أحرزه قسطنطيوس في ولايات الغرب الذي به دانت الإمبراطورية بأكملها شرقاً وغرباً لحكمه، كما وقد بلغته أيضاً أخبار الوشايات التي بدأ يخطّط لها الأريوسيون بقيادة الأسقفين الحانثين أورساكيوس وفالنس في الغرب، منتهزين فرصة حقد الإمبراطور نفسه على أثناسيوس بسبب الكرامة التي كان يكتنّها أساقفة إيطاليا وبقية البلاد الغربية لأثناسيوس؛ أسرع أثناسيوس ورثب بعثة من خمسة أساقفة وثلاثة كهنة بقيادة سيرابيون أسقف تمويس، الذي يصفه المؤرّخ سوزومين بقوله: [أسقف يمتاز بقداسة عجيبة وقوة منطق وحكمة بليغة](308) وكذلك يذكر لنا أثناسيوس نفسه أنه كان يرافقه أسقف آخر هو أمونيوس(309). ويذكر لنا مؤلّف تاريخ الجدول الفصحي أن بين هذه البعثة أيضاً كان تريادلفوس أسقف نيقوس، والكاهنان بتروس واستريكيوس(310). وأبحرت هذه البعثة في 18 مايو سنة 353م.

وكان الغرض من هذه البعثة هو للسلام وتصحيح أفكار الإمبراطور والرد على وشايات الأريوسيين ولخير الكنيسة على وجه عام، ولكن للأسف يقول صاحب التاريخ الفصحي، أنها عادت دون أن توفّق لعمل أي شيء(311).

ويقول عن هذه البعثة المؤرّخ دوشسن:

[اتجهت هذه البعثة لإيطاليا لمقابلة الإمبراطور هناك.

وكان يوليوس أسقف روما الوديع المحبوب قد تنيّح في 12 أبريل سنة

(307) جيبون - الجزء الأول صفحة 654.

(308) Sozom., *Ecc. H.*, IV. 9.

(309) Athanas., *Lett.* 49.

(310) N.P.N.F., IV, p. 504.

(311) *Ibid.*

352م وحل مكانه ليباريوس شماسه الخاص في 17 مايو من السنة نفسها، أي بعد شهر واحد من رحيل يوليوس، وقد استقبل ليباريوس البعثة وتفحص رسائل أثناسيوس بكل دقة واهتمام وكان قد وصله أيضاً رسائل معاكسة من أساقفة الشرق تتهم أثناسيوس وتحرمه وكان من ضمن هذه الرسائل ما أرسله أساقفة مصر الميليتيون.

وقد ردّ عليهم يدحض ادعاءاتهم في المجمع السنوي الذي كان يعقده أسقف روما في 17 مايو من كل سنة، أي كان ذلك سنة 353م.

أمّا بعثة القديس سيرابيون أسقف تمويس فكان معها عريضة موقّعة من ثمانين من أساقفة مصر لتأييد أثناسيوس. ولمّا رفض الإمبراطور مقابلتهم قفلوا راجعين (312).

بعد هذا أرسل ليباريوس أسقف روما باسم أكبر عدد من أساقفة روما طلباً للإمبراطور بعقد مجمع لفحص هذه الأمور في أكوليا، وأرسل إليه نائبين فنسنت أسقف كابوا ومارسيللوس أسقف كمبانا اللذين انضما للأريوسيين في آرل ووقّعا ضد أثناسيوس تحت ضغط الإمبراطور والأساقفة الملتفين حوله. [313]

ثانياً: بعثة قسطنطيوس الخبيثة لدعوة أثناسيوس لمقابلة الإمبراطور في ميلان 23 مايو سنة 353م:

بعد إبحار البعثة بأيام قليلة وبينما بعثة أثناسيوس في طريقها، وصل إلى أثناسيوس، بيد مبعوث الإمبراطور المدعو مونتanos، رسائل من الإمبراطور يدعوه للحضور للقصر. فالبعثة أبحرت في 18 مايو سنة 353م ووافت الرسائل في 23 مايو سنة 353م. وبالرغم من أن الإمبراطور لم يُفصح في رسالته عن أمره الصريح لأثناسيوس بالحضور للتحقيق أو للمراجعة عن أي شيء صدر من أثناسيوس، بل وبالرغم من أن منطوق الرسالة يبدو وكأنه أرسل ردّاً على رسالة طيبة سبق أن بعثها أثناسيوس للإمبراطور، بل وأكثر من هذا أيضاً إذ بالرغم من أنه

(312) Duchesne *op. cit.*, p. 203.

(313) *Ibid.* p. 204.

كان في الرسالة نوع من الاحتيايل للتظاهر بأن الدعوة للمثول لديه هي للنظر في سد احتياجات كنائس الإسكندرية، وهذا كله وارد في خطاب أثناسيوس الدفاعي للإمبراطور والمسّمى: “الدفاع لدى قسطنطيوس” (314)، إلا أن أثناسيوس بحاسته التي لم تَخُنْه قط أدرك في الحال أن في الأمر خطراً داهماً، وأبلغ الشعب وكل الإكليروس، فاضطربوا اضطراباً عظيماً إذ كانوا يعلمون تماماً أنه لا سلام ولا أمان سواء في الطاعة والإذعان للذهاب أو في عدم الطاعة ورفض الذهاب لمقابلة إمبراطور مثل هذا متقلّب في كل أفكاره ومشاعره.

وأخيراً استقر الرأي بالإجماع أن يبقى أثناسيوس في الإسكندرية: [وأجاب أثناسيوس بقوله: بما أنه لم يطلب شيئاً من الإمبراطور، فهو لا يستطيع أن يجازف بالسفر، إذ من غير اللائق أن يستجيب لدعوة غير واضح مقصدها، فإذا أرسل الإمبراطور أمراً صريحاً له بالذهاب فيمكنه أنذ أن يلبي الدعوة في الحال] (315)، مما اضطّرّ حاملي الرسائل الإمبراطورية للعودة من حيث أتوا بلا ردّ!! ..

(أ) ثورة ماجننتيوس الطاغية وسلوانس المرتد والقضاء عليهما.

(ب) تمرد اليهود في فلسطين.

(ج) ذبح القيصر غالوس.

(د) التفرغ لمتاواة أثناسيوس والبدء بأساقفة الغرب أولاً.

(أ) ثورة ماجننتيوس الطاغية وسلوانس المرتد عن الإيمان والقضاء عليهما:

كان بعد عودة الإمبراطور قسطنطيوس من حرب الفرس التي لم تنته بواقعة حاسمة، بل وعلى ما يبدو كسب الفرس شيئاً من النصر في معركة ليلية غير حاسمة (316)، عاد الإمبراطور منهوك القوى وكان في سيرميوم بعيداً عن مركز سلطانه.

وفي هذه الأثناء قام في الغرب رجل طاغية طموح ومتعصب يُدعى ماجننتيوس وقد كان حاكماً على مقاطعة في الغرب تسمى روثيا Rhoetia، قام وقتل إمبراطور

(314) N.P.N.F. vol. IV pp. 245, 246.

(315) *Apol. Ad. Const.* 19-21.

(316) *Socrat. E.H.* II: XXV.

الغرب قسطانس أخوا الإمبراطور قسطنطيوس، قتله ذبحاً (317) بينما كان يستحم في إقليم فرنسا (الغال)، وعيّن ماجننتيوس نفسه إمبراطوراً على كل إيطاليا وقتل ابن أخت الإمبراطور، وفي الحال استشاط غضباً أخوه الإمبراطور قسطنطيوس إمبراطور الشرق وجَهَّز جيشاً ليزحف على روما. وفي نفس الوقت أعلن العصيان ضابط آخر مرتد عن المسيحية اسمه فترانيو Vetrano في مدينة سيرميوم Sirimium في بلاد إيليريكوم Illyricum (وهي الآن المعروفة باسم ألبانيا أي الشاطئ المتاخم لشرق إيطاليا)، وهكذا دخلت إيطاليا وكل تخومها في اضطرابات سياسية ودينية وقلقل ومذابح، وذلك كله حدث في مدة وجيزة للغاية كما يحكي لنا المؤرخ سقراط، وذلك في السنة الرابعة لانتهاه مجمع سردিকা، أي حوالي سنة 350م، بحسب تحقيق المؤرخ سوزيموس (في كتابه الثاني 43-48)، وذلك في زمان قنصلية نيجرينان وسرجيوس. وهكذا حكمت الأقدار أن يتحمّل قسطنطيوس عبء تعبئة جيشه بنفسه للزحف نحو إيطاليا. والذي يُذهل القارئ أن ينبري في هذه اللحظة أعداء أثناسيوس ويقدموا للإمبراطور وهو في أقصى محنته وشاية ضد أثناسيوس، كنهها أن أثناسيوس في رحلة عودته من النفي مروراً بفلسطين حرّض الشعب والأساقفة ضد الإمبراطور وقام برسامة كهنة في الإيبارشيات التي مرّ عليها والتي ليست من اختصاصه، وأن أثناسيوس قلب عليه كل ليبيا ومصر. وأنه جمع مجمعاً من غير علم الإمبراطور وذلك في فلسطين بقيادة مكسيموس أسقف أورشليم الذي ثبتت مقرّرات مجمع سردিকা مع إعطاء أثناسيوس يمين الشركة.

وسرعان ما هاجت نفس الإمبراطور ضد الأرثوذكس مرّة واحدة لأن روح الأريوسية كان قد تغلغل إلى أعماقه، فأمر في ثورة غضبه بنفي "بول" أسقف القسطنطينية، مع توصية خاصة للذين اصطحبوه إلى منفاه في جبال القوقاز في كبادوكية، أن يقتلوه خنقاً قبل أن يصل إلى منفاه، وقد تمّ كل ذلك.

سلام لروحك يا "بول" ملاك القسطنطينية الشهيد يا مَنْ أسلمت الوديعه الطاهرة في الغربة الموحشة وحيداً بلا رفيق ولا معزّي!! ...

(317) Sozimus 11. 45 cited by Socrate. Ibid.

ويقال إنه مات تحت أرجل الجند في فبراير سنة 350م. Dict. of Chr. Ant. p. 192.

وأقاموا عوض “بول” القديس أسقفاً آخر مجرمًا قَتَلًا محتالًا، قَلَبَ القسطنطينية بل كل بلاد آسيا إلى أعمال وحشية وألقى في السجون كهنة وأساقفة وأراخنة بلا عدد(318)، وطرده الأسقف مارسيللوس وجعلوا باسيل أسقفًا على أنقرة عوضاً عنه، أمّا لوسيوس أسقف أدريونيل فعَلَّقوا في عنقه سلسلة ثقيلة وألقوه في السجن، فلم يحتمل جسده الرهيف التعذيب فمات في الحال!!

وسلام لروحك أيضاً يا “لوسيوس”، وَمَنْ لي بسلسلتك الثقيلة أضعها على عنقي كأسهل وأجمل وأحلى طريق يوصلنا للسماء!!

أمّا أثناسيوس فقد وضع الإمبراطور بنفسه خطة قتله بلا رحمة وبأي ثمن ولكن كيف؟ وأثناسيوس له شعب بل له مصر كلها، ومصر لا يُستهان بها قط منذ فجر التاريخ، شعب مترابط يستطيع لو شاء أن يقف في وجه الدنيا كلها بل في وجه الجحيم!! وتخاذل إمبراطور الشرق والغرب أمام كتابة أي أمر، ولم يجروا أن يضع خاتمه على كلمة واحدة ضد أثناسيوس فزعاً ورعبة من أثناسيوس القديس ومصر الحرة الثائرة، فارتأى أخيراً أن يرسل ضبَّاطه لقتله بتوصيات شفاهية ولكن بدون أمر مكتوب!! أمّا هو فذهب في طريقه إلى إيطاليا لمواجهة ماجننتيوس.

اتجه قسطنطيوس صوب روما، وانضم إليه في الطريق كثير من جنرالات إيطاليا، وترك ماجننتيوس روما والتجأ إلى فرنسا. ولكن قسطنطيوس تقدّم، وبدأت الحرب سجّالاً، ولكن فجأة انضم معظم الضباط الذين في جيش ماجننتيوس إلى جيوش قسطنطيوس، وفي إحدى قلاع فرنسا المدعوة مورسا Mursa بينما كان ماجننتيوس يخطب في ضباطه وجيوشه ليثير فيهم روح الشجاعة، وبعدما أنهى خطبته وكان ينتظر هتافاً بحياته ونصرته إذ بالقواد يهتفون بحياة قسطنطيوس، فأدرك الطاغية أن الزمام قد فلت من يديه، فما كان منه إلا أن انسحب وهرب إلى أقصى فرنسا وهناك وقع على سيفه ومات منتحراً.

ولكن في وسط هذه الاضطرابات قام طاغية آخر، ضابط يُدعى سلوانس وأراد أن يغتصب الإمبراطورية، ولكن سرعان ما أحاط به قسطنطيوس وهو في طريق عودته من فرنسا وقضى عليه وعاد منتصراً، وكان هذا في سنة 353م بحسب تاريخ

(ب) تمرد اليهود في فلسطين:

وفي هذه الأيام وحول هذا التاريخ تجمّع يهود فلسطين، تشبُّثاً وراء وعد مفقود، ورجاءً في سراب العودة إلى مُلك داود وأرض الموعد كالعادة، وأرادوا الإطاحة بحكم الرومان، تراودهم أحلامهم الذهبية، مرتكنين على نبوات أنبياء كانت قد تحطّت زمانهم وتحقّقت لغير أجيالهم الذين قبلوا النور وآمنوا بالوعد، وبقي هؤلاء في ظلام الدهور، يترجّون ما لا يُرجى.

تجمّع جيش اليهود في ديوقيصرية وجّهّزوا أنفسهم بالسلاح واستعدّوا للحرب، وبدأوا يغيرون على البلاد المجاورة كبادئين في الهجوم، وكان والي الشرق في هذا الزمان يُدعى غالوس Gallus قيصر، فتقدّم هذا بغاية السرعة وحاصر جيوش اليهود وقضى عليهم قضاءً ساحقاً. وكما يقول المؤرّخ سقراط إنه أمر أن تُهدم ديوقيصرية حتى الأساسات، أو بالتعبير الإنجليزي، أن تُزال من الوجود.

(ج) ذبح غالوس قيصر:

وهو نفس القيصر الذي أخذ ثورة يهود فلسطين في ديوقيصرية ويبدو أن الزهو أخذه ولم يحتمل هذه النصر الساحقة بتعقّل، فبدأ يطغي على حكام المنطقة التابعة له رغباً في تهيئة الجو لنفسه ليكون حاكماً منفرداً على الشرق، وسرعان ما بلغ الإمبراطور أخبار طموح هذا الوالي الذي هو في الحقيقة صنّيع الإمبراطور فهو الذي رّفاه وجعله قيصراً على بلاد المشرق. فاستدعاه، وبينما هو في الطريق إليه وفي جزيرة تُدعى فلانونيا Flanonia بالقرب من إيطاليا أمر الإمبراطور بذبحه هناك. [والعجيب أنه بعد فترة من الزمان أقام أخاه والياً على أحد أقاليم فرنسا، وكان يُدعى جوليان، ورّفاه ليكون قيصراً بعد أن أخذ ثورة البربر في فرنسا، وذلك في 6 نوفمبر سنة 355م.] (320)

وبعد أن استراح قسطنطيوس من مشاكل السياسة والحروب في حوالي سنة 353م مزهواً بسلطان النصر، عاد ليتسلّى بأمور الكنيسة وبدأ يخطّط لقتل

(319) Socrate *Ecc. H. II.*, XXXII.(320) *Ibid*, H. II., XXXIV.

مجمع آرل وقصة اضطهاد أثناسيوس الثاني، على يد الإمبراطور قسطنطيوس:

لم يستطع أحد من المؤرخين أن يصف لنا بدقة ظروف هذا المجمع أكثر من أثناسيوس نفسه في سرده لتاريخ الأريوسية المدعو بكتاب "تاريخ الأريوسية". وسوف نلخصه للقارئ حتى يكون على بينة مما قاسته الكنيسة القبطية بل والأرثوذكسية في العالم كله حتى صارت الأرثوذكسية هي الأرثوذكسية التي نعيشها الآن. ويلاحظ أن أثناسيوس يسرد لنا التفاصيل بغاية الدقة ويركز على أساليب الإمبراطور الخداعية، وكيف أن الإمبراطورية كان يسوسها جماعة من الخصيان داخل القصر، وجماعة من ذئاب الأريوسية خارج القصر، وقد تعاهدت هاتان الجماعتان على محو شئنين من الوجود: أولاً: أثناسيوس، وثانياً: المسيح. وهذا الترتيب بحسب كمية الكراهية التي كان يكتفها الإمبراطور والأريوسيون لهما. يقول أثناسيوس في كتابه عن تاريخ الأريوسية الجزء الرابع (321):

حنث أورساكيوس وفالنس:

[لم يستطع ورثة أفكار يوسابيوس وأتباعه في التخطيط والحطة الأخلاقية أن يحتملوا السلام الذي بدأ يستتب بين أثناسيوس (هنا أثناسيوس يقول عن نفسه) وبين الأساقفة الذين بلغ عددهم أكثر من أربعمئة أسقف - بحسب تجمعهم في مجمع سرديكا (322) - من روما العظمى وكل إيطاليا وكالابريا وأبيوليا وكامبانا وبروتيا وصقلية وقورسيكا وكل إفريقيا، مع أساقفة الغال (فرنسا) وبريطانيا وأسبانيا وعلى رأسهم المعترف العظيم هوسيوس مع أساقفة بانونيا ونوريكم وسيسكيا، ودالماتية وداردانيا وداسيا وموسيا ومكدونية وتساليا وأخائية وكريت وقبرص وليكيا، ومعظم أساقفة فلسطين وإيشوريا ومصر وطيبة وكل ليبيا والخمس مدن.

وهكذا لم يطق هؤلاء المارقون هذا التجمع السلامي الكبير، فامتأوا حسداً وحقداً وخوفاً لنلاً يفلت من مصيبتهم الذين وقعوا في غوايتهم، وتبدأ ضلالة

(321) Athanas., *Hist. of Arian*. IV p. 279.

(322) Athanas., *Apol. Arian*. 50, note 10.

هرطقتهم تنفضح وتقاوم في كل مكان.

وفي سنة 351م استطاع هؤلاء المارقون أن يستميلوا أورسაკيوس وفالانس فعادوا إلى قبئهم الأول وتمرّغوا في حماة سلوكهم غير الشريف. وكانوا يحتجّون لخيانتهم المعيبة هذه بخوفهم من الإمبراطور قسطانس الكلي القداسة!! ولكن وإن أخذنا بعذرهم هذا فما الذي أجبرهم على أن يخونوا زملاءهم؟ ولكن لم يكن من سبب للخوف بل هو الكذب والغش، هذا بحد ذاته يجعلهم بالحق تحت الدينونة! لأنه ما من جند ذهبوا إليهم ولا أمراء ولا كتيبة ولا حتى الإمبراطور مرّ بهم ولا أحد دعاهم لكي يكتبوا هذا الخبث بأيديهم، ولكنهم بمحض إرادتهم ذهبوا إلى روما وسجّلوا على أنفسهم في وثائق الكنيسة دون أي عوامل تخويف أو ضغط، حيث لم يكن من داعٍ للخوف إلاّ الخوف من الله وحده ولا ضاغط إلاّ من حرية الضمير، وبالرغم من أنهم عادوا مرّة ثانية إلى الأريوسية ولكن للأسف، فإن عذر الخوف الذي قدّموه - وهذا عذر غير شريف بحد ذاته - ليسلكوا هذا السلوك المعيب لم يكن داعياً لهم للخجل. [323]

ولا زلنا نتابع كلام القديس أثناسيوس، واصفاً بنفسه هذه الفترة المفجعة من انهيار القيم الأخلاقية لدى أساقفة كثيرين ممالة للإمبراطور في الإيمان والتفريط في التقليد واستقامة الرأي؛ يقول أثناسيوس:
حنث الإمبراطور في أقسامه:

[لقد جمع هؤلاء الأساقفة المارقون (الأريوسيون) أنفسهم وذهبوا إلى الإمبراطور قسطنطيوس وتوسّلوا إليه ضدّي (أثناسيوس) قائلين إن أثناسيوس أرسل رسائل ضد هؤلاء الأساقفة إلى جميع أنحاء العالم، وإن الغالبية العظمى من الناس قبلوا الشركة معه (أي معي). وحتى الذين كانوا معنا استمال معظمهم والباقون على وشك أن ينضموا إليه. وهكذا سنبقى وحدنا، وليس نحن فقط بل وأنت أيضاً سيُلصق بنا تهمة أننا هرطقة، فالآن يتحمّم أن تقمع هذا الرجل وتناصر عقيدتنا (هرطقتنا)، لأن هذا يعينك كمّاك! هكذا كانت وسائلهم

الأثيمة غير الشريفة. ولمّا كان الإمبراطور في طريقه لمحاربة ماجننتيوس (سنة 351م) لاحظ مقدار ترابط شركة الأساقفة جميعاً مع أثناسيوس، فطار صوابه واشتعلت نيران الحقد في قلبه، وفي الحال غيّر رأيه وصمّم على الحنث في قسمه، وتناسى كل ما كتبه (لي) بخط يده، واستهان بالواجبات التي قطعها على نفسه تجاه ذكرى أخيه. لأن قسطنطيوس في خطاباته لأخيه وفي مقابلته لأثناسيوس أقسم أنه لن يتصرّف إلاّ بحسب رغبات الشعب وما يوافق عليه الأساقفة، ولكن لأنه إذ كان ذا أخلاق دنيئة أخذته غيرته لكي يتناسى كل وعوده وأقسامه ورسائله، كما صنع فرعون قديماً مع شعب إسرائيل حتى هلك مع كل مشيريه. [324]

مجمعا آرل وميلان (353-355م)

قسطنطيوس يبدأ الاضطهاد من بعيد استعداداً للانقضاء على الإسكندرية:

[ابتدأ الإمبراطور يرسل دعائه لإرغام الشعب في كل مدينة ليغيروا ولاءهم (لأثناسيوس)، وعند وصوله إلى آرل سنة 353م وميلان سنة 355م، بدأ ينادي ويعمل بحسب مبادئ وخطط الأريوسيون بكل وضوح وعلانية، كما بدأ الأريوسيون أيضاً يتصرفون بسلطانهم وينقضون بكل وحشية وصرامة ضد كل إنسان.

وابتدأت الخطابات والأوامر تُرسل باسم الإمبراطور إلى مصر، لكي يرفع سلطان أثناسيوس من الوصاية على قمح مصر، ويسلمه للأريوسيون ليتصرفوا فيه، وتعطى الحرية لكل مَنْ يشاء لمقاومة ومهاجمة كل مَنْ يتبع الشركة مع أثناسيوس. وأعلن تهديده لكل الرؤساء إذا هم لم يقيموا الشركة مع الأريوسيون، فكانت هذه الأمور مقدّمة لما سيحدث بعد ذلك على يدي الوالي سيريانوس.

كما أرسلت الأوامر إلى كل الجهات للرؤساء والولاة لكي يبلغوا الأساقفة، أنهم إذا لم يوقعوا بإمضاءاتهم ضد أثناسيوس وقيموا الشركة مع الأريوسيون فيصير معاقبتهم في الحال بالنفي، وكل مَنْ يتعرّض لذلك من عامة الشعب يقبض عليه ويوضع في السلاسل ويجري تعذيبه وجلده وتجريده من كل ممتلكاته.

ولقد نُفذت هذه الأحكام والأوامر، إذ صار لها جواسيس من الكهنة مثل أورساكيوس وفالنس يشجّعون الاضطهاد بغيرة ونشاط، ويبلغون في الحال عن أي تباطؤ في تنفيذ العقوبات للإمبراطور مباشرة...

وقد تمّ قول المسيح في كثير من الأساقفة: «ستقفون أمام ولاة وملوك من أجل اسمي»، وقبلوا التهديد بالقضية هكذا: «وقّع بإمضائك وإلاّ فانسحب من

كنيستك لأن الإمبراطور يأمرك بالاستقالة”.

وملأ الحزن كل البلاد وملأ الخوف والارتباك كل القلوب بينما هم يجرون
الأساقفة أمام عيون الشعب للمحاكمة، والشعب ينوح ويولول. [325]

قسطنطيوس يباشر الاضطهاد بنفسه وهو في آرل وميلان (353-355م):

والمعروف أن في آرل انعقد المجمع الأول سنة 353م، وتقرر فيه حرم أثناسيوس
بعد خلع من كرسيه وقد وقع على هذا القرار كل الأساقفة الحاضرين، ما عدا بولين
أسقف تريف بفرنسا، فنفي في الحال إلى فريجية بأسيا الصغرى حيث عذب في
الطريق حتى مات. ويقول القديس أثناسيوس إنهم ربطوه بسلسلة كانت أثقل من
وزنه.

والعجيب أيضاً أن نائبي ليباريوس أسقف روما وهما فنسانت أسقف كايو
ومارسيل أسقف كمبانا بإيطاليا وقعوا أيضاً على الحرم، مما أثار كل أساقفة روما
وليباريوس نفسه وقال أنذ قولته المشهورة لزميله هوسيوس والتي يحافظ عليها:
[إني لو خيَّرت بين الموت واختصام أثناسيوس لفضَّلت الأول على الثاني.] [326]

وفي هذا يقول القديس أثناسيوس بالتفصيل:

[وبعد أن أخذت إجراءات رجال البلاط حدَّها بواسطة الخطابات والأوامر
المكتوبة، لم يكن بدُّ من إرغام بعض الأساقفة الذين تمسَّكوا بمواقفهم للمثول
أمام الإمبراطور باتهامات مختلفة ملفَّقة حتى يلينوا أمام هيبة الإمبراطور،
وهكذا وبطرق أخرى باشر الإمبراطور بنفسه إرغام عدد كبير من الأساقفة
تارة بالتهديد وتارة بالوعود حتى ينطقوا اعترافهم: “أنهم لن يعودوا إلى
الشركة مع أثناسيوس”.

ومعظم الذين دُعوا لمقابلة الإمبراطور لم يقابلوه، بل حُبسوا في الأماكن
التي أنزلوهم فيها ولم يُسمح لهم بالمقابلة أو حتى الخروج من مساكنهم إلا بعد
التوقيع بالإمضاء وإلا أرسلوا مباشرة إلى النفي!!

(325) Ibid. p. 280.

(326) Hilary of Poit., *Frag. Hist.* 6.3.

وواضح أنه لجأ إلى هذه الطرق لأنه وجد أن هذه الهرطقة الأريوسية مكروهة لدى كل الناس، لذلك كان يجبر الكثيرين لكي يضعوا إمضاءاتهم بجوار إمضاءات الأريوسيين لأن عددهم كان قليلاً، وكانت رغبته الشديدة في أن يكرّس عدداً كبيراً من أسماء المنتمين لحزب الأريوسيين لأنه اعتبر نفسه نصيراً لهم!! ظاناً أنه يقدر أن يغيّر الحق بالسهولة التي يغيّر بها عقول هؤلاء المنخدعين. ولم يعلم أن محاولات الصدوقيين (الموالين للولاية) والهيروديين (أتباع الملك علانية) في ضمهم الفريسيين إليهم، لم تقوَ على طمس الحق، بل أصبح الحق أكثر تألقاً ولمعاً عندما نادوا: «ليس لنا ملك إلا قيصر!!»، وحتى بعد أن نالوا حكم بيلاطس لصفهم تُركوا بعد ذلك في عزلتهم ينتظرون خيبة أملهم بعد موت نصيرهم!!» [327]

أساقفة الغرب يلتقون الإمبراطور درساً في شجاعة الإيمان:

[وبينما الإمبراطور ومَنْ معه (من وزراء وخصيان وأساقفة أريوسيين) يظنون أنهم يباشرون انتصارهم على الأساقفة المجتمعين بأرل وميلان بهذه الوسائل، لم يَدُرْ بخلداهم أنهم بهذا أيضاً يقدّمون للمسيح معترفين، الذين من بينهم مَنْ اعترفوا اعترافاً مجيداً، رجال أتقياء وأساقفة ممتازون مثل باولينوس أسقف تريف وهو رئيس أساقفة الغال (فرنسا)، لوسيفر مطران سردينيا، يوسابيوس أسقف فرسلي بإيطاليا وديوناسيوس أسقف ميلان وهو مطران كل إيطاليا. هؤلاء استحضرهم الإمبراطور، وأمرهم أن يوقّعوا بإمضاءاتهم ضد أثناسيوس ويقبلوا الشركة مع الأريوسيين، فلمّا أبدوا للإمبراطور دهشتهم من هذا الإجراء الغريب وواجهوه أنه لا يوجد قانون كنسي يبيح هذا الإجراء!! ردّ عليهم الإمبراطور بقوله لقد قال لي أساقفة سوريا إن كل ما أريده يُحسب قانوناً!! فإما أن تخضعوا وإما أن تذهبوا إلى المنفى!!] [328]

نتيجة مجمعي آرل سنة 353م وميلان سنة 355م:

أساقفة الغرب الأرثوذكس يواجهون النفي فينشرون هناك معرفة الحق:
[لم يقف هؤلاء الأساقفة أمام الإمبراطور مكتوفين (في مجمعي آرل وميلان)

(327) Athanas. Ibid. 281.

(328) Athanas. Ibid. 281.

بل رفعوا أيديهم نحو السماء، وبجرأة وشجاعة تحدّثوا الإمبراطور مواجهة قائلين: إن المملكة لله وليست له، وإن الله هو الذي أعطاه المُلك، وينبغي عليك أن تخشاه لئلاً ينزع المملكة من يديك وذكّروه بتهديد يوم الدينونة العتيد، وحثّروه من أن يكسر النظام الكنسي، وألاً يخلط بين السلطان الروماني والسلطان الكنسي، وحثّروه من إقحام الهرطقة الأريوسية على كنيسة الله.

ولكنه لم يُصغ لهم ومنعهم من الاسترسال في الكلام، وثار وهدّدهم شاهراً السيف عليهم ثم أمر بإرسالهم للإعدام، ولكنه عاد - كفرعون في زمانه - ورجع عن عزمه وأرسلهم للنفي، أمّا هم فرفعوا عيونهم نحو السماء ولم يعبأوا بكلامه ولم يخافوا البتة من سيفه المرفوع بل نفضوا الغبار عن أرجلهم وذهبوا إلى النفي حاسبينه خدمة تتعلّق بكرازتهم.

وكانوا يبشّرون بالإنجيل أينما ذهبوا، مع أنهم كانوا مقيدّين بالسلاسل، وكانوا يجحدون التعاليم الأريوسية ويحرمون القائلين بها كقتلى وصانعي شر، أمّا هم فكانوا موضع إعجاب كل مَنْ سمعهم ورآهم وكان يكرّمهم الشعب كمعترفين!!]

وينقل ثيودوريت عن القديس أثناسيوس بخصوص ما تمّ في مجمع ميلان سنة 355م وهو ما ورد في اعتذاره عن هروبه:

[والقديس أثناسيوس العجيب يذكر هذه الأحوال في اعتذاره هكذا: وبينما كانت الكنائس تعيش وتستمتع بالسلام والجموع محتشدة للصلاة، أخذوا لبياريوس أسقف روما وباولينوس أسقف الغال (فرنسا) وديونيسيوس أسقف كل إيطاليا وليسيفوروس أسقف كل سردينيا ويوسابيوس أسقف إحدى مدن إيطاليا - وهم أساقفة جميعهم على أعلى مستوى يُحتذى به، وشهوداً للحق، أخذوهم إلى النفي لا لسبب إلاّ لأنهم لم يوافقوا الهرطقة الأريوسية وامتنعوا أن يعضوا على اتهامات باطلة ضدّي.

ومن بين جميع الأساقفة العظماء وأكثرهم شهرة هوسيوس أسقف قرطبة وهو ابن مائة عام، أخذوه هو الآخر إلى المنفى لأنه لم يوقع ضدّي.] (329)

قضية ليباريوس أسقف روما(330)

استمرار اضطهاد ليباريوس أسقف روما حتى زلّ في النهاية صاعراً ووقع على وثيقة الأريوسيين:

(أ) [ومنذ البدء (قبل الاجتماع في آرل وميلان) لم يستثنوا ليباريوس أسقف روما بل امتد جموحهم إلى تلك النواحي، ولم يحترموا أسقفيته بصفته كرسياً رسولياً، ولم يعتدوا بروما بصفتها متروبوليس كل رومانيا (إيطاليا)، ... قالوا في أنفسهم: “إذا استطعنا أن نقنع ليباريوس فنحن نسود سريعاً على الجميع”، فابتدأوا يتهمونه غشاً أمام الإمبراطور، فافتنع هذا أنه يستطيع فعلاً أن يضم كل الناس ليكونوا في جانبه بواسطة ليباريوس، فكتب إليه رسائل ودفعها بيد خصي يدعى يوسابيوس مع هدايا يتملقه بها ولكن مع تهديدات ووعيد يتضمّن خطاباً. فذهب الخصي إلى روما واقترح على ليباريوس أولاً بالتوقيع بإمضائه ضد أثناسيوس وأن يصنع الشركة مع الأريوسيين قائلاً: “إن هذه هي رغبة الإمبراطور وهو يأمر بذلك”، وابتدأ يستعرض الهدايا المرسلّة إليه، وكرّر عليه الرجاء أن يطيع ويقبل الهدايا ممسكاً إياها بيديه”.[331]

(ب) ليباريوس في أعلى حالة من الوعي الإيماني، وعبثاً يحاول الخصي:

[فابتدأ الأسقف ليباريوس يقنعه بالمنطق، “كيف أصنع هذا ضد أثناسيوس؟ كيف ندين إنساناً لم يُدنه مجمع واحد، بل وآخر في (سردিকা) اجتمع فيه أساقفة من كل أقطار العالم وكل كنائس روما شيّعته (إلى بلده) بسلام!!” فمنّ الذي يوافقنا على مثل هذا السلوك الذي تريده إذا نحن عزلنا إنساناً في غيبته سبق أن رحبنا به في حضوره بالفرح وقبلناه في شركتنا، هذا ينافي القانون الكنسي ولا انحدر إلينا مثل هذا التقليد من الآباء الذين هم بدورهم استلموه من الرسول العظيم المطوّب بطرس (كذا). ولكن إن كان الإمبراطور معنياً حقاً بسلام الكنيسة ويريدنا أن نوقع ضد رسائلنا

(330) ظل المغبوط يوليوس أسقفاً على روما منذ سنة 337م - سنة 352م وقد خلفه ليباريوس في الأسقفية.

(331) Athanas. Ibid. p. 282.

لأثناسيوس، فاجعلوا كل الإجراءات التي اتخذت ضد أثناسيوس تكون ضد الآخرين أيضاً. وليُدعَ إلى ذلك مجمع كنسي ولكن بعيداً عن البلاط الإمبراطوري، ولا يحضره الإمبراطور، ولا يُسمح لأي كونت آخر بالحضور ولا أي قاضٍ يهددنا، بل يكون خوف الله والقانون الرسولي هو الذي يسود، وهكذا نضع في المقام الأول أن إيمان الكنيسة يكون في أمان كما حدده الآباء في مجمع نيقية، ويُخرج جميع المناصرين للمبادئ الأريوسية ويُقطع بالحرم عليها، وبعد ذلك يمكن فحص الاتهامات الموجهة ضد أثناسيوس وضد أي إنسان آخر معه، كما تُفحص الاتهامات الموجهة ضد الحزب الآخر أيضاً، وهكذا يُقطع المذنب، ويُسند البريء ويتشجع. لأنه من المستحيل على قوم ينادون بقانون إيمان ملحد وكافر أن يُسمح لهم ليكونوا أعضاء في مجمع. ولا هو مقبول أو لائق أن تفحص أمور تختص بالسلوك قبل أن تُفحص الأمور المختصة بالإيمان ذاته. إنما اللائق هو أن تُستأصل أولاً كل الأفكار المخالفة للإيمان، ثم بعد ذلك تجيء أمور السلوك.] (332)

(ج) ليباريوس ينتفض انتفاضة الشرف ويرفض الهدايا، والإمبراطور يثور:

[لم يغضب الخصي بسبب عدم حصوله على إمضاء ليباريوس بقدر ما استثناط غضباً عندما وجد ليباريوس عدواً لدوداً للأريوسيين، ودون أن يعتبر أنه واقف أمام أسقف، أخذ يهدد ليباريوس بعنف وانصرف ومعه هداياه ... ولكن اتجه صوب "المارتيريا" = (مكان الاحتفاظ بجسد القديس الشهيد) لبطرس الرسول ووضع هناك هدايا الإمبراطور، ولكن عندما انتبه ليباريوس إلى هذا غضب جداً من حارس المكان كيف لم يمنعه، وألقى بالهدايا خارجاً باعتبارها مقدمة غير قانونية، مما زاد من سخط الخصي الواقف أمامه ...

ولمّا عاد إلى الإمبراطور أثار حفيظته بقوله: "إن الأمور التي تهمنا الآن ليس أن نحصل على إمضاء ليباريوس ولكن الذي يهمنا إصراره على

مقاومة عقيدتنا (الهرطقة الأريوسية) لأنه يحرم الأريوسيين بالاسم”.

وقد أثار حفيظة كل حاشية الإمبراطور التي تتألف معظمها من الخصيان الذين بدونهم لا يمكن أن يتم عمل، والذين أخذوا يهولون الأمر على الإمبراطور بتأثيراتهم الخاصة.

وبناءً عليه كتب الإمبراطور رسائله إلى روما وأخذها الوزراء والمسجلون والكونتات إلى حاكم البلاد بتوصيات، لكي إمّا يغروه بالحيلة والخداع ويأخذوه بعيداً عن روما ويرسلوه إلى البلاد ليمثل أمامه، أو يعذبوه بعنف.[333]

حتى روما لم تفلت من مصائب الأريوسيين للضغط على ليباريوس:

[امتلأت كل روما بالخوف والذعر والإشاعات والخيانة، عائلات وصلها التهديد، وعائلات مُنيت بالوعود البرّاقة إن هي وقفت ضد ليباريوس، كم من الأساقفة اختبأوا، كم من سيدات نبيلات لجأن إلى أقصى الريف خوفاً من أعداء المسيح! كم من النُسّاك والعُباد صاروا هدفاً لمؤامراتهم، وكم من سواح غرباء لاقوا الاضطهاد والتعذيب.

لقد حاصروا الميناء (أوستيا) ومداخل الأبواب حتى لا يدخل أي أرثوذكسي ليزور ليباريوس!!

وهكذا دخلت روما نفسها في التجربة وعانت من أعداء المسيح كبقية الكنائس بعد أن كانت لا تصدق أن كنائس أخرى في مدن أخرى قد جُرّبت وأُتلفت بواسطة الأريوسيين.[334]

ويليق بنا هنا أن نأتي بمقتطفات من رواية ثيودوريت عن المصائب التي حلت بالكنائس الأخرى ينقلها عن القديس أناسيوس:

[أي مكان لم يحمل شناعة وفضاعة سلوكهم لأن كل مَنْ كان يخالفهم في عقيدتهم (الأريوسية) كانوا يتهمونه زوراً ويضطهدونه كما كانت تفعل

(333) Ibid. p. 283.

(334) Ibid. p. 283.

إيزابل قديماً، فلم توجد كنيسة لم تُحَكِّ المؤامرات ضد أسقفها، فسادها الحزن والأسى. فأنطاكية كانت تتوح على أسقفها الأرثوذكسي الأمين يوستاثيوس، وبالانبا (الآن بانياس على ساحل سوريا) تبكي على أسقفها يوفراتيون، وبالنتوس (الآن بولدو بجوار بانياس) وأنتارادوس (الآن تورتوزا في فينيقية) تبكيان على أسقفيهما كيماثيوس وكارتيريوس، وأدريانوبل (على ساحل الدردنيل) حزينة على أسقفها المحبوب أيوتروبيوس وعلى لوسيوس خلفه الذي عاش في السلاسل وقضى نحبه تحت ثقل وزنها.

وكذلك أنكيرا وبيرية وغزة تبكي على أساقفتها مارسلوس، وكيروس، واسكليباس الذين بعدما عذبوا طُرحوا في المنفى. [335]

(د) ليباريوس أمام الإمبراطور:

قوة هائلة ورباطة جأش منعدمة النظير حبذا لو استمرت ولكن للأسف!

[وبعد أن عاود الإمبراطور الكتابة إلى روما عدة مرّات مهدّداً، عاد وأرسل نوابه الخصوصيين مع خطط مرسومة خصوصاً بعد أن أشعل حركة اضطهاد عنيفة موازية في الإسكندرية! وذلك كان في سنة 354م.

فجرُّوا ليباريوس وأوقفوه أمامه عنوة، لكن ليباريوس كان رابط الجأش عنيفاً في مجابته للإمبراطور قائلاً: «كفاك اضطهاداً للمسيحيين، ولا تحاول أن تستخدمني لتسيطر بالكفر على الكنيسة، نحن مستعدون أن نتحمّل كل صنوف العذاب ولا يُضم اسمنا إلى الأريوسيين، ونحن مسيحيون ولا تحاول أن ترغمنا لنكون أعداءً للمسيح! ونحن نشير عليك أن لا تحارب المسيح الذي أعطاك هذه المملكة ولا تعلن كفرك به عوض الشكر له، لا تضطهد الذين يؤمنون بالمسيح «لأنه صعب عليك أن ترفس مناخس»! فليتك تسمع صوته كما سمعه بولس وأطاعه، وها أنا أمامك، وقد أتيت وأنا عالم أن النفي ينتظرنى على يديك، وسوف نتألّم دون أن نُحاكّم كما تألّم آخرون أيضاً وحُكّموا زوراً وبهتاناً وتلفيقاً من أعدائهم!» [336]

(335) Theodoret, *The Ecc. Hist.* II 12, Athanas. *Ap. de Eug.* ch. 4,5.

(336) Athanas. *Ibid.* p. 284.

(هـ) ليباريوس يتجه إلى المنفى مثل باقي أساقفة الغرب:

[كان المتبع قديماً في المنفى (كما سمعته من أجدادي) في أيام اضطهاد الإمبراطور مكسيميانوس سنة 303م (وكان وثنياً) جد قسطنطيوس، أن المعترفين المنفيين كانوا يُرسلون إلى النفي جماعات حتى يكون لهم شيء من التعزية، ولكن في أيام قسطنطيوس (الذي يدّعي المسيحية)، أمعن في تعذيب المنفيين بأن فرّقهم كل واحد بمفرده لأنه كان أكثر وحشية، وحتى لا يأتلفوا معاً (من جهة إيمانهم الواحد)، غير عالم أنه مهما كان انفراد كل واحد (من هؤلاء المعترفين) عن الآخرين فإن الرب الذي اعترفوا باسمه معاً بنفس واحدة يكون معهم وهو القادر أن يمدّهم بجيش من الملائكة المعزيين أكثر ممن هم حول قسطنطيوس نفسه، كما صنع مع النبي أليشع!؟

ولكن الكفر يعمي الناس، لأنهم لمّا فرّقوهم بقصد تعذيبهم أكثر، صاروا شهادة في أماكن عديدة على كفر الأريوسيين وذاع خبرهم في كل مكان! ..]

وقد استاقوا ليباريوس إلى بيرية في إقليم تراس "تراقيا" ليملك هناك وحيداً سنتين، لم يحتمل فيهما النفي، فانهارت نفسه وتذللّ بخطابات اعتذار للإمبراطور، ووقع ضد أثناسيوس ودخل الشركة مع الأريوسيين!!

أثناسيوس يلتمس العذر لسقوط ليباريوس

وتوقيعه بالحرمة على أثناسيوس والشركة مع الأريوسيين:

[ولكن ليباريوس بعد أن أمضى في النفي سنتين، انهار، ومن رعية التهديد بالموت وقع على الوثيقة!]

ولكن هذا يشير إلى مدى العنف الذي سلكوه مع هذا الإنسان الذي كان يبغض الأريوسيين، وقد ظل يناصرنا (أثناسيوس) طالما بقيت له حرية في الاختيار، لأن ما يجبر عليه الإنسان بالتعذيب لكي يرغموه أن يعمل ضد ما حكم به أولاً لا ينبغي أن يُحسب عليه كأنه من حرية إرادته طالما كان تحت الخوف.] (337)

ولكن تعليقتنا على ذلك مجرد مقارنة بين ليباريوس أسقف روما العظمى صاحب العصمة وأثناسيوس أسقف الإسكندرية وهو تحت تهديد الموت عينه وبأعنف صورته، لا سنتين بل ثلاثين سنة وحيداً هارباً من جبل إلى صحراء إلى بحر إلى كهف إلى مقبرة إلى بئر، لم تُبَلِّ السنين الطوال عزيمة هذا العملاق حتى هزم جحافل الأريوسيين وأذلَّ عظمة أربعة أباطرة من أعظم أباطرة التاريخ: قسطنطين وقسطنطيوس ويوليانوس وفالنس، واضعاً أنوفهم في التراب حتى أخرج الحق إلى النصر بعد أن طمس الأريوسيون الإيمان بالمسيح في كل الكنائس العظمى والصغرى في كل أنحاء الدنيا. فالرعب والخوف واليأس تملَّك كلية على جميع أساقفة العالم، إلا هذا المصري الذي أدخل الرعب والخوف واليأس كلية في قلوب مضطهديه، حتى أرداهم الندامة ثم التراب.

ثم بعد ذلك، أيُّ مديونية يدين بها العالم اليوم إلى مصر!! وأي إيمان صحيح بالمسيح يمكن أن ينادي به أيُّ منادٍ في العالم كله دون أن يجعل هذا التقليد الذي دفعت ثمنه الإسكندرية أساساً وتاجاً؟

رواية المؤرِّخ ثينودوريت عن الحوار التاريخي المنقطع النظير بين ليباريوس والإمبراطور قسطنطيوس:

(ننقله للقارئ كنموذج لما ينبغي أن يكون عليه إيمان الأسقف بحق المسيح ثم النطق بهذا الحق كما هو، دون اعتبار للسيف أو النفي).

وقد تمَّت هذه المواجهة في ميلان سنة 355م بعد أن عاد الخصي يوسابيوس مخذولاً ومرفوضاً وذلك بعد انتهاء أعمال مجمع ميلان مباشرة، الذي لم يوقَّع على وثيقته ليباريوس وبقية الأساقفة الأرثوذكس (338).

الإمبراطور قسطنطيوس:

لقد حكمنا أنه يحق لنا استدعاءك كمسيحي وأسقف لمدينتنا لكي نوبّخك لكي نقلع عن ارتباطك بأي علاقة مع حماقة أثناسيوس الكافر. لأنه لمّا صار قطعه من شركة الكنيسة بواسطة المجمع (مجمع صور) وافق العالم كله على هذا القرار واستحسنه.

ليباريوس أسقف روما:

أيها الإمبراطور إن النطق بأحكام القضاء الكنسي يستوجب أن يحدوه أقصى حدود العدالة. لذلك إذا كان مقبولاً لدى تقواكم أصدر أمرًا للمجمع بالاجتماع؛ فإذا رُئي أن أثناسيوس يستحق الدينونة فلتخرج عليه القضية بمقتضى الأوضاع الكنسية، لأنه من غير الممكن لدينا أن ندين إنساناً دون أن نسمع له ودون أن نقاضيه.

الإمبراطور: العالم كله قد دان كُفْرَه - ولكنه - كما يعمل دائماً منذ البدء - يسخر من الخطر.

ليباريوس: إن الذين وقَّعوا على دينونة أثناسيوس لم يكونوا شهود عيان لأي من الحوادث التي حدثت، ولكن كانت تحركهم رغبة في المجد (الدنيوي) والخوف من الحرمان من نعمة يديك!

الإمبراطور: ماذا تقصد بالمجد والخوف والحرمان من النعمة؟

ليباريوس: أقصد أن الذين لا يحبون مجد الله، بل يتطلَّعون بالأكثر لهداياك، قد أدانوا رجلاً لم يروه ولم يفحصوا معه قضيته وهذا يخالف مبادئ المسيحيين! الإمبراطور: ولكن أثناسيوس حوكم شخصياً في مجمع صور، وكل أساقفة العالم في هذا المجمع أدانوه!

ليباريوس: لم تحدث أية محاكمة لأثناسيوس في حضوره الشخصي، بل إن كل الذين اجتمعوا هناك أصدروا إدانتهم بعد خروجه من المجمع!

الخصي يوسابيوس يتدخَّل بحماقة في الحديث ويقول:

إنه اتضح في مجمع نيقية أن أثناسيوس كان يبدي آراءً مخالفة تماماً لقانون الإيمان العام.

ليباريوس: (يكمل حديثه كأنه لم يسمع ذلك الأحمق):

إن من كل الذين أبحروا إلى مريوط بالإسكندرية - الذين أرسلوا لكي

ينقلوا للمجمع صورة واقعية للاتهامات الصادرة ضد أثناسيوس، خمسة منهم فقط قدّموا اتهامهم. ومن هؤلاء الخمسة مات اثنان وهما بالاسم ثيوجنيس وثيودوروس، أمّا الثلاثة الآخرون ماريس وفالانس وأورساكيوس فهم الذين بقوا حتى الآن على قيد الحياة.

وفي مجمع سرديكا صدر قرار بالإجماع يدين جميع المندوبين الذين أرسلوا إلى مريوط من أجل هذه المهمة.

وأمام هذا، قدّم هؤلاء اعتذاراً رسمياً إلى المجمع يطلبون الصفح إزاء ما أجروه في تحقيقات مريوط ضد أثناسيوس باعتبارها اتهامات باطلة وشهادة من جانب واحد. وتوسلاتهم الكتابية واعتذارهم لا يزال تحت أيدينا. فإلى مَنْ من الطرفين نقدّم تأييدنا أيها الإمبراطور ومع مَنْ نقدّم اتفاقنا ونقيم شركتنا؟ مع الذين اتهموا أثناسيوس وأدانوه ثم توسّلوا العفو عن كونهم آدانوه (خطأ) أو نقيم الشركة مع الذين آدانوا مثل هؤلاء الحائثين؟

الأسقف إبيكتاتوس (339) يتدخّل:

أيها الإمبراطور إن دفاع ليباريوس ليس هو لحساب الإيمان ولا دفاعاً عن الأحكام الكنسية، ولكنه فقط لكي يظهر أمام السناتو (شيوخ روما) بصفته قد هزم الإمبراطور في المحاجاة!!

الإمبراطور موجّهاً الكلام إلى ليباريوس:

أي جزء من العالم تمتلكه أنت حتى تقف بمفردك لتناصر إنساناً كافراً، وتحطّم سلام الإمبراطورية وكل العالم؟

ليباريوس: إن وقوفي وحدي وبمفردي لا ينقص الحقيقة أو الإيمان شيئاً قط أو يضعفها، فكما نقرأ في العهد القديم أنه وُجد ثلاثة يعارضون القانون. (يقصد الثلاثة فتية الذين ألقوهم في النار فلم يحترقوا وحفظوا الإيمان، وحُفظ الإيمان بشجاعتهم).

(339) وهو أسقف سنتيومسللاً Centumcellae وهو شاب جريء مستعد لكل تزييف، وهو ذو أهمية بالنسبة لتاريخ كنيسة مصر لأنه صنّيعة جورجوس الكبادوكي المزمع إرساله لمصر ليحل محل أثناسيوس، وكان أريوسياً على أسوأ سلوك وهو الذي تدخّل لتعيين الأسقف فيليكس ليحل محل ليباريوس على كرسي روما بطرق غير شريفة. Theodoret *op. cit.*, II. 13

الخصي يوسابيوس مرّة أخرى:

إنك بهذا تجعل إمبراطورنا نبوخذنصر.

ليباريوس: أبدأ، ولكنكم تهاجمون إنساناً لتدينوه بدون محاكمة.

وإن ما أريده هو أولاً أن يجري التوقيع على صيغة إيمان عام يكون مطابقاً لما نص عليه مجمع نيقية. وثانياً أن يُستدعى جميع إخواننا الذين في النفي ويعودوا إلى أسقفياتهم (يتضح من هذا أن هذا الحوار تمّ بعد انقضاء المجمع). فإذا تمّ إنجاز ذلك كله فحينئذ سوف يتضح أن العقائد التي هي سبب كل هذا الاضطراب الآن، مطابقة للإيمان الرسولي، وبعد ذلك نجتمع في الإسكندرية ونواجه (أثناسيوس) المتهم بالمتهمين له ويترافع المدافعون لهما، وبعد فحص القضية نصدر حكماً فيه.

إبيكتاتوس الأسقف:

لا توجد وسائل مواصلات كافية لتحمل كل هؤلاء الأساقفة.

ليباريوس: إن شئون الكنيسة لا تعول كثيراً على وسائل مواصلات عامة في إنجازها، فالكنائس قادرة أن توفر لنفسها وسائل المواصلات الخاصة لأساقفتها لتبلغ بهم حتى الشاطئ (الإسكندرية).

الإمبراطور: إن الحكم الذي صدر مرّة لا ينبغي أن يُنقض، فإن تصميم غالبية الأساقفة في القضية يلزم أن يؤخذ به، فأنت وحدك الذي تحتفظ بصداقة نحو ذلك الإنسان الكافر.

ليباريوس: أيها الإمبراطور هذا شيء لم يُسمع به قط أن قاضياً يتهم إنساناً غائباً بالكفر، معنى هذا أنه صار غريباً شخصياً له!

الإمبراطور: إن الجميع بدون استثناء قد أصابهم الضرر من هذا الإنسان، ولكن كنتُ وحدي أكثر من جميع الناس تضرراً بواسطته، فهو لم يكتف بموت أخي الأكبر (قسطنطين الثاني)، بل عاد يهيج عداوة أخي قسطانس ضدّي بلا هوادة، ولكني بصبر كثير غضيت الطرف عن الثائر (أي أخيه وهو الفريسة) والمثير (وهو المتجنّي عليه أثناسيوس). لقد صار أمامي الآن كل انتصاراتي السابقة التي حزتها حتى على ماجنتيوس وسلوانس لا تساوي عندي شيئاً قدر الإطاحة بهذا الإنسان الشرير من الحكم داخل الكنيسة!

ليباريوس: أيها الإمبراطور، لا تُذكي انتقامك وتؤيِّده باستخدامك الأساقفة كأداة لذلك، لأن أيديهم ينبغي أن تُرفع فقط للبركة والتقديس.

فإذا شاءت إرادتك ووافققت، فأمر الأساقفة ليعودوا إلى مواضعهم، وإن ظهر أنهم متفقون في الرأي مع أثناسيوس الذي هو يحمل اليوم العقيدة الصادقة للاعتراف الصحيح للإيمان الموقع عليه في نيقية، فدعهم يجتمعون وينظرون في أمر سلامة العالم حتى لا يُستخدم إنسان بريء مثل هذا كهدف للنزاع.

الإمبراطور: إنه سؤال واحد فقط مطلوب تنفيذه، أنا أريدك أن تدخل في الشركة مع الكنائس وتعود إلى روما، فاخضع للسلام ووقّع على موافقتك وحينئذ ستعود إلى روما.

ليباريوس: لقد تركت الإخوة في المدينة هناك مستودعاً، وإن قوانين الكنيسة عندي هي أهم من عودتي إلى روما.

الإمبراطور: عندك ثلاثة أيام لتقرّر إن كنت توقع على الوثيقة وتعود إلى روما، وإلاّ فعليك أن تختار مكان منفاك!!

ليباريوس: لا ثلاثة أيام ولا ثلاثة شهور تستطيع أن تغير يقيني؛ أرسلني الآن أينما شئت.

وبعد يومين أرسل الإمبراطور قسطنطيوس (340) خصيانه وخصيان زوجته يوسابيا الأريوسية بكمية من الذهب إلى ليباريوس وهو في طريقه إلى المنفى في بيريه Beroea في إقليم تراس، وقد رفضها جميعاً (341) (بكلمات لاذعة). وقد وُضع ليباريوس تحت حراسة أحد رؤوس الأريوسيين وهو الأسقف ديموفيليوس!!

أثناسيوس يلتمس العذر لسقوط هوسيوس أيضاً في التوقيع على الشركة مع الأريوسيين:

[لم يشعروا بالخجل أن هذا هو أب الأساقفة (عمره مائة عام) ولا اعتبروا أنه في درجة معترف (على أيام اضطهاد مكسيميانوس سنة 303م)، ولا وقروا

(340) تزوّج قسطنطيوس ثلاث زوجات!! تزوّج قسطنطيا سنة 336م وهي أخت يوليان الجاحد، وفي سنة 352م تزوّج أيضاً أوريليا يوسابيا وهي أريوسية، وفي سنة 360م تزوّج فوستينا.

(341) Theodoret, *Ecc. Hist.* II. 13.

طول أيامه في الأسقفية التي زادت عن ستين سنة، ولكنهم كانوا مشغولين فقط بهرطقتهم حتى أنهم لم يكونوا يخافون الله أو يخشون إنساناً.

... فأرسل إليه الإمبراطور يستدعيه- بعد نفي ليباريوس مباشرة - ولمّا حضر بدأ الإمبراطور يلاطفه ثم أخذ يستحثه بنفس الخداع الذي أسقط به غيره حتى يوقّع ضدّنا ويقيم الشركة مع الأريوسيين.

ولكن هذا الشيخ لم يطق حتى سماع هذه الكلمات ... وبدأ يعنّف الإمبراطور بشدة ... وانسحب إلى كنيسته في قرطبة بأسبانيا ... ولكن الهراطقة لم يهدأ لهم بال وأخذوا يشتكون على هوسبوس بالأكثر، فكتب له الإمبراطور مرّة أخرى يهدّده ويستدعيه، وكرّر الكتابة إليه مراراً، فأرسل هوسبوس خطاباً ضافياً للإمبراطور يفنّد فيه كل الادعاءات ضد أثناسيوس ويحرم الأريوسيين دون هوادة. وقد أورده القديس أثناسيوس في كتابه عن تاريخ الأريوسية (القسم السادس مقطع 44) بدأه بقوله:

“إني بدرجة معترف بالتعذيب للشهادة التي قدّمتها في الاضطهاد الذي جرى على يد جدك مكسيميانوس، فإذا أردت أن تضطهمني فأنا على أتم الاستعداد الآن أيضاً لاحتمال أي شيء دون أن أريق دم بريء (الحكم على أثناسيوس حسب حَسَبه حكماً بالذبح) أو أخون الحق. وأنا لا أوافق على سلوكك بالكتابة بالتهديد لي بهذه اللهجة، فأوقف كتابتك بالتهديد ولا تختر لنفسك نصيب أريوس ...” (342)

(342) Athanas. *Hist Ar.* Part. VI § 42-44.

ملاحظة هامة:

1 - وردت فقرة في هذا الخطاب في غاية الأهمية بالنسبة للطقس الكنسي، إذ يذكر هوسبوس أن الأساقفة يقدّمون البخور في العبادة. ويلاحظ أن زمن الخطاب هو 357م، حيث يقول: [إن الله وضع في يدك المملكة أمّا نحن فقد انثنا على مهام كنيسته، فكما أن الذي يحاول أن يسرق المملكة من يدك فإنه يُحسب مقاوماً لأمر الله ولوصيته، هكذا بالمثل ينبغي أن تخشى أنت أيضاً لنلاً بأخذك أحكام وقضايا الكنيسة لنفسك تصير متهماً بذنب عظيم، فإنه مكتوب: «أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، فلا هو مسموح لنا أن نمارس قوانين الدولة ولا أنت يا سيدي تملك السلطان لتحرق البخور، وهذا أكتبه من أجل خلاصك].

2 - تعليق:

وقد استبقاه الإمبراطور في "سيرميم" سنة كاملة (كنوع من التعذيب)، ... إذ استخدم معه من العنف وهو رجل شيخ (مائة عام) وحبسه وضيق عليه، حتى أنه في النهاية انهار من التعذيب، وأرغموه بصعوبة على إقامة الشركة مع الأريوسيين فالنس وأورساكيوس ورفاقهم، إلا أنه لم يوقع على حرم أثناسيوس. [343]

ويقول المؤرخ سوزومين بخصوص تعذيب هوسيوس أسقف قرطبة: [وقد أحضروه بالقوة ورجماً عنه، ولمّا رفض الإذعان لمطالبهم ضربه بالسياط وعدّبوه وهو شيخ، وأجبر بالقوة أن يرضخ ويوقع على وثيقة إيمانهم. [344]

ويلخص لنا أثناسيوس مجموع عدد الأساقفة الذين وقّعوا تحت التعذيب والنفي، في خطابه الاعتذاري لقسطنطيوس هكذا:

[وعندما لاحظت كل هذه الأمور كيف تجري لم أحاول من نفسي أن أصدر حكماً ضدها بل أسرع في التحضير للسفر لمقابلتكم ... ولكن بعدما بدأت رحلتي عبر الصحراء (لأن الإمبراطور كان في إيطاليا فأراد أثناسيوس أن يعبر البحر من برقة مقابل صقلية مباشرة)، جاءني تقرير فاجأني، إذ كان لا يصدّق مني، ولكنني تحققت من صدقه. وهو يفيد بأن ليباريوس أسقف روما وهوسيوس الكبير أسقف أسبانيا وباولينوس أسقف الغال (فرنسا) وديونيوسيوس ويوسابيوس أساقفة إيطاليا ولوسيفر أسقف سردينيا وغيرهم من أساقفة وكهنة وشماسة تمّ نفيهم بحجة رفضهم التوقيع على إدانتي، أمّا فنسنتيوس أسقف كابوا وفورتوناتيان أسقف أكويلا وهيرميون أسقف تسالونيكيا مع كل أساقفة الغرب، فقد عوملوا بعنف غير عادي وتحملوا أقصى أنواع العذاب وأصيبوا بإصابات خطيرة حتى يرغموا على رفض الشركة معي (أخبار مجمع

إذن فالبخور كان يُقدّم ويُحرَق بيد الأساقفة كعمل رسمي مميز للكهنوت في ذلك الزمان بعكس ما يدعيه المؤرخون أنه لم يبدأ استخدامه في الكنيسة إلا سنة 500م. هذا وقد ذكر البخور أيضاً القديس أثناسيوس مرّة أخرى في خطابه الذي سيأتي ذكره عندما يروي قصة هجوم الوالي سيريانوس على كنيسة ثيؤناس.

(343) Ibid § 45, p. 287.

(344) Socrate, *Ecc. Hist.* II ch XXXI p. 58.

ميلان)، وبينما أنا مضطرب وحائر من سماع هذا إذا بخبر آخر يداهمني مؤداه أنه قد صار تحت التعذيب والنفي من مصر وليبيا تسعون أسقفاً، وقد سلّمت كنائسهم للأريوسيين، وأن ستة عشر أسقفاً منهم أرسلوا إلّالمنفى [...] (345)

الإمبراطور ينفي جميع الأساقفة الأرثوذكس في الغرب والشرق ويلتفت صوب الإسكندرية حيث يبقى أثناسيوس وحده ليواجه الاضطهاد الثاني من يد قسطنطيوس

ما جاء صيف سنة 355م (يوليو) حتى كان الإمبراطور قد أنهى على جميع الأساقفة أنصار أثناسيوس، أو بالحري أيضاً مجمع نيقية والإيمان الأرثوذكسي القويم وبالأخص في بلاد الغرب، في إيطاليا وفرنسا وأسبانيا وكل البلاد المحيطة ودخلوا جميعاً المنفى، في صحراء بلاد العرب وليبيا وصعيد مصر وجبال طوروس وبراري فيرجيا، وقد اهتم الإمبراطور وكذلك الأريوسيون بأن يكونوا في أماكن يدير الكنائس فيها أساقفة وكهنة أريوسيون، ويقول المؤرخ جيبون: [وكان القصد الأساسي من نفي الأساقفة أصحاب المذهب المستقيم (أي الأرثوذكس) وإلحاق العار بهم أن يكون هذا كله خطوات تمهيدية للقضاء على أثناسيوس نفسه.]

ولكن طوال الفترة من بدء حوادث مجمع آرل سنة 353 إلى نهاية حوادث ميلان سنة 355م وهي تزيد على 26 شهراً لم يكف الإمبراطور عن المحاولات لخلع أثناسيوس من الإسكندرية، وقد أصدر في هذه الفترة مرسوماً بحرمان أثناسيوس من المنحة (القمح) التي كان ينفق منها على فقراء الشعب وسلّمت للأريوسيين!

ويقول المؤرخ جيبون أيضاً:

[فلما تخلّت الكنيسة اللاتينية عن أسقف مصر (أو بالحري مناصرتها للإيمان المسيحي المستقيم) وأقرّت إبعاد أثناسيوس، فأصبح محروماً بذلك من أي سند

خارجي، أرسل قسطنطيوس اثنين من أمناء سره بتكليف شفوي أن يعلناه بأمر الإمبراطور بنفيه ويقوما بتنفيذ ذلك. وبالرغم من أن الإمبراطور كانت لديه أحكام موقّعة من جميع الأساقفة بالحكم على أثناسيوس (سواء في صور أو آرل أو ميلان)، إلا أنه لم يعطِ رسله تفويضاً كتابياً بتنفيذ الحكم خوفاً مما قد ينشأ عن ذلك من الخطر في الإسكندرية إذا تعرّضت الحامية إلى دفاع الشعب بقوة السلاح للدفاع عن براءة أبيهم الروحي.]

هذا التقرير الذي بناه المؤرّخ جيبون من واقع سجلات الحوادث يوضّح لنا مدى قوة الشعب المصري وبأي حساب كانت تحسب الإمبراطورية الرومانية عوامل إثارته، ثم مدى ارتباط الشعب بالكنيسة وبالأب الروحي لها حينما يكون أميناً لتقليدها وإيمانها.

وبهذه المقدّمة نستطيع الآن أن نسترسل فيما جرى لأثناسيوس وما سرده من الوقائع التي حدثت إبان هذه الاضطهاد المرير الذي لم يكن له مثيل قط على مدى التاريخ، ونحن نتوسّل لدى القارئ أن يقرأ هذا التاريخ بإمعان لأن كل المحن التي نزلت بالشعب وبأثناسيوس وبالكنائس لم تكن مجرد اضطهادات كبقية الاضطهادات، بل كانت هي الثمن الأخير والوحيد الذي دفعته الكنيسة في مصر فدية عن العالم كله ليعود له إيمانه الأرثوذكسي في كل أنحاء البلاد بعد أن خُذل فيها هذا الإيمان.

الفصل الخامس

بداية المعركة السافرة ضد أثناسيوس
قصة الاضطهاد في الإسكندرية واقتحام الكنائس
وقتل المؤمنين واختفاء أثناسيوس في البراري
ودخوله المنفى الثالث الطويل

لقد تألّبت كل القوى ضد أثناسيوس وانهارت كل
القيم تحت ثقل اضطهاد لم يعرف التاريخ البشري له
مثيلاً في التزييف ولكن ظل أثناسيوس وحده صامداً
أمام كل هذه القوى مجتمعة، ولمّا قالوا له إن العالم
كله ضدك قال قولته المشهورة، وأثناسيوس ضد
العالم!!
وفي النهاية انتصر أثناسيوس، وانحنى العالم
تحت الإرادة التي لم تنحن!

المؤلف

تمهيد:

حينما علم قسطنطيوس بموت غريمه ماجننتيوس في أغسطس سنة 353م، قرّر
الذهاب إلى روما ليعلن انتصاره، وفي نيته عقد مجمع في (آرل - ميلان) ليجمع
كلمة الأساقفة ضد أثناسيوس، ووصل قسطنطيوس إلى آرل في شتاء سنة 353م،
حيث أقنعه الأريوسيون بعقد المجمع الذي كان مزمعاً عقده في أكويلا، وبناء على
طلب ليبريوس أيضاً أسقف روما وبقية أساقفة إيطاليا(346).

في هذه الأثناء أحس أثناسيوس بالنية المبيّنة ضدّه من الأريوسيين، ومن
الإمبراطور نفسه، بسبب وشايات عديدة أهمها إثارة أخيه قسطانس ضدّه حتى بلغت
درجة التلويح بإعلان الحرب إن لم يقبل عودة أثناسيوس إلى كرسيه، ثم خبر اتصال
أثناسيوس بماجنتيوس عدو الإمبراطور المغتصب، فأسرع أثناسيوس وأرسل بعثة

(346) Sozom. *op. cit.*, IV. 9, *Dict. of Chr. Biogr.* p. 192.

الخمسة أساقفة السلامية بقيادة الأسقف سيرابيون كما سبق وأوضحنا، وكان ذلك في 18 مايو سنة 353م أي قبل انعقاد مجمع آرل.

ولكن كان مونتanos مندوب الإمبراطور قد بلغ شواطئ الإسكندرية بعد إقلاع هذه البعثة السلامية بخمسة أيام أي في 23 مايو حاملاً إلى أثناسيوس أمراً بعدم إرسال البعثة وأمراً بالحضور إلى مقر الحكومة في ميلان. لم يذعن أثناسيوس لإدراكه مدى الخطورة المبيّنة ضدّه، فقفّل مونتanos راجعاً إلى الإمبراطور. فأضيفت هذه الحادثة إلى ما سبقها من المواقف المعادية للإمبراطور والتي برع الأريوسيون في عرضها لتثويبه موقف أثناسيوس من الإمبراطور.

وتشاء إرادة الله أن تضيف أيضاً واقعة أخرى لتُستغل ضد سمعة أثناسيوس وهي تصميم الشعب - وكان هذا ضد رغبة أثناسيوس - لحضور صلوات الأربعين المقدّسة (التي تنتهي بأسبوع الآلام وعيد القيامة) سنة 354م في كنيسة السيزاريوم أي كنيسة القيصر الجديدة، وهي على اسم الإمبراطور وعلى نفقته الخاصة، والتي لم يتم بناؤها ولم تدشّن بعد (347) - بسبب ازدحام كنائس المدينة بالمؤمنين - وكان هذا أمراً خارجاً على الأصول المتبعة قانونياً في العلاقات مع الإمبراطور ومن الوجهة الكنسية أيضاً!!

كل هذا جعل أثناسيوس يستشعر الخطر، ومما يوضّح ذلك ما جاء عرضاً في رسالة كتبها لأحد الرهبان وهو دراكونتيوس يستحثه لقبول الأسقفية في هذه السنة، وفيها يذكر بهدوء الاستعداد لما هو عتيد أن يأتي من تجارب الصوم الأربعيني في تلك السنة 354-355م.

ولكن الذي أكمل كل علامات الثورة العارمة القادمة على مصر، نتائج مجمع ميلان الذي فيه استطاع الإمبراطور أن يرغم 300 أسقفاً على التوقيع ضد أثناسيوس لقطعه من شركة الكنيسة، ولم يقف مع أثناسيوس إلا قلة من الأساقفة الذين بقوا في كنائسهم لأن المرض أسعفهم لعدم الحضور، والذين لم يوقّعوا وهم قلة أيضاً. فذهبوا إلى المنفى وجردوا من كراسيهم، وباستثناء صحوة هيلاري أسقف بواتييه ومجمع بيزيه لم يعد لأثناسيوس نصيرٌ واحدٌ - وذلك بحسب قول أثناسيوس:

(347) Athanas., *Apol. ad. Const.* 15, Epiphan., *Hear.* 69-2.

[وبعد أن أكمل الإمبراطور كل شهوته ضد كنائس إيطاليا والبلاد الأخرى، وبعد أن نفى بعضهم وضيق وعدب الآخرين حتى ملأ الذعر كل مكان، اتجه أخيراً في ثورة غضبه ليُجري نفس الفوضى السابقة المؤذية ضد الإسكندرية! وهذا كله أحكمه بمكر أعداء المسيح، لكيما يستعرضوا كثرة أسماء الأساقفة الذين أرغموهم على التوقيع حتى لا يعود لأثناسيوس حتى ولا أسقف واحد يبادله الشكوى في الاضطهاد (المزمع أن يحكموه عليه).](348)

ويطلعنا تاريخ سلبيسيوس ساويرس وتاريخ القديس هيلاري أسقف بواتيه في شذراته عن الهرطقات، كما ينقله إلينا المؤرخ دوشسن عن صحوة وشجاعة نادرة لجماعة أساقفة فرنسا:

[أنه انعقد في فرنسا مجمع في بيزيه Beziers في السنة نفسها سنة 356م وكان من بينهم هيلاري نفسه أسقف بواتيه، وذلك بعد انفضاض مجمع ميلان مباشرة، وكتبوا احتجاجاً عمّ كل فرنسا ضد الحكم بالنفي الذي وقع على الأساقفة!! وبالأخص على تدخل السلطات المدنية في أمور الدين والشركة! وقدم هذا مشفوعاً بالدفاع الأول للإمبراطور، وكان يُحسب في مضمونه أنه وثيقة معارضة علنية!! وفيه أسقط هيلاري وجماعته أورساكيوس وفالانس وساتورنينوس من شركتهم، ودعوا كل الأساقفة الذين انحازوا إليهم إلى التوبة.](349)

بداية المعركة السافرة ضد أثناسيوس:

أول محاولة سافرة بدأت حسب تقرير أثناسيوس كانت على يد مونتanos الذي وصل إلى الإسكندرية ومعه أوامر إمبراطورية بالمثل أمام بلاط ميلان وذلك كان في 23 مايو 353م، الأمر الذي رفضه أثناسيوس وظل يباشر رئاسة الكنيسة، ولكن تحت عوامل المؤامرات التي لم تهدأ سواء من رجال البلاط أو من الأريوسيين.

ثم تأتي المحاولة الثانية السافرة بعد 26 شهراً من إقلاع مونتanos حاملاً للإمبراطور رفض أثناسيوس بالمثل أمامه. وذلك حينما وصل الإسكندرية وفد آخر

(348) Athanas., *Hist. Arian.*, VII 47.

(349) Duchesen, *op. cit.*, p. 207., Sulpic Sev., *Chron.* ii, 39.

من قِبَل الإمبراطور لا يحمل أي رسائل أو تعليمات مكتوبة. وبعد أربعة أشهر من المحاولات اليائسة عاد ديوجنيس تاركاً الإسكندرية كما دخلها (350).

يقول أثناسيوس في خطابه الدفاعي لدى الإمبراطور قسطنطيوس:
[بعد 26 شهراً من مغادرة مونتانوس وصل ديوجنيس كاتم السر في أغسطس سنة 355م (351)، ولكنه لم يحضر لي معه رسائل ولا رأينا أحدنا الآخر ولا أعطاني أي أوامر منكم.] (352)

ولكن أثناسيوس في موضع آخر يذكر:
[أنه لم يكن ديوجنيس وحده بل كان معه هيلاريوس وبعض أمراء من البلاط الإمبراطوري، وكانوا حاملين رسائل سرية إلى دوق مصر وجنوده، وبمجرد وصولهم اقتُرفت إهانات وإساءات مرعبة وبلا رحمة ضد الكنائس وهي كلها معروفة لدى الجميع بسبب خطاب الاحتجاج الذي أرسله الشعب للإمبراطور.] (353)

ويعلق المؤرخ جيبون على هذه الحقبة الزمنية المليئة بالخداع والرعب واستخدام الجيش ضد شعب أعزل هكذا (354):

[وكان القصد من نفي الأساقفة أصحاب المذهب الصحيح وإحراق العار بهم أن يكون هذا كله خطوات تمهيدية للقضاء على أثناسيوس نفسه، وعندما تخلت الكنيسة اللاتينية عن أسقف الإسكندرية ووقع الأساقفة على عزله - في ميلان - وأصبح بذلك محروماً من أي سند خارجي، أرسل قسطنطيوس اثنين من أمناء سره بتكليف شفوي لإعلان (السلطات المحلية) بأمر نفيه وليقوموا بتنفيذ الحكم

...

إمبراطور جبان:

وكان الدافع الوحيد الذي منع قسطنطيوس من إعطاء رسله تفويضاً كتابياً

(350) Duchesne, *op. cit.*, p. 210.

(351) See *Hist. Aceph.*, iii, Fest. Index, XXV, XXVII.

(352) Athanas., *Apol. Ad Const.*, 22.

(353) *Ibid.*

(354) العناوين الجانبية والتعليق الذي بين الأقواس والهوامش هي من عندنا.

لتنفيذ الحكم هو خوفه مما قد يحدث، إذ استشعر الخطر الذي قد يحقق بالإسكندرية، وهي ثاني مدينة في الإمبراطورية وأكثر ولاياتها خصباً، إذا أصر الشعب على الدفاع بقوة السلاح عن براءة أبيهم الروحي.

أثناسيوس يستغل ضعف الإمبراطور:

وهذا الحرص الزائد من الإمبراطور هو الذي أتاح لأثناسيوس فرصة الادعاء بكثير من الاحترام أنه يشك في صحة هذا الأمر الصادر بنفيه بدون قرار مكتوب مما يتنافى مع عدالة الإمبراطور الكريم وتصريحاته السابقة له (في ثلاثة خطابات متوالية)(355).

السلطات تصطنع الحكمة وتدبر الخطّة مع رُسل الإمبراطور:

أمّا السلطات المدنية في مصر فوجدت نفسها عاجزة عن القيام بمهمة حث أو إرغام الأسقف على التخلّي عن كرسيه، واضطرت إلى عقد معاهدة مع زعماء شعب الإسكندرية اتفق فيها على إيقاف كل الإجراءات والأعمال العدوانية حتى تتأكد لهم مشيئة الإمبراطور في وضوح أكثر.

انخداع الشعب وقبوله الأمان المزيف:

وقد انخدع الأرثوذكس بهذا الاعتدال الظاهري(356) وأحسوا خطأً بأمان لم يكن إلاً أماناً زائفاً مميتاً، لأنه في نفس الوقت صدرت الأوامر سرّاً إلى جيوش مصر العليا وليبيا للتقدّم على عجل لمحاصرة أو قتل مباغثة الإسكندرية ... التي كانت قد اشتعلت بالحماس الديني، وكان موقع الإسكندرية بين البحر وبحيرة مريوط عاملاً سهّل على الجيوش أن تقترب وتدخل قلب المدينة (من جهة الغرب) قبل أن تُتخذ أي خطوات لغلق الأبواب أو احتلال مراكز الدفاع الهامة.

الهجوم الغادر على قوم يؤدّون الصلاة داخل الكنيسة:

وفي منتصف اليوم الثالث والعشرين من توقيع المعاهدة الكاذبة، شنّ

(355) انظر الخطابات الثلاثة صفحة 163 التي تعطي أثناسيوس حق التصرف على هذا المنوال بالفعل.

(356) الشعب القبطي دائماً يميل بطبيعته لحب الرؤساء وطاعتهم، ولكن يا ويل مثل هذا الشعب إذا تسلط عليه رئيس يستغل هذه الشرائع لغير حساب الله.

سيريانوس أمير مصر على رأس خمسة آلاف جندي مسلحين للقتال هجوماً فجائياً على كنيسة القديس ثيؤوناس (موضعها الآن كنيسة القديسة ريتا بجوار باب 14 جمرك الإسكندرية). حيث كان أثناسيوس والكهنة والشعب يؤدون صلاة السهر الليلية (استعداداً لقداس الصباح).

وتداعت الأبواب المغلقة تحت وطأة الهجوم الذي اقترن بكل فظائع الشغب وإراقة الدماء وبقيت جثث القتلى وبقايا الأسلحة الحربية إلى اليوم التالي (احتفظ بها الشعب بالقوة) (357) لتبقى دليلاً قاطعاً في حوزتهم. [358)

وهنا يلزمنا أن نوضّح للقارئ دقائق ما جرى بحسب الوثائق التي احتفظ بها لنا التاريخ بقلم أثناسيوس نفسه في خطابه الدفاعي لدى قسطنطيوس بعد ذلك، ليوضّح للإمبراطور أنه كان محقاً في رفض أوامر رسل الإمبراطورية الشفاهية وفي كل تصرفاته وأنه لم يهرب أو يترك الكنيسة. يقول أثناسيوس:

أثناسيوس يستغل تناقضات الإمبراطور أقصى استغلال:

[وحينما حضر إلى الإسكندرية ديوجينيس أمين أسرار الإمبراطور (كان ذلك بالتحديد في أغسطس سنة 355م) لم يحضر معه لي أي خطابات ...

ولمّا دخل الجنرال سيريانوس الإسكندرية بعد ذلك (كان بالتحديد في 5 يناير سنة 356م) وصارت هناك شائعات يقولها الأريوسيون أن الأمور الآن تسير كما يرغبون تماماً، سألت سيريانوس هل أحضر معه أي رسائل بهذا الخصوص؟ وإني أعتزف أنني كنت أسأل عن رسائل تحمل أوامركم، فلمّا ردّ بالنفي، طلبت من سيريانوس نفسه أو من مكسيموس والي مصر أن يكتبوا إليّ في ما يخص هذا الأمر، وأنا لمّا طلبت هذا كنت أعتمد على خطاباتكم السابقة لي أن لا أنزعج من أي شخص ولا أهتم بأي إنسان يحاول أن يخيفني وأن أبقى في رئاستي على الكنائس دون خوف، وهذا هو مضمون خطاباتكم (الثلاثة) التي حملها لي - في حينها - بالليديوس رئيس القصر الإمبراطوري ... فهل لم أكن محقاً وأنا أحتفظ بهذه الرسائل منكم أن أسأل القادمين (لطردي

(357) انظر خطاب الشعب في الصفحات القادمة.

(358) جيبون، تاريخ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية الجزء الأول الفصل 21.

من الإسكندرية) عن أي رسائل معهم، أو لم أكن محقاً عندما رفضت أن أستجيب لادعاءاتهم (الشفوية)؟ أوليس تصرّفهم هذا يخالف تماماً روح تعليماتكم لي خصوصاً وأنهم لم يحملوا أي أوامر رسمية منكم؟ ... لقد تصرّفت تصرّفاً سليماً، سيّدي الأغسطس الكلّي الوقار ... لأنه كما عدت إلى وطني بأوامر منكم فلا ينبغي أن أتركها إلا بالأمر منكم، حتى لا أتّهم بعد ذلك أنني هجرت الكنيسة ... بل وهذا ما ألح عليّ شعبي أن أفعله، الذين ذهبوا إلى سيريانوس مع الكهنة وجمع كبير من شعب المدينة حتى يثبتوا (للوالي) أن ليس سوى الأقلية الضئيلة معهم (أي الأريوسيين)، وكان مكسيموس والي مصر حاضراً وطلبوا منه إمّا أن يكتب طلباته مني رسمياً وإلاّ فعليه أن يتحمل اضطرابات كل الكنائس، ... ووافق سيريانوس على ذلك في حضور هيلاري واعدأ برفع الأمر إلى تقواكم؛ ... والذي جعلني أشك في تصرّفات (سيريانوس) أنه لم يعلن صراحة أن لديه أوامر منكم، بل والأكثر من ذلك أن جمعاً من الأريوسيين كان يرافقهم وكانوا يجلسون على المائدة معهم ويستشيرونهم، وكانوا يخطّطون بخداع لاغتيال، ولم يكن سلوكهم سلوك مرسلين من لدن الإمبراطور يعملون بمقتضى سلطانه!! ولكن كانت تحرّكهم أهواؤهم كأعداء ...

وبعدما أعطى سيريانوس وعده، سرّت فرحة لدى كل الشعب واجتمعوا في الكنائس بأمان، ولكن بعد 23 يوماً (وبالتحديد 8-9 فبراير سنة 356م) اقتحم الكنيسة بجنوده بينما كنا منشغلين بالسهر في الصلاة ... وهذا بالضبط ما كان قد سبق الأريوسيون وتوعدونا به! [359]

ولكي نعطي للقارئ صورة حية لما حدث للشعب، نقدّم هذه الوثيقة أيضاً، وهي نص عريضة الاحتجاج التي كتبها شعب الإسكندرية - الذي جرت هذه الأحداث عليه وأمامه - وأرسلوها إلى الإمبراطور.

[... ولهذا نقدّم احتجاجنا هذا ...

وفي يوم الأربعاء في ليل 8 من فبراير الموافق 13 من أمشير (سنة 356 -

سنة كبيسة) بينما كنا نقيم صلاة السهر في بيت الرب ونحن مشغولون بالصلاة (لأنه كان استعداد للقداس)، فجأة وبعد منتصف الليل قام سيريانوس الدوق الكلي العظمة بالهجوم علينا داخل الكنيسة مع فرق كثيرة من الجند (5000 جندي)، رافعين سيوفهم مشهورة ورماحهم وسهامهم وبقية الأدوات المستخدمة في الحروب وعلى رؤوسهم الخوذات!! وبينما نحن نقرأ فصول الإنجيل اقتحموا الأبواب التي تداعت بالقوة من شدة الاقتحام العنيف، أعطى سيريانوس أوامره (وكان معه هيلاريوس وجورجونيوس رئيس الشرطة)، فأخذ الجند يقذفون السهام وبدأت الأسلحة الأخرى تعمل والسيوف تلمع على ضوء المصابيح، وذبخوا العذارى (وهن اللاتي كن أمامهم إذ لم تسعفهن أرجلهن للجري والهرب)، وكثير من الشعب سقط ومات تحت أرجل الجند حينما أوقعوهم تحتهم، والذين غرسوا فيهم السهام وقعوا وماتوا، وأعطى الجند لأنفسهم حق السلب والنهب، فعروا العذارى ...]

[وبقي أسقفنا (أثناسيوس) على كرسيه وطلب منّا أن نصلي ... بينما الهجوم مستمر، وأمسك بالأسقف الذي لو لم يكن قد نجا لكانوا مزقوه قطعاً. وقد أغشى عليه وصار كميث واختفى من بينهم ... وكانوا يتحرّقون لقتله ... ولمّا وجدوا كثرة جثث القتلى أعطوا أوامر للجند لرفع الأجساد من الموقع، أمّا أجساد العذارى التي تُركت فأخذناها ودفناها كشهيدات نلن مجد الشهادة في زمن كلي التقوى قسطنطيوس!!]

أمّا الأسلحة التي سقطت من أيدي الجند والسهام والسيوف فقد احتفظنا بها في الكنيسة وعلقناها (على الجدران) وبقيت حتى هذه الساعة حتى لا ينكروا الواقعة؛ وبالرغم من أنهم أرسلوا رئيس البوليس المدعو ديناميوس وأمور بوليس المدينة لأخذ الأسلحة إلّا أننا لم نسمح لهم بذلك حتى يعلم الجميع ما قد حدث!

والآن إذا كان الأمر قد صدر لاضطهادنا فنحن جميعاً على أتم الاستعداد للاستشهاد ... ونحن نطلب أن لا يأتي إلينا أي أسقف آخر لأننا سنقاومه حتى الموت محتفظين بأسقفنا الكلي الاحترام أثناسيوس الذي أعطاه لنا الله بتسلسل الآباء، والذي أرسله لنا الأغسطس كلي التقوى بنفسه مع رسائل وأقسام ...

كُتبت في 17 أُمشير (12 فبراير). [360]

مصير القديس العظيم أثناسيوس:

[إذا أمكن أن أقتل هذا الإنسان (أثناسيوس) عشر مرّات فلن يكون هذا كافياً ولا مساوياً لما عانيتَه من أتباعه المحتالين المنافقين الذين يشمتون فينا]. [361] الإمبراطور قسطنطينوس

يصف لنا المؤرّخ جييون في تأثّرٍ بالغ ما جمعه من كل المصادر عن اختفاء أثناسيوس هكذا:

[وفي الحق أن أثناسيوس نجا من أشد الأخطار إحدافاً به، ولا شك أن مغامراته تسترعي انتباهنا وتستحق اهتمامنا، ففي تلك الليلة المشهودة التي هاجمت فيها قوات سيريانوس كنيسة القديس ثيوناس، كان رئيس الأساقفة جالساً على كرسيه ينتظر مجيء الموت في وقار هادئ جريء، وعندما قطعت صيحات الغضب وصرخات الفزع حبل الصلاة العامة وارتعدت فرائص المصلّين، طلب منهم إنشاد أحد مزامير داود التي يذكر فيها انتصار إله إسرائيل على طاغية مصر الضال المتشامخ، وأخيراً حطّم العدو الأبواب وأطلق سيلاً من السهام على الناس واندفع الجنود بسيوفهم المسلولة نحو الهيكل المقدّس، وكانت المصابيح المقدّسة المشتعلة حول المذبح تعكس بريق دروعهم المخيف، وظل أثناسيوس يرفض لجاجة الرهبان والقسوس المحيطين به الذين ألحوا عليه في ورع وتقوى أن يغادر المكان، وأبى عليه نبله أن يترك مكانه الأسقي حتى يخرج آخر فرد من المصلّين، ثم وافته فرصة الظلام والجلبة ومكّنته من الانسحاب. ومع أن الجمهور المرتبك المضطرب كاد يدهمه ويدوس عليه، ورغم أنه وقع على الأرض وفقد الحس والحركة، إلّا أنه استرد شجاعته التي لا تُقهر وتسلّل من وسط الجنود الذين كانوا يجثّون في البحث عنه، والذين كان أتباع أريوس قد أوحوا إليهم بأن رأس أثناسيوس سوف تكون أحب هدية للإمبراطور ...

ومنذ تلك اللحظة غاب أسقف مصر عن عيون أعدائه وظل أكثر من ست

(360) Athanas., *Hist. of Arians*, 81.

(361) *The Letter of Constant against Athanas.*, N.P.N.F., p. 249.

سنوات يحف به ظلام دامس لا تنفذ إليه الأبصار.

ولقد كان عدو أثناسيوس الحقود قسطنطيوس الذي لا يرحم، يتمتع بسلطان ملاً ربوع العالم الروماني كله، وقد حاول الملك الغاضب الحائق في رسالة عاجلة ملحة بعث بها إلى أمراء أثيوبيا، وهي من أكثر بقاع الأرض بعداً وعزلة، أن يطردوا أثناسيوس (إذا جاء إليهم)، واستخدم الإمبراطور الأمراء والولاة والقضاة وجيوشاً بأكملها لمطاردة الأسقف الهارب، ولقد أثارت المراسيم الإمبراطورية يقظة السلطات المدنية والعسكرية، كما خصّصت مكافآت سخية وعد بها لأي رجل يجيء بالأسقف حياً أو ميتاً!!

وأُنذر كل مَنْ يجرؤ على حماية هذا العدو بأشد العقوبات، ولكن كانت صحراوات طيبة - في صعيد مصر - موطناً للرهبان الذين استقبلوه بالطاعة الفطرية، كما استقبله عديد من أتباع أنطون (362) وباخوم باعتباره أביهم الروحي.

ولكنهم (بالرغم من بأسهم)، عندما كانت أماكنهم النائية تتعرّض لغزو قوة عسكرية كانوا لا يقاومونها، بل يقدّمون رقابهم في سكوت وصمت للجلاد، مظهرين بذلك طابعهم القومي وهو أن التعذيب لا يستطيع أن ينتزع من مصري أي اعتراف بسرّ، عند العزم على عدم إفشائه.

وقد كرّسوا حياتهم في غيرة وحماس لسلام أسقف الإسكندرية، الذي غاب عن الأنظار وسط جمهور منظمّ متحد، وعندما كان يقترب منه الخطر كانت أيديهم الرحيمة تبادر إلى إبعاده من مخبأ إلى مخبأ ...

وظل أثناسيوس في عزلته هذه حتى انتهت حياة قسطنطيوس.

وقد كان على صلة وثيقة بأساقفة الأرثوذكس وكان يتقابل معهم كلما كانت تخف حدة المطاردة، وكان يذهب إلى الإسكندرية ويلجأ إلى فطنة أصدقائه ويأتمنهم على شخصه.

(362) لقد تنبّح القديس أنطونيوس في هذه السنة عينها.

ومرّة التجأ هناك إلى خزان مياه جاف(363)،
ومرّة أخرى التجأ إلى منزل عذراء - من بناته - وخبّأته في منزلها، وكانت
تزوده بالمؤن والكتب، وتدير حركة مراسلاته(364).

ومن أغرب ما رواه أثناسيوس أنه وهو في أثناء اختفائه هذه السنوات
الست، ذهب سرّاً وحضر مجمعي ريمني وسلوقيا، ولا بد لنا أن نعتقد أنه كان
موجوداً بطريقة سرّية في مكان انعقادهما وزمانه ... لمراقبة حركة
الانقسامات القائمة، مما كان يبرّر في نظر رجل سياسي حصيف كهذا الأسقف
مثل تلك المغامرة الجريئة الخطرة.

ولقد كان أثناسيوس لا يكف عن شن حربه الهجومية بلا توقّف ضد
الإمبراطور بصفته حامياً للأريوسيين، وحاكماً خبيثاً ضعيفاً وطاغية
الجمهورية وعدو المسيحية، وكان يتحيّن الفرص المناسبة ويكتب رسائله
ويروّجها له أصدقاؤه في مهارة فيطالعهها الناس في شغف، وقد أسهمت كتاباته
هذه في توحيد الفريق الأرثوذكسي وتقويته.

أمّا هذا الملك المنتصر الذي عاقب غاللوس، وقمع ثورة سلوانس، وانتزع
التاج من فوق رأس فترانيوس، وقهر جحافل الطاغية ماجننتيوس، هذا الملك
بعينه تلقى بيد خفية هي يد الأسقف أثناسيوس جرحاً بليغاً لم يستطع البرء منه
ولا الانتقام له!!

وكان ابن قسطنطين هذا، أول ملك مسيحي يحس بقوة تلك المبادئ التي
استطاعت في سبيل القضية الدينية أن تقاوم أشد وأقسى أعمال السلطة
المدنية!![365)

الفضائح التي حدثت للكنايس والأساقفة بعد اختفاء أثناسيوس:

يحكي لنا أيضاً المؤرّخ جيبون ماذا حدث بعد غارة سيريانوس على كنيسة القديس

(363) لا يزال هذا الخزان الجاف موجوداً حتى اليوم، وقد عاينته بنفسي أثناء وجودي بالإسكندرية
وهو تحت مبنى البطريركية الآن.

(364) الذي روى هذه الرواية هو بالليديوس كاتب سيرة الرهبان، ويقول إنه قابل هذه العذراء بعد أن
تقدّم بها العمر وكانت لا تزال تذكر في غبطة وسرور تلك الأيام.

(365) جيبون، نفس المرجع السابق.

ثيؤناس:

[إن مغامرة سيريانوس يمكن أن تُعتبر غارة ناجحة - بالنسبة لمهمته - فقد انتهكت حرمة الكنائس الأخرى في المدينة باعتداءات مماثلة، وتعرّضت مدينة الإسكندرية خلال أربعة شهور - على الأقل - إلى إهانات جيش إباحي خليع يلقي تشجيعاً من رجال دين حزب الأريوسيين - وقُتل في هذه الأحداث كثير من المؤمنين الذين يمكن أن يكونوا أهلاً لاسم الشهداء، على أساس أن موتهم لم يحدث نتيجة إثارة ولا انتقم لهم، وعومل الأساقفة والكهنة بقسوة مهينة، والعدارى العفيفات جُردن من ملابسهن وضربن بالسياط واعُدي عليهن، وكذلك نُهبت منازل المواطنين الأثرياء، وأشبع الجنود شهواتهم وأطماعهم وكراهيتهم الشخصية دون أن ينالوا عقاباً بل كانت أفعالهم موضع استحسان.

أمّا وثنيو الإسكندرية الذين كانوا فريقاً كبيراً متدمراً، فقد أمكن إغراؤهم بسهولة للتخلي عن الأسقف أثناسيوس الذي كانوا يخشونه ويقدرّونه وقد وعدوهم بالحصول على مزايا خاصة، وبتأييد جورج الكبادوكي خليفة أثناسيوس المنتظر!

وبعد أن رسموا هذا الكبادوكي المغتصب بمعرفة مجلس ديني أريوسي، أقامه على كرسي الأسقفية الوالي سياستيان الذي كان قد عُيّن أميراً على مصر لتنفيذ تلك الخطة الهامة. وفي استحواز هذا الطاغية جورج الكبادوكي على السلطة وفي استخدامه لها لم يأبه بقوانين الدين ومبادئ العدالة والإنسانية. فتكرّرت في أكثر من تسعين مدينة ذات أسقفية من مدائن مصر (عدد الأسقفيات في زمن أثناسيوس هو مائة) نفس المناظر والفضائح وأعمال العنف التي شهدتها العاصمة الإسكندرية.

وقد كان لنجاح هذه الخطة، أن أرسل قسطنطيوس رسالة تهنئة لوزرائه ... وأطنب في مديح الأب الأقدس والأسقف المنتخب (كذا) جورج الكبادوكي من فضائل وتقوى وأعرب عن أمله في أن يبرز شهرة الإسكندر نفسه!!

وأعلن في حزم عن عزمه على تتبع المتمردين بالسيف والنار من أنصار

ويلزمنا هنا أن نقدّم للقارئ بعض الوثائق ذات التاريخ المتقن حتى يتابع الأحداث عن قرب ...

كان هجوم سيريانوس على كنيسة القديس ثيؤوناس في 9 فبراير سنة 356م، وفي يوم الخميس 13 يونيو سنة 356م، أي بعد ثلاثة أيام من وصول الكونت هيراكليوس وكتافرونيوس والي مصر الجديد وقبل تسليم كل كنائس الإسكندرية إلى الأريوسيين وذلك يوم السبت 15 يونيو سنة 356م، حصل هجوم مرتّب من قبل رسل الإمبراطور يصفه القديس أثناسيوس هكذا:

[وقد اشتروا ذمة الوثنيين بتأمين عبادتهم لأوثانهم!! وتأمين بعض متاجراتهم فوقّعوا تحت الضغط ... ليرضوا الإمبراطور!

وبينما كان المؤمنون مجتمعين في الكنيسة الكبرى ثيؤوناس، وكان يوم الأربعاء، توجّه الكونت هيراكليوس ومعه والي مصر كتافرونيوس، وكان قد وصل الإسكندرية منذ أربعة أيام، وفوستينوس النائب العام، وشخص يُدعى بثيانوس زعيم الوثنيين، وهيّجوا بعض شباب أهل السوق الوثنيين ليهجموا على الكنيسة ويرجموا المؤمنين بالحجارة مدّعين لهم أن هذا هو أمر الإمبراطور!!

وكان وقت انصراف المؤمنين (في الساعات الأولى من فجر يوم 13 يونيو) أن هجم الغوغاء على الكنيسة بالعصي والحجارة ورجموهم وضربوهم، فبعض النساء وقع ومات، وضربوا الرجال والعذارى (الراهبات) بالسياط ومزّقوا ملابسهن وكانوا يضربونهن بالأقدام ويشتمونهن بألفاظ قبيحة.

ولكي يكملوا كل الأوامر والتعليمات التي صدرت إليهم من الكونت والوالي، مسكوا بالمقاعد والكرسي الأسقفي وبالمائدة الخشبية (المذبح) وبالستائر (الحجاب) وألقوا الكل خارج باب الكنيسة في الشارع الكبير وأحرقوا كل شيء، ثم ألقوا البخور على النار المتقدة! وأخذوا ينشدون النشيد الوثني ويرددون أن الإمبراطور صار وثنياً، والأريوسيين صاروا موافقين

وبخصوص اضطهاد الكهنة والشماسة يقول أنثاسيوس:

[وقد أرسلوا كهنة المدينة والشماسة إلى المنفى وذلك بناء على أحكام أصدرها الدوق والحاكم العام، وأمروا العساكر بإحضار ذويهم من البيوت، وأمام جورجونيوس رئيس البوليس ضربوهم بالعصي.] (368)

وبخصوص اضطهاد الأساقفة التابعين لأنثاسيوس في مصر وليبيا يقول أنثاسيوس:

[وبينما أنا حائر ومضطرب من سماع هذه الأخبار، إذا بخبر آخر يداهمني أنه قد صار تحت النفي والتعذيب من مصر وليبيا (التابعة لمصر) تسعون أسقفاً قد سلّمت كنائسهم للأريوسيين وأن ستة عشر منهم أرسلوا إلى النفي!!] (369)

[أمّا الجنرال سباستيان فإنه كتب إلى حُكّام الأقاليم وإلى رؤساء الحاميات في كل مكان ليضطهدوا الأساقفة الأرثوذكس (الحقيقيين)، أمّا أصحاب العقيدة الكافرة من الأريوسيين فأعطوا أن يحلوا محلهم.

وقد نفوا أساقفة شيوخاً كباراً في السن وفي الدرجات، ولهم في أسقفياتهم سنين كثيرة، لأنهم رُسموا على يد الأسقف ألكسندر، وهم: أمونيوس، وهرمس، وأناجمفوس، ومرقس، هؤلاء أرسلوا إلى الواحة الفوقانية (الخارجة)؛ وموريس، وبسينواوزوريس، ونيلامون، وبلنيس، وماركوس، وأثينودورس أرسلوا إلى أمونياكا (واحة أخرى - سيوة). لا لشيء إلا لكي يستشهدوا هناك وهم في طريقهم عبر الصحراء، ولم تأخذهم شفقة عليهم مع أنهم شيوخ مرضى، وبصعوبة بالغة استطاعوا أن يسيروا بسبب ضعفهم حتى اضطروا أن ينقلوهم على نقالات (محفات). ومن احتمال موتهم في الطريق حملوا معهم أكفانهم!!

وواحد منهم مات بالفعل وهو في الطريق.

(367) Athanas., *Hist. Ar.*, 54-56.

(368) *Ibid.*, 63.

(369) Athanas., *Apol. Ad. Const.*, 27.

أمّا الأسقف دراكونتيوس فنُفي في كليزما، وفيلو إلى بابلون، وأدلفيوس إلى السينابلا في ثيبايس (الصعيد).

أمّا الكاهنان هيراكس وديوسقورس فنُفيا إلى سين (أسوان) كما أرسلوا إلى المنفى أيضاً كلاً من الأساقفة القدامى أمونيوس وأغاثوس، وأغاثوديمون، وأبولونيوس، أولوجيوس، وأبولوس، وبافنوتيوس، وغايس، وفلافيوس.

كما أرسلوا الأساقفة ديسقوروس، وأمونيوس، هيراكليدس، وبسايس؛ وقد حكموا على بعضهم بالأشغال الشاقة في قطع الأحجار، وضيّقوا على بعضهم الخناق بقصد قتلهم.

وأرسلوا أربعين من الرؤساء العلمانيين إلى المنفى مع بعض العذارى بعد أن عرّضوهم للحريق بالنار، وضربوهم بقساوة بجريد النخيل فمات بعضهم بعد خمسة أيام، والبعض الآخر اضطروا لعمل جراحات لهم لإخراج السيل (شوك النخيل) من أجسامهم.

ولم يسمحوا لأحد بأخذ أجساد الشهداء ولا سمحوا بدفنهم بل أخفوا الأجساد حتى لا تُحسب عليهم جريمة قتل.

وقد هاجموا الأديرة وألقوا الرهبان في النار، وضربوا الأرامل اللاتي ذهبن لأخذ الحسنات كعادتهن وجلدوهن على باطن أقدامهن. [370]

الإمبراطور يقدم جورج الكبادوكي “الأقدس” الأسقف اللص المغتصب لشعب الإسكندرية:

خطاب الإمبراطور ضد أثناسيوس:

[فيكتور قسطنطيوس مكسيموس أغسطس إلى أهل الإسكندرية: إن مدينتكم وهي تحتفظ بخصالها الوطنية متذكّرة حق مَنْ أنشأوها (يقصد الإسكندر) فقد أظهرت طاعتها لنا دائماً.

اسمحو لي أن أقول بما هو لائق بكم أي أشملكم بمحبتتي أكثر من الكل،

أنتم الذين كنتم أول معلّمين للحكمة، وأنتم كنتم أول من اعترف بالله ... (شتيمة في أثناسيوس بصيغة البلاغة)، والآن وقد اخترتم أفضل وأكمل من يقودكم بالقول والعمل، ولم تتردّدوا لحظة، ولكن برجولة، تحوّلت مشاعركم وسلّمتم أنفسكم إلى الجانب الآخر (يقصد الأريوسيين) تاركين المعلّمين ذوي الخبرة الأرضية، وممتدّين نحو الأمور السمائية تحت قيادة كلّ القداسة جورج ... إلخ (مديح في قالب بلاغة مملوءة مذلة) ...

وإني إذا استطعت أن أقتله (أثناسيوس) عشر مرّات فلن يكون ذلك كافياً أو مساوياً لما عانيته من أتباعه المحتالين المنافقين الذين يمشتون فينا ... [371]

الإمبراطور يُرسل إلى أثيوبيا يحذّر من قبول أثناسيوس وليستدعي فرومنتيوس لإعادة تعليمه:

[إلى أزانس وسازانس الأمراء المسيحيين في أثيوبيا (وهما إبراهيم الأول المعروف قبل توليه باسم إيزان، وأنزيا الأول وهو شقيق إبراهيم وكان اسمه سازان) ... أرسلوا بسرعة إلى مصر الأسقف فرومنتيوس إلى الكلي القداسة الأسقف جورج وباقي من معه المنوط بهم خدمة الأسقفية، لتدبير الأمور المختصة بهم، لأنكم تعلمون أن فرومنتيوس تقدّم إلى رتبة الأسقفية بواسطة أثناسيوس الذي هو متهم بعشرة آلاف جريمة، ولم يستطع أن يبرّئ نفسه من أي منها، ولذلك أقصي عن كرسيه في الحال، وهو الآن يجول من بلد إلى أخرى ... إلخ ...

وإني أخشى أن يذهب أثناسيوس هذا إليكم في أكسيوم ويُفسد شعبكم، وإني أعتقد أن فرومنتيوس سيعود إلى الوطن وقد اكتملت معرفته، مزوداً بكل الأمور التي تخص الكنيسة، وقد اكتسب تعليماً أكثر، وسيكون له نفع أعم وذلك على يدي الكلي القداسة جورج وبقية الأساقفة المهيّأين بالعلم لتسليم هذه المعرفة. ليت الرب يحفظكم دائماً أيها الإخوة المكرّمون. [372]

وقد علّق القديس غريغوريوس النزينزي على ذلك أن الملكين لم يعبأ بهذا الافتراء

(371) N.P.N.F., II, 30, pp. 249, 250.

(372) N.P.N.F., II, 31, p. 250.

لثقتهما بأرثوذكسية القديس أناسيوس (373).

الإمبراطور يسلم الكنائس في مصر رسمياً إلى الأريوسيين:

يذكر ذلك القديس أناسيوس هكذا:

[وبعد أن نفى الأساقفة الحقيقيين لكي لا يعلنوا عن المبادئ الكفرية (التي اعتنقها الإمبراطور والأريوسيون) والتي تناسب مسرته، أرسل الكونت هيراكليوس ليبدأ عمله ضدّي (أناسيوس)، وبالفعل أعلن أحكام الإمبراطور وأوامره وأنّ مَنْ لا يخضع للتعليمات الواردة في خطاباته سيُقطع عيشهم وتُهدم أصنامهم وحتى رؤساء المدينة والشعب سوف يدخلون تحت نظام العبيد.

وبعد تهديدهم لم يخجل من الإعلان بصوت جهوري: "إن الإمبراطور أنزل أناسيوس عن كرسيه وأمر بتسليم الكنائس للأريوسيين".

وكان رد الواقفين بتعجب هل صار الإمبراطور هرطيقياً؟ (وكان ذلك اليوم المشنوم هو 14 يونيو سنة 356م.) [374]

(أ) دخول المغتصب جورج الكبادوكي إلى الإسكندرية:

[وأخيراً وبعد تأخير بلغ ثمانية أشهر وأحد عشر يوماً في 24 فبراير سنة 357م وصل الدخيل الذي عينه الإمبراطور وجماعة الأريوسيين إلى الإسكندرية، (وكان يوم الجمعة الثالث في الصوم الكبير)، قادماً من إيطاليا حيث عينه مجمع من الأساقفة من حوالي 30 أسقفاً من سوريا وتراقيا وآسيا الصغرى (375)، وكان اسمه جورج من كبادوكيا وكان صاحب وظيفة في الدولة في القسطنطينية كأمين خزانة مالية (376) (يدعوه القديس أناسيوس سارق خزائن) (377) ... وكان له صيت ذائع بحبه للمال!! وكان إنساناً قاسياً لا رحمة في قلبه يستطيع أن يذهب إلى أبعد الحدود (المنافية للحق والأدب) بلا

(373) تاريخ أناسيوس الرسولي حامي الإيمان القويم للمؤرخ كامل صالح نخلة صفحة 83.

(374) Athanas., *Hist. Ar.*, 54.

(375) Sozom., IV. 8.

(376) يقول أرشيبيلد روبرتسن واضع كتاب مؤلفات أناسيوس في مجموعة N.P.N.F. إنه كان مورّد

خنازير!!

(377) Athanas., *Hist. Ar.*, 51.

حياء بوجه من نحاس!! وكانت هذه الأخلاق تتناسب مع مطالب مهمته في الإسكندرية كما بدا للإمبراطور.

ولكن بقي أن نرى مَنْ الذي سيقوى على هذا الموقف.[(378)]

(ب) هرب جورج الدخيل المغتصب:

[كان حكم هذا الطاغية كله فزعاً ولكنه لم يدم أكثر من 18 شهراً، ففي نهاية شهر أغسطس سنة 358م قامت ثورة عارمة في الإسكندرية بعد أن أعيتهم الحيل في معاملة هذا الدخيل، وقد هجموا عليه في كنيسة القديس ديوناسيوس وبصعوبة استطاع معاونوه أن ينقذوه من أيدي الثوار. فغادر الإسكندرية بعد أيام قليلة وبقي خارج الإسكندرية أكثر من ثلاث سنوات.](379)

(ج) قتل جورج الدخيل بلا رحمة:

[وقد انشغل جورج هذا في التحضير لمجمعي سلوقيا والقسطنطينية للأريوسيين، وأخيراً وبعد موت قسطنطيوس جازف بالعودة إلى الإسكندرية في 26 نوفمبر سنة 361م، ولكن بإعلان تولي يولييان في 30 نوفمبر، قام عليه الشعب ومسكوه وقيدوه بالسلاسل وألقوه في السجن، ولمّا استنبت الشعب (عامّة الشعب) إجراءات محاكمته جرّه الشعب من السجن وقتلوه وشنّعوا به أقصى تشنيع بلا أي رحمة في 24 ديسمبر سنة 361م.](380)

(378) Duchesne, *op. cit.*, p. 213.

(379) *Ibid.*, p. 214.

(380) N.P.N.F., Athanas., *Prolog* LIII. - LXXXIII.

أثناسيوس في منفاه الاختياري الثالث مؤلفاته ودفاعه أثناء ترحاله

بعد أن سقط كل جبابرة الإيمان في الشرق والغرب ووقَّعوا، راضين أو صاغرين، على هرطقة أريوس وعلى حرم أثناسيوس وخلعه من كرسيه، ولم يعد أسقف واحد في كرسيه يؤمن بأن الآب والابن واحد في الجوهر، وبدا أن العالم كله صار أريوسياً، لم يعترِ هذا الأسقف الوطيد الصلة بالمسيح أي شعور بالانتهزام أو الحرمان أو النفي أو العزل، فلم تصغر نفسه قط ولم ينطو تحت مشاعر الحزن بالاضطهاد قط، فقد ظلَّ يحمل في قلبه وعقله وكل كيانه الإيمان الكامل بالمسيح، بإحساس رئيس الأساقفة المسئول عن رعيته طول مدة احتجابه عن كرسيه، كما ظل يمارس إيمانه الأرثوذكسي وصلواته وأسرار كنيسته وكتابة مؤلفاته في كل مكان التجأ إليه بكل ثقة مَنْ هو لا يزال يمارس معركته دون هوادة ضد الأريوسيين، كل الأريوسيين، رؤساء أساقفة وأساقفة وكهنة - كل العالم تقريباً وعلى رأسهم إمبراطور المملكة الرومانية بأجمعها وبكل سلطانه، وضد كل المجامع التي عُقدت في غيابه بكل كثافتها.

صحيح أنها كانت أخباراً مفرجة لنفسه حينما بلغه بعد سنة واحدة من هروبه أخبار انهيار إيمان هوسيوس أسقف قرطبة العظيم أكبر أساقفة العالم، وتوقيعه المهين سنة 357م على أسوأ قانون إيمان أخرجه الأريوسيون باسم قانون "سيرميم الثاني" المسمّى عند العامة في العالم كله آنذاك بقانون "التجديف" أو "الكفران" Blasphemia الذي حشاه بالتجديف الأسقف بوتامبيوس أسقف لشبونة بأسبانيا، غير أن هوسيوس العجوز جدًّا بقي أميناً للأشخاص الأمناء بعد أن فقد قدرة الأمانة على الأمانة ذاتها، فلم يقبل التوقيع ضد أثناسيوس بأي حال من الأحوال حتى بعد أن تهرأ جسده من الضرب!! ولعل هذا الامتناع يتشفع له لأنه يحمل بصفة علنية أمانة لمن ظلُّوا على الأمانة!!

وبعد خير هوسيوس الحزين، وفي أقل من سنة واحدة أي سنة 358م جاء إلى أثناسيوس مَنْ يخبره بأن ليبريوس أسقف روما الشجاع المغوار، هذا أيضاً قد سقط من إيمانه القويم ووقَّع على قانون إيمان للأريوسيين، هياؤه له ليكون أخف وطأة في

التجديف من الذي وقَّع عليه هوسايوس، ولكل شجاع درجة يمكن أن يوقف عندها عن عزمه وصلابته لحظة التهديد بالموت!! إلا مَنْ قد استمد شجاعته منذ البدء من موت المسيح وقيامته!!

ولكن يقول المؤرِّخ وليم برايت أستاذ التاريخ الكنسي في أكسفورد (سنة 1900م) في قاموس سيرة الآباء المسيحيين:

[ولكن الكنيسة الرومانية في شخص رئيسها حصلت بهذا التوقيع على احتقار شنيع - وإن كان مؤقتاً - ولكن وفي السنة التي تلتها سنة 359م حدث أيضاً أن كل هيئة أساقفة الغرب في مجمع أريمنيم نُكبوا وُغرَّ بهم أيضاً عندما تَبَّتوا قانوناً للاعتراف مبهماً ولكنه كله أريوسي تماماً، وهو الذي تبنَّاه أيضاً أساقفة الشرق سنة 360م في مجمع سلوقيا.] (381)

وظل أثناسيوس هارباً من مضطهديه في منفاه الاختياري والجيش تلاحقه مع الجواسيس حكوميين وأريوسيين وميليتيين من كل أقطار العالم، ومن مصر نفسها تلاحقه في كل مكان. ولكن لا نستطيع إلا أن نقول إنها العناية الإلهية والبصيرة النيرة التي جعلته في أمان، بل وحرّاً في تنقلاته على مدى ست سنوات لم يخنه واحد من كل الذين التجأ إليهم!!

كما يذكر تاريخ حياة باخوميوس بالعربية أن الدوق أرتامبوس (للدولة الرومانية عشرة دوقات منهم ثلاثة مخصَّصون لمصر وحدها)، كان يفتني أثر أثناسيوس على طول الصعيد كله حتى وصل دير بافو، وهناك ردَّ عليه الرئيس بسارفي المسئول عن الدير أن أثناسيوس أبونا كلنا، ولكني حتى الآن لم أرَ وجهه، فدخل الدوق - وكان بصحبته أسقف أريوسي - إلى الدير وظل يفتش عنه في كل مكان، ولمَّا أُعِيي قال لبسارفي (أب الدير) وهو خارج: [صلِّ من أجلي]، ولكن بسارفي نظر إلى الأسقف الأريوسي الذي يرافقه وقال لهما: [إن "الأب" يقصد (البابا) أثناسيوس قد أوفد وصية للرهبان أن لا يصلُّوا مع الأجانب الذين لهم شركة مع الأريوسيين]. هنا إشارة واضحة أنه قد وصل إلى الدير أمر من البابا أثناسيوس (أب الكنيسة) في رسالة خاصة بذلك!!

[وعرض من الأمور غير المُسرَّة أن الملك وقتنذ قسطنطيوس ابن قسطنطين الملك الكبير مال إلى اعتقاد أريوس الكافر بآبن الله وحرك من الأريوسيين الحاضرين الذين كانوا عنده يومئذ في القسطنطينية، بتحريك أبيهم الشيطان إيَّاهم، أن يرسل ليستحضر أثناسيوس أسقف الإسكندرية إلى عنده ويصيِّره أن يضبط اعتقاد أريوس، فإن هو أجاب ثبته على كرسيه، وإن عصاه وخالفه نفاه ورتب في موضعه غيره. وإن الملك أصدر منشوراً إلى أرتامبوس والي الإسكندرية، وهذا كان أريوسياً أيضاً، يقول له عند وقوفك على كتابنا هذا للوقت والحين تقبض على أثناسيوس الأسقف وترسله إلينا مع مَنْ تثق فيه.

ولمَّا وصل الكتاب إلى الوالي أهمل جميع أشغاله وطلب الأسقف وبحث عنه في مواضع كثيرة، فلم يجده، وكان يتقصَّى عليه من كل أحد، فقبل له إنه قد كان يُكثر من ذكر رهبان طبانسين ويميل إليهم ويودهم فلعله يكون قد اختفى عندهم، وأن الوالي نهض بذاته وأخذ معه جنده وأصحابه وركب في البحر وتوجَّه إلى هناك. وكان يومئذ الطوباوي تادرس قد أخذ قوماً من إخوة بافو وركبوا في مركب بحرية وقصد افتقاد الأديرة، فصادف الدوقس وهو صائر إلى دوناسه، وسلَّم عليه وجاز من حيث لم يعلم تادرس إلى أين هو متوجَّه، ولا الوالي قال له شيئاً، فلمَّا حصل تادرس بقرب الدير الفوقاني المعروف بكابور ورأى من بُعدٍ نازح الوالي أيضاً وهو سائر في البحر، فعلم وقتنذ بالنعمة الساكنة فيه ما قد حدث، وأن الوالي متوجَّه إلى دير طبانسين يطلب الأسقف. فخبَّر الإخوة الذين معه بالأمر، فقالوا له: يجب أن نرجع إلى ديرنا في بافو لنلاً يجيء الوالي هناك ويزعج الإخوة ولنسرع لكي نسبقه. فأجابهم تادرس قائلاً: قد قطعنا هذه المسافة البعيدة وجئنا إلى هنا وقربنا من الإخوة الذين كانوا قصدنا فلننمَّ بمعونة الله خدمتنا ولا نرجع من طريقنا، والله هو المدبِّر والحافظ لنا وإخوتنا الذين في بافو والذين في كل موضع، وساروا في طريقهم. فأمَّا الوالي أرتامبوس فوصل طبانسين ليلاً ونزل بظاهر الدير ورتب الجند رماة القسي أن يحتاطوا به ويحرسوه لنلاً ينزل من كواه إنسان. وجلس هو مع أصحابه الخصيِّصين به بمعزل، فأمَّا الإخوة الذين داخل الدير فإنهم جبنوا كثيراً إذ لم يعلموا ما هو الحادث، ولمَّا أضاء النهار استدعى الوالي بقوم من

الرهبان المقدمين فيهم وقال لهم بواسطة ترجمان: أين هو أبوكم، فأجابه الأب باكسيوس - الذي كان قد شجّع الرهبان قبل خروجه من الدير عندما عاين جنبهم وقال لهم: تقوّوا بالرب ولا تخافوا - وقال له أيها السيد: أبونا غائب في بقية الأديرة لافتقاد الإخوة، فقال له الوالي وأين الثاني منه، فأورده الأب بصرفتين الأقتوم الكبير، فقال له الدوقس بمعزل: قد وصلني أمر ملكي بأن أقبض على الأسقف أثناسيوس وأرسله إليه وطلبتة فلم أجده وقد قيل لي إنه عندكم فأعطوني إياه وكونوا معافين، فأجابه الأب بصرفتين قائلاً: أمّا أثناسيوس الأسقف فهو أبونا ومقدّمنا لكنني ما أبصرت له وجهاً ولا أعرفه ولا جاء إلى عندنا، وها الدير بين يديك فتشّه لتعلم صحة قولي. فأمر الوالي بتفتيش الدير مهلاً مهلاً فلم يجده، وعندما أراد الخروج قال للرهبان: هلموا كلكم واعملوا عليّ صلاة، وكان معه أسقف أريوسي عرفه بعض الإخوة، ومن الأسقف استدلوا أن الوالي أيضاً أريوسي، فأجابوه قائلين: لا يمكننا ذلك لأن معنا وصية من أبينا أن لا نصليّ مع مَنْ كان أريوسياً. ثم انفصلوا عنه. فعمل الأسقف وحده صلاة ثم جلس الوالي والأسقف وأصحابه، وفيما هم جلوس طفر الوالي وحده بين الجماعة كهارب مكدود وِجْل فزع ومنخره يُجري الدم وهو يقول: بالكاد أفلتُ من الموت لأجل الرؤيا التي ظهرت لي الآن إلاّ أن يشاء الله حياتي، وعلى هذه الحال انفصل من الدير ورحل عنه. فأما الأب تادرس فلمّا رجع إلى الدير وسمع بما كان مجدّ الله. [382]

وهذا النفي الثالث الطويل يُحسب لأثناسيوس قمة ما بلغ إليه من منجزات فقد كتب في هذه الحقبة أكثر من نصف مؤلفاته جميعاً!! بل ونشرها في مصر وفي خارج مصر، حتى أضجّ مضجع الإمبراطور نفسه والأريوسيين وكل مَنْ عيّنهم لمناوأته!! بدأ نفي أثناسيوس الثالث وكأنه انتصار للإمبراطور وكل الشامتين وتحذّ من كل أريوسيين العالم. وانتهى نفي أثناسيوس الثالث بعلامات انهزام القوة الأريوسية وأقول نجمها الأسود!!

صحيح أنه دام الصراع مع الأريوسيين بعد عودة أثناسيوس ما يقرب من عشرين سنة بعد ذلك، ولكن بعد أن هدّهم الضعف والوهن.

ومنذ سنة 362م والأريوسيون بدأوا يعانون من التفكك والانقسام بصورة ملحوظة للعالم، زارها مطاردة أثناسيوس لهم بلا هوادة، ولكن تحطّم الأريوسية في النهاية لم يكن لشيء إلا لأنها كانت لا تقوم على الحق، وكانت تستمد قوتها الضاربة من السلطة الحكومية، في حين كانت ضربات أثناسيوس من الإنجيل والحق والإيمان الوثيق.

ففي اللحظة التي خرجت فيها الأريوسية من ظل رعاية السلاح وتكتيك الغش والخداع والخيانة والتجمّعات المفتعلة وقعت على الأرض وتناثرت كتمثال مزيف من الخزف.

وعلى مدى الست سنوات التي اختفى فيها أثناسيوس عن أعين أعدائه، لم يكف الأريوسيون عن عقد المجمع وإصدار القوانين والبيانات والتحذيرات. وكانت عين أثناسيوس، وهي في الظل، صاحبة تراقب عن كثب وترد بسرعة خاطفة على كل إجراء في وقته المتقن.

فقد فتحت له الأديرة الأمانة أبوابها وهلّل لرؤياه المتوحدون في أعماق الصحاري: نتريا، والقلالي، وشيهيت أيضاً، وحتى أقصى صعيد مصر، وحتى العذارى (الراهبات) استقبلنه في بيوتهن الخاصة التي كان قد أنشأها هو لهن بنفسه. وتعاون كل ذوي النفوس الشهمة الأمانة وخاصة رجال نتريا والقلالي من الرهبان المثقفين ليكونوا تحت إمرته، يحملون الرسائل منه وإليه في كل أنحاء البلاد وحتى إلى أقصى الأقطار النائية، فالمركب تخوض البحر الكبير تحمل إليه الأخبار، فتصله في أيام معدودات؛ والقوارب تجول في النيل من منبعه إلى مصبه تحمل الرسائل لتسجيع الأساقفة (383) والكهنة الذين بقوا على أمانتهم للأمانة سواء كانوا في المنفى

(383) [حدث أن بلغ إلى مسامع أثناسيوس وهو مختفي أن ثيودور أسقف أوكسيرينكوس (البهنسا) وهي من كبريات مدن الصعيد قد انضم إلى الشركة مع جورج الأريوسي، (كان ذلك بالقوة وقام بإعادة سيامته!!) (N.P.N.F., IV, Athanas., Prolog. Liii)، فأرسل أثناسيوس خطاباً إلى شعب أوكسيرينكوس (البهنسا) ألهب فيه مشاعرهم الكنسية والروحية، فطردوا أسقفهم وجاءوا برئيس كهنة يخدمهم حسب الإيمان الأرثوذكسي] (Dict. of Ch. Biog. Athanas. 194 n, n).

أو تحت رئاسة الهرطقة!!

فكان أثناسيوس يدير شئون الكنيسة ويقبض على زمام الحركة فيها وهو مقيد الحركة مشابهاً لبولس في السجن!!

ولم يُرَ أثناسيوس في هذه الأسفار والتنقلات إلاّ ومعه الكتب والرقوق وحزم صحائف البردي وأقلام البوص للكتابة ... كم جلس على حصير راهب فقير، وكم استظل بسقف المغائر النائبة وظل يكتب ويكتب، فإن جفّ الحبر في قلمه غمسه في المحبرة، وإن جفّ الفكر غمسه في قلبه ليخرج الكلمات المنيرة بالروح المتقدة بالأمانة للمسيح الذي أحبه.

كان قلمه قلم كاتب سريع الكتابة، وكانت عزيمته تصلب الجسد لمشيئة الروح، فلم يكن يكل أو يمل وهو واقف قبالة أساقفة العالم كله يعلن الإيمان المستقيم الذي استلمه من أبيه ألكسندر بل من بولس بل من المسيح.

وفي كتاباته استطاع أثناسيوس أن يفرّق دائماً وبدقة بالغة بين وقت المهاجمة ووقت الدفاع، وبين خصومة لا تهادن قط وخصومة تقبل المهادنة، وفرّق بين أعداء الإيمان وبين الأغبياء في الإيمان وبين الضعفاء في الإيمان، فعلى الأولين أعلن حرباً لا رحمة فيها، وللمتوسطين أفاض وأسهب وشرح وأطنب، وللآخرين شجّع وتنازل وسار حتى إلى منتصف الطريق!! عجيب أثناسيوس وعجيبة هي مؤلفاته كلها، ولكن ليس كل من يقرأها يدرك أغوارها أو يقدر أن يفرّق بين مظهرها وجوهرها والظروف التي أمّلت عليه كتابتها ...

وهذه الأجازة الإجبارية من حمل مسؤولية الشؤون الإدارية لأعمال الكنيسة كانت لأثناسيوس من أخصب فترات حياته في الإنتاج الروحي والتأليف الكنسي. وكما قلنا فقد استطاع أثناسيوس أن يؤلّف ويكتب فيها أكثر من نصف ما ألّف وما كتب طول حياته، أراوها الأعداء فترة نقمة وقمع وهدم له وللكنيسة الأرثوذكسية الأمانة الوفية لمسيحها، فأرادها الله أن تكون هي بعينها الفترة الذهبية المضيئة، لا من جهة التأليف والإنتاج فحسب، بل ومن جهة جمع شمل الأمة كلها تحت لواء الأمانة لأثناسيوس، أو كما يحلو لي أن أقول الأمانة للأمانة، والتحدّي السافر لسلطان الدولة الأجنبية المحتلة.

والأمر المذهل حقًا أن الوثنيين في مصر كلها كانوا يكونون لأثناسيوس التقدير والمحبة إلا الذين طوتهم المواعيد والأموال ... فالوثنيون هم الذين هجموا على كنيسة ديوناسيوس بقصد الفتك بجورج الأسقف المغتصب الدخيل وذلك بشعور العداء الوطني الذي أذكاه أثناسيوس بمواقفه الصلبة المقاومة للسلطان الروماني الغاشم.

أعمال أثناسيوس خلال فترة منفاه الثالث

سنة 356-362م

- وهي عبارة عن كتاباته -

(لاحظ أن أثناسيوس قد ناهز الستين من عمره)

1 - كتاب الدفاع لدى قسطنطيوس:

أول ما فُكر فيه أثناسيوس كان إيجابياً، فقد ارتجى أن يقابل الإمبراطور ويشرح له كل الظروف التي أحاطت بقضيته ويكشف المؤامرات والوشايات ويقدم للإمبراطور الأدلة المقنعة أنه لم يكن ضد الإمبراطور أو مخالفاً لأوامره قط. وكان يستبعد في رجائه وثقته بالحق أنه من المستحيل على الإمبراطور أن يرجع في أقسامه أو يسيء إلى احترام ذكرى أخيه قسطانس الذي بسببه ارتضى قسطنطيوس أن يفي بأمانة العهد!

لذلك أجهد أثناسيوس نفسه ليقدم دفاعاً صادقاً مخلصاً رتيباً مقنعاً بكل دقة، عالج فيه الاتهامات الأربعة المعروفة والتي سبق أن ذكرناها، والتي اتخذها خصومه وقيداً يشعلون به نار حقد الإمبراطور كلما هدأت نفسه.

بل إنه بعد أن أكمل كتاب دفاعه (26 فصلاً) قام وأعد العدة للسفر لمقابلة الإمبراطور في ميلان، عن طريق ليبيا (المدن الخمس)، لكي يعبر البحر مباشرة صوب إيطاليا (وهو نفس الطريق الذي سلكه رسل ماجننتيوس من إيطاليا إلى مصر عبر الصحراء الليبية سنة 350-351م).

ولكن كما سبق وشرحنا، بلغته أخبار مجمع ميلان ونفي الأساقفة وحرم أثناسيوس وإرسال وفد إمبراطوري لنفي أثناسيوس أو القبض عليه حياً أو ميتاً، مما اضطره للعدول عن السفر، غير أنه لم يفقد الأمل قط في مقابلة الإمبراطور لتقديم احتجاجه وإقناعه ببراءته، وهذه تكشف عن إحدى صفات أثناسيوس العجيبة كونه لا يفقد الرجاء في الحق ولا يقعد عن المطالبة به مهما كان!!

ولمّا اقتنع بعدم جدوى الذهاب في هذه المناسبة عاد إلى صحرائه وبدأ يكمل فصولاً جديدة في كتاب دفاعه لدى قسطنطيوس تتناسب مع الحوادث الجديدة. فصار

2 - الخطاب إلى الأساقفة في مصر وليبيا:

كان لا يزال أثناسيوس في صحراء ليبيا حينما حلَّ عيد القيامة سنة 356م (384) وقد أمضاه هناك ومن هناك أيضاً كتب أثناسيوس خطابه للأساقفة - الذين تحت رعايته في مصر وليبيا - وهو في القيروان وبعدها عاد في حوالي شهر أبريل، حينما شاعت لدى الإمبراطور أخبار تبدو متعمّدة (من أعوان أثناسيوس) أن أثناسيوس انطلق نحو أثيوبيا.

وكانت قد وصلت أثناسيوس أخبار تفيد قرب وصول جورج الكبادوكي (أصلاً متعهد توريد الخنازير في الحكومة). ولكن لم تكن وصلته أخبار الاضطهادات بعد. وهذا يوضّح أن الخطاب كُتب في عيد القيامة سنة 356م.

ويذكر أثناسيوس في الخطاب تسلسل حوادث الأريوسيين وأعمالهم منذ ابتداء المنفى الثالث. وبحض الأساقفة على الاحتراس من منشور دوري كانت الحكومة بصدد إصداره لتهديد الأساقفة بالنفي إذا لم يوقّعوا على قانون الإيمان الجديد، وهو في الغالب قانون مجمع "سيرميم" الذي صدر سنة 351م (385) ولم تكن له بعد الصيغة الأريوسية الزاعقة، ولكن كان يهدف نحو التملُّص من نقطة الامتحان في قانون نيقية كما يتضح من الفصل 10 في الخطاب.

ولذلك يبدأ (من فصل 1-4) بتحذير من جهة هذا الأمر أن ينتهبوا حتى لا يغرّر بهم بالكلام أو التوضيحات (فصل 5) فيتمسّكوا بقانون نيقية ولا يتزحزحوا عنه لمباحكات المخالفين (6-8)، ولا يقبلوا أي قوانين مختصرة أو يغتروا بتجديف الأريوسيين الواضح (9-11).

وفي الجزء الثاني من الخطاب يشير إلى العقيدة، فهو في فصل (12) يوضّح موقف الأريوسيين الأساسي من الإيمان، ويوضّحه في فصل (13) بأدلة من الكتاب. ثم يتحدّى الأريوسيين في فصل (14) إن كانوا يستطيعون أن يقدّموا اعتقاداً واضحاً صريحاً عن "طبيعة الكلمة" ليتمكن التوفيق بين اقتراحاتهم وفروضهم وبين الكتب

(384) N.P.N.F., IV, Athanas. Prolog. Li.

(385) Athanas., De Synod. 27.

المقدّسة (15-16)، ثم يشرح سفر الأمثال 22:8 في التجسّد ويتهم الأريوسيين أنهم يشرحون هذه الحقيقة كالثنيين (17)، كما يتهمهم جميعاً وبالأخص أريوس بالنفاق ومداهنة الإمبراطور (18).

ثم يصف موت أريوس ويدفع بالقضية باعتبارها جريمة إنسان تمّ عليه قضاء الله (19)، ويحض الأساقفة (20-21) على الثبات والاستعداد للاعتراف موبّخاً تذبذب الميليتيين (22) والأريوسيين، ويشرح أخيراً قناعته (23) أن الإمبراطور قسطنطيوس سوف يضع في النهاية حداً لمهاتراتهم حينما تصله المعلومات الصادقة عن حقيقة الأمر. (وهذا الأمل ظل يداعب فكر أثناسيوس حتى يئس تماماً من الإمبراطور بعد مضي سنتين من كتابة هذا الخطاب).

(انظر مقتطفات من هذه الرسالة صفحة 54)

ومن كتابات أثناسيوس المتفرقة نستطيع أن نحدّد أنه وصل إلى الإسكندرية أثناء فترة اختفائه ومكث بها جزءاً من سنة 357-358م، ويُعتقد أنه عاد إليها مباشرة ليملك فيها بعد ذلك قرابة السنتين (الجدول الفصحي 30-32).

ويذكر كل من سوزومين المؤرّخ (386) وبالليديوس أنه كان أثناء هذه المدة مختبئاً في بيت عذراء. ولكن للأسف لم يفهم كل المؤرّخين الغربيين معنى عذراء، وأعطوها أوصاف الجمال الفاتن... إلخ. ولكن الحقيقة بحسب تقليد التاريخ الكنسي القبطي أن كلمة عذراء هنا تفيد راهبة مكرّسة، فقد بدأ في أيام القديس أثناسيوس أن تنتشر حركة التكريس بين العذارى وسمحت الكنيسة (أثناسيوس) بأن يقمن في بيوت عائلاتهن في أماكن خاصة داخل البيت أو يعشن في بيوت خاصة لهن، حيث يشرف عليهن كاهن معيّن أو الأسقف نفسه، وكان القديس أثناسيوس يكتب لهن توجيهات خاصة، وواضح أن هذه العذراء هي إحدى المكرّسات اللاتي كرّسهنّ أثناسيوس بنفسه وأنها كانت تتردّد عليه قبل نفيه وكان يتردّد على البيت الذي تقطنه - ربما مع زميلات لها - وأن أثناسيوس طرّق باب هذا البيت الذي كان يتحمّم أنه على علم جيد بمكانه كأكثر الأماكن أمناً التي يمكن أن يلجأ إليها من كافة الوجوه، وأن هذه العذراء بالذات هي الراهبة التي كُفّفت بخدمة أثناسيوس وتأدية المهام التي كان يوفدها إليها.

أمّا التجاؤهُ أيضاً إلى خزان جاف للمياه في هذه المدة، كما يرويه المؤرّخ روفينوس (387)، فهذه أيضاً حقيقة. وبحسب معرفتي الشخصية لا يزال، كما سبق وقلنا، هذا الخزان موجوداً إلى اليوم، وهو تحت أرضية الدور الأرضي لبطيركية الإسكندرية، ويمكن النزول إليه بفتح الأرضية في الغرفة الشرقية البحرية من الجناح الشرقي.

وربما هذا المكان الذي فيه البطيركية الآن هو بالذات الذي كانت تسكن فيه جماعة العذارى اللاتي خدمن أثناسيوس أثناء اختفائه، وكان في وقت الخطر ينزل إلى الدور الأرضي ويختبئ في هذا الخزان بجوار المسلة. وفي هاتين السنتين 357-359م أتمّ أثناسيوس كلاً من:

3 - كتاب سيرة القديس أنبا أنطونيوس:

يمكن بحسب ملايسات مقدّمة كتاب سيرة القديس أنطونيوس الذي ألفه أثناسيوس أن نستدل أنه كتبه في السنة الأولى بعد نياحة أنبا أنطونيوس، ومعروف بالتحديد أن القديس أنطونيوس تنيح سنة 356م.

كذلك فإن أبحاثاً كثيرة للغاية قدّمت لإثبات صحة كتابة أثناسيوس لسيرة أنبا أنطونيوس، وفي هذه الفترة بالذات، ولكن سوف نرجئها للباب الأخير من الكتاب الذي سنخصّص فيه عرضاً لمؤلّفات أثناسيوس ومدى أهميتها وتأثيرها في الحياة العامة وفي اللاهوت الكنسي في مصر والعالم.

4 - كتاب دفاعه عن هروبه:

والمعروف بحسب الدراسة التاريخية أن هذا الدفاع كُتب في المدة بين حنث هوسيوس أسقف قرطبة وتوقيعه على إيمان الأريوسيين، وبين حنث ليبريوس أسقف روما وتوقيعه هو الآخر على إيمان الأريوسيين، وبذلك يكون أثناسيوس قد كتب دفاعه هذا في نهاية عام 357م.

وقد تمسك فيه أثناسيوس بموقفه من الهروب بحسب أقوال الرب وسلوكه وسلوك القديسين، واعتبر أن الفرصة التي أتاحتها له الله في هروبه من كنيسة ثيوناس يوم أن

دهمها سيريانوس بالجيش وأعمل القتل في المؤمنين كانت تشابه نجاة بطرس من السجن أو نجاة بولس من أيدي اليهود.

والدفاع كما يصفه كل علماء التاريخ واللاهوت يعتبر نموذجاً لما يجب أن يسلكه أي إنسان مسيحي وقت الاضطهاد Locus Classicus.

وتمتاز لغة الدفاع وأسلوبه بالسهولة والقوة والأنفة وقد أخذ به قديسون كثيرون (انظر أغسطس في رسالة 228 وكبريانوس رسالة 20).

وقد أطنب فيه كل من المؤرخ سقراط (388) وثيودوريت (389). وسوف نعود إلى توضيح ما فيه من التعاليم النافعة في الباب الأخير من هذا الكتاب.

5 - خطابات إلى لوسيفر:

لوسيفر أسقف كالاريس (كاجلياري في جزيرة سردينيا جنوب غرب إيطاليا)، وهو الأسقف الذي نفاه قسطنطيوس بعد أسقف ميلان، وقد كان مكان نفيه في البداية إقليم جرمانيسيا ثم اليوثيروبوليس بفلسطين وقد أسىء معاملته هناك وأخيراً نقلوه إلى إقليم طيبة في صعيد مصر.

زمان الكتابة إلى لوسيفر يحصره العلماء في سنة 356م، ويعتبر الخطاب الثاني رقم 51 الوثيقة الفريدة من نوعها التي تشير إلى علاقة القديس أناسيوس بوالديه باعتبارهما لا يزالان على قيد الحياة.

وفي الخطاب الأول يخاطب لوسيفر باعتباره "معتزلاً" - أي إنساناً يشهد للمسيح تحت آلام التعذيب!! وهو خطاب تشجيعي مبدع سنأتي على أهم ما فيه في الباب الأخير من الكتاب.

أمّا الخطاب الثاني وفيه يذكر اقتحام القوات للأديرة وتعذيب الرهبان وقتل المتوحدين، الأمر الذي جعل أناسيوس يغادر الأديرة والصحاري! ويذكر القديس أناسيوس النصيب الحسن الذي ينتظره مع جميع المعتزفين بهذا الترتيب، نصيب "البطاركة والأنبياء والرسل والشهداء". ويلاحظ القارئ أن هذه العبارة واردة

(388) Socrate, II, 28, III, 8.

(389) Theodoret, H. E., II, 15.

بتسلسلها في مطلع المجمع في القدّاس الإلهي، فهي اقتباس ليتورجي، ويذكر أثناسيوس أن رد لوسيفر وصله مع الأخ المراسلة - حامل الرسائل وردّها - (وهو عبارة عن عدة كتب) وفيه يذكر أنه لم يستطع رؤية والديه بسبب مراقبة الجواسيس.

ومن الطريف أنه بعد صدور أمر الإمبراطور يوليان بعودة الأساقفة المنفيين ظهر أثناسيوس في الإسكندرية لأول مرّة في 21 فبراير سنة 362م في المساء، بعد غيابه ست سنوات بصحبة لوسيفر أسقف كالاريس وزميله يوسابيوس أسقف فرشلي بإيطاليا اللذين كانا منفيين في صعيد مصر، فكانت مفاجأة مفرحة للشعب.

وقد حضر يوسابيوس أسقف فرشلي المجمع الذي عقده أثناسيوس حال عودته إلى الإسكندرية، وكان مكوّناً من 21 أسقفاً، أمّا لوسيفر فترك شماسه وبقية معاونيه ليحضروا المجمع، أمّا هو فذهب إلى أنطاكية ليرى ماذا حدث (390)، كما حضره مندوبو الأسقف أبوليناريوس أسقف اللاذقية بسوريا الذي جنح عن الإيمان في ما بعد، مما اضطر أثناسيوس لكتابة كتابين ضد مبادئه سنة 372م.

6 - خطابات إلى الرهبان المصريين 53 و52 و54:

(أ) الخطاب رقم 53:

وهو خطاب مُرسل إلى المتوحدين بعنوان: [أثناسيوس "رئيس أساقفة" الإسكندرية إلى المتوحدين]، وهنا إشارة إلى أن استخدام اصطلاح رئيس أساقفة بدأ مبكراً في مصر، كما أن الاسم الشائع للرهبان في ذلك العصر كان هو "المتوحدين".

تحديد زمان كتابة هذا الخطاب يتعلّق بالقصة التي سبق أن رويناها - وهي في كتاب حياة باخوم - عن وصول "أرتامبوس" الدوق مع الأسقف الأريوسي إلى دير بافو بحثاً عن أثناسيوس، وأن رئيس الدير أبلغهم "أن الأب أثناسيوس أرسل أمراً للرهبان أن لا يصلّوا مع غرباء لهم شركة مع الأريوسيين".

إذن فوصول أرتامبوس الدوق إلى دير بافو كان بعد أن وصلهم خطاب أثناسيوس وبه هذا الأمر - أمّا الدوق أرتامبوس فمعروف من التحقيق التاريخي أنه قام برحلة البحث عن أثناسيوس في سنة 359-360م، من واقع تسجيلات الجدول الفصحي.

وإليك مقتطف من الخطاب يثبت صحة ارتباط هذه القصة بزمن الخطاب:

[ولكن إذ يوجد أشخاص أريوسيون يجولون في الأديرة ليس لغرض إلا أن يستغلوا زيارتهم لكم ثم يعودوا (من الأديرة) ليضلوا عقول البسطاء، كذلك فإنه يوجد آخرون بينما يؤكّدون أنهم لا يقيمون علاقة (إيمانية) مع أريوس إلا أنهم يعطون لأنفسهم حلاً وسطاً بأن يقيموا الصلاة مع هذه الجماعة. لذلك اضطرت تحت إلحاح إخوة أعزاء لأكتب لكم في الحال أن تحفظوا الأمانة المستقيمة بكل إخلاص وبلا أي غش التي يقيمها الرب بنعمته فيكم حتى لا تعطوا للإخوة أي فرصة للعثرة ... ونحن مرتبطون على وجه الخصوص بالإمتناع قطعياً من إقامة أي شركة مع أناس قد لعننا مبادئهم!](391)

(ب) الخطاب رقم 52: مكتوب ما بين 358-360م

[إلى الذين في كل مكان يعيشون الحياة الرهبانية المؤسسين في الإيمان بالله والمقدّسين في المسيح، الذين يقولون هوذا قد تركنا كل شيء وتبعناك، الإخوة

المحبوبين والذين أشتاق إليهم أهديهم تحياتي القلبية في الرب.]

خطاب يقول عنه العلماء إنه من أجمل خطابه ومثير للقارئ، وهو وارد في مجموعة الآباء اللاتين(392):

[استجابة لسؤال محبتكم التي طالما ألحتم عليّ، كتبت تقريراً مختصراً عن المعاناة التي جزتها بنفسي والتي جازتها الكنيسة، شاجباً بقدر استطاعتي الهرطقة الملعونة التي خرج بها أريوس المجنون، مبرهنأ كيف أنها غريبة كلية عن الحق.]

وسنعود لهذا الخطاب أيضاً في الباب الأخير من هذا الكتاب.

(ج) الخطاب رقم 54: “إلى سيرابيون بخصوص موت أريوس”

من هذا الخطاب يبدو أن سيرابيون كان اليد اليمنى لأثناسيوس بين جميع أساقفة مصر، ولكن لا يُعرف تاريخ ميلاده ولا تاريخ رسامته ولا تاريخ نياحته، ومن لغة الخطاب يتضح أنه أصغر سنأ من أثناسيوس.

ويلاحظ أن اسم سيرابيون غير وارد في أساقفة مصر الذين حضروا مجمع صور سنة 335م، ولكن اسمه وارد في قائمة الكهنة في نفس المدة! بينما نجد أسقفين لهما نفس الإمضاء سيرابيون عن مصر في مجمع سرديقا؟ لذلك ليس من المستبعد أن يكون أثناسيوس قد رسمه على مدينة تمويس الهامة بين 337-339م.

ومعلوم أنه أختير رئيساً للبعثة السلامية الخطيرة التي أرسلها أثناسيوس سنة 353م لمقابلة قسطنطيوس في ميلان لتوضيح مجريات الأمور في مصر، ولكن البعثة عادت دون تأدية رسالتها.

ولسبب ما مجهول لدينا لا نجد اسمه مدوناً ضمن أسماء الأساقفة الذين واجهوا النفي سنة 356-357م. ولا بين أسماء الأساقفة المعترفين “معترفين” في اجتماعهم بقيادة أثناسيوس سنة 362م بالإسكندرية، ولكن من المسجل بكل تأكيد أن أثناسيوس ظل يرسل سيرابيون مدة نفيه الثالث وكتب له عدة خطابات عقائدية على أعلى درجة من الأهمية سيأتي ذكرها.

ومعروف أيضاً أن سيرابيون كان صديقاً وسفيراً للقديس أنطونيوس وقد أمر تلميذه عند موته أن يسلّم سيرابيون جلد الغنم الآخر الذي كان يلبسه بعد أن أوصى بإعطاء البابا أناسيوس جلد الغنم والثوب اللذين كان يلبسهما.

والمعروف أيضاً أن سيرابيون ظل حياً يُسمع له حتى سنة 368م (393).

والخطاب يقص خبر موت أريوس الذي أوردناه في حينه. وقد استقاه أناسيوس من الكاهن مكاريوس الذي كان موفداً إلى القسطنطينية آنذاك ورأى الحوادث وشارك فيها بينما كان أناسيوس في تريف في المنفى.

ومن الأمور الهامة جداً في هذا الخطاب هو الغرض الذي من أجله كتب أناسيوس هذا الخطاب. لأن ذلك له صلة أساسية بالكتاب المعروف باسم: "تاريخ الأريوسية".

ففي مقدّمة الخطاب يقول أناسيوس:

[قرأت رسائل قداستكم التي فيها ترجوني أن أعرفك عن الحوادث التي تجري حالياً في ما يخصني، كذلك تسألني عن أن أعطيك تفصيلات عن هذه الهرطقة المتناهية في الكفر التي للأريوسيين التي من أجلها قد عانيت أنا هذه الآلام، كذلك تسألني عن الكيفية التي مات بها أريوس.]

وقد اقتصر أناسيوس في الرد على ذكر موت أريوس فقط، أمّا السؤال الآخران فإنه كتب رسالة مطوّلة إلى الرهبان بعثها إليه يشرح فيها الإجابة عن السؤالين الباقيين وسماها: "الرسالة إلى الرهبان"، أو "تاريخ الأريوسية إلى الرهبان"، أو كما تُسمّى حتى اليوم: "إلى الرهبان"، وهذه سيأتي الكلام عنها حالاً.

7 - تاريخ الأريوسية أو الرسالة إلى الرهبان:

وهذا الكتاب يبدأ الرواية من أول قبول أريوس في الشركة في مجمع "التدشين" في أورشليم (وهو الذي قام على أثر انفضاض مجمع صور سنة 335م)، كما هو مذكور في (دفاع أناسيوس ضد الأريوسيين 84).

وقد قصد منه القديس أناسيوس أن يكون مكملاً لكتابه في دفاعه ضد الأريوسيين

الذي أصدره قبله مباشرة ليكون عملاً كاملاً ضد قسطنطيوس، ولو أنه يبدأ القصة قبل أن يدخل فيها قسطنطيوس كمناصر للأريوسيين، فيبدأها منذ أيام قسطنطين. وقد كتبه أثاناسيوس وهو في مخابئه منتقلاً من مغارة إلى مغارة، جالساً القرفصاء، منكباً على صفحاته كالكاتب المصري الفرعوني القديم.

ولكن بلا أي جدال، فالكتاب يعكس حالة أثاناسيوس النفسية وضيقه من نذالة مضطهديه جميعاً، إمبراطوراً وخصياناً وأساقفة يحركهم جنونهم ضد الحق، فخرجت بعض العبارات شديدة المرارة، أخذها عليه رجال التاريخ. ولكن مهلاً - فالذي يكتب في المنفى، وهو مطارَد للموت، مهاناً مذلولاً بعيداً عن مأوى يرتاح إليه، ليس كمن يكتب وهو يحيط به الأمان والسلام ووسائل الراحة كيفما شاء!

أمّا زمن الكتابة فيمكن تحديده بأخر فصوله حيث يذكر سقوط ليبريوس فهو لا يتعدى سنة 357م، ولكنه بدأه مباشرة بعد أن انتهى من دفاعه عن هروبه.

والكتاب يقدح ناراً ضد قسطنطيوس، ولا يمكن لأي إنسان يقرأه إلا ويدرك مدى عظم المؤامرة وخطورتها هذه التي يدبرها أساقفة اجتمعوا معاً ضد الإيمان، وضد الأسقف الذي يحمي هذا الإيمان، وضد البلد التي تناصر أسقفها وذلك في مصوغ من القانون الكنسي وبمجامع هذا عددها، ثم يختم عليها إمبراطور الدنيا آنئذ وينفذها عشرة كورنتات بكل لوازمهم من ولاية ومفتشي بوليس وقضاة وجيوش!!

فلا تلوموا أثاناسيوس إن كان قد خرج عن وقاره مرّات كثيرة، إنما ليس في مهاترات بل في حبك بلاغي مدعم بالآيات، فيصف الإمبراطور بأشنع الأوصاف، يصفه بعبد خصيانه، عديم الإنسانية حتى بالمقربين إليه، رجل مزيف الشخصية غشاش في معاملاته، أقسى من بيلاطس في حكمه على البريء، وأشنع من أخاب في مناصرته للأنبياء الكذبة، وأعتى من فرعون في إذلاله لشعب إسرائيل، جاهل بالكتاب المقدس، نصير الهرطقة الذين خرجوا عن مقررات مجمع نيقية، عدو المسيح لمهاجمته للإيمان الصحيح. ولكن ما ذنب أثاناسيوس في أن ينطق بهذا السب المنطقي واللعن الشريف وهو يرى بعينه انحدار لا الإيمان فحسب بل كل القيم والمعايير الأخلاقية، فالخصيان يحكمون القصر ويسيطرون على مجامع الأساقفة!! وانقلبت موازين العدالة الرومانية تحت يد العبيد وزيف القضاء الروماني، وبنات مصائر الشعوب تلعب بها المجانين، بل والأخلاق والسلام والتمدين، صار الكل في

خطر وليس الدين فحسب!!

إن أثناسيوس في هجومه العنيف ضد الإمبراطور كان يمثل تماماً ثورة ناضجة لشعب أعوزته الحيلة في تقرير مصيره من جهة الإيمان والحرية الدينية، فقام يذود لا عن مصر بل عن كرامة المدنية الرومانية والأخلاق والعدالة أينما وُجِدَتْ!! وظلَّ هذا الأسقف المصري الأعزل يزار بالنقمة على ثلثمائة من الأساقفة المتلاعبين بالإمبراطور، الذين يمثلون أدناً حركة من حركات البورجوازية رأها العالم منذ أن خلق العالم.

وصدَّقني أيها القارئ العزيز إن هجوم أثناسيوس هذا، الضعيف في ذاته، على الإمبراطور المرعب الذي يسوس العالم الروماني بأسره، كان يساوي في حجمه ثورة مسلحة استطاعت تماماً أن تهد كيانه وتلغي هيئته من قلوب رعيته في كل أنحاء الدنيا، بل تهد كيان ثلثمائة من الأريوسيين بين رئيس أساقفة وأسقف، وألوف من الكهنة من كل أقطار العالم شرقاً وغرباً.

فقد تُرجمت دفاعات أثناسيوس من اليونانية إلى اللاتينية مباشرة، فتداولها العالم سريعاً من أقصاه إلى أقصاه! ... وما أن بزغ فجر سنة 362م إلا والأريوسية تعاني التصدُّع الذي انتهى بها أخيراً إلى الاضمحلال إثر ضربات أثناسيوس المتقنة التي كالتها لهم جميعاً وبمفرده، والتي لم يعتمد فيها على ذراع إنسان واحد، بل كان يستمد قوته من الكتب المقدسة وتقليد آبائه ومجمع نيقية وثقة الشعب به!! إنها نعمة الله التي تتسيطر على مصير العالم وحضارات الشعوب، وهي التي أقامت أثناسيوس في زمانه الحسن لتهد به كيان قوى الشر التي تحالفت آنئذ معاً، والتي دائماً وأبداً وفي كل العصور تجد أقوى تحالف لها بين سلطة رجال الدين الطامحين الأغبياء وسلطة الحكام المستبدين الضعفاء.

أمَّا هذه المواقف التاريخية التي وقفها أثناسيوس ضد الإمبراطور في كتابه هذا فتسجَّلت تحت الفصول (9 و30 و34 و40 و46 و51 و53 و67-70 و74 و80).

أمَّا الوجه الآخر المملوء جمالاً ودعة وسلاماً فلا نعدمه في فصول كثيرة أيضاً من هذا الكتاب، خاصة في استقبال أثناسيوس في عودته من المنفى الثاني واستقبال الشعب الرائع له، وما لازمه من تأثير أخلاقي وحماس روعي في أوساط الشعب!!

(فصل 25) وتوعية الشعب والأساقفة والحكام سواء بسواء بأن الاضطهاد في جوهره - مهما كان - هو غريب عن الإنسانية الشريفة وعن روح الكنيسة (فصول 29 و33 و67).

ثم الانعطاف الواعي الأخلاقي والاجتماعي النير نحو مناصرة الفقراء وخدمتهم بروح التعاطف والتركيز على هذا السلوك باعتباره لازمة من لوازم الغريزة الإنسانية الشريفة (فصل 63).

وتسجيل المحاورة الجريئة الشجاعة العارية من كل خوف أو جبن أو رياء التي دارت بين أسقف روما أو أسقف قرطبة والإمبراطور المتحکم المتسلط في شئون ليست له، والتي تُحسب أنها نموذج من أروع النماذج لما ينبغي أن تكون عليه المواجهة لا بالنسبة للأسقف فقط تجاه إمبراطور، بل نموذج لكل محكوم في مواجهة حاكمه في ما يختص بحد الاختصاص لكل منهما فلا يتعداه الواحد نحو الآخر!!

هوسيوس أسقف قرطبة للإمبراطور:

[فإن أردت أن تضطهدي (أسقف قرطبة عمره 100 سنة) فأنا على أتم الاستعداد لاحتمال كل شيء دون أن أريق دماً بريئاً (الحكم على أثناسيوس بالنفي اعتبره بمثابة قتل) أو أخون الحق! وأنا لا أوافق على سلوكك بالكتابة لي بالتهديد وبهذه اللهجة، فأوقف كتابتك بالتهديد لي! ... إن الله وضع في يدك المملكة أمّا نحن فقد أئتمنا على القيام بمهام شئون الكنيسة، فكما أن الذي يحاول أن يسرق المملكة من بين يديك يُحسب مقاوماً لتدبير الله، هكذا بالمثل يلزم أن تخشى أيضاً مثل هذا التعدي، لأن بأخذك أحكام وقضايا الكنيسة لنفسك تصير متهماً بذنب عظيم، فإنه مكتوب: «أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، فكما أنه غير مسموح لنا أن نمارس قوانين الدولة كذلك أنت يا سيدي لا تملك السلطان أن تحرق البخور.] (فصل 45)، (كذلك أيضاً الفصول 34 وما بعدها، فصل 76).

ولا يعدم أثناسيوس التماس العذر حتى لمن خانوه وخانوا الحق ووقعوا على الوثيقة ضد الإيمان و ضد أثناسيوس برقة وحياء وأدب (فصل 41 و45) ويمعن أثناسيوس في وصف روعة اتحاد النفوس في ألفة الحق الواحد ومرارة ابتعاد النفوس (بالنفي) التي تعاهدت بالحب في ظل الإيمان المستقيم (فصل 40)، ثم عزاء

الله ومناصرته لخدمته الذين أُجبروا على البقاء في النفي مبتعدين (47).

كما يصف أثناسيوس بإحساسه الميتافيزيقي تقابل الأرواح معاً في السماء، بعد أن تكون قد عانت وعبرت الضيقة العظمى في الدفاع عن الحق، وكأنهم بلغوا معاً شاطئ السلام ودخلوا الفرحة العظمى بعد رحلة نوء في بحر العالم المضطرب (79).

هكذا يجول أثناسيوس في كتابه هذا بالقارئ عبر الزمان الذي جازه منذ شبابه حتى كهول أيامه فوق قمم جبال التاريخ من خلال عواصف وريعود وبروق ورخات من مطر عنيف، ثم إلى صبح بهيج وأشجار وأثمار وشعب يجلس آمناً يفرح أطفاله بأعياده ...

وأخيراً بالنسبة لهذا الكتاب وحسب رأي أحكم العلماء، فإنه لم يأت فيه شيء قط في غير موضعه أو مجافياً للحق.

غريغوريوس النزينزي يصف كتابات الأريوسيين - في المقابل - بلهجة لاذعة:

أطعم محلياً للبسطاء يخفي شص التجديف!
وجه جذاب يتلفت يمينا ويساراً ليوقع بالعابرين!
حذاء لائق لكل قدم!
بذور تُبذر في كل ريح!
كتابات اكتسبت قوتها من دناءتها وتحايلها ضد
الحق،
كانوا حكماء في صنع الشر، ولكن في الصالح لم
يكن لهم معرفة أو نصيب. (394)

وأخيراً وبعد أن طرحنا نظرتنا على كتاب "تاريخ الأريوسية" لأثناسيوس، وصار القارئ في شوق لمزيد من النصوص، نقول إننا أوردنا - تقريباً - إن لم يكن كل نصوصه فأهمها على مدى صفحات هذا الكتاب كله، لأنها كانت المورد العذب لجميع الوثائق التي سجّلناها على مدى صفحات كتابنا هذا، ولكن وفي الباب الأخير من كتابنا سوف نعود لنلقي نظرة مختصرة على مجمل المبادئ اللاهوتية التي وردت في تاريخ الأريوسية.

والآن لا يزال أمامنا ثلاثة "أعمال كبرى" لأثناسيوس أكملها في منفاه الثالث ذي الست سنوات الطويلة:

الأول: بعنوان "أربع مقالات ضد الأريوسيين".

الثاني: خمسة خطابات عقائدية أرسلها أثناسيوس لسيرايبون أسقف تمي.
الثالث: وهو أكثرهم أهمية، وجاء بعنوان "على المجامع"، لأنه كُتب سنة 359م، وكان يحمل عرضاً سلامياً لجذب المعتدلين من الأريوسيين، والذي كان له استجابة قوية على مدى العالم كله، أعادت "عشرة أقاليم" (395) في الحال إلى شركة أثناسيوس!!

8 - كتاب "أربع مقالات ضد الأريوسيين":

وقد توفر أثناسيوس على تأليفها على مدى حوالي أربع سنوات أو يزيد 356-360م، كان يشعر أثناسيوس دائماً بضرورة وضع كل اعتراضاته وجده له رطقة أريوس في منهج واحد منسق يضمه كتاب يمكن تداوله، وهذا ما استطاع أن ينجزه أثناء نفيه الثالث المتمر.

وقد صار هذا العمل ملحاً خاصة بعد مجمع "سيرميم التجديفي" سنة 357م. بعد أن دخل الشرق المتحفّظ في صراع ونقاش حاد بين ما استلمه من مقررات مجمع نيقية، وما استجد على أيدي هؤلاء الأريوسيين المقاومين بكل عنف لأهم ما جاء في مقررات مجمع نيقية.

والآن رأى أثناسيوس أنه قد حان الوقت ليضرب ضربته القاضية، فيضع هذه المبادرة الأريوسية بكل دقائقها وتفصيلها الإيمانية، أو قُل الكفرية، أمام مقررات مجمع نيقية وجهاً لوجه في كتاب واحد يقارن هذه بتلك!! ليكون في متناول يدي كل باحث عن الحق.

وقد كان من دواعي فاعلية هذا الكتاب ظهور فئة من الأريوسيين المتشككين والقلقين الراغبين في العودة من هذه المجازفة، وهم فئة أنصاف الأريوسيين، بزعامة باسيلئوس أسقف أنقرة الذي كانت تشير الأحداث إلى اقترابه شيئاً فشيئاً من صف أثناسيوس. وهذا ما حدا بأثناسيوس أن يخاطبهم بلغتهم - بطريق غير مباشر -

حتى يسهل جذبهم إلى صفه.

لذلك يتعمد أثناسيوس أن لا يركز على كلمة الأوموؤسيون moodع sion التي تعرّ فيها باسيليوس أسقف أنقرة مع النصف أريوسيين، فهي تغيب تقريباً في جميع المقالات الثلاثة الأولى إلا مرة واحدة في المقالة الأولى فصل 12، 3:9 (باستثناء المقالة الرابعة)، ولكن لا يُحسب هذا على أثناسيوس كأنه يتراجع عن كلمة المحك الأساسية في الإيمان الأرثوذكسي: (أوموؤسيون) “مساوي أو واحد مع الآب في الجوهر”، ولكن يحاول أن يشرح نفس الكلمة وإنما بمفردات أخرى أوضح وأعم.

وقد نجح في هذا بالفعل في استمالة الفريق المحافظ من أساقفة الشرق وفصلهم عن الأريوسيين المتطرّفين أمثال فالنس وأفدوكيوس، وكانت هذه هي أول ضربة ظهرت في ما بعد أنها كانت القاضية على تماسك الصف الأريوسي، ولكن بعد أن أخذت مسارها بحذر على ممر بضع سنين.

ويستمر أثناسيوس بحذق ومهارة يتلقط أخبار الأريوسيين في الخارج ويطرح مبادئهم واحداً بعد الآخر، وكل النقاط التي تجري عليها المشاحنات، والجدل خاصة من المشتمزين من التطرف، ويشجبه بقوة موضحاً تعارضها الصارخ مع الأسفار المقدسة.

وكان أثناسيوس دون أن يدري يضع هذه المساجلات التاريخية التي ملأت القرن الرابع كله في ما يختص بأقوى وأخطر نزاع عقائدي ظهر في تاريخ المسيحية، ويقدمها في صورة قضية مسلم بها ومقطوع فيها بالحق، إلى كل عصور الكنيسة القادمة، لتكون نوراً يهدي أقدام المسيرة الإيمانية حتى مدى الدهور.

وكما يقول العالم مونفاكون Montfaucon “قد صارت هذه المقالات الأربع بمثابة المصادر التي ظل يستخرج منها كل الذين كتبوا عن لاهوت الفادي بعد ذلك براهين دفاعهم.” (396)

والقارئ المنصف لهذه المقالات الأربع ليذهل من غزارة الاستشهادات بالكتاب المقدس وكثافة الحجج التي يحيط بها أثناسيوس حول كل مبدأ أريوسي مختلف عليه

حتى يخنقه بين يدي القارئ!!

ثم لا يمكن أن يصدّق أحد أن إنساناً بمفرده وفي موقف أثناسيوس المطارد يستطيع أن يغطّي هذا النزاع العقائدي بدقائقه الكثيرة جداً بهذه التغطية التي شملت كل الوسائل الممكنة المعروفة اليوم لدى كل اللاهوتيين معاً!!

ويسترعي انتباه العلامة برايت (397) مقدار الغنى والملء والسهولة في استخدام أثناسيوس للأسفار المقدّسة لإثبات لاهوت "الكلمة"، وقدرته المتزنة على التقاط الحقائق والإمساك بها، وخاصة ما يتعلّق بالبنوة الحقيقية الإلهية لله التي وردت في المقالات (15:1، 2:2-5 و22 و23 و73، 62:3).

كذلك يسترعي انتباه هذا اللاهوتي، الحذق الذي أبداه أثناسيوس في النفاذ إلى اعتراضات الأريوسيين وقدرته على تحليلها وتفنيدها كما ورد في (14:1 و27 و29، 26:2، 79:3).

وكيف استطاع أثناسيوس في هذه المقالات أن يفنّد كل اتهامات الأريوسيين ويعرّيها من ادعاءاتها ثم كيف - وبحدق مذهل - يقارن أثناسيوس بين إقرارات الأريوسيين ويضع القديم فيها بجوار المستجد ويظهر المفارقة ويضرب الاثنين ببعضهما البعض فيلغي قوة الواحد بالآخر، كما يضع المبادئ المجترئة بجوار المبادئ الحذرة ليسخر من هذا بذاك،

يكشف مراوغاتهم كما خطّطوا لها تماماً وكأنه كان بينهم!

يتعقّب منطقهم المخادع حتى ينتهي إلى ما وصلوا إليه من نتائج!!

حتى [في النهاية أظهر بدون أي التباس أن الأريوسية عقيدة متناقضة وقحة غير جديرة بالاحترام!].

وفي تقديمه هذه المقالات الأربع في مجموعة الآباء، يقول روبرتسون:

[فوق كل شيء نحن نرى في هذه المقالات امتداداً لما يبهرنا في كل ما كتبه أثناسيوس من بداية تجسّد الكلمة حتى آخر ما كتب؛ ألا وهو تمسّكه الشديد بعقيدة الخلاص التي كانت مطروحة للسؤال في ذلك العصر وارتباطها الحيوي بحقيقة الفداء والنعمة، كذلك معرفة الله كحقيقة موهوبة للإنسان

الخطي في المسيح، وذلك في المقالات (2:69 و70، 1:35 و49، 2:67 إلخ)

فالالاهوت والمسيحية حقيقة متجذرة في فكرة الفداء!:

فدعوتنا للاتحاد بالله وقبولنا التبني كأولاد لله لا يمكن اكتمالها إذا لم يكن المسيح في استطاعته أن يمنحنا “ما هو له خاصة” ليعطيه!! فصل (1:12 و16 إلخ)، كما يتعجب برايت أيضاً من الردود المبكرة لبدعة بولس السموساطي (1:28، 2:13)، ولبدعة مقدونيوس (1:48، 3:24)، وبدعة نسطور (2:8 نقطة 3) وكثرة استخدام أثناسيوس كلمة الثيوتوكس كصفة للعدراء القديسة مريم (3:14 و29 وما بعدها)، ورده على بدعة أوطاخي (2:10 نقطة 6)، وتشديده المستميت على أن العبادة هي الامتياز الوحيد لله (أي أنه طالما نؤمن بعبادة المسيح فالمسيح إله)، (2:23، 3:32) (فنحن لا نبتهل أو نتضرع إلى مخلوق).

وأثناسيوس يتمسك بالإدراك الإيماني أن المسيح بلا خطية (3:33) وأخيراً يتمسك أثناسيوس في بحث متزن حذر بامتلاك المسيح لكل معرفة بشرية مثلنا (3:42 إلخ). [398]

ولقد قام كثير من العلماء بفحص وتحليل هذه المقالات الأربع على أعلى مستوى من التدقيق العلمي أمثال الأسقف كاييه Kaye في كتابه عن “مجمع نيقية - المجلد الخامس”.

كذلك قام بتحليلها العالم سيليه Ceillier في المجلد الخامس وكذلك دورنر في كتابه عن “العقائد الخاصة بالمسيح - الجزء الأول”.

أمّا الكاردينال نيومان فهو الذي قام بالترجمة ووضع العناوين للفصول، وذيل الترجمة بملاحظات ثمينة للغاية كما يقول روبرتسون، وتعتبر بحد ذاتها ركناً فنياً على أعلى مستوى من الاستفاضة والدقة.

وسوف نرجيء تقديم نماذج هذه المقالات إلى الباب الأخير راجين أن نقوم بترجمة هذه المقالات وإصدارها كملحق لهذا الكتاب نظراً لأهميتها اللاهوتية.

9 - خمس رسائل عقائدية لسيرابيون أسقف تمي:

أمّا الخطاب الثاني منها فهو يختص بالدفاع ضد الأريوسيين، وقد جاء ذكره، أمّا الثلاثة خطابات الباقية فهي عن الروح القدس:

في البداية يلزم لدارس التاريخ أن ينظر إلى الأمور المحيطة القريبة والبعيدة التي تدفع الحوادث خفية فتبدو وكأنها تحدث بلا سبب، في حين أن كل حركة في الكنيسة خاصة في هذه الحقبة الزمنية كانت تتحكّم فيها عوامل عديدة:

مقدونيوس أسقف القسطنطينية وتعاليمه عن الروح القدس:

لم يذكر كلُّ من سيرابيون أسقف تمي في أسئلته التي بعث بها لأثناسيوس، ولا أثناسيوس ذكر في إجابته على مدى الثلاث رسائل أي إشارة إلى مقدونيوس.

ولكن شكوى سيرابيون كانت من أنه قد انتشر بسرعة تعليم ضد الروح القدس يقول إنه مخلوق ولكن أعلى من رتبة الملائكة. وأثناسيوس يرد في منفاه من على بعد غير فاحص عن المثيرين لهذه التعاليم ومتغاضياً عن أسمائهم لأنه كان يرجو عودتهم، لأن مقدونيوس كان من جماعة النصف أريوسيين مع كل من باسيليوس أسقف أنقرة وكيرلس أسقف أورشليم، وهؤلاء كان يخاطبهم أثناسيوس بكل ود لعلمهم يعودون إلى الأرثوذكسية.

غير أن مقدونيوس بسبب خلافه مع الأريوسيين المتطرفين بزعامة أكايوس أنزل عن كرسيه في القسطنطينية في مجمع القسطنطينية نفسها وبتحريض من الإمبراطور قسطنطيوس بسبب نقله رفات والده قسطنطين من كنيسة إلى كنيسة أخرى مما اعتبره الشعب تعدياً على التقاليد، ولأن الإمبراطور قسطنطين كان مشاركاً لمجمع نيقية كبقية الأساقفة فاعتبروا ذلك أيضاً تحدياً لمجمع نيقية، وكانت مذبحه داخل الكنيسة، هذا بالإضافة أنه تسبّب في قتل مجموعة كبيرة من قوة الحرس الإمبراطوري بسبب عدم سياسته الحكيمة التي هيّجت الشعب ضد الحرس عندما استخدم القوة ضد الشعب (399).

وعندما أُقيل مقدونيوس سنة 360م بدأ يثير القلاقل وينشر تعليمه عن الروح القدس باعتباره خادماً كبقية الملائكة، وهذا كان في الحقيقة هو نفس تعاليم

(399) Sozom., *Early Hist. of Ch. Doctrine.*, Beth. Bak., pp. 212, 213.

الأريوسيين ولكنه تبناًها هو مركزاً على شخص الروح القدس: [إن الممثل الرئيسي لتعاليم الأريوسيين بالنسبة للروح القدس هو مقدونيوس]. [400]

هذا هو في الحقيقة السر وراء كتابة أثناسيوس ثلاث رسائل عن الروح القدس يدحض فيها (بدعة أريوس المقدونية) كونه خادماً مخلوقاً كبقية الملائكة. ويُلاحظ أن بداية تعاليم مقدونيوس بدأت رسمياً في سنة 360م، ولكنها كانت قد انتشرت قبل ذلك التاريخ بواسطة الأريوسيين.

كما يُلاحظ أن أثناسيوس بمجرد عودته من المنفى أقام مجمعاً في الإسكندرية سنة 362م وطرح فيه قضية التجديف على الروح القدس موضعاً صلتها بالأريوسية، باعتبار أن أصل هذا التجديف منشأه الأريوسية نفسها، هكذا:

[لأن هؤلاء الذين يدعون أنهم يعترفون بإيمان مجمع نيقية ويتجرأون على التجديف على الروح القدس، فإنهم بينما يدعون إنكارهم لهرطقة الأريوسيين يكونون قد احتفظوا بهذه الهرطقة في أفكارهم]. [401]

خطابات أثناسيوس عن الروح القدس:

يوضح فيها النقاط الآتية:

أن علاقة الابن بالآب توضح ضمن قانون مجمع نيقية، أمّا علاقة الروح القدس بالابن فهي قائمة بوضوح في الأسفار المقدّسة، هاتان هما المقدمتان المنطقيتان اللتان بنى عليهما أثناسيوس دفاعه عن ألوهية الروح القدس، معتبراً أن التساوي في الجوهر "الأوموؤسيا" بالنسبة للروح القدس أيضاً هو نتيجة حتمية.

فالروح القدس هو روح الابن وله نفس الاتحاد والوحدة معه كما للابن مع الآب، فإذا كان الابن غير مخلوق يصبح من المستحيل أن يكون الروح القدس مخلوقاً.

وبما أنه مستحيل أن يفصل الروح القدس عن الابن، لذلك يكون اعتبارهم الروح القدس مخلوقاً بمثابة إدخال طبيعة غريبة على الثالوث، وبهذا يهدمون عقيدة الثالوث المتحد.

(400) *Early Hist. of Ch. Doctrine*, Beth. Bak., pp. 212, 213.

(401) *Ibid.*

وخطأهم بخصوص الروح القدس هو نابع من خطأهم بالنسبة للابن، وهذا بالتالي يُنشئ خطأ تجاه الأب (2:1، 9:1 و21).

«فالثالوث الله واحد» (17:1) غير منقسم بل منسجم ومتحد.

وإن الحياة وكل المواهب التي يمنحها الروح القدس تجعله غير مخلوق بل إلهاً (22:1 و23).

ولا يوجد أي سند في كل الأسفار المقدّسة يشير - بأي طريقة - أنه ملاك (10:1-14).

والروح القدس ليس ابناً، ولكنه «منبثق» من الأب (16:1)، فالأب يُسمّى دائماً أب، والابن هو دائماً ابن، والروح القدس يُدعى دائماً الروح القدس (6:4).

فحينما نستقبل الحياة من الروح القدس، فالمسيح نفسه يسكن فينا، والأعمال التي يعملها فينا هي أيضاً أعمال الأب!! (19:1).

وكل الأشياء التي للأب هي أيضاً للابن، لذلك فالأمور التي يهبها الابن في الروح القدس هي عطايا الأب، وهي معطاة من الأب بالابن في الروح القدس (30:1). (يُلاحظ أن هذه هي العبارة التقليدية المميزة للذكوا الأخيرة لكنيسة الإسكندرية منذ بداية المسيحية!!)، والكل يأتي من الله الواحد (5:3).

والروح القدس هو صورة الابن، وقيل في الكتاب إنه ينبثق من الأب، لأنه يُشرق ويُرسَل ويُعطى بواسطة اللوغس (الكلمة) الذي هو من الأب (20:1)، فالروح القدس ليس غريباً عن الله (25:1).

وقد قيل إنه في الله نفسه ومن الله نفسه.

فلأن الابن من الأب، لذلك فهو واحد معه في الجوهر. لذلك يكون بالتالي الروح القدس هو واحد مع الأب في الجوهر...، وهو من ذات لاهوت الأب، وفيه يكمل الثالوث (25:1).

هذا هو التقليد القديم وتعاليم وإيمان الكنيسة الجامعة المسلّمة من الرب: «عمّدهم باسم الأب والابن والروح القدس.» (مت 19:28)

10 - كتاب المجمع De Synodes كتبه في نهاية سنة 359م:

ويعتبر هذا الكتاب آخر وأهم كتاب في مجموعة الكتابات التي كُتبت أثناء النفي الثالث في اعتبار العلماء، إذ يُحسب أنه مبادرة سلامية من أنثاسيوس للجماعة الذين يسمُّون بأصحاب عقيدة (التشابه) "الهوميون" وليس التساوي، أي ليس أوموؤسيون: mood عن sion بل أومويون mo...on ومبادرة أنثاسيوس تجيء متقاربة لكتاب هيلاري أسقف بواتييه عن "المصالحة"، وهيلاري كان حاضراً في مجمع سلوقيا في جانب الأغلبية، وقد أحدث كتابه الإيرينكون Eirenicon المسمَّى أيضاً De Synodes أثراً سريعاً وخاصة لدى باسيليوس الصغير (أسقف أنقرة) الذي أرفده بخطابات مماثلة.

وهذا الكتاب (الإيرينكون) المسمَّى أيضاً De Synodes ألفه هيلاريون أسقف بواتييه (رُسم سنة 353م) أثناء وجوده في المنفى من سنة 356م - سنة 359م في فريجيا بأسيا الصغرى على أثر رفضه التوقيع على مجمع ميلان، وقطعه لشركة أورساكيوس وفالنس، ولم يكف هذا اللاهوتي التقليدي البارع عن شرح كل الاصطلاحات الواردة في قانون مجمع نيقية والتي كانت غامضة على الأساقفة، بكل ما أوتي من قوة حتى كسب في الغرب (فرنسا) كل الذين أضرب بهم التذبذب الإيماني الحادث في البلاد بسبب الأريوسية. ويكاد هيلاري أن يكون هو العامل الأساسي في فرنسا لإضعاف شوكة الأريوسيين وإنقاص عددهم إلى قلة غير مذكورة، وظل هذا الأرثوذكسي الصميم يجاهد حتى تتيح سنة 360م قبل أن يرى رجعة العالم كله إلى حظيرة الإيمان المستقيم(402).

ولكن مما لا شك فيه أن "الأثر الكلي" في عملية المصالحة التي بدأها هيلاريون وامتد بها باسيليوس الصغير، كان ما أحدثته خطابات ورسائل واحتجاجات أنثاسيوس على الجماعة الأرثوذكسية الجديدة التي أعادت "عشرة أقاليم" إلى حظيرة "معرفة الله الحقيقية."(403)

(402) - J.G. Gazenove (Hilarius Pictav.)

- D.C.B., Under "Hilary of Poit."

- Early Hist. of Christ. Doctrine., p. 180.

(403) Hilar., De Synod. 63.

والكتاب تَمَّت كتابته في أول أكتوبر سنة 359م ما عدا الفصلين 30 و31 اللذين أُضيفا بعد موت قسطنطيوس، ويذكر أثناسيوس في الفصل 55 أنه إنما يسجّل الآن ما قد وصله للتو بعد أن كان قد أنهى كتابته، وهكذا بدأ يضيف أحدث ما يصله حتى يستكمل كتابة كل ما حدث في هذه المجامع، ولكن فاتته ما تمّ في 10 أكتوبر من هذه السنة - بعد أن ختم على رسالته "المجامع" ونشرها، وكيف استسلم كل المنديبين الذين حضروا المجمع سواء في نيقيا بأريمنيم أو سلوقيا ووقّعوا بإمضاءاتهم ما عدا قلة صغيرة ذهبت إلى المنفى، هذه هي الكارثة التي انتهت بها المجمعان.

فقد كان الهوميان، وهم الوسط الملتزمون بالتشابه: mo...on، في غاية الفلق والكآبة من نمو خطر جماعة الراضين كلية لوحدة الجوهر mood ع sion، الذين سماوا أنفسهم الأنوميان anomaean أي الراضين لمجرّد التشابه بين الآب والابن، ولم يكن أثناسيوس يعلم وهو يكتب كتابه أنّذاك أن التشابهيين = الهوميان Homaeon قد انفصلوا عن النصف أريوسيين، الراضين أو الأنوميان Anomaean، وقد تقرب بالفعل النصف أريوسيون من الإمبراطور، وابتدأ الإمبراطور يعطيهم في البداية أدناً صاغية - ضد الأريوسيين المتطرفين - ولكنه عدل بعد ذلك في آخر سنتين من حياته، وكانوا في غاية الشوق إلى تقرير عقائدي سليم عند ذهابهم إلى أريمنيم ونيس أو نيقا بتراقيا، وكانت هذه في اعتبارهم آخر محاولة لهم في هذا المجمع، ولكن لمّا أخفقوا في تحقيق آمالهم، ولمّا رفضهم الإمبراطور بل وأهانهم، كانت الضربة محزنة ومشينة لنفوسهم جدّاً، ولكنها كانت البداية التي فتحت طريقاً للنهاية، وصار هذا الإخفاق عينه هو العامل الأول لسقوط الأريوسية في النهاية كقوة في الكنيسة.

ويحدّثنا الكاردينال نيومان Newman عن ذلك: إن السبب في إخفاق النصف أريوسيين في توحيد صفوفهم في هذا المجمع لإملاء مبادئهم هي الدسائس والمكايد التي كان يحبها أورساكيوس وفالنس (404) في الغرب من جهة، ومن جهة أخرى

(404) أورساكيوس وفالنس:

يأتي ذكرهما كثيراً كزعماء حركة الأريوسية في الغرب، وهي الحركة التي سميت بالأريوسية المتطرّفة وباللاشبهية Ultra Anomoeans يقابلها في الشرق أكايوس الذي تزعم حركة الهوميان أيضاً، وهما كانا تلميذين لأريوس أثناء نفيه في الليريكوم (ألبانيا الآن) وهما اللذان تزعمتا اتهام أثناسيوس في بعثة مريوط، وكذلك هما اللذان تزعمتا حركة اتهام أثناسيوس في مجمع ميلان سنة 347م، وقد تزعمتا حركة الهوميان في الغرب، أي أصحاب عقيدة "التشابه" عوض "التساوي" في الجوهر وذلك للتضليل،

إفدوكيوس وأكاكيوس في الشرق!!

والعجيب أن الإمبراطور اختار أولاً مدينة نيقية Nicaea القديمة لكي يقف المجمع في التاريخ شبيهاً بمجمع نيقية الكبير، ولكن تحمّس باسيليوس (الصغير) واقترح على الإمبراطور أن يكون مكان الاجتماع في “نيقوميديا” - تيمناً بالمقطع الأول من الكلمة نيقية - وذهب الأساقفة فعلاً إلى هناك، ولكن الأمر المذهل أنه قبل أن يتم اجتماعهم حدث زلزال مروّع هدم المدينة وخرّبها في 28 أغسطس سنة 358م (405)، فرجعوا مرةً أخرى ونقلوا اجتماعهم إلى نيقية!! ولكنهم عدلوا عنها أيضاً وذهبوا إلى سلوقيا وتجمّعوا فيها في بلدة تسمى أسبيرا Aspera وهي مدينة في إيشوريا.

وقد خطّط (الهوميان) - أي أصحاب عقيدة التشابه - بحذق وقسموا المجمع إلى مجمعين حتى يضعفوا النصف أريوسيين، قسم غربي يجتمع في أريمينم ونصف شرقي يجتمع في سلوقيا بكليكييا، ولم يكن اختيارهم لسلوقيا إلاّ لعلمهم أن هناك قوة جيش كبيرة سوف تسندهم في مخادعاتهم وإرغامهم الأساقفة للتوقيع بالقوة والإرهاب.

كما اجتمع في سيرميم جماعة النصف الأريوسيين مع جماعة الهوميان (أصحاب عقيدة التشابه) الذين قرّروا “نصوص مجمع سيرميم الثالث” بحضور الإمبراطور قسطنطيوس، وهو الذي قدّموه إلى مجمع إريمينم، هذا المجمع سمّوه “المجمع التاريخي Dated” لأنه أصدر نتائجه في عشية عيد حلول الروح القدس، وكان نص العقيدة هكذا: “مشابه في كل شيء mo...on kat| p̄nta”، وكان هذا إشارة إلى تفوّق النصف أريوسيين بالرغم من محاولة فالنس للتخلّص نهائياً من كلمة المَحَاكّ المزعجة لهم mo...on والتي صمّم عليها الإمبراطور، إذ كانت قد بدأت تفتر

وقد كانا سريعاً الحركة، فقد قادا الحركة السلبية في مجمع أريمينم وبمجرّد انفضاضه أسرعاً للانضمام في مجمع نيقا (نيس).

أمّا فالنس فكان أصلاً أسقف مورسا في بانونيا ومات سنة 375م. أمّا أورسكيوس فكان أسقف سنجدونم (بلغراد). وكانا هذان الاثنان هما قلب الأريوسية من بعد أريوس.

N.P.N.F. IV. p. LIV, *Early Hist. of Chr. Doctrine* Beth. Bak. p. 179.

(405) وقد مات في هذا الزلزال أسقف نيقوميديا سيكروبيوس وتهدّمت الكاتدرائية العظمى.

العلاقات مع المتطرفين من الأريوسيين.

وقد أصدر باسيلْيوس أسقف أنقرة مذكرة يشرح فيها سبب إضائه على مقررات "مجمع سيرميم الثالث" "التاريخي"، موضحاً أن التشابه هو "تشابه مطلق" بين الابن والآب (406) معلناً قبوله لمقررات مجمع نيقية الكبير ما عدا اللفظ.

وعلى العموم يقول باسيلْيوس أسقف أنقرة إن "قانون المجمع التاريخي" باستخدامه كلمة "التشابه mo...on" قد فتح باب المراوغة والتحايل، فالأريوسيون يرغبون في هذه الكلمة لتكون وصفاً نسبياً يسمح بوجود درجات في هذا التشابه، فإن ما هو "شبيه" هو كقضية مسلمة أو بديهيًا "غير مشابه" إلى حد ما!! (فصل 63).

لهذا فإن جماعة باسيلْيوس اضطروا أن يدخلوا في تجديد النص المشار إليه "مشابه في كل شيء" فخذلوا، لأن مجمع أريمينم Ariminum رفض رأي النيقاويين ومجمع سلوقيا، كما رفض رأي النصف أريوسيين، أمّا الحوادث التي حدثت بعد ذلك فيشرحها أثناسيوس في الفصول (8-12).

وهكذا وفي نهاية هذه المراجع حدث الانشقاق الذي بشر بالانهيار بين النصف أريوسيين وبين الهومويونيين أي أصحاب عقيدة "التشابه".

ومن هنا بالذات بدأ أثناسيوس يعمل عمله ويعد ضربته القادمة في كتابه "المجامع"، مستخدماً قدرته في تحطيم الوصلة الاصطناعية التي كانت تربط بين متحفظي الشرق وبين جماعة الأريوسيين الذين صاروا خليطاً متبايناً بين أريوسيين متأصلين مثل إيزوبوس وفالنس، وأريوسيين متطرفين مثل إتيوس وإيونوميوس، وأريوسيين انتهازيين (بلا مبدأ) مثل أكاكيوس (أسقف قيصرية) وإيفدوكيوس ومن على شاكلتهم، وهؤلاء بالذات كان يعتبرهم أثناسيوس أعداءً ألداءً ينبغي كشفهم ودحرهم بلا أي فرصة للتقابل أو التفاهم. أمّا المتحفظون فكان يرى فيهم إخوة لم يعرفوا بعد أين يضعون أرجلهم، ولهؤلاء يكون الشرح والتوضيح لازماً حتى يعود بهم إلى الدرب المستقيم الأصلي.

تعليق للقديس أثناسيوس:

[أما الذين ينكرون مقررات مجمع نيقية جملة فهذه الملاحظات كافية لكشفهم وفضحهم!

أما الذين يقبلون كل مقررات مجمع نيقية ويتشككون فقط في معنى التساوي في الجوهر Coessential فلا ينبغي أن نعاملهم كأعداء ولا نقصد أن نهاجمهم هنا كبقية الأريوسيين المجانين، فنحن لا نعتبرهم مقاومين لتقليد الآباء.

ولكننا نشرح الأمور لهم كإخوة لإخوة لأنهم يعنون ما نعني ولكن النزاع بيننا هو حول كلمة، مثل باسيليوس الذي كتب عن ذلك [407]

وهكذا قسم أثناسيوس فكره وعمله في كتاب المجامع إلى اتجاهين حاسمين نحو هذين الهدفين، كما حدث تماماً عند كتابة "الأربع مقالات" ضد الأريوسيين.

ولكن هنا في كتاب المجامع صوّب أثناسيوس عينه ناحية نقطة الضعف الجديدة ليضرب فيها سهمه:

أ - أما الهدف الأول عند أثناسيوس في كتابه "المجامع" فيختص بموقف الأريوسيين المتعنّت، ولهؤلاء قدّم حججه اللاهوتية مشيراً بسخط واضح إلى مكائدهم، ودراساتهم، وتخوّفهم، وافتقارهم إلى وحدة الرأي والمبدأ التي ظهرت بفضيحة مجامعهم التي لا تنتهي، وصيغهم اللاهوتية المتعدّدة (فصل 21-32).

وفي اختصار فضح موقفهم الأجوف تجاه معارضة صيغة مجمع نيقية (33-40).

تعليق للقديس أثناسيوس:

[يقولون عن مقررات مجمع نيقية "لأنها كلمة غير مكتوبة في الأسفار فنحن نرفضها"، ولكن من أين أتوا هم باصطلاحاتهم التي اخترعوها من غير الأسفار؟ فهم يقولون عن المسيح: "إنه من العدم"، "وأنه لم يكن موجوداً قبل أن يولد"، "وأنه قابل للتغيير"، "وأن الآب غير مدرك وغير منظور للابن"، "وأن الابن لا يعرف حتى طبيعته هو"، "وأنه يوجد ثلاث طبائع"،

(407) Athanas. *De Synod.* III, 41.

باسيليوس أسقف أنقرة وزميله كيرلس الأورشليمي كانا بمثابة الجناح الأيمن الأكثر علماً ورزاقاً في مجموعة النصف أريوسيين، وكانا يميلان إلى الرجوع إلى مجمع نيقية. N.P.N.F. IV, Athanas. p. LV.

“وأن المسيح ليس إلهاً”، “وأنه واحد ضمن المائة خروف”، “وأن حكمة الله لا تولد وليس لها بداية أمّا القوى المخلوقة فهي كثيرة ومنها المسيح”، “وأنه من طبيعة أخرى غير طبيعة الآب”، “أمّا بخصوص أن الابن واحد مع الآب في الوجدانية، وأن من رأى الابن فقد رأى الآب (التشابه) فذلك ليس بحسب الجوهر وإنما هو مجرد توافق المبادئ والتعاليم” هذا وغيره قد تقيّاه أريوس والأريوسيون.[408]

ب - أمّا الهدف الثاني في كتاب “المجامع” فكان النصف أريوسيين. فقد اعتنى أن يحقق ويؤيد ويبرر معنى الأوموسيون أي “التساوي أو الوحدة في الجوهر”، فقد حان الوقت لكي يدفعهم نحوها باعتبارها التعبير الوحيد الذي في الحقيقة يقصدونه هم في أنفسهم والسد المنيع الذي يقف في وجه هجوم الأريوسيين.

تعليق للقديس أثناسيوس:

[وهذا يكفي لكي نوضّح أن المعنى الذي يقصده الإخوة المحبوبون، ليس غريباً ولا هو بعيد عن معنى التساوي في الجوهر Coessential.

فهم يعترفون أن “الابن من جوهر الآب” “وليس هو من طبيعة أخرى”، “وأنه ليس مخلوقاً”، “ولا هو مصنوعاً”، “ولكنه ابنه أصلاً وطبعاً” “وأنه أزلي مع الآب لأنه كلمته وحكمته”.

إنهم فهم ليسوا بعيدين مطلقاً حتى عن أن يقبلوا التساوي.[409]

وهكذا يأتي الجزء الأخير من الرسالة “المجامع” كنهاية منطقية لسعي أثناسيوس المتواصل من جهة استرجاع الأرثوذكس. أمّا القصد الأساسي من رسالة “المجامع” فهو فضح مبادئ الأريوسيين وتعريفها من كل أفتنة الخداع وكذلك فضح تذبذبهم، وهذا بطبيعة الحال يخدم في النهاية خلع النصف أريوسيين الذين أصبح أثناسيوس شديد الأمل في عودتهم إليه.

ولكن كان رجاء أثناسيوس من جهة هذا الأمر أكثر من سرعتهم في التحرك

(408) Athanas. *De Synod.* III, 36, 40, 45.

(409) *Ibid.*, 43, 41.

والافتتاح، فالمستقبل كان لا يزال يحمل الأعاصير. لأن ما حصل في هذه المجامع وما انتهت إليه كان انتصاراً للأريوسيين من كافة الوجوه. لأن قبول الغالبية العظمى للأساقفة المجتمعين في مجمع سلوقيا لمقررات الأريوسيين التي أصدروها في مجمع نيقيا بأريمنم وانتصار أكايوس وأفدوكيوس بانضمام الإمبراطور أكثر فأكثر نحوهم (فصل 30-31)، وانفصال باسيليوس أسقف أنقرة عن الإمبراطور (410) وسطوة وانتصار الأريوسية بقيادة فالنس، كل هذا ولأول وهلة يعتبر موقفاً مؤسفاً حزيناً تجاه تطلعات رسالة "المجمع" في فكر أثناسيوس وأمله!

ولكن بالرغم من أن هذا كله قد حدث فعلاً، إلا أن أثناسيوس كان على حق في أمله وتطلعاته، فقد كان يؤدي دوراً نبيلاً!! ففي رسالة "المجمع" ارتفع أثناسيوس فوق نفسه!! وكانت النتيجة أن استجاب الله في لحظة وأوقف هذا الشغب، فالمحبة التي ترجو كل شيء لا بد أن تتبرر في كل ما تعمله وتتزكى (411).

وقد حدث أن ليس معظم النصف أريوسيين فحسب (59 أسقفاً مرة واحدة انضموا إلى شركة أثناسيوس سنة 365م) قبلوا "الأوموؤسيون" مرة أخرى، بل وآخرون كثيرون حملوا لواء المناداة برفع قضية مقررات مجمع نيقية إلى منتهى انتصارها في كل الشرق.

وحدث أيضاً أن رافق باسيليوس (الأصغر) أسقف أنقرة من مجمع سلوقيا إلى القسطنطينية شاب شماس ناسك، كان يقرأ كثيراً لأثناسيوس ويتحمس لكل أفكاره ويحفظها، وكان هذا الشاب الصغير هو بحكم المستقبل اللاهوتي الكبير باسيليوس الكبير أسقف قيصرية!!

وهذا الشاب نفسه وهو في حماسه لرسالة أثناسيوس "المجمع" يكتب مقتبساً نفس ألفاظ رسالة "المجمع" (52:3).

[نحن نعتزف بإله واحد، واحد في طبيعته وليس بالعدد، لأن العدد يرتبط بمرتبة الكمية، وهو ليس يشبه أو لا يشبه لأن هذين الاصطلاحين يتبعان مرتبة الصفة (فصل 65) .. والذي هو إله "بجوهره" فهو يكون "مساوياً في

(410) Theodoret. ii, 27.

(411) Gwatkin (Studies, p. 176, Ar. Controv. p. 98).

الجوهر” الله الذي هو إله جوهرياً، فإن كان لي أن أقرّر رأيي فأنا أقبل اصطلاح “مشابه في الجوهر” بإضافة كلمة “تماماً” كمماثل في المعنى لكلمة مساوي في الجوهر Coessential ولكن كلمة “مشابه تماماً” بدون كلمة “الجوهر Essence” أنا أشك فيها!!

وبناءً عليه فإن كلمة Coessential “مساو في الجوهر” كونها اصطلاحاً غير قابل لسوء الاستخدام فأنا أيضاً أقبلها!][412)

ولم يكن باسيليوس الكبير يعبر عن مجرد رأيه ولكن كان بانفتاح وعي ووضوح ببرر ويزكي نظرة الكثيرين من نحو أثناسيوس في رسالة “المجامع”.

وأخيراً كان ينبغي على روبرتسون - الذي قدّم للطبعات الحديثة لأثناسيوس - أن لا يأخذ على أثناسيوس عدم دقته في سرد أخبار المجامع أو في تعليقه السريع العنيف(413)، وهل ينسى ما ذكره أثناسيوس بنفسه أنه إنما كان يكتب الأخبار ويصفها وينقدها بسرعة لحظة وصولها، ثم يصحّح أخباراً قد سردها على أخبار أدق تكون قد بلغته بعد الكتابة؟

كل هذا لا يدع مجالاً للناقدين أبداً أن يسترسلوا في ما كان ينبغي وما كان لا ينبغي، لأن أثناسيوس كان يحارب كفتى ابن العشرين مع أنه قد ناهز الآن الستين من عمره!! وقد حان له أن يكسب المعركة بالفعل، وكانت رسالة “المجامع” هذه هي الإسفين الأخير الضاري الذي أودى بهرطقة الأريوسيين التي كانت قد طغت على الإمبراطورية الرومانية كلها وعلى كراسي أساقفة الدنيا بأسرها، وأملت شروطها على العالم باستثناء أثناسيوس!! ومعه مصر!!

وإلى هنا تنتهي كتابات أثناسيوس التي ألفها أثناء منفاه الثالث.

وفي الحقيقة إن كل أعمال أثناسيوس أثناء هذا المنفى هي كتاباته وكتاباتة وحسب!! ولذلك تعتبر رسالة “المجامع” نهاية أعمال أثناسيوس التي بها أيضاً أنهى زمان منفاه.

(412) Basil Ep. pp. 8,9 (The Greek in Gwatkin Studies p. 242).

(413) Robertson N.P.N.F. IV p. 449.

ولكن أثناء ما كان أثناسيوس منعكفاً في مغائر الرهبان ومخابئ العلمانيين يكتب
كتبه ورسائله، كان العالم يموج بحركات الأريوسية كما سمعنا في رسالة “المجامع”
التي أوصلتنا بدورها إلى الالتحام مرةً أخرى بالأريوسيين على مسرح التاريخ.

ماذا كانوا يعملون في الخفاء والعلن؟

وكم من المجامع عقدوا؟

وكيف انتهى أمرهم إلى التمزُّق ثم الانهيار؟

هذا ما نقدّمه للقارئ في الصفحات القادمة.

_____ ⊆ † ⊇ _____

العالم المسيحي في غياب أثناسيوس غرباً وشرقاً:
أحزاب ضد أحزاب، مجامع على مجامع، وقوانين تلغي قوانين
دسائس وقتل ونفي بحثاً عن الإيمان!
ماذا بعد نفي جميع الأساقفة الأرثوذكس؟

أولاً: بعد مجمع أريمينم Ariminum وسلوقيا: “عن سقراط”

تعليق للقديس أثناسيوس:

إدعون لمجمع عام ويحدّدون ميعاده والكل يتطلّع
إليه!!

وفجأة ينقسم إلى مجمعين هذا يجتمع هنا وذاك
هناك! .. الذي يقلقنا هو عدم اللياقة التي تقود هذا
المجمع الكبير!!

وما الذي دهاهم حتى يجروا العالم كله معهم في هذا
الاضطراب؟؟

رجال الكهنوت الذين يحملون العقيدة والإيمان يجرون
هنا وهناك!

يبحثون من جديد عمّا يمكن أن يؤمنوا به في ربنا
يسوع المسيح!

قطعاً لو كانوا مؤمنين حقّاً ما ذهبوا يفحصون عمّا
يؤمنون به! فأظهروا أنفسهم وكأنهم غير مؤمنين!
يا لعثرة الموعوظين، ويا لشماتة
الوثنيين!! [414]

كان عقد مجعني أريمينم وسلوقيا هو خطة للإقرار والموافقة على قوانين مجمع
سيرميم. وقد أقيما معاً لنفس الغرض وفي نفس السنة، ولكن حقيقة ما انتهى إليه
مجمع أريمينم هو معارضة صارخة لقوانين سيرميم وذلك من أغلبية الأساقفة،
وتمسّكهم بقرارات مجمع نيقية الكبير، أمّا مجمع سلوقيا فقد انتهى بمعارضة صارخة
أيضاً لقوانين مجمع سيرميم وتمسّكهم بقرارات مجمع التدشين (بأنطاكية).

بمجرّد أن اطمأن الإمبراطور على نتيجة مجمع ميلان (الذي لم يضم من أساقفة

الشرق إلا عدداً ضئيلاً جداً)، وتخلّص من الأساقفة المناوئين، قرّر عقد مجمع عام يستدعي فيه أساقفة الشرق إلى إيطاليا حتى يستطيع أن يجمعهم في وحدة ووافق معاً على نصوص جديدة للإيمان.

ولكن بسبب بعد المسافة وطول الرحلة قامت صعوبات وعراقيل، أشار الإمبراطور إلى تقسيم المجمع إلى قسمين، قسم غربي وهم الأساقفة الذين في ميلان (حالياً)، هؤلاء يجتمعون في أريمينم Ariminum في إيطاليا أيضاً، أمّا أساقفة الشرق فأمر أن يجتمعوا في نيقوميديا في بيثينية بآسيا الصغرى.

وكان قصد الإمبراطور من هذا التقسيم أن يسهّل عملية توحيد الكلمة، ولكن مجريات الأمور أثبتت العكس، لأن كلاً من المجمعين لم يكن في وفاق حتى مع نفسه.

فالذين اجتمعوا في أريمينم اختلفوا معاً، والذين اجتمعوا في سلوقيا (نيقوميديا) أصابها زلزال قتل أسقفها وهدم كاتدرائيتها قبل اجتماع الأساقفة مباشرة، فاضطروا للانتقال إلى سلوقيا عاصمة إيشوريا)، وهؤلاء أيضاً انقسموا على أنفسهم.

مجمع أريمينم:

انعقد في 22 مايو سنة 359م (415)، وهو التالي بعد المدعو سيرميم الثالث أو “المجمع التاريخي” بسبب وقوعه في يوم عيد الخمسين.

لما التأم شمل الأساقفة في أريمينم (400 أسقفاً) قام أساقفة الشرق وأعلنوا أنهم عازمون على أن لا يثيروا موضوع أثناسيوس وسيعبرون عليه في صمت، والعجيب أن هذه الغيرة والحماس وجدت قبولاً من أورساكيوس وفالنس اللذين كانا مناصرين لأريوس، ولكن معروف أنهما قدّما للأساقفة في روما نص إقرار، وسحبا نفسيهما من جانب الأريوسيين، وأعلنا قبولهما للهوموؤسيون “المساواة في الجوهر” علناً، وهذان الأسقفان معروفان أنهما انتهازيان، ودائماً مع صف الأغلبية، وانضم لهما بنفس الحماس جرمينيوس وأوكسنتيوس وديموفيليوس وغايس مؤيدي أثناسيوس.

ولكن لما بدأ الانقسام في وسط الأساقفة وابتدأ كل فريق يقول رأياً مخالفاً الآخر، انتهز الفرصة كل من أورسაკيوس وفالنس وأعلننا أن كل التسويدات المتتابعة التي تمت لمحاضر القانون الإيماني يلزم أن تلغى كلها ويبقى الأخير فقط الذي أقره في “سيرميم”، وأن يعتبره أنه هو الصيغة القانونية الوحيدة، وبدأ يقرآن من ورقة في أيديهما قانوناً آخر تماماً أجازوه في “سيرميم” وأبقياه سرّاً حتى أعلنه فجأة في “أريمينم” وترجماه من اللاتينية إلى اليونانية - وينطوي أساساً على حذف كلمة المحك القانونية “الهومووسيون” ولا يؤكّدون إلا على التشابه بين الابن والآب!

وبمجرد أن سمع الأساقفة الأرثوذكس هذه القرارات قاموا في الحال غير راضين وقالوا للمجمع: “نحن لم نأتِ إلى هنا لأننا كنا في حاجة إلى قانون إيمان، فنحن نحفظ بما تسلمناه منذ البدء بدون أي تحريف، ولكننا جئنا هنا لكي نوقف ونقمع كل بدعة أضيفت على الإيمان.

فإذا كان الذي تُلي الآن علينا لا يحوي أي شيء مبتدع، فليصر في الحال حرمٌ علنيٌّ للهرطقة الأريوسية! بنفس الوضع الذي سبق القانون الكنسي أن رفض به جميع الهرطقات باعتبارها تجديدًا. لأنه قد صار واضحاً لدى كل العالم أن العقيدة الكفرية التي لأريوس قد تسببت في اضطراب الكنائس وكل المتاعب حتى اليوم.”

ولكن انبرى كل من أورسაკيوس وفالنس وجرمينيوس أسقف سيرميم وأوكسنطيوس أسقف ميلان (الذي جلس على كرسيه من بعده الأسقف أمبروسيوس) وديموفيليوس وغايس ورفضوا هذا الكلام ومزقوا وحدة صف الأساقفة تماماً!

في حين أن الباقيين أكدوا قانون مجمع نيقية، وهزأوا من التوقيع على القانون الذي قُرئ عليهم، وقرأوا على المجمع خطاب أثناسيوس الذي أُلّفه عن المجمع وما حدث أمامهم في مجمع أريمينم!

تعليق للقديس أثناسيوس:

[من ذا الذي لا يهلل لأمانة ضمير هؤلاء الأساقفة الذين تحمّلوا مشاق السفر وأخطار البحر وهم في غاية الرضى، لكي بعزيمة مقدّسة وتصرف قانوني يُسقطون الأريوسيين ويحرسون تحديدات إيمان الآباء دون أن تُمس، لأنهم أدركوا إذا ما هم هدموا أعمال الآباء فسوف يأتي بعدهم من يهدم

ملاحظات هامة:

والعجيب لنا جداً أن المؤرخ سقراط يروي مباشرة أن هؤلاء الآباء الأرثوذكس قرأوا في المجمع علناً خطاباً وصل من أثناسيوس لهم يدحض أعمالهم ويعلق على ما جرى بالفعل داخل المجمع بكل حوادثه، وهو رسالة “المجامع” فصل 8! وهذا مما يذهل العقل.

فرسالة المجامع كُتبت فعلاً في سنة 359م، ومجمع أريمنيم اجتمع في نفس السنة 22 مايو سنة 359م، فهل بهذه السرعة بلغت أثناسيوس أخبار انعقاد المجمع وما جرى فيه، فأرسل في الحال رسالته لتقرأ في مياعدها رداً على ما حدث وكأنه واحد منهم، وما هذه الغيرة العجيبة لهذا الأسقف ذي الستين عاماً؟ ولكن يقولون إن أثناسيوس ذهب إلى هناك بالفعل وحضر عن كذب هذه المجامع سواء في أريمنيم أو سلوقيا، ويلمّح هو عن هذا بالفعل عندما يقول في أول الكتاب: “وقد عازمت أن أعطيكم تقريراً عما رأيت بنفسي”.

وبعض المؤرخين يعتقد أنه كان يرحل إلى أي مكان محمولاً بقوة إلهية إعجازية!!

وبناءً عليه، فقد قرّر المجمع إسقاط كل من أورسაკيوس وفالنس وأوكسنتيوس وجرمينيوس وغايس وديموفيلبيوس لرفضهم توقيع الحرم على عقيدة أريوس، ولكن هؤلاء عادوا فاعتذروا وسحبوا تأييدهم للأريوسيين فقبلوهم في الشركة - ولشدة سخطهم بسبب إسقاطهم أسرعوا إلى الإمبراطور مباشرة حاملين معهم عرضاً لقانون الإيمان الذي قرئ في المجمع (417).

تعليق للقديس أثناسيوس:

[أي ثقة من بعد ذلك يمكن أن توضع في أعمال هؤلاء الأساقفة!! بعد أن نقضوا أعمال آبائهم، فكيف يُدعون بعد آباء!!
وماذا سيعلمون شعبهم، بعد أن أقرروا أن آباءهم كانوا مخطئين!!

(416) Athanas. *De Synod.* I, 13.

(417) Socrate., *Ecc. Hist.* II, 37.

ومنْ ذا الذي سيطيّعهم، بعد أن عصوا هم معلّمهم!!
وكيف يُدعَوْنَ أساقفة، بعد أن أقرّوا هرطقة مَنْ رسموهم!![418]

ملاحظة:

يقول العالم وليم برايت إن هذا القانون الذي أسموه “القانون الكاثوليكي” غشاً يحوي أن ابن الله مخلوق(419) مع مخالفات أخرى.

عشرون من الأساقفة يحملون توصيات المجمع إلى الإمبراطور:

وقد أرسل الأساقفة خطاباً إلى الإمبراطور يوضّحون فيه تمسّكهم بإيمان مجمع نيقية وتقاليد الآباء، كما يوضحون الأعيب جماعة أورساكيوس وفالنس، وكيف أنهم بعد أن أسقطوهم من رتبهم بسبب رفضهم لحرم بدعة أريوس عادوا فاعتذروا وتابوا وقدموا موافقتهم على الإيمان الأرثوذكسي، ثم بعد ذلك ارتدوا بأسرع مما اعتذروا، لذلك رفع الأساقفة صوتهم للإمبراطور بأنهم يقطعون هؤلاء المنافقين من شركتهم، ويطلبون سرعة العودة إلى بلادهم لأسباب ضعفهم ومرضهم وحاجة كنائسهم إليهم(420).

ولكن للأسف أسرع أورساكيوس وفالنس قبل أن يصل العشرون من الأساقفة المندوبين عن مجمع أريمينم وأوغروا صدر الإمبراطور.

رد الإمبراطور على رسالة الأساقفة:

فكتب الإمبراطور خطاباً تهجماً يرفض رأيهم ويطلب أن المندوبين العشرين عليهم أن ينتظروا ذهابه إلى أدرينوبل وعودته من هناك، وعليهم هم جميعاً أن ينتظروا أيضاً في أريمينم حتى عودته ليملي عليهم ما يختص بأمر (الإيمان).

وقد اجتمع الإمبراطور في أدرينوبل في بلدة نيقا أو نيس Nicaea في تراس مع أورساكيوس وفالنس ووفد من أساقفة آخرين من أتباعهم وأعادوا صياغة قانون “المجمع التاريخي” وحذفوا كلمة كل شيء من “يشبهه في كل شيء”.

(418) Athanas. *De Synod.* 1:18.

(419) *D.C.B.* Athanas p. 197.

(420) Socrate, *Ecc. Hist.* II, 37.

رد أساقفة مجمع أريمنيم على الإمبراطور:

وفي الحال أسرع الأساقفة برسالة احتجاج لحجزهم، يؤكّدون فيها عزمهم على التمسك بالإيمان المسلم إليهم من الآباء حسب التقليد، وأنهم لن يتزحزحوا عن موقفهم، ويطالبون مرّة أخرى بسرعة العودة قبل حلول الشتاء! (421)

رحيل الأساقفة بدون إذن الإمبراطور:

وبعد عشرة أيام ولمّا لم يصلهم الرد، سافر الأساقفة كلٌّ إلى بلده! (422)

الإمبراطور يختلق الاتهام للأساقفة بسبب رحيلهم:

وإذ كان معروفاً لدى الأساقفة أن الإمبراطور قد صمّم منذ زمن أنه ينوي نشر العقيدة الأريوسية في جميع الكنائس، وكان قلقاً من جهة ضرورة تفوّقها، لذلك وجد في رحيلهم بدون أن يعطيهم إذناً بذلك أنه بمثابة إهانة، مدّعياً أنهم عاملوه باحتقار خاصة أنهم فضوا المجمع دون أن يكملوا رغباته! (423)

أورساكيوس ورفقاؤه يحصلون من الإمبراطور على تفويضات فوق العادة:

وبسبب ذلك فقد أعطى الإمبراطور صنيعته أورساكيوس وفريقه تفويضاً غير محدود! أن يصنعوا كما يشاءون في ما يختص بأمر الكنائس.

كما أمر الإمبراطور أن قانون الإيمان المعدّل والمقروء في أريمنيم ينبغي أن يسلم لجميع كنائس إيطاليا، مهدّداً أن كل مَنْ لا يوقّع عليه يُخلع من كرسيه ويحل محله آخر (424).

الزمن الحقيقي لنفي ليبريوس:

وهنا في هذه الفترة الزمنية بالذات، رفض ليبريوس التوقيع على قانون أريمنيم المعدّل (سيرميم الثالث)، الذي يقول فيه إن الابن مخلوق، فأرسل إلى المنفى.

فيلكس يخلف ليبريوس في الحال:

فقام أورساكيوس بتنصيب فيلكس (شماس أصلاً في نفس الكنيسة) أسقفاً على

(421) Socrate, *Ecc. Hist.* II, 37.

(422) Ibid.

(423) Theodoret, *Ecc. Hist.* II 16.

(424) Ibid.

روما بسبب أنه اعتنق المذهب الأريوسي علناً.

وهكذا نفى كثيرين من الأساقفة واستخدم العنف ضدهم وصار اضطراب عظيم في كل كنائس الغرب(425).

مجمع سلوقيا في إيشوريا في الشرق(426):

وكان هذا المجمع أيضاً بأمر الإمبراطور ليكون مماثلاً نظيره في أريمينم في الغرب. وقد ترتب أولاً أن يُعقد في نيقوميديا في بيبثينية، ولكن زلزالاً مروعاً خرب المدينة وهدم الكاتدرائية ومات أسقفها، فتحوّلوا إلى "نيقية" القريبة، ولكن بدت أيضاً هذه الفكرة غير مريحة فتحوّلوا إلى طرسوس في كيليكيا، ولمّا لم تكن مناسبة هي الأخرى اجتمعوا أخيراً في سلوقيا في مدينة أسبيرا Aspera وهي عاصمة إيشوريا، وكان هذا في 27 سبتمبر سنة 359م/ 16 توت، في نفس السنة التي اجتمع فيها مجمع أريمينم، وكان عدد الأساقفة الحاضرين 160 أسقفاً.

ويضيف لنا المؤرّخ سلبيسيوس ساويرس (363-420م):

[وكان هيلاري أسقف بواتيه لا يزال موجوداً في بيبثينية مبتدئاً السنة الرابعة في منفاه، وقد أُجبر على الحضور بأمر اللفتنانت (أحد اثنين من رؤساء فريجيا) وأمر الحاكم العام - مع أن الإمبراطور لم يكن قد أعطى تعليمات تختص به، ولكن كان القضاة يعملون بالأمر الصادر من الإمبراطور لجمع جميع الأساقفة بسلطة القانون لحضور المجمع، ولكن كان هذا بتدبير من الله لكي يكون حاضراً في المجمع الذي سيناقش أمور الإيمان رجل مثل هذا متضلع في أمور الإيمان، وحينما وصل إلى سلوقيا قوبل من الأساقفة بحفاوة عظيمة وكان محط أنظار جميع الأساقفة، وقد كان نصيراً وشاهداً لإيمان نيقية، ودحض بدعة سابيلْيوس التي تقول بمجرد ثلاث أسماء في الثالوث لكي يضمن الوحدة في الله، وكان مندوباً من الغرب شاهداً لصحة الإيمان.] (427)

(425) Ibid.

(426) Socrate, *Ecc. Hist.* II, 39.

(427) Sulp. Sever. *Sacr. Hist.* ch 42.

وابتداً بعض الأساقفة في حضور ليوناس ضابط البلاط ولوريكوس رئيس فرق الجيش يطلبون معرفة أسباب الاتهامات التي وُجِّهت لبعض الأساقفة مثل كيرلس الأورشليمي ويوستانيوس أسقف سبسطية وباسيليوس أسقف أنقرة ومقدونيوس أسقف القسطنطينية، وهم الذين لم يحضروا أيضاً المجمع، كذلك الشكاوي المقدّمة ضد بعض الأساقفة (الأريوسيين وعلى رأسهم أكايوس نفسه). ولكن أوامر الإمبراطور جاءت بالبدء في فحص أمور اللاهوت، خوفاً من إلقاء التهم على الأساقفة الأريوسيين الذين أحضروا مشتكيهم معهم من كنائسهم. وهنا انقسم المجمع إلى فريقين، واحد أريوسي متطرّف يريد الدخول في فحص أمور الإيمان مباشرة بقيادة أكايوس أسقف قيصرية فلسطين ومعه جورج (المغتصب) أسقف الإسكندرية، ويورانيوس أسقف صور وأفدوكيوس أسقف أنطاكية وكان يناصرهم 32 أسقفاً! أمّا الفريق المضاد وهو الأغلبية، وهو نصف أريوسي (يتقرّب إلى الأرثوذكسية) ويرأسه جورج أسقف اللاذقية بسوريا، وهذا كان يلح على البدء بالمحاكمات، وبدأ فريق الأقلية بقيادة أكايوس يهاجم قانون مجمع نيقية علناً، ويطلب بإصدار قانون آخر كامل يلغي كلمة "الهوموؤسيون" و"الهومويسيون" أي كلمة "المساوي" و"الشبيه" كلية وكلمة "الأوسيا" أي الجوهر. ووقف مقابله فريق الأغلبية يطلب بالحفاظ على كل ما جاء في مجمع نيقية ما عدا اللفظ الشكلي لكلمة "الهوموؤسيون" على أن يُوضَعَ بديلٌ لها.

وظلوا يتفاوضون بعنف حتى المساء حينما وقف سلفانوس أسقف طرسوس وأعلن بحماس أنه ينبغي العودة إلى قانون مجمع التدشين الذي تمّ بأنطاكية سنة 341م.

وعند هذا انسحب أكايوس ومنّ معه سراً، وفي اليوم الثاني قرّر الأساقفة الباقون قانون مجمع التدشين ووقّعوا عليه، ووقّع الشمامسة الحاضرون موضع الأساقفة الغائبين!! (428)

أكايوس أسقف قيصرية يضع قانوناً جديداً للإيمان في مجمع سلوقيا:
وفي ثالث يوم اجتمع ثانية أساقفة أكايوس وانتقدوا تصرّف وأعمال الأساقفة

الآخرين، وأخذوا عليهم أنهم قفلوا على أنفسهم الأبواب! وأمضوا بأسمائهم عوضاً عنهم، واعتبروا أن هذا كله تعدى على قانون المجمع، وأن ما تمّ في غيابهم يُعتبر عملاً مشبوهاً.

وقد تعمّد أكايوس هذه الإثارات لكي يستطيع أن يملي بعد ذلك قانونه الذي كان قد أعدّه بنفسه وعرضه على ليوناس ولوريكوس ضابط الإمبراطور، وطلب معاونته على إقراره والتوقيع عليه عوض القانون الذي وقّع عليه أساقفة الأغلبية في غيابهم.

وفي هذه الأثناء حضر باسيلئوس أسقف أنقرة ومقدونيوس أسقف القسطنطينية، ولمّا رأى أكايوس أن هؤلاء أيضاً قد انضموا لحزب الأغلبية، أعلن أكايوس أنه لا ينبغي أن يحضر المجمع أساقفة يكونون تحت الاتهام قاصداً باسيلئوس ومقدونيوس. وبعد عراك طويل استقر الرأي على إبعادهما.

وانتهز ليوناس الضابط فرصة هدوء المجمع وبدأ فجأة يقرأ لهم مسودّة أكايوس الكاملة لقانون الإيمان الجديد!

وحصل نقاش واضطراب، انتهى بإسقاط أكايوس وتسعة أساقفة ممن معه، كما قطعوا من الشركة تسعة آخرين لأسباب تختص بسلوكهم.

وانفض المجمع، على أن الأساقفة الذين أُضيروا في المجمع اتجهوا إلى القسطنطينية لمقابلة الإمبراطور للشكوى عند عودته من الغرب(429)، وتبعهم وفد من الحزب المعتدل.

ثانياً: مجمع القسطنطينية ديسمبر سنة 359-360م

برجوع الإمبراطور من الغرب تجمّع حوله أكايوس وأتباعه أساقفة بيثينية، فبلغ عددهم حوالي 50 أسقفًا، وكان بينهم ماريوس أسقف خلقيدونيا وكذلك هيلاري. [وذهب هيلاري مع الوفد المعتدل إلى القسطنطينية وطلب مقابلة الإمبراطور ليتحاجج أمامه مع الأريوسيين، ولكن الإمبراطور وجبهة الأريوسيين رفضوا ذلك، وأعاد الإمبراطور إلى فرنسا خوفاً من تأثيره على الأساقفة باعتباره مثيراً للفتن ومزعجاً للشرق - غير أن القضية التي حكم بها ضده لم تُلغ، وقد حاول في فرنسا مراراً كثيرة أن يجمع شمل الأساقفة إلى عودة صحيحة وتوبة عن الماضي وتجديد بواسطة اجتماعات كثيرة عقدها هناك، وقد قاومه في ذلك كثيراً ساتورنينوس أسقف آرل، ولكن هذا عُزل أخيراً بسبب جرائمه الكثيرة .. وأخيراً استنتب السلام في فرنسا وضعفت شوكة الأريوسية هناك بفضل جهود هيلاري بمفرده .. وقد تبيّن في السنة السادسة من رجوعه إلى فرنسا!](430)

وعندما قوي الأريوسيون على الحزب الآخر، لأن معظمهم لم يذهب إلى القسطنطينية، أعادوا تثبيت قانون إيمان أريمنم التاريخي مع إضافات جديدة خطيرة كانوا قد بيّنوا لها من سنين، وهكذا تمّ انتصار الأريوسيين!!

تعليق للقديس أثناسيوس:

[في كل مجمع نصوصٌ تُحذف ونصوصٌ تُضاف!
مَنْ يبتغ هذا ولا يتيقّن أن عقولهم مبتعدة عن المسيح بل له خائنة!
دسّوا عقيدتهم في ثنایات قرارات مطوّلة، وأجهدوا أنفسهم حتى يضلّوا
عقول البسطاء!
وفي زحمة الكلمات وكثرتها خباؤا هرطقتهم .. فأطالوا الكلام باطلاً!
ومن كثرة مجامعهم وتخالف قراراتهم أثبتوا أنهم أضعف من أن يسينوا
إلى الحق!](431)

(430) Sulp. Sever. *Sacr. Hist.* ch.42

(431) Athanas. *De Synode* II 32.

ولكن كانت كل البلاد تنطلع إلى اليوم الذي فيه تنزاح عنها الأريوسية، ويعود للكنيسة أساقفتها الأمناء.

وقد حدث بعد إسقاط أفدوكيوس أسقف القسطنطينية أن اختاروا على كرسيها أسقفاً عالمياً ضليعاً معتدلاً اسمه ميليتيوس، وكان أرمنياً، فلمَّا جلس على الكرسي ألقى أول عظة كلها حماس ووقار للأرثوذكسية مما أذهل أتباعه ومرافقيه، فاجتمعوا عليه وأسقطوه (432)، وقد احتفظ القديس إبيفانيوس بنص هذه العظة.

ولمَّا أسقطوه جاء بعده إيوزويوس الأريوسي الذي عمّد قسطنطيوس قبل موته.

[وبينما كان أساقفة الشرق في نقاش وحماس ودفاع مع الإمبراطور حضر "فالنس" ومعه توقيعات جميع أساقفة الغرب على قانون إيمان أريمنيم، وهكذا كان في مجمع القسطنطينية كل الفئات ممثلة: الشرق المتحفّظ بزعامه باسيليوس أسقف أنقرة، والشرق المتطرّف (أكاكيوس) والغرب يجمعه "فالنس" كله في يده! ولكن على الورق فقط، لأن قلب الغرب كله كان ضد الإمبراطور وكل مقرراته، بل وكانوا في طريقهم للمناداة بيوليانوس إمبراطوراً على الغرب.

ولكن على كل حال لم يكن التوقيع النهائي من الجميع أمراً سهلاً، إلاّ تحت تأثير تهديدات الإمبراطور ووعوده المعسولة بالكراسي الجديدة التي أُطيح بأصحابها!!

وأخيراً وفي آخر ليل في آخر ديسمبر سنة 359-360م أخذت الموافقة النهائية. [433]

وبمجمع القسطنطينية هذا تكون عدد المجامع التي تمّ الإعداد لها بعد مجمع نيقية، وأخرجت قوانين وقوانين معدّلة هي كالآتي:

- 1 - مجمعان في أنطاكية عند تدشين الكنيسة آنذاك (434).
- 2 - مجمع ثالث عقده قسطنس في الغال (فرنسا) بواسطة الأسقف

(432) D.C.B. Athanas p. 197, Epiphan. Hear. 73. 29.

(433) N.P.N.F. IV Athanas. p. lvi.

(434) Socrate II, 10.

نارسييس(435).

3 - المجمع الرابع عقده أساقفة الشرق لتوضيح إيمانهم وكتبوا نسخة من قانون إيمان مطوّل أعدوه، وسلّموه لأساقفة إيطاليا بقيادة أفدوكيوس(436).

4 - مجمع خامس وسادس وسابع في "سيرميم"(437) ثم أعيد السابع في أريمينم وصار اسمه "سيرميم الرابع".

5 - مجمع ثامن بقيادة أكاكيوس في سلوقيا(438).

6 - مجمع تاسع وهو الأخير في القسطنطينية(439). وهو الذي حُرّم فيه كل مَنْ يقول بالطبيعة أو الجوهر عامة.

ويقول القديس جيروم عن منجزات الأريوسيين في سنة 360م خاصة بمجمعي أريمينم وسلوقيا هكذا:

[وكان العالم كله يئن ويتوجّع ويتعجّب كيف (ولماذا) وجد نفسه قد صار كله أريوسياً؟](440)

ويخبرنا المؤرّخ سلبيسيوس ساويرس، وهو يتكلّم كمعاصر لما رأى من حوادث، أنه في هذا الجو المملوء بالفوضى والتعدّي وضياع هيبة الإيمان وامتلاء الكنيسة بالشور، وجدت الغنوسية فرصة سانحة وجواً خصيباً لتدخل هي الأخرى ميدان التسابق في تحديد المفهومات الإيمانية والشروحات الإنجيلية، وبدأت في مصر. ولكنها استشرت أول ما استشرت في أسبانيا مختبئة تحت الممارسات والطقوس الروحية السرية على يد مارقوس المارق الذي كان من مواليد ممفيس، ولقد أغوى عُلية القوم من أغنياء وعلماء وطغى على بعض أساقفة أسبانيا - لأن أسبانيا بعد سقوط هوسبيوس وقعت كلها تحت الأريوسية (على يد الأسقف بوتامبيوس أسقف لشبونة - انظر تحت عنوان أنثاسيوس في منفاه الاختياري الثالث، مؤلفاته ودفاعه

(435) Ibid, II, 18.

(436) Ibid, II, 19.

(437) Ibid, II, ch. 30, 37.

(438) Ibid, II, ch. 41.

(439) Ibid.

(440) Jerome. *Dial. adv. Lucif.* 19. (Migne LXXII p. 172).

ولكن وفي هذه السنة بالذات، كما سبق وأوضحنا في صفحات 262-269 صدرت رسائل أثناسيوس بعنوان "المجامع". ويقصد بها مواجهة ما تمّ في أريمنم وما تمّ في سلوقيا، وقد بذل أقصى جهده ليخاطب ضمائر الأساقفة والخائفين الحائرين والنصف أريوسيين الذين ضلّهم الأريوسيون الضالعون، وأخذ يشرح كل ما غمض عليهم في قانون مجمع نيقية الكبير، ويفضح كفر الأريوسيين وضلالة تفكيرهم، وكان استخدامه للأسفار المقدّسة متقناً للغاية مع منطلق سليم وحماس إيماني مخلص وشعور بالمسئولية جعل رجوع الأساقفة سهلاً وبالجملة، وكانت توبة شاملة واعية غطّت العالم كله، ولكن بطيئة في حركتها! .. استغرقت عشرين سنة، فأخر مجمع عُقد وكان فيه الإعلان النهائي لانتصار الإيمان النيقاوي كان سنة 381م في القسطنطينية أيضاً(442).

صلاة لأثناسيوس

[وما تعلّمته أنا شخصياً وسمعت من رجال فتوى
وقضاء كتبته إليكم في كلمات قليلة،
وأنتم الذين بقيتم ثابتين على أساس الرسل
متمسكين بشدة بتقاليد الآباء؛ هل أسألكم الصلاة!
لكي بعد هذا المشوار الطويل يتوقّف النزاع، وتتوقّف
الخصومة، ويُقضى على كثرة تساؤلات الهرطقة
الباطلة مع حرب الكلام!
ويمنّ الله علينا بأن تختفي هرطقة أريوس أساس كل هذا
القتال والإثم!
ويشرق الحق في القلوب مرّة أخرى،
ويقول كل واحد في كل مكان قولاً واحداً! ويفتكر
شيئاً واحداً (1كو 10:1).
وعندما لا يبقى بعد عار الأريوسية،
حينئذ نقول ونعترف في كل كنيسة «رب واحد إيمان

(441) Sulp. Sev. *Sac. Hist.* 46.

(442) Beth. Bak. *op. cit.*, p. 187.

واحد معمودية واحدة.» (أف 5:4)
في المسيح يسوع ربنا الذي به للأب المجد والقوة إلى
دهر الدهور أمين. [443]

عودة مؤقتة من المنفى:

موت قسطنطيوس وظهور أثناسيوس في الإسكندرية:

والآن يكون قد انقضى على بدء نزاع الأريوسية 30 سنة! تحمّل عبئها الأكبر
ودفع ثمن جنونها وشذوذها وإرهابها القتال، أثناسيوس حتى النهاية ولا يزال أمامها
أيضاً عشرون سنة!!

ولكن نحن نهنيئ أنفسنا إذ قد بلغنا «نهاية المتاهة» (444) وقد رأينا كيف قد بلغنا
إلى اليقين عوض التذبذب والارتباك، وإلى الرتبة والنظام عوض الفوضى
والغموض.

ولا يتبقى أمامنا الآن من أعمال النفي الثالث لأثناسيوس في سبيل قضية الإيمان
بالمسيح سوى ختام المأساة الثالثة التي تنتهي برجوع مؤقت.

بينما كان الإمبراطور قسطنطيوس مقيماً في أنطاكية، دخل يوليانوس (ابن أخت
قسطنطيوس) في حرب مع البرابرة (إقليم الشمال)، ودحر جيشاً عظيماً منهم، فأحبه
الفرنسيون وأقاموه إمبراطوراً عليهم، فأعلن نفسه قيصرًا على الغرب يؤيده كل
الشعب، فلمّا علم بهذا قسطنطيوس (خاله) تألم غاية الألم وعزم على محاربتة بغاية
السرعة، وقبل سفره تقبّل المعمودية المؤجلة على يد الأريوسي إيزويوس وانطلق
بعدها لقيادة الحملة ضد يوليانوس، ولكن بينما هو يعبر جبال طوروس بدت عليه
علامات القلق الفكري والإنهاك العقلي، أصيب بعدها بالشلل (بانفجار شريان المخ)
فوقع ومات في 3 نوفمبر سنة 361م، بعد أن عاش 45 سنة (445).

وبموت قسطنطيوس صار يوليانوس إمبراطوراً على الغرب والشرق، وكان
مسيحياً ولكنه أنكرها منذ شبابه خفية وعاد إلى الوثنية.

(443) Athanas. *De Synod.* III: 54.

(444) Socrate II, 41.

(445) Socrate II, 47.

وقد أعلن في الإسكندرية رسمياً خبر تولّي يوليانس الإمبراطورية في 30 نوفمبر سنة 361م، وقد هُلل الوثنيون واعتبروها فرصتهم، فكان أول عمل عملوه أن قاموا على جورج الكبادوكي الأسقف الدخيل الذي لم يمضِ على وصوله الإسكندرية أكثر من شهر، وأخرجوه خارج الكنيسة وقتلوه في 24 ديسمبر سنة 361م، ما جاء بيانه في صفحة 264.

ولقد أصدر يوليانس إثر توليه أمراً بإرجاع كل الأساقفة الذين نفاهم قسطنطيوس إلى بلادهم (لم يقل إلى كراسيهم). ولم يكن ذلك منه توقيراً للكنيسة التي كان يكنُّ لها أشد البغضة، ولكن إظهاراً منه لاحتقار المناقشات التي دارت بين هؤلاء الأساقفة (الجليليين حسب تعبيره) وإمعاناً في الاستهزاء بقرارات الإمبراطور سلفه (446).

انتهز أثناسيوس هذه الفرصة، ولأول مرّة بعد ست سنوات ظهر ليلاً في الإسكندرية بصحبة لوسيفر أسقف كلاريس بسردينيا ويوسابيوس أسقف فرشلي بإيطاليا اللذين كانا منفيين في الصعيد بمصر، وكان ذلك في 22 فبراير سنة 362م، فكان فرح الشعب لا يمكن التعبير عنه!!

الفصل السادس
الجهاد حتى المنفى الرابع والخامس

مجمع الإسكندرية صيف سنة 362م (ملخص من خطاب أثناسيوس للأنطاكيين) "المسمى بطومس أنطاكية" (447)

لقد قضى أثناسيوس على كرسيه زمنًا سلامياً قصيراً للغاية، ثمانية أشهر قبل أن يأتيه الأمر الصارم بالنفي الرابع.

ولكن أثناسيوس اشتغل هذه الفترة بأقصى جهد لاستتباب أمور الكنيسة ليس في مصر فقط بل امتد عمله وبسرعة إلى خارج مصر، فأرسل خطاباً مجتمعياً (صادراً من مجمع الإسكندرية) هاماً للغاية إلى أسقف وشعب أنطاكية بخصوص الاضطراب الحادث هناك.

وأول عمل قام به أثناسيوس هو إقامة مجمع في الإسكندرية لترتيب وتوضيح أمور كثيرة في الكنيسة، وبذل مجهودات سلامية أصبحت الكنائس في أشد الحاجة إليها.

وقد سُمي مجمع الإسكندرية هذا الذي حضره 21 أسقفاً "بمجمع القديسين والمعترفين" لأن كلهم حضروا إما من نفي أو تعذيب!!

ولكن للأسف الشديد لم نعر في جدول أسماء الأساقفة الذين حضروه على اسم سيرابيون (فهل كان مريضاً؟).

وكان من الحاضرين استريوس أسقف بترا (البطراء الآن) ببلاد العرب، أبوليناريوس أسقف اللاذقية، الكاهن بولينوس الذي كان يرعى رعية يوستاثيوس الأسقف الأنطاكي في أثناء نفيه، كذلك يوسابيوس أسقف فرشلي، ووفد يمثل لوسيفر أسقف كلاريس، مع أساقفة مصر المشاهير مثل دراكونتيوس (صاحب الرسالة) أسقف هرموبوليس الصغرى (Hermopolis)، وأدلفيوس أسقف أونوفيس، وهؤلاء

(447) كلمة طومس mojzT تعني مختصر جلسة أو ملخص حقيقة عامة، وهي صارت مستخدمة عامة في جميع الخطابات الناتجة عن المجمع.

الأساقفة جميعاً كانوا رسلاً لأثناسيوس في كل مكان أثناء نفيه، وكان معهم ثلاثة أساقفة من آسيا الصغرى.

وكانت أهم الأمور التي عُرضت على المجمع:

1- مشكلة أساقفة مجمع أريمنيم الذين يريدون العودة إلى الإيمان المستقيم:

أصبح يوجد الآن عددٌ كبيرٌ من الأساقفة الذين يتأسفون من أعماق قلوبهم على ضعفهم وعلى اللامبالاة التي سلخوا بها في مجمع أريمنيم، فما هو الوضع الصحيح للتعامل معهم كمبدأ عام يكون من السهل تطبيقه في جميع كنائس العالم؟ (فصل 8و3).

2 - مشكلة انقسامات أنطاكية:

لأنطاكية ارتباطات عقائدية وودية مع الإسكندرية، ومع أثناسيوس بالذات، تجاه "اليوستاثيوسيين"، والآن قد أصبح من الضروري إعطاء نصائح لبولينوس ورعيته في أنطاكية، ثم تقرير وضع سلامي بين الفريقين المتنازعين هناك خاصة بعد تدخل لوسيفر لغير صالح السلام.

ولأن عودة ميليتس قد خلقت مشكلة، فبولينوس بسبب احترام إيوزويوس له لأنه كان ذا أخلاق عالية (448)، قد أُعطي له - أو رضي - أن يخدم في كنيسة صغيرة في حدود "المدينة الجديدة"، مع أن ميليتس يحتل كنيسة الرسل في المدينة العتيقة على نهر أورونتس Orontes.

3 - اصطلاح الهيپوستاسس (الأقنوم) Hypostasis:

الآن أصبح هناك فريقان يتنازعان على معنى كلمة "هيپوستاسس" (449)، فعدد

(448) أ - انظر Socrate E.H. iii, 6

ب - يُلاحظ أن الكاهن بولينوس هو الذي اختارته جماعة المعارضين لنفي أسقفهم يوستاثيوس سنة 330م، وظلوا متعصبين لأسقفهم طيلة هذه المدة بلا هوادة، وقد تحولوا جميعاً إلى الأرثوذكسية ولمصادقة الغرب والولاء لأثناسيوس الذي صلّى معهم وحدهم سنة 346م، انظر صفحة 169.

(449) يقول العلامة نيومان في كتابه عن الأريوسية [Arians e. 5. s. 1] أن معاني كلمة هيپوستاسيس

يمكن تلخيصها كالاتي:

(أ) حقيقة ثابتة.

(ب) جوهر كما جاء في عب 3:1.

(ج) شخصية.

كبير وخاصة الذين تخرَّجوا من جماعة “النصف أريوسية” تعودوا أن يؤيِّدوا بها المعنى: “ثلاثة هيبيوستاسس” في الله.

ولكن الأغلبية لا تزال متمسكة بالمعنى القديم الذي يؤكِّد أن في الله “هيبيوستاسس واحد”.

فالجماعة الأخيرة صاحبة “الهيبيوستاسس الواحد” (450) تتهم السابقين بالأريوسية، والسابقون يتهمون الآخرين بالسابيلية. فهل من عملٍ يُعمل لكي يمنع الانقسام؟

4 - ظهرت جماعة تريد التقليل من مفهوم التجسُّد إلى اتحاد بين الكلمة وبين فرد ذي بشرية مقدَّسة (451):

في حين أراد آخرون أن يختزلوا العنصر البشري في سر التجسُّد وذلك بأن يختزلوا من بشرية المسيح “النفس العاقلة”.

والعمل المطروح الآن أمام المجمع هو التوفيق والمصالحة، وهو عمل على غاية من المناسبة كما يقول غريغوريوس النزينزي في خطابه لأثناسيوس ولأساقفة الغرب.

وقد تقرَّر في المجمع:

أ - إن كل مَنْ خسروا حقوقهم في شركتهم في الكنيسة الجامعة يمكنهم استعادتها وذلك بالاعتراف بقانون إيمان نيقية. وبجدد كل هرطقة ظهرت في تلك الأيام (الفصل 8، 3)، وأن يعترفوا بالروح القدس أنه غير مخلوق وأنه من جوهر الأب والابن ضمن الثالوث (فصل 3).

ب - أمَّا بخصوص الجماعات التي تسكن في المدينة القديمة في أنطاكية أتباع ميليتس الأسقف، فهي عليها أن تتحد مع الجماعات الأخرى (تتصالح بالمعنى الأوضح) (فصل 3) المحسوبين أنهم أتباع يوستاثيوس بقيادة بولينوس.

وأن حرومات مجمع نيقية وُضعت على أساس أن معنى هيبيوستاسيس يفيد الجوهر.

(450) Theodoret. *Ecc. H.* ii, 8.

(451) بدعة نسطور المستقبلة!!

[ولكن للأسف الشديد لقد تسرّع لوسيفر وبدون تروّي، وبالرغم من نصائح أثناسيوس ونصائح يوسابيوس زميله في النفي، أن لا يتدخّل في شئون أنطاكية، فقد ذهب إلى هناك متحمّساً للفريق الأرثوذكسي بقيادة الكاهن بولينوس وأخذه ورسمه أسقفاً فأشعل نيران الفرقة بينه وبين الأسقف ميليتس وإيوزيوس (الأريوسي سابقاً)، فجاء عمل أثناسيوس وتحكيمه الحكيم بعد فوات الوقت!! بسبب حماقة أسقف قليل الدراية بسلامة النفوس وراحتها، سريع المدّ ليدّ بالرسامة دون مشورة الروح].(452)

ج - أمّا بخصوص اصطلاح الهيبيوستاسس، فالإيضاحات والاستفسارات المتبادلة (خاصة بين فئات أنطاكية المتنازعة) أقرت أن الفارق في المعنى هو نتيجة عدم فهم، فالذين يقولون "بالهيبيوستاسات الثلاثة" كانوا يقصدون [الثلاثة "أقانيم" الموجودة حقاً]، والذين قالوا بالهيبيوستاسس الواحد كانوا يستخدمون الاصطلاح الخاص بالجوهر Essence (453) sia-o، والمجمع يقترح ببساطة ضرورة استخدام لغة مجمع نيقية (الهيبيوستاسس = الجوهر) (454) لكلا الجماعتين، فإن الابن مساوي للآب في الجوهر، وإن الروح القدس غير مفترق من جوهر الآب والابن، والاعتراف بالثالوث الأقدس ووحداية جوهر الله.

د - أمّا بخصوص التجسّد، فبعد الفحص وجدنا أنه لا يوجد تدبير خاص لإنكار التجسّد الحقيقي للكلمة عند أي فريق، ولا هناك أي اتجاه يقلل من كمال وتمام الناسوت الذي اتخذه المسيح كما ذهب إليه الأريوسيون (فصل 7).

كذلك تحقّقنا من اعترافهم أن **المخلص لم يأخذ جسداً خالياً من نفس أو حواس وعقل**، لأنه لا يمكن عندما صار الرب إنساناً من أجلنا أن جسده يكون بدون عقل،

(452) Socrate III, 6.

(453) Epiphan. *Haer.* 73-17.

(454) وأيضاً يقول نيومان ووستكوت إن أثناسيوس في شرحه للكتاب المقدّس كان يستخدم هذا المعنى، أي أن الهيبيوستاسس = الجوهر، وهذا في الواقع بخلاف ما درجت عليه الكنيسة القبطية وكل كنائس الشرق التي تؤكّد أن الهيبيوستاسس هو الشخص أو "الموضوع"، وهذا أدق في المفهوم اللاهوتي من تعبير "البروسوبون Prosopon". وقد استخدمها كل من أوريجانوس وديونيسيوس الإسكندري وألكسندر الإسكندري وأثناسيوس نفسه في كتاباته الأولى حيث تفيد معنى "وجود ذاتي محدّد"، فهي أفضل ما يعبر به عن الأفتوم.

Theodoret (*Ecc. H. I, 4,1,19*) Newman (*Arians* app. 4), Socrate (*Ecc. H. iii, 7*) Zahn (*Marell. p. 87. sq.*).

والخلاص الذي حدث بواسطة الكلمة ذاته لم يكن خلاصاً للجسد فقط بل خلاصاً للنفس أيضاً!!

فهو “ابن الله” حقاً، وصار “ابن الإنسان”، وهو ابن الله “الوحيد”، صار “بكرأ” بين إخوة كثيرين.

5 - بخصوص الروح القدس:

كان مجمع نيقية قد اكتفى بالإيمان بالروح القدس بعد ذكر الأب والابن، باعتبار أن لاهوته أمر مفروغ منه لأن العمد المقدس يتم باسم ثلاث واحد أب وابن وروح قدس، ولم ينشغل مجمع نيقية بتفصيلات ذلك كما يقول أثناسيوس، لأن الكتاب المقدس يشهد بوضوح عن لاهوت الروح القدس.

كما لم يحدث أي نزاع أو إنكار بهذا الخصوص، إلى أن قام مقدونيوس أسقف القسطنطينية كصوت جديد من أصوات الأريوسيين وأذاع هذا الغضب الجديد. ولذلك قرّر مجمع الإسكندرية لاهوت الروح القدس ضمن وحدة جوهر الأب والابن موضّحاً الثالث لأول مرة بصورة قاطعة.

ويقول العالم وليم برايت:

[إن الخطاب المجعي Synodical Letter هذا، والمسمّى: بـ“طومس الأنطاكيين” الذي أرسله أثناسيوس إلى أنطاكية، أي للأسقف بولينوس ورعيته، يعتبر من أنبل الوثائق التي خرجت من المجامع طراً]. (455)

كذلك يقول القديس جيروم عن هذا المجمع:

[إنه بأسلوبه السلامي الحكيم انتشل العالم كله من فك الشيطان]. (456)

ويعود روبرتسون مقرظاً أيضاً هذا المجمع ويقول:

[نعم إذا كان حدث هذا حقاً ولو بأي مقياس، وأنه فعلاً ألغى الذلة والحقارة التي تسبّب فيها المجمعان التوأمان في الشرق (سلوقيا) وفي الغرب (أريمينم) سنة 359م، فالكرامة لهذا الإنجاز العظيم هي لأثناسيوس وحده.

(455) D.C.B, Athanas., 198.

(456) Jerome, *adv. Lucif.*, 20.

لقد أدرك أثناسيوس فعلاً أن الانتصار لا يُستحوذ عليه بالعنوة ولا بضرب الناس على وجوههم، الذين صاروا على استعداد للمصالحة والسلام، حتى لا تفرُّ من أيدينا قضية المسيح وتتباعد بسبب قصفنا للقنينة المرضوضة؛ وكتبم الفتيلة المدخنة بدل إشعالها! [...] (457)

ويُلاحظ الإنسان من هذا الخطاب الحكيم، ومن شدة الاتزان والهدوء اللذين صيغ بهما، أن أثناسيوس ليس هو المحارب الذي يشغف بالحرب بغية الانتصار وحسب، بل هو محارب يمهدّ الحقل للانتصار ليزرع فيه الوفاق والسلام في حينه الحسن!!

وهذا المجمع السلامي هو في الحقيقة أولى ثمرات "رسالة المجمع" التي تُعتبر الخطوة الحاسمة التي وضعت أثناسيوس على قمة القوى العاملة لوحدة الشرق المسيحي، هذه القوى التي بعد أن وُهبّت رئاسة متميّزة في "أب الأرثوذكسية"، صارت قادرة بنجاح أن تقاوم فلول الأريوسية التي عادت وانتعشت تحت سياسة الإمبراطور فالنس إلى أن طرحتها نهائياً بعيداً عن الكنيسة!!

وإن هذا المجمع بحكم العدل يعتبر تاجاً لأعمال أثناسيوس من جهة قراراته ومن جهة رسالته إلى أنطاكية، التي لا نخطئ إذا أكدنا أنها صادرة منه، ومنه وحده!!

وكان لا يستطيع أحد في الوجود غير أثناسيوس أن يسوس ويلطف النار المتقدة في صدور جماعة الأساقفة المجتمعين الذين جاءوا من مرارة النفي والتعذيب، حتى يستطيعوا أن يفرّقوا في قراراتهم بين متطلبات زمان الحرب ومتطلبات زمان السلم.

أثناسيوس في النفي الرابع والخامس 21 فبراير سنة 362م - أول فبراير سنة 366م [النفي 362-363 الإمبراطور يوليان، 363-366 الإمبراطور فالانس]

حدث قبل أن يعقد القديس أثناسيوس مجمعه في الإسكندرية، أن كان قد وصل إلى ولاية الإسكندرية رسالة الإمبراطور يوليان الجاحد (رسالة 26) ينبههم فيها أنه أمر برجوع الأساقفة إلى بلادهم وليس إلى كراسيهم!! (حجّة)، وأن أثناسيوس هذا الذي حُكم عليه عدة مرّات كان ينبغي له أن يستأذن في العودة، وعليه في الحال أن يغادر لا المدينة فقط بل مصر كلها، وإلاّ ستوقع عليه الغرامات.

ولكن عندما سمع كبار رجال الإسكندرية هذا أرسلوا رجوات كثيرة للإمبراطور دون جدوى - وبناءً على هذا الأخذ والعطاء بين أهل الإسكندرية والإمبراطور استمر أثناسيوس مطمئناً، وعقد مجمعه المشار إليه، وبقي مختبئاً في قبر أبيه ستة شهور.

وفي شهر أكتوبر - على ما يبدو - وصل من الإمبراطور خطابٌ آخر يعنّف فيه الوالي أكريكوس أوليمبوس، مهدّداً بغرامة شديدة إذا لم يغادر أثناسيوس (عدو الآلهة) لا الإسكندرية بل مصر كلها، هذا الذي تجرّأ في عهدي وعمد سيدات شريفات، أي رجعت من الوثنية إلى الإيمان بالله (رسالة 6).

ثم عاد وأرسل الإمبراطور رسالة أخرى (رسالة 51) إلى شعب الإسكندرية ممتدحاً الإله أبيس (هكذا) ومعنفاً العبادة المسيحية وأمرأً بطرد أثناسيوس في موعد أقصاه أول ديسمبر (458)! ناعتاً أثناسيوس “بهذا الزميل القصير الحقير”، معبراً بذلك عن شعوره الممتعض نحو أثناسيوس “أنه وقف ضد قسطنطيوس كملك يحارب ملكاً!” (459)، وأنه أصبح في مصر قوة أعظم من قوته وصاحب سلطان

(458) وصلنا أمر مشابه أن تغادر القاهرة في ظرف 24 ساعة على يد اثنين من المطارنة هما أنبا بنيامين مطران المنوفية السابق وأنبا مينا مطران جرجا الحالي فغادرناها إلى وادي الريان، ظللنا نعبد ونصلّي 10 سنوات حتى وصلنا أمر بالعودة فعدنا، والله الأمر أولاً وآخرأ.

(459) Greg. Nazianzy.

مع أنه في الحقيقة لم يُوات أحد هذه الفرصة السياسية ولم يستغلها قط كما فعل أثناسيوس، فبالرغم من هذا الاعتراف المغربي على الثورة فعلاً، إلا أن أثناسيوس، في هدوء، أحنى رأسه للعاصفة وانسحب من الإسكندرية أيضاً في الوقت المناسب (23 أكتوبر سنة 362م) قبل أن يفتحها الوالي بجنوده كما فعلوا في الماضي، ولكنهم لم ينتصروا أبداً...

ووقف أصدقائه يتوسلون إليه أن لا ينتهي أمام هذا الطغيان، ولكنهم كانوا مخطئين فأثناسيوس يرى ما وراء الغيوم، ورد عليهم: «إنها سحابة وسوف تنقشع» (460).

وركب قاربه النيل الخفيف واتجه مسرعاً نحو أعالي الصعيد، هذا الطير الرشيق ابن الخمسة والستين عاماً! ولكن كان الجواسيس يتتبعون! فلماً أحس هو بذلك وكان في عمق النيل قفل راجعاً فقابلهم في النيل وهم يسعون خلفه مُجدِّين مُجدِّفين! فلماً سألوه عن أثناسيوس رد عليهم بنفسه: «أسرعوا وراءه هو لا يزال أمامكم ليس بعيداً عنكم»، وترك كلاب الصيد تجري وتجري بلا طائل، وهذا المشهد الساخر يصفه أثناسيوس بنفسه (461)، أمّا هو فقفل راجعاً ونزل في مدينة قرب ممفيس تُدعى كايرو (462) Chaereu.

وبعد أن توقّف الخطر ورأهم وقد عادوا مخذولين وبات سعيهم عبثاً كالمعتاد، انطلق هو أيضاً في قاربه السحري بقيادة الرهبان الباخوميين الأشداء والأتقياء إلى أعالي النيل مرّة أخرى ... إلى مدينة هرموبوليس ومدينة أنتينوبوليس (أنصنا).

وبينما هو هناك حدثت هذه القصة المملوءة حقيقة كالخيال، ولكن إبداعها فطري منسجم يتوافق تماماً مع ما نعلمه عن بعض فئات الرهبان الموهوبين.

(460) Sozom. V, 14.

(461) Theodoret., *Ecc. Hist*, iii, 9., Socrate., iii, 14.

(462) *Vita Anton.*, 86.

كيف عاد أثناسيوس من منفاه بناءً على رؤيا

قصة الراهبين ثيودوروس وبامون بخصوص عودة أثناسيوس مع تحقيقاتها وتفرعاتها:

[هذه قصاصة من مخطوطة تحتوي على تقرير مثير لقصة رواها أثناسيوس لآمون أسقف باخنيمونيس Pachnemunis (مدينة عاصمة لمقاطعة فرع النيل المسمّى سابي نيتيك أي: فرع شبين - وهي المنوفية غالباً) (463)، وهو من الأساقفة الذين حضروا مجمع الإسكندرية الأخير، ونحن نضعها هنا - في قصة هروب أثناسيوس أثناء منفاه الرابع - لأهميتها بالنسبة لانتقالات أثناسيوس سنة 363م.]

وقد اقتبسها العالم "مون فاكون" عن تقرير مُرسل من الرئيس (أبا) ثيودور إلى ثاوفيلس أسقف الإسكندرية (385-412م) بواسطة شخص اسمه "آمون"، وهذا كان أثناء الكتابة أسقفاً (وُلِدَ سنة 335، ترهّب ابن 17 سنة، وأثناء مطاردة أثناسيوس بواسطة سيريانوس نزل واستقر في نتريا - ثم عاد بعد زمن كثير إلى الإسكندرية وصار كاهناً ورُسم أسقفاً حوالي 356م (464) أو سنة 362 حيث كان عمره آنئذ 28 سنة).

والقصة رويت كما يذكرها آمون عن أثناسيوس بعد حوالي 15 سنة من كتابتها. (وهذه واحدة من التنبؤات الكبيرة التي يحملها التاريخ بخصوص موت يولييان الجاحد).

وهذا الخطاب أو التذكار (الميمر) المأخوذ منه هذه القصة كان قد سجّله الإخوة البولانديست من مخطوطة تحمل في داخلها كل أسباب الأصاله والصحة.]

(463) N.P.N.F., II, Athanas, p. 486, note 10.

(464) D.C.B., I, 102.

القصة:

[إنني أعتقد أن قداستكم كنت حاضراً وسمعت بنفسك البابا الطوباني أنثاسيوس في حضور إكليروس الإسكندرية وحقارتي في الكنيسة الكبرى، كيف أخذ يقص علينا خبر ثيودوروس لأمونيوس المطوب أسقف إليارخيا وحرمون أسقف بوباسطيس.

وأنا الآن أكتب فقط لأذركم بأهمية ما قيل.

فحينما كان الأساقفة المشهورون مجتمعين عند المطوب أنطونيوس كيف قال لهم أنثاسيوس بحضور أنطونيوس - لأن أنطونيوس كان كثيراً ما يلازم أنثاسيوس:]

حديث أنثاسيوس:

[لقد رأيت أيضاً في هذه الأيام (أيام الهروب والنفى) رجال الله - الذين تنيخوا أخيراً - ثيودوروس الذي كان رئيس رهبان طبنسيا، وكذلك أب رهبان الجهات المحيطة بأنثاسيوس واسمه أبا بامون، لأنني بينما أنا مطارِد بواسطة رجال يوليان الذي كان يتوقَّع ذبحي، لأن أخباره بلغتني بواسطة أصدقاء أمنا، وإذ قد جاء إليَّ هذان الراهبان في ذلك اليوم نفسه في أنثاسيوس وقد خطَّطوا أن أختبئ مع ثيودور، فنزلت في مركبه الذي كان كله مغطى من الداخل، بينما كان أبا أمون مرافقاً لنا.

فلما صار الريح معاكساً صرت قلقاً وبدأت أصلي، واضطر الراهبان الذين مع ثيودور أن يرسوا المركب على الشاطئ ويربطوه (الريح المعاكس في النزول إلى الصعيد يجعل الإبحار جنوباً من المستحيل لأن تيار مياه النيل يكون ذا قوة شديدة بالإضافة إلى الريح ..).

وبينما أبا أمون يشجّعني أن لا أقلق قلت له: “صدّقني كما أقول لك إن قلبي دائماً يكون في هدوء واثق في أوقات الاضطهاد أكثر من أيام السلام، لأنني أثق ثقة حسنة أنني باحتمالي الآلام من أجل المسيح وأنا متشدّد برحمته حتى ولو ذبحت، فإني سأجد رحمة عنده ...”

وبينما أنا أقول ذلك لاحظت ثيودور يثبت عينه على أبا أمون وابتسم، وإذا

بالآخر أيضاً يكاد يضحك! فقلت لهما لماذا تضحكان على كلامي، هل تريدان إقناعي بالجبن؟ فقال ثيودور لأبا أمون: "قل له لماذا ابتسمنا"، وإذا بالآخر يقول له: "يلزم أن تقول له أنت".

فقال ثيودور: "إن في هذه الساعة مات يوليان ذبحاً في فارس!!" ... (26 يونيو سنة 363م) "لأنه هكذا أعلن الله مسبقاً بخصوصه: "الإنسان المستعلي والمحتقر والمنتفخ سوف لا ينجز شيئاً" (حقوق 2:5 سبعينية)، وسوف يقوم إمبراطور مسيحي مشهور ولكنه لن يعيش طويلاً".

فلا تزعج نفسك بالنزول إلى الصعيد، ولكن اذهب سرّاً إلى بلاط الإمبراطور لأنك ستقابله في الطريق، وهو سيقابلك ببشاشة ورفق، وحينئذ تعود إلى كنيستك! أمّا هو فسيأخذه الله سريعاً.]

وهكذا قد تمّ .. ثم يستطرد أثناسيوس قائلاً:

[ومن هذا أنا أعتقد أن كثيرين بالرغم من أنهم يعيشون غير مذكورين - من الناس - ولكن يعيشون في رضا الله خاصة بين الرهبان! ومن هؤلاء الرجال أمون المطوّب والقديس ثيودورس الذي من جبل نتريا، وهذا الرجل العجوز السعيد بامون (كان وقتها لا يزال حيّاً).](465)

انتهت الرواية

وإليك أيها القارئ العزيز نص أخبار رحلة البابا أثناسيوس (أثناء هروبه) إلى صعيد مصر وتواجهه في كل الأديرة هناك، واستقبال الأساقفة له على شاطئ النيل، بالتفصيل كما وردت في كتاب تاريخ باخوميوس المطبوع صفحة 164-165:

[وفي عروض ذلك وفد الأب أثناسيوس الباباس إلى مدينتي أنتينوا وأرموبوليس اللتين كانتا صقب (بجوار) أديرة الكنونيون لافتقاد الشعب بهما، وسمع أثناسيوس النبأ الطيب السائر عن الأب تادرس وكيف وهو حار بالروح نشيطاً في الاهتمام بما عاد بمصالح إخوة الأديرة وبخلاص أنفسهم وأنه يُكثر من تعليمهم من غير ملل ولا كلل، فسُرَّ بذلك كثيراً وابتهجت نفسه وقال للأساقفة الذين معه: ألا ترون أب هؤلاء الإخوة الكثيرين الملتئمين في هذه

الديارة من أماكن شاسعة كيف يجاهد عنهم ويعظمهم ويحرص في خلاص أنفسهم أكثر من حرصه على خلاص نفسه. أمّا نحن آباء الشعب فمن منا يحرص على خلاص شعبه كحرصه هذا أو يجاهد جهاده، لقد فاز الشعب الذي هو أبوهم، الحاملون صليب المسيح طوعاً، المهتمون بخلاص أنفسهم، الذين تعبهم يفضي إلى راحة تكون لهم إذ يتوجون من الإله باريهم. ثم أنه شاء أن يبصر أديرة الكنونيون وترتيبها ونظامها لأنه لم يكن أبصرها نظراً بل سمع عنها خبراً، ولمّا فرغ من افتقاد شعب المدينتين المذكورتين بارك عليهم وانفصل عنهم وتوجّه إلى زيارة الديارة ولمّا حصل فيها وطاف جميعها وأبصر الكنائس التي فيها وبيوت الموائد والمخابز وبيوت الضيافات والبيمارستانات (أماكن استشفاء المرضى) حتى وبيوت الماء التي للحاجة الضرورية (دورات مياه صحية) فأعجبه حسن ترتيبهم واختبر اعتقادهم فوجدهم على الاعتقاد المستقيم فسراً بذلك جداً ومضى إلى الدير الكبير، "بافو" حيث كان الأب تادرس، وطافه بجملته وأبصر الهياكل التي فيه وسائر قلاله وبيوت الصنائع، وعانين زي الإخوة وتمسّكهم واتضاعهم ووداعتهم وأعجب من كل شيء وبالأخص اتفاق أخلاقهم، وأبصر سيرتهم وترتيبهم ولم يكن ظهر في العالم بعد أناس أرضيون كملائكة سمائيين، فقال لتادرس قد كانت تصل إلى مسامعي أخباركم وحميد سيرتكم وجميل تصرفكم والآن قد شاهدت بالبصر ما ينيف ويعلو على الخبر، بالحقيقة أقول لك لقد اخترع الأب باخوميوس هذا الإبداع الحميد واستنّ هذا التصرف السديد والمذهب الرشيد ما قد ضاهى به أعمال الرسل الأمثال والتلاميذ الأفاضل إذ جعل النفوس مسكناً لروح الله (466)، وها أنت قد صرت بعده سالكاً آثاره مقتفياً نظامه لأنني عاينت كافة الآباء الإخوة الذين هم اليوم تحت أمرك وطاعتك وهم عجبون جداً في سائر أمورهم ورسومهم ونعمة الله حالة فيهم بواسطة الكبير أبيهم وسفارتك أيها الأخ تادرس وحسن اهتمامك بهم والكل يبصرونك مثل المسيح، فنق إذاً وتأيّد بالله وجاهد ولا تمل، ثم أنهم عملوا "أغابي" واستعملوا غدا وقال البابا لتادرس: الفصح المقدّس قرب وأشاء أن أكون عند أصحابي

(466) البابا أثناسيوس هو أول أسقف يسبغ على الطقس الرهباني الصفة الكنسية رسمياً.

وأنت فكن معافى مع رهبانك واذكرني في صلواتك ثم رام الانفصال عنه. وأمّا تادرس فلم يفارقه بل سار معه مشيعاً إياه إلى البحر، ولمّا أبصر أن المركب الذي كان معه مثقل أعطاه مركب الدير لمسيره وراحته، ووصّى الإخوة خدام المركب قائلاً أينما شاء امضوا معه لأن له سلطة على أجسادكم أيضاً فضلاً عن السفينة.

ولمّا كان الوداع قال الباباس لتادرس: أنا حزين إذ لم أبصر الأب أورسسيوس لأن على ما سمعت أنه في دير منحوسين، وإذ كان هذا الدير منفرداً عن باقي الديارة وبمعزل عن طريقنا لا أمضي إليه بل خذ كتابي وأوصله إلى قدسه والإخوة المقيمين معه، ثم أنه جلس وكتب ما هذا فحواه لا يحزن قدسك وقدس الجماعة - حرسكم الله - علىّ إذ لم أجيء إلى عندكم لأبصركم وأخذ صلواتكم التي أنا أسأل الله أن يمنحني إياها أينما كنت لأن ديركم بعيد جداً وعيد الفصح المقدّس قد قرب، لكنني تمتعت برؤية الأخ تادرس خليفتك أيها الأب أورسسيوس ومساعدك والنائب عن أبوتك، وبنظري إليه كأني رأيت الأب باخوميوس وسررت حقاً عند مشاهدتي بقية الإخوة أولاد البيعة الطاهرة، الله يبارك عليهم ويجزل ثوابهم، وعند وداع الأخ تادرس إياي قال لي اذكرني في صلواتك ولجماعة الإخوة ولا تخلينا منها فأجبتة أنا بما قال الروح في المزمور إن نسيته يا أورشليم أنسى يميني ويلصق لساني بحنكي إن لم أنكرك، فاذكرنا أنت والجماعة في صلواتكم. وانكفى تادرس بعد مسير الأسقف إلى عند الأب أورسسيوس وأوصل كتاب الأسقف إليه وتلا جميع ما جرى له معه من الخطاب عليه.]



(أ) وحيث يذكر البابا أثناسيوس للأب ثاؤدوروس أنه قد قرب الفصح وأنه يود أن يكون في الإسكندرية في هذا الميعاد.

(ب) ثم حيث أن القديس ثاؤدوروس تتبّح أثناء هذا الفصح بالذات سنة 363م(467)، إذن يبدو لنا أن القصتين - قصة أثناسيوس ورؤيا بامون وقصة زيارة

أديرة بافو وملاقة تادرس - لا بد أن يكون في ذات السنة بل وفي نفس الموسم.

ثورة أنطاكية وموت يوليانوس الجاحد

1 - يوليانوس الجاحد في أنطاكية وأورشليم:

جمع هذا الإمبراطور المبتز كثيراً من أموال المسيحيين بحجة إعداد حملة ضد الفرس، وإمعاناً في الابتزاز فقد أصدر قانوناً أثناء وجوده في أنطاكية بتخفيض أسعار المعيشة لكي يستطيع أن يمؤن جيشه قبل الارتحال بأرخص التكاليف. ولكن هذا أدى إلى كساد البلاد، لأن كثيراً من التجار تركوا تجارتهم. لأنه ليس فقط أن هبوط الأسعار أثر في القدرة الشرائية للممولين، بل وجود الجيش وابتلاع البضائع والأغذية مرة واحدة وبكثافة كبيرة أورد جميع الأسواق في المديرية وخارجها موارد البطالة والإفلاس!

فقام الأنطاكيون بمظاهرات صاخبة لأنه شعب لا يحتمل الإثارة، و عملوا صورة لذقن الإمبراطور (وكانت طويلة جداً بحسب الوصف) وأخذوا يصرخون بضرورة جَزّها لعمل حبال للمدينة لأن الحبال أخذها الجيش!

وكان الإمبراطور قد صك نقوداً تحمل صورة ثور بقر (عجل أبيس رمز الإله الذي نادى الإمبراطور بعبادته)، فأخذوا يصرخون أن هذه علامة شؤم أن الثيران سوف تخنفي من العالم - لأن الجيش لم يُبق طبعاً على عجل أو ثور - بالإضافة إلى الذبائح الكثيرة التي أصبح يقدمها الإمبراطور على مذبح الإله أبيس!

العملة النقدية التي سَكّها الإمبراطور يوليانوس الجاحد
الوجه الأول: صورة يوليانوس (القسطنطينية 361-363)

الوجه الثاني: عجل أبيس

وأراد الإمبراطور أن يُظهر أمام الشعب أن ذبائح الثيران للآلهة ليست أمراً غريباً، فاليهود كانوا يقدمون الثيران إلى الله الذي هو إله المسيحيين أيضاً، وهكذا

استدعى اليهود وطلب منهم ضرورة بناء هيكل سليمان وإصلاح المذبح القديم لتقديم الذبائح، وحالما سمع اليهود ذلك أسرعوا بكل غيرة وحماس وقوة لتنفيذ أمر الإمبراطور الذي هو منتهى شهوتهم، خاصة وأن الإمبراطور أمر بأن جميع مصاريف إعادة بناء الهيكل تكون على حساب الخزانة العامة للدولة. وهكذا استطاع اليهود بمعونة الدولة في تجهيز كل أدوات البناء.

ولكن ما أن بدأوا البناء إلا وقد حدثت زلزلة هدمت ما كان قد بقي من أسوار عالية سواء للمدينة أو الهيكل، فارتعب اليهود حول الركاب المتهدم وإذا بنار تخرج وتحرق كل الأدوات والأخشاب التي أعدت للبناء وظلت النيران مشتعلة يوماً كاملاً(468).

وقد عزا اليهود ذلك إلى وجود مقابر للمسيحيين بجوار الهيكل ملاصقة لجدرانها، فأشاروا على مندوبي الإمبراطور بإزالة المقابر وحرق الجثث، ولعلم المسيحيين بأهمية هذا التراث أعطوا نقوداً لرجال الإمبراطور وحملوا أجساد القديسين ومنها أليشع النبي ويوحنا المعمدان وكانا في قبر واحد وحملوها إلى الإسكندرية وقدموها لأثناسيوس(469)، وليس صحيحاً بالمرّة ما يدّعيه البعض أن الأجساد لحقتها آثار النيران.

2 - موت يوليانوس الجاحد بسهم في جنبه في 26 يونية سنة 363م:

وقبل الربيع أتم يوليانوس الحملة واتجه نحو الفرس واجتاح جزءاً كبيراً منها أمامه هادماً القلاع والحصون واستولى على مدن كثيرة، ولمّا طلب ملك الفرس الهدنة والتسليم رفض لأن حكماءه أوحوا إليه أن روح الإسكندر الأكبر حلت عليه، مما دعاه للكبرياء والصلف، فتقدّم هو بجيشه راكباً على حصانه بدون دروع، وإذا بسهم يصيبه في ذراعه وينغرس في جنبه، فأخذ ينزف حتى مات!! ولكن من سخرية النفس الجاحدة وشعورها بالانغلاب، لا بيد ولا برمح، بل بقوة الرب الذي طالما شتمه وعيّرّه، أخذ يوليانوس قبل أن يموت مباشرة حفنة من دمه وقذفها ناحية السماء

(468) Socrate *Ecc. Hist.* III, 20.

(469) التاريخ النيقوسي صفحة 437، تاريخ البطارقة لابن المقفع، ولاروس القرن العشرين الجزء الرابع صفحة 209.

قائلاً: “قد غلبت أيها الجليلي.” (470)

تعيين الإمبراطور جوفيان [إمبراطوراً لمدة ثمانية أشهر فقط]

اجتمع ضباط الجيش وهم في ارتباك عظيم بسبب المعركة الدائرة وأسرعوا في انتخاب “جوفيان”، وكان برتبة جنرال، ونادوا به إمبراطوراً لروما. وهو رجل نبيل موطناً وميلاداً.

وإزاء هذه الحالة الخطرة التي كان يواجهها جيش روما، اضطرَّ جوفيان لعقد معاهدة صلح - مدتها 30 سنة - فقَدَتْ فيها الإمبراطورية الرومانية كل حدودها شرق نهر دجلة مع مدينة نصيبين، وانسحب من بلاد فارس دون فقدان مُذَلٍّ للشرف العسكري (471).

الأمر بعودة الأساقفة المنفيين وخطاب خاص لأثناسيوس:

كان معروفاً عن جوفيان منذ البدء أنه أمين لعقيدة نيقية، موثّر للإيمان بالمسيح في ضوء مفهوم “الهوموؤسيون”، فبمجرد عودته إلى أنطاكية أصدر أمراً بعودة الأساقفة المنفيين في أيام يوليانس أو قسطنطيوس، وأمر بإلغاء مراسيم الدولة للعبادة الوثنية، كما أرسل خطاباً خاصاً ودياً وتشجيعياً للقديس أثناسيوس يدعو فيه للعودة إلى كرسيه وتدبير شئون الكنيسة (472).

أثناسيوس يعود إلى الإسكندرية فوراً (473):

دخل أثناسيوس إلى الإسكندرية ليلاً وبقي فيها سراً، ووصله على وجه السرعة خطاب من الإمبراطور الجديد جوفيان يطلب منه أن يباشر خدمته ويكتب قانون الإيمان في صورة كاملة ليكون هو “الإيمان العام” أو الإيمان الجامع “الكاثوليكي”. فعقد أثناسيوس مجمعه في الإسكندرية في الحال وحرَّر خطاباً مجتمعياً أي

(470) Socrate, *Ecc. His.*, III, 21., Theodoret., *Ecc. Hist.* III, 25.

(471) Socrate III, 22, IV 2.

(472) Socrate III, 24.

(473) *D.C.B. Athanas.* p. 199.

“سينوديقياً” فيه كل الإيمان النيقاوي بالتفصيل، مؤيداً من الأسفار المقدّسة، وهو لا يزال حتى اليوم يُتلى في كثير من كنائس العالم عامة ومنها بريطانيا بوجه خاص، وأخذ معه وسافر.

أثناسيوس يسافر إلى أنطاكية:

وأخذ أثناسيوس طريقه عبر هيرابوليس إلى إدسا ليقابل جوفيان الإمبراطور الجديد حاملاً معه خطابه المجمعى (6 سبتمبر سنة 363م الجدول الفصحى)، وقابله الإمبراطور هناك بترحاب كثير وعاد معه إلى أنطاكية التي غادرها الإمبراطور في 21 ديسمبر سنة 363م، وواصل أثناسيوس السفر إلى الإسكندرية بعد ذلك، فوصلها في 14 فبراير سنة 364م (حسب الجدول الفصحى)، حاملاً معه خطابات الإمبراطور ليضع يده على كل الكنائس.

وهكذا نجد أن نفيه الرابع استغرق 15 شهراً واثنين وعشرين يوماً(474).

أعمال أثناسيوس في أنطاكية:

من مجريات الحوادث يتبيّن لنا أنه مكث في أنطاكية ما يقرب من أربعة شهور ونصف - كل الشتاء - ويبدو أن زيارته لأنطاكية كانت هامة، ونجد في سرد هذا الخبر من الجدول الفصحى والتاريخ غير المعنون (Hist. Aceph.) ومن وصية بامون الراهب، أن أثناسيوس كان في سباق مع الزمن (أسرع وقابل الإمبراطور الجديد)، لذلك نجده يعبر على الإسكندرية، ولا يمكث بها بل يضطر أن يدخلها متخفياً تحاشياً للتعويق، كما اتخذ الاحتياط الكافي بأخذه عدداً من الأساقفة المعيّنين وآخرين يمثلون الأغلبية القائمة في كنيسة مصر - أمّا سر هذا كله فلأن الأريوسيين لمّا سمعوا بخبر الإمبراطور الجديد، أسرعوا هم الآخرون لإرسال وفد كبير يمثلهم (من مصر) للشكوى أيضاً ضد أثناسيوس، ويطلبون لأنفسهم أسقفاً (على الإسكندرية)، وقد رافقهم الأسقف النصير لهم لوقيوس، فكانت رحلة أثناسيوس النشطة مباراة ناجحة جاءت في سرعتها في وقتها الحسن. فقد حاز أثناسيوس احتراماً وترحاباً فوق العادة، كما يقول سوزومين(475)، وعلى خطاب موجز من

(474) Hist. Aceph.

(475) Sozom. VI, 5.

جوفيان يأمره فيه بالعودة إلى كرسيه ليباشر جميع اختصاصاته، كما سلّم أنثاسيوس بدوره إلى الإمبراطور الرسالة السينودية التي يشرح فيها موقفه الثابت من قرارات مجمع نيقية، كما رتبها في المجمع في الإسكندرية، وخاصة في ما يتعلّق بلاهوت الروح القدس (476).

لماذا تأخر أنثاسيوس في أنطاكية:

لمّا تأكّد أنثاسيوس أن الأريوسيين يحاولون تغيير وجهة الإمبراطور جوفيان الجديد، ارتضى أن يمكث أكثر في أنطاكية لتكميل مصالحه يربوها، وبالأكثر لمراقبة الأريوسيين وإفساد مساعيهم عن كذب.

لقد حاول الأريوسيون باستماتة الضغط على الإمبراطور جوفيان، ولكن على حد تعبير "جواتكن" استخدم معهم الإمبراطور الخشونة العسكرية، كما كان بادياً الإزدراء من جهتهم!

الأريوسيون يلحون:

يا سيادة الإمبراطور "أي إنسان آخر غير أنثاسيوس"!!

الإمبراطور جوفيان:

"لقد قلت لكم إن موضوع أنثاسيوس قد انتهت منه نهائياً!"

إلحاح الأريوسيين ...

الإمبراطور جوفيان للعساكر الواقفين:

"استخدموا العصي!"

وقد هزأ الأنطاكيون من لوقيوس في مرأى من الإمبراطور (477)!

ولقد انتهز أنثاسيوس فرصة وجوده في أنطاكية وحاول ما أمكن لعمل مصالحه بين الفريقين المتنازعين، كما ذكرنا عنهما سابقاً، كما عمل كثيراً في تنظيم شؤون الكنيسة (478). وهنا لا يفوتنا أن ننبّه أن أنثاسيوس كان له تأثير ليتورجي على كنيسة

(476) Athanas. *Lett. no. 56*, p. 567.

(477) N.P.N.F. II, Athanas., p. 586. sq.

(478) *Hist. Aceph. Sozom.*, VI. 5.

أنطاكية كما حدث في روما أيضاً، لأنه ظل يصلّي بالقداس القبطي (باللغة اليونانية) مدة أربعة شهور في أنطاكية مع أساقفته.

موت الإمبراطور جوفيان المفاجئ:

لم يمكث هذا الإمبراطور الطيب القلب الذي أحبه جميع ضباطه وكل الهيئات المدنية والسياسية بالإضافة إلى الكنيسة التي توسّمت فيه حكماً سلامياً يهيئ الفرصة لتضميد الجراح.

ولكن للأسف بعد سفر جوفيان من أنطاكية في 21 ديسمبر 363م وصل إلى طرسوس، وهناك أدّى مراسم التجنيز اللازمة نحو يوليان سلفه بحسب الأصول الرومانية لأباطرتها المتوفين، ومن طرسوس صوّب ناحية آسيا الصغرى، واستراح في مدينة داداستانا على الحدود بين غلاطية وبيثينية، وهناك تقدم ولاقاه فيلسوف الإمبراطور مع السناتو أي الشيوخ المرابطين في القسطنطينية، وقرأوا أمامه خطبة التنصيب، والتي أُعيد قراءتها في القسطنطينية بعد ذلك. ولكن قبل أن يصل الإمبراطور إلى القسطنطينية، وهو لا يزال في داداستان، داهمه مرض مفاجئ يُقال إنه انسداد في الأوردة مباشرة، ويُقال إنه نام في غرفة حديثة البياض بالجير وأن مواعد الفحم كانت كثيرة فتشَبَّعت الجدران بأول أكسيد الكربون، ومات في يوم 17 فبراير 364م (479).

تنصيب فالانتينيان Valentinian إمبراطوراً على الغرب وتعيين أخيه فالنس على الشرق

بعد موت جوفيان غادرت الحامية التي ترافقه إقليم غلاطية ووصلت إلى مدينة نيقية العتيقة في بيثينية حالياً، واستغرقت مسيرتها سبعة أيام مشياً على الأقدام، وهناك أعلن الضباط بصوت واحد فالانتينيان إمبراطوراً في 25 فبراير سنة 364م.

وكان مولده في بانونيا (ما بين يوغوسلافيا والنمسا) من مدينة سيباليس، وهو ضابط ماهر وكان راجح العقل جداً يبدو عظيماً بل أعظم من أي تكريم كان يقَدِّم

إليه، وكان وفياً بالإيمان الأرثوذكسي موثقاً لمقررات مجمع نيقية، وبمجرد تنصيبه تقدّم إلى القسطنطينية مع فرقته.

وبعد ثلاثين يوماً من تنصيبه إمبراطوراً عيّن أخاه فالنس زميلاً في الحكم وكان أريوسياً، وذلك لأنه كان قد تعمّد على يدي إيدوكسيوس أسقف القسطنطينية الأريوسي، وكان كلُّ منهما - الإمبراطور وأخوه - يناصر فريقه بشيء من الحماس الزائد.

وانطلق فالنتينيان نحو الغرب، واستقر فالنس في القسطنطينية يدير شؤون الإمبراطورية في الشرق.

بدء الاضطهاد على أيام فالنس:

بمجرد توليه الحكم في الشرق أصدر فالنس أمره إلى المقدونيين أتباع الهرطقة الأريوسية ليقبضوا مجعاً ويصحّحوا فيه العقيدة، ظاناً بذلك أنه يستطيع أن يوحد صفوف الأريوسيين مع أكايوس وإيدوكسيوس.

وفي نفس الوقت أسرع إلى أنطاكية ليطمئن على حدود البلاد إزاء معاهدة الصلح مع الفرس، وهناك بدأ يضطهد أصحاب عقيدة نيقية، فنفي ميليتس وكل أتباعه، وكل من رفض الشركة مع إيوزويوس وأخرجهم من كنائسهم وعاقبهم وسلبهم أموالهم، وأمر بإغراق بعض منهم في نهر الأورونتس (480).

اضطهاد فالنس لأثناسيوس والنفي الخامس والأخير 5 مايو سنة 365م - 1 فبراير سنة 366م [أقل وأهدأ فترة نفي في تاريخ أثناسيوس]

لم يكد يجلس أثناسيوس على كرسيه ليلتقط أنفاسه ويتراءى وسط شعبه الذي أحبه، من 14 فبراير سنة 364 إلى 5 مايو سنة 365م، حتى وصل الإسكندرية منشور من الإمبراطور الجديد فالنس الأريوسي يأمر جميع الأساقفة الذين أصابهم النفي في حكم يوليان بأن يعودوا إلى منفاهم مع التهديد بالغرامة الثقيلة.

ولم يرحموا هذا الأسقف الذي وإن لم تكن قد أضنته الاضطهادات فقد أضنته السنون، فأثناسيوس الآن عمره 67 سنة! - لعن الله الأريوسية واليوم الذي اشتغل فيه الأباطرة بالدين!!

هَبَّ الشعب غاضباً ومهذّباً، وأمام كثافة التجمُّع والتهديد وعدم الحاكم يرفع مظلمة سريعة للإمبراطور (481) في يوم 8 مايو سنة 365م.

ولكن في اليوم الخامس من أكتوبر وصل الأمر للإمبراطوري سراً، وكالعادة الدنيئة لسلوك الحكومات العاجزة هجمت فرقة كاملة من الحرس على كنيسة القديس ديونيسيوس ليلاً بحثاً عن الأسقف "إيَّاه"، ولكن أثناسيوس بحسه المرهف وروحه الشفافة وخبرة الدهر في تنسُّم رائحة الصيَّادين من بُعد، كان قد غادر الإسكندرية في الميعاد المناسب بل في تلك الليلة عينها! والتجأ إلى بيت ريفي له على "النهر الجديد" (482)، في حين أن سقراط يقول إنه اختبأ أربعة أشهر في مقبرة أبيه (483)، ويقول إن هذا "النهر الجديد" يفصل الإسكندرية عن ضواحيها في الغرب (ربما موقع ترعة المحمودية الآن).

ولكن الشعب لم يحتمل هذا العسف المريع، فقامت في الخريف ثورة في كل

(481) *Hist. Aceph.* X, followed by *Sozom.* IV, 12.

(482) *Ibid.* First Index.

(483) *Sacrate* IV, 13.

الشرق، ولكن كانت ثورة الإسكندرية عارمة لا تُضبط، ولم تستطع قوات الإمبراطورية التصدي لها، وبلغت المدينة حالة الخطر، وفي أول فبراير سنة 366م وقف براسيداس مسجّل الإمبراطورية على المنصة وأعلن للشعب أمر الإمبراطور بعودة أثناسيوس!! وذهب براسيداس بنفسه مع قوة من رجال الإدارة إلى ضاحية الإسكندرية وأحضروا أثناسيوس بكل كرامة حتى كنيسة ديونيسيوس(484).

وكان في ذلك اليوم فرح عظيم لدى كل الشعب أول فبراير / 7 أمشير سنة 366م.

سنين أثناسيوس السلامية الأخيرة أول فبراير سنة 366م - 2 مايو سنة 373م

دخل أثناسيوس في السبعينات من عمره، ولم يكدر صفو هذه السبع سنوات الأخيرة منها إلاّ حادثان صغيران:

الأول: سنة 367م، قام لوقيوس - الأسقف الدخيل الأريوسي الذي رسموه في أنطاكية ليكون على الإسكندرية - بمحاولة مستميتة ليدخل الإسكندرية، وليستولي على إحدى الكنائس فيها ليروجّ للأريوسيين.

وصل هذا اللص بالليل في العتمة يوم 24 سبتمبر، ولكن ما كاد يصبح الصباح حتى اشتّم شعب الإسكندرية صاحب المزاج الانفصالي الحار رائحة هذا الذئب من خلف الجدران، وفي الحال رتّب الإسكندرانيون ومن تلقاء أنفسهم ثورة انتقامية على غرار ما عملوه مع جورج منذ قليل من السنين!

وعلى آخر لحظة استطاعت القوة الحربية بكاملها أن تطوّق مكانه وتنتشله بالقوة من وسط هذا المشهد الخطير، وفي يوم 26 سبتمبر كان قد وُضع في مركب لترحل به بعيداً عن البلاد(485).

أمّا الثاني: فقد حدث في السنة السالفة لخروج لوقيوس من الإسكندرية مطروداً أن قام الوثنيون بإحراق كنيسة السيزاريوم (القيصرية)، ولكن صدرت الأوامر

(484) Socrate IV, 12.

(485) N.P.N.F., II, Athanas. p. lxii.

الإمبراطورية في الحال بمعاقبة المعتدين وإعادة بناء الكنيسة على حساب الدولة والتي تمّ بناؤها في مايو سنة 368م(486).

وفي 22 سبتمبر سنة 368 أيضاً ابتداءً أثناسيوس ببناء كنيسة في حي "Mendidium". وقد يكون بمناسبة بلوغه 40 عاماً على كرسي الأسقفية(487)، والتي تمّ تدشينها في 7 أغسطس 370م، وتسميت بعد ذلك باسم أثناسيوس.

مجمع الإسكندرية سنة 369م:

ويبدو فيه أثناسيوس حارس مجمع نيقية العجوز ابن الواحد والسبعين عاماً، لا يزال ديدباناً لا ينام ولا يغمض له جفن، طالما بقي في الإسكندرية إصبع واحد للشيطان باسم الأريوسيين.

فحينما نما إلى علمه اعتلاء داماسوس سنة 366م لأسقفية روما خلفاً للبيريرس، وتأكد بعد مضي ثلاثة أعوام أنه متباطئ في تأمين كاثوليكية الكنيسة في إيطاليا ذاتها، متخاذلاً أمام أوكسنتيوس(488) أحد زعماء مجمع أريمنيم الكفري، مبقياً عليه متربّعاً على أهم كنيسة في إيطاليا "ميلان"!! وينفت في وسط الإكليروس والشعب سموم الأريوسية مجدداً؛ لم يطق أثناسيوس ذلك أبداً، وهو مدرك تماماً كما أدرك المؤرخ تيمون (400:8)، أن داماسوس لا حول له ولا سلطان، فمن ذا الذي يقدر على خلع هذا النمر الكبادوكي من كرسيه، ولكن هذا المنطق الانهزامي لا يفهمه أثناسيوس ولا يجيزه، ولا يخضع لقهره قط، فالإيمان الأرثوذكسي لا يعرف الخوف ولا القهر ولا الأمر الواقع.

لذلك فقد جمع تسعين أسقفاً من مصر وليبيا (فصل 10)، وأرسلوا احتجاجاً وتحذيراً وشرحاً مفصلاً لجميع أساقفة مصر وأفريقيا (يقصد جميع الأجزاء الشمالية

(486) Ibid.

(487) *Hist. Aceph.* VII.

(488) "أوكسنتيوس": هذا أصلاً مواطن كبادوكي وليس إيطالياً، بل وكما يقول أثناسيوس، لا يعرف أن يتكلم اللاتينية (انظر تاريخ الأريوسيين: 75) وقد رسمه قساً في الإسكندرية الأسقف الدخيل الأريوسي جريجوري (339-346م) لأنه "بلدياته" وبعد طرد ديونيسيوس من كرسي ميلان سنة 355م عينه قسطنطيوس على هذا الكرسي، وقد تزعم حركة الأريوسيين في أريمنيم مع أورساكيوس وفالنس، وقد تمسك بكرسيه في ميلان بتشجيع الإمبراطور إرغاماً. وقد مات سنة 374م وحل محله أمبروسيوس العظيم.

التابعة لإقليم قرطاجنة(489)، كما أرسلوا رسالة تشجيعية لداماسوس كي يتحرك فلم يتحرك .. وبقي هذا الأريوسي على كرسيه إلى أن مات سنة 374م.

هذا كان الغرض الأول من مجمع الإسكندرية سنة 369م، ولكن انتهزه أثناسيوس كعادته لكي ينشر الوعي النيقاوي بالإيمان المسيحي الأرثوذكسي في كل أنحاء الغرب سواء شمالاً في إيطاليا وأسبانيا أو في الجنوب على شواطئ إفريقيا الشمالية، لأن أخشى ما كان يخشاه أثناسيوس أن يبقى مجمع أريمنم ومقرراته عالقاً في أذهان الإكليروس، لأنه كان آخر مجمع كفري نشره الإمبراطور قسطنطيوس بالسلح والقهر الأدبي - أو التصفية الجسدية - كما يقولون الآن!!

لذلك نجده في الفصول من (1-3) يقارن بين قوانين مجمع نيقية مع قوانين مجمع أريمنم، كمعلم لا يمل من الشرح والتوضيح.

ثم يعود كمن يتباهى بعظمة نيقية ومجمعها الإلهي يستنذب في مفوماته الإلهية ويحققها على أصولها من الأسفار المقدسة، كمعلم حاذق يعرف كيف يرد الفروع إلى الأصول وكيف يتعمق حتى الجذور (فصل 4:8).

ثم ينعكف مرة أخرى (فصل 5،6) على براهين ومماحكات الأريوسيين ويخليها من معانيها ويجردّها ويعرّيها من الإلهام ومن أي سند لاهوتي. ثم يعود في الفصل (6،9) يدافع بقوة ونعمة أن مجمع نيقية لم يخترع شيئاً لا اصطلاحات ولا مفومات كما يدّعي يوسابيوس، بل أنه تحصيل واقع إنجيلي مسلم من الرسل والآباء.

ثم يعود في فصل (7) يحاصر جماعة الهوميان - أصحاب عقيدة التشابه - مجرد التشابه بين الآب والابن، ويصفها بفكرة “التذبذب”، وكأن اللاهوت فيه حل وسط بين التساوي وعدم التساوي في الجوهر!!

وأكثر المواضيع حداثة والتي لم يطرقها أثناسيوس سابقاً بهذا العمق هو موضوع الأوسيا s...aظو والهيبيوستاس طstasijp، الذي جاء في مجمع الأريوسيين في بلدة Nike أو نيس بإقليم تراقيا وهذا في الفصل (4) حيث عاد إلى الأسفار المقدسة مبتدئاً من الخروج 3:14 (كما سبق وأشار في كتاباته السابقة) على

القوانين: 22 و" على المجامع": 29). ثم عاد وطبق على المفهوم المقابل لهما في الاصطلاحين، والحقيقة أنه كان أشد قرباً من المفهوم الغربي لمفهوم الاصطلاحين مما تعودنا أن نسمعه في التفسير الشرقي.

ومن تباشير الفرح ما ذكر في نهاية هذا المجمع أن كل مصر صار يجمعها مرة أخرى الإيمان الواحد، وقد أشار إلى ذلك في فصل (10) أن جميع الأساقفة صاروا فكراً واحداً وروحاً واحداً، إلى الدرجة التي يمكن أن يوقع فيها أي أسقف عوض أسقف آخر اطمئناناً إلى مدى الثقة التي صارت لدى الجميع في الروح الواحدة التي جمعت شمل الأساقفة في مصر وليبيا(490).

بقية أعمال أثناسيوس الأخيرة:

أمّا بقية أعمال أثناسيوس فلم يستطع المؤرخون أن يجدوا لها مصدراً واضحاً حتى الآن، فكان اعتمادهم على الخطابات الهامة الستة (59-64).

ومن الأخبار القليلة الواردة عرضاً في كتاباته الأخيرة، مثل الخطابات إلى سينييسيوس الليبي (خطاب 77)، التي تكشف لنا عن مدى وداعة وحكمة أثناسيوس في ربحه للنفوس الضعيفة، ومدى قدرته على سرعة مداواة المواقف التي يمكن أن ينجم عنها نزاعات خطيرة دون المساس بالإيمان.

قصة سيداريوس:

ضابط شاب يتبع قوة الجيش المرابط في ليبيا في مأمورية مدنية، وكان أسقف المنطقة (أريترم) ويدعى أوريون في شيخوخة مضمحلة، وكان سكان القرينتين الكبيرتين في الإيبارشية في حزن ولهفة بسبب عدم الرعاية وكانوا يضجون في طلب أسقف لهم ويطلبون رسامة سيداريوس.

وبناء على ذلك قام أحد الأساقفة برسامته بمفرده، وكان يدعى فيلو، غير مراعاة قانون الرسامة الذي ينص على حتمية وجود اثنين آخرين للمساعدة، بل وبدون إخطار أثناسيوس وهو رئيس الأساقفة.

ولكن بنظرة ثاقبة أدخل أثناسيوس في اعتباره الضرورة الملحة التي أجبرت

الأسقف على الرسامة، فتغاضى أثناسيوس عن المخالفة، بل ولكفاءة سيداريوس رقاه إلى رتبة متروبوليتيس بتولمايس، وأضاف القرينتين المذكورتين إلى أبروشيته بعد نياحة أوريون(491).

والعجيب أن أثناسيوس الذي أجاز مثل هذا التعدي على قوانين الكنيسة، إذ لم يكن عبداً للقوانين، هو نفسه وفي نفس البلد والمدة حكم على أحد حكام ليبيا بالحرم الكنسي بسبب سوء أخلاقه، وصار هذا أمراً معلوماً في طول الدنيا وعرضها!

صداقة باسيليوس أسقف قيصرية:

رسم باسيليوس سنة 370م على قيصرية الكبادوك وهي مسقط رأسه، (وهي الآن باسم قيصرية في وسط تركيا)، ومنذ رسامته لم يكف عن مراسلة القديس أثناسيوس، ولشدة الأسف فقدت جميع رسائل أثناسيوس لباسيليوس وبقيت رسائل باسيليوس فقط!

وكانت معظم الرسائل تدور حول الانقسام القديم الحاصل في أنطاكية، وكان باسيليوس يسأل بإلحاح أن يتدخل أثناسيوس، وإن كان يتعذر على أثناسيوس أن يؤثر على ميليتس وأساقفته، فليس أقل من أن يستخدم نفوذه على بولينوس ويأمره بالتراجع. لأن ميليتس كان يشعر بالمرارة بسبب مناصرة أثناسيوس الشديدة لبولينوس، ولكن بولينوس كان ضعيف الاستجابة(492).

ولكن حصل أثناسيوس على مؤازرة ضخمة لباسيليوس وذلك بتوسطه عند أساقفة روما والغرب بخصوص قضايا الشرق تجاه الأريوسيين، ولكن للأسف لم يكن أساقفة الغرب على مستوى المسؤولية أبداً(493).

تبادل الاحترامات:

كثيراً ما عبّر باسيليوس عن شعوره تجاه أثناسيوس بقوله:

[له الاحترام الكلي والمديح بغير حدود! صاحب الوعي العميق والمبادرة العملية والرقعة الإنجيلية، رأس الكنيسة، الرجل صاحب النفس الكبيرة

(491) D.C.B. Fuller. IV., p. 777.

(492) Basil., ep. 60, 66, 63, 80, 82, 89. Theodoret Ecc. Hist. V, 23.

(493) Basil., ep. 61, 67, 69, 80, 82. D.C.B., p. 200.

الرسولية، الأب الروحي.]

كما عبّر أثناسيوس عن احترامه لباسيليوس تجاه مقاوميه الذين يحاولون التشكيك في أرثوذكسيته، فكان يعنّفهم بقوله داعياً إيّاه: [أسقف تتمنى كل كنيسة أن يكون أسقفها.] (494)

نشاط حتى النفس الأخير: ضد أبوليناريوس أسقف اللاذقية:

وفي سنة 372م كتب أثناسيوس كتابين ضد أخطاء أبوليناريوس في غاية الحذق والعمق والغنى اللاهوتي، وهي الصفات التي ميّزت كتبه منذ أن كتب إلى آخر ما كتب!

ولكنه تحاشى أن يذكر اسم أبوليناريوس لأنه كان الصديق القديم! (495)، بل وكان ممثلاً مع أثناسيوس في مجمع الإسكندرية سنة 362م بواسطة وفد رسمي من قبله، وختم ووقع على كل مقررات المجمع، ولكن للأسف زاغت روح أبوليناريوس بعيداً عن روح الإنجيل.

ولأثناسيوس ضد أبوليناريوس في هذين الكتابين عبارات لاهوتية جديدة وعميقة وشاملة وقاطعة كما جاء في حديثه المطول عن الأريوسية: أن المسيح: “إله حقيقي في الجسد، وجسد حقيقي في الكلمة!!” (496)

وظل أثناسيوس يكتب ويشرح ويرد على رسائل ويتصرّف كمستشار لكافة كنائس العالم، وكعون لكل أسقف مضطهد، وكانت رسائله وتوسطاته ذات احترام بالغ لدى كافة أساقفة العالم.

وظل بكامل صحته لم تكلّ عيناه ولا شاخ عقله قط، وبلوغه الخامسة والسبعين من عمره يكون أثناسيوس قد قطع خمس وأربعين سنة في خدمة أسقفيته التي - بحق - لا نستطيع أن نقول إنها كانت الإسكندرية أو مصر بل كانت العالم المسيحي!

لقد تداعى أثناسيوس تحت ثقل السنين لتتلاّأ عقيدة نيقية على ممر الدهور، لقد

(494) Ibid.

(495) Epiphan. *Hear.*, 77.2.

(496) *Oration* III. 41.

مات أثناسيوس وبقيت “الهوموؤسيون” حية إلى الأبد.

ومما قاله العلماء عنه:

[إن حياة أثناسيوس كانت استشهاده متواصلاً.] تيمون

[إن سرد تفاصيل حياة أثناسيوس هو بحد ذاته مديح تعز الألفاظ عن أن تصوّر ها.] مولر

[إن الإنسان عندما يقرأ حياة أثناسيوس يتمنى لو لم يموت.] مولر

[توافق المواهب: اتفاق مع معرفة مع تمييز.] نيومان

[عمق الحق الذي يضيء كل كتاباته بإحساس من له علاقة بالمسيح فاديه، الإصرار الفائق مع أن طبيعته أصلاً شديدة الحساسية!

التعاطف الذي جعل منه صديقاً، وصانع سلام حتى كسب الولاء الحار!
أغنى - بكتاباته - كبار اللاهوتيين ورؤساء الكنيسة بقوة تفوق عطاء البشر!
فلا نغالي إذا قلنا إنه صاحب أكبر اسم في كنيسة ما بعد الرسل.] ستانلي

[إن أثناسيوس عاش في الحق الذي لا يموت.] (497)

[ظل أثناسيوس يزرع أشجاراً طوال حياته حتى تتمكّن الأجيال القادمة أن تستظل تحتها.] (498)

عظة للقديس غريغوريوس النريزي يمدح أثناسيوس الكبير

[حينما أمدح أثناسيوس فأنا أمدح الفضيلة!

فالكلام عن أثناسيوس ومديح الفضيلة هما عملان مترادفان!

فأثناسيوس حاز الفضيلة بل واقتناها بل واحتواها،

ولا نحزن فالذين عاشوا بوفاق الله مهما ارتحلوا عنّا فهم لا يزالون يعيشون في الله!

(497) *D.C.B.*, p. 202., (Christ. Rememb. 37-206).

(498) *Ibid.*

من أجل هذا يُسمَّى الله إله إبراهيم وإسحق ويعقوب لأنه ليس إله أموات بل إله أحياء.
ومرّة أخرى أقول إنني عندما أمدح أثناسيوس فأنا أمدح الله! الواهب الفضيلة للبشر.]

[أمّا كل مَنْ استطاع أن يفلت من طوق المادة وحجاب هذا الجسد بواسطة نظرة العقل والتأمّل، وبلغ الشركة مع الله ورافقه قدر ما تحتمل أن تبلغ طبيعة الإنسان، عن طريق “النور” الفائق الطهر، فطوبى لذلك الإنسان ولسعيد هو، سواء في ارتقائه من هنا أو في تقبُّله التنبّي لله هناك، هذه هي هبات الفلسفة الحقّة حينما يسمو الإنسان فوق المادة عن طريق إدراك الوحدة القائمة في الثالوث!

أمّا كل الذين حُرّموا من هذا بارتباطهم باللحم والدم وطغيان التراب عليهم، حتى أن الواحد لا يستطيع مجرّد التطلّع نحو أشعة الحق أو يسمو فوق الأرضيات مع أنه مولود من فوق ومدعو أيضاً لميراث العلا، فيا لبؤس هؤلاء مَنْ أصابهم العمى حتى ولو كانوا على أعلى شهرة في ما يختص بأمر هذا العالم، والأدهى من هذا أنهم يدربون أنفسهم على المزيد - من هذا الوهم - باقتناع أن هذا شيء جميل عوض الجمال الحقيقي، ويحصدون بذلك الفقر من فقر تدبيرهم، ويُخرجون على أنفسهم حكم البقاء في الظلام، وفي النهاية يرونه لهيب نار عوض أن يروه نوراً.
هذه هي فلسفة بعض الناس قديماً وحديثاً.]

[ومع أن الجميع هم صنعة يديه، فقليلون هم رجال الله، الذين بينهم المشترعون والكهنة والأنبياء، والإنجيليون والرسل، والرعاة، والمعلّمون، وكل زمرة الروحانيين والذين بينهم جميعاً مَنْ جننا اليوم نمدحه!
مع هؤلاء حُسب أثناسيوس مناظراً، فإزاء بعضهم يُحسب ممتازاً وتجاه آخرين - أقول متجرّناً - يُحسب متفوّقاً،

وبعض من هؤلاء أخذهم أثناسيوس نماذج لتفتُّحه الذهني، وآخرين معياراً لنشاطه والبعض مثلاً لاتضاعه، وآخرين في الغيرة المتقدة أو لمواجهة المخاطر أو للارتقاء إلى مستوى الأدب الجم، جامعاً من هذا وذاك كل أشكال الجمال

الخلقي، وأخذهم جميعاً معاً في نفسه، فخرج لنا من هذا كله نموذجاً متكاملأ في الفضيلة، متفوقاً بالفعل على كل أقرانه في الامتياز الفكري ... هذا الذي من أجل منفعتنا صار مثلاً لكل الآتين بعده!

[ولكي نتكلم عن أثناسيوس ونعطيه حقه تماماً من الكرامة سيكون عملاً أكثر مما يحتمله الموقف الآن في حديثي معكم، لأن هذا يكون عملاً تاريخياً أكثر منه مديحاً كنسياً للذكرى، ولكنني أشتهي بالفعل أن يكون موضوع اهتمامي مستقبلاً كتابة تاريخ له، لمسرة ومنفعة الآتين بعدنا، كما كتب هو تاريخ أنطونيوس ذلك الرجل الإلهي الذي فيه رسم قوانين الرهبنة على مستوى الرواية كقصة.

فأثناسيوس شب منذ حداثته على ممارسة الحياة الدينية وسيرة التقوى، بعد دراسة مختصرة للأدب والفلسفة، الأمور التي لا ينبغي أن يكون جاهلاً بها أو غير متمهراً فيها، وهو سينقدها مستقبلاً!

أمّا بخصوص نفسه الوثابة التوّاقة للعلا، فأبّت أن تبقى منحصرة في الأباطيل، بل ظل يهذ في كافة الأسفار للعهد القديم والعهد الجديد بعمق لم يبلغه أحد نظيره، فشبّ غزير التأمل والتفكير رصين السلوك وجمع هذا بذاك كما برباط ذهبي، قلماً استطاع أحد أن يجمع بينهما، مستخدماً السلوك في الحياة كمدخل للتأمل، والتأمل جعله ختماً على الحياة كلها، لأن مخافة الله بدء الحكمة، أي أن الخوف هو قماط الحكمة الأول، ولكن متى قطعت الحكمة أقمطة الخوف الأولى فإنها تنبثق إلى أعلى في جو المحبة، فتجعلنا الحكمة أحبّاء لله وأبناءً عوض عبيد.

[وهكذا شبّ أثناسيوس متمرناً، كما ينبغي لكل من أراد الآن أن يرأس على شعب ويأخذ لنفسه مهمة قيادة جسد المسيح (الكنيسة) بمقتضى مشيئة الله وعلمه السابق الذي هو قائم في الأساس قبل كل أعمال الله العظمي!

لقد سكب الله عليه هذه الخدمة الجليلة فجعلته واحداً من القرييين إلى الله، فاستأهل الخدمة المقدّسة وكرامتها، وبعد أن أكمل درجات التدبير بكل إخلاص (شماس وكاهن بدرجاتهما) استؤمن على الرئاسة العليا للشعب أو بالحري

مسؤولية العالم كله!

ولست أعلم هل أخذ الكهنوت مكافأة للفضيلة التي حاز عليها، أو أخذ الكهنوت ليكون نبعاً وحياءً للكنيسة؟

فالكنيسة صارت كإسماعيل على صدر أمه، فأغمي على إسماعيل من العطش، وأما الكنيسة فإلى الحق! أو صارت كإيليا عندما احتاج إلى خربير نهر خابور عندما جفت الأرض من الجذب فارتوى، لكي تبقى بذرة للصلاح حيّة في إسرائيل وحتى لا نبقي نحن أيضاً مثل سادوم ونشابه عمورة.

لذلك فنحن حينما انطرحنا أرضاً، ارتفع أثناسيوس كقرن خلاص لنا وكحجر زاوية أبقى الله عليه ليربطنا معاً وبنفسه، أظهره الله في حينه الحسن، أو قُل (أثناسيوس) هو النار التي أرسلها الله ليظهر به الشر الذي بيننا، أو هو (أثناسيوس) المذرة التي جاء بها الله لينقي أصحاب العقيدة الهشة المزعزعة من أصحاب العقيدة الراسخة الثابتة!

لذلك وجدته المسيح الكلمة طريقاً له،

والروح القدس وجد فيه مَنْ سيتنفس لحسابه!

وهكذا ولهذا كله بصوت جميع الشعب وليس على طريقة الشر والعش التي ابتدعوها بعدئذ (الهرطقة)، ولا بسفك الدماء والقهر، ولكن بأسلوب رسولي روحاني قادوه إلى الكرسي الرسولي الذي للقديس مرقس ليخلفه في التقوى وليس أقل منه في الإدارة والخدمة!!]

غريغوريوس اللاهوتي

تكملة عظة للقديس غريغوريوس النزينزي في مدح أثناسيوس عظة في القسطنطينية في عيد نياحته سنة 380م

■ كان أثناسيوس في أعماله متسامياً وفي عقله وتفكيره متواضعاً،

■ لا يُضارِع في الفضيلة، ومنفتحاً لكل مقارع ومحاجج،

- لطيفاً، متحرراً من روح الغضب، مترفقاً،
- حلواً في الحديث، وحلواً أكثر في التدبير، ملائكي الطلعة، وملائكياً أكثر في الفعل،
- هادئاً عند التعنيف والمراجعة، مقتعاً في المديح، هذا وذاك دون أن يكون مُسفاً في المزيد من الكيل،
- سواء للذي يعنّفه، فهو يعنّفه كأب، أو الذي يمدحه فهو يمدحه كرئيس ذي وقار،
- وكان في ترفّقه غير مأخوذ بعواطفه، وفي تعنيفه غير مَسوق بمرارة القسوة. فكان في هذا ذا وقار، وفي ذاك حكيماً متبصّراً بالعواقب!
- وفي الاثنين حقاً على مستوى التعقّل!
- وكان تدبيره كافياً لتمرين أولاده الروحيين بأقل حاجة إلى الكلمات!
- وكانت كلماته تغني كثيراً عن العصا!
- وكان استخدامه للعصا يغني عن السكّين (الحرم).]

[والله وحده الذي أنا واقف أمامه أتكلّم لحسابه قادر أن يعطيني ما يستحق أن يُقال في حق نفس مثل أثناسيوس التي وُهبّت قدراً كبيراً من النبالة وقدراً أقوى من سلطان الكلمة ...]

[هذا هو أثناسيوس. عندما كان في وسطنا، كان عمود الكنيسة.]
 [لقد كان قسطنطيوس يرى أن قمع كل مسيحيي الأرض شيء سهل!!
 ولكن أمام قمع أثناسيوس أو قمع تعاليمه لنا وجد الأمر جدّ خطيراً!
 وقنع الإمبراطور في نفسه أخيراً أنه لا فائدة من تدبير خطط لانتصاره علينا جميعاً طالماً هذا - أي أثناسيوس - له هذه القدرة على المقاومة والمعارضة!!]

الباب الثاني

القسم اللاهوتي

صراع أثناسيوس اللاهوتي ضد الهرطقة الأريوسية
مع عرض مختصر للأصول اللاهوتية
قبل قيام الأريوسية

مقدّمة

شخصية القديس أثناسيوس الروحية واللاهوتية

[لقد صار أثناسيوس معيار الأرثوذكسية الحي.]
بوييه (499)

لكي نقدّم للقارئ منهج أثناسيوس اللاهوتي يجدر بنا أن نعطي لمحة عن الخلفية الروحية التي كان يتحرّك فيها هذا القديس، أو بالحري المنابع الروحية التي كان يستمد منها هذا العملاق اللاهوتي الطاقة الروحية الجبّارة التي كفلت له هذه الأصالة اللاهوتية وهذا الصمود إزاء كافة المقاومات والاضطهادات والأجواء المعاكسة.

ومن أهم هذه المقوّمات الروحية:

أولاً: علاقته الشخصية بالمسيح.

ثانياً: تمسّكه بوسائل النعمة:

(أ) الأسرار (وعلى الخصوص الإفخارستيا).

(ب) الكتاب المقدّس.

ثالثاً: تمسّكه الشديد بالتقليد الكنسي.

رابعاً: اتصاله المستمر بالأوساط الرهبانية منذ شبابه المبكّر.

وقد أثر ذلك فيه من عدة نواحي:

(أ) تقواه ونسكه الشخصي.

(ب) ربطه الدائم بين العقيدة والتقوى في كتاباته.

(ج) امتلاكه حاسة روحية خاصة كان يستشف بها الجانب الروحي من كل

عقيدة.

(د) استقراؤه لصحة العقيدة من واقع ممارسات الرهبان العملية.

خامساً: إدراكه الواضح لمحدودية العقل في المعرفة اللاهوتية.

سادساً: تأكّيده أن علاقتنا بالمسيح هي علاقة كيانية أي علاقة ثبات متبادل.

أولاً: علاقته الشخصية بالمسيح

لقد كان قلب أثناسيوس يجيش بمحبة شديدة للمسيح. لقد كتب عنه أحد المعاصرين:

[إن أثناسيوس كان مشتعلًا بنار الحب للمسيح، ونحن نحتسب أن ما خاطب به أثناسيوس أحد أصدقائه يصلح أن يُقال عنه هو: "إني واثق أنك تقيم في معرفة المسيح وحبه فوق أي شيء آخر" (500). كما أنه يصلح أن يُلقَّب أثناسيوس بما لقب به هذا الصديق "فيلوخريستو" (501) كلقب يُعبِّر عن الحب نحو المسيح. فمحبة أثناسيوس للمسيح هي المفتاح لفهم كل حياة أثناسيوس وكل كتاباته.] (502)

لقد كان مثل بولس الرسول في اعتباره أن محبة المسيح هي نبراس الإيمان الصحيح. فبدون هذا الحب لا يمكن أن نبلغ الإيمان الصحيح. ولذلك كتب في نهاية رسالته للرهبان:

[إن كان أحد لا يحب ربنا يسوع المسيح - كما يقول الرسول (1كو 16:22) فليكن أناثيما.] (503)

وفي نهاية رسالته إلى أدلفيوس:

[سَلِّمْ عَلَى جَمِيعِ الَّذِينَ يَحْبُونَ رَبَّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحَ.] (504)

لقد كان اللقب المعتاد الذي يشير به إلى الأريوسيين هو "أعداء المسيح Cristomfcoi" وكان يدعو هرطقتهم بالهرطقة المعادية للمسيح:

(500) ضد الوثنيين 1.

(501) وفي "تجسُّد الكلمة: 56" يخاطب القارئ "أيها الرجل محب المسيح" ي filz criste

Ÿnqrwpe

(502) Ungar, in Fransiscan Studies, March 1946, vol. 6, No. I, p. 30.

(503) رسالة 52 للرهبان 564, vol. 4, p. N.P.N.F., 2nd Series,

(504) رسالة 60 إلى أدلفيوس 578, vol. 4, p. N.P.N.F., 2nd Series,

[لا يمكن أن تكون أي شركة بين الهرطقة المعادية للمسيح CristomfcJ
seiJafri وبين الكنيسة الجامعة.] (505)

وهذا في الواقع يكشف لنا حقيقة الصراع بين أثناسيوس والأريوسيين، فهو كان يحب المسيح فوق كل شيء وهم كانوا يعادون ذلك المسيح بعينه، إذ يريدون أن يجردوه من لاهوته. فلو كان الأمر مقتصرًا على عدا الأريوسيين لأثناسيوس شخصياً وما يقع عليه من اضطهادات وافتراءات، لكان الأمر هيناً عليه وأقل من أن ينتبه إليه أو يرد عليهم، إذ لم يكن محباً لنفسه على الإطلاق، بل كانت كل محبته مركزة في المسيح فاديه الحبيب. فمحبته الشديدة للمسيح هي التي تفسر لنا مقاومته المستميتة للأريوسيين حتى شهد له يوليوس أسقف روما أنه كان يستهين بالموت نفسه في سبيل ذلك (506). فنحن نصدّق على قول أونجار: “إن محبة أثناسيوس للمسيح هي المفتاح لفهم كل حياة أثناسيوس وكل كتاباته.”

لقد كان أثناسيوس يثبت نظره في المسيح في كل حين ويجتهد أن يتمثل به في كل تصرّفاتة:

[لم يكتفِ المخلص بأن يعلم الفضيلة بل قد مارسها هو أيضاً بنفسه، حتى إذا ما سمعناه ونظرنا إليه وجدنا فيه المثال الحي العملي لما يجب أن نفعله. فنحن نسمعه يقول: «تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب» (مت 29:11). فلا يمكن أن نجد تعليماً عن الفضيلة أكمل من الذي قدّمه المخلص بشخصه في حياته الخاصة. فنحن نجد فيه المثال الأعلى في الاحتمال ومحبة البشر والصلاح والقوة والرحمة والبر. فالذي يتأمل حياة الرب البشرية لا يعوزه شيء من الفضيلة. وقد أدرك بولس ذلك جيداً إذ قال: «كونوا متمثلين بي كما أنني أيضاً بالمسيح» (1كو 1:11). إن مشرعي الأمم لا يعرفون إلا أن يضعوا التشريعات فقط. وأمّا الرب الذي هو سيد الكون كله، فبسبب عنايته بخليقته لم يكتفِ بأن يضع لها النواميس، بل قدّم نفسه أيضاً مثلاً لها، حتى يتعلم منه طالبو الفضيلة كيف ينبغي أن يسلكوا.] (507)

(505) الدفاع ضد الأريوسيين N.P.N.F., 2nd Series, vol. 4, p. 132 60

(506) انظر رسالة يوليوس إلى شعب الإسكندرية بمناسبة عودة أثناسيوس صفحة 164.

(507) الرسالة إلى مرسللينوس عن المزامير: 13.

وكان أثناسيوس يضع باستمرار نصب عينيه الآيات الرئيسية التي عبّر بها الرسول عن علاقته العميقة بالرب يسوع:

+ «مع المسيح صُلِّبْتُ فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ.» (غل 2:20)
+ «حاملين في الجسد كل حين إماتة الرب يسوع ..» (2كو 4:10)
+ «وهو مات لأجل الجميع كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم بل للذي مات لأجلهم وقام.» (2كو 5:15)

فأثناسيوس يكرّر هذه الآيات بلا ملل ويوصي بها المؤمنين بتكرار ملحوظ على مدى رسائله الفصحية:

[فلننكر ذواتنا بالتمام ونقدّم نفوسنا للرب كما فعل القديسون، فلا نعيش بعد لنفوسنا بل للرب الذي مات من أجلنا. وهكذا كان يفعل بولس الطوباوي قائلاً: «مع المسيح صُلِّبْتُ فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ» .. فإننا نتشبهه بالقديسين حينما نعتزف بذلك الذي مات من أجلنا فلا نعود نعيش لنفوسنا بل المسيح هو الذي يحيا فينا.] (508)

[لقد كتب بولس الطوباوي إلى أهل كورنثوس أنه كان دائماً يحمل في جسده إماتة يسوع، ليس كأنه هو وحده له أن يفتخر بهذا بل كأن هذا يحق لهم، بل ولنا أيضاً يا إخوتي، فيا ليتنا نتشبه به في ذلك! يا ليتنا نفتخر بذلك في كل حين! فإن داود أيضاً يقول: «مَنْ أَجْلِكَ نُمَاتُ كل النهار، قد حُسبنا مثل غنم للذبح» فالذي يتحد بالرب بشبه موته يصير نشيطاً في كل فضيلة إذ يكون قد أمات أعضاءه التي على الأرض (كو 3:5)، وصلب الجسد مع الأهواء والشهوات، فهو بذلك يعيش بالروح ويسلك بحسب الروح (غل 5:24 و25)، وهو يذكر الله في كل حين ولا ينساه أبداً ولا يعمل الأعمال المائتة. والآن لكي نستطيع أن نحمل في الجسد إماتة يسوع يرشدنا بولس إلى الوسيلة قائلاً: «إذ لنا روح الإيمان عينه ... عالمين أن الذي أقام ربنا يسوع سيقمنا نحن أيضاً بيسوع ويحضرنا معكم!» (2كو 4:13 و14).] (509)

(508) رسالة فصحية 3:5 و4:518 N.P.N.F.

(509) رسالة فصحية 1:7 523 N.P.N.F.

[إن القديسين الذين ماتوا عن العالم ورفضوا إغراءات العالم وبذلك ربحوا ميتة كريمة بحسب المكتوب: «كريم أمام الرب موت قديسيه» (مز 5:115 السبعينية) هؤلاء يستطيعون أن يقولوا مثل الرسول: «مع المسيح صُلِّبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ» (غل 2:20). فإن الحياة الحقَّة هي هذه، أعني الحياة التي يحيها الإنسان في المسيح. فمع أنهم قد ماتوا عن العالم، إلا أنهم يسكنون السماء بنوع ما، ويتفكَّرون بالأمر العلوِيَّة. كما قال أيضاً أحد محبي هذه الأمور: «مع أننا نسلك على الأرض إلا أن مسكننا في السموات» [510]

[لقد وعد الرب قائلاً: «أنا هو خبز الحياة. مَنْ يُقبل إليَّ فلا يجوع وَمَنْ يُؤمن بي فلا يعطش أبداً» (يو 6:35). فإننا نحن أيضاً نستحق هذه الأمور إن كنا في كل حين نلتصق بمخلصنا ... وإن كنا ندوم بقربه ولا نبتعد منه أبداً قائلين له: «إلى مَنْ نذهب؟ كلام الحياة الأبدية عندك» (يو 6:68) ...

وهكذا إذ تفتتت نفوسنا منه ههنا نشترك مع الملائكة في تلك المائدة السماوية الروحانية، ولن نكون قارعين مرفوضين مثل الخمس عذارى الجاهلات، بل بالحري ندخل مع الرب مثل الحكيمات اللواتي أحببن العريس. لأننا حينما نُظهر إماتة يسوع في أجسادنا فحينئذ ننال منه الحياة والملكوت! [511]

إننا نلاحظ في هذا القول الأخير عبارة: «إن كنا في كل حين نلتصق بمخلصنا». نعم لقد كان أثناسيوس بالحق في كل حين يلتصق بالمخلص؛ بل كان هذا هو سر قوته الروحية غير العادية.

ومع أنه لم يكن يميل إلى أن يتكلَّم عن نفسه أو يفصح عن حياته الداخلية (512)، إلا أننا نستطيع أن نستشفها مما يقوله هو نفسه عن الآخرين. فقد كتب في مقدِّمة رسالته إلى أورسيزيوس (تلميذ باخوميوس الذي خلفه):

[أيها الأب .. يا مَنْ ترتقي في السلم الروحاني وتلتصق بالجواهر

(510) رسالة فصحية 3:7 N.P.N.F. 524

(511) رسالة فصحية 10:9 N.P.N.F. 527

(512) مثل آباء كبادوكية أو مثل أغسطينوس الذي كتب اعترافاته.

نعم لقد كان أثناسيوس في كل حين يتحد بالمسيح ويلتصق بالجوهر الإلهي، وهذه كانت أعظم قوة ضمننت له استقامة الرأي مع الصمود أمام كافة الاضطهادات والتيارات المضادة!

ثانياً: تمسُّكه بوسائط النعمة

(أ) الأسرار (الإفخارستيا):

سبق أن عرضنا في كتاب “الإفخارستيا والقداس” (514) أقوالاً عديدة للقديس أثناسيوس بخصوص الإفخارستيا والطقوس الكنسية عامة، وسنورد في ما يلي أهم ما جاء فيها بالإضافة إلى بعض الأقوال الجديدة.

وسيتبين منها القارئ مدى روحانية أثناسيوس في ممارسة هذا السر:

+ [مأكل فائق سماوي .. طعام روحاني .. يناله كل واحد روحياً فيصير في الجميع حافظاً لقيامة الحياة الأبدية.] (515)

+ [نحن نتأله باشتراكنا ليس في مجرد جسد إنسان بل بتناولنا من جسد الكلمة نفسه.] (516)

+ [إننا نحن جميعاً إذ نتناول من الرب الواحد بعينه

toà metalambñontejTMk toà a

نصير جسداً واحداً إذ يكون لنا في أنفسنا الرب الواحد

صت n >na K ع nTM n œcontejTM rion <j>[auto] (517)

+ [(الإفخارستيا) “طعام سماوي” .. لذلك علينا أن نستعد لكي نقترّب من

(513) Amélineau, *ADMG* xvii, 705.

(514) كتاب: “الإفخارستيا والقدس” للمؤلف الجزء الأول صفحة 454-465.

(515) إلى سيرابيون 4:19 P.G. 26, 668

(516) إلى مكسيموس رسالة 2:61 N.P.N.F. 579

(517) ضد الأريوسيين 3:22 N.P.N.F. 406 والفعل metalambñnw هو الاصطلاح الكنسي والأبائي للتعبير عن “التناول” من الإفخارستيا.

الحمل الإلهي ونلمس الطعام السمائي. [518]

+ [كما دعا تلاميذه إلى العلية هكذا يدعوننا "الكلمة" معهم إلى الوليمة الإلهية غير الفاسدة.] (519)

+ [أمّا هم - اليهود - فكانوا يحفظون العيد بأن يمتثلوا بلحم خروف غير ناطق، أمّا الآن فنحن نأكل من "كلمة الآب"!] (520)

+ [إننا نغندي من "طعام الحياة" فبينما نعطش إليه على الدوام تتلذذ نفوسنا في كل حين إذ ترتوي من دمه الكريم كما من ينبوع.] (521)

+ [الذي يشترك في "الخبز الإلهي" يشناق ويجوع دائماً إليه .. فحيد للقديسين والذين يحبون الحياة في المسيح أن يُنهضوا نفوسهم بالاشتياق إلى هذا الطعام قائلين: «كما يشناق الإيل إلى جداول المياه هكذا تشناق نفسي إليك يا الله. عطشت نفسي إلى الله الإله الحي. متى أجيء وأترأى قدام الله» (مز 42: 1 و2).] (522)

وفي رسائل أخرى يدعو الإفخارستيا:

+ [العشاء العظيم السماوي تص de<pnon t ص m o ٓ ga ٓظ rfnion.] (523)
+ [ذلك العشاء العظيم الذي يفوق العالم تص de<pnon ٓ ke<no t ص m ٓ ga ٓظ rfnion.] (524)

+ [«إن المسيح فصحننا قد دُبِح لأجلنا» إذن فليأكل منه كل واحد منا وليشترك بفرح واشتياق في هذا المأكل، فإن الرب يعطي نفسه بالتساوي للجميع ويصير في كل واحد «ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية».] (525)

(518) رسالة فصحية 5:5 N.P.N.F. 519

(519) رسالة فصحية 28 N.P.N.F. 550

(520) رسالة فصحية 3:5 N.P.N.F. 516

(521) رسالة فصحية 1:5 N.P.N.F. 517

(522) رسالة فصحية 6:7 N.P.N.F. 525

(523) رسالة فصحية 40 N.P.N.F. 552, P.G. 26, 1440

(524) رسالة فصحية 42 N.P.N.F. 552, P.G. 26, 1440

(525) رسالة فصحية 14:11 N.P.N.F. 538

+ [يا إختوتي، إن هذا الخبز لا يكون ههنا فقط طعاماً للأبرار، فليس القديسون على الأرض فقط يتذوقون هذا الخبز وهذا الدم، بل إننا سنتناولهما أيضاً في السماء حيث يكون الرب نفسه هو طعام الأرواح العليا والملائكة، فهو الفرحة الحقيقي لجميع الأرواح السمائية .. فمَنْذ الآن قد أعطانا الرب، «خبز الملائكة» (مز 25:78).

وقد وعد الذين يصبرون معه في تجاربه قائلًا: «أنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتاً لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي ..» (لو 22: 29 و30). فإيا لها من وليمة عظيمة يا إختوتي، وما أعظم توافق الذين يأكلون من المائدة السمائية وما أعظم تهليلهم! لأنهم يتلذذون ليس بالطعام البائد الذي يندفع إلى الخارج بل بالطعام الذي يعطي الحياة الأبدية. فمَنْ يُحسب أهلاً لهذا المحفل؟ ومَنْ يسعد بأن يُدعى ويُحسب أهلاً لهذا العيد الإلهي؟ بالحق «طوبى لمن يأكل خبزاً في ملكوت الله!» (لو 15:14). [526]

فهذا الوصف الحي الشيق للأبدية بصفتها عيداً سماوياً سنسعد فيه على الدوام بالتناول المستمر من الحمل المذبوح، يعكس لنا في الحقيقة مقدار الحرارة الروحية التي كان يعيشها أثناسيوس، وعلى الأخص محبته الشديدة لسر الإفخارستيا وتطلُّعه المستمر للعالم الآخر.

(ب) الكتاب المقدس:

يقول غريغوريوس النزينزي في عظته عن أثناسيوس:

[إنه ظل يهذب في كافة أسفار العهد القديم والعهد الجديد بعمق لم يبلغه أحد نظيره، فشبَّ غزير التأمل، رصين السلوك، وجمع هذا بذاك كما برباط ذهبي قلماً استطاع أحد أن يجمع بينهما، مستخدماً السلوك في الحياة كمدخل للتأمل، والتأمل جعله ختماً على الحياة كلها.] (527)

إذن، فقد تربى أثناسيوس منذ شبابه المبكر على الهذيب في الكتاب المقدس بعهديه:

(526) رسالة فصحية 8:9 N.P.NF. 526

(527) عظة 21 - انظر صفحة 309.

“بعمق لم يبلغه أحد نظيره”، بل إن قراءة الكتاب المقدس ظلت هي شهوته المفضلة كل أيام حياته. نستنتج ذلك مما يقوله هو بنفسه في رسالته لصديقه مرسلينوس: [عرفت من حامل الرسالة أنك تصرف وقتك في قراءة الكتاب المقدس كله ولا سيما سفر المزامير. وإني أمتدحك لأنني أنا أيضاً مثلك أجد لذتي العظمى في قراءة المزامير بل والكتاب كله أيضاً.] (528)

فكان يعتر بهذه القراءة أفضل من أي شيء آخر:
[إن الكتاب المقدس يكفيننا عوضاً عن أي شيء آخر.] (529)
[إن الكتب المقدسة الملهمة كافية لإعلان الحق.] (530)

ويقول عنه الأب بوييه:

“إن أثناسيوس هو الذي أمسك بدفة الكنيسة لينقذ تعليمها اللاهوتي من الانحراف وراء النظريات الفلسفية اليونانية عن اللوغس إلى الالتزام بالأمانة المطلقة للوحي الكتابي عن الله.” (531)

وفي ذلك يقول أثناسيوس نفسه:

[إن تعليم الحق يكون أدق ما يمكن حينما نستمد من الكتاب المقدس وليس من مصادر أخرى.] (532)

وكان دائماً يقرن العهد القديم بالجديد:

[إن العهد الجديد يقوم على العهد القديم ويشهد له. فإن كانوا يرفضون القديم فكيف يستطيعون أن يقبلوا الجديد؟ لذلك قال ربنا: «فتشوا الكتب لأنها هي التي تشهد لي»، فكيف يستطيعون أن يعترفوا بالرب بدون أن يفتشوا الكتب

(528) الرسالة إلى مرسلينوس: 1.

(529) الرسالة إلى أساقفة مصر: 4 N.P.N.F. 225 انظر أيضاً كتاب المجامع: 6 N.P.N.F. 453

(530) ضد الوثنيين: 1 N.P.N.F. 4

ولا شك أن أثناسيوس قد تلقن هذا المبدأ منذ شبابه المبكر من معلمه أنطونيوس الذي يقول بالحرف الواحد: [إن الأسفار المقدسة كافية للتعليم.] [حياة أنطونيوس بقلم أثناسيوس 16]

(531) Bouyer, *Histoire de la Spiritualité Chrétienne*, 1966, t. I, p. 498.

(532) الدفاع عن قانون الإيمان النيقاوي 32 N.P.N.F. 172

لذلك لم يكن أنثاسيوس يكف عن أن ينصح رعيته بقراءة الكتاب المقدس بعهديه، ويظهر ذلك على الخصوص من رسائله الفصحية:

[إن عبيد الرب الصالحين والأمناء الذين صاروا «متعلمين في ملكوت السموات ويخرجون من كنوزهم جدداً وعتقاء» (مت 13:52)، الذين **يلهجون بكلام الله** «حين يجلسون في البيت وحين يمشون في الطريق وحين ينامون وحين يقومون» (تث 6:7) يصيرون ثابتين في الإيمان، فرحين في الرجاء، حارين في الروح ... **فبالتأمل في الوصية** يثبتون أمام ما يقع عليهم من الضيق ويُرضون الله ويقولون بثقة: «ضيق وشدة أدركاني ولكن وصاياك هي **درسي**» (مز 119:143) ... إذن فتأمل الوصية ضروري يا أحبائي مع اللهج المستمر بالفضيلة «لكي يكون إنسان الله كاملاً متأهباً لكل عمل صالح» (2تي 3:17). فهذه الأمور نربح موعد الحياة الأبدية كما كتب بولس إلى تيموثاوس داعياً التأمل رياضة روحية قائلاً: «روّض نفسك للتقوى لأن الرياضة الجسدية نافعة لقليل، ولكن التقوى فنافعة لكل شيء إذ لها موعد الحياة الحاضرة والعنيدة» (1تي 4:7 و8).[534]

ويعلق العالم Resch على هذا النص من أنثاسيوس قائلاً: «إذن فالتقوى التي تشمل ممارسة جميع دروب الفضيلة يعتبرها أنثاسيوس مرادفة للتأمل في الكتاب المقدس. فمن هذا يظهر أن التأمل ليس في رأي أنثاسيوس مجرد دراسة فكرية نظرية ولكنه يؤول بالضرورة إلى **الممارسة العملية** التقوية لجميع أوجه الفضيلة» (535). وهذا يعود بنا إلى ما سمعناه من غريغوريوس النزينزي عن منهج أنثاسيوس **العملي** في دراسة الكتاب المقدس: [إنه جمع **التأمل بالسلوك** كما برباط ذهبي]. وهذا المنهج العملي نجده على الخصوص في تفسير أنثاسيوس للمزامير وفي رسالته إلى مرسلينوس عن المزامير، وقد كتبهما ليساعد النساك على الاستفادة العملية من تلاوة

(533) الرسالة إلى أساقفة مصر 4 N.P.N.F 224

(534) رسالة فصحية 11 و6:7 535 N.P.N.F.

(535) Resch, *La doctrine ascétique des premiers maîtres égyptiens*, 1931, p. 150.

[اعكف على قراءة المزامير بحكمة وسيرشدك الروح إلى فهم معانيها، وحينئذ تتمثل بحياة القديسين الذين كتبوا هذا السفر بإرشاد الله.] (537)

ويعلق العالم Resch على هذه الرسالة إلى مارسلينوس قائلاً: «إنه يظهر منها أن أثناسيوس كان له الفضل الأعظم في نشر الوعي الكتابي في الأوساط الرهبانية بمصر، وأنه كان أكثر من اهتم بذلك بغيره وبقدرة على الإقناع.» (538)

ونقدم في ما يلي بعض الأمثلة لتفسير أثناسيوس للمزامير:
+ تفسير مزمور 22:70 حسب السبعينية «أسبحك بالقيثارة يا الله»:
[إن النفس حينما لا تصنع شيئاً باطلاً وتخلو من الأحاسيس الضارة لإيمانها ولحياتها، فإنها تُدعى بحق قيثارة روحية $\frac{3}{4}$ noht].

ويكمل هذا المعنى في رسالته إلى مرسلينوس (27) قائلاً:
[إن النفس التي لها فكر المسيح - بحسب قول الرسول في 1كو 2:16 - ينبغي أن تتوافق مع هذا الفكر كتوافق القيثارة مع مَنْ يحرّك أوتارها ... هكذا يجب أن يكون في القيثارة الروحية التي هي الإنسان، يجب أن تخضع الأعضاء والحواس جميعاً لفكر المسيح وتصير طيعة لمشية الله.]

+ تفسير مزمور 8:100 حسب السبعينية «في أوقات الغدوات كنت أقتل جميع خطاة الأرض»:

[إن المزمّر (داود) يشير بكلمة «الخطاة» إلى الأفكار الشريرة التي يبيدها حينما يقوم في الغدوات ليصلي ويحفظ فكره في حضرة الله.]

+ تفسير مزمور 96:118 حسب السبعينية «لكل تمام رأيت منتهى أمّا وصاياك فواسعة جداً» يقول إن الحياة الروحية نمو متواصل:

[حتى أن اكتمال الدرجة السابقة هو بعينه بداية للدرجة اللاحقة، فالإنسان حينما ينتهي يكون في نفس الوقت مبتدئاً بحسب قول الكتاب (سيراخ 6:18).]

(536) Ibid., p. 149.

(537) الرسالة إلى مارسلينوس: 33.

(538) Resch, *op. cit.*, p. 164.

ثالثاً: تمسّكه الشديد بالتقليد الكنسي

لقد نشأ أثناسيوس داخل الكنيسة متمسكاً بتقليدها، وكان يعتز بأنه يفهم الأسفار المقدّسة [فهماً كنسياً] [diŋnoian™kklhsiaстик] (539) أي فهماً يتوافق مع تقليد الكنيسة الأولى الذي استلمته من الرب نفسه:

[لنتأمّل إذن في تقليد الكنيسة الجامعة منذ البدء j parŋdosinεt³/4n™x arc وتعاليمها وإيمانها التي أعطاهها الرب وكرز بها الرسل وحفظها الآباء، على هذه تأسست الكنيسة، ومنّ يسقط من هذه لا يعتبر بل ولا يكون مسيحياً.] (540)

ويقرّر العالم Quasten:

“إن أعظم فضل لأثناسيوس يتركز في أنه دافع عن المسيحية التقليدية وحفظها من خطر التلوّث بالفكر اليوناني Hellenization الكامن في هرطقة أريوس وأتباعه.” (541)

بل إن أثناسيوس نفسه يقرّر هذه الحقيقة: إن سبب انحراف أريوس بل وجميع الهرطقات هو أنهم لم يلتزموا بالتقليد الكنسي المسلّم من الرسل:

[إن جميع الذين اخترعوا الهرطقات الخبيثة، وإن كانوا يستشهدون بالأسفار المقدّسة إلاّ أنهم لا يتمسّكون بالأراء (التفاسير) التي سلّمها القديسون، بل يعتبرونها مجردّ تقاليد للناس، ولذلك يضلّون إذ لا يعرفونها بالحق ولا يدركون قوتها، ولهذا السبب يمدح بولس أهل كورنثوس لأن آراءهم كانت موافقة لآرائه (1كو 2:11).] (542)

[إن الرسول يمدح أهل كورنثوس قائلاً: «فأمدحكم أيها الإخوة لأنكم تذكروني

(539) ضد الأريوسيين 1:44 331 N.P.N.F. 101. P.G. 26,

انظر أيضاً قول (84) حيث يتكلم أثناسيوس أيضاً عن “النظرة الكنسية” tskopصn tصn n
n™kklhsiaстик لكل أعمال الرب.

(540) إلى سيرابيون 1:28 593,506 P.G. 26,

(541) Quasten, *Patrology*, vol. III, p. 66.

(542) رسالة فصحية 2:6 511 N.P.N.F.

في كل شيء وتحفظون التقاليد كما سلّمتمها إليكم» (1كو 2:11) وأمّا هؤلاء (الأريوسيون) الذين يحتقرون آراء الذين سبقوهم يليق بهم حقاً أن يقولوا بلا حياة عكس ذلك لرعاياهم أي «إننا نمدحكم لأنكم لا تذكرون الآباء ونزيدكم مدحاً حينما تحتقرون تقاليدهم» [543]

[هذا هو جنون وشطط هؤلاء الناس - بحسب ما وصفناه - وأمّا إيماننا نحن فمستقيم ونابع من تعليم الرسل وتقليد الآباء ومشهود له من العهدين الجديد والقديم كليهما.] (544)

[إن أساقفة نيقية لم يخترعوا هذه العبارات من أنفسهم بل كانت لهم شهادات من الآباء لما سجّلوها. فإن أساقفة العصور السالفة في رومية العظمى وفي مدينتنا (الإسكندرية) قد كتبوا منذ أكثر من 130 عاماً وحرّموا كل من يقول إن الابن مخلوق أو أنه ليس من جوهر الأب.] (545)

رابعاً: اتصاله المستمر بالأوساط الرهبانية

لقد تعرّف أثناسيوس على أنطونيوس منذ شبابه المبكر في الصعيد وعاش بجواره فترة، وهو نفسه يخبرنا بذلك ويعتز بأنه سكب ماءً على يديه كعلامة للتلمذة له (546): [لقد رأيت أنطونيوس مراراً وتعلّمت منه لأنني لازمته زمناً طويلاً وسكبت ماءً على يديه.] (حياة أنطونيوس، المقدّمة)

وقد وصفنا للقارئ شدة تأثر أثناسيوس بشخصية أنطونيوس الروحية (انظر صفحة 32 و33). وقد سمع كذلك أخبار باخوميوس وهو لم يزل شاباً في الصعيد (انظر صفحة 53)، وظلّت اتصالاته مستمرة بالأوساط الرهبانية بعد رسامته سواء كان بالأديرة الباخومية بالصعيد أو بأنطونيوس وتلاميذه في بسبير أو بأمون في

(543) عن المجامع 14 N.P.N.F. 457

(544) رسالة 6:60 N.P.N.F. 576

(545) إلى أساقفة إفريقيا 6 N.P.N.F. 492

(546) لقد كان سكب الماء على يدي المعلم على غرار ما فعله أليشع بمعلمه إيليا (2مل 11:3) علامة للخضوع لأبوته.

نتربيا، أحياناً بالزيارات الرعوية وأحياناً أخرى بالرسائل، وقد أسهبنا في شرح ذلك (انظر صفحة 178 إلى 188).

وقد ساندّه أنطونيوس في عدة مناسبات في جهاده ضد الأريوسيين (صفحة 105 إلى 107 وصفحة 128-129) وكذلك أيضاً باخوميوس ورهبانه (صفحة 130-131، 171) وفي نفيه الثالث والرابع تعاونت جميع براري مصر المملوءة بالرهبان في إيوائه وإخفائه من مطارديه (صفحة 242-244 وصفحة 291-295). وفي هذه الفترة التي قضاها أثناسيوس بين أصدقائه الرهبان وهو ينتقل متخفياً بين أديرتهم وقلاليهم ومغايرهم، وضع أعظم مؤلفاته اللاهوتية، وهذا يدلنا بلا شك على مقدار الراحة الروحية والنفسية التي كان يشعر بها بين الرهبان حتى كان ذلك ينعكس على إنتاجه الفكري.

لذلك فبسبب اتصاله المستمر بالأوساط الرهبانية منذ صبوته بالصعيد وحتى إلى آخر أيامه، لا نعجب أن نرى روحانية الرهبان قد أثرت في صميم شخصيته الروحية واللاهوتية بعدة تأثيرات إيجابية نذكر منها ما يلي:

(أ) تقواه ونسكه:

لقد أجمع كل شعب الإسكندرية على اختياره ليكون رئيس أساقفة للإسكندرية قائلين:

[إنه مسيحي تقي وواحد من النُّسَّاك (547)]

عظ labء cristian ص n ka ^ > na tîn øskhtîn .n

وبالفعل كان يتميّز أثناسيوس بالتقوى وكان محباً للصلاة، حتى نجده يرأس بنفسه بصفة عادية صلاة السهر التي كانت تدوم طول الليل استعداداً للقُدَّاس في الصباح، وهو نفسه يخبرنا بذلك عفواً أثناء وصفه للاضطهاد الذي وقع عليه.

[لقد هجم سيريانوس على الكنيسة بعساكره بينما كنا مشغولين في الخدمة .. لأنه كان سهرّاً تحضيراً للشركة في الغد ..] (548)

(547) الدفاع ضد الأريوسيين 6 103 N.P.N.F.

(548) الدفاع لدى قسطنطينوس 25 247 N.P.N.F.

[... بينما كنا نقيم السهر في بيت الرب ومهتمين بالصلوات ...](549)

كذلك يخبرنا عفواً في إحدى رسائله إلى سيرابيون أنه كثيراً ما كان يلجأ إلى الصلاة أثناء تأليفه الكتب اللاهوتية، فكان كلما وجد صعوبة في شيء يقوم ويصلي حتى يأخذ الإلهام من الله:

[وبينما أنا متفكر في هذه الأمور بدا لي أن المعنى المخفي في هذه الكلمات ذو عمق كبير، فبدأت أولاً أصلي كثيراً للرب الذي جلس على البئر ومشى على المياه، ثم عدت أيضاً أتأمل في التدبير الحادث فيه من أجلنا لعلّي أتلّس منه معنى هذه الكلمات.](550)

(ب) ربطه الدائم بين العقيدة والتقوى أي بين المعرفة والحياة العملية:

[إن العقيدة والتقوى مرتبطين كمثل أختين: فالذي يؤمن بالله يصير تقياً وكذلك الإنسان التقي يكون له إيمان أقوى. لذلك فالذي يصنع الإثم يضل أيضاً بلا شك من جهة الإيمان والذي يترك التقوى يفقد أيضاً الإيمان القويم.](551)

[إن دراسة الكتب ومعرفتها بالحقيقة تتطلب حياة صالحة ونفساً نقية وفضيلة لائقة بالمسيح، حتى إذا ما استرشد بها العقل استطاع أن يدرك الله الكلمة على قدر ما تستطيع الطبيعة البشرية ذلك. فإنه بدون ذهن نقي ومماثلة سيرة القديسين لا يستطيع أحد أن يدرك أقوال القديسين ... فمن أراد أن يدرك فكر الناطقين بالإلهيات gwnzqeol يجب عليه أولاً أن يغسل نفسه ويقوم حياته ويقترب إلى القديسين بالتشبه بأعمالهم حتى إذا ما اشترك في سيرتهم استطاع أيضاً أن يفهم ما أعلنه الله لهم.](552)

فعلم اللاهوت aqeolog... عند أنثاسيوس مرتبط أشد الارتباط بالقداسة، فهو يقوم أساساً على قداسة السيرة مع إلهام وإعلان من الله! فبدون القداسة لا نستطيع أن نفهم ما أعلنه الله للقديسين!

(549) تاريخ الأريوسيين إلى الرهبان 81 N.P.N.F. 301

(550) إلى سيرابيون 4:14 656 P.G. 26

(551) رسالة فصحية 11:9 536 N.P.N.F.

(552) تجسّد الكلمة 57 67 N.P.N.F.

[فحينما تنزع النفس عنها وسخ الخطية ولا تبقي في ذاتها إلا ما هو ظاهر وموافق للصورة الأصلية، فحينئذ حينما تصير هذه الصورة مصقولة فيها، ترى النفس فيها - كما في مرآة - "الكلمة" صورة الآب بل إنها فيه تتمثل الآب نفسه لأن المخلص هو صورة الآب.] (553)

أي أن نقاوة النفس تؤهلها لتأمل "الكلمة" على حقيقته:
[وهكذا فإن نقاوة النفس تؤهلها لتأمل الله داخلها، كما يقول الرب: «طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله».] (554)

[وقد أكد الرب ذلك وثبته قائلاً: «إن ملكوت الله داخلكم».] (555)

(ج) صارت له حاسة روحية يستشف بها الجانب الروحي من كل عقيدة:

يقول العالم Cavallera:

«لقد كان أثناسيوس متمكناً في العقيدة حتى لم يكن له مثيل في ذلك فإني لا أجد أحداً في القرن الرابع يضاهيه ... ولا سيما في عمق حاسته المسيحية التي كانت تدفعه تلقائياً إلى أن يكشف في كل عقيدة عن الجانب الذي يجعلها متصلة بصميم الحياة الروحية لإحياء النفوس وإنعاشها وتجديد حياتها الروحية واندفاعها نحو الخير. فإننا لن نتعلم من أحد آخر أفضل منه كيف يمكن أن تتبع من العقائد - حتى من أصعبها على الإدراك البشري - ينابيع مياه حية ودفقات روحية عالية. فالثالوث ليس عند أثناسيوس مجرد حقيقة نظرية يلزمنا الإيمان بأن نقبلها بعقولنا دون أن يكون لها أثر فعال في سلوكنا العملي، بل إن الثالوث عنده هو كل شيء في الحياة الروحية كما في العقيدة المسيحية على حد سواء.» (556)

وبنفس المعنى يقول الأب Bouyer:

«إن كل كتابات أثناسيوس تؤكد باستمرار الحقيقة التالية: إنه قد صار في مقدور الإنسان أن يحيا حياة إلهية بسبب أن كلمة الله تأنس وأنه صار يُحيي

(553) ضد الوثنيين 22 3:34 N.P.N.F.

(554) ضد الوثنيين 5 4:2 N.P.N.F.

(555) ضد الوثنيين 20 1:30 N.P.N.F.

(556) Cavallera, *Saint Athanase*, Paris 1908, pp. 34-36.

جميع الذين ينتمون إليه، بمجرد أن يكونوا مستعدين أن يتخلّوا عن كل شيء من أجله ... فإن كُنّا نتساءل عن أكثر شيء تحمّس له أثناسيوس لدرجة أنه كرّس حياته من أجله نستطيع أن نقول إنه الحياة المسيحية المعاشة بكل عمقها. فأثناسيوس قبل أن يصير اللاهوتي البارع (مع أنه كان كذلك) وقبل أن يكون الأسقف الذائع الصيت حتى صار ينافس في ذلك أبطال الأساطير، أثناسيوس من قبل كل ذلك كان إنساناً يريد أن يحيا الحياة الإلهية التي أحضرها الكلمة المتجسّد إلى عالم الإنسان، وذلك بالسلوك في الطريق النسكي الذي صار مزدهراً (في الرهبنة) في نفس الفترة الزمنية. هذه كانت شهوته الأولى التي لا نراه قد حاد عنها قط!» (557)

وأما العالم Resch فيقول في ختام كتابه المذكور عن النسك في القرن الرابع بمصر، ما ملخصه:

«إن أثناسيوس قد عبّر بأسلوب لاهوتي عمّا كان يختبره شخصياً وعمّا كان الرهبان المعاصرون له يعيشونه دون أن يُعبّروا عنه، فقد زوّد العقيدة العامة بأسرار حياة التألّه في المسيح التي كان يلذ له أن يتكلّم عنها، تلك الأسرار التي تعلّمها من خبرته الروحية الخاصة التي كانت بلا شك غنية جدّاً، كما أيضاً من اتصاله المستمر بالرهبان القديسين المعاصرين له.» (558)

ويعود العالم Bouyer ويكمل هذا المعنى قائلاً:

«ونعتقد أن هذا المنهج في فهم النسك الرهباني (على أنه ممارسة الحياة الإلهية التي أحضرها الكلمة المتجسّد إلى عالم الناس) قد نال استحسان مؤسّسي الرهبنة الأوائل مثل أنطونيوس وباخوميوس، لأنهم لم يكفّوا عن مساندة أثناسيوس سواء كان بالتأييد العلني أو بالمودّة الشخصية. فنحن نعلم كيف عبّر أنطونيوس عن مودته الخاصة للبابا أثناسيوس بأن ترك له ثوبه وجلد الغنم الخاص به.» (559)

(557) Bouyer, *L'Incarnation et l'Eglise - Corps du Christ ...* pp. 25-26.

(558) Resch, *op. cit.*, pp. 266-267.

(559) Bouyer, *loc. cit.*

(د) صار يبرهن على صحة العقيدة من واقع ممارسة الرهبان العملية:

لقد كتب عنه هارناك:

“إنه استطاع أن يربط قضية الهوموؤسيون ربطاً وثيقاً محكماً بالنسك والعبادة التقوية”.

وفي نهاية سيرة أنطونيوس ينصح أثناسيوس بأن يُقرأ على الوثنيين:
[لكي يعرفوا أن ربنا يسوع المسيح هو الله وابن الله، وأن المسيحيين الذين يخدمونه بالحق ويؤمنون به يبرهنون على عدم ألوهية الشياطين ألتهم بل يدسونها بأقدامهم ويطردونها.] (560)

وفي كتاب تجسّد الكلمة يقول:

[على أن هذه البراهين التي قدّمناها لا تستند إلى مجرد حجج كلامية، ولكن هناك اختبارات عملية تشهد لصحتها. فليذهب من أراد ويعاين دليل العفة في عذارى المسيح (الراهبات) والشبان الذين يمارسون حياة العفة المقدّسة (الرهبان).] (561)

وفي حياة أنطونيوس يبيّن كيف أخذ أنطونيوس يقنع الوثنيين أولاً بالكلام النظري، ثم قام وقدّم الدليل على صحة كلامه بأن رشم بعلامة الصليب بعض المرضى فقاموا معافين (حياة أنطونيوس 79).

وكثيراً ما يعود أثناسيوس ويبيّن قوة علامة الصليب كدليل على ألوهية المسيح:
[بمجرد علامة الصليب يستطيع الإنسان أن يفضح خداعات الشياطين.] (562)
[وليات من أراد أن يختبر أقوالنا السابقة عملياً وليستعمل وسط خداع الشياطين وخزعات المنجّمين وأعاجيب السحر، علامة الصليب، فيرى كيف تهرب الشياطين بواسطته ويبطل التنجيم ويبيد السحر والعرافة، فمن هو المسيح هذا؟ وما أعظمه؟!] (563)

(560) حياة أنطونيوس 94 N.P.N.F. 221

(561) تجسّد الكلمة 1:48 و2:62 N.P.N.F. 62

(562) تجسّد الكلمة 2:47 N.P.N.F. 62

(563) تجسّد الكلمة 3:48 و4:62 N.P.N.F. 62

[فإن كان المخلص يعمل الآن مثل هذه الأعمال العظيمة بين الناس ... فهل يشك أحد بعد ذلك أن المسيح حي بل أنه بالحري هو نفسه "الحياة"؟!][564]

خامساً: إدراكه الواضح لحدود العقل في المعرفة اللاهوتية

يقول العالم Quasten:

“إن تعليم أريوس كان نتاجاً مميزاً لللاهوتية العقلانية

a typical product of theological rationalism

وقد أَرْضَى لدرجة كبيرة نوي التفكير السطحي لأنه أعطاهم حلاً رخيصاً ومبسّطاً (تبسيطاً مخللاً) لأصعب مشكلة لاهوتية، ألا وهي نوع العلاقة بين الله الأب والابن.”(565)

“وإزاء هذا الاتجاه العقلاني كان أنثاسيوس يؤكّد أولوية الإيمان على العقل، فالعقل لا يجوز أن يُحتكم إليه في الأمور الفائقة الطبيعة، لأن الإنسان بعقله يعجز حتى عن أن يفحص طبيعته الخاصة، فكم بالحري أن يتكلم عن طبيعة الله الفائقة.”(566)

وهذا هو ما يقوله أنثاسيوس في ذلك:

[كيف يتجاسر غير الأتقياء ويتكلمون بجهالة على غير ما يجب، إذ أنهم مجرد بشر وغير قادرين حتى على وصف ما على الأرض. ولماذا أقول ما على الأرض؟ بل لعلمهم يقولون لنا ما هي طبيعتهم الخاصة إن كانوا قادرين على فحصها! ولكنهم بجسارة واعتداد بالذات لا يرتعدون من أن يخترعوا النظريات عن الأمور التي تشتهي الملائكة أن تطلع عليها (1بط 12:1)، التي تفوقهم بمثل هذا المقدار، سواء كان من جهة طبيعتها أو قدرها السامي. لأنه أي كائن أقرب إلى الله من الشاروبيم والسارافيم؟ ومع ذلك فإنهم لا يشخصون إليه ولا يمسون الأرض بأرجلهم أمامه ولا يكشفون وجوههم بل يغطونها

(564) تجسّد الكلمة 4:30 N.P.N.F. 52

(565) Quasten, *op. cit.*, p. 8.

(566) *Ibid.* p. 66.

ويقدّمون التسابيح بشفاه لا تفتن، ولا يفعلون شيئاً آخر غير تمجيد الطبيعة الإلهية الفائقة بتسبحة الثلاثة تقديسات.](567)

بهذا الوصف يحدّد لنا أثناسيوس - ولو بطريق غير مباشر - ما يجب أن يتميّز به اللاهوتي الحقيقي إزاء حقيقة الله: فهو يجب أولاً أن لا يرتئي فوق ما ينبغي أن يرتئي، ثم أن يُنهض روحه بمشاعر التقوى والعبادة والوقار أمام الحضرة الإلهية الفائقة متمثلاً بالشاروبيم والسارافيم الذين يغطّون وجوههم أمام الطبيعة الإلهية الفائقة ولا يكفون عن التسبيح المتواصل. فالمعرفة اللاهوتية الحقّة تمتزج بالضرورة بروح التسبيح والتمجيد وتقديم العبادة اللانقّة للثالوث:

[إزاء هذه الأمور يستتر الشاروبيم بأجنحتهم. فمنّ يُريد أن يفحصها بزيادة فليسمع القائل: «لا تكن حكيماً بزيادة لئلاً تُخرب نفسك» (جا 16:7) فإن ما سلّم بالإيمان لا ينبغي أن يفحص بالحكمة البشرية بل أن يُقبل بخبر الإيمان.](568)

[إن تسليم اللاهوت (المعرفة اللاهوتية) لا يمكن أن يكون بالبراهين الكلامية بل بالإيمان وبأفكار التقوى مع الوقار.](569)

وهذه بالذات - التقوى مع الوقار - هي التي كانت تعوز تعليم الأريوسيين، فأساس نكبة أريوس اللاهوتية هو كما سبق أن قلنا: "أنه كان يملك معرفة دينية ولكن لم يكن يملك أخلاقاً دينية... فالتقوى غائبة في الفكر اللاهوتي لأريوس، فالذي يدرس تعليم أريوس يُصدم بحقيقة الانفصال الواضح بين التقوى والمعرفة." (انظر صفحة 36 و487).

سادساً: إدراكه أن علاقتنا بالمسيح هي علاقة كيانية أي علاقة ثبات متبادل

إننا نلمس هنا الإلهام الأساسي الذي وجّه كل تفكير أثناسيوس اللاهوتي في ردوده

(567) مقالة في تفسير لو 22:10 - فقرة 6 N.P.N.F. 90

(568) إلى سيرابيون 17:1 26, 569 P.G.

(569) إلى سيرابيون 20:1 26, 577 P.G.

العقائدية على الأريوسيين. هذه الفكرة الملهمة الأساسية تتلخّص في أنه يوجد اتصال كيانى أساسى وعميق بين المسيح في حال تجسّده وبين سائر أعضاء الجنس البشرى. فكل ما صنعه المسيح بجسده الخاص قد صار له رنين أو أثر فعّال في سائر أعضاء الجنس البشرى.

لقد كان الأريوسيون يعثرون في جميع الآيات التي تصف المسيح بالضعف ويستدلون منها أنه أقل من الأب في الجوهر، والسبب في ذلك أن منهجهم كان منهجاً نظرياً يريد أن يفحص كيان المسيح في ذاته بمعزل عن عمله الخلاصى. ولكن أنثاسيوس يجيب: هذا مستحيل، لأن كيان المسيح المتجسّد مرتبط أساساً بعمله الخلاصى:

[فالناس جميعاً لهم جسد ليعيشوا به ويوجدوا به، وأمّا كلمة الله فقد تأنّس لكي يقدّس الجسد.] (570)

[فكل ما كُتب في ما يختص بناسوت مخلصنا ينبغي أن يُعتبر لكل جنس البشرية لأنه أخذ جسداً نحن وعرض في نفسه ضعف البشرية.] (571)

[فلما اغتسل الرب في الأردن كأنسان كنّا نحن الذين فيه وبواسطته نغتسل، وحينما اقتبل الروح نحن الذين كنّا بواسطته مقبلين هذا الروح.] (572)

[فحينما يُقال عنه بشرياً أن الله قد “مسحه” (أع 10:38)، نكون نحن في الواقع الذين ننال فيه المسحة. وهكذا أيضاً حينما يُقال عنه إنه اعتمد نكون نحن الذين فيه نعتمد.] (573)

[فهو نفسه الذي يقدّس كل شيء يقول للأب: «من ولأجلهم أُقدّس أنا ذاتي» (يو 17:19)، ليس بمعنى أن “الكلمة” يمكن أن يزداد في القداسة، بل بمعنى أنه هو نفسه يقدّسنا نحن جميعاً في ذاته.] (574)

(570) ضد الأريوسيين 10:2 N.P.N.F. 353

(571) الدفاع عن هروبه 13 N.P.N.F. 259

(572) ضد الأريوسيين 47:1 N.P.N.F. 333

(573) ضد الأريوسيين 48:1 N.P.N.F. 335

(574) ضد الأريوسيين 41:1 N.P.N.F. 330

[وبنفس المعنى ينبغي أن نفهم الآية التي نحن بصددّها: «لذلك رَفَعَهُ اللهُ» (في 2:9)، ليس بمعنى أنه هو نفسه (الكلمة) يمكن أن يزداد في الرفع إذ أنه هو العلي، بل لكي يصير لنا براً ونصير نحن الذين نرتفع فيه!][575]

[إذن فقد قيل عنه بشرياً من أجلنا وبسببنا أن الله “رَفَعَهُ” حتى كما أننا بموته قد مُتْنَا جميعاً في المسيح، هكذا في المسيح عينه نرتفع نحن أيضاً (برفعته) ونقوم من الموت ونصعد إلى السموات.][576]

فمعمودية الرب هي معموديتنا فيه، ومسحة الرب هي مسحتنا نحن فيه، وقداسته هي قداستنا نحن فيه، وموته هو موتنا نحن فيه، وقيامته ورفعته وصعوده إلى السموات هذه كلها هي لنا نحن فيه. هذا هو منهج أثناسيوس العام في تفسير الأسفار، وهو نفسه يؤكّد بثقة أن هذا هو المنهج الكنسي العام في فهم الأسفار “فهماً كنسياً.”[577]

[لقد فتح الرب طريقاً جديداً للصعود إلى السماء قائلاً: «ارفعوا أيها الرؤساء أبوابكم وارفعي أيتها الأبواب الدهرية» لأنه لم يكن “الكلمة” نفسه هو المحتاج لانفتاح الأبواب إذ هو رب الكل ... بل نحن الذين كنا في حاجة إلى ذلك، نحن الذين كان يُصعدنا بواسطة جسده الخاص نحن قn جزّ a feren اظنّ z

[...ou sèmatoj a toàظdi toà].][578]

[وهكذا أيضاً الآية القائلة: «وأعطاه اسماً فوق كل اسم» لم تُكتب من أجل “الكلمة” نفسه، إذ كان معبوداً في كل حين قبل تجسّده ... بل من أجلنا وبسببنا نحن قد كُتِبَ هذا أيضاً ... حتى تدركنا نحن أيضاً هذه النعمة (أي نعمة التبني بأن ندعى فيه أولاد الله).][579]

[أخذ ضعفنا عليه وهو غير ضعيف وجاع وهو الذي لا يجوع لكي يرفع ما هو لخاصتنا حتى يبطله عنا ... فحينما يُقال عنه إنه جاع وبكى وضعف وصرخ

(575) ضد الأريوسيين 330 41:1 N.P.N.F.

(576) ضد الأريوسيين 330 41:1 N.P.N.F.

(577) ضد الأريوسيين 331 44:1 N.P.N.F.

(578) تجسّد الكلمة 50 6:25 N.P.N.F.; P.G. 25, 140;

(579) ضد الأريوسيين 330 42:1 N.P.N.F.

«إيلوي إيلوي» التي هي جميعاً انفعالاتنا البشرية، فهو قد استلمها منّا لكي يرفعها إلى الأب متشفّعاً فينا حتى يُبطلها عنّا في ذاته.[580]

وكثيراً ما يشير أثناسيوس في عبارة واحدة متصلة إلى جسد المسيح الخاص وإلى أجسادنا نحن كأنها حقيقة واحدة متصلة. من مثل ذلك قوله:

[فالآن بعد أن صار الكلمة إنساناً وقد اقتنى لنفسه كل ما يخص الجسد، لا تعود هذه الأضرار تصيب الجسد بسبب “الكلمة” الذي حل فيه، ولكنها قد أبطلت بواسطته ولذلك لا يعود الناس بعد خطاة وأمواتاً بحسب شهواتهم الخاصة ولكنهم قد قاموا بقوة “الكلمة” وصاروا غير مائتين وغير فاسدين!].[581]

وهنا في عبارة: [لا تعود هذه الأضرار تصيب الجسد بسبب “الكلمة” الذي حل فيه] واضح أن أثناسيوس يشير بكلمة “الجسد” إلى جسد المسيح الخاص (بسبب الكلمة الذي حل فيه)، ولكن في نفس الوقت أيضاً إلى جسد كل إنسان بصفة عامة بسبب الرباط السري الذي يربطه بجسد المسيح الخاص كحقيقة واحدة متصلة!

[لذلك قد جاء - كما قلت سابقاً - لكي يتألم بالجسد فيصير بالتالي الجسد فائقاً للألم والموت. لقد جاء - كما قلنا مراراً - لكي يأخذ على نفسه المذلة وبقيّة الشرور لئلا تقع على الناس في ما بعد بل تبطل نهائياً بواسطته، وأيضاً لكي يدوم الناس في ما بعد غير فاسدين إلى الأبد إذ قد صاروا هياكل للكلمة. لو كان أعداء المسيح Crisostomus (أي الأريوسيون) قد أدركوا ذلك وتمسكوا بهذه “النظرة الكنسية” tskop tsvn TMkkllhsastik nzn “كأنها رسالة للإيمان لما ضلوا أبداً من جهة الإيمان!].[582]

فسبب فساد نظرية الأريوسيين من الأساس هو أنهم فشلوا في إدراك هذه “النظرة الكنسية” إلى المسيح، باعتباره متصلاً اتصالاً كيانياً بكل واحد منّا، حتى أن كل ما فعله الرب من جهة بشريته ينبغي أن يُعتبر لنا جميعاً. ويتابع أثناسيوس الأريوسيين في منطقهم الفاسد ويتدرّج معهم من خطوة إلى خطوة بالمنطق ليكشف كيف أن

(580) ضد الأريوسيين 57:3 N.P.N.F. 424

(581) ضد الأريوسيين 33:3 441-412 N.P.N.F.

(582) ضد الأريوسيين 58:3 425 26, 445 N.P.N.F. P.G.

عقيدتهم المنحرفة يترتب عليها أيضاً نتائج روحية معيبة:
[وإن كنا لسنا نحن "المخلوقين فيه" فنحن بالتالي لا نقتنيه داخلنا بل خارجاً
عناً، وبذلك يكون لنا كمجرد معلّم نتعلّم منه من خارج!!][583]

لا يستطيع أثناسيوس أن يقبل مثل هذا الفكر! أن يكون المسيح مجرد معلّم للدين
والأخلاقيات نتعلّم منه من خارج كمثل أساتذة المدارس اليونانية! لا يكون هذا هو
مسيحنا! إمّا أن يكون المسيح هو حياتنا وهو قيامتنا أو نكون نحن أشقى جميع الناس.
لذلك فالأريوسية التي تنكر هذه الحقيقة هي أشر الضلالات، ولذلك يستطرد
أثناسيوس قائلاً:

[لو كان الأمر كذلك - لو كان المسيح مجرد معلّم يعلمنا من الخارج - لكانت
إذن الخطية لا تزال تملك على الجسد كما كانت من قبل! ولكن الرسول
يعارض مثل هذه الأفكار قائلاً: «نحن عمله مخلوقين في المسيح يسوع» (أف
10:2). فإن كنا في المسيح قد خلقنا فليس إذن هو في ذاته المخلوق بل نحن
المخلوقين فيه.][584]

من كل هذه الأقوال يظهر جلياً أن علاقتنا الكيانية بالمسيح، أي تداخلنا في المسيح
وتداخل المسيح فينا، ليست أمراً ثانوياً في التعليم اللاهوتي للقديس أثناسيوس، بل هي
حجر الأساس الذي بدونه ينهدم صرح الإيمان كله ويبطل خلاصنا. فعلاقتنا بالمسيح
لا يمكن أن تكون مجرد علاقة تلاميذ بمعلّم "يعلمنا من خارج" بل لابد أن تكون
علاقة تداخل وثبات متبادل.

لذلك يؤكّد أثناسيوس أنه بمجرد تجسّد الكلمة صار الكلمة بنوع ما فينا وصرنا
نحن بنوع ما "محمولين فيه":

[فمن الواضح أن الكلمة قد صار فينا لأنه قد لبس جسدنا نحن

g n < m ' n ' m ' n ' t z L g o n e n ' t r ' m g o j ' m g r ' n e d ' m ' t e r o n ' s i m a ' s a t o] (585)

وفي تفسيره لصلاة المسيح الكهنوتية (يو 17) يقول:

(583) ضد الأريوسيين 2: 56 378 N.P.N.F. والتعليق الذي يلي هذا القول هو للعالم مرش:

Mersch, *The Whole Christ*, pp. 280, 281.

(584) نفس المرجع السابق.

(585) ضد الأريوسيين 3: 22 405 P.G. 26, 368, N.P.N.F.

[أنا فيهم بسبب الجسد sîma to<j di| t̃gē d̃e t̃n a
فأسأل أن يصيروا واحداً بحسب الجسد الذي في ...
حتى كما أن الجميع محمولون في ... fofesq' ntej par'
يكونوا جميعاً جسداً واحداً وروحاً واحداً.] (586)

[لقد تأهلنا بالكلمة لأننا صرنا منضمين إليه بواسطة جسده ntej ʔprosIhfq
وذلك ورتنا الحياة الأبدية.] (587) t sark̃di| a z̃p̃a to

وقد عرضنا أقوال القديس أثناسيوس بخصوص "الاتحاد بالله" أو بحسب تعبيره
"التأله...hsij...qeopo" في الفصل الخامس من الجزء اللاهوتي تحت عنوان: "نتيجة
غلبة الموت والفساد: اشتراك الإنسان في الطبيعة الإلهية" (انظر صفحة 435-
447) وسيتبين منها القارئ أهمية مفهوم التأله في الفكر اللاهوتي لأثناسيوس، إذ
نرى أنه يقع موقع القلب من التعليم اللاهوتي بل ومن مفهوم المسيحية كلها عند
قديسنا الكبير (صفحة 446). ويوافقنا في ذلك العالم Gross الذي عمل دراسة مقارنة
لمفهوم "التأله" عند جميع آباء العصور الأولى، إذ يقول:
"إن اتحادنا بالله أي "التأله" ليس في تعليم أثناسيوس مجرد فكرة ثانوية تكميلية
كما كان عند الآباء السابقين له، بل قد صار بالحق محوراً لكل تفكيره
اللاهوتي." (588)

وبنفس المعنى يقول العالم Bouyer:

"إن الذي يمكننا أن ندعوه بحق معلم لاهوت لعقيدة "الاتحاد بالله" هو بلا
شك القديس أثناسيوس. ومن الجدير بالملاحظة أنه هو نفسه الذي أمسك بدفة
الكنيسة لإرجاع تعليمها من التأثر بالفلسفات اليونانية عن اللوغس إلى الأمانة
الكاملة للمفهوم الكتابي عن الله." (589)

أي أنه لم يستق هذا التعليم عن "التأله" من الفلسفات اليونانية المعاصرة له بل من
صميم الكتاب المقدس، مما يقوله بطرس الرسول: «لكي تصيروا شركاء الطبيعة

(586) ضد الأريوسيين 22:3 P.G. 26, 369, N.P.N.F. 405, 406

(587) ضد الأريوسيين 34:3 P.G. 26, 397 N.P.N.F. 413

(588) J. Gross, *La divinisation du chrétien d'après les Pères grecs*, 1938, p. 202.

(589) Bouyer, *Histoire de la spiritualité chrétienne*, 1966, t. I, p. 498.

الإلهية» (2بط 1:4)، ويوحنا الرسول: «إن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به» (1يو 4:9)، «سنكون مثله لأننا سنراه كما هو» (1يو 3:2). وبولس الرسول: «لكي تمتثلوا إلى كل ملء الله.» (أف 3:19)

وطبعاً لا يقصد القديس أثناسيوس من «التأله» أننا سنخرج به من حدود طبيعتنا البشرية المخلوقة، أو نتحوّل إلى طبيعة الله، حاشا! ولكن ما يعنيه هو أننا سننال بالتأكيد انسكاباً حقيقياً من حياة الله نفسه داخلنا لتجديد خلقتنا. وهذه هي الغاية النهائية التي من أجلها قد جاء ابن الله إلينا:

[من أجل ذلك قد صار الكلمة جسداً: لكي يجعل الإنسان قادراً أن يتقبّل اللاهوت

ص†na t صnqrwpon dektik صn qe صjn sV poi»thtoj]. (590)

سابعاً: روحه الكنسية العالية جداً

يقول العالم Bouyer:

«لقد كان لأثناسيوس روح كنسية عالية جداً ... وهذا أفضل ما يُفسّر لنا تصرفاته ... فإن كان لم يرتض بأن يكف ولا لحظة واحدة عن الجهاد من أجل العقيدة، ولم يرض أن يحتفظ بإيمانه لذاته - تاركاً الآخرين يتوحّلون كما يشاءون في اللاهوت الأنطاكي الشائك، فالسبب في ذلك أن الحياة المسيحية كانت بالأساس في نظره "حياة كنسية"، فكان من العبث في نظره أن يدّعي أحد بأنه يُنمي حياته الروحية الفردية ويترك بقية الكنيسة تتعثّر، كما يكون من العبث الاحتفاظ بالحياة الطبيعية داخل إحدى خلايا جسم يؤول إلى الانحلال! فإن كنّا نجد عنده الحياة الروحية الداخلية تتوافق بالتمام مع "الاهتمام بجميع الكنائس"، فالسبب في ذلك هو اقتناعه العميق بأن حياة الكنيسة ليست شيئاً خارجياً بالنسبة لحياة الإنسان المسيحي الخاصة.» (591)

«فأول ما تقلّد المهام الأسقفية صار يبذل نفسه بلا حساب في كنيسته المصرية

(590) ضد الأريوسيين 59:2 380 N.P.N.F. 26, 273; P.G.

(591) Bouyer, *L'Incarnation et l'Eglise - Corps du Christ ...*, p. 29.

المتسعة، وفي فترة وجيزة وضع الله عليه "الاهتمام بجميع الكنائس"، بحسب قول بولس الرسول. فالحق الذي كان يعيشه كان يدفعه بقوة جارفة إلى أن يسلمه لغيره ويجعل الآخرين يتمتعون به معه. كان لا يحتمل أن تكون النفوس الموكولة إليه محرومة من هذا الحق. وكلما كان يتقدم في الحياة، كلما كانت تزداد فيه هذه الغيرة الملحة لأن يسلم إيمانه بالكامل لكل من دُعي باسم المسيح ... بل إننا نعلم بأي قدر من الاهتمام استقبل فرومنتيوس أول رسول للحبشة، وكيف رسمه أسقفاً وعضدًه بكل وسيلة حتى تصير خدمته ناجحة.”

“غير أن هذا العمل الخارجي الدائب لم يكن عند أنثاسيوس متعارضاً مع حياته النسكية الداخلية. فلا نجد لديه أي أثر للتعارض بين هذين الاتجاهين.” (592)

والسبب في هذا التوافق الداخلي بين هذين الاتجاهين أنه لم يكن يفرق قط بين المسيح وبين كنيسته. فعلاقته بالمسيح كانت هي نفسها علاقته بالكنيسة التي هي جسده، وفي ذلك يقول العالم Moehler:

“لقد ضرب أنثاسيوس جذوره عميقاً عميقاً جداً في تربة الكنيسة، وقد كان أنثاسيوس لا يعرف نفسه إلا فيها، فكان ماضيها حاضراً دائماً أمامه، وقد أخذ على عاتقه أن لا يُقدم المسيح يسوع إلا متحداً بكنيسته من الداخل، وفي كلمة واحدة كان المسيح هو نفسه الكنيسة!” (593)

وهذا الإحساس الواضح بحقيقة الكنيسة كجسد للمسيح يظهر عند أنثاسيوس منذ شبابه حينما كتب كتابه الأول “ضد الوثنيين”، وفي “تجسد الكلمة”:
[لهذا لم يمت (المسيح) مية يوحنا بقطع رأسه وفصلها عن جسده، ولا مات مية إشعيا بنشر جسده وفصله إلى نصفين، وذلك لكي يحفظ جسده سليماً غير منقسم حتى أثناء موته، حتى لا تكون فرصة للذين يريدون تقسيم الكنيسة وتجزئتها.] (594)

فالكنيسة في نظر أنثاسيوس هي جسد المسيح. ولو مات المسيح بتقسيم جسده إلى

(592) Ibid., p. 27.

(593) Moehler, *Athanasius der Grosse und die Kirche seiner Zeit*, 1827, p. 122, cited by Mersch, *op. cit.*, p. 285.

(594) تجسد الكلمة 4:24.

أجزاء لأمكن الآن أيضاً أن ينجح الأريوسيون والميليتيون في تقسيم الكنيسة. ولكنهم لن ينجحوا في ذلك طالما أن المسيح واحد وغير قابل للانقسام ...

ونستطيع أن نتبين في بعض أقوال القديس أثناسيوس البذرة الأولى للتعليم الذي بلوره في ما بعد وأفاض في شرحه القديس كيرلس الكبير، والذي مؤداه أن الوحدة الكنسية تقوم أساساً على سر الإفخارستيا وعلى شركة الروح القدس.

فعن سر الإفخارستيا كأساس للوحدة الكنسية يقول أثناسيوس مفسراً صلاة الرب (يو 17):

[ليصيروا هم أيضاً كاملين إذ تكون لهم الوحدة لهذا السبب وليصيروا كياناً واحداً بعينه. حتى كما أن الجميع محمولون فيّ، يكونوا جميعاً جسداً واحداً وروحاً واحداً ويجتمعوا إلى إنسان كامل. فإنا نحن جميعاً إذ نتناول من (الرب) الواحد بعينه $\tau\omicron\grave{\alpha}$ metalambñontejzTMk $\tau\omicron\grave{\alpha}$ a نصير جسداً واحداً إذ يكون لنا في أنفسنا الرب الواحد.] (595)

وفي نص مشابه للسابق يقول عن شركة الروح القدس كأساس للوحدة الكنسية: [المخلص يقول: «كما أنك أنت أيها الأب فيّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا»، وهو لا يقصد بذلك أننا يمكن أن نصير مساوين له، ولكنه يطلب من الأب أن يُعطى الروح بواسطته للمؤمنين كما كتب يوحنا (يو 14:16) فإنا بالروح نصير في الله وبالتالي نصير متحدين بعضنا مع بعض في الله.] (596)

وأما بؤرة الوحدة ومحورها فكان أثناسيوس يراها في صليب الرب: [لقد نقض بموته حائط السياج المتوسط (أف 2:14) وصارت الدعوة لجميع الأمم، فكيف كان ممكناً أن يدعونا إليه لو لم يصلب؟ لأنه لا يمكن أن يموت إنسان وهو باسط ذراعيه إلا على الصليب، لذلك لاقى بالرب أن يحتمل هذا الموت ويبسط يديه حتى باليد الواحدة يجتذب الشعب القديم وبالأخرى يجتذب الذين من الأمم ويتحد الاثنان في شخصه، فإن هذا هو ما قاله أيضاً بنفسه

(595) ضد الأريوسيين 22:3 P.G. 26, 369, N.P.N.F. 405, 406 والفعل metalambñnw كما سبق أن قلنا هو الاصطلاح الكنسي والأبائي للتعبير عن "التناول" الإفخارستي.

(596) ضد الأريوسيين 25:3 P.G. 26, 376, N.P.N.F. 407

مشيراً إلى أية ميتة كان مزماً أن يفدي بها الجميع «وأنا إن ارتفعت عن الأرض أُجذب إليّ الجميع».[597]

ومن الوجهة العملية قد صار أثناسيوس بلاهوته الرصين وروحانيته العميقة «رباطاً» أساسياً وقوياً في جسد الرب «الرأس الذي منه كل الجسد بمفاصل ورُبط متوازراً ومقترناً ينمو نمواً من الله» (كو 2:19)

فنحن نعلم كيف استخدم الله شخصيته الروحية العميقة ليُجعل منه - أثناء نفيه الأول والثاني - خير ممثل للكنيسة القبطية بين كنائس الغرب، حتى انعقدت بذلك أول وأقوى صلة روحية عميقة وأصلية بين كنائس الشرق والغرب كما سبق أن أوضحنا في الجزء التاريخي صفحة 83.

لقد كانت أخلاق أثناسيوس النبيلة وتقواه وأمانته الشديدة للحق تسبي قلوب جميع الذين عرفوه عن كثب. من أمثال هؤلاء مكسيميانوس أسقف تريف الذي أرسل إليه أثناسيوس أصلاً ليوضع تحت مراقبته. ولكن ذلك الأسقف الوقور وكل شعبه انقلبوا منذ أول لحظة لشخصية أثناسيوس الروحية، وصاروا يتشربون منه مفاهيمه الروحية واللاهوتية، وظلت تريف حتى بعد موت مكسيميانوس من أوفى المدن لأثناسيوس وللإيمان النيقاوي بصفة عامة.

أمّا يوليوس أسقف روما فقد دعاه لمشاركة الأسرار الإلهية منذ أول يوم (انظر صفحة 163)، وتشرب على قدر ما استطاع كل مفاهيمه وفكره. وتدلنا رسالة يوليوس إلى أساقفة الشرق على «مدى التأثير الذي استطاع أثناسيوس أن يسكبه في الشعور واللاشعور الروماني والغربي بوجه عام» (صفحة 146).

وذلك إنما يدلنا على أصالة الروح الكنسية التي كانت تنبض في قلب أثناسيوس، حتى أنه لما صار في المنفى لم ينعزل في صومعته بل استمر يعمل دائماً لبناء جسد الرب، وظل يتفاعل كعضو حي يؤثر في بقية أعضاء الجسد الواحد.

والعجيب أنه حتى حينما خانته أعز أصدقائه في الغرب وهما ليباريوس أسقف روما وهوسيوس الشيخ الوقور، صديق العمر، حتى حينما خانته هذان، بقي

أثناسيوس يلتزمس لهما الأعداء ويدافع عنهما! عجيب هو هذا الإنسان الذي يظل وفيّاً في صداقته حتى حينما يخونه أعز الأصدقاء!

هذا من جهة أصدقائه، أمّا من جهة خصومه، أو بالحري على حد تعبيره “أعداء المسيح”، فقد كان صارماً، كاشفاً للأخطاء، ثابتاً كالصخر لا يتزعزع! غير أنه في ذلك أيضاً لم يكن يعرف أن يحقد. كان احترامه الشديد للنفس البشرية مهما تمادت في شراها يمنعه أن يهينها. وفي ذلك يقول العالم Bouyer في وصفه لشخصية أثناسيوس: “إن أثناسيوس في كل كتاباته الجدلية والدفاعية يُظهر سخطه بشدة على خصومه، ولكنه في ثورته عليهم يخلو تماماً من مشاعر البغضة أو الحقد. إنه يندفع بشهامة ليظهر استياءه الشديد، غير أنه في ذلك أيضاً لا يتخلّى تماماً عن وداعته الطبيعية، بل سرعان ما تعود وتكون هي السائدة. إنه يفضح أريوس ويوسابيوس وقسطنطيوس ويصفهم بما لا يشرّفهم، غير أننا لا نراه قط يظأهم بقدميه، فنحن لا نجد في كتاباته أثراً لعداوة شخصية تُسود صفحاتها كمثل شبح روفينوس في كتابات جيروم.” (598)

والسبب في ذلك أن أثناسيوس لم يكن يقاوم عدواً شخصياً له بل كان يقاوم أعداء الإيمان، وكان مستعداً في أي وقت يرجعون فيه إلى الحق أن يقبلهم بسعة صدر.

أمّا العالم Quasten فيقول بخصوص حزم أثناسيوس وسماحته: “على الرغم من مناهضته الشديدة للأخطاء بدون أية مساومة معها، ومن تصديه لها بكل حزم، إلا أنه كان يتميّز بفضيلة يندر أن تتجمع مع مثل هذا الطبع الحازم، وهي أنه كان قادراً حتى في حمية الجهاد أن يصير سموحاً ومنتسحاً إزاء الذين ضلوا الطريق بنية صادقة.” (599)

وهذا هو في الحقيقة رأي المؤلف الواضح، إذ أن أثناسيوس في كتاباته استطاع أن يفرّق دائماً وبدقة بالغة بين وقت المهاجمة ووقت الدفاع، وبين خصومة لا تهادن قط وخصومة تقبل المهادنة، وفرّق بين أعداء الإيمان وبين الأغبياء في الإيمان وبين الضعفاء في الإيمان، فعلى الأولين أعلن حرباً لا رحمة فيها، وللمتوسطين أفاض

(598) Bouyer, *op. cit.*, pp. 31-32.

(599) Quasten, *op. cit.*, p. 20.

وأسهب وشرح وأطنب، وللآخرين شجّع وتنازل وسار حتى إلى منتصف الطريق!!
(انظر صفحة 245).

وقد ظهرت هذه القدرة العجيبة في التمييز والإفراز بين الخارجين عن الإيمان وبين الذين لا يختلفون إلا في التعبير عن هذا الإيمان الواحد، ظهر هذا الإفراز مع حكمة أثناسيوس ورزانتة على الخصوص في موقفين: الأول في علاقته مع أنصاف الأريوسيين الذين تجمّعوا حول باسيليوس أسقف أنقرة، والثاني في علاقته مع الفريقين المتنازعين في أنطاكية.

ففي الموقف الأول كتب أثناسيوس في كتابه: "عن المجامع" بخصوص باسيليوس (أسقف أنقرة) والذين معه:

[أما الذين يقبلون كل مقررات مجمع نيقية ويتشككون فقط في عبارة "الهوموؤوسيون" فلا ينبغي أن يعاملوا معاملة الأعداء، ولا نقصد هنا أن نهاجمهم بوصفهم مصابين بالأريوسية، ولا نحن نعتبرهم مقاومين لتقليد الآباء، ولكن نناقش الأمر معهم كأخوة مع إخوة لأنهم يقصدون ما نقصده نحن، وليس النزاع بيننا إلا حول اللفظ فقط ... ومن أمثال هؤلاء باسيليوس الذي كتب من أنقرة بخصوص الإيمان.] (600)

وبعد ذلك يعود أثناسيوس ويعبّر أيضاً عن محبته نحو هؤلاء الأساقفة ويقينه أنهم لم ينحرفوا عن الإيمان الصحيح:

[إن المعنى الذي يقصده هؤلاء الأحباء ليس غريباً ولا هو بعيداً عن معنى التساوي في الجوهر.] (601)

وكان نتيجة ذلك الإفراز أن زال سوء التفاهم وأعلن 59 أسقفاً من أنصاف الأريوسيين سنة 365 أنهم يقبلون قانون الإيمان النيقاوي بدون قيد ولا شرط. "إن أثناسيوس كان على حق في أمله وتطلعاته فقد كان يؤدي دوراً نبيلًا!! ففي رسالة "المجامع" ارتفع أثناسيوس فوق نفسه!! وكانت النتيجة أن استجاب الله في لحظة وأوقف هذا الشغب، فالمحبة التي ترجو كل شيء لا بد أن تتبرّر في كل ما تعلمه

(600) في المجامع 41 472 N.P.N.F.

(601) في المجامع 43 473 N.P.N.F.

وتتزكى. ” (انظر صفحة 268)

أمّا بخصوص الفريقين المتنازعين في أنطاكية فقد كان كل منهما يتهم الآخر بالهرطقة، ولكن أثناسيوس بعد أن استجوب مندوبين من كلا الفريقين جاءوا إلى الإسكندرية واستفهم منهم بتدقيق عمّا يعنيه كل منهما من وراء المصطلحات اللاهوتية المختلفة، تبيّن أن إيمانها واحد وصحيح وأن الخلاف بينهما خلاف لفظي فقط. فأخذ ينصحهم في الرسالة التي أرسلها إلى أنطاكية قائلاً:

[لا تتعاركوا بخصوص كلمات لا فائدة لها ولا تتخاصموا بخصوص العبارات المشار إليها، بل اتفقوا في مشاعر التقوى ... واعتبروا فوق كل شيء قيمة ذلك السلام الذي في حدود صحة الإيمان، لعل الله يتراءف علينا ويوحّد ما قد انقسم فلا يكون بعد سوى رعية واحدة لراعٍ واحد الذي هو ربنا يسوع المسيح نفسه.] (602)

وأول ما تهيّأت له الفرصة للذهاب إلى أنطاكية (سنة 363 لمقابلة الإمبراطور جوفيان)، اجتمع هناك بالفريقين المتنازعين ليكملّ الصلح بينهما. وقصد أن يتأخّر في أنطاكية عدة شهور حتى يبذل أقصى ما في وسعه لإقامة الصلح والسلام في هذه الكنيسة الشقيقة.

فكل ذلك - سواء كان تأثيره العميق على أساقفة الغرب أثناء نفيه هناك، أو نجاحه في ربح باسيليوس أسقف أنقرة مع الأساقفة الذين معه، أو توسطه الحكيم بين الأحزاب المتنازعة في أنطاكية - كل ذلك إنما يدلنا على امتياز روح أثناسيوس من الوجهة الكنسية، وعلى شدة إحساسه العميق بحقيقة الكنيسة كجسد للرب. فكل جهاده الكنسي على مدى هذه السنين الطويلة كان يؤول إلى غاية واحدة: أن يجمع في وحدانية الإيمان كل الذين صاروا أعضاء في جسد المسيح: [ليت الله يتراءف علينا ويوحّد ما قد انقسم، فلا يكون بعد سوى رعية واحدة لراعٍ واحد الذي هو ربنا يسوع المسيح نفسه.]

وقد ظلّت شخصية أثناسيوس حتى بعد موته - وهو بالحق لم يمت بحسب مدلول

اسمه(603) - ظلَّت شخصيته الروحية تستقطب قلوب الكثيرين من الشرق والغرب على مدى الأجيال، حتى اعتُبر أثناسيوس عند الكثيرين شعاراً متجسِّداً حياً لإيمان كنيسة المسيح الواحدة. وفي ذلك يقول أحد المعاصرين:
"لقد صارت الأرثوذكسية الجامعة متجسِّدة في شخص أثناسيوس."(604)
(مرش)

الفصل الأول

أساس الفكر اللاهوتي العام في الكنيسة قبل قيام الأريوسية

(603) كلمة "أثناسيوس" باليونانية تعني: "عديم الموت".

(604) Mersch, *op. cit.* p. 285.

الصراع اللاهوتي ضد الأريوسية كيف ابتداء وكيف انتهى

مقدمة:

احتل النزاع الأريوسي كل الحقبة الزمنية الواقعة بين المجمعين المسكونيين الأول والثاني، مجمع نيقية سنة 325 ومجمع القسطنطينية سنة 381م. ففي المجمع الأول اكتشفت الكنيسة هذه الهرطقة بكل أعماقها وأخطارها، وأدانها 318 أسقفاً من جميع أنحاء العالم، وحُرم وقُطع مقدّمها أريوس. ولكنها لم ترتدع بل ظلّت تعمل من داخل الكنيسة كورم في جسمها يلاحقها، إنما على أطوار وأشكال متعدّدة من المد والجذر، إلى أن انعقد بخصوصها أيضاً مجمع القسطنطينية المسكوني الثاني وكانت قد استنفذت كل نشاطها وطاقاتها ونضبت يناييعها التي كانت تغذيها، فقُطعت الأريوسية من الكنيسة وعُزلت وصارت شبيعة خارجة عن الكنيسة ومنفصلة عنها بعد أن كانت متداخلة في جسم الكنيسة، تعمل من داخل كيائها، تقنن وتصدر المنشورات والتفسيرات وتجمع المجامع وتشعل نيران الاضطهاد والفوضى والانقسامات.

لذلك فإن الأمر الذي يُتعبّ له أن تاريخ هذه البدعة قد يسمّى أحياناً بتاريخ الكنيسة، وتاريخ المجامع، وتاريخ أساقفة الكراسي الكبرى، وتاريخ أثناسيوس، لأنه إلى هذا الحد استطاعت هذه البدعة أن تتغلغل في جسم الكنيسة.

والذي يتتبع «التقليد»، وأهميته بالنسبة للإيمان المسيحي، يُدرك كيف أسس الرب قانون الإيمان المسيحي على الصخر، عندما أوصى تلاميذه قبل صعوده مباشرة قائلاً: «عمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس».

وقد ظلّت الكنيسة تعيش على هذا القانون وتسلمه للمولودين الجدد في البداية دون أي صعوبة، لأن قوة الإيمان وفاعليته كانت تسري في المؤمنين وتعطي القناعة الكاملة بأصالة الحياة الجديدة.

ولكن بدخول اليهود المتعصّبين للمفاهيم اللاهوتية - حتى منذ عصر الرسل - بدأ عنصر المقاومة والتشكيك في جوهر الإيمان المسيحي بشخص المسيح، بالإضافة إلى محاولة التحرّر من الناموس القديم، مما اضطر الآباء الرسل أنفسهم

لعقد أول مجمع في تاريخ الكنيسة (سنة 49م) بأورشليم لتوضيح وتقنين حدود الإيمان المسيحي. ولكن سيل المقاومات من المبتدعين اليهود لم يقطع قط بسبب تغلغلهم في جسم الكنيسة، مما أنشأ في الكنيسة يقظة خاصة للحفاظ على التقليد الرسولي والتشدد ضد انحرافات الفكر اليهودي المتنصر.

وعلى نفس النمط، ولكن في أزمنة لاحقة، حدثت المقاومات من المبتدعين الوثنيين الذين دخلوا في الإيمان المسيحي وهم متشبعون بالفلسفة الوثنية، ولكن ازداد خطرهم وتأثيرهم على الفكر الكنسي على ممر الزمن بالأكثر عندما توقّف الاضطهاد في بداية القرن الرابع، وتخلّت الدولة عن حماية الوثنية وساندت الكنيسة رسمياً، وبدأ يزداد دخول أفواج الوثنيين إلى الإيمان المسيحي حاملين معهم ثقافتهم الفلسفية الوثنية ونشاطهم الذهني الذي لا يكفّ عن اختراع أنماط من المناهج والحلول في الأمور اللاهوتية لإشباع تصوراتهم الميتافيزيقية.

وأمام هذين الخطرين، خطر العنصر اليهودي وخطر العنصر الوثني على الإيمان المسيحي، نشأ خطر ثالث من داخل الكنيسة ذاتها، وهو خطر انحراف قادة الكنيسة عن التقليد الأرثوذكسي عند الرد على المقاومين والمبتدعين.

من هذا يتبيّن مدى الضرورة الملحة التي كانت تعانيها الكنيسة كلها في كل أنحاء العالم، لتوضّح تقليدها المسلّم إليها محدداً بقوانين لا تقبل التأويل.

ولكن حتى بداية القرن الرابع وقبل أن ينفجر الانشقاق الأريوسي وتحدث هذه الهزات العنيفة، ويبدّد هدوء الكنيسة وسلامها؛ كانت الكنيسة قد نجحت بالفعل في رد كل تهجم أو اعتداء بكل حزم سواء كان نابعاً من أصل يهودي أو وثني، وكان سلاحها ضد هذا وذلك هو التقليد المسلّم من الرسل والآباء الرسوليّين من جهة شرح قانون الإيمان على ضوء الإنجيل والأسفار المقدّسة عموماً، وبالأكثر توضيح واستعلان لاهوت المسيح من كافة الكتب وشرح علاقة الابن بالآب ومفهوم التجسّد الصحيح، إنما في قالب إيماني مختصر وبحاسة إيمانية أصيلة وعميقة وعامة ومتساوية تقريباً في جميع الكنائس.

وحيثما بدأ أريوس يذيع مفهوماته الإيمانية الجديدة بدت وكأنها تصوراته الشخصية عن اللاهوت المسيحي، مع حلول منطقية لشرح علاقة الآب بالابن وسر

التجسّد وشخصية المسيح، ولكن وضح في الحال أن هناك تكتُّلاً هائلاً من الخارجين على الإيمان الأرثوذكسي لمساندته في جميع كنائس الشرق، إذ استقطب أريوس كل الهرطقات التي قامت لمناوأة المسيحية سواء كانت من أصول يهودية أو من أصول وثنية وكل المنحازين إليهم من الأساقفة غير التقليديين.

لذلك نجد العلماء والمؤرّخين الذين أرخوا للانشقاق الأريوسي يرجعون بهذه الهرطقة الأريوسية إمّا إلى أصول يهودية وإمّا إلى أصول وثنية، كما يرى البعض الآخر أنها خليط من الهرطقات اليهودية المنتصرة والهرطقات الوثنية المنتصرة.

أساس الفكر اللاهوتي العام في الكنيسة قبل قيام الأريوسية

أولاً: ذخيرة الإيمان بالمسيح كقوة فعّالة بحسب التقليد الرسولي، وليس هو برنامج فلسفة:

ونخص بالذات الإيمان المتعلّق بشخص المسيح.

1 - فالمسيحية ورثت بادئ ذي بدء أساس عقيدة “الوحدانية” أو “التوحيد” من جهة الله سواء عن التقليد اليهودي أو الأسفار المقدّسة للعهد القديم.

2 - كذلك ورثت التفريق الكامل بين لانهائية اللاهوت ومحدودية المادة أو العالم، والتحذير من أي خلط بينهما كما كان حادثاً في الوثنية. وهكذا جاءت كل تعاليم الإنجيل مطابقة من جهة هذين الأمرين لما جاء في أسفار العهد القديم.

3 - لاهوت المسيح الفعّال في الطبيعة البشرية:

ولكن بجوار الإيمان الكامل بوحدانية الله، قدّمت المسيحية تعاليمها الأساسية المبنية على مجيء الرب، أي من جهة التجسّد والقيامة بكل ما يتبعها من قوة دفع فائقة استطاعت أن تغيّر في صميم الطبيعة البشرية بالفعل والعمل والسلوك على مستوى كل الأمم! بحيث تمّ بالفعل استعلان شخصية المسيح الفائقة للزمان والمكان من داخل الطبيعة البشرية وخبرة البسطاء والحكماء على السواء، فاحتل المسيح مكانته الإلهية على العالمين، إذ بعد أن غطّى كل التاريخ تجاوز التاريخ بالقيامة من الأموات إلى عمق المجال الإلهي، فجلس عن يمين العظمة في الأعالي.

وقد تجاوز الإيمان بالمسيح أثره في المؤمنين وانتقل بصورة طاغية إلى الوثنيين،

ليس بسبب المنطق المسيحي أو الدفاع المتقن عن الإيمان كما يتراءى لكثيرين، بل بسبب التغيير الجوهرى الذي كان يظهر على المسيحيين بمجرد قبولهم الروح القدس بالإيمان والعماد، حيث كان يحل المسيح بالإيمان في قلوب المؤمنين ويؤيدهم بقوة روحية فعّالة على مستوى العلاقة بالآخرين والمحبة مع فرح وسرور لا يُحدّ.

وهكذا تأيّد إيمان الكنيسة بالخبرة العملية أن قامّة المسيح أعلى من مجرد ملء بشري، وأن الحياة التي تتبع منه ليست مجرد حياة بشرية، وبالتالي وضح أن الفداء الذي صنعه بالصليب والكفارة التي أكملها بدمه عن كل ذي جسد ليست هي مجرد نصوص إيمان ولاهوت، بل هي حقيقة فاعلة في عمق كيان الإنسان كغفران خطايا وتجديد خلقة يستشعرها الخاطئ ويمسكها بقلبه قبل أن يمسكها بعقله، ويشهد لها سلوك الإنسان وتغيير حياته، ومنها يدرك مباشرة بدون واسطة أو شرح لاهوت المسيح وصلته بالآب كمخلص يستطيع أن يجتذب من عمق الخطية قديسين يصنعون الآيات والمعجزات.

وهكذا كان لاهوت المسيح الفعّال في الطبيعة البشرية من البدء قاعدة المسيحية الأولى جنباً إلى جنب وعلى نفس المستوى من الرسوخ مع الإيمان بوحداية الله.

الانسجام الباطني بالإحساس الروحي بين لاهوت المسيح ووحداية الله:

واستمرت الكنيسة توضح وتكشف السر الذي يربط بين هاتين الحقيقتين على مدى السنين والأجيال. والعجيب أن آباء الكنيسة الأولى لم يستشعروا قط بأنهم كانوا أمام حقيقتين تتطلبان الربط أو المصالحة. أمّا السر في ذلك فكان يكمن في حياتهم لأنهم كانوا يعيشون في حقيقة هذا السر الإلهي كل يوم حياة ملؤها الاستمتاع بقوة المسيح في تقوى وسلوك يكفي لكي يعلن عن هذه الحقيقة دون سؤال، فكان لاهوتهم عبارة عن تسييح وإنشاد ومديح واعتراف بعظمة كل أسرار الفداء والخلاص والغفران وبشخص المسيح الفادي مع الله كإله واحد.

وكانت الأمانة التي يشعرون أنهم يحملونها بالنسبة للأجيال القادمة تتلخّص في توصيل الإيمان الرسولي كحقيقة حيّة وفعّالة وتسليمه كما هو وليس تحليله أو شرحه، وتوصيل الحقائق التاريخية بدقائقها والقضايا التي حكم فيها الرسل وتناقها الآباء كما هي كإيمان مسلمّ تسند السلوك دون استخلاص عقائدي أو

تحليل مدرسي لمضمونها الإيماني.

حيث كان كل التركيز الإيماني يدور حول “لاهوت المسيح” من كل الزوايا وبالأخص من كل الأسفار المقدّسة، الأمر الذي باعد إلى الأبد بين المسيحية واليهودية ووضع الحدود الفاصلة بين المسيحيين والوثنيين.

اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح صالح الألم بالألوهة:

كذلك لم يكن الآباء يجدون أي نشاز في أن يكون المسيح قد تألم على الصليب ومات مع كونه هو الإله، بل لم ينشغلوا قط في التوفيق بين هذا وذاك كأنه تناقض، لماذا؟ لأنهم كانوا يعيشون في حقيقة التجسّد كاتحاد كامل ومطلق بين اللاهوت والناسوت بكل عمقها ومفهومها الإنساني، بل وفي قوة الخلاص الكامن في الإيمان بها.

فالآلم هو العنصر الذي أكمل به المسيح - كإله - الفداء والكفارة؛ والفداء والكفارة هما هدف التجسّد الأوحد. فإن كانوا يتمتّعون بالفداء ويتلذّدون بالغفران فكيف يستغربون التألم على المسيح الإله المتجسّد؟

ولكن إذا فحصنا جماعة أخرى “كالإبيونيم”، فلأنهم كانوا يفحصون اللاهوت عقلياً ولم يكونوا يعيشون في مفهوم الخلاص والغفران الذي تمّ بالدم على الصليب، لم يقبلوا قط أن يجمعوا بين لاهوت المسيح وإمكانية تألمه، ووضعوها كقاعدة فكرية “المسيح تألم إذن فهو ليس إلهاً”!!

ويقابلهم جماعة الدوسيتيين من الناحية الأخرى “المسيح إله لذلك فالآلام التي جازها كانت شبةً وليست حقيقة”.

أمّا الآباء الرسوليون والجيل الذي جاء بعدهم فلأنهم قبلوا مسحة الدم، دم المسيح على الصليب، فنالوا الفداء والغفران والخلاص وقبول الروح القدس للحياة الأبدية، لذلك ربطوا ربطاً محكماً أبدياً عن وعي وإصرار بين آلام المسيح ولاهوته، وقالوا لولا إنه إله لما صارت آلامه الجسدية للفداء والخلاص، ولم يستصعبوا أبداً أن يعبدوه متألماً، دون الدخول في فلسفة التحليل المنطقي، لأنهم كانوا في البداية يعيشون الحقيقة دون أن يفلسفوها.

الكنيسة تشرح إيمانها بالألفاظ كما كانت تعيشه بالروح:

ولكن أصبح بعد ذلك لزاماً على الكنيسة، وقد صارت في مواجهة المتشككين والمقاومين، أن تبرهن على إيمانها بلاهوت المسيح الذي تسلّمته كحقيقة كانت تعيشها عن وعي، وأن تواجه صعوبة التفسير بالكلمات عن حقائق إيمانية فائقة لقوم لم يذوقوا الخلاص بعد ولا اختبروا قوة الإيمان بالمسيح وفعل الخلاص بالدم الإلهي! ويا لها من صعوبة.

وهكذا خرجت الكنيسة مرغمة بحكم الواقع من دور التسليم السري الرسولي التقليدي الهادئ للداخلين كقانون لا يُناقش وإنما يُعاش وحسب، إلى دور ضرورة تقديم تفسير علني منطقي لإيمانها بالمسيح وتقديم دفاع عام عن الإيمان الأرثوذكسي في مواجهة المتشككين والمقاومين.

الكنيسة اعتمدت في شرحها للإيمان على حقيقة الخلاص الذي تعيشه كما تلقته بالإضافة إلى الإنجيل وإلى إلهام الروح:

ولكن نجحت الكنيسة في مهمتها الصعبة جداً منذ بدأ أول الآباء بالتفسير والشرح، إذ اعتمدت على صدق وأصالة الحق الإلهي المبني عليه إيمانها، فأسعفها الإلهام واتكلت على الروح القدس الذي أملى ووجه كل ما كتبه الآباء والأنبياء والرسل فاضطلع الروح القدس بمهمته حسب الوعد، فشرحت الكنيسة ودققت وفسرت ودافعت عن أصالة إيمانها بلاهوت المسيح بقوة دفع لا يُجاري، ولم تنحصر هذه القوة الدافعة حتى اليوم! ... منذ كوادراتوس وأرستيدس ويوستين وثاوفيلس (الأنطاكي) وأثيناغوراس كما سجّلها هيجيسيوس، وأجريبيا كاستور، ومليتو، وميلثيادس وكلوديوس وأبوليناريوس وديونيسيوس الكورنثي. ولا تزال كتابات كليمنس الروماني تشهد بهذه القوة في بكور دفعاتها، كذلك إيرينيئوس، حتى تلقفت هذه المهمة الخطيرة - مهمة الشرح والدفاع عن الإيمان - مدرسة الإسكندرية من بنتينوس إلى أوريغانوس إلى كليمنس إلى أن بلغت أثناسيوس وكيرلس الإسكندري اللذين أرسيا الأسس الثابتة في ما يختص بلاهوت المسيح!!

وفي كل هذا الشوط الطويل كان المحكّ ليس هو التقليد فحسب، بل بالتحكيم إلى الصوت الحي في الأسفار المقدّسة الذي لم يخطئ قط في الحكم على كل مقالة لقائل أو اجتهاد لشارح أو سلوك لمبتدع، فإذا توافق القول والسلوك مع روح الأسفار

المقدّسة والتقليد قُبِلَ القول بكل ارتياح. وإذا لم تسنده الأسفار المقدّسة وشهادة السلوك ولم يكن يطابق التسليم الرسولي رُفِضَ بكل عنف كما حدث في أمر مقالة كل أصحاب البدع الغنوسية وسابيلْيوس وأريوس! ...

ولقد بدأت المهاجمة للاهوت المسيح من جماعة الإيبونيم (فلسفة يهودية وثنية) كما قلنا، إنما في صور مزيفة لمفهوم اللاهوت وكأنه مجرد قوة مؤثرة على شخص المسيح.

وتلّفت هذا التزييف جماعة الدوسيتيين (فلسفة يهودية وثنية) من جهة أخرى فأخلت المسيح من بشريته، وقالت بأن التجسّد كان خيالاً وليس حقيقة، واستدارت على لاهوت المسيح وجعلته مجرد ظهور أو تشكيل لله الواحد.

ونجد في هذين الاتجاهين آثار الفلسفة الوثنية واضحة، إمّا في نظرية تعدّد الآلهة أو نظرية التآليه الكلّي، حيث الأولى أخلت المسيح من لاهوته والثانية أخلت المسيح من مساواته للآب(605).

ويلاحظ أن الصعوبة كانت في الجمع بين هذين النقيضين في نظر هاتين الجماعتين، أي الجمع بين لاهوت المسيح ومساواته للآب.

وفي كل من هاتين الفلسفتين مهاجمة للاهوت المسيح وتشويه للثالوث(606).

ولمّا قامت فلسفة سابيلْيوس ذات الأصول الرواقية الوثنية الذي يُعتبر أخطر من قاوم الثالوث لأنه جعل الآب والابن والروح القدس ثلاث ظهورات متعاقبة لله الواحد، انبرى له آباء القرن الرابع ودحضوا هرطقته، ومن بعده جاء أريوس الذي جعل الثالوث مجرد صورة وهمية كاذبة إذ رفع منه الابن كلية وكذلك الروح القدس، فبدأت الكنيسة كلها تنتبه إلى أهمية تثبيت حقيقة الثالوث بصورة واضحة وقاطعة(607).

وما أن جاء القرن الرابع وانفجرت الهرطقة الأريوسية التي جمعت شمل كل الهرطقات السابقة، حتى وجدت الكنيسة نفسها - كما قلنا - مضطرة لكي توضح

(605) Gwatkin, *op. cit.*, p. 8.

(606) كتاب: "التقليد وأهميته في الإيمان المسيحي" للمؤلف صفحة 108.

(607) كتاب: "التقليد وأهميته في الإيمان المسيحي" للمؤلف صفحة 111.

التمايز داخل وحدة اللاهوت، أي توضّح وتؤكد أن استعلان لاهوت المسيح كشف الحقيقة الأزلية المستترة: أن الله واحد بذاته متعدّد بصفاته الجوهرية الذاتية. الأمر الذي أوضحه المسيح بنفسه عندما سلّم التلاميذ مضمون اللاهوت السريّ كله قبل صعوده مباشرة بقوله: «عمّوهم باسم الآب والابن والروح القدس». الأمر الذي يتضح منه أن الله الواحد قائم في هذه الصفات الذاتية الجوهرية - «آب وابن وروح قدس» - العاملة معاً في تجديد خلقه الإنسان ليكون مرّة أخرى على صورة الله!

وهكذا بينما كانت الكنيسة تعيش لاهوتها الحي وتستمد من شخص المسيح المخلّص القوة والحياة والتجديد لتمتد وتنمو على أساس التوبة والعماد باسم الثالوث الآب والابن والروح القدس الإله الواحد، والشركة مع الصلاة والتسبيح لله كاستجابة إيمان واعية حرّة لعمل الله العظيم من نحو الإنسان، نجد أريوس ينعق نعقة الخراب فيمزق هدوء الكنيسة وسلامها وي طرح سؤاله الاستنكاري والكفري الذي لا يقوم على عبادة ولا على تقوى، ولا يستمد إلحاحه من رغبة في مزيد من عبادة أو تقوى، بل كان القصد والرغبة منصّبين على الحط من قيمة المسيح والإنهاء على قوته في الخلاص والفداء، فكان مضمون سؤاله هكذا:

[هل هذا الشخص الإلهي الذي ظهر على الأرض ليعيد وحدة الإنسان بالله مماثل للإله الأعلى الذي يحكم السماء والأرض أو أنه مجرد نصف إله؟] (608)

وهكذا يتضح أمام القارئ كيف تنشأ الهرطقات وكيف يبدأ الانقسام والبلبل، وبالتالي يتضح أيضاً لماذا تضطر الكنيسة في النهاية للحكم بالحرّم والقطع.

ثانياً: لاهوت المسيح وصلة الابن بالآب في الكنيسة قبل أريوس:

اعتمدت الكنيسة منذ البدء بواسطة آبائها الرسولين ومن جاء بعدهم على التقليد الشفاهي والكتابي المسلّم إليهم، كما جاء في إنجيل يوحنا في توضيح لاهوت المسيح وتميز شخصه عن شخص الله الآب على أساس حقيقتين أساسيتين لم تُناقشا قط لأنهما مسلمتان منذ البدء من مصدر فائق.

الحقيقة الأولى: أن المسيح هو ابن الله وأن الابن والآب هما الله الواحد.
الحقيقة الثانية: أن شخص المسيح كابن الله متميّز عن شخص الآب ولكن الابن

والآب ذوو جوهر واحد.

وقد صارت هاتان الحقيقتان أساساً للعقيدة المسيحية كلها.

ولكن الإنجيل أعطى للمسيح صفة الابن كما أعطى لله صفة الآب، وأوضح أن الواحدة منهما تكمل الأخرى: «أنا والآب واحد»، وقد صارت هاتان الصفتان سبباً في كثير من النزاع اللاهوتي على طول الزمن. في حين أن الآب والابن في الله لم يُقصد قط أن يكونا كما هما في الإنسان نتيجة حتمية لتزواج وميلاد، بل هما ذات واحدة أزلية باقية كما هي، تحمل ملء الأبوة وملء البنوة في جوهر واحد دون استحداث تغيير زمني أو جوهري من أي نوع. ولكن بحكم التفكير الإنساني وعلى قدر التصور البشري تكون علاقة الآب بالابن علاقة كيانية داخلية غير مدركة لأنها غير خاضعة للزمن أو التغيير.

ثم على ضوء صفة أخرى جوهرية نسبت إلى الابن في الإنجيل وهي صفة الكلمة «كلمة الله» ابتدأت تأخذ صفة الابن المفهوم الذي يصف كيفية قيام الابن بالنسبة للآب على نمط قيام «الكلمة» بالنسبة «للعقل»، فكما أن العقل لا يوجد بدون كلمة كذلك لا توجد كلمة بدون عقل، فالعقل والكلمة هما واحد بسبب الجوهر الواحد، إلا أن العقل ليس هو الكلمة ولا الكلمة هي العقل، بل كلٌّ منهما مميّز عن الآخر بالرغم من أنهما واحد.

وكما أن الكلمة هي صورة جوهر العقل غير المدرك وغير المرئي كذلك الابن بالنسبة للآب، فالكلمة هي مجد العقل وهي استعلانه وتبقى في البداية وفي النهاية هي والعقل واحداً، قبل أن تُنطق وبعد أن تُنطق.

هكذا رأت الكنيسة المسيح تماماً. فهو والآب في وحدة أو اتحاد أزلي غير مفترق. وبالرغم من أن المسيح وُلد في بيت لحم من العذراء وظهر للعالم كابن الإنسان ولمسته أيدي الناس وسمع العالم صوته، إلا أنه بقي كما هو قبل أن يتجسد، الابن القائم في الآب بغير افتراق، واحد مع الآب غير المدرك وغير المرئي وغير المسموع «الله لم يره أحد قط الابن وحده هو خبّر» (قارن يو 1:18)، وذلك كسماع الكلمة المنطوقة من العقل حينما ننطق بها فتعلن عن مصدرها وهي خارجاً عنه كمرسلة من العقل مع أنها متحدة به وغير مفترقة عنه.

فالتقديس أثناسيوس يقول:

[إن الابن هو "كلمة" الآب و"حكمة" الآب، ومن هذين اللقبين نحن نستدل على نوع الصلة ومستوى الاشتقاق غير المنقسم وغير المتألم الكائن بين الابن والآب، وهذا ندركه بصورة ما على مستوى كلمة الإنسان فهي ليست جزءاً من الإنسان ولا هي تخرج من الإنسان بالألم فكم بالحري كلمة الله تكون؟

كذلك فإن الله يدعوه ابنه، لئلاً حينما يُكتفى بالقول إنه كلمة الله نطن أنه مثل كلمة الإنسان المجردة غير الشخصية. في حين أن لقب الابن يوضح أنه "الكلمة" ذو الكيان والوجود الشخصي وأنه كلمة ذاتية.] (609)

1 - تسمية المسيح "بالابن" عند الآباء

واضح لكل مَنْ يدرس الإنجيل أن تسمية المسيح بابن الله تغطّي الإنجيل كله، ليس من واقع تجسّده وتأنسه وظهوره كإنسان، ولكن من جهة وجوده السابق على تجسّده وبنوع أعمق.

وأول ما يثيره لقب "ابن الله" بالنسبة للمسيح في إحساسنا هو تفرّده من جهة عدم التشابه بينه وبين بقية كل البشر، بل ويثير فينا الإحساس بالانفصال والتميّز الفائق عن كل كائن آخر في السماء وفي الأرض ما خلا الله أبيه!

فهذا اللقب "ابن الله" يحدّد في الحال تفرّده المطلق عن كل خليفة وكل كيان آخر غير الله، كما يشير بقوة إلى نوع الطبيعة الإلهية التي له، في تفرّدها، غير المنطوق بها ولا مقترب إليها، غير المخلوقة وغير الزائلة.

وإمعاناً في تخصّص لقب "الابن" لله، أعطت الأسفار المقدّسة (610) صفة أخرى مزادة بالوحي الإلهي للأهمية الفائقة وللتأكيد والتخصيص والشرح العميق لمدى تفرّد صفة الابن لله واختلافها اختلافاً جذرياً عن استخداماتها الأخرى بالنسبة للمخلوقات عامة، وهي صفة "وحيد الجنس" Monog^{nhj}، التي تفيد "البنوة الوحيدة" أو "الابن الوحيد التخصّص" وهي تشير مباشرة إلى طبيعته الإلهية، وهكذا تعطي صفة المونوجانيس للقب الابن التخصّص والتفرّد المطلق (only-begotten)، لتبعد مفهوم البنوة في الله عن كل مفهوم آخر لكلمة البنوة العامة في كافة الخليقة.

كذلك وبسبب ذكر صفة "الابن" للمسيح في مواقف كثيرة في الأسفار:
+ «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت.» (مت 17:3)
+ «تعيّن ابن الله بقوة من جهة روح القدس بالقيامة من الأموات.» (رو 4:1)
+ «أنت ابني أنا اليوم ولدتك.» (عب 5:5، أع 13:33، مز 7:2)
لذلك جاءت صفة "وحيد الجنس" لترفع مفهوم لقب "ابن الله" فوق هذه الحوادث كلها وهذه المواقف الزمانية كلها بكل عظمتها وتقلها الروحي ومنفعتها.

فالمسيح ليس "ابناً لله" لأنه وُلد من العذراء ومن الروح القدس، ولا لأنه قام من

(610) يو 1:14 و18، 3:16، 5:18، رو 8:32، عب 1:14.

الأموات بقوة الله، ولا لأنه فدى كل الجنس البشري، ولا لأي سبب أو علة أخرى؛ بل هو "ابن الله" لأنه "ابن الله" في بنوة فريدة من نوعها إلهية فائقة وذات طبيعة إلهية فائقة. كما جاءت صفة "المونوجانيس" لتفيد أن كل ما للآب هو للابن بسبب تخصص علاقة الابن بالآب تخصصاً جوهرياً يفيد التساوي الجوهري بين الآب والابن، وهكذا ينتهي هذا التساوي بحتمية وحدة التكريم والعبادة أي لكي يُعبد الابن والآب معاً بغير افتراق ولا تفضيل.

والإنجيل يؤكد لنا هذا في معرض شرح مدلول لقب ابن الله عملياً، ويستطرد من هذا ليكشف لنا الأعماق السرية القائمة بين الآب والابن ويخرج من هذا ليؤكد ألوهة الابن ومساواته للآب في الكرامة وبالتالي العبادة هكذا:

+ «فمن أجل هذا كان اليهود يطلبون أكثر أن يقتلوه، لأنه لم ينقض السبب فقط، بل قال أيضاً إن الله أبوه، معادلاً نفسه بالله. فأجاب يسوع وقال لهم: الحق الحق أقول لكم: لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظر الآب يعمل. لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك. لأن الآب يحب الابن ويريه جميع ما هو يعمل، وسيريه أعمالاً أعظم من هذه لتتعبجوا أنتم، لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويحيي، كذلك الابن أيضاً يحيي مَنْ يشاء. لأن الآب لا يدين أحداً، بل قد أعطى كل الدينونة للابن، لكي يُكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب. مَنْ لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذي أرسله.

الحق الحق أقول لكم: إن مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية، ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة. الحق الحق أقول لكم: إنه تأتي ساعة وهي الآن، حين يسمع الأموات صوت ابن الله، والسامعون يحيون. لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته، وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً، لأنه ابن الإنسان.» (يو 5: 18-

(27)

هذه الآيات القوية الواضحة المتلاحقة في إنجيل القديس يوحنا كانت هي حجر الأساس الذي بنت عليه الكنيسة الأولى، وبالأخص كنيسة الإسكندرية، كل مفهوماتها اللاهوتي من جهة علاقة الآب بالابن في وحدة الكرامة والمجد والعبادة. وليعلم القارئ أن كنيسة الإسكندرية كان محور لاهوتها وأساسه إنجيل يوحنا، فنشأت كنيسة

وأشعارهم. ولكن المحظور هو الفحص العقلي للأمور اللاهوتية التي لم يكشف الوحي عن تفاصيلها.

ولنا شهادات مبكرة جداً من آباء الكنيسة الأوائل عن إيمانهم وإدراكهم لابن الله: [إن الابن الكلي الكمال مولود من الآب الكلي الكمال.] (615) (كليمنس الإسكندري)

[إن كان الرب يقول: «كل ما للآب فهو لي» فإن كان الأمر كذلك فلماذا لا يكون للابن كل صفات الآب، فعندما نقرأ أن الله كلي القدرة والعلو وأنه إله القوات ومملك إسرائيل ويهوه، فانظر أيضاً في هذه الصفات لماذا لا تكون أيضاً للابن. لأنه يكون من حق الابن أن يدعى الإله الكلي القدرة إذ هو كلمة الإله الكلي القدرة.] (616) (ترتليان)

وقد قدم الآباء تفسيرهم بكل خشوع ووقار في ما يختص بالعلاقة الكلية التساوي في اللاهوت بين الابن والآب. وبعضهم التزم بالاصطلاحات التي جاءت في الأسفار، وبعضهم أضاف اصطلاحات أخرى للتوضيح، ولكنهم لم يركّزوا على كيفية وجود الابن في الآب.

وفي هذا يقدم لنا القديس أثناسيوس صورة واضحة عن الفكر اللاهوتي الناضج والمنتكامل في الكنيسة في القرن الرابع هكذا:

[وإن كانت توجد في الثالوث هذه المساواة وهذا الاتحاد فمن الذي يستطيع أن يفصل الابن عن الآب؟ أو يفصل الروح القدس عن الابن؟ أو عن الآب نفسه؟ أو من ذا الذي تبلغ به الدرجة أن يقول إن الثالوث غير متمائل أو أن جوهر الابن غريب عن جوهر الآب؟ أو أن الروح القدس غريب عن الابن، أو يسأل كيف يمكن أن تكون هذه الأمور؟

... أو كيف يُقال إن الابن فينا عندما يكون الروح القدس فينا؟ ... فليفصل أولاً شعاع النور عن النور أو فليفصل الحكمة عن الحكيم وبدلنا أولاً كيف يكون هذا؟

(615) Newman *op. cit.*, 161 notes.

(616) Newman *op. cit.*, p. 161 notes.

فإن كان لا يمكن إتمام هذا لكان بالأولى من عدم التقوى أن يوجّه هؤلاء مثل هذه الأسئلة عن الله. لأن التقليد لا يعلن لنا اللاهوت بإيضاحات كلامية بل بالإيمان. واستخدام العقل يلزم أن يكون بروح التقوى والوقار، لأن بولس الرسول قد أذاع إنجيل صليب المخلص كما قال: «لا بكلام الحكمة، بل ببرهان الروح والقوة» (1كو 4:2). [617]

ولقد قدّم سفر العبرانيين أول محاولة لتفسير وشرح علاقة الأب بالابن: «الذي هو بهاء مجده ورسم جوهره.» (عب 1:3)

ومن هنا انطلق جميع الآباء منذ البدء في وصف علاقة الابن بالأب على أساس علاقة البهاء (الشعاع) بالمجد الذي يوحى بصلة مماثلة هي صلة الشعاع بالنور. وإليك كلام العلامة ترنتليان (سنة 160-220م):

[وكما أن الشعاع ينطلق من الشمس ... إلا أن الشمس تكون قائمة في الشعاع بمقتضى أن الشعاع هو شعاع الشمس، والشعاع لا يُعتبر مادة منفصلة عن الشمس بل خارجاً منها. وهكذا دائماً تكون علاقة الروح من الروح، والإله من الإله، وكما أن النور حينما يشتعل من النور فإن النور الأصلي يبقى كاملاً ولا ينقص، هكذا ما يخرج من - طبيعة - الله فإنه يسمّى في الحال "إله" و"ابن الله" وأنهما كليهما واحد.] [618]

وهكذا سار التقليد على هذا الطريق، فنحن نسمع من القديس أثناسيوس (سنة 296-373م) نفس هذه التعبيرات [وكما ذكر عن المسيح أنه "هو شعاع مجده ورسم جوهره" (عب 1:3) إذن فحيث أن الأب نور والابن شعاعه وجب أن لا نُحجم عن ترديد هذه العبارات كثيراً.] [619]

(617) Athanas. to Serap. 1:20.

(618) Newman *op. cit.*, p. 162.

(619) Athanas. to Serap. 1:19.

مخاطر التحليل المنطقي لتفسير علاقة الابن بالآب،

والوقوع في هرطقة التدني في الدرجات داخل الثالوث Subordinationism (620):

كان التقليد اللاهوتي في ما قبل نيقية يقدّم المبادئ الإنجيلية في بساطة الإيمان ووقار العبادة، ولم يكن هناك خوف البتة من مواجهة الحقائق اللاهوتية وخاصة في ما يتعلّق بالصلة بين الآب والابن، ولكن بسبب قيام الهرطقة ابتداءً الآباء أن يكونوا حذرين جدًّا في تعبيراتهم وتفسيراتهم.

فكلمة الابن بالنسبة للآب أوحى إلى الفلاسفة والهرطقة فكرة الأعظم والأصغر، والأعلى والأدنى، والسابق واللاحق، والأصل والمستحدث، بل والسيد والخادم. ووقف الآباء فترة زمنية طويلة في حيرة وبلبلة بسبب الخلط بين ما توحى إليه هذه المفارقات من اختلاف في الجوهر، حيث ينشأ في الحال ثنائية إلهية وبالتالي تعدّد الألوهة بالمعنى الوثني؛ وبين ما توحى إليه هذه المفارقات في العمل والوظيفة - بين الآب والابن - أو بمعنى آخر في السلطات فقط. (وهذا أيضاً انحراف)، حيث يبدو الابن هو الثاني في الترتيب (tξxij) بالنسبة للآب!! ولكنهم كانوا على جانب الأمان إذ اعتبروا ذلك دون المساس بالمساواة الكاملة والمطلقة في الجوهر والعبادة، الأمر الذي أجازته - بنوع من التساهل - كثير من الآباء الأولين مثل يوستين، أوريجانوس، إيرينيئوس، كليمنس، ثيؤغنسطس ومن جاء بعدهم، دون أن تعتبر إجازتهم لهذه التعبيرات خارجة عن الإيمان الأرثوذكسي (621).

وكان هذا الانحراف في التفسير يسمّى التدرُّج في المستويات Subordinationism.

(620) وهي تعتبر الثغرة المسمومة التي دخلت منها الأريوسية لتبدّد وحدة الثالوث، إذ جعلوا بين الآب والابن والروح القدس تدرُّجاً في الطبقة والكرامة والمجد. وقد بدأت هذه الفكرة ميّرة جدًّا منذ أيام يوستين الشهيد والقديس إيرينيئوس وكليمنس الإسكندري وأوريجانوس بالدرجة الأولى. وهي لوثة أصابت الفكر الفلسفي اللاهوتي المسيحي المبتدئ، وذلك عن الغنوسية التي أرادت بها أصلاً أن تغطّي الفجوة القائمة في الفلسفة بين الله غير المخلوق والعالم المخلوق، معتمدة نوعاً ما على تفسير منحرف لما جاء في سفر الأمثال 22:8، وإنجيل القديس يوحنا 28:14. وقد التقطها أريوس من أفواه الآباء الأرثوذكس، وتمادى بها حتى فصل الابن نهائياً عن الآب، وكذلك الروح القدس، فحطّم الوحدة الجوهرية القائمة في الثالوث.

راجع: Cross, *Dict. of Christ. Church*, p. 1301

(621) Bull, *Defens*, IV. 2 Ch I, 6, 9; Justin, *Apol.*, I, 13. 60; Cudworth, *Intell Syst.*, 4, ch. 36; Petav., II. 2, I. 3. ch. 7; All cited by Newman *op. cit.*, pp. 164-167.

وإليك ما كان يتصوّره يوستين نفسه بهذا المعنى (Subordination):
[الابن هو الثاني في الترتيب (tfxij) بالنسبة للآب لأن الابن من الآب، كذلك أيضاً في المجد بالقدر الذي فيه الآب هو أصل وعلّة وجود الابن.] (622)
أمّا إيرينيئوس فقد بنى (خطأ) على هذا التدرُّج نوعاً من السلوك هكذا:
[أن الآب كان يخدمه في كل شيء ابنه وروحه القدس، كلمته وحكمته -
اللذان كانت الملائكة تخدمهما وتخضع لهما (بالتالي).] (623)

وإزاء خطورة الانحراف بهذه المبادئ نشأت توضيحات قوية لبعض الآباء،
لدحض أي ثنائية لاهوتية بين الآب والابن تأتي خلصة، كنتيجة للفصل في السلطان،
مثل ما قدّمه ترتليان مبكراً جداً:

[نحن نعلم أن اثنين حقاً قد استعلننا في الله في الكتاب المقدّس، ولكننا نقدّم
الشرح على هذا بأنفسنا لئلاّ تحدث عثرة، فهما ليسا اثنين من حيث كونهما إلهاً
أو ربّاً، ولكن في ما يخص كونهما "آب" و"ابن" فقط، وهذا لا يكون قط
بسبب انقسام في الجوهر، ولكن من حيث علاقتهم المتبادلة معاً، ومن هذا
نحن ندعو الابن واحداً غير منفصل عن الآب.] (624)

ومثل ما قدّمه ثيوغنسطس (مدير المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية بعد البابا
ديونيسيوس، تُوفّي سنة 282م)، وكان يتبع الخط الأوريجاني الخاطئ في الاعتقاد
بثنائية الابن وتبعيته في الرئاسة للآب، ولكن لكي ينفي أي ثنائية يعود فيعلّق
(والكلام هنا يسرده عنه القديس أثناسيوس):

[إن طبيعة الابن ليست خارجة عن الآب أو مخلوقة، ولكنها من طبيعة الآب،
كما يخرج الشعاع من النور (عب 1:3). وهنا الشعاع ليس هو الشمس غير
أنه ليس غريباً عنها، وهكذا وعلى نفس النمط يكون الانبثاق (خطأ) من طبيعة
الآب دون انفصال. لأنه كما أن الشمس تبقى كما هي بطبيعتها دون أي نقص
أو انتقاص بالرغم من أنها تسكب على الدوام أشعتها، هكذا طبيعة الآب تبقى

(622) Newman, *op. cit.*, p. 166.

(623) Justin, *Apol.* I. 13. 60.

(624) Newman, *op. cit.*, p. 167.

دون أي تغيير بالرغم من أن الابن هو صورتها.](625)

ولكننا نجد أنه بعد مجمع نيقية تبدأ تصفية وتوضيح هذه المفهومات التي كانت عند الآباء الأرثوذكس، حتى لا تُستغل لدى الهرطقة. وإليك ما يقدمه لنا غريغوريوس النزينزي في تفسير موضوع التذني في الدرجات والخدمة داخل الثالوث، وإنما بصورة هزيلة لا تخلو من مؤاخذة:

[إنه واضح أن الأشياء التي يخطُّها الأب في نفسه ينفِّذها الابن وينجزها، لا باعتباره خادماً ولا كأنه بدون حذق وتصرف، ولكن بإدراكه الكامل وبقوة السيد - ونقول بأوضح لياقة - كأنه هو الأب.](626)

ونلاحظ في كلام القديس غريغوريوس أن هذا الشرح لا يجوز إلا في حالة المسيح متجسداً، وهو ينفِّذ كابن الإنسان مشورة الأب الخلاصية، ولكن يصعب جداً أن نجيز هذا الشرح في ما يختص “الأب وكلمته” في موضوع خلق العالم، لأن روحانية الله المطلقة لا تحتل حتى حوار الأمر والمأمور.

ولكن هذا الشرح يهمننا جداً لأنه يوضِّح لنا مدى يقظة الآباء بعد نيقية لتصفية كل الثغرات التي نفذت منها البدع خاصة الأريوسية.

2 - استخدام لقب “اللوغس” (الكلمة)

كمقابل للقب الابن، عند آباء ما قبل نيقية

كان لقب “اللوغس”، وهو اللقب الرئيسي الوارد في الأسفار المختص بالرب، يُعتبر المقابل الذي كان يلجأ إليه الآباء لتصحيح أي التباس في مفهوم لقب الابن.

و“اللوغس” أو “الحكمة” أو “الكلمة” استخدمها يوحنا الرسول بوضوح بالنسبة للمسيح أكثر من الرسل والإنجيليين السابقين والمعاصرين، لأنه جعلها ألقاباً ذاتية، أي تعبّر في الحال عن شخص الرب، في حين أن بولس الرسول مثلاً استخدم “كلمة الله” في تعبير يصعب التفريق فيه بين “قانون الله” الصارم وبين “شخص

(625) Theognostos, cited by Athanas., *De Dec. Nic.* 25.

(626) Newman, *op. cit.*, pp. 166,167.

الرب” باعتباره كلمة الله! حينما قال: «لأن كلمة الله حيَّةٌ وفَعَّالَةٌ وأمضى من كل سيفٍ ذي حدين، وخارقةٌ إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ، ومميّزةٌ أفكار القلب ونياته.» (عب 4:12)

ولكن من مفهوم اللقب “كلمة الله” و”حكمة الله” - بالنسبة للمسيح - باعتباره اصطلاحاً لاهوتياً، واضح أن الوحي يقصد اتجاهين:

الأول: يكشف لنا ويركّز على وجود الرب الجوهرى في صميم طبيعة وذات الله الاب ككلمته وحكمته الخاصة، التي يستحيل أن يوجد الله بدونها كصفة “ذاتية” و”جوهريّة” بأن واحد، وعلى ضوء هذه الحقيقة نفهم جيّداً ما يقوله المسيح: «أنا والآب واحد» = ذات، «أنا في الآب والآب فيّ» = جوهر.

الثاني: أن المسيح بصفته كلمة الله أصبح هو الوسيط الوحيد الذي يستطيع أن يبلّغنا قصد الآب ويشرح لنا مشيئته الخاصة: «الله لم يره أحد قط، الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر (تكلم).» (يو 1:18)

لذلك لم يكن هناك أقوى وأوضح من لقب “الكلمة” بالنسبة للمسيح لكي يواجه الآباء بها أي انحراف مادي في تفسير مفهوم الابن بالنسبة للآب أو الشرود بمعنى الابن لكي يكون خارجاً أو منفصلاً عن كيان الآب.

“كلمة الله” صفة الله الذاتية وصفته الجوهرية بأن واحد، وبناءً عليه يكون الابن باعتباره صفة ذاتية لله - والله ذات واحدة - فهو غير منفصل عنه، وباعتباره صفة جوهرية فيه - والله جوهر واحد - فهو فيه وغير خارج عنه. وبناءً عليه لا يمكن أن يكون له ابتداءً لوجود خاص. ويستحيل أن نتصوّر أن هناك زمناً ما ولا حتى قبل الزمن كان فيه الابن غير موجود لأنه “كلمة” الله، والله يستحيل أن يكون بدون كلمة لا في الزمن ولا في الأزلية ...

هكذا وقف لقب اللوغس أي “كلمة الله” بالنسبة للمسيح “ضابط الأمان” الكلي لتوجيه مفهوم لقب “الابن” في معناه الصحيح.

هذا الترابط القوي والبديع حقاً بين “اللوغس” و”الابن” في ما يخص توضيح شخصية المسيح يقول فيه أوريجانوس:

[وكما تخرج الكلمة من العقل دون أن تمرّق العقل، أو تُحسب الكلمة منفصلة
أو منقسمة من طبيعة العقل؛ هكذا وعلى هذا النمط ينبغي أن ندرك - علاقة -
الابن بالآب الذي هو صورته.] (627)

ويعود أوريغانوس ليوضّح هذه العلاقة:

[وإنه لمن الخطورة وعدم التقوى بـمكان - وبسبب ضعف فهمنا - أن نجرّد الله
من ابنه الوحيد - (في زمان ما) - وهو الكلمة الأزلي مع الله، أي حكمته التي
هي موضع مسرّته، وكأنما بذلك نقول إن الله لم يكن دائماً في مسرّته!] (628)

وهكذا تمسّك الآباء الأوائل بصورة عامة بأن أية محاولة لإنكار أزلية الرب
يسوع تساوي تماماً أن نقول إن الله القادر على كل شيء كان في وقت ما بدون
إدراك أو نطق (Logoj).

وعلى هذا الأساس يقول أثيناغوراس:

[إن الابن الوحيد الآب لا يُحسب (ظهوره) أنه خلقه، لأن الله هو العقل الأزلي
وله منطقته في ذاته (الكلمة). فالله مُدركٌ، أزليٌّ، أزلي في إدراكه، ولكنه
يُحسب كفكر - نطق - الله كوسيط الخلق عندما كانت الأرض خربة
وخالية.] (629)

هذا الفكر الآبائي الذي أدرك عظمة الرب بين لقب "الابن" و لقب "اللوعس" في
المسيح، استمر بنفس الدفع والقوة بعد نيقية كتقليد لاهوتي. وإليك تعبير باسيلْيوس
الكبير:

[إن كان المسيح هو قوة الله وحكمة الله وأن - هاتين (الصفتين الجوهريتين) -
هما بالطبع غير مخلوقتين، بل هما أزليتان مع الله، لأن الله لم يكن قط بدون
حكمة أو بدون قوة فالمسيح غير مخلوق وهو أزلي مع الله.] (630)

كل هذا التحديد والربط لم يخلُ من ثغرات حاول الهراطقة النفاذ منها، لأن

(627) Newman, *op. cit.*, p. 170.

(628) Ibid.

(629) Ibid.

(630) Ibid.

تصوير الرب في الكتاب بالصفة الجوهرية “كلمة” الله أمكن الابتعاد بهذه الصورة عن المعنى الكياني والذاتي المميز للرب ككلمة الله القائمة بذاتها المشخصة في المسيح المميّزة عن “العقل” أو “الآب” المتحدة به، كما حدث في فلسفة سابيلوس إذ ألغى شخص الابن، وكما حدث في هرطقة بولس الساموساطي ومارسيلوس اللذين اعتبراً أن “كلمة الله” مجرد ظهور مؤقت لمجد الله حلّ في شخص المسيح الإنسان.

ومن هنا ابتدأ التأكيد على أن “كلمة الله” هو أقنوم (شخص) مميّز ثابت ودائم، وحيّ في ذات الله.

3 - الاصطلاحان الحارسان لمفهوم الوحدة الإلهية

أولاً: “في الله” TM_n qeù “ثانياً: “من الله” TM_k qeà

لقد أنشأ لقب “ابن الله” و “كلمة الله” للمسيح حتمية الدخول في معرفة الصلة الكيانية بين هذه الألقاب وبين طبيعة الله وذاته. والكتاب المقدس لم يترك هذا الموضوع دون أن يشير إليه في مواضع عديدة جداً، باصطلاحين يترددان دائماً، وهما: “في الله” TM_n qeù، “من الله” TM_k qeà.

أمّا الاصطلاح الأول فيوضّح في بساطة أن الرب بالرغم من ظهوره واستعلانه “كخارج من عند الآب” إلا أنه قائم في وحدة الله غير منقسم أو منفصل عن هذه الوحدة ولا ممتد أو خارج عنها، بل قائم كبسيط في البسيط دون أي تركيب أو انقسام عددي في الله الواحد، لأن هذه هي صفة جوهر الله.

وهذا المعنى العميق الرائع يوضّحه القديس أثناسيوس في بساطة واختصار إعجازي هكذا:

[الابن والكلمة من الله وفي الله، كلٌّ منهما يتضمّن الآخر، فإذا لم يكن هو “ابن” فهو ليس “كلمة”، وإذا لم يكن “كلمة” فهو ليس “ابناً”.] (631)

[فكيان الابن لأنه “من الآب” لذلك فهو “في الآب”.] (632)

(631) Athanas., *Orat.* IV. 24.

(632) *Ibid.*, III. 3.

لذلك وبهذين الاصطلاحين “من الله” و “في الله” استطاع الآباء أن يوازنوا بين “لاهوت المسيح” و “وحدانية الله”، وخاصة في دفاعهم ضد الوثنيين، لرفع أي التباس من جهة تعدد الآلهة بسبب القيام الذاتي للآب والابن معاً في الثالوث.

وإليك دفاع أثيناغوراس في هذا الشأن:

[لا يسخر أحد من القول بأن الله له ابن، لأنه ليست لنا مثل تلك الأفكار التي لدى شعرائكم، في الميثولوجيات، التي لا تجعل الآلهة أفضل من البشر في شيء، ولكن “ابن الله” هو “كلمة الآب”، وهو كخالق إنما يجمع بين الفكر والقوة. فالآب والابن واحد، فالابن كائن “في الآب” والآب كائن “في الابن”، في الوجودانية والقوة بالروح. فابن الله هو فكر وكلمة الآب.] (633)

وهكذا حينما بلغ الآباء في دفاعهم إلى يقين لاهوت الابن، عادوا في الحال ليحموا وحدانية الله من أي شائبة مادية تنجح بالفكر إلى التقسيم والتفريق في اللاهوت. ومن الناحية المقابلة ليتحفظوا من خطر الفكر الوثني الذي يحاول الفصل بين الابن والروح من الآب ليصنع من الثالوث تعدد آلهة.

ولهذا استخدم الآباء كلاً من الاصطلاحين “في الله” و “من الله” بالتتابع، للحفاظ على تساوي اللاهوت في الثالوث من جهة، ومن جهة أخرى للتأكيد على وحدانية الله المطلقة ذاتاً وكياناً.

أولاً: في الله ^{TMn} qeù

من واقع إعلان الكتاب المقدس الذي ينبغي أن يُقبل دون أي مناقشة، أن الابن والروح القدس هما “في الله الواحد”، والله الواحد فيهما، لا مجرد الوجود الكياني بل الوجود الحي الفعّال، لتكميل صفات الذات الإلهية الواحدة: أبوة وبنوة وروحانية، ثلاث صفات جوهرية مشخّصة.

ويوضّح الرب نفسه أن “الابن في الآب والآب في الابن” (انظر: يو 11:14)، «والآب الحال (الساكن) في» (يو 10:14)، «الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب.» (يو 18:1)

هذه الآيات تعبر عن نوع وجود "الابن في الأب"، فهو ليس وجوداً مجرداً بل وجوداً مشخّصاً حياً فعلاً متبادل العلاقات الكاملة الذاتية التي تقوم بين البنوة والأبوة، لتكتمل الأبوة في البنوة وتكتمل البنوة في الأبوة، وتنتهي إلى كمال "الذات الإلهية" من حيث كونها مصدر كل "أبوة" في السماء والأرض «الذي منه تسمى كل أبوة (عشيرة) في السموات وعلى الأرض.» (أف 3:15)

ولكي يزيد الكتاب توضيحاً لمدى شدة وعمق العلاقة القائمة بين الأب والابن في الروح القدس، أعطى المثل على مستوى إدراكنا، من إحساسنا ومشاعرنا: «الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله لأن مَنْ مِنَ الناس يعرف أمور الإنسان إلا روح الإنسان الذي فيه. هكذا أيضاً أمور الله لا يعرفها إلا روح الله.» (1كو 2:10 و11)

هذا الوجود المتبادل في الأقانيم (الثالوث) مع بقائهم في غير انفصال، أي في وحدة ذاتية كاملة، يعبر عنه في اللاهوت باصطلاح "الاحتواء pericèhsij"، وهي كلمة مشتقة من الأصل cwre<n التي تفيد "التحرك والاحتواء" معاً. ويقابلها في الإنجليزية Coinherence، وتفيد أن الأقانيم تحتوي أو "ترتاح" في بعضها البعض، وهنا كلمة "الارتياح" تفيد نفس الكلام الذي سبق وقلناه أن وجود الأقانيم في بعضها ليس كمجرد تواجد بل هو "إرتياح" أي انسجام مطلق، وهذا الانسجام المطلق هو التساوي المطلق، ومن هنا تبرز معنى "الوحدة" ومعنى الانقسام أو الانفصال في الأقانيم بالرغم من تمايز كل منها في عمله. فالتعبير هنا ليس فلسفة بل واقع لاهوتي حي.

فالثالوث متواجد معاً ودائماً في كل من الأقانيم بدون انقسام أو انفصال.

وقد استخدم القديس أثناسيوس هذا الاصطلاح ضد الأريوسيين كتقليد كنسي وصل إليه بالتسليم (634)، وقد سبقه في استخدام هذا الاصطلاح ديونيسيوس بابا روما: [لأنه يتحتم أن يكون "الكلمة" الإلهي متحداً مع إله الكون كما يتحتم أن يرتاح الروح القدس ويسكن في الله.] (635)

وقد سبق ديونيسيوس في توضيح هذا المعنى أثيناغوراس:

(634) Athanas., *Or., C., Ar.*, II, 33, 41, III, 1-6.

(635) Deonysios of Rome, *De Decretis*, ch. 26; Beth. Bax., *op. cit.*, p. 226.

[نؤمن بالله الآب والله الابن وبالروح القدس، ونعلن قوتهم في الوجدانية وتمايزهم في الترتيب، فالابن في الآب والآب في الابن بالروح القدس العامل في الوحدة والقوة.] (636)

وهكذا نرى أن الآباء منذ البدء كانوا مهتمين جداً بالتأكيد على هذا الاصطلاح أو على ما يفيد معناه لإثبات الوجدانية في الثالوث بحسب ما جاء في الكتاب المقدس. بل وحرصوا جداً أن تكون الخاتمة التي يختمون بها عظاتهم وتآليفهم، أي الذكوا، تحتوي على هذا المعنى أي التمايز الأقمومي في وحدة الإله الواحد. فنسمع كليمنديس الإسكندري في خاتمة كتابه عن المعلم هكذا:

[وإلى الواحد الوحيد، الآب والابن، والابن والآب، الابن قائدنا ومعلمنا، مع الروح القدس أيضاً واحداً في الكل والكل في الواحد ... له المجد إلخ.] (637)

وهكذا كانت الإسكندرية منذ البدء صاحبة هذا التقليد بالتسليم الرسولي.

وقد كان هذا الاصطلاح الراسخ في اللاهوت الآبائي، أي ارتفاق الثالوث وتساويه المطلق في الله الواحد، هو القوة العظمى التي كانت كسلاح في يد أناسيوس في دفاعه ضد الأريوسية. وإليك نموذجاً رائعاً لدفاعه.

[لأنه حيثما ذكر الآب ذكر ضمناً كلمته والروح القدس الذي هو في الابن، وإذا ذكر الابن فإن الآب في الابن والروح القدس ليس خارج الكلمة، لأن من الآب نعمة واحدة تنم بالابن في الروح القدس. وهناك طبيعة إلهية واحدة وإله واحد «على الكل وبالكل وفي الكل» (أف 4:6).] (638)

[وإن كانت توجد في الثالوث المقدس المساواة وهذا الاتحاد فمن الذي يستطيع أن يفصل الابن عن الآب أو يفصل الروح القدس عن الابن أو عن الآب نفسه؟] (639)

[لنتأمل في تقليد الكنيسة الجامعة وتعاليمها وإيمانها منذ البدء التي أعطها

(636) Athenagoras, *Leg.*, 12, *Leg.* 10.

(637) Clement of Alex., *Instruct.*

(638) Athanas. to *Serap.*, I:14.

(639) *Ibid.*, I.20.

الرب وركز بها الرسل وحفظها الآباء. على هذه تأسست الكنيسة، ومن يسقط منها لا يُعتبر مسيحياً. إن هناك ثالوثاً مقدساً وكاملاً ومعترفاً به أنه الله الآب والابن والروح القدس، لا يتكوّن من واحد يخلق وآخر يبدع بل الكل يخلقون، وهو متماثل (متساوي)، وفي الطبيعة غير قابل للتجزئة، ونشاطه واحد. الآب يعمل كل الأشياء بالكلمة في الروح القدس وهكذا تُحفظ الوحدة في الثالوث المقدّس، وهكذا يُنادى بإله واحد في الكنيسة «الذي على الكل، وبالكل، وفي الكل» (هنا الكل يعني الثالوث) «فعلى» الكل كآب، «وبالكل» أي بالكلمة «وفي» الكل أي في الروح القدس، هو ثالوث ليس فقط بالاسم وبالكلام بل بالحق والفعل، لأنه كما أن الآب واحد وإله على الكل هكذا أيضاً كلمته واحد وإله على الكل. والروح القدس ليس بدون وجود فعلي بل هو كائن وله وجود فعلي. [640]

[لأن كل ما للآب هو للابن أيضاً. إذن فتلك التي تُمنح من الابن في الروح القدس هي مواهب الآب، وعندما يكون الروح القدس فينا يكون أيضاً فينا الكلمة الذي يمنح الروح القدس والآب الذي هو في الكلمة. وهذا يتفق مع ما قيل «إليه نأتي أنا والآب وعنده نصنع منزلاً» (قارن: يو 14:23). لأنه حيث وُجد النور وُجد أيضاً شعاعه، وحيث وُجد الشعاع وُجد أيضاً نشاطه، ووجدت نعمته الخالقة. [641]

ثانياً: «من الله = TMk qeoà»:

وهذا الاصطلاح الإنجيلي والمتكرّر في كل أسفار العهد الجديد، اتخذ الآباء في شرح علاقة الابن والروح القدس بالآب، أي أنهما «من الآب»، للحفاظ على وحدة الأصل $\theta\epsilon\omicron\varsigma\ \dots\ a$ أو السلطان أو الملوكية في الثالوث. ومن ذلك تكوّنت عقيدة Monarchia عند الآباء لحراسة مفهوم «وحدانية الله» ضد أي انحراف في مفهوم الثالوث ناحية الوثنية وتعدّد الآلهة أو تعدّد الأصول في الفلسفة. فكما يقول أثناسيوس سابقاً: [حيثما ذُكر الآب ذُكر ضمناً كلمته والروح القدس]، وهذا يُعتبر مفتاح فهم الثالوث وفهم لغة الكتاب المقدّس من جهة الآب والابن والروح القدس.

(640) Ibid. I.28

(641) Athamas., to Serap., I.30.

فمثلاً نقرأ أن الآب هو «الإله وحده»، ثم يذكر بعد ذلك اسم الرب يسوع المسيح «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو 3:17) حيث يقع هنا اسم يسوع المسيح موقع التكميل للتوضيح حسب عادة الكتاب المقدس في تفسير المعاني الصعبة. فالآب هو الإله الحقيقي الوحيد مع ابنه يسوع المسيح الذي أرسله لإعلان أبوته ووحدانيته والحق الإلهي الذي فيه.

وفي هذا يقول أثناسيوس:

[فإن كان الآب يسمّى «الإله الحقيقي الوحيد» فهذا قيل ليس بغرض نفي حقيقة المسيح الذي قال عن نفسه: «أنا الحق»، ولكن بقصد إقصاء (الآلهة) التي ليست هي «الحق» عن الآب وكلمته اللذين هما الحق. ومن أجل هذا فإن الرب أضاف حالاً: «ويسوع المسيح الذي أرسلته» ... وهكذا بإضافة نفسه إلى الآب أوضح أنه من جوهر الآب، وأعطانا أن نعرف أنه من الآب الحقيقي كابن حقيقي، ويوحنا نفسه كما تعلّم (من الوحي في الإنجيل) هكذا كان يعلم (بالروح) في رسالته «ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية» (1يو 5:20).

ولهذا يشرح الآباء العلاقة السرية بين لاهوت الابن ولاهوت الآب أنه: [نور من نور، إله حق من إله حق]. فهنا ذكر الواحد يشمل الآخر بالضرورة الحتمية. لأنه ليس منه فقط بل وفيه! وهذا في نفس الوقت لا ينفي التميّز كما يقول هيوليتس:

[حينما أقول أن الابن متميّز عن الآب، فأنا لا أتكلّم عن إلهين ولكن كنور من نور وكنهر من نبع وكشعاع من الشمس.](642)

كما ويتضح هذا مرّة أخرى في رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس حينما يصف الله الآب هكذا: «وملك الدهور الذي لا يفنى ولا يرى الإله الحكيم وحده له الكرامة والمجد» (1تي 1:17)، هنا يقول الكتاب إن الله هو «الإله الحكيم وحده» ولكن معروف أن المسيح الكلمة هو «حكمة الله»، فالله لا يمكن أن ينفصل عن حكمته. فإن كان الله يُدعى «الحكيم وحده»، فهو واحد مع حكمته أي هو والمسيح الكلمة الإله الواحد الحكيم.

وعلى هذا الأساس من مفهوم الـ Monarchia، سجل الآباء مطلع قانون الإيمان الرسولي النيقاوي الذي لم يكن إلاً تسجيلاً لتقليد الرسل، هكذا:

[نؤمن بإله واحد الله الآب ضابط الكل ... خالق السماء والأرض ما يُرى وما لا يُرى، نؤمن برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب، نعم نؤمن بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب.]

هنا الله الآب أُعطى صفة “الإله الواحد”، ثم ذُكر الابن والروح القدس في صميم الإله الواحد (منه وفيه) كمكتملين للثالوث المتساوي، فالإله يشمل الآب والابن والروح القدس.

هذا التفسير قديم جداً في الكنيسة، وهو تقليد محفوظ، ونقرأه لترتليان:
[إنه من الخطأ أن نتصور أن العدد والترتيب في (ذكر) الثالوث هو انقسام في وحدانيته أو أن الوحدة تنفي الثالوث.] (643)

[إن تنازل الثالوث ابتداءً من الآب باتصال وثيق على درجات يتفق مع أُلـ Monarchia أي وحدة الأصل وفي نفس الوقت يحمي التدبير.] (644)

ويوضّح البابا ديونيسيوس الإسكندري هذه الحقيقة في اختصار شديد هكذا:
[نحن نمتد بالوحدة غير المنقسمة إلى الثالوث، ثم نركّز على الثالوث غير المفترق لنبلغ الوحدة.] (645)

ومن هذا يتضح أنه يستحيل أن نعبد أحد الأفانيم الإلهية دون أن نعبد الكل معاً، وحينما نصلي إلى الآب فنحن نتقدّم إلى حضرته السرية الفائقة في شخص ابنه وفي الروح القدس، كما تعودنا دائماً أن نبدأ الصلاة أو نختمها في اسم الثالوث المتحد.

وهكذا وجدنا أن مبدأ “وحدة الأصل مونارخيا Monarchia” بدأ كعقيدة أرثوذكسية للحفاظ على حقيقة الوحدة في الثالوث. وسارت كتقليد مبكّر جداً في الكنيسة، ولكن سرعان ما اختطفها الهرطقة من فم آباء الكنيسة ليستخدموها ضد العقيدة والإيمان كله. كما يقول ترتليان:

(643) Newman *op. cit.*, p. 176.

(644) Ibid.

(645) Athanas., *ap. Dion. adv. Prax.* 1 cited by Beth. Bax. p. 96.

[إن الشيطان الذي يناقض الحق بكل الطرق جعل نفسه بطلاً على أساس عقيدة أن الله واحد حتى يصنع أكبر هرطقة من كلمة “واحد”]. (646)

لقد تصوّروا أن عقيدة لاهوت المسيح لا يمكن توافقها مع الإيمان بوحدة الله، أي أنها تتعارض مع الإيمان “بأنه الواحد”. وهكذا تجمع كثير من الهرطقة الذين كانوا مختلفين في كل شيء ليتفقوا ويتحدوا في شيء واحد ضد الثالوث، وهو المناداة بوحدة الله ضد لاهوت المسيح. وفي هذا يقول ترتليان أيضاً:

[هؤلاء السذج، إن لم نُقل - قصيرو البصر والجهلاء - الذين يكوّنون السواد الأعظم من المؤمنين الذين بواسطة قانون الإيمان الرسولي عادوا من عبادة آلهة العالم الوثني إلى عبادة الله الحقيقي غير عالمين أن الإيمان بوحداية الله إنما هو على أساس تدبيره المتعدّد (أي الثلاثي: الخلق، الفداء، التقديس). ولكن هؤلاء بسبب قصورهم يظهرون كخائفين من هذا التدبير الإلهي عينه، ويقولون عنّا إنّنا نعبد ثلاثة آلهة، أمّا هم ففي نظر أنفسهم يعبدون إلهاً واحداً ولذلك يقولون إنهم متمسّكون بشدة بالمونارخيا = الوجدانية]. (647)

ومن ضمن الذين وقعوا في هذه المونارخيا (الوجدانية) الصورية زفرينوس بابا روما، على أساس تخوّفه من عبادة ثلاثة آلهة، ولذلك يقول عنه هيبوليتس: [رجل جاهل غير مدرّب على فهم اصطلاحات الكنيسة]. (648)

ويعود أوريجانوس يصف هذه الهرطقة هكذا:

[هذه البدعة التي أفلقت إيمان الكثيرين الذين يفتخرون بتعبّدهم لله (الواحد) لأنهم كانوا قلقين وحذرين من عبادة إلهين]. (649)

وهكذا أطلقت الكنيسة على هؤلاء الذين انحرفوا بمفهوم المونارخيا (الوحدة) اسم المونارخيين (الموحّدين). وظلت الكنيسة على مدى القرن الثالث توضّح إيمانها بلاهوت المسيح على أساس وحدانية الله.

(646) Tertulian, *adv. Prax.*, 1, cited by Beth. Back., p. 96.

(647) Tertullian, *adv. Prax.*, 3, cited by Beth. Back., p. 97.

(648) Beth. Back., *op. cit.*, p. 97.

(649) *Ibid.*, Origen, *on John* 2:2.

أمّا هؤلاء المونارخيون فنصفهم الأول كان ينكر لاهوت المسيح جملة وتفصيلاً، والنصف الآخر كان يعتبر المسيح مجرد قوة أو صفة مُنحت له من الله؛ وذلك لكي يدافعوا عن وحدانية الله.

أمّا النصف الأول فلم يعطوا المسيح شخصية إلهية مستقلة، وهم براكسياس ونونيتوس وكالليستس (بابا روما) وبيرلوس (أسقف بوسطرة ببلاد العرب)، وعلى رأسهم سايبليوس الذي يُظن أنه ليبي الأصل (650) وكان متضلعاً في اللاتينية.

أمّا النصف الثاني فهو ألوجي وثيئودوتس وأرتمون وعلى رأسهم بولس الساموساطي.

4 - الاصطلاحات اللاهوتية التي استخدمها الآباء لشرح العقيدة ودخلت في صميم الصراع مع الأريوسيين

(أ طبيعة Substantia)

(

(ب الشخص Persona swpon jpr)

(

(ج الجوهر Essence s...aظo)

(

(د الأفتوم Up Hypostasis stasijz)

(

(أ) طبيعة Substantia Substance:

أصل الكلمة Subsito = "الموجود أو الكائن تحت الشيء"، أو "الذي بواسطته يستقر الشيء ويوجد"، أو "الجوهر أو العامل الأساسي الذي عليه يقوم الشيء". (651)

(650) Cross, *Dict., of Chr. Church.*, p. 1197.

(651) Beth. Bak., *op. cit.*, 231.

من هذا ينتج أن الشيء الذي له طبيعة (Substantia)، إنما يقابل الأمر أو الشيء الذي يوجد في التصوّر أو الخيال الذي يأخذ شكله خداعاً أو على غير حقيقة مثل الجنّية أو الغول أو عروس البحر ... إلخ.

وهكذا تصبح كلمة الطبيعة Substantia “تفيد الوجود الحقيقي”. وأيضاً يُقال في المنطق إنه قبل أن يمكنك السؤال عن إنسان ما “مَنْ هو” يلزم أن يكون حاضراً أمامك طبيعته Substantia، أي يكون موجوداً وجوداً حقيقياً (res) يفيد أنه كائن بالفعل، في شكل معيّن أو صفات معلومة يمكن أن تُفحص، أو خواص أو ممتلكات تعطي الشيء كيانه.

لذلك فكلمة طبيعة بالمعنى اللاتيني Substantia وكلمة صفة Qualitas يعتبران الموضوعين الأساسيين للبحث والفحص في الشيء.

وقد استخدمت هذه الكلمة كاصطلاح ليفيد غرضاً عقائدياً في وصف اللاهوت.

+ وقد تُرجمت كلمة (جوهر s...aظ) وكلمة (أقنوم طزjzjz) كليهما في مؤلفات إيرينيئوس باللغة اللاتينية إلى Substantia.

ومن هنا جاء الخلط في التعبير والالتباس في فهم الشرق للغرب والشرق للغرب بل وأدى إلى نزاع وفُرقة لا تزال آثارها باقية إلى الآن بين الغرب اللاتيني والشرق عامة والإسكندرية خاصة.

فقد قام أول نزاع خطير كاد يؤدي إلى صدام بين ديونيسيوس الكبير بابا الإسكندرية وبين ديونيسيوس بابا روما، حينما اتهم الأخير الأول بأنه يقول بثلاثة آلهة لأنه قال بثلاثة أقانيم hypostasis، فردّ عليه بابا الإسكندرية وأسكته حينما شرح له معنى الثلاثة هيپوستاسس في جوهر واحد وسيأتي الكلام على ذلك.

+ أمّا المعنى الفلسفي اللاتيني السائد لهذا الاصطلاح فهو يتضح في مؤلف ترتليان الذي يعبر به عن “وجود” أو “كيان” الله أو اللاهوت في ذاته ككيان واضح.

وهكذا يصف ترتليان وجود الله هكذا: [طبيعة واحدة Substantia لثلاثة أشخاص Personae في حالة واحدة (دون انفصال) = status Una Substantia tres Personae in

[uno Statu]. كذلك نجح ترتليان في التعبير القانوني المحكم عن طبيعة المسيح في ما معناه من جهة: [الطبيعتين اللتين احتواهما المسيح معاً الإلهية والإنسانية مع تمتعه بكل حقوق (يلاحظ أن ترتليان كان محامياً) وامتيازات كلٍّ منهما بأن واحد لنفس شخصه الواحد. وأنه لا يوجد أي تعارض بين أن يكون الله واحداً بطبيعته Substantia (بالمعنى اللاتيني) في ثلاثة].

يلاحظ أن ترتليان كان يتحاشى ما أمكن أن يذكر كلمة Personae بعد كلمة ثلاثة مكتفياً بكلمة ثلاثة tres فقط، وقد حدا حذوه القديس أغسطينوس - متضجراً من ضعف اللغة اللاتينية عند الغرب التي لا تسعف في التعبير عن "الأقنوم".

كذلك يوضح لنا ترتليان مفهوم الطبيعة والشخص هكذا:

[إن سر التدبير في العناية الإلهية الذي ظهر في الثالوث القائم في الوجدانية، الأب والابن والروح القدس، هؤلاء الثلاثة ليسوا في ثلاثة أوضاع أو حالات status ولكن ثلاثة من جهة العلاقة gradus. وليسوا ثلاثة طبائع، ولكن ثلاثة من جهة تواجدهم في الهيئة pouztr = forma وليسوا ثلاثة قوات (أي من جهة القوة)، ولكن ثلاثة من جهة الخواص (species)، ولكن على أنهم الله واحد الذي له هذه العلاقات والهيئات والخواص الذاتية مدرّكة في اسم الأب والابن والروح القدس]. (652)

هذا من جهة كلمة Substantia بالمعنى اللاتيني (الطبيعة أو الجوهر)، واستخدامها عند الآباء اللاتين الأفارقة ترتليان ومن بعده أغسطين التي أخذها الإيطاليون عنهم. وقد خرج بها ترتليان في النهاية عن الماهية الحقيقية لمفهوم الجوهر عندنا - في أحيان كثيرة - حينما جزأها بين الأب والابن [الأب هو الجوهر الكلي بينما الابن متحصّل منه جزئياً على جوهره فهو جزءٌ من كلِّ] (653)، في حين أن الجوهر في مفهومه اللاهوتي لدى الإسكندرية لا يتجزأ قط. وهذا طبعاً يكشف لنا بغاية الوضوح أن كلمة Substantia عند اللاتين كانت لا تساوي في معناها ومبناها مفهوم الجوهر تماماً. وقد تحوّرت وتطوّرت كلمة Substantia من ترتليان حتى إلى زمان البابا اللاتيني

(652) Beth. Bak., *op. cit.*, pp. 138, 139: *Adv. Prax.* 7.

(653) *Ibid.*, pp. 141, 232, 233.

“ليو” أي في المجمع الخلقيدوني، مع ملاحظة أن كلمة Substantia شيء وكلمة Natura شيء آخر.

فالتبيعة بالمعنى اللاتيني Substantia تأخذ المفهوم الواقعي الكياني المدرك، ولكن $siz\epsilon f = Natura$ لا تفيد أكثر من مجموعة صفات نظرية. فالحديد له طبيعة Substantia والحجر له طبيعة Substantia ولا يمكن الجمع بينهما، ولكن من الصفات الطبيعية Natura للحديد أنه جامد ومن الصفات الطبيعية Natura للحجر أنه جامد، فهما يشتركان معاً (يتحدان) في Natura وليس في Substantia.

وفي تحديدات مجمع خلقيدونية - المرفوض والمحروم من الأرثوذكس - نقرأ ما معناه:

[في شخص المسيح يسوع (Persona) توجد طبيعتان للاهوت والناسوت، فهو واحد في الطبيعة مع الأب بحسب اللاهوت وواحد في طبيعتنا بحسب الناسوت:

Unius substantiae secundum deitatum

.[Unius substantiae secundum humanitatum

ولكن العجيب في التعبيرات اللاتينية أنه يعود فيقول إن شخص المسيح قائم في (صفات) الطبيعتين، لأن الكلمة المستخدمة للدلالة على الطبيعة هي Natura وليست Substantia.

وعلى العموم فإن اللاهوتيين اللاتين يجزعون حتى الآن من القول حتى بوجود اتحاد بين الطبيعتين بمعنى الـ *Naturae* (654) حيث “الناتورا *Naturae*” لا تعني أكثر من مجموعة الصفات التابعة للطبيعة الإلهية والصفات التابعة للطبيعة البشرية.

ويجدر بنا أن نشير إلى عقيدة القديس أثناسيوس من جهة الاتحاد البالغ حد الوجدانية بين طبيعة “الكلمة” وطبيعة “الإنسان”، وإرادة “الكلمة” وإرادة “الإنسان”.

ولكن لأن هرطقة القول بانفصال الطبيعتين لم تكن قد ظهرت بعد لأن نسطور لم

(654) Beth. Bak., *op. cit.*, p. 233.

يكن قد وُجد بعد، وقال قولته التي اجتمع ضدها مجمع روما (أغسطس 430م)، فإن أثناسيوس لم يدخل في تفاصيل دقيقة من جهة الطبيعة الواحدة للكلمة المتجسد كما تعرّض لها القديس كيرلس الكبير. ونكتفي هنا بأقوال القديس أثناسيوس التي تعتبر التمهيد الكبير لتحديد العقيدة الأرثوذكسية القائمة على “طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد”:

[لبيتنا ننظر إلى المسيح من كلا الناحيتين “فالكلمة الإلهي” صار واحداً مع الذي صار له من مريم في مريم، لأن في رحمها أقام الكلمة لنفسه بيته كما أقام آدم منذ البدء من الأرض.] (655)

[إن بطرس الرسول بقوله: «يسوع الناصري الذي مسحه الله بالروح القدس» فهو هنا يعلن في نقاء لاهوت الابن الوحيد دون أن يفصل طبيعة الله الكلمة Substance من الإنسان الذي من مريم (فليهلك مثل هذا القول).] (656)

[وإن ذكر إرسالية “الكلمة” يوضّح الاتحاد الذي تمّ في يسوع المولود من العذراء الذي اسمه “المخلص” ليس بأي واسطة كانت وإنما بسبب أن الإنسان (أي بشرية المسيح) صار واحداً مع الله الكلمة.] (657)

[لأنه أعطى تعبير “الإرسالية” ليعبر عن الاتحاد بالإنسان (التجسد) الذي بواسطته يتسنّى للطبيعة غير المنظورة أن تصير مدرّكة للبشرية من خلال الطبيعة المنظورة.]

[كذلك فالله الكلمة نفسه هو المسيح الذي من مريم، “إله وإنسان”، الذي هو من الآب قبل كل الدهور السالفة وهو نفسه في الأزمنة الأخيرة من العذراء، الذي كان قبلاً غير منظور حتى من القوات السمائية، والمنظور الآن بسبب وجوده (كيانه) واحداً مع الإنسان (ناسوته) المنظور ليس في لاهوته وإنما في عمل اللاهوت في الجسد الإنساني أي بشريته الكاملة التي جدّها عندما

(655) Athanas. C. Ar. IV. 34, NPNF, 2nd Series, vol. 4, p. 446.

(656) Athanas. C. Ar. IV. 35, NPNF, 2nd Series, vol. 4, p. 447.

(657) Ibid., C. Ar., IV. 36., NPNF, 2nd Series, vol. 4, p. 447.

اتخذها خاصة لنفسه.[(658)]

[إن الجسد الذي وُلد به مملوء من كمال اللاهوت](659)

(ب) الشخص swpon = Persona zpr

لكي نصل إلى تحديد جيد لمعنى الـ Persona يلزم أن نعرف تاريخها قبل دخولها في التعبيرات الكنسية:

فكانت تعني عند جماعة الممثلين “القناع” الذي يلبسه الممثل ليمثّل “شخصية” أخرى (660) (ولذلك كان رجال التمثيل في مصر يسمون باللغة القديمة جماعة “المشخصاتية”). ثم انتقل التعبير من حدود “القناع” إلى حدود “الدور” الذي يقوم به الممثل ليعبّر عن الشخصية الأخرى، ثم انتقل المعنى إلى التعبير عن “الحالة Status” التي يعيشها أي إنسان بين الآخرين في الحياة المدنية، ثم انتقل للتعبير عن الشخصية التي يمتلكها ويعيشها أي إنسان في المجتمع.

فإنسان عنده Persona أي له شخصية معنوية تقوم على أهمية الدور الذي يؤديه في الحياة. لذلك فالعبيد - عند الرومان - لأنه لم يكن لهم حق المواطنة، كانوا معتبرين بحكم القانون الروماني أنه ليس لهم Persona أي ليس لهم شخصية اجتماعية، وكان يُطلق عليهم عديمي الشخصية swpoi zpr أو persona carentes ومنها يأتي اصطلاح العقاب الروماني بالتجريد من حق الشخصية أي الكرامة أو الرتبة، أي يفقد كرامته أو رتبته personam amittere.

وهكذا نأتي إلى معنى البرسونا persona في المفهوم الكنسي، وهنا يلزم جداً أن يفهم القارئ أن كلمة persona لا تعني قط ما تعنيه كلمة person “الشخص” الآن، فهي لا يوجد لها شبيه أو مماثل في اللغة الإنجليزية حتى الآن، ومن هنا يأتي الخطأ والالتباس عند ترجمة persona بالمفهوم اللاتيني الكنسي بكلمة person في اللغة الإنجليزية الشائعة الآن “كذات فرد”.

(658) Ibid., IV. 36.

(659) Athanas. ep. to Epietat.

(660) يقول القديس كليمنس الإسكندري في كتابه المعلم 2:3، 2:11 إن النساء اللاتي يصبغن وجوههن يحولن وجوههن إلى أقنعة prosopa.

فكلمة "برسونا" أو "بروسوبون"، في أصلها اللغوي، تعني "الحالة" أو "العمل" أو "الدور" أو "الأسلوب" أو "التشخيص" الذي يقوم به. فهي لا تُفهم بدون الذات المعينة التي تمثلها ولكنها لا تعني - بالتركيز - الذات نفسها وإنما تجذب الانتباه لتركز على عمل الشخص أو أسلوبه أو حاله أو الدور الذي يقوم به في حالة معينة أو من جهة نظرة معينة من نحو عمله، وهنا تقترب جداً من معنى الهيبوستاسس طزstasijp.

وتاريخ كلمة swponzpr يتمشى مع تاريخ كلمة persona في معناها الأول.

وفي الكتاب المقدس نجدها تأتي عادة بمعنى "وجه" حرفياً مثل "وجه" الأرض. واستخدمت أيضاً في العهد القديم للتعبير عن "وجه" الله. واستخدمها كليمنس الإسكندري للتعبير عن "المسيح" بصفته "اللوغس وجه الله" (661)، الذي بواسطته ظهر الله وصار معروفاً. وكذلك كيرلس الكبير أعطى الروح القدس نفس التعبير باعتباره "وجه الله الأب"، لأن الروح القدس بقوته الفاعلة يستطيع أن يصور ماهية الله غير المنظور! (662)

أمّا ترتليان فيوضح الثلاثة أوجه prosopon في الثالوث هكذا:

[ولأن الأب كان إلى جانبه الوجه الثاني كلمته والثالث روحه القدوس لذلك قيل في سفر التكوين «لنصنع الإنسان على صورتنا» مستخدماً صيغة الجمع.] (663)

ويبدو أن أول من استخدم لفظة البروسوبون في الآباء للتعبير عن الثالوث هو هيبوليتس الذي يقول: [إن استخدام هذه الكلمة يظهر من قول الرب: «أنا والآب واحد»، فهذا لا بد أن يعني وجهين "لقوة" واحدة - فالله واحد ولكن يوجد وجهان بسبب الابن كما يوجد ثالث أيضاً أي نعمة الروح القدس.] (664)

ويقول هيبوليتس أيضاً في مهاجمته لكاليستوس:

(661) Clement of Alex. *Paed* 1:7, 57:2.

(662) Cyril. *Theol.*, 34, 340 C. Cited by Prestige, *God in Patr. Th.* p. 159.

(663) Tertullian., *Against Praxeas* ch. 12 cited by Prestige.

(664) Hippolytus, *C. Noel.*, 7, 14, cited by Prestige, pp. 159, 160.

[هذا هو الابن وجه واحد يُدرك ويتميّز بالاسم ولكن ليس بجوهر خاص (أي أنه من نفس جوهر الأب الواحد).] (665)

ولكن لعل أوضح تعبير عن الثلاثة أوجه التي للثالوث قد جاءت على لسان أوريغانوس هكذا:

[وإن (الله) الكائن بذاته الذي يُدعى ثالثاً Triad بسبب التمييز القائم في وجوهه (أشخاصه personae) ويُدعى الله الواحد بسبب وحدة الجوهر.] (666)

ثم تأتي بمعنى "الحضرة"، وأيضاً تأتي بمعنى swpon lamb£nein jpr أي يقبل وجه أي يقبل الشخص، وهنا تفيد بوضوح معنى "الحالة" ويستخدمها بولس الرسول هكذا: «وأما نحن أيها الإخوة فإذا قد فقدناكم زمان ساعة "بالوجه" لا بالقلب اجتهدنا أكثر باشتهاء كثير أن نرى وجوهكم» (1 تس 2: 17). وهنا تفيد الحضرة أو "الحضور الشخصي". وفي مكان آخر تأتي هكذا: «ليكون لكم جواب على الذين يفتخرون بالوجه لا بالقلب» (2 كو 5: 12). وهنا تفيد المظهر الخارجي في مقابل التحكيم بالشعور الحقيقي!!

وبمعنى آخر تأتي هكذا: «والذي تسامحونه بشيء فأنا أيضاً لأنني أنا ما سامحت به إن كنت قد سامحت بشيء من أجلكم بحضرة prosèpJ المسيح.» (2 كو 10: 2)

«الذي قال أن يُسرق نور من ظلمة هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه (prosèpJ) يسوع المسيح» (2 كو 4: 6). هنا تأتي كلمة وجه (بروسوبو) بمعنى في أعمال أو صفات أو أخلاق.

كذلك في موضع آخر تأتي هكذا: «وأنتم أيضاً مساعدون بالصلاة لأجلنا لكي يؤدي شكر لأجلنا من (أشخاص prosèpwn) كثيرين على ما وهب لنا بواسطة كثيرين» (2 كو 11: 1). وهنا تأتي واضحة جداً بمعنى شخص معين، وهو المعنى الذي استخدمه ترتليان دائماً.

وهنا نأتي إلى الثغرة والمسرب الذي نفذ منه رأس الهراطقة سابيلْيوس ليخرج

(665) Idemy., Ref. 10. 27. 4.

(666) Origen., Cant. 3, cited by Prestige, pp. 159, 160.

بمعنى البروسوبون عن مفهوم "الشخص"، إذ فصل نهائياً بين "الشخص" و"الحالة" أو "الصفة" التي لا يمكن فصلها من الشخص في المفهوم الأصيل والمتوارث لاصطلاح "البروسوبون" كما أوضحنا.

فقال إن الثالوث عبارة عن ثلاث "حالات" swpa zpr "لله الواحد ظهر فيها بالتتابع كآب ثم ابن ثم روح قدس (هنا أسقط الصلة بين الشخص والحالة واستخدم الحالة منفصلة عن الشخص وأسمائها swpa zpr).

وهكذا بخبت واضح استخدم ضعف اللغة في البرُسونا وفي أصل البروسوبا وعدم دراية الشرقيين بمفهومها اللاتيني، ولكنها أخذت عليه سريعاً من الآباء العلماء المدققين وكانت هي القاضية عليه.

ومن الأشخاص الذين لم تحسبهم الكنيسة هراطقة بالرغم من جنوحهم عن جادة الفكر اللاهوتي السليم مارسلوس أسقف أنقرة "أنجورا" بإقليم غلاطية (صديق أنثاسيوس) الذي ارتطم بعقيدة "البروسوبون"، إذ أنكر شخصية "الكلمة"، إذ لم يستطع قط أن يفهم كيف يتقبل اللوغس وهو الطاقة العظمى أن يكون له شخصية؟ حتى زلّ وقال إنه تقبل الشخصية منذ أن تجسّد فقط، ولولا دفاع أنثاسيوس عنه حتى آخر لحظة لسقط عن كرسيه(667).

ولكن حدث أن سابيلوس سرق هذا الاصطلاح العزيز من الكنيسة prosèpwn وأفسده باستخدامه الخاطئ لمعناه، وهكذا ترك اللاهوتيين المتكلمين باليونانية خياراً بلا كلمة واضحة لتحل محلها حتى استقروا على الكلمة المماثلة طز zpr stasij.

وقد برزت كلمة "البروسوبون" و"البرُسونا" إلى قمة الصدام مع الأريوسيين، وبعدها لم يعد هذا الاصطلاح حياً في التعبيرات اللاهوتية.

(ج) الجوهر $s...a = \text{Essentia}$

اصطلاح يوناني قديم يفيد "الوجود الحقيقي"، "الكيان الواقعي"، "Being" أو الشيء الذي هو كائن بالحقيقة. وكان هذا التعبير مُستخدماً عند أفلاطون قديماً ليفيد

الخواص النوعية "للمثل Ideas" العليا أو "الحقائق" شئنا = Realities "في مقارنتها بالمظاهر التي نراها على الأرض" حيث المثل هي وحدها الحقائق، أمّا المظاهر المادية للحقائق فهي تقليد أو مجرد اشتراك يجعل الأشياء منظورة لنا.

ولمّا جاء أرسطو أضاف إليها معاني جديدة وثبّتها في المحيط الفلسفي الإغريقي، فصارت قريبة من مفهوم كلمة substantia عند اللاتين = كخاصية الشيء أو ممتلكاته التي تعطيه كيانه). وهي عنده تفيد: "الكائن" أو "الذي يكون" تص شn، وبالأكثر "الوجود البسيط غير المحدود" تص ، nplîz حيث ، plîz كما جاءت في (يع 5:1) تفيد "عدم المحدودية أو القيود" وترجمت خطأ بسخاء (يعطي بسخاء ولا يعير). ويعتبرها أرسطو أول سلسلة درجات الوجود! حيث من الأوسيا أو بالاتصال بها تتميز جميع المدركات سواء في النوع أو الكمية وكذلك جميع الخواص والصفات والمميزات.

وهكذا بالمعنى الذي أقره أرسطو تكون الأوسيا (الجوهر) هي المسئولة عن وصف أي وجود "فردية" معين (ذاتي). وهنا تسمّى الأوسيا بالأوسيا الأولية، أو من الدرجة الأولى s...a-prèth o ، فإذا تعدّدت المثل في الأوسيا الواحدة اعتبرت الأوسيا أوسيا (أي جوهر) من الدرجة الثانية (668) s...a-pro o deut حيث الأوسيا أو الجوهر هنا يشمل أصنافاً أو درجات متعدّدة.

ملاحظة هامة: لاحظ أيها القارئ أننا لا نستطرد في بحث أصول الكلمات اليونانية التي استخدمها الآباء العظماء العلماء عبثاً:

1 - فأنت ترى الآن أن أرسطو - دون أن يدري - أعطى النور الأخضر بتعدّد الدرجات في الجوهر لكي يستخدمه الهراطقة المسيحيون بعد ذلك في الخروج بحقيقة الجوهر الواحد لله الواحد لذات واحدة أو لمثل ذاتي واحد، فقالوا خطأ بتعدّد الجواهر عندما تعدّدت في نظرهم الذات الواحدة إلى ذوات في الثالوث فقسّموا الله الواحد إلى آلهة متعدّدة.

2 - كما يظهر بوضوح أن تعدّد "الصفات الجوهرية" لجوهر الله الواحد للذات الواحدة لله لا يقسم الله الواحد إلى آلهة أو ذوات بل يبقى هو الإله الواحد بالجوهر

الواحد صاحب الذات الواحدة إنما في صفات جوهرية عاملة هي الآب والابن والروح القدس في الجوهر الواحد والذات الواحدة، وهنا أُعطي للصفات الجوهرية (الآب والابن والروح القدس) في الذات الواحدة (الله) اصطلاح "الشخص" (لا بمعنى الفرد كما سبق وقلنا = persona) أو - أخيراً - باليونانية طزسزج stasij أي شخص الآب وشخص الابن وشخص الروح القدس لذات واحدة وجوهر واحد.

3 - كما يتضح صحة قول الآباء باستحالة وجود درجات أو طبقات (tfxij) في المجد أو الكرامة بين الثالوث، وإلاً خرج الجوهر عن بساطته الأصيلة التي لا تعبر إلاً عن ذات واحدة وصار جوهرًا من الدرجة الثانية تتعدّد فيها الذوات.

ومن الأمور الهامة التي يجب ملاحظتها أن كلمة الجوهر = (أوسيا) باليونانية s...aظo يقابلها إلى حد ما في اللاتينية Substantia ، ولكن لا يقابلها على مستوى التحليل اللغوي الفلسفي ما يفيد اصطلاح Nature = f عsij ، فكلمة الجوهر "أوسيا" تحوي في مضمون معناها "الفيزيس عsij" ولكن لا تساويها تمامًا (669) ولكن بالرغم من ذلك كانت تعتبر لدى لاهوتي الإسكندرية مساوية لها، فقد جاء في كتابات أثناسيوس: [One is the divine nature = f] عsij (670)

كما جاء أيضاً في كتابات كيرلس الكبير الاصطلاح اللاهوتي الشهير "طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد"، حيث الطبيعة هنا هي كلمة عsij، كذلك فإن الجوهر أي "الأوسيا" شائعة الاستخدام وذات أصالة متفق عليها على مستوى جميع الآباء أكثر من Substantia أو عsij أو طزسزج stasij.

وقد استخدمها القديس أثناسيوس في جميع مؤلفاته، ولكنه ذكر أن "الأوسيا s...aظo" كانت ترادف في البدء كلمة "هيبوستاسس طزسزج stasij" بغير حرج. ويشاركه في هذا القديس جيروم، وهذان يمكن أن يؤخذ تقريرهما هذا حجة في الفحص عن أصول هاتين الكلمتين (671).

بل ونجد أثناسيوس يستخدم نفس الاصطلاحين الأوسيا والهيبوستاسس في

(669) Beth. Bak., *op. cit.*, p. 235

(670) Athanas., *Contr. Apoll.*, II. 13; *Incar.* V fin.

(671) Newman. *op. cit.*, 442.

الخطاب الرابع ضد الأريوسيين مترادفين معاً بحيث أن كلاً منهما تحل محل الأخرى بدون تفريق.

وكما قلنا إن "الأوسيا" الجوهر يفيد "الكيان Being". لذلك فبالنسبة لله - وكما يقول القديس أثناسيوس - هو ذو جوهر غير مدرك وفوق كل إدراك (672)، والله حينما نصفه بحسب مفهوم الجوهر نسميه "الكائن ذ ên" وهذا عين الاسم الذي أعطاه الله نفسه لموسى باعتباره "اسم الله الخصوصي" الذي يحوي ضمناً كل صفاته الجوهرية (الآب والابن والروح القدس) في ذاته Being, personality.

ولكن ينبغي أن ندرك أن كلمة الجوهر "أوسياً" هي التي كانت المحور الرئيسي في الصراع اللاهوتي بين القديس أثناسيوس والأريوسية على طول 50 سنة في ما يخص "لاهوت الكلمة"، فهو دائماً أبداً يذكر ويؤكد بلا كلل أن الابن واحد مع الآب في الجوهر ذو mood ع sioj هو موؤوسوس.

كما يلاحظ من كلام أثناسيوس عن مقررات مجمع نيقية أن الآباء قالوا بأن الابن ليس فقط من الآب بل "من جوهر" الآب لكي نؤمن أنه هو وحده - أو الوحيد - الذي من الآب، لأن كل المخلوقات يمكن أن يُقال إنها من الله!! لأنها من صنعة يديه، ولكنها ليست من جوهره (673). كما أن الآباء قالوا إن الابن هو من جوهر الآب.

وأوريجانوس يسبق فيصف "حكمة الله" أنها "جوهر" = أوسياً وأنها موجودة قبل الدهور وقبل الخليقة وهي أزلية (674).

كذلك يصف الروح القدس أنه بالحقيقة "جوهر" = أوسياً وأنه يستحيل أن يكون نشاطاً أو طاقة أو قوة إلهية مجردة بدون شخصية ذات وجود (675).

كما يحتاج أيضاً من جهة الأفانيم هكذا: إن الأفانيم personae في الآب والابن والروح القدس متميزة في طبيعة واحدة substantia و"ناتورا" واحدة Natura ع sif sij

(672) Athanas., *Contra Gent.* 2.

(673) Athanas. *de Decret.* 19. cited by Prestige. p. 194.

(674) Origen, *on Proverbs.*, viii, 22, cited by prestige, *op. cit.*, p. 191.

(675) *Ibid.*, *on St. John.*, frag. 37.

كما يستقرئ من سفر اللاويين 24:5 و6 بخصوص خبز الوجوه، أن الله له إرادة واحدة وطبيعة واحدة substantia.

واللطيف جداً أنه يستقرئ من وضع خبز الوجوه في صفين أنه مقدّم لشخصين personae (للآب والابن)!!(677)

(د) “الأقنوم”: الهيوستاسس طزstasij

دخل هذا الاصطلاح في اللاهوت الكنسي متأخراً عن سابقه الجوهر “الأوسيا”، وفي تحليله اللغوي يعني طو po تحت، stacis قائم، أي بمعنى الشيء الذي “يقوم تحت” (678) أو القائم الذي يتوقف عليه (الوجود) أو الذي يعبر عن الوجود.

ولعل كلمة “الأقنوم” السريانية الأصل مشتقة من نفس هذا المعنى وهو “القيام الأساسي”، وهو بهذا يقترب جداً من مفهوم الأوسيا s...aظo التي تفيد الوجود أو الكيان المحيط.

وإذا عدنا إلى الاصطلاح اللاتيني substratum substantia وجدنا التوازي أو التساوي بين الاصطلاحين واضحاً الذي يفيد القيام الأساسي أو الجوهري Essential and Substratum الذي يقوم عليه الشيء، بمعنى الأساس أو الأصل foundation الذي يحمل كل الصفات.

وفي الفلسفة اليونانية وُجد الاصطلاحان: “هيوستاسس” و“الأوسيا” يتبادلان نفس المعنى ويحل كل منهما محل الآخر.

وهذا ما حدث في بدء الاستخدام الكنسي حيث تقابلت كلمة الهيوستاسس في اليونانية مع substantia(679).

ولكن كان كل استخدام اللاتين لكلمة Substantia في حدود مفهومنا الآن عن

(676) Ibid., on Number, 12. 1.

(677) Ibid., on Leviticus, 13. 4.

(678) Beth. Bak., op. cit., p. 335.

(679) Beth. Bak., op. cit., p. 117.

وكلمة هيبيوستاس بمعنى "الأساس" جاءت بوضوح في العهد القديم في الترجمة السبعينية إنما بمعنى "أساس الرجاء" (680).

وقد استخدمها بولس الرسول في رسالته إلى العبرانيين (3:1) بمعنى: **جوهر حامل** "الذي وهو بهاء مجده (شعاع مجده) ورسم جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته" postfsewj çutoàطCarakt¾r t¾z "هنا جاءت كلمة هيبيوستاس بمعنى: "جوهر حامل كل شيء" وهو المعنى المنصب الآن في الاستخدام اللاهوتي على كلمة s...aظo أو (Essentia).

ولكن لما جاء اللاهوتيون المتأخرون استخدموا الأوسيا في المعنى السابق، وخصّصوا كلمة هيبيوستاس لتوضيح الصفات المميزة لهذا الوجود أو الكيان أي الأفانيم (الأشخاص Personae) في الثالث!

ومن التعبيرات الكتابية التي توضّح لنا أعمق وأعمق معنى الهيبيوستاس ما جاء في سفر العبرانيين (1:11): «الإيمان هو الثقة (هيبيوستاس) بما يُرجى!!» «stasij pragmtwnظنwnw تTMlpizom».

وهنا كلمة الهيبيوستاس تُرجمت "الثقة" إنما في اختصار مُخلّ، فهي تعني تماماً: "جوهر أو أساس" الأشياء التي تُرجى! لذلك ينبغي أن تعدّل الترجمة لتحمل هذا المعنى الرائع: (الإيمان هو جوهر أو أساس الأمور التي تُرجى). أي الإيمان هو الشيء الذي يقف أو يقوم تحت الرجاء ويحمّله.

وهنا ضمناً يتضح لنا جدّاً المعنى العميق لكلمة "هيبيوستاس" عند الرسول نفسه! فالرسول يحدّد مفهوم "هيبيوستاس": أنه القوام (أو الأفتوم) الذي فيه تصير الأمور غير الحاصلة الآن والتي نترجها، حاصلة كحقائق ونتعامل معها كأنها واقعة.

ونفس المعنى هيبيوستاس = "ثقة" تتكرّر في عب 14:3، 2كو 4:9، 17:11. وكان أوريجانوس أول من بدأ يميّز المعنى بين (الأفتوم) الهيبيوستاس

(والجوهر) الأوسيا بغاية الوضوح في العالم كله(681). وبينما كان استعمال “الهيبيوستاسس” بمعنى “الأوسيا” (خطأ) في كنائس العالم وبالأخص في روما راسخاً حتى إلى بعد القرن الخامس، كانت مدرسة الإسكندرية واللاهوت الإسكندري بوجه عام يفرّق بقوة ووضوح بين الاصطلاحين، فالأجزاء المتبقية من كتابات البابا ديونيسيوس الإسكندري في رسائله لسميّه بابا روما توضّح أنه كان يستخدم الثلاثة أقانيم (هيبيوستاسس stasijzptre<j) لا كأنه يستحدثها بل كتقليد لاهوتي راسخ(682). حيث كان مفهوم الهيبيوستاسس هو نفس البرسونا Personae عند اللاتين وتفيد الهيئة eج = form = doj «الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي، لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيأته eج = doj» (يو 5:37). وقد جاءت هذه الكلمة مرادفة تماماً للبروسوبون.

وقد استخدم أناسايوس كلمة eج = doj بمعنى الأفتوم هيبيوستاسس(683) وذلك في شرحه على سفر التكوين 30:32 (السبعينية): «فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل أي = وجه الرب eج = doj قائلًا: لأنّي نظرت الله» وجهاً لوجه صqن pr zn swpon «»swpon zj pr.»

وهذا التعبير “وجه الرب” اعتبره القديس أناسايوس من ظهورات “الابن”(684) وهكذا استخدمها أناسايوس كاصطلاح مساوي لكلمة e.,kèn.

ومن الآباء اللاهوتيين الإسكندريين الذين أوضحوا بكل دقة مفهوم الثلاثة أقانيم في الجوهر الواحد ديديموس الضرير العلّامة اللاهوتي المشهور(685).

ونجد في كتابات البابا ألكسندروس ما يؤكّد رسوخ عقيدة الثلاثة أقانيم الهيبيوستاسس في الله الواحد في رده على الأريوسيين، وذلك في خطابه إلى ألكسندروس بطريرك القسطنطينية حيث ذكر في خطابه الأقانيم الثلاثة بمعنى الهيبيوستاسس أكثر من خمس مرّات.

(681) Origen, in John ii. 6, 10-75.

(682) Quoted by st. Basil, de Sp. Sanct., 72.

(683) Athanas., Or. 1. 20, Cited by Newman, 444.

(684) Ibid.

(685) Didymus, De Trin., 1. 18 etc., cited by Newman, 436.

ولكن لاهوت الإسكندرية القائم على التفريق بين الهييوستاسس والأوسيا لم يكن قد نضج في خارج الإسكندرية قط، إذ بقيت كلمة الهييوستاسس (أقنوم) محصورة عند لاهوتيي أسيا الصغرى وروما في معنى فلسفي ضيق لا يخرج عن مفهوم الأوسيا (جوهر). وهذا الاتجاه الضعيف نجده يسود على مقررات مجمع نيقية نفسه، حيث يقرّر المجمع بحروم قاطعة أن الأوسيا s...aظ (جوهر) تساوي الهييوستاسس طstasijp (أقنوم) كمرادف بدون أي تفريق، وبلعها الإسكندريون على أشد الموض (686).

ولكن الأمر الذي ارتبك فيه العلماء اللاهوتيون السابقون والمعاصرون، والذين كان يتحتم عليهم أن يدركوه، هو أن الإسكندرية لما أدركت خبث الأريوسيين في الانتفاع باصطلاح الثلاثة أقانيم لمحاولات الفصل في اللاهوت - هذا من جهة - ومن جهة أخرى لما أدركت عدم فهم اللاهوتيين خاصة في الغرب وبالأخص في روما لمعنى الهييوستاسس الصحيح إذ جعلوه مرادفاً للأوسيا (الجوهر)، بدأوا في كتاباتهم الموجّهة إليهم أن يتمشوا مع هؤلاء ويساوا الأوسيا بالهييوستاسس حسب إدراك الغرب وفهمهم وهذا أمر تحتمه الظروف فقط.

وهذه الحقيقة تبدو في غاية الوضوح في كتابات أناسيوس، إذ بينما في جميع كتاباته الخاصة (687) يؤكّد وبصورة قاطعة ودائمة على وجود ثلاثة أقانيم "هييوستاسس" و"جوهر واحد" "أوسيا" حسب تقليد اللاهوت الإسكندري، يعود في كتاباته العامة الموجّهة ضد الأريوسيين والموجّهة للغرب يقول بالهييوستاسس الواحد كمرادف لاصطلاح الأوسيا دون تفريق، لأن الأريوسيين انتهزوا فرصة تعبير اصطلاح الأقنوم = الهييوستاسس للتمييز بين الآب والابن والروح القدس في الجوهر الواحد كلّ منهم على حدة (من جهة العمل أو الاختصاص: الآب في الأبوة والابن في البنوة والروح القدس في التقديس)، وامتدوا بالاصطلاح ليخرج عن مفهوم الجوهر الواحد أي بتقسيم الجوهر إلى جوهر أولي غير مخلوق للآب وآخر مخلوق للابن، فأفسدوا مفهوم الهييوستاسس الأصيل كونه تعبيراً عن تمييز في صفات الجوهر الواحد دون الخروج عليه أو الخروج منه أو الانفصال عنه.

(686) Hahn, *The Creed* p. 209 cited by Beth Bak. p. 237.

(687) Ibid. *De Virginitate* (1) *De incarn.*

فالهيوستاسس والجوهر لا ينفصلان قط، لذلك فإن الثلاثة أقانيم (الهيوستاسس) لا تنفصل قط عن بعضها ولا عن الجوهر الواحد الذي لها.

وهكذا بسبب خبث الأريوسيين أحجم أناسيوس في كتاباته الدفاعية ضد الأريوسيين عن ذكر الهيوستاسس، وإن ذكره فهو يردفه مباشرة بالأوسيا أي الجوهر. حتى لا يعطي فرصة للأريوسيين لإساءة استخدام الهيوستاسس في غير معناه الأرثوذكسي. إلى أن جاء مجمع الإسكندرية سنة 362م، وأعلن أناسيوس صراحة على العالم كله أنه يصح الأخذ بلفظ الثلاثة أقانيم هيوستاسس بمعنى: «البرسونا personae»، أو بلفظ الهيوستاسس بمعنى الجوهر الواحد لله حسب الرأي اللاتيني دون أي تفريق أو الخروج على العقيدة الأرثوذكسية اعتماداً على المعنى دون اللفظ، أي طالما يكون المعنى المقصود واضحاً أن الهيوستاسس هو الجوهر أو اللاهوت أي أن الهيوستاسس الواحد يحمل معنى جوهر الآب والابن والروح القدس هم الثلاثة كثلاثة برسونون أو ثلاثة هيآت donچe في واحد والثلاثة يتحتم أن يكونوا بآن واحد متميّزين ومتساويين ولكن غير منفصلين - الله الواحد بجوهر واحد(688).

وكل ذلك معروف جيداً أن أناسيوس إنما صنعه لكي يستميل جماعة “النصف أريوسيين” وكل الذين أعتروا من كلمة “الهوموؤوسيويس” إلى حظيرة الأرثوذكسية، وقد نجح بالفعل في ذلك وعادوا جميعاً.

وماذا تمّ بعد ذلك في الهيوستاسس؟ لقد اتفق العالم كله غرباً وشرقاً على الأخذ

(688) وقد بلغ الاختلاف في فهم الشرق للغرب أقصاه بسبب استخدام الإسكندرية لفظة “الهيوستاسس” للدلالة على ثلاثة أقانيم في اللاهوت واستخدام اللاتين الثلاثة أشخاص personae أن هاجم الشرق الغرب واتهم اللاتين بالسابيلية إذ اشتّموا من كلمة ثلاثة “وجوه personae” للجوهر الواحد ما قصده سابيليويس من أن الله الواحد ظهر في ثلاثة “أسماء” أو ظهورات متتابعة. كما هاجم الغرب الشرق واتهم (الإسكندرية) إذ اشتّموا من كلمة ثلاثة هيوستاسس (أقانيم) رائحة الأريوسية أي فصل الجوهر. وهكذا أصبح لزاماً على الكنيسة كلها أن تتعقّل في الأحكام على إيمان ومعتقدات بعضها البعض لأن المعنى والشرح هو الذي يعول عليه في النهاية وليس اللفظ أو الاصطلاح.

بلاهوت الإسكندرية الأصل، وقالوا بما قاله آباء الإسكندرية الأولون ديونيسيوس وأوريجانوس وديديموس وألكسندروس وأثناسيوس بالثلاثة هيبيوستاسس، وهكذا سادت عقيدة الثلاثة أقانيم والجوهر الواحد في الكنيسة كلها، وقد بدأ هذا الزحف من خارج الإسكندرية بواسطة آباء كبادوكيا وبالأخص باسيلوس لتدعيم لاهوت الإسكندرية الرصين في ما يخص أعقد مفهوم لاهوتي أربك العقلية الغربية آنذاك، وصار القول بالجوهر الواحد s...a m...a o وثلثة أقانيم stasijzptrej أو ثلاثة أقانيم في (TMn) جوهر واحد، هو قول الكنيسة الجامعة كلها من مشارق الشمس إلى مغاربها: الله الواحد الكائن في ثلاثة أقانيم أزلية!! وهذا أثبت بالدليل القاطع أن رؤية اللاهوتيين الإسكندريين كانت واضحة وكانت أصيلة وسليمة في ما يختص بالهيبيوستاسس والأوسيا أي الثلاثة أقانيم في جوهر واحد - منذ القرن الثاني - وهي التي بالنهاية وفي أواخر القرن الخامس غلبت وسادت!!

5 - الصفات الذاتية الخاصة بعلاقة الابن بالآب والابن بالخليقة

(أ) علاقة الابن بالآب:

1 - مولود غير مخلوق gϱg ϳnhtoj ϳnhtoj

2 - الابن الوحيد ϳmonogen

(ب) علاقة الابن بالخليقة:

البكر ϳtokojzprwt

لقد وضعنا الصفتين أعلاه مشروحتين باختصار وجاهزتين أمام القارئ، ليدرك بسرعة ووضوح الفارق الكبير بين الصفتين، أي الأولى تختص بجوهر الآب والثانية تختص بجوهر البشرية، هذا الفارق لم يكن مفهوماً ولا موجوداً لدى كثير من اللاهوتيين. وغياب هذا الفارق هو الذي أعرث البعض وأخذه الأريوسيون حجة للتدليل على أن الابن مخلوق.

ولكن شكراً للاهوت الإسكندري، ولأثناسيوس بصورة خاصة، لأنه هو الذي أوضح هذا الفارق بسهولة ويُسر شديدين حسب التقليد الإسكندري الذي استلمه والذي لم يجد عنه.

ولكن يلزم على دارس اللاهوت أن ينتبه أن علماء الكنيسة الأولين سواء في الشرق (يوستين، تاتيان، ثيوفيلس، ميثوديوس)، أو في الغرب (هيبوليتس، ترتليان، نوفاتيان، لكتانتيوس، زينو، فكتورينوس)، قد انصرفوا في فهم معنى كلمة الميلاد أي كلمة: “مولود من الآب”، وبالتالي: كلمة الابن الوحيد، إذ ربطوا بين ميلاد الابن جوهرياً genesis وبين عملية الخلق التي اضطلع بها الابن. ومثال لذلك الخطأ نقرأ ليوستينوس: [لقد وُلد الابن عندما خلق الله الأشياء وزَيَّنَّها بواسطته] (689) وهكذا اختل مفهوم الميلاد الجوهرى عندما ربطه يوستينوس زمنياً بضرورة الخلق.

كما أخطأ ترتليان جداً ومهَّد للأريوسية بقوله: [لقد كان هناك زمن كان فيه الابن غير موجود؟!] (690). وهذا الشطط الخطير في تفكير ترتليان كان سببه فهم الميلاد genesis على مستوى شيء عادي أو زمني حسب المنطق البشري، باعتبار أن كلمة “الابن” تستلزم في الحال فعل ميلاد، وفعل الميلاد بالتالي هو فعل زمني بحسب سذاجة المنطق البشري، وهذه تُعتبر زلَّة عقلية لا تُغفر لترتليان، فالابن والآب في الله هما ذات واحدة وجوهر واحد لا دخل للزمن ولا لأفعال الزمن فيهما، أمَّا الولادة الجوهرية التي نُسبت للابن فهي تعبير لاهوتي لتأمين صلة مفهوم البنوَّة التي للابن أنها ليست بالنعمة أو الانتساب أو القوة أو الإرادة، بل بنوَّة جوهرية، أي الابن من جوهر الآب، لا يشارك المسيح فيها بنوَّة أخرى من أي نوع، لذلك قيل إن “الابن مولود من الآب” مجازاً بحسب اللفظ، فاللاهوت لا يجوز فيه الولودة على الإطلاق بالمفهوم البشري الزمني، فإله لا يلد ولا يولد بحسب المفهوم المادي أو الزمني أو البشري، بل هو كما قلنا استخدام مجازي للكلمة كميلاد النور من النور وميلاد الكلمة من العقل.

واللاهوتيون التجأوا اضطراراً لهذا اللفظ (الميلاد)، أي الابن مولود من جوهر الآب، لا ليصفوا عملية ميلاد تَمَّت في الزمن ولا حتى قبل الزمن، ولا حتى قبل كل الدهور كما قال أوريجانوس، بل ليدافعوا أولاً وأساساً عن الصلة الجوهرية التي بين الابن والآب ويدافعوا عن بنوَّة المسيح للآب أنها خاصة جداً، ذاتية جداً وجوهرية تماماً لا تدانيه فيها أي بنوَّة أخرى. وهذا الدفاع أو هذه الحقيقة قائمة أصلاً وأساساً

(689) Justin, *Ap. ii*, 6, cited by Newman, *op. cit.*, p. 417.

(690) Tertullian, *adv. Herm.* 3, cited by Newman, *op. cit.*, p. 417.

على تعريف الإنجيل بماهية طبيعة الابن بالنسبة للآب:

+ «ورأينا مجده مجداً كما **“الوحيد”** Only begotten monogenoàj من الآب.» (يو 1:14)

+ «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه **“الوحيد”** monogen.ء.» (يو 3:16)
+ «الذي يؤمن به لا يُدان والذي لا يؤمن قد دين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله **“الوحيد”** monogenoàj.» (يو 3:18)

+ «أرسل ابنه **“الوحيد”** monogen.ء إلى العالم.» (1 يو 4:9)

ومن الأخطاء والشطط الذي وقع فيه كثير من العلماء الأولين هو عدم القدرة على التوفيق بين واقع **“اللوغس”** الكلمة باعتباره أزلياً وبين **“الابن”**، عندما دخل في روعهم أن البنوة تستدعي ميلاداً، والميلاد يستدعي فعلاً، والفعل حدثاً، والحدث لا وجود له قبل أن يقع، ولهذا حاولوا التوفيق بين وصف المسيح باعتباره **“اللوغس”** كلمة الله والمسيح باعتباره ابن الله، فقالوا خطأ إنه كلوغس هو أزلي كامل وكابن ليس كذلك!؟

فيقول هيبوليتس متورطاً في هذا الخطأ: [بدون الجسد لم يكن الابن كاملاً، ولكن كلوغس (كلمته) فهو كامل، ... فهو كابن وحيد ... دعاه الله **“ابناً”** باعتبار أنه سيصير كذلك!؟] (691)، ولكن دون أن يتطرق إلى ذهن هيبوليتس قط أن الابن مخلوق كما توقع الأريوسيون.

ولكن هذا الشطط أيضاً كان من الأمور التي مهّدت للأريوسية وأعطتها فرصة للقول بأن الابن مخلوق!! ثم تدّعي في ذلك بكل تصلّب ووقاحة أنها تعتمد على التقليد!

من أجل هذا التفت آباء نيقية إلى هذا المنفذ الخطير ووضعوا اصطلاحاً لاهوتياً ليحكم العلاقة بين الآب والابن في حدود البنوة القائمة في صميم الجوهر الواحد والذات الواحدة الكاملة لله الواحد، فقالوا إن **“الابن مولود غير مخلوق”**.

ونعود ونكرّر للقارئ أن كلمة **“مولود”** اصطلاح لاهوتي، بحسب أقصى الإدراك

البشري، يصف القيام الدائم للآب في الابن والابن في الآب، دون أي زمن سابق أو لاحق لوجود أيهما في الآخر، فالآب لم يكن قط بدون ابن ولا الابن كان قط بدون آب، كما أن الآب لم يكن سابقاً على الابن ولا الابن لاحقاً للآب قط بل “كيان واحد للآب والابن معاً، في جوهر اللاهوت الواحد”.

وقال الآباء إن الابن غير مخلوق $nhtojg$.

ويلاحظ في اللغة اليونانية أن مولود هي $nhtojg$ وغير مخلوق $nhtojg$ فتكرار حرف n هو الذي يفرق بين الولادة والخلقة، في أصل الكلمة اليونانية. وبسبب هذا حصل التباس كثير جداً في النسخة لأقوال الآباء ومن هنا حدث التضارب الكبير في الشرح والتعليق على مبادئ الآباء اللاهوتيين، وهذا أمر يؤسف له ولا حيلة فيه(692).

بل وكثير من الآباء لم يفرقوا أصلاً بين g , $nhtojgnhtoj$ فمعظم الآباء قبل نيقية استخدموا $nhtojg$ على معنيين معاً، فقالوا إن الآب $nhtojg$ بمعنى أنه غير مولود، وفي نفس الوقت استخدموا نفس اللفظ للدلالة على صفة الابن أنه غير مخلوق(693)!!

ولكن المعنى الصحيح لكلمة $nhtojg$ هي “غير مخلوق” بمعنى: “أزلي ليس له علة ولا ابتداء”، وهي تصلح تماماً للآب والابن. كذلك المعنى الصحيح لكلمة $nhtojg$ هي غير “مولود” وهي تصح للآب فقط.

ولقد كان لهذه الكلمة دور كبير في النزاع الأريوسي، لأنهم قالوا بالقول الخطأ لبعض الآباء السابقين بأن الكلمتين بمعنى واحد، وعليه قالوا ما لم يقله هؤلاء الآباء بأن الابن مولود ومخلوق(694)، ولهذا لم يشأ الآباء المجتمعون في نيقية أن يدخلوا في تفاصيل تحليل هاتين الكلمتين آنذاك، إلى أن انكسرت حدة الأريوسية، فبدأ القديس أثناسيوس يوضح ويفسر ويشرح(695).

(692) Lightfoot, *Ignatius*, vol. ii, p. 90, cited by Beth. Bak. p. 122.

(693) Athanas., in year 359 (*de Syn.* 46, 47) cited by Beth. Bak. *op. cit.*, Note 1.

(694) Epiphan., *Adv. Haer.*, lxiv, 8, cited by Beth. Bak. *op. cit.*, Note 1.

(695) Epiphan., *Adv. Haer.*, lxxiii, 19, *Ibid.*

6 - الفارق الكبير والخطير بين:

وحيد الجنس: nhjzMonog

والبكر: tokozPrwt

لم تكن هاتان الصفتان اللتان للمسيح موضع نزاع إلا عند الأريوسيين. فواضح غاية الوضوح أن الصفة الأولى تفيد العلاقة الداخلية الجوهرية للابن مع الآب، أمّا الثانية فواضح أيضاً أنها تخص أولاً ميلاده من العذراء؛ وثانياً دخوله إلى الخليقة حاملاً جسد إنسان ليتمّم فيه الفداء، ليرفع الخليقة كلها من حالة العبودية والفساد إلى حرية أولاد الله، جاعلاً للخليقة ميلاداً جديداً فيه وبواسطته، كآدم الجديد الثاني، صائراً هو الأول - البكر - بالقيامة (الميلاد الثاني) من الأموات. لهذا اعتُبر بكر الخليقة كلها، وبكر كل خليقة، وبكر الخليقة الجديدة!

فكلمة بكر tokozPrwt تفيد هنا العلاقة الخارجية للابن مع الخليقة، فالبكر صفة لا علاقة لها بالآب، ولكن علاقتها مقصورة مع الخليقة والزمن.

وهذا يوضّح القديس أنثاسيوس هكذا: [أنه لم يُكتب قط في الأسفار أن الابن "بكر من الله" أو "خليقة من الله" ولكن كُتب فقط أنه: "الوحيد" و"الابن" و"الكلمة" و"الحكمة"، وهي الصفات التي توضح علاقته الخاصة بالآب، ...

وأيضاً من المستحيل أن تكون هاتان الصفتان "بكر، ووحيد" إلا للتعبير عن علاقتين مختلفتين، فابن "وحيد" من جهة الجنس (القائم والدائم فيه)، أمّا "بكر" فصفة (عارضة) تختص بتنازله وتفضّله. [696]

ويشدّد القديس أنثاسيوس أن صفة "الوحيد" هي كاملة في ذاتها ومطلقة، وهي ما كان يحلو لجميع لاهوتيين الإسكندرية الأوائل أن يُكنّوا بها عن المسيح مباشرة دون ذكر كلمة "ابن"، فكانوا يكتفون بالتعبير عن المسيح بكلمة "الوحيد"، حتى صار هذا مميّزاً للفكر الإسكندري وخاصة في الكتابات الليتورجية مثل "قدّاس سيرابيون".

وإليك تعبير القديس أنثاسيوس عن مفهوم الإسكندرية عن صفة الوحيد:
[إن صفة الوحيد تعتبر هي المثلى في التعبير عن “اللوغس” الكلمة بمعنى أنه لا يوجد “لوغس” آخر وحكمة آخر بل هو وحده الابن الخاص للآب، ليست بنوته (للآب) ذات أي صلة أو أساس أو علة أخرى، ولكن بنوته هي صفة مطلقة (noĵabsolutely – øpolelum) لأنه كُتب عنها «الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب»]. (697)

والقديس أنثاسيوس يعني بكلامه هذا أن البنوة هنا هي حالة قائمة ودائمة وثابتة في الآب والآب فيها، ذات واحدة، حيث البنوة ليست مجرد اصطلاح لاهوتي بل هي حالة في صميم عمق الكيان لا غنى عنها، تتعلق بكيان الذات الإلهية وجوهرها، تقوم على أساس الحب المطلق الشديد والمتبادل، وهذا الأمر الذي يُستشف بسهولة من كلمة «في حضن الآب» كما يقول الرب نفسه بلغتنا أن «الآب يحب الابن»، «والابن يحب الآب» (698).

ويعود أنثاسيوس يفرّق بين “الوحيد” و“البكر” هكذا:
[أما كلمة “البكر” فهي ذات علاقة متصلة بالخليعة التي يعبر عنها بولس الرسول قائلاً: «الذي هو صورة الله غير المنظور “بكر كل الخليعة” فإنه فيه خُلِقَ الكل ما في السموات وما على الأرض، ما يرى وما لا يرى، سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين (سمائية كلها) الكل به وله قد خُلِقَ، الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل.» (كو 1:15-17)

فإذا كانت كل خليعة خُلقت فيه وهو قبل كل خليعة، إذن فهو ليس مخلوقاً بل الخالق لكل الخلائق.

إذن فليس لكونه في الآب قيل عنه إنه “بكر” ولكن قيل ذلك لأن كل الخليعة به ظهرت للوجود، كما أنه لم ينقص عمّا كان قبل الخلق إذ كان هو الابن الوحيد، وكان هو الكلمة مع الله وكان الكلمة الله (إلهاً) ...

ولكن هذا لا يريد أن يفهمه الأريوسيون الكفرة إذ يقولون: (فإذا كان هو بكر

(697) Ibid.

(698) Ibid.

كل خليفة فواضح أنه هو أيضاً يكون واحداً من هذه الخليفة). هذا هراء وكلام بلا منطق ولا معنى لأنه إذ هو ببساطة بكر كل خليفة يتحتم أن يكون هو غير كل هذه الخليفة ... فمثلاً قيل إنه هو «بكر من الأموات»، هذا يعني أن القيامة من الأموات بدأت فيه هو وتمت بعده.[(699)

ويقصد أثناسيوس بهذا أن «بكر من الأموات» لا تعني أنه كان كأبي واحد من الذين ماتوا بل أنه لبس الموت كاستعارة ليزيل الموت ويبيده، فلما قام من الموت حسب بكرأ أي أول القائمين من الموت، مع أن الموت لم يسد عليه ولا انصبغ بصبغة الموت التي هي الفساد. كذلك تماماً يريد أثناسيوس أن يقول إنه «بكر كل خليفة» لأنه حمل الخليفة كلها في نفسه ولبسها كما يلبس الإنسان الرداء دون أن يكون هو رداء، وكما لبس الموت دون أن أن ينفذ الموت إلى جوهره ليفسده.

هكذا كان الابن يحمل الخليفة في نفسه، فيه خلق الكل” فصار هو بكر كل خليفة لأنها تصوّرت أول ما تصوّرت فيه - «مخلوقين فيه قبل تأسيس العالم» - فصار هو حاملها؛ بل وفي النهاية كشف عن مدى ارتباطه بها وارتباطها به إذ أخذ منها هيئة وصورة لنفسه ليظهر بها «صار في الهيئة كإنسان»، بل وأخذ منها جسداً يترأى فيه ويحيا ويموت ويقوم به: «إذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما» ليوضح مدى حبه وتعلقه بخليقته «هكذا أحب الله العالم»، لذلك حسب بكرأ للخليفة كأعظم تعبير يمكن أن يعبر به عن تنازل الله لينوب شخصياً عن الخليفة، حاملاً كل ضعفها في نفسه، بدافع الحب الفائق للعقل، وكأعمق وأخطر وسيلة يمكن أن يقترب بها نحو الخليفة حتى الالتحام ليرتفع بها دون أن يصير مخلوقاً!!

فكما صار بكرأ من الأموات ليبيد الموت ويرفع الأموات ليلبغوا الحياة الأبدية مع الله - فيه - ولا يسود عليهم الموت قط، هكذا صار منذ البدء بكر كل خليفة في السماء والأرض عندما تصوّرت فيه، قبل أن تستمد الخليفة منه كيائها وقيامها فيه!! وهذه الحقيقة العظمى صارت هي الضمان الفائق الحد الذي يؤهلها حتماً لكي ترتفع بواسطته فوق مستوى عجزها لتتأهل للوجود الدائم مع الله - فيه - هذا الأمر الذي

أكملة بالفعل بالقيامة من الأموات، إذ رفع كل الخليقة البشرية مرّة واحدة من حال العبودية والفساد والموت والتراب إلى خليفة جديدة سماوية تحيا حياة أبدية فيه.

إذن فحينما نسمع عن الابن أنه صار بكر كل خليفة في السماء والأرض، وعلى وجه خصوصي "بكر الإنسان"، ينبغي أن ندرك في الحال أن هذه هي وسيلة التنازل منذ البدء حسب التدبير الإلهي من قبل إنشاء العالم، التي بها ضمن الله دوام ارتفاع الخليقة وامتدادها المستمر إلى فوق ونموها الدائم في الحق لبلوغ منتهى قصد الله من نحوها؛ بل ونفهم تماماً أننا قد ضمنا نحن أيضاً، بسبب أن المسيح صار بكرًا لنا، أي حاملاً خليقتنا الجديدة في نفسه، أننا لن نفقد كياننا ونمونا وتغييرنا المستمر حسب قصد الله من نحو خلاصنا وتبنيينا مهما كانت الظروف والمعاكسات، لأننا مصوِّرون فيه وهو قائم أمام الله كبكر لنا يمتثلنا ويتشفّع عنا، وهو متصوِّر فينا كنموذج حيّ يملأنا فرحاً وعزاءً وسروراً ورجاءً ودالة أمام الله الأب بلا خوف. لذلك قيل: «كل من اعتمد قد لبس المسيح» لماذا؟ لأن المسيح بكر لنا ونموذج قداسة وتقديس، فكما لبس المسيح بشرينتنا لبسنا نحن صفاته اللاهوتية، لا من جهة الشكل بل في عمق كياننا ووجودنا وحركتنا في كل حياتنا بل وفي موتنا. لذلك معلوم لنا جيّداً وبكل تأكيد أننا غلبنا الموت به فصرنا أبناء قيامة فيه. هذا هو المعنى العميق السريّ المخفي في صفة المسيح أنه هو «بكر كل خليفة» أي الذي تجد فيه كل خليفة أقصى ما يمكن أن تتاله أو تترجّاه بلا حدود وبلا نهاية كنموذج أعلى حي إلى عمق الله «إذ خلعتم الإنسان العتيق مع أعماله، ولبستم الجديد الذي يتجدّد للمعرفة حسب صورة خالقه ... المسيح الكل في الكل» (كو 3: 9-11)، «ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآة نتغيّر إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح.» (2كو 3: 18)

أمّا كل هذه القدرات الهائلة التي للابن فهي بسبب أنه من جهة هو الابن الوحيد صورة الله غير المنظور ورسم جوهره، الواحد مع الأب في القوة والمجد والكرامة والسلطان، ومن جهة أخرى: هو بكر كل الخليقة الحامل لصورتها بكل ضعفها وعوزها وكل كيائها وغايتها. «الكل به وله قد خُلِق»، من أجل هذا صار كل تنازل لابن الله من نحو الخليقة هو نفسه ضمان أكيد للسمو بها.

وهكذا كان أثناسيوس واضحاً كل الوضوح كأول لاهوتي في العالم يفرّق بكل

حكمة وفتنة بين صفة “الوحيد” وصفة “البكر” بحسب التقليد الإسكندري، ويربط بينهما ليخرج بتوضيح أكثر وأكثر لكل منهما.

7 - “الهوموؤوساوس”

- واحد مع الأب في الجوهر -

كان الآباء الأساقفة في مجمع نيقية على استعداد تام أن يستجيبوا لنداء خاص نودي به في وسطهم بأن لا يستخدموا في التحديدات الوصفية غير آيات من الأسفار المقدسة.

ولكن، وبعد محاولات عديدة، لاحظوا أنه أمكن للأريوسيين أن يأولوا معاني كل الآيات لتخدم أغراضهم - كما جاء على لسان القديس أثناسيوس في صفحة 118.

وعلى هذا الأساس اضطر الآباء إلى استخدام تحديد وصفي لا يمكن تأويله ليخدم أغراض الأريوسيين، فكان الاصطلاح *homoousios*.

والمعنى المحدد الذي قصده المجمع من هذا الاصطلاح، جاء واضحاً في كلام أثناسيوس:

[فالابن ليس فقط يشبه الأب ولكنه إذ هو صورة الأب فهو مساوٍ للأب وأنه من الأب، على أن “التشابه” في معنى الهوموؤوساوس وكذلك عدم التغيير *immutability* تختلف تماماً عما يمكن أن ينسب لأي بشر، لأن كل هذه الصفات في البشرية تُكتسب وتوجد تبعاً لتكميلنا وصايا الله، كذلك أراد المجمع أن يوضح بهذا الاصطلاح أن هذا الميلاد يختلف تماماً عما للبشر، فالابن ليس هو مشابه للأب فقط ولكن غير مفترق عن طبيعة الأب، فالابن والأب واحد مساوي كما قال المسيح نفسه. فالكلمة قائم دائم في الأب والأب قائم ودائم في الابن كالشمس وضياؤها وهما غير منفصلين.] (700)

ولقد اختار آباء نيقية هذا الاصطلاح وهو غير إنجيلي اضطراراً لدرء خطرين: الأول بطبيعة الحال موجّه ضد الأريوسيين، ويقصد به الآباء توضيح لاهوت

(700) Athanas. *De Decr. Syn. Nic* CXIX.

المسيح مباشرة وبمنتهى الاختصار - لأن الذي هو من جوهر الله الآب ومتساوي معه يتحتم أن يكون هو والآب: الله الواحد وليس متشابهاً معه وحسب.

الثاني موجّه ضد بدعة السابليين الذين ينكرون شخص الابن متميّزاً عن شخص الآب لأنهم ينكرون وجود الأقانيم جملة، وهنا أراد الآباء بكلمة الهوموؤوسايوس للابن بالنسبة للآب أن تفيد التساوي في الجوهر، وهذا يحتم الإيمان بوجود أقنومين متميّزين لأن التساوي لا يتم إلا بين شخصين. وقد استخدم أنثاسيوس هذا الاصطلاح الهوموؤوسايوس للتعبير عن وحدة الروح القدس مع الآب والابن أيضاً (الرسالة إلى سيرابيون 1:27).

وكلمة الهوموؤوسايوس لها تاريخ قديم من جهة استخدامها، فقد استخدمها القديس إيرينيئوس في أربعة مواضع في الكتابات التي وصلتنا عنه، والشهيد بامفيليوس استشهد بها موضحاً أن أوريجانوس استخدمها في نفس المعنى الذي استخدمه فيها مجمع نيقية، فقد استشهد بامفيليوس بما قاله أوريجانوس في شرحه للرسالة إلى العبرانيين ذات الكلمة هوموؤوسايوس موضحاً أنها تختص بكيان الآب والابن هكذا: [وهذا التشابه يوضح بكل صفاء أن الابن مشترك مع الآب في الجوهر، لأن ما ينبثق (أو يولد) من الجوهر هو مساوي له وواحد معه “هوموؤوسايوس” بكل تأكيد!! (كالبخار من الماء).] (701)

[لا توجد أي فوارق البتة أو أي عدم تشابه من أي نوع بين الابن والآب.] (702)

وترتليان استخدم اصطلاحاً موازياً لها تماماً باللاتينية (Unius Substantiae).

وقد صارت الهوموؤوسايوس اصطلاحاً متداولاً بين الأرثوذكس على مدى خمسين سنة في ما قبل نيقية، ولكن الذي جعل أساقفة آسيا الصغرى يجزعون من هذا الاصطلاح في ما بعد هو أن سابيليوس كان قد استخدمه في معنى منحرف.

(701) Pamphil., *Apology For Origen*, C. 5, tr. Rufinus 8 & (Migne 14-1308); Qouted by Beth. Bak. *op. cit.*, p. 147 N4.

(702) Origen., *De Princip.* I. 212. Ibid.

ملخص الفصل الأول

1 - الصراع اللاهوتي ضد الأريوسية

- النزاع الأريوسي - كان يدور حول لاهوت المسيح ووحدة الثالوث - اكتشفت هذه الهرطقة وأدينَت (سنة 325 في مجمع نيقية)، وعُزلت وصارت شيعة خارجة عن الكنيسة بوضوح (سنة 381 في مجمع القسطنطينية).
- الإيمان الأرثوذكسي بالثالوث يقوم على وصية الرب: «عمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس». وظلت الكنيسة تعيش على هذا القانون وتسلمه للمسيحيين الجدد دون صعوبة، بسبب حرارة الإيمان وفاعليته في حياة المؤمنين الجدد.
- يُرجع العلماء والمؤرخون الذين أرخوا للانشقاق الأريوسي، الهرطقة الأريوسية إمّا إلى أصول يهودية، وإمّا إلى أصول وثنية أو إلى خليط منهما.

أساس الفكر اللاهوتي العام في الكنيسة الأولى

- 1 - المسيحية تقوم على عقيدة وحدانية الله ولاهوت المسيح ككلمة الله، فإله واحد أزلي بكلمته وروحه.
- 2 - الإيمان بلاهوت المسيح يتبرهن من واقع التغيير الجوهرى الذي كان يظهر على المسيحيين الجدد بمجرد قبولهم الروح القدس بالإيمان والعماد لغفران الخطايا وتجديد الخلقة الداخلية، التي يحسها الإنسان بقلبه فيؤمن بلاهوت المسيح بالروح القدس الساكن فيه بدون واسطة أو شرح.
- 3 - كان لاهوت آباء الكنيسة الأولى لاهوت تسبيح وإنشاد ومديح واعتراف، وكانت رسالتهم فقط تتلخص في توصيل هذا الإيمان الرسولى، كحياة وكحقيقة حيّة وفعّالة للأجيال اللاحقة، وليس تحليله أو شرحه.
- 4 - لا يوجد أي تعارض بين تألم المسيح على الصليب وبين حقيقة لاهوته، فالألم هو العنصر الذي أكمل به المسيح المتجسّد الفداء والكفّارة، ولولا أنه إله لما صارت آلامه الجسدية للفداء والخلّاص.

5 - ولكن في مواجهة المتشككين والمقاومين، خرجت الكنيسة مرغمة من دور التسليم السرّي إلى دور ضرورة تقديم تفسير علني منطقي.

+ ونجحت الكنيسة، معتمدة على صدق وأصالة الحق الإلهي المبني عليه إيمانها، فأملى الروح القدس ووجّه كل ما كتبه الآباء على مدى العصور.

وفي كل هذا كان المحكّ ليس هو التقليد فحسب، بل الأسفار المقدّسة التي كانت هي المقياس الذي عليه يُقاس كل مقالة لقائل أو شرح لشارح أو سلوك لمبتدع.

6 - لقد بدأت مهاجمة لاهوت المسيح من جماعة "الإيبونيم" التي قالت بأن اللاهوت في المسيح كان مجردّ قوة مؤثّرة.

بينما قامت جماعة "الدوسيتيين" وقالت إن التجسّد كان خيالياً وليس حقيقة.

ثم قامت فلسفة سابيلْيوس (ذات أصول وثنية) وجعلت الآب والابن والروح القدس ثلاثة ظهورات متعاقبة لله الواحد.

ثم أتى أريوس أخيراً ورفع من الثالوث: الابن، والروح القدس.

+ ونجد في كل هذه البدع اتجاهات ثلاثة تحمل آثار الفلسفة الوثنية: إمّا في نظرية تعدّد الآلهة، أو نظرية التآليه الكلّي للكون، أو نظرية نصف الإله، الوسيط بين الله والمادة.

2 - لاهوت المسيح وصلة الابن بالآب

حقيقتان أمنت بهما الكنيسة ولم تناقشهما قط:

1 - المسيح هو ابن الله، والابن والآب هما ذات واحدة لله الواحد.

2 - شخص المسيح كابن الله المتجسّد، متميّز بالبنوّة عن شخص الآب المتميّز بالأبوّة، ولكنهما ذا جوهر واحد.

+ صفة "كلمة الله" هي على مستوى صفة الابن، فالكلمة حينما تعمل هي استعلان العقل، وهي في العقل قبل أن تُنطق وبعد أن تُنطق. والابن هو استعلان الآب قبل التجسد وبعد التجسد.

تسمية المسيح بالابن:

- تسمية المسيح بابن الله تغطّي الإنجيل كله.
- هذه التسمية ليست بسبب ميلاده من العذراء وتجسّده وتأنّسه وظهوره كإنسان، ولكن لأنه ابن الله من جهة وجوده الأزلي كواحد مع الأب، لأن الذات الكاملة يستحيل أن تكمل إلا بالأبوة والبنوة معاً.
- ثم جاءت صفة "المونوجانيس" (البنوة الوحيدة - الابن الوحيد للأب) لتنفيذ تخصّص علاقة الابن بالأب تخصّصاً جوهرياً، يفيد التساوي الجوهري بين الأب والابن.
- تمّت تصفية كل التصوّرات عن "التدرّج في المستويات" بين الأب والابن، كما بين الأعلى والأدنى، والسابق واللاحق، والأول والثاني، فأوضح الآباء أنهما ليسا إلهين بل الابن واحد غير منفصل عن الأب.
- المسيح بصفته "كلمة" الله، هو الوحيد الذي يستطيع أن يبلّغنا قصد الأب، ويشرح لنا مكنونات مشيئته الخاصة.
- "كلمة الله" هو أقنوم (شخص) مميّز، ثابت، دائم، وحي في ذات الله.

3 - الاصطلاحان الحارسان لمفهوم الوحدة الإلهية في الثالث

"في الله"، "من الله"

- الاصطلاح الأول "في الله" يوضّح أن الابن الأزلي قائم في وحدة الله، غير منقسم أو منفصل ولا ممتد أو خارج عن هذه الوحدة.
- أو بمعنى آخر: الأبوة تكمل وترتاح في البنوة، والبنوة تكمل وترتاح في الأبوة.
- لفظ "الارتياح" يعني الاحتواء في انسجام مطلق، وهذا الانسجام المطلق يعني التساوي المطلق. فالثالث متواجد معاً ودائماً، في تساوي وفي وحدة.
- وقد شبّه أثناسيوس هذه العلاقة السريّة بمثلّ النور والشعاع. فحيث وُجِدَ النور وُجِدَ أيضاً شعاعه، وحيث وُجِدَ الشعاع وُجِدَ أيضاً نشاطه ونعمته الخالقة. ولا يمكن أن يوجد النور بدون شعاعه أو الشعاع بدون نوره.
- الاصطلاح الثاني "من الله" - أن الابن والروح القدس هما من الأب، في مفهوم

- “وحدانية الله” وهذا ضد أي انحراف بمفهوم الثالوث تجاه “تعدُّ الآلهة”.
- العلاقة السرية بين لاهوت الابن ولاهوت الأب تتضح في اعترافنا أن الابن “نور من نور، إله حق من إله حق”.
 - حينما نصلي إلى الأب، فنحن نتقدم إلى حضرته الفائقة في شخص ابنه وفي الروح القدس.
 - وهكذا يُطلق على الأب صفة “الإله الواحد” باعتبار أن أُنومي الابن والروح القدس هما في صميم الأب أو الإله الواحد (منه وفيه).
- هذه العقيدة تسمى “المونارخيا” أي وحدة الأصل للابن والروح القدس. وقد أُسيء استخدام هذا الاصطلاح في ما بعد.

4 - الاصطلاحات اللاهوتية التي استخدمها الآباء لشرح عقيدة “وحدة الثالوث”

- (أ) **طبيعة Substantia**:
- وهي كلمة لاتينية تفيد “الوجود الحقيقي” وبالتالي “الخواص والممتلكات التي تعطي الشيء كيانه”.
 - ثم عُني بها في الفكر اللاتيني الغربي ما عُني به لفظ “الجوهر” و “الأُنوم”.
 - مما أحدث ارتباكاً في التعبير - وكان ذلك بسبب ضعف اللغة اللاتينية في التعبير اللاهوتي - (ومن هنا بدأت بذور الخلاف الذي سيظهر في ما بعد في مجمع خلقيدونية حول “طبيعة” المسيح).
 - مع أن كلمة “طبيعة” لها لفظ لاتيني آخر وهو Natura، ولكنها لا تفيد أكثر من مجموعة صفات نظرية. مثل طبيعة الحديد وطبيعة الحجر. فلا يمكن الجمع بينهما في “الطبيعة” بمعنى Substantia، أي في الصفات الجوهرية الكيانية. ولكن يمكن الجمع بينهما من جهة صفة “الجمود” المشتركة بينهما، فهنا الاتفاق يكون في الطبيعة بمعنى الـ Natura (أي الصفات الطبيعية الثانوية).

(ب) **الشخص swpon Persona**

وهي كلمة غير كلمة Person الإنجليزية.

وقد تطوّر استعمالها منذ القديم، فكانت تعني أولاً الممثلين (لابسي القناع) ليمثّل شخصية أخرى، ثم انتقل المعنى ليعبّر عن الحالة التي يعيشها إنسان بين الآخرين، ثم انتقل للتعبير عن الشخصية التي يمتلكها أو يعيشها أي إنسان، ثم زادت الكلمة في معناها لتصل إلى كرامة ورتبة الشخصية.

- وفي المفهوم الكنسي، تعني الوجه (الوجهة - الحضرة) من جهة عمل الشخص أو أسلوبه أو حاله.
- وهكذا استخدمها الآباء للتعبير عن المسيح باعتباره “وجه الله”، أي الذي بواسطته ظهر الله وصار معروفاً، وأنت في موضع آخر بمعنى “الشخص”.
- ولكن استغل “سابيلْيوس” مفهوم الشخص، ففصل بين الشخص والحالة. فقال: إن الثالوث ثلاث حالات لله الواحد ظهر بالتتابع على مدى التاريخ.

(ج) الجوهر s...aظ:

- وتفيد الذات، أو الوجود الذاتي، أو الكيان.
- وقد كانت هذه الكلمة هي محور الصراع اللاهوتي بين القديس أنثاسيوس والأريوسية على مدى 50 سنة.
- كان القديس أنثاسيوس يؤكّد دائماً أن الابن واحد مع الأب “في الجوهر”. وهذا مضمون معنى لفظ “هوموؤوسْيوس” sioj عمooj.
- والفرق بين المخلوقات وبين ابن الله، من جهة علاقة كلّ منهما بالأب، أن المخلوقات جميعاً هي من صنعة الله، بينما هو من وفي جوهر الأب.

(د) الأَقْنوم (سريانية) طpزstasij:

- تعني “القيام الأساسي” أو “القوام”.
- والآباء الإسكندريون فرّقوا بين الأَقْنوم والجوهر، فالله ثلاثة أقانيم وجوهر اللاهوت واحد. هذا في الوقت الذي خلط فيه الغربيون كلمة “أَقْنوم” وكلمة “جوهر” وجعلوها بذات المعنى الواحد.
- القديس أنثاسيوس كان يتمسّك دائماً بتعليم الكنيسة الجامعة كلها - أن الله واحد في الجوهر كائن في ثلاثة أقانيم أزلية.

5 - الصفات الذاتية الخاصة بعلاقة الابن بالآب، والابن بالخلقة

- الصفة الأولى: “مولود غير مخلوق” - أي مولود ميلاداً جوهرياً من الآب كميلاد النور من النور.
- كلمة “ميلاد” أو “ولادة” التجأ إليها اللاهوتيون اضطراراً، ليعبروا مجازاً عن علاقة الابن بالآب.
- ومن هذا التعبير أتى تعبير “المونوجينيس” ليعبر عن أن بنوة المسيح للآب خاصة جداً، ذاتية وجوهريّة، لا تدانيها أي بنوة أخرى.
- يلزم التفريق بين اصطلاحين هاميين جداً استغلها الهرطقة استغلالاً سيئاً: غير مخلوق $nhtozj\text{g}$ وغير مولود $nnhtozj\text{g}$ الأولى تعود على المسيح، والثانية تعود على الآب. والفرق بين اللفظين حرف n فقط. وقد بادل الهرطقة بين اللفظين ليفصلوا بين الابن والآب.

6 - الفارق الكبير والخطير بين: وحيد الجنس - والبكر

- فالصفة الأولى “وحيد الجنس” تتصل بعلاقة الابن الداخلية - الجوهريّة - مع الآب، وهي علاقة فريدة أزلية.
- أمّا الصفة الثانية “بكر (مبدأ) كل خلقة” فهي تفيد العلاقة الخارجية للابن مع الخلقة كخالق (على صورته). وهو تجسد ليرفع الخلقة كلها مرّة أخرى من حالة العبودية والفساد إلى حرية أولاد الله، جاعلاً للإنسان ميلاداً جديداً فيه وأعاد له صورته الخاصة، فصار آدم الثاني أصل الخلقة الجديدة كما صار بنفسه هو البكر - بالقيامة من الأموات (الميلاد الثاني).

7 - الهوموؤوسايوس

- اصطلاح استخدمه الآباء لتوضيح مساواة الابن للآب في الجوهر وفي نفس الوقت غير مفترق عن طبيعة الآب، مفيداً أن الكلمة قائم دائم في الآب، والآب قائم دائم في الابن دون انفصال.

- وبالرغم من أن هذه الكلمة (هوموؤوسوس) - غير واردة في الإنجيل، إلا أن الآباء استخدموها لتوضيح العلاقة الجوهرية بين الأب والابن.

الفصل الثاني

ظهور أريوس وبدعته

أولاً: العوامل والظروف التي ساعدت على انتشار بدعة أريوس

(أ) لم يكن ظهور أريوس مفاجأة تاريخية، بل كان يمثل تطوراً مستمراً ناشطاً للفلسفة الوثنية في صراعها الدؤوب ضد الحقائق المسيحية الإلهية عن الله منذ القرن الأول.

(ب) أمّا تركيز كل البدع الوثنية واليهودية المتنصرة في الشرق خاصة، فذلك معروف قطعاً أنه بسبب النشاط الروحي والوجداني الفلسفي عند الشرق.

(ج) أمّا سبب شدة التألف وكذلك التنافر بين الأفراد والجماعات فهو لزيادة ميول التداخل الشخصي في الأمور الخاصة عند الآخرين، وبالذات في الديانة والعقيدة عند أهل الشرق دون الغرب. لذلك نجد التكتل والصراع في الأمور الدينية عند أهل الشرق عنيفاً لا يطاق.

(د) كذلك نجد في الشرق ظاهرة لا توجد في الغرب بصورتها العنيفة كما هي في الشرق، وهي التداخل الطاعي للمعتقد الديني في الحياة الدنيوية العادية. فالدين يؤثر في السلوك والكلام والعادات وكل شيء حتى الأكل والشرب.

(هـ) لذلك عندما كان ينفذ الفكر الوثني المبسط عن الله واللاهوت إلى صفوف العامة كان يسري كالنار في الهشيم، وخاصة إذا كان يسانده اضطهاد أو تهديد أو عنف أو وعود وحظوة ومنفعة، لذلك كانت كل بدعة تترك وراءها، حتى بعد أن تُهزم، خطوطاً عميقة لا يمكن محوها من الأفكار والعادات والأوهام المنحرفة!

(و) كذلك لم يكن انتصار الإيمان المسيحي الأرثوذكسي في أي موقعة يُحسب كنهاية للصراع، لأن قطاعاً هائلاً من الشعب البسيط يكون قد فقد اتزانه الإيماني وفكره الروحي السليم، فكان ذلك يتراكم من بدعة لبدعة ليهيئ الجو لبدع جديدة ويكون بذلك عبئاً هائلاً على الكنيسة. وكثيراً ما تسرعت الكنيسة في الحكم على الذين أغوتهم الظروف وسقطوا عن الإيمان، وحرمت بالجملة، فكانت الطامة الكبرى حيث لم يكن أمام المحرومين خيار إلا أن يعودوا مرة أخرى ليخضعوا تحت ألوية المبتدعين، هذا خلاف ما كان يتركه في النفوس من حزازات وأحقاد واعتداءات، وهذا ما حدث بالفعل بعد اضطهاد دايسوس ودقديانوس، مما كان له

أكبر الأثر في سرعة انتشار الأريوسية بين المحرومين من الكنيسة الذين سقطوا أيام الاضطهاد ولم يُسمح لهم بالرجوع للإيمان الأرثوذكسي.

(ز) كذلك لم يكن مفاجأة أن تنفجر بدعة أريوس في الإسكندرية بالذات وتكتسح قطاعاً ليس صغيراً من رعية البابا ألكسندروس، بالرغم من أن أريوس وبدعته نبتت وترعرعت في أنطاكية تحت لواء مدرسة أنطاكية وبالذات لوسيان الذي يقول عنه “هارناك”: [إن لوسيان كان هو أريوس قبل أن يأتي أريوس]. (703)

فالإسكندرية كانت مرتعاً خصباً لبدعة أريوس، لأن الإسكندرية ورثت من أثينا النشاط الفكري وقدرة الشعب على استيعاب الفلسفات والانشغال بها بصورة طاغية.

(ح) كما كان لليهود في الإسكندرية أقوى جالية نشطة من جهة تطوير الفكر اللاهوتي العبري على أصول الفلسفة الوثنية كما ظهر عند فيلو.

(ط) كذلك كانت الإسكندرية لا تزال تموج بفلاسفة الفكر الوثني، وكانت بقايا مدرسة الإسكندرية الوثنية لا تزال ناشطة (حتى أيام كيرلس الكبير المتهم بالتخطيط لقتل هيئاتشيا الفيلسوفة الوثنية الشهيرة حقداً وغيره من شهرتها ومن تشهيرها باللاهوت المسيحي). وقد قام الوثنيون بعدة نهضات لإحياء تراثهم الفلسفي في مواجهة النشاط المسيحي، ولم تخلُ نهضاتهم من ثورات واعتداءات حتى إلى حرق كنيسة السيزاريوم في أيام أناسيوس الرسولي. بل وظلَّت تُقدِّم الذبائح الوثنية للأوثان في روما وفي الإسكندرية حتى أيام ثيودوسيوس سنة 450م (704).

كذلك ينبغي أن لا يغيب عن بالنا مناصرة الوثنيين وفلاسفتهم لبدعة أريوس مما يكشف عن مدى التعاطف الفكري بينهما، ولكن لا يؤخذ من هذا أن صبغة الإسكندرية كانت هي الوثنية أكثر من أنطاكية أو سوريا في جملتها. فالمعروف أن صبغة الإسكندرية العامة هي الأرثوذكسية وخصوصاً في نهاية الصراع، أمّا صبغة

(703) Harnack, D. G., ii, 184. Beth. Bak. *op. cit.*, p. 101.

(704) ثيودوسيوس الثاني (401-450م) حفيد ثيودوسيوس الأول الكبير، وهو الذي عقد مجمع أفسس سنة 431م.

Libanus or pro. Templis, II. 180 sq Gwakin p. 18.

أنطاكية منذ البداية حتى نهاية الصراع فكانت وثنية زاعقة(705).

وكل هذه العوامل السالف ذكرها ساعدت على انتشار بدعة أريوس بين طبقات الشعب حال ظهورها بصورة ملفتة للنظر، فلم تُبق من أعلى طبقة في الأساقفة أنفسهم الذين استمالتهم وبهرتهم فلسفة أريوس العقلانية، حتى إلى أدنى طبقة من عامة الشعب الذين يعملون في الشوارع، أو البحارة، أو في الحقول من رجال وسيدات، الذين كانوا يرددون أبياتاً شعرية موزونة ألفها أريوس وأسماءها "تاليا" أي "الوليمة".

(ي) كذلك وبالإضافة إلى كل العوامل الخارجية التي ذكرناها كانت توجد عوامل أخرى شخصية أضافت إلى أريوس مميزات كبيرة ساعدت على انتشار بدعته في الأوساط المحترمة، فأريوس نفسه كان رجلاً كبير السن يناهز السبعين من عمره مديد القامة بصورة ملحوظة، ناسكاً متقشفاً، مهيب المنظر، طلق اللسان، شاعراً موهوباً صاحب منطق عقلائي فذ. كل هذا وافق جداً أن يصنع منه الشعب صنماً جديداً تُستعبد له العقول والمشاعر المخدوعة. ويكفي أن نرى مقدار المصيبة التي ألمت بالإكليروس، إذا عرفنا حسب تحقيقات العالم جواتكن أن ستة من الكهنة قد انحازوا له من عداد كهنة الإسكندرية الذين بحسب تقدير فاليريوس وإبيفانيوس كان يبلغ عددهم في سنة 300م اثني عشر كاهناً (بحسب طقس مار مرقس الرسول)، والذين زادوا في أواخر أيام البابا ألكسندروس إلى 16 كاهناً، وهم الذين وقَّعوا على منشور البابا ألكسندروس، ازداد عددهم بعد ذلك في أيام البابا أثناسيوس إلى ما يقرب من 22 كاهناً بجملة المنحازين لأريوس، لأن ستة عشر كاهناً منهم وقَّعوا على الاحتجاج ضد تحقيقات بعثة مريوط لتقصي الحقائق سنة 335م. وانحياز ستة كهنة لأريوس من اثني عشر في البداية أو من اثنين وعشرين كاهناً في وسط المعمعة، كان يمثل صدعاً خطيراً في كنيسة الإسكندرية آنذاك(706).

كذلك فإن تردُّ القديس ألكسندروس في اتخاذ موقف قاطع بالنسبة لأريوس مدة طويلة، وأخيراً اضطراره لرفع قضيته إلى مستوى أساقفة العالم في مجمع مسكوني؛

(705) Gwatkin, *op. cit.*, pp. 18,19.

(706) Epiphan. *Haer.*, 69.2, 68.4. Soz., 1.15.

كل هذا يوضّح مدى الخطورة التي كانت تواجهها الكنيسة بالنسبة لرئيس هذه البدعة الذي كان قد ملك ناصية الموقف وأصبح بالفعل يهدّد أمن الكنيسة وسلامة إيمانها(707).

ولكن كل هذا الجبروت الذي ظهر به أريوس الذي ازداد سريعاً فشمّل قطاعاً كبيراً في الإسكندرية، وانتشر كالنار ليطوّح بأعظم أساقفة الشرق والغرب واستمال الإمبراطور والقصر الإمبراطوري بأسره لصفّه؛ هذا يعطينا صورة واضحة جداً لجبروت أثناسيوس الإنسان الحر الذي وقف وحده وبمفرده في مواجهته يحاربه بالكلمة وحدها دون سيف ولا رمح، وبالإيمان وحده غلب أثناسيوس وهزم جيشاً منظمًا كان قد ابتلع كل الكنيسة، هذا أثناسيوس الذي أقامه الله في الزمن الموافق جداً. ولقد ظلّت الحرب بينهما سجالاتاً مدة طويلة ونار الأريوسية مشتعلة تتأجج بقوة مرعبة تآكل وتحرق في الإسكندرية ومصر وأنطاكية وكل آسيا الصغرى وروما وفرنسا وكل بلاد شمال أوروبا وأسبانيا وكل أفريقيا، لم تترك مكاناً في العالم إلا وتركت فيه بصمتها في كافة الاتجاهات إلى أن أطفأها الله بنفخة فمه، فلم تأت سنة 346م حتى انحسرت أولاً ونهائياً عن مصر عندما عاد إليها راعيها بعد المنفى الكبير، في نصره منقطعة النظير.

وفي المقابل ظلّت أنطاكية وكل سوريا تحت وطأة غزو الهرطقة الأريوسية، كما يقول المؤرّخ سوزومين أنه إن كان أثناسيوس قد حكم كنيسة مصر خمسين سنة، فالأريوسيون حكموا أنطاكية هذه المدة عينها.

ومعروف أن مدرسة أنطاكية بقيادة أسقفها بولس الساموساطي(708) ورئيس مدرستها اللاهوتية لوسيان كانت هي المهد الذي تربّى فيه أريوس وكل جماعة الأساقفة الأريوسيين الأوائل(709) ثم كانت المعقل والجمي الذي عسكر فيه الأريوسيون طوال حقبة النزاع الأريوسي.

ونحن نتعجّب من دفاع العالم جواتكن عن أنطاكية ومدرسة لوسيان، الأمر الذي

(707) Gwatkin, *op. cit.*, p. 18.

(708) عُيّن أسقفًا سنة 260م وأسقط عن كرسيه في مجمع أنطاكية سنة 268م ولم يخضع للحرم، ولكن بسياسة من روما بتخطيط دقيق ومتواصل أمكن إسقاطه وإبعاده.

(709) Beth. Bak., *op. cit.*, p. 101.

يدحضه تعاليم هذه المدرسة التي أخرجت بولس الساموساطي الذي نادى بعدم أقتومية الكلمة واستحالة تأنس الكلمة وأن ابن الله مجرد لقب، كما نادى باستحالة التجسد وأن المسيح كان شخصية بشرية محضة، وأن ابن الله لم يأت من السماء بل أن ابن الإنسان هو الذي ارتفع إلى السماء ولم يكن له وجود سابق عن الميلاد، وأن الاتحاد بين الابن والآب هو اتحاد المشيئة فقط.

وهكذا يتضح أن أنطاكية مهّدت للأريوسية إذا لم نقل مع هارناك أن الأريوسية كانت في أنطاكية قبل أن يوجد أريوس.

وإن كان لوسيان مات كشهيد وأكرمه الكنيسة، ولكن لا ننس أنه لم يقبل قط أن يعترف بأن يكون المسيح واحداً مع الآب، كما ادّعى أن اللوغس ككلمة الله الآب غير الكلمة في المسيح، وأن المسيح ابن الله بالإرادة وليس بالجوهر.

وهل يمكن أن نخفل أن أريوس تلميذ لوسيان؟ وأن من ضمن تلاميذ لوسيان أيضاً أستريوس أول كاتب ومؤلف أريوسي، وكذلك يوسابيوس النيقوميدي، وثيوجنيس أسقف نيقية وماريس أسقف خلقيدونية؛ وكلهم من أخطر الأريوسيين الذين زلزلوا الكنيسة وزعزعوا إيمانها دون أي طائل؟ (710)

ولقد ظلت روح وتعاليم بولس الساموساطي ترتع في سماء أنطاكية إلى مائة سنة حتى استلمها ونفخ فيها نسطور. (711)

ثانياً: الهرطقة الأريوسية المبادئ اللاهوتية التي قامت عليها

1 - بدعة أريوس هي فلسفة مزيّفة أكثر منها ديانة، فهي تتبع الأصول المنطقية السهلة، وهي تحاول أن تعطي أجوبة سهلة على الأسئلة العقلية التي يصطدم بها الفكر المتشكك في نواحي الإيمان، وقلماً ترتكن في تكوينها على الأسفار المقدّسة لأنها تهرب من الإيمان، وإذا استعانت بالآيات فهي تستخدمها منفصلة عن سياق

(710) Ibid. p. 111.

(711) Ibid. p. 102.

الموضوع الذي قيلت فيه، بنوع من الاصطیاد العقلي، لكي تصل إلى هدف بعيد كل البعد عن هدف الآية المستخدمة والموضوع الذي قيلت فيه.

وتدّعي الأريوسية أنها تنادي وتدافع عن تقليد آبائي سابق، وهذا محض افتراء، فالمعاصرون لأريوس أكدوا جميعاً أنه مختلق لأرائه، ولم يحدث قط أن قَصَدَ أبٌ واحدٌ من آباء الكنيسة الأرثوذكسية منذ القرن الأول وكل أيام ما قبل نيقية ما قصده أريوس من تحليله لأقوال هؤلاء الآباء بهذه الصورة الكُفريّة (712).

ويقرّر سوزومين أن أريوس ابتدع جميع الاصطلاحات التي جعلها حجته التي استند عليها كقوله: “إن المسيح خُلِقَ من لا شيء” $\tau\mu\chi\sigma\ \text{o}\ \text{k}\ \text{sh}\ \text{ntoj}$. لذلك كان الأريوسيون يُسمّون بالإكسوكنتيين أي اللاشيئيين. “وأنه لم يكن موجوداً قبل خلقه” أي أنه “اتخذ وجوده بعد ظهوره”، بقصد نفي أزلية الابن ولاهوته (713).

ولكن هذا لا ينفي أن البدعة الأريوسية كانت موجودة بالفعل قبل زمن أريوس، ولكن خارج الكنيسة وليس داخلها أي بين المبتدعين.

2 - وتبدأ الأريوسية عقيدتها اعتماداً على وحدانية الله بالمفهوم العددي، لأن هذا هو أسهل تصوّر لله الذي يريح العقل من عناء فهم الفداء والخلص. وهي لا تقف عند الوحدانية في مفهومها هذا أيضاً، بل تمتد بالتباعد بالله لتجعله بسيطاً كلياً معتزلاً في ذاته ومنفصلاً انفصلاً طبيعياً وذاتياً عن عالم الموجودات المحدودة، وهي في محاولتها للسمو بالطبيعة الإلهية وتنزيهها عن الاتصال بطبيعة الإنسان، أنهت وقضت على مضمون الفداء واستعلان الله، وتبني الإنسان.

3 - ثم تعود وتأخذ من اليهودية - وهي تشترك في هذا مع المسيحية - مفهومها عن الله باعتباره مخفي عن أعين أي مخلوق في سرية مطلقة أبدية، وأنه وحده غير متغيّر، ولا متبدّل بلا بداية، أبدي غير مخلوق، صالح وحده وكلّي القدرة؛ ولكنها تنحرف بهذا المفهوم لكي تنفي إمكانية صلة الله بطبيعة الإنسان كلياً ونهائياً، ليبقى الإنسان في ظلام طبيعته إلى الأبد غير قابل للالتحام بالنور الأبدي.

(712) Newman, *op. cit.*, pp. 201, 203.

(713) Sozomen, 1. 15, Theod, H. 104, Athanas. *Decr. Nic.* 27, *De st. Dionys.* 6.

4 - ثم تستند على الفلسفة فتنتفي عن الله باعتباره “الروح الأعظم”، أن يكون له أدنى شبه أو علاقة حلول بالإنسان “معاذ الله!!” وهذا ما يردده بعض الناس في هذا العصر!! متجاهلة بذلك عمداً للحقيقة الكتابية أن الإنسان مخلوق أصلاً على صورة الله!! وعلى هذا الأساس قيل إن الإنسان هو هيكل الروح القدس وإن الروح القدس يسكن فيه، الذي يفيد حتماً أن الله هو المثل الأصيل والأعلى للإنسان، وينتج عن ذلك بالضرورة أنه لا يمتنع أن يوصف الله بالأوصاف الإنسانية كأن تقول إن الله يرى ويسمع ويحب ويبغض ويرحم، وعين الله وحدقة عين الله ويد الله وأصبع الله وقلب الله وفكر الله وأذن الله، وأنه يفرح ويحزن ويغضب ويتضايق؛ وذلك من شأنه أن يقرب ويوضح للإنسان إدراك الله، فإذا ترقعنا عن هذه الصفات المشتركة بين البشرية والله امتنع نهائياً على الإنسان أي إدراك الله! إذن فإدراكنا لحقيقة الله يتوقف جوهرياً على أساس أن هناك صفات لله مستعلنة لإدراك الإنسان بشرياً في صميم خلقته!!

كذلك فالأوصاف البشرية لله حتمية لإيجاد صلة فهم وإدراك ومودة وطاعة بين الإنسان والله.

ينتج عن هذا أنه ليس بمستغرب ولا مستحدث أن الله يتخذ جسداً إنسانياً كامل الصفات طاهراً بلا خطية، ليحل فيه بكلمته الخالقة، ليظهر فيه علناً، حتى يعلن عن قرب محسوس ومُدرك واقعي، ليُظهر صفات الله ومودته وخطه خلاصه وليكمل فيه - أي في هذا الجسد - فداء الإنسان من عبودية الخطية والشيطان ورفع الطبيعة البشرية إلى مستوى الحياة الدائمة مع الله.

وإن اتخاذ الله لجسد إنسان ليحل فيه لا يتعارض مع حلوله في كل مكان وكيان وزمان بكليته التي لا تُحد ولا تتجزأ، ولا يتعارض هذا قط مع صلاح الله ومجده ووحدانيته، “فكلمة” الله المتجسد لم يفترق عن الله قط لا جوهرأً ولا ذاتاً فالله وكلمته واحد حتماً لأنه في الأصل وبدء كل ذي بدء خلق الله الإنسان - بكلمته - على صورته، حيث كان هذا التشابه الذي سمح الله به بين الخالق والمخلوق، كان هو أعظم مظهر من مظاهر صلاح الله وخيريته وعدم أنانيته، وأعظم رسالة من رسالات الحب الإلهي استُعلنت في الله لعالم الخليقة!!

ولا يغيب عن بالنا قط أن على أساس هذا التشابه الفائق للتصوّر والمنطق

العقلي في الخلقة بين الإنسان وخالقه التزم الله من جهة حبه وصلاحه، كخالق، بإعادة الإنسان - صورته المحبوبة - إلى الصورة الأصلية بعد سقوطه، فكان تأنس كلمة الله الخالق آخذاً صورة الإنسان التي هي أصلاً صورته ليرتقي بها ويفديها!!

ثم على أساس هذا التشابه الأصيل بين الكلمة الخالق والإنسان الذي هو أصلاً على صورة خالقه، أن جاء المسيح يطالبنا لنكون «كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل». هنا كمال الإنسان المطلوب أن يحصله بالسعي والجهد ثم بفعل نعمة الله، لا يمكن أن يبلغ إلى كمال الله، ولكن يرتقي فقط ليكون على صورته حسب أصل خلقتة.

كذلك يطالبنا المسيح أن نكون «قديسين كما أن أباكم الذي في السموات هو قدوس»، هنا أيضاً لا تبلغ قداسة الإنسان (تكريس حياته لله) إلى مستوى قداسة الله، ولكن ترتقي إلى صورتها المثلى في المسيح في البر والحق!!

وموضوع خلقة الله للإنسان على صورة الله في الكمال والقداسة ليس هو في الحقيقة مجرد فكرة أو قصة في الكتاب المقدس غير معقولة أو غير قابلة للظهور على الواقع المادي، أو هو مجرد مشروع عاجز عن التنفيذ، ولكن صدق رواية الخلقة على صورة الله تبرهنت علناً لما قدم الله «كلمته» أخيراً متجسداً ومتأناً ليكون فعلاً وعملاً المثل الأعلى الملموس والمرئي كصورة الله للكمال والقداسة في البر والحق، يسوع المسيح. وكان هذا التجسد أصلاً ضمن خطة الخلق ليرفع الإنسان إلى المستوى عينه الذي قصده الله إنما في المسيح بعد أن عجز الإنسان عن تحقيق هذه الغاية بمفرده.

5 - ثم يأتي موضوع مفهوم الخلق أو الابتداء، وغير المخلوق غير المبتدئ بالنسبة لله "narcon, unoriginate" فتبدأ الأريوسية تؤلف فلسفة تجاهد فيها جهاداً عقلياً مريراً، لكي توفق بين الله المترفع عن العالم والمادة وبين كيفية خلق هذا العالم والمادة!!

فواجهت فراغاً ومشكلة استطاعت أن تملأها بالعقل، وهي أنه على قدر تباعد هذا «الروح الأعظم» عن العالم والمادة بقدر ما نبتت الحاجة إلى وسيط يتوسط بين «الروح الأعظم» وعالم السفليات والماديات. ولم تكن الأريوسية أول من واجه

مشكلة الخلق وعلاقته بالله، فقد سبقها فيلو الفيلسوف اليهودي في القرن الأول المسيحي، وكذلك الغنوسية من بعده.

أمّا فيلو فقد جعل "القوات" الخالقة نصف شخصية (أقنومية) ونصف لا شخصية (أقنومية) في علاقتها بيهوه!

وهنا يلاحظ القارئ بداية فكرة البدعة التي دخلت الكنيسة في عصور مختلفة آخرها في بيزنطة في القرن الثالث عشر (714) عن وجود شيء اسمه "القوة" أو "الطاقة" غير المخلوقة، والنور غير المخلوق *Uncreated energy & uncreated light* أي شيء ليس هو الله وليس هو مادة مخلوقة، وهنا سقوط لاهوتي خطير إذ يتحتم بهذا وجود طبيعة ثالثة غير إلهية وغير مخلوقة وهذا ابتداع. وقد لجأ الفلاسفة إلى هذا لسد خانات في التساؤلات الفلسفية في الأمور اللاهوتية على مستوى الغنوسية في كيفية حلول الله في الإنسان!

ويلاحظ أن جميع فلاسفة الغنوسيين (أصول وثنية) رفضوا كذلك رفضاً باتاً نسبة أو صلة القوة الخالقة *Demiurge* "بالروح الأعظم أي الله". فالقوة الخالقة شيء والروح الأعظم شيء آخر، وذلك تنزيهاً للروح الأعظم - كما يزعمون - عن التنازل إلى انحطاط العالم المخلوق وكل الماديات (715).

وهنا وعلى هذا القياس تبدأ الأريوسية تنسج خيوط فلسفتها، فالآب السماوي هو الروح الأعظم - (عند الفلاسفة) - مضافاً إليه أكبر قدر من الصفات السرية الروحية الخالصة، لتعطيه هالة التنزيه المطلق عن عالم السفليات والماديات وهو وحده غير المبتدئ *Υnarcon, unoriginate* ثم تعود الأريوسية تنسب إلى المسيح القوة المتعلقة بالخلق الكلي والتي تحتم أن يكون هو سابقاً لزمان الخلق وللأزمنة المخلوقة كلها، وتهوّل وتستطرد في ذلك كثيراً حتى تختزل من المسيح عمل الفداء الذي أكمله بقهره لسلطان الموت وغلبة الخطية.

والأريوسية - بقصر عمل الخلق على المسيح وحسب، ثم اللف والدوران في هذا المجال فقط - تقصد أن تنفي أو تلغي الوجود الشخصي الحقيقي للمسيح قبل الخلق

(714) انظر كتاب: Loosky, Vladimir, *The Mystical Theology of the Eastern Church*, 1957, pp. 166 ff.
(715) Gwatkin, *op. cit.*, p. 21.

6 - ثم تعترض الفلسفة الأريوسية، وهذا أخطر ما يعترضها، مشكلة بنوة المسيح لله.

هذا هو الخيط الأول الذي التقطه عقل أريوس لينسج منه كل هرطقته:
[(أ) فإذا كان الآب ولد الابن فالذي وُلد يتحتم أن يكون له بدء وجود،
(ب) إذن فالابن كان غير موجود في زمن ما،
(ج) إذن فالابن مخلوق من لا شيء.] (716)

ويلاحظ القارئ المدقق أن هذه الثلاث ركائز التي ارتكز عليها أريوس هي نفسها التي بدأ بها مجمع نيقية بحرمها: (انظر: "تاريخ سقراط" المرجع السابق). جاهد أريوس لكي لا يقلل من شخصية المسيح، بل ركز على توضيحها وإثباتها لمقاومة بدعة سابيلْيوس الذي ألغى شخصية المسيح (وجعله أحد الوجوه الشكلية أو الظهورات لله فليس في الله أقانيم متميزة عند سابيلْيوس).

ثم جاهد أريوس لكي يثبت كل ما يمكن من صفات الكرامة والمجد للمسيح، بشرط أن تتمشى مع روحانية وتفرد وانعزال الآب (الروح الأعظم).

ولكنه كلما أحس باقترابه من هرطقة تعدد الآلهة بسبب إمعانه في فصل الابن عن الآب، عاد وألغى الصلة الجوهرية التي تربط المسيح بالآب كابن من ذات الجوهر وأنكر بنوية المسيح للآب على مستوى تساوي الآب بالابن في الجوهر. فقال أريوس قولته إنه: "لا ولادة في اللاهوت"، و"أن عدم الولادة هو جوهر اللاهوت"، و"أنه لا يمكن أن يوجد ابن لله بتحديد المعنى أو المفهوم الكامل، لأن الولادة تعني وحدة الطبيعة بين الآب والابن، وهذا يعني تحطيم وحدانية الله، وبالتالي تضيف إلى الآب صفات الجسدانية والتألم التي هي صفات البشرية الخاصة (717)، وتخضع الله إلى العوز وهو القادر على كل شيء!!" (718)

وهذه الشناعة الفكرية في فهم الاصطلاحات اللاهوتية ترجع إلى أن أريوس يأخذ

(716) Socrates, I,5

(717) Eusebius of Nicomedia, (Theodoret, 1.6).

(718) Dorner, II. 29; cited by Gwatkin, *op. cit.*, p. 23.

لفظة الابن ولفظة الولادة على مستوى المنطق البشري، غير مدرك أن استخدام الأسفار المقدسة لهذه الاصطلاحات هو قائم على حكمة إلهية بدقة وحقق وأصالة تترفع عن هذا الانحطاط في تصوّر اللاهوت، فهي قيلت لتقريب فهم ذات الله وتدبيره المتعدّد من نحونا بلغتنا، ولكن لا يمكن الهبوط بهذه المصطلحات إلى التصوّر المادي للأفعال، فهي قيلت بالروح القدس وسُجّلت بالوحي كنوع من الاستعلان، أي إدراك المخفيات والمكنونات الإلهية، ببصيرة ونور سماوي يناسبها.

فالقول بالآب وبالابن في الأسفار المقدسة هي رؤيا تختص بالكيان الإلهي، أي تختص بعمق جوهر الله وذاته الفائقة على التحديد والوصف، فهي لا تخضع في وجودها وكيانها للأفعال البشرية، فالفعل البشري “يلد ومولود” له بداية وله نهاية وله ماضٍ لأنه حدث زمني، ولكن الأفعال في اللاهوت أي في الله ليست زمنية ولا محدودة ولا أول لها ولا آخر، لا بداية ولا نهاية، لا ماضي ولا تغيير قط.

لذلك فالآب ليس قبل الابن، والابن ليس بعد الآب، فهما معاً كيان واحد أزلي، والولادة في اللاهوت ليست حدثاً، ولا تخضع للحركة، فلا يسبقها شيء ولا يتأتى منها مُحدَث في اللاهوت. فالولادة في اللاهوت ليست ناشئة عن فعل، بل هي صفة لعلاقة كيانية جوهرية.

ولكن بسبب المنطق البشري الذي سار عليه أريوس إزاء تسلسله الفلسفي وأمام تصريح المسيح نفسه في الإنجيل (وأريوس كان لا يزال يحترم صورياً أقوال الإنجيل) أنه “ابن الله”، اضطر أن يعتبر “الولادة الإلهية” مسألة محدودة وعملاً خارجياً من “أعمال إرادة الله”، التي بها خُلق الابن من لا شيء.

وبدأ أريوس يتلاعب بالاصطلاحات الفلسفية ليزوغ من محاصرة الأرثوذكس، فقدّم سؤاله للإجراج والتوريث عمّا [إذا ما كان الآب ولد الابن بالإرادة أو بدون إرادة (قهرأ)؟ Volens or Nolens]؟ ... فرد عليه الأرثوذكس بحكمة لقلب نظريته وتوريثه: [إذا ما كان الآب هو الله بالإرادة أو بدون إرادة؟]. ولكن جاء كيرلس الكبير بعد ذلك ورد على هذه الوقاحة هكذا: [هل الله مترقّق ورحيم وقدس وصالح بالإرادة أو رغماً عن إرادته؟].

أمّا القديس أثناسيوس فيرد رداً إيجابياً هكذا:

[إن الأريوسيين يتجهون بأفكارهم إلى تعارض الإرادة من عدمه (في اللاهوت)، بدل أن يتجهوا إلى ما هو أهم وأسبق من جهة السؤال، وهو أن الطبيعة (الجوهر) أسبق من الإرادة. والطبيعة هي التي تقود وتفتح الطريق للإرادة - مشيراً بذلك إلى أن أعمال الله - الولادة - هي عمل جوهرى فوق كونه إرادياً]. (719)

والعجيب أن أريوس لا ينفي أن المسيح "ابن الله"، ويتمشئ مع الكنيسة في أن البنوة هي حقيقية وليست مادية، ولكن هذا الاعتراف بحسب التسلسل الفلسفي المنطقي السابق - أوقع أريوس في نتيجتين حتميتين هما: أن المسيح كابن الله يلزم أن يكون أدنى في الرتبة من الآب، وأنه ليس أزلياً، وهذا ما أكده وأصرَّ عليه أريوس، وأنه وُجِدَ وقت أو حتى قبل أو يوجد الوقت لم يكن فيه الآب أباً وأن الابن لم يكن موجوداً إلا في مشورة الآب (بالقوة *dun&mei*) وهذا من اختراع أريوس الفلسفي.

وبذلك يكون الآب، عند أريوس، هو الله وحده، وأن الابن إنما يُدعى ابناً بمعنى "متدني" "وغير طبيعي" (720)، وهو ليس من جوهر الآب ولكنه مخلوق كباقي المخلوقات (721). غير أنه وحيد الجنس (مونوجانيس) أي "فريد من نوعه" بينهم (722)!

وهكذا خلط أريوس عن عمد بين الولادة غير المادية، والخلقة المادية.

الابن عند أريوس هو أنه الخليفة الوحيدة التي خلقها الله مباشرة (723) من لا شيء، وبما أنه لا توجد خليفة يمكن أن تكون ابناً لله بالمعنى اللاهوتي الكامل، فالابن (المسيح) لم يكن قط على مستوى المساواة في الجوهر مع الآب، بل إنه هو ذاته لم يكن يعي جوهر نفسه!! وأنه كان يعتمد - كأبي مخلوق على معونة النعمة - وبالتالي كان من الوجهة الأخلاقية والطبيعية قابلاً للخطيئة (724).

(719) Newman, *op. cit.*, p. 208.

(720) Arius in Thalia, (Athanas. *Or.*, 1.6).

(721) Alexander's Letter, (in Theod., 1.4).

(722) Arius to Euseb., (Theodoret., 1.5).

(723) Asterius, after Arius, (Athanas. *de Decret.* 8).

(724) Eustathius, as quoted by Eulogius in Photinus, (Bibl. Cod., 225).

وهكذا تنتهي الأريوسية إلى القطع والقطيعة بين الله والإنسان، فكل منهما يلزم أن يبقى بعيداً عن الآخر بعداً نهائياً وأبدياً! ...

وهذا في الحقيقة هو القصد الخفي للقوة الجبارة الشيطانية التي نفخت في أريوس وعظّمته وشدّدته وأثارت من حوله الدنيا كلها وجمعت من حوله القوة والسلطان والمال والمنطق، ليلغي حقيقة المسيح الخلاصية، وعمل الكفارة، والتطهير بالدم لفضاء الإنسان من سلطان الخطية والموت والشيطان، وتبني الله للإنسان الذي أكمله المسيح بصفته الإلهية - كابن الله.

والأريوسية تنفي معنى الحب الإلهي كأحد الصفات الجوهرية في الطبيعة الإلهية، والتي تتجه مباشرة نحو الإنسان وعالم الإنسان بالفعل المباشر الذي يتركز في الفداء، كما تنفي هذا النوع الفائق من الحب لدى الإنسان الذي يعبر به عن منتهى حريته في عبادة الله (725).

وفي هذا يقول إيرينيئوس بإبداع فائق:

[لسبب حبه اللانهائي صار إلى ما نحن عليه (تجسّد)، وذلك لكي يجعلنا إلى ما هو نفسه عليه.] (726)

7 - ولكن لم تتوقّف الأريوسية عند هذا الشطط الفلسفي الميت، لقد جرّدت الأريوسية شخص الرب من كل ما يفيد الألوهة، ولم تترك له إلا مجرد الاسم الخالي من أي واقع إلهي فعلي، ثم أرجعته إلى مصاف المخلوقات - وليس المخلوقات الراقية التي هي بمعزل عن الزلل، بل نسبت إليه إمكانية الخطية (727).

وحتى بشرية المسيح لم يتركها أريوس في كمالها الإنساني، بل جعل اللوغس قادراً على الاتحاد المباشر بالجسد البشري دون أي داع لوجود نفس بشرية. وهكذا أنهى على شخصية المسيح كإنسان حقيقي (728).

وهكذا أكمل أريوس اختراعه الفلسفي عن تصوّره للمسيح، وإن كان قد سبق

(725) Dorner, II. 239.

(726) Irenaeus, cited by Beth Bak, *op. cit.*, p. 131.

(727) Arius ad Alex., in Athanas., *de syn.* 16; Dorner, II. 235; Hefele, *Councils*, ch. 21.

(728) Mohler, Athan., p. 179; Dorner, II. Note 59, cited by Gwatkin. *op. cit.*, p. 25.

أريوس كثيرون ممن أنكروا لاهوت المسيح، كما سبقه من أنكروا ناسوت المسيح؛ ولكن بدعة أريوس قد فاقت هذا وذاك فألغت ومسخت كلا الاثنتين اللاهوت والناسوت في المسيح، حيث بلغ أريوس آخر ما عنده من الوثنية حتى القاع!

علماً بأن هذا القول الخاطي في اللاهوت بعدم وجود نفس بشرية للمسيح لم يبدأ به أريوس بل كان هو مبدأً لاهوتياً عاماً لدى كل مدرسة "لوسيان" بأنطاكية وجميع المتعلمين على يديه - ومنهم أريوس ويوسابيوس وكل الأريوسيين، ويسجل القديس إبيفانيوس هكذا:

[إن لوسيان وجميع اللوسيانين ينكرون أن ابن الله أخذ نفساً بشرية (yuc) فيقولون إنه أخذ جسداً فقط حتى يستطيع أن ينسب الآلام البشرية إلى اللوغس "كلمة الله" (729)]

ولهذا رد عليهم مجمع نيقية في قانون الإيمان بأنه تجسد وتأنس، ولا يخفى على أي قارئ أو دارس للاهوت أن مقررات مجمع نيقية بكاملها خرجت من تحت يد أثناسيوس، كما اهتمت جميع الليتورجيات في القرن الرابع بإضافة هذا الاعتراف داخل الليتورجية، ويتحتم على أي لاهوتي أن يفهم أن كلمة "تأنس" تفيد أنه صار إنساناً كاملاً نفساً وجسداً وروحاً.

غير أن الأريوسيين لم يدفعوا بإنكارهم لاتخاذ المسيح نفساً بشرية في بداية صراعهم ضد الآباء الأرثوذكس، ولهذا السبب لا نجد أيضاً تركيزاً من جهة القديس أثناسيوس على هذا الإنكار في بدء الصراع، فهو من جهته يلتزم بحدود اصطلاح الإنجيل «والكلمة صار جسداً» (يو 1:14)، ولكن باعتبار أن كلمة "جسد" تعني إنساناً كاملاً بنفس بشرية كاملة وعقل مدرك بشري كامل، ومن جهة أخرى لم يظهر من جميع كتاباته أنه يقلل من وجود نفس بشرية للمسيح تحزن وتضطرب وتبكي.

ولكن من الثابت والمحقق علمياً أن لاهوت الآباء في ما قبل نيقية كان سليماً في هذا الصدد، فالشهيدي يوستينوس يفرق بوضوح ويقرر:

(729) Epiphan., *Ancoratus* 33-4, Ed. K. Holl, cited by Grillmeier, *Christ in Chr. Tra.*, p. 183.

[أن ناسوت المسيح كان يشمل جسداً ونفساً.] (730)

ويأتي أوريجانوس ويوضح ويؤكد ويفسر ويعلل حتمية وجود نفس بشرية كاملة للمسيح:

[لأنه من المستحيل أن تتحد الطبيعة الإلهية بالجسد بدون عامل وسيط وهي النفس البشرية.] (731)

ومعروف أيضاً تماماً لدى كل العالم أن أوريجانوس هو أول من كشف بوضوح عن أصالة التسليم اللاهوتي الإسكندري لمفهوم اتحاد اللوغس بجسد بشري ذي نفس بشرية كاملة، وهو أول من أعطى لمفهوم هذا الاتحاد كلمة $\text{qefnqrwpoj} = \text{إله متأنس}$ ، وأول من شرح هذا الاتحاد بوصف اتحاد النار بالحديد. وهذا التأكيد مع الشرح عينه يسجله القديس أثناسيوس:

[كان مستحيلاً عندما تأنس الرب (صار إنساناً) من أجلنا أن يكون جسده بدون قوة نفسية عاقلة، وما كان ممكناً أن يتم الخلاص بواسطة الكلمة نفسه ويكون خلاصاً للجسد فقط بل للنفس أيضاً.] (732)

ولكن العجيب والأمر المذهل للعقل أن يأتي لاهوتي كاثوليكي راهب يدعى Aloys Grillmeier ويتهم أثناسيوس بل وكل اللاهوت الإسكندري أنه كان موافقاً لهرطقة أريوس من جهة عدم الإيمان بوجود نفس بشرية للمسيح، وبالرغم من النص السابق يقول بالحرف الواحد: “إن أثناسيوس لم يكن يعلم شيئاً عن وجود نفس بشرية في المسيح”، مع أن أثناسيوس يقول ويكرّر آلاف المرات أن المسيح حمل ضعفاتنا، بل ويقول أثناسيوس ردّاً على الأريوسيين:

[إن الأريوسيين الذين يدّعون بأنهم يعثرون في المسيح “الكلمة” ويضعونه في مرتبة أقل بسبب أنه قيل في الإنجيل أنه اضطرب وبكى (يو 11: 38 و35)، ولكنهم بهذا يُظهرون أنهم فاقدون للإحساس البشري لأنهم أخفقوا في إدراك الطبيعة البشرية في ضعفها! والأحرى بهم أن يتعجبوا بالأكثر أن

(730) Just. Dial. C. Trypho. 102; Beth Bak, p. 125n.

(731) Origen, de Princip, ii, 6.3. Beth Bak p. 150n.

(732) Athanas. Tom. ad Ant., 7; Beth Bak, p. 185n.

«الكلمة» أخذ مثل هذا الجسد الضعيف بالمسرة. [733]

أليس هذا كله تعبيراً عن النفس البشرية التي في المسيح؟

ثم إن هذا اللاهوتي المحدث لا يستحي ولا يخاف الله أن يضع القديس أثناسيوس مع أبوليناريوس الهراطيقي على نفس المستوى من الإيمان الخاطئ (734) بل والهراطقة دون حياء.

والسؤال الذي نسأله لهذا اللاهوتي الناقد: ماذا تكون عقيدته هو وإيمانه بالمسيح لو لم يكن أثناسيوس؟ وماذا كان يتبقي له من علمه اللاهوتي وإدراكه الحاذق إذا لم يكن أثناسيوس قد وضع له قانون الإيمان والعقيدة بلاهوت المسيح؟

8 - الأريوسية والروح القدس: لم تكشف الأريوسية في بداية ظهورها عن موقفها من الروح القدس، ولكن في وطيس المعركة أظهرت عقيدتها، فالروح القدس عندهم لا يمتاز عن الابن في علاقته بالآب، بل إن الروح القدس هو مخلوق أيضاً وبواسطة الابن. ولم تكن الأريوسية مختارة في تقريرها هذا عن الروح القدس، بل إن واقع تسلسلها يحتم أن يصل إلى هذا التقرير.

9 - وهكذا يتكوّن الثالوث عند الأريوسيين من ثلاثة أنواع من الأشخاص منفصلين تمام الانفصال، ومتدرّجين في الكرامة والمجد تدرّجاً متفاوتاً متفاوتاً لا نهائياً، فلا تجمعهم كرامة واحدة ولا يجمعهم مجد واحد!

10 - ولم يفلت أريوس نفسه وكل مَنْ أتى بعده من مواجهة التناقضات التي برزت بصورة واضحة في فلسفتهم المركّبة أو دينهم المخترع الجديد!

ولقد وضح هذا التناقض بصورة مخزية في حوارهم على الابن والبنوة في الله، فلكي يتمشوا مع الإنجيل وشهادة الرب عن نفسه أنه ابن الله - إذ لا مفر من ذلك لأنهم يريدون أن يظهروا أنهم يلتزمون بالإنجيل - قالوا بوجود البنوة ووافقوا على حقيقة الابن، ولكن استخدموا ذلك مبدئياً على مستوى الاستعارة فقط ليلبغوا غايتهم من جحد حقيقة البنوة في الله ونفي قيام ابن الله في النهاية. فبالنظرة العامة الشاملة

(733) Athanas. *Contr. Ar.*, 58. P.G. 444.

(734) انظر كتابه السابق الإشارة إليه صفحة 193 وما بعده.

لنظريتهم انكشف مستوى حوارهم أنه مبني على الغش والخداع والتحايل، واتضح مدى النفاق الذي كانوا متعاهدين عليه لا من جهة العبادة الصادقة والتدين المخلص فحسب، بل وبالنسبة للأصول المنطقية في الحوار الفلسفي والجدل الفكري الحر. وهكذا ومن هذا التناقض بالذات يتضح لكل إنسان مدى الضلال الذي كانوا يعيشونه ومدى التضليل الذي كانوا يروجون له.

ويمكن أن نكتشف هذا التعارض في كل فقرة من فقرات مبادئهم الجديدة. فمثلاً أرادوا أن يرتفعوا ظاهرياً بمستوى المسيح إلى درجة الألوهة لكي يتمشوا في تصريحاتهم مع فكر المتدينين، ولكنهم حرصوا في تفسيراتهم وتعقيباتهم أن لا يكون المسيح مساوياً لله أو مشابهاً أو حتى بذى أي صلة من أي نوع. ثم لكي يبقى الآب هو غير المخلوق وحده، اضطروا إلى تليفق مرتبة يكون فيها المسيح مخلوقاً، إنما على أعلى مستوى، ولكن أمام حقيقة أن كل مخلوق يكون حتماً قابلاً للتغيير وبالتالي الزلل فلم يستطيعوا أن ينفوا عن المسيح - كونه مخلوقاً من العدم - أن يكون قابلاً للخطية والزلل.

وهكذا وقعت الفلسفة الأريوسية في تناقض مخجل ومزري إذ بدأت بالقول بألوهة المسيح على نوع ما، ثم انتهت بنتيجة حتمية مترتبة على ذلك أنه قابل للخطية والزلل! وليس هذا وحسب، بل في ما يختص بأبدية ابن الله قالت بخلقته قبل الدهور وكل الأزمنة. ولكن لكي تنفي عن المسيح الأزلية كمساوٍ للآب، قالت إنه كان قائماً فقط في فكر الله وحسب قبل خلقه العالم دون أن يكون له كيان أو وجود فعلي، ولم ينتبه أريوس أن الوحوش والبهائم كانت أيضاً قائمة في فكر الله قبل أن توجد. وهكذا بدأت الأريوسية بتأليه المسيح والقول بأبديته على نوع ما مجازاً وانتهت بمساواته بالوحوش والبهائم على الواقع الكياني!

وهكذا فإن الأريوسية بسبب جردها للروح القدس ولحقيقة المسيح الروحية وقعت في تناقضات لا تنتهي! إذ لا يمكن أن يحكم في الروحيات إلا الإنسان الروحي، وبدون روح الله يستحيل أن تُستعلن حقائق الله - هذه بديهة اللاهوت!! لأن اللاهوت استعلان وليس منطقاً وجدلاً.

الأريوسية رفضت الاستعلان وأغفلت عمل الروح القدس في الكشف، فكيف

ننتظر منها أن ترى في المسيح سوى مخلوق من عدم؟

الأريوسية رفضت إمكانية حلول الله في الجسد، وأنكرت حلول روح الله القدوس في الإنسان، فتواري عنها مفهوم الفداء وصار لهم موت المسيح باطلاً، وانطفأ في أذهانهم المعنى الكامل للخلاص الذي لا يمكن أن يتم إلا بحلول الروح القدس ... الرب المحيي - والاتحاد به لتكميل الخليقة الجديدة.

نظرة ختامية

يقول بعض العلماء إنه لم يرتطم بالحياة المسيحية ارتطاماً مباشراً نظاماً مزيفاً مثل الأريوسية، لأنها رفعت المسيح "كابن الإنسان" إلى أقصى ما يمكن من التعظيم كنوع من المجاملة للإنجيل، لكنها في المقابل امتنعت كلية عن أن تعبد كابن الله، حاسبة أن مثل هذه العبادة هي الوثنية عينها باعتبارها عبادة المخلوق (735)، دون أن تدرك أنها تأخت مع الفلسفة الوثنية تمام التأخي في إقصائها لله عن الإنسان هذا الإقصاء الأبدي بهوة لا تُعبر، وبذلك حرمت نفسها نهائياً من الحب الإلهي المتدفق من الأب إلى البشرية المتبنّاة في شخص المسيح الابن الحقيقي للأب الحامل لكل ملء اللاهوت جسدياً، بكل عطائه وسخائه، كطريق وحيد تمهدّ بالدم لكي يوصل الله بالإنسان ويوصل الإنسان بالله بلا مانع.

وهكذا ترى أن الأريوسية كانت بإنكارها لبنوة المسيح لله وألوهيته، تشكّل توقُّفاً كاملاً في تسلسل الوحي والنبوة وخطة الله الأبدية لخلاص الإنسان عن طريق الفداء الذي أكمله الله في ابنه الوحيد بدمه، لكي إذا تطهّرنا وتقدّسنا يرفعنا في نفسه من عبودية الفساد والخطية والموت إلى درجة البنين لله. فالمسيح جاء لكي يكمل الناموس والأنبياء في نفسه هو، فإذا لم يكن المسيح ابن الله لصار الصليب وموت المسيح باطلاً، ولصارت كل النبوات السابقة باطلة وتوقّفت مسيرة البشرية نحو الله توقُّفاً أبدياً.

وهكذا كانت البشرية آنذ (وحتى الآن) مختارة إمّا أن تعبد الله مع الأريوسية

باعتباره "الروح الأعظم" - بحسب منطق الفلاسفة - غير المبدوء، غير المخلوق، غير المدرك، غير المحوي، غير المقترَب إليه، غير المتغيّر، غير المنظور، الواحد المتفرّد المنعزل في ذاته وحسب؛ حيث ينتهي الله عند ذاته ولا يمتدّ أبداً نحو الإنسان. وإمّا أن البشرية - مع هؤلاء المسيحيين البسطاء - تعبد الله في كل أوصافه السابقة تماماً وبكل تدقيق حسب التقليد المسلّم من الآباء، مضافاً إليها ما استعلنه لنا العهد الجديد عن الله أنه أب وابن، ذات واحدة وجوهر إلهي واحد، وأنه أرسل ابنه في ملء الزمن ليتجسّد وليصير إنساناً لنصير نحن فيه أبناء الله وندعوه أباً لنا، **ونتحد به في شخص روحه القدوس.**

وهكذا نؤمن أن الله ظهر لنا متجسّداً في شخص "الابن" يسوع المسيح، الذي هو الصورة المنظورة للآب غير المنظور، ليعلن لنا الله نفسه جهاراً في المسيح ويوصل إلينا حبه غير المحدود، ويقدّسنا بدم ابنه، ويفدنا ويبرّرنا من الخطية والموت، ويتبنّانا لنفسه، لندعوه في المسيح "أبانا" بدالة البنين، لنعيش معه - في ابنه - عن قرب في قداسة، بسرّ انسكاب الروح القدس في قلوبنا، وفي سر حضور الجسد والدم الدائم معنا منذ أن دُبح على الصليب وإلى الأبد في حياة أبدية لا تزول، حيث المسيح أصبح هو الطريق والحق والحياة الذي به وفيه تنمو البشرية وتسير كل يوم بقوة دفع الروح القدس لتكميل كل الدهور، لترتقي وترتقي كخلقة تتجاوز عوزها وعجزها بقوة فائقة مجّانية، لتبلغ حتماً كمالها في الله دون أن تتوقّف!!

ملخص الفصل الثاني ظهور أريوس وبدعته

أولاً: العوامل والظروف التي ساعدت على انتشار بدعة أريوس

- (أ) ظهور أريوس تطوّر طبيعي للفلسفة الوثنية في صراعها ضد المسيحية.
- (ب) البدع في الشرق تعود إلى النشاط الوجداني والروحي والفلسفي عند الشرق عموماً.
- (ج) ظاهرة التداخل الشخصي في الأمور الخاصة، وبالذات في الديانة والعقيدة عند الشرقيين دون الغربيين.
- (د) التأثير الطاغي للدين في الشرق على الحياة اليومية والعادات والسلوك.
- (هـ) لذلك كان ينفذ الفكر الوثني المبسّط عن الله واللاهوت إلى صفوف العامة بسرعة، ويترك آثاراً لا يمكن محوها.
- (و) البدع بعد هزيمتها، تترك خطوطاً عميقة من الأفكار المنحرفة تهيبّ الجو لبدع جديدة. كما أن تسرّع الكنيسة في الحكم على الذين انخدعوا بآراء المبتدعين وعدم السماح لهم بالرجوع للإيمان الأرثوذكسي، كان سبباً في انتشار الأريوسية بينهم.
- (ز) الأريوسية نبتت أساساً في أنطاكية تحت لواء مدرستها ومعلمها لوسيان ولكنها انتشرت في الإسكندرية بالذات التي ورثت من أثينا النشاط الفكري وقدرة الشعب على استيعاب الفلسفات.
- (ح) كما كان يهود الإسكندرية أقوى جالية نشطة من جهة تطوير الفكر اللاهوتي العبري على أصول الفلسفة الوثنية مثل فيلو.
- (ط) كما كانت الإسكندرية لا تزال تموج بفلسفة الفكر الوثني الذين قاموا بمحاولات لإحياء تراثهم لم تخلُ من ثورات واعتداءات. وقد ناصروا بدعة أريوس عند ظهورها.
- (ي) شخصية أريوس نفسه الذي جذب الشعب بمظهره المهيب وطلاقة لسانه، حتى أن ستة من كهنة الإسكندرية (البالغ عددهم 16 كاهناً ثم زادوا إلى 22) انخدعوا به وانحازوا له.

بل إن هذا الجبروت الذي ظهر به أريوس الذي استمال أساقفة الشرق والغرب واستمال الإمبراطور وكل قصره، يعطينا صورة واضحة لجبروت أثناسيوس، الذي أقامه الله في الزمن الموافق جداً. وظل يحارب البدعة بكل قوته حتى انحسرت عن مصر أولاً ونهائياً سنة 346م.

أما أنطاكية وكل سوريا فظلت تحت وطأة الأريوسية كل مدة حياة أثناسيوس.

وتعاليم بولس الساموساطي استلمها ونفخ فيها نسطور (بطريك القسطنطينية صاحب البدعة المنسوبة إليه والتي قاومها البابا كيرلس الإسكندري في مجمع أفسس سنة 431م).

ثانياً: الهرطقة الأريوسية والمبادئ اللاهوتية التي قامت عليها

تتميز الأريوسية بأنها:

- 1 - تتبع الأصول المنطقية السهلة محاولة إعطاء إجابات سهلة على الأسئلة العقلية التي يصطدم بها الفكر المتشكك.
+ وقلما تترتك على الأسفار المقدسة.
- + جميع الاصطلاحات التي جعلها أريوس حجته في تدعيم آرائه هي من ابتداعه ولم يقل بها أي من آباء الكنيسة الأرثوذكس.
- 2 - تبدأ الأريوسية بمبدأ وحدانية الله بالمفهوم العددي. وهذا أسهل تصوّر لله يريح العقل.
+ تمتد بالوحدانية إلى التباعد بالله لتجعله معتزلاً منفصلاً متعالياً عن عالم الموجودات والمادة.
- + وبهذا قضت على مضمون الفداء واستعلان الله وتبني الإنسان.
- 3 - تأخذ عن اليهودية مفهوم اختفاء الله عن أعين أي مخلوق ولكنها تنحرف بهذا المفهوم لكي تنفي إمكانية صلة الله بطبيعة الإنسان.
- 4 - تستند على الفلسفة فتنفي أن يكون الله باعتباره "الروح الأعظم" أي علاقة

حلول بالإنسان.

+ تتجاهل أن الإنسان مخلوق على صورة الله، وأن الإنسان هو هيكل الروح القدس، والروح القدس يسكن فيه.

+ وإن إدراكنا لحقيقة الله يتوقف جوهرياً على أساس أن هناك صفات لله مستعلنة لإدراك الإنسان بشرياً في صميم خلقته.

5 - مفهوم الأريوسية عن الخلق والابتداء هو محاولة عقلية للتوفيق بين الله المترفع عن العالم، وبين خلقه العالم. فيقدر تباعد "الروح الأعظم" عن العالم والمادة بقدر ما نبتت فكرة الحاجة إلى وسيط بين "الروح الأعظم" وعالم السفليات والماديات.

+ تبدأ الأريوسية تنسج خيوط فلسفتها، بقولها إن الآب السماوي هو الروح الأعظم المنتزه عن عالم السفليات، والمسيح هو القوة الخالقة السابق لزمان الخلق ولكن ليس أزلياً.

+ تنفي الأريوسية وتلغي الوجود الشخصي الحقيقي للمسيح منذ الأزل.

6 - أريوس لا ينفي أن المسيح "ابن الله"، ويتمشئ مع الكنيسة في أن البنوة حقيقية وليست مادية، ولكنه بحسب التسلسل الفلسفي المنطقي يقول إنه إذا كان الابن مولوداً فله بدء وجود، إذن فلم يكن موجوداً في زمن ما، إذن فالابن مخلوق من لا شيء.

+ يقول أريوس إن المسيح كابن الله يلزم أن يكون أدنى مرتبة من الآب وأنه ليس أزلياً. لأنه نظر إلى الولادة نظرة مادية.

+ وهكذا ألغى الصلة الجوهرية التي تربط المسيح بالآب كابن من ذات الجوهر، معتمداً على أنه "لا ولادة في اللاهوت".

+ أريوس يأخذ لفظة "الولادة" و"الابن" على مستوى المنطق البشري.

+ ولكن بسبب المنطق البشري لدى أريوس وبسبب عدم استطاعته إنكار ما جاء في الإنجيل أن المسيح "ابن الله"، اعتبر "الولادة الإلهية" في الثالوث عملاً خارجياً نابعاً من "إرادة الله"، مثلها في ذلك مثل الخلق.

+ وبهذا يكون الآب - عند أريوس - هو الله وحده، وأن الابن "ليس من جوهر

الآب، غير أنه وحيد الجنس (مونوجانيس) أي "فريد من نوعه" بين المخلوقات!

+ وهكذا صار الابن عند أريوس - كأبي مخلوق - معتمداً على معونة النعمة، وبالتالي من الوجهة الأخلاقية والطبيعية قابلاً للخطيئة.

+ وهكذا تنتهي الأريوسية إلى القطع والقطيعة بين الله والإنسان، وينغلق على الإنسان كل رجاء في الخلاص بالمسيح من كفارة وتطهير بالدم، لفساد الإنسان من سلطان الخطية والموت، وتبني الله للإنسان.

+ وبالتالي تنفي الأريوسية معنى الحب الإلهي كأحد الصفات الجوهرية في الطبيعة الإلهية، والتي تتجه مباشرة نحو الإنسان.

+ كما تنفي - في نفس الوقت - هذا النوع الفائق من الحب لدى الإنسان، الذي به يعبر عن منتهى حريته في عبادة الله.

7- جرّدت الأريوسية بشرية المسيح من كمالها الإنساني، فجعلته بلا نفس إنسانية. وهكذا ألغت الأريوسية كل وحدة للمسيح مع البشرية تماماً كما ألغت سابقاً كل وحدة للابن مع الآب من جهة لاهوته.

+ وقد ردّ مجمع نيقية على تجريد المسيح من بشريته الكاملة بقوله "تجسّد وتأنّس". فكلية "تأنّس" تفيد أنه صار إنساناً بكل مكوناته من نفس وجسد وروح.

8 - الأريوسية والروح القدس:

أعلنت الأريوسية عن موقفها من الروح القدس متأخراً:

+ فالروح القدس لا يمتاز عن الابن في علاقته بالآب (فهو مخلوق، وبواسطة الابن).

+ ولأن الأريوسية رفضت حلول الله في الجسد، لذلك أنكرت حلول روح الله القدوس في الإنسان.

9 - وهكذا يتكوّن الثالوث عند الأريوسيين من ثلاثة أنواع من الأشخاص منفصلين تمام الانفصال ومتدرّجين في الكرامة والمجد تدرّجاً متفاوتاً متفاوتاً لا نهائياً.

10 - الأريوسية بسبب جردها للروح القدس ولحقيقة المسيح الروحية وقعت في تناقضات لا تنتهي!

+ وبرفضها الاستعلان أغفلت عمل الروح القدس في الكشف فتوارى عنها مفهوم الفداء وصار للأريوسيين موت المسيح باطلاً، وانطفأ في أذهانهم المعنى الكامل للخلاص الذي لا يمكن أن يتم إلا بحلول الروح القدس - الرب المحيي - والاتحاد به لتكميل الخليقة الجديدة.



نظرة ختامية

- لقد حرمت الأريوسية أتباعها تماماً من الحب الإلهي المتدفق من الآب إلى البشرية المتبنّاة في شخص المسيح الابن الحقيقي للآب، حتى يوصل الله بالإنسان ويوصل الإنسان بالله بلا مانع.
- والأريوسية بهذا تشكّل توقُّفاً كاملاً في تسلسل الوحي والنبوة وخطة الله الأبدية لخلاص الإنسان عن طريق الفداء بدم الابن الوحيد.
- فإذا لم يكن المسيح ابن الله، لصار الصليب وموت المسيح باطلاً، ولصارت كل النبوات السابقة باطلة، ولتوقّفت مسيرة البشرية نحو الله توقُّفاً أبدياً.
- وهكذا كان على البشرية اختيار أحد طريقين: إمّا أن تعبد الله بصفته “الروح الأعظم”، حيث ينتهي عند ذاته ولا يمتدّ أبداً نحو الإنسان، وإمّا أن البشرية مع هؤلاء المسيحيين البسطاء تعبد الله في كل أوصافه وفي كل ما استعلنه العهد الجديد عنه أنه أب وابن، ذات واحدة وجوهر إلهي واحد، وأنه أرسل ابنه في ملء الزمن ليتجسّد وليصير إنساناً لنصير نحن فيه أبناءً لله، وندعوه أباً لنا، ونتحد به في شخص روحه القدس.
- المسيح في الإيمان الأرثوذكسي هو الطريق والحق والحياة الذي به وفيه تنمو البشرية وتسير كل يوم بقوة دفع الروح القدس لتكميل كل الدهور، لترتقي وترتقي كخلقة تتجاوز عوزها وعجزها بقوة فائقة مجّانية، لتبلغ حتماً كمالها في الله دون أن تتوقّف!

الفصل الثالث

مضمون العقيدة التي قام عليها دفاع أثناسيوس

لم تعتمد العقيدة التي قام عليها دفاع أثناسيوس على أصول فلسفية أو مبادئ عقلية، ولكن يتضح لجميع الدارسين قدرة الاعتماد على الإيمان الذي اعتمد عليه أثناسيوس كحقيقة حيّة، بأصالة وإصرار. لم يلن ولم يجد عن التقليد الذي استلمه من الآباء ومن الرسل عن شخص الرب الحي المعبود، الله الذي ظهر في الجسد.

لذلك احتسب العلماء أن دفاع أثناسيوس هو بالدرجة الأولى نصرّة مؤكّدة ومصمّمة للإيمان الأرثوذكسي(736) الحي، وليس مجرد نصرّة لشخص أثناسيوس، في معركة الصراع الذي بلغ به حدود الموت مرّات ومرّات بلا حصر.

ويمكننا أن نلخص كل عقيدة أثناسيوس - من كتاباته - التي أسهب في شرحها، حتى إلى منتهى دقائقها، في آلاف الصفحات، وعلى مدى خمسين سنة، وذلك في جملة واحدة:

[الله نفسه قد دخل بشریتنا].(737)

وكان فكر أثناسيوس في كل دفاعه مصوّباً دائماً وبقوة وبلا هوادة على مضمون "الفداء". فمن عمل المسيح الذي أكمله لنا وفينا كان أثناسيوس يستمد قوته وتعبيره ووصفه لشخص المسيح.

ومعلوم أن أي دين سواء اليهودية - (التي كان مضمونها الوحيد هو مجرد: "الله يتكلّم في الأنبياء")، أو غيرها، لم تستطع أن تُدخل البشرية في شركة حيّة واقعية مع الله، لماذا؟ لأن الله وحده هو الذي يستطيع أن يأتي إلينا ليمحو عبوديتنا ويأخذنا بنفسه ويتبنّا كبنين له، وهذه هي حقيقة المسيحية! «الله كان في المسيح مُصالحاً العالم لنفسه» (2كو 5:19). فكان رأي أثناسيوس وعقيدته ودفاعه كرأي وعقيدة الإنجيل تماماً، وبالحرف الواحد:

[كل مَنْ ينكر أن المسيح هو ذات الله - الله الحقيقي - فهو لا يزال يهودياً أو وثنياً.]

+ «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله.» (يو 1:1)

(736) Harnack, *op. cit.*, p. 248.

(737) Ibid.

+ «كل مَنْ ينكر الابن ليس له الآب أيضاً، وَمَنْ يعترف بالابن فله الآب أيضاً.»
(يو 2:23)

+ «لكي يُكْرَمَ الجميع الابن كما يُكرمون الآب. مَنْ لا يُكرم الابن لا يُكرم الآب.»
(يو 5:23)

+ «الذي يؤمن بالابن له حياة أبدية والذي لا يؤمن بالابن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله.» (يو 3:36)

+ «لأجل هذا أظهر ابن الله لكي ينقض أعمال إبليس.» (1 يو 3:8)

+ «مَنْ اعترف أن يسوع هو ابن الله فإلهه يثبت فيه وهو في الله.» (1 يو 4:15)

+ «مَنْ هو الذي يغلب العالم إلا الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله.» (1 يو 5:5)

+ «وهذه هي الشهادة: أن الله أعطانا حياةً أبديةً، وهذه الحياة هي في ابنه. مَنْ له

الابن فله الحياة، وَمَنْ ليس له ابن الله فليست له الحياة.» (1 يو 5:11 و12)

+ «ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرةً لنعرف الحق. ونحن في الحق في

ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية.» (1 يو 5:20)

ولم يعتمد لاهوت القديس أثناسيوس على "فلسفة عقيدة اللوغس" "الكلمة"، التي

انشغلت بها أنطاكية جداً وقررتها في مجمع سنة 268م (738)، وإنما كان لاهوت

أثناسيوس قائماً على شخص المسيح الحي (Christology) فكان في رؤيا واضحة

ودائمة لا تنقطع "في المسيح الذي هو الله".

ولم يعبأ أثناسيوس قط بتحديد الاصطلاحات، حتى "الهوموؤوسيووس" لم يتمسك

بحدودها دائماً (739)، بل جاء وقت رأى أن ينفذ عنها التعصّب الذي أحاط بها،

واكتفى بأن تعبر الكنيسة عن مضمونها إذا رأت فيها إعتاراً ما.

وكانت عناصر العقيدة التي حامى عنها أثناسيوس حسب التقليد الذي استلمه

كالآتي:

1 - إذا كان المسيح هو الله - وهو يتحتم أن يكون كذلك كفاً - لأن هذا يحتمه

عمل الفداء الذي أكمله، لا يكون فيه ما يماثل المخلوق ولا يمت للموجودات المخلوقة

(738) Harnack, *op. cit.*, p. 242.

(739) *Ibid.* 248.

بأي حال من الأحوال.

والمسيح جاء «لينقض أعمال إبليس» في مواجهة «العالم الذي وُضع كله في الشرير»، فيستحيل أن يكون المسيح من العالم في شيء، بل هو كلياً من الله وفي الله. والمسيح أعلن ذلك بنفسه جهاراً في إنجيل يوحنا أصحاح 17 «أنا لست من العالم» «أنا في الآب والآب فيّ».

2 - فأولاً: بما أن «اللاهوت في المسيح» غير مخلوق، فهو يستحيل كقضية مسلّمة أن يكون من العالم أو من الخليقة التي في العالم. وثانياً: إذا كان الله لا يحتاج لوسيط لخلق العالم - كبدية - ينتج من هذا أن المسيح الذي فدى الإنسان يلزم أن يكون منفصلاً تماماً عن كيان العالم المخلوق.

وهنا يطوّح أثناسيوس بنظرية «اللوغس» القديمة باعتباره الخالق للعالم كوسيط بين الله غير المخلوق والعالم المخلوق حيث تكون طبيعة اللوغس نصف خالق ونصف مخلوق، أو نصف إله؛ هذه الخرافة التي بدأت بها الغنوسية وطوّرتها الأريوسية. و عوض هذا الفكر الفلسفي الخرافي الغامض أعطى أثناسيوس الصفة الحقيقية والواقعية للمسيح باعتباره «اللوغس الابن»، عامل الفداء، أو جوهر ومبدأ ومصدر الفداء أساساً، وليس مجرد جوهر أو مبدأ العالم.

3 - وبما أن اللاهوت وحدة لا تتجزأ ولا تنقسم monoz وقد ثبت أن الابن لا يمتد إلى العالم، فهو حتماً يمتد إلى هذه الوحدة ذاتها monoz أي إلى الجوهر الإلهي غير المخلوق، أي الآب.

4 - ولكن تسمية الله بالآب في الكتاب المقدّس، وهو غير الابن، يكشف عن وجود شخصي للآب في الكيان الإلهي متميّز عن وجود الابن. وأن الله هو دائماً الآب، فإذا كان الآب دائماً هو الله أصبح كل مَنْ يذكر اسم الآب يعني أنه يوجد ابن معه بنفس الكيان والوجود الدائم والتسمية الدائمة، لأن الله الآب لا يمكن أن يسمّى «آب» إلا إذا كان اسم الابن قائماً معه دائماً أبداً وعلى نفس المستوى في كل شيء.

ولكن الآب ليس هو أب العالم، لأن العالم مُحدّث مخلوق، فلا يصح بل ويستحيل أن يُنسب الأبدي الخالد إلى المحدث المخلوق الزائل، أي لا يمكن أن الله يُسمّى «آب» بالنسبة للعالم.

فالآب والابن والروح القدس، هو الكيان الإلهي الأزلي غير المخلوق القائم في وحدة اللاهوت أو الألوهة غير المنفصلة ولا المنقسمة.

5 - ويتحصّل من هذا أن الابن هو واحد مع كيان الآب وفي كيانه ومن كيانه أي في جوهره ومن جوهره، كوجود الشعاع في الشمس ومن الشمس وجوداً متحداً محتماً ودائماً بصورة عميقة وداخلية.

فالابن هو صورة الوجود الإلهي المخفي، الصورة الخارجية والظاهرة من الكيان الإلهي المخفي غير المنظور.

أمّا كلمة "مولود" فلا تفيد شيئاً في اللاهوت إلا أن يكون جوهر الابن من جوهر الآب، أي من طبيعته، وواحداً معه، لا بالافتسام لأن اللاهوت لا يتجزأ ولا ينقسم بل في وحدة الوجود والكيان كشعاع الشمس مع الشمس. وكما أن شعاع الشمس يخرج من الشمس وهو قائم فيها ومتصل بها وواحد معها، دون أن تفقد الشمس شيئاً من كيانه، هكذا الآب لمّا أرسل ابنه إلى العالم!

6 - ويكون أثناسيوس قد وصل إلى الأساس الذي ينطلق منه ليحض كل ادعاءات وكفر الأريوسيين:

(أ) فالابن هو أزلي مع الآب.

(ب) أنه من جوهر الآب.

(ج) متساوٍ مع الآب في جميع الصفات التي ننسبها والتي نقدّمها لله، لأن اللاهوت للآب والابن واحد في الجوهر ذmoocsj وفي الوجدانية الإلهية، حيث يقرّر أثناسيوس ويؤكد أن كلمة الجوهر في اللاهوت لا تعني إلا الكيان "أنا الكائن" الذاتي، فإله ليس مجرد كيان (جوهر) بل كياناً ذاتياً: "أنا هو الكائن Ego Eimi".

(د) وليس حقيقة ما يدّعيه الأريوسيون أن الآب له كيان في ذاته والابن له كيان آخر في ذاته، وأن هذين الكيانين متشابهان في الصفات، فهذا كفر لأنه يلغي وحدانية الله.

ولكن الآب، وهو الله الواحد، يحوي في ذاته لاعتبار الاكتفاء أو الكمال الذاتي، "البنوة" المعبر عنها بكلمة "الميلاد"، التي فيه وله منذ الأزل، أي بنوة ليست

بالاتصال أو المشاركة(740)، فالابن ليس شريك الأب، بل هو والآب ذات واحدة وكيان واحد. وإنما البنوّة في الله هي بنوع الاكتفاء والفاعلية للذات الواحدة(741) (فالذات لا يمكن إلا أن تكون "آب وابن" وهما في الله متميزان بالفعل وليس بالجوهر) - (ولأننا رأينا الابن متجسداً ومذبوحاً على الصليب)، فظهر أن البنوّة تخرج من الآب لتعلن عن جوهر الآب غير المنظور وعن حبه. فالابن هو صورة الآب ورسم جوهره والمعلن لصفاته (عب 3:1).

الآب والابن جوهر واحد - كيان واحد - ذات واحدة تحوي أبوة «&rc مع بنوّة nnhmarḡ متميزين، كما يحوي جوهر الشمس معاً وفي وحدة واحدة الشمس والشعاع الخارج منها (مولود منها بصورة دائمة). وحينما نقول الشمس أولاً ثم الشعاع، يتراءى للسامع أنه يوجد تدرّج أو أسبقية، ولكن في الله لا يفهم من هذا الخروج أو الميلاد أي تدرّج أو أسبقية بالمفهوم العقلي المكتسب من الرؤيا والتصور بين المخلوقات - وهذا هو مفهوم "الهوموؤوسوس" عند أناسيوس(742).

7 - كل ما نُسب للمسيح، سواء قبل التجسّد في الأسفار القديمة أو بعد التجسّد في الأناجيل، من صفات وأعمال منسوبة للمخلوقات فهي إنما كلها متصلة بطبيعته البشرية التي كان مزماً أن يتخذها لنفسه ثم اتخذها لنفسه بالفعل.

كذلك فإن كل التمجيدات والرفعة التي نُسبت للمسيح بل والتي طلبها لنفسه، لم تكون تعوزه شخصياً أو كان محروماً منها أو فاقداً لها بل هي أصلاً منسوبة ومطلوبة لطبيعتنا، لأن الاتحاد الذي أكمله الله الكلمة بالطبيعة البشرية في التجسّد هو اتحاد كامل أي أقنومي أي شخصي Substantial - وكان لحسابنا ليسرّب لنا عن طريق اتحاده بنا كل ما كان يعوزنا، فظهر كأنه يطلبه لنفسه - لذلك تُدعى العذراء والدة الإله kojzqeot لأن الجسد البشري الذي أخذه من العذراء صار جسده الخاص إلى الأبد. لذلك كل ما كان يدّعيه الأريوسيون بخصوص حصر نسبة "الكلمة" في الخلق أو للصفات المخلوقة باعتباره "الحكمة" التي نص عنها ذلك في سفر الأمثال

(740) Harnack, *op. cit.*, p. 250.

(741) Ibid.

(742) Ibid.

22:8 وما بعده، فهذا إنما يختص بالكلمة في حال تجسده!! (743) وهو مردود إلينا.

وبعد صراع مرير عبّر سنين طويلة جداً ومظلمة جداً من النفي والتشريد والمطاردة والمؤامرة حتى إلى القتل، وجيوش تحرّكها أيدي الملوك والأساقفة معاً تجري في كل اتجاه تبحث عن الفريسة الحاملة لجوهر العقيدة الأرثوذكسية في عمق الصحراء، ثم بعد فشل كل أنواع هذا العنف بكل ما كان له من القوة التي كان يناصرها أساقفة العالم كله الذين اجتمعوا على الباطل، وإمبراطور يسلم الحقد لإمبراطور ضد الإيمان الأرثوذكسي، بالرغم من كل ذلك غلب أثناسيوس في النهاية، غلب كل هذا وكل هؤلاء ورفع الإيمان المستقيم الحر فوق سماء الدنيا بأسرها، وأملى على العالم كله حقيقة الإنجيل مرّة أخرى بغير انحراف: أن الله فدى البشرية بنفسه في شخص يسوع المسيح، وأحضرنا جميعاً أمامه كأبناء لنكون شركاء معه في المجد، معطياً لنا حياة إلهية لا تزول (744)!

(743) Ibid. p. 251.

(744) Ibid. pp. 251, 252

ملخص الفصل الثالث مضمون العقيدة التي قام عليها دفاع أثناسيوس

- 1 - لم تعتمد العقيدة التي قام عليها دفاع أثناسيوس على أية أصول فلسفية أو مبادئ عقلية مسبقة.
- 2 - التزم بالتقليد الذي استلمه من الآباء ومن الرسل عن شخص الرب الحي المعبود، "الله ظهر في الجسد".
- 3 - كان دفاع أثناسيوس معتبراً أنه نصره مؤكدة للإيمان الأرثوذكسي وليس لشخصه.

4 - كل دفاع أثناسيوس يدور حول حقيقة واحدة هي:

[الله نفسه قد دخل بشریتنا.]

- وكان كل دفاعه مصوباً دائماً على "مضمون الفداء". فمن عمل المسيح الذي أكمله لنا وفينا كان أثناسيوس يستمد قوته وتعبيره ووصفه لشخص المسيح.
- 5 - إن كان مضمون اليهودية: "الله يتكلم في الأنبياء"، إلا أنها لم تستطع أن تُدخل البشرية في شركة حياة واقعية مع الله.
 - 6 - ولكن المسيحية بشرت بأن الله وحده هو الذي يستطيع أن يأتي إلينا ليمحو عبوديتنا ويأخذنا لنفسه.
 - 7 - كان لاهوت القديس أثناسيوس قائماً على "شخص المسيح الحي".

■ لم يعتمد لاهوت القديس أثناسيوس على فلسفة "عقيدة اللوغس" أي "الكلمة" بالمفهوم الغنوسي الفلسفي، وإنما كان أثناسيوس يبشر بـ"لوغس" القديس يوحنا اللاهوتي في إنجيله، إذ كان في رؤيا واضحة ودائمة لا تنقطع "في المسيح الذي هو الله"، و«كان الكلمة الله».

8 - عناصر عقيدة المسيح عند أثناسيوس:

- أولاً: + المسيح هو الله بسبب الفداء الذي أكمله، فهو لا يمكن أن يكون مخلوقاً.
+ والمسيح جاء لينقذ "أعمال إبليس" الذي هو "رئيس هذا العالم"، فمستحيل أن يكون فيه شيء من العالم أو أن يكون من العالم.
+ بل هو من الله وفي الله.

ثانياً: + الله لا يحتاج إلى “وسيط” ليتمكنه خلقه العالم، وبالتالي فالمسيح الذي جاء ليفدي الإنسان المخلوق يتحتم أن يكون جوهره منفصلاً تماماً عن كيان العالم المخلوق.

+ أثناسيوس أعطى الصفة الحقيقية الواقعية للمسيح باعتباره “اللوغس الابن” عامل الفداء، أو جوهر ومبدأ ومصدر الفداء.

+ والابن لا يمتُّ إلى جوهر العالم المخلوق، بل إلى الجوهر الإلهي غير المخلوق، أي إلى الآب.

+ وتسمية الله بالآب في الكتاب المقدس، تحمل ضمناً وجود الابن في الآب ومع الآب، بنفس الكيان والوجود الدائم.

+ وهو آب لا بالنسبة للعالم المخلوق في زمن ما، بل هو آب منذ الأزل بالنسبة للابن الأزلي الكائن فيه ومنه منذ الأزل.

+ وينبغي أن نعلم أن كلمة “ولادة” و “مولود” إذا استخدمت في اللاهوت فهي تفيد وحدة الجوهر الإلهي للآب والابن، كشعاع الشمس الذي يخرج (يتولد) من الشمس وهو قائم فيها ومتصل بها وواحد معها.

+ وهكذا تتحدد عقيدة أثناسيوس:

1 - الابن أزلي مع الآب،

2 - هو من جوهر الآب،

3 - متساوي مع الآب في جميع الصفات التي ننسبها والتي نقدمها لله.

وهذا هو مضمون لقب “الهوموؤوسبيوس”.

■ وتنفي عقيدة أثناسيوس ادعاء الأريوسيين أن الآب والابن إلهان متشابهان في الصفات، ولكل منهما كيان مستقل، فهذا كفر وتعدد آلهة.

■ ولكن وحدانية الله تتحقق في عقيدة “الهوموؤوسبيوس”: أن الآب وهو الله الواحد يحوي في ذاته “البنوة” المعبر عنه بكلمة “الميلاد الأزلي” ويظل واحداً كما هو.

■ فالآب لا شريك له، والابن والآب ذات واحدة وكيان واحد. وإنما “البنوة” هي حقيقة الاكتفاء والفاعلية للذات الواحدة، وهي تخرج من الآب لتعلن عن جوهر الآب غير المنظور وعن حبه، وهذا اتضح لنا في الصليب.

- أمّا كل ما نُسب - في الأسفار المقدسة - للمسيح من صفات وأعمال منسوبة للمخلوقات، فهي متصلة بطبيعته البشرية التي كان مزماً أن يتخذها لنفسه، ثم اتخذها بالتجسّد.
- وكل ما نُسب للمسيح من تمجيدات ورفعة نالها، حتى التي طلبها لنفسه، لم تكن في الحقيقة تعوزه، أو طلبها كأنه محروم منها أو كان فاقداً لها، بل كانت مطلوبة لطبيعتنا فيه، لأن الاتحاد الذي أكمله الله الكلمة بالطبيعة البشرية في التجسد كان اتحاداً أقنومياً أي شخصياً، وكان لحسابنا، ليسرّب لنا عن طريق اتحاده بنا كل ما كان يعوزنا.
- وهكذا، غلب أثناسيوس العالم وعلت حقيقة الإنجيل مرة أخرى بغير انحراف: أن الله فدى البشرية بنفسه في شخص يسوع المسيح، وأحضرنا جميعاً أمامه كأبناء لنكون ورثة معه في المجد، وفي حياة إلهية لا تزول.

الفصل الرابع

فكرة عن المنهج اللاهوتي العام للقديس أثناسيوس

إليك أيها القارئ أقدم مقتطفاً عن أكبر لاهوتيي
البروتستانت ونقادها "هارناك"، وهو عبارة عن
تحليل للاهوت أثناسيوس.

يقول هارناك عميد اللاهوتيين الألمان البروتستانت عن أثناسيوس:

[رجل ظهر في بكور القرن الرابع، حفظ الكنيسة من انحدارها نحو العالم في أهم
أسس الإيمان ... احتفظ للإيمان المسيحي بأرضيته الخاصة فوق تربة الفكر
الإغريقي، وجمع كل شيء وصوّبه نحو عقيدة الفداء بواسطة الله نفسه، أي
بواسطة الإله المتأنس ذي الجوهر الواحد مع الله.

لم يكن أثناسيوس مستغرقاً في صياغة الاصطلاحات، ولكنه كان مندفعاً
نحو تقرير قاعدة محددة قاطعة للإيمان بالفداء، لضمان حياة إلهية بواسطة هذا
الإله المتأنس. وعلى هذه القاعدة الأكيدة وحدها التي تقوم على لاهوت المسيح
الذي هو من جوهر اللاهوت ذاته، رأى أثناسيوس أنه يمكن فقط أن نرتفع إلى
"حياة إلهية"، وحيث يستمد الإيمان من هذه القاعدة قوته وحياته وناموسه
ولاهوته وهدفه ...

ولكن بينما يضع أثناسيوس الإيمان كله في الإله المتأنس، الذي هو وحده
قادر أن يحررنا من الموت والخطية، رافعاً هذا الإيمان فوق كل اعتبار آخر؛
إلا أنه يعود في نفس الوقت ليعطي حياة التقوى العملية التي تتمثل قمتها في
النسك والتعبُّد الرهباني اعتبارها الفائق. وقد استطاع أن يربط قضية
الهوموؤوسايوس (وحدة الجوهر للمسيح مع الآب) - باعتبارها الضمان الوحيد
لتوكيد لاهوت الابن المتأنس - ربطاً وثيقاً محكماً بالنسك والعبادة التقوية،
رافعاً الحياة النسكية - الرهبنة - من ركودها واختفائها تحت أرضية العالم،
ومن الدائرة غير المضمونة التي كانت منحصرة فيها إلى عمق الحياة الكنسية.

وبينما كان يصارع ضد نظرية "اللوغس والخليقة" والأفلاطونية الحديثة
بنظريتها في الثالوث المتدرج (غير المتساوي) الذي هو من صميم الوثنية
المقاومة لجوهر المسيحية، كان - وفي نفس الوقت - يصارع وبنفس القوة
والنشاط ضد ميوعة الحياة الدنيوية، حتى اعتُبر أثناسيوس أبا الأرثوذكسية

أولاً: أسلوبه العام

من مؤلفات أنثاسيوس ومن تاريخ حياته نستطيع أن نعذر هذا العملاق اللاهوتي، كونه لم يترك لنا مؤلفات ذات طابع بنائي أو تثقيفي، فحياته كلها كانت كفاحاً وصراعاً ضد الأريوسية، فخرجت مؤلفاته تحمل صبغة الدفاع عن الإيمان، في ما عدا الكتابين اللذين ألفهما في بكور حياته قبل اندلاع النزاع الأريوسي وهما: "ضد الوثنيين"، و"تجسد الكلمة". وهذان أيضاً كان القصد منهما الدفاع عن الإيمان المسيحي ضد الوثنيين. كذلك ما خلفه لنا الزمن من بقايا شرح أنثاسيوس لبعض الأسفار وسفر المزامير.

لذلك فكل كتابات أنثاسيوس، بالرغم من الكثافة الهائلة على المستوى العقائدي والغني والخصب في التعبيرات اللاهوتية وشرحها الدقيق، إلا أنه للأسف لا يستطيع أحد أن يتبين منهجاً محدداً يشمل كل كتاباته، لا شيء إلا لأنه لم يعط الفرصة قط ليجلس هادئاً ويؤلف لبناء الفكر الكنسي.

ولكن بالرغم من كل ذلك فكتابات أنثاسيوس كلها تحمل طابع العقلية القوية الراجحة والناضجة جداً بل والعظيمة حقاً، كما يحمل أسلوبه شخصية اللاهوتي العميق المتمرس الذي لا تقف تعبيراته اللاهوتية عند حد. وفوق هذا يبقى أنثاسيوس رجل الحركة السريعة والمبادرة والمباغته معاً، الأمر الذي جعل من أسلوبه اللاهوتي سلاحاً يضرب في كل جهة وفي المواضيع الخفية جداً.

وأسلوب أنثاسيوس متميز، لا يشبهه أي أسلوب آخر مما للاهوتيين قدامى ومحدثين، فهو يختلف كثيراً جداً عن باسيليوس وجرغوريوس ويوسابيوس في أصالة تعبيراته غير المصطنعة وغير المنمقة، كذلك يتميز جداً عن ترتليان كون أسلوبه سلساً وسهلاً ويخلو من الخشونة والجفاف، وهو يختلف عن جيروم كونه واقعياً وطبيعياً يخلو من التهويل والتضخيم المصطنع. ويختلف عن هيلاريون كونه

تلقائياً غير متكلف. ويختلف عن أغسطسينوس ويوحنا ذهبي الفم كون أسلوبه بسيطاً غير مشحون بالاستطرادات والمحسنات والمعاني الفرعية الكثيرة.

وأثناسيوس لم يكتب قط بنية التأثير على القارئ أو احتواء فكر السامع، ولكنه كان يكتب ليشرح الحق، والحق فقط، تاركاً الحق ليؤثر بنفسه على السامع والقارئ. فأسلوب أثناسيوس يخلو من الذات، ولكن لا يخلو قط من الحق. وكنتيجة مباشرة لذلك نجده يكرّر ويكرّر ما يقول بدون ملل، وهو يعي أنه يرهق السامع والقارئ بهذا التكرار، ويعتذر عن ذلك ويعتذر كثيراً، ولكن يعود إلى التكرار مرّة أخرى لأنه مشغول دائماً بتوصيل الحق، ولا يريد أن يهدأ حتى يبلغ ذلك. وإن كان الناقدون لأسلوب أثناسيوس يعتبرون هذا عيباً يؤاخذونه عليه، ولكن في الحقيقة لو أنصف هؤلاء لوضعوا هذا الخطأ كله على المعاندين للحق الذين لم يريدوا أن يخضعوا للحق أبداً، وهم يحاولون بالتحايل والغش والباطل تضليل البسطاء والحكماء على السواء.

كانت اللغة اليونانية التي يكتب بها أثناسيوس - وهو مواطن صعيدي وقبطي صميم - قد تباعدت نحو سبعة قرون عن مصادرها النحوية الأصلية التي كتب بها عمالقة الأدب واللغة عند شعراء وأدباء اليونان، فلا مجال إطلاقاً لمقارنة لغة أثناسيوس بالأولين. كذلك فإن اللغة اليونانية بعد أن استوطنت الإسكندرية كانت قد تغيرت شيئاً ما عن اللهجة الأصلية، لذلك نجد بعض النقاد مثل فيلوستورجيوس Philostorgius يقارنون بانحياز غير شريف ولا عاقل بين أدبيات اللغة عند أثناسيوس الذي بدأ يكتب في سنة الثالثة والعشرين، والذي كان يكتب مؤلفاته وهو يتنقل هارباً من مدينة إلى أخرى ومن جبل إلى جبل ومن برية إلى برية ومن كهف إلى كهف، في مقابل الكبادوكيين المنحدرين من أصل بيزنطي، الذين كتبوا وهم جالسون على عروشهم الحريرية وبين أيديهم مئات المؤلفات وبالأخص مؤلفات أثناسيوس نفسه!

ولكن بالرغم من ذلك، فعند المحللين المعاصرين يُعتبر أثناسيوس أعظم من عبّر باللغة اليونانية عن فكر عصره كله وعن مضمون لاهوت القرن الرابع جميعاً، بل والوحيد الذي يعكس شخصية الرجل المسئول والغيور جداً على الكنيسة في كل كتاباته! ...

ويلاحظ اللغويون أنه يتخلل كتابات أثناسيوس ألفاظ لاتينية كثيرة مكتوبة بحروف

يونانية، مما يكشف عن درايته وميله الطبيعي إلى اللاتينية التي تعلمها في أيام نفيه في إيطاليا وفرنسا.

وإنها لشهادة عظيمة التي يقدمها أرشيبلد روبرتسن في مقدمته عن كتابات أثناسيوس (746)، قائلاً إن كل لاتينية ترتليان وكبريان وجيروم وأغسطين وأليو (لاون)، وهم فطاحل اللغة اللاتينية بكل أدبياتها وتنميقاتها، تُعتبر في الدرجة الثالثة من جهة فعاليتها كأسلحة لاهوتية إذا ما قورنت ببيونانية أثناسيوس الذي يُعتبر بين كل الآباء الذين كتبوا باليونانية أكثرهم جميعاً سهولة ويسراً وفهماً، لأن أسلوبه كان طبيعياً وهادفاً، وفي مضمونه يصور لنا إنسان القرن الرابع بأكمله أكثر مما يصور لنا حقبة زمنية محصورة بحياته.

ثانياً: الاتجاهات المدرسية للاهوت أثناسيوس

معروف قطعاً أن لاهوت أثناسيوس تابع ومرتببط بمدرسة الإسكندرية، التي كانت ولم تنزل إلى أيام أثناسيوس وبعده متأثرة بالفكر الأوريجاني (الجناح الأيمن) في طرق البحث والشرح والتحليل. فهو وريث شرعي للنتاج الفكري والتقوي لعظماء مدرسة الإسكندرية جميعاً: كليمندس وأوريجانوس وديونيسيوس وثيئوغنستس؛ ولكن من شرح أثناسيوس وتعليقه على الأسفار المقدسة، خاصة رسائل الروح القدس التي أرسلها لسيرايبون أسقف تمي، يتضح أنه لا يأخذ مبادئ الأولين على علائها، ولكنه كان - بوعي وعمق شديدين - يصحح ويقوم أفكار السابقين على ضوء الوحي المقدس في الإنجيل. بل وفي مواضع كثيرة نجد أثناسيوس ينتقد ويقاوم بشدة أفكار أوريجانوس، كما صنع البابا بطرس الشهيد سلفه (747) في كتابه عن راعوث، وكذلك البابا ألكسندروس وميتوديوس (أسقف صور الشهيد 311م).

ولكي يتضح لنا اتجاه أثناسيوس من نحو أفكار أوريجانوس وكل مَنْ جاء بعده، نقرأ له في الرسالة الخامسة إلى سيرايبون عن الروح القدس:
[لقد قرأت ما كتبه الآباء وبالذات الفيلسوف والمجاهد أوريجانوس، والعجيب

(746) N. & P.N.F. II, vol. IV, p. lxvi.

(747) Fragmion (Ruth Rell. IV. 81) N. & P.N.F., Series II, vol. IV p. xxvii.

المجاهد ثيوغنستس، وأطلعت على كتبهم لأرى ماذا قالوا بخصوص هذا الموضوع ... ولكننا نحذّر كل مَنْ يقرأ هذه الكلمات من عدم فهمها بصورة سليمة ... كما علينا أيضاً أن نحذّر ... أمّا عن نفسي فحسب ما تعلّمت (هنا أثناسيوس يوضّح أن الفكر الإسكندري كان قد فرز الفكر الأوريجاني وبدأ يكوّن اتجاهاً أبوياً تقليدياً على أصول الآباء الرسل مبتعداً عن فلسفة أوريجانوس). فأنا أعتقد أن رأي كل منهما يتطلّب فحصاً ومراجعة دقيقة ... وهذا هو التعليم الحقيقي الذي يجب أن نقبله.]

من هذا الكلام يتضح أن أثناسيوس كان يستقي أبحاثه أولاً من علماء مدرسة الإسكندرية السابقين، ولكن بحاسة رسولية لا تخطئ كان يقارن بين هذه الاجتهادات الفلسفية وبين الأصول الأبائية الأخرى البسيطة المسلّمة من الرسل، ويعطي تعليماً يتناسب مع روح الإنجيل والتقليد.

ويساعدنا في هذا التحليل العالم الناقد هارناك، في وصفه للاهوت أثناسيوس بقوله: “إن لاهوت أثناسيوس لم يتعرّض قط على مدى حياته إلى أي نوع من التطوّر، بل كان لاهوت أثناسيوس ثابت الأصول والاتجاه من البداية حتى النهاية.” (748)

ومعروف أن مؤلفات أثناسيوس الأولى ذات الطابع اللاهوتي الحر، أي التي لم تكن موجّهة ضد الأريوسيين، مثل الرسالة ضد الوثنيين وتجسّد الكلمة، تخلو من أي لمسة أوريجانية من قريب أو بعيد - بشهادة كل المحلّلين (749).

ولقد ظل لاهوت أثناسيوس طول حياته ملتزماً بمقررات مجمع نيقية وتعبيراته ودقائق شرحه للإيمان الأرثوذكسي، ومعروف أن لاهوت مجمع نيقية كان يجمع بين دقة التحليل الغربي مع أصالة التقليد اللاهوتي الشرقي القائم على المعارضة الصريحة والشديدة للاتجاه الأوريجاني بوجه عام (750).

ويقول العالم أرشيبالد روبرتسن:

(748) N. & P.N.F., Ser. II, vol. IV, p. lxxviii.

(749) Ibid. p. 3.

(750) Ibid. p. lxxix.

[إن قانون الإيمان الذي وُضع في مجمع نيقية، وجد في أثناسيوس عقلاً سبق وأن تهيأً لكي يتعمق روح هذا الإيمان، كما وجد فيه المدافع صاحب أغنى وأخصب قدرة على استخدام منابع اللاهوت والإنجيل، بل ووجد في أثناسيوس من العمق والصلابة مع القدرة على الحركة والتكتيك؛ مما كتب لهذا القانون النصر على يد أثناسيوس وأثناسيوس وحده من بعد الله] (751)

وقد يبدو لأول وهلة أن أثناسيوس لم يلتزم بمنهج لاهوتي معيّن، حتى قال عنه خطأ بعض العلماء ومنهم أرشيبيلد روبرتسن نفسه، وهو المتخصص في أبحاث وكتابات أثناسيوس، إنه لاهوتي غير منهجي لأنه لم يخطّط منهجاً متعدد الاتجاهات على أصول وفروع، ولأنه لم يلتزم بخط فكري فلسفي مثل أوريجانوس أو أغسطينوس، إذ لم يكن مالكاً لمواهب فكر الرجل المدرسي أو الفيلسوف.

ونحن نعترض على هذا، لأن أثناسيوس بالرغم من الوضع الذي ألزمته به الكنيسة كمدافع عن إيمانها كما التزم هو به من جهة إيمانه وحبه وصلته بالرب يسوع، الوضع الذي جعله كقائد جيش لم يغادر غرفة عملياته على مدى خمسين سنة، وعلى عينيه منظاره المكبر يرصد به تحركات العدو ليرد عليها في الحال كل حركة بما يناسبها، فكيف يتناسب هذا مع وضع مناهج؟ نقول وبالرغم من هذا الموقف الفريد من نوعه، إلا أنه لا يصعب قط على أي دارس صبور أو أي لاهوتي تقي مفتوح البصيرة أن يستخرج من مجموع كتابات أثناسيوس منهجاً كاملاً ذا أصول وذا فروع، ولا هو أمر صعب أن يعثر الدارس على فكر مدرسي وفلسفي. ولكن ليس كما يفعل التلميذ إزاء محفوظات معلمه، بل كما يكتب النبي والرأي ما يسمعه وما يحسه وما يراه على مدى سفر الحياة الذي استؤمن أثناسيوس أن يكتبه للكنيسة. وأيضاً ليس على مستوى صفحات مرقمة وفصول وأبواب ومقدمات ونهايات، ولكن كسلّم تصعد عليه الملائكة وتنزل، حاملة أوامر وتوجيهات، يتكرّر أوله إذا دعى الأمر كما تتكرّر نهايته للضرورة، ويحل هذا محل ذلك بقدر ما تستدعيه المواقف والدفاعات.

ولكننا لم نعدم في بحثنا هذا من عالم يؤازرنا في رأينا هذا عن أصالة منهج قديسنا

العظيم أثناسيوس. إذ قرأت للعالم أونجار (752) وهو فرنسيسكاني F.O.M. ما يأتي:
[إن أثناسيوس كان مشتتاً بنار الحب للمسيح، ونحن نحتسب أن ما خاطب به أثناسيوس أحد أصدقائه يصلح أن يُقال عنه هو: "إني واثق أنك تقيم في معرفة المسيح وحبه فوق أي شيء آخر" (753). كما أنه يصلح أن يُلقب أثناسيوس ما لُقّب به هذا الصديق "فيلوخريستو" كلقب يعبر عن الحب نحو المسيح،

فمحبته أثناسيوس للمسيح هي المفتاح لفهم كل حياة أثناسيوس وكل كتاباته. "فالمسيح الكلمة المتجسد" يحتل مركز المنهج التعليمي لهذا المعلم الكنسي الشهير كما يرى هذا جميع من كتبوا عن أثناسيوس.

صحيح أنه لم يخطّ منهاجاً يحيط بكل المسيحية أو اللاهوت (Summa theologia) ولكن من كتاباته نستطيع أن نبني بكل تأكيد منهاجاً كاملاً عن كل الفكر الديني في أيامه، وفيه يكون شخص المسيح دائماً في المركز!] (754)

وعلى أي حال لا يختلف إثنان في كل علماء اللاهوت في الدنيا بأسرها وعلى مدى هذه القرون الطوال على السمة التي ميّزت أثناسيوس صاحب "لاهوت الخلاص" بكل معنى الكلمة وبكل طوله وعمقه، هذه السمة العظمى والنظرة الواحدة الثابتة التي لم تفارق أثناسيوس في جميع كتاباته. فلم يجعل أثناسيوس شيئاً قط، حتى ولا أحب اصطلاح لديه مثل "الهوموؤوسيوستوس"، أن يعلو فوق الحقيقة الأساسية وهي الفداء، جاعلاً من هذه الحقيقة لا نظرية يدور حولها، ولا فكرياً يقال ويزداد وضوحاً، بل حقيقة حيّة شخصية قائمة دائمة: "في شخص الفادي".

وقد جاهد أثناسيوس ليحوّل نظرة الفلاسفة من لوغس الفلسفة إلى لوغس إنجيل يوحنا، ومن "إله الفلاسفة" إلى الله المستعلن في يسوع المسيح لكي يصلح به العالم لنفسه.

ومن سعد الكنيسة أن كان أثناسيوس هو الحضن المتسع الذي حمل كل التراث

(752) Franciskan Studies, March. 1946, vol. 6 No. 1, p. 30.

(753) Contra Gent., n. 1, (P.G. 25, 5B).

(754) Ungar, *op. cit.*, p. 30.

الكنسي واللاهوتي بحسب الروح الرسولية الأصيلة ليسلمه - عبر هذه العواصف المرعبة - بكل دقة وأمانة إلى كل أجيال المستقبل الصاعدة مشروحاً ومبرهنأ.

ومن اللاهوتيين اليونان المحدثين جداً نجد "يوانو كالوثيرو"، بنفس التعبير، يشيد بالدور اللاهوتي الضخم الذي قام به أنثاسيوس في الكنيسة، وذلك من مقال له ورد ضمن مجموعة المقالات المطبوعة في تسالونيكي في ذكرى مرور 16 قرناً على وفاة أنثاسيوس يقول فيه:

[إن المسيحية تقبلت على يدي أنثاسيوس الكبير بصورة ممتازة تصفية وتعميقاً في ما يختص بتوضيح وتثبيت عقيدة الثالوث من جهة علاقة يسوع المسيح المخلص الكلمة الإله الأزلي بالنسبة لجوهر اللاهوت.] (755)



أهم المبادئ الخلاصية التي يقوم عليها لاهوت أنثاسيوس

- 1 - الإنسان والخالص في لاهوت أنثاسيوس.
- 2 - معرفة الله في ذاته ومعرفة الله في الخليقة.
- 3 - استعلان الثالوث ووحداية الله عند أنثاسيوس.
- 4 - الإيمان والشهادة للمسيح كفعلين متلازمين مع المعرفة.
- 5 - استعلان الروح القدس كأفنوم إلهي في الثالوث المتساوي.
- 6 - عمل الروح القدس في الإعلان عن الآب وعن الابن.

ملخص الفصل الرابع

فكرة عن المنهج اللاهوتي العام للقديس أنثاسيوس

أولاً: المنهج العام

■ مؤلفاته تحمل صبغة الدفاع عن الإيمان (فيما عدا الكتابين اللذين ألفهما قبل اندلاع النزاع الأريوسي - وكان ذلك في بكور حياته، وهما "ضد الوثنيين" و"تجسد الكلمة").

- يتميز أسلوب أثناسيوس عن باقي الآباء:
- في أصالة تعبيراته غير المنمّقة، عن باسيلوس و غريغوريوس ويوسابيوس،
- في سلاسة أسلوبه وسهولته، عن ترتليان،
- كونه واقعياً وطبيعياً خالياً من المبالغة، عن جيروم،
- كونه تلقائياً غير متكلف، عن هيلاريون،
- بسيطاً غير مشحون بالاستطرادات والمعاني الفرعية الكثيرة، عن أغسطينوس ويوحنا ذهبي الفم.
- كان أثناسيوس يكتب ليشرح الحق، والحق فقط، تاركاً الحق يؤثّر بنفسه على السامع والقارئ.
- لذا كان يعمد إلى التكرار، عن وعي.
- اللغة اليونانية التي كتب بها أثناسيوس:
- إن أثناسيوس صعيدي قبلي صميم، إلا أنه يُعتبر أعظم مَنْ عبّر باللغة اليونانية عن فكر عصره وعن مضمون لاهوت القرن الرابع.
- في كتابات أثناسيوس ألفاظ لاتينية كثيرة مكتوبة بحروف يونانية، مما يكشف عن دراية أثناسيوس وميله الطبيعي إلى اللاتينية.

ثانياً: الاتجاهات المدرسية للاهوت أثناسيوس

- ورث أثناسيوس لاهوت مدرسة الإسكندرية ومنهجها في البحث والشرح والتحليل.
- لم يأخذ مبادئ فلاسفة المدرسة اللاهوتية على علاتها. ففي مواضع كثيرة ينتقد ويقاوم بشدة أفكار أوريجانوس.
- وبالرغم من أنه استقى أبحاثه أولاً من علماء مدرسة الإسكندرية السابقين، لكنه بحاسة رسولية لا تخطئ كان يقارن بين هذه الاجتهادات الفلسفية وبين الأصول الأبائية الأخرى البسيطة المسلّمة من الرسل، ويعطي تعليماً يتناسب مع روح الإنجيل والتقليد.
- أنت مؤلفات القديس أثناسيوس الأولى خالية من أية لمسة أوريجانية من قريب

أو بعيد.

■ أمّا كتاباته اللاحقة وتعبيراته ودقائق شرحه للإيمان الأرثوذكسي، فأتت ملتزمة بمقررات مجمع نيقية.

وقد كان لاهوت مجمع نيقية يجمع بين دقة التحليل الغربي مع أصالة التقليد اللاهوتي الشرقي، القائم على المعارضة الصريحة والشديدة للاتجاه الأوريجاني بوجه عام.

■ لا يصعب على أي دارس صبور أو لاهوتي مفتوح البصيرة أن يستخرج من مجموع كتابات أنثاسيوس منهجاً كاملاً لاهوتياً.

■ [“محبّة المسيح” فوق أي شيء آخر] هي مفتاح حياة أنثاسيوس وكتاباته، ومنهجه اللاهوتي يتمركز حول شخص المسيح دائماً.

■ السمة التي ميّزت لاهوت أنثاسيوس هي أنه صاحب “لاهوت الخلاص”. فلم يكن أنثاسيوس يترك شيئاً قط يعلو فوق الحقيقة الأساسية وهي “الفداء” جاعلاً من هذه الحقيقة حياة شخصية قائمة دائمة “في شخص الفادي”.

■ لقد حوّل أنثاسيوس نظرة الفلاسفة من “لوغس” الفلسفة إلى “لوغس” إنجيل يوحنا، ومن “إله الفلاسفة” إلى “الله المستعلن في يسوع المسيح”، لكي يصلح به العالم لنفسه.

الفصل الخامس

الإنسان والخلص في اللاهوت عند أثناسيوس

أولاً: أسس التقليد الأبائي التي يقوم عليها الخلاص

أثناسيوس يعتبر أن تجسّد ابن الله، وموته على الصليب خاصة، هو مركز الإيمان واللاهوت، أو بتعبيره اليوناني: “رأس ومبدأ الإيمان $\epsilon\kappa\epsilon\phi\lambda\alpha\iota\omicron\nu$ t p...stewj (756) كما يقول:

[لأنه لأجل خلاصنا، الكلمة صار إنساناً ومات.] (757)

ولكن كيف كان أثناسيوس يفهم الخلاص؟ ومن أي شيء نحن نخلص؟ وإلى أي غاية ينتهي بنا الخلاص؟

ثم ماذا كانت تعني حقيقة وفعالية موت المسيح عند أثناسيوس؟

ينبغي لدارس اللاهوت أن يفهم أن موضوع الخلاص لم تستطع الكنيسة على مدى كل العصور أن تستوفيه حقه، لعمقه وتعدّد وجهات الرؤية لموضوع الفداء الذي أكمله المسيح كما كشفه وأعلنه الله لبولس الرسول (758).

ففي عصر الآباء الرسولين، بدأت الرؤيا من نحو الخلاص على مستوى أخلاقي سلوكي (متأثرين بالعهد القديم)، باعتبار أن الإنجيل هو الناموس الجديد والوعد بالحياة الأبدية القائمة على معرفة الله معرفة حقة، على أن يكون قبول الله بالإيمان فيصير الخلاص انتقالاً من حياة الشر - أي التدبير الشمالي بتعبير الليتورجيا، (تدبير الخطية) - إلى حياة البر أي التدبير اليميني بتعبير الليتورجيا أيضاً (تدبير الصلاح).

ثم جاء آباء آسيا الصغرى من القديس أغسطينوس، ومن بعده (وهم متأثرون بالطب)، فنظروا الخلاص من وجهة نظر طبيعية أو واقعية - مرضية - فالمسيح جاء كطبيب، والإنسانية في المسيح الطبيب انتقلت من مرض الموت إلى صحة الحياة، أي من الفساد إلى عدم الفساد $\epsilon\kappa$ p ص f q ز an...raj e, j ϕ f qars... أن الطبيعة البشرية تغيّرت بالتجسّد، فصار به “الإنسان إلهاً” أي يحيا مع الله إلى

(756) Athanas., *Incar.*, 19.-9.1,2-20.2.

(757) Athanas., I, etc.

(758) N. & P.N.F., Ser. II, vol. IV, p. lxix.

الأبد شريكاً في صفاته وطبيعته الإلهية. ثم جاء آباء شمال إفريقيا (محامون)، ونظروا إلى الخلاص كعمل قضائي أو اشتراعي، كحكم صدر بناءً على تعدي وعن ديون ويحتاج إلى محكمة وقضاء وشفاعة وتبرئة من ديون ثقيلة. فأدخل ترتليان إلى اللاهوت الغربي كله عقيدة الدرجات القضائية التي يمر فيها الإنسان، من حالة التجريم والتغريم إلى حالة الصفح والبراءة، وطَبَّقَهَا على المسيح في شخصه هو، وليس من جهة أعماله، أي أنه جاز القضاء وحصل على البراءة. وظل هذا الفكر متجذراً في لاهوت الغرب وازداد في زمان انشقاق البروتستانت وبقي حتى اليوم كأساس لمفهوم الخلاص عند الغرب عامة.

أمّا عند أوريجانوس فانتسعت النظرة الفلسفية نحو الخلاص فشملت العالم بأسره. فالخلاص عمل كوني Cosmological تمّ على مستويات شملت العالم بأسره حيث تحوّل الشر كمشكلة العالم الأولى والعظمى إلى “الخير” الكلي (الصلاح)، وانهزمت جنود الشر في هذا الصراع تحت سلطان الله.

ثانياً: أساس لاهوت الخلاص عند أثناسيوس

ثم جاء أثناسيوس وأمامه هذا التراث المتعدّد الجوانب لموضوع الخلاص والفداء، والعجيب أنه لم يتجاهل أي وجه من أوجه هذا التراث، ما عدا فكر أوريجانوس بخصوص الصراع مع الشيطان فيكاد يكون أثناسيوس قد تنحّى عنه تقريباً، ولو أنه مرّ عليه مروراً.

فالخلاص عند أثناسيوس شمل هذه العناصر، وكان واضحاً في التأكيد على أهمية عامل القضاء بمعنى العقوبة والتبرئة على أساس الدين الذي كان يتحتم علينا دفعه، باعتبار أن الموت الذي تمّ القضاء به علينا بكلمة الله (تك 3) قد ارتبط بالخطية كعقوبة يتحتم دفع ثمنها كدين تص menonzfeil (759):

[والآن نكون قد بيّنا جزئياً على قدر المستطاع، وعلى قدر ما استطعنا إدراكه، العلة التي من أجلها ظهر (الرب) جسدياً،

(أ) وهي أنه لم يكن في مقدور أي أحد آخر أن يحوّل الفاسد إلى عدم الفساد إلا المخلص بنفسه، وهو الذي بنفسه ومنذ الابتداء قد خلق كل شيء من لا شيء؛

(ب) لذلك فإنه ليس بمقدور أحد آخر أن يخلق من جديد مثال صورة الله للإنسان سوى الذي هو صورة الآب!

(ج) وأنه ليس بمقدور أحد آخر أن يجعل المائت غير قابل للموت سوى ربنا يسوع المسيح الذي هو “الحياة نفسها”.

(د) كما أنه ليس بمقدور أحد أن يعلم الناس شيئاً عن الآب، ويبطل عبادة الأوثان، سوى “الكلمة”، الذي يدبر كل شيء وهو وحده الابن الوحيد الحقيقي للآب.

(هـ) ولكن نظراً لأنه كان يتحتم دفع الدين المطلوب على الجميع، لأنه كما سبق وقلت إنه كان يتحتم على الجميع أن يموتوا، فلهذا السبب الخاص بالذات حقاً، جاء بيننا!

ومن أجل هذا الغرض نجده بعد أن أكمل كل براهين لاهوته بواسطة الأعمال التي عملها، قدّم نفسه كذبيحة عن الجميع مسلماً هيكله للموت عوضاً عن الجميع وذلك:

- من أجل أن يخلص الناس ويجعلهم أحراراً من تعدياتهم وذنوبهم القديمة؛
- ليعلن أنه قوي، وأقوى من الموت ذاته مُظهراً جسده علناً وهو في حالة عدم الفساد كباكورة لقيامة الجميع.

ولكن أود أن لا تستغربوا أنني أكرّر نفس الكلام بخصوص نفس الموضوع (الخلاص)، إذ أننا بصدد الكلام عن مشورة الله وتدبيره، لذلك فنحن نشرح ذات المعنى على أكثر من وجه، خوفاً من أن نفقد شيئاً (من أوجه التقليد المتعددة في هذا الموضوع). ولئلاً نطالب بتهمة التسبب في عدم معالجة الموضوع بالقدر الكافي. لأنه أفضل لنا أن نقع تحت الملامة من أجل التكرار من أن نترك شيئاً كان ينبغي أن نسجله! فالجسد (الذي اتخذه الرب) لأنه يشترك مع الجميع في نفس الطبيعة إذ هو جسد بشري - مع كونه مأخوذاً من عذراء فقط بمعجزة فائقة لا تُجارى - ولكن لأنه جسد قابل للموت، كان ينبغي أن يموت أيضاً وفق نظرائه. ولكن بمقتضى حقيقة اتحاده، “بالكلمة” صار غير خاضع للفساد بحسب طبيعته.

وهكذا حدث أن اجتمع فيه معجزتان معاً، فالموت الذي على الجميع تمّ وتحقّق في جسد الرب ثم أن الموت والفساد انغلبا وزالا معاً بواسطة “الكلمة” المتحد بالجسد!

لأنه كانت هناك حاجة إلى الموت، وكان الموت في حاجة إلى مَنْ يعانيه عن الجميع لكي ما يسدّد الدين القائم على الجميع!!

وبما أن “الكلمة” - كما قلت سابقاً - ليس في مقدوره أن يموت، لأن “الكلمة” غير قابل للموت، لذلك أخذ جسداً لنفسه له قدرة أن يموت حتى يستطيع أن يقدّمه كخاصته عوضاً عن الجميع، وإذ تألم من خلال اتحاده به (بالجسد) عوضاً عن الجميع استطاع أن يبيد ذاك الذي له سلطان الموت - أي الشيطان - لكي يخلص أولئك الذين بسبب الخوف من الموت كانوا كل أيام حياتهم تحت

والآن يكفي للقارئ أن يعود مرةً أخرى ليقراً هذه الصفحة الرائعة عن لاهوت الخلاص لأثناسيوس، ليكتشف كيف استطاع هذا العملاق أن يجمع بالفعل كل أوجد التقليد عن الخلاص كما تسلّمته الكنيسة، كما رقمناها تحت الحروف (أ ، ب ، ج ، د ، هـ)، ثم عاد وأكد بتكرار جديد بديع للغاية ما جاء سابقاً تحت حرف (هـ) مشيراً بذلك إشارةً بليغةً إلى تفضيله أخذ الخلاص في معنى تسديد دين عقوبة الموت!

ولكي يتضح لدى القارئ أهمية فكرة تسديد الدين في مفهوم الخلاص عند أثناسيوس نقرأ له مرةً أخرى بتوضيح آخر في مقالته الثانية في الدفاع ضد الأريوسية الآتي:
[لأننا لن نسمع مرةً أخرى: «اليوم الذي تأكل منها موتاً تموت» (الحكم) بل نسمع: «حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً» (تبرئة)].

من أجل هذا فإن «كلمة الله» الكامل وضع على نفسه جسد البشرية غير الكامل، وذلك من أجل تكميل الأعمال، حتى يدفع الدين الذي علينا عوضاً عنا حتى يستطيع أن يكمل بنفسه ما كان ناقصاً أو مفقوداً من الإنسان.

وأما الإنسان فكان فاقداً عدم الموت وأضاع طريق الفردوس ... [761]

وبالإضافة إلى وجهات الخلاص المتعددة هذه لم يغفل أثناسيوس أيضاً نموذج الخلاص بالتقدمة، ثم بالذبيحة الكهنوتية التي أكملها المسيح في نفسه كفارة من أجل الجميع أو عوض الجميع، وهي نظرة العهد القديم العملية والواقعية لتصوير مفهوم الخطية وفعلها القاتل للنفس، والتي لا رجاء من رفع تأثيرها وعقوبتها إلاً بالفداء. وقد أفاض في شرحها كالاتي:

1 - التقدمة - الكهنوتية - كفعل خلاص:

[وحيثما صارت مشيئة الأب السمائي أن تُدفع الفدية - الكفارة - عن الجميع، لكي تُمنح النعمة للجميع، لذلك أخذ الكلمة بالحق ... جسداً ترابياً ... لكي كرئيس كهنة يستطيع أن يقدم نفسه (بجسده) إلى الأب ويطهرنا من الخطايا

(760) Athanas., *Inc. of the Word*, 20.

(761) Athanas., *Discourses against the Ar.*, II, 66.

[لأن الكلمة إذ رأى أنه ما من وسيلة لرفع الفساد عن الإنسان إلا بالموت كحالة ضرورية، بينما في نفس الوقت كان مستحيلاً على الكلمة أن يجوز الموت، لأنه غير قابل للموت باعتباره ابن الله، من أجل هذا اتخذ له جسداً قابلاً للموت، حتى بهذا الجسد الذي اشترك فيه الكلمة الذي هو فوق الجميع يستطيع أن يكون كفوفاً للموت عن الجميع، وفي نفس الوقت يرى أنه بسبب "الكلمة" الذي أتى واتحد به صار الجسد غير قابل للفساد، ومن ذلك فصاعداً أمكن أن يرفع الفساد عن الجميع بنعمة القيامة.

وهكذا فإن الكلمة بتقديم جسده - الذي أخذه - كتقدمة *prosforē* خالية من أي دنس، رفع وأباد في الحال (حكم) الموت عن كل نظرائه بتقديم المعادل والبديل! (مفهوم واقعي بديع للفداء).

لأن "كلمة الله" كونه أعلى من الجميع، صار من الطبيعي أن يكون موته بتقديم هيكله الخصوصي كوسيلة جسدية من أجل حياة الجميع كافياً لتسديد الدين عن الجميع (مفهوم بديع عن الخلاص بتسديد الدين).

وبذلك فإن ابن الله غير القابل للفساد، لما اشترك مع الجميع بذات الطبيعة البشرية، ألبس الجميع عدم الفساد عينه بوعده القيامة! (مفهوم بديع عن معنى الخلاص بالخروج من دائرة الفساد).

لذلك فإن الفساد الحقيقي (الهلاك) القائم في الموت لم يعد له أساس أو علة للوجود ضد الإنسان، بسبب "الكلمة" الذي بجسده الواحد جاء وسكن بيننا ... لأن جنس البشر كان سيسير إلى العدم لو لم يأت الرب مخلص الجميع ابن الله - ويحل بيننا ويواجه الموت ويضع النهاية له. (مفهوم بديع للخلاص كغلبة الموت).] (763)

(762) Athanas., *C. Ar.*, II, 7.

(763) Athanas., *Incar. of the Word*, 9.

وهي تساوي فعل التقديم السابق مضافاً إليه عنصر الألم حتى الموت!
[فالعالم كان في ما سبق مُداناً، وكان تحت القضاء والدينونة من قِبَل الناموس،
وأما الآن فقد وضع "الكلمة" على نفسه عقاب الدينونة هذه، وإذ تألم في
الجسد من أجل الجميع منح الخلاص للجميع.] (765)

[وبالأكثر جدًّا الإله "الكلمة" الذي للأب الكلي الصلاح لا يمكن أن يهمل
الجنس البشري، عمل يديه، ليسير نحو الهلاك والفساد، ولكنه لما محا الموت
بواسطة تقديم جسده الخاص هكذا، أصلح إهمال الإنسان بتعليمه. فأعاد كل ما
كان للإنسان بقوته الخاصة.]

وهذا كله يتأكد لنا بواسطة كلمات بولس الرسول: «لأن محبة المسيح
تحصرنا، إذ نحسب هذا أنه إن كان واحد قد مات لأجل الجميع فالجميع إذاً
ماتوا، وهو مات لأجل الجميع كي يعيش الأحياء في ما بعد، لا لأنفسهم، بل
للذي مات لأجلهم وقام» (2كو 5:14 و15). كما يقول أيضاً: «ولكن الذي
وُضع أقل (بسبب التجسّد) عن الملائكة قليلاً (زمن)، يسوع، نراه مكلّلاً بالمجد
والكرامة من أجل "ألم الموت" لكي "يذوق" بنعمة الله الموت لأجل كل
واحد.» (انظر: عب 2:9)

ولكن بولس الرسول يعود ويوضّح السبب الذي من أجله كان يلزم أن لا يتجسّد
أحد آخر سوى الإله الكلمة نفسه هكذا: «لأنه كان يليق به، ذلك الذي الكل به كان
ومن أجله كان الكل، أن يأتي بأبناء كثيرين إلى المجد، أن يكمل رئيس خلاصهم
بالآلام.» (انظر: عب 2:10)

وبهذه الكلمات كان بولس الرسول يعني أنه كان لا يخص أحداً آخر قط أن
يستعيد الإنسان مرّة أخرى من حالة الفساد الذي حدث، إلا "كلمة الله" الذي صنع

(764) يلاحظ القارئ أن هناك فرقاً أو تمييزاً بين "التقدمة" و"الذبيحة". فالتقدمة تتم أولاً ثم تُرفع
كذبيحة أمام الله، هذا ورد في التقليد الليتورجي القديم، فإن القداًس يبدأ بتقديم الحمل، وهذا عمل ليتورجي
قائم بذاته، ثم يليه قداًس الذبيحة. في تقديم الحمل يتحوّل الخبز والخمر إلى حمل مهياً للذبيحة prosfor
في القداًس يُذبح الحمل وتُرفع الذبيحة عاق.sia

الإنسان منذ البدء!

وأنة لكي تقدّم ذبيحة عن الأجساد، التي هي مثل جسده، لزم أن «الكلمة» نفسه يتخذ جسداً أيضاً، وهذا أيضاً يشير إليه بولس الرسول هكذا: «لأنه كما أن الأولاد متشاركون في اللحم والدم، فإنه هو نفسه أيضاً اشترك مثلهم في نفس الشيء، لكي يبيد بالموت ذلك الذي له سلطان الموت، أي إبليس، حتى يتسنى له أن يخلص أولئك الذين بسبب الخوف من الموت كانوا كل أيام حياتهم تحت العبودية.» (انظر: عب 2: 14 و15)

لأنه بذبيحة جسده الخاص صنع أمرين معاً: الأول: وضع النهاية للناموس الذي كان ضدًا لنا؛ وثانياً: جعل لنا بداية جديدة للحياة بالرجاء في القيامة التي أعطاها لنا.

لأنه من حيث أن الموت ساد على كل الناس بواسطة إنسان، هكذا حدث العكس، أي كلمة الله، إذ قد صار إنساناً حصل على إبادة الموت وقيامه الحياة، كما قال بولس الإنسان الحامل للمسيح: «فإنه إذ الموت بإنسان بإنسان أيضاً قيامة الأموات.» (1كو 15: 21)

«لأنه كما في آدم يموت الجميع هكذا في المسيح سيصير الجميع أحياء.» (1كو 15: 22)

... وهذا هو السبب الأول الذي من أجله صار المخلص إنساناً. [766]

ثم من هذه الاتجاهات التي ركّز عليها القديس أثناسيوس، نستطيع أن نلخص نقط الارتكاز الأساسية في هذه الكلمات: الموت والحياة، الفساد وعدم الفساد.

ولكن هناك دقائق هامة جداً في عرض أثناسيوس لأفكاره عن الخلاص تستلزم الفهم والتدقيق، وسنعرض لها باختصار:

حالة الإنسان الأولى وما آلت إليه وما أعوزها (في إطار معنى الخلاص)

يؤكد أثناسيوس أن مجمل حالة الإنسان الأولى (أي خلقه آدم) لم تكن بحسب

عناصر الطبيعة (Nature) فقط، لأن الطبيعة المجردة قابلة للفساد ra zfq وبالتالي للزوال، لذلك وهب الله "الكلمة" للإنسان لكي تكون خلقته على صورة الله - غير زائلة - أي "غير فاسدة" (وهذا ينطبق تماماً وبالحرف الواحد على التقليد الليتورجي الوارد في قداس القديس باسيليوس القبطي، الذي يبدأ بقوله: [يا الله العظيم الأبدي الذي جَبَلَ الإنسان على غير فساد. (ونصها اليوناني في القداس القبطي الأصيل: الذي خلق الإنسان على الخلود)].

وهنا يفترق أثناسيوس عن اللاهوت المعاصر الآن (وخاصة اللاهوت الكاثوليكي) الذي يقول بأن الإنسان بالخلقة الأولى وُهب - كاستثناء - عطية فائقة لطبيعته - يمكن أن يفقدها فيعود إلى طبيعته (الترايبية) الزائلة.

أمّا أثناسيوس فيقول إن خلقة الإنسان الأولى كانت على صورة الله منذ الخلق أي بموهبة "الكلمة". لذلك فالإنسان يستحيل أن يفقد فعل وصورة "الكلمة" لأنها من صميم خلقته، ولا يمكن أن تفارقه فيصير الإنسان إلى زوال، إنما يمكن فقط ان تضعف أو تتلف ولكن لا يمكن أن تُفقد بالكلية! (767) أي صورة الله لا تمحى مطلقاً - فيتحول الإنسان إلى الزوال - حتى من أشر الناس، ولكنها تتشوّه (بمعنى أن يفقد الإنسان المعرفة ذات البصيرة النيرة التي يعرف بها الحق من الباطل إثر خطية معرفة الخير والشر التي أكلها فترسّبت في عقله وليس في بطنه)، وبالتالي يفقد الصفات التي هي أصلاً إلهية ووُهبّت له كنعمة مجّانية، مثل الحب الإلهي والتواضع والوداعة والطاعة والسلام والفرح وطول الأناة والشكر والتسبيح الدائم إلخ. ولكن يستحيل أن يفقد صورة الله وأهم مميزاتها الجوهرية - الخلود (768).

وفي هذا يقول أثناسيوس:

[إن هذا يشبه صورة لإنسان رُسمت على لوحة، ثم حدث أن تشوّهت بأصباغ خارجية، هنا يصبح من اللازم حضور صاحب الصورة مرّة أخرى حتى يتسنّى تجديد صورة الوجه على ذات الخشب. كذلك فإنه بسبب كرامة الصورة يصبح من غير اللائق أن تُلغى اللوحة الخشبية المرسوم عليها

(767) Ibid. ch. 14.

(768) المؤلف.

الصورة - حتى ولو تشوّهت - بل يكون من اللائق إعادة تجديد ملامح الصورة عليها.

هكذا، وبنفس المعنى، فإن القدوس ابن الله إذ هو صورة الآب جاء إلى عالمنا ليجدّد الإنسان المصنوع على صورته ويوجده (يعيده إلى الوجود الإلهي) كواحد قد ضل، ولكن لم يُزل وذلك عن طريق رفع (مغفرة) خطاياها (الصبغة التي شوّهت الصورة) كما قال الرب نفسه: «لأن ابن الإنسان قد جاء لكي يطلب ويخلص ما قد هلك.» (لو 10:19)

من أجل هذا قال لليهود أيضاً: «إذا لم يولد الإنسان ثانية (من جديد)» (يو 3: 3و5)، وهو لا يقصد كما ظنوا أنه ميلاد من امرأة ولكن يتكلّم عن النفس التي تولد وتخلق من جديد على شبه صورة الله ...

فإذا كانت معرفة الله قد أخفيت، فعلى مَنْ تُلقى مسؤولية تعريف العالم بالآب؟ ... والإنسان ليس في مقدوره أن يواجه غش وخداع الأرواح الشريرة المضلّة؟ أو كيف يتوقّر للإنسان أن ينتصر على ما هو فوق حدود قدرة نفسه وعقله، في حين أنه لا يستطيع حتى أن يراها؟ أو كيف يستطيع الإنسان أن يغيّر في أمور لا يراها (النفس والعقل)؟

فإذا قال قائل إن في الخليقة ما يكفيها للقيام بذلك، ولكن إن كان في الخليقة حقاً هذه القدرة لكان من المستحيل على هذه الشرور العظيمة أن تحدث للإنسان.

لأن الخليقة بينما كانت بكامل إمكاناتها، إذا بالإنسان يتدهور ويقع في هذه الأخطاء بالنسبة لله.

فإلى مَنْ تكون الحاجة؟ أو فمن ذا يكون المنقذ - إلاّ "كلمة الله" وهو الوحيد الذي يرى النفس والعقل والذي يهب الحركة لكل ما في الخليقة؟ وبواسطتها يعلن الآب؟

لأنه هو الذي كان - منذ البدء - يعلم البشر عن الآب بتدبيره لكل شيء وبأعمال عنايته، وهو أيضاً الذي يستطيع أن يجدّد هذا التعليم عينه.

... ولكن (وبالرغم من ذلك) فالبشر فقدوا الرؤيا نحو السمائيات والتفتوا

نحو الأرضيات، لذلك وهو راغب في أن يربح الإنسان لنفسه جاء إلينا متغرباً
كإنسان، أخذاً لنفسه جسداً كالأخرين ومن الأرضيات، أي بأعمال جسده
(إنسانيته) بدأ يعلمهم حتى إن ما كان قد تعدّر عليهم أن يدركوه من خلال
تدبيره وعنايته الفائقة الروحانية وسلطانه على كل شيء، فإنهم لا يخفقون في
إدراكه “ككلمة الله متجسداً” من خلال الأعمال التي قام بها بجسده الحقيقي
وبالتالي يدركون الآب أيضاً. [769]

ومرة أخرى يعود أثناسيوس بعد ذلك بزمان طويل ويؤكد ويكرّر:
[لأنه بالرغم من أننا مخلوقون على صورة الله ومدعون معاً كصورة الله
لمجده، ولكن ليس هذا كأنه لنا من نواتنا أو لحسابنا ولكن لحساب الصورة
الحقيقية والمجد الحقيقي الذي لله الساكن فينا الذي هو “كلمته” الذي من
أجلنا “صار بعد ذلك جسداً” هذا الذي صار لنا كنعمة امتيازنا (عن كل
الخلائق الأخرى). [770]

على أن التصدّع الذي حدث في صورة الإنسان بالمخالفة لوصية الله، الأمر الذي
انتهى بالإنسان إلى الالتصاق بالأرضيات عوضاً عن الرؤيا والتأمل السمائي
qewr...a tîn qe<wn (771)، طوّح بالإنسان فكراً نحو فقدان الله الذي هو نفسه عدم
الوجود (772) (في حضرة الله).

ولكن بحسب الواقع كان هذا الابتعاد عن صورة الله يتم تدريجياً نحو الفساد
razfq وهذا كان في حقيقته عملية خطيرة تسير بالإنسان نحو فقدان الله كلية -
وكان أثرها الواضح والمباشر هو ازدياد الجهل بالله الموازي لتشوّه صورة e:kwn
“الكلمة” أي اللوغس الساكن في الإنسان (الذي يعطيه الإدراك والمنطق والبصيرة
والرؤيا الصحيحة) الذي كان الإنسان بواسطته، وبواسطته فقط، يقرأ ويستعلن الله
ذاته في العالم كما في كتاب مفتوح (773).

(769) Athanas., Inc. of the Word, ch. 14.

(770) *Discours. against. Ar.*, III. 10., N.P.N.F. Series II, p. 399.

(771) *Contr. Gent.*, 3.

(772) *De Incar.*, 4.

(773) *C. Gent.*, 34 fin.

ومن هذا العرض السريع والمختصر، ندرك أن القديس أثناسيوس يركّز في الأساس - من جهة التغيير إلى أسفل الذي أصاب الإنسان - على الناحية المرضية pathological التي أصابت طبيعة الإنسان، فوق كل الآثار الأخرى الجانبية المترتبة على ذلك مثل النواحي الأخلاقية والسلوكية - مؤكداً أن صورة الله في الإنسان لم تفنّ بل تشوّهت.

وهو يتبع بذلك الخط الواضح الذي يؤكّده الإنجيل من أقوال الرب: “فلما سمع يسوع قال لهم: لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى ... لأنني لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة.” (مت 9:12 و13).

كذلك أوضح أثناسيوس جداً أن هناك تصدعاً أصاب الطبيعة البشرية بسبب الخطية، أوردتها موارد الهلاك والفساد، وكان يسير بها نحو فقدان الله نهائياً، وأصبح الحل الوحيد والحاجة الوحيدة متركّزة في تغيير جذري تجوزه الطبيعة البشرية، لا يمكن أن يتم إلا بتجديد التحام العنصر الإلهي أي الصورة الأصلية “الكلمة” في صميم هذه الطبيعة البشرية، كما كان سابقاً، والذي فقدته البشرية (بالموت) تدريجياً، وصارت تسير بدونه نحو الحرمان الكلي من الحياة في الله أو الوجود معه (774) الذي هو الهلاك.

وهو يوضّح ذلك أيضاً هكذا:

[إنه سابقاً لم يكن شيء موجوداً على الإطلاق، فكان المطلوب لخلقة كل شيء هو مجرد نطق ملكي، ثم الإرادة الإلهية لإتمام ذلك.

ولكن بعد أن خلق الإنسان، وأصبح الأمر يحتاج بحسب الواقع إلى علاج ما هو قائم وموجود وليس ما هو غير موجود؛ دعت الضرورة أن يظهر الطبيب والمخلص في الخليقة الموجودة التي وصلت إلى تلك الحال، لكي يشفي ما حدث، لهذا السبب بالذات صار هو إنساناً واستخدم جسده كوسيلة بشرية ...

لأن الخلاص لم يكن مطلوباً لأشياء ليس لها وجود، حتى كان يكفي مجرد صدور أمر إلهي به؛ ولكنه (صار) مطلوباً للإنسان، الذي كان موجوداً بالفعل

وكان منحدرًا إلى الفساد والهلاك، لهذا كان من الطبيعي ومن العدل أن يستخدم "الكلمة" وسيلة بشرية ويعلن نفسه جهاراً.

ثم يلزم أن ندرك أن الفساد الذي دخل الطبيعة البشرية لم يكن خارج الجسد، بل صار ضارباً فيه، فصار الجسد في حاجة إلى أنه عوض الفساد والموت تدخل فيه الحياة وتمسك به، حتى كما ملك الموت في الجسد تملك فيه الحياة بالمقابل.

والآن إذا كان الموت عنصراً خارجاً عن الجسد، لكان من اللائق أن تكون الحياة المطلوبة له عنصراً يأتيه من الخارج. ولكن إذا كان الموت ربط الجسد وأصابه في الصميم وصار سائداً عليه وكأنه قد اتحد به، أصبح من الحاجة أن تكون الحياة (الكلمة) مربوطة في صميم الجسد (التجسد) حتى يتسنى للجسد وقد لبس الحياة عوض الموت أن يلقي عنه الفساد ويتخلص منه.

بل وحتى لو فرضنا أن "كلمة الله" قد جاء بدون جسد (أي خارج الجسد) وليس في الجسد، لكان قادراً أن يهزم الموت تماماً بحسب طبيعة الكلمة، لأن الموت ليس له سلطان البتة على الحياة (مصدر الحياة). ولكن حتى ولو حدث ذلك لظل الفساد عالقاً بالجسد البشري!!

من أجل هذا نجد أنه بحكمة لبس الكلمة جسداً حتى إذا ارتبط الجسد وثيقاً بالحياة لا يعود بعد كمائت يسكن في الموت؛ بل إذ يلبس عدم الموت، يُعطى له أن يقوم ثانية في القيامة ويبقى غير مانت.

لأن الجسد بمقتضى أنه لبس الفساد، كان يستحيل عليه أن يقوم ثانية من الموت، إلا إذا (نفض عنه الفساد) ولبس الحياة.

ولأن الموت لا يمكن بأي حال من الأحوال بمقتضى طبيعته أن يظهر إلا في جسد، لهذا لبس "كلمة الله" جسداً لكي يواجه الموت بالجسد ويظفر به ويغلبه. أو كيف للرب - على أي حال - أن يُثبت أنه الحياة، إن لم يكن قد أقام ما هو مانت؟ [775]

ثالثاً: موت المسيح على الصليب عند أثناسيوس في إطار معنى الخلاص

كان همُّ أثناسيوس الذي يحرِّك فكره وقلمه في بداية حياته، أن يثبت للوثنيين حتمية تجسُّد “كلمة الله” لتكميل خلاص الإنسان. لذلك فالبؤرة التي كانت تجمع كل أفكار أثناسيوس وتشعُّها لم تكن الصليب، بل التجسُّد. ولكن بطبيعة الحال لم يغب عن أثناسيوس ولا إلى لحظة واحدة أن التجسُّد غايته الأولى هي خلاص الإنسان، هذا الخلاص الذي يستحيل أن يتم إلا بموت المسيح.

فالإنسان أقحم نفسه في دائرة الموت متورطاً في التعدي، فوقع تحت حكم الموت، ولذلك أصبح تكميل الحكم بالموت على كل إنسان أمراً حتمياً، وهذا أكمله المسيح في نفسه عن كل إنسان!! ويلاحظ القارئ هنا ربط الخطية بالموت والخلاص الذي يقدِّمه أثناسيوس بمنتهى الوضوح والتسلسل اللاهوتي:

[وأرسل ابنه الخاص، وهذا باتخاذ نفسه جسداً من خليقته صار ابناً للإنسان. وبينما الكل ساقط تحت حكم الموت، إلا أنه كونه غير هؤلاء جميعاً، وقد قدّم للموت جسده الخاص؛ صار الكل فيه وكأنهم ماتوا جميعاً، وهكذا كملت الكلمة القائلة «لأن الكل مات في المسيح» (2كو 5:14)، والكل أصبح فيه أحراراً من الخطية ومبرئين من اللعنة التي أتت على الجسد، يقومون من الموت لابسين عدم الموت في غير فساد ليدوموا إلى الأبد.

لأن الكلمة لمَّا لبس الجسد صارت كل عضة للحية عديمة الفاعلية، إذ أوقف مفعولها نهائياً منه، بل وكل شر ناتج من حركة الجسد انقطع تيَّاره في الحال، ومع هذا وذلك، أبطل مفعول الموت الذي هو رفيق الخطية، كما قال الرب نفسه: «رئيس هذا العالم يأتي وليس له فيَّ شيء» (يو 14:30)، وأيضاً: «لأجل هذا أظهر ابن الله لكي ينقض أعمال إبليس» (1يو 8:3). ولمَّا أبطلت ونُقضت هذه من الجسد، تحررنا جميعاً بالتالي بسبب قرابتنا واتصالنا بهذا “الجسد” وصرنا متحدين بالكلمة، خاصة من جهة المستقبل.[(776)

وهنا يهمننا جداً أن ننبِّه القارئ، أن أثناسيوس وإن كان يركز بشدة على حقيقة

الموت ذاته كعلة الهلاك والفساد، ويصوّب الخلاص الذي أكمله المسيح على إلغاء وإبادة الموت؛ إلا أن أثناسيوس لا يغفل إطلاقاً مفهوم الخطية باعتبارها العلة المؤدية للموت.

ونحن نختلف تماماً مع العالم اللاهوتي أرشيلد روبرتسن (777) في قوله إن أثناسيوس لم يتغلغل إلى المعنى العميق الذي وصل إليه بولس الرسول في ربط الخطية بالموت بالخلاص في قوله: «لأنه ما كان الناموس عاجزاً عنه، في ما كا ضعيفاً بالجسد (أي بسبب ضعف الجسد البشري)، فالله إذ أرسل ابنه في شبه جسد الخطية، ولأجل الخطية، دان الخطية في الجسد، لكي يتم حكم الناموس فينا، نحن السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح.» (رو 3:8)

لأن القول السابق لأثناسيوس فيه كل الكفاية لرد هذه التهمة عن أثناسيوس، علماً بأن أثناسيوس، ابن الثلاث والعشرين سنة، لم يكتب كتابه هذا "تجسد الكلمة" ليعظ المسيحيين ويرشدهم إلى مفهوم الخلاص، بل كتبه إلى الوثنيين ليثبت لهم أهمية التجسد باعتباره وسيلة وأداة للموت لإبادة الموت كعقوبة، حيث تأتي الخطية في هذا الحوار في الدرجة الثانية بعد التجسد من جهة غرض الكاتب.

وأيضاً نكرّر ما سبق أن قلناه:

[ولكن لما كان ضرورياً أيضاً أن يُوفي الدين الذي استحق على الجميع، لأن الجميع استحقوا الموت (بسبب الخطية)، الأمر الذي من أجله - وكسبب جوهرى حقيقي - أتى المسيح بيننا، لأجل هذا بعد أن قدّم براهين كثيرة عن لاهوته بواسطة أعماله قدّم "ذبيحة نفسه" أيضاً عن الجميع، وإذ سلّم هيكله للموت عوضاً عن الجميع، أولاً لكي يحرّر البشرية من معصيتهم القديمة، وثانياً لكي يُظهر أنه أقوى من الموت وذلك بإظهار أن جسده عديم الفساد، صائراً كباكورة لقيامة الجميع ...

وهكذا أكمل عمليين عجيبين بأن واحد: الأول تكميل موت الجميع في جسد الرب، والثاني قضاؤه على الموت والفساد كلية بسبب اتحاد "الكلمة" بالجسد. لأنه كان لابد من الموت وكان لابد أن يتمم الموت نيابة عن الجميع

لكي يوفي الدين المستحق على الجميع.](778)

وهكذا يوضِّح القديس أنثاسيوس ويؤسِّس بقوة ومنطق لا يُجَارَى كيف كان لابد أن يموت الإنسان، وكيف أن المسيح كمخلِّص مات عن الجميع ليوفي العقوبة، وإذ وقَّى العقوبة بموته ألغى الموت ذاته كعقاب أو كعَرَض من أعراض الفساد اللاحق أساساً باللعنة:

[والآن إذ مات عنا "مخلِّص الجميع" فإننا نحن الذين نؤمن بالمسيح لا نموت بعد - بذات العقاب - الذي كانوا يموتون به سابقاً باستحقاق حسب وعيد الناموس، لأن هذا الحكم قد بطل، ولكن إذ بطل الفساد وأُبيد بنعمة القيامة، من أجل ذلك نحن فقط ننحل بالموت الذي بحسب طبيعة أجسادنا المنحلة بالموت في الميعاد الذي يحدِّده الله لكل واحد، حتى نصير قادرين أن نفوز بقيامة أفضل.](779)

وهنا أيضاً يلزمنا أن ننتبه إلى وجهة نظر أنثاسيوس في تركيزه الشديد على الموت الذي احتمله بالجسد كوسيلة الخلاص الأولى والعظمى.

فأنثاسيوس يرى أن الموت الذي جازه المسيح بالجسد استنفذ كل قوة الموت وسلطانه الذي كان واقعاً ضد الطبيعة البشرية عامة:

[وهكذا إذ أخذ من أجسادنا جسداً من ذات طبيعتها، ولمَّا كان الجميع تحت عقوبة فساد الموت، قدَّم جسده للموت عوضاً عن الجميع وقدَّمه (ذبيحة) للآب، وبهذا قد أبطل أولاً الناموس الذي كان يقضي بهلاك الإنسان (المتعدِّي)، وذلك بأن اعتبر أن الجميع ماتوا بموت المسيح لأن سلطان الموت قد أكمل (استنفذ تماماً) في جسد الرب:

plhrwqe...shj tεjTMxous...ajTMn tù kuriakù sèmati.

فلم يعد له أساس يمسك فيه داخلنا، نحن الذين صرنا نظراءه، لأنه ناب عنا. وثانياً ولأن البشرية انحدرت إلى الفساد، استطاع أن يعود بها نحو عدم الفساد ويحييها من الموت بامتلاك جسده وبنعمة القيامة - التي فيه - ليبطل الموت

(778) *De Incar.*, 20:2,5., N.P.N.F., ser. II, vol. IV, p. 47.

(779) *Ibid.*, 21:1., N.P.N.F., ser. II, vol. IV, p. 47.

وبهذا التصوير الذي بلغ غاية الدقة والإبداع، ينتهي أثناسيوس من تأكيد ملامسة الفساد والموت من طبيعة الإنسان كعدو ترك له العنان مدى الدهر، ليجري وراء الإنسان ويجري بلا رادع حتى يصطدم أخيراً بقوة عظمى تبتلعه وتوقف استمراره! والخلص الذي حازه الإنسان من الموت والفساد هو في الحقيقة انتصار ساحق تمّمه المسيح لنا بثمن باهظ وهو قبوله القصاص واللعنة والموت في جسده، وهو القدوس الرقيق اللطيف الذي بلا عيب ولا غش ولا خطيئة قط، حيث كانت القيامة إعلاناً نهائياً عن هذا الانتصار.

لذلك فموت المسيح يعتبره أثناسيوس أصل ورأس ومبدأ الحياة لنا = $\text{z} \gg \text{z} \text{w} \text{rc}^{3/4}$:
[لأنه بذبيحة جسده وضع حداً لحكم (الموت) الذي كان قائماً ضدنا لنا ووضع لنا مبدأ الحياة = $\text{z} \gg \text{z} \text{w} \text{rc}^{3/4}$ برجاء القيامة من الأموات الذي أعطاه لنا.

لأنه إن كان بإنسان (آدم) قد ساد الموت على البشر: لهذا السبب بتأنس كلمة الله أبطل الموت وتمّت قيامة الحياة ... «فإنه إذ الموت بإنسان، بإنسان أيضاً قيامة الأموات. لأنه كما في آدم يموت الجميع، هكذا في المسيح سيُحيا الجميع» (1كو 15: 21 و22). ونحن الآن لا نموت بعد تحت الدينونة بل كأناس يقومون من الموت ننتظر القيامة العامة للجميع التي سيعينها في وقتها الله الذي تمّمها والذي وهبنا إيّاها.] (781)

ويبلور القديس أثناسيوس العلاقة بين القيامة وبين نهاية الفساد الذي ألمّ بالإنسان هكذا:

[ويصبحون عديمي الفساد بفضل القيامة = $\text{t} \text{ di} \text{ } \text{rto} \text{ i} \text{ } \text{f} \text{q} \text{ } \text{e} \text{ } \text{j}$ $\text{.} \text{[} \text{.} \text{]nast\&sewj}$ (782)]

أمّا دور الصليب كسلاح الانتصار على الموت فيقدّمه لنا القديس أثناسيوس بغاية الوضوح هكذا:

(780) *Incar.*, 8.4., N.P.N.F, ser. II, vol. IV, p. 40.

(781) *Ibid.* 10:5, N.P.N.F, ser. II, vol. IV, p. 41.

(782) *Ibid.* 27.2.

[فإن كان تلاميذ الرب يحتقرون الموت ويتحدّثونه ولا يعودون يخشونه، بل بعلامة الصليب وبالإيمان بالمسيح يدوسونه كميّت ... فهذا برهان غير قليل بل هو بيّنة واضحة على أن الموت قد أُبِيد وأن بالصليب صارت النصرّة عليه، وبالصليب لم يعد للموت سلطان بل قد مات موتاً حقيقياً.]

لأن كل الذين يؤمنون بالمسيح يدوسونه كأنه لا شيء؛ بل ويفضّلون أن يموتوا عن أن ينكروا إيمانهم بالمسيح، لأنهم يعلمون يقيناً أنهم عندما يموتون لا يهلكون بل يبدأون الحياة فعلاً، ويصبحون عديمي الفساد بفضل القيامة ... كذلك فالموت قد قهره المخلّص وشهّر به على الصليب وأوثق يديه ورجليه!!][783]

[فإن كانت الشياطين اعترفت به، وأعماله شهدت له، فلا ينبغي أن يتصّلّف أحد ضد الحق - أن المخلّص أقام جسده، الذي في الأزمنة الأخيرة اتخذ جسداً لخلص الجميع، وعرّف العالم عن الأب، وأبطل الموت ووهب الكل عدم الفساد بموعد القيامة إذ أقام جسده، كباكورة لهذا (لعدم الفساد)، وأظهره (أي أظهر جسده بعد القيامة) كعلامة الظفر على الموت وفساده بواسطة الصليب.][784]

(783) Ibid. 27, 1,2,4, N.P.N.F, ser. II, vol. IV, p. 51.

(784) Ibid. 32.6, N.P.N.F., ser. II, vol. IV, p. 53.

رابعاً: نتيجة غلبة الموت والفساد التي أكملها المسيح لحسابنا

- في إطار معنى الخلاص -

اشترك الإنسان في الطبيعة الإلهية، اتحاد الإنسان بالله،

تأليه الإنسان «qeopoi»sij, qeopoihqîmen,

يجدر بنا هنا أن نشير إلى أن الكنيسة منذ لحظة انطلاقها بأمر الرب العلني وبقوة دفع الروح القدس، وبسلطان إلهي ظهر على لسان بطرس الرسول أنه قادر أن يميت ويحيي بكلمة - كما حدث في حالة حنانيا وسفيرة - هكذا وضحت الكنيسة للعالم أنها إلهية منذ أول لحظة، وهكذا استمرت بالتلاميذ ثم الأنبياء ثم الأساقفة والقديسين تنطق باستعلان إلهي في ما يخص رسالة الخلاص في الإنجيل، وكل نطق إلهي في ما يخص عمل المسيح بالإنجيل حُفظ فيها كقضية مسلّم بها أنها نطق إلهي. وكان هو التقليد: «وإذ كانوا يجتازون في المدن كانوا يسلمونهم القضايا = gmazd التي حكم بها الرسل والكهنة والشيوخ الذين في أورشليم ليحفظوها» (أع 4:16). هذه التي على أساسها كان يُبنى الشرح والتعليم، لا كأنه تعليم اجتهادي، بل كان يُنظر إليه بكل هيبة ووقار أنه تعليم الرب، أو بصورة مختصرة: «كلمة» الله ذاتها.

لهذا فإن التعليم بحسب التقليد الرسولي في الكنيسة في ما يخص الإنجيل والخلاص والكلمة، كان هو المرجع النهائي الثابت غير القابل للنقاش، والمُلمز للمؤمنين، ليس من جهة التصديق العقلي، بل من جهة الحياة المنبثقة منه. وكان هذا هو مفهوم الإيمان De fide قبل أن يصبح له قانون ومجامع.

وهذا يوضّح لنا أن المسيحية إيمان بالتسليم الحي المنحدر من «الكلمة» الحي، عبّر الرسل، أو أن الإيمان هو الكلمة المحيي المنخر بالتقليد وبالإنجيل في الكنيسة، وليست المسيحية موضوع نقاش لاهوتي أو صراع فكري استقر على صورة ما.

فالإيمان كما تقدّمه الكنيسة منذ البدء هو تعليم محيي، هو «الكلمة» نفسه «هو الحق الكلي»، ولا يمكن أن يؤخذ منه جزءٌ ويُترك الآخر، أو أن يكون قابلاً للتغيير والتعديل، وقد وضعته الكنيسة من خلال مجمع نيقية في حدود قاطعة مانعة كما يسميها أثناسيوس:

ذريتا, sor, definitions)roi(785)

وأثناسيوس يوضِّح أيضاً هذه الحقيقة الهامة جداً بقوله:
[إن كلمة الرب التي تُسلِّمت إلينا من خلال المجمع المسكوني في نيقية هي باقية
إلى الأبد.] (786)

وهكذا فإن أثناسيوس حينما يركِّز بشدة على الإيمان بتأله الإنسان، فهو كان
يتمسك بقوة بتقليد الكنيسة القديم من جهة النتيجة المباشرة التي آلت إلى الإنسان
بسبب تجسُّد ابن الله وتأنُّسه ثم موته على الصليب الذي به تبرَّر الإنسان، والقيامة
التي نال بها الإنسان الحياة الأبدية، وهكذا نال الإنسان نصيباً في الطبيعة الإلهية
كنتيجة حتمية.

وهنا يُبرز أثناسيوس الاصطلاح التقليدي الذي أصبح ميراث اللاهوت الشرقي
كله (787):

“تأله الإنسان”، وهو التعبير المقابل للتجسُّد؛ “فالتأنُّس” يقابله “التأله” الذي يعني
في اللاهوت الاتحاد بالله، الذي ابتداء الإعلان الإلهي عنه بإلهامه وتحديد قاطع من
بطرس الرسول في رسالته الثانية 4:1 بتعبير الاشتراك في الطبيعة الإلهية، ثم التزم به
الآباء إيرينيئوس ومن بعده، وامتد عبر هيوليئوس وأوريجانوس وآباء آسيا الصغرى
إلى أثناسيوس الذي بلغ به إلى القمة من جهة البرهان والشرح والتوضيح.

وهنا ينقسم مفهوم “الاتحاد بالله” أي “التأله” في اللاهوت الشرقي إلى اتجاهين:

(785) Athanas., *De Decr.* II.

(786) Ibid., *Ad Afros.*, 1,2.

(787) St. Irenaeus, *Adv. Haer.* IV. 38:4, V ix,2.

Origen, *cels.* iii.28.

St. Greg. Naz., *Poem dogma* X:5-9.

St. Greg. Nyss., *Oratio Catech.* XXV.

St. Cyr. Alex., *in Joan.*

Harnack, *op. cit.*, Dog. II p. 46.

الأول:

أوريغاني، حيث يعتبر أوريغانوس أن أعلى ما يهدف إليه الإنسان هو أن يعود إلى مصدره الأول بحالته الأولى التي خلق عليها.

الثاني:

عند إيرينيئوس وآباء آسيا الصغرى، وهو يختلف تماماً عن أوريغانوس. فإن الإنسان عندهم خلق لغاية لم يستطع أن يحققها إطلاقاً، وأن فترة الاضطراب العظمى التي وقع فيها الإنسان بسبب دخول عنصر الخطية عليه قد أصلحه وشفاه التجسّد. والتجسّد هو الذي حمل الإنسان إلى رأس آخر (المسيح) جديد، غير رأسه الأول آدم الذي انحدر منه، وبذلك فإن التجسّد حمل الإنسان إلى غاية جديدة أخرى كان يستحيل عليه أن يبلغها لو بقي تحت رئاسته الأولى القديمة.

وباختصار نستطيع أن نضع هاتين النظريتين هكذا:

- 1 - عند أوريغانوس كان التجسّد لعودة الإنسان "إلى" حالته الأولى.
- 2 - عند إيرينيئوس وأثناسيوس كان التجسّد لتقدّم الإنسان وامتداده فوق حالته الأولى.

وهذا التركيز على هذه الرؤية اللاهوتية بالنسبة لأثناسيوس كان مدخلاً ضمن أسلحته الماهرة لتحطيم الفلسفة العقلانية التي للأريوسيين، التي تؤكد على أن اللاهوت عند أثناسيوس بالذات لا ينحصر في دائرة المعرفة Gnosticism، لكنه يخرقها سريعاً ليبلغ الغاية الحقيقية من الخلق ومن التجسّد التي تفوق قامة المعرفة البشرية، بل وكل ما للإنسان، وهي الاتحاد بالله، التي يسمّيها اللاهوتيون الأوائل ذوو الجراءة في الإيمان والتعبير "بالتأله"، التي يُقصد منها بحسب التفسير عامة "الاتحاد بالله" أو أحياناً وبصورة خافتة "التبني" لله، أو بحسب تعبير بولس الرسول "ورثة مع المسيح في الله"؛ والتأله هو المقابل المتحصّل من التأس. فكما أن المسيح أخذ بالاتحاد بالجسد البشري كل ما للإنسان (ما عدا الخطية طبعاً ولو أنه حمل عقوبتها)، كذلك فالإتحاد بالمسيح يعطينا كل ما لله أو بحسب تعبير بولس الرسول نأخذ "كل ملء الله"، كما تقول التسبحة السنوية المقدّسة: [هو أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له. فلنسبّحه ونمجّده ونزده علواً].

والمسألة في أمر "التأله"، أي الاتحاد بالله، ليست هينة، فهي تختص بالإيمان كله وبمنهج العبادة والصلاة والاتصال بالله في الصميم. فلكي نعرف الله لا بد أن نقترّب منه، ويستحيل الاقتراب من الله إلا عن طريق "الكلمة" والروح، وهذا هو - الاتصال - الذي يؤدي إلى كشف طرق الحكمة الإلهية والذي عليه يبني الإنسان فكره وسلوكه، وهو "الاتحاد بالله" المعتبر هبة الكمال التي أهلت لها طبيعة الإنسان بواسطة "الكلمة"، لما قيل أن يتحد بجسد إنسان أي يتأنس، فتأنس الله أعطى فرصة لتأله الإنسان، مع تحفظات في المفهوم اللاهوتي، حيث أن التأله لا يُخرج الإنسان عن إنسانيته ولا يستنفذ كل ما لله، حيث ما يتحصّل عليه الإنسان من الاتحاد بالله لا يوصله إلا إلى كمال صورة الله الذي خلقه عليها ليبلغها في النهاية، والتي لا يمكن أن تتم إلا بالاشتراك في الحياة الأبدية.

وبحسب أناسيوس فإن آدم لم يحقّق غاية رسالته وأخفق في الاحتفاظ بمعرفة الله بسبب استخدامه لحريته، ووقع فريسة لقوة أخرى خارجية، وفقد قوة "الكلمة" لما انحاز لمعرفة غير معرفة الله، وبالتالي فقد كل أمل في تحقيق الاتحاد بالله وهي غاية خلقته. من أجل هذا تجسّد "الكلمة" لكي يرفع الإنسان مرّة أخرى إلى معرفة الله الحقّة، وبالتالي استرد له ما كان له من قدرة على الاتحاد بالله "التأله" ولكن بنعمة عظيمة، لأن تجسّد الكلمة وبقائه في جسد إنسان الذي يجلس به المسيح الآن عن يمين العظمة في الأعالي أعطى ضماناً للإنسان لتكميل الاتحاد بالله والثبوت فيه بالفداء، وإنما على طول المدى، لأنه يستحيل بلوغ كمال نعمة الاتحاد بالله قبل أن يخلع الإنسان جسد الموت الفاسد ويلبس عدم الموت وعدم الفساد. «أيها الأحياء، الآن نحن أولاد الله ولم يُظهر بعد ماذا سنكون ولكن نعلم أنه إذا أظهر (المسيح) نكون مثله لأننا سنراه كما "هو".» (1يو 3:2)

على أن كل ما أخذه كلمة الله من الإنسان بالتجسّد قدّمة للإنسان وجعله قابلاً للاتحاد بالله (التأله) جسداً ونفساً وعقلاً وروحاً، أي كل طبيعته!! كذلك فإن كل ما استرده المسيح لنا - بصفة عامة وليست فردية - أصبح غير قابل للضياع أو فقدان الناتج من ضعف طبيعتنا، فالمسيح لا يمكن أن يفقد ما اكتسبه لنا بسبب أخطائنا نحن، وهذه هي صفات الخليقة الجديدة التي هو رأسها والضامن لتحقيقها!!

[لأنه بالموت الذي (جازه) وصل عدم الموت إلى الجميع، ولأنه بتأنس الكلمة عرّفت العناية الإلهية العامة للإنسان بكل شيء، كما عرف الإنسان واهبها وبارئها أي كلمة الله نفسه، لأنه صار إنساناً لكي نصير نحن فيه إلهاً، وأظهر نفسه في جسد لكي يستعلن لنا الأب غير المنظور.] (788)

[فالبشرية تكملت فيه - أي بلغت كمالها - فهي استردت ما كانت عليه في خلقها منذ البدء، ولكن بنعمة أكبر! لأنه عندما نقوم من الأموات فلن نخاف الموت في ما بعد، بل سنملك مع المسيح إلى الأبد في السموات.] (789)

وواضح جداً من تعبيرات أثناسيوس من جهة "التأله" للطبيعة البشرية أنه يعني الاتحاد بالله، الأمر الذي أوضحه القديس بطرس الرسول بمعنى: "لتصيروا شركاء الطبيعة الإلهية"، وهذا يُرجعه أثناسيوس إلى ما أكمله الكلمة في نفسه بالتجسد ليضمن خلاصنا.

[الكلمة صار جسداً لكي يقدم جسده من أجل الجميع، ولكي إذا ما نحن اشتركنا في روحه القدوس نصير آلهة (شركاء في الطبيعة الإلهية).] (790)

[إنه لم يكن إنساناً وصار إلهاً بعد ذلك، بل هو إله صار إنساناً لكي يصيرنا نحن آلهة (فيه) (شركاء في الطبيعة الإلهية).] (791)

[هذه هي النعمة التي صارت إلينا والارتفاع الذي حدث لنا، لأنه لما صار إنساناً صار ابن الله يُعبد، فصرنا نحن معه جسداً واحداً، ولكن لم تفرع منا القوات السماوية حينما أدخلنا إلى مجالاتهم.] (792)

[ومن أجل صلاتنا بجسده صرنا نحن أيضاً هيكلًا لله، وبالتالي صرنا أبناء الله، حتى أن الرب المعبود محسوب أنه داخلنا أيضاً، والذين ينظروننا يقولون: «إن الله فيهم بالحقيقة».] (793)

(788) *De Incar.*, 54. 2,3. N.P.N.F., ser. II, vol. IV, p. 65.

(789) *Discourse Against Ar.*, II. 67.

(790) Athanas., *De Decr.*, 14.

(791) *Idem.*, *C. Ar.*, 1. 39.

(792) *Ibid.*, *C. Ar.*, 1. 42.

(793) *Ibid.*, *C. Ar.*, 1. 43.

[وبالرغم من أنه لا يوجد إلا ابن واحد لله بالطبيعة، حقيقي ووحيد، إلا أننا نحن أيضاً صرنا أبناءً ... فبالرغم من أننا بشر من الأرض، إلا أننا ندعى الآن آلهة ... لأن في هذا كانت مسرة الله الذي أعطانا هذه النعمة.] (794)

[ونحن نحسب أولاد الله وآلهة، بسبب أن "الكلمة" فينا. فإننا نحسب أيضاً أننا في الابن وفي الأب، لأن الروح القدس فينا.] (795)

[نحن البشر جعلنا آلهة بالكلمة، بسبب أننا اتحدنا به من خلال جسده.] (796)
[وما هذا السمو والتقدم الذي صار لنا إلا التآليه والنعمة التي وهبت لنا من الحكمة.] (797)

[من أجل ذلك اتخذ جسداً إنسانياً حتى إذا ما جدده لنفسه (كخالق) له حينئذ يؤلّفه في ذاته = $\kappa\tau\mu\eta\sigma\upsilon\upsilon\sigma\epsilon\iota\sigma$ autò qeopoi»s. وبهذا يحضرنا جميعاً إلى ملكوت السموات على مثاله. (أي ما صار له بالجسد جعله لنا أيضاً) لأن الإنسان كان لا يمكن أن يتأله (يتحد بالله) إن كان اتحاده يتم بمخلوق، أو أن يكون ابن الله ليس إلهاً، وكذلك لا يمكن أن يأتي "إنسان" إلى حضرة الله إذا لم يكن هو كلمته الحقيقية ومن جوهره وقد لبس جسداً.

وكما أنه كان يستحيل علينا أن نتخلص من اللعنة والخطية إن لم يكن الجسد الذي اتخذته الكلمة هو جسد بشري، إذ يستحيل أن تكون لنا شركة بيننا وبين آخر غريب عنا (عن طبيعتنا)، كذلك أيضاً فالإنسان يستحيل أن يتأله (يتحد بالله) إن لم يكن الكلمة الذي صار جسداً هو من جوهر الأب. لأن اتحاد الإنسان بالله هو من هذا النوع، حتى يمكنه أن يوحد (يتحد) ما هو لطبيعة الإنسان بنفسه الذي هو بطبيعة الله (أو هو إله بطبيعته)، وهكذا يصير خلاص الإنسان وتألهه (أي اتحاده بالله) مؤكداً ومضموناً.] (798)

كذلك من الواضح أن أثناسيوس يؤكد أن تأليه الإنسان لا يتم خارجاً عن المسيح،

(794) Ibid., C. Ar., III. 19.

(795) Ibid., C. Ar., III. 25.

(796) Ibid., C. Ar., III. 34.

(797) Ibid., C. Ar., III. 53.

(798) Discourse, II:70.

كما يستحيل أن يكون عملاً قائماً بحد ذاته، بل إن تأليه الإنسان يتم “في المسيح” - بالإيمان والأسرار - وخارجاً عن المسيح يستحيل أن يتم أي اتحاد أو حتى اقتراب من الله!! لأن الاتحاد بالله يستلزم أولاً تخلُّص الإنسان من كل أخطائه، وهذا أكمله المسيح بموته على الصليب غاسلاً بدمه كل خطايا الإنسان التي كانت تعوق الاتحاد بالله.

[فإذا كان الله قد أرسل ابنه مولوداً من امرأة، فهذه الحقيقة لا تخجلنا، بل على النقيض تعطينا مجداً ونعمة عظيماً لأنه صار إنساناً حتى يستطيع أن يولدها (يوحنا باله) في ذاته، وولد من عذراء حتى يأخذ على نفسه خطأ جنسنا، حتى نصير نحن من الآن فصاعداً جنساً مختاراً و”شركاء في الطبيعة الإلهية” كما يقول المغبوط بطرس (2بط 1:4).] (799)

ومرة أخرى يوضِّح أثناسيوس أن هذا الاتحاد بالله يتم عن طريق الروح القدس أيضاً:

[وفضلاً عن هذا فإننا بالروح القدس نشترك كلنا في الله لأنه يقول: “أما تعلمون أنكم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم. إن كان أحد يفسد هيكل الله فسيفسده الله لأن هيكل الله مقدس الذي أنتم هو” (1كو 3: 16 و17)، ونظراً لأننا دُعينا شركاء المسيح - «أمين هو الله الذي به دعيتم إلى شركة ابنه» (1كو 9: 1) - وإن كنا بالاشتراك في الروح القدس نصبح “شركاء الطبيعة الإلهية” فمن الجنون أن نقول إن الروح القدس له طبيعة مخلوقة أو أنه ليس له طبيعة الله، لأن الذين فيهم الروح القدس، هؤلاء يصيرون آلهة، (أي مشتركون في الطبيعة الإلهية) فإن كان الروح القدس يجعل الناس آلهة، فلا شك أن طبيعته هي طبيعة إلهية.]

ومن أقوال أثناسيوس هذه يتضح لنا أن موضوع اتحاد الإنسان بالله “التأليه” هو حقيقة غير منازع فيها، بل وبالأكثر فإنه يتخذها أساساً وبرهاناً على أن الروح القدس نفسه له طبيعة الله، مما يوضِّح أن موضوع اتحاد الإنسان في الله بواسطة الشركة في المسيح والروح القدس هو حقيقة أساسية في اللاهوت، وتقليد كنسي راسخ منذ الآباء

الأوائل يوستينوس وبوليكاربوس وإغناطيوس وإيرينيئوس وهيبوليتس وترتليان، الذين اعتبروا الخلاص مستحيلاً وغير مضمون إذا لم يبلغ الإنسان هذا الاتحاد بالله بالروح القدس و"الكلمة" والأسرار.

ولئلاً يتوه أحد في معنى "تأليه الإنسان" - الذي لا يفهم منه إلا انتساب الإنسان لله - ولئلاً يظن أحد أن "تأليه الإنسان" عمل يُخرج الإنسان عن إنسانيته أو يغيّر شيئاً من طبيعته الإنسانية، يعود أثناسيوس ويوضح جداً هذا الأمر هكذا:

[إن الأب بواسطة الابن يؤلّه ويضيء الجميع ...، فالذي به ينال الجميع الألوهة والحياة كيف يمكن أن يكون هو (الابن) من جوهر مخالف لجوهر الأب؟] (800)

[ولكن ليس بحسب الطبيعة نكون أبناء الله، بل بسبب الابن الوحيد الذي يكون فينا. وكذلك أيضاً الأب لا يكون أباً لنا بحسب الطبيعة، بل لأنه أبٌ للكلمة الذي يكون فينا، الذي به وفيه نصرخ يا أبا الأب. وهكذا الأب لا يدعو أبناءً له إلا الذي يرى فيهم ابنه الوحيد.] (801)

[إذن، فالروح هو الذي في الله، ولسنا نحن من أنفسنا نكون في الله، ولكن كما أننا نصير أبناءً وآلهة بسبب الكلمة الذي يكون فينا، هكذا أيضاً نصير في الابن وفي الأب، ونصير واحداً معهما بسبب الروح الذي فينا، لأن الروح هو في الكلمة والكلمة نفسه هو بالحقيقة في الأب.] (802)

[وإذ كان يرغب أن ينهي على الموت الذي ألمّ بنا، اتخذ لنفسه جسداً من العذراء مريم، حتى بتقديمه إلى الأب ذبيحة عن الجميع يستطيع أن يخلصنا - (من لعنة الموت) - نحن الذين كنا بسبب الخوف من الموت تحت العبودية ...

من أجل هذا صار الكلمة جسداً لكي يقدم جسده عن الجميع، ولكي إذا اشتركنا في روحه "نتأله"، وهي العطية التي كان يستحيل علينا الحصول عليها إذا لم يكن قد لبس هو بنفسه جسداً المخلوق، لأنه من ذلك أخذنا اسمنا "كرجال الله" و"إنسان المسيح".

(800) Athan., *De Synod.* 51.

(801) Athanas., *Contr. Ar* 59:2.

(802) Athanas., *Contra Ar.*, 15:3.

ولكن كما أنه بأخذنا الروح القدس لا نفقد طبيعتنا الخاصة (الإنسانية)، هكذا الرب لمّا صار إنساناً من أجلنا ولبس جسداً لم يتغيّر عن لاهوته، لأنه لم ينقص شيئاً عندما تسربل بالجسد، بل بالحري ألّهه وجعله غير مائت [803] وهذا يقول القديس مقاريوس الكبير في عظته 49 في هذا الموضوع مفرّقاً بين النفس البشرية والله هكذا:

[هو الله وهي ليست إلهاً، هو الرب وهي صنعة يديه، هو الخالق وهي المخلوقة، هو الصانع وهي المادة، ولا يوجد شيء مشترك قط بينه وبين طبيعتها] [804]

ويعود أثناسيوس يناقش كيف يتم "تأليه الإنسان" أي اتحاده بالله، موضحاً أن بواسطة "جسد المسيح" والاتحاد به يتم تأليه الإنسان، لأن جسد المسيح صار متألّها بمجرد اتحاده بالكلمة:

[وكما أن المسيح مات ثم ارتفع ممجّداً - كإنسان - كذلك فإنه - كإنسان - قيل عنه إنه أخذ ما لله (المجد)، حتى تصير عطية أو هبة هذه النعمة لنا أو تصلنا، لأن "الكلمة" لم يكن ضعيفاً أو قليل الشأن عندما قيل المجد لنفسه كأنه يطلب أو يبحث لنفسه عن نعمة، بل إنه بالحري ألّه الجسد الذي لبسه. والأكثر من هذا أنه "أعطى" وسلم - جسده المؤلّه هذا - بنعمة خاصة ومجاناً إلى الجنس البشري (الأسرار) ...

وهذه هي نعمتنا وارتفاع مجدنا، لأنه بالرغم من أنه صار إنساناً، فابن الله لا يزال معبوداً؛ وقوات السموات لا تستغرب عندما ترانا جميعاً نحن المعتبرين جسداً واحداً معه، داخلين في دائرة مملكتهم] [805]

[ونحن إنما نتألّه (نتحد بالله) ليس باشتراكنا (السرائري) من جسد إنسان ما ولكن بتناولنا من "جسد" "الكلمة" ذاته!!] [806]

ثم يعود أثناسيوس ويؤكد أنه عندما نأخذ جسد المسيح هذا المعتبر أنه مؤلّه،

(803) *De Decr.* 14.

(804) St. Macarius of Egypt. *Hom.* 49 c.4 *P.G.* xxxiv, c. 816.

(805) *Discours.*, 1:42.

(806) *Letter to Maximus*, (LXI): 2.

نتخلّص من ضعفاتنا ونتحرّر من قيود خطايانا، وبالتالي فنحن نشترك في صفات وأمجاد اللوغس الكلمة!! ونأخذه:

[لأنه ليس بحسب آدميتنا بعد نموت، ولكن من الآن فصاعداً كل ضعفاتنا الجسدية التي هي بحسب أصل جنسنا قد تحوّلت إلى "اللوغس" الكلمة، فنحن نقوم من التراب واللعنة التي بسبب الخطية قد رُفعت، بسبب ذلك الذي هو فينا (أي الكلمة المتجسّد)، والذي صار لعنة من أجلنا.]

وهذا تمّ بحكمة، لأنه كما أننا جميعاً من تراب الأرض ونموت في آدم، هكذا إذ تجددنا وولّدنا ثانية من فوق من الماء والروح في المسيح، نحيا ونقوم، لأن الجسد (الإنسان عامة) لم يعد أرضياً بعد بل صار "كلمة" *z logwqe...shj t sƣrkoj* بسبب كلمة الله الذي من أجلنا صار جسداً (إنساناً كاملاً). [807]

وأثناسيوس هنا يقصد جسد البشرية عامة. وحينما يقول إن الجسد صار كلمة، فهذا لا يفيد أن الجسد البشري تحوّل عن بشريته أو فقد شيئاً من إنسانيته، ولكنه فقد الموت والفساد وتحوّل عن الشر الذي استُعبد له وصار من خاصة الكلمة ومناسباً له ومطابقاً لصفاته، "لأجلهم أقدس أنا ذاتي" (يو 17:19)، أو كما تقول التسبحة السنوية [أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له].

ويستمر أثناسيوس في شرحه وتعليقه لقيمة اتخاذ الكلمة جسداً بشرياً كاملاً ليعمل فيه عمله الخلاصي العجيب، موضحاً أن كل ما "للكلمة" صار للجسد البشري الذي اتخذه لنفسه، وهذا بالتالي كله انتقل إلينا لما أعطانا جسده. وبذلك ضمن الله لنا بواسطة التجسّد وموت المسيح على الصليب الخلاص الشامل، ليس من الموت فقط، بل أيضاً من الخطية العاملة بالشهوة!

[لأنه إن لم تكن أعمال لاهوت "اللوغس" أي أعمال الكلمة بصفته إلهاً - لم تتم من خلال الجسد، فإنه كان يتعدّر تأليه الإنسان (اتحاده بالله).]

كذلك فإنه لو لم تكن خواص وصفات "الجسد" (البشري) نُسبت "للكلمة"، فإنه كان يستحيل على الإنسان أن يتخلّص منها (أي من الصفات المتعارضة مع الحياة الأبدية كالجوع والعطش والتعب والبكاء التي سنتخلّص منها جميعاً

بالقيامة).

... ولكن الآن لأن الكلمة صار إنساناً وامتك “كل ما” يخص الجسد (من موت ولعنة وفساد)، فإن كل هذه لا تستطيع بعد أن تمس الجسد بسبب الكلمة الذي حل فيه، ولكنها أبيدت تماماً بواسطته، وهكذا لم يعد الناس بعد خطاة وأمواتاً بحسب شهواتهم، ولكن لأنهم قاموا بقوة الكلمة فإنهم سيقفون إلى الأبد غير مائتين وبلا فساد. [808]

وفي اختصار وروعة يبرز أنثاسيوس حتمية بلوغنا الحرية والخلص من كل فساد الطبيعة البشرية بالاتحاد بالله، كقضية مرتبطة ارتباطاً جذرياً وبالأساس بالتجسد نفسه أي باتحاد الكلمة بجسد الإنسان هكذا:

[فإذا اعترضت على كوني أنا قد تحررت وتخلصت من الفساد الذي هو في طبيعتي، فانظر لأنك لا تستطيع أن تعترض على كلمة الله لأنه أخذ هيأتي كعبداً! لأنه كما أن الرب لمّا لبس الجسد صار إنساناً، هكذا نحن البشر قد تألّهنّا (اتحدنا بالله) بالكلمة لأنه أخذنا وضمنا إليه في جسده، وبذلك ورتنا من الآن فصاعداً الحياة الأبدية. [809]

والقدّيس أنثاسيوس ينبّه ذهننا أن “التقدّيس” شيء و”التأليه” شيء آخر والأول يمهدّ للثاني.

ثم إن كل ما قيل عن المسيح في ما يخص جسده منذ ميلاده حتى صعوده وجلوسه عن يمين الآب هو في الحقيقة عملية استرداد رسمية خطّط لها الآب ليكملها الابن بالجسد لحساب الإنسان، سواء في نموه في القامة والنعمة، أو طاعته لأبيه وأمه، أو عماده وحلول الروح القدس عليه، أو غلبته للشيطان على جبل التجربة بالصوم والصلاة، أو إتيان المعجزات العديدة، أو طلبه المجد من الآب، أو قيامته من الأموات، أو صعوده إلى السموات، أو جلوسه عن يمين الآب؛ فهذه كلها غنائم الإنسان من تجسد الكلمة!!

[ولكي يفدي البشرية جاء الكلمة وحلّ بيننا، ولكي يقُدّس ويؤلّه (يوحد بالله)

(808) *Discours.*, III:33.

(809) *Ibid.* III:34.

الإنسان صار الكلمة جسداً.

ومن ذا الذي بعد ذلك لا يرى أن كل ما قاله الرب بخصوص ما تقبله من الله - (النعمة، المجد، الروح القدس، الذهاب إلى الأب) - لمّا صار جسداً إنما ذكره ليس من أجل نفسه. [810]

ويعتبر القديس أنثاسيوس أن "تأليه الإنسان"، أي اتحاده بالله، عملية تتم على مستوى الفرد، وليست عملية صورية تمت لحساب المجموع البشري، فكما يتقدّس كل إنسان بالروح القدس ليصير عضواً حياً قائماً بذاته في الجسد الكلي، كذلك عملية التأليه أي الاتحاد هي عملية فردية تتم بالاتحاد بالابن والأب. لذلك يضعها أنثاسيوس بصورتها الواضحة في صيغة الجمع بقوله: نحن أبناء وألهة، ولم يقل صرنا ابناً وإلهاً. ولكن من هذا التقديس الفردي والتأليه أي الاتحاد الفردي بالله تتم الوحدة الكلية الشاملة = "ليصير الكل إلى واحد". ويؤكد أن "تأليهنّا" أي اتحادنا ووجدتنا مع الأب والابن بواسطة الروح القدس شيء آخر تماماً ويختلف كلية عن اتحاد الأب والابن.

[وليس كما أن الابن في الأب هكذا نصير نحن في الأب، لأن الابن لا يأخذ مجرد شركة في الروح القدس (كما نأخذ نحن) حتى يصير في الأب، بل ولا يُقال أصلاً إن الابن يأخذ الروح القدس، بل إنه هو الذي يعطيه، ولا يُقال إن الروح القدس يوحد الكلمة في الأب أصلاً بل إن الروح القدس يأخذ من الكلمة «يأخذ مما لي ويخبركم». فالابن في الأب مثل كلمته الخاصة ومثل شعاعه، أمّا نحن فبدون الروح القدس نصير مفترقين وغرباء عن الله!! ولكن بشركتنا في الروح القدس نلتحم باللاهوت، لذلك فوجودنا في الأب ليس هو منّا - بتاتاً - ولكنه من الروح القدس الذي فينا والذي يسكن داخلنا، الذي باعترافنا الحسن والحق نحفظ به فينا، كما يقول يوحنا: «من اعترف أن يسوع هو ابن الله، فالله يثبت فيه وهو في الله» (1يو 4:15).

... إذن، فالروح القدس الذي هو في الله - الذي لا نستطيع أن نراه نحن في أنفسنا - وكما أننا نحن "أبناء وألهة" بسبب الكلمة (811) الذي فينا، لذلك

(810) Ibid. III:39.

(811) يوضّحها القديس كيرلس أكثر بقوله: إننا أبناء وألهة بالنعمة - في شرحه لإنجيل يوحنا في هذا الموضع.

نحن سنصير في الابن وفي الآب، وسنحسب أننا صرنا واحداً في الابن وفي الآب، لأن الروح القدس فينا، الذي هو في الكلمة وفي الآب.](812)

ثم يرتفع أثناسيوس بمعنى "التأليه" كحقيقة تكميل عمل الابن في الخليفة ليس بالمفهوم اللاهوتي الجامد بل على مستوى تكميل كل شيء في الأخلاق والسلوك والحب، فهو غاية الله من خلقه الإنسان، وغاية الإنسان من عبادته الله؛ وغاية المسيح من كل أعماله أن يبلغ بالإنسان إلى "الكامل المسيحي" أو التكميل في المسيح لحساب الآب، وهكذا يرتفع بمعنى تأليه الإنسان (أي اتحاده بالله) إلى مستوى - التقدّم في - السلوك والأخلاق ويصبّه أخيراً في مفهوم المحبة! وهذا هو شأن أثناسيوس في كل لاهوته!! وهنا أثناسيوس يشرح بتفصيل صلاة المسيح في يوحنا 17:

[أيها الابن امحهم روحك حتى يكونوا هم أيضاً واحداً في الروح ويكونوا كاملين (يتكلمون فيّ). لأن كمالهم يعلن أن كلمتك قد نزل إليهم وحلّ بينهم، وحينما يراهم العالم كاملين ومملوئين من الله يؤمنون أنك أرسلتني وأنتي حالّ هنا، لأنه من أين يأتيهم الكمال إلا كوني أنا هو "كلمتك" الذي لبست جسدك وصرت إنساناً فأكملت العمل الذي أعطيتني؟

والعمل قد أكمل لأن بني الإنسان قد أكمل فداؤهم، ولن يبقوا في الموت بعد، بل إذ تألّوها صار يشدهم رباط الحب كلما تطلّعوا إليّ.](813)

[فإذا كان الكلمة قد نزل من أجل تقدمنا، فهو لم يأخذ اسم ابن الله كامتياز أو مكافأة بل إنه هو نفسه قد جعلنا أبناء للآب، وأله (وحدّ بالله) الإنسان بأن صار هو نفسه إنساناً، لذلك فالكلمة لم يكن إنساناً ثم صار إلهاً بل على النقيض فهو كإله صار أخيراً إنساناً لكي بالحرى يؤلّهنّا.](814)

[لقد لبس جسداً مخلوقاً مكماً ... حتى فيه نصير قادرين أن نتجدّد ونتألّه.](815)

(812) *Discourse*, III 24,25.

(813) *Discourse*, II 23.

(814) *Contr. Ar.*, I, 38-39.

(815) *Ibid.*, II. 47.

وبهذا العرض السريع لمفهوم “التأله” عند أثناسيوس نرى أنه يقع موقع القلب من اللاهوت بل ومن مفهوم المسيحية كلها عند قديسنا الكبير، وقد صار أسلوبه المفضل والمؤكد دائماً للتعبير عن اتحاد الإنسان عامة بالمسيح.

وهو لا يقصد قط أن يعتبرنا الآن في وضعنا الحالي في مفهوم حالة “التأله”، ولكن واضح أنه يقصد دائماً أنها “غاية” عمل التجسد كلياً.

والعجيب أن أثناسيوس حينما يتكلم عن الفداء فإنه بغاية السرعة يرتفع إلى حقيقة “التأله”، أي الاتحاد بالله، كغاية هامة جداً ينتهي إليها الفداء، حيث يؤكد عليها بكل اعتناء وأهمية بكثرة وتكرار.

واتجاه “التأله” (الاتحاد بالله) عند أثناسيوس لا ينشأ أصلاً كأنه حاجة الإنسان الخاطيء بنوع خاص، بل كحاجة الإنسان كمخلوق بنوع عام! لأن آدم باعتباره مجرد مخلوق لم يكن فيه أساس أمين للنعمة لتقييم فيه بدون خطر الزوال، لأنه حاز نعمة الله كهبة من خارجه وليست من صميم طبيعته الترابية، أي أن آدم لم يكن متحداً بالنعمة لذلك فقدما، ولذلك أصبح في التجديد من أهم الأمور الأساسية أن يتحد الإنسان بالنعمة أي بالروح القدس ليصير للنعمة والقداسة أساساً راسخاً فيه لا يزول.

[وبالأكثر جداً ينبغي أن ندرك أن السبب المتقن والصالح الذي من أجله صنع هذا (الفداء بالتجسد وليس بمجرد نطق إلهي) أنه إذا كان الله قد أمر أو تكلم فقط - وهذا كان في سلطانه - لكانت اللعنة قد رفعت في الحال، ولكانت قدرة الله قد استعلنت بسبب هذا الأمر (النافذ المفعول)، ولكن الإنسان كان سيظل مثل آدم قبل التعدي يحوز النعمة من الخارج ولا يحوزها متحدة بجسده.] (816)

وهكذا يفرد أثناسيوس دون جميع الآباء في التأكيد على أن التجسد هو بالدرجة الأولى حاجة ملحة كانت تحتاجها الخليقة لضمان الاتحاد بالله (التأله) أسبق وأعمق من مفهوم رفع الخطية، لأن رفع الخطية هو عند أثناسيوس درجة في طريق الاتحاد بالله وليست غاية بحد ذاتها.

[لأن الاتحاد المطلوب هو أن "الكلمة" (المتجسد) يصنع اتحاداً بين ما هو إنسان بطبيعته وبين ما هو إله بطبيعته، وهكذا يصبح خلاص الإنسان وتألهه (اتحاده بالله)، ثابتاً ومؤكداً.] (817)

[لأن طبيعة الأشياء المخلوقة لا يمكن أن تعطي ضماناً - أي لا يمكن ضمانها - لأنه حتى الملائكة تعدت وكل البشر خالف، لذلك أصبحت الحاجة إلى الله نفسه - أي كلمة الله - لكي يحرر الذين وقعوا تحت اللعنة.] (818)

* ❖ *

بهذا يمكن للقارئ أن يفهم فكر أثناسيوس وكيف يركّز بشدة على التجسد وما أكمله المسيح بالجسد كمدخل للاتحاد بالله كملجأ أخير لا مفر منه للحصول على الخلاص الأبدي، ليبقى الإنسان ويدوم مع الله في حياة أبدية آمنة.

(817) Ibid. II. 70.

(818) Ibid. I. 49.

خامساً: التبني، وعقيدة وحدة المؤمنين في جسد المسيح - في إطار معنى الخلاص -

يتجه القديس أنثاسيوس في توضيح كيفية حصولنا على التبني بغاية الاختصار والدقة، باعتبار أن عملية التبني لا تعني إطلاقاً دخول شيء جديد على حياتنا من خارجنا وبعيداً عنا، ولكن بواسطة حصولنا على "الاتحاد" به أي بشخصه هو، باتصال عضوي كاتصال الرأس بأعضاء الجسم، وليس كمجرد علاقة تحكمها المشيئة أو العواطف أو ارتباط معنوي.

وأهم ما في منهج أنثاسيوس من جهة علاقتنا بالمسيح أنه دائماً يبدأ يؤكد على حقيقة الاتحاد الذي يتم بين المسيح وبيننا، وعلى الحياة الإلهية التي نحصل عليها فيه. ويوضح دائماً أن هذا الاتحاد وهذه الحياة هما بآن واحد برهان وثمره مباشرة للاهوت المسيح ومساواته للأب، وأيضاً برهان لقيامته من الأموات التي أكملها في جسم بشريته لحسابنا. فحقيقة لاهوت المسيح وحقيقة اتحادنا به هما الأساس الذي بنى عليه أنثاسيوس حقيقة الخلاص وكل ما يتعلّق بالخلاص، كالتبني وقبول الحياة الأبدية مع الله ونوال صفات المسيح والشركة في مجده كميراث في الأب.

وينتهي من هذا إلى أن بنوة البشرية لله بواسطة المسيح صارت أمراً حتمياً بسبب ابن الله، وهو الابن الوحيد الذي صار إنساناً، أي أن التبني هو ثمرة التجسد الإلهي.

التبني عقيدة أساسية محبوبة للغاية عند أنثاسيوس، وهي جزء أساسي في عملية التأله، أو حصيلة وثمره أساسية للتأله أي الاتحاد بالله. فحينما نتحد بالكلمة المتجسد (نتأله)، نصير أبناء الله بالتبني. بل إن بمجرد اتخاذ الله الكلمة أو كلمة الله لجسدنا خاصة له ليظهر فيه كإنسان، صرنا في الحال بمقتضى قرابتنا ونسبنا له أبناءً بالتبعية.

وأنثاسيوس يؤكد موضحاً أن التجسد الإلهي تمّ لكي يمنح الله للإنسان حالة التبني، على أساس أنه كان يستحيل على الإنسان الحصول على التبني ليس بسبب الخطية في الأساس ولكن بسبب أن طبيعته المخلوقة غير مؤهلة للتبني من تلقاء ذاتها.

صحيح أنه يتحتم أن تُرفع الخطية أولاً - التي اقتحمت طبيعته - ويبطل فعلها

القاتل للنفس، قبل أن يحصل الإنسان على التبني، ولكن إمكانية حصول الإنسان على التبني كان من المستحيل بلوغها بدون تجسّد الكلمة. وهذه الحاجة الأساسية للتجسّد الإلهي تُنسب - بحسب أثناسيوس - إلى حقيقة أننا مخلوقون عاجزون تماماً بحسب طبيعتنا أن نحصل على بنوّة الله التي ترفع الخليقة من حالة العبودية والموت إلى حالة الشركة في الطبيعة الإلهية وبلوغ حرية البنين، الأمر الذي أسّسه ابن الله في جسده أولاً لحسابنا.

لذلك لا يملُ أثناسيوس مئات المرّات وهو يكرّر:

[إن ابن الله صار إنساناً لكي يصير بني البشر أبناءً لله]

[لا يوجد تبنيّ بدون "الابن الحقيقي" لأن هو نفسه يقول: «ليس أحد يعرف مَنْ الابن إلاّ الآب، ولا مَنْ هو الآب إلاّ الابن، وَمَنْ أراد الابن أن يُعلن له» (لو 10:22)، وعلى ذلك فإذا كان كل الذين يُدعون أبناءً لله وآلهة (نالوا الاتحاد بالله) - بالنعمة - سواء في الأرض أو في السماء (أرواح تكلمت في الإيمان) قد نالوا التبني والتألّه، «في الكلمة»، ولأن الكلمة هو ابنٌ، فواضح أنه مصدر كل بنوّة لأنه ابن قبل الكل، وأنه حقّاً هو الابن الوحيد، وأنه إله حق من إله حق.] (819)

ولكي يوضّح أثناسيوس أهمية بل خطورة بل حتمية الاتحاد بالله وبلوغ البنوّة لله كأمر لا مفر منه، إذا أُريد للإنسان أن يغلب الموت والفساد ويحيا إلى الأبد، وفي نفس الوقت وبنفس القوة يوضّح على هذا التوازي حتمية ألوهة الابن؛ يقول:

[إذا صح أن يكون الابن مخلوقاً لكان قد كُتب على الإنسان البقاء في الموت إلى الأبد كما كان تحت اللعنة - لأنه كان يستحيل عليه أن يتحد بالله. إذ من غير المعقول أن مخلوقاً يوحد آخرين مخلوقين بالله، لأن هذا المخلوق يحتاج هو أولاً لمن يجعله متحداً بالله، ولتعدّر على أي فرد من الخليقة أن يوصل الخلاص للخليقة، لأن هذا الفرد هو بذاته يحتاج أولاً لمن يخلّصه (من ربة الضعف الذي في الخليقة).

من أجل هذا أرسل الله ابنه الخاص الذي أخذ لنفسه جسداً مخلوقاً صائراً

ابناً للإنسان. والآن لأن كل البشر حُكم عليهم بالموت، بقي هذا الذي هو مُبرراً (من الحكم واللعنة)، الذي قدّم جسده الخاص للموت عن الجميع؛ لذلك اعتُبر أن الجميع ماتوا عن طريقه لأنهم ماتوا فيه، والنطق بالحكم الذي كان ضدنا أكمله هو. لذلك فنحن فيه نجونا وتحررنا من الخطية ولعنتها، فأعطينا القيامة من الموت لنبقى إلى الأبد لابسين عدم الموت وعدم الفساد! [820]

ولينتبه القارئ أن أثناسيوس في كلامه أعلاه يصبّ سهمه إلى الأريوسيين ليضرب في موقعين بسهم واحد هو:

■ لكي نخلص ونحيا إلى الأبد يلزم أن يكون المخلص إلهاً أزلياً!

وبصورة أخرى:

■ لكي نكون أبناءً لله يلزم أن يكون الابن إلهاً!

وبصورة أوضح يقول:

■ لكي نتحد بالله يلزم أن يكون الكلمة المتجسد من جوهر الله.

وأثناسيوس يضع العقيدة الأرثوذكسية في معادلة ذات حدين كالآتي:

■ إن كان لنا الخلاص مطلباً حتمياً: يكون الإيمان بالمخلص كإله، إيماناً حتمياً.

■ إن كان تحررنا من عبودية الموت والفساد هو صراخ واقعي خارج من عمق طبيعتنا: يتحتم أن يكون الإيمان بمن مات عنّا صراخاً على مستوى أعلى، أنه إله مات بجسد بريء.

ونعود ونكرّر أمام القارئ أن ينتبه إلى منهج أثناسيوس اللاهوتي في جمع حقائق الإيمان على خط واحد، أو قل في صرّة واحدة إمّا تأخذها كلها وإمّا تتركها كلها، فهو يضع لاهوت المسيح في القمة، ثم الاتحاد الأقتومي الذي تمّ بين الله الكلمة والطبيعة البشرية، مع حقيقة بشرية المسيح الكاملة كإنسان، مع خلاص الإنسان وتأليهه (اتحاد الإنسان في المسيح)؛ وكلما تكلم أثناسيوس عن إحدى هذه الحقائق، فلا بد أن يربطها بالحقائق الأخرى سواء في جمل متراسة أو على مدى الحديث بكل حذر وانتباه، حتى يستحيل على القارئ أن يكتشف أي هذه الحقائق أكثر أهمية عند أثناسيوس.

فالإيمان عند أثناسيوس كلُّ واحد لا يتجزأ: التجسُّد، ولاهوت المسيح، وتأليه الإنسان، أي اتحاده بالله! وهذا الإلهام في الحقيقة لم يجاره فيه أي أب من الآباء ولا أي لاهوتي من بدء الكنيسة حتى اليوم. وقد يبدو هذا تكنيكاً موضوعاً لمصارعة الخبث الأريوسي؛ ولكن في الحقيقة الذي يدرس روح أثناسيوس يدرك أن هذا كان إيمان أثناسيوس الذي يعيشه في المسيح، وكان هو مضمون خلاصه الذي كان يبشِّر به كما يدافع عنه سواء بسواء.

[إذن،

(أ) فكان يتحتم أن يكون الابن هو إله حق، وكان لا يمكن للإنسان أن

يقف في حضرة الله، إلا إذا كان

(ب) الكلمة الذي اتخذ جسداً له هو حقاً "كلمة الله". وأنه كما كان

(ج) يستحيل علينا أن نتخلص من الخطية والإثم إلا إذا كان الجسد الذي

اتخذه الكلمة هو حقاً جسداً بشرياً، لأنه لا يمكن أن يكون لنا شركة مع

غريب، كذلك

(د) فإن الإنسان لا يمكن أن يتأله (يتحد بالله) إلا إذا كان ذلك الذي اتخذ

جسداً هو بالجوهرة كلمة الله حقاً، لأن الاتحاد المطلوب حدوثه أن

الذي بطبيعته إنسان يتحد بذلك الذي بطبيعته إله.

(هـ) وهكذا يتحقق خلاصنا وتألُّها (اتحادنا بالله)، ويدومان لنا

بتأكيد. [821]

وفي الحقيقة يتعدَّر علينا بل ويستحيل أن نجد مثيلاً للقديس أثناسيوس بين جميع آباء الكنيسة في إصراره وتكراره للعقيدة الواحدة عشرات بل ومئات من المرات بلا ملل ولا كلل، وكل مرة يلقي ضوءاً جديداً من زاوية جديدة ليزيد العقيدة ترابطاً وانسجاماً ويرسخها في ذهن الكنيسة، وكأنه يشعر نحو المستقبل بمسئولية إرساء الإيمان كله بكل دقائقه، وكأنها ضرورة قد وُضعت عليه.

وهو يبُلور الإيمان في هذه الحقائق الحية:

■ إن المسيح إله حقيقي وإنسان حقيقي بأن واحد.

- وهو واحد بالحقيقة. أي لا تصدر عنه أي ثنائية. مع أنه إله متأنس! وذلك ليوحد الإنسان بالله، كما هو واحد في ذاته.
- وفي النهاية يفوز الإنسان بالتبني والحياة الأبدية.

ويلاحظ القارئ أن العقيدة عند أثناسيوس تبدأ بلاهوت المسيح، هذا أمر حتمي، وتنتهي عند التبني أي صيرورة الناس أبناء الله الحي وارثين لأبوة الله في المسيح ابن الله! ولكن إرادة الله من نحو تبني الإنسان كانت منذ البدء وقبل إنشاء العالم.

وعقيدة التبني عملية عميقة جداً في مفهوم أثناسيوس. فهي كما قلنا سابقاً ليست أمراً يكتسبه الإنسان من الخارج، أو هبة تُمنح له؛ بل هي وجود وسكنى واتحاد دائم للروح القدس و**“الكلمة”**:

الروح القدس نفسه، لأنه هو نفسه الذي يتكلم فينا ويخبرنا بأمر المسيح ويمجد المسيح فينا وبنا.

وكذلك **“الكلمة”**، أي الابن، فسكناه واتحاده بنا هو وحده الذي يعطينا حق البنوة، وبه نخاطب الله القدير **“يا أبانا”**. وبدون شركة الاتحاد في الروح القدس و**“الكلمة”**، أي الرب يسوع نفسه، لا يمكن أن ندعى أولاد الله.

فالإنسان لكي يصير ابن الله يعني أنه قبل اللاهوت **«أما كل الذين قبلوه أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله.»** (يو 1:12)

[لأن هذا هو حب الله لبني البشر أنه أراد أن يكون لهم أباً بالنعمة، هؤلاء الذين خلقهم. وهذا (التبني) إنما يحدث عندما يتقبل الناس وهم مجرد خليفة - روح الابن في قلوبهم صارخاً **«يا أبا الآب»** (غل 4:6).

نعم، هؤلاء عندما يقبلون **“الكلمة”** ينالون به القوة التي يصيرون بها أولاد الله. ولأنهم أصلاً مجرد خلانق، فإنهم لا يمكن أن يصيروا أبناءً إلا إذا قبلوا روحه، أي روح ابن الله الذي هو من جوهره.

ولهذا إن كان الكلمة صار جسداً، فذلك لكي يجعل الإنسان قادراً أو مؤهلاً لقبول اللاهوت!...

ونحن لسنا أبناء الله بالطبيعة، ولكن ابن الله الذي فينا هو ابن الله بالطبيعة، وكذلك فإن الله ليس أبانا بالطبيعة ولكنه أبو **“الكلمة”** الذي فينا، الذي فيه وبه

نصرخ: «يا أبا الأب» (رو 8:15)؛ حتى أن الأب حينما ينظر أولئك الذين يرى فيهم ابنه يقول الأب: «لقد ولدتكم» (مز 2:7) ويدعوهم أولاده. [822]

[لذلك كما اشترك «الكلمة» في ضعفاتها باتخاذها جسداً بشرياً، هكذا نحن باتخاذنا (قبولنا) الكلمة نشترك في عدم موته.] [823]

كما يلاحظ أن أثناسيوس حينما يتكلم عن اتحاد الإنسان بالله يركز على مفهوم الاتحاد الفردي والاتحاد العام. فالمسيحيون يتحدثون «بالكلمة» في شخص يسوع المسيح، على أساس أن الكلمة أخذ على نفسه كل ضعفات طبيعة بني الإنسان. وفي المقابل، منح الكلمة الطبيعة البشرية بصفة عامة أيضاً أمجاده الإلهية الخاصة.

هذا الاتحاد العام، وهذا التحرير العام للطبيعة البشرية من الضعفات، وهذا المنح العام لأمجاد وحياء الكلمة للطبيعة البشرية أيضاً، هو في الحقيقة امتداد لمفهوم الجسد السري العام للمسيح الذي يجمع المسيحيين كأعضاء الجسد الواحد، وهي العقيدة التي يركز عليها بولس الرسول جداً في كافة الرسائل. وقد استلمها الرسل والآباء الرسوليون ثم آباء الكنيسة عامة في ما قبل أثناسيوس، ولكن الجديد عند أثناسيوس أنه يتعقب هذه العقيدة من أصولها حتى جذورها، ويفسرها كعقيدة الخلاص على أساس التجسد، ويوضحها مراراً وتكراراً لتكون أساس الإيمان لمفهوم الخلاص والفداء والتبني في الكنيسة.

[ولأن الكلمة صار إنساناً وجعل ضعفات الجسد له - أي نسبها إلى نفسه - صارت بالتالي هذه الضعفات بلا قوة لإزعاج الجسد، لأن «الكلمة» متحد بالجسد ...

وحينما وُلد الجسد من مريم والدة الإله، قيل عنه أنه وُلد مع أنه هو «الكلمة» الذي خلق كل الأشياء. ففي الحقيقة هذا هو ميلادنا نحن الذي أخذه لنفسه، وبهذا لم نعد بعد مجرد تراب تعين لنا أن نعود إلى التراب، ولكننا صرنا متحدين «بالوُجس» الكلمة من السماء، الذي سوف يحضرنا إلى السماء.

(822) *Contra Arian.*, II, 59, P.G. vol. 26, 273, cited by Merch.

(823) *Contra Arian.*, III, 57, P.G. vol. 26, 444, cited by Merch.

وبالمثل، فإنه ليس بدون سبب قد أخذ كل الضعفات الأخرى التي للجسد، لأنه شاء أن لا نكون بعد مجرد بشر بل نصير منتسبين للكلمة، ونشترك في الحياة الأبدية.

أما الموت الذي كان ميراثنا بسبب ميلادنا الأول فقد بطل. فميلادنا وكل ضعفات الجسد قد تحوّلت عنا، وصارت وحُسبت على “الكلمة”؛ أما نحن فقد ارتفعنا عن التراب وأزيلت عنا لعنة الخطية بواسطته وهو الكائن فينا ومن أجلنا، الذي صار وحُسب بسببنا وعنا “فاعل شر”.

وكما كنا بالحق مخلوقين من تراب، وفي آدم قبلنا الموت جميعاً، هكذا إذ وُلدنا الآن من الماء والروح قبلنا الحياة من المسيح.

وجسدنا لم يعد بعد ترابياً، لأنه قد صار كلمة (has been made Word) هنا أصل المعنى في اليوناني يفيد الفعل من كلمة “لوغس” أو “تَلَوُغْتًا” وهي باليونانية (Verbified logwqe...hj)، وذلك بسبب “الكلمة” الذي صار جسداً من أجلنا. [824]

هنا يكشف أثناسيوس عن الربح الهائل الذي اكتسبته البشرية ككل من التجسّد، دون أن يفقد الله بسبب التجسّد شيئاً بالمرة، بل اكتسب ورجح خليقته التي كانت في بطن الشيطان والآن صارت مجدداً دائماً لاسمه. لأن المسيح لما قبل الضعفات التي للطبيعة البشرية - وأخطرها الموت ومسبباته ونتائجه - ألغاهها في جسده باتحاد لاهوت الكلمة.

ثم إذ أعطانا التأهل للاتحاد به عن طريق الروح القدس والجسد المقدّس، ألغى من صميم طبيعتنا حكم الموت ولعنة الخطية، وعض الموت واللعنة والفساد سلّماًنا الاتحاداً بلاهوته قداسة الحياة الأبدية وعدم الموت وعدم الفساد معاً.

وحينما يقول أثناسيوس عن “أن جسداً اتحد بالكلمة”، يقصد جسداً جميعاً، وبحسب النص اليوناني يكون المعنى المقصود أن الجسد البشري أخذ صفات الكلمة، لأن الاصطلاح كما سبق وقلنا يفيد ذلك “verbified”.

(824) *Contra Arian*, III, 33, P.G. vol. 26, 393, cited by Merch.

وأثناسيوس يؤكد المعنى الواقعي من الاتحاد، وليس الفلسفي أو الرمزي أو التشبيهي، فنحن نتحد بالابن المتجسد اتحاداً واقعياً يدخلنا في صميم طبيعة الكلمة المتجسد جسداً، ونفساً، وفكراً، وروحاً، وامتيازات لاهوتية تتناسب مع الميراث في المسيح لله، لنصير جسداً واحداً وروحاً واحداً في الروح القدس والكلمة.

[ولأن ضعفات البشر قد رُفعت عنهم وأبطلت بل أُبديت في المسيح الكلمة، المنزّه عن كل ضعف، صار البشر أقوياءً وأحراراً إلى الأبد كما يقول لنا يوحنا بهذه الكلمات: «وتعلمون أن ذاك أظهر لكي يرفع خطايانا، وليس فيه خطية» (1 يو 3:5).

فإن كان هذا الكلام حقاً فليس لهراطقي بعد أن يسأل: لماذا وكيف أن الجسد وهو مائت بطبعه يعود إلى الحياة، وإذا أُعيدت له الحياة فكيف لا يعاني بعد الجوع والعطش والألم والموت؟ (بعد القيامة) أليس هو تراباً؟ فكيف يتخلص مما هو له بالطبيعة؟ نقول إنه إذا كان هذا هو اعتراض الهراطقة، فالجواب يأتي على لسان الجسد نفسه هكذا: نعم أنا مخلوق من تراب وأنا بطبيعتي مائت ولكني صرت جسد الكلمة وقد حمل كل ضعفاتي مع أنه منزّه عن كل ضعف وقد صرت حرّاً فلست بعد عبداً لضعفاتي، وذلك بسبب الرب الذي خلّصني ونجاني منها. فإذا كنتم تلومونني كيف صرت حرّاً من فساد طبيعتي فاحذروا لئلاً بذلك تعثرون في “كلمة الله”، لأنه هو الذي أخذ حالة عبوديتي على نفسه.

لأنه كما أن الرب أخذ جسداً وصار إنساناً، هكذا نحن البشر إذ قد حُسننا ضمن جسد الكلمة، صرنا متحدين به أو إلهيين Divine وصرنا ورثة للحياة الأبدية (فيه). [825]

وقد يتهيأ للقارئ أن كلام الجسد على لسان أثناسيوس أعلاه يفيد جسد المسيح، ولكن آخر جملة تلك التي علّق بها أثناسيوس على المعنى كله، تفيد إفادة حاسمة أن أثناسيوس يقصد الجسد البشري عامة الذي يتكلم هكذا ويقول: “لقد صرت جسد الكلمة وأنه حمل ضعفاتي وصررت حرّاً، ولم أعد بعد عبداً لضعفاتي، وقد خلّصني

ونجّاني من ضعفاتي”، هذا المتكلم هنا بحسب أثناسيوس هو جسدي وجسدك وبشريتنا جميعاً باعتبار أن جسد المسيح قد احتوى جسداً وتبناه وخلّصه ونجّاه، لأنه مات به وقام وحرّره من الموت والفساد والعبودية، وورثه معه ميراث الابن في ما لله من “مجد” و”حب”، وأنا نحن المؤمنون صرنا في المسيح جسداً واحداً هو الرأس ونحن الأعضاء فيه. لذلك، فإنه في مواضع كثيرة، حينما يقول أثناسيوس “جسد المسيح”، فهو يقصدنا ضمناً(826).

[لقد أخذ “الكلمة” ما هو لنا (الجسد) لنفسه، حتى إذا صرنا نحن جسداً واحداً فيه، وبعد أن نكون قد اتصلنا تماماً وارتبطنا بواسطة الجسد المتشابه، يمكن أن نبلغ إلى إنسان كامل وندوم في عدم الموت وعدم الفساد.] (827)

ويظل أثناسيوس متمسكاً بكل أمانة وثقة في الجمع بين بشرية المسيح مع بشريتنا على مستوى الواقع والشمول المذهل للعقل حقاً، لدرجة أنه يعتبرنا مقدّسين ومتحدين في المسيح إلى الحد الذي يرى أن الوفاق اللائق بالله وحده ينسحب على “الكلمة” الموجود فينا والمتحد بنا، أي يشمل بشريتنا المفدية والمخلّصة والمتحدة بالرب في أشخاص المؤمنين القديسين، فهو يجمع بين بشرية المسيح الخاصة أي جسده الإنساني وبشريتنا المفدية والمتحدة معه. وأثناسيوس يرى في قول الكتاب بخصوص ارتفاع المسيح بواسطة الله بعد الموت وأن الملائكة صارت تسجد له، أنه إنما يقصدنا نحن أيضاً في المسيح، أي البشرية المفدية فيه!

[إن حقيقة تجسّد الرب التي بها صار المسيح مسجوداً له وقد آمنّا أنه ابن الله الذي أعلن لنا الآب، هذه الحقيقة تُظهر أن التمجيد والارتفاع ليست أموراً ممنوحة “للكلمة” في قدرته الخاصة باعتباره “الكلمة”، ولكن ممنوحة لنا!! لأنه بسبب قرابتنا لجسده قد صرنا أيضاً هيكلًا لله وصرنا أبناءً لله، حتى أن الرب يمكن أن يُكرم أيضاً (يُعبَد adored) فينا. وكل مَنْ يرانا ونحن في حالة السمو الروحي بالروح القدس يصرخ بكلمات الرسول عينها: «يخر على وجهه ويسجد لله منادياً أن الله بالحقيقة فيكم» (1كو 14:25).]

(826) See: *The Whole Christ*, by Merch, p. 275.

(827) *Contra. Ar.* II, 74.

وأثناسيوس يهتم للغاية بتوضيح معنى أننا صرنا واحداً في المسيح، بمعنى أنه يجمعنا كلنا في نفسه جسداً واحداً، حسبما ورد في إنجيل يوحنا الأصحاح 17، وهو يضيف على معنى الوحدة ما يؤكد وجودها ودوامها على المستوى الأخلاقي والأدبي، فالوحدة مع المسيح عند أثناسيوس ليست فلسفية أو صورية، بل واقعية كيانية أخلاقية - كاملة - لأنها بالروح القدس، وبالكلمة، أي إلهية!

والأصل في ذلك كله أن جسد المسيح صار ممجداً ومكرماً جداً في عين الآب، بسبب لاهوته، وبسبب اتضاع الابن، وطاعته وحبه للآب والخليقة، فصرنا نحن - كل الذي آمنوا وتقدّسوا في المسيح - حائزين لهذا التكريم عينه.

وأثناسيوس يستنتق "الكلمة المتجسد" كلاماً حلواً، مخاطباً الآب فيه هكذا:
[أنا كلمتك (أيها الآب) وأنت فيّ، ولكني أنا فيهم بالجسد، وبك قد أكمل خلاص البشرية فيّ، لذلك أسأل أن يكونوا واحداً بحسب الجسد الذي فيّ وبحسب الكمال الذي لهذا الجسد، حتى إذ يتحدون بهذا الجسد ويصيرون واحداً فيه، يصيرون أيضاً كاملين؛ حتى يكونوا جميعاً جسداً واحداً وروحاً واحداً، إنساناً كاملاً، كأنما أحملهم جميعاً في ذاتي.

لأنه من حيث أننا نشترك في المسيح الواحد، ونملك في داخلنا الرب الواحد، نصير جميعاً جسداً واحداً.] (828)

يلاحظ القارئ أن "الكمال" الذي يبلغه الإنسان هو نتيجة اتحاد المؤمنين بجسد المسيح، وهذا معتبر أنه إحدى خصائص اللاهوت الأساسية عند أثناسيوس.

وحيثما احتدم الصراع مع الأريوسيين - من جهة عدم تساوي الابن مع الآب في الجوهر - واستشهد الأريوسيون تليفاً بقول يوحنا الرسول: «ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد (أي الابن والآب)» (يو 17: 22)، مدّعين أن الوحدة بين الآب والابن هي مُشابهة فقط، لأنها تساوي الوحدة بين المسيحيين التي هي لا تزيد عن كونها وحدة تشابه فقط (829): بادر أثناسيوس ليرد على ذلك ويقول هذا غش وخداع، وفي إجابته تظهر جداً وتتضح خصائص الوحدة التي تقوم بين المؤمنين في المسيح؛ فهو يصفها:

(828) *Contra Arian*, III, 22, P.G. vol. 26, 368, 369 cited by Merch.

(829) *Contra Arian*, III, 22, P.G. vol. 26, 368.

(الفصل 10:25):

[فبالرغم من أننا خُلِقنا على صورة الله، ودُعينا صورة ومجد الله، إلا أنه لم يكن هذا لحسابنا قط بل قد نلنا هذه النعمة لحساب الصورة الحقيقية والمجد الحقيقي الساكن فينا الذي هو "كلمته" الذي صار جسداً من أجلنا].

(الفصل 17:25):

[ولكن هؤلاء الأريوسيين المحتالين - يحتجون - ويقولون: "إذا كنا نحن نصير واحداً مع الآب (كما يقول إنجيل يوحنا 17)، فكذلك وعلى نفس المستوى يكون المسيح (الكلمة) والآب واحداً. وكذلك يكون هو أيضاً في الآب والآب فيه، فكيف تدعون أنه بناء على قوله: «أنا والآب واحد» و«أنا في الآب والآب فيّ» أنه هو من جوهر الآب؟ لأنه ينتج من قولكم هذا إما أننا نحن نكون أيضاً من جوهر الآب، أو أن الابن يكون غريباً عن جوهر الآب كما أننا نحن أيضاً غرباء عن جوهر الآب"!]

إنهم بذلك يثرثرون ويخرّفون، وإني أرى في عنادهم وضلالتهم نوعاً من التزييف والخداع الذي يوقعهم فيه الشيطان، لأنه على منوال كلامهم يقول الكتاب أيضاً عن أمثالهم (الشيطان) «سنصعد إلى السماء ونصير مثل العلي» (انظر: إش 14:14).

لأن الأريوسيين يريدون أن يجعلوا ما مُنح لنا بالنعمة كأنه يساوي اللاهوت جوهر الله المعطي (النعمة). وحينما يسمعون من الإنجيل أننا صرنا أبناءً، يعتقدون أنهم صاروا بأنفسهم مثل "الابن الحقيقي" مساوين له بالجوهر. وحينما يسمعون قول المخلص: «ليصيروا واحداً كما أننا نحن واحد» يخدعون أنفسهم ويتعجرفون أنهم بذلك يصيرون أيضاً مثل "الابن" في الآب والآب في الابن].

(الفصل 19:25):

[ولكن بالرغم من أنه يوجد ابن واحد بالجوهر - مع الآب - حقيقي ووحيد، إلا أننا نحن أيضاً نصير أبناء الله، ولكن ليس كالابن الحقيقي الذي هو بالجوهر (في الآب). إنما نحن أبناء بالنعمة، حسب عطية ذلك الذي دعانا لهذا.

فبالرغم من أننا بشر من التراب أصبحنا ندعى آلهة... Qeo... ليس كالله أو كلمته اللذين هما بالحق «1»qeiiv ، وإنما بحسب مسرة الله الذي أعطانا هذه النعمة ...

ويوحنا لم يقل إنه كما الابن في الآب هكذا ينبغي أن نكون نحن، لأنه كيف يكون لنا ذلك؟ فالابن هو كلمة الله وحكمته، أمّا نحن فمخلوقون من التراب، وهو بالطبيعة والجوهر كلمة الله، وإله حق، كما يقول يوحنا: «ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرةً لنعرف الحق. ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية» (1يو 5:20). أمّا نحن فجعلنا أبناءً فيه بالتبني والنعمة، باعتبارنا شركاء في روحه، كقول الكتاب: «وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً (قوة) أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه» (يو 1:12).

أمّا هو فهو «الحق»، لأنه قال: «أنا هو الحق». وحينما خاطب الآب عنّا قال: «قدّسهم في حقك، كلمتك هو حقّ» (يو 17:17).

أمّا نحن فبالافتداء (kat| m...mhsin) نصير مجردّ فضلاء ^{TMn}fretoi وأبناءً.

أي أننا لن نصير - في مثل وحدته - حينما يقول: «أن يكونوا واحداً كما أننا نحن واحد»، ولكننا نأخذ منه المثال والنموذج. وإذ ننظر إليه نصير واحداً مع بعضنا البعض في اتفاق ووحدة الروح ...].

(الفصل 20:25):

[ووحدة التدبير، ولنا في وحدة الابن الجوهرية بالآب مثال ونموذج، كما علّمنا بقوله: «تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب»، لا أن نصير مساويين له، فهذا محال، وإنما بالنظر إليه نبقي وندوم في وداعته.

هكذا إذ يرغب المسيح أن يدوم تدبيرنا الصالح في صدق وثبات وبلا انحلال تجاه الآخرين، أراد أن نأخذ منه النموذج، لذلك قال: «ليكونوا واحداً كما نحن»، لأن وحدتهما غير منحلة ولا منقسمة أي ليتعلموا منا هذه الطبيعة غير المنقسمة فيدوموا هم أيضاً في وفاق مع بعضهم].

(الفصل 25:21):

[كذلك قوله: «ليكونوا واحداً فينا»، هذا معناه الصحيح لا أن تكون وحدانيتنا مثل وحدانية الابن في الآب، وإلاً كان قد قال: «ليكونوا واحداً فيك» مثله! ... فقوله: «ليكونوا واحداً فينا» أوضح الفارق والاختلاف كونه هو وحده في الآب كحالة فريدة، باعتباره كلمته الوحيد وحكمته الوحيدة، ولكننا نحن نكون في الابن، ثم من خلال الابن نصير في الآب.

وهذا معناه، إذا أردنا توضيح هذه الآية: «واحداً فينا»، يكون هكذا: إن في قوة الآب والابن يصيرون هم واحداً، لأنه بدون الله يصير هذا مستحيلاً... لذلك واضح أن في اسم الآب والابن نصير مؤهلين أن نكون واحداً حافظين جداً رباط المحبة.

والرب وهو حافظ نفس هذا المعنى في نفسه يستطرد قائلاً: «والمجد الذي أعطيتني قد أعطيتهم ليكونوا واحداً كما أننا واحد»].

(هنا أناسيوس يريد أن يقول إن الوحدانية التي صرنا وسنصير إليها هي «عطية مجد» من الابن، وهي أصلاً من الآب لنا عن طريق الابن المتجسد، فالوحدة عطية فائقة وقوة ورفعة إلهية فائقة = «المجد» في الابن).

[والآن نلاحظ أن بقوله «كما» في الآية: «يكونوا واحداً كما أننا نحن واحد»، لا يعني التطابق بل التشابه، كنموذج وكمثل مقدّم لهم].

(الفصل 25:22):

[«أنا فيهم وأنت فيّ حتى يكملوا إلى واحد»، هنا يسأل الرب لنا شيئاً عظيماً وأكثر تكمياً وكمالاً لنا (أي الوحدة)، لأنه واضح أن الكلمة قد أتى ليكون فينا، لأنه لبس جسدنا.

«وأنت أيها الآب فيّ» لأنني كلمتك ولأنك أنت فيّ، لأنني كلمتك وأنا فيهم بسبب الجسد، قد صار لهم بواسطتك كمال الخلاص فيّ، لذلك أنا أسأل لكي يكونوا هم أيضاً واحداً بحسب الجسد الذي فيّ وبمقتضى كماله، حتى يكونوا هم أيضاً كاملين إذ يصيرون في وحدانية (متحدين) معه (مع الجسد)، وإذ يصيرون واحداً فيه، وكأنما الجميع قد صاروا محمولين فيّ؛ يصبون جميعاً

جسداً واحداً وروحاً واحداً، وينمون معاً حتى إلى إنسان كامل (أف 4:13).
لأننا إذ نشترك جميعاً في المسيح الواحد نصير جسداً واحداً حائزين على
الرب الواحد في داخل ذواتنا].

(الفصل 23:25):

[ونصير واحداً مثل الآب والابن وذلك بالفكر الواحد، واتفاق الروح
(سيمفونيا) “وعندما يصيرون كاملين حينئذ يعلم العالم أنك أرسلتني”، لأنه إذا
لم أكن قد جنت ولبست جسدهم هذا، ما كان أحد منهم قد كمل، بل لصار
جميعهم في الفساد. فاعمل فيهم أنت أيها الآب. وكما أعطيتني أن أحمل ذلك
(الجسد)، امنحهم روحك حتى يصيروا فيه واحداً ويصيروا كاملين فيّ ...
وكمالهم يتم بالفداء من الخطية ولا يعودون تحت الموت، بل إذ يتألهون
(يتحدون بالله) ناظرين إليّ، يحفظون رباط الحب مع بعضهم البعض!].

(الفصل 24:25):

[وبالاشتراك في الروح نلتحم باللاهوت، لذلك فوجودنا في الآب ليس هو
منا، بل من الروح الذي فينا الساكن فينا].

(الفصل 25:25):

[لأنه من حيث أن “الكلمة في الآب” وأن الروح قد أعطي بواسطة الكلمة، فقد
أراد الله أن نقبل الروح؛ حتى إذا قبلناه نكون قد قبلنا “روح الكلمة”، الذي
هو في الآب، فنصير نحن واحداً في الكلمة بسبب الروح ومن خلال الكلمة
نصبح في الآب.](830)

والقديس أنثاسيوس بهذا العرض المتشعب النواحي لمفهوم الوحدة القائمة بين
المؤمنين على أساس الشركة في الروح القدس و“الكلمة” والاتحاد بجسد المسيح،
يكون قد وضع أساس إيمان الكنيسة الأرثوذكسية الجامعة في هذه العقيدة الأساسية
عقيدة الاتحاد بالله والوحدة في جسد المسيح.

والمعروف أن كلاً من القديس هيلاريون والقديس كيرلس الكبير قد بنى على هذا

(830) *Contra Arian*, Discourse III, ch. 25:10, 19-25.

الأساس عينه، حتى بلغت عقيدة اتحادنا في الجسد الواحد الذي يضم المؤمنين جميعاً أقصى كمالها ونضوجها اللاهوتي عند كيرلس الكبير (831).

وهكذا ينبغي أن يُعزَى الفضل لأثناسيوس الكبير، الذي استطاع أن ينتزع من الأريوسيين جميع أسلحتهم التي صوّبوا ضد لاهوت المسيح المساوي للآب، وأن يستخدمها هي بذاتها في وضعها الأصل الإلهي ليبيّن بها لاهوت الكنيسة الإيجابي الذي لا يَنازَع ولا يُناظَر في ما يختص باتحادنا الوثيق بالمخلّص.

وأثناسيوس في كافة المواضع لا يغيب عن رؤياه “اتحاد المخلّص بخاصته”، هذه هي الرؤيا العظمى التي لم يهدأ يوماً واحداً على مدى خمسين عاماً من أن يوضّحها بكافة الطرق، سواء اتحاد الكلمة بجسده الخاص أو اتحاداه هو بنا جميعاً. فأثناسيوس يجمع بين الاثنين معتبراً أن هذا هو الذي جمعه الله ولا يستطيع أحد أن يفرّقه (832).

[كل ما كُتب عن المخلّص بحسب بشريته، يلزم أن ننسبه لجنس البشرية عامة، لأنه أخذ جسدنا وحمل ضعفاتنا.] (833)

وأثناسيوس في دفاعه ضد الأريوسيين في حديثه الأول يستمر إلى عشرة فصول، منحصراً في موضوع واحد لا يحيد عنه في ما يختص بجسد المسيح العام الذي يجمع كل المؤمنين (الجسد السري)، موضّحاً ذلك من قول بولس الرسول: «وضع نفسه وأطاع حتى الموت ... لذلك رفعه الله أيضاً وأعطاه اسماً فوق كل اسم.» (في 2: 9و8)

فهذا الارتفاع أو الإعلاء الذي ناله المسيح كان موضوع تهليل الأريوسيين، باعتبار أن “الكلمة” كان في حاجة إلى تمجيد أكثر، إذن فهو لم يكن أعلى من كل شيء من البدء!!

ويزمجر أثناسيوس ضد هذا الادعاء، ويكشف غش منطق الأريوسيين. لأن هذا الارتفاع أو الإعلاء إنما يخص بشرية المخلّص فقط، وذلك من أجلنا نحن!!

(831) See: *The Whole Christ*, by Merch, p. 277.

(832) Ibid. p. 278.

(833) *Apologia pro fuga*, 13; P.G. 25, 661, cited by Nerch.

[إن الكلمة الأزلي، صورة الآب، أخذ شكل العبد. وكإنسان، عانى الموت بجسده من أجلنا، لكي يتسنى له أن يقدم ذاته إلى الآب عنا بالموت، لذلك أيضاً، كإنسان وبسببنا ومن أجلنا، قيل عنه أيضاً أن الله، "رفعه".]

لأنه كما بموته متنا جميعاً في المسيح، هكذا سنرتفع في المسيح نفسه عندما نرتفع إلى السماء بعد قيامتنا من الأموات «حيث دخل المسيح كسابق لأجلنا» (عب 6:20)، وهو لم يدخل شيئاً (السماء) كأنه رمز أو صورة للحقيقة، ولكن دخل السماء نفسها «لأن المسيح لم يدخل إلى أقداس مصنوعة بيد أشباه الحقيقة بل إلى السماء عينها ليظهر أمام وجه الله لأجلنا» (عب 9:24).

ولكن إذا كان المسيح الذي هو دائماً رب وخالق السموات قد دخل الآن السموات من أجلنا، يلزم إذن أن يكون من أجلنا ما قد كتب: أنه ارتفع (رفعه الله).

وكذلك مكتوب أنه، وهو الذي يقدس جميع الناس، يقدس نفسه من أجلنا أمام الآب، هذا بكل تأكيد لا يعني أن الكلمة نفسه يلزمه أن يصير أكثر قداسة بل أنه يقدسنا نحن جميعاً في نفسه. وهكذا يلزمنا أن نأخذ نفس هذه الآية بنفس المعنى "قد رفعه الله"، لا كأنه يرفعه إلى ما هو أكثر كمالاً فهو الأعلى، ولكن لكي يصير هو برنا فنرتفع فيه فندخل أبواب السماء التي أعاد فتحها لنا. [834]



وفي ختام هذا الفصل نقدم للقارئ شهادة حسنة من أحد لاهوتيي الألمان القدامى، وأكثر من تخصص وتحمس للاهوت أثناسيوس الكبير، وهو العالم موللر:
[لقد ضرب أثناسيوس جذوره عميقاً عميقاً جداً في تربة الكنيسة. وقد كان أثناسيوس لا يعرف نفسه إلا فيها، فكان ماضيها حاضراً دائماً أمامه، وأخذ على عاتقه أن لا يقدم المسيح يسوع إلا متحداً بكنيسته من الداخل، وفي

(834) *Contra Arian*, 1, 21, P.G. vol 26, 96, 97, cited by Merch.

كلمة واحدة كان المسيح هو نفسه الكنيسة! [835]

لقد ركّز أثناسيوس كثيراً على "جسد المسيح"، الجسد الذي أخذه الكلمة لخاصته، من العذراء مريم دائمة البتولية والمؤمنين الذين اتحد بهم بروحه، فضمّهم إلى جسده ونفسه، وحملهم في أحشائه، وفداهم، وتبّأهم، وغيرهم، فجَدّد خلقهم، وقَدّسهم، ورفعهم، وألّهمهم (ووحّدهم بذاته) بنعمته.

وكان كلما تكلم أثناسيوس عن "جسد" الكلمة ينطلق سريعاً ليكشف فيه سر "الجسد" الفائق الذي يجمع المؤمنين:

[وعندما افتقد "الكلمة" العذراء القديسة مريم أتى الروح القدس إليها معه وصاغ الكلمة "الجسد" بالروح القدس وشكّله لذاته، إذ أراد أن تتحد البشرية بالله ويحضرها إليه بنفسه، وبه يصلح الكل عاملاً الصلح ...] [836]

وكان لاهوت المسيح هو المفتاح الكبير الهائل، الذي يفتح كل أسرار الخلاص والفداء والحياة الأبدية للكنيسة كلها، فلاهوت المسيح هو الذي يرفعنا من التراب ويقدّسنا لنفسه ويوحّدنا بجسده (يؤلّهننا)، وهو الذي جعل التجسّد انتصاراً على الموت والهاوية والخطية والفساد، وبه صار التجسّد القوة الضاربة ضد الشيطان، وصار هو قوة التبني التي بها صرنا نحن الآن أبناءً لله الحي، وصار هو الحياة الأبدية للكنيسة، لأن فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس!!

ولم يكن أثناسيوس في كل هذه الحقائق الإيمانية كمستحدث، بل كوارث - بالتقليد - جوهرية العقيدة والإيمان الحي من الرسل والآباء، ولكنه صقلها بالنعمة والإلهام تحت ضيق الاضطهاد وعناد الأريوسيين وكفرهم، وجعلها تاجاً على رأس الكنيسة تشعّ على كل الأجيال لاهوتاً حياً يُفرّح قلب المؤمنين!

(835) Mohler, Athanas. *der Grosse und die Kirche*. Mainz 1827. p. 122.

(836) إلى سيرايبون. رسائل الروح القدس 31:1.

ملخص الفصل الخامس الإنسان والخلاص في اللاهوت عند أثناسيوس أولاً: أسس التقليد الأبائي

- تجسّد ابن الله وموته على الصليب، هو رأس ومبدأ الإيمان عند أثناسيوس.
- موضوع الخلاص لم تستطع الكنيسة على مدى العصور أن تستوفي تعدّد وجهات رؤيته، فكان لكل عصر رؤيته الخاصة له.
- ففي عصر الآباء الرسولين كانت رؤية الخلاص على مستوى أخلاقي سلوكي، فيكون الخلاص انتقالاً من حياة الشر إلى حياة البر.
- وآباء آسيا الصغرى (القديس إغناطيوس ومن بعده) نظروا الخلاص على مستوى وجهة نظر "مَرَضِيَّة". فالمسيح جاء كطبيب، والخلاص هو انتقال من مرض الموت إلى صحة الحياة، أو من الفساد إلى عدم الفساد. وهنا بدء نظرة الآباء إلى أن الإنسان أُعطي بالتجسّد أن يحيا مع الله إلى الأبد ويصير شريكاً في صفاته وطبيعته الإلهية على أن يظل هو هو الإنسان.
- ثم جاء آباء شمال إفريقيا (وهم محامون)، ونظروا إلى الخلاص كعمل قضائي، أي كشفاة وتبرئة من ديون ثقيلة.
- عند أوريغانوس اتسعت نظرتة للخلاص واتخذت صبغة فلسفية، فالخلاص عمل كوني، تمّ على مستويات شملت العالم بأسره، فيه انهزمت جنود الشر في هذا الصراع تحت سلطان الله.

ثانياً: أساس لاهوت الخلاص عند أثناسيوس

- أثناسيوس لم يتجاهل أي وجه من أوجه هذا التراث.
- فأكد أثناسيوس على عامل "القضاء" بمعنى العقوبة والتبرئة من الدّين الذي كان يتحمّم علينا دفعه. ذلك لأن الموت مرتبط بالخطية كعقوبة.
- ثم في كتاب "تجسّد الكلمة" يوضّح أثناسيوس مبررات التجسّد الحتمية: (أ) تحويل الفاسد إلى عدم الفساد.

(ب) خلقة الإنسان الجديدة على مثال صورة الله.

(ج) جعل المائت غير قابل للموت.

(د) أدرك البشر حقيقة الآب.

(هـ) دفع الدّين المطلوب بتقديم "الكلمة" نفسه ذبيحة. وهذا يتم بالتقدمة،

وبالذبيحة الكهنوتية كفارة عن الجميع (وهذه هي نظرة العهد القديم العملية

والواقعية لتصوير مفهوم الخطية والخلاص منها بالفداء).

1 - التقدمة الكهنوتية كفعل خلاص:

■ ما من وسيلة لرفع الفساد عن الإنسان إلا بالموت.

■ لذا اتخذ الكلمة (غير القابل للموت) جسداً (قابلاً للموت)، ليكون كفواً للموت

عن الجميع. ولكي باتحاد الكلمة بهذا الجسد يصير غير قابل للفساد.

■ وهكذا حقّق التجسّد بالتقدمة الكهنوتية:

(أ) إبادة الموت عن البشر، وقد صاروا نظراء الكلمة المتجسّد، بتقديم المعادل

والبديل (وهذا هو مفهوم الفداء).

(ب) تسديد الدين عن الجميع (مفهوم الخلاص بتسديد الدين).

(ج) ألبس الجميع عدم الفساد بوعده القيامة (الخلاص بالخروج من دائرة

الفساد).

(د) وضع نهاية للموت (الخلاص كغلبة للموت).

2 - الذبيحة:

■ وهي تساوي فعل التقدمة السابق مضافاً إليه عنصر الألم حتى الموت.

■ وتمّت بأن:

- وضع "الكلمة" على نفسه عقاب الدينونة.

- محا الموت بواسطة تقديم جسده الخاص حتى الموت موت الصليب.

- بقيامته استعاد الإنسان مرّة أخرى من حالة الفساد، لأنه هو وحده الذي

يستطيع ذلك بصفته الخالق الذي صنع الإنسان على صورته.

ولكي نفهم بتدقيق لاهوت أثناسيوس عن الإنسان والخلاص لابد من عرض أفكاره

باختصار:

حالة الإنسان الأولى:

- الإنسان بحسب طبيعة التراب فقط يكون قابلاً للفساد وبالتالي للموت، لذلك في الخلقة الأولى وهب الله للإنسان "الكلمة" - غير الزائل - لكي تصبح خلقة الإنسان على صورة الله.
- وبهذا أصبح يستحيل أن يفقد الإنسان المخلوق على صورة الله فعل وصورة "الكلمة" لأنها أصبحت من صميم خلقته. قد تضعف أو تتلف أو تتشوّه، ولكن لا يمكن أن تُفقد بالكلية.
- أي قد يفقد الإنسان الصفات الإلهية التي وُهبّت له كنعمة مجانية ولكن يستحيل أن يفقد صورة الله، وأهم ميزاتها الجوهرية: الخلود.
- لذلك فإن القدوس حينما جاء إلى عالمنا، إنما جاء ليجدد الإنسان المصنوع على صورته، ويعيده إلى الوجود الإلهي مرةً أخرى.

ما آل إليه الإنسان بسقوطه:

- إن التصدّع الذي حدث في صورة الإنسان بالمخالفة، انتهى إلى الالتصاق بالأرضيات، وبدأ الإنسان يسير نحو الفساد، وبالتالي نحو فقدان الله وازدياد الجهل به، وذلك بسبب تشوّه صورة "الكلمة" الساكن في الإنسان (الذي يعطيه الإدراك والمنطق والبصيرة والرؤيا الصحيحة).
- أثناسيوس - هنا - يركّز على التغيير الذي أصاب الإنسان، كناعية مَرَضِيَّة - ولكن دون أن تفنى صورة الله في الإنسان.

وما أعوز الإنسان:

- لذلك أصبح الحل الوحيد والاحتياج الوحيد هو إلى تغيير جذري تجوزه الطبيعة البشرية لتعود إلى صحتها.
- وهذا لا يمكن أن يتم إلا بتجديد التحام العنصر الإلهي (أي الصورة الإلهية) في صميم هذه الطبيعة البشرية.
- الكلمة المتجسد هو الطبيب والمخلص الذي أتى ليشفي ما حدث.

حتمية التجسّد:

- إن الخلاص هو للإنسان، وليس لأشياء ليس لها وجود (لكي يكفي مجرد صدور أمر إلهي بالغفران). لذلك لزم أن يستخدم "الكلمة" وسيلة بشرية ويعلن نفسه

- من خلالها جهاراً.
- ولأن الفساد الذي دخل الطبيعة البشرية لم يكن خارج الجسد بل في داخله، صار الجسد محتاجاً إلى أن تدخل فيه الحياة وتمسك به من الداخل وتملك عليه ولا تتركه كحالة آدم الأولى.
- كل هذا يبيّن أن الخلاص كان لا بد أن يكمل من داخل طبيعة الإنسان، ولا يأتي إليها كأمر إلهي خارجي يُفرض عليها من خارجها وإلاً فمآلها للفساد والسقوط مرّة أخرى.

ثالثاً: موت المسيح على الصليب عند أثناسيوس في إطار معنى الخلاص

- التجسّد غايته الأولى خلاص الإنسان، وهذا الخلاص يستحيل أن يتم إلاّ بموت المسيح.
- حينما قدّم المسيح جسده الذي اتخذه لنفسه، صار الكل فيه، وكأنهم هم ماتوا جميعاً. وهذا هو معنى القول: «الكل مات في المسيح.» (2كو 5:14)
- يركّز أثناسيوس بشدة على حقيقة الموت باعتباره علة الهلاك والفساد، لذلك يصبّ الخلاص الذي أكمله المسيح على إلغاء وإبادة الموت. ومعروف أن الخطية هي العلة المؤدية للموت، لذلك فهي التي قدّم عنها المسيح نفسه ذبيحة عن الجميع ليوفي عقوبة الخطية عن الجميع، وبذلك يلغي الموت ذاته الذي هو نتيجة الخطية.
- وهكذا بالخلاص الذي ناله بموت المسيح يتلاشى الموت من طبيعة الإنسان، ولا يعود له أساس داخلنا يمسك فيه، أولاً: لأن المسيح مات نائباً عنّا جميعاً، ثانياً: بقيامته من الأموات وهب نعمة الحياة الأبدية لكل من آمن به واعتمد لموته.
- فموت المسيح هو رأس ومبدأ الحياة.
- وبفضل القيامة يصبح البشر عديمي الفساد.

رابعاً: نتيجة غلبة الموت والفساد التي أكملها المسيح لحسابنا في إطار معنى الخلاص

- «اشترك الإنسان في الطبيعة الإلهية» أو «اتحاد الإنسان بالله» أو «تأله الإنسان»
- إن أثناسيوس وهو يتكلم عن نتيجة الخلاص، يركّز بشدة على الإيمان بـ«تأله الإنسان»، باعتبار هذه الحقيقة تقليداً قديماً في الكنيسة، كنتيجة مباشرة آلت إلى الإنسان بسبب تجسّد ابن الله وتأنسه، ثم موته على الصليب الذي به تبرّر الإنسان، والقيامة التي نال بها الإنسان الحياة الأبدية.
 - «تأله الإنسان» هو التعبير المقابل «لتجسّد الله» (الكلمة) «أي أن «التأنس» يقابله «التأله». الذي يعني: «الاتحاد بالله»، الذي ابتدأ الوحي الإلهي يعلن عنه على فم بطرس الرسول بتعبير: «الاشترك في الطبيعة الإلهية».
 - التزم بهذا التعليم الآباء القديسون إيرينيئوس ومن بعده، إلى أثناسيوس الذي بلغ القمة في برهانه وشرحه وتوضيحه (837).
 - في اللاهوت الشرقي اتجاهاً في ما يختص بتأله الإنسان:
 - الأول: أوريجاني: نسبة إلى أوريجانوس الذي يعتبر أن أعلى ما يهدف إليه الإنسان هو أن يعود «إلى» حالته الأولى التي خلق عليها.
 - الثاني: عند إيرينيئوس وآباء آسيا الصغرى: وهم يعتبرون أن الإنسان خلق لغاية لم يستطع تحقيقها، وأن التجسّد حمل الإنسان إلى تبعية رأس آخر للبشرية (غير آدم)، وبالتالي حمله إلى غاية أخرى هي: «التأله»، كان يستحيل عليه أن يبلغها لو بقي تحت رئاسته الأولى القديمة.
 - ركّز أثناسيوس على هذه الرؤيا اللاهوتية: التأله باعتباره الغاية الحقيقية من الخلق ومن التجسّد، تلك الغاية التي تفوق قامة المعرفة البشرية. هذه الرؤيا جعلها أثناسيوس مدخلاً ضمن أسلحته الماهرة لتحطيم الفلسفة العقلانية التي للأرسطيين.
 - ولتبسيط معنى هذه الكلمة:
- كما أن المسيح أخذ - بالاتحاد بالجسد البشري - كل ما للإنسان (ما عدا الخطية طبعاً)، هكذا الإنسان - بالاتحاد بالمسيح - أعطي كل ما لله «كل ملء

(837) Starter; *Die Erlösungslehre des hl. Athanasius*, cited by Gross, *La Divinisation du Chretien d'apres les Peres Grecs*, pp. 201-218.

الله» (أف 3:19)، دون أن يخرج الإنسان عن إنسانيته أو يستنفذ كل ما لله.

- فتأنس الله أعطى فرصة لتأله الإنسان.
- لكي نعرف الله، لابد أن نقرب منه. ويستحيل الاقتراب من الله إلا عن طريق «الكلمة» والروح. وهذا هو «الاتصال» الذي يؤدي إلى كشف طريق الحكمة الإلهية والذي عليه يبني الإنسان فكره وسلوكه.

متى وكيف يبلغ الإنسان الكمال نعمة الاتحاد بالله:

- يستحيل بلوغ كمال الاتحاد بالله، قبل أن يخلع الإنسان جسد الموت الفاسد، ويلبس عدم الموت وعدم الفساد. علماً بأن ابن الله تجسّد لكي يجعل كل ما أخذه كلمة الله من الإنسان قابلاً للاتحاد بالله (التأله)، كذلك فإن كل ما استرده المسيح للطبيعة البشرية عامة بالموت والقيامة أصبح غير قابل للضياع أو الفقدان بسبب أخطائنا. وهذا هو ضمان المسيح العجيب للخليقة الجديدة الذي هو رأسها والضامن لتحقيقها.

- وكما يتم الاتحاد بالله (التأله) عن طريق كلمة الله المتجسّد، هكذا يتم عن طريق الروح القدس أيضاً [بالاشتراك في الروح القدس نصبح شركاء الطبيعة الإلهية ... الذين فيهم الروح القدس، هؤلاء يصيرون آلهة (أي مشتركون في الطبيعة الإلهية)].

- عطية الاتحاد بالله هي حقيقة غير منازع فيها، اتخذها القديس أثناسيوس برهاناً على أن الروح القدس نفسه له طبيعة الله.

- التحفُّظ الهام الذي يضعه القديس أثناسيوس (وسائر آباء الكنيسة) في حقيقة اتحاد الإنسان بالله، هي أن «تأليه الإنسان» هو انتساب الإنسان لله، وهو لا يُخرج الإنسان عن إنسانيته أو يلغي طبيعته الإنسانية، بل يظل الله إلهاً والإنسان إنساناً.

كيف صار التجسّد واسطة تأليه الإنسان:

- بواسطة الاتحاد بجسد المسيح يتم تأليه الإنسان، لأن جسد المسيح صار «متألهاً» بمجرد اتحاده بالكلمة: [نحن نتأله ليس باشتراكنا في جسد إنسان، بل بتناولنا من «جسد الكلمة» ذاته].

- وحينئذ نتحرَّر من ضعفاتنا ومن قيود خطايانا، وبالتالي نشترك في صفات وأمجاد اللوغس الكلمة.
- تحوُّل الإنسان يعني أنه فقد الموت والفساد وتحوَّل عن الشر الذي استُعبد له.
- كل ما للكلمة صار للجسد البشري الذي اتخذه لنفسه، وهذا بالتالي انتقل إلينا لَمَّا أعطانا جسده [كما أن الرب لَمَّا لبس الجسد صار إنساناً، هكذا نحن البشر قد تألَّهنا (اتحدنا بالله) بالكلمة، لأنه أخذنا وضمَّنا إليه في جسده، وبذلك ورثنا من الآن فصاعداً الحياة الأبدية].
- كل ما قيل عن المسيح في ما يختص بتجسُّده وأعماله ومعجزاته وصلاته ... إلخ، هذه كلها هي غنائم للإنسان بسبب تجسُّد الكلمة.
- و"تأليه الإنسان" عملية تتم على مستوى الفرد إذا تقدَّس الإنسان بالروح القدس. ومن هذا التقديس الفردي بالله تتم الوحدة الكلية الشاملة "ليصير الكل إلى واحد".

الفرق بين اتحادنا بالله والوحدة بين الآب والابن:

- القديس أثناسيوس يؤكِّد أن اتحادنا ووحدتنا مع الآب بالروح القدس شيء آخر تماماً يختلف عن اتحاد الآب بالابن.
- [الابن في الآب مثل كلمته الخاصة ومثل شعاعه، أمَّا نحن فبدون الروح القدس نصير مفترقين وغرباء عن الله، وباعترافنا الحسن نحفظ به فينا].
- "التأليه" هو تكميل عمل الآب في الخليقة، وتكميل الإنسان للسمو إلى مستوى الأخلاق والسلوك والحب السمائي، فهو غاية المسيح من كل أعماله لخلاص الإنسان، أي يبلغ بالإنسان إلى "الكمال المسيحي" ويصبُّه أخيراً في المحبة.
- التألُّه (الاتحاد بالله) هو حاجة الإنسان كمخلوق بنوع عام، لأن آدم باعتباره مجرد مخلوق لم يكن فيه أساس أمين للنعمة لتقيم فيه بدون خطر الزوال، لأنه حاز نعمة الله كهبة من خارجه وليس في صميم طبيعته الترايبية. لذلك أصبح من أهم الأمور الأساسية في التجديد أن يتحد الإنسان بالنعمة أي بالروح القدس من داخل، ليصير للنعمة والقداسة أساس راسخ فيه لا يزول.

خامساً: التبني وعقيدة وحدة المؤمنين في جسد المسيح في إطار معنى الخلاص

- التبني عطية إلهية نحصل عليها بالاتحاد بشخص المسيح ابن الله. وهي ليست مجرد علاقة تحكمها المشيئة أو العواطف.
- أهم ما في علاقتنا هذه بالمسيح، هو أن هذا الاتحاد هو ثمرة مباشرة للاهوت المسيح ومساواته للآب. هذا هو الأساس الذي يُبنى عليه حقيقة الخلاص وكل ما يتعلّق بخلاصنا، من تبني، وقبول الحياة الأبدية مع الله، ونوال صفات المسيح، والشركة في مجده كميراث في الآب.
- بنوّة البشرية لله بعد التجسّد أصبحت أمراً حتمياً بسبب ابن الله، فالتبني هو ثمرة التجسّد الإلهي.
- والتبني أيضاً هو وجه من أوجه "التأله" أي "الاتحاد بالله". فحينما نتحد بالكلمة المتجسّد، نصير فيه أبناءً بالتبني وأبناءً حقيقيين أي ورثة.
- والحقيقة التي يؤكّد عليها القديس أثناسيوس: هي أنه ليس بسبب الخطية أساساً كان يستحيل على الإنسان الحصول على التبني، بل لأن طبيعته المخلوقة لم تكن مؤهلة للتبني.
- لذلك ما أسسه ابن الله في جسده أولاً كان لحسابنا، ومن ثمّ انتقل إلينا.
- لاهوت المسيح هو ضمان بلوغنا الخلاص، وبالتالي التبني. فلكي نخلص ونحيا إلى الأبد يلزم أن يكون المخلّص الذي نتحد به إلهاً أزلياً. ولكي نكون أبناءً لله يلزم أن يكون الابن إلهاً.
- ينبغي أن ننتميه إلى أن منهج أثناسيوس اللاهوتي كلٌّ واحد لا يتجزأ. فالإيمان بلاهوت المسيح، والاتحاد الأَقنومي بين الكلمة والطبيعة البشرية، وكمال بشرية المسيح، وخلص الإنسان، وتأليهه بالنعمة؛ كل هذه الحقائق الخمس مرتبطة بعضها ببعض وذات أهمية واحدة؛ إمّا تؤخذ كلها أو لا تؤخذ على الإطلاق.
- هذه الحقائق الحية يُصرُّ أثناسيوس عليها ويكرّرها، وكل مرّة يلقي ضوءاً جديداً عليها من زاوية جديدة.

- وبيبلور أثناسيوس الإيمان كله هكذا:
- المسيح إله حقيقي وإنسان حقيقي بآن واحد.
- هو واحد بالحقيقة، أي لا تصدر عنه ثنائية، وذلك ليوحد الإنسان بالله، كما هو واحد في ذاته.
- وفي النهاية يفوز الإنسان بالتبني والحياة الأبدية.
- التبني: هو وجود وسكنى واتحاد دائم بالروح القدس والكلمة. والروح القدس هو الذي يتكلم فينا ويخبرنا بأمور المسيح، ويمجد المسيح فينا وبننا.
- [ابن الله الذي فينا هو ابن الله بالطبيعة. والآب حينما ينظر أولئك الذين يرى فيهم ابنه، يقول الآب: "لقد ولدتكم" ويدعوهم أولاده].

التبني من خلال الجسد السري للمسيح:

- اتخاذ الكلمة لكل ضعفات طبيعة بني الإنسان، يقابله منح الكلمة أمجاده الإلهية الخاصة للطبيعة البشرية بصفة عامة.
- على أن هذا الاتحاد العام، وهذا التحرير العام للطبيعة البشرية من الضعفات، وهذا العطاء العام لأمجاد وحياة الكلمة، هو امتداد لمفهوم الجسد السري العام للمسيح الذي يجمع المسيحيين كأعضاء الجسد الواحد.
- فالمسيحيون يتحدثون "بالكلمة" في شخص يسوع المسيح على أساس أن الكلمة سبق واتخذ لنفسه الطبيعة البشرية واتحد بها في التجسد.
- المسيح لما قَبِل الضعفات التي للطبيعة البشرية بالتجسد لم يفقد شيئاً بالمرّة من مجد لاهوته، بل اكتسب وربح خليفته التي كانت في بطن الشيطان، والآن صارت سبب مجد دائم لاسمه.
- [كما أن الرب أخذ جسداً وصار إنساناً، هكذا نحن البشر إذ قد حُسبنا ضمن جسد الكلمة، صرنا متحدين به أو إلهيين وصرنا ورثة للحياة الأبدية (فيه)].
- بصيرورتنا أعضاء في الجسد الواحد الذي للمسيح، يمكننا أن نبلغ إلى إنسان كامل وندوم في عدم الموت وعدم الفساد.
- يتمسك القديس أثناسيوس تمسكاً شديداً بحقيقة الجمع بين بشرية المسيح مع

بشريتنا، لدرجة أنه يعتبرنا مقدّسين ومُتّحدين في المسيح إلى الحد الذي يرى فيه أن الوقار اللائق بالله وحده ينسحب على “الكلمة” الموجود فينا والمتحد بنا، أي يشمل بشريتنا المفدية والمخلّصة والمُتّحدة بالرب في أشخاص المؤمنين القديسين.

■ حتى أنه يرى أن كل مَنْ يرانا، ونحن في حالة السمو الروحي بالروح القدس، يصرخ بكلمات الرسول عينها: «يخرُّ على وجهه ويسجد لله منادياً أن الله بالحقيقة فيكم.» (1كو 14:25)

■ أثناسيوس يوضّح معنى أننا صرنا واحداً في المسيح. ذلك أنه يجمعنا كلنا في نفسه جسداً واحداً. ولأن جسد المسيح صار ممجّداً ومكرّماً في عين الآب بسبب لاهوته، وبسبب اتضاع الابن، وطاعته وحبه للآب والخليفة؛ صرنا نحن (كل الذين آمنوا وتقدّسوا في المسيح) حائزين لهذا التكريم الإلهي عينه: «المجد الذي لي أنا أعطيتهم».

■ الكمال الذي يبلغه الإنسان، هو نتيجة اتحاد المؤمنين بجسد المسيح: [حتى إذ يتحدون بهذا الجسد ويصيرون واحداً فيه، يصيرون أيضاً كاملين؛ حتى يكونوا جميعاً جسداً واحداً وروحاً واحداً، إنساناً كاملاً، كإنما أحملهم جميعاً في ذاتي].

الفرق بين الوحدة بين الآب والابن، والوحدة بين المسيحيين والآب:

■ الأريوسيون وهم يراوغون يدّعون أن أثناسيوس ينادي بتساوي “الوحدة” الحاصلة بين الآب والابن، و“الوحدة” الحاصلة بين المسيحيين والآب؛ حتى يبلغوا من وراء هذا الاتهام المزيّف إلى التقليل من شأن الرابطة بين الآب والابن.

■ وأثناسيوس، وهو يرد عليهم، يحدّد بوضوح الفرق بين طبيعة كل وحدة عن الأخرى:

فالوحدة الممنوحة للمسيحيين هي بالنعمة، ووحداية الابن في الآب هي وحادانية جوهر.

- هو ابن حقيقي ووحيد بالجوهر، ونحن أبناء الله فعلاً ولكن بالنعمة حسب

- عطية ذاك الذي دعانا لهذا.
- بالرغم من كوننا بشراً فقد أصبحنا نُدعى آلهة - ليس كالله أو كلمته اللذين هما بالحق - وإنما بحسب مسرّة الله الذي أعطانا هذه النعمة.
 - نحن أبناء بالتبني والنعمة، إذ صرنا شركاء في روحه.
 - هو "الحق" ونحن بالافتداء نصير فضلاء وأبناءً.
 - هو "المثال" و"النموذج" الذي عليه تصير وحدتنا بالآب.
 - بدون الله تصير هذه الوحدة مستحيلة. ولا بد أن نحفظها برباط المحبة.
 - وجودنا في الآب هو من الروح الساكن فينا - وليس منا.

هذا التعليم هو أساس إيمان الكنيسة:

- القديس أثناسيوس بتعليمه الواضح عن الوحدة القائمة بين المؤمنين والله على أساس الشركة في الروح القدس والكلمة، وبالاتحاد بجسد المسيح، يكون قد وضع أساس إيمان الكنيسة الأرثوذكسية الجامعة.
- هذه العقيدة بلغت منتهى كمالها ونضوجها اللاهوتي عند القديس كيرلس الكبير في القرن الخامس.
- أثناسيوس في كل جداله مع الأريوسيين، لا يغيب عن رؤياه "اتحاد المخلص بخاصته"، سواء اتحاد الكلمة بجسده الخاص أو اتحاده هو بنا جميعاً. أثناسيوس يجمع بين الاثنين معتبراً أن هذا هو الذي جمعه الله، ولا يستطيع أحد أن يفرّقه.
- وهذا الارتفاع والإعلاء الذي ناله المسيح بقيامته وصعوده، وهو ما اعتبره الأريوسيون برهاناً على عدم لاهوت المسيح؛ اعتبره أثناسيوس عكساً لذلك منطلقاً لارتفاع وإعلاء البشرية كلها - إذ من أجلنا نحن كان هذا الارتفاع والإعلاء، لأنه بسبب لاهوته لم يكن محتاجاً لهذا ولا لذلك.
- لاهوت المسيح هو الذي جعل التجسّد مفتاحاً كبيراً لنا، فتح أمامنا كل أسرار الخلاص والفداء والحياة الأبدية للكنيسة كلها.
- وفي كل هذه الحقائق الإيمانية، كان أثناسيوس كوارث بالتقليد لكنز العقيدة والإيمان الحي من الرسل والأنبياء والآباء، صقلها بالنعمة والإلهام ليجعل منها تاجاً على رأس الكنيسة، تشعّ على كل الأجيال لاهوتاً حياً يُفرّح قلوب المؤمنين.

الفصل السادس
النظرة إلى المسيح كإنسان

أولاً: أثناسيوس والمواقف السلبية التي للأريوسيين من جهة بشرية المسيح (838)

لم يكن أثناسيوس - في شرحه وتوضيحه ودفاعه - متجهاً ناحية الفحص اللاهوتي النظري بحد ذاته، ولكن كان محور كل تفكيره وكتاباته هو لاهوت الخلاص؛ كان همُّ أثناسيوس أن يكشف قوة الخلاص التي دخلت العالم بالتجسُّد، لذلك كان تعرُّضه لبشرية المسيح ملتزماً في البداية بحدود الإنجيل و"الكلمة صار جسداً"، فالجسد هو بشرية المسيح، وهو التعبير عن إنسانيته (839)، وكان يستخدم لفظ "سوما sîma" مرادفاً لكلمة "أنثروبوس nqrwpoj" بلا أي حرج وبدون تمييز. ولكن من بعد سنة 362 نراه يبدأ يوضِّح بدقة مفهوم الكمال الناسوتي، مستخدماً كلمة "ساركس s̄rx"، للتعبير عن الجسد، مضافاً إليها ما يكملها من جهة النفس الناطقة «yuc¾ logik»، وكذلك "الروح" أحياناً pneàma وذلك لمواجهة شطط نظرية أبوليناريوس (840).

والنتيجة المترتبة على هذه التوضيحات، أن أثناسيوس بالتالي لم يتعرَّض لموضوع عصمة المسيح من الخطأ، باعتبار هذه العصمة بديهية ومذكورة بوضوح في قول المسيح عن نفسه، ولكن لما احتدم الجدل بعد ظهور نظرية أبوليناريوس، والتي سبقها على نفس المستوى ادعاء أريوس "بتغير طبيعة المسيح"؛ بدأ أثناسيوس يؤكد لاهوت المسيح، حيث يتحتم أن يكون دائماً أبداً بلا تغيير وبلا خطية!! وإلا فإنه يتحتم أن يدخل المسيح تحت الدينونة!! وهو الديان!!

[لأنه يلزم أن نعتبر مقدار فظاعة الخطأ، إذا قيل إن "كلمة الله" هو مجرد عمل من أعمال الله" أو خلقه، لأن سليمان النبي يقول: «لأن الله يحضر كل

(838) وفيما يختص بظهور أو استعلان "الكلمة" في العهد القديم بالنسبة لله، فالقديس أثناسيوس ينفرد بشرح مبدع في هذا الموضوع، إذ يعتبر في إرسال الله للملائكة في العهد القديم لتبليغ رسالة الله، أن الملاك كان في حقيقته ومظهره مجرد ملاك، ولكن النطق والرسالة كان بواسطة "الكلمة"، أي أن الملاك لم يكن هو "الكلمة" في العهد القديم، ولكن الله كان يتكلم "بالكلمة" في الملائكة (Athanas., Orat. III, 12,)، لذلك صح أن يُقال، بخصوص ظهور الملائكة وتسليمهم الرسالة، إن الله يقول أو الملاك قال.

(839) Athanas., *De Incar.*, 18.1, 21.7.

(840) Athanas., *Letters* 59, 60; *C. Apolli.*

عمل إلى الدينونة على كل خفي إن خيراً أو شراً» (جا 14:12). فإن كان الكلمة هو «عمل»، فهل تقصدون من هذا أنه سيأتي للدينونة شأنه شأن الآخرين؟ وكيف يبقى معنى للدينونة، إن كان القاضي والديان يدخل تحت الفحص والإدانة؟ ثم كيف ومن ذا الذي سيتولى بعد ذلك تبرئة البار؟ أو عقاب غير المستحق؟ ثم بأي قانون أو ناموس يُحاكَم ويُدان مَنْ شرَّع القانون نفسه، إن هو دخل إلى الفحص والقضاء؟

... إن الابن ليس هو مجرد «عمل من أعمال الله» بل «كلمة الله» ذاته الذي فيه تأتي كل الأعمال إلى الدينونة. [841]

**نظرة أثناسيوس - من جهة بشرية المسيح - نحو معرفة اليوم والساعة الأخيرة،
(بخصوص ما جاء في إنجيل مرقس 13:32، لوقا 2:52):**

وهي النصوص التي اعتمد عليها الأريوسيون في تدعيم ادعائهم أن المسيح كابن الله وكلمته، وحتى من جهة لاهوته، كان يجهل تحديد ميعاد اليوم الأخير وبالتالي التاريخ المستقبلي.

وكان رد أثناسيوس في حديثه الثالث ضد الأريوسيين الذي استغرق اثني عشر فصلاً متصلاً (842)، والذي كان محور الدفاع فيه أن ما جاء في الإنجيل بهذا الخصوص لم يكن عائداً على «اللوغس» كلمة الله في ذاته كابن الله، فهذا افتراء! ولكن كان منصباً على الابن المتجسد في حالة تجسده كابن الإنسان.

ويمكن تلخيص ما جاء في هذا الدفاع في النقاط الآتية (843):

- 1 - قول الرب: «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الأب»، لم يذكر الروح القدس؛ فإذا كان الروح القدس يعلم باليوم والساعة، فالابن يعلم بهما باعتباره «الكلمة»، لأن الروح القدس يأخذ مما للمسيح.
- 2 - إذا كان الابن يعرف الأب، فحتماً يعرف كل ما يعرفه الأب.
- 3 - إذا كان الابن له كل ما للأب، فحتماً يعرف اليوم والساعة.

(841) Athanas., *Discourse II*. 6.

(842) Athanas., *Discourse III*, 42-53.

(843) N.P.N.F. Series II, vol. VI, p. 416.

- 4 - الذي خلق كل الأشياء، يعلم متى تنتهي، والذي كان يعلم علامات ما قبل اليوم والساعة بدقة، لم تكن تُخفى عليه الساعة نفسها (إلا بإرادته وحده).
- 5 - المسيح كان يعلم ولكن ليس بصفته ابن البشر (متى 24:42)، فكان هنا يتكلم بشرياً.
- 6 - المسيح قال إنه لا يعلم، لأن في ذلك منفعتنا، حتى نكف عن حب استطلاع المواعيد، كما جاء في سفر الأعمال 7:1.
- 7 - كما كان يتقدّم في القامة والحكمة عند الله والناس، كذلك كان اللاهوت يُستعلن فيه أكثر فأكثر بتقدم الزمن.

ولقد احتدم الجدل اللاهوتي حول هذا الموضوع عند الآباء بعد أثناسيوس، ولكن ظل معظم الآباء اللاهوتيين على رأي أثناسيوس.

لكن يلزمنا هنا أن نوضّح رأينا في الخلفية اللاهوتية الدقيقة، التي كان يتحرّك فكر أثناسيوس في إطارها، فالجهل باليوم أو المعرفة به لم تكن متصلة بمفهوم طبيعته، لأن اللاهوت والناسوت في المسيح لم يعتريهما افتراق لا لحظة ولا طرفة عين، في كل ما يختص بشخصه وفكره وقوله وعمله ومعرفته؛ ولكن الذي كان يتغيّر وينمو هو ما يختص برسالته.

فرسالة التجسّد التي تختص بالفداء وتنتهي عنده، ليس لها أن تتداخل في رسالة الدينونة، وهذا أوضحه الرب بقوله: «إن ابن الإنسان لم يأت ليدين العالم بل ليخلص العالم»، مع أنه في موضع آخر قال إن الدينونة أُعطيت للابن: «لأن الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة للابن» (يو 5:22)، وهنا يتضح أن للخلاص زمناً وعملاً وحدوداً، وأن للدينونة زمناً وعملاً وحدوداً، وأن الابن - كما أرسل للفداء - سيُرسل للدينونة، وكلا الإرساليتين من الآب. فالابن، وهو في حال عمل الفداء، له أن يقول - عن حق - بمقتضى التدبير إن يوم الدينونة والساعة الأخيرة ليست حالئذ في دائرة عمله، أي لم يُعط بعد عملها - من الآب - وبالتالي ميعادها.

لأن المسيح أوضح جداً في مواضع سابقة، أنه لا يعمل إلا كما يريه الآب، وكما يعلمه الآب، وكما يقول له الآب، ومن نفسه هو لا يعمل شيئاً! «الحق الحق أقول لكم لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظر الآب يعمل. لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك» (يو 5:19). وهذا من صميم مفهوم الإخلاء، حتى يكمل كل

حدود الطاعة حتى الموت على الصليب.

وهكذا يتضح تماماً أن المسيح بقوله إن «الابن» لا يعلم ذلك اليوم ولا تلك الساعة إلا الآب، إنما يتمشى تماماً مع رسالة الابن وهو لم يكمل بعد رسالة الفداء على الصليب.

أمّا من جهة القدرة على المعرفة المطلقة بالكلية بحسب طبيعة الابن، فمعلوم يقيناً أن كل ما يعمله الآب يعمله الابن، فجوهر الطبيعة واحد في الآب والابن؛ إنما الذي حجز المعرفة عن الابن هي مشيئة الابن نفسه في التخلي، أو الإخلاء، الذي استخدمه ليظهر في الهيئة كإنسان لتكميل الطاعة حتى الموت أولاً؛ وبالتالي ليستطيع أن يقول عن حق إنه لا يعلم تلك الساعة!! أي بخصوص أعمال ما بعد الفداء، أي في ما يخص الدينونة، في حين أنه كان عالماً تماماً بساعة موته على الصليب «قد أتت الساعة لیتمجّد ابن الإنسان» (يو 12:23). وهكذا يظهر تماماً أن معرفة الابن كانت تُستمد من الآب في حدود الرسالة الموضوعه أمامه، وإلاّ يستحيل فهم طاعة الابن للآب.

ويمكن تلخيص نظرية أثناسيوس من نحو هذه القضية في جملة عقائدية مختصرة وبديعة نضعها هكذا:

إن المسيح، إذا شاء، يعلم كما يعلم الله

وإذا شاء، يجهل كما يجهل الإنسان!!

أو أنه كان يعلم كالله ويجهل كإنسان إنما حسب ضرورة الفداء

لأنه لمّا تجسّد لم يفقد شيئاً مما هو له كإله، ولا أخلّ بما هو للإنسان. فلما قال: «إن الابن لا يعلم هذا اليوم ولا تلك الساعة»، أثبت كمال ما هو لتجسّده في حدود رسالة الفداء التي تنتهي عند ساعة الصليب، وليس عند ساعة الدينونة، ولكن جهله بساعة الدينونة باعتباره الذبيحة التي تنهي الموت على الصليب، يزيد من عظمة إخلائه لذاته، وهو كإله أعطي كل الدينونة.

ولا يغيب عن بالنا قط، ونحن في هذا المضمار، أنّ من دوافع التجسّد الأصلية قبول الجهالة التي للإنسان: «مولوداً من امرأة تحت الناموس»، حتى يستطيع أن يكمل الناموس، أي أن اتجاه التجسّد هو إلى التواضع والتنازل إلى كل ما هو

للإنسان، وليس التطلع إلى التفوق والامتياز الذي "للكلمة"، بالرغم من أنه استخدم هذا التفوق والامتياز الإلهي الذي للكلمة، الذي هو لاهوته، عند الضرورة في لحظات المصادرة أو لإثبات شخصيته والإعلان عن رسالته.

ويكرّر أثناسيوس أنه في كل تصرف من هذا القبيل أو ذلك، إنما كان الدافع الوحيد هو: [من أجل منفعتنا] (844) أو كما يضعها أثناسيوس في صيغتها اللاهوتية دائماً هكذا: [من أجل التدبير]، قاصداً تكميل العمل الخلاصي الذي تجسّد من أجله. فكما أن المسيح تجسّد من أجل التدبير *Economia*، كذلك فإن جهله لليوم وللساعة الأخيرة هو من أجل التدبير سواء بسواء، لأن على قياس وغاية التجسّد يتحمّم فهم كل عمل وقول وتصرف أتاه المسيح، وكل تدبير هو - من جهة - يقوم على حجب اللاهوت في محدودية الناسوت، ومن جهة أخرى يقوم على استعلانه اللاهوت من داخل محدودية الناسوت، ولكن كلاً في موضعه، بحسب حدود دور الرسالة التي جاء يكملها في طاعة الأب.

ثانياً: موقع العذراء من التجسّد وبالتالي من بشرية المسيح

كان أثناسيوس في كل منهجه اللاهوتي واضحاً غاية الوضوح في تحديد موضع العذراء بالنسبة للتجسّد، فهي ليست كأم لبشرية المسيح، وإنما أمّاً للإله الكلمة المتجسّد منها. فهي "التيئوتوكوس" أي والدة الإله، أو "حاملة الإله"، بكل وضوح وتأكيد وتكرار (845)، كما أكّد أثناسيوس على دوام بتولية العذراء، تأكيداً لمفهوم الميلاد الفائق الوصف والإعجازي للإله المتجسّد (846).

ولكن لم يصدر عن القديس أثناسيوس أيّة إشارة في جميع كتاباته عن أي دور أو وساطة للعذراء القديسة مريم في عمل الفداء والخلص، وبالتالي لم يأت في تعاليمه على أي ذكر لأي عبادة يمكن أن تقدّم لشخص العذراء مريم، مما يسمّى الآن بالعلم المريمي Mariology، فهذا البند مشجوب برمته في لاهوت القديس أثناسيوس.

(845) Athanas., *Discourse* III, 14, 29, 33; IV, 32; *C. Apollin.*, 1. 11, 12, 21.

(846) Athanas., *C. Apollin.*, 1.4.

ملخص الفصل السادس أولاً: أثناسيوس والمواقف السلبية للأريوسيين من جهة بشرية المسيح

- لم يكن أثناسيوس في شرحه وتوضيحه ودفاعه يتجه ناحية الفحص اللاهوتي النظري بحد ذاته، ولكن كان كل محور تفكيره وكتاباتاته هو "الخلاص".
- وكان همُّ أثناسيوس أن يكشف قوة الخلاص التي دخلت العالم بالتجسّد، ملتزماً بحدود الإنجيل: «والكلمة صار جسداً».
- كان أثناسيوس يستخدم في البداية للتعبير عن بشرية المسيح، لفظ "سوما" = جسد، كمرادف لكلمة "الإنسان". ولكن بعد سنة 362م بدأ يستخدم لفظ "ساركس" للتعبير عن الجسد وما يكمله من نفس ناطقة وروح، وأحياناً كان يستخدم هذا التعبير لمواجهة نظرية "أبوليناريوس" الذي نادى بابتلاع الناسوت في اللاهوت.
- على أن أثناسيوس في مقابل ذلك كان يؤكّد لاهوت المسيح حينما احتدم الجدل حول تغير طبيعة المسيح:
[فالابن ليس مجرد "عمل من أعمال الله"، بل هو "كلمة الله" ذاته الذي فيه تأتي كل الأعمال إلى الدينونة].
- معرفة المسيح لليوم والساعة الأخيرة (مر 13:32، لو 2:52).
- كان أريوس يعتمد في إنكاره لألوهية المسيح على الآية القائلة بجهله لليوم والساعة الأخيرة.
- وكان رد أثناسيوس في 12 فصلاً متصلاً في حديثه ضد الأريوسيين يتلخّص في أن الرب يسوع كان يعلم بهما باعتباره ابن الله الكلمة المساوي للآب في كل شيء، ولكنه قال إنه لا يعلم بهما باعتباره الابن وهو في حال تجسّده كابن الإنسان، وذلك لمنفعتنا، أو [من أجل التدبير].
- واللاهوت والناسوت لم يعتريهما أي افتراق ولا لحظة واحدة ولا طرفة عين، ولكن الذي كان يتغيّر وينمو هو ما يختص برسالة التجسّد وهي المذكورة في لو 2:52.

- فرسالة التجسّد كانت تختص بالفداء (وليس بالدينونة) وتنتهي عنده، أمّا إرسالية المسيح للدينونة في اليوم الأخير فكانت خارج دائرة عمله وهو في عمل التجسّد على الأرض.
- والمسيح أوضح بشدة أنه لا يعمل إلاّ كما يريه الآب، وكما يعلّمه الآب، وهذا من صميم مفهوم الإخلاء الإرادي من المجد، والطاعة للآب حتى الموت ... فعدم علمه باليوم ولا بالساعة يتمشّي تماماً مع رسالة الابن وهو لم يكمل بعد رسالة الفداء على الصليب.
- فالذي حجز المعرفة عن الابن هو مشيئة الابن نفسه في التخلّي عن مجده، أو الإخلاء، وهذه هي طاعة الابن للآب.
- ويمكن تلخيص تعليم أثناسيوس من نحو هذه القضية في جملة عقائدية مختصرة:

إن المسيح، إذا شاء، يعلم كما يعلم الله.

وإذا شاء، يجهل كما يجهل الإنسان!!

أو أنه كان يعلم كالله ويجهل كإنسان إنما حسب ضرورة الفداء

[من أجل التدبير]

- ولكن لا يُظن أن الابن بالتجسّد فقد شيئاً مما له كإله، ولا أخلّ بما هو للإنسان. فبقوله إن الابن لا يعلم الساعة أثبت كمال وحقيقة تجسّده. بل إن ذلك يزيد من عظمة إخلائه لذاته، فهو كإله أعطي كل الدينونة حينما صار ذبيحة تتهياً للموت على الصليب.
- وإن من دوافع التجسّد الأصيلية قبوله "الجهالة" التي للإنسان. ولم يكن اتجاه التجسّد التطلّع إلى التفوّق والامتياز الذي للاهوت الابن، بل إلى الاتضاع والتنازل إلى كل ما هو للإنسان.
- وكل تصرّف من هذا القبيل كان [من أجل منفعتنا]، أو [من أجل التدبير].
- فكما أن الابن تجسّد [من أجل التدبير]، فإن قوله بعدم علمه الساعة هو أيضاً: [من أجل التدبير].

ثانياً: موقع العذراء من التجسّد وبالتالي من بشرية المسيح

العذراء - عند أناسيوس - هي والدة الإله "ثيئوتوكوس" والدة الإله الكلمة المتجسّد منها. وهي دائمة البتولية تأكيداً لمفهوم الميلاد الفائق الوصف للإله المتجسّد.

ولكن ليس لها أي دور أو وساطة في عمل الفداء والخلاص.

الفصل السابع

معرفة الله في ذاته، ومعرفة الله في الخليقة

أولاً: معرفة الله في ذاته، ومعرفة الله في الخليقة

يعتبر هذا الموضوع من أهم وأخطر المواضيع التي خاضها القديس أثناسيوس، وأرسى فيها قواعد لاهوتية غاية في الأهمية.

وسوف يرى القارئ أن هذا الموضوع هو الأساس الذي يُبنى عليه كل اللاهوت الأرثوذكسي، والذي بمقتضاه وعلى هداه صارح أثناسيوس ضد الأريوسية.

وفي العصور الحديثة أخذ علماء اللاهوت رأي أثناسيوس بتوقير فائق، وحسبوه فريداً بحق، معتبرين أثناسيوس الشاهد الأول وعن جدارة للإيمان بحلول الله في الكون، بالرغم من إصرار كثير من النظريات التي تقول بتفوق طبيعة الله وانحجابها وتفردها في البعد عن كل جوهر مخلوق (847).

لم يبدأ أثناسيوس هذا البحث في هذا الموضوع الدقيق الحساس بنوع من الإيجابية الهادئة، ولكن الظروف هي التي أقحمت الكنيسة اضطراراً لخوض هذا الموضوع إزاء خروج الأريوسيين عن حدود الإيمان القويم واتباعهم للأصول الفلسفية الوثنية، مما قذفهم لركوب تصورات خاطئة ونظريات منسوجة حسب الفكر البشري عن الله وعن طبيعته، حتى يصلوا إلى غايتهم التي وضعوها مسبقاً.

لقد أصر أريوس على أن طبيعة الله متسامية عن فعل الخلق المادي، لأنها غير قابلة للحلول أو الاتصال بأي خليفة مادية. ولكي يحل مشكلة الخلق، فكّر أريوس في مخرج وهو أن الله اضطر لكي يخلق العالم المادي أن **يخلق وسيطاً** من لا شيء، الكلمة - اللوغس - المسيح، بحيث يكون من طبيعة أعلى من طبيعة المخلوقات المادية، وهذا بدوره يضطلع بخليقة المادة والخلائق الأخرى.

ولكن لا يصعب على أي مفكّر أن يحس أن نظرية أريوس هذه مجرد توليفة عقلية، فانه الفائق الأسمى المنزه عن الخلق ماذا يجبره على الخلق؟ بل وكيف يجوز بأن يُقال إنه خلق كلمته؟؟

وقد انبرى له القديس أثناسيوس، ليثبت من واقع الكتاب المقدّس، ومعاملات الله

(847) Fiske, *Idea of God*; cited by N. & P.N.F. 2nd Ser., vol. IV, p. lxxii.

مع الإنسان، ومن واقع شعور تَفَوَّى الإنسان وإحساسه العميق بالله؛ أن الله وإن كانت طبيعته يتحتم أن تكون فائقة كل التفوق وغير قابلة للإدراك العقلي، لأنها تفوق طبيعة العقل وتسمو عليه جداً وبلا أي قياس؛ إلا أن الله هو بنفسه - أي بكلمته - خلقنا، وهو بنفسه - بكلمته - نفخ فينا، ونحن نحس بيد الله الصانعة لكياننا كله، وندرك نسمة القدير التي نتنفسها ونحيا بها.

فالله خلقنا بإرادته وبقوة كلمته، ولكنه لم يخلقنا من طبيعته، لأنه خلقنا من لا شيء، لقد أراد الله أن نوجد، فصرنا موجودين، ولكن وجودنا ليس مستمداً من جوهر الله، لأننا وُجدنا من العدم! ولهذا فإن وجودنا قابل للتغيير بل وبدون الله قابل للزوال، ولا يمنعه من الزوال إلا إرادة - ونعمة - الله التي أوجدته والتي لا تزال مريدة لبقائه ووجوده، فنحن كخليقة إنما نحيا ونوجد ونتحرّك ونبقى بإرادة الله!

لقد ورثت المسيحية من العهد القديم معرفة ربوبية الله الفائقة والفريدة على كل خليقة، فالله عُرِف لدينا على مدى كل أسفار العهد القديم أنه وحده هو القادر المقدر والكلي القدرة Pantocrator أي الضابط الكل. وجميع المخلوقات إنما خُلقت خلقاً من العدم، فهي لا تقوم ولا توجد إلا اعتماداً على نعمة الله ومسرّة إرادته.

فالوجود المادي برمّته هو عطاء من الله، وليس ذلك فقط بل وحتى النفس البشرية هي قابلة للموت بطبيعتها، لأنها مخلوقة، وهي إنما تعيش وتحيا بنعمة الله.

والكنيسة كانت حريصة منذ البدء ضد التيار الفلسفي والوثني القائل: "بعدم الموت" بالنسبة للنفس البشرية، فالشهيد يوستينوس قاوم هذا المبدأ الأفلاطوني، مفنداً ذلك بقوله: إن القول بعدم الموت يعادل تماماً القول بعدم الخلق، فكل ما هو غير مائت هو غير مخلوق (848).

ولكن علاقة الله بالخلق كانت مثار تفكير واجتهاد. ونقطة الصعوبة عند المدافعين عن المسيحية ضد الوثنيين كانت هي العلاقة بين كيان الله، أي جوهره، وبين كيان العالم، أي الخليقة، التي هي الاستعلان الظاهري المدرك لطبيعة الله، التي شرحها بولس الرسول في رسالة رومية هكذا: «مُدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية

(848) St. Just., *Dialog. with Tripho*, c. 5 & 6.

ولا هوته» (رو 20:1). ويتضح لنا مدى هذا النزاع الفكري الخفي الذي كان يعتمل في قلب فلاسفة المسيحيين الأوائل، عندما يسأل أوريجانوس: هل يمكن أو هل يُسمح لنا أن نفكر في الله دون أن نراه وندركه كخالق؟ كان أوريجانوس يعتبر أن هذا مستحيل، فالتقوى كل التقوى أن يلتزم الفكر بجعل نسبة الخلق لطبيعة الله كصفة ملازمة لله، لا يمكن إدراكه بدونها كأمر حتمي!! وأن كل تفكير غير ذلك هو تجديف فظيع.

وهنا يقع أوريجانوس في المحذور إذ كان عليه إزاء هذا الشطط في التفكير أن يعترف بأن الخليقة هي أيضاً أزلية بأزلية الله؟

وهنا بدأ أوريجانوس يدافع عن نظريته بحذق وبراعة مذهلة، ولكن بزواوية انحراف لم يلحظها في البداية، كأن يقول: وهل يمكن أن يكون الله على شيء لم يكنه سابقاً؟ أي هل يمكن أن يكون الله غير خالق ثم يصير خالقاً؟

ولكن خطأ أوريجانوس هنا أنه حصر الله في مجرد "وجود"، أي في طبيعة موجودة، لا تعمل عملاً غير وجودها، أي من داخل وجودها، وهنا ألغى أوريجانوس إرادة الله وفعله ثم قوله أي "كلمته" المؤثر في خلق موجودات أخرى من العدم.

وكان تصوّر أوريجانوس يبدو بشيء من خداع البصر أنه منطقي، فالله سيد وخالق، وهل يمكن أن يكون الله في وقت من الأوقات لم يمارس قوته كسيد وخالق، أي "باننوكراتور" حيث كلمة pantokrator تفيد ممارسة فعلية للسلطان والضيبط. وهكذا انتهى أوريجانوس إلى أنه لكي يكون الله "باننوكراتور"، كان يلزم أن تكون كل الأشياء موجودة منذ الأزل لكي يمارس الله سلطانه عليها، وهكذا يصير في عرف أوريجانوس أن وجود الخليقة مرادف مستمر ودائم لوجود الله الأزلي. وكأن العالم يستمد وجوده وأزليته من وجود الله وأزليته أي يصير بالتالي مساوياً لجوهر الله.

وهذا بحد ذاته كان شططاً فلسفياً، هو التجديف بعينه، لأن قدرة الله على كل شيء وسلطانه الفائق يتبرهن على أعظم وجه لا بوجود العالم منذ الأزل بل بخلقته من لا شيء!

وهكذا لم يستطع أوريجانوس أن يتخلص من تيار الفكر الفلسفي الوثني، محاولاً

أن يمزج قصة الخليفة كما جاءت في الكتاب المقدس، التي تقوم على قدرة الله الفائقة للخلقة من العدم، يمزجها بأسس الفلسفة الوثنية التي تقوم على المعلومة الأولى وهي أزلية العالم وحتمية وجوده وديمومته وثبوت تكوينه الجوهرى؛ فلم يوفق أوريجانوس، وانحاز إلى الفلسفة الوثنية وسقط عن الفكر المسيحي المستقيم، وابتدأ أوريجانوس يعطي للخليفة أو "للعالم المخلوق" أوصافاً ليست من حقيقة "العالم المخلوق" الذي يعيش فيه، ويعيش فيه المسيحيون إيمانهم المسيحي.

وبسبب هذا المفهوم الذي وقع فيه أوريجانوس من جهة أزلية الخلفة وقع في عقيدة "أزلية النفس"، بل والأخطر من ذلك كله أنه سجّل على نفسه: [وجود الصلة المنطقية بين "ميلاد الابن" ووجود العالم دون انفصال]. (849)

ومن واقع منطق أوريجانوس هذا، يستحيل التفريق بين "الخلقة" و"الميلاد"، فكلاهما بالنسبة لله علاقتان أساسيتان أزليتان: فالابن بالنسبة لأوريجانوس [أزلي كشخص وجوهر معاً، ولكن ميلاده الأزلي هو في الحقيقة بالنسبة للعالم المخلوق أزلي أيضاً] (850). [وهكذا لم يستطع أوريجانوس بفلسفته أن يفلت من وضع الابن مع المخلوقات]. (851)

وهكذا أعطى أوريجانوس لأريوس وأتباعه النور الأخضر لاعتبار الابن مخلوقاً، ولكن أوريجانوس كان يختلف في هذا الاعتبار عن الأريوسيين اختلافاً كبيراً جداً، مما حدا بالقدّيس أثناسيوس أن يبرّئ أوريجانوس من اتهام الأريوسيين له أنه يوافقهم بعقيدته، لأن أوريجانوس وضع أساس مفهومه عن الخلفة أصلاً باعتبارها عملاً إلهياً أزلياً بلا ابتداء، لذلك يقول أثناسيوس مدافعاً عن أوريجانوس: [إن أوريجانوس يجحد بوضوح كل مَنْ يقول إنه كان هناك زمن لم يكن الابن موجوداً فيه] (852)، وحيث أن هذه هي الصفة الأساسية لأي مخلوق، فأثناسيوس ينفي بهذا صفة المخلوق عن الابن بالمفهوم الذي أذاعه أريوس.

(849) V.V. Bolotov, *Origen's Doct. of Hol. Tr.*, cited by Florovsky, *Aspects of Chr. Hist.* p. 43.

(850) Origen, *De princip.*, 1, 2, 10; 41-42, Florovsky, *op. cit.*, pp. 44, 45.

(851) Florovsky, *op. cit.*, p. 46.

(852) Athanas., *De Decr.*, 27.

وهكذا بدأ الخداع الفلسفي في نظر أريوس بسبب نظرية أوريغانوس يتلخص في مفهوم الفرق بين الزمن والأزلية، وأصبح الاختيار بين أحد المعطيين حتمياً:

إمّا اختيار أزلية الخليقة ومعها أزلية الابن، حيث لا زمن بحسب أوريغانوس، وهنا يبقى الله بلا تغيير قط ضابط الكل دائماً لسلطانه الأزلي فوق العالم، وأباً دائماً للابن المولود دائماً في الأزلية دون أي فاصل زمني؛ أو رفض أزلية العالم، ومعها رفض أزلية الابن، بحيث يكون وقت لم يكن فيه العالم ووقت لم يكن فيه ابن أيضاً!

وهكذا فرّق أريوس بين جوهر الله الأب عن جوهر الابن، واضعاً الابن مع الخليقة كمخلوق لم يكن موجوداً قبل أن يوجد، ومختلف جوهرياً عن الأب، ولو أنه أعطاه بعض الامتيازات، كأن يقول إنه جاء إلى الوجود قبل كل الدهور والأزمنة.

وهنا يصرخ أثاناسيوس في وجه أريوس لأنه يتلاعب بكلمة الزمن ويفرغها من مضمونها(853) حيث أن الظهور إلى الوجود من العدم معناه الخضوع الحتمي للزمن.

كذلك يقول أريوس إن الابن ليس من جوهر الأب، بل خلقه الله بالإرادة؛ وأريوس يستمد مفهومه هذا عن خلقه الله للابن بالإرادة من أوريغانوس الذي قال بهذا القول نفسه في ما يخص العالم والابن معاً، حيث أورد أوريغانوس كلمة "الإرادة" بمعنى المشورة الأزلية وليس مجرد الإرادة الخارجة عن الكيان الإلهي(854).

وهكذا يتضح أمام القارئ بكل وضوح أن موضوع النزاع اللاهوتي في ما يخص الإيمان بالله بين أريوس والكنيسة الأرثوذكسية - ممثلة بأثناسيوس - كان يدور مبدئياً في مشكلة الخلق، وكان هذا النزاع في أصوله الأولى في الحقيقة ذا طابع ديني إيماني تقوي، ولكن سرعان ما ارتفع إلى مستوى الصراع اللاهوتي الخطر عندما طبقه أريوس على الابن. وكان على الكنيسة أن تدافع عن تقواها وإيمانها وخلصها بالأسلحة اللاهوتية والفلسفية معاً.

وأول من أدخل هذا الصراع الديني إلى الميدان اللاهوتي الفلسفي هو ألكسندروس

(853) Athanas. *Contr. Ar.* I. 13.

(854) Origen, *De Princip.* 1,2,6; 35; cited by Florovsky, *op. cit.*, p. 46.

بابا الإسكندرية، الذي سمّاه سقراط المؤرّخ (5:1) بالفيلسوف اللاهوتي، فألكسندروس كان أول مَنْ حاول فصل "الإيمان بالله" عن المتعلّقات الأخرى في ما يخص العالم والخليقة(855).

وألكسندروس إنما كان يعكس فكر مصر التّقوي، حيث العبادة هي دائماً مصدر الفهم للاهوت، والعبادة لم تنفصل في مصر قط عن الإيمان، والإيمان يقوم أساساً على أن الله واحد حي قائم بذاته، فهذا هو الميراث الذي سلّم مرّةً للقديسين.

ولكن الذي يدرس تعليم أريوس يُصدم بحقيقة الانفصال الواضح بين التقوى والمعرفة، حيث لا يوجد عند أريوس أي إحساس بحياة الله في ذاته، فالتقوى غائبة في لاهوت أريوس، لذلك لا يصعب الحكم على تعاليمه بأنها أفكار مركّبة ميتة، بل ومبتذلة، ويكفي أن يدرك القارئ أن الله عند أريوس لا حياة له إلا في ما يتصل به بالعالم(856)!

ثانياً: أثناسيوس والخلق

قبل أن يبدأ الصراع الأريوسي، كان الخلق أحد المواضيع التي عالجه أثناسيوس في كتاباته المبكرة.

لأنه، كما سبق ونبّهنا أن عملية الخلق كانت إحدى الأساسيات التي دافعت عنها المسيحية ضد الوثنية كمدخل حتمي للفداء، فالتجسّد تمّ لفداء الخليقة، والخليقة الإنسانية سقطت - بالرغم من حالتها "الحسنة جداً" التي خلقت عليها يوم خلقت - وذلك بسبب أنها خلقت مبدئياً من العدم.

لذلك يستحيل فهم الفداء وتجسّد ابن الله، وبالتالي طبيعة ابن الله التي أكمل بها الفداء، إلا على أساس فهم واقع الخليقة وطبيعتها.

وبادئ ذي بدء، يضع أثناسيوس نصب عينيه في بحثه الأول، الذي قدّمه في دفاعه ضد الوثنية وتجسّد الكلمة، الفارق الهائل والجوهري بين الله والخليقة على

(855) Florovsky, *op. cit.*, p. 47.

(856) Florovsky, *op. cit.*, p. 48.

أساس الفارق بين طبيعة الله أي كيانه ووجوده في ذاته، وطبيعة العالم المخلوق أي وجوده الذي يستمد من إرادة الله.

فإنه كائن بذاته، موجود قبل كل الوجود، غير متغيّر، لأنه غير خاضع للزمن، وبالتالي فهو غير قابل للموت أو الفساد، في حين أن العالم المخلوق متغيّر، ولا يستقر على حال، فهو معرض للفساد وقابل للموت.

وعلى أساس الفارق الهائل بين الوجودين: وجود إلهي غير قابل للفساد أو الموت، ووجود مخلوق قابل للفساد والموت، يمكن تفسير سقوط العالم وفداء الله له.

على أن أثناسيوس يضيف إلى ذلك أن أي ترتيب يظهر في العالم المخلوق أو أي نظام أو جمال، إنما هو مُضاف إلى العالم وموضوع عليه ويبدأ أعلى من مستوى طبيعة العالم المتقلّب، هي بيد خالقه!

“فالكلمة” يضبط الخليقة كلها معاً، وينظّمها ويرتّبها، ويدبّرُها ويحكمها، لكي يوازن بين ما يريده لها من وجود منسجم مرتّب بحسب مشيئة الله وبين طبيعتها النازعة إلى الانحلال والفساد والعدم.

كذلك يعارض أثناسيوس فكرة الحلول الإلزامي، أي حلول اللوغس الطبيعي أو الغريزي في جوهر الأشياء المادية كعلة لوجودها ودوامها. فالخليقة إنما تقوم بقوة الانضباط التي يفرضها كلمة الله عليها تلقائياً من الخارج بالإرادة والنعمة وليس كالنزام.

فأثناسيوس يمتد من عقيدة خلقه الله للعالم من لا شيء بأمر إلهي، إلى استمرار وجود العالم تحت هذا الأمر عينه من الخالق، والإنسان يشارك العالم في هذا الوجود عينه، فهو مخلوق مكوّن وليس بسيطاً، مخلوق من غير وجود سابق، وهو بطبيعته صار قابلاً للموت والفساد، ويستحيل عليه أن يفلت من هذا المصير إلاّ بنعمة الله وشركة اللوغس، لأن الإنسان بذاته لا يقدر أن يعيش إلى الأبد (857).

واللوغس، الذي يعبر عنه أثناسيوس بأنه ابن الله الوحيد، لا يوجد بينه وبين المخلوقات أي تشابه طبيعي، فاللوغس موجود في العالم، ولكن ليس هو الوجود

(857) Athanas., *Contra Gent.*, 40-43; *De Incar.*, 2,3,5. cited by Florovsky, *op. cit.*, p. 50.

الضمني المحدود، بل الوجود المحرّك الفعال المحيي، أي أنه موجود بقوته وقدراته، أمّا جوهره (كيانه الذاتي) فهو فائق عن كل ما في العالم المخلوق.

وإليك كلام أثناسيوس نفسه:

[فلا يتوهمن أحد أنه (أي اللوغس الكلمة) أصبح محصوراً في الجسد (الذي حلّ فيه)، أو أن كل مكان آخر أصبح خالياً منه بسبب حلوله في الجسد، أو أن العالم أصبح محروماً من عنايته وتدبيره طالما كان يحرك الجسد؛ ولكن ما يدعو للدهشة أنه مع كونه هو "الكلمة" الذي لا يسعه مكان، فإنه يملأ كل مكان، وبينما كان حاضراً في كل الخليقة، فإنه كان يتميّز (يفوق) عن سائر الكون في الجوهر (الكياني الذاتي) وحاضراً في كل الأشياء بقدرته، ضابطاً كل الأشياء، ومُظهراً عنايته فوق الكل وفي الكل، ومعطياً الحياة لكل شيء، حاوياً كل شيء، دون أن يحتويه شيء، بل كائناً في أبيه كلية وبكل معنى.

وهكذا وبينما هو حالٌ في جسد بشري، محيياً إيّاه بذاته، فقد كان يمنح الكون كله الحياة أيضاً دون تناقض، موجوداً في كل عملية من عمليات الطبيعة وفي نفس الوقت خارجاً عنها جميعاً، وبينما كان يُدرّك بسبب الجسد الذي يعمل فيه، كان - وليس أقل من ذلك - ظاهراً في أعماله التي يعملها في الكون.

... وليس لأنه موجود في العالم معناه أنه يشارك العالم في طبيعته، بل على النقيض فكل الأشياء تستمد منه حياتها وقوامها.] (858)

وهكذا كان العلماء كلهم يتخبّطون في كيفية خلقة الله للعالم ومدى الصلة التي تربط العالم بخالقه، فتارة ينحرفون نحو حلول الكلمة "اللوغس" في العالم جوهرياً، وبهذا يؤلّهون الكون ويعطونه صفة الأزلية والديمومة، وتارة ينحرفون نحو تنزيه الله وانعزاله المطلق عن العالم المخلوق، الأمر الذي يحرمّ تصور وجوده الشخصي بيننا ويبعده عن الخليقة كلها، منزهين إيّاه عن المادة والحلول بأي صورة كانت في الخليقة، مما جعلهم يتطلّعون إلى وسيط للخلق بين الله المنزّه عن الخليقة وبين الخليقة المنحطّة عن مستوى الحلول الإلهي.

وكل هذا الخلط والتشويش وقع فيه أريوس وغيره، بينما أثناسيوس كان قد سبق

ووضع أسس اللاهوت الصحيح في هذا الأمر في كتابيه الصغيرين: “ضد الوثنيين” و”تجسد الكلمة”، ثم أوضح ذلك جداً بعد ذلك حيث يمكن تلخيصه في جملة واحدة: إن الله خلق الكون بكلمته، بالإرادة والقدرة وليس بجوهره، أي ليس من كيانه الذاتي، أي أنه خلقه من لا شيء. فالعالم قائم ومرتبب ليس من ذاته بل بسلطان الله، فالله موجود في العالم بكلمته وإرادته حسب مسرّة مشيئته وسلطانه، ولكنه فائق ومنزّه عنه بجوهره أي بكيانه الذاتي.

وهكذا وضع أثناسيوس ولأول مرّة المصالحة العظمى في لاهوت الخلق بين الحلول والتنزيه.

وفي نفس الوقت وضع أثناسيوس الأصول الأولى للاهوت الأرثوذكسي في ما يختص بالتمييز المحدد جداً بين جوهر الله الذاتي الداخلي غير المنظور وغير المدرك، وبين عمله الخلق، وما يتبعه حتماً من إرادة وسلطان وضبط وعناية وتدبير وصلاح وجمال، وهو المظهر الخارجي المدرك في العالم والخليقة، المعبر عنه: “بنعمة الله المجانية العامة” التي تدبر الكون (859).

ولكن بينما يسقط أريوس ويتعثر في العلاقة التي تربط الآب بالابن، أي الله بكلمته ثم بالخليقة، معتبراً أن الله خلق اللوغس ليخلق به العالم، فشوش العلاقة التي تربط الله بكلمته ثم شوش العلاقة التي تربط الخالق بالخليقة، فأساء بذلك إلى مفهوم الله في ذاته كأب وابن أو كالله وكلمته، وجعلها علاقة معلولة، أي مرتبطة بالخلقة؛ فلولا أن الله أراد أن يخلق العالم ويخلق الإنسان، ما كان أوجد أو ما كان خلق كلمته!! وهكذا أدخل أريوس بحماقته جوهر الابن الذاتي كمعلول أو كأداة مؤقتة للخلقة (860)!

نقول بينما يسقط أريوس ويتعثر، نجد أثناسيوس يوضّح أن “كلمة” الله الخالق كان ولا يزال علة الخلق الأولى والمباشرة والفعّالة، وأن كيان “الكلمة” كان قبل الخلق وأثناء الخلق وبعد الخلق حراً ومستقلاً استقلالاً كلياً عن الخلق وعن فعل الخلق، وعن تدبير الخلق للعالم والإنسان وكل ما فيه: يقول الهرطقة:

(859) A. Gaudel, *La Theolog. du “Verbe” chez st. Athanas.*, pp. 1-26, cited by Florovsky, *op. cit.*, p. 51.

(860) Athanas., *Against Ar.*, II, 30.

[نحن لم نُخلق من أجله (الابن) بل هو الذي خُلق من أجلنا، لذلك هو مدين بالشكر لنا!!]

ويعلقُ أثناسيوس:

[إن ما يقوله هؤلاء الهرطقة (الابن مخلوق من أجلنا) هو المرض بعينه بل هو التقبُّو.][861]

[ولكن الحقيقة في هذا الأمر لا ينبغي أن تخفى، بل يلزم أن تعلنَ عالياً، لأن كلمة الله لم يُخلق من أجلنا، بل بالحري نحن الذين خُلقنا من أجله“ فإنه فيه خُلق الكل” (كو 1:16) وليس بسبب كوننا ضعفاءً (بالطبيعة) خُلق هو (الكلمة) قوياً بواسطة الأب وحده؛ حتى يعيد صياغتنا بواسطة كأداة - فليهلك رأيهم هذا - ليس هذا حقاً، لأنه بينما ظهر (من سفر التكوين) أن الله لم يجد الأمر حسناً أن يخلق الأشياء إلاً بالكلمة مع الله مساوياً كآب في الابن، هكذا فإن الأشياء التي خُلقَت لم يكن ممكناً أن تظهر إلى الوجود إلاً بواسطة “الكلمة” حيث إنها به صارت كما يحق.

كذلك فإنه بسبب أن “الكلمة” هو ابن الله بالطبيعة ومساوٍ له بالجوهر وهو منه وفيه قائم، كما قال هو بنفسه، فإن الخلائق كان يستحيل أن تأتي إلى الوجود إلاً بواسطة.][862]

كما يستطرد أثناسيوس قائلاً إنه حتى وإذا لم يكن الأب قد خطَّط ليخلق العالم أو شيئاً مما فيه، فإن “الكلمة” هو مع الله، والآب فيه.

وقد اعتنى أثناسيوس جداً في صراعه مع هرطقة أريوس وفي مواضع عدة من كتاباته، أن يوضِّح أن علاقة الأب بالابن هي قائمة بذاتها، خلواً من أي تدبير آخر للخلق، أو حتى خلاص الإنسان، وهذه النظرة العميقة الفاحصة والمحددة المعالم بالنسبة لرؤية الله في الثالوث الأقدس والآب والابن والروح القدس، المستقلة عن أي اعتبار آخر، جعلت أثناسيوس حراً في نظريته اللاهوتية لكل أعمال الله في

(861) يقصد القديس أثناسيوس أن الهرطقة بسبب مرض أرواحهم وعقولهم وإيمانهم لم يستطيعوا أن يهضموا حقائق الإيمان العالية، فاضطروا أن يتقبَّأوها بدون نضج.

(862) Athanas., *Contra Arian.*, II, 31.

الخليقة والخلص، دون أي خلط بين الله في ذاته Theologia، وبين تدبير الله Oikonomia، بالرغم من شدة الالتحام بين الله وتدبيره؛ واضعاً نصب عينه أن تكون الأولوية دائماً لله في ذاته على الله في عمله وإرادته(863)!!

وهذا رداً على ابتعاد أريوس عن حقيقة الله، ابتعاداً كان كفيلاً أن يطمس معالم اللاهوت أو معرفة الله في ذاته، فالله عند أريوس مرتبط بالخلقة ارتباطاً كيانياً، أي أن الله لا يُعرف إلا كخالق وحسب.

أمّا أثناسيوس فيبرز أبوة الله، وهي الصفة الجوهرية الذاتية لله في ذاته، فوق وقبل صفة “الخالق”.

فحينما نقول إن الله “آب”، فهذا نعني عن الله في ذاته شيئاً أعلى بكثير من علاقاته بمخلوقاته العامة!!(864)، والتجسد هو الذي كشف لنا عن ذات الله الواحد الآب والابن والروح القدس! فالأبوة هي صفة ذات الله الجوهرية بالنسبة لابنه، وهذه “الأبوة” في ذات الله هي التي انتقلت إلينا بالتبني في المسيح بواسطة التجسد والموت والقيامة - بالميلاد في المعمودية باسم الآب والابن والروح القدس(865)، أي أننا لمّا ارتفعنا من مستوى المخلوقات العامة إلى مستوى البنين باتحادنا بالابن - في موته وقيامته - تأهلنا أن نرتفع من إدراك الله كخالق بالمستوى الفكري أو الإيمان النظري، إلى إدراك الله كأب، بالمستوى السري كشركة وحياء.

وأثناسيوس يُصرُّ على أن الله قبل أن يخلق العالم كان هو آب. وهو آب خلق العالم بالكلمة حسب مسرّة إرادته؛ وأثناسيوس هنا يوضّح أن مفهوم كيان الله الذاتي كأب وابن، سابق على مفهوم ظهور إرادة الله للخلق، أي أن الله فوق إرادة الخلق، بمعنى أن كيان ذات الله (جوهره) هو فوق الإرادة الفاعلة في الخلق، وفوق الصفة المتأتية من الخلق أي الخالق(866).

فوجود الله يُنشئ إرادة الخلق، ولكن إرادة الخلق لا تنشئ وجود الله، فالله موجود

(863) Florovsky, *op. cit.*, p. 52.

(864) Athanas., *Contra Arian.*, 1:33.

(865) *Ibid.* 1:34.

(866) *Ibid.* II. 2.

بذاته أولاً، وذاته هي أبوة وبنوة وروح قدس.

وهنا أثناسيوس يتكلم عن الترتيب بحسب المنطق، وليس بحسب الترتيب الزمني، لأنه لا يوجد ترتيب زمني في كيان الله وصفاته.

وعند أثناسيوس يوجد بالأساس نوعان من الصفات الإلهية:

- 1 - صفات ذاتية كيانية في الله، أي تتعلّق بكيانه ووجوده الذاتي، وهذه الصفات جوهرية: الأب والابن والروح القدس.
- 2 - صفات أخرى تتعلّق بأعمال الله، أي بإرادته ومشيبته الذاتية، أو كما يسميها الكتاب: “مشورة الله”.

وأثناسيوس يصمّم على الفصل والتحديد والتمييز بين هذين النوعين من الصفات، ولا يعتبر أن هذا التمييز أو الفصل مسألة منطقية أو عقلية، أي فلسفية، بل هي في الحقيقة تختص بصميم الإيمان بالله:

- لأنها تختص أولاً بكيان الله في ذاته، وهذا موضوع العبادة الأول، والحقيقة العظمى التي استعلنّت من جهة ذات الله الأب والابن والروح القدس في الأسفار المقدّسة والتجسّد وحلول الروح القدس.
- ثم تختص بتوضيح عمل الله بالإرادة في الخلق، حيث هذه الإرادة أو المشيئة أو المشورة متطابقة للأب كما للابن كما للروح القدس.

ويفرّق أثناسيوس بين إرادة الله في الخلق والصفات الجوهرية لله: الأب والابن والروح القدس، الخاصة بكيان ووجود الله الذاتي. ويعتبر هذه الصفات “واجبة” الوجود، أو حتمية من حيث إنها أزلية لا تستمد وجودها من آخر، هذا “الوجوب” أو هذه “الحتمية necessity” بالنسبة للوجود الإلهي تعطيه الصفة الجوهرية، لأن الله غير مختار في أن يختار أو يريد وجوده (867)، لأنه كائن بذاته حسب تعبير الله عن نفسه لموسى “أنا الموجود بذاتي = miچTMgè e =”. هنا لا دخل إطلاقاً لأي إرادة في ذلك.

ثم كان لائقاً بالله أن يخلق، فهذا بحد ذاته تعبير عن وجود الله أو إعلان عنه من خارج كيان الله. وهو فعل إرادته أو عمل مشورته، وليس امتداداً لكيانه أو جوهره.

وأثناسيوس يصر على التمييز القاطع بين إرادة الله أو مشورة الله في الخلق وبين علاقة الأب بالابن، ووضعاً حاداً مميزاً بين “الإرادة” و”الجوهر”. وقد ركّز أثناسيوس على هذه الحقيقة بتأكيد وتكرار كثير جاعلاً إيّاها أساساً لنقض كل ادعاءات الهرطقة الأريوسية. أن “يكون الله”، هذا شيء؛ وأن “يعمل الله”، هذا شيء آخر!

فالخلق Creation هو من عمل الإرادة الذاتية، وهو للأب كما للابن كما للروح القدس، ونتيجته مخلوقات، أي أعراض خارج الكيان الذاتي لله. أمّا أبوة الله للابن Generation فهي من كيان وجود (جوهر) الله الذاتي (868). وهذه الأبوة هي من ذات كيان الله، في ذات كيان الله.

ولكي يدلل أثناسيوس على الفرق والتمييز بين علاقة الله بالعالم المخلوق وبين العلاقة الجوهرية بين الأب والابن الخارجة والبعيدة عن مفهوم الخلق، يأتي بتشبيهات كثيرة من الأسفار تختص بهذه العلاقة ويكشف منها أسرار الله.

1 - في حديثه ضد الأريوسيين 1:19:

[من صفات الله الهامة في الأسفار المقدّسة، أنه “ينبوع الحكمة”. ومن صفات المسيح ابن الله الهامة، أنه “حكمة الله”.

فالآن إذا نحن أخذنا بقول الأريوسيين أنه كان يوجد وقت لم يكن فيه الابن موجوداً، فهذا يعني بالضرورة أن ينبوع كان في وقت ما فارغاً وجافاً، أو بالحري لم يكن ينبوعاً بالمرّة!؟ لأن ينبوع الذي لا ينبع منه شيء ليس هو ينبوعاً بالمرّة].

هذا هو التشبيه المحبوب عند أثناسيوس والذي يكرّره باستمرار في حديثه ضد الأريوسيين.

كذلك في الحديث الثاني الفصل الثاني يقول:

[إذا لم يكن “الكلمة” هو الابن الحقيقي لله، فالله لا يكون أباً قط بل صانع مخلوقات وحسب!!]

وهنا يبدأ أثناسيوس ليدخل ألفاظاً مستمدة من مفهوم الأوصاف الواردة في الأسفار، إنما جديدة وبرّاقة ومثيرة في وصف الأهمية العظمى والمطلقة لوجود الآب والابن في الكيان الذاتي الواحد لله. فيقول:

[إذا فرضنا خلو الطبيعة الإلهية من وجود البنوة في الله فهذا يطفئ جذوة الطبيعة الإلهية، ويجعلها عقيمة غير وهّاجة غير مخصبة، مجدبة، ينبوعاً جافاً].

œrhmoj	مجدبة (غير مخصبة)
gonoj m ^{3/4} karp	غير مثمرة (عقيمة)
j fîj m ^{3/4} fètizon و	جذوة مطفأة) نور بدون
phg ^{3/4} xhr ⁱ	نور
¼lioj cwr [^] j toà çpaug£smatoj	ينبوع جاف
	شمس بلا شعاع (غير وهّاجة)(869)

هذه الصفات خاصة بذات الله وكيانه وطبيعته - أي جوهره فقط - ولم يستخدمها أثناسيوس قط من جهة عمل الله في الخلق أو الكون.

2 - في حديثه ضد الأريوسيين 20:1:

[الله لا يمكن أن يكون بدون ما هو له في أي لحظة، هذا في ما يخص ذات الله أي الأبوة والبنوة].

وفي نفس الوقت لا يمكن أن ترقى المخلوقات إلى شيء مما لجوهر الله أو تتواصل بكيانه الذاتي. فهي إنما تبقى دائماً خارج كيان الله toàœxwqen a لأنها إنما أخذت وجودها وكيانها بنعمة وإرادة "الكلمة"، "لذلك فهي قابلة أن تتوقّف عن الوجود إذا رغب خالقها في ذلك، لأن هذه هي طبيعة الأشياء المخلوقة". [870]

وهنا يقارن ويميّز أثناسيوس بين "وجوب" أو "حتمية" الكيان الإلهي في ذاته

(869) Athanas., *Contra Arian.*, II, 2,1,14, 11,33; cited by Florovsky, *op. cit.*, p. 54.

(870) *Ibid.* (II, 24, 29).

الذي يحمل الآب والابن، وبين “عدم حتمية” كيان العالم المخلوق والمنضبط تحت إرادة وسلطان الله، وبالتالي “وجوب” وحتمية صفة الأبوة في الله غير الخاضعة للإرادة أو المشورة، وعدم حتمية الخلقة الخاضعة للإرادة والمشورة.

وهي مقارنة بين كيانين:

أبدي، وزمني،

واجب الوجود، وغير واجب الوجود،

ثابت، ومتغير،

مطلق، ومحدود.

[وكما أنه يمكن أن يُقال عن إنسان ما إنه خالق أو خلاق (مبدع) قبل أن يخلق أو يبدع شيئاً، في حين أنه لا يمكن أن يقال عنه إنه “أب” قبل أن يكون له ابن،

كذلك فإن الله يمكن أن يوصف بأنه خالق قبل أن يباشر إرادته بالخلق، أي قبل أن يكون العالم، لأنه من فعل إرادته.

فالله بالرغم من أنه كان قادراً أن يخلق العالم منذ الأزل، ولكن الحقيقة أن الأشياء المخلوقة يستحيل عليها أن توجد منذ الأزل لأنها خُلقت من العدم، وتبعاً لذلك وبالضرورة لم توجد قبل أن يوجد الله من العدم!!

إن فكيف أن الأشياء التي لم توجد قبل أن يخلقها الله يمكن أن تكون أزلية

مع الله؟] (871)

ولكن، في نظر أثناسيوس، هذه المحدودية والضعف في طبيعة المخلوقات لا تحط قط من قدرة خالقها وإنما هي المقارنة - بحد ذاتها - بين وحدة الطبيعة الذاتية الأزلية لله - وبين التباين والتعدد والتغيير في طبيعة المخلوقات الوقتية هي التي رفعت من عظمة الطبيعة الإلهية وأنزلت من قيمة الطبيعة المخلوقة.

ومن هذا التسلسل يرى القارئ أن الهدف الأساسي من دفاع القديس أثناسيوس على مدى الثلاث مقالات المطولة ضد الأريوسيين، كان يتركز بقوة نحو إعطاء

(871) Ibid. (I, 26).

المفهوم اللاهوتي الكامل والصحيح عن سر الله في كيانه الذاتي “كآب وابن وروح قدس”، باعتباره سر العبادة الأعظم “الثلاثة في واحد”، محاولاً كل جهده أن يجعل حقيقة الله هذه واضحة مدركة بحد ذاتها خلواً من أي عمل آخر لله في الخليقة.

والإنسان لا يسعه وهو يدرس دفاع أثناسيوس فصلاً بعد فصل، إلا أن يدخل بالفعل في تأمل الحياة الإلهية في الله ذاته، حيث لا يجد الإنسان أي صعوبة في التعرف على الفارق الجذري بين الله والمخلوق أو بين صفة الله في ذاته وصفة الخالق بحد ذاتها، حيث يبدو التفوق للذات الإلهية مطلقاً بالدرجة التي يبدو فيها الله في غير حاجة إلى خليقته، لا لشيء إلا لأن كيانه الذاتي كامل ومتكامل في ذاته، أمّا هذا الكيان الذاتي لله فهو نفسه المستعلن لنا في الثالث(872).

ولكن في كل ذلك لم يغفل أثناسيوس عن أن يعطي سر الخلق المقترن بسر الكيان الإلهي أهمية، باعتباره عمل “التدبير الإلهي”، وهكذا يبتدئ أثناسيوس وينتهي عند التمييز بين سر “اللاهوت Theology” و “التدبير Economy”، وكان هذا التمييز هو الدافع الأساسي وراء تعرُّض أثناسيوس لسر الخلق بالحديث المطوّل في أول بحث عمله في حياته في كتابه “ضد الوثنيين”، تمهيداً للوصول الصحيح إلى مركز الكلمة المتجسّد من اللاهوت.

لأن التمييز بين “الوجود” و “الإرادة”، “الأبدي” و “الزمني”، “المطلق” و “المحدود”، الوجود الإلهي في ذاته وبين الإرادة الإلهية في الخليقة الزمنية، ينشئ في الحال تمييزاً وتفريقاً بالتالي بين كيانين، كيان الله الذي فيه الأب والابن وكيان المخلوقات، أي الكيان الثابت الداخلي لله في ذاته، وكيان الخلق غير الثابت المخلوق والمضبوط بالإرادة وبسيادة الله المطلقة - الذي له بداية، ويتحرّك بقوة الله نحو نهاية محسوبة سابقاً - حيث يستحيل أن يُنسب الابن للكيان الخارجي.

ثم على هذا الأساس بدأ أثناسيوس يفسّر عملية الفداء التي بدأت بتجسّد ابن الله، على أساس تحويل الخليقة (البشرية) من كيان التغير والفساد والتحرُّك - بدون الله - نحو العدم، إلى الكيان الثابت غير الفاسد غير المائت للحياة الأبدية - التأله - مع الأب والابن والروح القدس.

(872) Louis Bouyer, *Corps du Christ dans le Theologie de Saint Athanas.*, p. 47.

وهنا يعترف أعظم اللاهوتيين (873) أن أثناسيوس كان أول لاهوتي في العالم يميّز تمييزاً متقناً ومحكماً ومدروساً، ولأول مرّة في تاريخ الفكر البشري، بين **“الوجود الإلهي الذاتي”** و**“الإرادة الإلهية في الخلق”**، حيث لم يقدّمه أثناسيوس للعالم كنتاج فكري هادئ منهجي كنظرية، ولكن أطلقه كصيحات دفاع واحتجاج من وسط أتون معركة محتدمة مع هرطقة أشرار، يدفعهم الحقد ويناصرهم إمبراطور وجيش يجري وراءه يطلب حياته، دون أن يكون له فرصة للتأمل، مما أضاف إلى هذا الفكر اللاهوتي صدق وحرارة الإيمان وصفاء الرؤيا دون أي اتقان للمظهر المنهجي في التصنيف.

ولكن في ختام عرض هذا الفكر الزاخر والقدرة اللاهوتية التي وهبها الله لأثناسيوس بنعمة فيأضة، معلناً عن سر الثالوث في كيان ذات الله، وكاشفاً عن حدود فعل إرادة الخلق في العالم؛ يؤسفنا أن يبدأ اللاهوتيون باستخدام هذا التمييز بين **“الوجود الإلهي”** أي جوهر الله في ذاته وبين **“الإرادة الإلهية في خلق العالم”**، في غير موضعه إطلاقاً، مخترعين اصطلاحات جديدة مثل **“الطاقة غير المخلوقة”** و**“النور غير المخلوق”**، وبنوا عليها نظريات ونظريات؛ مع أن هذا التمييز، ما أراد منه أثناسيوس أصلاً إلاّ دحض ادعاء الأريوسيين الذي يقول بجهالة إن الله خلق الابن بالإرادة، ليكون وسيطاً للخلق، فردّ عليه أثناسيوس أن **إرادة الخلق إنما تعمل فقط في غير مجال الوجود الإلهي** وخارجاً منه، **فإرادة الخلق لا تستمد من جوهر الله عنصراً ما جديداً لخلق العالم أو لخلقة أي مخلوقات كانت**، فكل الخليقة ليست من جوهر ذات الله وبعيدة بعداً لا نهائياً ومطلقاً عن كيان الله الداخلي الذاتي، والله لم يكن محتاجاً إلى وسيط يخلقه أولاً بالإرادة لكي به يخلق العالم، فالابن هو من جوهر الله وكيان ذات الله، والله **“كأب وابن”** خلق العالم بالإرادة المباشرة، بل وخلق الإنسان الجديد بنفس الإرادة، مستشهداً في موضع ما ببيعقوب الرسول: **«شاء فولدنا بكلمة الحق لكي نكون باكورة من خلانقه»**. فإذا رجعنا إلى النص اليوناني نجده هكذا: **“أراد ذلك أولاً، j...hqe...a ج...ا فولدنا بكلمة الحق g...hqe...a ج...ا أي أن الأب ولدنا بالكلمة بحسب إرادة سابقة وأن هذه الإرادة واحدة بين الأب والكلمة لأنها سابقة على الزمن”** **“مخلوقين في المسيح يسوع”** **“اختارنا فيه قبل تأسيس العالم”**.

ولكن عندما تجسّد الابن وأكمل فداءنا، فتح أرواحنا على كيان الله وفتح كيان الله علينا، فأدركنا ما لا يُدرك وانكشفت لنا أعماق الله في المسيح بروح الله.

فأصبح الكيان الإلهي والإرادة الإلهية ملتحمين ومستعلنين معاً في المسيح، وبالتالي فينا بواسطة المسيح، فكل إرادة إلهية أو طاقة أو قدرة أو نور إلهي إنما تعمل فينا الآن، من خلال كيان المسيح الإلهي وبارادته الإلهية معاً.

وعليه فإنه لا يصح أن يُقال: “قدرة غير مخلوقة” وحسب و”النور غير مخلوق” وحسب، باعتبارها طاقات منفصلة عن كيان الله من جهة وليست من كيان الخليقة من جهة أخرى وبأن واحد، هذا ما لم يقصده أثناسيوس قط وهو لا يمكن أن يكون.

وأثناسيوس يؤكّد أن حلول الله أو حضوره المحب في صميم العالم لتدبيره المستمر له من داخل الطبيعة لا يتبع “الكلمة” أي الابن من دون الأب، ولكن هو في حقيقته تدبير الله من خلال كلمته، أي بواسطة ابنه، أو بتعبير شامل الله يدبّر العالم بنفسه(874).

كذلك فإن أثناسيوس يعترض على تنزيه الله عن حلوله في الخليقة، كما فعل الأريوسيون، حيث أعطوا الله من التعظيم والتكريم ما يكفي ليبعده عن العالم المخلوق عن خبث، ليقصوا الله عن الابن المتجسّد (بجسد مخلوق)، حتى يحرموا أنفسهم وكل من يتبعهم من الخلاص الأبدي. ولكن أثناسيوس يعيد تصحيح علاقة الله بالعالم، فالله قريب بالحلول وليس بعيداً بالتنزيه عن أحد قط(875).

والعالم، وعلى الخصوص النفس البشرية يعكسان صورة خالقهما(876). لذلك فهناك طريقان للإنسان لكي يبلغ بهما معرفة الله: الأول هو كتاب الكون(877)، والثاني التأمل في معرفة الإنسان لنفسه(878).

ولكن الطريقين قد تعنّتا معاً أمام رؤية الإنسان بسبب الخطية التي حجبت

(874) Athanas., *De Decr.*, II; *De Incar.*, 17.

(875) Athanas., *Orat.* ii, p. 361 sq., N. & P.N.F., 2bd ser., vol. IV, *op. cit.*, p.

(876) Athanas., *C. Gen.*, passim.

(877) Athanas., *C. Gent.*, 34.

(878) *Ibid.*, 33, 34.

الإحساس بالله وعثمت قوة الإدراك والإبصار، لذلك تحتم إيجاد طريق آخر حديث يتجاوز عجزنا الفاضح أو يرفعه عناً، وهذا تم بالفعل في التجسد - الله ظهر في الجسد - الذي به صار لنا طريقاً حياً جديداً للدخول إلى الله، فائق عن المستوى المعقول للإنسان أو المنظور له، فلا بالتأمل في الخليفة ولا بمعرفة النفس الآن، ولكن بالإيمان بدم المسيح الذي يقربنا إلى الله بلا أي مانع لقبول نعمة الله وحبه وأبوته الصافحة الفائقة، متجاوزاً الخطية ورافعاً عقاب الموت!

وهكذا يختط أثناسيوس خطأ خلاصياً جديداً في اللاهوت لإدراك الله لا بالمعرفة بأمور الخليفة أو بالفلسفة في ما وراء الطبيعة، ولكن بالإيمان بالمسيح شخصياً، مصححاً العلاقة القائمة بين الله والخليفة التي عثر فيها الأريوسيون، وواضعاً أساساً جديداً يربط ربطاً محكماً بين الله والخليفة والتجسد والفداء.

ملخص الفصل السابع أولاً: معرفة الله في ذاته، ومعرفة الله في الخليفة

- أصراً أريوس على أن طبيعة الله غير قابلة للحلول أو الاتصال بأية خليفة مادية. فكيف يتداني الله ليخلق لأن الخلق يستلزم الاتصال بالخليفة - لذلك فإن الله اضطر أن يخلق الكلمة (اللوغس) من لا شيء لكي يكون وسيطاً لله المتعالي، لخلق العالم المادي.
- كان ردّ أناسيوس أن الله خلقنا بإرادته وبقوة كلمته، ولكنه لم يخلقنا من طبيعته. فوجودنا ليس مستمداً من جوهر الله، ولكنه بإرادته ونعمته خلقنا من العدم.
- فالوجود المادي كله يعتمد على نعمة الله ومسرّة إرادته.
- كذلك النفس البشرية قابلة للموت بطبيعتها لأنها مخلوقة، ولكنها تعيش وتحيا بنعمة الله.
- الخليفة هي الاستعلان الظاهري المدرك لطبيعة الله غير المدركة.
- رأي أوريجانوس:
 - يشطّ أوريجانوس في التفكير فيربط بين أزلية الله والخليفة، فالخليفة لابد أن تكون أزلية مع أزلية الله.
 - وقاده هذا المفهوم الخاطئ إلى القول بأزلية النفس أيضاً (كطبيعة ثابتة فيها)، بل والأخطر من ذلك قوله بوجود الصلة المنطقية بين "ميلاد الابن" الأزلي وبين وجود العالم منذ الأزل، دون انفصال.
 - وهكذا وضع أوريجانوس الابن مع المخلوقات.

ثانياً: أناسيوس والخلق

يتلخّص فكر أناسيوس بخصوص هذا الموضوع في ما يأتي:

- 1 - الفارق الهائل والجوهري بين الله والخليفة:
 - ♦ فالله كائن بذاته، موجود غير متغيّر، غير خاضع للزمن وبالتالي غير قابل للموت أو الفساد.
 - ♦ والعالم مخلوق مستمد من إرادة الله، متغيّر، ومعرّض للفساد.

- 2 - أي ترتيب يظهر في العالم المخلوق أو أي نظام أو جمال، هو مضاف إلى العالم بيد خالقه. «فالكلمة» يضبط الخليقة كلها معاً بحسب مشيئة الله.
- 3 - يعارض أثناسيوس فكرة «الحلول الإلزامي». فكلمة الله لا يحل في جوهر الأشياء المادية كعلة لوجودها ودوامها، ولكنه يضبطها تلقائياً من الخارج بالإرادة والنعمة وليس كالتزام.
- 4 - العالم مخلوق بأمر الله، من لا شيء، ووجوده مستمر بفضل هذا الأمر عينه، والإنسان يشارك العالم في هذا الوجود، وهو بطبيعته قابل للموت والفساد، ويستحيل عليه أن يفلت من هذا المصير إلاً بنعمة الله وشركة اللوغس.
- 5 - «اللوغس»، الذي هو ابن الله الوحيد - لا يوجد بينه وبين المخلوقات أي تشابه طبيعي، فاللوغس موجود في العالم، وجود المحرّك الفعّال المحيي، أي أنه موجود بقوته وقدرته، أمّا جوهره (كيانه الذاتي) فهو فائق عن كل ما في العالم المخلوق. وهكذا صالح أثناسيوس في لاهوته، بين الحلول الفعّال وبين التنزيه الجوهرى.
- 6 - أثناسيوس أوضح أن «كلمة الله» الخالق كان ولا يزال علّة الخلق الأولى والمباشرة والفعّالة، إلاً أن كيان الكلمة يظل مستقلاً كلياً عن الخلق وعن فعل الخلق، قبل الخلق وأثناء الخلق وبعد الخلق.
- أمّا علاقة الأب بالابن فهي قائمة بذاتها، خلواً من أي تدبير آخر للخلق أو حتى خلاص الإنسان.
- فلا خلط بين الله في ذاته Theologia، وبين تدبير الله في الخلق والخلاص Oikonomia.
- هذه العلاقة بين الأب والابن سابقة على مفهوم ظهور إرادة الله للخلق.
- 7 - وجود الله هو الذي يُنشئ إرادة الخلق، وليس العكس. أي أن إرادة الخلق لا تُنشئ وجود الله. فالله موجود بذاته منذ الأزل، وذاته هي أبوة وبنوة وروح قدوس.
- 8 - هناك نوعان من الصفات الإلهية المتميزة:

(أ) صفات ذاتية كيانية في الله، وهي الصفات الجوهرية: الآب والابن والروح القدس.

(ب) صفات أخرى تتعلّق بأعمال الله، أي بإرادته ومشيئته الذاتية، ويسمّيها الكتاب: “مشورة الله”. وهي تُستعلن في الخلق والتجسّد وحلول الروح القدس والأسفار المقدّسة.

والصفات الجوهرية لله واجبة الوجود، أمّا الأخرى فهي لائحة بإعلان أو تعبير عن وجود الله من خارج كيانه. فالخلق - مثلاً - هو فعل إرادته وليس امتداداً لكيانه أو جوهره.

أدلة أثناسيوس على الفرق بين علاقة الله بالعالم المخلوق وبين العلاقة الجوهرية بين الآب والابن والروح القدس:

1 - من صفات الله في الأسفار المقدّسة، أنه “ينبوع الحكمة”. ومن صفات المسيح ابن الله أنه “حكمة الله”. فإذا كان هناك وقت لم يكن فيه الابن موجوداً، فهذا يعني أن الينبوع كان في وقت ما فارغاً وجافاً!

2 - لا يمكن أن ترتقي المخلوقات إلى شيء مما لجوهر الله، أو تتواصل بكيانه الذاتي. فهي إنما تبقى دائماً خارج كيان الله، وهي قابلة أن تتوقّف عن وجودها إذا رغب خالقها في ذلك.

فهناك فرق بين الكيان الإلهي، وكيان العالم المخلوق:

الأول: أبدي ، والثاني: زمني

ي

: واجب ، : غير واجب الوجود

الوجود

: ثابت ، : متغيّر

: مطلق ، : محدود

3 - الله خالقٌ حتى قبل أن يباشر إرادته بالخلق، ولكن الخليقة التي خلقت من العدم يستحيل أن تكون أزلية قبل أن يخلقها الله.

هدف أثناسيوس من دفاعه بالنسبة لعلاقة الله بالخلق:

- 1 - لإعطاء المفهوم اللاهوتي الكامل عن سرّ الله في كيانه الذاتي "كآب وابن وروح قدوس"، باعتباره سرّ العبادة الأعظم "ثلاثة في واحد".
- 2 - لتوضيح الفارق الجذري بين الله في ذاته وبين المخلوق وصفة الخلق بحد ذاتها، حيث يبدو الله كاملاً ومتكاملاً في ذاته، متفوقاً على الخليقة.
- 3 - لتوضيح أن سرّ الخلق غير سرّ الكيان الإلهي باعتبار الخلق هو عمل "التدبير الإلهي".
- 4 - لإثبات أن عملية الفداء التي بدأت بتجسّد ابن الله، كانت لتحويل الخليقة البشرية - وهي متغرّبة عن الله - من كيان التغيّر والفساد والتحرّك نحو العدم، إلى الكيان الثابت غير الفاسد غير المائت للحياة الأبدية بالاتحاد بالله - (التألّه) - مع الأب والابن والروح القدس.

وأثناسيوس يعيد تصحيح علاقة الله بالعالم وذلك "بالتجسّد" الذي أكمله في ابنه، إذ صالح به الحلول بالتنزيه، الحلول الإلهي الفعّال والتنزيه الجوهرية، إذ أصبح الكيان الإلهي (الجوهر) والإرادة الإلهية الفعّالة، ملتحمين ومستعلنين معاً في المسيح. والله بتجسّده أعدّ لنا طريقاً حياً جديداً للوصول إلى الله، فائقاً عن المستوى المعقول للإنسان أو المنظور له، فلا بالتأمل في الخليقة ولا بمعرفة النفس الآن، ولكن بالإيمان بدم المسيح الذي يقربنا إلى الله بل يوحدنا به بلا أي مانع، لقبول نعمة الله وحبّه وأبوته الصافحة الفائقة متجاوزاً الخطية ورافعاً عقاب الموت ومغيّراً الفساد إلى عدم الفساد.

الفصل الثامن

استعلان الثالوث ووحداية الله
على مستوى المعرفة عند أثناسيوس

أولاً: تجسّد الكلمة كان واسطة لمعرفة الله، أي لاستعلان الآب والابن والروح القدس (879)

التجسّد عند أثناسيوس كان من الأسباب الهامة لمعرفة الله في ذاته، لأن الإنسان، بسبب الخطية، انحجبت عنه معرفة الله كخالق حقيقي للعالم ومخلص للإنسان.

فلا ناموس موسى، ولا تعليم الأنبياء، ولا الناموس الطبيعي في ضمير الإنسان، ولا الفلسفة العميقة المعتمدة على العقل الحر؛ استطاعت أن تكشف الله في ذاته لفكر الإنسان وضميره على مستوى "معرفة الله Theognosia". أمّا عجز الإنسان هذا عن بلوغ "معرفة الله في ذاته" بالرغم من هذه الوسائط أي الناموس والأنبياء والعقل والضمير، فهذا يُعزى بالدرجة الأولى إلى أن الإنسان تورّط في التعدّي، ففقد القدرة على خلاص نفسه أي إدراك النور.

لهذا تمّ التجسّد ليستعلن كلمة الله، لكي بواسطته يبلغ الإنسان إلى معرفة الله في ذاته - أي الدخول في النور - وهي المعرفة التي فيها بعينها يكمن خلاصه الأبدي.

وحيثما أعلن "الكلمة" المتجسّد نفسه أنه ابن الله، موضحاً بالأقوال والأعمال أنه يقول ويعمل ما لم يقله أو يعمله إنسان قبله قط، شاهداً بهذا أنها أقوال الله وأعمال الله؛ أعلن صلته بالله كابن، فأعلن بالضرورة صفة الله كآب له. هذا بحد ذاته كان عند أثناسيوس (880) أحد الأسباب الجوهرية للتجسّد، أي استعلان ذات الله في كيانه، أي ذات جوهر الله أنه آب وابن، بل ولكي يعطي صورة مدركة واقعية محسوسة ومنظورة للآب من خلال حياة الابن المتجسّد وأعماله وأقواله وسلوكه بالجسد: "من رأني فقد رأى الآب". وإليك كلمات أثناسيوس نفسه:

كتاب "تجسّد الكلمة":

[كلمة الله أخذ لنفسه جسداً، وسلك بين الناس كإنسان، وقابل إحساسات كل بشر في منتصف الطريق؛ حتى يستطيعوا رؤية الله جسدياً، فيدركوا الحق بما يعلنه

(879) Ger. Zaphiris, Reciprocal Trinit. Revel. 2., *Man's Knowledge of God According to St. Athanas.* tomjz™ort...oj megflou 'Aqanas...ou. 1974, pp. 290-373.

(880) Athanas., *De Incar.*, 43, 16, 54.

الرب في جسده، فيدركوا الآب فيه.] (فصل 15)

[لأنه إذ انحطَّ فكر البشرية نهائياً إلى الأمور الحسية، فقد استتر "الكلمة" بظهوره في الجسد لكي يستطيع كإنسان أن ينقل البشرية إلى ذاته ويركِّز إحساسهم في شخصه، ومن ثمَّ إذ يتطَّلَع إليه البشر كإنسان، فإنهم بسبب الأعمال التي يعملها يقتنعون - في نفس الوقت - أنه ليس مجرد إنسان، بل هو الإله وكلمة الله الحق وحكمته.

لهذا السبب أيضاً لم يتمَّ ذبيحته عن الكل (الخلاص) بمجرد مجيئه مباشرة، بتقديم جسده للموت وقيامته ثانية؛ لأنه لو فعل ذلك لجعل ذاته غير ظاهر، ولكنه صيِّر نفسه ظاهراً جداً (أعلن نفسه بالأعمال التي عملها وهو في الجسد) وبهذه الأعمال والآيات لم يعد يُعرف كإنسان بعد، بل "كالإله الكلمة"، لأن المخلص بتأنُّسه تمَّ عمليين من أعماله المحيية:

الأول: رفع الموت عنَّا وجددنا ثانية.

الثاني: إعلان نفسه وتعريف ذاته بأعماله أنه "كلمة الآب" ومدبِّر وملك

الكون، بعدما كان غير ظاهر.] (فصل 16)

[لكي يستطيعوا، وهم بشر، أن يعرفوه بأوفر سرعة وهو في جسد مماثل لهم، ويعرفوا أباه مباشرة، وذلك بالأفعال الإلهية التي كان يعملها. إذ كان في مقدورهم - بالمقارنة - أن يحكموا على هذه الأعمال التي يعملها أنها ليست أعمالاً بشرية بل هي أعمال الله.] (فصل 43)

[لأنه تأنَّس - أي صار إنساناً - لكي نصير نحن فيه إلهاً، وأظهر نفسه في جسد لكي يعطينا فكرة عن الآب غير المنظور.

وكما أنه إذا أراد أحد أن يرى الله غير المنظور بالطبيعة، الذي لا يُرى بتاتاً، فإنه يمكنه أن يعرفه ويدركه من أعماله؛ كذلك يجب على من يعجز عن رؤية المسيح وإدراكه بعقله وفهمه أن يدركه على الأقل من أعماله التي عملها في جسده ويفحص إن كانت هي أعمالاً بشرية أم هي أعمال الله.

فإن كانت أعمالاً بشرية جاز له الاستهزاء، أمَّا إذا لم تكن بشرية بل أعمال الله فليعرف ذلك ولا يستهزئ، بل بالحري يدهش من أنه بوسائل عادية كهذه

أعلنت لنا الأمور الإلهية، ولأنه بالموت بلغنا عدم الموت، ولأنه بتأسس الكلمة عُرفت العناية الإلهية العامة كما عُرف واهبها وبارئها كلمة الله نفسه. [فصل 54)

والقديس أنثاسيوس يكشف كيف ملاً "الكلمة" كل مكان في السماء والأرض والهاوية بقدرة الله الكلية قبل تجسده، بحلوله غير المنظور في الخليقة كلها، كما ملأها بمعرفة الله بعد تجسده، بحلوله في جسد إنسان (أقنومياً)، وبالنهاية غطت معرفة الله الأرض كلها، كما قال إشعياء النبي. لأن المسيح "الكلمة" أسس الإنجيل الذي بشر به تلاميذه وعلموا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس. فتجسد الكلمة كان أول عمل فعّال استخدمه الله لاستعادة الإنسان معرفته بالله استعادة كاملة على كل الأرض، ولكل الأجيال، وإلى منتهى الدهور (881).

[وكما أنه معروف في الخليقة بأعماله هكذا يجب أن يعمل في الإنسان أيضاً ويُظهر نفسه في كل مكان، لكي لا يترك شيئاً خالياً من لاهوته ومعرفته. وأعود فأكرّر ما سبق أن ذكرته، أن المخلص فعل ذلك حتى كما أنه يملأ كل المخلوقات في كل مكان بوجوده (كلي الوجود والقدرة)، كذلك أيضاً (تجسد) لكي يملأ كل الأشياء من معرفته كما يقول الكتاب المقدس: «لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب» (إش 9:11). وهكذا إذ أغلق على الإنسان من كل ناحية (بإعلان الله في كل شيء)، وإذ يبصر لاهوت الكلمة مبسوطاً في كل مكان أي في السماء والهاوية وفي الإنسان (الرب المتجسد) وعلى الأرض، لا يصير بعد معرضاً للخداع والضلال عن (معرفة) الله، بل يعبد المسيح الذي به وحده يأتي مباشرة ليعرف الآب.] (فصل 45)

[أمّا البشر وحدهم فإذ رفضوا الخير (معرفة الله)، اخترعوا أشياء من العدم عوض الحق، ونسبوا الكرامة والمعرفة المستحقة لله وحده إلى الشيطان والأصنام البشرية في شكل حجارة.

وإذ لم يكن لائقاً بصلاح الله أن يتغاضى عن أمر خطير كهذا، ولأن البشر كانوا لا يزالون عاجزين عن أن يدركوا أنه هو ضابط الكل ومدبرهم؛ لذلك

كان صواباً أن يتخذ لنفسه (جسداً) أي جزءاً من الكل (العالم)، لكي يكون جسده أداة يتحد به - الإنسان - حتى لا يعجز البشر عن أن يدركوه في الكل (العالم كله)؛ وحتى بعد أن عجزوا عن إدراك سلطانه غير المنظور (على الكون كله)، يستطيعوا على أي حال أن يدركوه ويتأملوه في (الجزء) الجسد الذي يشبههم. [فصل 43]

ويعود أثناسيوس ويتعرّض لأكبر مشكلة اعترضت اللاهوتيين قديماً وحديثاً وهي الحلول الكلي والتنزيه بالنسبة لحضور الله وكلمته في العالم.

فحضور كلمة الله الكلي Omnipresence في الخليفة لا يشكّل أي صعوبة لاهوتية عند أثناسيوس، فهو لا يفصل بين تنزيه الكلمة أي تفوّقه Transcendence، وبين حلوله في الخليفة Immanence. فالكلمة عند أثناسيوس هو في كل شيء وفي كل مكان، كلياً وجزئياً، حاضر ومتفوق معاً، حالّ في الشيء ومنزّه عن عجز كل شيء ودناءته وخطيئته بأن واحد (882).

[ولو كان سخافة - كما يدّعون - أن يُعرف الكلمة بأعمال الجسد (بتجسّده)، لكان سخافة أيضاً أن يُعرف بأعمال الكون كله، لأنه كما أنه موجود في الخليفة - (قبل التجسّد) - ومع ذلك لا يشترك في طبيعتها بأي حال من الأحوال، بل بالعكس أن كل الأشياء تشترك في سلطانه؛ كذلك عندما اتخذ جسداً أداة له، لم يشترك في خواصه (الخطية والجهل بالله) الجسدية بل إنه بالعكس هو الذي قدّس الجسد. [فصل 43]

[هكذا يجب على مَنْ يسلّم ويؤمن أن كلمة الله في كل الكون، وأن كل الوجود يستضيء ويتحرّك ويوجد به، يجب عليه أن لا يحسب سخافة بالتالي أن يحظى منه جسد بشري واحد (جسد المسيح) بالحركة والنور.

أمّا إن كانوا يتوهّمون أن ظهور المخلّص في الإنسان أمر غير لائق لأن الجنس البشري مخلوق ومخلوق من العدم، فإنه يجب عليهم بالتالي أن يخرجوه من الخليفة كلها لأنها هي أيضاً وُجِدَت من العدم “بالكلمة”.

وأي شيء يستوجب الاستهزاء في ما نقوله أن “الكلمة” استخدم جسد

الإنسان الذي حل فيه كأداة ليعلن ذاته فيه؟

لأنه بسلطانه اتحد بكل شيء وبكل الأشياء، وهو يضبط كل الأشياء بقدرته لا حدود لها ... إذ هو ممسك الكل في وقت واحد، وهو في الواقع ليس موجوداً في الكل وحسب بل موجوداً أيضاً في الجزء، ذلك الذي نتحدث عنه - أي الجسد - الذي أظهر فيه ذاته بطريقة غير منظورة ليعلن فيه الحق ومعرفة الآب.] (فصل 42)

وقد أعلن المسيح مراراً أن ما يتكلم به هو ليس من ذاته بل من الآب، كاشفاً بذلك سر علاقته الشخصية مع الآب باعتباره "كلمة الآب الذاتي ر ٲ dioj izgozjka أعلن مراراً وتكراراً أن الله هو "أبوه الخاص"، بمعنى "العلاقة المتحدة" وليس الصلة التكريمية، معبراً عن ذلك بكل وضوح: «أنا في الآب والآب في»، «أنا والآب واحد»، كاشفاً بذلك سر "بنوته في ذات الله" "كابن ذاتي لله t ص dion g ٲ ٲ، ٲ nhma ٲ dioj u f ٲ ز.

ولكن ليس بمفهوم أي ابن لأي أب:

أولاً: لأن أي ابن لأي أب يعني ليس ابناً وحيداً، حتى ولو كان ابناً وحيداً، لأنه كان يمكن أن يكون غير وحيد. فأي أب قابل أن يكون له أبناء أكثر من واحد إذا تهيأت الظروف الجسدية الملائمة لذلك. في حين أن "الكلمة" هو ابن الله الذاتي الوحيد، بمفهوم أنه الله أب وابن في ذات واحدة، وأن الابن ليس أقل من الآب ولا الآب سابق على الابن أو مترس عليه، بل هما واحد متساوي في كل شيء. أبوة وبنوة متحدة في ذات واحدة.

ثانياً: أن أي ابن لأي أب لم ينشأ من الأب فقط بل ومن أم أيضاً، في حين أن الكلمة هو ابن في الآب بالجواهر، بدون وسيط ولا حدث ميلاد زمني، فالميلاد أو البنوة عند الإنسان وسيلة للوجود، أمّا في الله فالبنوة هي الوجود ذاته، وعلة كل موجود آخر.

[لأنه إن كان الابن على المستوى البشري يأخذ من الآب بداية فقط لوجوده، فعند الله الآب تُعتبر البنوة وجوداً دائماً أزلياً أبدياً معاً.

فالبنوة أو الميلاد لدى البشر وسيلة للوجود، أمّا عند ابن الله فهو الوجود

ذاته، حيث الميلاد لا ينتهي بمجرد الوجود (كما هو عند البشر حيث يصبح الابن بعد ذلك أباً)، بل الميلاد أو الابن هو الكمال في ذاته وهو النهاية $\tau\lambda\omicron\upsilon\gamma\iota\varsigma$ (883)

هذا هو المفهوم من معنى "الابن الذاتي للآب" عند أثناسيوس، الذي يعني "الابن الوحيد" القائم مع الآب وفي الآب بلا افتراق.

كتاب ضد الأريوسية: (رقم الرسالة ورقم الفصل)

[وهوذا نحن نتمسك بالأسفار المقدسة، وحينئذ نتكلم بحرية بإيمان وتقوى، ونقيم الحجة كنور على منارة: نقول:

ابن حقيقي للآب، طبيعي وأصيل من جوهره الذاتي، وحيد، حكمته، وهو ذاته الكلمة الحقيقي والوحيد لله، ليس من الخليقة ولا مصنوعاً، ولكنه ابن لذات جوهر الآب، لذلك فهو إله حقيقي كائن كياناً واحداً مع ذات الآب، فهو بذلك "رسم جوهره" (التعبير الموضح لذات الآب) كنور من نور - «بنورك نعاين النور» - وهو قوة الآب ونفس الصورة الحقيقية لجوهر الآب. من أجل ذلك يقول الرب: «الذي رأي فقد رأى الآب» (يو 9:14)، وهو كائن منذ الأبد، ويكون أيضاً، ويستحيل قط أن لا يكون.

لأن الآب إذ هو قائم منذ الأزل وإلى الأبد، هكذا يكون أيضاً "كلمته" و"حكيمته" [884] (9:1)

[إنجيل يوحنا يقول عنه: «في البدء كان الكلمة» والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله». وسفر الرؤيا يقول: «الكائن الذي كان والذي يأتي»، إذن فمن ذا الذي يستطيع أن يسرق ويسلب شخص «الكائن» الذي كان من الأبدية؟ هذا هو الذي قال عنه بولس الرسول مقاوماً اليهود: «ومنهم المسيح حسب الجسد «الكائن» على الكل إلهاً مباركاً إلى الأبد أمين» (رو 5:9).

كما كان يقاوم اليونانيين بقوله عن الكلمة: «المسيح قوة الله وحكمة الله»، ويعود قائلاً: «لأن أموره غير المنظورة - منذ خلقة العالم - تُرى بوضوح!

(883) Petav., *De Trinit.*, ii, 5. n. 7, cited by N. & P.N.F., Series II, vol. IV, p. 314, n. 4.

(884) Athanas., *Contra Arian.*, 1:9.

حتى أن قوته الأزلية ولاهوته تُدرك بواسطة الأشياء المخلوقة»، وبولس بكل تأكيد لا يقصد هنا الأب بهذه الكلمات بل يقصد الكلمة ... بقوته المنظورة في الخليفة، لأن الإنجيل يقول: «كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان» (يو 1:3).

وهنا يتحتم بالتالي أن الذي يتأمل الخليفة تأملاً صادقاً وصحيحاً، فهو سيتأمل «الكلمة» الذي صاغها، وبواسطة «الكلمة» يبدأ ليدرك الأب. ولكن:

يقول المخلص: «ليس أحد يعرف الأب إلا الابن ومن أراد الابن أن يعلن له»، ولأن الرب لم يقل لفيلبس لما سأله: «أرنا الأب وكفانا»، لم يقل له: «تأمل في الخليفة» بل قال له: «من رأني فقد رأى الأب»، فإن بولس الرسول - عن حق وأصالة - كان يقصد «الكلمة الكائن في الخليفة»، عندما قال: «قوته الأزلية ولاهوته تُدرك بواسطة الأشياء المخلوقة» مشيراً بذلك إلى الابن الذي يقول عنه الكتاب: «كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثاً لكل شيء الذي به أيضاً عمل العالمين (الدهور) ages» (عب 2:1). [11:1]

[وحيثما قال الرب: «أنا هو الحق»، كان دائماً يقول أنا هو (أنا الكائن $TMgè$ mi «أنا هو الراعي»، «أنا هو النور»، «تدعونني رباً ومعلماً حسناً وأنا هو» ... إذن فلا تترددوا قط في فهم هذه الحقيقة، لأنه بقوله: «أنا هو» = أنا كائن $TMgè$ mi يعني أن الابن كائن منذ البدء ولا بداية له!

وقبل إبراهيم أنا كائن = أنا هو $TMgè$ mi .] [12:1 و13]

[إن الأب والابن لم يتولدا من أصل سابق عليهما حتى يمكن أن نعتبرهما أخوين، ولكن الأب هو مصدر الابن، والابن متولد منه، والأب هو أب ولم يلد الابن من شيء آخر.] [14:1]

هنا لا يُقصد بالميلاد $nnhsijg$ عملية أو حدثاً أو فعل ولادة، ولكن حقيقة قائمة غير متغيرة ولا مستحدثة أزلية في جوهر اللاهوت. وهنا يشرح القديس كيرلس (885) كلمة مولود من الأب بقوله: إن الأفعال العملية وتعبيرها اليوناني $œrga$

إنما تتم من الخارج αεωωen، ولكن كما يقول أثناسيوس هنا بخصوص الرب إن ميلاده ليس هو فعلاً عملياً يتم من الخارج، وحينئذ - كما يقول أثناسيوس أيضاً (886) - بينما أن الناس يكونون آباءً أولاً بالقدرة ثم بالفعل، نجد الله أباً بالقدرة والفعل معاً وبصورة دائمة (لأنه فعل جوهرى) (887) dun£mei te TMnerge...v pat»r (888).

[وحيثما نقول: إن الابن أزلي فهو حقاً كذلك، لأن جوهر الآب لم يكن قط ناقصاً أو غير كامل حتى يُضاف إليه في ما بعد ما هو من خاصته الذاتية. ولم يولد “الابن” كما يولد الإنسان من الإنسان فيكون ابن الله متأخراً في وجوده عن الآب،

ولكونه ابن الله والله أزلي، فهو موجود أزلي بوجود الآب الأزلي.

أمّا الناس فبسبب عدم الكمال والعجز في طبيعتهم (المادية)، كان مناسباً لهم أن يلدوا في حدود الزمن.

هو الابن - كما يقول الآب نفسه وكما تقول الأسفار المقدّسة، و“الابن” لا يمكن أن يكون إلاً مولوداً من “الآب”، ونحن نعلم أن المولود من الآب هو “كلمته” و“حكيمته” و“إشعاع نوره”. فإذا قالوا إنه كان وقت لم يوجد فيه ابنٌ، فهم يسلبون الله كلمته وحكيمته، وكأن نوره كان في وقت ما بلا شعاع، أو أن الينبوع كان في وقت ما عقيماً وجافاً ... وكان الله وقتاً ما بلا عقل.

إنه خطأ فظيع أن يكون لديهم هذه التصورات المادية لمن هو غير مادي

[... (14:1)]

[وإذ نتأمل الابن (المتجسّد) نرى الآب، لأن الفكر في الابن وإدراكه هو هو المعرفة المختصة بالآب، لأنه هو ابنه الذاتي الذي من جوهره.] (16:1)

[إن الحيوانات والبشر بعد أن خلقهما الله إنما تتوالد بالتتابع، فالابن بعد أن يولد من أب يصير بالتالي أباً لابن، وارثاً من أبيه ما قد صار له، وهنا إن توخينا الحقيقة لا يوجد أب أو ابن بالمعنى الدائم فلا الأب ولا الابن يحتفظ كلُّ منهما بلقبه. فالأب

(886) Ibid.

(887) N. & P.N.F., *op. cit.*, p. 314, n. 4.

كان ابناً والابن سيصير أباً،

ولكن في اللاهوت ليس الأمر كذلك لأن ليس الإنسان كالله.
فإن الله الأب ليس له أب لذلك لا يتولد منه ابن يكون أباً،
ولا الابن لأنه مجد الأب يمكن أن يلد.

فقد صار في اللاهوت أن الأب هو بصفة محددة أب، والابن بصفة محدّدة
ابن، ومنهما وحدهما يبقى الأب أباً على الدوام والابن ابناً على الدوام.
كذلك فإنه كما أن الأب هو دائماً أب، ولا يمكن أن يكون ابناً، كذلك الابن
هو دائماً ابن ولا يمكن أن يكون أباً.

وفي هذا يتضح بالفعل معنى أن الابن هو صورة جوهر الأب، وهو باقٍ
كما هو لا يتغيّر واحداً مع الأب بالتمام،
فإن كان يمكن للأب أن يتغيّر، كان ممكناً للصورة أن تتغيّر،
لأنه هكذا ينبغي أن تبقى الصورة والشعاع بالنسبة لذلك الذي هما له.

لذلك فإن كان الأب غير متغيّر قط، وإن كان باقياً كائناً كما هو، كان حتماً
له (الابن) وهو الصورة أن يبقى كما هو لا يتغيّر أيضاً. [(21:1)

[وبالرغم من كل ما يقولونه (الأريوسيون)، فإن الكلمة كائن، لأن كل الخليفة
بواسطته خرجت إلى الوجود، و"الكلمة" ليس خارجاً عن الله، ولكنه الكلمة
الذاتي. لذلك نكرّر ونقول: إنه إن كان الله له قدرة الإرادة، وإرادته فعالة
وصانعة، فإن كلمة الله يتحتم بالتأكيد أن يكون هو الإرادة الحية للأب،
والقدرة الجوهرية Essential energy، والكلمة الحقيقية، الذي فيه يقوم الكل
ويصير تحت الانضباط والحكم. [(2:2)

[لأنه بينما المخلوقات كثيرة ولكن "الكلمة" واحد، فالابن يختلف عن الجميع،
وهو ليس على مستوى المخلوقات (بالنسبة لله)، بل هو ابن لذات الأب، لذلك
لا يوجد "كلمات" كثيرة ولكن "كلمة واحد" لأب واحد، وصورة واحدة لله
الواحد. [(27:2)

[إن "الابن" هو "كلمة" الأب، و"حكمة" الأب، ومن هذين اللقبين نحن

نستدل على "نوع الصلة" والاشتقاق غير المنقسم وغير المتألم الكائن بين الابن والآب،

وهذا ندرکه بصورة ما على مستوى كلمة الإنسان، فهي ليست جزءاً من الإنسان، ولا هي تخرج (أو تتولد) من الإنسان بالألم، فكم بالحري كلمة الله تكون؟

كذلك فإن الله يدعوه ابنه، لئلاً حينما نكتفي بالقول إنه "كلمة الله" نظن أنه مثل كلمة الإنسان المجردة غير الشخصية، في حين أن لقب الابن يوضح أنه الكلمة ذو الكيان الشخصي وأنه الحكمة الذاتية. [889] (27:2)

[لأنه حينما يُقال: «أنا في الآب والآب فيّ» فليس معنى ذلك - كما يتوهم الأريوسيون - أن كل واحد يملأ الآخر كما في الأوعية الفارغة، وكأن الابن يملأ فراغ الآب والآب يملأ فراغ الابن، ويبقى كل واحد منهما غير كامل وناقصاً بذاته، حاشاً! لأن هذا يليق فقط بالأجسام - ولكن الآب هو كامل والابن كذلك، وهو فيه كل ملء اللاهوت.] (890) (1:3)

[إنه بحق قيل: «أنا والآب واحد»، مضيفاً: «وأنا في الآب والآب فيّ»، لأنه بهذا يُظهر (المسيح) ماهية اللاهوت ووحدة الجوهر (أي أن اللاهوت أب وابن وهما جوهر واحد أي إله واحد).

فهما واحد، ولكن ليس مثل الشيء الواحد المنقسم إلى اثنين ويبقى واحداً، ولا هما شيء واحد ذو اسمين حتى أن الواحد يكون في وقت ما أباً ثم هو بذاته يصير في وقت آخر ابنه، فهذه هرطقة سابيلوس.

ولكنهما اثنان، لأن الآب هو أب وليس ابناً، ولأن الابن ابن وليس أباً، ولكن الطبيعة واحدة وكل ما للآب فهو للابن.

(889) Athanas. *De Synod.*, p. 41.

(890) يقوم القديس كيرلس الكبير بتوضيح هذا المعنى كالآتي:
[إن الآب والابن معاً هما الله الواحد بالرغم من أنهما في الحقيقة ومنذ الأزل متميزان، على أن الواحد ممتلئ بالآخر بمعنى أن جوهرهما واحد مع تمايزهما، (شرح إنجيل يوحنا)]
شرح للمؤلف: "الآب في الابن، والابن في الآب" هذا تعبير عن كمال الذات الإلهية بمعنى أن الله فيه ملء الأبوة وملء البنوة معاً، ينشأ عن هذا الاكتمال الداخلي للذات الإلهية، مما يجعل علاقة الله بكافة المخلوقات على أعلى مستوى وأكمل مستوى من التعاطف الذاتي مع كل ذات أخرى، على أساس إدراك أعواز الأبوة والبنوة.

ولكن ليس أن الابن إله آخر - لأنه ليس خارجاً عن الآب - بل إن الآب والابن هما طبيعة واحدة، وخواص واحدة للطبيعة الواحدة، ولاهوت واحد.

فلاهوت الابن هو بذاته للآب، لذلك فهو غير منقسم لذلك يوجد إله واحد لا إله الأهو!... [4:3]

[ولأن اللاهوت واحد في الآب والابن، فإنه نشأ عن ذلك بالضرورة أن كل الصفات التي تُقال على الآب قيلت هي بعينها عن الابن، إلا صفة (جوهرية) واحدة وهي أن الآب أب. فمثلاً:

+ عن كون الابن إلهاً يقول إنجيل يوحنا: «وكان «الكلمة» الله.» (1:1)
+ وعن كون الابن قادراً على كل شيء (بانتوكراتور)، يقول: «الذي كان والذي يأتي القادر على كل شيء.» (رؤ 1:8)
+ وكون الابن رباً: «ورب واحد يسوع المسيح.» (1كو 8:6)
+ وكون الابن نوراً: «أنا هو نور العالم.» (يو 8:12)
+ وكون الابن يغفر الخطايا: «إن لابن الإنسان سلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايا.» (لو 24:5)

وهكذا بقية الصفات لأن الابن نفسه يقول عن ذاته إن «كل ما للآب هو لي» (يو 16:15)، «وكل ما هو لي فهو لك، وما هو لك فهو لي.» (يو 17:10)

ولكن حينما نسمع من الابن صفات الآب (الخصوصية)، فإننا نكون قد رأينا الآب في الابن، ونعود فنتأمل الابن في الآب عندما نجد أن كل ما قيل عن الآب، يُقال عن الابن أيضاً.

ثم لماذا تكون صفات الآب هي بعينها صفات الابن؟ إلا لكون الابن هو من الآب وحاملاً لذات جوهر الآب. وهكذا فيسبب أن الابن هو من ذات جوهر الآب لذلك فإنه ينسب لنفسه كل خواص الآب قائلاً: «حتى تدركوا أنني أنا في الآب والآب فيّ»، «وأني أنا والآب واحد»، وأن «كل من رآني فقد رأى الآب». وفي هذه الثلاث آيات معنى واحد ... وهكذا بواسطة الابن وفيه يمكن تأمل كل لاهوت الآب.

ونحن أيضاً ندرك هذا من صورة الإمبراطور، لأن في صورة الإمبراطور

يوجد شكل وهيئة الإمبراطور، وفي الإمبراطور الشكل والهيئة التي في الصورة، لأننا نفترض أن شبيه الإمبراطور الذي في الصورة هو بالضبط والتمام، حتى أن كل مَنْ ينظر إلى الصورة يرى الإمبراطور، وبالتالي كل مَنْ يرى الإمبراطور يتذكّر أنه هو هو الموجود في الصورة، حتى أنه بلسان الصورة يمكن أن يُقال: «أنا والإمبراطور واحد، لأنني أنا فيه وهو فيّ، وكل ما ترون فيه ترون فيّ وكل ما فيّ ترونه فيه».

وبالتالي كل مَنْ يعبد الصورة فإنه بالتالي يعبد الإمبراطور.

هكذا أيضاً فإن الابن هو صورة الآب، ويتحمّم بذلك أن ندرك أن كل لاهوت الآب والصفات والخواص التي للآب هي بذاتها كيان الابن. لذلك قيل عن الابن: «الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة (لم يعتبر ذلك امتيازاً) أن يكون معادلاً لله» (في 2:6)

وليس يمكن أن تكون هذه الصورة (الهيئة *dojce*) التي للاهوت هي جزئية، بل إن كل ملء اللاهوت الذي للآب هو نفسه كيان الابن، لذلك فالابن هو إله كامل. من أجل هذا قيل إن «الله كان في المسيح مصالِحاً العالم لنفسه» (2كو 5:19)، فإن كل ما يخص جوهر الآب هو للابن، الذي فيه الخليفة تصالحت مع الله. لذلك قال المسيح إن كل الأعمال التي يعملها هي أعمال الآب. [6:3-4]

[ولكون «الكلمة» هو كلمة الآب الذاتي، فهذا لا يسمح لنا أن نحسب أن إرادة الله تسبق كلمة الله، لأن كلمة الله هي بعينها مشورة الآب الحية وقوته الصانعة لكل ما هو صالح لدى الآب، كما يقول «الكلمة» عن نفسه في سفر الأمثال: «أنا الحكمة ... لي المشورة والرأي. أنا الفهم لي القدرة» (8: 12 و14). وهنا بالرغم من كونه هو (الكلمة) الفهم الذي به دبّر وهياً خلقة السماء، وهو القوة والقدرة (المسيح قوة الله وحكمة الله) (1كو 1:24)؛ فهو هنا يعود ويقلب موضع الصفات ويقول: «لي المشورة ولي القدرة»، التي منها يتضح تماماً أن الكلمة هو نفسه المشورة الحية التي للآب كما نعرف ذلك من النبي القائل إنه صار «ملاك المشورة العظمى» (انظر: إش 9:6). [63:3]

[وأكثر من هذا فإنهم إذا قالوا إن الآب خلق الابن بالإرادة، فيتحمّم عليهم أن

يقولوا إنه خلقه بالفهم أي بالمعرفة أيضاً، لأنني أعتبر أن الإرادة الخالقة والفهم هما واحد، لأن الإنسان عندما يشير بمشورة فذلك يعني أنه يفهم ما يشير به.

ولكن المخلص يدعوهم أن يعودوا كعاقليين إلى النص القائل: «لي المشورة والرأي أنا الفهم لي القدرة». هذا يعني أن الرب هو هو بنفسه المشورة والرأي والفهم والقدرة (لله الآب).

ولكن هؤلاء الكفرة يريدون ... أن يفصلوا بين الآب والابن، فيدعون الابن مخلوقاً بالإرادة عوض كونه الكلمة الذاتي للآب.

ثم ليت كل واحد يصدّق ما قاله سليمان سابقاً، إن الكلمة هو الحكمة والفهم و«الرب بالحكمة أسّس الأرض، أثبت السموات بالفهم.» (أم 3:19)

هكذا داود النبي أيضاً يعود ويكشف عمل الكلمة لكل هذا: «بكلمة الرب صنعت السموات.» (مز 6:33)

ويعود بولس الرسول يقول: «لأن هذه هي مشيئة (إرادة) الله في المسيح يسوع.» (1 تس 5:18)

إذن، فابن الله هو «الكلمة» و«الحكمة» و«الفهم» و«المشورة الحيّة»، وفيه تكمن «مسرّة الله الآب» و«الحق» و«النور» و«القدرة» التي للآب!!

فإذا كانت إرادة الله هي الحكمة والفهم،

والابن هو الحكمة والفهم؛

فالذين يقولون إن الله خلق الكلمة بالإرادة فهذا يعني:

أن الحكمة خلقت بالحكمة؟

وأن الابن خلق بالابن؟

وأن الكلمة خلقت بالكلمة؟

فإن هذا يكون مخالفاً ومضاداً لله وللأسفار المقدّسة.

لأن الرسول يعلن أن الابن هو رسم وشعاع، ليس لإرادة الله، بل لجوهر

الآب!!] (3:65)

[ولكن إن كان الابن هو ابن بالطبيعة وليس بالإرادة، فهل نفهم من هذا أنه بدون مسرّة الآب أو على غير الإرادة مع الآب؟

هذا خطأ لأن الابن هو موضوع مسرّة الأب «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت»، أو كما يقول المسيح نفسه: «الأب يحب الابن ويريه كل شيء».

إذن فالابن هو موضوع مسرّة الأب وحبه ... كذلك فالأب هو موضوع مسرّة الابن وحبه وتكريمه. فالمسرّة الصالحة التي للأب في الابن، والتي للابن في الأب ...

فكما أن الأب هو صالح بالطبيعة، كذلك هو دائم الأبوة والبنوة generative.

(كلمة: Divine g nnhsijr لا تعني الولادة أو حدثاً زمنياً ولكن حقيقة جوهرية غير مرتبطة إطلاقاً بالمادة ولا بالتصور المادي أو الزمني، فالأبوة والبنوة حقيقة دينامية وإينارجية ...v TMnerg... dun&mei te ka... أي قدرة وتواجد معاً يكونان حقيقة موجودة بذاتها غير مستحدثة)(891) وأن مسرّة الأب هي الابن! ومسرّة الابن هي الأب. لا يسبقهما إرادة ما بل طبيعة واحدة ذات خواص متساوية في جوهر واحد.

كالشعاع والنور، لا يصح أن تقول إن الإرادة تسبق الشعاع بالنسبة للنور، ولكن هو انبعاث طبيعي أو جوهري، وهو بحسب توافق النور الذي يبعثه أو يولّده. [66:3]

ومن أقوال أثناسيوس السابقة، يتضح لنا صفاء رؤيته بالنسبة لتساوي الأب والابن في القدرة الكلية والإرادة الكلية بالنسبة لخلق العالم، فلا يتميّز الأب عن الابن إلاّ بالأبوة، ولا يتميّز الابن عن الأب إلاّ بالبنوة. على أن هذا التمايز الذي يجعلهما اثنين في واحد لا يخرج عن كونه "علاقة" داخلية جوهرية تختص بالله في ذاته الواحدة وجوهره الواحد. ولكن رغم أنها علاقة خاصة وذاتية وجوهرية، إلاّ أنها تفيض علينا بغنى من جهة انعكاس هذه العلاقة الجوهرية القائمة بين الأب والابن على الخليقة، وبالأخص على الإنسان، لأن علاقة الأب بالابن هي هي الحب والمسرّة.

فحب الله للعالم ومسرّته لبني الإنسان هما انعكاس خارجي لصفات جوهرية في الله بين الأب والابن.

ولكن ما فحصه أثناسيوس بوضوح أمامنا من جهة تساوي كلية القدرة وكلية الحضور التي للآب والتي للابن، يعطينا انطباعاً أن الكلمة الأزلي كان في العالم لَمَّا خُلِقَ العالم، فكل شيء به كان وظل به يقوم «وبغيره لم يكن شيء مما كان».

وهكذا بدخول «الكلمة» العالم منذ لحظة خلقه العالم، بحضوره الكلي، بدأت في الحال رسالة «الكلمة» لخلاص العالم، بجوار الخلق والتدبير والتقويم؛ فمعروف أن «الكلمة» كان منذ البدء الضابط لكل الخليقة.

كتاب: «تجسّد الكلمة»:

[فإن كان كلمة الله في الكون الذي هو جسم، وإن كان قد اتحد - أو سكن - بكل الكون (للتدبير) وبكل أجزائه فما هو وجه الغرابة إن قلنا إنه قد اتحد بالإنسان أيضاً (للخلاص).

لأنه إن كان حلوله في جسد أمراً غير معقول، لكان غير معقول أن يتحد بكل الكون ويعطي ضياءً وحركة لكل الأشياء بعنايته. أمّا إن كان قد لاق به أن يتحد بالكون، وأن يُعرف في الكل، فيجب أن يليق به أيضاً أن يظهر في الجسد البشري وأن يستضيء به ذلك الجسد ويعمل.

ولو كان أمراً غير لائق أن يتخذ جزءاً من الكون كأداة يعلم البشر بها عن لاهوته، لكان أمراً في غاية السخافة أن يعرف ذاته بواسطة كل الكون أيضاً.] (فصل 41)

[لأنه بسلطانه اتحد بكل شيء وبكل الأشياء، ويضبط كل الأشياء بقدرة لا حد لها. فلو أراد أن يتحدّث ويعلن ذاته ويعلن أباه بواسطة الشمس أو القمر أو السماء أو الأرض أو المياه أو النار، لما تجرّأ أحد أن يقول ذلك في غير محله إذ هو ممسك الكل في وقت واحد، وهو في الواقع ليس موجوداً في الكل فحسب، بل موجوداً أيضاً في ذلك الجزء الذي نتحدّث عنه والذي أظهر فيه ذاته بطريقة غير منظورة. هكذا أيضاً لا يمكن أن يكون سَخْفاً، إن كان وهو ضابط كل الأشياء ومانح إياها الحياة، ثم أراد أن يعلن نفسه في البشر؛ أن يستخدم جسداً بشرياً كأداة يعلن فيه الحق ومعرفة الآب.] (فصل 42)

هكذا يوجّه أثناسيوس أنظارنا، أن دخول «الكلمة» إلى العالم كان تداخلاً دقيقاً في

كل الخليقة، سمّاه حضوراً أو سكنى أو اتحاداً بالكل والجزء، “بكل شيء وبكل الأشياء”. والقصد المباشر من ذلك أن يكون الخلق متصلاً اتصالاً وثيقاً بمعرفة الله الكلمة والآب في الخليقة كلاً وجزءاً، في الوجود كله وفي الحياة التي تتخلل هذا الوجود.

فالحضور الكلي للكلمة في العالم منذ البدء عند أثناسيوس هو تمهيد لإعلان الله أولاً في الكون كله، وثانياً: إعلان الله في الإنسان، عندما أكمل الحضور فيه باتخاذ جسد إنسان: «الله ظهر في الجسد».

ثم بطريقة غير مباشرة يوضّح أثناسيوس أن معرفة الله من خلال المخلوقات أمرٌ حتميٌّ ومقطوع به، ولا عذر للإنسان في أن يتعامى عن ذلك، لأن “الكلمة” يتخلل كل شيء وهو على صلة وثيقة بكل الأشياء، وحضوره يكاد ينطق للعقل المتأمل، لأنه حضور كلي يشمل: الخلق من العدم، فكل خليقة عليها بصمات الحكمة والتدبير بقوانين غاية في الدقة لمواجهة كل ظروف التغيير والضبط بسلطان يفوق العقل، والتفويم بالتجديد والنماء والتعويض لاستمرار الوجود، وهذه كلها عمليات مترابطة.

ولأن الإنسان جزء من كل، أي جزء طبيعي وأساسي من هذا العالم المخلوق، فهو يحظى بنفس الحضور والوجود للذين للكلمة، الذي يسميه أثناسيوس “بالشركة”. فمن خلال هذه الشركة بين الخليقة والكلمة عبّر الإنسان تحدث المعرفة وتفتح أبوابها، لذلك لا يوجد عذر لمن يغلق على نفسه دون معرفة الله: «وكما لم يستحسنوا أن يُبقوا الله في معرفتهم أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض.» (رو 1:28)

[لأن كل مَنْ يدبر ظهره مبتعداً عن “كلمة” الله الكائن والموجود (في العالم) ويصيغ لنفسه معرفة أخرى هي في الحقيقة ليست كائنة، فإنه يسقط حتماً إلى العدم.] (892)

لذلك فإن تجسّد الكلمة كان في الحقيقة تكميلاً لعمل حضوره المستمر في الخليقة، ثم كشفاً مفاجئاً لفكر الإنسان عن مدى إمكانية وقدرة “الكلمة” للاتصال والاتحاد بالخليقة الممثلة في الإنسان المخلوق على صورة الله. وهكذا يبرز بالتجسّد عمل الكلمة كمركز لخطّة الخلاص العظمى التي تبدأ منذ بدء الخليقة وتُسعلن جهاراً في

ملء الزمن، بتقدیس الإنسان وتبني الله له ورفعہ بالقيامة.

ولو تتبعنا بدقة عمل الكلمة في الخليقة، كما سرده أثناسيوس على مدى كتاباته كلها، نرى أن دور "الكلمة" منذ بدء خلق العالم وفي كل مراحل ظهوره وعمله على مدى الدهور كان مع الآب عاملاً في الخليقة على مستوى التساوي الكلي في الحضور الدائم والفائق: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل»، «يملأ الكل» لأنه هو الملاء الحقيقي الذي يملأ الكل.

فما يقوله بولس الرسول باختصار: «فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً، وأنتم مملوون فيه» (كو 2:9 و10)، يعود أثناسيوس يشرحه بدقة واستطراد وتكرار متواصل موضحاً أن:

(أ) المسيح الكلمة واحد مع الآب: لذلك فهو:

(ب) يعمل بالتساوي مع الآب: «أنا أعمل حتى الآن وأبي يعمل»، أي منذ بدء الخليقة حتى الآن!

أي لأن المسيح يحل فيه كل ملء اللاهوت جسدياً، لأنه الكلمة المساوي للآب في ملء الجوهر، لذلك هو يملأ الكل «وأنتم مملوون فيه»!!

لذلك فالتجسد عند أثناسيوس هو استعلان لملء اللاهوت الحال في المسيح، وهو هو واسطة لملئنا منه، وما هو ملؤنا من المسيح إلا معرفة الآب والابن: «أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته.» (يو 3:17)

وهكذا، بحسب القديس أثناسيوس، فإن التجسد هو المدخل الأخير الذي دخل به الله إلى عالمنا هذه المرة جهاراً، ليكشف ليس فقط سر الخليقة وسر حضوره الدائم وسر الخلاص الذي أكمله بالمسيح، بل وبالدرجة الأولى ليكشف لنا سر نفسه، سره الذاتي، سر الآب والابن والروح القدس، الذي هو في الحقيقة وفي الختام سر المجد. ونلاحظ أن أثناسيوس يوضح بأجلى بيان لماذا أن الكلمة، بحسب الأسفار المقدسة، «ملأ كل شيء»؟

+ «ليجمع كل شيء في المسيح ما في السموات وما على الأرض في ذلك.» (أف 10:1)

+ «مستنيرة عيون أذهانكم، لتعلموا ... الذي عمله في المسيح، إذ أقامه من الأموات،

وأجلسه عن يمينه في السماويات، فوق كل رياسة وسلطان وقوة وسيادة، وكل اسم يُسمى ليس في هذا الدهر فقط بل في المستقبل أيضاً، وأخضع كل شيء تحت قدميه، وإياه جعل رأساً فوق كل شيء للكنيسة، التي هي جسده، ملء الذي يملأ الكل في الكل.» (أف 1: 18-23)

+ «لذلك رفعه الله أيضاً، وأعطاه اسماً فوق كل اسم لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض (الأموات في الهاوية)، ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الأب.» (في 2: 9-11)

+ «الذي فيه أيضاً (مماًتاً في الجسد) ذهب فكرز للأرواح التي في السجن (الهاوية)» (1بط 3: 19)

والآن إذا عدنا إلى ما سجّله أثناسيوس بخصوص منهج الكلمة الذي يجمع كل شيء في ذاته، ويملاً الكل في الكل، نراه يصوّبه نحو هدف واحد هو معرفة الآب والابن.

[وكما أنه معروف في الخليقة بأعماله، فيجب أن يعمل في الإنسان أيضاً ويُظهر نفسه في كل مكان، لكي لا يترك شيئاً خالياً من لاهوته ومعرفته!

وإن المخلص فعل ذلك لكي حتى كما أنه يملأ كل الأشياء في كل مكان بوجوده، كذلك أيضاً يملأ كل الأشياء من معرفته!!

أمّا إذا نزل الإنسان حتى إلى الهاوية ... يستطيع أن يرى قيامة المسيح وغلبته على الموت، ويتيقن أن المسيح نزل بينهم أيضاً وهو وحده الإله الحق ورب.

لأن الرب لمس كل أجزاء الخليقة، فأخلاها كلها من كل خداع ... لكي لا يعود الإنسان أن ينخدع بأي حال من الأحوال، بل يجد في كل مكان كلمة الله الحق.

وهكذا أُغلق على الإنسان (في دائرة معرفة الله في كل مكان) من كل ناحية. وإذ يبصر لاهوت الكلمة مبسوطاً في كل مكان، أي في السماء، وعلى الأرض، وفي الإنسان، وفي الهاوية، لا يصير بعد معرضاً للخداع والضلال

عن الله، بل يعبد المسيح وحده (دون أي آلهة أخرى) = «لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض، ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو ربُّ لمجد الله الأب»! [تجسد الكلمة فصل 45]

وهكذا، في رأي أثناسيوس أيضاً، فإن المسيح تعقَّب خداع الشياطين التي أضلَّت العالم وطاردتهم حتى ظفر بهم على الصليب، فجردهم من سلطانهم وراثاتهم، لكي يؤمِّن للإنسان طريق الخلاص الذي وضعه له بالصليب، حتى لا يعود يُستعبد مرَّة أخرى لضلالة الشياطين.

لأن أخطر معوقات الخلاص وأشد عوامل النكوص في الإيمان ومتابعة السير في طريق المعرفة والتقوى والعفة، هي ضلالة الشياطين وغواياتهم.

ومنهج أثناسيوس هذا القائم على مطاردة الشيطان وأعماله وأفكاره وغواياته المنظورة وغير المنظورة يظهر بغاية الوضوح في سيرة القديس أنطونيوس، وهو يحاول في جميع كتاباته أن يبرز أمامنا خطة الله الواضحة في الإنجيل من جهة استعلان يسوع المسيح كابن ذاتي له، الذي «أُعطي كل سلطان مما في السماء وما على الأرض» الذي هو بعينه سلطان الأب، لكي يهب للإنسان الغلبة على كل القوى المعادية لخلاص الإنسان، التي منعت عنه في كل الدهور السابقة معرفة الحق والبصيرة النيرة لإدراك الله في ذاته.

ولا شك أن مفهوم حلول كلمة الله في جسد إنسان للاتحاد الكامل به «لإنارته» (فصل 41 و42)، حسب قول أثناسيوس، يتجه اتجاهاً مباشراً نحو إبطال قوى الشياطين الفكرية وكشف «وإنارة طريق الحياة والخلود» أمام الإنسان عامة. على هذا الأساس قال المسيح: «أنا هو نور العالم».

ونخلص من هذا أن التجسُّد، الذي استُعلن به الله كآب وابن، بالإضافة إلى معطيته التي لا حد لها، سواء الفداء أو الخلاص أو القيامة، أو من جهة بداية كشف الله في الثالوث الأقدس، أي في ذاته؛ فالتجسُّد أيضاً عند أثناسيوس هو لإعطاء «الكلمة» من داخل جسد الإنسان سلطاناً فائقاً على كل أعمال الظلمة التي للشيطان وكسر سلطانه وغواياته وضلالاته، ولإبطال مفعولها في كل العالم، حتى يستطيع

الإنسان من خلال نور المعرفة للحق أن يعبد الله ويدركه في ذاته كآب وابن، حيث تلتحم معاً رسالة الكلمة النظرية هنا كمعلم للحق برسالة الكلمة العملية كقاهر للباطل.

[متى بدأ البشر يهجرون عبادة الأوثان، إلاً عندما حلَّ الله - كلمة الله الحقيقي - بين البشر؟ ومتى بطلت استشارة الأصنام في كل مكان وصارت باطلة، إلاً عندما أظهر المخلص نفسه على الأرض؟

ومتى ظهرت حقيقة أولئك الشعراء الآلهة، واتضح أنهم مجرد بشر يفنون، إلاً منذ أن أتمَّ الرب نصرته على الموت وحفظ الجسد الذي اتخذه بلا فساد حتى أقامه من بين الأموات؟

ومتى احتُقرت غواية وجنون الشياطين إلاً عندما تنازل “قوة الله”، “الكلمة” وظهر على الأرض من أجل ضعف البشر؟

ومتى ابتدأت صناعة السحر ومدارسها تُداس، إلاً عندما صار ظهور الله “الكلمة” بين بني البشر؟

كان البشر لا يعتقدون في أي شيء آخر سوى آلهة الأوثان، أمّا الآن ففي العالم كله تجد البشر يهجرون خرافة الأوثان ويلتجئون للمسيح. وإذ يعرفونه أنه هو الإله يعبدونه فيعرفون به أيضاً الآب الذي كانوا يجهلونه ...

وهكذا أقنع المسيح كل العالم ليعبدوا رباً واحداً وفيه يعبدون الله أباه. [فصل 46)

[وبعد أن امتلأ كل مكان في القديم بغواية الجحيم والعرافة وآلهة التنبؤات، بطل الآن جنونهم ولم يعد أحد منهم ينجّم بعد، وذلك منذ بُشِّر بالمسيح في كل مكان.

(وهنا يربط أثناسيوس بين قول الإنجيل: “اذهبوا بشِّروا العالم أجمع” وبين إرادة الله في تعقُّب ضلالات الشيطان في كل أنحاء العالم، حتى يتهيأ العالم كله لمعرفة الحق وعبادة الله).

وبعد أن أضلَّت الشياطين عقول البشر قديماً، إذ احتلت الينابيع والأنهار والأشجار والحجارة، هكذا أثَّرت على البسطاء بشعوذتها، والآن بطلت

غوايتها بعد الظهور الإلهي “الكلمة”، لأن بعلامة الصليب يستطيع حتى الإنسان العادي أن يفضح ضلالتها.] (فصل 47)

ويبدأ أثناسيوس يدلل على صدق إيمانه ورؤيته لأسباب التجسّد من جهة إبطال ضلالات الشيطان في كل أنحاء العالم وفي كل نواحي النشاط الأدمي، فيستشهد بقيام أنظمة العفة والطهارة والعبادة الجماعية:

[على أن هذه البراهين التي قدّمناها، لها اختبارات عملية تشهد لصحتها، فليذهب من أراد ويعاين دليل العفة في عذارى المسيح والشبان الذين يعيشون الحياة النسكية المقدّسة، أمّا دليل الخلود - وقيامة الأجساد - فيراه في ذلك العدد الضخم من الشهداء.

وليات مَنْ أراد أن يختبر أقوالنا السابقة عملياً، وفي وسط خداع الشياطين وخز عبلات المنجمين وأعاجيب السحر، ليستعمل علامة الصليب الذي يُهزأ به بينهم، فيرى كيف أنه بواسطته تهرب الشياطين ويبطل التنجيم ويُباد السحر والعرافة.

إن مَنْ هو المسيح هذا؟ وما هي عظمتها، الذي بمجرد اسمه وحضوره يستطيع أن يطرح كل هذه القوى ويبيدها، والذي ملأ العالم بتعليمه (الحق)؟

إنه هو ابن الله الحقيقي كلمة الآب، وحكمته، وقوته منذ البدء!] (فصل 48)

ثانياً: المعرفة الكاملة المتبادلة بين الأب والابن

على مدى تعاليم أثناسيوس وحججه ودفاعه، لم يخطئ قط في إبراز التكافؤ الكامل في عملية استعلان ذات الله للإنسان من خلال التجسّد. «فالكلمة» جاء ليعلن الأب، ومن أجل ذلك كان يعلن نفسه بالأقوال والأعمال، حتى إذا أدركوا حقيقة كونه «كلمة الله»، يدركون في الحال الأب الحالّ فيه.

أمّا الأب بدوره فهو الذي أرسله إلى العالم معلناً فيه مسرّته، ومُظهراً به مجده وقوته، حتى يُعرف «أن يسوع المسيح هو رب، لمجد الله الأب.» (في 2:11)

ولكن إعلان الابن للأب وإعلان الأب للابن، في منهج أثناسيوس اللاهوتي، لا يشملان مرحلتين، بل هما عمل واحد. فكل استعلان للابن هو نفسه بالتالي وبالضرورة استعلان للأب، وكذلك كل استعلان للأب هو نفسه حتماً استعلان للابن (893).

أي أن بالتجسّد تمّ استعلان متبادل بين الأب والابن (والروح القدس) (894)، ولكن هذا الاستعلان المتبادل لا يقوم أساساً على كرم الابن أو سخاء الأب أو المحبة المتبادلة أو الطاعة، أي أنه لا يقوم على أساس أخلاقي أو مجرد صفات شخصية، ولكن أساسه هو وحدة الجوهر الذاتي؛ فالأب والابن جوهر واحد وذات واحدة، وهنا منبع فكر أثناسيوس ومصّبّه بأن واحد، أو أن هذا يشكّل الأساس الذي يستمد منه أثناسيوس دفاعه والغاية التي ينتهي إليها كل دفاع، وهو أن التساوي المطلق بين الأب والابن ناشئ من وحدة الجوهر، أي وحدة الكيان والوجود الذاتي. ووحدة الجوهر هي التي أنشأت التساوي المطلق بينهما وتبادل المعرفة والاستعلان، كضرورة حتمية.

وهنا يلزم أن نضع في الاعتبار أن أساس منهج أثناسيوس اللاهوتي كان هو التزام الدفاع والصراع، الأمر الذي جعل أثناسيوس يستلهم كل الإنجيل وكل الحق الإلهي، ويكرّس قلبه وفكره وروحه لإدراك الحق ثم الدفاع عنه.

(893) Ger. Zaphiris, *op. cit.*, p. 299.

(894) نحن نكتفي دائماً باستعلان الأب والابن، بحسب تدرّج الإنجيل وبحسب مراحل الصراع اللاهوتي الذي خاضه أثناسيوس، مرجئين استعلان الروح القدس في النهاية لكمال استعلان الثالوث.

فأريوس أنكر هذا التساوي المطلق بين الأب والابن، وكان منشأ هرطقته هو أن العلاقة التي تربط الأب بالابن هي علاقة عمل (خلقة) فقط. فالأب - بحسب زعم أريوس - خلق الابن ليخلق به العالم وحسب، وهذه العلاقة تخلّلتها علاقة أخلاقية نشأت في ذهن أريوس من كلمة آب وابن، اعتباطاً، لأنها واردة في الإنجيل. وهكذا جهل أريوس وتجاهل وأنكر، عن عمد، وحدة الجوهر، الأمر الذي أنشأ في الحال منطوق عدم التساوي بين الأب والابن إلى الدرجة التي أنكر فيها أريوس أن الابن يعرف الأب، لأنه مخلوق، بل وأن الابن لا يستطيع أن يرى الأب (895) بل ولا يستطيع أن يعرف جوهر نفسه (896).

وينطلقون من ذلك إلى اعتبار أن الثالوث ذو جواهر ثلاثة، وأن كل أقنوم منفصل عن الآخر، وأن الثلاثة غير متشابهين لا في الطبيعة ولا في المجد (897).

أثناسيوس يصمّم على المعرفة الكاملة والمطلقة التي يتبادلها الابن مع الأب، معتمداً أساساً على الإنجيل:

[+ «كما أن الأب يعرفني وأنا أعرف الأب» (يو 10:15)]

+ «ولا أحد يعرف الأب إلا الابن» (مت 11:27)

+ «ليس أن أحداً رأى الأب إلا الذي من الله» (يو 6:46)

+ «بالمسيح قوة الله وحكمة الله» (1كو 1:24)

+ «والمسيح المذخر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم» (كو 2:2 و3)

ثم بعد ذلك، أليس أن هؤلاء الأريوسيين أعداء الله الذين يقولون إن الابن لا يرى الأب ولا يعرفه تماماً. فإن كان الرب نفسه يقول إنه كما يعرفني الأب، هكذا أيضاً أنا أعرف الأب، وهنا الأب لا يظهر كأنه يعرف الابن جزئياً، فكيف يقولون بجنون إن الابن إنما يعرف الأب جزئياً وحسب وليس كلياً؟]

وأثناسيوس كما قلنا يعزي التكافؤ الكامل في المعرفة أو العمل أو الاستعلان بين الأب والابن على أساس الوحدة في الطبيعة والجوهر والإرادة، فمن جهة الإرادة لا

(895) Athanas., *Contra Ar.*, 1:9.

(896) *Ibid.*, 1:6.

(897) Athanas., *Contra Ar.*, 1:6. *De Synod.* 15, 3. *Ad. Episcop. Aegypt.*, 12.

توجد إرادتان متساويتان واحدة للآب وأخرى للابن، لأن الابن كما سبق وقلنا هو «الإرادة الحية للآب» (898) أنظر صفحة 511.

من هنا تنتفي الثنائية بين الآب والابن نهائياً في ذات الله، وذلك بسبب وحدة الجوهر.

كذلك لا يوجد رأيان أو فكران أو عقلاَن متساويان، واحد للآب وآخر للابن، بل رأي وفكر وعقل واحد لله، لأن الابن هو “كلمة الآب وحكمة الآب”.

كذلك لا توجد قدرتان متساويتان، واحدة للآب وأخرى للابن، بل قدرة واحدة لله، كليّة، وضابطة للكل، هي للآب وهي للابن، لأن الابن “هو قوة الله”.

[إذن فابن الله هو “الكلمة”، و“الحكمة”، و“الفهم”، و“المشورة الحيّة”، و“المسرّة”، و“الحق”، و“القوة” التي للآب.] (899)

[إذن فليهلك رأي الأريوسيين، فالثالوث ليس فيه مستحدث إنما لاهوت واحد أبدي، ومجد واحد للثالوث المقدّس، وهو الخالق والصانع.

إن إيمان المسيحيين يعلن أن الثالوث المبارك غير متغيّر وكامل، وهو كما هو منذ الأزل، لا يُضاف إليه ما هو أكثر، ولا يُنسب إليه نقصان، وهو غير منقسم، معبود، في وحدانية الله.] (900)

[إن الله أبا يسوع المسيح هو واحد، وهو رب وخالق الخليقة بواسطة “كلمته” الذاتي. كذلك فإن “كلمة” الله واحد هو، فهو الابن الوحيد من جوهر الآب وله خاصة، وهو مع أبيه لاهوت واحد غير منقسم - كما علّم المخلّص نفسه - به خلق الآب الخليقة وفيه يعلن ذاته لمن يريد وينير الجميع.

واسم الابن يُذكر مع الآب في المعمودية والروح القدس ... وإنه من الضروري أن أقرر وأعلن إيماني، أن اسم الابن يُذكر مع الآب، ليس لأن الآب غير كافي، ولا هو يُذكر بدون معنى أو مصادفة، ولكن لأن الابن هو

(898) Athanas., *Contra Ar.*, 2:2.

(899) Athanas., *Contra Ar.*, 3:65.

(900) *Ibid.*, 1:18.

«كلمة الله» و«حكيمته» الخاصة، وهو شعاع مجده، فهو ملازم للآب وحتماً وأبداً معه. لذلك فمن المستحيل، عندما يهب الآب «النعمة»، أن يعطيها إلا «في الابن»، لأن الابن هو في الآب كالشعاع في النور، ولا يُذكر كأنه عن حاجة خلق الآب الأرض بحكيمته، وصنع كل الأشياء بكلمته، الذي هو منه، كذلك في الابن ثبت المعمودية المقدسة.

لأنه حينما يكون الآب يكون الابن، وكل ما يعمله الآب يعمل من خلال الابن «وكل ما أرى أبي يعمل هذا أنا أعمله أيضاً».

هكذا عندما تُمنح المعمودية، فكل من يعمده الآب يعمده الابن، وكل من يعمده الابن فإنه يتقدّس في الروح القدس. [901]

يخرج أثناسيوس من هذا ضمناً بتأكيد أنه عمل الخلاص الكلي على مدى التاريخ هو أيضاً وبالضرورة نتيجة لجوهر الاتفاق التام بين الآب والابن، لأن عمل الخلاص مترتب أصلاً على عمل الخلق، فإن كان الله الآب خلق كل شيء بكلمته، فهو بالضرورة يخلص ما خلق بكلمته.

أمّا التجسّد الإلهي فكان النقطة الحرجة التي برزت إلى الوجود المعلن في حيّز التاريخ، والتي فيها استعلن الله من داخل التدبير الإلهي لعمل «الثالوث المقدّس». حيث دخل استعلان اللاهوت في حيّز المحدود، إذ استعلن «حكمة الله» و«قوة الله» و«إرادة الله» و«فكر الله» بصورة واقعية ومفهومة، بل ومحسوسة في شخص يسوع المسيح، بالقدر الذي يكشف حضور الله الفعلي والعملي في الإنسان وفي الوجود المحسوس والمنظور.

ولكن وبالرغم من هذا الاستعلان الواضح، ظلّ تدبير الله هذا في قياس محدود بالنسبة لفكر الإنسان ومنطقه، وليس استعلاناً مطلقاً، أي ظلّ مخفياً ومعلنناً بأن واحد!! لإعطاء فرصة للإيمان والاختيار!!

ثالثاً: الابن، الكلمة بتجسده أعلن الآب، وسيظل يعلنه إلى الأبد

لقد ورث القديس أثناسيوس عن الآباء، وخاصة القديس إيرينيئوس، التعليم اللاهوتي للدور الذي يضطلع به الابن في إعلان الآب بتجسده. ولكن كانت هناك بعض المؤاخذات اللاهوتية لمن سبقه من بعض اللاهوتيين والمعلمين، مثل أوريجانوس (902)، الذي كان يرى انتهاء دور الابن بعد أن يخضع كل شيء للآب (1كو 15:24). وكانت هذه أخطر نقطة ضعف في مفهومه للابن بالنسبة للآب، وقد استخدمها الأريوسيون ضد لاهوت الابن المساوي للآب.

أمّا في تعليم أثناسيوس، «فالكلمة» هو صورة جوهر الآب، ليس بالنسبة لإرسالية عمله في العالم، ولكن بالنسبة لصميم جوهر الثالوث وصميم ذات الله وحياته.

لذلك فالابن قائم في الآب قبل إنشاء هذا العالم، وسيظل قائماً في الآب بعد انتهاء هذا العالم. ويقول القديس أثناسيوس تعليقاً على الآية: «وبعد ذلك النهاية متى سلمّ الملك لله الآب متى أبطل كل رياسة وكل سلطان وكل قوة، لأنه يجب أن يملك حتى يضع جميع الأعداء تحت قدميه ... ومتى أخضع له الكل فحينئذ الابن نفسه أيضاً سيخضع للذي أخضع له الكل كي يكون الله الكل في الكل» (1كو 15:24 و25 و28)، حينئذ سيظل الابن، كما هو، الصورة الأزلية لجوهر الآب:

[فالابن غير مفترق عن الآب، ولم يكن زمان قط لم يكن فيه الابن موجوداً، ولكنه دائماً أبداً صورة الآب وشعاعه، وله أزلية الآب.] (903)

[«عرشك يا الله إلى دهر الدهور. قضيب البر هو صولجان مُلكك. لقد أحببت البر وأبغضت الإثم. لذلك مسحك الله إلهك بزيت البهجة أكثر من رفقاءك (شركائك)».]

انظروا أيها الأريوسيون واعترفوا بالحق، فالمرنم (داود) يتكلم عنا جميعاً

(902) Origen, *Comm. in Johan.*, 20.7.

(903) Athanas., *Discourse*, III, 28.

كرفقاء أو شركاء للرب، فلو كان (المسيح) جاء من عدم (كما تدعون)، لكان هو أيضاً واحداً من هؤلاء الرفقاء. ولكن لأن المزمور يسبّحه أنه الإله الأبدي بقوله: «عرشك يا الله إلى دهر الدهور»، لذلك فهو وحده كلمة الآب الحقيقي والشعاع والحكمة الذي يشترك فيه كل ما هو مخلوق حينما يتقدّس بالروح. [904]

[فإذا كانوا يتصوّرون أن المخلص لم يكن ربّاً وملكاً قبل أن يتجسّد ويصير إنساناً ويحتمل الصليب، فإنهم بذلك يُحيون بدعة بولس الساموساطي. ولكن كما سبق أن أوضحنا بالشواهد أنه رب وملك أبدي كما يقول داود: «مُلكك مُلك كل الدهور» (مز 13:145)، فإنه واضح أنه، حتى وقيل أن يصير إنساناً، كان ملكاً وربّاً أبدياً، لأنه صورة وكلمة الآب، ولأن «الكلمة» هو رب وملك أبدي ... أمّا قول بطرس أنه صار «ربّاً ومسيحاً» فإنما يتكلّم عن ربوبيته علينا، حينما صار إنساناً وفدانا على الصليب، فصار ربّاً وملكاً على الكل ... أي اكتسبنا نحن لملكوته وربوبيته. [905]

[فإذا كان قد مُسح (بالروح القدس) فليس لكي يصير إلهاً، لأنه كان إلهاً حقّاً، ولا ليصير ملكاً لأنه إذ هو صورة الله فهو يحكم أبدياً. [906]

وهكذا يضع أثناسيوس الأساس اللاهوتي القوي لعلاقة الابن بالله الآب، أنها علاقة صميمية أبدية وأزلية، وعلى هذا الأساس يبني مفهوم علاقة المعرفة الذاتية والجوهرية التي بين الابن والآب، ثم يتطرّق إلى التجسّد باعتباره مرحلة إعلان وتعريف بالله الآب اضطلع بها الابن من نحو البشرية، من واقع علاقته الجوهرية والذاتية بالآب، وليس من واقع إرساليته أو عمله الزمني المؤقت.

وهنا يكشف أثناسيوس عن سر من أسرار التجسّد الهامة جدّاً، وهو القصد المباشر الذي قصده الله بتجسّد ابنه، لكي نعرف الله معرفة حقيقية صميمية بواسطة ابنه المتجسّد، الذي هو وحده القادر أن ينقل لنا صورة حيّة واقعية للآب، لأنه واحد معه؛

(904) Athanas., *Discourse*, I, 46.

(905) *Ibid.*, II, 13.

(906) *Ibid.*, I, 46.

وذلك من واقع تجسُّد الابن نفسه، أي بصورة مدركة ومحسوسة وملموسة للعقل البشري، وفي نفس الوقت هذه الصورة التي ينقلها لنا عن الله هي من صميم جوهر الله غير المدرك وغير المنظور «مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى الْآبَ».

على أن عمل الابن في تعريفه وإعلانه للآب لن يتوقَّف أبداً بتوقُّف عملية الخلاص والدينونة، فحتى بعد أن يُخضع المسيح كل شيء لله وتصير الخليقة كلها خاضعة لله، ويسلِّم المسيح غنيمته التي اغتتمها لحساب الآب وهي خلاصنا وإخضاع أعداء الخلاص؛ فإن الابن سيظل صورة الآب الجوهرية وشعاعه المعلن عنه، كما كان كذلك سيكون إلى أبد الأبد. فالآب والابن والروح القدس الثالوث الأقدس لذات الله حقيقة دائمة قبل إنشاء هذا العالم وبعد انتهاء هذا العالم.

رابعاً: العلاقة بين النور وبهاء (شعاع) النور كأساس لإدراك حقيقة الله

كان أثناسيوس كثير الشغف باستخدام العلاقة بين جوهر النور وبين الشعاع الخارج منه في توصيل معرفة حقيقة الله إلينا، بواسطة "الكلمة" كلمة الله، الذي هو شعاع «وهو بهاء مجده». (عب 3:1)

[إنه هو وحده الذي يكشف ويعلن الآب.

كما يقول بولس الرسول: «نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح» (رو 7:1)، لأن بهذا تتم البركة وتكون كاملة وفي أمان بسبب عدم انقسام الابن عن الآب، ولأن النعمة المعطاة منهما هي واحدة! إذ بالرغم من أن الآب هو معطيها، إلا أنها تُعطى في الابن وبواسطته توهب، فالآب هو الذي يمدنا بالنعمة من خلال الابن، وهذا يُفصح عنه بولس الرسول أيضاً بقوله في موضع آخر: «أشكر إلهي في كل حين من جهتكم على نعمة الله المعطاة لكم في يسوع المسيح». (1كو 4:1)

وهذا يمكن للإنسان إدراكه في تشبيه النور والشعاع:

لأن ما يجعله النور مضيئاً هو الذي يقع في دائرة الإشعاع، وإضاءة الإشعاع هي بعينها إضاءة النور ذاته، كذلك تماماً حينما يرى الابن يرى الآب، لأن الابن هو شعاع الآب، فالآب والابن هما واحد. (وهكذا يثبت أثناسيوس أن النور والشعاع الصادر منه هما واحد دائماً، ثم يبيّن على التشبيه أن أتباع يسوع يعرفون الله غير المنظور، على أساس أن ما يكشفه ويعلنه الشعاع هو حقيقة النور ذاته)(907).

لذلك فالإنسان يرى الله حينما يرى "الكلمة"، لأن "الكلمة" هو شعاع (بهاء) الله. وهذا حق مطلق لأن للآب وجود واحد مع الابن «أنا والآب واحد» (يو 30:10). [908]

(907) المؤلف.

(908) Athanas., *De Synod.*, 50, 1-3; *Discourse*, I. 9,16.

والقديس أثناسيوس يأخذ معنى "الصورة لجوهر الآب" - أو الشعاع بالنسبة للنور - أخذاً لاهوتياً عميقاً، معتبراً أن صورة الجوهر الإلهي ليست إلا الله ذاته.

فعند أثناسيوس "صورة الله هي الله":

[إن كلمة الله ليست مجرد نطق، ولا هي صوت مقاطع تُسمع، ولا ابن الله يعني مجرد أمره، ولكنه الشعاع للنور، كامل من كامل، وهو بكونه صورة الله، فهو الله؛ كما قيل في الإنجيل: «والكلمة كان الله».

وكلمة الإنسان لا تصلح أن تكون فعلاً أو عملاً، فالإنسان لا يعمل بالقول، بل يعمل ببيديه، لأن اليدين لهما وجود فعلي، أمّا كلمة الإنسان فليس لها كيان وجودي فعلي: «أمّا كلمة الله - (وهي كائنة) - فتدوم إلى الأبد»، كما يقول بولس الرسول: «حيّة وفعّالة وأمضى من كل سيف ذي حدين وخارقة إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ، ومميّزة أفكار القلب ونياته» (عب 12:4). [909]

[و"الكلمة" باعتباره صورة الله ليس هو خارج جوهر الآب، ولكنه:

- من ذات جوهر الآب "Idioj t o e siaj-z
- مساوي مع الآب ذو ع sioj ع. [910]

وهكذا يخرج أثناسيوس بمحصّلة لاهوتية: لأن الكلمة هو شعاع وصورة وبهاء الآب، فإنه يكفي للإنسان أن يتأمّل في صفات "الكلمة"، ليعرف كلاً من الكلمة والآب (911).

وحيثما نتطّلع إلى الابن، فنحن نرى الآب، لأن الكلمة لا يختلف عن الآب، فهو صورة ذات الآب أو صورة جوهر الآب (912).

لذلك يعتبر أثناسيوس أن كل إدراك ومعرفة يتحصّل عليها الإنسان من الكلمة، تصبح هي بعينها المعرفة الأصلية والإدراك الحقيقي الذي للآب، لأن الكلمة هو

(909) Athanas., *Discourse*, II, 35.

(910) Athanas., *Discourse*, III. 8, I.9.

(911) Athanas., *De Incarn.*, 12.

(912) Athanas., *Contra Gentis.*, 41, 46. *Discoure*, II. 56; III. 62.

[لأنه حينما نشترك في الابن ذاته، يُقال إننا نشترك في الله، وهذا ما قاله بطرس: «حتى تصيروا شركاء الطبيعة الإلهية»، كما يقول الرسول بولس أيضاً: «ألا تعلمون أنكم هيكل الله» (1كو 3:16)، «أنتم هيكل الله الحي» (2كو 6:16)، وإذ نتطَّع إلى الابن نرى الآب، لأن فكر ومعرفة الابن هي معرفة الآب، لأنه ابنه الذاتي الذي من جوهره ...

وأنة حكمة الله وكلمته، الذي فيه وبواسطته خُلقت كل الأشياء، وهو بهاء نوره، الذي كل الأشياء تستنير به، والذي يعلن الآب لمن يشاء، وهو رسمه وصورته الذي حينما نتأمل فيه نتأمل في الآب ونذكره: «لأنه هو والآب واحد»، فكل مَنْ يتطَّع إليه يتطَّع إلى الآب، وهو المسيح الذي فيه تمَّ اقتداء كل الخليقة، وبه صُنعت الخليقة من جديد (على صورته). [914]

[وهكذا تمتلئ الأرض كلها من معرفته، لأن معرفة الآب تتم من خلال الابن، ومعرفة الابن التي هي من الآب هما معرفة واحدة ومطابقة.

والآب يُسرُّ بالابن، وكذلك الابن أيضاً يُسرُّ بالآب (أم 8:30). والآب إنما يُسرُّ بالابن، لأنه يرى فيه صورته الذي هو كلمته.

ولكن وإن كان الله سرّاً أيضاً بالإنسان عندما خلقه وأكمل خلقه العالم، كما هو أيضاً مكتوب في سفر الأمثال (3:18 السبعينية)، ليس كأن السرور أضيف إلى الله، ولكن برويته الأعمال التي أكملت على صورته، فسرور الله دائماً يتجه نحو صورته.

وفيما تكون مسرّة الابن، إلّا بأن يرى نفسه في الآب؟ وأليس هذا هو المكتوب: «من رأني فقد رأى الآب»، «وأنا في الآب والآب فيَّ». [915]

وعلى ضوء اللاهوت عند أثناسيوس، الذي يجمع معاً معرفة الآب ومعرفة الابن

(913) Athanas., *Discourse*, I. 16; II. 16.

(914) Athanas., *Discourse*, I. 16.

(915) Athanas., *Discourse*, II. 82.

في وحدانية كيانية، فالمعرفة الواحدة للآب والابن أساسها وحدانية الجوهر والذات؛
والعكس صحيح، أي أن الوحدانية في الجوهر الكياني الذاتي لله يُنشئ حتماً وحدانية
في المعرفة (916)، كالنور مع الشعاع، والجوهر مع الصورة، والعقل مع الكلمة؛ هذه
الوحدانية في المعرفة تنير أمامنا مفهوم بولس الرسول في قوله: «رَبُّ واحِدٌ، إيمانٌ
واحِدٌ، معموديةٌ واحِدةٌ، إلهٌ وآبٌ واحِدٌ للكلِّ، الذي على الكلِّ وبالكلِّ وفي كلِّكم.» (أف 4: 6)

فالله في المسيح والمسيح في الله وجود واحد جوهرى وذاتى معاً، هذا الوجود
الواحد قائم على أساس وحدة الثالوث الذي نؤمن به، إلهاً واحداً، ونعتمد له، وإن كان
«باسم الآب والابن والروح القدس» فهي معمودية واحدة لإله واحد لا تتكرر. وهنا
ندرك القيمة الهائلة التي نخرج بها من تعليم أثناسيوس عن المعرفة الواحدة المتطابقة
بين الابن والآب التي نتلقَّنها من الروح القدس عن الابن، فنبلغ الإيمان الواحد بالإله
الواحد الذي يؤهلنا للمعمودية الواحدة.

أي أن تشديد أثناسيوس على وحدة التطابق في المعرفة التي نتلقَّنها بالروح القدس
من الابن عن الآب ومن الآب عن الابن، التي يؤكِّدها إنجيل يوحنا على مدى
أصاحاته، هي أصلاً قائمة على أساس وحدة الجوهر، أي وحدة الوجود الذاتي لله
في أب وابن، وكما أنه لا توجد ثنائية في جوهر الله أو في ذاته المفردة، كونه أباً
وابناً، كذلك تماماً لا توجد ثنائية في معرفة الابن وإدراكه وفي معرفة الآب وإدراكه،
فالمعرفة الواحدة منبعها الجوهر الواحد والذات الواحدة لله. ولكن كان يستحيل علينا
إدراك الآب ومعرفته وهو الإله المحتجب «حقاً أنت إله محتجب يا إله إسرائيل»
(إش 45: 15)، الذي لم يره أحد قط ولا يستطيع أن يعرفه أحد قط، إلا بتجسُّد الابن،
الذي هو في الآب ومع الآب وفي حضن الآب، فهو الذي خبرنا عن الآب: «لو كنتم
قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً، ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه، قال له فيلبس يا سيد
أرنا الآب وكفانا (رؤية الآب هي منتهى كمال سرور الإنسان)، قال له يسوع أنا
معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس؟ الذي رأني فقد رأى الآب، فكيف تقول
أنت أرنا الآب؟ ألسنت تؤمن أنني أنا في الآب والآب فيِّي، الكلام (المعرفة) الذي

أُكَلِّمكم به لست أنكَلِّم به من نفسي (المسيح ليست له ذات منفصلة عن ذات الآب)،
لكن الآب الحال فيّ هو يعمل الأعمال (بي)، صدّقوني أنني أنا في الآب والآب فيّ.»
(يو 14: 7-11)

[كون الابن المتجسّد جلس عن يمين الآب، فماذا يشير هذا إلّا إلى أصالة بنوّة
المسيح لله؟ وأن لاهوت الآب هو لاهوت الابن، فلكون الابن يحكم ويملك في
ملكوت أبيه، لذلك يجلس على نفس عرش الآب، ويُرى بلاهوت الآب، لذلك
فإنّ «الكلمة» هو الله وكل من يرى الابن يرى الآب، ولهذا فلا يوجد إلّا إله
واحد.

والابن - المتجسّد - إذ يجلس عن اليمين، فليس هذا معناه أنه يضع أباه
شماله، ولكن يعني أن كل ما هو للآب هو أيضاً للابن حسب القول: «كل ما
هو للآب فهو لي»، وهكذا فالابن رغم أنه قيل إنه يجلس عن اليمين فإنه
يرى أيضاً الآب عن اليمين، هذا يكشف ويوضّح لنا بالأكثر أن الابن في الآب
والآب في الابن، لأنه إذ يكون الآب عن اليمين يكون الابن أيضاً عن اليمين،
فالابن حينما يجلس عن يمين الآب يكون الآب في الابن.] (917)

يبدو هنا أن معنى كلمة «اليمين» هو المساواة في الكرامة والمجد.

وهنا يبلغ أثناسيوس ذروة السمو في توضيح ماهية اللاهوت، فالله مهما تشبّه
بالإنسان، يظل كيانه فائقاً جدّاً عن مفهوم ما للإنسان من جلوس وقيام ويمين وشمال
... وبالتالي كل الأوصاف الجوهرية من أبوة وبنوّة، فالله مُدرك كامل يُدرك ولكن لا
يُدرك كماله ... والآب والابن بالرغم من كونهما أقنومين، إلّا أنه بسبب جوهرهما
الواحد فلا ثنائية في كيانهما إطلاقاً، فالتساوي المطلق بينهما لا يجعل الثنائية العددية
قائمة بينهما على الإطلاق. وهذا هو مفهوم «الصورة الجوهرية» في اللاهوت:
«فالآب هو الجوهر غير المنظور للابن والابن هو الجوهر المنظور للآب» كقول
القديس إيرينيئوس (ضد الهرطقة 4: 5).

وهذا القول أعاد أثناسيوس صياغته هكذا:

[لأنه صار إنساناً لكي فيه نصير إلهاً، وظهر في الجسد ليستعلن الآب غير

ومرة أخرى ننبه ذهن القارئ أن التساوي المطلق بين شئيين لا يجعلهما اثنين بل يجعلهما واحداً، وهذا مستحيل في الأمور المخلوقة، إذ لا يوجد في الخليفة كلها تساوي مطلق بين اثنين، أمّا في الله فالتساوي المطلق صفة جوهرية في الثالوث، ويشمل كلية الوجود، وكلية القدرة (بانتوكراتور)، وكلية المعرفة، وكلية الصلاح، للآب والابن والروح القدس: لذلك نقول: «إله واحد». وهكذا فالتساوي المطلق بهذه الصورة الفارقة هو حقيقة الآب والابن، التي تجعل من الآب والابن ذاتاً واحدة، كياناً واحداً جوهرياً، تتميز في الأبوة والبنوة فقط من داخل التساوي المطلق، ليبقى الكيان أي الجوهر واحداً، وفي الذات الواحدة لله المتساوية والمطلقة لا يمكن أن يرى اختلاف أو انقسام أو تجزء، فإن رأي الابن ولم ير الآب، فلأن البنوة الذاتية التي في الله هي التي لبست جسداً ظاهراً دون الآب، فظهر الله الابن متجسداً «الله ظهر في الجسد»، وإن رأي الابن جالساً عن يمين الآب، فهذا بسبب الجسد الذي اتخذته الابن لنفسه، فصار الابن المتجسد عن يمين الآب، مع أنه في الآب والآب فيه وهما واحد.

لذلك يشدد أثناسيوس في رده على الأريوسيين، كما كان يرد على الوثنيين، أن تجسد الابن كان الوساطة الوحيدة لمعرفة الآب، لأن كل ما علم به وكل ما قاله المسيح هو هو لمعرفة الآب، وكل قوة وعمل عمله المسيح، كان توضيحاً وتعبيراً عن قوة وعمل الآب (919).

في كل تعاليمه، لم يجد أثناسيوس، ولا قيد شعرة، عن التقليد الثابت الذي استلمته الكنيسة من الرب مباشرة، عن الرؤية الثابتة الكاملة لله الواحد في الثالوث المتساوي في كل شيء:

[لنتأمل في تقليد الكنيسة الجامعة وتعاليمها وإيمانها منذ البدء، التي أعطاهها الرب وكرز بها الرسل وحفظها الآباء، على هذه تأسست الكنيسة، ومن يسقط منها لا يحسب مسيحياً، ولا يُدعى مسيحياً بعد. إذن، فهناك ثالوث مقدس

(918) Athanas., *De Incarn.*, 54. 3.

(919) Athanas., *Discourse*, I, 16, 28, 33; II. 13.

كامل، معترف به أنه الله الواحد، الآب والابن والروح القدس، لا يختلط معه شيء غريب أو خارجي، لا يتكوّن من واحد يخلق وواحد يبدع، بل الثالوث (الكل) خالق متساوي، ومن جهة الطبيعة غير قابل للتجزئة، نشاط واحد: فالآب يعمل كل الأشياء بالكلمة في الروح القدس، هكذا تقوم الوحدة في الثالوث، وهكذا يُنادى باله واحد في الكنيسة «الذي على الكل وبالكل وفي الكل».[920]

وإذا عاد القارئ الباحث إلى التقليد الكنسي المبكر، نجد في دفاع كليمنس الروماني في رسالته ثبناً لهذه النظرية اللاهوتية الحيّة التي تحمل في طياتها كل حقيقة لاهوت الكلمة وقيمة التجسّد، إذ يقول كليمنس: [إن غياب لاهوت المسيح يقابله بالتالي فقدان كل معرفة عن الآب]. [921]

وأثناسيوس كان حريصاً كل الحرص في تعليمه اللاهوتي الطويل والعريض أن يجمع التقليد الكنسي في اختصار وفي قوة ووضوح، ليعلن أن سبب التجسّد ليس هو لاستعلان الآب وحسب، بل ولتكميل الخلاص، إنما في رباط واحد محكم، بمعنى أنه يستحيل تكميل رسالة الخلاص إلا باستعلان الآب، كما يستحيل استعلان الآب إلا في عمق الخلاص. وهنا يدخل أُنثوم الروح القدس كأُنثوم المعرفة الإلهية، أُنثوم كشف أسرار اللاهوت «الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله»، «روح الحق الذي يعرفكم بكل شيء»، «يعرفكم كل الحق».

وهكذا فإن نظرية أثناسيوس في المعرفة الإلهية تبدو مترابطة، وليست لمجرد المعرفة، بل لهدف الخلاص. فالابن تجسّد ليعلن الآب، والآب يجذب الإنسان سرّاً لمعرفة الخلاص الذي في المسيح، بواسطة الروح القدس. لذلك أصبحت مقولة الإيمان الذي للخلاص، للعماد، هي بعينها خلاصة اللاهوت «عمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس».

(920) Athanas., *Ad. Serap.*, I. 28.

(921) *Homily of Clement of Rome*, 2, 3, 1.

خامساً: الآب يعلن الابن (اللوغس)

- + «لا يقدر أحد أن يأتي إليّ إن لم يُعط من أبي.» (يو 6:65)
- + «أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني.» (يو 8:18)
- + «لا يقدر أحد أن يُقبل إليّ إن لم يجتنبه الآب الذي أرسلني.» (يو 6:44)
- + «أبي هو الذي يمجدني الذي تقولون أنتم إنه الهكم.» (يو 8:54)

يشدّد أثناسيوس على أن قول المسيح «كل شيء قد دُفع إليّ من أبي، وليس أحد يعرف الابن إلا الآب، ولا أحد يعرف الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يعلن له» (مت 27:11)، هذا يعني أنه قد أُعطي للإنسان أن يعرف الآب بواسطة الابن، ولكن بواسطة الابن وحده وبمحض مشيئته يُعلن الآب، ولكن لمن؟ يشدّد أثناسيوس أن كشف سر الآب يستحيل أن يمنحه المسيح للإنسان إلا وهو في حالة تناسب إدراك أسرار اللاهوت، أي يكون مهيباً بالروح، مستعداً، وظاهراً نقياً بالقلب. وهذا يقوله أثناسيوس في شرحه على سفر المزامير وخاصة على مزمو 6:144.

وعلى هذا الأساس يشرح أثناسيوس قول إنجيل يوحنا “جاء إلى خاصته وخاصته لم تقبله”، قائلاً: إنهم لم يقبلوه لأنهم لم يجوزوا حالة التطهير الداخلي الضرورية التي تؤهلهم إلى حالة الاستعداد الروحي لقبول المسيح!!

فالمسيح لا يمكن أن يعلن صورة ناقصة أو مشوّهة للآب، بل لا بد أن يعطي ويسلم صورة كاملة للآب، يعطيها ويصوّرها في نفسه بنفسه، لتكون مطابقة تماماً للآب، ولكن يستحيل على الإنسان أن يطّلع على هذه الصورة الكاملة التي للآب في المسيح، إلا إذا تأهّل أولاً أن يرى المسيح كما هو فينطبق نور وجه المسيح على قلب الإنسان، فينيره كما تنطبق الصورة على أصلها.

[وبالأكثر يلزم أن يرتفع ويتلاشى من الوسط أي حائل جسدي مادي، إذا بدأنا أن ندخل في هذا الموضوع، بل ويلزم أن نتسامى ونتعالى بأي تصوّر حسّي، نعم يتحمّم علينا هذا لكي ندرك ونفهم العلاقة الأصيلة بين الابن والآب حتى ندخل إليها بمعرفة ظاهرة وبعقل نقي، حتى نبليغ سر العلاقة الخاصة بين

الكلمة اللوغس والله، تماماً. كما نتحقق من التطابق الكلي غير المتغير بين
الشعاع والنور.][922)

ويعود أثناسيوس يستقصي مبدأ تعريف وإعلان الكلمة اللوغس للآب، بل تعريف وإعلان الآب لنفسه بواسطة الكلمة أيضاً، مبيناً أنه كان منذ بدء خلقه الإنسان منذ بدء العهد القديم، حيث «كلمة الله» كان، ولا يزال، الواسطة لاستعلان الآب بصفة دائمة وأصيلة وطبيعية، لا تتأثر بالعوامل الزمانية، ولا تقل أو تتغير، لأن «الكلمة» هو الصورة الجوهرية الناطقة للآب دائماً منذ الأزل وإلى الأبد، المدركة في الخليفة ككل، والمدركة في الإنسان بصفة خاصة «الله»، بعد ما كَلَّمَ الآبَاءِ بالأنبياء قديماً، بأنواع وطُرُقٍ كثيرة، كَلَّمْنَا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه، الذي جعله وارثاً لكل شيء، الذي به أيضاً عَمِلَ الْعَالَمِينَ، الذي، وهو بهاء مجده، ورسم جوهريه، وحامل كلِّ الأشياء بكلمة قدرته.» (عب 1: 3-1)

وفي موضع آخر يقول:

[إن «حكمة» الله الذي تجسّد في الخليقة، التي هي صورته، أعلن بذلك نفسه أولاً، ثم من خلال ذاته أعلن أباه، ثم بعد ذلك - إذ هو «كلمة الله» الذي صار جسداً كما يقول يوحنا - فبعد أن أباد الموت (بقيامته) وخلّص الجنس البشري، فإنه أعلن بذلك نفسه أكثر، ومن خلال إعلانه لنفسه أعلن عن الآب قائلاً: «هب لهم أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته»، من أجل هذا امتلأت الأرض بمعرفة الله في المسيح لأن معرفة الآب في الابن، ومعرفة الابن من الآب، هي معرفة واحدة بذاتها.

لأن الآب يسرُّ بالابن، وفي نفس هذه المسرّة يفرح الابن بالآب «لَمَّا ثَبَّتَ السَّمَاوَاتِ كُنْتُ هُنَاكَ أَنَا، لَمَّا رَسَمَ دَائِرَةَ عَلَيَّ وَجْهَ الْغَمْرِ. لَمَّا أَثْبَتَ السُّحْبَ مِنْ فَوْقٍ لَمَّا تَشَدَّدَتْ يَنَابِيعُ الْغَمْرِ. لَمَّا وَضَعَ لِلْبَحْرِ حُدَّهُ فَلَا تَتَعَدَّى الْمِيَاهُ تُخْمَةً لَمَّا رَسَمَ أَسْسَ الْأَرْضِ كُنْتُ عِنْدَهُ صَانِعاً وَكُنْتُ كُلَّ يَوْمٍ لِدَّتِهِ فَرِحَةً دَائِماً قُدَّامَهُ، فَرِحَةً فِي مَسْكُونَةِ أَرْضِهِ وَلِدَاتِي مَعَ بَنِي آدَم.» (أم 8: 27 و31).][923)

(922) Athanas., *De. Decret.*, 24.

(923) Athanas., *Discourse*, III. 30, 31.

لذلك يستشهد أيضاً أثناسيوس بما يقوله بولس الرسول من جهة أن صورة الابن المطبوعة في الخليقة هي صورة ناطقة عقلياً بوجود الأب نفسه وحضرتة وصفاته ولاهوته هكذا: «لأن غضب الله معلّن من السماء على جميع فجور الناس وإثمهم الذين يحجزون الحق بالإثم، إذ معرفة الله ظاهرة فيهم، لأن الله (الأب) أظهرها لهم (في صورة ابنه) لأن أموره غير المنظورة (جوهره) تُرى منذ خلق العالم (في عمل ابنه) مُدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته حتى أنهم بلا عذر.» (رو 1: 20-18)

ثم يعود أثناسيوس ويتعرّض للعلاقة الجوهرية القائمة بين الأب والابن، على مستوى الحب والفرح والمسرة بينهما، ليثبت أن الأبوة والبنوة في ذات الله الواحد ليست مجرد أسماء أو ظهورات أو وجوه يلغي الواحد منها الآخر، فيقول: [وهذا يثبت أن الابن ليس غريباً عن ذات جوهر الأب الخاص، لأنه ليس من أجلنا وُجد الابن كما يدّعي عديمو الدين، ولا هو - خلق - من لا شيء، لأن الله لا يخلق لنفسه مسرةً خارجاً عن ذاته، ولكن الكلمات (أم 8: 29 و30) تشهد وتوضّح أن الابن كالأب وهو خاصته، وهل يمكن أن يكون الأب وقتاً ما بدون مسرة خاصة؟ ولكن إن كان الأب حقاً هو دائماً في مسرة، فلا بد إذن أن مصدر مسرته كان دائماً في ابنه الذي فيه سروره، (الاكتفاء في الذات الإلهية).

وفي مَنْ تكون يا ثرى مسرة الله الأب؟ إلاً عندما يرى ذاته تماماً في صورته الذي هو - كلمته - (الفعالة بإرادته حسب كل مسرته)؟

وبالرغم من أن الله سرّاً أيضاً في بني الإنسان بعد أن أكمل خلقه العالم، إلاً أن القول بهذه المسرة أيضاً له أصلته من جهة المعنى، فحتى هذه المسرة التي في بني آدم لم تكن مسرة مضافة إليه، ولكن بسبب أنه رأى الأعمال صنعت على صورته الخاصة، فحتى هذه المسرة التي في الإنسان هي بسبب وعلى أساس ما له أي صورته.

وأيضاً فيم تكون مسرة الابن إلاً حينما يرى نفسه في الأب؟ لأنه هكذا قيل بالحرف الواحد «كل مَنْ رآني فقد رأى الأب»، «وأنا في الأب والأب

وهنا لا يسعنا إلا أن نكشف سرًا عميقاً من أسرار أثناسيوس هذا العملاق اللاهوتي، إذ يضمّر أثناسيوس ويكشف معاً أن معرفتنا لله الآب والله الابن ليست هي المعرفة التي تقوم على النظريات أو المنطق العقلاني، كمقولات تختص بالفكر وحسب؛ بل هي تقوم على أساس الحب والمسرة والفرح والتقوى. فالمعرفة القائمة أصلاً في جوهر الله بين الآب والابن هي معرفة قائمة على أعلى مستوى الذات الكاملة المتكاملة من التعاطف والحب والسرور، هذه الأمور العجيبة التي تفوق كل إدراك الإنسان وهذه كانت قائمة قبل الخلق وأثناء الخلق وبعد الخلق وحتى إلى الآن، وهي التي نستمد لنواتنا منها كل المواهب الإلهية عن طريق الروح القدس: فرح، سلام، لطف، وداعة، تعفّف ... إلخ

هكذا وبالتالي يوحى إلينا هذا القديس العملاق أن معرفتنا لسر العلاقة التي تربط الابن بالآب هي مصدر غنى البشرية الفائق ومصدر تكامل الشخصية الإنسانية من جهة أعلى القيم الأخلاقية والسلوكية، التي لا تتم إلا في هذا المجال عينه، أي مجال الحب الإلهي.

فمن خلال الاستعلان الإلهي بالصلاة وبالسرور المفرط يتم انكشاف سر الدالة التي تربط الآب بالابن «الآب يحب الابن»، وتعلنه لنا بسكب هذه المعطيات في أعماق كيان الإنسان بالروح القدس. وهذا يكون بسبب أن «حكمة» الله وهو «كلمته» الجوهرية تكون قد سكنت فكرنا وضميرنا واتحدت بكل كياننا، فأدخلنا سرًا داخل دائرة المعرفة الخاصة جدًا لله: «أمّا نحن فلنا فكر المسيح»، التي تقوم بحسب جوهرها على هذا الحب. وهذا هو الذي يقصده بولس الرسول بقوله إن «الروح (الذي أخذناه) يفحص كل شيء (لنا) حتى أعماق الله»، وما هو عمق الله إلا هذه المعرفة القائمة بين الآب والابن على أساس هذا الحب وهذا السرور؟ وما قيمة أن الروح يفحص لنا أعماق الله إلا لكي يعلن في أعماقنا صورة حيّة لقوة الروابط؟

وأثناسيوس يعتبر جميع الأسفار المقدسة إنما تقدّم لنا حلقة متكاملة من استعلانات الله الآب بواسطة ظهورات أو إعلان الابن التي تحمل كل مسرة الآب وإعلاناته ثم تجسده، الذي عبّر عنه يوحنا الرسول أنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل

ابنه الوحيد، بمعنى أنه لمّا أراد الله الآب أن يعلن عن حقيقة ذاته وحبّه الأبوي من نحو العالم، لم يجد أمامه إلاّ ابنه لكي يعلن فيه هذا الحب، فتجسّد الابن كان هنا قمة مشيئة الآب في الإعلان عن نفسه وعن حبه وعن سر ابنه.

وأثناسيوس يستخدم نفس التساوي في الإعلان بين الآب والابن بهذه الصورة الفارقة في الحب المتبادل أساساً وبرهاناً معاً للتساوي الديناميكي المطلق في الجوهر الإلهي، معتمداً اعتماداً قوياً على قول الرب: «عمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس»، لأنه من خلال اسم الآب يُستعلن لنا ونفوز باسم الابن، وباسم الابن يُستعلن لنا ونفوز باسم الروح القدس: حضرة واحدة للإله الواحد الكامل في الثالوث المتساوي المطلق. الآب في الابن في الروح القدس: هذا السر الذي كان قائماً في الله منذ الأزل، غير معروف ولا مُدرَك حتى استُعلن لنا بالتجسّد وولناهُ واشتركنا فيه بالإيمان والعماد، أي بالاستنارة، فصار لنا أعظم مصدر للحب والسرور وبهجة الخلاص حيث انتهت معرفتنا لسر الثالوث المقدّس إلى شركة حب وحياة فرح للآب في ابنه، هذه هي عظمة التعليم اللاهوتي عند أثناسيوس، كيف انتقل بالجدل والمناظرة والمقارنة الجافة إلى الدخول الحقيقي والعملي في سر الشركة المفرحة والحياة الأبدية الدسمة بالثالوث وفي الثالوث.

[لذلك فنحن، من جهة التقوى والدقة في التحديد والوصف، علينا أن نتعرّف على الله من الابن، داعين إيّاه "الآب" أكثر جدّاً مما نصفه وندعوه من جهة أعماله وبالنسبة لصفات الخلق، كأن ندعوه "غير المخلوق" (مع بقية الأوصاف التجريدية: غير المنظور غير المحوي غير المدرك ... إلخ)؛ لأن مثل هذا اللقب لا يزيدنا من معرفة الله (في ذاته) شيئاً بل يدلنا إليه بالنسبة إلى أعماله وحسب. في حين وصف الله بالآب يكشف لنا عن عظمة ما يتضمّنه من وجود آخر فيه هو "الكلمة" الذي يفوق كل المخلوقات.

وهكذا وبما أن كلمة الله يفوق كافة المخلوقات، أصبح وصف الله بـ"الآب" يرتفع بمفهوم الله بوصف يفوق كل الخلائق طرّاً أكثر كثيراً مما يوصف بأن الله "غير مخلوق" وحسب!! لذلك نبّه المسيح أذهاننا حينما نصلي إلى الله لكي نخاطبه «أبانا الذي في السموات»، وتحدّدت إرادة الله أن يكون مجمل إيماننا وعقيدتنا ملزماً أن يحمل نفس هذا الطابع، وذلك عندما أمرنا أن نعتمد لا باسم

«الله غير المخلوق» بل «باسم الآب والابن والروح القدس»، لأنه بهذا الانفتاح وهذه الاستنارة نحصل أن نكون في الحال أبناء لله، مع كوننا من خليقته، مستخدمين كلمة «الآب» لأنفسنا بسبب اعترافنا «بالكلمة» الذي هو في الآب نفسه. [925]

لذلك يقوم التعليم اللاهوتي عند أثناسيوس في تبادل المعرفة، أي التعريف بين الأقانيم، على أساس أنه يستحيل التحدث عن «الكلمة» بمفرده، أي اللوغس، إذا اقتصرنا في حديثنا على أعمال الله الآب وحسب، لأن كل عمل يعمله المسيح هو وسيلة موجّهة نحو تعريفنا بالثالوث جملة، وبالأخص الآب، كالأصل والمنبع. وهذا الشرح نجده مئات المرّات على مدى كل كتابات أثناسيوس حتى صارت العقيدة عبارة عن تسبحة يُختم بها كل حديث ويدور حولها كل تفسير: «كل شيء يعمله الآب بالابن في الروح القدس».

نص الفقرة 31 من الرسالة الأولى لأثناسيوس عن الروح القدس:

[هذه الحقيقة أيضاً تبيّن أن عمل الثالوث واحد، فالرسول لا يعني أن ما يُعطى يُعطى بالتجزئة وعلى حدة من كل أقنوم، بل أن ما يُعطى يُعطى في الثالوث، وأن كل ما يُعطى هو من الله الواحد. إذاً فذاك (الروح القدس) الذي ليس هو بمخلوق، بل هو واحد مع الابن كما أن الابن واحد مع الآب، ذاك الذي هو ممجّد مع الآب والابن، المعترف به بأنه إله مع الكلمة، الذي يعمل الأعمال التي يعملها الآب بالابن - ألا يُعتبر الشخص مجرماً إذا دعاه مخلوقاً، وأنه يجدّف تجديفاً مباشراً على الابن نفسه؟ لأنه لا يوجد شيء لم يُبدع ولم يُعمل بالابن في الروح القدس. هذا ما ترنّم به المزمور: «بكلمة الرب صُنعت السماوات، وبروح فيه كل جنودها» (مز 6:33)، وكذلك «يُرسل كلمته فيذيبها. يهب بروحه فتسيل المياه» (مز 18:147). «ونحن قد تبرّرنا» - كما يقول الرسول - «باسم الرب يسوع وبروح إلهنا» (1كو 6:11)، لأن الروح غير منفصل عن الكلمة. فعندما يقول المسيح «إليه نأتي (الآب وأنا)» (يو 14:23)، فإن الروح يأتي معهما ويسكن فينا بكيفية لا تقل عن الابن، كما كتب

بولس إلى أهل أفسس «لكي يعطيكم بحسب غنى مجده، أن تتأيّدوا بالقوة بروحه في الإنسان الباطن ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم» (3:16 و17)، وإن كان الابن فينا فالآب فينا أيضاً، كما يقول الابن: «أنا في الآب والآب فيّ» (يو 14:10)، لذلك فعندما يكون الكلمة في الأنبياء فإنهم يتنبأون في الروح القدس، فإذا قال الكتاب: «كانت كلمة الرب» (إر 1:2، مي 1:1) إلى هذا النبي، كان معنى هذا أنه تنبأ في الروح القدس. ورد في زكريا: «لكن اقبلوا كلامي وفرائضي التي أوصيت بها عبيدي الأنبياء بروحي» (1:6 مترجمة من النص)، وعندما وبّخ النبي الشعب بعد ذلك بقليل قال: «جعلوا قلوبهم ماساً لنللاً يسمعون الشريعة والكلام الذي أرسله رب الجنود بروحه عن يد الأنبياء الأولين» (7:12)، وقال بطرس في سفر الأعمال: «أيها الرجال الإخوة كان ينبغي أن يتم هذا المكتوب الذي سبق الروح القدس فقله» (أع 1:16)، وصرخ الرسل معاً قائلين: «أيها السيد أنت هو الإله الصانع السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، القائل (بالروح القدس) بقم داود فتاك...» (أع 4:24 و25)، وعندما كان بولس في رومية تكلم بجسارة إلى اليهود الذين أتوا إليه قائلاً: «حسناً كالم الروح القدس آباءنا بإشعياء النبي» (أع 28:25)، وورد في الرسالة إلى تيموثاوس «الروح يقول صريحاً إنه في الأزمنة الأخيرة يرتد قوم عن الإيمان تابعين أرواحاً مضلّة» (1 تي 4:1)

وهكذا نرى أنه عندما يُقال إن الروح القدس في أي واحد فإن هذا يعني أن الكلمة حالاً فيه مانحاً الروح القدس. عندما تمّت النبوة: «أني أسكب روحي على كل بشر» (يو 2:28) قال بولس: «بطلبتكم ومؤازرة روح يسوع المسيح» (في 1:19). وكتب إلى أهل كورنثوس قائلاً: «إذ أنتم تطلبون برهان المسيح المتكلم فيّ» (2كو 3:13). وإن كان الذي تكلم فيه هو المسيح، فواضح أن الروح الذي تكلم فيه هو روح المسيح، لأنه عندما كان المسيح يتكلم فيه قال مرّة أخرى في سفر الأعمال: «والآن ها أنا ذاهب إلى أورشليم مقيداً بالروح لا أعلم ماذا يصادفني هناك، غير أن الروح القدس يشهد في كل مدينة قائلاً إن وثقاً وشدائد تنتظرني.» (أع 20:22 و23)

لذلك فإن قال القديسون: «هكذا قال الرب» (انظر مثلاً عاموس 3:1) فإنهم

إنما يتكلمون بالروح القدس لا سواه. وإن تكلموا بالروح القدس تكلموا بأمر
الروح في المسيح. وعندما قال أغابوس في سفر الأعمال: «هذا يقوله الروح
القدس» (11:21)، لم يكن ذلك سوى أن الروح القدس منحه - بالكلمة الذي
أتى إليه - القوة ليتكلم ويشهد، بما كان ينتظر بولس في أورشليم. وهكذا أيضاً
عندما شهد الروح القدس لبولس، كان المسيح يتكلم فيه كما قدّمنا، وهكذا كانت
الشهادة التي أنت من الروح تنتمي إلى الكلمة. وعندما افتقد الكلمة العذراء
القديسة مريم، أتى الروح القدس إليها معه، وصاغ الكلمة الجسد بالروح القدس
وشكّله لذاته، إذ أراد أن يتحد كل البشرية بالله ويحضرها إليه بواسطة نفسه،
وأن يصلح به الكل عاملاً الصلح ... سواء كان ما على الأرض أم ما في
السموات. (كو 1:20)[(926)

وهكذا سيظل الأب مستعلنًا دائماً، «بالكلمة» باعتبار الكلمة - اللوغس - مصدر
الإلهام والخلص المباشر للإنسان، وفي الإنجيل فإن الابن يظهر بوضوح مستعلنًا
في الخلق «به خلق العالمين»، «كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان، فيه
كانت الحياة والحياة كانت نور الناس»، «الكل به وله قد خُلِق.» (كو 1:16، يو
1:3و4، عب 1:2)

كما أن الأب يستعلن بوضوح في الفداء: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه
الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (يو 3:15). «هذه
هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته»
(يو 17:3)، «عرفتهم اسمك وسأعرفهم ليكون فيهم الحب الذي أحببته به وأكون أنا
فيهم.» (يو 17:26)

وهكذا يبدو واضحاً جداً أنه لا يوجد أي تعارض بين استعلان الابن في الخلق
واستعلان الأب في الفداء لأن الخلق والفداء عملا متكاملان، وكل استعلان يوصل
إلى الآخر، وذلك يعود به دائماً القديس أثناسيوس لسر الوحدة الكيانية الجوهرية بين
الأب والابن.

غير أن أثناسيوس - بحسب الإنجيل - يجعل دائماً استعلان الابن هو الواسطة

الأولى - بالدرجة الأولى - لمعرفة الآب، بالرغم من أن الآب هو الذي يعلن الابن سرًا للإنسان «لا يقدر أحد أن يأتي إليّ إن لم يجتذبه الآب»، «هذا هو ابني الحبيب له اسمعوا»، غير أن في إعلان الآب للابن يكمن بالدرجة الأولى إعلان الآب نفسه، وهذا يتضمّن أحد أسرار اللاهوت الدقيقة، إذ في اللحظة التي يفتح فيها قلب الإنسان على الله (الآب)، فإنه يجذب في الحال نحو الابن، فيظل استعلان الآب متفوقاً من جهة الأنيّة الزمنية!! «قال لهم وأنتم من تقولون إنني أنا؟ فأجاب سمعان بطرس وقال أنت هو المسيح ابن الله الحي، فأجاب يسوع وقال له طوبى لك يا سمعان بن يونا إن لحمًا ودمًا لم يعلن لك لكن أبي الذي في السموات.» (مت 16: 17-15)

ولكن بادراك الفداء الذي أكمله الآب في ابنه، يتم الانجذاب إليه، فيبدأ الآب يأخذ تعريفه الكامل لدى أعماق الإنسان من جهة هذا الحب الغامر السبّاق: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد».

وواضح جدًّا، من كل دفاع أنثاسيوس، أن تجسّد الابن كان بقصد إعلان الآب، ولكن تأملنا المستمر في ما أكمله المسيح بالجسد من فداء وخلص هو وحده الذي يعطينا الصورة الكاملة عن الآب وعن حبه نحونا وإدراك مشيئته فينا وقصده من خلقنا، تلك المشيئة المباركة والقصد المبارك الذي تسجّلت فيه أسماؤنا، إذ اختارنا في المسيح من قبل إنشاء العالم. وهنا يوصلنا الوحي المقدّس إلى أن معرفة الآب لنا هي سابقة ليس فقط على ميلادنا بالجسد أو بالروح بل وعلى خلقه العالم كله - فهي معرفة الحب - وهذا بالتالي يوضّح أن معرفتنا للآب بنفس مضمون هذا الحب يلزم أن تأخذ بالنهاية وضعها المناسب كما هي من نحونا «ليكون فيهم الحب الذي أحببتي به»، حيث تتلاحم المعرفة بالحب بالاتحاد.

ويستخدم أنثاسيوس هذا التبادل المتصل جدًّا والمتشابك جدًّا بين تعريف الآب للابن في الخليقة وتعريف الابن للآب في الفداء، واسطة إدراك عمق الاتحاد القائم في الثالوث!! فاستحالة إدراك الابن بدون الآب واستحالة إدراك الآب بدون الابن، هذا الإدراك القائم في صميم اتحاد خلقنا وفدائنا وخلصنا وحياتنا يوضّح مدى استحالة التفريق أو التقسيم في أفانيم الثالوث!!

[لأن من يؤمن بالآب فإنه يعرف الابن في الآب، وهو لا يعرف الروح القدس

بدون الابن، لذلك يؤمن أيضاً بالابن والروح القدس، لأن لاهوت الثالوث واحد وقد أعلن من واحد، أي من الآب.](927)

[لأنه كما أن الإيمان بالثالوث يوحدنا بالله، فكل مَنْ يعتمد باسم الآب وحده أو باسم الابن وحده أو باسم الآب والابن بدون الروح القدس لا ينال شيئاً بل يظل عديم النفع، ولا يحصل على الانضمام إلى الكنيسة ...

لأنه كما أن المعمودية التي تتم باسم الآب والابن والروح القدس هي واحدة، لأنه يوجد إيمان واحد في الثالوث، هكذا أيضاً الثالوث المقدس هو متساوٍ مع ذاته ومتحد بنفسه في وحدة غير متجزئة، والإيمان به إيمان واحد.](928)

(927) Athanas., *to Serapion*, II. 5.

(928) *Ibid.* I. 30.

ملخص الفصل الثامن استعلان الثالوث ووحداية الله على مستوى المعرفة عند أثناسيوس

(1) تجسّد الكلمة كان واسطة لمعرفة الله:

+ فالإنسان بالتعدّي فقد القدرة على بلوغ «معرفة الله في ذاته»، وبالتالي القدرة على خلاص نفسه.

+ تجسّد ابن الله كان من أهم أهدافه معرفة الله في ذاته باستعلان الثالوث الأقدس.
+ من أجل هذا أخذ كلمة الله لنفسه جسداً لكي يعطي صورةً مدرّكةً واقعيةً ومحسوسةً للآب من خلال حياة الابن المتجسّد وأعماله وأقواله وسلوكه بالجسد «مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى الْآبَ».

+ كانت معرفة الله قبل التجسّد بالتأمّل في قدرته الإلهية وحكمته الظاهرة في المخلوقات، لأنه ملأ الخليقة كلها في كل مكان بوجوده، ولكن البشر رفضوا هذه المعرفة، وعجزوا عن إدراك الله في خليقته، لذلك تجسّد ابن الله (كلمة الله وحكمته) لكي يكون جسده أداة يتحد به الإنسان حتى لا يعجز البشر عن أن يدركوه في كل شيء.

+ ولكن حضور الله الكلّي في الخليقة يشكّل صعوبة لاهوتية عند اللاهوتيين قديماً وحديثاً، لكون الله منزّه عن كل عجز في الخليقة. أمّا عند أثناسيوس فالكلمة هو كل شيء وفي كل مكان، كلياً وجزئياً، حاضر ومتفوّق معاً، حال في الشيء ومنزّه عن عجز كل شيء بأن واحد.

+ المسيح هو «ابن الله الذاتي» و«الوحيد»، والله هو «أبوه الخاص» بمعنى «العلاقة المتحدة»، وقد أعلن عنها المسيح مراراً بقوله: «أنا في الآب والآب فيّ»، «أنا والآب واحد».

+ البنوة أو الميلاد لدى البشر وسيلة للوجود، أمّا عند الله فهو الوجود ذاته. لأن بنوة الله لا تحتاج إلى وسيط ولا الميلاد ينتهي بمجرد الوجود، مثل البشر.
+ بينما الناس يكونون آباء أولاً بالقدرة ثم بالفعل، نجد الله أباً بالقدرة وبالفعل معاً وبصورة دائمة، لأنه فعل جوهرى نابع من جوهر اللاهوت منذ الأزل.

+ لا يوجد في البشر أب وابن بالمعنى الدائم، فالآب كان ابناً والابن سيصير أباً، ولكن في اللاهوت الآب هو أب على الدوام والابن كذلك، لأنها صفات جوهرية في ذات الله.

+ الابن أزلي في الآب لأن جوهر الآب لا يمكن أن يكون ناقصاً أو غير كامل حتى يُضاف إليه في ما بعد ما هو من خاصته الذاتية.

+ الابن هو الإرادة الحيّة للآب، والقدرة الجوهرية، والكلمة والحكمة الحقيقية الذي فيه يقوم الكل وتنضبط سائر الأشياء.

+ «الآب في الابن والابن في الآب» بمعنى وحدة الجوهر على الرغم من أنهما أقنومان متميزان في إله واحد.

+ كل صفات الآب قيلت عن الابن إلا صفة الأبوة، وذلك لأن الابن هو من ذات جوهر الآب وحامل لخواصه، فهو صورة الآب «مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى الْآبَ».

+ الأبوة والبنوة في الله قدرة وتواجد معاً يكونان حقيقة موجودة بذاتها غير مستحدثة كانبعاث الشعاع من النور.

+ الابن هو مسرّة الآب وموضوع حبه، وحب الله للعالم ومسرّته لبني الإنسان هما انعكاس خارجي لعلاقة جوهرية في الله بين الآب والابن.

+ الحضور الكلّي للكلمة في العالم منذ البدء هو تمهيد لإعلان الله عن ذاته من خلال الكون كله أولاً، ثم إعلان الله في الإنسان عندما أكمل الحضور فيه باتخاذ جسد إنسان.

+ لذلك فتجسّد الكلمة هو تكميل لعمل حضور الله المستمر في الخليقة، وإعلان لقدرة الله واستعداد محبته للاتحاد بالخليقة ممثّلة في الإنسان المخلوق على صورة الله من أجل تقديسه ورفع ليصير مثل الله!!

+ بالتجسّد حل كل ملء اللاهوت جسدياً في المسيح، لأنه كلمة الله المساوي للآب في الجوهر، لذلك فهو واسطة ملئنا نحن أيضاً: «وأنتم مملوؤون فيه».

+ ملؤنا من المسيح هو معرفة الآب والابن: «أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته».

+ التجسّد إذن هو المدخل الأخير لمعرفة الله وسر الثالوث الذي هو في الحقيقة

سر المجد وسر الحب «الذي يحبني ... أنا أحبه وأظهر له ذاتي».

+ بالتجسّد أزيلت كل معوّقات المعرفة، إذ أبطلت كل ضلالات الشيطان، الذي طارده المسيح حتى ظفر به على الصليب، وأعطى الإنسان سلطاناً على كل أعمال الظلمة والضلال، حتى يستطيع من خلال نور المعرفة للحق أن يعبد الله ويدركه في ذاته كأب وابن وروح قدس.

+ الدليل العملي على ذلك هو ما نراه في العالم بعد تجسّد المسيح وموته وقيامته من جهة إبطل ضلالات الشيطان وعبادة الأصنام، وقيام أنظمة العفة والطهارة والعبادة الجماعية، ثم هذا العدد الضخم من الشهداء الذين آمنوا بالخلود وقيامه الأجساد.

(2) المعرفة الكاملة المتبادلة بين الآب والابن:

+ كل استعلان للابن هو بالضرورة استعلان للآب، كما أن كل استعلان للآب هو نفسه حتماً استعلان للابن، وذلك بسبب الوحدة في الطبيعة والجوهر والإرادة.

+ أنثاسيوس يعتمد على الإنجيل في إثبات المعرفة الكاملة والمطلقة والمتبادلة بين الآب والابن.

+ حينما يكون الآب يكون الابن، وكل ما يعمله الآب يعمل من خلال الابن، وكل مَنْ يعمّده الآب يعمّده الابن، وكل مَنْ يعمّده الابن فإنه يتقدّس في الروح القدس.

+ عمل الخلاص مترتّب أصلاً على عمل الخلق، فالله الآب الذي خلق كل شيء بكلمته، هو بالضرورة يخلّص ما قد خلق بكلمته أيضاً.

+ بالرغم من استعلان الله الواضح بالتجسّد، إلّا أنه ليس استعلاناً مطلقاً، بل ظل تدبير الله مخفياً إلى حد ما، لإعطاء الفرصة للإيمان والاختيار.

(3) الابن «الكلمة» بتجسّده أعلن الآب، وسيظل يعلنه إلى الأبد:

+ فالابن هو صورة جوهر الآب قبل التجسّد وبعده وإلى الأبد.

+ التجسّد مرحلة إعلان وتعريف بالله الآب اضطلع بها الابن من نحو البشرية، من واقع علاقته الجوهرية بالآب.

+ بعد أن يُخضع المسيح الخليقة كلها للآب سيظل هو صورة جوهر الآب وشعاع مجده الذي لا يعتريه تغيير إلى الأبد.

+ النور والشعاع هما واحد، كذلك الابن الذي هو شعاع مجد الأب، فهو واحد مع الأب.

+ كلمة الله هو فكر الأب وحكمته النابع من ذات جوهر الأب، الذي بواسطته خلقت كل الأشياء، لذلك فكلمة الله يُعبّر تعبيراً كاملاً عن كل فكر الأب. فهو الصورة الكاملة للأب.

+ معرفة الأب هي ذاتها معرفة الابن لأنها قائمة على أساس وحدة الجوهر، فالمعرفة الواحدة منبعها الجوهر الواحد والذات الواحدة لله.

+ جلوس الابن عن يمين الأب هو تشبيه مناسب لفهم الإنسان، ولكن معناه هو مساواة الابن في الكرامة والمجد للأب. فالابن حينما يجلس عن يمين الأب يكون دائماً أبداً في الأب والأب فيه.

+ التساوي المطلق صفة جوهرية في الثالوث لا يوجد لها مثيل في الخليقة كلها، ولم يعترها أي تغيير بتجسّد الابن الذي هو الوساطة الوحيدة لمعرفة الأب.

+ سبب التجسّد ليس هو لاستعلان الأب وحسب، بل ولتكميل الخلاص: فالابن تجسّد ليعلن الأب، والأب يجذب الإنسان سرّاً لمعرفة الخلاص الذي في الابن المتجسّد يسوع المسيح، بواسطة الروح القدس. لذلك كان عمادنا «باسم الأب والابن والروح القدس».

(3) كما أن الابن يعلن الأب كذلك الأب أيضاً يعلن الابن، وذلك بسبب العلاقة الجوهرية بينهما القائمة على أساس الحب والتعاطف والسرور، فالابن هو مسرّة الأب، والأب هو مسرّة الابن.

+ معرفتنا لسر العلاقة التي تربط الأب بالابن هي مصدر غنى البشرية الفائقة من جهة أعلى القيم الأخلاقية والسلوكية عند البشر، التي لا تتم إلا في مجال الحب الإلهي.

+ جميع الأسفار المقدّسة تقدّم لنا حلقة متكاملة من استعلانات الله الأب بواسطة ظهورات الابن التي انتهت بتجسّده، لأنه هكذا أراد الأب أن يعلن عن حبه للعالم حتى انتهى ببذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية.

+ دعاؤنا لله باسم "الآب" بقولنا "أبانا"، هو اعتراف ضماني بوجود الابن في الآب، وبأننا أبناء الله، مع كوننا من خليقته، وبهذا الاعتبار صرنا في وضع يفوق كافة الخلائق، وارثين مع المسيح لكل ما للآب.

+ "كل شيء يعملهُ الآب بالابن في الروح القدس"، هذه هي تسبحة أثناسيوس التي يختم بها كل حديث ويدور حولها كل تفسير، وهي تبين أن عمل الثالوث واحد لا يتجزأ.

+ يستحيل إدراك الابن بدون الآب، كما يستحيل إدراك الآب بدون الابن في الروح القدس.

+ الآب عرفنا بابنه في الخليقة، والابن عرفنا بالآب في الفداء.

+ بالرغم من أن الآب هو الذي يعلن الابن سرّاً للإنسان، غير أنه في اللحظة التي يفتح فيها قلب الإنسان على الله الآب فإنه ينجذب في الحال نحو الابن، فاستعلان الآب سابق لاستعلان الابن ... «لا يقدر أحد أن يأتي إليّ إن لم يجتذبه الآب».

الفصل التاسع
الإيمان والشهادة للمسيح
كفعلين متلازمين مع المعرفة
عند القديس أثناسيوس

أولاً: الإيمان الصحيح يقود للمعرفة الصحيحة

لقد نشأت مشكلة العلاقة بين الإيمان والمعرفة مبكرة في اللاهوت الإسكندري قبل أثناسيوس (929)، وقد طُرحت هذه العلاقة مبكرة في أيام كليمنس الإسكندري في سؤال مختصر: هل المعرفة تقود إلى الإيمان أو أن الإيمان هو الذي يقود إلى المعرفة؟ حيث المعرفة هنا يقصد بها معرفة الله. وبمعنى آخر كان اللاهوتيون الإسكندريون يطرحون السؤال على أنفسهم كالاتي: هل يتحتم عليهم الإيمان قبل المعرفة أم أنه يتحتم عليهم المعرفة قبل الإيمان؟

وفي الحقيقة كان كليمنس الإسكندري هو أول من حسم هذا الأمر في محيط الآباء اللاهوتيين في العالم، فقد عرّف الإيمان نفسه كأعلى مستوى للمعرفة، ووضعا الإيمان في كرامة المعرفة، معتبراً أن الإيمان هو الشرط الأساسي والأولي لكل معرفة في ما يختص بالله (930). بل وإن الإيمان هو القاعدة التي يبني عليها حياته كل من يريد أن يكون عارفاً (Gnostic) مخلصاً للمسيح.

ولكن بالرغم من صحة هذا الفهم ودقته كتعبير صالح جداً للحياة المسيحية، إلا أن القديس أثناسيوس، بحاسته الرسولية وباندفاع الأسقف المسئول عن خلاص الشعب، يضيف على هذا المعنى إضافة غاية في الأهمية، فهو يقول: إن الذي يقود الإنسان إلى معرفة الله الحق هو الإيمان فعلاً، ولكن مضافاً إليه حاسة التقوى ^{TMn p...stei} ^e ^{logismù} ^{ka} ^{sebe}:

لأن التقليد - (ميراث الآباء اللاهوتي) - لا يعلن لنا اللاهوت بإيضاحات كلامية بل بالإيمان، وباستخدام العقل إنما بروح التقوى والوقار (931)، لأن

(929) G. Zaphiris, *Trinitarian revelation & knowledge of God*, in *tomoj eortoj, qeccalonikh*. 1947.

(930) Clement, *Stromata*, 1, 9, 45; 5, 12, 82.

(931) لقد اهتم القديس أثناسيوس جداً بعامل التقوى في ما يختص بالإيمان بالله وبالشركة في الروح، معتبراً أن نقاوة القلب أي طهارته هي الأساس الأول الذي يتحتم وجوده لكي يكون للإنسان صلة بالله: «طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله». والطهارة أو النقاوة عند أثناسيوس ليست هي المجرد الفلسفي الذي كان يفكر به أفلاطون أو أفلوطين أو فيلو اليهودي، والذي كان يعتمد على النسك والتقشف ووجد الجسديات وحسب، بل الطهارة هي بالانعتاق من سلطان الشيطان، بعمل الروح القدس في المعمودية،

بولس قد أذاع إنجيل الخلاص بالصليب «لا بكلام الحكمة الإنسانية المقنع بل ببرهان الروح والقوة»... ومع ذلك فإننا نستطيع مواجهة هذه الصعوبة مبدئياً بالإيمان، ثم باستخدام الإيضاحات السابق ذكرها أقصد:
الصورة = nojze,,k، والشعاع (البهاء) paug£smoj
والينبوع = jءphg، والجوهر طjءsewj
والرسم (التعبير) = rojءcarakt (932). [933]

وهكذا نجد أن من الأمور المسلّم بها لاهوتياً أن الفكر اللاهوتي الإسكندري هو أول مَنْ اضطلع بكشف العلاقة الصميمية بين الإيمان ومعرفة الله من خلال التقوى، حتى أنه معروف أن جميع لاهوتيي العالم تتلمذوا على هذا الفكر الإسكندري، سواء الذين استقوا العلم مباشرة في مدرسة الإسكندرية أو الذين اكتفوا بالتلمذ على كتابات آباء الإسكندرية العظام.

والمشكلة قد تبدو بسيطة لأول وهلة أمام القارئ، ولكن الأمر في الحقيقة يحتاج إلى عمق كبير، ليس في الفهم أو التصور أو التفكير، ولكن في اكتشاف العلاقة الحقيقية التي تربط الإيمان بالمعرفة.

صحيح أن الله هو الذي أعلن لنا عن نفسه بواسطة تجسّد ابنه، فمعرفة ربنا يسوع المسيح هي بالأساس فعل استعلان من أفعال الله المباشرة المؤثرة في الفكر الإنساني التي أظهرت الثالوث، ولكن هذا الاستعلان أو هذا الإيمان - كفعل من أفعال الله المتجهة نحو الإنسان والمؤثرة فيه - لا ينشئ من ذاته رد الفعل، أي لا ينشئ بذاته معرفة لدى الإنسان من نحو ابن الله، إذ لا بد أن ينفعل الإنسان بهذا الفعل الاستعلاني ويقبل أثره المخلّص، أي يقبل الخلاص الكامن في معرفة المسيح ابن الله المخلّص، فينتقل الإنسان من مجرد عارف بالمسيح كابن الله إلى شريك في خلاص المسيح الابن الفادي المذبح على الصليب، أي يصير الإنسان عارفاً مفدياً مخلصاً - وهذه

وبالاشتراك في أسرار الجسد والدم الإلهي، بجوار حياة النسك. فهذا تنهياً قوى النفس الداخلية لتتأمل في الله وتتحد به. (انظر كتابه: "ضد الوثنيين").

(932) Athanas., *ad. Serap.*, 1.20.

(933) لقد استخدم الآباء اللاهوتيون هذه التعبيرات على نفس النمط الذي استخدم به الرب صوراً عديدة لأمثال ملكوت الله.

هي معرفة الإيمان.

ولكن حدوث معرفة صادقة للمسيح المخلص يصاحبها حتماً تقوى شديدة ووقار، لأن الإيمان بالمسيح المتألم والمصلوب يستحيل أن يبقى إيماناً بدون تقوى ووقار، وهكذا نجد أن المعرفة لها شقان:

الأول: فعل منحدر من الله لنا كفعل استعلان بوسائط وطرق مختلفة للمعرفة.

الثاني: هو رد فعل من الإنسان نحو الله كمعرفة أيضاً، ولكن محملة بالإيمان والتقوى.

هذا الإدراك العميق للعلاقة بين الإيمان والمعرفة؛ نجده منبثاً في كل أعمال أثناسيوس وبراهينه، فهو لا يغفل أبداً أن الإيمان يتحتم أن يسبق المعرفة، بمعنى أنه يستحيل الاقتراب إلى الله عقلياً بدون الإيمان الخاشع التقوي.

[اتخذوا لكم الرسول معلماً في هذا الصدد عندما يقول: «يجب أن الذي يأتي إلى الله يؤمن بأنه موجود، وأنه يجازي الذين يطلبونه» (عب 11:6). لم يقل: كيف هو موجود، إنما قال فقط أنه «موجود».] (934)

أثناسيوس هنا يركّز على ثلاثة أسس للإيمان:

الأول أن الإيمان بالله، يسبق المسير نحوه،

ثم الثاني أن الإيمان بمكافأة من يطلبون الله، يسبق طلب الله.

أمّا الأساس الثالث فهو أن الإيمان الصحيح بالله والفعال، يكون في حدود الإيمان بالواقع أو بالحال الكائن س^{TMst...n}، وليس الإيمان بكيف كان ويكون pîj^{TMst...n}.

ولكن حتى الإيمان ذاته من جهة الإنسان نحو الله، لا يضعه أثناسيوس عارياً من قوة إضافية ممنوحة من الله للإنسان للاستمرار فيه، لأنه يرى استحالة الاتصال بالله بدون الله. فأي فعل إيماني، الذي هو حركة روحية متجهة أو متدافعة من الإنسان نحو الله، يلزم أن يلزمه جذب روعي من الله ليعين ضعف الإنسان المريع في هذا الاتجاه “أو من يا سيد فأعن عدم إيماني.” (مر 9:24)

وفي شرح أثناسيوس لسفر المزامير، يتعرّض لهذه الحقيقة، خاصة حينما يستشهد بقول بولس الرسول: «فإذ لنا روح الإيمان عينه حسب المكتوب آمنت لذلك تكلمت، نحن أيضاً نؤمن ولذلك نتكلم أيضاً.» (2كو 4:13)

وهنا يقول أثناسيوس إنه يفهم أمرين من قول الرسول:

“روح الإيمان” = ma p...stewjcpne إمّا تدبير من الله في إيمان قادر أن يقود الإنسان نحو الله؛

أو أن الله يمنح روحاً خاصاً للإنسان الذي يؤمن بالله ليحمله على مستوى المسير نحوه⁽⁹³⁵⁾.

ويلاحظ أن تمسك أثناسيوس بقول الرسول: «آمنت لذلك تكلمت»، إنما يرجع إلى معرفته بالنص على صحته الذي يستشهد به بولس الرسول هنا - كما ورد في إشعياء 9:7 - الترجمة السبعينية - كالاتي: «ولكن إذا لم تؤمنوا فلن تقدروا أبداً أن تفهموا»، ويلاحظ أن أوريجانوس استشهد بهذه الآية بالذات في تدليله على أولوية الإيمان على المعرفة⁽⁹³⁶⁾.

كما أن أثناسيوس بمقابلة هذه الآية الواردة في إشعياء مع 2كو 4:13، ومع ما ورد في رومية: «لأن القلب يؤمن به للبرّ (أولاً)، والفم يعترف به للخلاص» (رو 10:10)، يخرج أثناسيوس بمقولة في علاقة الإيمان بالمعرفة كالاتي:
[في البداية نحن نؤمن وبعد ذلك نعرف - وأخيراً نتكلم (نشهد) =

ta lale...ع ei tij, e<ta sunie..., ka^ met| taعp̄r̄iton pise⁽⁹³⁷⁾

ويعود أثناسيوس - كعادته دائماً - مستشهداً بمنهج المسيح نفسه كما ورد في الإنجيل، ليشدّد على أن الإيمان، وإن جاء في البداية، فهو لا يقوم من فراغ بل يتأسس على قواعد التعليم الصحيح، فالتعليم الصحيح يرافق الإيمان حتى يستطيع الإيمان بعد ذلك أن يعطي معرفة ثم شهادة صحيحة بالله:
[إن المخلص لم يأمرهم فقط بالتعميد ولكنه قال: «علموهم maqhteعsate»،

(935) Athanas., *Exposit. in Psalmos*, 115, 10 (P.G. 27, 473 A).

(936) Origen, *Comment. on Math.*, 16-9.

(937) Athanas., *Exposit. in Psalmos*, 115, 10.

وبعد ذلك فقط «عمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس»، حتى يصير الإيمان الصحيح عن تعليم، ومع الإيمان الصحيح يأتي التقديس بالمعمودية. [938]

الإيمان فعل نعمة ممتد لمزيد من المعرفة والاستعلان:

الإيمان فعل نعمة، لأنه يفوق في عمله وفي جوهره قدرات الإنسان العقلية. وهو لا يتوقف عند حد، إذ أنه بمجرد أن يبدأ يستمر في عمله لاكتشاف مزيد من الأمور غير المنظورة.

ويؤكد أثناسيوس أنه فعل نعمة يمنحه الله فينا بواسطة يسوع المسيح:

(939) $m...n$ ط $c\&rij$ TMn ف $p...stin$ $\frac{1}{4}n$ 1 $to\grave{a}$ $qeo\epsilon se b\&na$ $t\frac{3}{4}n$ e

$TMrg\&xestai$

وإنه لا يكون بالاجتهاد إنما هو تسليم رسولي:

[في المجمع المقدس]: “هكذا تؤمن الكنيسة الجامعة” وهكذا اعترف الأساقفة كيف كانوا يؤمنون، مبرهنين على أن إيمانهم ليس هو مجرد شعور شخصي مستحدث وإنما هو إيمان الرسل، وأن ما كتبوه ليس هو اكتشافهم الخاص ولكنه هو طبق لما تعلموه من الرسل. [940]

[والآن اسمح لنا (أيها الإمبراطور) أن نلتزم بما قد تحدّد لنا مما وضعه أبائنا الأولون، الذين نتجرأ قائلين إننا نثق في أن كل ما عملوه هو بكل حكمة وفطنة بالروح القدس. [941]

ولأن الإيمان هو فعل نعمة ممنوح من الله بالروح القدس، لذلك فإن الإنسان يستطيع بواسطة نعمة الإيمان أن يستجيب لدعوة الله له، ويقبل شركة الروح القدس، وبالتالي الشركة في الطبيعة الإلهية (942).

(938) Athanas., *C. Ar.*, 2, 42.

(939) Athanas., *ad. Monarchos*, (P.G. 26-1188 A).

(940) Athanas., *De Synod.*, 5, 10: 5b.

(941) Ibid.

(942) Athanas., *Fragm. ex. Comment. in Psalmos*, 46 (P.G. 27. 568 A.C.).

ولأوريجانوس قول مشهور قريب من هذا المعنى - فيه تظهر النعمة القائمة في الإيمان التي تربط الإنسان بالله - حيث يقول إنه بمجرد أن نؤمن بالله نصير أولاد الله (943):

[سٓte dسٓ عٓpepiste گٓزkamen qeoà ufo^ نامen].

صلاة الإيمان المستقيم - ٣/٤rq - هي الفعالة فقط:

هذا مبدأ هام وضعته الكنيسة وعاشت عليه وتمسك به أثناسيوس بوعي لاهوتي، ففي كافة الصلوات الطقسية - حتى في العهد القديم - يبدأ الكاهن حسب التقليد القديم جداً ويخاطب الله قائلاً: «يا رب يا رب» ويبدأ يصلي - ويلاحظ القارئ الإكليريكي أن هذه البادئة لا تزال قائمة ومعمول بها في بداية صلاة التحليل على التائب: [نعم «يا رب يا رب» الذي أعطانا السلطان ...] (الخوراجي)

وأثناسيوس يشير بوضوح أن الدعاء باسم «يا رب يا رب» الوارد في إنجيل متى: «ليس كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات» (مت 21:7)، هو أصلاً الدعاء الطقسي المتعارف عليه والمعمول به آنذ.

فأثناسيوس يقصد أن الصلاة بالدعاء باسم الرب حسب طقس الصلاة كما هو في المعمودية مثلاً، يكون ذا أثر فعّال، ويمنح الميلاد الثاني بغسل الماء وموهبة الروح القدس بوضع اليد (الميرون)، شريطة أن يكون الإيمان بالرب بالنسبة لمعطي العماد وأخذ العماد هو إيمان صحيح مستقيم رٓrq» أنه ابن الله الواحد مع الأب في الجوهر.

الإيمان الصحيح يأتي مع التعليم الصحيح ليبلغ فعل التقديس بالنعمة:

[حيث أن الجميع يحتاجون إلى النعمة من الله ...،

والبحث إذ يسوقنا الآن أن نذكر المعمودية المقدّسة، فإنه من الضروري أن نعلن ما نؤمن به: إن اسم الابن يذكر مع الأب ليس لأن الأب غير كافٍ بذاته، أو كأنه ليس بدون معنى، أو كأنه بالصدفة، ولكن لأن الابن هو كلمة الله وحكمته وبهاؤه، وهو بذلك قائم دائم أبداً مع الأب، لذلك فإنه يستحيل إذا كان الأب يمنح نعمة أن يعطيها بدون الابن، لأن الابن هو في الأب كبهاء النور

ولا كأنه عن حاجة يُذكر الابن مع الآب، ولكن لأن الآب هو دائماً في حكمته الخاصة، هكذا خلق الله العالم وصنع كل شيء بكلمته، كذلك فإنه وهب المعمودية المقدسة في ابنه، لأنه أينما وُجد الآب وُجد الابن، كما أنه يوجد الشعاع أينما يوجد النور، فكل ما يصنعه الآب يصنعه بابنه. كذلك فإنه حينما تُمنح المعمودية، فإن كل مَنْ يعمده الآب فإنه يعتمد بالابن، وكل مَنْ يعمده الابن فإنه يتقدّس بالروح القدس،

إذن، فهؤلاء يعرّضون للخطر كمال وملء هذا السر أعني المعمودية، لأنه إذا كان التقديس يُعطى لنا باسم الآب والابن، وهم في معموديتهم لا يعترفون بالآب الحقيقي إذ أنهم ينكرون الابن القائم فيه ومن جوهره، منكرين بذلك أنه حقيقي، وبذلك يذكرون اسم ابن آخر من تركيب خيالهم باعتباره مخلوقاً من العدم، أفلا يكون الطقس الذي يجرونه كله بكامله فارغاً وغير نافع لشيء؟ صانعين بذلك مظهراً - للمعمودية - مجرد مظهر، وهو في الحقيقة لا يفيد نفعاً من جهة الدين. لأن الأريوسيين لا يعمّدون باسم الآب والابن في الحقيقة، بل باسم خالق ومخلوق، أي باسم صانع ومصنوع.

لذلك فليس ببساطة كل مَنْ يقول: "يا رب"، يمنح المعمودية (لفلان) بل الذي، مع الدعاء بالاسم، له أيضاً الإيمان الصحيح.

وعلى هذا الأساس بالذات فإن مخلصنا الصالح، عند إعطائه الوصية بالعماد، لم يأمر هكذا ببساطة أن يعمدوا؛ بل قال "علموهم" - أولاً - ثم "عمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس" حتى أن الإيمان الصحيح يصير عن تعليم ومع الإيمان الصحيح يأتي التقديس بالمعمودية. [944]

الإيمان الصحيح بالمسيح في مفهوم أثناسيوس هو من داخل الثالوث:

[إن الثالوث غير قابل للتجزئة، وإنه متساوٍ، لذلك يلزم أن تكون قداسته واحدة، وأن تكون أبديته واحدة وطبيعته واحدة غير متغيرة، لأنه كما أن الثالوث واحد حسب الإيمان المسلّم إلينا وهو يوحدنا بالله، وكما أن مَنْ ينتزع شيئاً من

الثالوث ويعتمد باسم الآب وحده، أو باسم الابن وحده، أو باسم الآب والابن دون الروح القدس، لا ينال شيئاً بل يظل عديم الجدوى، ولا يُحسب أنه انضم إلى الكنيسة (أي صار عضواً في الجسد)، سواء كان الشخص المعتمد أو الذي يدعى أنه ضمه (أي كلٌّ من المعمّد والمعتمد يكونان فاقدين عضويتهم في الكنيسة، أي في جسد المسيح)، هكذا كلٌّ من يفصل الابن عن الآب، أو مَنْ يُدني الروح القدس إلى مستوى المخلوقات، بل لا يكون له الابن ولا الآب، وهو بلا إله، ويكون أشد من غير المؤمن، ولا يُحسب أنه مسيحي. [945]

وهنا يلاحظ أن أثناسيوس يسرد لنا بالحرف الواحد قانون الرسل رقم 46،47. كما ويلزمنا جداً أن نفهم من قول أثناسيوس هذا أن مسألة الإيمان ليست منطوقاً ولا مجرد نظرية فكرية، بل هنا فعل التقديس وأثره في الإنسان للتجديد ولقبول الاتحاد السري بالكنيسة وبالتالي بجسد المسيح بل وبالثالوث نفسه، يتوقف أساساً على نية الضمير ومدى انطباق الحق الإلهي المعلن في الإنجيل وقوانين مجمع نيقية على ما يضمه الإنسان، سواء الذي يمنح المعمودية أو الذي يتقبلها.

الإيمان، بالإضافة إلى أنه نعمة، فهو يعتمد على حالة أو تدبير النفس الداخلي:
وهنا أثناسيوس ينضم إلى القديس أنطونيوس في الإعلان عن هذه الحقيقة، مقارناً بين معرفة الله الصحيحة التي تتبع من الإيمان العميق بتدبير النفس الداخلي، وبين الإيمان الذي يصدر عن مجرد الجدل والمحاكاة العقلية.

كيف يمكن إدراك الله عن معرفة دقيقة؟ هل يكون بواسطة البرهان بالمحاكاة أو بعمل الإيمان، ثم ما هو الأفضل؟ هل الإيمان المتولد من عمل الله الداخلي أو من البرهان والمحاكاة؟ فعندما أجابوا أن الإيمان المتولد من عمل الله الداخلي هو الأفضل والأكثر دقة للحصول على المعرفة، أجابهم أنطونيوس: "أنتم الآن أحبتم حسناً، لأن الإيمان ينشأ من حالة وتدبير النفس، أمّا الجدل فهو مجرد اختراع الأنكباء.

أمّا الذين لهم عمل الإيمان الداخلي فلا حاجة لهم إلى الجدل والبرهان بالمحاكاة، بل ويكون لهم ذلك نافلة. لأن الذي نعمله بواسطة عمل الإيمان

الداخلي تحاولون أنتم أن تحقّقوه بالكلمات، وغالباً ما تعجزون حتى عن التعبير عمّا ندرکه نحن (باليقين). لذلك فإن عمل الإيمان الداخلي هو أفضل وأقوى من محاجاتكم التي تحترفونها” [946]

يُلاحَظ هنا أن أثناسيوس لا يضع الإيمان العملي نقيضاً للبرهان العقلي أو الجدل الفكري، بل يجعل من الاتجاهين مجرد مفاضلة. وحتى هذه المفاضلة لا يجعلها متعارضة بل يحاول أن يجعل الواحدة مكتملة للأخرى، إنما يضع الإيمان في المقدّمة.

كما يُلاحَظ أن أثناسيوس ينسب معرفة الله بالإيمان إلى عمل الله الفطري في النفس، وكأنها مخلوقة على هذا الاستعداد، أمّا الجدل والمحاكاة في ما يختص بمعرفة الله، فينسبها أثناسيوس إلى حدق الفكر وفي دائرة الاختراع وكأنه صنعة أو احتراف للأذكاء.

كما يحاول أن يصوّر لنا من بعيد أن الجدل والمحاكاة حول معرفة الله تظل أعمالاً خارجية بالنسبة لأعماق النفس، في حين يصوّر الإيمان أنه حركة تكاد تكون طبيعية ومن الله في أعماق النفس. وبهذا يعتمد أثناسيوس بشيء من الثقة والتأكيد على المعرفة المتأنيّة من الإيمان، بعكس المعرفة الأخرى المتولّدة من الجدل والمحاكاة والبرهان، فيجعلها غير موثوق بها.

غير أن أثناسيوس يشير إشارة غير مباشرة إلى نوع من الضرورة نحو استخدام البرهان والمحاكاة، لوضع صيغ من الكلمات تشرح مضمون ذلك الإيمان الذي يدركه المؤمنون بأعماق قلوبهم. ولكن غالباً ما يكون هناك عجز وقصور عن بلوغ التصوير الكامل لحقائق الإيمان بالكلمات.

الإيمان بالمسيح فعّال، ولكن إيمان البرهان والعقل هو بدون فعل:

ثم يبدأ أثناسيوس ليضع اللمسة الأخيرة والقوية والعملية بين إيمان عملي داخل النفس يكون من الله بواسطة المسيح، يستطيع أن يعلن معرفة الله، ويضبط النفس من الشهوة، ويحفظ البتولية، ويخرج الشيطان؛ وبين إيمان فكري ببرهان الحجة والمنطق عاطل من كل هذا هكذا:

[لذلك فنحن المسيحيين نتمسك بالسر، ليس بالحجج الفلسفية، بل في قوة

الإيمان المعطى لنا بغنى من الله بواسطة يسوع المسيح ...

وللتدليل على أن إيماننا فعّال هوذا نحن الآن مدعّمون بالإيمان بالمسيح، أمّا أنتم فتعتمدون على مماحكاتكم الكلامية ... نقول:

متى ازدهر ضياء معرفة الله، أو متى ظهر ضبط شهوات النفس وسمو حياة البتولية؛ أو متى احتقر الموت، إلّا عندما ظهر صليب المسيح؟

هذا مما لا يشك فيه أحد، حينما يُرى الشهيد محتقراً الموت من أجل المسيح، وتُرى عذارى الكنيسة حافظات أنفسهنّ طاهرات وبلا دنس من أجل المسيح ... وعلى أي حال فإننا نقدّم برهاناً كما كان يفعل معلّمنا بولس الرسول: «لا بكلام الحكمة الإنسانية بل ببرهان الروح والقوة» حتى نُقنع الناس بأن الإيمان يسبق براهين المحاجة: هوذا هنا بعض المعذبين بالشياطين ... فهل تستطيعون تطهيرهم بالحجج ...؟! وإلّا كفّوا عن منازعتنا إن عجزتم لتروا قوة صليب المسيح. قال هذا ودعا المسيح ورشم المرضى مرّتين أو ثلاثة بعلامة الصليب، وللحال وقف الرجال أصحاء بعقلهم السليم وقدموا الشكر للرب في هذه اللحظة.

أمّا أنطونيوس فقال: «لماذا تتعجّبون من هذا؟ لسنا نحن الذين نعمل هذه الأمور، ولكن المسيح هو الذي يعملها بواسطة من يؤمنون به، لذلك آمنوا أنتم أيضاً لكي تروا بأنفسكم أنه ليس لدينا حيل كلامية بل الإيمان عن طريق المحبة التي وجدت فينا نحو المسيح والتي إن حصلتُم عليها أنتم أنفسكم لما طلبتم في ما بعد حججاً منطقية بل اعتبرتم الإيمان بالسيد المسيح كافياً». [947]

الإيمان بالمسيح هو الذي يعلن لنا الثالوث، ويؤهلنا للاتحاد بالثالوث:

أثناسيوس يضع حجر الأساس في المسيحية الذي يقوم عليه صرح الإيمان كله، وهو أن الإيمان بالمسيح يؤهلنا للاتحاد بالله: sun&ptei tũ qeũ

بل إن قصد أثناسيوس هو في الحقيقة أعمق من هذا، إذ يود أن يقول إن الإيمان بالمسيح إذا كان صحيحاً، فهو حالة اتحاد فعلي بالله، وذلك دون أن يتطرّق الذهن إلى

أي احتمال يتجاوز الفرقة الشاسعة بين الله والإنسان.

فاتحاد الإنسان بالله - بحسب فكر أثناسيوس - لا يُفقد الإنسان هويته، ولا يعطيه هوية الله، ولكن بسكنى الروح القدس بصفة دائمة في الإنسان يصير الإنسان متحداً بالله.

ولكن الله لمّا منح الإنسان هذه الصلة السرية العميقة القائمة في المسيح، ابنه الوحيد المتجسّد، أصبح الإيمان بالمسيح (ونوال الروح القدس) هو القوة الجاذبة للإنسان حول الله، وذلك حسب حرية إرادة الإنسان، وبقدر عمق هذا الإيمان الذي هو سمة من سمات حرية أولاد الله. لأن الروح القدس الذي يقبله الإنسان بحرية إرادته يظل يعمل في دائرة هذه الحرية.

[إن الإيمان بالثالوث المسلّم إلينا، يوحدنا (يتحدنا) بالله.] (948)

[وحيثما قال المخلص من نحنونا: «كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا» (يو 17:21)، فهو لا يعني قط من هذا أننا نصبح مماثلين له أو لنا نفس هويته، ولكن الأمر لا يتعدى ابتهالاً إلى الآب - كما كتب يوحنا - لكي يهب الروح القدس لكل من يؤمن به - هذا الروح الذي من خلاله وبواسطته - فقط - نوجد في الله. وهكذا وبهذه الكيفية نصبح واحداً فيه ومتحدين به (949) = ع pnc di' a...stai di' ma car...toà to' ع usi, di' غ o TMn tòato sunfptesqai TMn ka^ dokoàmen tòn tù qeù g...nesqai, ka^ kat' (P.G.C. 376A) [ظ.àtù.]

الإيمان بالمسيح، عند أثناسيوس، يعني العبادة حيث تتحوّل المعرفة إلى خلاص وحياة أبدية:

إن كانت محصلة المعرفة عند أثناسيوس هي الإيمان، فالإيمان يعني العبادة. [حينما نعبد المسيح فنحن لا نعبد مخلوقاً، حاشا أن يكون هذا، لأن هذا الخطأ في احتساب المسيح مخلوقاً هو من صنع الوثنيين والأريوسيين، أمّا نحن فنعبد رب الخليقة، كلمة الله، المتجسّد. لأنه وإن كان جسد المسيح هو فعلاً جزء من

(948) Athanas., *ad. Serap.*, I, 30.

(949) Athanas., *C. Ar.*, III, 25.

الخليقة إلا أنه صار جسداً لله، ونحن لا نفرِّق الجسد من الكلمة ونعبده كجسد وحسب، ولا نحن حينما نريد أن نعبد الكلمة نفصله بعيداً عن الجسد، ولكن إذ نعلم أن «الكلمة صار جسداً»، فنحن نحسب الكلمة إلهاً أيضاً، حتى بعد أن جاء في الجسد.

لأنه مَنْ ذا يكون عديم العقل لدرجة أنه يقول للرب: «أرجوك أن تترك جسدك حتى أستطيع أن أعبدك»؟

أو نكون بوقاحة اليهود عديمي العقل، الذين بسبب الجسد خاطبوه قائلين: فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً (يو 10:33)

ولكن حينما نأتي إلى الأبرص نجده ليس من هذا الصنف، إذ نجده **يَعْبُدُ الله في الجسد**، مدركاً تماماً أنه الله، قائلاً: «يا سيد إن أردت تقدر أن تطهرني» (مت 2:8). وبذلك نراه غير متعَوِّق في إيمانه بسبب الجسد عن إدراك أنه كلمة الله الخالق كل الخليقة. ولا هو ظن بسبب ازدرائه للجسد أن كلمة الله مخلوق! بل نجده **يعبد الخالق للعالم كساكن في هيكله المخلوق، لذلك وبذلك تطهر الأبرص!!**

■ كذلك أيضاً في أمر المرأة نازفة الدم، التي لمَّا آمنت اكتفت بلمس أطراف ثوبه فشُفِيَتْ (مت 9:20).

■ والبحر بأواجه المزبدة التي لمَّا سمعت صوت الكلمة المتجسِّد، أوقفت عصفها (مت 8:26).

■ والإنسان المولود أعمى حينما تقبَّل الطين الممزوج ببصاق الكلمة شُفِي.

■ والأعظم والأكثر إثارة حينما كان الرب **معلِّقاً على الصليب بالجسد والكلمة فيه**، لمَّا أبصرت الشمس هذه الفعلة أخفت نورها وجلَّلها السواد، والأرض تزلزلت والصخور تشقَّت، وحجاب الهيكل انشق، وكثير من أجساد القديسين النائمين قاموا ... هذه وهي - (بحسب الظاهر) - أمامها إنسان معلِّق إلا أنها - (بحسب الحقيقة) - كانت تواجه خالقها!! والصوت الذي كان يُسمع، صوت إنسان، ولكن لم

يمنعها أن تستجيب له، ولم تحسب كالأريوسيين أن «الكلمة» مخلوق. هذه كلها ارتعدت.

▪ ولكن غير الأتقياء لا يخافون (وصدق فيهم قول القائل): «وكما لم يستحسنوا أن يُبقوا الله في معرفتهم أسلمهم الله إلى ذهنٍ مرفوضٍ ليفعلوا ما لا يليق.» (رو 1:28).

إن الخليقة لا تعبد مخلوقاً، وليس بسبب الجسد نحجم أن نقدّم السجود، «لأنه لاسم يسوع المسيح تسجد - وستسجد - كل ركبة ما في السموات وما على الأرض وما تحت الأرض (الأموات)، وكل لسان سيعترف - رضي الأريوسيون أو لم يرضوا - أن يسوع هو رب لمجد الله الأب» (في 10:2 و11).

إذن، فالجسد لا يُنقص شيئاً من «مجد الكلمة»، حاشا، بل على العكس، فالجسد يمجّده، ولا أن الابن الذي هو في الهيئة مساوٍ لله حينما أخذ هيئة العبد يكون قد فقد لاهوته، بل على العكس فإنه صار مخلصاً لكل جسد وكل خليقة.

وإن كان الله قد أرسل ابنه مولوداً من امرأة، فهذا الحق لا يسبب لنا خجلاً، بل على النقيض قد سبّب لنا مجداً ونعمة عظيمة. لأنه صار إنساناً لكي يوُلِّهنا في نفسه، وإن كان قد حُمِلَ به من امرأة ووُلِدَ من عذراء، فذلك لكي يحمل جيلنا الخاطيء في نفسه، ونصير منذ الآن فصاعداً جنساً مقدّساً، «وشركاء في الطبيعة الإلهية» كما كتب المغبوط بطرس (2بط 1:4)، «وفيما كان الناموس عاجزاً عنه في ما كان ضعيفاً بالجسد، فإله إذ أرسل ابنه في شبه جسد الخطية ولأجل الخطية دان الخطية في الجسد.» (رو 8:3)

ونحن إذ نرى كيف أن الجسد قد اتخذ الكلمة ليخلص بواسطته كل البشر، مُقيماً الجميع من بين الأموات صانعاً فداءً للخطايا، أفلا يظهر من هذا كيف أصبح تحت الدينونة أولئك الذين يحتسبون ابن الله مخلوقاً أو مصنوعاً - من أجل الجسد الذي اتخذه - مستخفين بذلك، فصاروا غير شكورين ومستحقين لكل غضب؟

هؤلاء بلغوا من الشطارة إلى الحد الذي به وكأنهم يخاطبون الله قائلين: «لا

ترسل لنا ابنك الوحيد في الجسد، ولا تجعله يأخذ جسداً من العذراء لئلاً يفدينا من الموت والخطية. فنحن لا نطيع أن يأتي إلينا في الجسد لئلاً يجوز الموت عنّا، فنحن لا نرغب قط أن يصير الكلمة جسداً لئلاً بواسطة الجسد يصير لنا شفيحاً ووسيطاً يوصلنا إليك، فنستوطن منازل السموات. بل يا ليتك تنقل أبواب السموات لئلاً يستطيع (كلمتك) أن يكرّس لنا الطريق إلى هناك بواسطة الجسد (الحجاب الموصّل) (عب 20:10).”

نعم هذه هي صرخاتهم منطلقة بجرأة شيطانية، من جراء الخطية التي يبيتون عليها.

لأن كل من لا يريد أن يعبد الكلمة الذي صار جسداً، فهو يبقى غير شكور بسبب أنه صار إنساناً.

وأولئك الذين يفرّقون الكلمة من الجسد، لا يدركون أن (بهمّا) صار فداء واحد من الخطية، (وبهمّا) صار إلغاء واحد للموت!

وهل أمكن لهؤلاء غير الأنقياء أن يروا - مرّة واحدة - المخلص بغير جسده الذي اتخذ لنفسه، حتى يتجرّأوا ويقولوا: “نحن لا نستطيع أن نعبد الرب في الجسد بل نحن نفصل الجسد لنعبد “الكلمة” وحده”؟

ولماذا إذن رأى المطوّب استفانوس السماوات مفتوحة والرب قائماً عن يمين الله؟ (أع 7:55)، أو أن الملائكة تقول للتلاميذ (وقت الصعود): «سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقاً إلى السماء» (أع 1:11)، والرب نفسه يقول مخاطباً الآب: «أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا.» (يو 24:17)

وهكذا وبكل تأكيد، فإن الجسد إذ كان غير منفصل عن الكلمة، فإنه يتحنّم على هؤلاء، إمّا أن يقلعوا عن خطئهم ليعبدوا الآب في اسم الرب يسوع المسيح، وإلّا فإن كانوا يحجمون عن عبادة “الكلمة الذي صار جسداً” فإنهم سينظرون خارجاً، ولا يُحسبون مسيحيين على أي وجه بل مع اليهود أو الوثنيين يُحسبون.

أمّا نحن فإيماننا حق ومستقيم، ويبدأ من تعاليم الرسل وتقليد الآباء مثبتاً

بالعهد الجديد والقديم معاً!

فهكذا يقول الأنبياء:

+ «أرسل نورك (كلمتك) وحقك.» (مز 3:43)
+ «ها العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل (الذي تفسيره الله معنا).»
(إش 7:14)،

وماذا يعني هذا، إذا لم يكن الله قد جاء في الجسد؟

والتقليد الرسولي يعلم بكلمات بطرس الرسول: «فإذ قد تألم المسيح بالجسد»، وبما كتب بولس الرسول أيضاً: «منتظرين الرجاء المبارك وظهور مجد الله العظيم ومخلصنا يسوع المسيح، الذي بذل نفسه لأجلنا، لكي يفدينا من كل إثم، ويظهر نفسه شعباً خاصاً غيوراً في أعمال حسنة.» (تي 2: 13 و14)

وكيف يكون قد بذل نفسه إذا لم يكن قد لبس جسداً، لأنه لما قدم جسده قيل إنه بذل نفسه من أجلنا حتى يكمل الموت فيه: «لكي يبدي بالموت ذلك الذي له سلطان الموت أي إبليس» (عب 2:14). من أجل هذا نحن نقدم الشكر باسم ربنا يسوع المسيح ولا نتلف النعمة التي صارت لنا بواسطته، لأن بمجيء المخلص بالجسد صار الفداء والخلص لكل الخليقة.

إذن، ضعوا هذا في أنفسكم أيها الأحباء كل من يحب الرب، أمّا الذين يقتنون أثر يهوذا ويجحدون المسيح لينضموا إلى قيافا فليتهم يخزون.

وليعلموا أننا في عبادتنا للرب، وهو في الجسد، لا نعبد مخلوقاً، ولكن كما قلنا نحن نعبد الخالق الذي لبس جسداً مخلوقاً.

ونحن نطلب من قداستكم أن تسألوهم: حينما أمر الرب شعب إسرائيل ليذهبوا إلى أورشليم ليعبدوا - الله - في هيكل الرب، أين كان التابوت؟ «الذي كان فوقه شاروبيم المجد مظلاً كرسى الرحمة (غطاء التابوت Elasterion)» (انظر عب 9:5). هل انصاعوا للأمر كما ينبغي أم لا؟ فإذا كانوا هم لم ينصاعوا للأمر، واحتقروه، كم كان العقاب المحتم الذي كانوا سيُستهدفون إليه؟ لأنه مكتوب: إن من استخف بذلك ولم يصعد فإنه يُباد من وسط الجماعة

(لا 9:17، عد 13:9).

والآن كم هو مستحق للإبادة مضاعفاً كل مَنْ لا يعبد الرب في الجسد كما في هيكل؟ مع أن الهيكل الأول شُيّد من حجارة وذهب وكان ظلاً للحقيقة، أمّا الآن وقد جاء الحق وتوقّف المثال منذ لحظة مجيئه حتى أنه حسب قول الرب لا يُترك ههنا حجر على حجر لا يُنقض (مت 2:24).

فإن كان الإسرائيليون لمّا رأوا هيكل الحجارة لم يقولوا إن الرب الذي تكلم فيه كان مخلوقاً، ولا هم نقضوا الهيكل ولغوه وابتعدوا عنه ليعبدوا الرب بعيداً عنه، بل جاءوا إليه حسب الناموس وعبدوا الله الذي نطق بالوصايا من داخله. فإن كان الأمر هكذا، فكيف لا يكون موافقاً وحقاً أن نعبد جسد الرب، كلّي القداسة، وكلّي الاحترام كما هو حقاً، وكما أعلن عنه بواسطة رئيس الملائكة غبريال: أنه - أي الجسد - من الروح القدس مصنوعاً مسكناً للكلمة.

ثم ألم تكن هي، على كل حال، يدٌ جسدية تلك التي مدّها "الكلمة" وأقام بها حماة سمعان وهي مطروحة مريضة بالحمّى؟ (مر 1:31)، وألم يكن هو صوت بشري ذلك الذي أقام لعازر من الموت؟ (يو 11:43).

ومرّة أخرى نراه وقد مدّ كلتا يديه على الصليب فصرع رئيس سلطان الهواء وأسقطه - الذي لا يزال يعمل الآن في أبناء المعصية (أف 2:2) - ومهدّ وأنار لنا الطريق إلى السماء.

ولهذا، فإن كل مَنْ يزدرى بالهيكل يزدرى بالرب الساكن فيه، تماماً كالذي يفصل الكلمة عن الجسد فإنه بذلك ينهي على النعمة التي وهبت لنا فيه.

وليلتفت الأريوسيون المنكرون للاهوت المسيح - لأنه يستحيل أن يكون كلمة الله مخلوقاً، ولكنه اتخذ لنفسه جسداً مخلوقاً، ليحييه، لأنه أي قوة أو أي معونة يمكن لمخلوق أن ينالها من مخلوق هو نفسه يحتاج لمن يخلصه؟

ولكن لأن الرب هو الكلمة الخالق وهو الصانع للخليقة، لذلك فإنه عند اكتمال الدهور (عب 9:27) لبس هذا الجسد المخلوق، لكي وهو الخالق يعود ويقدّس خليقته وينقذها (من اللعنة والموت والفساد).

ولكن، مخلوقٌ لا يمكن أن ينفذ أو يخلص مخلوقاً من الفساد، إن لم يكن هو كلمة الله الخالق. لذلك فليت الجاحدين (للاهوت المسيح) لا يفترون على الكتب المقدسة ولا يبلبلون الإخوة البسطاء.

لأن إيمان الكنيسة الجامعة يعلم أن "كلمة الله" هو خالق وصانع كل الأشياء، كذلك نحن نعلم أن "الكلمة كان في البدء وكان الكلمة عند الله". فإن كان قد صار في ملء الزمان أيضاً إنساناً من أجل خلاصنا، فنحن نعبده ليس كأنه لما صار في الجسد تساوى مع الجسد، ولكنه السيد أخذ هيئة العبد، والخالق أتى في مخلوق. لكي عندما يخلص كل شيء يحضر العالم إلى الأب جاعلاً الكل في سلام ما في السموات وما على الأرض. ولهذا نحن ندرك لاهوته كالأب تماماً، ونعبد حضوره الجسدي - ونصر على ذلك - مهما تجنن الأريوسيون حتى ولو مزقوا أنفسهم! [...] (950)

الإيمان الصحيح، عند أثناسيوس، لا يقوم على فهم شخصي، ولا على مشيئة شخصية، ولا على إرادة ومشورة خاصة،

بل على تسليم صحيح للتقليد الكنسي الرسولي، ويؤدي إلى معرفة صحيحة:

كان صراع أثناسيوس ضد الأريوسيين وغيرهم من المنشقين يمثل في حقيقته وجوهره صراعاً بين نوعين من الإيمان: إيمان الكنيسة المتحفظة الذي يقوم على تسليم حسب تعليم الإنجيل، وهذا يضمن معرفة حقيقية بالله، إيمان عاشه القديسون وتمسكوا به، وإيمان يقوم على المعرفة الخاصة والحكم الشخصي والإرادة الخاصة لدى الخارجين على الكنيسة، وهذا أدى إلى كفر.

وأثناسيوس يهاجم بشدة محاولة الهرطقة لوضع قانون للإيمان شخصي، أي من عندهم، فيسميه قانون عدم التقوى الشخصي، أو الوقاحة الشخصية. وهو يركّز دائماً:

(1) على كلمة الشخصي = "t̄ dia"، في مقابل التسليم التقليدي.

(2) وعلى كلمة المشيئة الخاصة = "o ٤to ٤q̄ lousi"، في مقابل مناداة أو

كرازة الكنيسة = "٤ ٤ ssei عkklhs... a khrTM j ١".

(3) وعلى كلمة الإرادة المنقسمة (المشورة والمؤامرة): $\text{bo} \times \text{ex parte} \text{ } \text{Lontai}$ في مقابل القانون الإلهي.

[فإنهم وهم مدفوعون من قبل إدراكاتهم - أو بالحري عدم إدراكاتهم - النابعة من هوى قلوبهم الخاصة، يركنون إلى صفحات من الكتب المقدسة، ولكن بسبب عجز معرفتهم لا يفهمون معناها بل يقررون كفرهم بمقتضى ما يستقرئونه منها ويعتبرونه "قانوناً" قائماً على الشرح والتفسير. ثم يحشرون كل أقوال الكتب المقدسة لكي تسير على المعنى الذي يريدونه، أمّا هذا المنهج فأقل ما يُقال عنه هو ما قيل لليهود سابقاً: «تخطئون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله» (مت 22:29)]. (951)

ويوضح أثناسيوس إيمان الأريوسيين، أنه تأليف خاص ليوافق مشيئتهم الخاصة، ويشدّد أيضاً على كلمة المشيئة الخاصة "و $\text{qo} \text{ } \text{to} \text{ } \text{lousi}$ " في مقابل قانون إيمان الكنيسة "العام" (الكاثوليكي: Catholic).

[هنا أيضاً يبرزون تزييفاتهم الخاصة، ويقنعون أنفسهم أن الأب والابن ليسا واحداً، كما تعلم الكنيسة الجامعة، ولكن حسب مشيئتهم هم: $\text{to} \text{ } \text{z} \text{ } \text{qo}$]. (952)

أثناسيوس يحذّر من سموم الهرطقة التي زرعوها في حقل الإيمان المسلّم من القديسين:

[لقد جعلوا لغة الكتاب المقدس مادة لادعاءاتهم، وبدل المعنى الحقيقي الصادق النقي زرعوها في وسطه (مت 13:25) سُمّمهم الخاص $\text{v} \text{ } \text{dion} \text{ } \text{t}$ لهرطقتهم]. (953)

[ولكونهم قد انحرفوا بالقضايا الإلهية ودسّوا عليها تفسيرات خاطئة بحسب مفهومهم الخاص $\text{t} \text{ } \text{kat} \text{ } \text{v} \text{ } \text{dion} \text{ } \text{n}$ ، أصبح لزاماً علينا أن نواجههم بالقدر الذي يسمح أن نوضّح ونفندّ هذه الروايات الإنجيلية، ونبرهن على

(951) Athanas., C. Ar., I. 52.

(952) Ibid., III. 10.

(953) Ibid., I. 53.

أصالة المفهوم الأرثوذكسي القائم فيها، موضّحين مدى خطأ هؤلاء المقاومين. [954]

أثناسيوس يؤكّد أن كفر الهرطقة كان كفراً مقصوداً ومتعمّداً بروح العداوة (الشيطنية) للمسيح:

[أيها الأعداء للمسيح واليهود غير الشكورين ... الذين جعلوا الصفات البشرية التي ظهر بها المسيح أساساً لانحطاط تصوراتهم الفكرية في ما يخص ابن الله، قائلين بأنه كان بجملته إنساناً مخلوقاً من تراب الأرض وليس من السماء، ولم يعبأوا بأعماله الإلهية ليدركوا حقيقة "الكلمة" القائم في الآب حتى يتوبوا عن كفرهم الإرادي "beian t̄t̄3/4n t̄dian es".] [955]

[علماً بأن كل مَنْ يتكلّم من ذاته tmk t̄in „d...wn فإنه إنما يتكلّم كذباً.] [956]

ويعود أثناسيوس يوضّح أن إيمان الهرطقة هو نتيجة مشورة لإرادة منقسمة، ومؤامرة وخيانة متعمّدة:

[وبينما الأمور تجري هكذا انسحبنا من وسطهم كما من وسط جماعة خونة، لأن كل ما كان يخطر على بالهم كانوا يتّمونّه، ومعلوم قطعاً لدى كل إنسان أن كل ما يخرج من وسط الانقسامات لا يمكن أن يكون صالحاً (ex parte)، هذا ما يؤكّده القانون الإلهي (يع 3: 14 و15 و16) ...

وهؤلاء حالاً خرجوا خارجاً - مثل اليهود - وأخذوا يتشاورون معاً وحدهم (وليس مع الله) كيف يحطّموننا ليبثوا هرطقهم كما سعى اليهود سابقاً لإطلاق باراباس.] [957]

ما هو القصد من "قانون الإيمان"، عند أثناسيوس:

كان القصد الأساسي من استخدام أثناسيوس "لقانون الإيمان"، هو مواجهة الإيمان "الخصوصي" الذي ألفه واخترعه أريوس وأعوانه. فكلمة "قانون" تقابل

(954) Ibid., I. 37.

(955) Ibid., III. 55.

(956) Athanas., *Contr. Apoll.*, I.

(957) Athanas., *Apol. C. Ar.*, 82, 83.

عند أثناسيوس كلمة "اختراع".

ولم يكن قصد أثناسيوس في استخدامه لنصوص الكتاب المقدس ليبرهن منهجاً معيناً للاهوت أو يفسر الإنجيل أو حتى يطرح أمام القارئ المؤمن نموذجاً للفهم والبحث في ما يخص الإيمان، ولكن كان الأساس من التمسك الشديد بقانون الإيمان هو الحفاظ على التقليد. كذلك فإن الاستشهاد بكل ما يمكن من الأسفار المقدسة، هو لبرهان أن قانون الإيمان قائم بالفعل على تقليد صحيح مسلم، ومحدد. وهذا التقليد بمنأى عن الإجتهد للحذف أو للإضافة، وهو ملزم، وهو بحد ذاته يعطينا المعنى الصحيح للكتاب المقدس في ما يتعلّق بالمسائل اللاهوتية الأساسية.

وقد نجح أثناسيوس بالفعل في توضيح وتثبيت هذه الحقيقة، وهي أن التقليد كان ينتقل من جيل إلى جيل بالممارسة التعليمية، وبالممارسة الطقسية العملية داخل الكنيسة.

ولم يتوسّع أثناسيوس في شرحه للآيات على مدى الأسفار المقدسة لكي يعلّق على المعاني في حد ذاتها، ولكن كانت كل اهتماماته منصبّة في أن يحدّد، وبصورة قطعية، أن كل معنى يُستقرأ من أية آية ويكون غير منطبق على المفهوم التقليدي لقانون الإيمان العام يصبح غير صحيح، وهرطقة بحد ذاته. ولماذا؟ لأن المعنى التقليدي بحسب القانون العام هو رسولي ومُلزم وقاطع.

لذلك تمسك بكل ما تعلمه في المدرسة (مدرسة الإسكندرية للموعوظين Catechetical school)، مع ما تلقاه وتعلّمه ومارسه في الكنيسة، بالإضافة إلى صوت الكنيسة ومفهومها العام nhmazfr، وبالإضافة أيضاً إلى كتابات القديسين التي وصلت إليه. هذه هي الأسس الأولى التي تسند قانون الإيمان، وهو دائماً أبداً مقتنع وقانع بها.

وأثناسيوس لا يدّعي أبداً أنه بحّاثه يبحث في صحة قانون الإيمان أو يفسّره بما يتوافق مع رأيه أو فهمه الخاص.

كذلك لا يظهر أثناسيوس في كل مؤلفاته أنه مجادل أو محاور لإثبات رأيه ونظريته وإيمانه الخاص، بل يظهر بكل صلابة أنه إنسان استلم أمانة خطيرة للغاية، وهو مكلف بتسليمها كما هي، حتى ولو أدّى ذلك إلى الموت. هذه الأمانة أو

الوديعة parfdosij هي قانون الإيمان، وهي هي التقليد، وهي هي الإنجيل، ليس
كانها آية واحدة بل التقليد هو محصلة النظرية الإيمانية الشمولية الواسعة التي
تحتضن كل الإنجيل = صt sk zjn tpon stewj p...m'lj q'ka j.

[إن الأريوسيين إذ ينظرون إلى ما هو بشري في المخلص يحكمون عليه أنه
مخلوق ... ولكن ليتهم يتعلمون - وإن كان هذا التعليم يأتي متأخراً - أن
"الكلمة صار جسداً". وليتنا نتمسك بالنظرة الشمولية للإيمان = صt n
sk zjn tpon stewj p...j (الإيمان الذي نقيمه نحن المسيحيين ونستخدمه
كقانون: ni zésper kan ونقرأ به الأسفار الملهمة كما علم الرسل - هذا إذ يفقده
أعداء المسيح متجاهلين هذه النظرة الشمولية يضلون عن طريق الحق،
ويعثرون ويظنون فيه بخلاف ما ينبغي أن يُظن)(958) أمّا نحن فإذ لنا هذه
النظرة الشمولية نؤكد أن هذا هو المعنى الأرثوذكسي الصحيح =
n r[3/4]rq (959)

[وبما أنهم يقبلون الأسفار المقدسة بمقتضى فكرهم الخاص: dion؛ فإنه يتحتم
علينا بالقدر الكافي أن نرد عليهم في هذه الحدود، لنصح ونبرهن صدق كلمة
الإنجيل، ونوضح أن معناها هو أرثوذكسي n r[3/4]rq (960)

علاقة قانون الإيمان والفكر الكنسي بالتقوى والاستقامة والصلاح عند أثناسيوس:
الباحث المدقق يلاحظ أن أثناسيوس يحصر معنى "التقوى" و"الأرثوذكسية"
و"الصلاح" في حدود ما هو متفق وملتزم بقانون الإيمان Regula Fidei وخاصة في
ما يخص المبادئ والتفسير، وما هو موافق للفكر الكنسي العام:
[هذا ما أفهمه من هذا الفصل (من الكتاب المقدس) وهذا هو المعنى الكنسي
تماماً: .TMkkIhsiastrkj (961)

[فلو كانوا قد التزموا بهذه المفهومات، وأدركوا نظرة الكنيسة الشمولية

(958) Athanas., C. Ar., III. 28.

(959) Athanas., C. Ar., III. 35.

(960) Athanas., C. Ar., I. 37.

(961) Athanas., C. Ar., I. 44.

وجعلوها - كما هي حقًا - مرساة الإيمان، لما غرقت مركب إيمانهم.[(962)
ومن هنا ندرك السر الذي يقف وراء الألفاظ التي ينعت بها أنثاسيوس الأريوسيين
بقوله: "غير الأتقياء"، "غير الصالحين (الأردياء)"، و"المنحرفين"، فهي هنا ليست
على مستوى الشتيمة، بل بمفهوم الخروج عن قانون الإيمان الذي هو قانون
التقوى وقانون الصلاح وقانون الاستقامة.

ثانياً: الشهادة (الاعتراف) بالمسيح وعلاقة ذلك بمعرفة الله أو استعلانه

إن أثناسيوس يعتبر أن الإيمان بالمسيح، حسب قانون الإيمان الصحيح، لا يمكن أن يكمل بدون الشهادة أو الاعتراف العلني بهذا الإيمان.

ثم إن هذا الاعتراف العلني بالمسيح أي الشهادة بالإيمان باسمه هو الطريق السري للدخول في معرفة الله معرفة شخصية. وبدون هذا الاعتراف العلني يستحيل أن ندخل في شركة مع الله، ولا نستأمن على الحياة الأبدية.

[لأنه بدون الاعتراف العلني (الشهادة) بالموت والصلب والقيامة العجيبة التي للرب الإله بحسب الرسل، يتمتع علينا الحصول على قوة معرفة الله.] (963)

[لأن الأريوسيين صنعوا هذه الأمور لكي يؤثروا على الذين يعترفون بالإيمان الصحيح بالله ويخيفوهم، لكي يسكتوا، وحينئذ ينشرون هرطقتهم الكفرية بدلاً من الإيمان الصحيح.] (964)

وأثناسيوس يوضح في كل مقالاته ودفاعاته أن الإيمان والاعتراف بالتجسد وما تبعه من آلام وموت وقيامة، هو في الحقيقة لغاية واحدة هي أن نصير أبناء الله متحدين بالمسيح بهذا الإيمان والاعتراف. وهذا الاتحاد هو الشركة في الطبيعة الإلهية: [كلمة الله تجسد لنصير آلهة فيه]، و[ابن الله تجسد لكي نصير أبناء الله]، بحيث أن إجماع اليهود عن الشهادة للمسيح كونه ابن الله المتجسد، حرمهم من الاتحاد بالله، أي من الشركة الإلهية (أو التأله)، حيث المقابل لعدم الشركة (التأله) هو الحرمان من الله، وهو هو بعينه الكفر أي الجحود = atheism = ungodliness = tthojzqeqe.

وعدم التأله أو الكفر يتبع فكراً مضاداً للحق مع إصرار واعتراف.

فهو سلوك سلبي تجاه طبيعة الله. لذلك إن كان الإيمان والاعتراف العلني بالله هو

(963) Ps. Athanas., *De Incarn. et. Contr. Ar.*, 19.

(964) Athanas., *Defence against Ar.*, 19.

التقوى $\beta\epsilon\alpha\tau\acute{\iota}\varsigma$ التي تترجم religion أو godliness وهي هي كلمة “ الأرثوذكسية” ، فإن الخروج عن الإيمان يُحسب عدم تقوى $\beta\epsilon\alpha\tau\acute{\iota}\varsigma$ التي تترجم irreligion أو ungodliness، وهذه لم يستخدمها أناسيوس جزافاً، بل هو يأخذ بأسلوب ونمط الإنجيل، فإن بولس الرسول يعتبر الإيمان العلني بتجسّد الله والكراسة (الشهادة) به هو سر التقوى:

+ «عظيم هو سر التقوى $\beta\epsilon\alpha\tau\acute{\iota}\varsigma = \text{godliness}$ ، الله ظهر في الجسد ...
كُرز به ... أو من به ...» (1 تي 3:16)

وهو الذي يؤكّده القديس القبطي حينما يقول الكاهن: “وأعطانا هذا السر العظيم الذي للتقوى”، هنا يقصد الكاهن نفس الآية السابقة معلناً التجسّد، فهو قبلها يعلن معترفاً: “تجسّد” = “أفتشي ساركس $\alpha\phi\sigma\iota\kappa\alpha\rho\varsigma$ ”.

لهذا، وعلى أساس هذا المعنى، شكا أريوس أن ألكسندروس بابا الإسكندرية طرده (مع أتباعه) من الإسكندرية باعتباره إنساناً كافراً = $\kappa\alpha\tau\alpha\beta\alpha\tau\acute{\iota}\varsigma \text{ } \beta\epsilon\alpha\tau\acute{\iota}\varsigma$ (965) ولماذا؟ لأن مَنْ ينكر المسيح فقد أنكر الله، لأن المسيح هو الله ظهر في الجسد، ولأن المسيح هو ابن الله الذي بتجسّده أعلن الآب “الله المخفي”، ولأننا بواسطة المسيح ندرك الآب الحقيقي؛ لذلك فإن أناسيوس يضع الأريوسيين مع اليهود لأنهم بالرغم من أنهم يعترفون باسم الله بأفواههم، إلا أنهم لا يدركون سر الله الآب الحقيقي: «أبو ربنا يسوع المسيح»؛ وبنكارهم “الكلمة” المتجسّد، أي لاهوت المسيح، فإنهم يقطعون من لاهوت الآب كلمته، وهكذا فإن جرأة الأريوسيين وبالحرى تجديفهم إنما هو موجّه للاهوت، أي الله في ذاته بصورة جنونية $\mu\alpha\kappa\eta\tau\epsilon\rho\nu$ (966)، منكرين “الكلمة” لاهوتياً، فصاروا ضد الأسفار المقدّسة سالكين بسلوك يهودي (967) كافرين بالله.

ولهذا يتحقّق أمامنا جيداً أن الإيمان الحقيقي بالكلمة المتجسّد يتبعه حتماً شهادة واعتراف علني بالإيمان، حيث يعتبر هذا هو المنهج الأرثوذكسي للتعريف بالله، بل هو سر التقوى بعينه، الذي من خلاله نعرف الله في ذاته بالحق.

(965) Theodoret *Hist. Ecc.*, I. 4.

(966) Athanas., *Ep. Agypt.*, 17 fin.

(967) *Ibid.*, 13.

لهذا يتبين أمامنا ومن كل ملابسات مجمع نيقية والصراع المرير الذي عانته الكنيسة بعد هذا المجمع وعلى مدى خمسين عاماً، أن الإيمان العلني ضرورة حتمية تسبق المحاولة لفحص الله أو بحث الأسفار أو محاولة المجادلة أو الحوار أو إبداء الرأي، فالإيمان أمان المعرفة - أو الحكمة - وهو وإن كان يساويها تماماً، فهو الذي يؤمنها!!

فكل إنسان يعلن نفسه أنه مسيحي، يتحتم عليه أن يكون مؤمناً بالمسيح يسوع، شاهداً أنه كلمة الله المتجسد، الذي صلب عنا ومات ودُفن وفي ثالث يوم قام من بين الأموات!

[«لأنه إذ كان العالم في حكمة الله لم يعرف الله بالحكمة، استحسن الله أن يُخلص المؤمنين بجهالة الكرازة (بالتجسد والموت والقيامة)» (1كو 1:21). إذن فلم يعد بعد كالسابق أن الله يُعرف من خلال ظلال الحكمة ومجرد تصورهما كما هو الحال في الخليقة، ولكن جعل الحكمة الحقيقية ذاتها تتجسد وتصير بشراً، وهذا يموت على الصليب، حتى بالإيمان به فإن كل من يؤمن ينال (حكمة) الخلاص (الحقيقية).

هذا هو الحكمة الحامل لصورة الله (الأب) الخاصة الذي حينما استعلن هو في ذاته (متجسداً وعاملاً) استعلن أباه، وإذ هو ذاته "الكلمة" الذي صار جسداً، حينما أباد الموت بموته خلص جنسنا (من الموت)، فاستعلن أكثر فأكثر (أنه هو الحياة الأبدية)، وفيه استعلن الابن أباه (أبو الحياة) قائلاً: «هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو 3:17). وهكذا امتلأت الأرض كلها من معرفة الله الأب في الابن، والابن في الأب، سيان فهما واحد (لحياة أبدية محيية) (968). [969]

(968) يُلاحظ ورود كلمة "حكمة الله" بما يفيد شخص المسيح على فم المسيح نفسه لو قرأنا الآيتين لو 49:11، مت 34:23 هكذا:
+ «لذلك أيضاً قالت حكمة الله إني أرسل إليهم أنبياء ورسلاً...» (لو 49:11)
+ «لذلك ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة...» (مت 34:23)
حيث يتكلم المسيح عن نفسه أنه هو الذي كان يرسل الأنبياء قبل مجيئه، بصفته حكمة الله المدبر للخلاص العتيد أن يكمله بنفسه.

وأثناسيوس يشدد على أن عدم الإيمان بالمسيح إلهاً آتياً في الجسد ينشئ جهالة بحقيقة الله الأب، وهذه الجهالة مميتة لقدرة الإنسان من نحو الاتصال والمصالحة بالله.

ولهذا يرى أثناسيوس أن اليهود قتلوا المسيح بسبب الجهالة بالله نفسه، لأن معرفة الله حُجزت عنهم كلية، عندما رفضوا "كلمته"، أي الإيمان بالمسيح، فأصابهم العمى الروحي ولم يفدهم صراخهم باسم الله ولا تدقيقهم في ناموس موسى بل أقدموا بكل جراءة على قتل رب المجد: «لأنه لو عرفوا (آمنوا به) لما صلبوا ربَّ المجد» (1كو 2:8). هذا هو التعبير والفهم اليهودي.[970]

هكذا فإن أثناسيوس يعلن أن معرفة الله هي استعلان ونوال قوته، لذلك يؤكّد أنه بظهور المسيح متجسّداً ومصلوباً دخلت قوة الله ودخلت معرفة الله إلى عالم الإنسان بصورة عملية، فمعرفة حقيقة وقوة الله التي دخلت العالم هي ثمرة استعلان المسيح ككلمة الله والإيمان به، واستعلان الصليب كقوة خلاص الإنسان وفدائه من خداع الشيطان.

[يظنون أن الإيمان بالمسيح غير معقول، هذا ما يتهمنا به الأمم ويهزأون بنا من جهته، ويضحكون علينا جداً مركزين على صليب المسيح، وهنا لا يسعُ المرء إلاّ الإشفاق عليهم لانعدام بصيرة عقلهم (غياب الكلمة)، لأنهم وهم يهزأون بصليب المسيح يتعامون عن قوته التي ملأت العالم، الأمر الذي نتج عنه معرفة الله بصورة ظاهرة للجميع (أي عملية).

لأنه بالصليب قد اندثرت العبادة الوثنية كما تبدد سلطان الشيطان بعلامة الصليب، وأصبح الله الأب معروفاً ومعبوداً بالمسيح.[971]

(969) Athanas., *C. Ar.*, II, 81, 82.

(970) Athanas., *C. Ar.*, III. 39.

(971) Athanas., *Contra Gent.*, 1.

ملخص الفصل التاسع الإيمان والشهادة للمسيح كفعلين متلازمين مع المعرفة عند القديس أثناسيوس

+ كليندس الإسكندري هو أول من اعتبر الإيمان هو الشرط الأساسي والأولي لكل معرفة في ما يختص بالله، معرفاً الإيمان كأعلى مستوى للمعرفة.
+ أضاف القديس أثناسيوس عنصر التقوى لكي يكون الإيمان موثقاً للمعرفة.
+ المعرفة الصادقة لها شقان:

- 1 - فعل استعلان من الله يؤثر في فكر الإنسان لقبول الخلاص الكامن في معرفة المسيح ابن الله المخلص.
- 2 - ورد فعل من الإنسان متقبلاً فعل الاستعلان وقابلاً للخلاص بمعرفة المسيح في كل تقوى ووقار.

+ هناك ثلاثة أسس للإيمان في رأي أثناسيوس:

الأول أن الإيمان بالله، يسبق المسير نحوه،
والثاني أن الإيمان بمكافأة من يطلبون الله، يسبق طلب الله.
والثالث أن الإيمان الصحيح بالله، هو الإيمان بالواقع أو بالحال الكائن.

+ أي فعل إيماني من الإنسان نحو الله يسانده في الحال جذب روعي من الله ليعين الإنسان في ضعف إيمانه.

+ الإيمان - وإن جاء في البداية - إلا أنه يقوم أساساً على قواعد التعليم الصحيح، فالمخلص أمر تلاميذه أن يعلموا أولاً ثم يعمدوا، حتى يصير الإيمان الصحيح عن تعليم صحيح وبعد ذلك التقديس بالمعمودية.

+ الإيمان هو فعل نعمة لا يتوقف عند حد، لاكتشاف مزيد من المعرفة والاستعلان ولا يكون بالاجتهاد وإنما هو تسليم رسولي بالروح القدس.

+ صلاة الإيمان الصحيح المستقيم هي الفعالة فقط في كل أسرار الكنيسة بالنسبة لمانح السر ومتقبله.

+ الإيمان المتولد من عمل الله الداخلي في النفس هو الأفضل والأكثر دقة

للحصول على المعرفة من إيمان الجدل والمحاكاة؛ وهو الفَعَال والقادر على إعلان معرفة الله والشهادة له، بينما إيمان الحجة والمنطق عاطل من كل هذا.

+ الإيمان بالمسيح يؤهّلنا للاتحاد بالله بسكنى الروح القدس فينا.

+ إيماننا بالمسيح يؤدّي إلى عبادته مدركين لاهوته كالأب تماماً، عابدين حضوره الجسدي فهو «الله ظهر في الجسد» من أجل خلاصنا.

+ الإيمان الصحيح لا يقوم على فهم شخصي ولا على مشيئة أو إرادة خاصة ولا حسب الهوى الشخصي في تفسير الكتب المقدّسة، بل يقوم على تسليم الكنيسة الجامعة حسب الإيمان الرسولي، وهو الذي يؤدّي إلى المعرفة الصحيحة.

+ القصد من قانون الإيمان هو مواجهة الإيمان الخصوصي الذي يخترعه المبتدعون، من أجل الحفاظ على التقليد، لكي يكون مقياساً معتمداً من الكنيسة الجامعة ليحدّد وبصورة قاطعة كل معنى يُستقرأ من أية آية إن كان منطبقاً على المفهوم التقليدي لقانون الإيمان العام أم لا.

+ فقانون الإيمان هو التقليد، وهو الإنجيل؛ أي محصلة النظرة الإيمانية الشاملة الواسعة التي تحتضن كل الإنجيل.

+ وقانون الإيمان هو قانون التقوى، وقانون الصلاح وقانون الاستقامة.

+ الإيمان الصحيح بالمسيح لا يمكن أن يكمل بدون الشهادة والاعتراف العلني بهذا الإيمان. وهذا هو سر التقوى، وأمان المعرفة الصحيحة.

+ عدم الإيمان بالمسيح إلهاً أتياً في الجسد ينشيء جهالة مميتة لقدرة الإنسان من نحو الاتصال بالله ومصالحته.

+ معرفة الله هي استعلان ونوال قوته التي ظهرت في المسيح كلمة الله متجسداً ومصلوباً وقائماً من بين الأموات.



الفصل العاشر

الروح القدس وكمال استعلان الثالوث عند القديس أناسيوس

- ما هية الروح القدس كأقنوم إلهي في الثالوث المتساوي (وحدة الثالوث المتساوي).
- أناسيوس الرسولي وإرساء القواعد الثابتة للاهوت الروح القدس ووحدة الثالوث.

ماهية الروح القدس كأقنوم إلهي في الثالوث المتساوي

كان أنثاسيوس أول مَنْ دافع عن لاهوت الروح القدس، عندما واجه كلاً من جماعة المتقلبين (972) والأريوسيين الذين قالوا بأنه مخلوق.

ودفاع أنثاسيوس يقوم أساساً على إثبات الوحدة القائمة بين الثلاثة أقانيم الأب والابن والروح القدس أنهم إله واحد. على أن هذه الوحدة الجوهرية القائمة في الثالوث تتضح من وحدة العمل، فكما أن الابن لا يعمل شيئاً من ذاته، كذلك الروح القدس لا يعمل شيئاً من ذاته، وإنما كل عمل هو من الثالوث: “من الأب بالابن في الروح القدس”.

وأنثاسيوس هو أول مَنْ أوضح هذا التعبير، وقد أخذ عنه القديس كيرلس وجعله أساساً لفهم الثالوث. وقد جاء دفاع القديس أنثاسيوس متفرقاً في مقالاته ضد الأريوسية، ثم مركزاً في أربع رسائل عن “الروح القدس” موجّهة إلى الأسقف سيرابيون، الذي كان قد بعث إليه أثناء نفيه وهروبه في أعماق الصحاري يشكو فيها من قيام هذه الهرطقة القائلة بمخلوقية الروح القدس ويستفسر عن الرد.

وقد كتب أنثاسيوس هذه الرسائل - كما سبق وقلنا - بين سنة 358-361م، وقد خصّ أنثاسيوس كل رسالة بناحية هامة من لاهوت الروح القدس:

ففي الرسالة الأولى: يهتم بلاهوت الروح القدس عامة، مستشهداً بآيات الكتاب المقدس ثم بالوحدة الكائنة بين الأب والابن والروح القدس، وهي الرسالة الهامة التي سنركز عليها.

الرسالتان الثانية والثالثة وفيهما يشدّد على لاهوت الروح القدس على نمط الطريقة التي يبرهن بها على لاهوت الابن.

الرسالة الرابعة: وتتركز في تفسير قول الرب عن التجديف على الروح القدس.

ولكن ماذا كانت الرؤية العامة في الكنيسة وعند آباء ما قبل نيقية عن الروح

(972) tropiko... ومعناها تصوريون Figurists.

ثم كيف سار منهج التعريف بالروح القدس منذ البدء حتى أثناسيوس؟

قبل أن نخوض في هذا الشوط الطويل من الإدراكات والتعبيرات التي صاغت منهج القانوني للتعريف بالروح القدس منذ القديم، يلزم بدء ذي بدء أن نفرّق بين أفراد طبقة المفكرين في الكنيسة الذين حاولوا باجتهاد شخصي وبدون قيادة واضحة من الروح القدس، بل وبدون الاعتماد على التسليم، أن يعرفوا الروح القدس ويصفوه حسب تصوّرهم، سواء بالنسبة للآب أو للابن أو في الثالث. فخرجوا عن التعريف السليم وجنحوا جنوحاً خطيراً عن الحق الواضح في الكتاب المقدّس، بل ومتحدّين معطيات الشرح البسيط الواضح الذي ورثته الكنيسة عن الرسل والآباء والجماعات الملهمين الأوّلين حسب التقليد الذي كان يحسه ويعيشه عامة الشعب بدون أي فحص أو برهان.

فتعاليم إنجيل يوحنا الواضحة جدّاً عن شخصية الروح القدس كانت قوية ومُدركة بالنسبة للإنسان الجديد “مولودين من الماء والروح”، ثم ما جاء في أعمال الرسل عن أعمال ومواهب الروح القدس التي تنطق بشخصية الروح القدس وقيادته بصورة حيّة واقعية وعملية فهو يقود ويُفهم ويتكلّم ويدعو وينتخب ويرسل ويحكم ويمنع ويصرّح ويملأ ويقوّي كإله وكشخص حيّ يتعامل مع الإنسان.

لذلك نجد خطين متوازيين في البحث التاريخي عن منهج التفكير والتقنين في حقيقة الروح القدس:

أولاً: خط الرسل الذي يعطي الإيمان الواضح المحدّد عن شخصية الروح القدس الإله الكامل في الثالث المساوي للآب والابن في المجد والكرامة والعمل، حيث ظلّ هذا الخط هو الذي تعيشه الكنيسة وتمارسه بدون فحص.

وحينما طُلِبَ من الكنيسة رسمياً أن تقول رأيها في الروح القدس في كلّ المواقف الحرجة، قالتها بدون تردّد أو تفكير ولا إلى لحظة واحدة، أنها تعبد إلهاً واحداً في ثلاثة أقانيم: أب وابن وروح قدس في لاهوت واحد.

ثانياً: وأمّا بعض الآباء المتأخرين عن الرسل الذين عثروا في تحديد ماهية الروح القدس، فالسبب الذي صار منفذاً لهؤلاء المفكرين لكي يدخلوا فيه بأفكارهم وتصوراتهم

المنحرفة هو أن الرسل والكنيسة الأولى لم تحدّد العلاقة أو الطبيعة التي تربط الأقانيم الثلاثة معاً، ولم تترك قانوناً محدداً للتعبير عن الإيمان بكل أقنوم على حدة في ما يخص شخصه، لأن مثل هذا التحديد كان غريباً جداً عن تصوّر الكنيسة، فالله واحد والثلاثة أقانيم فيه متساوية والعمل بينهم واحد، كل واحد يعمل بشخصه، والكل يعمل معاً كذات واحدة بأن واحد: «عمّدهم باسم الآب والابن والروح القدس»، فالعماد عمل واحد يتم باسم الله بواسطة الأقانيم الثلاثة كإله واحد، ولكن كل أقنوم بعمله المتميّز كل واحد باسمه.

لذلك حينما نعود إلى المرحلة التاريخية التي عبرها منهج التعريف والتحديد لشخص الروح القدس، لا تكون هذه المراحل للتعبير عن تاريخ مراحل فكر الكنيسة الصحيح البسيط الثابت، بل هي في الواقع دراسة لأفكار أفراد انفرادوا في حوارهم عن تقليد الكنيسة البسيط، فخرجوا أحياناً كثيرة عن تسليم وعيها الإيماني وبدأوا يقررون حسب تصوّرهم ماهية الروح القدس، سواء كانوا من أصحاب البدع اليهودية والغنوسية والوثنية أو من الذين كانوا يدافعون ضدّهم الذين جاءت أقوالهم بمثابة دراسة للردود على هذه الانحرافات، وهم الآباء اللاهوتيون مستقيموا الرأي مثل كليمنس وبابياس وإغناطيوس وإيرينيئوس وكبريانوس وهيبوليتس.

ولذلك نعتبر فكر العلامة هارناك، وهو من مشاهير اللاهوتيين الألمان الذين تعرّضوا لتاريخ الفكر الكنسي في ما يختص بشخص الروح القدس، فكراً خاطئاً إذ تصوّر أن الكنيسة برمتها مع شعبها وقديسيها عبروا هذه المراحل الخاطئة والناقصة في فهم وتقدير ومعايشة الروح القدس (973).

وهذا رأي غير مقبول ولا هو منطقي، فكيف أن الكنيسة الأولى كنيسة الروح القدس والقوة، كنيسة النعمة والكرامة والفم الشاهد بالآلام والقيامة، هذه الكنيسة نفسها كيف نقول إنها كانت تعيش في جهل من الروح القدس لا تعيه ولا تُقيّمه التقييم الصحيح؟

والحقيقة أن خط الكنيسة التي كانت تحيا وتسير بالروح القدس لم يتأثر قط بخط

(973) Adolf Harnack., *Hist. of Dogma: History of The Holy Spirit & of Trinity*, p. 266.

العلماء والحكماء(974) والمفكرين المحاجين، الذين كانوا يعيشون ويتخبّطون في أجواء البدع والوثنية بإحساس المدافعين عن فكرة معيّنة ضد فكرة معيّنة، منفصلين عن واقع الروح القدس الحي القائم والعامل في الكنيسة، الذي يصعب بل ويستحيل حصره في كلمات وجمل يقبلها الهراطقة، دون أن يعيشوا ويحسوا بقوة الروح القدس نفسه، ودون أن يكونوا قد قبلوا المسيح أولاً وولدوا من الماء والروح، لأن كل بحث أو دراسة عن الروح القدس بدون معايشة فعلية تقويّة للروح القدس لا بد وأن تأتي بانحرافات.

لذلك حينما نأتي إلى ما قدّمه القديس أثناسيوس من منهج دراسي لاهوتي مشروح بدقة للروح القدس في منتصف القرن الرابع، لا يمكن أن نعتبر ذلك مرحلة نضوج لفكر الكنيسة، أو أنه كان نهاية لمراحل سابقة من الانحرافات، ولكن الحقيقة وعين الأمر أن أثناسيوس قد استطاع أن يقدّم بتقواه واستنارته الروحية فكراً لاهوتياً مُبرهنًا ودقيقاً لماهية الروح القدس، في منهج مدرسي، جاء مساوياً تماماً وبلا أي زيادة أو نقصان لفكر الرسل والإنجيل البسيط المُعاش والحي عن الروح القدس في جسم الكنيسة ووجدانها منذ أن عرفته الكنيسة حتى إلى ذلك الوقت، وكل ما عمله أثناسيوس هو أنه استقطب كل الهرطقات والانحرافات وفنّدها وشجبها وأنهى عليها إلى الأبد.

(974) [لأن ما سلّم بالإيمان لا ينبغي أن يُقاس بالحكمة البشرية] (أثناسيوس عن الروح القدس الرسالة الأولى فصل 17).

تعاليم العهد القديم من نحو الروح
القدس
التي ورثها الرسل الأوائل

أولاً: من خلال أسفار العهد القديم
العبرية وتعاليم الربيين

- 1 - كان الروح القدس له صفة دامغة فائقة وهي القداسة "الروح القدس".
 - 2 - والصفة الأخرى التي تساويها وتلتزم بها هي "روح الله".
 - 3 - وبالتالي فإن الروح القدس بناء على الصفتين الأوليين أُعطي صفة "الصالح" المطلق، وصفة "الوجود في كل مكان Omnipresence".
- (أ) «روحك القدوس لا تنزعه مني» (مز 11:51) ... صفة القداسة تُمنح للإنسان بسكنى الروح القدس.
- (ب) «وأعطيهم روحك الصالح لتعليمهم» (نح 20:9) ... صفة الصالح:
- (ج) «أين أذهب من روحك، ومن وجهك أين أهرب» (مز 7:139) ... صفة الوجود في كل مكان.
- (د) «وكانت الأرض خربة وخالية ...» «وروح الله» يرف على وجه المياه» (تك 2:1) ... نسبة الروح الخاصة لله.
- (هـ) «روحك الصالح يهديني في أرض مستوية» (مز 10:143) ... صفة الصالح تباشر عملها لهداية الإنسان.
- (و) «وتكلم جميع حكماء القلوب الذين ملأتهم روح حكمة» (خر 3:28) ... الحكمة صفة الروح توهب للإنسان بسكنى الروح.
- (ز) «وحي داود بن يسى الحلو، الرجل القائم في العلا مسيح إله يعقوب ومرثم إسرائيل الحلو روح الرب تكلم بي وكلمته على لساني» (2صم 23: 1و2) ... الروح القدس الناطق في الأنبياء بالإلهام والنبوة.
- والروح القدس في العهد القديم كانت أعماله الواضحة باختصار كالاتي:
أولاً: القوة الفعالة في الأبطال الذين انتخبهم الله للدفاع عن إسرائيل.
ثانياً: كان هو الإلهام الذي يدبر حكام إسرائيل.

ثالثاً: كان ينتقل بمفاعيله وقوته وحكمته من شخص إلى شخص بوضع اليد وبوسائل أخرى.

رابعاً: كان هو إلهام الأنبياء للنطق بكلمة الله.

خامساً: كان هو قوة التقديس وقوة الدينونة في القضاء.

سادساً: كان هو البصيرة الكاشفة لأمر أو آخر الدهور عند بعض الأنبياء.

سابعاً: كانت علامات حضوره تنبئ عن حضور الله شخصياً.

ثامناً: كان عاملاً فعّالاً في الخلق.

تاسعاً: كان تعبيراً عن كيان الله، أي جوهر الوجود الإلهي، على مدى الأسفار.

ومن كل تعاليم الكتاب المقدس في العهد القديم من جهة الطبيعة الأساسية للروح القدس نجدها بلا شك واضحة ومحدّدة ومتفق عليها بالإجماع، أن للروح القدس **جوهرًا إلهيًا**.

ولكن من حيث فرادة شخصيته أو أفتومه، فمن الوجهة العمومية نفهم ذلك أيضاً على وجه القطع والتحديد، ولكن ليس بالوضوح الكافي سواء كان في الأسفار الأولى أو الأخيرة، فالعهد القديم ينسب للروح القدس شخصية مفردة قائمة بذاتها مع الله نفسه حاضرة وفعّالة في العالم أو في الإنسان، أمّا تعاليم المسيح والرسول فبالرغم من نسبة الصفات الشخصية للروح القدس، فإنها تمتد **فتميّز** الروح القدس عن الأب والابن(975).

كما يفهم من أسفار العهد القديم عن الروح القدس أنه هو «**الله الفعّال بالقوة**»، وفي هذا المجال فالروح له شخصية ذات صفات خاصة، كما تنسب إليه أعمال شخصية، فالروح في العهد القديم شخص في نطاق أنه هو الله، وبالإضافة إلى ذلك فإن الروح القدس يظهر بصفات شبه مستقلة أحياناً، التي تقترب من حدود الشخصية المتميّزة، خصوصاً عندما يُذكر في الأسفار «الكلمة» و«الروح» معاً في مقارنة. ولكن هذا التمايز ينطبق فقط على النشاطات الخارجية «الكلمة والروح» كقوتين، ولكن يبقى الكشف عن التمايز بينهما في ذات الوجود في الله إلى عصر متأخر من العهد القديم.

(975) Rev. Henry Barclay Swete, *Dict. of Chr. Biogr.*, p. 114, & in Hasting's: *D. B.*, p. 198.

- + «أرسل نورك وحقك هما يهديانني ويأتيان بي إلى جبل قدسك وإلى مساكنك.» (مز 3:43)
- + «يرسل الله رحمته وحقه.» (مز 3:57)
- + «أين أذهب من روحك ومن وجهك أين أهرب.» (مز 7:139)
- + «تحجب وجهك فترتاع. تنزع أرواحها فتموت. وإلى ترابها تعود. تُرسل روحك فتُخلقُ. وتجدد وجه الأرض.» (مز 104: 29 و30)
- + «أرسل كلمته فشفاهم ...» (مز 20:107)
- + «لم أتكلّم من البدء في الخفاء. منذ وجوده أنا هناك (الكلمة) والآن السيد الرب أرسلني وروحه.» (إش 16:48)
- + «في كل ضيقهم تضايق وملاك حضرته (الكلمة) خلّصهم ... ولكنهم تمرّدوا وأحزنوا روح قدسه.» (إش 63: 9 و10)

ثانياً: من خلال الأسفار القانونية الثانية

Duetero-canonical المدعوة بالأبوكريفا

قدّمت هذه الأسفار فكرة قوية وواضحة عن شخصية الروح القدس معبراً عنه دائماً «بحكمة الله»، مما جعل بعض كُتّاب الكنيسة الأوائل يخلطون بين المسيح «حكمة الله» والروح القدس «حكمة الله»، وحدا ببعضهم إلى القول بأن المسيح هو نفسه الروح القدس قبل تجسّده.

وهذا نشأ أيضاً بسبب عدم وضوح الفارق بين «الروح» و«الكلمة» من جهة الوحي والرؤيا في مواضع كثيرة من العهد القديم ... فنقرأ أن كلمة الله كانت على نبي فتنبأ ... ثم نقرأ بنفس المعنى أن روح الله كان على آخر فتنبأ.

وقد ظل الاعتقاد بأن حلول الكلمة، أي كلمة الله، مساوٍ لحلول الروح القدس على الأشخاص للتنبؤ والوحي، ظل مستمراً في الكنيسة الأولى، حتى أننا نرى في قدّاس سيرابيون، والقديس أثناسيوس نفسه في شرحه للإفخارستيا يقول، عند التحوّل، إن الذي يحل على الخبز فوق المائدة المقدّسة ليحوّله إلى جسد الكلمة هو «الكلمة» ذاته،

ولم يتحدّد القول بحلول الروح القدس إلاّ في أواخر القرن الرابع في سورية (976).
بل ونجد صدى هذا التوازي أو التساوي بين حلول الكلمة وحلول الروح القدس
وعملهما في بعض الرسائل، فنسمع من بطرس الرسول:
+ «مولودين ثانية لا من زرع يفنى بل مما لا يفنى بكلمة الله الحيّة الباقية.»
(1بط 1:23)

كذلك في رسالة يعقوب الرسول:
+ «شاء فولدنا بكلمة الحق لكي نكون باكورة من خلائقه.» (يع 1:18)
ومعروف أن الميلاد الثاني من السماء هو من الماء والروح القدس فالكلمة هنا حلّ
محل الروح القدس.

+ «وكانت كلمة الرب عزيزة في تلك الأيام، لم تكن رؤيا كثيراً.» (1صم 1:3)
+ «فيحل عليك روح الرب فتنبأ معهم وتحوّل إلى رجل آخر.» (1صم 10:6)
+ «وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلاً...» (1صم 15:10)
+ «فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه في وسط إخوته وحل روح الرب على داود
من ذلك اليوم فصاعداً.» (1صم 16:13)
+ «كان كلام الرب إلى ناتان قائلاً...» (2صم 4:7)
+ «روح الرب تكلم بي وكلمته على لساني ... إليّ تكلم صخرة إسرائيل.» (2صم
3:23و2)

+ «ثم صارت كلمة الرب إليّ قائلاً...» (إر 1:11)
+ «الكلمة التي صارت إلى إرميا من قبل الرب قائلاً...» (إر 1:7)
تتلخّص أعمال الروح القدس في الكتب القانونية الثانية بأنه يملأ الكون، ويحب
البشرية، ويعلم ويظهّر أفكار الإنسان وقلبه. انظر: (Sir. I:7; XII:1; I:4, 5, 6;) IX:17 = (سفر يشوع ابن سيراخ).

العصور المتأخّرة من الفكر اليهودي:

وقد مال الفكر اليهودي في أواخر الأيام - طبعاً من جراء بُعده عن الله وتمسّكه
بالعالم والمال والأرض - إلى التقليل من شأن الروح القدس، حتى إذا ما وصلنا إلى

(976) أنظر كتاب: «الإفخارستيا والقداس» للمؤلف صفحة 680.

الصدوقيين في أيام المسيح نجدهم يحذفون أصلاً ومن الأساس كل اعتقاد بوجود الروح «لأن الصدوقيين يقولون إنه ليس قيامة ولا ملاك ولا روح وأمّا الفريسيون فيقرّون بكل ذلك.» (أع 23:8)

وبدخول المسيحية انهار الفكر اليهودي جملة وتفصيلاً من جهة الروح القدس، حتى أننا نجد فيلو الفيلسوف اليهودي الذي أراد أن يحيي التراث الروحي اليهودي يقصر مفهوم الروح على مجرد حكمة الله الموهوبة للحكماء أو مجرد قوة يؤثر بها الله على الموحى إليهم (977). وأصبح هذا المفهوم هو الاعتقاد السائد والثابت في القانون اليهودي.

وقد تسرّب هذا الفكر اليهودي الخاطئ إلى الفكر المسيحي عند بعض المنحرفين حتى أيام غريغوريوس النزينزي فنسمعه يتكلم عن جماعة في أيامه يعتبرون الروح القدس مجرد «قوة TM rgeia» (978).

ثالثاً: بداية العصر المسيحي

يبدأ العصر المسيحي بتقدّم هائل في التعرف على الروح القدس وأعماله؛ حتى أننا نجد الإنجيل يضع الروح القدس في صدر العهد الجديد، فهو أداة التجسّد.

«الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللّك فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يُدعى ابن الله» (لو 1:35)، وهنا تجدر الإشارة بأن الوحي الإلهي يفرّق بين شخص (أقنوم) الروح القدس و«قوة» العلي، إمعاناً في الكشف عن الخطأ السائد في الفكر اليهودي آنذاك أن الروح القدس مجرد قوة.

وفي إنجيل القديس متى، يقول الملاك صراحة ليوسف: «يا يوسف ابن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك لأن الذي حُبِل به فيها هو من الروح القدس» (مت 20:1)، فالروح القدس أداة التجسّد، فالجسد المولود هو بالتالي جسد إلهي، وقول الملاك تعقيباً على أنه مولود من الروح القدس أنه يدعى ابن الله يوضّح ماهية الروح القدس بالنسبة لله.

(977) Philo. *De Gyant*, 5; *De Monarch* 1:9, cited by D.C.B., p. 114.

(978) D.C.B., p. 114; & August., *de Haer.* 1 ii.

وبعد ذلك نجد الروح القدس في حياة المسيح فعلاً سواء في المسحة الأولى على نهر الأردن لبدء الخدمة «كيف مسح الله بالروح القدس والقوة» (أع 10:38)، أو متمماً لكل الأعمال، «إن كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله.» (مت 28:12)

وتجدر الإشارة هنا أن المسيح باعتباره التجديف على الروح القدس خطية عظمية لا تُغفر، يشير بوضوح وتحديد أن الروح القدس «شخص» له هيئته وكرامته الإلهية. ثم نجد كيف يبني المسيح كنيسته على أساس أنها خلقة جديدة بالروح القدس بالولادة من فوق من الروح القدس والماء، وأنها تعيش وتعمل في العالم بقوة الروح القدس:

ففي تعاليم المسيح يركّز على الروح القدس (يو 3:1-8) باعتباره واسطة دخول ملكوت الله، وباعتباره القياس الوحيد للعبادة بالسجود «بالروح» والحق، وأنه المصدر الوحيد لإرتواء الإنسان لكي لا يعطش إلى تراب الأرض بل يصير في الإنسان ينبوع حياة أبدية! وأن قبول الروح القدس بهذا الوصف يتوقّف على الإيمان بالمسيح أولاً «مَنْ آمَن بي تجري من بطنه أنهار ماء حي، قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه، لأن الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد، لأن يسوع لم يكن قد مُجّد بعد (الصليب)» (يو 7: 38 و39)، وأنه هو الباراكليت أي المعزّي والشفيع للإنسان (يو 14:16).

وأن الروح القدس في التلاميذ وفي أولاد الله سيبكّت العالم، أي يقف فينا ضد قوى الشر مؤازراً لنا ومحامياً عنّا (يو 16: 7-11).

وأنه مصدر قوة البشارة، فمتى حلّ على المختارين ينالون في الحال قوة من الأعالى للشهادة (أع 1:8).

رابعاً: عصر الرسل

1 - إعلان الروح القدس عن نفسه عملياً للرسل.

2 - استعلان الرسل للروح القدس لاهوتياً.

تمتلى صفحات أعمال الرسل والرسائل بالإشارات القوية جداً والواضحة غاية

الوضوح عن شخصية الروح القدس وفاعليته، سواء من الوجهة العقائدية الوصفية لشخصه أو الوجهة العملية لعمله، وأصبح هذا كله تراث الكنيسة الذي يبني عقيدتها في الروح القدس:

1 - إعلان الروح القدس عن نفسه عملياً للرسل أعمال الرسل

يبتدئ سفر الأعمال بوضع الروح القدس موضعه الجديد وتحديد عمله الشخصي في الكنيسة عوض المسيح تماماً «وأنا أطلب من الآب فيعطيك معزياً آخر ليملك معكم إلى الأبد» (يو 14:16)، هذا المعزي لا يقول ولا يعمل ولا يرشد إلا بما هو من المسيح ولأجل المسيح فهو «لا يتكلم من ذاته بل يأخذ مما لي ويخبركم». فسفر الأعمال يقدم الروح القدس لاستمرار عمل المسيح في الكنيسة وبدونه يستحيل على الكنيسة أن تتكلم أو تتحرك أو تعلن المسيح: «لا يبرحوا من أورشليم، بل ينتظروا موعد الآب الذي سمعتموه مني ... لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم، وتكونون لي شهوداً في أورشليم وفي كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض.» (أع 1: 4-8)

المسيح سيبقى في السماء ولكن الروح القدس سيدوم في الكنيسة على الأرض إلى حين انتهاء هذا الدهر والمجيء الثاني للمسيح: «ويُرسل يسوع المسيح المُبشِّرَ به لكم قبل الذي ينبغي أن السماء تقبله، إلى أزمنة رد كل شيء (تكميل) التي تكلم عنها الله بفتح جميع أنبيائه القديسين منذ الدهر» (أع 3: 20 و21). فالروح القدس هو في الحقيقة شخص الاتصال الدائم والحي والفعال بين المؤمنين وبين المسيح، فإذا كان المسيح واضحاً في القلب وكانت علاقة المؤمن بالمسيح صادقة وقوية وحيّة وفعالة كانت هذه علامة على وجود وعمل الروح القدس فيه.

فالروح القدس يعمل الآن عمل المسيح ويكمّله فينا أي يمنحنا الخلاص والفداء الذي أكمله المسيح من أجلنا، يهبه لنا ويثبتنا فيه.

والروح القدس نفسه يصفه بولس الرسول من جهة هذا بأنه «روح المسيح» إمعاناً في التأكيد أنه يملك كل ما للمسيح ويدرك كل ما للمسيح، وقادر أن يعطينا كل ما

للمسيح وما عمله المسيح، لذلك فبدون الروح القدس يستحيل الإيمان بالمسيح ولا معرفة أسرار المسيح ولا نوال قوة الخلاص والفداء اللذين أكملهما المسيح لنا.

بل إن بولس الرسول يقول في ذلك باختصار: «أما أنتم فلستم في الجسد بل في الروح إن كان روح الله ساكناً فيكم، ولكن إن كان أحد ليس له روح المسيح فذلك (أي المسيح) ليس له.» (رو 9:8)

- (أع 2:1-11 و16-18): هبوب الريح العاصف وألسنة النار الحائلة على رؤوس التلاميذ والتي رافقت أول حلول للروح القدس على الكنيسة هي نفس علامات ظهور الحضرة الإلهية على جبل سيناء (979)؛ ثم موهبة النطق بلغات جديدة التي أعطاها الروح القدس للتلاميذ هي نفس عطية الله قديماً للأنبياء أن ينطقوا بكلمات الله والتنبؤ، وإن كان بلغة العبرانيين، ولكن كانت لغة رصينة وبعضها كان بالشعر الموزون مع أن الأنبياء كان منهم الأميون.

وهكذا كان الوعد الذي قيل بيوئيل النبي أن يكون حلول الروح القدس على الجميع "على كل بشر"، وإعطاء موهبة التنبؤ والآيات والرؤى والأحلام للبنين والبنات والشباب والشيوخ والعبيد والإماء، كل من يدعو الرب ويتوب ويعتمد باسم يسوع المسيح لغفران الخطايا، فإنه يقبل العطية ذاتها لأن الموعد القدوس للجميع للقريين والبعيدين، أي لكل الأجيال الآتية بدون تفريق زمني.

- (أع 4:31): «ولمّا صلّوا تزعزع المكان الذي كانوا مجتمعين فيه وامتلاً الجميع من الروح القدس وكانوا يتكلّمون بكلام الله بكلّ مجاهرة».

هنا تزعزع المكان يذكّرنا بزعزعة جبل سيناء علامة أكيدة على الحضرة الإلهية، ثم المجاهرة العلنية بالبشارة، والشهادة للمسيح هي القوة الموعود بها من الأعلى، تتم للمرة الثانية.

- (أع 4:33): «بقوة عظيمة كان الرسل يؤدّون الشهادة بقيامة الرب يسوع ونعمة عظيمة كانت على جميعهم».

(979) انظر كتاب العنصرة للأب متى المسكين صفحة 9 و10.

هذه القوة تنتظر الكنيسة في كل أزمة الضيق، ولقد عاشها أثناسيوس وأثبت صدق الوعد، بل أثبت قوة الروح القدس التي فيه وفي الكنيسة.

- (أع 5:9و4): «أنت لم تكذب على الناس بل على الله»، «ما بالكما اتفقتما على تجربة روح الرب».

يُلاحظ هنا في كلام بطرس الرسول لحنانيا أنه اعتبره قد كذب على الله، وفي مواجهة سفيرة امرأته كرّر اللوم، أنهما يجربان أو يكذبان على «روح الرب»، وهنا يكشف الوحي على فم بطرس عقيدة الكنيسة من جهة الروح القدس أنه هو الله من جهة الكيان أي الجوهر الواحد.

وكان عقاب الكذب على الروح القدس هو أنهما وقعا وماتا في الحال، وهذا يكشف عن عقيدة الكنيسة بالنسبة لخطورة عمل الروح القدس التأديبي، فما تمّ لحنانيا وسفيرة بالجسد جهاراً يتم بالروح سرّاً للذين يستهينون بسلطان إشراف الروح القدس على تدبير الكنيسة حتى في الأمور المالية.

ثم إن موت أريوس فجأة قبل دخوله الكنيسة للصلاة هو مطابقة عملية لقصة حنانيا وسفيرة.

- (أع 5:32): «ونحن شهود له بهذه الأمور والروح القدس أيضاً الذي أعطاه الله للذين يطيعونه».

هنا يوضح الرسل شخصية الروح القدس، التي يحسون بوجودها معهم، قائمة بذاتها حتى أنهم يستطيعون أن يميّزوا بين شهادتهم وشهادة الروح القدس داخلهم بالرغم من أنها تخرج من أفواههم شهادة واحدة، غير أن شهادة الروح القدس تميّزها بالإضافة قوة خاصة داخلهم وإجراء معجزات علنية بواسطتهم.

- (أع 6:10): «ولم يقدرُوا أن يقاوموا الحكمة والروح الذي كان يتكلم به».

ارتباط الحكمة مع الروح القدس الذي اختبرته الكنيسة في الشهيد استفانوس صار تطبيقاً عملياً للتقليد القديم أن الروح القدس «روح حكمة» لتدبير الكنيسة، ولا يمكن فصل الروح القدس عن الحكمة.

- (أع 7:51): «يا قساة الرقاب وغير المختونين بالقلوب والأذان، أنتم دائماً

تقاومون الروح القدس كما كان آباؤكم كذلك أنتم...»

قساة الرقاب يعني بها عدم الطاعة لله، عدم ختانة القلب يعني بها الشر والنجاسة المبيّت عليهما داخل الضمير، وعدم ختانة الأذان يعني بها عدم القدرة على سماع صوت الله ومقاومة الكلمة، مقاومة الروح القدس يعني بها مقاومة الشهادة للمسيح والحق.

- (أع 17:15): «الذين لمّا نزلوا صلياً لأجلهم لكي يقبلوا الروح القدس لأنه لم يكن قد حلّ على أحد منهم غير أنهم كانوا معتمدين باسم الرب يسوع، حينئذ وضع الأيدي عليهم فقبلوا الروح القدس».

صار هذا في عمق خبرة الكنيسة وتراثها أن الروح القدس يحل مع المعمودية بواسطة وضع الأيدي، الذي تسميه الكنيسة الآن بمسحة الميرون، ووضع يد الأسقف أو الكاهن، حيث يتحنّن الصلاة من أجل قبول الروح القدس.

وفي تسجيلات أعمال الرسل ربما يحل الروح القدس بعلاماته وقوته قبل المعمودية فتتم المعمودية بناء على حلوله، وذلك تشجيعاً لدخول الأمم أو تشجيعاً للتلاميذ لقبول بولس شاوول مضطهد الكنيسة المرعب، كما حدث لبولس الرسول (أع 9: 17 و18)، وكما حدث لكرنيليوس الأممي وأهل بيته الذين تكلموا بالأسنة قبل المعمودية (أع 10: 44-48).

ولكن معمودية الروح القدس ومواهبه لا تُغني عن معمودية الماء، بل في هذه الأمثلة الاستثنائية كانت معمودية الروح القدس مؤهلاً قوياً لإجراء معمودية الماء بدون خوف.

وقد فسّر بطرس الرسول حلول الروح القدس على كرنيليوس وأهل بيته وموهبة التكلم بالأسنة التي نطقوا بها قبل معمودية الماء بأنها معمودية الروح القدس المباشرة بدون واسطة:

+ «فلما ابتدأت أتكلّم حلّ الروح القدس عليهم كما علينا أيضاً في البداية، فتذكّرت كلام الرب كيف قال إن يوحنا عمّد بماء وأمّا أنتم فستعمّدون بالروح القدس.»
(أع 11: 15 و16)

ويلاحظ كلمة الرب التي يذكرها هنا بطرس الرسول «ستعمّدون بالروح القدس»

حيث ستعمدون مبني للمجهول أي المعمودية تتم بواسطة آخر غير الرسل وغير الإنسان عموماً، وهنا يذكر الرب ويتذكر بطرس قول الرب أن الشخص الذي سيعمّد هو الروح القدس نفسه أو الله، أي أن المعمودية ستتم بواسطة الله بالامتلاء من الروح القدس، ولكن يتحتم تكميل المعمودية بالماء. كما يُلاحظ أن بحلول الروح القدس كانوا ينطقون بالسنة جديدة تأكيداً أنه هو الروح القدس الناطق في الأنبياء وهذا كشف واضح لشخصيته الإلهية.

- (أع 11:27 و28): «وفي تلك الأيام انحدر أنبياء من أورشليم إلى أنطاكية وقام واحد منهم اسمه أغابوس وأشار بالروح أن جوعاً عظيماً كان عتيداً أن يصير على جميع المسكونة».

هنا استمرار لعمل الروح القدس الأول منذ القديم أنه ناطق بالنبوة في الأنبياء، حيث لا الأنبياء ولا النبوة انقطعت بمجيء المسيح وحلول الروح القدس، بل امتدت لتشمل الأمور السماوية المزمعة وحياة الدهر الآتي، أي البشارة بملكوت السموات والحياة الأبدية، لتصير هي اللون الطاعي لعمل الروح القدس بالنبوة في العهد الجديد.

- (أع 13:2-4): «وبينما هم يخدمون الرب ويصومون، قال الروح القدس افرزوا لي برنابا وشاول للعمل الذي دعوتهما إليه ... فهذان إذ أرسلنا من الروح القدس انحدرنا إلى سلوكية ...»

الروح القدس يقتحم الخدمة ويتجلى هنا كمدبر للخدمة، والداعي للخدام، والمرسل للخدام بصورة شخصية واضحة منقطعة النظير، إنما في إطار من الصوم والصلاة والاجتهاد في الخدمة.

وهكذا يتضح أن الروح القدس صار هو قائد الخدمة، أي البشارة بالمسيح، ومدبرها والمتولي شؤونها في الكنيسة.

- (أع 13:9-11): «وأما شاول الذي هو بولس أيضاً فامتلاً من الروح القدس وشخص إليه (إلى عليم الساحر) وقال: أيها الممتلى كل غش وكل خبث، يا ابن إبليس، يا عدو كل بر، ألا تزال تُفسد سبل الله المستقيمة؟ فالآن هوذا يد الله عليك فتكون أعمى لا

تُبصر الشمس إلى حين. ففي الحال سقط عليه ضباب وظلمة
فجعل يدور ملتمساً مَنْ يقوده بيده».

هنا الروح القدس يقتحم الموقف، ويتجلى في الخدّام والخدمة كحارس للإيمان
وصحة العقيدة، مؤدّب بقسوة كل محاولة لإفساد طريق المسيح، إنما ببرهان ومعجزة
وليس بمجرد سطوة الإنسان.

- (أع 8: 18-23): «ولمّا رأى سيمون أنه بوضع أيدي الرسل يُعطى الروح
القدس، قدّم لهما دراهم قائلاً: أعطيانى أنا أيضاً هذا
السلطان حتى أي مَنْ وضعت عليه يديّ يقبل الروح القدس.
فقال له بطرس لتكن فضتك معك للهلاك لأنك ظننت أن
تقتني موهبة الله بدراهم. ليس لك نصيب ولا قرعة في هذا
الأمر. لأن قلبك ليس مستقيماً أمام الله. فثب من شرك هذا
واطلب إلى الله عسى أن يُغفر لك فكر قلبك. لأنني أراك في
مرارة المر ورباط الظلم».

وهذه الحادثة قد رسخت في عمق أعماق اللاشعور بل والشعور أيضاً في الكنيسة
كلها وعلى مدى كل العصور، وأسّمت هذه المصيبة العظيمة أي شراء المواهب
بدراهم "بالسيمونية". وهكذا وضع الروح القدس في قانون الكنيسة لوضع اليد
بالمال أو بالطرق الأخرى الملتوية لنوال الأسرار الكنسية المختلفة، تحذيراً لا يمحي
وسابقة خطيرة أسماها بطرس الرسول: «مرارة المر ورباط الظلم».

- (أع 13: 52): «وأما التلاميذ فكانوا يمثلون من الفرح والروح القدس».

علامة مميزة لم تفارق خدّام المسيح الأتقياء المملوئين من الروح القدس حتى وفي
أشدّ الأحزان والأهوال والضيقات، وهذه العلامة هي الملء من الفرح مع الملء من
الروح القدس، فيستحيل أن يحل الروح القدس في الخدّام الأمناء إلاّ ومعه الفرح.

- (أع 15: 28 و29): «لأنه قد رأى الروح القدس ونحن أن لا نضع عليكم ثقلاً
أكثر غير هذه الأشياء الواجبة أن تمتنعوا عمّا ذُبح للأصنام
وعن الدم والمخنوق والزنا...».

هنا يقف الروح القدس بشخصه محسوساً على رأس مجمع التلاميذ، كمقرّر

أعلى لقانون السلوك المسيحي للأُمم الداخلين في الإيمان، ويبرز الرسل شخصية الروح القدس كما أحسوه كمن يرى ويسمع ويتكلم ويقرّر بمسئولية القاضي والمشرّع للكنيسة الجديدة.

- (أع 16:7و6): «وبعدما اجتازوا في فريجية وكورة غلاطية منعهم الروح القدس أن يتكلموا بالكلمة في أسيا، فلما أتوا إلى ميسيا حاولوا أن يذهبوا إلى بيثينية فلم يدعهم الروح».

هنا المنع بلغ حد الحصار إمعاناً في ظهور تدخّل الروح القدس السافر كمقتحم خطة الخدمة بأكملها.

هنا يبرز الروح القدس بصورة قائد ومشرف أعلى يعطي السماح للخدّام بالكلام أو يمنعه، ويعطي التصريح للخدّام بالمسير أو يمنعه، شيء مذهل للعقل، فالروح القدس يضطلع بمهمة لا ترقى إلى العقل البشري، لأنه إذ يرى الحوادث المستقبلية ويكشف المخبأ في الطريق، يتصدّر مسيرة الخدّام كقائد لا مثيل له في البشر، مكملاً عجز الإنسان وفقدانه رؤيته البعيدة، ليحفظ الخدّام والخدمة من المهالك، ويمنع الخدّام عن الكلام في غير زمانه أو مكانه حتى لا تُلام الخدمة أو تُحتقر.

وكل المطلوب من الخدّام إنما هو شدة الحساسية لطاعة صوته أولاً بأول، وهذه إحدى خصائص الممثلين من الروح القدس المعيّنين من الروح وبالروح للخدمة، إذ يكونون محمولين بالروح دائماً يسيرون ويقفون، يتكلمون ويصمتون، بتدبير النعمة.

- (أع 16:9و10): «وظهرت لبولس رؤيا في الليل رجل مكدوني قائم يطلب إليه ويقول اعبر إلى مكدونية وأعنا. فلما رأى الرؤيا للوقت طلبنا أن نخرج إلى مكدونية متحقّقين أن الرب قد دعانا لنبشّرهم».

كلمة: «متحقّقين» تكشف عن تدخّل قوي للروح القدس.

الروح القدس يتحوّل سريعاً من قائد يحرك قافلة الخدمة علناً في الصحو بروح النبوة الناطق في التلاميذ، إلى قائد يحركها بالرؤيا في الليل أثناء النوم؛ فطرق قيادة الروح القدس لا يمكن حصرها وهو الذي يختار الأنسب بالنسبة للزمان والمكان وحالة الإنسان نفسه، وهكذا انتقلت الرؤيا من العهد القديم إلى العهد الجديد كإحدى وسائل التوجيه والإرشاد للروح القدس.

- (أع 20:22 و23): «والآن ها أنا أذهب إلى أورشليم مقيداً بالروح لا أعلم ماذا يصادفني هناك، غير أن الروح القدس يشهد في كل مدينة قائلاً إن وثقاً وشدائد تنتظرني».

الروح القدس يقيد الخادم كما تُفيد الذبيحة ويسوقه إلى إكليل آلامه بحسب الخطة التي يرسمها لمجد المسيح والكنيسة؛ هكذا اقتيد المسيح بالروح بعد الملء والمسحة على الأردن ليُجرَّب وحيداً على الجبل من إبليس، وهكذا يُجرَّب خدام المسيح لغاية وحيدة «رئيس هذا العالم يأتي ولكن ليس له في شيء»، أي لتتجلى حياة الخادم أنها بلا لوم ولا شكوى أمام الله - هنا يبرز الروح القدس كشخص يقتاد بولس بالقوة.

- (أع 20:28): «احترزوا إذاً لأنفسكم ولجميع الرعية التي أقامكم الروح القدس فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه».

بهذا القول صار راسخاً في إيمان الكنيسة أن الروح القدس هو الذي يقيم الأسقف وإلاً فقيامه باطلاً، والروح القدس يقيم الأسقف ليرعى "كنيسة الله" وليس كنيسة الأسقف، والله الذي اقتنى لنفسه الكنيسة واشترى رعيته بدمه المسفوك على الصليب يغير عليها جداً، على أسقفها وعلى رعيته معاً كما يغير على دمه لأنه يثمنها بدمه أي بحياته.

الروح القدس تسجل في القانون الكنسي بحسب منطوق طقس الرسامة أنه هو المدير للنظام الكنسي يختار أعضائه ويقودهم باعتبار أن الكنيسة أسقفاً ورعيةً هي كنيسة الله المقتناة بالدم الإلهي.

وبولس الرسول يحذر الأساقفة أن يحترزوا، أي يخافوا ويرتعبوا، لأنفسهم لنألاً يزدروا بالدم الإلهي ويحسبوا مقاومين للروح القدس إذا ازدروا أو أهملوا واجبات قداسة أنفسهم أو أهملوا واجبات الرعية من جهة التعليم ومعاوضة الضعفاء؛ أو ذهبوا وراء شهوة الذهب والفضة ويذكرهم بقانون المسيح: «لأنه قال مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ»، ونجد كل هذا في الوصايا التي تُتلى على الأسقف عند الرسامة.

- (أع 21: 10 و11): «... نبي اسمه أغابوس، فجاء إلينا وأخذ منطقة بولس وربط يدي نفسه ورجليه وقال: هذا يقوله الروح القدس الرجل الذي له هذه المنطقة هكذا سيربطه اليهود في

أورشليم ويسلمونه إلى أيدي الأمم».

بنفس طريقة العهد القديم في التنبؤ بالحوادث الآتية التي تخص الكنيسة، كان الروح القدس يعمل باهتمام شديد وبلا هوادة لكي يعلن أن كل شيء في الكنيسة مكشوف وعريان أمام عيني الله، وأن كل الكنيسة وخدامها الأمناء إنما يسرون طبق خطة إلهية سبق فعيّتها لتكون مشابهين صورة ابنه. فبولس الرسول يجوز نفس ما جازه المسيح نفسه سواء من جهة التنبؤ بما سيحدث في أورشليم وربما بنفس الكلمات أو في ما تمّ بالفعل. وصار هذا جزءاً هاماً في تراث الكنيسة ووعيتها، فالشهيد أعلى رتبة من القديس.

- (أع 25:28): «حسناً كَلَّمَ الروح القدس آباءنا بإشعياء النبي».

هنا اعتقاد الكنيسة الراسخ منذ عهد الرسل حتى اليوم أن كل الأنبياء في القديم إنما كتبوا ونطقوا مسوقين من الروح القدس، فالروح القدس كان يمهد للخلاص والفداء الذي بدأ يبني عليه كنيسة المسيح في العهد الجديد.



2 - استعلان الرسل للروح القدس لاهوتياً

في الرسائل

(أ) - الروح محيي:

- (رو 1:3 و4): «عن ابنه الذي صار من نسل داود من جهة الجسد، وتعيّن ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات».

هنا يضع بولس الرسول "الروح القدس" الذي في المسيح والعامل فينا بالقوة التي استُعلنت في ذروتها بإقامة يسوع المسيح من الأموات، مقابل الجسد الذي صار للمسيح والذي أخذه من نسل داود. "فالروح القدس" الذي استُعلن بقوة في المسيح بالقيامة من الأموات، هو استعلان للاهوت المسيح، تماماً كاستعلان تجسّده من العذراء من نسل داود.

فإن كان قد تعيّن ابن داود بتجسّده من نسل داود فهو تعيّن ابناً لله بقيامته من الأموات بقوة الروح القدس الذي فيه. وسيان أن نقرأ أن الله أقامه «الله الآب الذي أقامه من الأموات» (غل 1:1)، أو أن قيامته كانت بقوة من جهة روح القداسة، أو أنه قام بذاته «لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها»؛ فالقيامة هنا هي إعلان مباشر عن لاهوته، ولاهوت المسيح هو واحد فيه وفي الآب وفي الروح القدس.

وفي موضع آخر يقول بولس الرسول مشيراً إلى الاتحاد والتساوي القائم بين المسيح وبين الروح القدس عند تقديم ذبيحته إلى الله أبيه هكذا: «فكم بالحري يكون دم المسيح الذي بروح أزلي، قدّم نفسه لله بلا عيب يُطهّر ضمائرهم من أعمال مينة لتخدموا الله الحي.» (عب 9:14)

هنا المسيح كرئيس كهنة يتقدّم حاملاً دمه بالروح القدس الأزلي إلى الله أبيه لتطهير وتقديس شعبه.

وهنا "دم المسيح بالروح القدس" عامل تطهير وتقديس واحد لا ينفصل، ويعمل لتوصيل الحياة الأزلية التي فيه (بروح أزلي) إلى الذين يؤمنون به.

- (رو 8:9): «وأما أنتم فلستم في الجسد بل في الروح، إن كان روح الله ساكناً فيكم. ولكن إن كان أحدٌ ليس له روح المسيح (روح أزلي) فذلك ليس له».

- (رو 8:11): «وإن كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكناً فيكم فالذي أقام المسيح من الأموات سيحيي أجسادكم المائتة أيضاً بروحه الساكن فيكم».

هنا ينتقل بولس إلى الإيمان بأن الروح القدس الذي أقام المسيح من الأموات إذا سكن فينا فنحن نصير أحياء "في المسيح" بالروح، ونكون من خاصته، وأنا حتماً سنقوم من الأموات، بل والآن نحسب أننا أموات بالجسد وأحياء بالروح بسبب بر المسيح الذي يُحسب لنا من الآن.

وهكذا يؤمن بولس الرسول، وكل الكنيسة معه، أن المسيح الذي قام من الأموات يكون حاضراً فينا إذا سكن الروح القدس فينا الذي هو أيضاً روح المسيح، فنحن نعيش الآن قيامة المسيح بالروح القدس أفراداً وكنيسة، وهذا هو اتحادنا، وهذا عين ما يقوله بطرس الرسول أيضاً:

+ «مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي حسب رحمته الكثيرة ولدنا ثانية لرجاء حي بقيامة يسوع المسيح من الأموات.» (1بط 1:3)

فقيامتنا من الأموات مع المسيح التي ننالها بسكنى الروح القدس تجعلنا شركاء الآن في حياته، أي شركاء في مجده وفي بنوته للآب بالتبني كهبة، لأننا نصير بواسطة الروح القدس متحدين به كأعضاء في جسده وهو كالرأس لنا، فلا نعود نحيا نحن بل المسيح يحيا فينا بالروح القدس.

(ب) الروح القدس يلد (يخلق ثانية) الإنسان ويتبناه لله:

- (رو 8:14-17): «لأن كل الذين ينفادون بروح الله، فأولئك هم أبناء الله. إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف، بل أخذتم روح التبني الذي به نصرح: يا آبا الآب! الروح نفسه أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله. فإن كنا أولاداً فإننا ورثة أيضاً، وورثة الله ووارثون مع المسيح. إن كنا نتألم معه لكي نتمجد أيضاً معه».

هنا الاتحاد بالمسيح نشأ من سكنى الروح القدس ونوال حالة القيامة من الأموات، والاتحاد مع المسيح في قيامته يصوره بولس الرسول أنه أنشأ حالة تبني لله أيضاً،

لأن هبة القيامة من الأموات تعني حالة مصالحة مع الله الأب أي انتقالاً من عبودية إلى بنوة. ليلاحظ القارئ الربط الذي يهدف إليه بولس الرسول وكأنما يقول بولس: «لأن الروح القدس هو الذي أقام يسوع المسيح من الأموات وبالقيامة من الأموات تعين في الحال أن المسيح هو ابن الله أي تبرهن لاهوته».

كذلك فإنه بسكنى الروح القدس فينا ننال حتماً القيامة من الأموات مع المسيح، أي الحياة الأبدية، ونحسب في الحال أننا أبناء مع المسيح ولكن بالتبني، أي أننا نصير بالنعمة شركاء الطبيعة الإلهية، وهذا ما يسميه الآباء «بالتأله»، وفي هذا قال المسيح إن الروح القدس يلدنا لله: «إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله» (يو 3:5). وبولس الرسول ينتقل من الميلاد إلى المسير فيؤكد أن: «المنقادون بروح الله أولئك هم أبناء الله.» (رو 8:14)

+ «ثم بما أنكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً: يا أبأ الأب. إذا لست بعد عبداً بل ابناً. وإن كنت ابناً فوارثاً لله بالمسيح.» (غل 4: 6 و7)

(ج) الروح القدس يحررنا ويتدرج بنا في الكمال المسيحي بالاستنارة:

- (2كو 3:17 و18): «وأما الرب فهو الروح وحيث روح الرب فهناك حرية، ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف (بدون برقع الناموس) كما في مرآة نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح».

هنا يقارن الرسول بولس بين عمل الناموس وعمل الروح القدس في الإنسان، فالناموس أسماء خدمة الموت، وخدمة الدينونة، خدمة الحرف، والحرف يقتل، خدمة الزائل.

والروح القدس أسماء خدمة المجد بالأولى، وخدمة البر في مجد، خدمة الروح القدس، والروح يحيي، وخدمة الدائم.

فإن كان وجه موسى لمع من جراء خدمة الناموس لدرجة أن الشعب طالبه بوضع برقع حتى ينظروا إلى وجهه، فإن قلوبنا يشرق فيها الروح القدس لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع (2كو 4:6)

وإن كان شعب إسرائيل لم يستطع النظر إلى وجه موسى الزائل بسبب لمعانه من

جراء خدمة الناموس فنحن ننظر مجد الرب بوجه مكشوف (بدون برقع) كما في مرآة وتغيّر إلى تلك الصورة عينها (أي وجه المسيح) من مجد إلى مجد كما من الرب الروح (أي بالروح القدس الساكن فينا). وأنا غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرى (وجه موسى) بل إلى التي لا تُرى (وجه المسيح)، لأن التي تُرى وقتية (زائلة) وأمّا التي لا تُرى فأبدية (2كو 4:18).

وكما أن موسى كان عليه أن ينزع البرقع حينما يدخل لمقابلة الرب للتكلّم معه (خر 34:34)، كذلك الآن يسقط البرقع من قلوبنا أي الناموس والحرف عندما يشرق الروح القدس فينا باستنارة معرفة مجد الله الذي في وجه يسوع فنتخاطب معه كبنين «يا أبا الآب».

نلاحظ هنا أن بولس الرسول يسمّى الرب الذي كان موسى يدخل ويتكلّم معه بالروح القدس «وأما الرب فهو الروح»، وأنه الآن يعمل ويشرق في قلوبنا لحساب المسيح، وبالتالي لحساب الله الآب: [لإنارة معرفة «مجد الله» في «وجه يسوع المسيح»].

(د) الروح القدس يوحد المؤمنين في جسد المسيح فيصيروا

جميعاً أعضاء فيه كنيسة واحدة بالروح القدس:

- (1كو 12:13): «لأننا جميعاً بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد ... وجميعنا سقينا روحاً واحداً».

- (1كو 12:26): «فإن كان عضو واحد يتألم فجميع الأعضاء تتألم معه وإن كان عضو واحد يكرّم فجميع الأعضاء تفرح معه».

- (1كو 12:27): «وأما أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفراداً».

كيفية جمع الأعضاء وجوهر هذا الجسد الواحد:

+ «صعد أيضاً فوق جميع السماوات، لكي يملأ الكلّ. وهو أعطى البعض أن يكونوا رؤساء، والبعض أنبياء، والبعض مبشرين، والبعض رعاةً ومعلمين، لأجل تكميل القديسين، لعمل الخدمة، لبنيان جسد المسيح، إلى أن ننتهي جميعنا إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله. إلى إنسانٍ كاملٍ. إلى قياس قامة ملء المسيح.» (أف 4:4)

تأمين وحدة الجسد:

+ «كي لا نكون في ما بعد أطفالاً مضطربين ومحمولين بكل ربح تعليم بحيلة الناس بمكر إلى مكيدة الضلال، بل صادقين في المحبة ننمو في كل شيء إلى ذلك الذي هو الرأس المسيح، الذي منه كل الجسد مركباً معاً ومقترناً بمؤازرة كل مفصل حسب عمل (يعمل) على قياس كل جزء يُحصَل نمو الجسد لبنياته في المحبة.» (أف 4: 14-16)

هنا الروح القدس يوظّف المواهب في الأفراد لحساب ربط الأعضاء وعملها وبنيتها لتكوين وحدة روحية عضوية للكنيسة كاملة في الإيمان والحب تنمو وتتحرّك وفق مشيئة الرأس المسيح!

تأمين عمل الروح القدس:

+ «وتجددوا بروح ذهنكم وتلبسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق ... لأننا بعضنا أعضاء البعض. اغضبوا ولا تخطئوا ... ولا تحزنوا روح الله القدوس الذي خُتم ليوم الفداء.» (أف 4: 23-25 و30)

تزييف عمل الروح القدس بالوحدة والفرح على أساس الخمر:

+ «ولا تسكروا بالخمر الذي فيه الخلاعة، بل امتلئوا بالروح. مكلّمين بعضكم بعضاً بعضاً بمزامير وتسابيح وأغاني روحية، مترنمين ومرتلين في قلوبكم للرب. شاكرين كل حين على كل شيء في اسم ربنا يسوع المسيح، لله والآب. خاضعين لبعضكم لبعض في خوف الله» (أف 5: 18-21) حيث مخافة الله هنا هي خاصية الوحدة كدليل على وجود الروح القدس.

- (أف 2: 16 و18-22): «ويُصالح الاثنيْن في جسدٍ واحدٍ مع الله بالصليب، قاتلاً العداوة به ... لأن به لنا كليناً قدوماً في روحٍ واحدٍ إلى الآب. فلستم إذًا بعد غرباء ونزلاً، بل رعيّة مع القديسين وأهل بيت الله، مبنين على أساس الرسل والأنبياء، ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية، الذي فيه كل البناء مركباً معاً، ينمو هيكلًا مقدّساً في الرب. الذي فيه أنتم أيضاً مبنون معاً، مسكنًا لله في الروح.»

- (أف 4: 3 و4): «مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح برباط السلام. جسّد

واحدٌ، وروحٌ واحدٌ، كما دعيتم أيضاً في رجاءِ دعوتكم الواحدِ».

- (1بط 2:5): «كونوا أنتم أيضاً مبنيين - كحجارةٍ حيّةٍ - بيتاً روحياً، كهنوتاً مقدّساً، لتقديم ذبائحٍ روحيةٍ مقبولةٍ عند الله بيسوع المسيح».

- (1كو 3:16 و17): «أما تعلمون أنكم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم. إن كان أحد يُفسد هيكل الله فسيفسده الله لأن هيكل الله مقدّس الذي أنتم هو».

هذه العقيدة صارت هي الأساس في مفهوم قداسة الكنيسة وهيبتها، وهي السر في أن أبواب الجحيم لن تقوى عليها، لأنها «جسد المسيح السري»، والروح القدس هو الذي يملأها ويجمع ويوحّد الأعضاء فيها ويضمهم إلى شركة القديسين المعترين «أهل بيت الله».

فالروح القدس بعد أن يوحدّ المؤمن في جسد المسيح يوحدّ المؤمنين معاً في هذا الجسد الواحد مع جميع القديسين، فالروح القدس يهب المؤمن شخصيته المسيحية ثم يعود الروح القدس ويهب الكنيسة شخصيتها الإلهية وأخلاقيتها.

(هـ) الروح القدس يوزّع المواهب على المؤمنين باعتبارهم أعضاء في جسد واحد، لتصير المواهب جميعاً لخدمة الجسد الواحد (الكنيسة) بمشيئة الروح القدس الواحد، أي لمجد المسيح! «ذاك يمجدني»:

- (1كو 4:12): «فأنواع مواهب موجودة، ولكن الروح واحد».

- (1كو 12:7-13): «ولكنه لكل واحدٍ يُعطى إظهار الروح للمنفعة. فإنه لوأحدٍ يُعطى بالروح كلام حكمة، ولآخر كلام عِلْمٍ بحسب الروح الواحد، ولآخر إيمانٌ (ينقل الجبال) بالروح الواحد، ولآخر مواهب شفاءٍ بالروح الواحد. ولآخر عمل قوات، ولآخر نبوءة، ولآخر تمييز الأرواح، ولآخر أنواع السنة، ولآخر ترجمة السنة. ولكن هذه كلها يعملها الروح الواحد بعينه، قاسماً لكل واحدٍ بمفرده، كما يشاء. لأنه كما أن الجسد هو واحد وله أعضاء كثيرة، وكل أعضاء الجسد الواحد إذا كانت كثيرة، هي جسد واحد؛ كذلك المسيح أيضاً، لأننا جميعنا

بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد، وجميعنا سُقينا روحاً واحداً...».

- (1كو 12:27 و28): «وَمَا أَنْتُمْ فِجْسِدِ الْمَسِيحِ، وَأَعْضَاؤُهُ أَفْرَاداً. فَوَضَعَ اللهُ أَنْسَاءً فِي الْكَنِيسَةِ (جَسَدِهِ) أَوْلَى رُسُلًا، ثَانِيًا أَنْبِيَاءً، ثَالِثًا مُعَلِّمِينَ، ثُمَّ قَوَّاتٍ، وَبَعْدَ ذَلِكَ مَوَاهِبَ شِفَاءٍ، أَعْوَانًا تَدَابِيرَ (قُوَّةٍ عَلَى التَّدْبِيرِ)، وَأَنْوَاعَ أَلْسِنَةٍ».

وهكذا من مجموع المؤمنين غير المنسجم وغير المؤتلف، يصنع الروح القدس شخصية الكنيسة المنسجمة المؤتلفة العاملة بالروح الواحد والشاهدة بضم واحد. هنا شخصية الروح القدس الفريدة تظهر للوجود.

(و) الروح القدس يضطلع بحفظ الوديدة الصالحة، أي التقليد المسلّم في الكنيسة بالإيمان، وذلك من خلال سكناه في الأفراد الأمناء له: - (1تي 2:14): «احفظ الوديدة الصالحة (التقليد paradosij) بالروح القدس الساكن فينا».

وهكذا بعد أن يبني الكنيسة بالمواهب المتآزرة من داخل الأفراد وكأنها هيكل روحاني ذو أعضاء مترابطة، يضطلع بحفظ التقليد الإيماني الموحى به للرسول، بواسطة موهبة خاصة يهبها لبعض الأفراد الأمناء الساكن فيهم!! لضمان عمل الكنيسة في وحدة الإيمان لبنيان الخدمة حتى تنتهي الكنيسة إلى ملء قامة المسيح.

(ز) الروح القدس بعد أن يستودع مواهبه في قلوب المؤمنين الساكن فيهم، ينتظر منهم أن يضرموها بالصلاة والأعمال الصالحة لكي تعمل عملها في الكنيسة لأن المواهب الروحية تحتاج إلى الصلاة والأعمال الصالحة لتظل متأججة:

هنا شخصية الروح القدس لا تتبلع شخصية المؤمن ولكن تجليها بالموهبة.

- (1تي 4:14 و15): «لا تهمل الموهبة التي فيك المعطاة لك بالنبوة مع وضع أيدي القسوسية، اهتم بهذا وكن فيه لكي يكون تقدمك ظاهراً في كل شيء».

- (2 تي 1:6): «فلهذا السبب أذكرك أن تضرم أيضاً موهبة الله التي فيك بوضع يدي».

- (تي 3:5-8): «لا بأعمال في برِّ عملناها نحن بل بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس، الذي سكب علينا بغنى بيسوع المسيح مخلصنا، حتى إذا تبررنا بنعمته نصير ورثة حسب رجاء الحياة الأبدية. صادقة هي الكلمة وأريد أن تقرّر هذه الأمور لكي يهتم الذين آمنوا بالله أن يمارسوا أعمالاً حسنة فإن هذه الأمور هي الحسنة والنافعة للناس».

- (رو 11:12): «غير متكاسلين في الاجتهاد، حارّين (ملتهبين) في الروح، عابدين الرب».

(ح) الروح القدس يظل يشهد للمسيح في الكنيسة داخل المؤمنين بواسطة المواهب التي يمنحها للأفراد، وبواسطة الآيات والمعجزات التي يجريها بواسطتهم إنما حسب إرادته هو:

- (عب 2:4): «شاهداً الله معهم بآياتٍ وعجائبٍ وقواتٍ متنوّعةٍ ومواهب الروح القدس حسب إرادته».

- (رو 15:18 و19): «لأنني لا أجسر أن أتكلّم عن شيء مما لم يفعله المسيح بواسطتي لأجل إطاعة الأمم بالقول والفعل بقوة آيات وعجائب بقوة روح الله».

- (1كو 2:4): «وكلامي وكرازتي لم يكونا بكلام الحكمة الإنسانية المُقنع، بل ببرهان الروح والقوة».

- (1تس 1:5): «إن إنجيلنا لم يصر لكم بالكلام فقط بل بالقوة أيضاً وبالروح القدس وبيقين شديداً».

(ط) التكر لشركة الروح القدس والازدراء بها، تنكر
للاهوت المسيح شخصياً وبمثابة صلبه ثانية
والتشهير به:

فالشهادة للاهوت المسيح شهادة للروح القدس والازدراء بالدم الإلهي ازدراء
بالروح القدس والعكس صحيح، ولا يمكن فصل تكريم أو إنكار المسيح عن الروح
القدس. فارتباط الشخصين في ذاتهما وفينا لا يمكن الفصل بينهما، وهذا ما فهمه
القديس أثناسيوس تماماً في موضوع التجديف على الروح.

- (عب 10:29): «فكم عقاباً أشر تظنون أنه يُحسب مستحقاً مَنْ داس ابن الله
وحسب دم العهد الذي قُدس به دنساً، وازدرى بروح النعمة».

- (عب 6:4-6): «لأن الذين استثنوا مرةً (المعمودية) وذاقوا الموهبة
السماوية (التجديد والخلقة والميلاد من فوق) وصاروا شركاء الروح القدس
(قبلوا حلول الروح القدس بالمعمودية) وذاقوا كلمة الله الصالحة (الإنجيل)
وقوات الدهر الآتي (معمونة الملائكة) وسقطوا، لا يمكن تجديدهم أيضاً للتوبة
إذ هم يصلبون لأنفسهم ابن الله ثانية ويُسَهَّرُونَهُ».

خامساً عصر ما بعد الرسل

بقيت صحة تعاليم الرسل واضحة في ما يختص بشخص الروح القدس ضمن الكيان أو الجوهر اللاهوتي للتالوث في تسليم قانون التعميد، «عمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس». وقد اكتشفت قوانين التعميد المبكرة جداً في تقليد القرون الأولى وهي تحمل طابع الإيمان والتعليم بوحدة التالوث (980).

كليمنس الروماني:

وبجوار قوانين التعميد المحلية في الكنائس تصلنا من الرسالة الأولى إلى كورنثوس للقديس كليمنس الروماني - وهو تلميذ الرسل - صورة أصيلة مطابقة لتعليم الرسل من جهة «انسكاب» الروح القدس، ومن جهة «شخص» الروح القدس، ومن جهة «الجوهر الإلهي» للروح القدس:

[لقد وهبتم جميعاً سلاماً عميقاً وفيراً وشوقاً غير محدود نحو عمل الصلاة بينما انسكب الروح القدس عليكم بفيض].

[بهذا نحتمي برحمته من الدينونة القادمة. لأنه أين يهرب كل منا من يده القادرة؟! أي عالم يمكنه أن يختفي هارباً من وجه الله؟! إذ يقول الكتاب: «أين أذهب من روحك، ومن وجهك أين أهرب؟! إن صعدتُ إلى السموات فأنت هناك، وإن فرشتُ في الهاوية فما أنت» (مز 139: 7 و8).

أين يمكن لإنسان أن يهرب ممن يحتضن كل شيء؟!]

[حي هو الله، وحي هو يسوع المسيح وحي هو الروح القدس وحي هو إيمان ورجاء المختارين.] (الرسالة الأولى لكليمنس الروماني 2 و28 و58)

كذلك فإن تعاليم كليمنس تأتي في كمال انطباقها على علاقة الروح القدس بقانون الأسفار المقدسة (انظر: الرسالة الأولى لكليمنس الروماني 45 و8 و13 و16 و22 و42).

برناباس:

(980) Hahn, *Bibliothek der Symbole*, pp. 42,66; Geb. hardt, Patr., ap. opp. fasc. 1,2, p. 15 sq.

ونقابل في رسالة برناباس بصورة مميّزة استمرار التعليق على الإلهام الموجود في الأسفار (9-10) كذلك موضوع انسكاب الروح القدس على الكنيسة كلها (1).

إغناطيوس الأنطاكي:

في رسائله المختصرة نجده يسمّي الروح القدس واحداً مع الآب والابن مع تمييز خاص لشخصه (ماغنيزيا: 13)، كذلك موضوع انبثاقه من الآب (فيلادلفيا: 7)، وإرساله بواسطة الابن (أفسس: 17)، وعمله في الحمل الإلهي الإعجازي للعذراء (أفسس: 18)، وفي تقديس (مسحة) أعضاء المسيح (أفسس: 9، سميرنا: 13)، كما نجد في حالة استشهاد ذكره للروح القدس في تمجيده لله، كذلك نجد عين الأمر في استشهاد القديس بوليكارب (استشهاد القديس بوليكارب 14-22) (استشهاد القديس إغناطيوس 71).

الأسقف "راعي هرماس":

ولكن من بين كل ما وصلنا من كتابات عصر ما بعد الرسل للآباء الرسولين، فإنه يندرج ما خلفه لنا "راعي هرماس" تحت أكثر الكتابات خصوبة في الإشارات للروح القدس. ولو أن طريقة عرضه لموضوع الروح القدس تجعلنا في حيرة من تحديد صلاحيتها العقائدية، إلا أنه أحياناً يشير إلى أرواح كثيرة مرسله بواسطة الروح القدس منوط بها تعليم وإنارة بصيرة الناس، ونحن نجد إشارة إلى مثل هذا المعنى في رسالة يوحنا الأولى: «أيها الأحباء، لا تصدّقوا كل روح، بل امتحنوا الأرواح: هل هي من الله؟ لأن أنبياء كذبةً كثيرين قد خرجوا إلى العالم. بهذا تعرفون روح الله: كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله... من هذا نعرف روح الحق وروح الضلال.» (1يو 4: 6-1)

كذلك نجد إشارة إلى هذا المعنى أيضاً في سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي: «يوحنا إلى السبع الكنائس التي في آسيا. نعمة لكم وسلام من الكائن والذي كان والذي يأتي ومن السبعة الأرواح التي أمام عرشه.» (رؤ 1: 4)

وراعي هرماس يؤمن بشدة أن روح النبوة لا يزال مستمراً في عمله في الكنيسة، ويشير إلى أنه حائز لهذه العطية الخاصة بالإلهام.

ويعتقد بعض العلماء مثل "جبهارت" و"هارناك" أن راعي هرماس لم يكن يفرّق

بين الروح القدس وبين المسيح قبل تجسده (981).

القرن الثاني:

ابتدأ الزمن يتباعد عن منبع التقليد الرسولي نوعاً ما، وبظهور جماعة المدافعين عن الإيمان المسيحي بلاهوت الكلمة وبتحقيق أن كلمة الله هو هو المسيح يسوع المسيح المتجسد في ملء الزمان، بدأ ثقل الحوار والتركيز ينصبُّ على لاهوت الأقبوس الثاني، وبدأت الأنظار والمحاورات تتباعد عن مركز الروح القدس إلى الدرجة التي فيها بدأوا ينسبون "الكلمة" الصفات والأعمال الشخصية للروح القدس.

الرسالة إلى ديوجنيتس: وفيها نقرأ أن "الكلمة هو الذي يختار الأشخاص كيفما يشاء ويتكلم فيهم"، "وأنه بالكلمة تخصب الكنيسة وتنمو باستمرار".

أمّا ثيوفيلس الأنطاكي: فيمتد ليرى أن إلهام الأنبياء في العهد القديم هو من عمل الأقبوس الثاني: الكلمة: "الكلمة لأنه هو روح الله الذي كان يحل على الأنبياء ويتكلم بواسطتهم" (982).

أمّا يوستين، فإنه يحسب أن الحمل الإعجازي للعدراء هو من عمل "الكلمة" نفسه (983).

ولقد ظل هذا المفهوم عالماً في فكر الكنيسة عند كثيرين من مستقيمي الرأي حتى منتصف القرن الرابع ويُقرأ بوضوح في المواضع التالية (984):

- 1 - إيرينيئوس 1:5.
- 3 - كبريانوس: de Idol van.
- 2 - ترتليان: بركسيا: 26.
- 4 - إيلاريون: على الثالث: 2:24 و26.

كذلك نجده عالماً في تقليد الليتورجية في أنافورا سيرابيون، حيث نجد حلول الكلمة على الخبز والخمر وليس حلول الروح القدس.

ويعزّز هذا التقليد ما ورد عن القديس أناسيوس وغيره (انظر كتاب:

(981) *Patrol. Ap. Opp. fasc. 3, p. 152 cited by D.C.B. p. 115.*

(982) *Autol., ii, 32; cited by D.C.B., p. 115.*

(983) *Apolog., I. 33.*

(984) *D.C.B., p. 115 & Dorner, I, 1, p. 392 sq.; Newman, Tracts, p. 320; Pref. of Benedict. edition of st. Hilar., Migne, Patr. Lat. IX, p. 35 sq.*

«الإفخارستيا والقداس» للمؤلف صفحة 680 و681).

ثيوفيلس الأنطاكي: ولكن من جهة أخرى تُعتبر الكنيسة مدينة لهذا المدافع الشهيد بأول تسجيل للإصطلاح اللاهوتي الشهير «الثالوث trífz»، في ما يختص باللاهوت في ذاته! [إن الثلاثة أيام السابقة قبل أن يصير النور هي مثال للثالوث، الله وكلمته وحكمته]، وهذا نصه باليوناني:

αφ τρε<j 'm τρι<doj ε, s^ n tε tîn fwst>rw n gegonu<ai t v rai pr τoà ka^ t^¼j sof...aj αζtoà Qeoà ka^ toà l

وهنا يذكر الثالوث بوضوح مشيراً إلى الشخصين الواضحين: «الكلمة» و«الحكمة»، باعتبار الحكمة هي الروح القدس حسب التقليد القديم الموروث. ويستمر هذا الكاتب الرسولي الملهم في توضيح تحديد الأشخاص في الثالوث إنما في وحدة مطلقة.

يوستين: ولكن يخرج يوستين بفكرة جديدة تُعتبر بداية انحراف خطيرة، فهو يقول: «نحن نضع روح النبوة في المرتبة الثالثة τμn tr...tv tεxij لأننا نكرّمه مع الكلمة»، ويقصد بروح النبوة نفس الروح القدس (985).

وهو صاحب نزعة غير سليمة على الإطلاق في جعل الروح القدس خاضعاً وأدنى مرتبة من الكلمة، وهو الوحيد الذي يزعم أن الروح القدس «ملاك الله وقوة الله التي أرسلت لنا بواسطة يسوع المسيح» (986).

وقد وردت على لسانه في كتاباته جملة مبهمة خطيرة بلا أي معنى ولا أصل معطياً فيها «الملائكة» **المخلوقين** درجة من الكرامة ليست أقل من التي يعطيها للروح القدس (987).

تلميذ يوستين المدعو تاتيان: لقد فاق معلّمه في الخروج عن التقليد اللاهوتي الصحيح المسلّم من الرسل فإنه يضع الروح القدس «كخادم» للمسيح (988).

(985) *Apolog.*, I, 13; infra 60.

(986) Trypho, 116, cf. Neander, *Hist. of Christ. Dogma.*, I, 137.

(987) *Apology*, I, 6; cf. Bull, ii.iv, chap. 8 & Kaye J.M., p. 52.

(988) *Adv. Grec B.* cited by *D.C.B.* p. 115.

أثيناغوراس: هنا نبتدئ نقترّب مرّة أخرى من العقيدة الكنسية السليمة التي بدأت تأخذ قوتها وصحتها مرّة أخرى من جهة الثالوث الأقدس المتساوي.

ولكن أثيناغوراس رأى في الروح القدس عملاً غريباً على المفهوم التقليدي وهو اضطراره بوظيفة رباط الوحدة في اللاهوت (989). (وهذا الاتجاه رفضته الكنيسة بالرغم من أخذ القديس أغسطينوس به).

والذي رفضه بشدة ووضوح هو القديس أناسيوس في حديثه الثالث ضد الأريوسية:

[وإن الروح القدس لا يوحد الكلمة بالآب، لأن الكلمة لا يشترك في الروح القدس حتى يصير في الآب، ولا الابن يستقبل أو يستلم الروح القدس بل بالحري يعطيه بنفسه للجميع، فالروح لا يوحد الكلمة بالآب ... فالابن هو في الآب لأنه كلمته وشعاعه.] (990)

كذلك فإن أثيناغوراس صاحب الفضل في توضيح جديد لعقيدة الانبثاق الجوهري للروح القدس من الله فهو يقول:

[إنه منه ينبثق وإليه يعود كشعاع الشمس أو كالنور المنبعث من النار.] (991)

أمّا خارج الكنيسة، أي لدى مجموعات الهراطقة، فكانت هناك قوتان تتصارعان معاً بشدة ضد الكنيسة: جماعة المونتانيين وجماعة الغنوسيين.

أمّا جماعة الغنوسيين، فأخذوا شيئاً ما بما تقوله الكنيسة من جهة الروح القدس، وإنما بصورة مشوّهة وعلى اتساع تحليلي، وكان زعيمها الأول "سيمون" وهو ساحر سفر الأعمال، وكان قبل عماده يُدعى من جميع الشعب «قوة الله العظيمة» (أع 8:10)، لما كان يأتيه من معجزات. وكان قد تلقى بعض تعاليم الرسل في ما يختص بأن القوة الإلهية إنما تتصل مباشرة باسم الروح القدس كما هو مدوّن بوضوح في سفر الأعمال (أع 8:9-19)، ولكنه عاد من بعد عماده (من أيدي الرسل) وعزله عن الكنيسة، فادّعى أن شريكته هيلانة هي «الباراكليت» وأن القوة

(989) Athenagoras, *Legat.* 10; cited by *D.C.B.*, p. 115.

(990) Athanas., *Discourse III against Arian*, ch. XXV, p. 407.

(991) Athenagoras, *Wisd.* vii. 25; *Legat.* 10, 24; cited by *D.C.B.*, p. 115.

التي تنبثق من الله هي قوّة مؤنّثة.

وجاءت جماعة "أوفيت Ophite" وقالت صراحة إن هذه القوة المؤنّثة هي الروح القدس، وهي تتميّز عن فكر الله، يقصدون بذلك "كلمته" (992)، وأن الكلمة مولود منها، وهي التي كلّمته على الأردن.

أمّا في نظام باسيليدس، فقد اعتبروا الروح القدس روحاً خادماً، وليس متحداً جوهرياً بالابن أو مساوياً له، وهكذا صارت بلبلّة في الفكر خارج المحيط الكنسي.

أمّا في نظام فالانتين، فقالوا بانبثاق الروح القدس ولكن ليس بصورة مباشرة من الله (993)، وإنه مساوي للمسيح؛ ولكنهم تبنّوا كل الهرطقات التي ظلّت متداولة حتى القرن الرابع والتي فنّدها القديس أثناسيوس (994).

أمّا جماعة المونتانيين، فيشك أنهم أخذوا بشيء من عقيدة الروح القدس في الكنيسة، لأن العالم الألماني نياندر (995) قد أشار إلى أن موقف "مونتانس" و"ماكسيملا" في ما يختص بالروح القدس عندهم كان من وجهة نظر العهد القديم أكثر منه في العهد الجديد، وأنه لم يكن للفكر المونتاني تأثير كبير على الكنيسة، وسرعان ما انحل تحت ضغط الاضطهاد.

أمّا جماعة اليهود المتنصرين، الذين ظلوا متمسكين بتقاليدهم العتيقة ورفضوا التقليد الرسولي من جهة الإيمان بالثالوث الأقدس، وهم في هذا الموضوع **جماعة الناصريين Nazarenes**، أخذوا برأي الغنوسيين فقالوا إن الروح القدس هو أيضاً قوّة مؤنّثة وأنها هي التي ولدت المسيح على الأردن وأن الباراكليت هو أم المسيح (996).

والعجيب أن هذا الفكر أخذت به أيضاً جماعة هرطقة الإيبونيم اليهودية المتنصّرة بزعامة كيرنثوس المبتدع، وقال إن الروح القدس قوّة مؤنّثة، وهكذا ظلّت هذه السفاهة العقلية التحليلية الشيطانية عالقة بالكنيسة حتى القرن السابع - (وكان

(992) *Iren., I., 23, 30.*

(993) *Iren., I. 2,4,5.*

(994) *Athanasius ad. Serap., 1:10.*

(995) *Neand., Ch. H., ii. 207; Epiph., Hear. 48, II sq.*

(996) *Origen, in Joann., II, 6.*

بعض أئمة هؤلاء الهراطقة قاطنين شبه الجزيرة العربية واليمن. لذلك فقد سمع بها القرآن وسئل فيها فجددها وقال فيها إن الله لم يلد ولم يولد ولم يكن له صاحبة، والقرآن على ضوء هذه الهراطقات محق في ما قال).

وجماعة هراطقة المونوأرخيين (أي وحدة الرأس أو الصدر)، وهي قريبة من جماعة الإيونيوم يهودية متنصرة، وكان على رأسها ثيودوتس المبتدع فكانت أصلاً مشغولة بجدد لاهوت المسيح وإنكار الثالث، وزعماؤهم براكسياس ونوثيتوس وبيرلوس (بلاد العرب) وسابيلوس، فهؤلاء جميعاً جحدوا الثالث القائم على أقانيم متميزة، وقد تزعم براكسياس - حسب شرح ترتليان (براكسياس: 9) - فكرة أن الروح القدس هو أصل وجود الآب والابن.

بل في روما ذاتها قام كاليستوس بابا روما، وألغى شخصية الروح القدس المتميزة في الثالث، وأعطى اسم الروح القدس ليعبر عن جوهر الله الذي قد يسمّى الآب أو يسمّى الابن أو يسمّى الكلمة (997).

ومن هنا نشأت أيضاً بدعة السابلية التي امتدت وأعطت الروح القدس شخصية. ولكن كان عندهم الروح القدس قادراً أن يظهر نفسه في أي من الأقانيم الأخرى فهو إما يظهر كأب أو كابن أو كالروح القدس (998).

بولس الساموساطي المبتدع: وهذا المبتدع يعتبر الروح القدس ليس استعلاناً لشخص أو أقنوم وإنما "خاصية"...

وبولس الساموساطي لم ينكر انبثاق وإرسال الروح القدس، وإنما حلله إلى مجرد تأثير، وإنما تأثير غير مشخص أو غير شخصي. فالروح القدس عند بولس الساموساطي ليس أقنوماً بل مجرد نعمة نزلت على الرسل (999). وكان حذراً في الدخول إلى التفاصيل الخاصة بعقيدة الكنيسة في هذا الموضوع، ففلت من جهة هذا الأمر من ملاحظة المجمع المقدس الذي حكم عليه في تعاليمه الأخرى وجرّم إيمانه وقطعه.

(997) Hypolytus, IX. 12.

(998) Athanas., *Or. C. Ar.*, iv. 25.

(999) Leontius, *de sect 3*; cited by *D.C.B.*, p. 117.

تعاليم الكنيسة الأرثوذكسية في تلك الحقبة،
أي أواخر القرن الثاني حتى منتصف القرن الثالث:

إيرينيئوس: وهو يمثل معاً تعاليم مدرسة آسيا الصغرى المنحدرة من القديس يوحنا الرسول، بجوار تعاليم جنوب شرق بلاد الغال (فرنسا الآن).

وهو يُعتبر من أوائل معلّمي هذه الفترة الزمنية، وهو يجحد بشدة في كل أقواله أخطاء فالنتينوس المبتدع الذي خلط بين إرسالية الروح القدس المحددة زمنياً بيوم الخمسين وبين انبثاق الروح القدس من الله أزلياً، أي خلط بين عمل الروح القدس في البشرية وعلاقة الروح القدس جوهرياً بالله(1000).

ولكن إيرينيئوس يرفض أحد التعبيرات عن الاصطلاح بالانبثاق = *emisso* «probol»(1001). إذ تراءى له أن هذا التعبير يحمل ضمناً نوعاً ما من الانفصال في جوهر الله الواحد، ولذلك فإنه فضّل أن يترك كيفية «الانبثاق» الإلهي بدون شرح(1002)، مكتفياً بتوضيح ذلك بالتصوير، فيقول عن الابن وعن الروح القدس أنهما يدا الله، الأول ابن *progenies* أمّا الروح القدس فهو الصورة *figuratives* للآب، الابن هو «كلمة» الله والروح القدس هو «حكمة» الآب(1003)، ليس من خارج الله ولكن من داخله(1004). (يُلاحظ هنا أن إيرينيئوس لا يتبع الخط الفكري الآبائي القديم الذي يشدّد أن الكلمة هو حكمة الله).

ويبتدئ إيرينيئوس يخترع أوصافاً ومسميات أخرى للتعريف بما لا يقبل التعريف، دون أن يحترس ليمسك بخط التقليد، فينحرف ويضع بدايات خطيرة لأفكار يمكن أن تكون كفرية، فيقول إن الابن والروح القدس يخدمان الآب. ثم يطبّق تطبيقاً غير منسجم، فيقول: كما تخدم اليدان والفكر في الإنسان، ثم يعود إذ يحس بخطورة الوصف فيصحّ هكذا: ليس كالفكر المخلوق كأنه خارج عن حياة الله، لأن روح الله

(1000) Irenaeus, *ad. Haer.* ii, 19. 9.

(1001) *Ibid.*, ii, 13, 5, 6.

(1002) *Ibid.*, ii, 28.6.

(1003) *Ibid.*, IV. 7. 4.

(1004) *Ibid.*, IV. 7. 8.

ليس زمنياً، ولكنه روح أزلي كالله نفسه(1005).

ويستشهد إيرينيئوس بما جاء في إشعياء أصحاب 57 آية 15 و16 (الترجمة السبعينية) هكذا: "لأنه هكذا قال العلي الساكن في الأعالي إلى الأبد، القدوس في الأقداس اسمه، العلي المستريح في القديسين المعطي صبراً للمنسحقين وحياة لمنكسري القلوب، لأنني لن أنتقم إلى الأبد ولا أغضب عليكم دائماً لأن روحي التي تنبثق مني تحيي كل نفس." (إش 15 و16:57 سبعينية)

وإيرينيئوس يعطي تصوراً للعلاقة بين الروح القدس والابن هكذا:
[إننا بالروح القدس نرتفع إلى الابن، وبالابن نصعد إلى الآب.] (1006)
وبذلك فإن عطية الروح القدس لنا هي إحدى نتائج التجسّد.
والذي ليس له الروح القدس فليست له شركة في حياة يسوع المسيح(1007).

كذلك فإن إيرينيئوس يرى أن نفخ المسيح في تلاميذه وإعطاءهم الروح القدس (يو 22:20) هو برهان على لاهوت المسيح(1008).

وبخصوص وظيفة الروح القدس التعليمية كالأقنوم الثالث، فعقيدة إيرينيئوس سليمة وكاملة فهي واضحة في إلهام الأنبياء والرسل(1009).

غير أن إيرينيئوس يعود في مواضع أخرى ليثبت أن إلهام الأنبياء كان من عمل الكلمة سواء في العهد القديم أو الجديد(1010).

كذلك فإن الروح القدس هو الذي يضطلع بعمل استنارة لذهن الكنيسة بصورة مستمرة(1011)، ويؤكد أنه في حضن الكنيسة فقط يمكن أن يستمتع المسيحي بنور الروح القدس، وأن الروح القدس ينطلق عمله في سري المعمودية

(1005) Ibid., V. 12.

(1006) Ibid., V. 36.

(1007) Fragment, 36.

(1008) Syr. Fragment., *D.C.B.*, p. 117.

(1009) Ibid., III, 24. 1.

(1010) Ibid., IV, 7. 2; IV, 9, 1; IV, 20. 4; cited by *D.C.B.*, p. 117.

(1011) Ibid., III. 24. 1.

ترتليان (160-240م):

صوت مدوي يظهر مبكراً من شمال إفريقيا في نهاية القرن الثاني، يمثّل تعبيراً حراً ومستقلاً، هو صوت ترتليان، وذلك في معرض كتاباته ضد الموحدين Monarchians وكان يمثلهم آنذ براكسياس.

وترتليان يُحسب كواضع لأساس التعليم الجامعي بخصوص الانبثاق.

ولكن نجد في كتاباته ما يفيد تعبير الكنيسة الرومانية الآن: أن انبثاق الروح القدس هو من الآب والابن(1013).

كما نجد في مواضع أخرى بكل وضوح تعبيره الآخر وهو الأرثوذكسي السليم أن: [الروح القدس منبثق من الآب في الابن: Spiritum non aliunde pute quam a Patre .per Filium (1014)]

كما يقول إن الروح القدس يأخذ دائماً من الابن، كما أن الابن يأخذ دائماً من الآب، وهكذا فإن الثلاثة متحدون معاً في حياة إلهية واحدة: [الآب في الابن والابن في البراكليت ثلاثة متحدون ...]

[Ita connexus patris in Filio et Filii in paracleto tres officit]
(1015)[cohaerentes alterum ex altero

ولكن يشط ترتليان في فهم العلاقة الأقتنومية التي تربط بين الآب والابن والروح القدس. فبالرغم من عقيدته أن جوهر - أو طبيعة - الأقانيم واحد، إلا أنه يقول بخضوع الروح القدس للآب والابن(1016). وكأنما يُفهم مما سبق أن قال به إيرينيئوس من أن الروح القدس والابن يخدمان الآب، أن الخدمة هي تدني في الدرجة الوظيفية بين الأقانيم، والتسلسل في الانحراف واضح، فايرينيئوس يقول

(1012) Ibid., III, 17, 82 & fragment 38, cited by Neander, *Hist. of Dogma*, 1. 231.

(1013) Tert., *Against prax*, 8.

(1014) Ibid., 4.

(1015) Ibid., 25.

(1016) Quasten, *Patrology* II, p. 286

بخدمة الابن والروح القدس للأب، ويقول ترتليان إن الروح القدس هو الذي يخضع للأب والابن.

(الروح هو "اسم ثالث" (There is a "tertium nomen divinitatis" & a "tertium gradus in Paracleteto"). للاهوت"، (1017) و"الدرجة الثالثة هي في الباراكليت" (1018)).

ويعود ترتليان فيضع ضوابط لهذا التدرُّج حتى لا ينقسم الجوهر هكذا:

(Yet the persons are "tres non statu sed gradu nec substantia sed forma nec potestat sed specie").

[الأقانيم هم: "ثلاثة ليس في الكيان بل في الدرجة،

ليس في الجوهر بل في الهيئة،

ليس في القدرة بل في النوع"] (1019)

أمَّا في ما يختص بعمل الروح القدس، فيتكلم ترتليان عن يقين كجزء لا يتجزأ من الإيمان، إن الروح القدس أرسل ليلاً مكان صعود المسيح، وذلك لكي يقُدَّس الكنيسة. ففي المعمودية ينزل الروح القدس من السماء ويقُدَّس الماء معطياً للماء قوة التقديس (1020).

ثم إن حضور الروح القدس يُستدعى بالإضافة إلى تقديسه الماء ليحل بوضع الأيادي الذي يتبع طقس العماد (1021).

كبريانوس († 258م):

يُعتبر كبريانوس أكبر تلاميذ ترتليان. وهو يذكر موضوع أقنوم الروح القدس عبوراً (1022)، ولكنه يؤكِّد وحدة الأقانيم الثلاثة: الأب والابن والروح القدس، أي

(1017) Ibid., 9.

(1018) Ibid., 2.

(1019) Ibid.

(1020) Tert., *De Baptismo*, 4.

(1021) Ibid., 8.

(1022) Cyprian, *De Domin orat.* 23.

“De unitate Patris et Filii et spiritus sancti plebs adunata”

[إن أفضل ذبيحة لدى الله هي سلامنا وتوافقنا الأخوي، (وظهور) وحدة الآب والابن والروح القدس في تآلف الشعب (المسيحي)]. (1023)

ولكن يركّز كبريانوس كثيراً على علاقة الروح القدس بالكنيسة كجسد وكأفراد في الجسد، أمّا ما يتبع هذا من نمو أو فقدان في النعمة فهذا يرجع في عقيدة كبريانوس، إلى سلوك الفرد.

وعن الروح القدس يقول: Totus infunditur se qualiter sumitur كله يُفاض بقدر ما يُقبل (1024).

ولكن لكي تكون المعمودية ذات مفعول يتحمّم أن تُجرى بواسطة إنسان يكون هو نفسه يملك الروح القدس (1025).

والكنيسة الجامعة باعتبارها عروس المسيح الوحيدة هي وحدها التي لها القوة على ميلاد (تجديد) أولاد الله (1026)، لأنها هي وحدها التي تملك ينابيع المياه الحية (يقصد التعاليم المحيية السليمة) (1027).

ويتبع كبريانوس خط ترتليان في تأكيده أن وضع الأيدي بعد المعمودية يكمل بالضرورة طقس المعمودية لإعطاء الروح القدس (1028). كذلك فإن كبريانوس يتبع خط ترتليان في كون الروح القدس هو مصدر الإلهام للأنبياء والرسل وكتابة الأسفار جميعاً (1029).

(1023) Ibid., 34.

(1024) Cyprian, *Epist.* 69; 14.

(1025) Ibid., 79: 9.

(1026) Ibid., 75: 14.

(1027) Ibid., 73: 11.

(1028) Ibid., 73: 9.

(1029) Westcott, *Study of The Gospels*, pp. 429.

وإذ كان هيبوليتس أسقفاً على بورتس رومانو (ربما بعد رعاية إيرينيئوس لها فترة من الزمن) (1031)، قيل إنه كان أول أساقفة روما ثم ضخموا الأسقفية - إن كانت هي أسقفية روما - فقالوا بابا روما!! وقد فرح مؤرخو اللاتين بهذا الإلتباس في النسخة وقالوا إنه فعلاً بابا روما لأنهم اكتشفوا أخيراً جداً أن كتاباته في تقليد الرسل عن الليتورجيا يطابق ليتورجية روما، ثم إذ لم يجدوا ما يبرهنون به على صحة تزييف نسبته لروما قالوا إن بورتس رومانو كانت قرية بجوار روما؛ وللأسف أثبتت السجلات أنه لم توجد قط أسقفية بجوار روما بهذا الاسم ولا وُجِدَ بابا لروما بهذا الاسم، ولمَّا اكتشفوا في آثار روما كرسياً حجرياً وتمثالاً لا يحمل اسم هيبوليتس وبدون ذكر أي لقب بابوي عليه ولكن وجد على ظهر الكرسي مؤلفات هيبوليتس اعتبروا هذا دليلاً على صدق امتلاكهم لشخصية هيبوليتس، وقالوا بلاتينيته ونسبته لروما. والحقيقة إن هذا العالم إسكندري الجنس وكان أسقفاً على عدن كل أيام حياته. وبسبب صراعه ضد بابا روما، وتصحيحه لهراطقة اثنين من هؤلاء الباباوات وبما أنه كان أيضاً أسقفاً على مدينة تحت الولاية الرومانية، اعتبروه رومانياً. وكان صراعه هذا ضد هرطقة البابا زفرينوس (199-217م) والبابا كالليستوس (217-222م)، كما قاوم انحراف البابا فابيانوس. وإن تسمية مؤلفات هيبوليتس الليتورجية باسم "نظام الإسكندرية في الرسامات القبطية" منذ أقدم العصور لهو دليل كافٍ لتدعيم علاقة هيبوليتس بالإسكندرية وليس بروما.

أمَّا كل ما يعرفه تاريخ العقيدة والإيمان عن علاقة هيبوليتس بروما فهو مهاجمة هيبوليتس لهراطقة زفرينوس وكالليستوس وفابيانوس باباوات روما، حيث كانت روما

(1030) وهو تلميذ إيرينيئوس، والمسمي في المخطوطات القبطية "أبوليدس"، شرقي المولد، إسكندري الجنس وقد نسب خطأ إلى روما وأعطي خطأ لقب بابا روما في المخطوطات القبطية. وذلك الإلتباس أصله كلمة "بورتس رومانو" وترجمتها الحرفية المرفأ الروماني، وهو مرفأ عدن الآن، وكانت المرفأ الروماني الهام في مدخل البحر الأحمر. وقد قرأها النساخ الأقباط بورتس = الأول (خطأ)، رومانو = الروماني، فقرأوها "الأول" في أساقفة روما، ثم بابا روما ومع أن كلمة بورتس هي مرفأ وليس بروتو = الأول وسيصدر الكاتب نبذة تاريخية مفصلة ومدعمة بالحقائق التاريخية عن هيبوليتس كأسقف عدن وأصلته كعالم قبطي إسكندري.

(1031) انظر كتاب مخطوط مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة لابن كبر في ذكر كتاب اعتراف الآباء.

في ذلك الوقت هي مرتع ومهد هرطقة المونوأرخيزم(1032)، أي “منكري الثالوث” كما كتب أيضاً هيبوليتس ضد نوثيتس Noetus.

ولكن كتابات هيبوليتس عن الروح القدس جاءت قليلة، ولكنه أكد على لاهوت الروح القدس بوضوح حيث يقول:

[إنه يستحيل أن نمجد الله دون أن نتجه مباشرة إلى الاعتراف بكل أقنوم في الثالوث الأقدس. thj pat»r dox£zetai«g di| gr t³4j tri£doj ta بواسطة هذا الثالوث يتمجد الأب].

[ونحن عن طريق تجسد الكلمة صرنا نعبد ونكرم (proskunoàmen) الروح القدس، كذلك فإنه يستحيل علينا أن نكون فكرة عن الوحدة أو الوجدانية في الله إلا بالإيمان بالأب والابن والروح القدس (كونهم في اتحاد مطلق)].(1033)

وهيوليتس يدحض فكرة خضوع الروح القدس للمسيح بقوله:

[إن الأب أخضع كل شيء للابن المتجسد ما خلا الأب والروح القدس.](1034)

ولكن للأسف لم يستطع هيبوليتس أن يرقى للتساوي المطلق بين الروح القدس والآب أو الابن، فهو يقصر تسمية الأقنوم أو الشخص أو الوجه swponzpr في الثالوث كصفة شخصية على الآب والابن فقط، أمّا الروح القدس فيقصر عليه صفة النعمة، أمّا الثالوث فهو متساوي في التدبير:

g...ou ‘o, o,konom...v d\e tr...thn t»n c£rin toà ع swpa d\e dzpr] [matojع pne أقنومان، وبالتدبير نعمة الروح القدس هي الثالثة.](1035)

ويهتم هيبوليتس بتحديد الصفة أو الوظيفة الخاصة للروح القدس في التدبير الإلهي بالإشارة أو الاستنارة هكذا:

tizon ؤ d\e sunص, tصwn ufع pako d\e dwn pat»r, ع O gr kele] j TMpo...hsen, pneàma صhsen, ufطgion pneàma ... pat»r gr 1q

(1032) Rev. Henry Barclay Swete, *D. C. B.*, p. 118.

(1033) *Contra* (Noetus 12-14), cited by *D.C.B.*, p. 118.

(1034) *Ibid.*, 8.

(1035) *Ibid.*, 14

لأن الآب هو الذي يأمر، والابن هو الذي يطيع، والروح القدس يوحد. لأن الآب أراد، والابن صنع، والروح أنار.[1036]

كما يقول هيبوليتس أيضاً إن الأنبياء يظهرون دائماً مؤيدين بروح النبوة ومكرّمين من جهة الابن الكلمة ذاته(1037)، وإن إلهامهم ينبع من قوة الآب:
[noian l£bontej zj patrèaj dun£mewj çpæt] (1038)

ديونيسيوس الروماني (269م):

في احتجاجه ضد الذين انصرفوا نحو فصل الثلاثة أقانيم وضد مبادئ سابيلوس، أوضح ديونيسيوس الروماني عقيدته عن الروح القدس بالنسبة لعلاقته بأقنومي الآب والابن في الثالوث قائلاً إنه ينبغي أن لا نقسم الوحدة الإلهية القائمة في الثالوث إلى ثلاثة أقانيم منفصلة.

ولكن سقط ديونيسيوس هو الآخر في فهمه الخاطئ لوضع الروح القدس في الثالوث بقوله إن أقنوم الابن وأقنوم الروح القدس هما، من جهة الأصل والمنبع، خاضعان لله الآب. على أن ديونيسيوس يقول إن الابن متحد بالآب والروح القدس قائم (ساكن) فيه، فالثالوث الأقدس يجمع في ذات واحدة حيث الآب مصدر ورأس فائق، وفي نفس الوقت يشدد أن ننتبه حتى لا نفرّق الوحدة إلى ثلاثة آلهة، حيث يلزم جداً أن نحفظ بوحدة الأصل وهكذا نحفظ ونقيم حقيقة الإيمان بالثالوث في المعمودية الآب والابن والروح القدس؛ أمّا الذي نقل لنا ذلك عن ديونيسيوس الروماني فهو القديس أثناسيوس(1039).

(1036) Ibid.

(1037) Hypolytus, *De Antichr.* 2, cited by D.C.B., p. 118.

(1038) Ibid., *Contra Noetus*, ii, 12.

(1039) Athanas., *De Decr.*, Cited by D.C.B. p. 119.

كنيسة الإسكندرية

والآن نأتي إلى تعليم مدرسة الإسكندرية في ما يتعلّق بالروح القدس:

كليمنس الإسكندري:

بالرغم من أن الكثير من مؤلفات كليمنس الإسكندري قد فُقدت، من بينها كتابان عن كل ما يتعلّق بالتعاليم الخاصة بالروح القدس عن شخصه ومواهبه: الأول "عن النبؤات"، والثاني "عن النفس"؛ غير أنه قد تبقيَ لنا أجزاء هامة قام بفحصها ونشرها العالم كوتيليه Cotelier، والتي يُظن أنها تتبع أحد هذين الكتابين المفقودين (1040)، وتدور حول معنى الانبثاق $\text{reusijz}^{\text{TMkp}}$ بالنسبة للروح القدس:

[مبارك الإنسان الذي عرف عطية الأب من خلال انبثاق الروح كلي القدس.

$\text{[matoj}^{\text{TMkpore}} \text{عsewj toà panag...ou pne}^{\text{di}}$] (1041)

[مبارك الإنسان الذي عرف وتقبّل الروح القدس الذي هو عطية الأب الذي منحه على هيئة حمامة، الروح الذي بلا شائبة عديم الغضب والمرارة، الكامل المنطلق من - قلب - (أعماق) الأب. $\text{ص}^{\text{p}} \text{diwn } \text{pro} \text{ spl}^{\text{f}} \text{gcnwn } \text{ژ}^{\text{ژ}}$ المنطلق من قلب - (أعماق) الأب. $\text{ص}^{\text{p}} \text{diwn } \text{pro}$ ليدبر الدهور ويعلن غير المنظور، فهو الروح القدس الحق الآتي من الأب $\text{ظ}^{\text{p}} \text{a}' \text{proelq}^{\text{ztoà n}}$ الذي هو قدرته وإرادته، المستعلن لتكميل ملء مجده. أمّا الذين ينالونه فإنهم ينطبعون بطابع الحق بكمال النعمة.] (1042)

وفي بقية أعمال كليمنس الإسكندري يعلن بوضوح لاهوت الروح القدس (1043)، حيث ينتهي كتاب المعلم بدعاء النعمة لتمجيد الأب والابن مع الروح القدس، وهو يفرّق بين وحدانية الروح القدس وبين تعدّد مواهبه.

كذلك فإن كليمنس يعتبر أن حضور الروح القدس في المؤمنين يشكّل نوعاً جديداً من الطبيعة البشرية.

كذلك فإنه يصف مواهب الروح القدس الإلهية أنها هي العطر الذكي المكوّن من

(1040) Lightfoot, *on Clement*, pp. 219,220.

(1041) *D.C.B.*, p. 119.

(1042) *Ibid.*

(1043) *Clement of Alex., Paedagog.*, iii. 12.

الروائح السماوية التي يمنحها المسيح لأحبائه(1044).

وكليمنس يقرن أحياناً بين الكلمة والروح حينما يتكلم عن إلهام الأنبياء(1045).
كذلك فإن كليمنس يؤكد على دور الروح القدس في إنارة الكنيسة بصورة مستمرة وكذلك الأفراد فيها(1046).

كما يضيف أن كل مَنْ يؤمن “بالكلمة” فإن نفسه تتحد بالروح القدس(1047).
والإنسان العارف بالله بالحقيقة true gnostic هو المؤمن حقاً والتلميذ بالفعل للروح القدس(1048)، وهو بهذا يتمكّن أن يسبر أعماق الكتاب المقدس ويطّلع على أعماق المعنى المخفي فيها بالإضافة طبعاً إلى أتباعه التقليد في ما يخص قانون الإيمان(1049).

وكليمنس يشير إلى عمل الروح القدس في سلوك الكنيسة من نحو الماديات، ويربط بين أعمال الروح القدس وبين سر المعمودية فيقول:
[نحن المعمدين إذ قد تخلّصنا من خطايانا التي كانت بمثابة ضباب يحجب نور الروح الإلهي، أصبحنا نملك عيناً روحية محرّرة غير منطمسة ممتلئة نوراً، بها نحدّق في الإلهيات، وصرنا منفتحين على خفايا الأسرار، والروح القدس ينسكب علينا من السماء.] (1050)

ويشرح كليمنس التدرُّج من درجة الموعوظين التي فيها تقود التعاليم المبدئية إلى الإيمان، والإيمان حينما تلحق به المعمودية يتهياً لقبول تعاليم الروح القدس:
[matiεetai pneεg...J paide,p...stij dεoμα bapt...smati]

أمّا في ما يختص بالإفخارستيا وعلاقتها بالروح القدس فهو يشير إلى هذه العلاقة

(1044) *Paedagog.*, 11. 8.

(1045) Westcott., *Study of the Gospels*, p. 435.

(1046) Clement., *Strom.*, V. 13.

(1047) *Ibid.*, II. 1-13.

(1048) *Strom.*, V. 24; *Paed.*, 1. 6.

(1049) *Strom.*, VI. 15.

(1050) *Paedag.*, 1. 6.

ولكن يذكر أيضاً الكلمة، ولا يتضح تماماً ما إذا كان التقديس يتم بالروح القدس أو
بالكلمة:

gou éesper ز sîma toà lصgei tتوà kosm»sein |ماتي tù aعTMn tù pne]
(1051) [.gon زن lزا peinîntaj tعyei toتوTMkqrع toà pneظçmele< tù a

أوريجانوس:

كان أوريجانوس من بعد ترتليان أول مَنْ قام بمحاولة دراسة موضوع الروح القدس
دراسة علمية.

وقد علّم أوريجانوس بأن الروح القدس مساوٍ في الكرامة والمجد للآب
والابن(1052).

وأول مَنْ أكّد بيقين أن الروح القدس منبثق من الآب انبثاقاً أزلياً، حاله كحال
الابن(1053).

وأن الروح القدس صالح صلاحاً كلياً ومطلقاً(1054).

وأن عمل الروح القدس المميّز غير عمل الآب والابن، فهو يختص بنفوس
المؤمنين(1055).

وأنه بالرغم من أن عطاياه متعدّدة فجوهرة واحد غير منقسم(1056).

وأن الروح القدس العامل في الأنبياء في العهد القديم هو نفسه العامل في العهد
الجديد في القديسين، غير أنه بعد الصعود صارت إرساليته ممتدة وشاملة
ومتسعة(1057).

والمؤمنون باشتراكهم في الروح القدس يصيرون روحيين وقديسين، والذي
يشترك في الروح القدس يشترك في الثالوث، لأن الثالوث غير مفترق لأنه ليس

(1051) *Paedag.*, ch. 2; ch. 47; cited by H.B. Swete, *D.C.B.*, p. 119.

(1052) Origen, *Princ.*, 1; praef.

(1053) *Ibid.*, II. 2; ch. 1.

(1054) *Ibid.*, I. 2; ch. 3.

(1055) *Ibid.*, I. 3; ch. 5.

(1056) *Ibid.*, I. 1; ch. 3.

(1057) *Ibid.*, II. 7; ch. 1, 2.

هولياً أي مادياً(1058).

والقدرة على استخلاص المعاني الروحية العميقة بالإلهام يرجع إلى كون الكتب المقدسة مكتوبة بإلهام الروح القدس(1059).

بل وإن كل حرف هو بمقتضى الحال يكشف عن أثر الحكمة الإلهية(1060).

وللأسف فإنه بعد كل هذه التعبيرات عن لاهوت الروح القدس فإن كلاً من جيروم وإبيفانيوس يتهمان أوريجانوس بأنه قال إن الروح القدس مخلوق(1061)، بل والقديس باسيليوس كاد أن يصادق هو أيضاً على هذه التهمة بالنسبة لأوريجانوس(1062).

وكل هذا جاء بسبب خطأ في فهم الفرق بين:

“genht ءgzh ءgennht & nhtoj ءgzh ءnhtoj” (1063) (انظر شرح ذلك صفحة 361)

ولكن خروج أوريجانوس عن تقليد الكنيسة ولغتها الملهمة واضح جداً في شرحه لإنجيل يوحنا، فهو يضع الروح القدس في درجة أقل من الابن، لا بالنسبة للكرامة بل بالنسبة للأصل origin، فهو يقرّر أن الابن وحده هو من الآب فقط، ولكن الروح القدس هو من الآب بواسطة الابن (هنا بداية خطأ الكاثوليك الآن في قولهم إن الروح القدس منبثق من الآب والابن - Filioque - الذي يشير مباشرة أن الروح القدس أقل من الابن والتي أخذوها عن أوغسطين الذي أخذها بدوره عن أوريجانوس).

كذلك عندما بدأ أوريجانوس يشرح قول إنجيل يوحنا (2:1): «كل شيء به كان (neto ءtoà ¢gظp£nta di' a)» أي أن الكلمة خلق كل شيء، تساءل أوريجانوس في

(1058) Ibid., IV. 1, ch. 32; cf. I. 3 ch. 5.

(1059) Origen, *Hom. on Num.*, XXVII. 1.

(1060) Origen, *Philocal.* 2.

(1061) Hieron., *epp. ad. Avit., ad. Pamm., et Ocean;* Epiph., *Haer.* IXIV. 8.

(1062) Basil., *De Sp. sanct.*, 29.

(1063) Origen, *De princip.*, I. praef. ch. 4.

غفلة قائلاً: أليس يلزم أن يكون الروح القدس أيضاً بين هذه الموجودات أي الخليفة
؟genht£

وهكذا يعتبر أوريجانوس أن الروح القدس، بمفهوم ما، يستمد خلقته أو وجوده
Genesis بواسطة الابن، ويعود بلا جدوى يمنح الروح القدس الكرامة فوق كل
الخليفة genht£، ولكن هيهات! فقد أسقط أوريجانوس الروح القدس عن المساواة
الكاملة في الثالوث وهو يمعن في هذا الفكر الخاطئ بقوله:

[وحتى وإن كان الروح القدس فوق كل الخليفة في الكرامة فهو بحسب الفكر
يتحتم أن يُحسب بين الخليفة، لذلك فهو يُعتبر أقل من الابن الذي بواسطته
يستمد وجوده!!]

وهكذا لم تسعف العبقرية الفكرية هذا المفكر العملاق، لأنه لم يلتزم بالتقليد
واستخدم المنطق الذي أوقعه في الخطأ، ومهدّ دون أن يدري لبدعة أريوس الذي
تمادى في إنكاره الكامل للاهوت الروح القدس.

تلاميذ أوريجانوس وامتداد الخطأ:

من بين تلاميذ أوريجانوس الذين تمسكوا بهذا المفهوم الخاطئ من جهة درجة
الروح القدس بييريوس (Pierius)، الذي يتهمه فوتيوس بأنه وضع الروح القدس أقل في
المجد والكرامة من الأب والابن.

وقد وقع ثيوغنسطس Theognostus في نفس الخطأ(1064) باعتماده على تعاليم
أوريجانوس.

وقد قام القديس باسيليوس(1065) باتهام ديونيسيوس بابا الإسكندرية (سنة 247م)
بنفس الخطأ من جهة درجة الروح القدس، ولكن العجب أن باسيليوس نفسه يستشهد
بكتابات ديونيسيوس الإسكندري نفسه في إثبات تساوي الثالوث، كما يذكره
ديونيسيوس في الذكصا أي تمجيد الثالوث في ختام أقواله دائماً “والمجد لله الأب
والابن مع (nεs) الروح القدس” حيث nεs تفيد المعية في المساواة.

(1064) Biblioth. codd., 119, 106.

(1065) Basil. ep. 41.

وفي كتابات ديونيسيوس بابا الإسكندرية إلى سميّه بابا روما توجد أقوال واضحة تتنافى مع هذا الاتهام - ومع أي مباحكة لأريوس الذي قال إنه يقتبس من ديونيسيوس الإسكندري - وقد أوردها القديس أثناسيوس في دفاعه عن البابا ديونيسيوس لإثبات صحة إيمانه.

[إن كل اسم من الأسماء الأب والابن والروح القدس غير منفصل قط عن ما يليه ... لذلك حينما يُذكر الروح القدس فإنني في الحال أتذكّر انبثاقه من الأب بواسطة الابن zp بواسطة الابن kenqen ka^ di t...noj فإن طبيعة الأب ليست غريبة عن الابن ولا يمكن أن يفترق الابن عن الأب والروح القدس فيهما (في أيديهما)].(1066)

ولا تخلو هذه الحقبة - نهاية القرن الثالث - من شاهد قوي لتقليد الكنيسة اللاهوتي بالنسبة لدرجة الروح القدس ولاهوته معاً، وهو ميثوديوس Methodius أسقف صور، الذي قال صراحة إن الروح القدس مساوي للأب في الجوهر ذmoo مع sion pneàma(1067).

القرن الرابع ... قرن المتاعب والتصفيات

أريوس والأريوسية:

لقد تخصّصت الأريوسية في بادئ الأمر في مهاجمة الابن، ولكنها لم تستثن من حين لحين الروح القدس من التنكّر والمهاجمة، ففي صلب “الثالوث”، وهي أنشودة الكفر التي ألفها أريوس وتعني “الوليمة” يقول:

[“إن جوهر الأقانيم الثلاثة الأب والابن والروح القدس هي من جهة طبيعتنا منفصلة عن بعضها وغريبة عن بعضها ومتميّزة” ... “وكل أقنوم في الثالوث أكرم وأمجّد من الآخر بالتسلسل وهذا التدرّج في المجد والكرامة هو إلى ما لا نهاية”].(1068)

(1066) Athanas., *De sent Dionys.*, 17.

(1067) Migne, *Patr. Gr.*, XVIII 210, 351; cited by D.C.B., p. 120.

(1068) Athanas., *Contr. Ar.*, 1. 6; *de syn.* 15.

ولكن لم يركّز مجمع نيقية إلاً على لاهوت الابن ومساواته للأب بسبب الخطورة المحدقة بالخلاص والفداء آنئذ، من جراء إنكار لاهوت الابن، واكتفى المجمع بقوله: «ونؤمن بالروح القدس». ولمّا طُرِحَ هذا التساؤل في ما بعد بخصوص عدم توضيح المجمع لماهية الروح القدس، جاء الرد مفحماً بالعدل والحق حينما قال كل من غريغوريوس اللاهوتي وإبيفانيوس أسقف قبرس أن ذكر المجمع «ونؤمن بالروح القدس» لم تأتِ منفصلة عن الثالث، أي عن الله، بل جاءت في معرض تقرير قانون الإيمان بالله الواحد (1069).

أمّا إحجام المجتمعين في مجمع نيقية - أي أساقفة العالم كله - من جهة التعرّض لشرح لاهوت الروح القدس، فكان بسبب انصباب الهجوم كله وبكل كثافة على لاهوت الابن، حيث لم يكن في جميع الكنائس وبين جميع الشعوب حديث آخر في تلك الحقبة الزمنية العصيبة سنة 325م إلاً عن لاهوت الابن، أمّا الروح القدس فلم يتعرّض له الأريوسيون إلاً لماماً وبدون تخصيص (1070). وكما يقول القديس باسيليوس إن الأريوسيين في بدء المعركة بذروا فقط بذور إنكار لاهوت الروح القدس ضمن تعبيراتهم المبهمة عمداً، ولم تنضج هذه البذار ولم تأتِ بحصادها المسموم وبصورة متخصصة تجاه الروح القدس إلاً بعد خمسين عاماً تقريباً (1071).

وهكذا بين سنة 325م أي زمن انعقاد المجمع الأول، وسنة 360م، وابتدأت فرص كثيرة لدى الأريوسيين، وخاصة جماعة اليوسابين (يوسابيوس النيقوميدي)، لكي يشرحوا وجهة نظرهم تجاه إنكارهم للاهوت الروح القدس بصورة مستترة ضمن تعبيراتهم وقوانينهم الكثيرة التي خرجوا بها للعالم بعد المجامع التي عقدها. وهي توضّح دهاء السياسة التي انتهجوها آنئذ في مقاومتهم لمقررات مجمع نيقية بألفاظ منتخبة ومتقنة ومن الكتاب المقدّس، إنما مفرّغة عمداً من أية إشارة لأزلية الروح القدس أو لاهوته بدون تصريح علني، مكتفين بوضع أقنوم الروح القدس في درجة أقل من الأب والابن، موضّحين فقط ما يختص بإرسالته الزمنية أي إرساله يوم الخمسين، حاذفين ما يخص وجوده السابق (أزليته) ودون ذكر لأي تعبير يمتُّ إلى

(1069) Greg. Naz., Or. XXXVII; Epiph., Haer. LXXIV.

(1070) Basil., Epp., 78, 387.

(1071) Ibid., Ep. 78.

وإليك مختصر لتعبيرات الأريوسيين عن الروح القدس:

[ونحن نؤمن بالروح القدس، الباراكليت، روح الحق، الموعود به من الأنبياء ومن الرب، وأرسل إلى الرسل ليعلّمهم كل شيء وليعزّي ويقدّس ويكملّ المؤمنين. والابن هو الذي منح الروح القدس للكنيسة بحسب إرادة الله (patrikù) (boul»mati). لذلك نحن نحرم كل من يقول إن الروح القدس هو إله غير مخلوق (واضح هنا الكفر)، ونحرم كل من يخلط بين شخص الروح القدس وشخص الابن أو يقول إنه من الآب، أو يقول إنه من الابن الذي - الروح القدس - هو به (وليس منه)، أي أرسل به إلى العالم = per filium est (di' ufoà) (postale«n) ونحن نرفض الاصطلاح غير الكتابي "جوهر واحد" للآب والابن والروح القدس.](1073)

وبينما كان يستخدم الأريوسيون كل هذا الحذق وكل هذا الدهاء في الاكتفاء بالأوصاف الناقصة أو السلبية للروح القدس ليخفوا حقيقة إنكارهم للاهوت الروح القدس، نجد أن أشخاصاً مسئولين وكثيرين من أفراد الشعب بدأوا بسرعة وبدون دهاء يعلنون ويؤكّدون كفرهم بلاهوت الروح القدس صراحةً وعلناً.

فوجد مثلاً لوسيفر سنة 358م وهو أسقف كاجلياري يوجه اتهاماً علنياً للإمبراطور قسطنطيوس يقول فيه إن الإمبراطور لا يؤمن أن الباراكليت هو بعينه "روح الله"(1074).

وفي هذا الصدد أعلن القديس أثناسيوس مرات عديدة منذ البداية ردّاً على محاولات الأريوسيين في تشويه الإيمان بالروح القدس قائلاً:
[إنه يستحيل الإيمان بالروح القدس إيماناً صحيحاً طالما يخفق الإيمان بأن الابن واحد مع الآب في الجوهر.](1075)

(1072) Hahn., *Bibliothek. der Symbole*, p. 148-174; cited by D.C.B., p. 121.

(1073) Ibid.

(1074) Pro Athanas. II; Migne *Patr. Lat.* XIII, 898.

(1075) Athanas., *Or. Cont. Ar.*, 1. 8.

ولقد ظلَّ الأرثوذكس في كافة أنحاء العالم متمسكين بمقررات مجمع نيقية تجاه الإيمان الصحيح بالابن وبالروح القدس إزاء محاولات الأريوسيين، سواء كان ذلك في الغرب الذي وضح في مجمع سرديكا سنة 347م أو في مجمع أريمينيم مع الشرقيين سنة 359م.

أمَّا القديس أثناسيوس فقد بدأ في تنفيذ آراء الأريوسيين من جهة الروح القدس بصورة واضحة ومحدّدة سنة 360م، حينما أصدر أول شرح مستفيض عن شخص الروح القدس موضحاً أنه “منبثق من الآب”.

ومنذ ذلك التاريخ أصبح أمام الكنيسة ضرورة مُلحّة في توضيح كل ما يتعلّق بالروح القدس لتنفيذ كفر الأريوسيين! وبينما كان القديس أثناسيوس في منفاه هارباً من وجه مضطهديه في صحراء طيبة وصلت إلى يديه أول رسالة من القديس سيرابيون أسقف تميّ، يخبره أنه في إيبارشيتة (في الدلتا) وجد ضمن الراجعين إلى الكنيسة بعد أن جحدوا الأريوسية لا تزال جماعة من المنحرفين عن العقيدة الصحيحة من جهة الإيمان بالروح القدس، تسمّى جماعة المتقلّبين tropici، وهم ينادون بأن الروح مخلوق وأنه روح خادم لا يختلف عن الملائكة إلّا في الدرجة وحسب(1076).

وبعودة أثناسيوس إلى الإسكندرية بعد منفاه، بدأ فوراً بالتحضير لمجمع الإسكندرية الذي أصدر منشوراً مجتمعياً سُمّي بطومس الأنطاكيين، لأنه أرسل إلى أنطاكية بنوع خاص، يحمل أول حكم بالإدانة تصدره الكنيسة ضد عدم الإيمان بلاهوت الروح القدس، محدّراً أن كل مَنْ يريد أن يعود إلى الكنيسة من جماعة الأريوسيين عليه أن يجحد أولاً كل مَنْ يقول بأن الروح القدس مخلوق أو أنه منفصل عن جوهر الآب والابن.

وبمجرّد وصول هذه الوثيقة التاريخية الهامة إلى أنطاكية، قبلها الأسقف بولينوس المرسوم جديداً بكل فرح، ووقع عليها بإمضائه وأضاف إليها اعترافه الخاص الذي فيه يحرم كل مَنْ لا يقول بما جاء فيه.

ويقرّر كل من المؤرّخ سوزومين وسقراط وروفينوس أن مجمع الإسكندرية هذا

أعلن بوضوح أن الروح القدس واحد في الجوهر مع الآب والابن(1077).
”aj toà ufoà ka^ patr zj oεφdia...reton t“

وتحاشى الخطاب ذكر كلمة الهوموؤوسىوس حتى لا يثير مشاكل عند النصف أريوسيين، الذين كانوا قد قبلوا الهوموؤوسىوس بصعوبة في ما يتعلّق بالابن وتعذّر عليهم فهم الهوموؤوسيون بالنسبة للروح القدس.

وقد انبرى في هذه الحقبة مقدونيوس وماراثونيوس Marathonious، اللذان رفضا بشدة القول بلاهوت الروح القدس، وظلاً يعلمان أن الروح القدس مخلوق وخدام لله، ولذلك دُعيا هما وجماعتهما بمحاربي الروح القدس = pneumatomfcoj، الذين حرمتهم الكنيسة آنذ(1078). ولكنهم لم يقووا على مقاومة الكنيسة كثيراً ففي مدى عشرين سنة استسلموا وخضعوا للإيمان الصحيح(1079).

وفي سنة 363م عقد القديس أناسيوس مجمعاً آخر في الإسكندرية، أعاد فيه التأكيد على عقيدة ألوهية الروح القدس، حيث أصدر المنشور المجمعى باسم الإمبراطور جوفيان يدين فيه الذين يحاولون إحياء هرطقة أريوس من جديد، منكرين إيمان مجمع نيقية الذي يتظاهرون بالاعتراف به ولكنهم يحرفون معنى الهوموؤوسىوس ويجدّفون على الروح القدس قائلين: إن الابن خلفه، في حين أن واضعي قانون الإيمان في مجمع نيقية يمجدونه مع الآب والابن ضمن الإيمان بالتالوث الأقدس(1080).

في روما ...

ولكن للأسف وقعت روما في حبائل مقدونيوس وأتباعه، إذ أرسل إلى البابا ليبريوس بعثة من مجعته الخارج على الإيمان، المُسمّى بمجمع لمباسكوس سنة 365م ونجح مقدونيوس في إقناع البابا ليبريوس وكل أساقفة إيطاليا، واكتسبهم أنصاراً له في ما يخص تعاليمه المغشوشة عن الروح القدس(1081)، مدعياً أنه يتمسك بقوانين

(1077) Sozom., V. 12; Socrate III. 7; Ruf. H.E. 1. 28.

(1078) Socr. II. 45; Sozom. IV. 27; Theodor., II. 6.

(1079) D.C.B., p. 121; by Rev. H.B. Swete.

(1080) Ad. Jovian 4; Migne XXVI, 820.

(1081) D.C.B., by Rev. H.B. Swete, p. 122.

وبهذه المناسبة نذكر بالأسى أنه بعد موت هذا البابا حدثت مذبحة قُتل فيها 137 شخصاً من الشخصيات المتزاحمة بسبب انقسام معركة الانتخابات بين داماسوس ويورسينوس Ursinus المزاحم له، حتى بلغت حد الحصار في الكنائس واقتسام النفوذ عليها. وقد تمّ بالفعل رسامة كل منهما بابا، داماسوس بابا روما في كنيسة القديس لورنزو ويورسينوس بابا روما في كنيسة بازيكا يوليوس (1082).

ولكن في سنة 366م بعد اعتلاء البابا داماسوس وهو أسباني الأصل (304-384م) كرسي روما (1083)، افتضح الأمر واكتشف الغرب أخيراً الفخ الذي سقطوا فيه وذلك بفضل ومضات النور المنبعثة من فنار الإسكندرية - أثناسيوس اللاهوتي - الذي لم يهدأ ولم يبتئن أن يفضح الظلام شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً سواء بالرسائل الخاصة أو بإعلان مقرّرات المجمع التي عقدها في الإسكندرية لهذا الغرض (360-363م).

واستيقظت روما متأخرة جداً على رائحة الهرطقة التي دخلت كنيستها وتغلغلت فيها بسبب غفلة البابا ليبريوس المذكور، وبدأ الأساقفة في الاجتماع وعقد المجمع المتتالية برئاسة داماسوس أسقف روما، وذلك بمساعدة الإمبراطور فالانتيان الأول، لدحض هذه الهرطقة بلا توقّف. ويذكر لنا المؤرّخ المشهور هفلي أنه لم تهدأ روما من سنة 368-381م وهي تقيم المجمع الواحد تلو الآخر، الأول سنة 369م، والثاني سنة 374م، والثالث سنة 380م (1084). وفي هذه المجمع استعادت روما أرثوذكسيتها وقرّرت بكل وضوح وتأكيد أن:

- 1 - الروح القدس غير مخلوق.
- 2 - أنه في كرامة واحدة وجوهر واحد (أوسيا) وقدرة واحدة مع الأب والابن.
- 3 - أزلي عالم بكل شيء (كَلِّي العلم)، موجود في كل الوجود، متميّز بشخصه، معبود من الكل (كَلِّي العبادة)، منبثق من الأب فقط، واحد مع الأب والابن باتحاد كامل مطلق.

(1082) Acc. to the Gestie inter Liberium et Felicem 160; cited by Cross. *Dict.* p. 370.

(1083) Ibid.

(1084) Hefele, *op. cit.*, vol. II. 287-393.

وحرمت بالتالي أريوس ومقدونيوس وإينوميوس وكل مَنْ أنكر أزلية الروح القدس وانبثاقه من الآب = De Patre esse vere ac proprie (فقط) (لاحظ هنا أيها القارئ أن إيمان روما كان أرثوذكسياً صحيحاً سليماً في ما يخص انبثاق الروح القدس من الآب فقط في القرن الرابع).

كذلك حرمت كل مَنْ يقول إنه مخلوق أو إن الابن خلقه، حتى ولو كان أرثوذكسياً في كل نواحي الإيمان الأخرى.

وأعلنت روما إيمانها (بعد وفاة أثناسيوس بخمس سنوات وعلى هدى مقررات مجامع الإسكندرية) بالتالوث الأقدس، لاهوت واحد قدرة واحدة وكرامة ومجد واحد، وسُمِّي هذا: “طومس داماسوس” ولاقى قبولاً في أنطاكية ووقع عليه 146 أسقفاً اجتمعوا في مدينة أنطاكية سنة 378م بحسب تحقيقات العالم والمؤرخ هفلي (1085).

ماذا في قيصرية وتعاليم أسقفها يوسابيوس المؤرخ الشهير (264-340م):
يُعتبر من القلائل الذين عاصروا عصر ما قبل نيقية (وكان عضواً في جماعة النصف أريوسيين)، وعصر ما بعد نيقية، وواحد من أكثر المتحمسين لأوريجانوس (1086).

لقد كان غير دقيق في تعبيراته اللاهوتية، حتى أنه يمكن بسهولة وضعه ضمن المتقدمين في الهرطقة الأريوسية (1087).

فكان يوسابيوس يؤمن ويعلم بأن الروح القدس هو ثالث في الكرامة والمجد وفي الدرجة أيضاً أي في الجوهر (1088).

فكان يصف “الروح القدس بأنه يستقبل نوره من (الكلمة)، كالقمر في فلك اللاهوت وأنه يستمد كل كيانه وصفاته من الابن”.

وبذلك كان يحسبه أنه ليس إلهاً ولا حتى بمستوى الابن، أي ليس غير مخلوق، وكونه لا يستمد أصله من الآب كالابن فيتحمم أن يكون واحداً من الأشياء التي خلقت

(1085) Ibid., p. 291, 360-363.

(1086) Socr., II. 21.

(1087) Rev. H.B. Swete, D.C.B., p. 123.

(1088) Paraep. Evang., VII. 16.

بواسطة الابن وبالنص الحرفي هكذا(1089):

mo...wj tù ufù ka^ ذ كص z tò patr™ 3/4j, t™p^ mzte uf-j, o zte qe-o]
ufoà ti tân di: toà ʒnesin e:lhfen »n dʒt»n g ظصص
(1090).[nwnʒgenom

ثم يعود يوسابيوس ويستدرك هذا الشطط، لعلّه يعيد للروح القدس شيئاً من هيئته الإنجيلية فيقول: وبالرغم من أنه مخلوق إلا أنه أعلى وأفضل جميع المخلوقات ... وهيهات لأي كرامة لمخلوق؟ كما يتبين من أقوال يوسابيوس هذا، أن انبثاق الروح القدس مرتبط فقط بإرساليته، أي كحدث زمني.

وماذا في أورشليم عند كيرلس الأورشليمي

صاحب التعاليم المشهورة للموعوظين (315-386م):

لقد عاش هذا الأسقف حتى شاهد ختام المعركة اللاهوتية ضد الأريوسيين التي بدأت في صبوته المبكرة. والمعروف عن منهجه اللاهوتي أنه جاز عدة تطورات وتصحيحات على طول المدى(1091)، ولقد كتب مقالة عن الروح القدس في بكور حياته (347-348م).

وكان من الآباء النادرين الذين تمسكوا بتعليم الكتاب المقدس والتقليد والتزم الصحة في التعبيرات اللاهوتية في ما يخص الروح القدس، بسبب ما كان يجري أمامه من المعارك اللاهوتية وتعاليم أثناسيوس التي أنارت الشرق والغرب، وبسبب شدة تعلقه بالأسرار الكنسية وخاصة المعمودية التي اعتبرها الأساس في التعليم والبناء الروحي، لذلك صار هذا الأسقف نموذجاً رائعاً للتمسك بالتقليد وبالأسرار كمصدر استنارة لإدراك اللاهوت وتجنب الأخطاء اللاهوتية، وإن كانت تعاليمه جاءت غامضة في ما نحن بصدده ولكن يمكن استشفاف الأفكار الآتية من تعاليمه عن الروح القدس كالاتي:

- 1 - يرفض فكرة أوريغانوس في ما يخص خلقة الروح القدس بواسطة الابن.
- 2 - يعتبر الروح القدس مساوٍ في الكرامة للآب والابن.

(1089) Euseb., De Eccl. Theol., III. 6.

(1090) Euseb., De Eccl. Theol., III, 6.

(1091) Sozom., IV. 25; VII, 8; Socr. V. 8.

3 - يحدّد شخصية الروح القدس ويؤكّد على وحدانيته المتميّزة عن ظهوراته المتعدّدة (بالمواهب المتعدّدة).

4 - لا يحدّد انبثاقه وكيفيته ولكن يكتفي بالقول أن الابن يمنح الروح القدس ما يستلمه هو من الآب، وهنا يظهر بنوع ما الانحراف في فهم درجة طبيعة الروح القدس (1092).

“g...J ، j metad...dwsin نص d\edwsin ufù ka^ ufṛpat³⁄⁴r m^”
عpne”mati.

ثم يقف هنا حائراً ويقول إنه لا يليق بنا بعد ذلك أن نفحص أموره أكثر من ذلك.

5 - وأهم ما يجيء في تعاليم كيرلس الأورشليمي عن الروح القدس هو مفاعيله ومواهبه وأعماله كالآتي:

(أ) يقدّس ويؤلّه - nḡeopoi - بنعمته الخاصة كل ذي طبيعة عاقلة أو مفكّرة كضرورة حتمية للاقتراب من الله، ولا يُستثنى من ذلك الملائكة ورؤساء الملائكة (1093) (يقرّر هذا القديس أثناسيوس بوضوح).

(ب) ألهم الأنبياء، وحلّ على الرب، وأعطى للرسول، يُمنح للمعمّدين في المعمودية في لحظة العماد (1094).

صt kat| nàn ka^ ص kairص n صn toà bapt...smatoj sfrag...zon
n sou t³⁄⁴n yuc»n

كذلك فإنه يُعطى لنا أيضاً لحظة التثبيت (1095) (وضع اليد = الميرون).

(ج) الروح القدس يقدّس ويحوّل الإفخارستيا (1096).

(د) يوحى إلينا بكل الأفكار المقدّسة (1097).

(1092) Catech. XVI. 24.

(1093) Ibid., IV. 6; XVI. 23.

(1094) Ibid., IV. 16.

(1095) Ibid., XXI. 2,3.

(1096) Ibid., XXIII. v. 9,17.

(1097) Ibid., XVI. 19.

(هـ) الروح القدس هو النار الإلهية التي تُفني الخطية وتنير النفس التي تتقبَّل نعمته (1098).

وهكذا يغطِّي كيرلس الأورشليمي مفهوم الروح القدس للمعمَّد العادي، ولكنه على المستوى اللاهوتي يقف عاجزاً عن فهم الجوهر الواحد الذي للآب والابن والروح القدس، أي التساوي المطلق في الثالوث الذي بدونه يستحيل الإيمان بوحداية الله.

كما يقف عاجزاً عن فهم الانبثاق من الآب فقط (كانبثاق الشعاع من الشمس) كصفة جوهرية لأقنوم الروح القدس، الذي بدون ذلك يستحيل فهم مساواته للابن أو الآب في الجوهر والكرامة.



القديس أثناسيوس الرسولي وإرساء القواعد الثابتة للاهوت الروح القدس ووحدة الثالوث

إلى القديس أثناسيوس يعزى منهج التعريف اللاهوتي للروح القدس على أصول البحث المنهجي العلمي بما لا يقل دقة وأصالة عن منهجه في التعريف بالابن. وبدراسة الرسائل المتبادلة بينه وبين القديس سيرابيون أسقف تمي في ما يخص الروح القدس، كذلك بدراسة كل ما جاء في دفاعه ضد الأريوسيين، يتضح هذا المنهج بخطواته وعمقه واستشهاداته والتزامه بالفكر التقليدي الكنسي الإسكندري على المستوى الكتابي والروحي وبالهام واضح. فهو يقول لسيرابيون أسقف تمي هكذا:

[إن هذا هو التعليم الذي استلمته الكنيسة من الرسل.] (إلى سيرابيون 28:32)

[لنتأمل في تقليد الكنيسة الجامعة وتعاليمها وإيمانها منذ البدء التي أعطاهها الرب، وركز بها الرسل، وحفظها الآباء. على هذه تأسست الكنيسة، ومن يسقط منها لا يعتبر مسيحياً ... هكذا ينادى بإله واحد في الكنيسة، الذي على الكل، وبالكل وفي الكل. "الترجمة الأصح: الذي هو كلّي الأصل (على) وكلّي السبب (ب) وكلّي التنفيذ (في)، وهي الصفات الخاصة المتكاملة بالآب والابن والروح القدس، حيث كلمة (كل) لا تفيد الأشياء أو المخلوقات بل تفيد معنى الكلية، أي المطلق، أي الله في ذاته الكلية المطلقة" على الكل كآب، كبدائية، كينبوع؛ بالكل أي بالكلمة، في الكل أي في الروح القدس ... فإن كنتم تفصلون وتعزلون الروح القدس عن اللاهوت، لا يكون لكم ذلك الذي هو في الكل، وإن فكّرتم في ذلك فإن طقس الانضمام إلى الكنيسة (المعمودية والتنشيط) الذي تدعون أنكم تمارسونه لا يكون في اللاهوت قطعاً.] (إلى سيرابيون 28:1 و29)

والقديس أثناسيوس يواجه أخطاء جماعة المتقلبين "tropici" في عجزهم عن فهم ما هية الثالوث في وحدانية الله، بتوضيحه أن اختلاط الطبائع يستحيل أن يستقيم مع وحدانية الثالوث غير المنفصل؛ فالروح القدس كونه في الثالوث يستحيل أن يكون

بطبيعة غير طبيعة الأب والابن عينا. ومن هنا يستحيل أن يُقال أن في الثالث خالق ومخلوق، بل إله واحد.

“ s ma... kt, o e, t pset s et s unet ح tri f di س qe e j r g l h z i n s t i n j ”

وفي معرض دفاعه يوضّح علاقة الروح القدس بالأب والابن، وهكذا يقدّم القديس أثناسيوس ولأول مرّة في تاريخ الكنيسة اللاهوتي منهجاً تعليمياً مفصلاً عن عقيدة الانبثاق، فهو في الأساس يقرّر بوضوح:

[إن الروح القدس منبثق من الأب z t m k p z t r e u m a t o à p a t r z j (1099)]

ثم يضع هذا الاصطلاح اللاهوتي الجوهري مراراً كثيرة هكذا: “الذي من الأب ينبثق” وهو تجميع للآيتين: يو 15:26، 1 كو 12:2 = ص t z t m k t o à p a t r z j m e n o n z t m k p o r e u

ويضيف أثناسيوس عن عقيدة إرسال الروح القدس هكذا: [الروح القدس الذي ينبثق من الأب فهو دائماً عند (في يدي) الأب الذي يرسله والابن الذي يوصله والذي به يملأ كل شيء]. [1100]

[لأنه إذا استقام تفكيرهم (المجدّفين على الروح القدس) عن “الكلمة”، استقام تفكيرهم أيضاً عن الروح المنبثق من الأب، الذي بفضل علاقته (أي علاقة الروح القدس) بالابن - أعطاه للتلاميذ وكل من يؤمن به. وهم بأخطائهم هذه لا يستقيم إيمانهم بالأب أيضاً لأن الذين “يقاومون الروح” كما قال الشهيد العظيم استفانوس (أع 7:51 و52) ينكرون الابن أيضاً، والذين ينكرون الابن ليس لهم الأب أيضاً (1 يو 2:23)]. [1101]

أولاً: علاقة الروح القدس الجوهرية بالكلمة:

وإزاء محاولة جماعة المتقلّبين جدد لاهوت الروح القدس في الوقت الذي يعترفون فيه بلاهوت الابن، يبدأ ينتحي ناحية فرعية - أثناء دفاعه عن لاهوت الروح القدس - في وصف علاقة الروح القدس الجوهرية بالابن خاصة، فيقول: إن

(1099) Athanas., *Exposito Fidei* (ek Thesis), pag. 4.

(1100) Ibid.

(1101) *Ad Serap.* 1, 2.

الروح القدس حتى قبل التجسّد كان "الكلمة" يعطيه باعتباره أنه - أي الروح القدس - له خاصة وأنه هو الباراكليت:

[عندما حلّ الكلمة على الأنبياء تنبأوا بالروح.] (إلى سيرابيون 4:3)

[وبكل تأكيد فإن الكلمة قبل أن يتأّس كان يعطي الروح القدس للقيسين باعتباره له أو كخاصته (as his own = ἑδίων) كذلك لمّا صار إنساناً فإنه يقُدّس الجميع بالروح القدس ويقول لتلاميذه "أقبلوا الروح القدس".] (1102)

[هل الروح القدس "واحد" والباراكليت "آخر"، حيث يكون الباراكليت هو بعد الروح القدس، وهل الباراكليت لم يذكر في العهد القديم؟ - حاشاً! ... فكما أن "الكلمة والابن" هما واحد كذلك "الروح والباراكليت" والرب نفسه قال هكذا: "والباراكليت الذي هو الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي" (يو 14:26) وهكذا يتكلّم الرب عن الواحد نفسه.] (1103)

ملاحظة هامة:

وبسبب هذه الهرطقة التي نشأت منذ القرن الثاني القائلة بأن الباراكليت لم يكن موجوداً في العهد القديم، وأن الروح شيء والباراكليت شيء آخر، وقد تبنّاها جماعة المتقلّبين والأريوسيين؛ لذلك اهتم مجمع أفسس أن يقرّر عن الروح القدس أنه: "الناطق في الأنبياء"، وقد انبرى قبل أنثاسيوس يوستين، الذي كان أول من أعطى صفة "روح النبوة" للروح القدس التي نردّها الآن في الأجبية n:profhtik عندما كان يتكلّم عن المعمودية (1104)، كذلك تعرّض لها أوريجانوس أيضاً (1105). يقول القديس أنثاسيوس:

[إن الكلمة صار جسداً لكي يقدّم جسده عن الجميع ولكي إذا نحن اشتركنا في الروح القدس نصير شركاء الطبيعة الإلهية (نتألّه). هذه العطية التي كان يستحيل علينا نوالها إذا لم يكن لبس جسداً من جسدنا المخلوق، ولكننا بنوالنا

(1102) Athanas., *C. Ar.*, I, 48.

(1103) Athanas., *C. Ar.*, IV, 29.

(1104) Justin, *Apol.* I, 61; I, 6, 13; Trypho 49, 54, 61.

(1105) Origen, *In Tir*, t. 4, p. 695; cited by Newman, *op. cit.*,

الروح القدس لا نفقد طبيعتنا الخاصة.[(1106)

كذلك فإن أثناسيوس قبل أن يصل بالقارئ إلى المساواة الكاملة للروح القدس في الثالوث مع الآب والابن، يبدأ أولاً بوضّح العلاقة الجوهرية المتساوية في كل شيء بين الروح القدس والكلمة، حتى ينفي قطعياً قول الهرطقة أن الابن خلقه فيقول:

[كما أن الابن هو في الآب والآب فيه وأنه من جوهر الآب \ddagger dioj t ء toà j o zpatr z...ajz s. كذلك فإن الروح القدس هو في الآب والابن فيه، ولذلك لا يمكن أن يُقال إن الروح القدس مخلوق أو يوجد منفصلاً عن الكلمة.] (1107)

[وكما أن الابن هو في (من) الآب، لذلك هو من جوهر الآب. كذلك بالتالي فإن الروح القدس لأنه في (من) الله فإنه يتحتم أن يوجد جوهرياً مع الابن \ddagger dioj o kat' s...anظ]. (1108)

[عندما افنتقد «الكلمة» العذراء القديسة مريم، دخل الكلمة ومعه الروح القدس إليها = «rceto - e, j - sun وصاغ الكلمة جسده بالروح القدس TM_n tù ع pne tœplaitē sîmazmati وشكّله لذاته، إذ أراد أن يوحد - فيه - كل البشرية (اتحاد) بالله ويحضرها إليه بواسطة نفسه.] (إلى سيرابيون 31:1)

[لا يمكن أن يتجزأ الثالوث، هذا نراه في ما قيل للقديسة مريم نفسها، فإن رئيس الملائكة جبرائيل لما أرسل لكي يعلن حلول الكلمة عليها قال: «الروح القدس يحل عليك»، عالماً أن الروح القدس قائم في «الكلمة». وبعد ذلك مباشرة يقول: «وقوة العلي تظلك (تسكن فيك)» لأن المسيح هو قوة الله وحكمة الله.] (إلى سيرابيون 6:3)

[لذلك كم يكون مستحيلاً أن يُقال إن الروح القدس خارج عن أو غريب من الكلمة TM_{kt} ص toà j z gou لأنه كونه في الكلمة فهو في الله = TM_n tù z gJ ش a di' qèu TM_n ظ TM_{stin} toà.] (1109)

(1106) Athanas., *De Decr.* 14.

(1107) Athanas., *C. Ar.*, I, 20, 21.

(1108) *Ibid.*, I, 25.

(1109) *Ibid.*, III, 5.

[إن الروح القدس هو التعبير الكياني «morf والصورة e,,kèn الموضحة للابن كما أن الابن هو التعبير الكياني وصورة الأب.] (1110)

وأثناسيوس يستخلص من هذه العلاقة الجوهرية والمتساوية في كل شيء بين الكلمة والروح القدس رداً مفحماً لجماعة المتقّليين، الذين يقولون بلاهوت الكلمة وينكرون لاهوت الروح القدس قائلين إن الكلمة خلقه.

ولكن لا يغيب عن بالنا أن همّ أثناسيوس الأساسي في إثبات لاهوت الروح القدس ليس من صفاته أو علاقته بالكلمة فحسب، بل ومن عمله في الخليقة القديمة والخليقة الجديدة هكذا:

[بينما أن الخليقة كلها هي مجال عمل الروح القدس المتعدّد الجوانب، فإنه يعمل بصورة خاصة جداً وفائقة في المعمّدين الذين يوحدّهم في الله:

thti z qeحmeqa t z sunaptحmatoj metocع toà pneحt

وبسبب هذه الوحدة يصيرون بحالة ما مؤلّهين “ = qeopoioàntai [..]” deified (1111)

(1) التقديس:

[إذن فالروح القدس، الذي لا يتقدّس هو بشيء خارجاً عن نفسه، ولا يستمد قداسته بالشركة بل هو نفسه ينبوع القداسة وفيه تتقدّس كل الطبائع المخلوقة، كيف يمكن أن تكون طبيعته مثل طبيعة المخلوقات التي تتقدّس به؟] (إلى سيرابيون 23:1)

(2) طقس الانضمام للكنيسة (العضوية في جسد المسيح):

[لقد أوصى تلاميذه قائلاً: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الأب والابن والروح القدس»، لكي بالروح القدس وفيه تكمل معرفتنا بالله = qeolog...a ويتم طقس الانضمام للكنيسة (المعمودية والتثبيت معاً)، ويكمل اتحادنا بشخصه وبالأب.] (إلى سيرابيون)

(أ) الروح القدس لحظة العماد:

(1110) Ibid., III, 2; IV, 3.

(1111) Ibid., III, 24, 25.

[فماذا قبلوا (لَمَّا آمنوا) إلا الروح القدس الذي يُعطى للذين يؤمنون
ويُولَدون ثانيةً «بغسل الميلاد الثاني» (تي 5:3).] (إلى سيرابيون 4:1)

(ب) الروح القدس لحظة وضع اليد (الميرون = التثبيت):

[كذلك أيضاً بوضع أيدي الرسل كان الروح القدس يُعطى لمن وُلِدوا
ثانيةً.] (إلى سيرابيون 6:1)

[ومتى تمَّ هذا إلا عندما جاء الرب وجدَّد كل الأشياء بالنعمة؟ فروحنا
تجدَّدت ... يقول الله إن روحه هو الذي به تتجدَّد أرواحنا .ϕnakain...zw
(إلى سيرابيون 9:1)]

(3) ثم يشير أثناسيوس إلى عمل الروح القدس الأساسي في رسامة الأساقفة في
الكنيسة:

[كما قال بولس الرسول: «التي أقامكم الروح القدس فيها أساقفة، لترعوا
كنيسة الله التي اقتناها بدمه» (أع 28:20).]

(4) يمتد أثناسيوس بمفهوم قوة التقديس في الثالوث إلى عملها الخاص بالروح القدس،
ويستنتج مباشرة أن الروح القدس من جوهر الثالوث أي اللاهوت لأنه يقَدَّس الإنسان:

[إن الروح القدس يُدعى روح القداسة (المسيح هو القدوس ابن الله)، وأمَّا
المخلوقات فهي تحتاج - بطبيعتها - إلى التقديس، أمَّا هو فلا ينال القداسة من آخر
بالمشاركة بل يمنحها باشتراكه هو مع الخليقة (الجديدة)، لذلك كيف يمكن أن يُقال
أنه يعتبر واحداً من الخليقة؟] (إلى سيرابيون 23:1)

(5) كذلك يستخدم أثناسيوس سر قدرة الروح القدس على إعطاء الحياة (المسيح هو
الحياة) في إثبات لاهوته:

[إنه يُدعى الروح المحيي (و «روح الحياة في المسيح يسوع»، لأن منه تنال
المخلوقات الحياة؛ علماً بأن الابن هو نفسه الحياة ويُدعى في الإنجيل رئيس
الحياة، فكيف يُحسب الروح القدس ضمن المخلوقات وهو الذي فيه تنال
المخلوقات الحياة بواسطة الكلمة؟] (إلى سيرابيون 23:1)

(6) وهكذا يرى أثناسيوس أن علاقة الابن بالروح القدس علاقة («الابن» وروح

البنوة)؛ (‘قدوس’، وروح القدس)؛ (‘حياة’ وروح محيي). كذلك يراها (‘مسيح’، ومسحة)؛ (‘وكلمة’ وختم)؛ (‘وطيب’، ورائحة زكية):

[لهذا فكما أن الرب يُدعى ابناً هكذا يُدعى الروح القدس روح البنوة (روح التبني)، كذلك أيضاً كما أن الابن يُدعى ‘الحكمة’ و‘الحق’، فالروح القدس يُدعى ‘روح الحكمة’ و‘روح الحق’، وكما أن الابن هو قوة الله ومجد الآب (رب المجد) فالروح القدس يُدعى روح القوة والمجد:

+ «لو عرفوا لما صلبوا رب المجد.» (1كو 2:8)

+ «إذ لم تأخذوا روح العبودية (الناموس) أيضاً للخوف، بل أخذتم روح التبني.» (رو 8:15)

+ «أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً: يا آبا الآب.» (غل 4:6)

+ «إن عيرتُم باسم المسيح، فطوبى لكم، لأن روح المجدِ واللهِ يحلُّ عليكم» (1بط 4:14)

+ «المعزي ... روح الحق» (يو 14:26 و17). [إلى سيرابيون 1:25)

[الروح يُدعى المسحة Cr...sma، ويُدعى أيضاً الختم sfr̥gij، وبه تُختم وتُمسح الخليقة (الجديدة)، فإن كان الروح هو المسحة وهو الختم الذي به يُمسح ‘الكلمة’ الجميع ويختتمهم، فأية مشابهة تكون بين المسحة والمخلوق الذي يُمسح، أو بين الختم والمختوم. يستحيل أن يكون الختم من عداد المختومين به أو تكون المسحة من عداد الممسوحين (الختم شيء والمختوم شيء آخر، المسحة شيء والممسوح شيء آخر، هذه قوة الطبيعة الإلهية الواهبة وهذه ضعف الطبيعة القابلة) إنه الروح الخاص بالكلمة وبه يُمسح ويُختم (المعمّدون).] (إلى سيرابيون 1:23)

(7) ويؤكّد أثناسيوس أن الروح القدس هو روح المسيح الخاص، ويستدل على ذلك من أن الذين يُمسحون به تصير لهم رائحة المسيح الزكية لله والذين يُختمون به تنطبع عليهم صورة المسيح الكلمة:

[المسحة Cr...sma لها نفس رائحة الذي يُمسح بها، ولذلك فالذين يقبلون

المسحة يقولون: «نحن رائحة المسيح الزكية لله.»] (إلى سيرابيون 1:23)

(8) [والختم sfr̥gij يحمل نفس صورة المسيح الذي يختم، ولذلك فالذين يُختمون

تصير لهم شركة هذه الصورة، ويتحوّلون إليها بحسب كلمات الرسول: «يا أولادي الذي أتمخّض بكم (الميلاد الجديد) إلى أن يتصوّر المسيح فيكم (بالروح القدس)». [إلى سيرابيون 23:1]

(9) [وحيثما نُختم بالروح القدس نصير شركاء الطبيعة الإلهية (طبيعة الختم والخاتم) بحسب كلمات بطرس الرسول، وهكذا تصبح الخليقة (الجديدة) شريكة الكلمة في الروح القدس.] (المرجع السابق)

(10) وينتقل أنثاسيوس سريعاً ليصل بالاتحاد الذي يتم بالكلمة في الروح القدس إلى الاتحاد الذي يتم في الثالوث أي الله الواحد:

[وحيث أننا نصير بالروح القدس شركاء المسيح وبالتالي شركاء الله، يتبرهن من ذلك أن المسحة والختم الذي فينا لا يُحسب أنه من طبيعة الكائنات المخلوقة، بل من طبيعة الابن الذي بواسطة الروح الذي فيه يوحدنا مع الآب.] (إلى سيرابيون 24:1)

(11) [فإن كان الآب هو الذي يخلق ويجدّد الجميع بواسطة الكلمة في الروح ... فإن الروح الذي فيه يخلق الجميع، كيف يكون هو مخلوقاً؟]

إن قبول مثل هذا الافتراء يضطرنا أن نقول مثل هذا بالتالي عن الابن بل وعن الآب نفسه أيضاً.] (إلى سيرابيون 24:1)

ثانياً: علاقة الروح القدس الجوهرية بالآب والابن في الثالوث:

[الثالوث كله إله واحد ...، ولا موضع فيه لشيء غريب عن الله.] (سيرابيون 17:1)

[هذا هو إيمان الكنيسة الجامعة، لأن الرب أسسها في الثالوث وأصلّها فيه عندما قال لتلاميذه: «أذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس».] (إلى سيرابيون 6:3)

يبتدئ أنثاسيوس ليثبت وحدة الروح القدس مع الآب والابن، معتمداً كلية على الكتاب المقدّس مقدّماً الآيات تلو الآيات، معتبراً أن إعلان الله في الكتاب المقدّس هو المصدر الوحيد لفهم ماهية الروح القدس، مؤكّداً إن وحدة الأقانيم الثلاثة هي وحدة جوهر ثم وحدة في صفات وفي أعمال، فكل ما يعمله الروح القدس إنما يعمل من

خلال وحدته بالآب والابن.

فهو يعتمد على بولس الرسول مثلاً في قوله: إننا في الروح القدس تستنير عيوننا (انظر: أف 17:1 و18)، وإننا جميعاً سُقينا روحاً واحداً (انظر: 1كو 12:13). ثم يطبق ذلك على ما جاء عن الآب فيقول إن الكتاب المقدس يقول إن الآب نور وينبوع، وكذلك الابن أيضاً الذي يتصل بالآب كما يتصل النهر بالينبوع أو الشعاع بالنور (انظر: عب 1).

[وحيث أن الآب نور والابن بهاء هذا النور، فنحن في الابن ننال الروح الذي به نستنير، وحينما نستنير بالروح القدس يكون المسيح نفسه هو الذي ينير علينا لأنه هو النور الذي يضيء لكل إنسان آتٍ إلى العالم.

وبالمثل من حيث أن الآب هو الينبوع، والابن كنهر، يُقال إننا نشرب الروح...، وحينما نشرب الروح فنحن في الواقع نشرب من المسيح، لأنه هكذا قيل عن شعب إسرائيل في البرية إذ كانوا يشربون من صخرة روحية كانت تتبعهم والصخرة كانت المسيح.] (إلى سيرايبون 19:1)

ومن نفس هذه الوحدة بين الأقانيم الثلاثة نحن نقبل روح التبني:

[حيث أن المسيح هو الابن الحقيقي (بالجوهر)، فنحن حينما نقبل الروح القدس نصير أبناءً "بالروح". ولكن حينما نصير أبناء، فمن الواضح أن ذلك يتم في "المسيح"، لذلك ندعى أبناء "الله" (بالتبني).] (سيرايبون 19:1؛ ضد الأريوسية 19:3)

ثم من نفس هذه الوحدة في الثالوث نتقبل روح الحكمة:

[حيث أن الابن هو حكمة الله، فنحن حينما نقبل روح الحكمة، فنحن نقبل في الحقيقة الابن الذي به نصير حكما. (نفس المرجع السابق)]

ثم بنفس هذه الوحدة في الثالوث يصير حلول الأفتوم الواحد، أي الروح القدس، لا بمعنى أنه يكون بديلاً عن الابن أو الآب بل أننا به نحقق حلول الآب والابن:

[«إن أحببنا بعضنا بعضاً، فالله يثبت فينا. بهذا نعرف أننا نثبت فيه وهو فينا أنه أعطانا من روحه». وحيث أن الله يثبت فينا، فالابن أيضاً يكون فينا، لأنه هو نفسه يقول ذلك «إليه نأتي - أنا وأبي - وعنده نصنع منزلاً».] (نفس)

المرجع السابق)

هكذا نرى أن جميع الأعمال المنسوبة للروح القدس تكون في الواقع هي أعمال المسيح نفسه:

[كل ما كان الابن يعمل، كان يقول إن الآب الحالّ فيه هو الذي يعمل. وهكذا على هذا النمط كل ما كان بولس الرسول يعمل بالروح كان يدعو عمل المسيح فيه.] (نفس المرجع السابق)

ومن ذلك يخرج أثناسيوس بالنتيجة الآتية:

[فحيث أن الثالوث المقدّس يمتاز بمثل هذه الوحدة وهذا الاتحاد، فمن ذا يستطيع أن يفصل الابن عن الآب، أو الروح القدس عن كل من الآب والابن؟ ومنّ ذا يجسر أن يتكلم عن اختلاف أو مفارقة في طبيعة الثالوث كأن يقول إن الابن من جوهر مخالف لجوهر الآب أو إن الروح القدس غريب عن الابن؟] (سيرابيون 20:1)

هكذا يصل أثناسيوس إلى الحقيقة أن وحدة الروح القدس بكل من الآب والابن هي من نفس نوع الوحدة الكائنة بين الآب والابن، أي وحدة الجوهر والطبيعة. وهكذا يفهم أثناسيوس المعترضين على لاهوت الروح القدس بنفس برهان التحدي الذي قدّمه مراراً للأريوسيين، أن الأحرى بهم أن يفصلوا الشعاع من النور أو الحكمة من الحكيم إن أرادوا أن يفصلوا الروح القدس عن الآب والابن (1112).

[يقولون - مستنكرين - كيف بمجرد أن يكون الروح القدس فينا يُقال إن الابن أيضاً فينا؟ أو حينما يكون الابن فينا يكون الآب أيضاً فينا؟ - ثم يستطردون: إن كان الثالوث حقاً من ثلاثة أقانيم، فكيف يكون وجود الواحد منهم كافياً لوجود الثالوث كله؟ إن من يتساءل مثل هذه الأسئلة فالأحرى به أن يفصل الشعاع من النور أو الحكمة من الحكيم!!] (إلى سيرابيون 20:1)

[كما أن الابن حالّ في الروح القدس كما في صورته الخاصة، هكذا الآب حالّ في الابن.] (نفس المرجع السابق)

ويوضِّح أثناسيوس هذه التعبيرات الخاصة بالعلاقة بين الأقانيم قائلاً:
[إن الكتاب المقدَّس يستخدم مفاهيم الصورة والشعاع والنور والينبوع والنهر
... إلخ لكي يسهِّل علينا التعبير عن هذه الحقائق الفائقة، ولكي نؤمن أنه لا
يوجد إلاّ تقديس واحد للنفس وهو الذي يأتي من الآب بالابن في الروح القدس

=
g...J 'mati z di' ufoà TMn pnezn TMk patrzn, t'ziasm'n znai t'çna e
[menon'gen

وهذا الاصطلاح يعتبر تلخيصاً سهلاً لكل ما أجاب به أثناسيوس على استنكرات
المنكرين لوحدة الأقانيم معاً مع احتفاظ كل أقنوم بمميزاته الشخصية، لأن وحدة القوة
المقدَّسة في الثالوث هي التي تفسِّر لنا أنه بمجرد حلول أحد الأقانيم الثلاثة، يُقال في
الحال إن الثالوث كله يكون موجوداً:

[لكي نعتقد أن هناك قداسة واحدة مستمدة من الآب بالابن في الروح القدس،
وكما أن الابن مولود وحيد الجنس، هكذا فإن الروح القدس واحد غير متعدّد،
ليس واحداً من كثير (المواهب المتعدّدة التي له)، بل روح وحيد. وكما أن
الابن الكلمة الحي وحيد هكذا ينبغي أن يكون (روح الابن) القوة الحية
والعطية، الذي به يقَدَّس وينير، ينبغي أن يكون وحيداً كاملاً تاماً، وهو الذي
قيل إنه ينبعث من الآب، لأنه من الكلمة المعترف أنه من الآب، وهو الذي قيل
إنه يشرق ويرسل ويعطي - وكما أن الابن أرسل من الآب، كذلك الابن يُرسل
الروح القدس «إن ذهبت أرسل الباراكليت».] (إلى سيرابيون 20:1)

[ووحدة الثالوث كاملة، لأن الآب يصنع كل شيء بواسطة الابن في الروح
القدس.] (إلى سيرابيون 28:1)

وهنا نستطيع أن نفهم سر إصرار بولس الرسول حينما يتكلّم عن مواهب الروح
القدس كيف يرجع كل شيء إلى الله الآب (1كو 6:12) وهذا يأخذه أثناسيوس
ويشرحه:

[فما يقسمه الروح القدس لكل واحد، يكون الآب هو الذي يمنحه بواسطة
الكلمة، لأن كل ما للآب هو للابن، وبالتالي فالمواهب التي يمنحها الابن في
الروح القدس هي أصلاً مواهب الآب.] (إلى سيرابيون 30:1)

ثم إن هذه الوحدة الكائنة بسبب التساوي المطلق في الثالوث - وحدانية الله - هي التي تفسّر لنا العمل الواحد والتواجد المشترك للأقانيم فينا:
[حينما يكون الروح فينا يكون الكلمة - الذي يمنح الروح - هو أيضاً فينا وفي الكلمة يكون الآب نفسه].

هكذا يؤكّد القديس أثناسيوس أن الأقانيم الثلاثة متلازمون، ولا يمكن الفصل بينهم كما لا يمكن الفصل بين النور والشعاع أو بين الشعاع وقوته ...
وهنا يكمن سر البركة المتلازمة العمل والفاعلية للثالوث التي يصر عليها بولس الرسول: «نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس مع جميعكم.»
(2كو 13:14)

[إن النعمة التي يمنحها الثالوث هي بالضرورة من الآب بواسطة الابن في الروح القدس. فكما أن النعمة تأتي من الآب بواسطة الابن، هكذا أيضاً لا يمكننا أن ننال شركة فيها إلا في الروح القدس، فحينما ننال شركة الروح تكون لنا بالتالي محبة الآب ونعمة الابن.] (إلى سيرابيون 1:30)

[ومن هذا يظهر أن عمل الثالوث واحد، فالمواهب التي يتكلم عنها الرسول لا يقول عنها إنها تُعطى من كل واحد من الأقانيم الثلاثة على حدة، بل يقول إنها معطاة في الثالوث، وإن جميعها من الله الواحد ... فالروح القدس إذن، وهو متحد بالابن، لا يوجد شيء يعمله الابن إلا ويكون معمولاً في الروح. كما أن الابن وهو متحد بالآب يصنع كل ما يصنعه الآب، فالروح إذن غير منفصل عن الابن، حتى أنه حينما تتم كلمة الرب «وإليه نأتي - أنا وأبي وعنده نصنع منزلاً» يكون الروح معهما بالضرورة يأتي ويسكن فينا كما يسكن الابن تماماً.] (إلى سيرابيون 1:31)

وهكذا فإن القديس أثناسيوس، في معرض دفاعه عن لاهوت الروح القدس، يكون قد استوفى أصعب وأدق موضوع وهو علاقة الأقانيم معاً - وخاصة الروح القدس في الثالوث - وفي نفس الوقت يكون قد استوفى أيضاً عمل الروح القدس فينا من داخل الثالوث.

وهو في ذلك بينما يقَدِّم تعاليمه كرجل لاهوت، لا يفوّت علينا قط أن نلمح أنه إنما

يشرح خبرته الروحية العميقة وعقيدته الإيمانية التي يعيش بها خلاصه وحياته
الأبدية ...

مسحة المسيح بالروح القدس وقت العماد والنعمة التي نلناها من هذه المسحة

لقد تطرَّق أثناسيوس إلى هذا الموضوع لينفي عن "الابن" احتمال قبوله للروح القدس، موضحاً أن الابن لم يقبل الروح القدس لأن الروح القدس قائم في الابن والابن قائم في الروح القدس، لأن جوهر الابن والروح القدس واحد. فالروح القدس والابن هما واحد - مع الأب - لاهوتياً؛ أي بحسب الكيان الإلهي الذاتي الواحد. ولكن الروح القدس حلَّ على الجسد بملء اللاهوت، لكي نأخذ من هذا الملاء إذا اتحدنا بالجسد، وأثناسيوس يقول بوضوح إن هذه المسحة إنما هي لنا، وليست للابن، والابن لم يتقدَّس من آخر بل هو الذي قدَّس ذاته (الجسد):

[وإن ما قالته المزامير (الأشعار) المقدَّسة، توضِّح المعنى "الأرثوذكسي" الذي يحرفه الأريوسيون، مع أنه واضح بكل تقوى لدى صاحب المزامير فهو يقول:

+ «عرشك يا الله إلى دهر الدهور، قضيب البر هو قضيب مُلكك، لقد أحببت البر وأبغضت الإثم، لذلك فالله وهو إلهك قد مسحك بزيت البهجة أعلى من رفقائك (شركائك).» (مز 44: 7 و8 سبعينية)

انظروا أيها الأريوسيون واعرفوا الحق، فالمرثم يتكلم عنا نحن كرفقاء أو شركاء للرب، ولكن لو كان المسيح (الابن) هو واحد من المخلوقات التي جاءت من العدم (كما يقول الأريوسيون)، لكان يُحسب واحداً من هؤلاء الرفقاء أو الشركاء، ولكن المزمور يُسبِّح له أنه هو الله الأبدي «عرشك يا الله إلى دهر الدهور»، وأن كل المخلوقات تأخذ منه وتشارك فيه، فماذا نستخلص من هذا في النهاية، غير أنه متميِّز بوضوح عن المخلوقات جميعاً، لأنه هو كلمة الأب الحق وبهاؤه وحكمته، الذي منه تأخذ وتشارك كافة الخليقة التي تتقدَّس به في الروح القدس. لذلك يقول هنا إنه "مُصح"، لا ليصير إلهاً لأنه هو إله حقاً من قبل، ولا لكي يصير ملكاً، لأن له الملكوت منذ الأزل باعتباره صورة الله - كما تقول الأسفار المقدَّسة - ولكن هذا إنما كُتب من أجلنا نحن، لأن ملوك إسرائيل عندما كانوا يُمسحون يصيرون ملوكاً، كونهم لم يكونوا ملوكاً سابقاً كداود وحزقيا ويوشيا

والباقين، أمّا في ما يخص المخلّص فهو على النقيض من ذلك فإنه وهو إله وملك قائم على ملكوت الآب وهو أيضاً الذي يمنح الروح القدس، يقول المزمور - بالرغم من ذلك - أنه "مُسح" على أساس أنه صار إنساناً. فهو على هذا الاعتبار مُسح بالروح القدس لكي يمدّنا نحن البشر ليس فقط بالقيامة والرفعة إلى الأعالي (معه)، بل وبسكنى الروح القدس والألفة والمودّة معه.

علماً بأن الرب قال من فمه في الإنجيل: «أرسلتهم أنا إلى العالم، ولأجلهم أُقدّس أنا ذاتي، ليكونوا هم أيضاً مقدّسين في الحق» (يو 17: 18 و19)، ويقوله هذا يكون قد أوضح أنه لم يتقدّس من آخر، بل هو الذي يقدّس نفسه (الجسد) حتى نتقدّس نحن في "الحق".

والذي قدّس نفسه هو هو إله التقديس والقداسة، ولكن كيف حدث هذا وما معناه؟:

(أنا كوني كلمة الآب - وقد صرت إنساناً أُعطي لنفسي الروح القدس، فأنا إذ صرت إنساناً فكأنسان أتقدّس فيه (أي في الكلمة)، حتى فيّ - وأنا أيضاً الحق - يتقدّس الجميع!! "كلمتك هو الحق").

فإن كان قد قدّس نفسه من أجلنا، وهذا صنعه لمّا صار إنساناً، فإنه يكون الواضح أن حلول الروح القدس عليه في الأردن كان حلولاً علينا، لأنه كان حاملاً جسداً، وهذا كله حدث - في الأردن - ليس لحساب الكلمة، ولكن من أجل تقديسنا، حتى يتسنّى لنا أن نشترك في مسحته. وحينئذ يصح فينا القول: «أما تعلمون أنكم هيكل الله، وروح الله يسكن فيكم.» (1كو 3: 16)

لأن الرب عندما اغتسل في الأردن - كأنسان - فالذي اغتسل هو نحن الذين اغتسلنا فيه وبه، وحينما تقبّل الروح القدس فنحن الذين تقبلنا به الروح.

ولكن، وأكثر من ذلك، فإنه لم يُمسح بالزيت كهارون أو داود أو الباقين، وإنما بطريقة أخرى أعلى من رفقائه (رفقائه في الكهنوت والملوكية)، «بزيت البهجة» الذي يشرحه المسيح نفسه بأنه الروح القدس قائلاً بضم

النبي: «روح السيد الرب عليّ لأن الرب مسحني» (إش 61:1)، وكما قال الرسول أيضاً: «كيف مسحه الله بالروح القدس» (أع 10:38). ثم متى قيل هذا عنه إلاً عندما جاء في الجسد واعتمد في الأردن وحلّ عليه الروح؟

والحقيقة أن الرب نفسه قال: «إن الروح سيأخذ مما لي»، «وأنا سأرسله»، كما قال لتلاميذه: «اقبلوا الروح القدس»، والمُعطي الروح للآخرين يُقال إنه يتقدّس: «لأجلهم أقدّس أنا ذاتي»، وما ذلك إلاً لأنه صار بشراً، وأن الجسد الذي يقُدّسه هو جسده حتى أننا نحن منه ابتدأنا نأخذ المسحة والختم، كما يقول يوحنا: «وأنتم لكم مسحة من القدوس» والرسول يقول: «وقد خُتمتم بروح الموعد القدوس».

لذلك فمن أجلنا وبسببنا قيلت هذه الأقوال، أو ما هو الترقّي والتقدّم أو الفضيلة التي صارت، أو حتى السلوك الذي ظهر، كنتيجة لحصول الرب على هذه (المسحة)؟ لأنه إن لم يكن أصلاً إلهاً وصار إلهاً أو إن لم يكن ملكاً وتزكّى ليكون ملكاً، لكانت تصبح مجادلاتكم مقبولة شكلاً، ولكن إن كان هو إلهاً وإن كان قضيب ملكه أزلياً، فبأي حال من الأحوال يمكن أن يُقال إن الله ترقّى أو تقدّم (بنوال المسحة)؟ أو ما هو الذي كان يعوزه ذلك الذي هو جالس بالفعل على عرش مملكة أبيه؟

فإن كان الرب نفسه هو الذي قال إن الروح القدس هو له خاصة، وإن هذا الروح يأخذ منه، وإنه الذي يرسله، إذن فلا يمكن أن يكون الكلمة ككلمة وحكمة هو الذي مُسح بالروح، لأنه هو الذي يعطيه، بل الجسد الذي اتخذه الرب لنفسه هو الذي مُسح فيه وبه لكي التقديس الذي صار للرب كإنسان ينتقل منه لكل الناس، والمسيح يقول إنه ليس من نفسه يتكلم الروح إنما «الكلمة» هو الذي يُعطي الروح للمستحق!

وهذا يطابق ما قاله الرسول: «الذي إذ كان في صورة الله (وهو كائن في هيئة الله) لم يحسب خلسة (لم يعتبره امتيازاً) أن يكون معادلاً لله (أن يكون متساوياً مع الله)، لكنه أخلّى نفسه وأخذاً صورة (هيئة) عبد». هكذا أيضاً يخدم داود الرب (بالتسبيح) معتبراً إياه الإله والملك الأزلي.

لكنه أرسل إلينا وأخذ جسدنا المائت، وهذا هو المعنى في المزمور: "رائحة ثيابك لها عطر المر والصبر والكاسيا (السليخة)" (إشارة إلى الجسد المائت). وهذا ما اتضح بواسطة نيقوديموس ومريم ومن معها من النسوة حينما جاء الأول حاملاً مزيجاً من المر والصبر نحو مئة رطل والأخريات الحنوط التي حضرنها لدفن جسد الرب.

والآن ما هو الامتياز الذي صار لغير المائت (بطبيعته) حينما أخذ لنفسه (الجسد) المائت؟ أو ما هو التقدّم والترقي الذي صار للأبدي حينما لبس (الجسد) الزمني؟ نعم، ما هو العوض أو المكافأة التي نالها الإله والملك الأزلي الكائن في حضن أبيه من هذه المسحة؟ ألا ترون إذن أن هذه (المسحة على الأردن من الروح القدس) إنما صارت وكُتبت عنها: "لنا ومن أجلنا نحن"، حتى يحضرنا الرب نحن الزمانيين والمائتين إلى ملكوته السمائي الأبدي؟

لأنه حينما أتى الرب يسوع المسيح إلينا وصار في وسطنا، حصل لنا نحن الامتياز والترقي، إذ قد أنقذنا من الخطيئة، أمّا هو فبقي كما هو ولم يتغيّر قط عندما صار بشراً، بل كما كُتبت: «إن كلمة الله = gozj تثبتت (تسكن) إلى الأبد» (إش 40:8).

وبكل تأكيد، فإن "الكلمة" وقبل أن يصير إنساناً (أي في العهد القديم) منح القديسين روحه باعتباره له خاصة، كما منحه بعد أن صار إنساناً ليقدس الجميع بالروح، فيقول لتلاميذه: «إقبلوا الروح القدس». كما أعطى موسى والسبعين الآخرين. وداود أيضاً - من خلال الابن (الكلمة) - يصلّي إلى الأب قائلاً: «روحك القدوس لا تنزعه مني!» فبالمقابل نجده بعد أن تأنس قال: «سأرسل لكم المعزي روح الحق»، وقد أرسله بالفعل - وهو الكلمة - لأنه صادق.

لذلك فيسوع المسيح: «هو أمساً واليوم وإلى الأبد»، باقٍ غير متغيّر، وفي نفس الوقت وبأن واحد يعطي (المسحة) ويأخذ (المسحة)، يُعطي باعتباره "كلمة الله"، ويأخذ كإنسان. فليس الكلمة إذن الذي يرى كأنه نال امتيازاً (بالمسحة)، لأنه ككلمة له كل شيء وكل شيء له دائماً، ولكن البشر هم الذين يأخذون أصلهم - «erc» - منه وفيه.

إذن فحينما يُقال الآن إنه نال المسحة - كإنسان - فنحن الذين فيه نكون قد مُسحنا، حيث أيضاً حينما اعتمد فنحن أيضاً الذين اعتمدنا فيه. والرب والمخلص يعطي ضوءاً كثيراً على كل هذا حينما يقول للأب: «وأنا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد» (يو 17:22).

ولذلك حينما طلب هو المجد لنفسه يكون قد طلبه لنا، وكذلك كل ما قيل عن كونه «أخذ» و«أعطى» و«ارتفع إلى الأعلى»؛ حتى فيه «نأخذ» نحن و«نُعطي» و«نرتفع»، لأنه أيضاً لأجلنا قال إنه يقدّس ذاته حتى نتقدّس فيه(1113).

(1113) هنا في الحقيقة ينقل لنا أنثاسيوس - بحسب التقليد الرسولي - مبدءاً أبائياً ضخماً ومدروساً، يقوم على أساس أن الرب قد تفضّل وتنازل ليكون وساطة سببية مباشرة لإعطاء حياة لكل فرد مسيحي. ومبدأ أنثاسيوس هنا يمكن مهاجمته لأول وهلة، إذ يكون السؤال هو أيّة علاقة يمكن أن تقوم بين تقدّس المسيح لبشريته وبين تقدّسنا نحن؟ إذ كيف يمكن أن يفهم أن الطبيعة البشرية تتقدّس عندما يتقدّس نموذج لها أو عيّنة ممتازة منها في المسيح؟

يرد على هذا السؤال يوحنا ذهبي الفم:
[إنه لم يكن إرضاءً لنفسه أن يصير إنساناً ولا أن يتألّم بضرب السباط ولا أن يقدّم ذاته ذبيحة، وإنما قصده أن يحتوينا في نفسه] ἡ ἑαυτοῦ ἑا

وأيضاً يقول ذهبي الفم في موضع آخر:
[إننا قد امتزجنا ἑαυτοῦ ἑαυτοῦ ἑαυτοῦ ἑαυτοῦ ἑαυτοῦ ἑαυτοῦ ἑαυτοῦ ἑαυτοῦ ἑαυτοῦ ἑαυτοῦ ἑαυτοῦ ἑαυτοῦ ἑαυτοῦ ἑαυτοῦ ἑαυτοῦ ἑαυτοῦ ἑαυτοῦ ἑαυτοῦ ἑαυτοῦ ἑا

وإذ قد برهننا أن المسيح هو الكرامة، وأننا نحن الأغصان المتحدون به بالاشتراك فيه، ليس على مجرد المستوى الروحي - وحسب - وإنما جسدياً، فلماذا هذا - نسطور - يشوّش علينا عيباً قائلاً: بما أننا نلتصق به ليس جسدياً بل بالإيمان فقط وبعاطفة المحبة بحسب الناموس، لذلك فإنه ليس جسده الذي يدعوه الكرامة وإنما لاهوته. [St. Cyril, in Johann., Lib, 10, cap. 2,)

(cited by N. & P.N.F., vol. IV, p. 333

وهنا يلاحظ أن الآباء جميعاً لا يقصدون بالاتحاد بالكرامة الامتزاج المادي بين مادة جسده وبين مادة أجسادنا، ولكن الامتزاج والشركة هما مع قوة وتأثير وفعل الحياة الإلهية التي في جسده والموت والضعف والخطية التي في أجسادنا، بحيث أن الحياة التي في جسده (ودمه) تسري في أجسادنا (الميتة)، فتحبيها بالسر المقدّس وتلحمها وتثبتها في جسده.

كما يقول بولس الرسول:

+ «كذلك المسيح أيضاً، لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد ... وجميعنا سقينا روحاً واحداً (عصير الكرامة).» (1كو 12:12 و13)

ولكن الأريوسيين حينما يحاولون الانتفاع - في غشهم - من كلمة "لهذا"
«لهذا مسحك الله إلهك» (وكأنها مكافأة)، لخدمة أغراضهم، فينبغي على هؤلاء
المبتدئين في فهم الأسفار المقدّسة والأساتذة المتعتمدين في الكفر - أن يعرفوا أن
كلمة "لهذا" لا تتضمن معنى المكافأة من أجل الفضيلة أو السلوك في حياة
الكلمة، بل تحمل ضمناً السبب الذي من أجله نزل إلينا، ومسحة الروح التي
تمت فيه من أجلنا.

هذا هو سر كلمة "لهذا" التي جاءت في المزمور، لأنه لم يقل المزمور:

+ «كأس البركة التي نباركها أليست هي شركة دم المسيح، الخبز الذي نكسره أليس هو شركة
جسد المسيح. فإننا نحن الكثيرين خبز واحد جسد واحد، لأننا جميعاً نشترك في الخبز الواحد.»
(كو 10:16 و27)

+ «وأما أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفراداً.» (كو 12:17)
وبهذين السريين المقدّسين (المعمودية والتناول) لا يصير مانع من الامتزاج والشركة الحقيقية
والفعلية بالروح القدس في جسده، وإنما على مستوى السر غير المنظور، حتى أننا نحسب بالحق الآن
أعضاء من جسده = «من لحمه ومن عظامه» (أف 5:30)، على مستوى القيامة وعلى مستوى ليس
الفاسد عدم الفساد والمائت عدم الموت، بل ونصير بالنهاية حسب قول بولس الرسول: «صعد أيضاً فوق
جميع السموات لكي يملأ الكل، .. لأجل تكميل القديسين لعمل الخدمة لبنيان جسد المسيح، إلى أن ننتهي
جميعنا إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله، إلى إنسان كامل إلى قياس قامته ملء المسيح ... صادقين في
المحبة ننمو في كل شيء إلى ذلك الذي هو الرأس المسيح الذي منه "كل الجسد مركباً معاً" ومقترباً
بمؤازرة كل مفصل الذي يعمل بحسب قياس كل جزء، يحصل نمو الجسد لبنيانه في المحبة.» (أف
16:10-4)

ويقول في ذلك القديس أنثاسيوس:

[حيث أيضاً حينما وُلد الجسد من مريم والدة الإله (ثيوتوكس)، قيل وهو "الكلمة" أنه "وُلد" مع
أنه هو الذي يمنح الآخرين أصل وجودهم؛ وهذا تمّ لكي يحوّل أصلنا إلى نفسه ونصير نحن بعد
ذلك لا من مجرد تراب، بل ملتحمين بالكلمة السمائي (كالأغصان بالكرمة) لكي نحمل إلى
السماء بواسطته].

[لذلك فنحن لا نموت بعد بحسب أصلنا السابق في آدم، بل من الآن وصاعداً فإن أصلنا وضعفنا
الجسديين إذ قد تحوّل إلى "الكلمة" نقوم من الأرض، ولعنة الخطية تُرفع عنا بسبب وجوده هو
فيها، ذلك الذي صار لعنة من أجلنا. وهذا له علة، لأنه كما أننا جميعاً من الأرض ونموت في
آدم، هكذا وُلدنا ثانية من فوق، من الماء والروح في المسيح، وهكذا نحيا، لأن الجسد ليس هو
بعد أرضياً بل صار "كلمة" (لوغس) jz sark ٤logwqe...shj t بز بسبب "كلمة" الله الذي من أجلنا
صار جسداً.] (Athanas., C. Ar., III. 33)

وهذا الكلام بالرغم من صعوبته وخطورته اللاهوتية، إلا أنه يصبح مفهوماً وسهلاً إذا عدنا إلى مثل المسيح
الذي قاله عن علاقتنا به وما صرنا بواسطته في مثل الكرمة والأغصان، حينما قال إنه هو الكرمة ونحن
الأغصان، ثم ماذا نحسب الأغصان الأكرمة؟

«لهذا مسحك الله لكي تصير إلهاً أو ملكاً أو ابناً أو كلمة»، لأنه هو كذلك قبل ذلك وهو كائن كذلك إلى الأبد. وإنما معنى المزمور: «لأنك إله وملك لهذا مسحت، لأنه ليس أحد آخر سواك يمكن أن يوحد - unite - الإنسان بالروح القدس، ولأنك أنت صورة الآب والذي فيك خلقتنا منذ البدء وأنت الذي له الروح القدس» لأن طبيعة المخلوقات يستحيل عليها أن تتكفل بعمل مثل هذا:

فالملائكة تعبدوا = Iwn m\en par\entwn ἄγγ

والبشر عصوا = φnqrèpwn d\e parakous\entwn

لذلك أصبحت الحاجة الوحيدة إلى الله، و«الكلمة» هو هو الله.

فالذين وقعوا تحت اللعنة يأتي هو بنفسه ليطلق سراحهم، ... فكما أننا أتينا إلى الوجود جميعاً بواسطته، كذلك أيضاً الآن، فيه، يمكن للجميع أن يُفقدوا من خطاياهم وبه يتدبر الكل.

وهذا هو السبب في المسحة التي تمت فيه، والتي سبق صاحب المزامير فرآها وحيّأها، حينما رأى أولاً لاهوته وملكوته اللذين له مع الآب: «عرشك يا الله إلى دهر الدهور قضيب البر هو قضيب ملكوتك». ثم بعد ذلك يعلن نزوله إلينا، «لهذا مسحك الله إلهك بزيت الابتهاج أعلى من شركائك».

فما الذي يستحق الاستغراب من هذا، أو ما هو الداعي هنا لعدم الإيمان إن كان الرب الذي يعطي الروح القدس يُقال هنا عنه أنه «مسيح» بالروح القدس، في حين أنه لم يرفض - من جهة بشريته - أن يدعو نفسه أنه أقل من الروح القدس؟

لأنه حينما كان يخرج الشياطين وقال لليهود عنه إنه ببعلزبول يُخرج الشياطين، ردّ عليهم لكي يكشف تجديفهم قائلاً: «إني بروح الرب أخرج الشياطين». فانظروا هنا كيف أن الذي يعطي الروح القدس يقول إنه بالروح يُخرج الشياطين، وهذا لم يقله إلا بسبب جسده! ... لأنه بسبب أن الطبيعة البشرية ليست قادرة من ذاتها - أو بمفردها - على إخراج الشياطين بل بقوة الروح فقط، لذلك قال كإنسان: «ولكن إن كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين».

(مت 28:12)

وهنا في الحقيقة يعني المسيح أيضاً أن التجديف من نحو الروح القدس هو أكبر من التجديف تجاه بشريته، عندما قال: «من قال كلمة على ابن الإنسان يُغفر له، وأمّا مَنْ قال على الروح القدس فلن يُغفر له لا في هذا العالم ولا في الآتي» (مت 32:12)، [لأن الواقفين كانوا يدركون بشريته فقط، مثل الذين قالوا: «أليس هذا ابن النجار؟» (مت 55:13)].

ولكن الذين يجذّفون على الروح القدس وينسبون أعمال «الكلمة» (وليس ابن الإنسان) إلى الشيطان، فهو لاء حتماً سينالون عقوبة. (أثناسيوس يشرح ذلك بدقة وبتوسّع في الرسالة الرابعة لسيرايبون). هذا ما قاله الرب لليهود بصفته إنساناً، ولكنه أعلن لاهوته جهاراً لتلاميذه مُظهراً مجده - ككلمة - مشدداً أنه، على هذا المستوى، ليس أقل من الروح القدس، بل مساوياً له حينما أعطاهم الروح القدس قائلاً: «اقبلوا الروح القدس» (يو 20:22)، كما قال: «إني أرسله»، و«إنه سيمجدني»، و«إن كل ما يسمعه يتكلّم به».

وهنا أيضاً فالرب الذي يعطي الروح القدس لا يمتنع عن أن يقول إنه بالروح القدس يخرج الشياطين كإنسان، كذلك وهو الذي يعطي الروح القدس أيضاً لم يمتنع أن يقول: «روح السيّد الرب عليّ لأن الرب مسحني» (إش 61:1)، باعتبار أنه قد صار جسداً؛ كما قال يوحنا، حتى يتضح من هذين الموقفين الخاصين أننا نحن الذين نحتاج نعمة الروح في تقديسنا وأننا أيضاً غير قادرين على إخراج الشياطين بدون قوة الروح.

فبواسطة مَنْ؟ ومِمَّن يليق أن يُعطى الروح إلاً بواسطة الابن الذي الروح هو له خاصة؟

ومتى استطعنا أن نتقبّله ونأخذه إلاً بعد أن صار الكلمة إنساناً؟

وكما يقول الرسول إننا لم نكن لنفتدى أو نرتفع إلى الأعالي إن لم يكن هذا الذي هو صورة الله قد اتخذ صورة عبداً!

هذا أيضاً ما أوضحه داود، أنه لم تكن وسيلة أخرى بها يمكن أن نشترك في الروح ونتقدّس، إن لم يكن هذا الذي له أن يعطي الروح القدس، أي «الكلمة» ذاته يتكلّم عن نفسه كممسوح بالروح من أجلنا، وبهذا نلنا الروح في يقين

وأمان؛ لأنه إذ قيل إنه مُسح بالجسد، وبهذا تقدّس الجسد أولاً فيه، فبسبب ما قيل عنه - بصفته إنساناً - إنه قبل الروح من أجل الجسد (الإنسان)، فبالتبعية نلنا نحن أيضاً بالتالي نعمة الروح «من ملئه»: «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا، ونعمة فوق نعمة» (يو 1:16). [1114]

وفي موضع آخر يشدّد أثناسيوس على أهمية نوال الرب للمسحة كنعمة موهوبة للبشرية في جسده الخاص هكذا:

[وبالرغم من أنه لم يكن في حاجة إلى شيء، لكن قيل عنه إنه تقبّل ما تقبّله (المسحة) بشرياً، حتى من الجهة الأخرى يصبح ما يكون قد تقبّله الرب من عطية تسكن فيه في أمان، وتصير النعمة محفوظة ومؤكّدة لحسابنا. لأن الإنسان العادي إذا تقبّل شيئاً، فإنه يفقده ثانية (كما وضح في آدم لأنه تقبّل وفقد)، ولكن لكي تكون النعمة غير قابلة بعد للفقدان وتُحفظ في أمان لدى البشر، من أجل هذا تقبّلتها المسيح في ذاته]... [1115]

[فالبشرية إذن قد تكمّلت فيه واستعادت وجودها كما كانت منذ البدء وإنما بنعمة أعظم]. [1116]

وأثناسيوس في موضع آخر يوضّح أن «المسحة» التي نالها جسد المسيح لحسابنا هي بعينها اللاهوت، فهو أي «الكلمة» - لاهوتياً - هو الذي أعطى جسده المسحة: [«أنا الكلمة»: «المسحة» والذي أخذ المسحة مني هو (أنا) «الإنسان»]. [1117]

وفي هذا يوضّح أثناسيوس طبيعة الروح القدس التي هي واحد مع الطبيعة الإلهية للكلمة. وبسبب هذا يكون «الكلمة» و«الروح القدس» هما واحد جوهرياً أو طبيعياً. ولهذا لا يُقال إن الكلمة نال المسحة من الروح القدس، بل الجسد (الإنسان) كما سبق الشرح:

(1114) C. Ar., I, 46-50.

(1115) C. Ar., III, 38.

(1116) C. Ar., II, 67.

(1117) C. Ar., IV, 36.

[لكن أعمال الجسد لم تكن تتم بدون اللاهوت، ولا أعمال اللاهوت تتم بدون الجسد؛ بل على العكس فإن كل أعماله صنعها الرب الواحد (إشارة واضحة إلى اتحاد الطبيعتين) الذي أكمل كل شيء في سر نعمته... فعندما نرى أعمال الجسد نتعجب ونرى فيها القوة الإلهية التي تعمل؛ هذا هو إيمان الكنيسة.] (1118)

مفهوم التجديف على الروح القدس كما يراه القديس أنثاسيوس

الرسالة الخامسة لسيرابيون (1119):

+ «هذا (المسيح) لا يُخرج الشياطين إلاً ببعلزبول رئيس الشياطين» (مت 24:12).

+ «إن كنت بروح الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله.» (مت 28:12)

+ «كل خطية وتجديف يُغفر للناس. وأمّا التجديف على الروح القدس ... فلن يُغفر له ... لا في هذا العالم ولا في الآتي.» (مت 31:12 و32)

يقول القديس أنثاسيوس مفسراً هذا الكلام هكذا:

[لماذا يُغفر التجديف على الابن ولماذا لا يُغفر التجديف على الروح القدس لا في هذا الدهر ولا في الدهر الآتي أيضاً؟]

لقد قرأت ما كتبه الآباء وبالذات الحكيم المجاهد أوريجانوس والعجيب المجاهد ثيوغنس (1120) (توفي سنة 282م) واطّعت على كتبهم لأرى ماذا قالوا بخصوص هذا الموضوع.

وكلاهما قال إن التجديف على الروح القدس يحدث عندما يعود الذين حصلوا على نعمة الروح القدس في المعمودية إلى الخطية. ولذلك يتفق كلاهما مع الآخر على عدم وجود مغفرة، مستندين إلى ما ذكره بولس في رسالته إلى العبرانيين (6:4-6). عند هذه النقطة كل منهما يتحدّث مثل الآخر

(1119) ترجمها إلى العربية الدكتور جورج حبيب بباوي، وقد نُقل عنه النص بتصريح منه.
(1120) ثيوغنس كاتب كنسي ولاهوتي مشهور، كان مديراً لمدرسة الإسكندرية خلفاً لديونيسيوس وقبل بيريوس (وليس بعده). وكتب منهجاً لاهوتياً متكاملًا قائماً على أساس أفكار أوريجانوس وذلك في سبعة كتب، وأسماء هيبوتيبوريس = potupèseiz. وقد تبقي وصف وتحقيقه بقلم فوتيوس (Cod. 106)، كما لا يزال يوجد مقتطفات كثيرة منه في كتاب القديس أنثاسيوس إلى سيرابيون، وعلى الدفاع عن قانون نيقية (25). كما استعان به القديس غريغوريوس النيسي في مؤلفه Contra Euno. III; وبالرغم من سقوطه في مفهوم تدني الابن عن الأب بحسب فكر أوريجانوس فقد استخدم القديس أنثاسيوس كثيراً من أفكاره ضد الأريوسيين.

تماماً. ولكن بعد ذلك كل منهما له رأيه الخاص.

يشرح أوريجانوس سبب دينونة هؤلاء بهذه الكلمات: “الله الأب يحل في كل شيء ويضبط كل الكائنات الحية وغير الحية، أي التي لها نعمة العقل والتي ليس لها نعمة العقل. أمّا الابن فهو يشمل بقوته الذين لهم نعمة العقل فقط، مثل الموعوظين والوثنيين الذين لم يأتوا بعد إلى الإيمان. أمّا الروح القدس فهو يسكن فقط في الذين قبلوه في المعمودية. ولذلك عندما يخطئ الموعوظون أو الوثنيون فإن خطيتهم هي ضد الابن فقط، لأنه هو فيهم كما ذكر - أوريجانوس - ولذلك يمكنهم الحصول على المغفرة عندما يكرمون بنعمة الميلاد الثاني. ولكن عندما يخطئ المعمد فإن الخطية بعد المعمودية موجّهة ضد الروح القدس الذي يسكن في الذين عمّدوا، ولذلك لا مناص من العقاب”.

أمّا ثيوغنسطس فهو كما ذكرت يتبع شرح أوريجانوس ويقول: إن الذي يتخطئ الحاجزين الأول والثاني يستحق عقوبة أقل. ولكن الذي يتخطئ الحاجز الثالث لا يمكن أن يحصل على مغفرة. وهو يدعو التعليم الخاص بالأب والابن بالحاجزين الأول والثاني. أمّا الحاجز الثالث فهو التعليم الذي يُقال في المعمودية الخاص بالروح القدس، ولكي يؤكّد ثيوغنسطس هذا الشرح اقتبس كلمات الرب للتلاميذ «إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأمّا متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كلُّ ما يسمع يتكلم به ويُخبركم بأمر آتية» (يو 16:12-13). وقد قال ثيوغنسطس عن هذه الكلمات إن المخلص تحدث مع أناس لا يمكنهم أن يقبلوا التعاليم الكاملة، ولذلك نزل إلى مستواهم غير الكامل. أمّا الذين تكلموا فهم الذين قبلوا الروح القدس في المعمودية، والتعليم الكامل هو من نصيب الذين حلّ فيهم الروح القدس.

لكننا نحذّر كل مَنْ يقرأ هذه الكلمات من عدم فهمها بصورة سليمة، إذ لا يجب أن يظن أحد أن التعليم عن الروح القدس هو “ختم الكمال”. كما علينا أيضاً أن نحذّر من الظن بأن الروح القدس أسمى من الابن طالما أن التجديف على الروح بلا مغفرة. ولكن المغفرة لغير الكاملين (غير المعمدين)، أمّا الذين ذاقوا الموهبة السماوية وصاروا كاملين فلا مغفرة لهم ولا صلاة يمكنها أن

تسهّل لهم المغفرة. هذا ما ذكره هذان الكاتبان المجاهدان.

أمّا عن نفسي فحسب ما تعلّمت، أعتقد أن رأى كلّ منهما يتطلّب فحصاً ومراجعة دقيقة لأن كلمات الإنجيل الخاصة بالتجديف عميقة.

في الحقيقة واضح أن الابن في الآب، وبالتالي فهو في الذين فيهم الآب أيضاً. والروح القدس ليس غائباً عن الآب والابن، لأن الثالوث القدوس المبارك غير منقسم. وزيادة على ذلك إذا كان كل شيء قد خُلِق بالابن (يو 1:3) وفيه كل الأشياء توجد (كو 1:17)، فهو ليس كائناً خارج الأشياء التي جاءت إلى الوجود بواسطته. فكل المخلوقات ليست غريبة عنه. هو بالطبيعة في كل شيء، وبالتالي كل مَنْ يخطئ ويجدّف على الابن يخطئ ويجدّف على الآب والروح القدس. ولو كان حميم الميلاد الثاني قد أُعطي باسم الروح القدس فقط، لكان من المعقول أن نقول إن الذي عمّد إذا أخطأ بعد المعمودية يخطئ ضد الروح القدس وحده. ولكن لأن المعمودية تُعطي باسم الآب والابن والروح القدس، فكل معمّد يقبل المعمودية باسم الثالوث، وبذلك يصبح واضحاً أن كل مَنْ يجدّف بعد المعمودية يكون قد جدّف على الثالوث الأقدس، وهذا هو التعليم الحقيقي الذي يجب أن نقبله.

ولو كان هؤلاء الذين تحدّث معهم الرب، أعني الفريسيين، قد قبلوا حميم الميلاد الثاني وحصلوا على نعمة الروح القدس، لكان التفسير السابق لكل من أوريغانوس وثيوغنسطس مقبولاً، لأن الرب لم يكن يتكلّم مع أناس ارتدوا وجدّفوا على الروح القدس، لأننا إذا تذكّرنا، لم يكن هؤلاء الناس - أي الفريسيّون - معمّدين، بل حتى المعمودية يوحنا احتقروها ورفضوها (مت 21:25-27). فكيف يمكن اتهامهم بالتجديف على الروح القدس وهم لم يحصلوا عليه بعد؟! ولذلك لم ينطق الرب بهذه الكلمات لكي يعلم عن الخطية بعد المعمودية، كما أنه لم يكن كذلك يهدّد بعقوبة أولئك الذين سيخطئون في المستقبل بعد المعمودية، بل قال هذه الكلمات بطريقة مباشرة وصرحة ضد الفريسيّين لأنهم أذنبوا فعلاً وسقطوا في هذا التجديف الفظيع. لقد اتهمهم الرب بطريقة واضحة بالتجديف وهم لم يقبلوا المعمودية. فإن هذه الكلمات ليست موجّهة ضد الذين يخطئون بعد المعمودية، خصوصاً وأن الرب لم يكن

يشتكيهم بخطايا عامة ولكن بالتجديف بالذات، وهناك فرق بين الذي يخطئ ويتعدى الناموس والذي بسبب عدم تقواه يجدف على الله نفسه.

وقبل ذلك اتهم الرب الفريسيين بخطايا أخرى مثل محبة المال التي من أجلها أبطلوا الوصية الخاصة بالوالدين، ورفضوا كلمات الأنبياء وجعلوا بيت الله بيت تجارة، وفي كل هذا انتهرهم المخص لكي يتوبوا. أمّا عندما قالوا إنه ببعزبول يُخرج الشياطين لم يقل لهم ببساطة إنهم يخطئون بل إنهم يجدفون بصورة شنيعة تستوجب العقاب وتجعل المغفرة مستحيلة، لأنهم تمادوا إلى حيث لا حدود لخطئهم.

وزيادة على ذلك، لو كانت هذه الكلمات موجّهة ضد الذين يخطئون بعد المعمودية وهؤلاء لا مغفرة لهم، فكيف أظهر الرسول محبة نحو التائب في كنيسة كورنثوس؟ (2كو 8:2). وماذا عن الغلاطيين الذين ارتدوا (غل 4:9)، والذين تألم الرسول لكي يولدوا ويتكوّن فيهم المسيح مرّة ثانية (غل 4:19)؟ وكيف نلوم نوفاتس (249-250م Novatian) الذي يمنع التوبة ونعترض على قوله بأن الذين يخطئون بعد المعمودية لا مغفرة لهم طالما أن هذه الكلمات الإنجيلية تؤيد تعليم نوفاتس وهي موجّهة إلى الذين يخطئون بعد المعمودية.

وحتى كلمات الرسالة إلى العبرانيين (6:4-6) لا تمنع توبة الخطاة بل تشير إلى أن المعمودية الكنيسة الجامعة تُعطى مرّة واحدة، ولا يمكن أن تتكرّر. ويجب أن نلاحظ أنه للعبرانيين بالذات كتب الرسول هذه الكلمات لأنه خاف عليهم من التظاهر بالتوبة وأنهم بسبب تمسكهم الشديد بالناموس الموسوي وشريعة التطهير سيظنون أنه توجد فرصة لمعموديات يومية متكرّرة كما في مرقس 7:3-4، ولذلك يشجّعهم على التوبة ويعلن أن التجديد في المعمودية هو تجديد فريد لا يعاد. وفي رسالة أخرى يقول: «إيمانٌ واحدٌ، معموديةٌ واحدةٌ» (أف 4:5). وهو لا يقول إنه من المستحيل أن يتوب الساقط بل من المستحيل أن نصنع نحن تجديداً لأنفسنا بالتوبة، والفرق كبير، لأن مَنْ يتوب يكف عن الخطية ولكن آثار جروحه تظل ظاهرة بعكس مَنْ يعتمد يخلع العتيق ويتجدد (كو 3:9-10)، بل ويولد مرّة ثانية بنعمة الروح القدس (يو 3:3).

وعندما أفكر في هذه الأشياء أجد في الكلمات السابقة عمقا عظيماً. ولذلك

بعد أن صليت بلجاجة للرب الذي جلس عند البئر (يو 4:6) ومشى على المياه (مت 14:25)، أعود إلى تدبير الخلاص الذي تمّ راجياً أن أكون قادراً على أن أملأ دلوي من معاني الكلمات الإنجيلية التي نبثها.

كل الكتب الإنجيلية، وبالذات إنجيل يوحنا، تخبرنا عن التدبير الإلهي: «الكلمة صار جسداً وسكن فينا» (يو 1:14). وبولس عندما يكتب: «الذي إذ كان في صورة الله، لم يحسب (مساواته) خلسة أن يكون معادلاً لله. لكنه أخلى نفسه، أخذاً صورة عبدي، صائراً في شبه الناس» (في 2:6-8). ولأنه الإله الذي أخلى ذاته وصار إنساناً، أقام الموتى وشفى المرضى، وبكلمته حوّل الماء خمراً ... وهذه كلها أعمال ليست من قدرة البشر، ولكنه جاع وعطش وتألم لأنه أخذ جسداً وكل أعمال الجسد ليست من صفات اللاهوت. كإله قال: «أنا في الآب والآب فيّ» (يو 14:10)، ولأنه أخذ جسداً حقاً وبكل يقين، انتهر اليهود قائلاً: «الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعته من الله» (يو 8:40). ورغم كونه إلهاً إلا أنه لم يقم بهذه المعجزات مرة واحدة لأنه تجسّد وكان عليه أن يواجه الاحتياجات والظروف المرتبطة بحياته كإنسان.

لكن لم تكن أعمال الجسد تتم بدون اللاهوت ولا أعمال اللاهوت كانت تتم بدون الجسد، بل على العكس، فإن كل أعماله صنعها الرب الواحد، الذي أكمل كل شيء في سر نعمته. وعلى سبيل المثال، بصق على الأرض كما يبصق كل الناس، لكن لعبه وحده كان فيه قوة إلهية لأنه وهب به البصر لعيني المولود أعمى (يو 9:6). ورغم أنه الإله إلا أنه تكلم بلغة بشرية وقال: «أنا والآب واحد» (يو 10:30)، وبارادته منح الشفاء (مت 8:3). ولكن عندما مدّ يده الإنسانية، أقام حماة سمعان بطرس من الحمّى (مر 1:31) وبنفس اليد أقام من الموت ابنة رئيس المجمع (مر 5:42).

وقد أخطأ الهراطقة كلُّ حسب مقدار جهله، البعض منهم نسب كل ما حدث من الرب لجسده (أي كإنسان) وتعاموا عن القول الإلهي: «في البدء كان الكلمة» (يو 1:1)، والبعض نسب ما حدث إلى لاهوته فقط، ولم يفهموا القول: «والكلمة صار جسداً» (يو 1:14). لكن المؤمن الذي يتبع تعليم الرسل يعرف

غنى الرب ومحبه للبشر. وعندما يرى أعماله العجيبة الإلهية يمجد الرب الذي ظهر في الجسد. وعندما يرى أعمال الجسد يتعجب ويرى فيها القوة الإلهية التي تعمل. هذا هو إيمان الكنيسة، ولذلك إذا ثبت البعض عيونهم على الجانب الإنساني في حياة الرب، وشاهدوه يختبر الجوع والتعب والألم، يتحدثون عنه بدون تقوى كمن يتحدث عن إنسان فقط، فيخطئون بذلك خطية عظيمة. وبلا شك إن لم يتأخروا في التوبة يمكنهم الحصول على المغفرة، لأن ضعفهم الإنساني هو عذر لهم. وحتى الرسول يمنحهم المغفرة، وبطريقة ما يمد يده إليهم، لأنه بالحق يقول: «وبالإجماع، عظيم هو سر التقوى، الله ظهر في الجسد» (1 تي 3:16).

عندما يرى البعض أعمال اللاهوت يترددون في الاعتراف بإنسانيته - وهذا خطأ بالغ - ويتوهمون عندما يقرأون أن الرب يأكل ويتألم أنه خيال، هؤلاء إذا لم يتأخروا في التوبة سيغفر لهم يسوع لأنهم لا يفهمون أعماله الفائقة التي أتمها في الجسد. وإذا فحصنا جهل هؤلاء وأولئك، أي الذين يخطئون ولهم معرفة بالناموس مثل الفريسيين أو الذين يستسلمون للجنون وينكرون وجود الكلمة في الجسد، أو يذهبون إلى أبعد من هذا عندما ينسبون أعمال اللاهوت إلى الشيطان وجنوده؛ فإنه من العدل أن تكون عقوبة عدم تقواهم هي عدم المغفرة، لأنهم اعتبروا الشيطان مثل الله، وحسبوا أن من هو بالحقيقة الله لا شيء في أعماله يدل على أوهيته، بل إنه الشيطان يستخدم أعوانه. وإلى هذه الدرجة السفلى من عدم التقوى انحدر اليهود في ذلك الزمان، وبالذات الفريسيون منهم. ورغم أن الرب كان يقوم بأعمال الآب علانية، فهو أقام الموتى ومنح النظر للعميان وجعل العرج يمشون وفتح آذان الصم وجعل الخرس يتكلمون، معلناً أن الخليقة العاقلة وغير العاقلة خاضعة له، لأنه هو الذي أمر الريح ومشى على البحر، والجموع عاينت هذا وامتألت بالدهشة ومجّدت الله، إلا أن الفريسيين قالوا إن هذه أعمال بعزبول - ومن فرط جنونهم لم يخجلوا من أن يعطوا الشيطان قوة الله. وأمام هذا أعلن الرب بالحق أن تجديدهم بلا مغفرة، لأنهم عثروا في كل ما يختص بإنسانيته وكان لهم، في المسيح كإنسان، رأى شرير، إذ قالوا: «أليس هذا ابن النجار» (مت

55:13)، وكيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلّم (يو 7:15)، وما هي المعجزات التي «تصنع لرنى ونؤمن بك» (يو 6:30)، «فلينزل الآن عن صليبه فنؤمن به» (مت 27:42). وقد احتمل الرب كل هذا، وسمّى الإنجيل مثل هذه الأقوال بالتجديف على ابن الإنسان، وتألّم الرب من قساوة قلوبهم (مر 3:5)، وقال: «لو علمت ... ما هو لسلامكم؟» (لو 19:42).

وغفر الرب لبطرس عندما تكلمت معه الجارية عن يسوع كإنسان فأجاب بطريقة لا تختلف عن رأي الجارية وكلامها، ولكن الرب غفر له عندما بكى بدموع.

أمّا عندما سقط الفريسيون إلى أدنى من كل هذا وتفوّها بما هو أشر من كل ما سبق، حتى أنهم قالوا إن أعمال الله هي أعمال بعلزبول، لم يتحملهم لأنهم جدّفوا على روحه بقولهم إن مَنْ يعمل هذه الأعمال ليس الله ولكنه بعلزبول. ولهذا السبب استحقوا عقوبة أبدية. وفي الحقيقة إن جرأتهم زادت عن الحد، وعندما رأوا ترتيب العالم والعناية به نسبوا الخلق إلى بعلزبول، حتى أن الشمس صارت بحسب قولهم تحت سلطان الشيطان وأصبح الشيطان هو الذي يحرك النجوم في السماء، لأن كل أعمال الآب كخالق، عملها يسوع؛ فإذا قالوا إن أعمال يسوع هي أعمال بعلزبول، فكيف إذا يفهمون القول الإلهي: «في البدء خلق الله السموات والأرض» (تك 1:1). ولكن مثل هذا الجنون ليس غريباً عنهم لأن آباءهم أظهروا نفس الطباع، فبعد خروجهم من مصر صنعوا العجل الذهبي في البرية ونسبوا إليه المعجزات والبركات التي أخذوها من الله وقالوا: «هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر» (خر 32:4). وبسبب هذا التجديف الذي ارتكبه أولئك المجانين تمّ فناء الكل في البرية، وأعلن الله أنه في يوم افتقاده «سوف يفتقد فيهم خطيتهم» (خر 32:34). وعندما اشتكوا من انعدام الخبز والماء اهتم بهم تماماً مثل المرضعة برضيعها، ولكنهم زادوا الشكوى إلى الحد الذي وصفه الروح القدس في المزامير «أبدلوا مجدهم بمثال ثور آكل عشب» (مز 106:20). وعندما اجتروا على ارتكاب مثل هذا العمل الذي لا مغفرة له ضربهم الرب، كما يقول الكتاب، بسبب العجل الذي سبكه هارون (خر 32:35). وتصرّف

الفريسيون بنفس الوقاحة، ولذلك أخذوا من الرب عقوبة مماثلة بل هي عقوبة مثل عقوبة بعلزبول نفسه الذي تحدّثوا عنه، كي يحترقوا معه بنار أبدية.

ولم يكن الرب يقصد بما قاله في الإنجيل أن يقارن بين التجديف الموجّه ضده، والتجديف الموجّه للروح القدس؛ ولا أشار ولو من بعيد أو بطريقة غير مباشرة إلى أن الروح القدس أسمى منه ولا لأن التجديف على الروح أخطر، حاشاً؛ نطق الرب بهذه الكلمات لأنه علم من قبل أن كل ما هو للآب فهو للابن، وأن الروح يأخذ من الابن وبذلك يمجّد الابن (يو 14:16 و15). والروح لا يعطي الابن بل الابن هو الذي يعطي الروح وقد أعطاه لتلاميذه، وبهم لمن يؤمنون به بواسطتهم. ولم يكن الرب يقارن نفسه بالروح عندما قال هذه الكلمات، كما أنها لا تعني أن الروح أسمى من الرب، فهذا سوء فهم لكلمات المخلص. والتجديف بنوعيه موجّه بالضرورة للروح القدس. والنوع الأول محتمل أمّا النوع الثاني فهو خطير. وقد ارتكب الفريسيون نوعي التجديف لأنهم رأوه إنساناً فأهانوه بقولهم: «من أين لهذا الحكمة؟» (مت 13:54)؛ وقولهم: «ليس لك خمسون سنة بعد، أفرأيت إبراهيم؟» (يو 8:57). ورغم أنهم رأوا أعمال الآب فيه إلا أنهم لم يرتضوا بألوهيته. وبدلاً من هذا قالوا إن بعلزبول فيه، وأن هذه الأعمال هي أعمال بعلزبول، وبذلك أصبح تجديفهم بنوعيه موجّه ضده. والنوع الأول أقل خطورة بسبب العذر الواضح وهو إنسانيته، أمّا النوع الثاني فهو أكثر خطورة لأنه إهانة موجّهة إلى ألوهيته. ومثل هذا التجديف الخطير هو الذي استدعى عقوبة عدم المغفرة. ومن الواضح أن الرب كان يشجّع التلاميذ عندما قال لهم: «إن كانوا قد لقّبوا رب البيت بعلزبول» (مت 10:25) وأكّد هنا أنه رب البيت الذي جدّف عليه اليهود.

أمّا اليهود فعندما قالوا عنه: “بعلزبول” لم يهينوا أحداً سوى الرب يسوع، وهذا واضح من التعبير نفسه لأن كلمة “الروح” في نص الإنجيل تشير إلى الرب يسوع وإلى الروح القدس، لأن “رب البيت” يُراد به المسيح أي رب الكون كله. وأنا أرجو أن لا تتضايق من هذا التكرار فهو لازم إذا كنا نحرص على الوصول إلى المعنى الدقيق للنص، ولذلك سأعود إلى ما ذكرته

سابقاً أن الجوع والتعب والنوم والإهانات كلها خاصة بناسوته، أمّا الأعمال الباهرة التي كان يقوم بها الرب، فلم تكن أعمال إنسان بل أعمال الله.

لذلك إذا ما شاهد بعض الناس الأشياء الخاصة بالإنسان مثل الجوع ... إلخ وأهانوا الرب لأنه حسب ظنهم مجرد إنسان، فقد حُسبوا مستحقين لعقوبة أقل من عقوبة أولئك الذين ينسبون أعمال الله للشيطان. لأن هؤلاء لا يكتفون بإلقاء الأشياء المقدّسة للكلاب (مت 6:7)، بل يجعلون الله مساوياً للشيطان ويدعون النور ظلمة (إش 20:5). لذلك سجّل مرقس أن تجديف اليهود بلا مغفرة، «ولكن مَنْ جَدَّفَ على الروح القدس، فليس له مغفرة إلى الأبد، بل هو مستحق دينونة أبدية، لأنهم قالوا: إن معه روحاً نجساً (وذلك على أعمال لاهوته)». (مر 3:29 و30)

والرجل الأعمى منذ ولادته عندما أبصر، شهد بأنه لم يُسمع من قبل أن أحداً فتح عيني مولود أعمى، ولذلك قال: «لو لم يكن هذا (الإنسان) من الله لم يقدر أن يفعل شيئاً» (يو 9:33). حتى الجموع نفسها عندما امتلأت من الإعجاب بما فعله الرب قالت: «ليس هذا كلام مَنْ به شيطان، ألع شيطاناً يقدر أن يفتح أعين العميان» (يو 10:21). أمّا هؤلاء الذين امتلأوا من معرفة الناموس، أي الفريسيّون وهم الذين يلبسون العصائب العريضة (مت 23:5)، ومزهوون بمعرفتهم بالناموس أكثر من باقي الناس (يو 9:24-29)، كان من المفروض عليهم بسبب هذه المعرفة أن يخلجوا، ولكن كما هو مكتوب عنهم أنهم «تعساء لأنهم ذبحوا لأوثانٍ ليست الله» (تث 17:32). وعندما قالوا إن بالرب شيطاناً، وأن أعمال الله هي أعمال الشيطان؛ لم يكن لديهم أي أسباب مقنعة تدفعهم إلى هذا الاعتقاد، والدافع الحقيقي لمثل هذا التجديف هو رغبتهم في أن ينكروا أن الذي يعمل هذه الأعمال هو الإله ابن الله. وبالْحَقِيقَةُ لَقَدْ أَكَلُ أَمَامَهُمْ وَشَاهَدُوا جَسَدَهُ وَتَأَكَّدُوا أَنَّهُ إِنْسَانٌ فَكَانَ لَدَيْهِمْ فَرْصَةٌ لِأَن يَفْتَنَعُوا مِنْ أَعْمَالِهِ أَن الْآبَ فِيهِ وَأَنَّهُ فِي الْآبِ. أَمَّا لِمَاذَا لَمْ يَفْتَنَعُوا؟ فَلَأَنَّهُمْ لَمْ يَشَاءُوا.

وفي الحقيقة لقد سكن بعزبول في الفريسيين. وكان بعزبول هو الذي يتكلم فيهم. ولذلك قالوا عن المسيح: إنه مجرد إنسان، بسبب ناسوته، دون الاعتراف به إلهاً بسبب أعماله التي هي أعمال الله. ولكن بهذه السقطة أَلْهَوْا

بعزوبول الذي سكن فيهم، والذي في النهاية سوف يعاقبون معه في النار إلى الأبد.

ودرأستنا للنص توضّح لنا أنه يعني نوعي التجديف الذي أشرنا إليه سابقاً. ذلك أن المخلص أشار إلى نفسه عندما قال: «ابن الإنسان»، ولكنه كان يعني أيضاً نفسه عندما تحدّث عن «الروح». والاسم الأول: «ابن الإنسان» يوضّح تجسّده، والاسم الثاني: «الروح» يوضّح طبيعته الروحية غير المادية ولاهوته. وفي الواقع، إن الخطية التي يمكن غفرانها هي العثرة الناتجة عن رؤية ناسوته، أي ما يتعلّق به كابن الإنسان، ولكنه أوضح أن التجديف الذي لا يمكن مغفرته هو التجديف على «الروح»، أي على الطبيعة الإلهية.

وقد لاحظت أن التعبير «الروح» جاء بالمعنى الذي نتحدّث عنه في إنجيل القديس يوحنا عندما كان الرب يتحدّث عن تقديم جسده. ولمّا رأى أن كثيرين عثروا بسبب ما ذكره عن جسده، قال لهم: «أهذا يعثركم؟ فإن رأيتم ابن الإنسان صاعداً إلى حيث كان أولاً! الروح هو الذي يحيي أمّا الجسد فلا يفيد شيئاً. الكلام الذي أكلّمكم به هو روح وحياة» (يو 6: 62 و63). وقد تحدّث الرب هنا عن «الجسد والروح»، وكما هو واضح كان يتحدّث عن نفسه. وميّر بين الجسد والروح لكي يتمكّن الذين سمعوه من الإيمان بما يرون أي بجسده، وكذلك الإيمان بغير المنظور، أي الروح أو لاهوته، لكي يؤمنوا أن ما يتكلّم عنه ليس الجسديات بل الروحيات.

ولنسأل كم عدد البشر الذين يمكن أن يقدّم لهم جسده المادي؟ وماذا عنه كغذاء للعالم كله؟ لهذا السبب تحدّث عن صعود ابن الإنسان إلى السماء لكي يبعد عن أفكارهم كل التصورات المادية عن جسده، ولكي يفهموا جيداً بدون أي تصورات مادية أن جسده الذي يتكلّم عنه هو طعام سمائي يأتي من فوق كغذاء روحي يعطيه هو بنفسه. وحقاً قال: «الكلام الذي أكلّمكم به هو روح وحياة» (يو 6: 63)، أي أن ما أعلنه، وما سيعطيه لخلاص العالم هو جسده، ولكن هذا الجسد عينه بما فيه من دم سوف يُعطى لكم بواسطة روحياً، وكطعام، وبطريقة روحية سوف يوزّع على كل واحد منكم لكي يصبح عربون القيامة والحياة الأبدية.

واستعمال كلمة "روح" جاء بنفس المعنى في حديث الرب مع السامرية عندما وجّه فكرها إلى المعنى الروحي ورفع نظرها إلى الأمور غير المادية بقوله لها: «الله روح» (يو 4:24)، لكي يستقر في قلبها الفهم الصحيح عن الله، أنه ليس من طبيعة مادية محصورة في مكان بل إنه روح. وهذا ما يعنيه كلام التعليم الذي يقول عندما يتأمل الكلمة وقد تجسّد: «روح الإيمان هو المسيح الرب»، وحتى لا يعثر أحد ما بالشكل الخارجي الملموس ويظن أن الرب هو مجرد إنسان، جاءت كلمة: «الروح» لتؤكد أن الذي في الجسد هو الله.

وهكذا يبدو لنا شيان ظاهران تماماً: الأول هو حالة مَنْ يرى الرب في الجسد ويعتبره مجرد إنسان ويقول بعدم إيمان: «من أين لهذا هذه الحكمة والقوات؟» (مت 13:54)، وكل مَنْ يتكلم بهذا يخطئ بدون شك ويجدّف على ابن الإنسان؛ والثاني يرى أعماله التي تتم بالروح القدس ويقول إن صانع هذه الأعمال ليس الله ولا ابن الله وينسب هذه الأعمال لبعزبول، مثل هذا ينكر لاهوته، وهذا ما يظهر واضحاً عدة مرّات في الإنجيل لا سيما في النص الذي نشرحه.

ومرّة أخرى، نكرّر، عندما يوصف الرب بأنه «ابن الإنسان» فهو نفسه يستخدم هذا اللقب لتأكيد بشريته، ولكن عندما يتحدّث عن الروح أي الروح القدس الذي به يصنع كل هذه الأعمال والذي هو (الروح) أيضاً فيه، يقول بعد إتمامه أعماله الباهرة: «إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي ولكن إن كنت أعمال، فإن لم تؤمنوا بي فأمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيّ وأنه فيه» (يو 10:38) [...] (1121) (انتهى)

وملخص عقيدة القديس أثناسيوس في هذا الموضوع كالآتي:

- 1 - إن الموضوع لا يختص إطلاقاً بامتياز أفنوم عن آخر في الثالوث، فالتجديف على الروح القدس هو تجديف على الآب والابن أيضاً.
- 2 - والتجديف لا يختص بالمعمودية ونوال الروح القدس فيها، لأنها تتم باسم

(1121) من كتاب: «الروح القدس في بعض كتابات الآباء» تعريب: الدكتور جورج حبيب بباوي
صفحة 28-42.

الآب والابن والروح القدس إله واحد. فكل مَنْ يُخطئ ويجدّف بعد المعمودية فهو يخطئ ويجدّف على الله الثالوث الآب والابن والروح القدس. لذلك فالرب لم يكن يقصد بالتجديف الخطية بعد المعمودية.

3 - إن الخطية بل كل الخطايا بعد المعمودية تُغفر جميعها بالتوبة، ولا توجد خطية قط يمكن أن يُقال إنه من المستحيل غفرانها.

4 - المعمودية هي التي لا يمكن بل ويستحيل أيضاً أن تتكرّر، وهي التي تسمّى بالتجديد أو الميلاد الثاني فهي معمودية واحدة.

5 - كذلك هناك فرق بين الخطايا كتعدّي على الوصايا وبين التجديف على الله نفسه.

6 - إن الالتباس الظاهر في فهم عب 6:4-6 راجع إلى أن بولس الرسول يخاطب اليهود (العبرانيين) الذين اعتادوا أن يتخلّصوا من خطاياهم بالتطهير بالماء كل يوم، وكلما أرادوا (حتى الزنا كان في عرفهم يمكن التخلّص منه بالاستحمام بالماء)، فنبيّهم أن المعمودية في المسيحية ليست تطهيراً بالماء، ولكنها موت عن الإنسان العتيق وخطاياه وولادة روحية من فوق بإنسان جديد، ولا تتم إلا مرّة واحدة فقط بنعمة الروح القدس.

7 - العنصر الجوهري في عدم غفران خطية التجديف على الروح القدس هو المتعلّق بالذين ينسبون أعمال اللاهوت التي كان يعملها المسيح إلى أنها أعمال الشيطان.

8 - وعلى نفس المستوى، فالذين يعتبرون المسيح أنه مجرد إنسان كان يعمل المعجزات بقوة الشيطان فهذا هو التجديف على روح الله أي الروح القدس، لأن المسيح كان يعمل كل الأعمال بروح الله.

9 - وعلى نفس المستوى كل مَنْ يجدّف على لاهوت المسيح معتبراً أن المسيح مجرد إنسان، وأن أعماله كانت مجرد أعمال شيطانية (سحرية كما يقول اليهود الآن) وليست أعمالاً إلهية، فهذه تعتبر خطية تجديف غير قابلة للمغفرة.

10 - وهنا يقرّر أثناسيوس أنه لا فرق بين التجديف على الروح القدس والتجديف
الموجّه ضد لاهوت المسيح.

النعمة عند القديس أثناسيوس

أساس التعليم بالنعمة عند القديس أثناسيوس يبدأ من الخلق. فالله، مع فعل الخلق الذي خلق به العالم من لا شيء، أعطى المخلوقات فعلاً آخر حافظاً للعالم المخلوق من الزوال، لأنه بحكم كونه مخلوقاً من العدم فهو ينزع بطبيعته نحو اللاشيء.

[«أنت يا الله منذ البدء أسست الأرض والسموات هي عمل يديك هي تبيد وأنت تبقى»، بقوله هنا: «هي تبيد» لا يقصد أن الخليقة تعيَّنت للإبادة ولكن هذا قيل للتعبير عن طبيعة الأشياء المخلوقة ونزوعها (نحو الفناء) الذي تميل إليه، فالأشياء التي هي قابلة للهلاك، بالرغم من أنها لا تهلك بسبب النعمة الموهوبة لها من خالقها، إلا أن هذا لا ينفي أنها خلقت من لا شيء، وهي بذاتها تشهد أنها لم تكن يوماً ما موجودة.] (1122)

هذا الفعل الحافظ من الزوال هو فعل بركة أو نعمة، هذه البركة أو هذه النعمة التي وهبها الله للعالم المخلوق ليحفظه من الانحدار نحو العدم، تركت عليه سمات الخالق وبصماته الإلهية كطابع خاص، حتى أن الله أصبح يُرى ويُحس في الخليقة لأنها صارت حاملة لفعله الدائم في كل دقائق كيانها.

وأثناسيوس يعتبر هذه النعمة القائمة والدائمة في العالم المخلوق هي بعينها حضور الابن الكلمة في صميم العالم:

+ «كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان ... فيه كانت الحياة ... في العالم كان والعالم به كوّن ولم يعرفه العالم.» (يو 1: 3 و4 و10)

وأثناسيوس يركّز على أن كل ما قاله بولس الرسول في الرسالة إلى رومية بخصوص ذلك إنما يخص «الكلمة».

[يقول بولس الرسول: «إن أموره (الكلمة) غير المنظورة تُرى بوضوح منذ خلق العالم، أمّا قدرته السرمدية ولاهوته، فهي تُدرَك بواسطة الأشياء المخلوقة». فإذا درسنا النص ندركون أن «الابن» هو المقصود هنا، لأنه بعد أن ذكر الخليقة يبدأ يتكلم عن القوة التي أعطت هذه المخلوقات طابعها

المميّز، هذه القوة أقول إنها هي “كلمة الله” الذي به كان كل شيء ... لذلك كل مَنْ يتأمّل في الخليقة عن صحة فهو إنما يتأمّل “الكلمة” الذي شكّلها (أعطاهها طابعها المميّز)، ومن خلال الكلمة يبدأ الإنسان يدرك الآب، لأنه لمّا سأل فيلبيس : «أرنا الآب وكفانا» (يو 14:8)، لم يقل له الرب تأمّل الخليقة، بل قال له: «الذي رأي فقد رأى الآب» (يو 14:9). [1123]

وأثناسيوس إذ يتأمّل بالفعل في الخليقة ويرى جمالها وحسنها: «ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً» (تك 1:31)، يُعزي ذلك الجمال والحسن إلى حكمة الكلمة كختم وطابع شمل جميع المخلوقات.

[ولكي كل ما يأتي إلى الوجود لا يكون موجوداً وحسب بل ويكون حسناً، كانت مسرّة الله أن حكمته الخاصة تتنازل لمعونة المخلوقات sugkatabnai وذلك لكي تمنحها خاتم وشبه صورتها بالنسبة لها جميعاً ولكل فرد فيها، حتى لكي يكون كل ما جاء إلى الوجود (من العدم) يصير عملاً حكيماً جديراً بالله خالقه.

ومن حيث أن كلمة الله هو الحكمة، لذلك فالحكمة المزروعة فينا هي صورة (الحكمة) التي بواسطتها نحصل على القوة والفكر لإدراك (الكلمة) الحكمة الكلية (التي صاغت ونظّمت الخليقة) الذي به ندرك الآب. [1124]

ويبدأ أثناسيوس يركّز على خلقة الإنسان الأول بنوع خاص، ويوضّح نوع النعمة الخاصة التي خصّه بها في الخلق الأول كتمهيد لازم وأساسي لنوع النعمة المزمع أن يكملّ بها أخيراً خلقة الإنسان الجديد كامتياز فائق للحياة الأبدية.

[يقول بولس الرسول: «بالإيمان نفهم أن العالمين أتقتت بكلمة الله حتى لم يتكوّن ما يرى مما هو ظاهر.» (عب 11:3)

لأن الله صالح، وبالتالي لا بد أن يكون هو مصدر الصلاح، والصلاح لا يضرّ بشيء، لذلك فإنه لا يضرّ بنعمة الوجود على أي شيء، لذلك خلق كل

(1123) Athanas., C. Ar. I. II, 12.

(1124) Athanas., C. Ar. II, 78.

الأشياء من العدم “بكلمته” يسوع المسيح ربنا.

وفضلاً عن ذلك فإنه أظهر محبة خاصة للجنس البشري دون سائر المخلوقات على الأرض، إذ رأى ضعف الإنسان - بحسب طبيعة تكوينه - وامتناعه عن أن يبقى على حال واحدة منحه نعمة جديدة، إذ لم يكتف بمجرد خلقته كما فعل بباقي المخلوقات غير العاقلة على الأرض بل خلقه على صورته ومثاله، وأعطاه نصيباً في قوة كلمته، لكي يستطيع - وهو العاقل، وله انعكاس قوة الكلمة فيه - أن يبقى في السعادة الأبدية ويحيا الحياة الحقيقية حياة القديسين في الفردوس.

ولكن لعلمه أيضاً أن إرادة الإنسان يمكن أن تميل إلى إحدى الجهتين (أي الخير والشر)، سبق فدعم النعمة المعطاة له بالوصية، بالإضافة إلى المكان (الجيد أي الفردوس) الذي أقامه فيه، لأنه أتى به إلى جنته وأعطاه وصية حتى إذا حفظ النعمة واستمر صالحاً استطاع أن يحتفظ بحياته في الفردوس بلا حزن ولا ألم ولا هم، بالإضافة إلى الوعد بعدم الفساد في السماء، (لاحظ أثناسيوس هنا يشير إلى إمكانية انتقال الإنسان إلى عدم الفساد في السماء).

أمّا إذا تعدّى الوصية وارتدّ وأصبح شريراً، فليعلم أنه جلب على نفسه الفساد بالموت الذي كان يناسبه بحسب الطبيعة ويصبح غير لائق للحياة في الفردوس بل ويُطرد منه من ذلك الوقت لكي يموت ويبقى في الموت والفساد. [1125]

ومرّة أخرى يشدّد أثناسيوس على امتياز خلقة الإنسان ليدوم أصلاً في عدم الفساد:

[لأن الإنسان إذ خُلِق من العدم فإنه زائل بطبيعته، غير أنه بفضل خلقته على صورة الله - الكائن الدائم - كان ممكناً أن ينجو من الفساد الطبيعي ويبقى في عدم الفساد لو أنه احتفظ بتلك الصورة، أي بإبقاء الله في معرفته كما تقول الحكمة: «حفظ الوصايا هو تحقيق لعدم الفساد» (سفر الحكمة 6:19). وكونه على غير فساد آنئذ فقد كان ممكناً أن يعيش كالله.

منذ ذلك الوقت، وإلى هذا يشير الكتاب المقدس على الأرجح عندما يقول: «أنا قلت إنكم آلهة وبنو العلي كلكم، لكن مثل الناس تموتون وكأحد الرؤساء تسقطون.» (مز 82: 6 و7)

لأن الله لم يكتفِ بأن يخلقنا من العدم ولكنه أيضاً وهبنا مجاناً بنعمة الكلمة حياة منسجمة مع الله.

ولكن البشر إذ رفضوا الأمور الأبدية وتحولوا إلى الأمور الفاسدة بمشورة الشيطان، صاروا سبباً لفساد أنفسهم بالموت، لأنهم بالطبيعة زائلون، ولكنهم تعيّنوا للخلاص من حالتهم الطبيعية هذه وذلك بنعمة اشتراكهم في الكلمة (1126) إن ثبتوا في الصلاح. ولأن الكلمة سكن فيهم فحتى فسادهم الطبيعي لم يجسر أن يقترب منهم كما تقول الحكمة أيضاً: «الله خلق الإنسان على غير فساد وصنعه على صورة أزليته، ولكن الموت دخل إلى العالم بحسد إبليس» (سفر الحكمة 2: 23 و24) وعندما تمّ ذلك بدأ البشر يموتون. [1127]

ولياحظ القارئ هنا أن القديس أثناسيوس يرى عمل النعمة يوازِر الإنسان جِداً من بدء خلقته كشركة في الكلمة ... وكان ممكناً لو هو تمسك بمعرفة الله وطاعته، أي احتفظ بفاعلية صورة الحكمة التي زُرعت فيه منذ بدء خلقته التي كُني عنها بصورة الله فيه، كان ممكناً أن يستحق الانتقال إلى حالة الخلود في السماء.

وهنا يتضح أمامنا أن محبة الله للعالم وبذل ابنه الوحيد لفداء الإنسان لم تأت من فراغ، فالإنسان حاصل على نعمة أصيلة من الله واشتراك حقيقي في الكلمة وذلك في صميم خلقته وكيانه منذ البدء الذي يظهر بوضوح في حكمة الإنسان وذكائه وفهمه ومعرفته وتأمله وميله الغريزي إلى التأمل في الإلهيات منذ البدء أيضاً.

كما نلاحظ أن أثناسيوس يعتبر الوصية التي أمر الله بها آدم في الفردوس هي نعمة، وأنها كانت كفيلة لو تمسك بها آدم أن تحفظه من الهلاك بغير موت أو فساد

(1126) لاحظ هنا كيف يوضّح أثناسيوس كيفية اشتراك الإنسان في الكلمة منذ الخلق الأولى، وذلك كعمل نعمة الذي يهيئ بالفعل إلى امتداد عمل الفداء للإنسان بالتجسّد.

(1127) Athanas., *Incar.* 4,5.

وتوهَّله لتكميل الوعد بالخلود في السماء مع الله. لأن أثناسيوس يؤكِّد أن الإنسان
تعيَّن منذ خلقته الأولى للخلاص.

ثم ينقل إلينا أثناسيوس هنا قولاً من سفر الحكمة، هو في الحقيقة مطلع صلاة
الصلح في قدَّاس القديس باسيليوس، ليؤكِّد لنا به صدق عقيدته هذه أن الإنسان معيَّن
منذ خلقته الأولى للخلاص وعدم الفساد كنعمة فائقة من الله، وأن الموت دخيل
علينا وهو من عمل حسد العدو المهلك الذي أوقف فاعلية هذه النعمة فينا.

وهذا يعتبره أثناسيوس تمهيداً رائعاً بل سبباً محكماً وبلغاً لتجسُّد «الكلمة» في
جسد الإنسان ليرفع عن الإنسان ما أصابه من موت وفساد وهلاك، ويعيد إلينا هذه
النعمة عينها إنما بصورة أعظم وأبقى وأضمن!! بالروح القدس بالإيمان به
وبالمعمودية والتناول من جسده ودمه.

[عندما كان يمسح الإسرائيليون أعتاب أبواب بيوتهم بالدم كانوا يترجِّون
المعونة ضد الملاك المهلك، ولكننا نحن الآن إذ نأكل «كلمة الآب» نختم
أعتاب قلوبنا بدم العهد الجديد، معترفين بفضل النعمة التي أعطيت لنا من
المخلص الذي قال من جهة هذا: «ها أنا أعطيك سلطاناً لتدوسوا الحيات
والعقارب وكل قوة العدو» (لو 19:10).](1128)

[فالبشرية إذن تكملت فيه واستعادت وجودها كما كانت منذ البدء وإنما بنعمة
أعظم.](1129)

وأثناسيوس يقارن بين النعمة التي أخذها آدم بالخلقة والتي صارت لنا في يسوع
المسيح، هكذا:

[وبالرغم من أنه (المسيح) لم يكن في حاجة ما - إلى أي شيء - إلا أنه قيل
عنه إنه تقبَّل ما تقبَّله (المسحة) - بشرياً - حتى من الجهة الأخرى (لاهوته)
فإنه بسبب ما تقبَّله الرب من عطية، وقد سكنت فيه بأمان فإن النعمة تصير
محفوظة وثابتة لحسابنا، لأن الإنسان العادي إذا تقبَّل شيئاً فإنه يفقده ثانية
(كما وضح في آدم لأنه تقبَّل وفقد). ولكن لكي تكون النعمة غير قابلة للفقدان،

(1128) Athanas., *East. Letters*, IV. 3.

(1129) Athanas., *C. Ar.*, II, 67.

وتُحفظ في أمان (ثابتة) لدى البشر، من أجل ذلك تقبلها المسيح في ذاته
(لنا). [1130]

[فإذ تقدّس الجسد أولاً فيه، صارت لنا بالتالي نعمة الروح القدس نأخذها من
ملئه]. [1131]

أثناسيوس يشرح كيف يتحد الإنسان بالروح القدس (مفاعيل النعمة)

وكيف يفارق الروح القدس الإنسان إذا استسلم للشريير:

[... ويوحنا يكتب قائلاً: «بهذا نعرف أننا نثبت فيه وهو فينا: أنه قد أعطانا من
روحه» (1 يو 4:13)، لذلك بسبب نعمة الروح القدس التي أعطيت لنا نصير
فيه ويصير هو فينا.

ولأنه هو روح الله، لذلك فبسبب أنه يصير فينا نصبح بحق في الله، إذ يكون
لنا الروح القدس، ويصير الله بذلك فينا.

ولكن ليس كما يكون الابن في الأب نكون نحن في الأب، لأن الابن لا
يشترك في الروح القدس ولا يتقبله، بل بالحري يعطيه للجميع ...، أمّا نحن
فبدون الروح القدس نكون بعيدين وغرباء عن الله! ولكن بالشركة في الروح
القدس نصير موثقين وملتحمين - knit - بالله (اللاهوت)، وهكذا يصبح وجودنا
وكياننا في الله الأب ليس منا، ولكن من الروح القدس الذي يكون فينا والذي
يسكن فينا، الذي باعترافنا الحسن الصادق نحتفظ به داخلنا كما يقول يوحنا
الرسول: «مَنْ اعترف أن يسوع هو ابن الله، فإله يثبت فيه وهو في الله.» (1 يو
15:4)

والمسيح يطلب (في صلاته في يوحنا 17) أن نقبل الروح القدس، حتى إذا
استلمناه يكون لنا روح الكلمة الذي هو في الأب، فنصير نحن بسبب الروح
واحدًا في الكلمة ثم في الأب بواسطة الكلمة. وإن كان المسيح يقول: «كما
نحن» فهذا لا يخرج عن كونه توسلاً، حتى تصير نعمة الروح القدس عندما
تُعطى للتلاميذ تكون بدون إخفاق أو رجوع (revocation) (كما حدث سابقاً

(1130) Athanas., C. Ar., III, 38.

(1131) Athanas., C. Ar., I, 50.

لآدم).

لأن كل ما للكلمة في الآب بالطبيعة هو يرغب أن يكون لنا بواسطة الروح القدس "بدون رجوع"، كما يقول الرسول: «مَنْ سيفصلنا عن محبة المسيح، لأن هبات الله ودعوته هي بلا ندامة.» (رو 8:35، 11:29)

إذن، فالروح الذي هو في الله يكون فينا وليس من أنفسنا (نكون في الله)، وإنه يُقال إننا أبناء وآلهة بسبب "الكلمة" الذي يكون فينا، وهكذا نكون في الابن وفي الآب ونُحسب أننا واحد في الابن وفي الآب، لأن الروح يكون فينا وهو نفسه في الكلمة وفي الآب.

فإذا سقط الإنسان من الروح بسبب أي شر وندم وتاب عن سقطته، فإن النعمة تظل فيه بلا رجعة (نكوص) حسب تمسك إرادتهما - أمّا إذا لم يتب فإنه بسقوطه لا يصير بعد في الله. لأن الروح القدس المعزّي الذي في الله يفارقه (أي يفارق غير التائب)، ويظل الخاطئ في الذي أسلم نفسه له (الشيطان) كما حدث في حالة شاوول الملك لأن روح الله فارقه ودهمه روح شريير. [1132]

[إن نعمة الروح القدس المعطاة في المعمودية سترفع عن الأشرار في الدينونة الأخيرة.]

(شرح المزامير 13:75 "الترجمة السبعينية")

[وبكل تأكيد لأنهم ليسوا أبناءً (لله) بالطبيعة (كعلاقة الله الابن بالله الآب) لذلك فإنهم حينما تغيّروا (عن عهدهم) أخذ منهم الروح القدس وفقدوا ميراثهم؛ ولكن عند توبتهم فإن الله الذي أعطاهم النعمة في البداية يقبلهم ويعطيهم نوراً ويدعوهم أبناءً مرّة أخرى.] [1133]

(1132) Athanas., C. Ar., III, 24,25.

(1133) Ibid., I, 37 fin.

هنا يمتاز القديس أثناسيوس بالوضوح التام كيف أن التوبة تعيد النور وتعيد النعمة
وتعيد عطية الروح وتعيد البنوة وتعيد الميراث.



ملخص الفصل العاشر الروح القدس وكمال استعلان الثالوث عند القديس أناسيوس

- أناسيوس هو أول لاهوتي في العالم دافع عن لاهوت الروح القدس وذلك جاء ردًا على جماعة المتقلبين والأريوسيين الذين قالوا بأنه مخلوق!
- يقوم دفاعه أساساً على إثبات الوحدة القائمة بين الثلاثة أقانيم الآب والابن والروح القدس، وقد جاء دفاعه متفرقاً في مقالاته ضد الأريوسية ثم مركزاً في أربع رسائل موجّهة للأسقف سيرابيون عن الروح القدس.
- سار منهج التعريف بالروح القدس منذ بدء عصر الرسل حتى أناسيوس في خطين متوازنين:
 - أولاً: خط الرسل والآباء المنقادين بروح الله الذي يعطي الإيمان الواضح المحدد عن شخص الروح القدس الإله الكامل في الثالوث المساوي للآب والابن في المجد والكرامة والعمل.
 - ثانياً: خط طبقة المفكرين في الكنيسة الذين حاولوا باجتهادهم وتصوّراتهم بدون قيادة الروح القدس وبدون الاعتماد على التسليم الرسولي أن يعرفوا بالروح القدس فأنحرفوا عن الخط الرسولي الواضح والبسيط.
- ما عمله أناسيوس هو أنه امتد بالخط الأول في منهج مدرسي مساوٍ تماماً لفكر الرسل والإنجيل البسيط المعاش عن الروح القدس، كما عرفته الكنيسة وعاشتته حتى ذلك الوقت، مستقطباً كل الهرطقات والانحرافات ومنهياً عليها إلى الأبد.
- تعاليم العهد القديم عن الروح القدس تتلخص في أنه روح الله القدوس، ذو الصلاح المطلق والوجود الكلي في كل مكان، ومن حيث أعماله فهو:
 - 1 - العامل الفعّال في الخلق.
 - 2 - يُعطى للمختارين من الله بوضع اليد والمسحة وبوسائل أخرى فيهبهم نعمه المتعدّدة.
 - 3 - القوة الفعّالة في الأبطال المدافعين عن إسرائيل.
 - 4 - قوة الإلهام الذي يدبّر حكام إسرائيل.

- 5 - إلهام الأنبياء للنطق بكلمة الله.
- 6 - قوة التقديس وقوة الدينونة في القضاء.
- 7 - بصيرة التنبؤ عن أواخر الدهور.
- 8 - علامات حضوره تعلن عن حضرة الله.
- 9 - هو التعبير عن جوهر الوجود الإلهي على مدى الأسفار. فهو "الله الفعّال بالقوة"، ويُذكر أحياناً في أسفار العهد القديم بصفة شبه مستقلة في حدود الشخصية المتميّزة عندما يُقارَن "الروح" مع "الكلمة".

- قَدِّمَتِ الأسفار القانونية الثانية أيضاً فكرة قوية وواضحة عن شخصية الروح القدس معبراً عنه بحكمة الله. وتتلخّص أعماله فيها بأنه يملأ الكون ويحب البشرية ويعلم ويظهر أفكار الإنسان وقلبه.
- في العصور المتأخّرة من الفكر اليهودي اقتصر مفهوم الروح القدس عندهم بأنه حكمة الله الموهوبة للحكام، أو مجرد قوة يؤثّر بها الله على الموحى إليهم. وقد تسرّب هذا المفهوم الخاطئ إلى الفكر المسيحي حتى القرن الرابع.
- يبدأ العصر المسيحي بتقدّم هائل في التعرف على الروح القدس وأعماله حسب الأناجيل:
 - 1 - أداة التجسّد: "الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللّك".
 - 2 - الفعّال في حياة المسيح، في مسحته الأولى على نهر الأردن لبدء الخدمة، وفي كل أعماله.
 - 3 - به بنى المسيح كنيسته على أساس أنها خليفة جديدة مولودة من فوق من الروح القدس والماء، وأنها تعيش وتعمل في العالم بقوة الروح القدس.
 - 4 - الروح القدس هو عطية المسيح لتلاميذه: «اقبلوا الروح القدس». وهو الساكن في أولاد الله لتبكييت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة.
 - 5 - وهو قوة البشارة للشهادة للمسيح إلى أقصى الأرض.
 - 6 - وقد أظهره المسيح بوضوح كأقنوم له هيئته الإلهية حتى أنه اعتبر التجديف على الروح القدس خطية لا تُغفر.
- عصر الرسل هو عصر إعلان الروح القدس عن نفسه عملياً:

- 1 - بحلوله على التلاميذ في يوم الخمسين بصورة محسوسة.
- 2 - في استعلان شخصيته في كل تدبير الكنيسة وحياتها بعد ذلك، عاملاً عمل المسيح في الكنيسة ومكماً فينا الخلاص والفداء، وواهباً إيانا القداسة والبر التي بها نثبت في المسيح ونحيا فيه، فهو يأخذ مما للمسيح ويعطينا، لذلك دعاه بولس الرسول «روح المسيح».
- 3 - في قوة شهادة الرسل، الذين أحسوا به كشخص متميز بشهادته في داخلهم بجانب شهادتهم هم أيضاً.
- 4 - في سلطانه التأديبي على المستهينين بتدبيره للكنيسة.
- 5 - في حلوله على المؤمنين قبل معموديتهم، كما حدث مع كرنيليوس وأهل بيته مبيئاً بذلك أن الروح القدس هو الذي يعمد.
- 6 - في إشرافه الشخصي على تدبير عمل الكرازة وإرسال المعيّنين للخدمة.
- 7 - في إعلانه لأمر آتية لأنبياء العهد الجديد.
- 8 - في حراسته للإيمان وصحة العقيدة ببرهان ومعجزة، مؤدّباً بقسوة كل محاولة لإفساد طريق المسيح لحماية الكنيسة من كل انحراف.
- 9 - في اقتران الملاء به بالامتلاء بالفرح الذي لا يُنطق به.
- 10 - في حضوره الشخصي في أول مجمع للرسل لإقرار السلوك المسيحي للأمم الداخلين جديداً في الإيمان، كقاضٍ ومشرّع للكنيسة الجديدة.
- 11 - في إقامته للأساقفة والكهنة لرعاية كنيسة الله التي اقتناها بدمه.

■ في عصر الرسل أيضاً تمَّ استعلان الرسل للروح القدس لاهوتياً في رسائلهم:

- 1 - فهو الروح المحيي الذي أقام المسيح من الأموات والذي سيحيي أجسادنا أيضاً بروحه الساكن فينا.
- 2 - وهو روح التبني الذي يلد الإنسان ويتبناه الله، وبه نصرخ نحو الآب وندعوه «أبانا».
- 3 - وهو الذي يحررنا ويتدرج بنا في الكمال المسيحي بالاستنارة.
- 4 - وهو يوحد المؤمنين في جسد المسيح ليصيروا جسداً واحداً فيه بالروح الواحد.
- 5 - ويوزع المواهب على المؤمنين لخدمة الجسد الواحد لمجد المسيح.
- 6 - يضطلع بحفظ الوديعة الصالحة أي التقليد المسلّم في الكنيسة بالإيمان وذلك من

خلال سكناه في الأفراد الأمناء له.

7 - لا يلغي شخصية المؤمن، لذلك ينتظر منه إضرار الموهبة بالصلاة والأعمال الصالحة لحساب الكنيسة.

8 - يظل يشهد للمسيح في الكنيسة داخل المؤمنين بالموهبة والآيات.

9 - التنكّر لشركة الروح القدس والازدراء بها تنكّر للاهوت المسيح شخصياً.

■ في عصر ما بعد الرسل بقيت تعاليم الرسل واضحة في ما يختص بشخص الروح القدس ضمن الجوهر اللاهوتي للثالوث في تسليم قانون التعميد:

1 - ففي كتابات الآباء الرسولين كليمنس الروماني، وإغناطيوس الأنطاكي، وبرناباس، وكتاب "الراعي" لهرماس، نجد مطابقة لتعليم الرسل في كل ما يختص بشخص الروح القدس.

2 - في القرن الثاني ابتدأ التباعد عن منبع التقليد الرسولي نوعاً ما بسبب انشغال المدافعين عن الإيمان بالتركيز على لاهوت الابن، حتى أنهم بدأوا ينسبون للكلمة الصفات والأعمال الشخصية للروح القدس.

3 - ابتدأت تظهر انحرافات خطيرة تضع الروح القدس في المرتبة الثالثة كخادم للمسيح، وكرباط الوحدة بين الآب والابن. كان هذا من داخل الكنيسة!!

4 - أمّا خارج الكنيسة فكانت هناك قوتان من الهراطقة تتصارعان معاً بشدة ضد الكنيسة هما: جماعة المونتانيين، وجماعة الغنوسيين الذين قالوا عن الروح القدس إنه قوة مؤنثة والدة للمسيح! ثم جماعة المونورخييين الذين جحدوا الثالوث القائم على أقانيم متميزة، ومنها خرجت بدعة السابلية وبدعة بولس الساموساطي المنكرة لشخصية الروح القدس كأقنوم.

■ تتمثل تعاليم الكنيسة الأرثوذكسية في أواخر القرن الثاني حتى منتصف الثالث في الآباء:

1 - إيرينيئوس: ولكنه أخفق أيضاً إذ تصوّر الابن والروح القدس بأنهما يدا الآب، إلا أنه يحس بخطورة هذا الوصف فيصحّحه.

2 - تيرتليان: ولكنه يخطئ في القول بانبثاق الروح القدس من الآب والابن، وأن الروح القدس خاضع للآب والابن، إلا أنه يعود فيضع ضوابط لهذا التدرّج حتى لا ينقسم الجوهر.

- 3 - كبريانوس تلميذ ترتليان: وهو يؤكّد على وحدة الأقانيم وعلى علاقة الروح القدس بالكنيسة كجسد وكأفراد في الجسد.
- 4 - هيبوليتس: أكّد على لاهوت الروح القدس بوضوح، ولكنه رغم دحضه لفكرة خضوع الروح القدس للمسيح لم يستطع أن يرقى للتساوي المطلق بين الأقانيم الثلاثة، فأعطى الروح القدس صفة النعمة، وقصر صفة الأَقنوم على الآب والابن.
- 5 - ديونيسيوس الروماني: ولكنه أخطأ في اعتباره أن الابن والروح القدس خاضعان للآب من جهة الأصل والمنبع، مع أنه يؤكّد على وحدة الثالوث.

■ أما كنيسة الإسكندرية في تلك الفترة فيمثّلها:

- 1 - كلمنس الإسكندري: وهو يعلن بوضوح لاهوت الروح القدس، ويشدّد على وحدانية الروح رغم تعدّد مواهبه. ويعتبر حضور الروح القدس في المؤمنين أنه تشكيل لطبيعة بشرية جديدة، ويؤكّد على دور الروح القدس في إنارة الكنيسة ككل وكأفراد، وأن المؤمن هو العارف الحقيقي بالله الذي اتحدت نفسه بالروح القدس وتتلذذ لتعاليم الكلمة بواسطته.
- 2 - أوريجانوس: علّم بأن الروح القدس مساوٍ في الكرامة والمجد للآب والابن، وأكّد بأن الروح القدس منبثق من الآب انبثاقاً أزلياً. وميّز عمل الروح القدس عن عمل الآب والابن بأنه مختص بنفوس المؤمنين، مؤكّداً أيضاً أن الشركة في الروح القدس هي شركة في الثالوث غير المفترق.
- إلا أنه في شرحه لإنجيل يوحنا أخطأ في وضع الروح القدس في درجة أقل من الابن، لا بالنسبة للكرامة بل بالنسبة للأصل، لأنه قال إن الابن فقط هو من الآب أمّا الروح القدس فهو من الآب بواسطة الابن، وهذا هو بداية خطأ الكاثوليك في قولهم: إن الروح القدس منبثق من الآب والابن. وتمادى في خطئه عندما اعتبر الروح القدس أقل من الابن الذي بواسطته يستمد وجوده! ولكونه لم يلتزم بالتقليد واعتمد على المنطق سقط في الخطأ، ومهدّ دون أن يدري لبدعة أريوس.
- 3 - امتد خطأ أوريجانوس لتلميذه ببيريوس وثيئوغنسطس.

■ في القرن الرابع، أعلن الأريوسيون إنكارهم للاهوت الروح القدس في سياق

كفرهم بلاهوت المسيح. ولكن ظل الأرثوذكس في أنحاء العالم متمسكين بمقررات مجمع نيقية تجاه الإيمان الصحيح بالابن والروح القدس:

1 - بدأ القديس أثناسيوس تنفيذ آراء الأريوسيين من جهة الروح القدس بصورة واضحة سنة 360م في أول شرح مستفيض عن شخص الروح القدس وانبثاقه من الآب.

2 - ثم أصدر منشوراً مجتمعياً من الإسكندرية لأنطاكية عن لاهوت الروح القدس سُمي: "طومس الأنطاكيين"، قبله بولينوس الأسقف بكل فرح.

3 - وقعت روما برئاسة البابا ليبيريوس في حبال جماعة "محاربي الروح القدس" التي كان على رأسها مقدونيوس وماراثونيوس، الذين حرمتهم الكنيسة. إلا أن البابا داماسوس الذي جاء بعده استطاع دحض هذه البدعة في ثلاثة مجامع كان آخرها سنة 380م؛ كما أقرَّ بأن الروح القدس منبثق من الآب فقط.

4 - في قيصرية كان الأسقف يوسابيوس المؤرِّخ - والمعاصر لما قبل نيقية حتى بعد نيقية - يعلم بأن الروح القدس ثالث في الكرامة والمجد والدرجة أيضاً... وأن انبثاقه مرتبط فقط بإرسالته، كحدث زمني!!

5 - في أورشليم تمسك كيرلس الأورشليمي بالكتاب المقدس والتقليد في ما يخص الروح القدس، وإن كان قد عجز عن شرح ما يؤمن به.

■ أمام هذا كله يرجع الفضل للقديس أثناسيوس في إرساء القواعد الثابتة للاهوت الروح القدس ووحداية الثالوث هكذا:

1 - هذا التعليم استلمته الكنيسة من الرسل ومن الرب نفسه.

2 - وحدانية الثالوث تحتم المساواة في وحدانية جوهر الأقانيم.

3 - الروح القدس منبثق من الآب والذي يعطيه هو الابن.

4 - لا يمكن أن يتجزأ الثالوث؛ فكما أن الآب في الابن كذلك الروح القدس هو في الآب والابن، وكل ما يعمله الروح القدس إنما يعمله من خلال وحدته بالآب والابن.

5 - وحدة الثالوث كاملة لأن الآب يصنع كل شيء بواسطة الابن في الروح القدس.

6 - الروح القدس هو ينبوع القداسة لكل الكائنات، لذلك فهو من جوهر الثالوث،

لأنه لا يوجد إلاّ تقديس واحد للنفس وهو الذي يأتي من الآب بالابن في الروح القدس.

7 - علاقة الابن بالروح القدس هي علاقة الابن بروح البنوة، والقدوس بروح القداسة، والحياة بالروح المحيي، والمسيح بالمسحة، والحق بروح الحق، ورب المجد والقوة بروح المجد والقوة، فالروح القدس إذن هو روح المسيح الخاص.

8 - بالروح القدس - المسحة والختم - نصير شركاء المسيح، وبالتالي شركاء الطبيعة الإلهية.

9 - بالروح القدس يتم انضمامنا للكنيسة (بالمعمودية والتثبيت) وتكميل معرفتنا بالله واتحادنا به.

10 - الروح القدس هو الذي يقيم الأساقفة ليرعوا رعية الله.

11 - الروح القدس حلّ على المسيح وقت العماد، لكي - بنوالة المسحة كإنسان - نكون نحن الذين في جسد بشريته قد مُسحنا فيه، حتى يتم ما قاله المسيح: «لأجلهم أُقدّس أنا ذاتي ليكونوا هم أيضاً مقدّسين في الحق» (يو 17:19). فالابن لم يتقدّس من آخر بل هو الذي قدّس ذاته حتى نتقدّس فيه.

12 - خطية التجديف على الروح القدس التي لا تُغفر لا تعني إطلاقاً امتياز أقنوم عن آخر في الثالوث، فالتجديف على الروح القدس هو تجديف على الآب والابن أيضاً.

13 - العنصر الجوهرى في عدم غفران خطية التجديف على الروح القدس هو بسبب نسبة أعمال اللاهوت التي كان يعملها المسيح إلى أنها أعمال الشيطان! أي التجديف على لاهوت المسيح هو تجديف على الروح القدس.

النعمة عند القديس أنثاسيوس هي:

1 - نعمة الوجود من العدم.

2 - النعمة الحافظة للمخلوقات من الانحدار نحو العدم الذي تميل إليه.

3 - نعمة إضافية للإنسان بخلقته على صورة الله ومثاله، أي الاشتراك في «كلمته» الذي هو صورة الآب ورسم جوهره.

4 - نعمة الوصية التي أمر الله بها آدم في الفردوس لتدعيم النعم السابقة.

- 5 - الغرض من تجسّد الكلمة هو إعادة النعمة المفقودة بمخالفة الوصية، وإنما بصورة أعظم وأبقى وأضمن.
- 6 - فالمسيح تقبّل نعمة الروح القدس لنا، وإذ سكنت في جسده المأخوذ منا بأمان صارت محفوظة وثابتة لحسابنا غير قابلة للفقدان.
- 7 - بقبولنا للمسيح بالإيمان به وبالمعمودية والتناول من جسده ودمه، نقبل الروح القدس، فيكون لنا روح الكلمة الذي هو في الآب، فنصير بسبب الروح واحداً في الكلمة ثم في الآب بواسطة الكلمة.
- 8 - إذا سقط الإنسان من الروح بسبب أي شر وندم وتاب عن سقطته فإن النعمة تظل فيه، أمّا إذا لم يتب يفارقه روح الله. أي أن التوبة تعيد النعمة وتعيد عطية الروح والبنوة والميراث.



فهارس الكتاب

فهرس حياة القديس أثناسيوس الرسولي

الحدث	الشهر واليوم		سنة ميلادية
	التقويم الغريغوري الحالي	التقويم اليولياني أيام أثناسيوس	
بداية حكم دقلديانوس، وبداية التقويم القبطي للشهداء. ميلاد القديس أثناسيوس.	11 سبتمبر	29 أغسطس	284 298/297
سقوط الإسكندرية في يد دقلديانوس.			297
نياحة البابا ثيؤناس، وبدء بطريركية أنبا بطرس (خاتم الشهداء) بابا الإسكندرية.			301
أول مرسوم إمبراطوري من دقلديانوس وجاليريوس بالاضطهاد.	7 مارس	23 فبراير	303
الاحتفال العشريني لدقلديانوس في روما.		ديسمبر	303
المرسوم الرابع للاضطهاد.			304
تنازل دقلديانوس عن العرش (لقسطنطين ومكسيمين قياصرة).	14 مايو	1 مايو	305
المناداة بقسطنطين، "أوغسطساً" في يورك ببريطانيا.	7 أغسطس	25 يولية	306
مكسيمين يتخذ لنفسه لقب "أغسطس" (وتخضع له سوريا ومصر).			307
أول مرسوم للتسامح (موت جاليريوس).	13 مايو	30 أبريل	311
تجدد الاضطهاد بواسطة مكسيمين في سوريا ومصر. استشهاد البابا بطرس خاتم الشهداء.			311
مرسوم بالتسامح الديني من قسطنطين، يصدر في ميلان. قسطنطين ينتصر على مكسينتيوس عند كوبري ميلفيان. أخيلاًس بابا الإسكندرية.	8 نوفمبر	26 أكتوبر	312
المرسوم الثالث للتسامح الديني من قسطنطين وليسينيوس (يصدر في ميلان)، ألكسندروس بابا الإسكندرية. ليسينيوس ينتصر على مكسيمين في هرقليا، ويصدر مرسوماً بالتسامح الديني - موت مكسيمين. هزيمة ليسينيوس في سيباليا.	13 مايو	30 أبريل	313 314

أول كتاب لأثناسيوس "ضد الوثنيين" و"تجسد الكلمة".			318
بداية النزاع مع الأريوسية.			319
حرم أريوس في مجمع مصري.			321
انضمام كنائس ومتوحدي مريوط لأريوس.			322
وثيقة حرم أريوس موقّعة من إكليروس الإسكندرية.			
انقسام كولوثوس (قس إسكندري لم يطق تأنّي البابا ألكسندروس على أريوس).			
رسالة ألكسندروس بابا الإسكندرية إلى سميّه أسقف القسطنطينية.			323
الهزيمة النهائية لليسينيوس في "كريزوبوليس".	1 أكتوبر	18 سبتمبر	
قسطنطين الإمبراطور الأوحّد.			
أول تدخل لقسطنطين في القضية الأريوسية. هوسبيوس أسقف غرناطة بأسبانيا ومستشار قسطنطين يصل إلى الإسكندرية، اجتماع المجمع هناك.			324
مجمع نيقية المسكوني.		الصيف	325
اجتماع الأساقفة المنشقين اتباع ميليتوس متروبوليت ليكوبوليس (أسيوط) بأجمعهم في الإسكندرية ومصالحتهم مع الكنيسة.		نوفمبر	327
نياحة البابا ألكسندروس بابا الإسكندرية.	30 أبريل	17 أبريل	338
أثناسيوس يُقام بابا الإسكندرية.	21 يونية	8 يونية	
زيارة أثناسيوس لطيبة، في صعيد مصر. ومحاولته رسامة باخوميوس أب الشركة قساً!			330-329
مجمع في أنطاكية يحرم يوستاثيوس أسقفها.			330
أثناسيوس يدافع عن نفسه أمام قسطنطين.			331
مجمع في قيصرية، أثناسيوس يرفض الحضور فيه.			334
أثناسيوس يغادر الإسكندرية إلى مجمع صور (بداية نفيه الأول).	24 يولية	11 يولية	335
الأساقفة المصريون يسجلون احتجاجهم.	19 سبتمبر	6 سبتمبر	
لجنة تحقيق من قبل المجمع تزور مريوط في مصر (اللجنة المريوطية).	سبتمبر	أغسطس	
مجمع في أورشليم يقرّر قبول أريوس في شركة الأسرار!	نهاية سبتمبر		

أثناسيوس يصل إلى القسطنطينية.	12 نوفمبر	30 أكتوبر	
مجمع في القسطنطينية، حرم مارسيلوس وأتباعه.	21 فبراير	8 فبراير	336
نفي أثناسيوس إلى تريفري في بلاد الغال (فرنسا).			
باسيليوس أسقفاً لأنقرة.			
موت أريوس في القسطنطينية.			
موت قسطنطين في نيقوميديا.	4 يونية	22 مايو	337
رسالة قسطنطيوس قيصر بالأمر بعودة أثناسيوس.	30 يونية	17 يونية	
عودة أثناسيوس إلى الإسكندرية.	5 ديسمبر	23 نوفمبر	
زيارة أنبا أنطونيوس للإسكندرية.	7-9 أغسطس	25-27 يولية	338
بيستوس أسقف الإسكندرية غير القانوني (الدخيل).			
مجمع للأساقفة المصريين في الإسكندرية.	الشتاء		339
مبعوثون من الطرفين في روما.			
مجمع في أنطاكية يحرم أثناسيوس.	يناير		339
ويعين جريجوريوس أسقفاً على الإسكندرية.			
هروب أثناسيوس من كنيسة ثيؤوناس بالإسكندرية.	1 أبريل	19 مارس	
وصول غريغوريوس البطريرك الدخيل للإسكندرية.	4 أبريل	22 مارس	
سفر أثناسيوس إلى روما.	29 أبريل	16 أبريل	
الأساقفة اليوسابيون يجتمعون في أنطاكية ويرثون على	يناير		340
رسالة يوليوس أسقف روما. وصول خطابهم إلى روما في			
الربيع.			
مجمع الأساقفة الرومانيين ورد يوليوس على اليوسابيين	الخريف		
(18 شهراً بعد وصول أثناسيوس لروما).			
منتصف الربيع مجمع "الندشين" (1134) في أنطاكية. أربعة قوانين.			341
أثناسيوس يترك روما (بعد إقامته فيها 3 سنوات)، ويتجه	مايو		342
إلى ميلان لمقابلة قسطنس الذي يتركه هناك، ويقوم			
بحملته ضد الفرنك. مجمع غانغرا.			
قسطنس يطرد مندوبي يوسابيوس في تريفري.	الصيف		
موت يوسابيوس النيقوميدي.	أواخر الصيف		
أثناسيوس في تريفري.	عيد الفصح		343
اجتماع مجمع سرديكا (مدينة صوفيا - عاصمة بلغاريا	يوليو		

(1134) نسبة إلى اجتماعه في أنقرا أثناء ندشين إحدى كنائسها.

344	عيد الفصح بعد الفصح	أثناسيوس في نيقية. مجمع في أنطاكية يحرم استقناوس ويعين ليونتيوس. ويصدر قراراً مجتمعاً سُمي في التاريخ باسم: sticozjmakr أي المطول. قسطنطينوس يكتب مانعاً اضطهاد الأرثوذكس في الإسكندرية.
345	7 أبريل 20 أبريل	عيد أثناسيوس في أكويلا بإيطاليا. مجمع في ميلان يدين فوتينوس. موت غريغوريوس الدخيل في الإسكندرية. (بعد 10 شهور من رسالة قسطنطينوس). مقابلة أثناسيوس لقسطنطينوس في أنطاكية. عودة أثناسيوس إلى الإسكندرية. رسامة فرومونتوس أسقفاً على الحبشة بواسطة أثناسيوس. أول مجمع ضد فوتينوس في سيرميوم.
346	سبتمبر 21 أكتوبر	3 نوفمبر أواخر العام
347		أول مجمع ضد فوتينوس في سيرميوم.
349		الحوار مع روما بخصوص تحديد يوم عيد الفصح.
350	18 يناير	31 يناير اغتيال قسطانس.
351	15 مارس	28 مارس جالوس ينادى به مثل "قسطنطينوس قيصر". معركة مورسا.
353	19 مايو	1 يونيو مجمع سيرميوم الثاني، وحرّم فوتينوس. بعثة برئاسة سيرابيون الأسقف المصري لقسطنطينوس. مونتانوس أحد ضباط القصر في الإسكندرية. مجمع في آرل بفرنسا ضد أثناسيوس. إعدام جالوس.
353		الخريف
354		إعدام جالوس.
355		مجمع في ميلان ضد أثناسيوس.
	يوليو - ديسمبر	ديوجنيس سكرتير الإمبراطور في الإسكندرية. يوليان (الجاحد) يصير "قيصرًا".
356	6 يناير 8 فبراير	19 يناير 21 فبراير
		نياحة القديس أنطونيوس الكبير، نفي هيلاريون. الوالي الروماني سيريانوس يصل إلى الإسكندرية. سيريانوس يقتحم كنيسة ثيؤناس بالإسكندرية. بداية النفي الثالث لأثناسيوس.

كاتافرونينوس يصير حاكماً لمصر.	23 يونيو	10 يونيو	
جورجيوس البطريرك الدخيل يدخل الإسكندرية كأستقف.	8 مارس	24 فبراير	357
المجمع الثالث بسيرميوم، والقانون الثاني (التجديف).	الصيف		
مجمع أنقرة.	الصوم الكبير		
تجدد الحرب مع فارس.	الصيف		
عودة لبيبريوس إلى روما.	15 أغسطس	2 أغسطس	
طرد جورجوس من الإسكندرية.	15 أكتوبر	2 أكتوبر	
مؤتمر سيرميوم - القانون التاريخي Dated Creed	4 يونيو	22 مايو	359
مجامع أريمنيم وسلوكيا.	يونيو - ديسمبر		
قانون نيكى Nike (مدينة في تراقيا بالبلقان)، الذي صدق عليه مندوبو مجمعي أريمنيم وسلوكيا في القسطنطينية.	13 يناير	31 ديسمبر	359
المناداة بيوليانوس "أوغسطساً" في باريس.	يناير		360
مجمع "التدشين" يرفع قراراته إلى الإمبراطور في القسطنطينية.			
[إدخال عبارة "مشابه في الجوهر" بدلاً من "مساوي في الجوهر" في تعريف الابن - عزل قادة الأريوسيين المعتدلين - قطع أتيسوس].			
انتخاب ميليتوس أسقفاً على أنطاكية ثم تنحيته، أوزويوس الأريوسي أسقفاً.			361
موت قسطنطيوس.	16 نوفمبر	3 نوفمبر	
مرسوم يوليانوس الجاحد (لعودة الأساقفة) مُرسل من الإسكندرية.	22 فبراير	9 فبراير	362
عودة أثناسيوس إلى كرسيه.	5 مارس	21 فبراير	
مجمع المعترفين بالإسكندرية، لوسيفوروس يبذر الشقاق في أنطاكية.	الصيف		
تجديد الأمر من يوليانوس ضد أثناسيوس. اختفاء أثناسيوس.	17 أكتوبر	4 أكتوبر	
موت يوليانوس وتنصيب جوفيان عوضاً منه.	9 يوليو	26 يونيو	363
أثناسيوس في صعيد مصر.			
أثناسيوس في الإسكندرية سراً.	أغسطس؟		
أثناسيوس يعبر الفرات.	19 سبتمبر	6 سبتمبر	

ويقابل جوفيان في إديسًا. أثناسيوس في أنطاكية. 27 فبراير (أو 5 العودة إلى الإسكندرية. مارس)	سبتمبر الشتاء	14 (أو 20) فبراير	364
موت جوفيان. فالنس يُعَيَّن "أغسطس" بواسطة فالنتينيان. مجمع لامبساكوس. فالنس في أنطاكية. تجدد الاضطهادات الأريوسية ضد الأرثوذكس.	1 مارس 11 أبريل	17 فبراير 29 مارس	365
وصول القرار بطرد أثناسيوس. أثناسيوس ينسحب إلى بلده الريفي. تمرد بروكوبيوس بالقسطنطينية. رسالة أنصاف الأريوسيين لليبيروس. إعادة أثناسيوس رسمياً إلى كرسيه. هزيمة بروكوبيوس. حرق السيزاريوم (نسبة إلى سيزار = قيصر) بالإسكندرية. واحتراق الكنيسة الكبرى هناك. محاولة لوسيوس الأسقف الأريوسي دخول الإسكندرية. أثناسيوس يبدأ في بناء الكنيسة التذكارية التي سُمِّيت على اسمه في ما بعد. تدشين الكنيسة التذكارية. بداية تبادل الرسائل بين أثناسيوس وباسيليوس الكبير رئيس أساقفة الكبادوك. وصول وفد من أتباع مارسلوس أسقف أنقرة إلى الإسكندرية؛ وعقد مجمع مكاني برئاسة أثناسيوس وقبولهم في شركة الكنيسة الجامعة. كتابان لأثناسيوس ضد الأبولينارية. نياحة القديس أثناسيوس بسلام الرب.	18 مايو 18 أكتوبر 11 أكتوبر الشتاء 14 فبراير 3 يونيو 3 أغسطس	5 مايو 5 أكتوبر 28 سبتمبر أول فبراير 21 مايو 21 يوليو	366
7 أكتوبر 5 أكتوبر	24 سبتمبر 22 سبتمبر	367 368	
20 أغسطس	7 أغسطس	370	
		371	
		372	
16-15 مايو	3-2 مايو	373	

الفترات التي نُفي فيها أثناسيوس والفترات التي قضاها في الكرسي

الفترات المنفى			الفترات التواجد بالكرسي		
مدته	بدايته		مدتها	بدايتها	
سنة	شهر	يوم	سنة	شهر	يوم
2	4	15	7	1	3
النفى الأول: 17 أبيب 51 للشهداء 11 يوليو 335 ميلادية			14 بؤونة 44 للشهداء 8 يونيو 328 ميلادية		
7	6	3	1	4	24
النفى الثاني: 21 برمودة 55 للشهداء 16 أبريل 339 ميلادية			27 هاتور 53 للشهداء 23 نوفمبر 337 ميلادية		
6	14	14	9	3	19
النفى الثالث: 13 أمشير 72 للشهداء 8 فبراير 356 ميلادية			24 بابة 62 للشهداء 21 أكتوبر 346 ميلادية		
1	3	22	8	27	21
النفى الرابع: 27 بابة 78 للشهداء 24 أكتوبر 362 ميلادية			27 أمشير 78 للشهداء 21 فبراير 362 ميلادية		
8	4	22	1	7	17
النفى الخامس: 8 بابة 81 للشهداء 5 أكتوبر 365 ميلادية			19 أمشير 80 للشهداء 14 فبراير 364 ميلادية		
7	4	2	7	82	7
إجمالي المدة التي قضاها في المنفى =			7 أمشير 82 للشهداء 1 فبراير 366 ميلادية		
17	6	20	27	5	5
إجمالي المدة التي قضاها في المنفى =			إجمالي المدة التي قضاها في المنفى =		

فهرس المجامع التي انعقدت في حياة أثناسيوس الرسولي

السنة ميلادية	المجمع الذي انعقد
325 من 19	مجمع نيقية المسكوني، حُرْم فيه أريوس وأتباعه ونُفي إلى
يونيو حتى 25	إليريكوم. توقيع اليوسابين على اصطلاح الهوموؤوسايوس
أغسطس	(المساواة في الجوهر بين الآب والابن) - كان أثناسيوس شماس
	البابا ألكسندروس.
328	أثناسيوس بابا الإسكندرية.
330	قسطنطين يفرج عن أريوس ويعيده للإسكندرية.
331	أثناسيوس يرفض قبوله في الشركة.
334	مجمع قيصرية ضد أثناسيوس الذي رفض الحضور.
335	مجمع صور وأورشليم، يقرر قبول أريوس والأريوسيين رسمياً في
	الكنيسة. أثناسيوس يُجبر على الحضور بأمر إمبراطوري ولكنه
	يترك المجمع متوجّهاً إلى قسطنطين.
	اليوسابين يحرمون أثناسيوس، وقسطنطين ينفية إلى تريفي.
336	اليوسابين يعتقدون مجعاً في القسطنطينية لاتهام مارسيلوس
	بالسابلانية، ولتنبيت قبول أريوس.
	موت أريوس.
337	موت قسطنطين، قسطنطيوس يخلفه في الشرق وقسطنانس

- الأرثوذكسي في الغرب.
338 عودة المنفيين، أثناسيوس يعود إلى الإسكندرية.
مجمع أساقفة مصر في الإسكندرية.
- 339 مجمع في أنطاكية يعيّن غريغوريوس أسقفاً على الإسكندرية، هرب أثناسيوس إلى روما.
- 340 اجتماع الأساقفة اليوسابين في أنطاكية وردهم على رسالة يوليوس أسقف روما.
- 341 اجتماع الأساقفة الرومان ورد يوليوس على اليوسابين.
مجمع "التدشين" في أنطاكية (يصدر أربعة قوانين) من الأساقفة اليوسابين.
- 343 مجمع سارديكا بناء على طلب الإمبراطور قنسطانس الأرثوذكسي من أجل مصالحة الكنائس.
- 344 مجمع في أنطاكية من اليوسابين يحرم استفانوس ويعيّن ليونتيوس ويصدر الماكروستخ Macrostich (القرار المطول).
- 345 مجمع ميلان ضد فوتينوس.
- 346 موت غريغوريوس الأسقف الدخيل في الإسكندرية.
مقابلة أثناسيوس في أنطاكية للإمبراطور قسطنطينوس.
عودة أثناسيوس للإسكندرية.
- 347 مجمع سيرميوم الأول ضد فوتينوس (نصف أريوسي).
- 351 مجمع سيرميوم الثاني يحرم فوتينوس، ويصدر قانون سيرميوم الأول (نصف أريوسي) ويوقع عليه ليباريوس بابا روما مستذنباً أثناسيوس.
- 353 مجمع آرل ضد أثناسيوس (عقده اليوسابين).
- 355 مجمع ميلان ضد أثناسيوس (عقده اليوسابين).
- 356 سيريانوس في الإسكندرية وبداية المنفى الثالث لأثناسيوس.
- 357 تعيين جورجوس أسقفاً على الإسكندرية بالقوة.
مجمع سيرميوم الثالث يصدر قانون سيرميوم الثاني (تجديف

- بوتامبيوس وهوسيوس ويوقّع عليه هوسيوس ولكن يرفض الإمضاء على حرم أثناسيوس).
- أمّا ليبيريوس فيوقّع عليه ويحرم أثناسيوس.
- 358 **مجمع أنقرة** Ancyra من 12 أسقفاً (أنصاف الأريوسيين) يوقّع عليه ليبيريوس!
- طرده جورجوس من الإسكندرية.
- 359 **مجمع سيرميوم الرابع** من أنصاف الأريوسيين، يوقّع عليه ليبيريوس!
- المجمع الثنائي في أريمين وسلوكيا** من الهوموؤوسيين وأنصاف الأريوسيين.
- 360 يوليانوس الإمبراطور.
- مجمع التدشين بالقسطنطينية**، يحرم قادة النصف أريوسية، وإبتيسوس.
- 361 موت قسطنطيوس.
- 362 عودة أثناسيوس إلى كرسيه.
- مجمع المعترفين في الإسكندرية.** الصيف
- تجديد الحكم ضد أثناسيوس من يوليانوس، وهرب أثناسيوس.
- 363 موت يوليانوس، وعودة أثناسيوس سرّاً إلى الإسكندرية. جوفيان الإمبراطور.
- 364 **مجمع لامبساكوس** (نصف أريوسي).
- موت جوفيان. فالنتينيان في الغرب وفالنس في الشرق.
- 365 تجديد الحكم ضد أثناسيوس والأمر بطرده.
- أثناسيوس يعنزل في بلدته.
- 366 عودة أثناسيوس رسمياً.
- 373 **نياحة القديس أثناسيوس.**

جدول للأباطرة وأساقفة الكراسي الرئيسية والمجامع التي عُقدت في
حياة أناسيوس

الإمبراطور الروماني

المجامع	أسقف القسطنطينية	أسقف أنطاكية	أسقف الإسكندرية	أسقف روما	في الشرق	في الغرب
			بطرس خاتم الشهداء			
(الليبيريس					جاليريوس	طين
					إيسينيوس	مين (313-308)
				يوسابيوس ملاكيدس		
روما			أخيلاس الكسندروس			
ارل أنقرة؟ نيو قيصرية؟				سيلفستر (335†)		
		فيلوجونيوس				
	الكسندروس؟					
الإسكندرية						طين الإمبراطور د
الإسكندرية نيقية		يوستاثيوس				
			أثناسيوس			
(+) أنطاكية	[اعتبار القسطنطينية أنطاكية (+) روما الجديدة]	باولينوس؟				
		يولاليوس يوفرونيس بلاسيوس				
قيصرية (+) صور وأورشليم (+) القسطنطينية (+)	بولس (†350م)					
				مرقس يوليوس	قسطنطيو س	طين الثاني (340†) نس (350†)
			بيستوس (+) غريغوريوس (×)			
أنطاكية (+) روما غنغرا (+) أنطاكية (*) (+)						

		الإمبراطور الروماني			
المجامع	أسقف القسطنطينية	أسقف أنطاكية	أسقف الإسكندرية	أسقف روما	في الشرق في الغرب
	مكدونيوس (×)	استفانوس			
سارديكا					
فيليبوليس (*)					
أنطاكية (*)		ليونتيوس			
ميلان					
سيرميوم الأول (*)					نطيوس الإمبراطور
					د
سيرميوم الثاني (*)				ليبريوس	
ارل (*)					
ميلان (*)					
سيرميوم الثالث (**)		إدوكسيوس	جورجيوس (×)	فيلكس (×)	
أنقرة (0)					
سيرميوم الرابع (*)		انيانوس (×)			
أريمنم (*)					
سلوكيا (*)					
القسطنطينية (**)	إدوكسيوس (×)				
		ميليتوس			
		يوزويوس (×)			
الإسكندرية		بولينيوس (×)			
لاودكية؟؟ (0)		انقسام			
أنطاكية		الإيبارشية			
لاميساكوس (0)					فالنس
				داماسوس (384†)	
تيانا (0)			لوسيوس (*)	يورسينوس (×)	
	ديموفيلوس (إيفاجريوس)				
			بطرس الثاني		
					يان (383†)
					يان الثاني (392†)

الإمبراطور الروماني	في الشرق	أسقف روما	أسقف الإسكندرية	أسقف أنطاكية	أسقف القسطنطينية	المجمع
	ثيودوسيوس					
	س					

ملحوظة: العلامات الموضوعية أمام المجمع تشير إلى:

- (+) المجمع لم يكن أريوسياً أصلاً ولكنه عُقد تحت تأثير يوسابيوس النيقوميدي.
 (*) المجمع تورط في الأريوسية بالقوانين التي أصدرها (مجمع آرل "353" وميلان "355" لم يصدر عنهما قوانين).
 (**) مجمع أريوسي من بدايته.
 (0) مجمع نصف أريوسي.
 (×) أريوسي.

ولاية وحكام مصر وهي تحت الاحتلال الروماني أثناء حياة أثناسيوس

اسم الوالي أو الحاكم	فترة الولاية	اسم الوالي أو الحاكم	فترة الولاية
سبتيموس زينبوس	329-328	Septimius Zenius	357-356 (وصل في 10 يونيو سنة 356م)
كاتافرونوس		Cataphronius	
ماجنيانوس	330	Magninianus	359-357
هيجينوس أو يوجينوس	331	Hyginus	359
or Eugenius		Italy	
باترنس	333	Paternus	361-359
باترنس	335-334	Paternus	362-361
فيلاجريوس		Philagrius	
فيلاجريوس	337-336	Philagrius	363-362
ثيودوروس وبعده فيلاجريوس	338	Theodorus	364
فيلاجريوس	340-339	Philagrius	364
لونجينوس	343-341	Longinus	366-364
بالليديوس الإيطالي	344	Palladius of Italy	367-366
نسطوريس الغزاوي	352-345	Nestorius of Gaza	370-367
سباستيانوس التراقي	354-353	Sebastianus of Thrace	371-370
مكسيموس الكبير النيقاوي	356-355	Maximus "the elder" of Nicaea	373-371
إليوس بالليديوس		Aelius Palladius	

قادة الجيوش الرومانية الذين باشرُوا احتلال مصر أنثاسيوس حياة أنثاسيوس

Valacius or Balacius	بالاشيوس	345-340
Phellicimus	فليكسيموس	350
Syrianus	سيريانوس	يناير وفبراير 356
Sebastianus	بعد منتصف صيف سباستيانوس	356
Artemius	أرطاميوس	360
Victorinus	فيكتورينوس	366-365
Traianus	تريانوس	368-367

كتابات القديس أناسيوس

هذه قائمة شاملة لكتاباته مرتبة زمنياً، والرقم يشير إلى تاريخ كتابتها:
(1) سنة 318 كتابان: ضد الوثنيين Contra Gentes

: تجسّد الكلمة De Incarnatione Verbi Dei

- (2) سنة 321-322 منشور عزل أريوس Depositio Arii
- (3) سنة 328-373 الرسائل الفصحية (راجع فهرس الرسائل الفصحية).
- (4) سنة 328-335 شرح الإيمان Expositio Fidei
- (5) سنة 335 على الآية: «كل شيء دُفع إليّ من أبي» (لو 22:10، مت 27:11) In Illud Omnia
- (6) سنة 339 خطاب دوري لأساقفة المسكونة Encyclica ad Episcopos Ecclesiae Catholicae
- (7) سنة 343 رسالتان من مجمع سرديقا (حالياً صوفيا عاصمة بلغاريا في البلقان).
- (8) سنة 351 احتجاج ضد الأريوسيين Apologia Contra Arianos
- (9) سنة 352 دفاع عن مجمع نيقية De Decretis Concilii Nicaeni ومذيل برسالة أوسابيوس القيصري لرعيته أرسلها سنة 325.
- (10) سنة 352 شرح رأي البابا ديوناسيوس الكبير بطريرك الإسكندرية De Sententia Dionysii
- (11) سنة 350-353 رسالة إلى أنبا أمون من آباء نتريا Ad Amun
- (12) سنة 354 رسالة إلى دراكونتيوس أسقف هرموبوليس بارفا (دمنهور حالياً) Ad Dracontium
- (13) سنة 356-362 حياة القديس أنطونيوس Vita Antonii
- (14) سنة 356 رسالة إلى أساقفة مصر وليبيا Epistola ad Episcop. Aegypti et Lybyae
- (15) سنة 356-357 الدفاع المقدم للإمبراطور قنسطنطيوس Apologia ad Constantium
- (16) سنة 357 دفاع عن هروبه Apologia de Fuga
- (17) سنة 358 رسالتان إلى الرهبان Ad Monachos
- (18) سنة 358 تاريخ الأريوسية Historia Arianorum ad Monachos
- (19) سنة 358 أربع مقالات ضد الأريوسيين Orationes ad Arianos IV
- (20) سنة 359 رسالتان إلى لوسيفر أسقف كالاريس في سردينيا (نُفي إلى صعيد مصر) Ad Luciforum
- (21) سنة 359 أربع رسائل إلى سيرابيون أسقف طمويه (تمي الأمديد حالياً) في

Ad Serapionem Orationes Iv

(22) سنة 359-360 على مجمع أريمني ومجمع سلوكية

De Syonodis Arimini et Seleucia Celebratis

(23) سنة 362 خطاب مجمعي إلى كنيسة أنطاكية Tomus ad Antiochenos

(24) سنة 362 مقالة في تحديد العقائد Syntagma Doctrinae

(25) سنة 362 رسالة إلى روفينيانوس Ad Rufinianum

(26) سنة 363-364 رسالة إلى الإمبراطور جوفيان Ad Juvianum

(27) سنة 364 رسالتان قصيرتان إلى الأب أورسيسوس رئيس دير طبانسين في

صعيد مصر

Ad Orsisium

(28) سنة 369 خطاب مجمعي إلى أساقفة إفريقيا من أساقفة مصر وليبيا ومعهم

أناسيوس

Ad Afros Epistola Synodica

(29) سنة 369 أيضاً: رسالة إلى إبكتاتوس أسقف كورنثوس Ad Epictatus

(30) سنة 369 أيضاً: رسالتان: الأولى إلى أدلفيوس المعترف أسقف أونوفيس Ad

Adelphium

Ad والثانية إلى مكسيموس فيلسوف كلبى إسكندراني

Maximus

(31) سنة 363-372 رسالة إلى ديودورس أسقف صور Ad Diodorus

(32) سنة 372 رسالة إلى يوحنا وأنطيوخس (الذي صار أسقفاً في ما بعد على

بتولمايس)

Ad Joann. et Antiochen

سنة 372 أيضاً: رسالة إلى بالليديوس كاهن مقيم في قيصرية فلسطين Ad

Palladius

(33) سنة 372 كتابان ضد أتباع أبولليناريوس Contra Apollinarium

أمّا باقي كتاباته التي لم يتوصّل العلماء بعد إلى تحديد زمن كتابتها فيمكن تقسيمها إلى

مجموعات هكذا:

أولاً: عقائدية - تعليمية:

(34) عن الثالوث والروح القدس De Trinitate et Spiritu Sancto وهو معروف في ترجمته اللاتينية فقط. ولكن واضح أنها مأخوذة عن أصل يوناني، ويرجع البعض كتابته عام 365.

(35) التجسّد وضد الأريوسيين De Incarnatione et Contra Arianos في حقيقته هو إثبات ألوهية المسيح من الكتاب المقدّس أساساً، ثم الاستطراد إلى الروح القدس. ولم يُتفق على صحة نسبته إلى أثناسيوس.

(36) العظة الكبرى عن الإيمان The Sermo Maior de Fide وعنه يقول الأسقف نيومان، العالم الأبائي الإنجليزي في القرن الماضي، إنه تجميع من أعمال أثناسيوس ولذلك لم يعترف العلماء بنسبته الأصلية لأثناسيوس.

(37) مقتطفات ضد بولس الساموساطي (بطريرك أنطاكية في القرن الثالث الذي حكمت المجامع بتجريدة وعزله لهرطقته) وقد اتفق على صحة نسبتها إلى أثناسيوس.

وباقى المقتطفات التي ضد مكدونوس (المسمّى عدو الروح القدس) ونوفاتيان وقد صعب على العلماء تقرير صحة نسبتها إليه.

(38) تفسير الرموز Interpretatio Symboli وقد ثبت أنه تعديل لقانون المعمّدين الذي وضعه إبيفانيوس أسقف قبرس المصري سنة 372 ولذلك يحتمل أن أصله من الإسكندرية، لذلك يرجح العلماء أن واضعه هو أنبا بطرس الثاني أو ثيوفيلس من بطاركة الإسكندرية سنة 380.

(39) سنة تجسّد كلمة الله De Incarnatione Verbi Dei وقد رجع إليه القديس كيرلس الكبير في عبارته المشهورة:

طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسّد

nhḡgou sesapkwmjsij toà Qeoà LEm...a f

ثانياً: تفسيرية:

(40) إلى مارسلينوس على تفسير المزامير Ad Marcellinum de Interpretatione

Psalmorum

وهو مقال تقوي عميق عن استعمال المزامير في الصلاة، ويؤكد شيوع استعمالها لأنها تجمع في إيجاز روح أسفار الكتاب المقدس كله مع تطبيقها للاحتياجات الروحية لكل نفس تحت مختلف الظروف. ويقول إن ترتيل المزامير ليس بقصد تأثيرها الموسيقي بل ليتمكّن المصلّي من التأمل الهادئ في معانيها.

(41) شروحات على المزامير Expositiones in Psalmos مع مقدّمة يشير فيها إلى ترتيب المزامير العبرية وتقسيمها إلى 5 كتب، ويُرجع عدم تنظيمها إلى الاعتقاد أنه خلال سبي الشعب اليهودي جمّع أحد الأنبياء بقدر استطاعته الأسفار المقدّسة التي فقدت ترتيبها بسبب إهمال اليهود. أمّا الأجزاء التي فيها اللعنات فهي تنطبق على أعدائنا الروحيين.

وفي هذه الشروحات يتقدّم كل مزمور تمهيد يبيّن موضوعه العام. وكذلك يرجع أنثاسيوس عرّضاً إلى الترجمات اليونانية الأخرى مثل ترجمة أكويلا وثيودوشن وسيماخوس.

(42) أجزاء متناثرة على إنجيل متى Fragmenta in Evang. Mathaei، وفيها ملاحظة هامة عن الإفخارستيا (على متى 6:7). ويبدو أن هذه المتفرّقات مأخوذة من مواضع وتفسير لأنثاسيوس ومجمّعة في أقواله مستقلة.

(43) متفرّقات على إنجيل لوقا Fragmenta in Lucam وفي نهايتها يشرح أنثاسيوس حدود المعونة التي تقدّمها الصلاة على المنتقلين.

ثالثاً: النسكيات:

(44) على البتولية De Virginitate ويؤكد البعض صحة نسبه إليه والبعض الآخر ينفي ذلك.

رابعاً: كتابات ضائعة:

وهي ما جاء ذكرها في كتاباته، أو ذكرها المؤرّخون القريبون من عصره مثل المؤرّخ سقراط. مثال ذلك خطاب حرّره لتعزية العذارى اللواتي أساء معاملتهن جورجوس الوالي الأريوسي، وجاء عنه في تاريخ الكنيسة لثيودوريت (II. E. ii. 14)، ويقتبس منه أن الأريوسيين لم يسمحوا للعذارى بالدفن في سلام بل “كانوا جالسين حول المقابر كالأبالسة ليمنعوهنّ”.

وأهم أعماله الضائعة رسائله الفصحى الناقصة ومراسلاته مع القديس باسيليوس الكبير.

وكان الاهتمام شديد في القرن السادس بجمع كتاباته بأي وسيلة، حتى أن قزمان أحد رؤساء الأديرة كان ينصح الإنسان بأن ينسخ في الحال أي شيء يصادفه من أعمال أثناسيوس، وإذا لم يتيسر له ما يكتبه عليه فليكن ذلك على ملابسه. وهذا يعلل كثرة الأعمال الجزئية التي لأنبا أثناسيوس والتي تدخل ضمن سلسلة "مقتطفات آباء الكنيسة" في الغرب المسماة السلاسل الذهبية Catena Aurea.

وكذلك تسبب هذا في وجود كثير من الكتابات المدسوسة عليه، أهمها ما يسمّى بقانون إيمان أثناسيوس الذي مازال مصدره قيد البحث.

ولاية وحكام مصر وهي تحت الاحتلال الروماني أثناء حياة أثناسيوس

السنة القبطية الميلادية	عيد الفصح (القيامة) قبطي ميلادي	الإمبراطور	حاكم مصر	أهم الأحداث
45 329	11 برمودة 14 أبريل	قسطنطين الكبير	زينوس الإيطالي	أول رسالة بعد رسامته في 14 بؤونة 44 ش.
46 330	24 برمودة 19 أبريل	قسطنطين الكبير	ماجنتيانوس الكبادوكي	في هذه السنة سافر إلى طيبة.
47 331	16 برمودة 11 أبريل	قسطنطين الكبير	هيجينوس الإيطالي	ارسلها أثناء رحلة عودته بعد مقابلة قسطنطين.
48 332	7 برمودة 2 أبريل	قسطنطين الكبير	هيجينوس الإيطالي	في هذه السنة ذهب إلى الخمس مدن الغربية.
49 333	20 برمودة 15 أبريل	قسطنطين الكبير	باتيرنوس	ذهب إلى الوجه البحري، ورفض حضور مجمع في قيصرية فلسطين عقده أعداؤه لمحاكمته.
50 334	12 برمودة 7 أبريل	قسطنطين الكبير	باتيرنوس	
51 335	4 برمودة 30 مارس	قسطنطين الكبير	باتيرنوس	
52 336	23 برمودة 18 أبريل	قسطنطين الكبير	فيلاجريوس الكبادوكي	حضر مجمع صور الذي عقده أعداؤه، ثم هرب إلى القسطنطينية وقابل قسطنطين وكلمه بصراحة، ولكن الإمبراطور تغير بعد ذلك فجاء وحكم بنفيه إلى فرنسا، حيث اتجه إلى هناك في 11 هاتور.
53 337	8 برمودة 3 أبريل	قسطنطين الكبير	فيلاجريوس الكبادوكي	كان في تريفري بفرنسا.
54 338	30 برمودة 26 مارس	قسطنطس	ثيودوروس	مات قسطنطين في 27 بشنس، عودة أثناسيوس في 27 هاتور من السنة التالية.
55 339	20 برمودة 15 أبريل	قسطنتيوس	فيلاجريوس الكبادوكي	هوجم في كنيسة ثيودناس مساء 22 برمهاد، وهرب في اليوم الثاني وبعد أربعة أيام اقتحم غريغوريوس الكبادوكي المدينة باعتباره أسقفاً الإسكندرية.
56 340	4 برمودة 30 مارس	قسطنتيوس	فيلاجريوس الكبادوكي	استمرار غريغوريوس في أعمال عنقه، الأريوسيون يخطنون في تحديد عيد الفصح، ثم ينتهبون في منتصف الصوم!! أثناسيوس يكتب لكهنة الإسكندرية لملاحظة ذلك.
57 341	24 برمودة 19 أبريل	قسطنتيوس	لونجينوس النقي	استمرار غريغوريوس في أعمال عنقه، رغم مرضه.
58 342	16 برمودة 11 أبريل	قسطنتيوس	لونجينوس النقي	غريغوريوس في أشد حالات مرضه.
59 343	1 برمودة 27 أبريل	قسطنتيوس	لونجينوس النقي	عقد مجمع سارديكا، الكتابة لأثناسيوس بسحب قرار حرمانهم،

أهم الأحداث	حاكم مصر	الإمبراطور	عيد الفصح (القيامة) قبلي ميلادي	السنة القبلي الميلاد ية	القبلي الميلاد ية
إصدار لائحة بخصوص عيد الفصح. كتب كلمات قليلة - أثناء عودته من نيصص بعد حضوره المجمع - لكهنة الإسكندرية فقط.	بالديوس الإيطالي	قسطنتيوس	15 أبريل برمودة 20	344	60
من سافر إلى أكويلا وأمضى العيد هناك، لذلك كتب كلمات قليلة لكهنة الإسكندرية فقط.	نسطوريوس غزة	قسطنتيوس	7 أبريل برمودة 12	345	61
موت غريغوريوس - عودة أثناسيوس واستقباله بحفاوة عظيمة.	نسطوريوس غزة	قسطنتيوس	30 مارس برمودة 4	346	62
من كتب الرسالة من الإسكندرية ولذلك ضمَّنها أشياء لاحظها ولم يكن في استطاعته ملاحظتها من قبل.	نسطوريوس غزة	قسطنتيوس	12 أبريل برمودة 17	347	63
من كتب الرسالة من الإسكندرية أيضاً.	نسطوريوس غزة	قسطنتيوس	3 أبريل برمودة 8	348	64
من كتب الرسالة من الإسكندرية.	نسطوريوس غزة	قسطنتيوس	26 أبريل برمودة 30	349	65
من قتل قنسطانس، قسطنتيوس الإمبراطور الأوحدي كتب لأثناسيوس ليطمئنه.	نسطوريوس غزة	قسطنتيوس	8 أبريل برمودة 13	350	66
من	نسطوريوس غزة	قسطنتيوس	31 مارس برمودة 5	351	67
من جاليلوس قيصرًا باسم قسطنتيوس الثاني.	نسطوريوس غزة	قسطنتيوس	19 أبريل برمودة 24	352	68
من إرسال بعثة سيرابيون أسقف تمي ومن معه إلى قسطنتيوس لإحباط مؤامرات الأعداء ولكن دون جدوى.	سبستيانوس كريت	قسطنتيوس	11 أبريل برمودة 16	353	69
من قسطنتيوس الثالث قيصرًا.	سبستيانوس كريت	قسطنتيوس	27 مارس برمودة 1	354	70
الشيخ ديوجنيس سكرتير الإمبراطور يدخل المدينة بقصد القبض على أثناسيوس، ولكنه لا يفلح.	مكسيموس من نيقية	قسطنتيوس	16 أبريل برمودة 21	355	71
ثم محاولة القائد سيريانوس القبض على أثناسيوس ولكنه هرب بمعجزة.	مكسيموس كتافرونوس	قسطنتيوس	7 أبريل برمودة 12	356	72
ثم جورجوس يدخل المدينة في 13 أمشير بقسوة شديدة ويبحث عن أثناسيوس ولا يجده.	كتافرونوس بارناسيوس	قسطنتيوس	23 مارس برمودة 27	357	73
من أثناسيوس يبقى في الإسكندرية متخفياً، جورجوس يطرده الشعب في 5 بابة من البلاد.	باريوس كورنثوس	قسطنتيوس	12 أبريل برمودة 17	358	74
ثم أثناسيوس مازال مختفياً في الإسكندرية.	باريوس إيتاليكيانوس الإيطالي فوستوس	قسطنتيوس	4 أبريل برمودة 9	359	75

أهم الأحداث	حاكم مصر	الإمبراطور	عيد الفصح (القيامة) قبطي ميلادي	السنة القبطيّة الميلاديّة
	الخلقيديوني			
أثناسيوس مازال مختفيًا في الإسكندرية.	فوستوس الخلقيديوني	قسطنطينوس	23 برمودة أبريل	360 76
ثم مات قسطنطينوس، وتوقف اضطهاد الأرثوذكس، ولكنه لم يستطع كتابة الرسالة أيضاً.	فوستينوس جبرونتيوس الأرمني	يوليانوس	8 برمودة أبريل	361 77
ثم عودة أثناسيوس إلى كرسيه بناء على صفح يوليانوس.	جبرونتيوس أوليمبوس الطرسوسي	يوليانوس	5 برمودة أبريل	362 78
أثناسيوس يترك المدينة على أثر تهديده متجهاً إلى الصعيد ويعود بعد 8 شهور سراً بعد علمه بموت يوليانوس ثم يسافر إلى هيرابوليس لمقابلة جوفيان.	أوليمبوس الطرسوسي	جوفيان	20 برمودة أبريل	363 79
- عودة البابا إلى الإسكندرية في 25 أمشير. ثم	ايريوس مكسيموس فلافيانوس	فالتينيان فالنس	4 برمودة أبريل	364 80
حدث زلزال في 27 أبيب دمر بلاداً كثيرة.	فلافيانوس	فالتينيان فالنس	1 برمودة مارس	365 81
ثم الوثنيون بالإسكندرية يحرقون السيزاريوم، وينتج عن ذلك معاقبة المدينة كلها، وتعيين بروكليانوس.	فلافيانوس بروكليانوس	فالتينيان فالنس	16 برمودة أبريل	366 82
ثم في هذه السنة كتب أثناسيوس قانون الأسفار المقدسة.	بروكليانوس تاتيانوس	فالتينيان فالنس	1 برمودة أبريل	367 83
بدأ أثناسيوس ببناء السيزاريوم، بعد اكتشافه لمثيري الفتنة في الحال أزال بقايا الحريق، ورّم الصرح في شهر بشنس.	تاتيانوس	فالتينيان فالنس	20 برمودة أبريل	368 84
بدأ البابا ببناء الكنيسة التي تحمل اسمه في "مينيديوم" في 25 توت.	تاتيانوس	فالتينيان فالنس	12 برمودة أبريل	369 85
ثم انتهى البابا من بناء الكنيسة؛ وكرّسها في 14 مسرى.	تاتيانوس أوليمبوس	جوفيان مارس	2 برمودة مارس	370 86
ثم	أوليمبوس إيلبوس	جوفيان	17 برمودة أبريل	371 84
		جوفيان	8 برمودة أبريل	372 88
في هذه السنة تنحّ البابا القديس أثناسيوس في السابع من بؤونة.		جوفيان	5 برمودة مارس	373 89



**فهرس بأسماء الشخصيات
التي ورد ذكرها في سيرة القديس أثناسيوس**

أبوللوس (أسقف):

أبولونيوس (أسقف):

أبوليناريوس (أسقف اللاذقية):

أبيس (كاهن إسكندري):

إبيفانيوس (أسقف قبرص):

إبيكتاتوس (أسقف سنتيومسلاً):
أتيوس (أريوس متطرف):
أثينودوروس (أسقف):
أخيَّاس (شماس):
أدلفيوس (أسقف):
أرساكيوس (أحد خصيان الإمبراطور):
أرخيداموس (أسقف سردىكا):
أرخيلاس (البابا 18):
أرسانيوس (أسقف ميليني):
أرشيلالوس (قنصل):
أريوسيين (أتباع أريوس):
أرتيميوس (الدوق):
أريستون (أسقف):
أزانس (أمير أثيوبى):
أستريكىوس (كاهن):
أستريوس (كونت - حضر ظروف اتهام أثناسيوس ظلماً):
إستريوس (أسقف بتررا):
إسحق (أسقف كليوبترىس - سرسنة بالفيوم):
إسحق (أسقف لاتوبوليس - إسنا):
إسحق - مار (أسقف نينوى)
إسخيراس (كاهن إسكندري غير قانونى):
استفانوس (أسقف أنطاكية):
استفانوس (حضر ظروف اتهام أثناسيوس ظلماً):
أسكلباس (أسقف غزة):
أغاتوديمون (أسقف):
أغاثون (أسقف):
أغسطس (الإمبراطور):

أغسطينوس (أسقف هيبو):
إدوخيوس (أسقف جرمانيكيا):
إدوكيوس (أسقف أريوسي):
إفرااتس (أسقف كابوا):
أكاكيوس (أسقف القسطنطينية):
أكاكيوس (أسقف قيصرية فلسطين - خلف يوسابيوس):
أكريكوس أوليميوس (والي):
أكسونيوس (من رهبان باخوميوس):
ألكسندروس (البابا الإسكندري 19):
ألكسندر (أسقف القسطنطينية):
ألكسندروس (أسقف تسالونيكى):
أمبروسيوس (أسقف ميلان):
أمون (القديس):
أمونيوس (أسقف):
أمونيوس (ترهب في أديرة الباخوميين على يد تادرس ثم انتقل إلى نتريا):
أمونيوس (نتريا):
أناجمفوس (أسقف رسمه البابا ألكسندروس):
أنتيوخوس (حضر ظروف اتهام أثناسيوس ظلماً):
أنطونيوس (الكبير):
أوجينوس (رئيس القصر):
أورساكيوس (أسقف بلغراد):
أورسيوس (من رهبان باخوم):
أورسيزيوس (من رهبان طبانيسين)
أوريجانوس (العلامة):
أوريليا (إحدى زوجات قسطنطيوس):
أوريون (أسقف):
أوزيوس (شماس - زميل أريوس):
أوطاخي (هرطقة):

أوكسنتيوس (أسقف - من مؤيدي أثناسيوس):
أولوجيوس (أسقف):
أيتوس (أريوسي متطرف):
إيدامون (أسقف تانيس):
إيديسيوس (شقيق فرومنتيوس):
إيزانوس وسازانوس (حاكما أثيوبيا):
إيزويوس (أريوسي):
إيسيون (أسقف أتريب):
إيفاجريوس (حضر ظروف اتهام أثناسيوس ظلماً):
إيلاريوس (أمين سر الإمبراطور):
إيلياس (الجديد):
إينوميوس:
إيوتروبيوس (أسقف أدرينوبل):
إيوفراتس (أسقف أجرينينا و متروبوليت شمال فرنسا):
باخوميوس (القديس - أب الشركة):
بارديون (كونت):
بارونيوس (مؤرخ):
باسيل (أسقف أنقرة - عوضاً عن مارسيللوس):
باسيليوس الكبير (رئيس أساقفة الكبادوك):
بافنوتيوس (أسقف مصري معترف):
باكسيوس (راهب باخومي):
بالليديوس (مؤرخ وأسقف):
بالليديوس (حضر ظروف اتهام أثناسيوس ظلماً):
بالليديوس (رئيس القصر الإمبراطوري):
بامون (راهب):
بالاكيوس (الدوق):
بتروس (كاهن):
بثانيوس (زعيم الوثنيين):

بروتاسيوس (أسقف ميلان):
بروتوجينيس (أسقف سرديكا):
بسينواوزوريس (أسقف):
باسيس (أسقف):
بستوس (أسقف دخيل على الإسكندرية):
بارفي (راهب باخومي):
بطرس (البابا الإسكندري 17):
بطرس (البابا الإسكندري 21):
بلنيس (أسقف):
بنيامين (مطران المنوفية السابق):
بنيس (كاهن دير في بلدة بتيمين سركيس):
بوتامون (أسقف مصري معترف):
بوتاموس (أسقف لشبونة بأسبانيا):
بول (أسقف لاتوبوليس):
بول (أسقف صور):
بولاندست (مؤرخين):
بوليموس (كونت):
بولس (أسقف القسطنطينية):
بولس السموساطي:
بولينوس (أسقف تريف):
تادرس (تلميذ باخوميوس):
تادر (من ذوي مراتب الكنيسة، ترهب لدى باخوميوس):
تريادلفوس (أسقف نيقيون):
توروس (كونت):
تيموثاوس (شماس البابا أثناسيوس):
تيمون (العالم):
ثالاسسوس (كونت):
ثاوفيليس (البابا الإسكندري 23):

ثيئوجنيس (أسقف نيقيا):
ثيئوذوروس (الوالي):
ثيئوذوروس (أسقف هيراكليا):
ثيئوذور (أسقف أكسورينكس):
ثيئودوريت (المؤرّخ الكنسي):
ثيئوغنسطس (العلامة):
ثيئوناس (كنيسة):
جرمينيوس (أسقف سيرميم):
جواتكن (العالم):
جورج الكبادوكي (الأسقف الأريوسي الدخيل):
جورج (أسقف لاوديكيا):
جورجونيوس (رئيس شرطة):
جوليان (والي على أحد أقاليم فرنسا):
جوفيان (إمبراطور):
جون ماسون نيل (العالم):
جيبون (المؤرّخ):
جيروم (إيرونيوموس):
حرمون (أسقف بوباسطيس):
حزقيوس (الكونت، رئيس ضباط القصر):
داتيانوس (كونت):
داماسوس (اعتلى أسقفية روما بعد ليبريوس):
دالمطيوس (أحد الحكام في الشرق):
دانيال (الجديد):
دراكونتيوس (أسقف):
دقلديانوس (الإمبراطور):
دورنر (المؤرّخ اللاهوتي):
دوشسن (مؤرّخ):
دومنوس الأرمني (من رهبان باخوميوس):

ديانيوس (أسقف قيصرية الكبادوك):
ديديموس الضرير:
ديسقوروس (البابا الإسكندري 24):
ديسقوروس (أسقف):
ديموفيلوس (أسقف من رؤوس الأريوسيين):
ديناميوس (رئيس شرطة):
ديوجنيتس (مبعوث الإمبراطور):
ديوسقوروس (كاهن نفي إلى أسوان):
ديونيسيوس الكبير (البابا الإسكندري 14):
ديونيسيوس (الكونت):
دين ستانلي (العالم):
روبرتسون، أرشيبالد (المؤرخ):
روفينوس (المؤرخ):
روفينوس (حضر ظروف اتهام أثناسيوس ظلماً):
روميلس (من رهبان باخوميوس):
ريتا (كنيسة بجوار باب 14 جمر ك إسكندرية):
زكاوس وتادرس (تلميذان للقديس باخوميوس):
سابيليانية (هرطقة):
ساتورنينوس (من جماعة هيلاردي):
سازانس (أمير أثيوبيا) أو أتزايا الأول أوسازان:
سباستيان (دوق):
سرجيوس (قنصل):
سقراط (المؤرخ الكنسي):
سكندس (أسقف برقة - أسقف أريوسي):
سلبيسيوس ساويرس (المؤرخ):
سلوانس (مرتد):
سلامة، أبًا (أول أسقف على أثيوبيا):
سميث - ووالاس (قاموس سير الآباء):

سوزومين (المؤرّخ):
سيداريوس (أسقف):
سيرابيون (أسقف مدينة تمويس - تمي الأمديد):
سيرابيون (أسقف تنترون - دندرة):
سيريانوس (والي مصر):
سيكروبيوس (أسقف نيقوميديا):
سيلية (عالم):
سينيسوس (الليبي):
شودة (رئيس المتوحدين):
صرابامون (أسقف مصري معترف):
غالوس (قيصر):
غالينيكوس (أسقف بيليزوم - بجوار بورسعيد):
غايس (أسقف):
غريغوريوس الكبادوكي (البطريك الدخيل على الإسكندرية):
غريغوريوس النزينزي (الثيولوجس، الناطق بالإلهيات):
فالنس (إمبراطور):
فالنس (أسقف بانونيا):
فالنس (أسقف مورسا):
فالانتينيان (إمبراطور):
فترينو (ضابط مرتد عن المسيحية):
فرتوناتيان (أسقف أكيليا):
فرومنتوس (أسقف أكسوم - أثيوبيا):
فلورنتيوس (كونت):
فلافوس (أسقف):
فلافوس هيميريوس (حارس قضائي):
فنسنت (أسقف كولونيا):
فنسنت (أسقف كابوا):
فوستينا (إحدى زوجات قسطنطينوس):

فوستينوس (جنرال):
فيلو (أسقف):
فيرمي (من رهبان باخوميوس):
فيليب شاف (المؤرخ):
فيلبوس (من صيدا، مؤرخ):
فيلكس (أسقف أريوسي):
فيلارجيوس (الوالي):
فيليسيوس (دوق مصري):
قسطنس (الإمبراطور):
قسطنطيا (أخت الإمبراطور قسطنطين):
قسطنطين الكبير (الإمبراطور):
قسطنطين الثاني (الابن):
قسطنطيوس أو قنسطانطيوس (الإمبراطور):
كاربونس (قس أريوسي قطعته من الشركة البابا ألكسندروس):
كارتيريوس (أسقف أنتارادوس):
كامل صالح نخلة (مؤرخ):
كاييه (أسقف وعالم):
كبريانوس:
كتافرونيوس (والي):
كلمنديوس (من تابعي الإمبراطور قسطنطيوس):
كليمندس الإسكندري - العلامة:
كودلوتوس (الأسقف الميليني):
كيرلس الأورشليمي:
كيروس (أسقف بيرييه):
كيرلس (البابا عمود الدين):
كيرينيوس (كنيسة):
كيف (عالم):
كيماتيوس (أسقف بالتوس):

ولانديوس (الخصي):
لوسيفر (أسقف كالاريس في جزيرة سردينيا):
لوسيو أو لوقيوس (أسقف أدريانوبل):
لوسيان (العلامة الأنطاكي):
لوريكوس (رئيس فرق جيش):
لوفور (عالم):
ليانوس (من الشهود لعظمة ديديموس):
ليبيريو (أسقف روما):
ليسينيوس (كنيسة):
ليوناس (ضابط بلاط):
ماجنتيوس:
ماجنتيوس وسلوانس (قاما ضد قسطنطيوس الإمبراطور):
مارتيريوس وحزقيوس (شماسان مندوبان عن أساقفة الشرق):
مارقيون (هرطوقي):
مارسيلوس (أسقف أنقرة):
مارسيلوس (أسقف كمبانا):
مارسيلينوس وبروبينوس (قنصلان):
مارقوس (المارق):
ماركوس (أسقف):
ماريانوس (موظف الإمبراطور الخاص بالكتابة المختزلة):
ماريس (من الذين قدموا اتهامات ضد أثناسيوس):
ماكسيميان (جد قسطنطيوس):
ماكسيميانس (أسقف تريف):
مافاي (عالم):
ماني - المانويون (هرطقة):
مرقس (أسقف أقامه أثناسيوس):
مرقس (أسقف رسمه البابا ألكسندروس):
مقدونيوس (أسقف - هرطقة):

مكار يوس (كاهن إسكندري أريوسي):
مكسيموس (أسقف أروشلیم):
مكسيموس (والي مصر):
مكسيميانوس الثاني - أومكسيمين:
موللر (العالم):
مونفاكون (العالم):
مونتانوس (مبعوث الإمبراطور):
مويتس - مويس:
ميروبيوس (قريب فرومنتوس وإيديسيوس):
ميليتس (متروبوليت ليكوبوليس - أسيوط):
ميليتيون (أتباع ميليتوس):
ميليتوس (أسقف عام أرمني):
ميلمان (مؤرخ):
مينوفانتوس (أسقف أفسس):
ميزونيانوس (الكونت ووالي سابق على الشرق):
نارسيوس، ومارس وثيودوروس وماركوس (أساقفة أنطاكيون):
ناون (من تلاميذ باخوميوس):
نسطور (مبتدع):
نسطور (والي):
نوفاتوس:
نوفاتيان (منشوق في القرن الرابع):
نيجرينان (قنصل):
نيلامون (أسقف):
نيومان (كاردينال عالم):
هادريان (كنيسة):
هرمس (أسقف رسمه البابا ألكسندروس):
هوسيسوس (أسقف قرطبة):
هيراكس (كاهن نفي إلى أسوان):

هيراكلاس (باروكلاس) البابا الإسكندري الـ 13:

هيراكليدس (أسقف نيقوس):

هيراكلوس (قائد جيش):

هيرميون (أسقف تسالونيكيا):

هيلبيديوس، وفيلوكسينوس (نائب أسقف روما):

هيلاري (أسقف بواتيه):

هيلاريوس:

هيفيلله (مؤلف كتاب تاريخ المجامع):

والاس - وسميث (قاموس سير الآباء):

وليم برايت (مؤرخ وأستاذ التاريخ الكنسي في أوكسفورد):

بوتروبيوس (أسقف أدريانوبل):

يوحنا أركاف (أسقف منشق رسمه ميليتس أسقف ليكوبوليس):

يوحنا ذهبي الفم (القديس):

يورانيوس (أسقف صور):

يوسابيا (زوجة قسطنطيوس):

يوسابيوس (أسقف فرسلي بايطاليا):

يوسابيوس (أسقف قيصرية - المؤرخ كنسي):

يوسابيوس النيقوميدي (أريوسي):

يوسابيوس (خصي):

يوستاثيوس (أسقف مدينة أنطاكية):

يوستاثيوس (كاهن وإشبين قسطنطيا):

يوستينا (الشهيدة):

يوفراتيون (أسقف):

يوليانوس (الجاحد):

يوليوس (أسقف روما):

فهرس بأسماء البلاد

إبسيلة (رُسم عليها أرسانيوس الأسقف الميليتي - مدينة شطب الآن):

أبوليا (أسقفية):

إثوبيا (الحبشة):

أخائية (أسقفية):
أخميم (مدينة في صعيد مصر - وُلِدَ فيها ق. أنثاسيوس):
أدرينوبل (على ساحل الدردنيل):
إدسا (بلاد الرها):
الدير الأبيض (من أديرة القديس أنبا شنودة بالصعيد):
آرل (مجمع):
أرمينيا:
أرموبوليس:
أريترم:
أريمينم (مجمع):
أسبانيا:
أسبيرا:
أسوان (سين أو سينوس):
آسيا الصغرى:
إفريقيا:
أكسورينكس (البهنسا - أسقفية):
أكسوم (عاصمة أثيوبيا قديماً):
أكويلا:
الإسكندرية:
الغال (فرنسا):
القلالي:
اللاذقية (بسوريا):
الليريكون (شمال اليونان):
الواحة الخارجية:
إليوثيرابوليس:
أمونياكا (بالمدين الخمس الغربية):
أنتارادوس (تورتوزا في فينيقية):
أنتوبوليس (أنصنا):
أنطاكية:
أنقرة:
أورشليم (مجمع):

أورونتس (نهر):

أوستيا (ميناء):

أونوفيس (أسقفية):

إيرين (قرية على بركة مريوط):

إيشوريا (أسقفية):

إيطاليا:

إيليريكوم (ألبانيا - أي الشاطئ المتاخم لغرب إيطاليا):

بابلون:

باخيمونيس (مدينة عاصمة لمقاطعة فرع النيل المسمّى سابى نيتيك):

دير بافور (من أديرة باخوميوس بصعيد مصر):

بالانيا (بانياس على ساحل سوريا):

باتونيا (أسقفية ما بين يوغوسلافيا والنمسا):

بترا (البطراء):

بتولمايس:

برقة:

بريطانيا:

بسبير:

بلغاريا:

بواتيه (أسقفية):

بواسطيس (أسقفية):

بيثينية (بأسيا الصغرى):

بيريتوس (بيروت):

بيريه:

بيزيه (مجمع):

بيلوزيوم:

تراس (تراقيا) إقليم بين بلغاريا ورومانيا:

تريف، أو ترير (على حدود ألمانيا الغربية مع فرنسا الغال):

تسالونيك (أسقفية):

تساليا (أسقفية):

تمويس:

جبال القوقاز (في كبادوكيا):

طوروس (جبال):
جرمانيسيا:
خلقيدونيا:
خمس مدن (أسقفية):
داداستانا (على الحدود بين غلاطية وبيثينية):
داردانيا (أسقفية):
داسيا (أسقفية):
دالماتيا (أسقفية):
دانوب (نهر):
دوناسا - دوناسة (دوفانيس):
ديرمنخوسين (من الأديرة الباخومية):
ديوقصرية:
روما:
رومانيا:
ريمني (مجمع):
سبسطية (مجمع):
سبسطية (أسقفية):
سردىكا (مجمع):
سردينيا (أسقفية):
سلوقية (مجمع):
سنتيومسلا (أسقفية):
سنجار:
سنجيدونم (بلغراد):
سوريا:
سيبالييس (مدينة):
سيرميم (أسقفية):
سيرميوم:
سيزار (بالإسكندرية):
سيسكيا (أسقفية):
سيزاريوم (كنيسة - قيصرية):
سينابلا (في ثيابيس - الصعيد):

شايرو (على النيل على بُعد 100 ميل من الإسكندرية شرقاً):

الشرق:

شيهيت:

صعيد مصر:

صقلية:

صور (مجمع):

صوفيا:

صيدا:

طبنسين (منطقة أديرة باخومية):

طرسوس:

طيبة: (طيبايد - الأقصر):

بلاد العرب:

غرب:

غزة:

فرشيلي (أسقفية بايطاليا):

فرنسا:

فلسطين:

فلانونيا (جزيرة بالقرب من إيطاليا):

فيرونا (مكتبة):

فيرجيا (بأسيا الصغرى):

فيليبوبوليس (مجمع):

فيميناسيم (مدينة في إقليم موزيا على نهر الدانوب على الطريق الرئيسي نحو

القسطنطينية):

قبرص:

قرطاجنة:

قرطبة (أسقفية):

القسطنطينية:

قورسيكا (أسقفية):

قيروان:

قيصرية الكبادوك:

قيصرية فلسطين:

كابوا (أسقفية):
كالباري (أسقفية):
كالابريا (أسقفية):
كالاريس (كالجاري في جزيرة سردينيا جنوب غرب إيطاليا):
كايرو (مدينة بقرب ممفيس):
كايو (أسقفية):
كبادوك:
كريت (أسقفية):
كلزما:
كليوباتريس (سرسنة الآن بالفيوم):
كمبانا (أسقفية بإيطاليا):
كيليكيا:
لاتوبوليس (إسنا):
لاتين:
لشبونة (بأسبانيا):
ليبيا:
ليكيا (أسقفية):
مريوط:
مصر:
مقدونيا (أسقفية):
ممفيس:
منف:
مورسا (قلعة بفرنسا):
موسيا (أسقفية):
ميلان:
نتريا:
نصييين:
نوريكم (أسقفية):
نيسا (أونايس - بإقليم الصرب):
نيقوميديا:
نيقية (أونيس - مجمع):

نڨيوس:

نڨيون (أسقفية):

هيرابوليس:

هيلينوبوليس (في إقليم بيثينية بأسيا الصغرى):

فهرس موضوعي للقسم اللاهوتي من الكتاب

أثناسيوس، لاهوته:

أبو الأرثوذكسية

قديس الرهبنة ونصيرها

أسلوب كتاباته

اختلافه عن باقي آباء الإسكندرية السابقين والمعاصرين له

دفاعه لم يقم على أصول فلسفية أو عقلية

اعتماده على الإيمان والتقليد والإنجيل

موقفه من كتابات أوريجانوس

دفاعه قائم على شخص المسيح الحي

معالم لاهوت أثناسيوس

أساسه دفاعي

منهجه اللاهوتي

يجمع حقائق الإيمان كلها على خط واحد

عناصر عقيدة أثناسيوس

أساس لاهوت الخلاص عنده

المبادئ الخلاصية التي يقوم عليها لاهوته

الحقائق اللاهوتية الخمس التي في منهج أثناسيوس اللاهوتي

أملى على العالم حقيقة الإنجيل مرة أخرى بغير انحراف

تكراره للعقيدة عشرات ومئات المرّات

صدق وحرارة الإيمان وصفاء الرؤيا في تقديمه فكره اللاهوتي

مضمون لاهوت أثناسيوس

أول لاهوتي يميّز بين “الوجود الإلهي الذاتي” و “الإرادة الإلهية في الخلق”
أول مَنْ دافع عن لاهوت الروح القدس
همُّ أثناسيوس إثبات حتمية التجسّد لتكميل خلاص الإنسان
وضع أساس عقيدة الاتحاد بالله
وأساس عقيدة الوحدة في جسد المسيح السري
منهجه اللاهوتي في معرفة الله
(هدفه الخلاص)

منهجه في تفسير الكتاب المقدّس وما بعده
قواعد عقيدة الروح القدس عند أثناسيوس
إعلان الله في الكتاب المقدّس هو المصدر الوحيد لفهمه ما هية الروح القدس
الإيمان والمعرفة:

ليسا متعارضين بل يمكن تكميل الواحد الآخر وما بعده
“حاسة” التقوى كمعين للإيمان في وصول الإنسان للمعرفة
معرفة الإيمان تشرك الإنسان في خلاص المسيح
الإيمان فعل نعمة من الله بالروح القدس، يؤدّي إلى الشركة في الطبيعة الإلهية
الإيمان الصحيح يتولّد من تدبير النفس الداخلي
“معرفة الإيمان”

؛

“روح الإيمان”
دور “التعليم” في الإيمان الصحيح كشرط للمعمودية
تشبيهات استخدمها أثناسيوس:
النور وبهاء النور (الشعاع) كأساس لإدراك حقيقة الله

وما بعده،

؛

الصورة والأصل

وما بعده؛

مفهوم الصورة الجوهرية

؛

الجلوس عن يمين الأب

؛

سمو الله بالرغم من التشبيهات البشرية

؛

جسد المسيح هيكل

وما بعده؛

الختم والمختوم (الروح القدس)

وما بعده؛

الينبوع والنهر والماء

؛

الشعاع والشمس

؛

الكلمة والعقل

؛

النطق الملكي

؛

الطبيب

؛

الإمبراطور وصورته

وما بعده.

جدل - محاجة - برهان:

اللاهوت ليس جدلاً

عدم نزوع أثناسيوس للجدل حول الكلمات

الإيمان الصحيح لا يتولد من الجدل

ولا يقوم على الفهم الشخصي

بل على تسليم صحيح للتقليد الكنسي الرسولي

الإيمان يسبق براهين المحاجة
تفضيل الإيمان كوسيلة للمعرفة
كيف أنتقل أثناسيوس بالجدل إلى الدخول في سر الشركة المفرحة بالثالوث وفي
الثالوث
مخاطر التحليل المنطقي لعلاقة الابن بالآب

وما بعده؛
أريوسية، هرطقة مُنشئها أريوسي:
ترجع إلى أصول يهودية ووثنية
نبئت في أنطاكية على يد لوسيان

(انظر

لوسيان)؛
أساسها الفلسفي في نظرية أوريجانوس عن أزلية الخليقة والنفس
مناصرة الوثنيين لها
تغلغلها وسط أفراد الشعب
أريوسي كان يقاوم بدعة سابليوس فسقط في بدعة إنكار أزلية الابن
الثغرة التي دخلت منها
المبادئ اللاهوتية التي قامت عليها
ادعاؤها الاعتماد على التقليد
يؤولون معاني الآيات

وما بعده؛
استغلوا فكرة تقول إن “اللوغس” أزلي ولكن “الابن” زمني
نادوا بثلاثة جواهر في الثالوث مما أدى إلى تعدد الآلهة عندهم
استغلوا الخلط بين ἕν ἡγενητόν , ἑν ἡγενητόν
بالفصل في اللاهوت
سؤالهم الاستنكاري عن لاهوت المسيح
القصدها الإنهاء على قوة المسيح في الخلاص والفداء
رفضت إمكانية حلول الله في الجسد

جرّدت المسيح من حقيقة بشريته
رفضت إمكانية حلول روح الله في الإنسان
فلسفتها العقلية عن خلقه العالم

وما بعده؟

ورد الآباء الأرثوذكس عليهم
في نظرها: الروح القدس المعطى للرسول ليس إلهاً
وهو مخلوق بواسطة الابن
(مجمل رأي البدعة الأريوسية في الروح القدس
وما بعده)؛

أقْبُوا بـ“أعداء الله”
و“أعداء المسيح” و“اليهود غير الشاكرين”
و“المنحرفين” و“غير الصالحين” و“غير الأتقياء” دستور إيمانهم سمّاه
أثناسيوس “قانون عتدم التقوى الشخصي”
يعتمدون على “فكرهم الخاص”
“يتكلمون من ذواتهم”
ومن “مشيئتهم الخاصة”
ومن “الإرادة المنقسمة”
ينقصهم “النظرة الإيمانية الشمولية الواسعة”
حُرّموا في مجمع بالقسطنطينية سنة 321 (قبل مجمع نيقية) كيف يشوّهون العقائد
الروحانية التقوية

بولس السموساطي: أسقف أنطاكية ورئيس مدرستها اللاهوتية:

مدرسته كانت المهد الذي تربّى فيه أريوس
نادى بعدم أقتومية الكلمة واستحالة التأنس
وعلم بأن الروح القدس الذي حلّ على الرسل ليس أقنوماً بل نعمة

لوسيان: معلّم أنطاكية اللاهوتي:

لم يؤمن أن المسيح واحد مع الأب
نادى بعدم وجود نفس بشرية في المسيح
من تلاميذه أريوس واستريوس الأريوسي ويوسابيوس النيقوميدي وثيئوجنيس
وماريس

أوريجانوس:

نظريته عن الخلق: الخليفة أزلية والنفس أزلية

نظريته عن شمول خلاص العالم (لم يأخذ بها أثناسيوس)

وما بعده؛

نظريته عن دور الابن عبد خضوع كل شيء للآب
آراؤه عن الروح القدس

وما بعده

موقف أثناسيوس من آرائه

قانون الإيمان الرسولي:

أسسه الرب

وهو أساس الدفاع عن الإيمان

التقليد (في دفاعات أثناسيوس والآباء):

الأسفار المقدسة:

هي أساس قبول الأقوال والأفعال للمعلمين

تعلم لنا الله الآب بواسطة ظهورات الابن

العلاقة بين الكتاب المقدس والتقليد في منهج أثناسيوس

الثالوث:

(استعلان الثالوث ووحداية الله عند أثناسيوس

وما

بعده؛

رسوخ عقيدة الثلاثة أقانيم عند الآباء

حقيقة دائمة قبل إنشاء العالم وبعد إنشاء العالم

الأقانيم متميزة في طبيعة واحدة

ليس فيه ثلاثة جواهر

بل وحدة في الطبيعة والجوهر والإرادة

ولاهوت واحد، ومجد واحد للثالوث

التساوي المطلق صفة جوهرية في الثالوث وإن كانت مستحيلة في المخلوقات

المساواة في الجوهر

استخدام الذوكصا ودلالاتها اللاهوتية

“التحرُّك” و“الاحتواء” في الأقانيم كشرح للتساوي المطلق

تسبيح واحد للثالوث
غير منقسم، معبود، في وحدانية الله
لا درجات في المجد أو الكرامة
في عقيدة أثناسيوس: وحدة الجوهر والذات ينفي التدرُّج
عدم تجزؤُه واضح من بشارة الملاك للعدراء
الثالوث (الكل) خالق متساوي
الوجود المتبادل في الأقانيم
الإصطلاحان الحارسان لمفهوم الوحدة الإلهية: في الله، من الله
كل شيء يعملُه الآب بالابن في الروح القدس
المعرفة المتبادلة في الثالوث
من معطيات التجسُّد:
كشف الله في الثالوث
الإيمان بالثالوث يوحدنا بالله
معرفتنا لسر الوحدة في الثالوث المتساوي يؤول إلى شركة حب وحياء وفرح
الروح القدس ووحدته مع الآب والابن في الجوهر

وما بعده.

(انظر: التساوي بين الآب والابن في الجوهر).

الله:

وحدانيته

(استعلان الثالوث ووحدانية الله)

وما بعده؛

يُدعى "الله الواحد" بسبب وحدة الجوهر
الفرق الهام بين وحدانية الجوهر في المسيحية وتعدُّد الجواهر عند أرسطو
حقيقة الله الأزلية
من جهة الجوهر يسمَّى "الكائن"
ليس مجرد كيان (جوهر) بل كيان ذاتي
في الكتاب المقدَّس يسمَّى "الآب"

له إرادة واحدة وطبيعة واحدة
وجود الصفات الجوهرية لله لا ينفي وحدانية الذات
الانسجام بين وحدانيته ولاهوت المسيح
المونارخية (وحدة الأصل) حارس مفهوم الوحدانية
له صفات ذاتية كيانية، وصفات تتعلّق بإرادته “مشورة الله”
المصالحة بين تعالي الله بجوهره، وبين حلوله في الكون
التفريق بين كيان الله في ذاته، وبين إرادته الفاعلة في الخلق
وجود الله ينشئ إرادة الخلق
رب وخالق الخليفة بواسطة “كلمته” الذاتي
الله لم يفقد شيئاً بسبب التجسّد، بل ربح خليقته مجدداً لاسمه
(انظر: الآب، الثالث)

معرفة الله:

يُبلغ إليها عن طريقين: كتاب الكون، والتأمّل في معرفة الإنسان لنفسه
امتنتعت بسبب الخطية
دخلت العالم بتجسّد المسيح
يُبلغ إليها بالإيمان بالمسيح

وما بعده،

المعرفة الواحدة المتطابقة بين الآب والابن:

أساسها عقيدة وحدة الجوهر
ونتلقّنها بالروح القدس
لا تقوم على النظريات بل على أساس الحب والمسرة والفرح والتقوى

الخلق:

هو عمل التدبير الإلهي
ليس من جوهر الله بل من إرادته
بقوة الكلمة
كلمة الله علة الخلق
هو عطاء من الله
دوامه متوقف على نعمة الله
الخلق والفداء عملان متكاملان بسبب الوحدة الكيانية الجوهرية بين الآب والابن
الله لا يحتاج لوسيط لخلق العالم
بل تمّ بالإرادة المباشرة

صلاح الله:

خلقة الإنسان على صورة الله أعظم مظهر له
التزام الله من جهة صلاحه لإعادة الإنسان إلى الصورة الأصلية
التجسد لا يتعارض معه

الآب:

يسمى "الله"
و"الإله الحكيم وحده"
هو أب قبل أن يخلق العالم
"الأبوة" صفة جوهرية ذاتية قبل وفوق صفة "الخلق"
ذكر اسم "الآب"، يعني أنه يوجد ابن معه بنفس الكيان والوجود
هو "أب" أزلي ليس بالنسبة للعالم المحدث، بل بالنسبة للابن الأزلي
دائم "الأبوة" و"البنوة"
المقصود بـ"الآب" و"الابن"
(الأريوسية ادعت وجود وسيط بين ما يسمى بـ"الروح الأعظم" والعالم السفلي)
تفنيد ذلك في عقيدة أناسيوس
الابن والروح القدس من الآب
"الهوموؤوسيسوس" مع الآب بالنسبة للابن

وما بعده؛

وبالنسبة للروح القدس
التجسد هو الذي كشف لنا عن الأبوة في الثالوث
"الكلمة" جاء ليعلن الآب
المسرّة المشتركة المتبادلة بين الآب والابن
كمال الخلاص في استعلان الآب
لا يمكن استعلان الآب للإنسان إلا وهو في عمق الخلاص
ومهيأ بالروح
والتسامي عن أي تصوّر حسّي
استعلان الابن هو الوساطة الأولى لمعرفة الآب
معرفة الآب من خلال الابن تقود في النهاية إلى الحب والاتحاد بالله
هناك فرق بين وحدة الآب والابن، وبين اتحادنا نحن بالله

وما بعده

لا نصير مساوين له، بل نبقى وندوم في “وحدة التدبير”
الآب لا يكون أباً للإنسان بالطبيعة بل بالنعمة (بسبب أبوته للكلمة الذي فينا)
أبوّة الله انتقلت لنا بالتبني في المسيح

الابن:

معنى “الآب” و “الابن”

وما بعده؛

معنى اللقب في الإنجيل، عند الآباء
بنوّة الابن جوهرية وليس بالنعمة أو الانتساب أو القوة أو الإرادة
ولا بالاتصال أو المشاركة
بل من جوهر الآب (كتفريق له عن الخليقة التي هي من الله)
وحدانية الله قائمة بسبب وحدة الطبيعة في الآب والابن
الصفات المنسوبة للابن:

مولود غير مخلوق

وحيد الجنس

ارتباط “وحيد الجنس” بـ “في حضن الآب” ومعناه

صورة الآب غير المنظور

الآب يحوي البنوّة في ذاته (الميلاد الأزلي)

الابن واحد مع كيان الآب ومن جوهره

وما

بعده؛

كيانه ليس “متشابهاً” مع كيان الآب، بل هما كيان واحد

هو “الإرادة الحيّة” لله

التلازم الحتمي للابن مع الآب

الابن في الآب نُسبت للابن (إلّا صفة جوهرية هي أب)

ليس مجرد عمل من أعمال الله بل “كلمة الله”

الابن والخليقة:

صفة “بكر كل خليقة” ومعناها

وما بعده؛

ليس في الابن ما يماثل المخلوقات

تنازله نحو الخليفة ضمان للسمو بها
بسلطانه اتحد بكل الأشياء وهو يضبطها
الابن والتجسد:

فيه تصالحت الخليفة مع الله
بتجسده أعلن صفة الله كأب

وما بعده؛

وما بعده؛

سيظل الابن للأبد هو الصورة الأزلية لجوهر الاب، حتى بعد خضوع كل شيء
للآب

الإعلان المتبادل بين الآب والابن

به صنعت الخليفة من جديد على صورته

مصدر كل بنوة

بسبب تجسده صارت بنوة البشرية لله أمراً حتمياً

الشركة في الابن شركة في الله

اتحادنا بالابن المتجسد يدخلنا في صميم طبيعة الكلمة المتجسد

أعمال الابن المتجسد:

الابن لم يقبل الروح وقت العماد، لأن الروح قائم فيه منذ الأزل

وهو في حال عمل الفداء يقوم إن يوم الدينونة ليس في دائمة عمله

بأي معنى قال المسيح ذلك

الإخلاء وعدم العلم بالساعة وباليوم

جلوسه عن يمين الآب برهان على أصالة البنوة لله:

أي المساواة في الكرامة والمجد

معنى الجلوس عن يمين الآب

عمل الابن لا ينتهي بعد أن يخضع كل شيء للآب

التأمل في الابن يقودنا إلى رؤية الآب

وما

بعده

كل شيء يعمله الابن يكون معمولاً بالروح القدس

كلمة الله (لوغس):

لقب "الكلمة" بمثابة ضابط الأمان لفهم لقب "الابن" في معناه الصحيح

معناها

؛ تعني "الكائن"
مقابل لفظ "الابن"
لقب ذاتي
أزلي

؛ في الله ومن الله أزلياً

وما بعده؛

"الإرادة الحية" للآب، والقدرة الجوهرية
والمشورة الحية للآب
الصورة الأزلية والأبدية لجوهر الآب
هو "كلمة الله" ليس بالنسبة لإرسالية عمله في العالم بل في صميم جوهر الثالوث
من ذات جوهر الآب
مساوي للآب
الفرق بين كلمة الإنسان وكلمة الله
ملاً كل مكان في السماء والأرض قبل تجسده
واتحد بكل الأشياء
وما بعده؛

ولكن ليس كحلول طبيعي في جوهرها
كيف صالح أناسيوس بين الحضور الكلي لكلمة الله وبين تنزيهه وتفوقه على
نقص الخليفة
وما بعده؛

كلمة الله المتجسد:

رسالة الكلمة لخلاص العالم بدأت منذ الخلق
حتمية تجسد الكلمة
لم يخل منه مكان في الخليفة وهو متجسد

وما بعده؛

لم يفترق عن الله بالتجسد
بل ظل كائناً في أبيه كلية
ملك ورب قبل وبعد التجسد

جاء ليعلن الأب
لا يجوز فصل الكلمة عن جسده الخاص ولا جسده الخاص عن الكلمة

وما بعده؛

التجسّد جعل للكلمة من داخل الإنسان سلطاناً على الشيطان
يشارك فيه كل مخلوق حينما يتقدّس بالروح
المعنى الواقعي لاتحادنا بالكلمة
التأمّل في صفات الكلمة يقود إلى معرفة الكلمة والآب
الكلمة وهو حالّ في الإنسان يمنح الروح القدس له
جلوسه عن يمين الأب برهان وحدة لاهوته مع لاهوت الآب
حكمة الله (حكمة الآب):

لقب ذاتي لابن الله

أزلي

حامل لصورة الله الخاصة

يبيّن نوع الصلة بين الابن والآب

الآب واحد مع حكمته

ما ورد في أمثال

عن الحكمة يختص بالكلمة وهو في حال تجسّده،

وهو مردود إلينا

أعلن الأب

ولادة أزلية (الآب والابن):

أو سر "بنوّته في ذات الله"

وما بعده

صعوبة فحصه

شهادات آباء الكرنيسة وشرحهم

صفة لعلاقة كيانية جوهرية في الله

أي من ذات كيان الله

وصف وجود الآب في الابن

علاقة صميمية أبدية أزلية

معنى الولادة في اللاهوت، وتفريقها عن المفهوم البشري

وما بعده؛
بعض الأخطاء في فهم الولادة الأزلية
خلط أريوس بين الولادة غير المادية والخلقة المادية
معناها: جوهر الابن من جوهر الآب
الآب:: يحوي في ذاته "البنوة" المعبر عنها بكلمة "ميلاد"
ديمومة الأبوة والبنوة
بنوة الابن لله هي برهان أن الكلمة من جوهر الله
حقيقة جوهرية غير مرتبطة بالمادة أو الزمن
قائمة بذاتها خلواً من أي تدبير آخر للخلق أو الخلاص
من واقعها تم إعلان وتعريف البشر بالله الآب
لا ينفى قوله "بكر كل خليفة"
معرفتنا بها ذات غنى للبشرية
تؤدي إلى سكنى الحكمة والكلمة الإلهي في أعماق كياننا
التساوي بين الآب والابن في الجوهر ذmoocعsioj:
لماذا اضطر الآباء لاستخدام هذا التعبير اللاهوتي
صفة جوهرية في الثالوث ليست موجودة في المخلوقات
استخدام الآباء السابقين لمجمع نيقية له
معناه

وما بعده

وما بعده؛
يقود إلى الإيمان بوحداية الله
ينفي الثنائية العددية في الله
غير لفظ "مشابه" للآب في الجوهر
يفيد عدم الافتراق عن طبيعة الآب
باعث لعبادة الآب والابن في جوهر واحد
برهانه يكمن في عقيدة تأليه الإنسان
تأليه الإنسان والاتحاد بالله ثمرة مباشرة له

يشرح علاقة الله بالخلية

هامش

يفيض غنى وحباً على الخلية والإنسان
هو مصدر الاستعلان المتبادل بين الآب والابن
عمل الخلاص هو نتيجة هذه العقيدة
التساوي بين الروح القدس وبين الآب والابن في الجوهر
ربط أناسيوس هذه العقيدة بالرهينة
لم يتمسك باللفظ تمسكاً أعمى
ولم يدعه يعلو فوق حقيقة الفداء
التجسد:

هو دخول الكلمة إلى العالم جهاًراً: حضوراً وسكنى

وما بعده؛

وهو مركز الإيمان واللاهوت
واستعلان لملء اللاهوت في المسيح
حتمية التجسد
حتمية تجسد الكلمة
معقولة وإمكانية التجسد

وما

بعده؛

لا يتعارض مع حلول الكلمة في كل مكان وكيان وزمان
ولا مع صلاح الله ومجده ووحدانيته
لم يتغير عن لاهوته ولم ينقض شيئاً بالتجسد، بل أله الجسد وجعله غير مائت
لماذا ظهر الله في الجسد
أخذ الله صورة الإنسان الذي هو صورة الله
هو برهان على خلقه الإنسان على صورة الله
دوافع التجسد:

محبة الله الفائقة للخلقة
أن يكون الكلمة كفواً للموت
ليمكن أن يقدم نفسه إلى الأب نيابة عنا
التجسد حاجة ملحة احتاجتها الخليقة
غايات التجسد:

وما بعده؛

خلاص الإنسان

(راجع الخلاص)، ومطاردة

الشیطان وأعماله

وما بعده؛

الفداء والكفارة
لكي يقدم نفسه إلى الأب نيابة عنا
ليبلغ بالإنسان إلى معرفة الله في ذاته
ليملأ كل شيء بمعرفة الرب
ليكمل عمل حضور الكلمة في الخليقة
ليرتقي بصورته ويفديها
إعلان الأب

وما بعده؛

قيامه الجميع من الأموات
عطية الروح القدس
الاتحاد بالله أو التأله
الربح الهائل الذي اكتسبته البشرية بالتجسد
المسيح:
المخلص
أزليته لا ينفىها تلقيبه "بكر كل خليقة"
بكر من الأموات

معناها

من الأب

أرسله الآب لإعلان أبوته ووحدانيته

لاهوته فعّال

الانسجام بين لاهوته وعقيدة وحدانية الله
كشفت علاقته الشخصية بالآب باعتباره كلمة الآب الذاتي
تحدث عن نفسه بلفظ "أنا هو" القاصر على الله
التجسّد هو استعلان لملء لاهوت المسيح
وليجمع كل شيء في ذاته
المثل الأعلى الملموس والمرئي للكمال والقداسة
موت المسيح رأس ومبدأ الحياة لنا
المسيح أقام جسده
قيامته إعلان نهائي عن انتصاره
أظهر جسده بعد القيامة كعلامة للظفر على الموت
لا يخضع للدينونة

وما بعده؛

بصفته ابن البشر قال إنه لا يعلم اليوم ولا الساعة
باي معنى قال هذا
مُسح بالروح القدس لا لكي يصير إلهاً أو ملكاً فهو إله

وما بعده؛

ولكن لكي من ملئه ننال ملئنا نحن
لماذا وكيف يتم اتحادنا بالمسيح

وما

بعده؛

الإيمان بالمسيح:

يؤهلنا للاتحاد بالله
يجعلنا نحصل على قوة معرفة الله
يكمل بالشهادة والاعتراف العلني

عدم الإيمان بالمسيح إلهاً آتياً في الجسد ينشئ استحالة للاتصال والمصالحة بالله
لا يجوز تجزئة المسيح إلى لاهوت وناسوت بل نعبد المسيح الواحد الكلمة
المتجسد

وما بعده؛

وحدة حياة المسيح

أثناسيوس يقدم المسيح متحداً بكنيسته

الإيمان بالمسيح قوة فعّالة في اللاهوت المسيحي منذ ما قبل قيام الأريوسية

لاهوت المسيح:

يُدرَك من أعمال المسيح

وما بعده؛

الموازنة بينه وبين وحدانية الله

استخدام عقيدة "وحدانية الله" في مهاجمة لاهوت المسيح

كلمة "الجوهر" "أوسيا" محور الصراع حول لاهوت المسيح

الأريوسية جرّدت المسيح من الألوهية

لكنها ادّعت ألوهيته مجازاً

نتائج عدم الإيمان بلاهوت المسيح

نتائج الإيمان بلاهوت المسيح

بدون لاهوت المسيح يستحيل أن يتأله الإنسان

أو ينال التبني

الاتحاد بالله هو ثمرة مباشرة للاهوت المسيح

هو الذي جعل التجسد انتصاراً على الموت والهاوية والخطية والفساد

يفتح أسرار الخلاص والفداء والحياة الأبدية

لا يتنافى مع ما ذكر في الإنجيل عن عدم علم المسيح باليوم ولا بالساعة

طقس المعمودية إثبات للاهوت المسيح

بشرية المسيح (جسد المسيح - ناسوت المسيح):

معنى "صار جسداً" في لاهوت أثناسيوس

وفي لاهوت الآباء السابقين عليه

كل ما نسب للمسيح من صفات وأعمال للمخلوقات هي متصلة ببشرية المسيح

الجسد الذي أخذه من العذراء صار جسده الخاص إلى الأبد

وهو مملوء من كمال اللاهوت
باتحاده بالكلمة صار غير خاضع للفساد
جسد المسيح تألَّهُ باتحاده بالكلمة
قَدَّسه الكلمة
كيف ننظر إلى أعمال بشرية المسيح

وما بعده؛

بشرية المسيح ومعرفة اليوم الأخير والساعة الأخيرة
لا يجوز فصل جسد المسيح عن الكلمة أو الكلمة عن الجسد

وما بعده؛

وما بعده؛

العلاقة السرية بين بشرية المسيح الخاص وبشريتنا المفدية والمتحدة معه
كل ما كُتب عن المخلَّص بحسب بشريته يلزم أن ننسبه لجنس البشرية عامة
بدون حقيقة بشرية المسيح كان يستحيل أن نتخلَّص من اللعنة والخطية
باتحادنا بالكلمة من خلال جسده جُعلنا آلهة فيه
إذ تقدَّس الجسد فيه أولاً صارت لنا بالتالي نعمة الروح القدس نأخذها من ملئه
الاتحاد الأثنومى (طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد):

صالح الألم بالألوهة

عقيدة أثناسيوس

لحساب البشرية ليسرِّب لنا عن طريق اتحاد ابن الله بنا، كل ما كان يعوزنا

ليوحدَّ الإنسان بالله

به صار فداء واحد من الخطية، وإلغاء واحد للموت

الروح القدس:

قواعد عقيدة أثناسيوس عن الروح القدس

في الكتاب المقدَّس

وعند آباء الكنيسة قبل أثناسيوس

وفي كنيسة الإسكندرية
والآباء المعاصرين لأثناسيوس ومن بعده
سُمِّي الروح المحيي
وروح القداسة
والباراكليت
والمسحة والختم
وروح المسيح الخاص
منبثق من الأب
لذلك فهو جوهر وليس طاقة أو قوة غير شخصية
أنظر: “قوة وطاقة غير مخلوقة” و”بولس السموساطي”
“الهوموؤوسايوس” استخدم للتعبير عن وحدة الروح القدس مع الأب والابن في
الجوهر

المصطلحات اللاهوتية عن الثالوث قيلت بالروح القدس
هو التعبير الكياني والصورة الموضحة للابن
لا يُقال عنه إنه يوحد الكلمة بالأب
ولا يمكن أن ينفصل عن الأب والابن
ولا يمكن أن ينفصل عن الأب والابن
كل ما يعمله الروح القدس يعمل من خلال وحدته بالأب والابن في الجوهر
الكلمة أعطاه للأنبياء حتى قبل التجسد
الروح القدس والخلقة:
الخلقة هي مجال عمله
إذ منه تنال الحياة
يقدّس كل الطبائع المخلوقة
فيه يُخلق الجميع
الإنسان الأول لم يكن متحدًا بالنعمة
ولكن في التجديد أُعطي أن يحوز النعمة متحدة بجسده
الروح القدس والخلص:
عطية الروح القدس إحدى نتائج التجسد
هو أقنوم المعرفة الإلهية وكشف أسرار اللاهوت
اشترك مع الكلمة في صياغة الجسد الذي أخذه من العذراء
أعطاه المسيح للتلاميذ

وهؤلاء لَمَنْ آمنوا بهم
صَلَّى المسيح لكي يهب الروح القدس لكل مَنْ يؤمن به
هو شخص الاتصال الدائم والحي بين المؤمنين والمسيح
بسبب الروح نصير واحداً مع الأب والابن
وجودنا وكياننا في الله الأب هو من الروح القدس
به نلتحم باللاهوت
ونصير كاملين
عن طريقه نتحد بالمسيح

وما بعده؛

التأليه في المسيح
في المعمودية الروح القدس يقدّس
الكلمة هو حالاً في الإنسان يمنحه الروح القدس
بدون الروح القدس يستحيل الإيمان بالمسيح
بدونه نحن بعيدون وغرباء عن الله
الأريوسية تنفي إمكانية حلوله في الإنسان
معنى التجديف على الروح القدس
التنكُّر لشركة الروح القدس تنكُّر للاهوت المسيح شخصياً
"القوة" أو "الطاقة" غير المخلوقة - بدعة ظهرت مؤخراً:
شيء ليس هو الله وليس هو مادة مخلوقة
ارتباطها بفكرة "القوة الخالقة" لدى الهراطقة
استنادها دون تمييز على فكرة "الإرادة الإلهية للخلق" لدى أثناسيوس
توضيح لمفهوم أثناسيوس عن التمييز بين "الوجود الإلهي" و"الإرادة الإلهية
للخلق"
جذور جماعة عاشت أيام غريغوريوس النزينزي
جسد المسيح (السري):
مفهوم الجسد السري العام للمسيح

وما بعده

وما بعده

قائم على أساس "اتحاد المخلص بخاصته": جسده الخاص، وبنا جميعاً
المسيح احتوى جسد البشرية
دوام هذه الوحدة على المستوى الأخلاقي والأدبي
هذه الوحدة واقعية كيانية
نحن وهو جسد واحد
المسيح أعطى وسلم للجنس البشري (بالأسرار) جسده المؤله
نحن لا نشترك في جسد إنسان بل في جسد "الكلمة"
عن طريقه نتحد بالمسيح
باتحادنا بالابن المتجسد نصير جسداً واحداً وروحاً واحداً

وما بعده

باتحادنا بجسد المسيح: نتخلص من ضعفاتنا، ونحرر من قيود خطايانا، ونشترك
في صفات وأمجاد اللوغس
وبه يتم تأليه الإنسان
كيف تقدسنا في جسد المسيح
الكمال يبلغه الإنسان نتيجة الاتحاد بجسد المسيح
بالروح القدس يتم انضمامنا للجسد السري (الكنيسة)
الاتحاد بالجسد يتوقف على سلامة الإيمان
حلول الروح القدس على المسيح يوم معموديته كان حلولاً علينا لأنه كان حاملاً
جسدنا

الكنيسة:

راجع: جسد المسيح السري

المسيح هو الكنيسة

بالروح القدس يتم انضمامنا للكنيسة

شرط الانضمام للكنيسة الاعتراف بالتالوث

مريم العذراء - القديسة:

أقام الكلمة لنفسه بيته فيها

الروح القدس يشترك مع الكلمة في صياغة جسده منها

مجيء الكلمة إلى العذراء كان بهدف أن تتحد البشرية بالله

لماذا تُدعى “ثيوتوكس”

آلام المسيح وموته (الصليب):

موته مركز الإيمان

أكمل الفداء والكفارة

بمثابة تقدمه كهنوته

موت المسيح رأس ومبدأ الحياة لنا

وهو ثمن انتصاره لنا

الصليب سلاح الانتصار على الموت

وما بعده

الدوسيتيون أنكروا آلام المسيح

الأريوسية اعتبرتها تتناقض مع لاهوت المسيح

كيف ربط الآباء بينها وبين لاهوت المسيح

الذبيحة (كفعل خلاص) Qus...a:

وما بعده

الفرق بينها وبين التقدمة

هامش

تخلصنا من لعنة الموت

بها وضع المسيح حداً لحكم الموت

تقدمة prosfor£ (كفعل خلاص):

وما بعده

الفرق بين التقدمة والذبيحة

هامش

الفداء:

هو مضمون دفاع أثناسيوس عن لاهوت المسيح

الفداء يحتمُّ أن يكون المسيح ابن الله
التجسُّد يكملُه
الخلق والفداء عملان متكاملان بسبب الوحدة الكيانية الجوهرية بين الآب والابن
هو غفران خطايا

وافتداء عن الخطايا

وتقديم المعادل والبديل
كموت نيابة عن الجميع ليوفي الدِّين عنهم
وليكمل الموت عنهم
كتقدمة ذات إلى الآب عنَّا وبسببنا ومن أجلنا
لتجديد خلقة
لتحويل الخليقة إلى الكيان غير الفاسد وغير المائت
غاية الفداء: "تأليه الإنسان"
النزول إلى الجحيم:

الخلاص:

أسس التقليد الآبائي بخصوص الخلاص
أخذ بها أثناسيوس
الحقائق اللاهوتية الخمس في منهج أثناسيوس اللاهوتي عن الخلاص
الطبيعة المتألَّفة للخلاص:
بمعنى وفاء الدِّين
1- وصنع الفداء عن الخطايا
2 - بمعنى رفع العقاب

وغلبة الموت

وما بعده؛ مفهوم التقدمة في الخلاص
3 - بمعنى العلاج من المرض الذي أصاب الطبيعة البشرية
تغيير جذري تجوزه الطبيعة البشرية

القيامة و عدم الفساد

تدبير الخلاص:

بدأت رسالة الخلاص منذ خلقه العالم
كمال الخلاص هو بواسطة الآب في المسيح
بالضرورة الآب يخلص ما خلق بكلمته
كمال رسالة الخلاص في استعلان الآب
هو نتيجة عقيدة تساوي الآب والابن في الجوهر
الخلاص والتجسد:

لا بد أن يكون بالتجسد

لا بد أن يكون بالصليب

للخلاص زمن وعمل وحدود

لتأمين طريق الخلاص: تعقب المسيح الشيطان وجرده من سلطانه
الخلاص مستحيل إذا لم يبلغ الإنسان الاتحاد بالله بالروح القدس والكلمة والأسرار

الدينونة:

هي عمل الابن

سيرسل الابن للدينونة

عدم علم الابن المتجسد بيوم وساعة الدينونة هو من أعمال الإخلاء
نعمة الروح القدس المعطاة في المعمودية تُرفع عن الأشرار يوم الدينونة

الخليقة (المخلوقات، العالم، المادة):

محدوديتها

ليس لها صفة الأزلية

الله يدبر العالم بنفسه من خلال كلمته

الكلمة يضبط الخليقة

العلاقة بين حضور الكلمة في العالم وحضوره في التجسد

منه تستمد كل الأشياء حياتها وقوامها

من الروح القدس تستمد المخلوقات الحياة

وحدة الآب والابن في الجوهر تُظهر كمال علاقة الله بالخليقة

هامش

هي من فيض عطاء الله
وتعكس صورة الخالق
خُلقت من أجل الابن وليس العكس
قابلة للفساد والموت
تتحرك بقوة الله نحو نهاية محسوبة
السقوط والتجسُّد:

الخليقة سقطت لأنها خُلقت من العدم
التجسُّد هو حاجة الخليقة لضمان الاتحاد بالله
رسالة الكلمة لخلاص العالم بدأت منذ الخلق
التجسُّد رسالة الحب الإلهي استُعلنت للخليقة
في المسيح تمَّ افتداء كل الخليقة
معنى أن المسيح «بكر كل خليقة»
المسيح رفع الخليقة إلى الوجود الدائم مع الله
حالة الخليقة الجديدة
ابن الله ليس فيه ما يماثل المخلوقات
ليس من وسيط للخلق

(انظر: الخلق)

الإنسان:

الاتحاد بالله غاية خلق الإنسان
التبني لله كان في إرادة الله تجاه الإنسان منذ البدء
حالة الإنسان الأول:
طبيعة قابلة للفساد ولكن باتحادها بالكلمة صار على غير فساد
النفس قابلة للموت بطبيعتها ولكنها تعيش وتحيا بنعمة الله
قابلة للموت والفساد إلا بنعمة الله وشركة اللوغس
يحظى بالشركة مع الله ومن خلالها تحدث الشركة بين الخليقة والكلمة
النعمة الأولى في الإنسان ليست فائقة لطبيعته
آدم لم يحقق غاية رسالته
بالسقوط:
فقد الرؤيا نحو السمائيات
فقد قوة الكلمة

طَوَّحَ بِالْإِنْسَانِ فِكْرِيًّا نَحْوَ فَقْدَانِ اللَّهِ
فَقَدَ الْقُدْرَةَ عَلَى خِلَاصِ نَفْسِهِد
الْتَرَكِيزَ عَلَى النَّاحِيَةِ الْمَرْضِيَّةِ فِي تَفْسِيرِ سَقُوطِ الْإِنْسَانِ
وَعَدَمِ الْفَسَادِ مِنْذُ الْخَلْقَةِ الْأُولَى
اسْتِعَادَةَ الْإِنْسَانِ:

الْتِزَامِ اللَّهِ مِنْ جِهَةِ حُبِهِ بِإِعَادَةِ الْإِنْسَانِ إِلَى الصُّورَةِ الْأَصْلِيَّةِ
تَأْتِسُ كَلِمَةُ اللَّهِ أَخْذًا صُورَةَ الْإِنْسَانِ
حُرِيَّةِ إِرَادَةِ الْإِنْسَانِ فِي تَقَبُّلِ اسْتِعْلَانِ اللَّهِ
الْتَجَسُّدُ وَالْإِنْسَانِ:

قِرَابَتِنَا لِلْمَسِيحِ بِالْتَجَسُّدِ

وَبَسَبَبِهَا صَرْنَا هَيْكَلًا لِلَّهِ

جَسَدِنَا صَارَ كَلِمَةً

صِفَاتِ الْجَسَدِ الْبَشَرِيِّ بَعْدَ الْقِيَامَةِ

مِقَابِلِ التَّجَسُّدِ قَدَّسَ كَلِمَةَ اللَّهِ كُلَّ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ

الْكَمَالَ يَبْلُغُهُ الْإِنْسَانُ نَتِيجَةَ الْإِتْحَادِ بِجَسَدِ الْمَسِيحِ

الْوَحْدَةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ تَتَّبَعُ مِنْ وَحْدَتِهِمْ فِي الْمَسِيحِ

الْفِدَاءِ يَحْوُلُ الْإِنْسَانُ إِلَى الْكِيَانِ غَيْرِ الْفَاسِدِ غَيْرِ الْمَائِتِ

الْتَجَسُّدُ أُعْطِيَ الْإِنْسَانُ سُلْطَانَ "الكَلِمَةُ" عَلَى الشَّيَاطِينِ

مَعْرِفَةَ الْإِنْسَانِ لَسِرِ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الْآبِ وَالْإِبْنِ هِيَ مَصْدَرُ تَكَامُلِ الشَّخْصِيَّةِ
الْإِنْسَانِيَّةِ

بِرَكَاتِ مَعْرِفَةِ سِرِ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الْآبِ وَالْإِبْنِ

تَدْبِيرِ اللَّهِ ظَلَّ بِالنَّسْبَةِ لِفِكْرِ الْإِنْسَانِ مَحْدُودًا لِإِعْطَاءِ فِرْصَةَ الْإِيمَانِ

الْإِيمَانِ بِالْمَسِيحِ وَنَوَالِ الرُّوحِ الْقُدُسِ هُوَ الْقُوَّةُ الْجَازِبَةُ لِلْإِنْسَانِ نَحْوَ اللَّهِ

الرُّوحِ الْقُدُسِ يَحِلُّ فِي الْإِنْسَانِ بِحُرِيَّةِ إِرَادَتِهِ

الْأُرْيُوسِيَّةُ تَنْفِي إِمْكَانِيَّةَ حُلُولِ الرُّوحِ الْقُدُسِ فِي الْإِنْسَانِ

الْأُرْيُوسِيَّةُ تَنْفِي الْحُبَّ لَدَى الْإِنْسَانِ كَتَعْبِيرٍ عَنِ حُرِيَّتِهِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ

بِاعْتِبَارِ الْإِبْنِ بَكَرِ كُلِّ خَلِيقَةٍ، رَفَعَ الْخَلِيقَةَ فَوْقَ مَسْتَوَى عِجْزِهَا لِلتَّأَهَّلِ لِلْوُجُودِ

الدَّائِمِ أَمَامَ اللَّهِ

صُورَةُ اللَّهِ فِي الْإِنْسَانِ:

الْإِنْسَانُ مَخْلُوقٌ عَلَى صُورَةِ اللَّهِ

بِهَا يَسْتَعْلَنُ اللَّهُ ذَاتَهُ فِي الْعَالَمِ كَمَا فِي كِتَابِ مَفْتُوحِ

دعماً لله بالوصية
في عقيدة أثناسيوس لا يمكن للصورة الإلهية أن تُفقد
مخالفة الوصية أحدثت تشوهاً وتصدّعاً في الصورة
صورة الأب، الأب وحده كفيلاً بأن يجدّها
بالتجسّد أخذ الخالق صورة الإنسان الذي هو صورته
تجسّد الكلمة هو برهان على صدق رواية الخلق على صورة الله
هذه النعمة في الإنسان هي لحساب ولمجد الصورة الحقيقية "الكلمة"
ادعاء الأريوسية بعدم إمكانية حلول الروح القدس في الإنسان يتنافى مع هذه
الحقيقة الكتابية

متطلبات الصورة في الإنسان:
مطالبة المسيح لنا أن نكون "كاملين" و"قديسين" كما أن أبانا الذي في السموات
هو "كامل" و"قدوس"
الاتحاد بالله يوصل إلى كمال الصورة التي خلقه الله ليبلغها في النهاية
الموت:

دخيل على الإنسان
عنصر خارج الجسد
الخطيئة هي العلة المؤدية للموت
أثر التجسّد على الموت:
ضرورة التجسّد ليُغلب الموت في جسد الإنسان
ألغى المسيح الموت في جسده بقبوله الضعفات التي للطبيعة البشرية
صار بكر الأموات ليبيد الموت
الحياة (أي المسيح) تجعل المائت غير قابل للموت
انقلب وزال بواسطة الكلمة المتجسّد
مفهوم بديع للخلاص - كتقدمة - لغلبة الموت
بتقديم الكلمة إلى الأب ذبيحة خلصنا من الموت
دور الصليب في الانتصار على الموت

وما بعده

نتائج غلبة الموت

وما بعده

أجسادنا تتحل بالموت الآن لنفوز بقيامة أفضل
يستحيل بلوغ الاتحاد بالله قبل موت الجسد
لا نموت الآن تحت الدينونة
عن طريق الاتحاد بالمسيح نأخذ عدم الموت
القيامة:

وعد القيامة من الأموات
غرض التجسد قيامة الجميع من الأموات
المسيح بكر القيامة من الأموات
قيامة المسيح أعلنت الابن والآب
بقيامته أباد الموت
قيامة المسيح وغلبته على الموت حتى في الهاوية
رجاء القيامة بذبيحة جسد المسيح
صفات الجسد بعد القيامة
بها نصبح عديمي الفساد
ولا نخاف من الموت
العدد الضخم من الشهداء هو برهان قيامة الأجساد
“المبادلة الخلاصية”:
شرح هذا المبدأ عند الآباء

هامش

تعبيرات القديس أناسيوس وباقي الآباء:
لما لبس المسيح بشریتنا لبسنا نحن صفاته اللاهوتية
صار إلى ما نحن عليه ليعلننا إلى ما هو عليه
أخذ ما لنا وأعطانا ما له
صار إنساناً لكي نصير نحن فيه إلهاً
كما اشترك الكلمة في ضعفاتنا، اشتركنا في عدم موته
كما أن الرب أخذ جسداً وصار إنساناً، صرنا نحن متحدین به أو إلهيين
نتيجة نسبة خواص وصفات الجسد البشري للكلمة وأثرها على خلاص الإنسان
معنى “الجسد صار كلمة”
أخذنا وضمنا إليه في جسده
كيف كانت أعمال المسيح غنائم للإنسان بواسطة تجسده

كل ما كُتِبَ عن المخلَّص بحسب بشريته يلزم أن ننسبه لجنس البشرية عامة
اللفظ المتكرَّر في كتابات أثناسيوس:

“بسببنا ومن أجلنا”

قيل إنه حل عليه الروح القدس

قيل إنه ارتفع

قيل إنه قدَّس ذاته

رفع الطبيعة البشرية إلى مستوى الحياة الدائمة مع الله:

كان ضمن خطة الخلق وتحققت في المسيح

التجسُّد يؤدِّي إليه

هو عطية مجد من الابن، ومن الأب عن طريق الابن المتجسِّد

قائم على كون المسيح إلهاً

كل مَنْ يرانا ونحن في حالة السمو الروحي بالروح القدس يخر على وجهه

ويسجد لله الذي فينا

حالة الإنسان المفدي أعظم من حالة آدم:

تأليه الإنسان في المسيح (الاتحاد بالله - الاشتراك في الطبيعة الإلهية):

هو المقابل لتأنس ابن الله

والميراث مع المسيح في الله

في الإنجيل

هو تقليد الكنيسة القديم

عند الآباء

وعند آباء آسيا هو غرض الخلاص

أثناسيوس وضع أساس هذه العقيدة، وبنى عليه القديس هيلاريون والقديس كيرلس

بلغت أقصى كمالها ونضجها عند القديس كيرلس الكبير

هو غاية الله من خلقة الإنسان

وتكميل لعمل الابن في الخليقة

والنتيجة المباشرة للتجسُّد

وغاية التجسُّد

وكمال الخلاص

تجسُّد الكلمة من العذراء كان بقصد اتحاد الله بالبشرية

قائم على أساس أن الكلمة أله الجسد الذي أخذ من العذراء

وبسبب صلتنا نحن بشريته
لذا فهو برهان لاهوت المسيح
ولاهوت الروح القدس
وبرهان أن الكلمة من جوهر الله
التأليه مستحيل بدون التجسد
كيف يتم؟

لا يتم خارجاً عن المسيح
بالإيمان والأسرار
وبالإفخارستيا (بالاشتراك في الجسد المؤلّه الذي للكلمة)
وفي المعمّدين
بالروح القدس
بالاشتراك في الروح القدس
الإيمان بالمسيح يؤهّل له
بسبب الروح القدس والكلمة اللذين فينا
والاعتراف بالتجسد يجعلنا نصير متحدّين بالمسيح
وبسبب الاتحاد بالله يصير المؤمن مؤلّهاً
لأن الشركة في الابن شركة في الله
“التقديس” يمهدّ للتأليه
هو عملية تتم على مستوى الفرد
ويمنح لنا بالنعمة
يستحيل بلوغ كمالها قبل أن يخلع الإنسان جسد الموت الفاسد
مفهومه انتساب الإنسان لله
وتكميل الأخلاق والسلوك والحب
الفرق الجوهرى بين اتحاد البشر بالله وبين اتحاد الابن بالآب

وما بعده
لا يُخرج الإنسان عن إنسانيته
ولا يتجاوز الفرقة الشاسعة بين الله والإنسان
جلوس المسيح عن يمين الله في الأعلى ضمان لتكميل الاتحاد بالله
يحفظ رباط الحب بين المؤمنين بعضهم لبعض
إنكار الاتحاد بالله (التأليه في المسيح) هو الحرمان من الله وهو جحود وعدم تقوى

الفساد وعدم الفساد:

وعد عدم الفساد أُعطي للإنسان منذ خلقته الأولى
بدون التجسُّد لصرنا في الفساد
وسيلة رفع الفساد: الموت
لا بد أن يُلعَى الفساد بدخول الحياة في الجسد
الابن غير القابل للفساد ألبس الجميع عدم الفساد بوعد القيامة
نتيجة غلبة الفساد

وما بعده

لا بد من بلوغ التبني لله لنغلب الموت والفساد
باتحادنا بالمسيح ندوم في عدم الفساد

التبني (بالنعمة):

هو المقصود أحياناً بالتأله والاتحاد بالله
ثمرة أساسية للتأله
في رسائل بولس الرسول
وفي عقيدة أثناسيوس

وما بعده

الإنسان الأول كان غير مؤهَّل للتبني بسبب طبيعته
كان في إرادة الله منذ البدء وقبل إنشاء العالم
ثمرة التجسُّد الإلهي
وبنوّة المسيح لله
مستحيل بلوغه بدون التجسُّد

التجسُّد والتبني:

أبوّة الله انتقلت إلينا بالتبني في المسيح، بالتجسُّد
ابن الله صار إنساناً، لكي يصير بني البشر أبناءً لله
هو وجود وسكنى دائمين للكلمة فينا
هو وجود وسكنى دائمين للروح القدس فينا
حينما نقبل الروح القدس نصير (ونحن خليقته) أبناءً بالروح
بدون هذه الشركة لا يمكن أن ندعى أولاد الله

بالمعمودية باسم الثالوث نصير أبناءً لله
الفرق بينه وبين بنوة الابن للآب:
ليس بالطبيعة بل بالنعمة (بسبب الابن الوحيد الذي فينا)
الفرق بين كوننا صرنا "أبناءً لله"، وبين بنوة الابن الوحيد للآب

وما بعده
كيف يشوّه الهراطقة ويشوشون على هذه العقيدة
ضرورة بلوغه لكي تغلب الموت والفساد
الأريوسية قضت على عقيدة تبني الإنسان

التقديس:

كيف نتقدّس في جسد المسيح
ننال بالاتحاد بالمسيح
الكلمة بقُدس الجميع بالروح القدس
كل مخلوق يشترك في كلمة الآب حينما يتقدّس بالروح
يتم بالافتداء به، ونصير به فضلاء
يُعطى في المعمودية باسم الآب والابن والروح القدس
يمهّد للتأليه في المسيح

النعمة:

(عقيدة النعمة عند أثناسيوس)
تتم بالابن في الروح القدس
هي حضور الابن في العالم
هي الشركة في الكلمة، أُعطيت للإنسان الأول
هي صورة الله في الإنسان
الوصية نفسها نعمة
توهب من خلال الابن
يمنحها الثالوث
يستحيل أن يعطيها الآب إلا "في الابن"

الرهبة (النسك، العبادة التقوية):

في الإسكندرية أساسها إنجيل يوحنا
ربطها بعقيدة الهوموؤوسيس
قيامها دليل إبطال ضلالات الشيطان

ودليل إبادة الموت

الاستشهاد:

برهان على إبادة الموت

المعمودية:

بها نقبل الحياة من المسيح

بها ننال التبني

؛ والتقديس

هي الولادة الثانية بنعمة الروح القدس

بها نشترك في سر الثالوث

بالمعمودية باسم الثالوث نكون أبناءً لله

الآب يعمّد والابن يعمّد والروح القدس يقدّس

باسم الثالوث

وهذا برهان لاهوت المسيح

باسم الثالوث

وهذا برهان لاهوت المسيح

واحدة لإله واحد، لا تتكرّر

الدعاء على المعمودية يكون ذا أثر فعّال بإيمان صحيح من المعمّد والمعمّد

في المعمّدين يكون مجال عمل الروح القدس إذ يوحدّهم بالله (التأليه في المسيح)

الروح القدس يُعطى للذين يولدون ثانية بغسل الميلاد الثاني

نعمة الروح القدس في المعمودية ستُرفع عن الأشرار في الدينونة

علامة الصليب:

به اندثرت العبادة الوثنية

بالتجسّد استُعلن كقوة خلاص الإنسان وفدائه من خداع الشياطين

به يفضح الإنسان ضلالة الشياطين

ويطهّر المعذبين بالشياطين

الشيطان، والشياطين:

ضلالتهم كانت معوقاً للخلاص
البشارة بالمسيح غابت ضلالة الشياطين
تطهير النفوس منهم يتم بصليب المسيح
إخراج الشياطين يحتاج إلى قوة الروح
قيام أنظمة الرهينة دليل على إبطال ضلالات الشيطان بالتجسّد
في سيرة القديس أنطونيوس
نسبة أعمال الله إلى الشيطان، هي التجديف على الروح القدس

الخطيئة:

علاقة الخطيئة بالخلاص - في لاهوت أثناسيوس
هي سبب الموت

حجبت عن الإنسان معرفة الله

الفداء عنها بالتجسّد
لأبد أن تُرفع للحصول على التبني
أنقذنا منها بحلول المسيح في وسطنا

التعبيرات اللاهوتية

التعبيرات اللاتينية		التعبيرات اليونانية	
رقم الصفحة	التعبير اللاتيني	رقم الصفحة	التعبير اليوناني
	Essentia		غير مخلوق
	Natura		غير مولود
	Substantia		غير مخلوق
			أبوّة
			مخلوق
			بنوّة
			إله متأنّس
			مولود
			أقنوم - هيئة
			صورة
			وحدة لا تتجزأ ولا تنقسم
			وحيد الجنس
			مساوي في الجوهر
			جوهر - الكيان الذاتي
			شخص
			البكر
			أقنوم
			جسد (مرادف لإنسان)

sʕrx	جسد (مرادف لإنسان)
pojʔr	هياة
sijʕf	طبيعة

ثانياً: اللاتينية:

Essentia	جوهر
Natura	طبيعة
Substantia	جوهر

الخرائط

خريطة 201

(حدود الإمبراطورية الرومانية وولايتها في القرن الرابع)

الاسم القديم	الاسم والموقع الحالي
تريفيري	تريف في بلجيكا
فالنتيا	فالنس في فرنسا
آرل	آرل في مقاطعة Bouches du Rhône
نيسس	نيس في يوجوسلافيا
سرديقا	صوفيا عاصمة بلغاريا
أدريانوبوليس (أدريانوبل)	أدرنة في تركيا الأوروبية
قيصرية الجديدة (آسيا)	نكسار في شمال تركيا
غانغرا	كانكريري في تركيا
نيقوميديا	إزميد في تركيا
أميدا	ديار بكر على نهر الفرات جنوب شرق تركيا
أنقرا	أنقرة عاصمة تركيا
الرها	عرفة في شمال العراق
أنطاكية	الأنطاكية على نهر أورنتوس شمال سوريا
سلوكية	سيلفي - جنوب غرب تركيا
لاودكية (آسيا)	سكيحصار جنوب غرب تركيا
فلادلفيا (آسيا)	الأصاير غرب تركيا
أفسس	آية سلوق غرب تركيا
نيقية	إزنيق شمال تركيا
سيرميوم	سريمسكا متروفيكا في يوغسلافيا

خريطة 3

(حدود الكنائس الشرقية)

إقليم ليبيا السفلي (شرق ليبيا)	مارماريكا
إقليم ليبيا العليا (غرب ليبيا)	كيرانايكا
بُصْرَة في حوران شرق الأردن	بوسطرة
منبج في شمال سوريا	هيرابوليس
سيفاس في أرمينيا التركية	سبسطية
عماسيا في تركيا	أماسيا
بيت أولج (أو "موناستير") في تركيا	هيراكليا
الأوروبية	
قونية في تركيا	أيقونية
دمري على ساحل تركيا الجنوبي	ميرا

خريطة 4

(ولايات إفريقيا وإبارشياتها في القرن الرابع)

ولايات: بروكونصولاريس - بيزاسينا -

نوميديا

كنائس أفريقية:

هادروميتام

قرطاجنة

سوس في تونس

آثارها قرب مدينة القيروان في

تونس

هبشير الثوار - تونس

الكف (بين تونس والجزائر)

آثارها بجوار بونا على ساحل

الجزائر

أبتونجا

سيكا - فينريا

هيبو

مدينة سوق أهراس في الجزائر

مدينة قسنطينية في الجزائر

مدينة ميلاً في الجزائر

تاغسطا

سيرتا

ميليو

خريطة رقم 5 بلاد آسيا الصغرى

- نيقوميديا:** اسمها الحالي: "أزميد" عاصمة بيثينية
- القسطنطينية:** بيزنطة سابقاً - اسمها الحالي "اسنطبول" - عُقد فيها المجمع المسكوني الثاني عام 381
- نيقية:** اسمها الحالي "أزنيق" - في بيثنية - عُقد بها المجمع المسكوني الأول عام 325
- أنقرة:** عاصمة غلاطية - عُقد بها مجمع مكاني عام 314 و358 للنصف أريوسي برئاسة أسقفها باسيليوس
- غلاطية:** مقاطعة في آسيا الصغرى وهي الآن جزء من تركيا. أرسل القديس بولس لأهلها المؤمنين رسالة حوالي عام 52
- برجاموم:** اسمها الحالي "برجاما"، غرب تركيا في مقاطعة آسيا. ذُكرت في سفر الرؤيا 11:1، 12:2-17 كانت مدينة هامة ومركزاً للحكم الروماني
- ثياتيرا:** اسمها الحالي "أخيسار" وبها عدد قليل من المسيحيين - ذُكرت في سفر الرؤيا 11:1، 18:2-19 أسقفها "سوزون" اشترك في مجمع نيقية عام 325م.
- سميرنا:** "أزمير" في تركيا الآن، ميناء في غرب تركيا. دخل إليها الإنجيل مبكراً. كانت لها رسالة في سفر الرؤيا 2:8-11. من مشاهير أساقفتها القديس بوليكاربوس الذي كان أحد تلاميذ يوحنا الرسول
- ساردس:** إحدى المدن السبع في آسيا التي وجّه الله لها رسالة في سفر الرؤيا 1:3-6.
- فيلاذلفيا:** الآن "الأصاهير" في غرب تركيا. وهي إحدى المدن السبع المذكورة في سفر الرؤيا 3:7. مقاطعة رومانية في آسيا. تعرّضت في القرن الرابع عشر لحصار شديد من جانب الأتراك.
- أفسس:** هي الآن عبارة عن حطام مباني في تركيا. كانت أيام بولس الرسول ميناءً هاماً حيث سكنها الرسول العظيم لمدة سنتين أو ثلاثة قام فيها بعمله التبشيري. هناك تقليد بأن القديس يوحنا الرسول سكن فيها إبان أواخر حياته. وفيها منزل أثري للقديسة العذراء مريم. بجانب المسرح مازالت آثار بقايا الكنيسة التي عقد فيها مجمع أفسس المسكوني عام 431م.
- ترالوس:** "أيدين" الآن، على نهر مايندر في غرب تركيا. كان لها أسقف في القرن الثاني اسمه "بوليبوس". أرسل لها القديس أغناطيوس الأنطاكي رسالة.

هيرابوليس الآن «كوماناكروسو» في أرمينيا.

:

أباميا: “دينر” الآن.

لاودكية: هي الآن يورغان لايك في تركيا. ذُكرت في سفر الرؤيا 3:14-22. كُتِبَ إلى الكنيسة فيها الرسول بولس رسالة ذُكر عنها في كولوسي 4:16 (قد تكون هي نفسها رسالة أفسس أو تكلمة لها). وظلَّت مركزاً أسقفياً هاماً لعدة قرون. وهذه المدينة غير مدينة لاودكية (اللاذقية) الواقعة على شواطئ سوريا. وهي مقر أبوليناريوس الهرطوقي. ينسب إلى هذه المدينة قوانين مجمع غير معروف عُقد فيها في القرن الرابع.

مغنيسيا: ماينزا على الساحل الغربي لتركيا. كتب إلى كنيستها القديس إغناطيوس الأنطاكي إحدى رسائله. كان بها أسقف اسمه “داماسوس”.

كولوسي: في فريجية (وسط تركيا). بشرها بولس الرسول وأرسل للمؤمنين بها رسالة عام 61م.

ميليتس: كانت مدينة هامة على الساحل الغربي لآسيا الصغرى (تركيا). زارها القديس بولس الرسول (أع 15:20).

بامفيليا: منطقة على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى. من مدنها الرئيسية برجة (أع 13:13).

رودس: مرَّ عليها القديس بولس الرسول في رحلته الأخيرة إلى أورشليم (أع 1:21).

ميرا: الآن “ديمري” ميناء في تركيا جنوب غرب آسيا الصغرى. عندها نزل القديس بولس الرسول في رحلته الأخيرة إلى أورشليم (أع 1:21).

قبرص: كان يمثلها في مجمع نيقية ثلاثة أساقفة من بينهم القديس أسبريدون. اشتهر بعد ذلك من أساقفتها المؤرِّخ إبيفانيوس (تتَّيَّح سنة 403م).

خريطة رقم 6

أسقفيات إيطاليا في نهاية القرن الرابع

تورين، بافيا، ميلان، ترنت، أكويلا، تريستا،
رافنا، جنوا، روما، أوستيا، نولا، نابولي،

خريطة رقم 7
أسقفيات بلاد الغال وجنوب ألمانيا
(في القرن الرابع)

كالونيا، تريفييري، أورليانز، تور، بواتيه، كليرمون، ليون، جنيفا، آرل، بزييه،
تولوز، مارسيليا

خريطة رقم 8
المجامع المكانية والمسكونية

- نيقية:** مجمع مسكوني في سنة 325م، حضره 318 أسقفاً من جميع أنحاء العالم،
حُكم فيه على أريوس وأتباعه بالحرم، برز فيه أثناسيوس شماس البابا
ألكسندروس بدفاعه المجيد عن الإيمان. وحضره الإمبراطور قسطنطين.
- قيصرية:** مجمع في سنة 334م، عُقد بقصد محاكمة أثناسيوس تحت تأثير يوسابيوس
النيقوميدي أكبر أنصار أريوس. أثناسيوس رفض الحضور.
- صور وأورشليم:** مجمع في سنة 335م، قرّر قبول أريوس والأريوسيين في الكنيسة ثانية،
أثناسيوس يترك المجمع محتجاً ويتوجّه إلى قسطنطين. اليوسابيون يوقّعون
عليه الحرّم، والإمبراطور ينفيه إلى تريفييري.
- القسطنطينية:** مجمع في سنة 336م، يعقده الأريوسيون لتثبيت قبول أريوس وولاتهام
مارسيلوس بالسابلانية.
- الإسكندرية:** مجمع في سنة 338م، يعقده أساقفة مصر بعد عودة أثناسيوس من المنفى.
مجمع المعترفين في سنة 362م، عُقد في صيف هذه السنة بعد عودة
أثناسيوس إلى كرسيه.
- أنطاكية:** مجمع في سنة 339م، يعقده الأريوسيون لتعيين غريغوريوس الأسقف
الأريوسي على الإسكندرية.
هرب أثناسيوس إلى روما.
- مجمع التدشين في 341م، تورط في الأريوسية بالقوانين التي أصدرها.

مجمع في سنة 344م، يعقده اليوسابيون، يحكم على الأسقف استفانوس ويعيّن ليونتيوس أسقفاً على أنطاكية، ويصدر الماكروستخ (القرار المطوّل). مجمع في سنة 364م، عُقد في عهد الإمبراطور فالنتينيان. مجمع في سنة 343م، عُقد بناء على طلب الإمبراطور قسطنس الأرثوذكسي من أجل مصالحة الكنائس.

سارديكا:

مجمع في سنة 343م، تورط في الأريوسية بالقوانين التي أصدرها. مجمع في سنة 345م، ضد فونتينوس، وتورط في الأريوسية بالقوانين التي أصدرها.

فيليبوبوليس:

ميلان:

مجمع في سنة 355م، عقد اليوسابيون ضد أثناسيوس. مجمع أول في سنة 347م، ضد فونتينوس أيضاً، وتورط الأريوسية بالقوانين التي أصدرها.

سيرميوم:

مجمع ثانٍ في سنة 351م، يحرم فونتينوس، ويصدر قانون سيرميوم الأول (وهو قانون نصف أريوسي) ويوقّع عليه ليبيريوس بابا روما ويستدنب أثناسيوس.

مجمع ثالث في سنة 357م، عقده الأريوسيون لحرم أثناسيوس، وقّع عليه ليبيريوس أسقف روما وهوسيوس أسقف قرطاجنة ولكنه يرفض التوقيع على حرم أثناسيوس.

مجمع رابع في سنة 359م، عقده اليوسابيون ضد أثناسيوس.

مجمع في سنة 353م، عقده اليوسابيون ضد أثناسيوس.

مجمع في سنة 358م، من أنصاف الأريوسيين، وقّع عليه ليبيريوس، وطرده جورجيس من الإسكندرية.

آرل:

أنقرة:

مجمع في سنة 359م، من الهوموؤوسيين وأنصاف الأريوسيين.

أيمينم

وسلوكنيا:

مجمع في سنة 363م، من أنصاف الأريوسيين في عهد الإمبراطور جوفيان.

لاودكية:

مجمع في سنة 366م، عقده أنصاف الأريوسيين.

لامبساكوس

مجمع في سنة 370م، عقده أنصاف الأريوسيين.

تيانا:

مجمع مسكوني في سنة 341م، لمناقشة البدعة النسطورية - حضره البابا كيرلس الكبير و200 أسقف.

أفسس:

خريطة رقم 9

خريطة الإسكندرية القديمة راكوتي أو راكودة (المواقع القديمة وتوقيعها على أماكنها الحالية)

- 1 - كنيسة البابا ثيوناس:
مسجد مهذّم يسمّى مسجد الألف والواحد عمود
(منطقة الجمرك حالياً).
 - 2 - كنيسة يوحنا المعمدان:
مكان السيرابيوم حيث يوجد الآن عمود بومبي،
المشهور باسم: عمود السواري.
 - 3 - كنيسة البابا ديونيسيوس الكبير:
المنطقة المحصورة ما بين شارع النبي دانيال
والمنشئية، بالقرب من الكورنيش.
 - 4 - الكاتدرائية:
موضعها الحالي (محطة الرمل).
 - 5 - تترابليون tetrapylon:
(أي ذو الأربعة مداخل) مبنى بدون أبواب، كان
يُقام عند التقاء الشوارع الرئيسية في المدن أو في
مخارجها. وكان ملتقى الطريقين الرئيسيين في
الإسكندرية: طريق كانوب وطريق الميناء.
وموضعه الحالي: تقاطع شارعي الحرية والنبي
دانيال.
 - 6 - معبد ساتورن (زحل):
تحول إلى كنيسة الملاك ميخائيل، في عهد البابا
ألسكندروس البطريك الـ 19. وهو موضع
البلدية حالياً.
 - 7 - كنيسة الملاك ميخائيل:
بمنطقة الشاطبي الآن.
 - 8 - بازيليكا مار مرقس:
كلية سانت مارك بالشاطبي حالياً.
 - 9 و10 - كنيسة القديسة العذراء مريم وكنيسة
القديس ميتر:
بمنطقة الشاطبي الآن.
 - 11 - (أ) السلسلة
(ب) محطة الرمل
(ج) كوم الدكة
- 12 - كنيسة القديس أثناسيوس:
جامع بمنطقة الرمل حالياً (عن خريطة محمود
الفلكي - 1866).
- الفنار = فاروس = قايتباي حالياً.
هيكل إزييس = غارق بالقرب من حي "السلسلة".
جزيرة فاروس = المنطقة الممتدة من قايتباي حتى
قصر رأس التين.
الميناء الرئيسي = الميناء الشرقي حالياً.
قصور ملكية وحدائق = حي القصور الملكية
(السلسلة، محطة الرمل).
يقصد بكلمة نيكروبوليس poliznekr، عادة الجبانة
القديمة للإسكندرية القديمة.
السوق: محطة الرمل.
الحي اليهودي: الشاطبي.
قصر هادريان: بمنطقة محطة الرمل.
طريق كانوب: طريق الحرية حالياً (طريق أبو قير =
شارع جمال عبد الناصر).
القناة: اختفت.
سراديب كوم الشقافة = مقابر كوم الشقافة.
غرب المدافن والسراديب: كرموز.

خريطة رقم 10
مصر في القرن الرابع والخامس
أقسامها الإدارية - أهم الجماعات الرهبانية

(a): مصر الأولى (Aegyptus I) تشمل الصحراء الغربية المتاخمة لغرب الدلتا - محافظة البحيرة والأجزاء الغربية من محافظات كفر الشيخ والغربية والمنوفية - براري شيهيت والقلالي وونتريا.

الموقع الحالي	الإبارشية	
ضاحية أبوقير.	Bucolia	بوكليا
قرية نيشو على مسافة 25 كم من الإسكندرية على الطريق الزراعي إلى القاهرة.	Schedia	شيديا
بين المحمودية ودمنهور؟ (عاصمة لإحدى الولايات القديمة بالدلتا Lychni).	Onuphis	أونوفيس
مدينة دمنهور.	Hermopolis Parva	هرمبوليس بارفا
كوم النقراش مركز إيتاي البارود.	Naucratis	نوقراطيس
مركز كفر الزيات (٤).	Andropolis	أندروبوليس
صا الحجر مركز كفر الزيات.	Saïs	سايس
مدينة طنطا (٤).	Tana	تانا
مركز كوم حمادة (٤).	Menuphis	مينوفيس
زاوية رزين منوفية.	Nikiopolis	نقيوس
ترنوط: إتريس.	Terennutis	ترينوتس
مركز منوف (٤).	Prosopolis	بروسوبوليس
أوسيم مركز إمبابة.	Hetopolis	أيتوبوليس

(b): مصر الثانية (Aegyptus II): وتشمل الأجزاء الشمالية الغربية من محافظة دمياط وباقي شمال الدلتا حتى فرع دمياط شرقاً.

الموقع الحالي	الإبارشية	
قرية البرأس مركز بلطيم.	Paralus	بارالوس
على شواطئ بحيرة البرأس.	Phtenegys	فتينيجيس
تل الفراعنة (أو تل الفراعين) مركز دسوق.	Buto	بوتو
مدينة فوة.	Metelis	ميتليس

الموقع الحالي	الإيبارشية	
(وكانت مقرًا لمطرائية) القصابي مركز فوة (؟).	Cabasa	كاباسا
سحا مركز كفر الشيخ.	Xaïs	خابيس
بوصيربنا مركز سمود.	Busiris	بوسيريس
سنباط (؟) مركز زفتى.	Cynopolis	سينوبوليس
مدينة سمود.	Sebennytis	سبنتيس

(g): أوغسطاميكما الأولى (I) Augustamica: وتشمل الأجزاء الشرقية من الدلتا في محافظات الشرقية والدقهلية ومدن السويس والإسماعيلية وبورسعيد حتى حدود مصر الشرقية التي كانت عند العريش وقتئذ.

الموقع الحالي	الإيبارشية	
مدينة فاقوس.	Phacusa	فاكوس
صان الحجر على بحيرة المنزلة، وهي تحفحيس التي وردت في الكتاب المقدس (إر 16:2، 7:43، حز 18:30 ... إلخ).	Tannis	تنيس
الفرما قديماً وهي شرقي بورفؤاد وكانت مقرًا لمطرائية تسمى الآن بالوظا.	Pelusium	بلزيوم
(؟) قرية قاطية على الشاطئ الجنوبي لبحيرة البردويل بين بورفؤاد والعريش.	Casium	كازيوم
(؟) قرية مزار على الشاطئ الجنوبي لبحيرة البردويل بين بورفؤاد والعريش.	Ostrakin	أوستراكن
مدينة العريش وكانت محاطة بمجامع رهبانية.	Rhinocolora	رينوكولورا
تل دفني على مسافة 10 كم شمال غرب مدينة القنطرة.	Daphnae	دافني
القنطرة (؟).	Sele	سيل
على شواطئ بحيرة المنزلة.	Heracegeopolis Parva	هيراكليوبوليس بارفا

(D): أوغسطاميكما الثانية (II) Augustamica: وتتحصر بين أوغسطاميكما الأولى شرقاً وبفرع دمياط غرباً وتقع فيها أغلبية محافظات الدقهلية والشرقية ودمياط.

الموقع الحالي	الإيبارشية	
مدينة دمياط.	Thamiates	دامياتس
قرية تمي الأمديد مركز السنبلوين.	Thmui	تمويه

الموقع الحالي	الإيبارشية	
قرية حوربيت مركز أبو كبير.	Pharbetus	فاربيتوس
قرية صهرجت مركز ميت غمر، وكانت مقرًا للمطرانية.	Leontopolis	ليونتوبوليس
تل بسطة بجوار مدينة الزقازيق.	Bubastis	بوباستس
تل أتريب شرقي مدينة بنها.	Attrbis	أتريبس
ضاحية عين شمس شمال مدينة القاهرة.	Heliopolis	هليوبوليس
مصر القديمة وكانت غنية بالأديرة والرهبان.	Babylon	بابلون
شمالي مدينة السويس الحالية.	Klysm	القلزم

(e): أركاديا Arcadia: وهي مصر الوسطى وتشمل محافظات الجيزة وبني سويف والفيوم والجزء الشمالي من محافظة المنيا. وكانت عاصمتها الإدارية أكسيرنخوس (البهنسا).

الموقع الحالي	الإيبارشية	
قرية ميت رهينة (سقارة) وكانت مركزاً لمجامع رهبانية وأديرة أهمها: دير أنبا إرميا المعروف برسوماته الحائطية (فرسكات).	Memphis	منفيس
قرية أطفح مركز الصف، وكانت تشتهر بأديرة القديس أنطونيوس قرب البحر الأحمر وفي بسبير (دير الميمون حالياً شرق النيل).	Aphroditopolis	أفروديتوبوليس
قرية دالاص بين محافظتي بني سويف والفيوم.	Nilopolis	نيلوبوليس
مدينة الفيوم.	Arsinoë	أرسينو
(؟) قرية أهرت مركز أبشواي بالفيوم.	Philadelphia	فيلادلفيا
أهناسية المدينة محافظة بني سويف.	Heracleopolis Magna	هيراكليوبوليس ماجنا
قرية الحيبة شرق النيل - مركز الفشن.	Kynopolis Superior	كينوبوليس العليا
(؟) شرق النيل أمام بني مزار.	Mussae	موسى
قرية البهنسا، وكانت مقرًا لمطرانية ويتبعها أديرة كثيرة.	Oxyrhynchus	أكسيرنخوس

(G): طيبة الأولى (Thebaïs I): وتشمل جنوب محافظة المنيا وأسيوط حتى أخميم في محافظة سوهاج، وعاصمتها الإدارية أنتنويه (أنصنا).

الموقع الحالي	الإيبارشية	
الأشمونين، كانت مقرًا للمطرانية.	Hermopolis Magna	هرموبوليس ماجنا
الشيخ عبادة مقابل مدينة ملوي، وهي غنية بالأديرة.	Antinoë	أنتنويه

الإيبارشية	الموقع الحالي
كوزيه	Cusae مدينة القوصية.
ليكوبوليس	Lycopolis مدينة أسيوط.
هبسيل	Hyspele دير ريفا بجوار درنكة محافظة أسيوط.
أفروديتوبوليس	Aphroditopolis مركز طهطا (؟).
أسبيس	Hispsis مركز طهطا (؟).
أنتيوبوليس	Antaeopolis وكانت معروفة قديماً باسم "دي كاو" وموضعها قرية قاو الكبير شرق النيل مركز ساقلته.
بانوبوليس	Panopolis مدينة أخميم وجوارها أديرة كثيرة.

(z): طيبة الثانية (Thebaïs II): تمتد من جنوب أخميم حتى حدود النوبة.

الإيبارشية	الموقع الحالي
بتولومايس	Ptolomaïs المنشأة محافظة سوهاج، منطقة أديرة أشهرها الدير الأبيض والدير الأحمر.
ثنيس	Thynis البريا مركز البلينا.
ديوسبوليس بارفا	Diospolis Parva قرية هو مركز نجع حمادي
تنتيرا	Tentyra دندرة - أسقفية قديمة مشهورة وتحيط بها أديرة كثيرة.
قبطس	Coptus مدينة قفط وترجع شهرتها إلى أنبا بسنتي رئيس أديرتها الذي صار أسقفاً للمدينة في القرن السابع
أبوللينوبوليس بارفا	Apollinopolis Parva مدينة قوص محافظة قنا (ذكر أنها قرية قسقام (دير المحرق) راجع كتاب: Churches & Monasteries in Egypt, p. 225
مكسيميانوبوليس	Maximianopolis مدينة الأقصر - طيبة
تو	Tooû قرية طو شرق النيل تابعة لمركز إسنا
هرمونثيس	Hermonthis مدينة أرمنت
لاتوبوليس	Latopolis مدينة إسنا - يجاورها عدد كبير من الأديرة
أبوللينوبوليس ماجنا	Apollinopolis Magna مدينة إدفو
أمبوس	Ombus مدينة كوم أمبو
سيين	Syene مدينة أسوان

(z): أسقفيات أخرى تابعة لبطريركية الإسكندرية

الموقع الحالي	الإيبارشية	
العلمين محافظة مطروح	Antiphrae	أنثيفري
سيدي حنّيش عند مفترق الطريق الموصّل إلى منخفض القطارة	Zygris	زيجرس
مدينة مرسى مطروح	Paraetorium	باريتوريوم
برقة في البلاد الليبية	Barca	بركا
الخمس مدن في البلاد الليبية	Pentapolis	بنتابوليس

وبخلاف الإيبارشيات الواقعة على الساحل الشمالي بين الإسكندرية وليبيا (وليبيا انضمت للبلاد المصرية في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير سنة 381م) كانت هناك أسقفيات في الواحات الخارجة والبعوات (الصحراء الليبية) ومجامع رهبانية. ثم أسقفيات بلاد النوبة ومملكة أكسيوم (أثيوبيا) وأريتريا.

خريطة رقم 15

أديرة الشرق في القرن الرابع

مصر مهد الرهينة:

+ أديرة بسبير: أسَّسها أنبا أنطونيوس الكبير سنة 285م (†356)، وكان يعيش وقتها في مغارة بالقرب من الدير ومعروف أن البابا أثناسيوس كان يتردّد عليه كثيراً ويصب ماءً على يديه.

+ أديرة بافو وباقي الأديرة التي أسَّسها أنبا باخوميوس سنة 318م (†348). وقد زارها البابا وطبانيس: أثناسيوس سنة 363م. ومن مشاهير الآباء فيها أنبا تادرس وأنبا بترونيوس، وأنبا أوراسيوس، وأنبا آمون وغيرهم كثيرون.

+ رهينة نتريا: أسَّسها أنبا آمون سنة 320-330م، وكان على علاقة وثيقة بالأنبا أنطونيوس.

+ رهينة الإسقيط: أسَّسها أنبا مقاريوس الكبير سنة 340م (†390) وقد زار أنبا أنطونيوس مرتين. واشتهر من آباء الإسقيط أنبا مقاريوس الإسكندري، وأنبا بيمين، وأنبا بامو، وأنبا إيسيدوروس، وأنبا موسى الأسود، وغيرهم كثيرون. ولكن لم يجيء في سيرة البابا أثناسيوس أنه زار الإسقيط.

+ بانفيسيس: جماعة رهبانية مقبلة من الإسقيط ونتريا.

+ كليزما: جماعة رهبانية من الإسقيط ونتريا.

أديرة فلسطين:

+ بيت لحم: جماعة رهبانية أسَّسها القديس جيروم سنة 386-420م على غرار نظام الرهينة المصرية.

سكيتوبوليس جماعة رهبانية أسَّسها هيلاريون وشاريتون ويوثيميوس على غرار نظام الرهينة المصرية.

خالكي جماعة رهبانية أسَّسها القديس جيروم على نظام الرهينة المصرية.

أديرة العراق:

نصيبين والرها: جماعة رهبانية أسَّسها مار أوجين سنة 325م متبّعاً نظام الرهينة المصرية.

أديرة آسيا

الصغرى:

قيصرية الكبادوك: جماعة رهبانية أسَّسها القديس باسيليوس الكبير أسقف قيصرية الكبادوك سنة 390م، متبّعاً نظام الرهينة القبطية. وقد وضع لهم قوانينه النسكية المعروفة.

خلفيدون جماعة رهبانية أسَّسها الإخوة الطوال القادمون من نتريا سنة 410م.

والقسطنطية:

أنابلوس: جماعة رهبانية نابعة من رهينة باسيليوس الكبير تتبع نظام الرهينة المصرية.

خريطة رقم 16

أديرة الغرب في القرن الرابع أهم مراكز انتشار الرهبنة المصرية في الغرب

- ♦ **تريفري** Trêves = Treveri وقد صارت من أهم مراكز انتشار الرهبنة المصرية في الغرب منذ نفي أثناسيوس سنة 340م.
- ♦ **فرسللي** Vercelli وقد تأسست بها جماعة رهبانية على النظام المصري بقيادة الأسقف يوسابيوس سنة 360. ومعروف أن هذا الأسقف (يوسابيوس فرسللي) من أكثر أساقفة الغرب الذين تأثروا بأثناسيوس.
- ♦ **ليجوجي** Ligugé أسس بها القديس مارتينوس ديراً على النظام المصري سنة 360م.
- ♦ **مارسيليا** Merseilles أسس بها كاسيان ديرين على النظام المصري سنة 415. ومعروف أن كاسيان زار الأسقيط وسجل أخبار الرهبان المصريين في كتابين: "المناظرات الروحية" و"الأنظمة الرهبانية".
- ♦ **ليرانس** Lerins وقد تأسست بها سنة 410 حياة رهبانية على النظام المصري بقيادة القديس هونوراتس.
- ♦ **آزان** Asan ودوميو Dumio وتعتبر من أهم مراكز انتشار النظام الرهباني المصري بأسبانيا.
- ♦ **روما** تعتبر أهم مركز لانتشار الرهبنة المصرية في إيطاليا بسبب نفي أثناسيوس بها سنة 340 إلى 344 ثم إرساله كتاب "حياة أنطونيوس" إلى رهبانها.
- ♦ **أكويليا** Aquileia مسقط رأس روفينوس وقد تأسست بها رهبنة على النظام المصري ومعروف أن روفينوس زار الإسقيط وكتب "تاريخ رهبان مصر".
- ♦ **إيمونا** Emona وقد أسس بها روفينوس أيضاً ديراً على النظام المصري سنة 376 وقد ذكر جيروم ذلك (رسالة 12:11).

أديرة أخرى غربية على النظام المصري

- ♦ **ميلانو** Milano = Mediolanum أسس بها القديس أمبروسيوس سنة 380 ديراً على النظام المصري.
- ♦ **روان** Rouen = Rotomagus جمع فيها الأسقف فيتريسيوس في القرن الرابع كهنة يعيشون حياة شركة رهبانية متأثرة بالأنظمة الشرقية.
- ♦ **مارموتيه** Marmoutier وبها أسس القديس مارتان أسقف تور سنة 372 شركة رهبانية لكنة إيبارشية.
- ♦ **نولا** Nola بجوار مدينة نابولي بجنوب إيطاليا وبها أسس أيضاً الأسقف بولينوس سنة 394 جماعة رهبانية على النظام المصري.
- ♦ **تاغستا** Thagaste أسس فيها القديس أغسطينوس ديراً على النظام المصري سنة 388.

- ومعروف أن أغسطينوس أكثر الذين تأثروا بكتاب “حياة أنطونيوس” بقلم أثناسيوس.
- **هيبو Hippo** لما صار أغسطينوس كاهناً في مدينة أسس بها سنة 390 جماعة رهبانية على النظام المصري.
- **قرطاجنة** والبلاد المحيطة بها (شمال أفريقيا) تأسست بها أكثر من 25 جماعة رهبانية على النظام المصري في بلاد مختلفة من شمال إفريقيا وكان لأغسطينوس الأثر الأكبر في انتشار الرهينة في هذه البلاد.
- **فيفاريوم Vivarium** بجنوب إيطاليا وقد تأسس بها دير سنة 540 على يد كاسيودورس.
- **آرل Arles** بجنوب فرنسا وقد تأسس بها دير سنة 542 على يد قيصر يوس أسقف آل.

أديرة غربية أخرى نشأت قبل القرن السابع الميلادي

- **أديرة على النظام السلتكي Celtic، وأهمها:**
 - كائديداكازا Candida Casa (تأسس ما بين 360 و432م)
 - كلونفرت Clonfert (تأسس حوالي 482)
 - لوكسوفيوم Luxovium (سنة 610)
 - لندسفارن Lindisfarne (سنة 635)
 - سان جال St. Gall (سنة 612)
 - بوبيو Bobbio (سنة 615)
- **أديرة على النظام البندكتي، وأهمها:**
 - سوبياكو Subiaco (تأسس سنة 500م بواسطة بندكتوس)
 - مونتي كاسينو Monte Cassino (سنة 529 بواسطة بندكتوس)
 - روما (تأسس سنة 570 بواسطة غريغوريوس الكبير)
 - كانتربري Canterbury (سنة 596)
 - يورك York (تأسس ما بين 514-603م)

نهاية كتاب القديس أثناسيوس